محاضرات (٢/ ٢٩)

ضرورة
التفقه في الدين

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بعث محمدا الهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله ولو كره المشركون.

أحمده سبحانه خير حمد وأوفاه.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له.

وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله وصفيه وخليله، نشهد أنه بلغ الرسالة وأدىٰ الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق الجهاد، اللّٰهمَّ صلّ وسلم علىٰ عبدك ورسولك محمد، كلما صلىٰ عليه المصلّون وكلما غفل عن الصلاة عليه الغافلون، وسلم اللّٰهمَّ تسليما مزيدا.

أما بعد..

فأسأل الله جل وعلا أن يجعلني وإياكم ممن إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر وإذا أذنب استغفر.

كما أسأله سبحانه أن يمنحني وإياكم الفقه في دينه والصبر علىٰ ذلك، وأن ينور قلوبنا بكتابه وسنة نبيه ﷺ ، وأن لا يحجب ذلك بذنوبنا إنه سبحانه سميع قريب.

أيها الإخوة لاشك أن إنزال هذا الدين علىٰ محمد بن عبد الله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ أمر جلل عظيم كما قال جل وعلا: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾[ص]، وقال سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾[النبأ]، فالقرآن نبأ عظيم، ودين الإسلام نبأ عظيم، وبعثة محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ نبأ عظيم.

ولهذا وجب علىٰ الجميع من العقلاء وذوي الألباب الذين يعلمون ما يُصلحهم في دنياهم وفي آخرتهم أن يرفعوا رأسا بهذا الدين، وأن يُقْبِلوا عليه كما أقبل عليه الرعيل الأول من صحب رسول الله ﷺ الذين وصفهم الله جل وعلا في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾[الفتح:٢٩] الآية.

والرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ أُمِروا فأتمروا، ونُهُوا فانتهوا، وعمرت قلوبهم بالإيمان، وعمرت نفوسهم بتوحيد الله جل وعلا وبالإقبال علىٰ القرآن والفقه فيه.

لهذا حفظ هذا الدين بنقل العدول عن العدول عن العدول إلىٰ صحابة رسول الله ﷺ ، فالعلم هو

الذي أَوْرَثَنَاه محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ، ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»، وقال أيضا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**مثل ما بعثني به الله من العلم والهدىٰ كمثل الغيث الكثير أصاب أراضا**» الحديث الذي في الصحيحين.

فإذن كوننا علىٰ ميراث من دين الإسلام ليس هذا أمرا هينا وليس هذا بالأمر السهل؛ بل هذا أمر عظيم وإنما يتفطن لعظمته أولوا الألباب وأولوا العقول، وهٰذا الدين أوجب الله جل وعلا علىٰ عباده أن يتعلموه فقال سبحانه ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾[محمد:١٩]، وقال جل وعلا: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾ [التوبة].

ولا شك أن بقاء الدين عزيزا إنما يكون ببقاء العلم وببقاء العلماء، لهذا صح عنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ كما في البخاري وغيره أنه قال: «**إن الله لا ينزع العلم انتزاعا** -وفي رواية قال: **لا يقبض العلم انتزاعا- ينتزعه من صدور العلماء لكن يقبض العلم بموت العلماء حتىٰ إذا لم يبقَ عالم** -وهي أصح من لم يُبق عالما- **اتخذ ناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**» لم يُحفظ هٰذا الدين إلا بتوفيق الله جل وعلا ورحمته ومنته ونعمته بسبب جهاد الصحابة رضوان الله عليهم في امتثال العلم الذي ورثه إياه النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ.

لهذا كان من أعظم الجهاد؛ بل هو أعظم أنواع الجهاد، الجهاد في التفقه في الدين والتعلم، ولهذا جاء ابن عباس رجل فقال له يا ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فقال له: يا ابن عباس إني أريد الجهاد في سبيل الله. فقال له: ابْنِ مسجدا وتعلم العلم وعلم فيه الفرائض والسنن، فذاك أفضل.

ولهذا ذهب جمهور العلماء إلىٰ أن طلب العلم وطلب الفقه في الدين أفضل من جهاد التطوع الذي لم يتعيّن علىٰ المسلم، وذلك لأن حفظ الدين يكون بوسيلتين:

يكون حفظ الدين برد أعدائه الذين يقاتلون بأنفسهم.

ويكون حفظ الدين برد كيد الأعداء والشيطان والنفس بانتزاع العلم من الناس؛ لأنه إذا نزع العلم فاض الجهل وجاءت الضلالات بأنواعها.

موضوع هذه المحاضرة:

ضرورة التفقه في الدين

والدين ليس هو مخصوصا بالحلال والحرام، ولذلك التفقه في الدين لا يعني العلم بالفقه فقط وإنما هو يعني التفقه وهو التفهم والإدراك والتعلم لدين الله جل وعلا الذي أنزله علىٰ محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وهٰذا الدين له علوم متنوعة قسمها العلماء مع دخولها في علم الدين وعلم الفقه قسمها العلماء لأجل تنويع الطلب وتيسير الطلب علىٰ الناس.

لكن في الحقيقة في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران:١٩]، وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾[التوبة:١٢٢] هذا يشمل جميع ما جاء في القرآن وسنة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فيدخل فيه التوحيد والعقيدة ويدخل فيه الفقه بالحلال والحرام ويدخل فيه السلوك وما يُصلح في القلب وأشباه ذلك مما فيه عز وقوة لأهل الدين بتعلم ما أنزل الله علىٰ رسوله ﷺ.

فتعلم أركان الإسلام والفقه في ذلك فقه في الدين، وتعلم أركان الإيمان وهي العقيدة والفقه في ذلك فقه في الدين، وتعلم السلوك وما به تصلح القلوب والفقه في ذلك فقه في الدين.

ولهذا جعل النبي ﷺ هذه الثلاث وهي الإسلام والإيمان والإحسان وكل واحدة تعني نوعا من العلوم: الإسلام، الفقه ونحوه؛ لأن فيه الاستسلام، وذكر النبي ﷺ أركان الإسلام، والإيمان فيه العقيدة، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك جل جلاله، هٰذا فيه تصحيح العمل بإحسان السلوك والتعبد لله جل وعلا.

قال في آخره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**هٰذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم**».

فإذن التفقه في الدين ضرورة وأمْر أمَر الله جل وعلا به وهو يشمل الفقه في التوحيد والعقيدة الصحيحة التي في الكتاب والسنة وأجمع عليها سلف الأمة، ويشمل أيضا الفقه بما به صلاح العبادة، وهو الأحكام الفقهية وبالعبادات، ويشمل أيضا الفقه بجميع ما يطلب من المسلم أن يعمله أو أن يتركه من أنواع الفقه الأخرىٰ التي يتطرق إليها العلماء في كتب الفقه.

فإذن التفقه في الدين مأمور به، أمر الله جل وعلا به في كتابه، وأمر به النبي ﷺ ، وحض علىٰ ذلك وأثنىٰ علىٰ أهله، وحذّر من زوال العلم والفقه في الدين، لهذا كان الفقه في الدين من الواجبات علىٰ

الناس، ويشمل ذلك المراتب التي ذكرنا.

إذا تبين هذا لك، فإن الفقه في الدين بهذه الأنواع التي سيأتي تفصيلها إن شاء الله تعالىٰ قال العلماء: يحتاج إليه كل أحد، الفقه في الدين يحتاج إليه كل مسلم، يحتاج إليه الرجل وتحتاج إليه المرأة، يحتاج إليه العَزَب، ويحتاج إليه المتزوج، يحتاج إليه من في تجارة خاصة، ويحتاج إليه من هو موظف في الدولة، يحتاج إليه الرعية، ويحتاج إليه الراعي، يحتاج إليه كل من ولي أمرا من أمور المسلمين؛ لأنه إما أن يسير في أموره علىٰ هدىً وعلم، وإما أن يسير علىٰ غير علم وعلىٰ غير بصيرة.

لهذا نشر العلم وإذاعة العلم وبث العلم هو أعظم وسيلة من وسائل الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ؛ لأن به صلاح القلوب وصلاح الأنفس وصلاح المجتمعات؛ ولأن به صلاح الأسرة وصلاح الفتيان وصلاح الفتيات؛ ولأن به صلاح المجتمعات فيما يؤمر فيها ويسنّ فيها وينظم فيها من تنظيمات.

فالفقه في الدين ليس مخصوصًا بالعلماء، وليس مطلوبا فقط ممن ينتسب إلىٰ العلم؛ بل الفقه في الدين مطلوب من كل أحد، ولهذا قال العلماء الفقه في الدين ينقسم إلىٰ قسمين:

القسم الأول فرض عين، يجب علىٰ كل أحد عينا أن يتعلم هٰذا القسم، وهو ما لا يصح اعتقاده إلا به، وهو معنىٰ الشهادتين، وتحقيق معنىٰ توحيد لله جل وعلا في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته جل وعلا، والإيمان الإجمالي فيما أُجمل والتفصيلي فيما فصل، في كل ما أخبر الله جل وعلا عنه من أمور الغيب وكل ما فرضه الله جل وعلا علىٰ عباده أن يعتقدوه في ذاته جل وعلا أو أسمائه أو صفاته أو في أمور الغيب.

يعني ما لا يصح الإسلام إلا به فإنه من علم العقيدة الواجب علىٰ كل الأصناف التي ذكرنا من الأغنياء والفقراء من الرجال ومن النساء.

من أنفع ما يحصل ذلك رسالة «ثلاثة الأصول» للإمام الدعوة الإمام المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإنه كتبها لرعاية هذا الجانب في تعليم ما لا يسع المؤمن جهله في مسائل توحيد العبادة، وبعض ما يتصل بذلك من معرفة المرء دينه ونبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

كذلك في أمور العبادات واجب عينا علىٰ كل أحد أن يتعلم كيف يصلي، كيف يتطهر للصلاة، بعض الناس يأتي ويدرك الناس علىٰ شيء فيفعل كما فعلوا، وربما كانوا مقصرين في بعض صفة الوضوء، يتوضأ لكنه يكون مقصرا لا يتوضأ كما أمره الله جل وعلا، هٰذه تحتاج إلىٰ علم، وهذا واجب عليك، ما

دام أن الصلاة فرض عليك، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فيجب عليك التعلم وجوبا عينيا.

كذلك إذا كان المرء ذا مال، فإنه يجب عليه أن يتعلم كيف يخرج زكاة هذا المال وأنصباء المال وأوعية الزكاة ونحو ذلك، حتىٰ يكون مبرئا لذمته فيما أوجب الله جل وعلا عليه.

كذلك الصيام إذا بلغ وجب عليه أن يصوم كما أمره الله جل وعلا، وهو يعلم معنىٰ الصيام وما يصام عنه وما يفطّر الصائم وأشباه ذلك، وما يتصل بذلك من مسائل.

كذلك إذا أراد الحج وجب عليه أن يتعلم أركان الحج وواجبات الحج؛ لأن هٰذا علم مفروض، واجب علىٰ كل أحد أن يؤدي العبادة بعد علم.

ثم تأتي إلىٰ الأبواب الأخر في المعاملات، في البيع والشراء، يجب عليه أن يتعلم ما يصح به البيع، يجب أن يتعلم ما نهىٰ الشارع عنه من البيوعات حتىٰ لا يدخل في بيوع محرمة كالربا وبيوع الغرر والجهالات والميسر وأشباه ذلك.

إذا أراد المسلم أن يتزوج فإنه ثم حقوق واجبة عليه في عشرته مع أهله، وهذا الفقه يجب عليه أن يتعلمه حتىٰ لا يسير مع أهله علىٰ وفق هواه، وإنما يسير علىٰ وفق ما أمر الله جل وعلا به، وهذا يغفل عنه الكثير وخاصة من الشباب، فإنهم يتزوجون ولا يعرفون الأحكام الشرعية في العشرة، ولا يعرفون ما يجب، وبعضهم يتزوج ثانية ولا يعرف الأحكام، أحكام القسم وكيف يكون العدل بين الزوجات ونحو ذلك.

إذن فما من مسألة إلا وثم فئة لابد فيها أن تتعلم العلم الشرعي، وهذا يعني أن المسلم إذا كان العلم مبسوطا قريبا بين يديه وهو يأتي أموره علىٰ جهل وهوىٰ أو علىٰ إعراض عما ينبغي من التعلم فإنه ولا شك مقصر ويأثم؛ لأن العلم قريب منه، وهو لم يبحث عن هذا العلم الذي لو بحث عنه لوجده.

كذلك في مسائل المحرمات الموبقات السبع: الشرك بالله جل وعلا، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق إلىٰ آخر الموبقات السبع، هذه المحرمات، حرمة الزنا حرمة الخمر حرمة الربا حرمة الرشوة ونحو ذلك من المحرمات التي أجمع العلماء عليها، والتي تحريمها صار من المعلوم من الدين بالضرورة، هذا يجب علىٰ كل أحد أن يتعلم ذلك هذه المحرمات، وما يتصل بها وأن يحذر من الوقوع فيها.

إذن دين الله جل وعلا حقيقته هو أداء حق الله علىٰ العبد بتوحيده جل وعلا وبعبادته علىٰ وفق ما أمر

رسوله ﷺ، والاستجابة لله ورسوله ﷺ فرض، وهذا النوع الذي ذكرنا هو العلم الواجب العيني.

وأما القسم الثاني من التفقه في الدين وهو الفقه في الدين الكفائي وهو ما إذا كان ثَم طائفة من المسلمين في البلد نفسه قاموا بهذا الفرض الكفائي فإنّ الإثم يزول عن بقية المؤمنين.

ولهذا في الحقيقة وجود طلبة علم في مكان وفي بلد، وحرص هؤلاء علىٰ العلم والتعليم والتعليم، وبذل الأوقات في ذلك، هذا له أثر علىٰ الجميع لو عقلوا، وهو أن تفرغهم لذلك وإقبالهم عليه رفع عنهم الإثم؛ لأنهم قاموا بفرض الكفاية فدعمهم وحثهم وشكرهم هذا مما ينبغي ويحسن لأنهم قاموا بما هو مفروض علىٰ الجماعة.

في بعض القرىٰ يكون ثَم شباب أو ثم يؤنس في نفسه رشدا ولا يكون في القرية طلاب العلم يكفون، وتجد أن هؤلاء ينشغلون عن العلم بغيره، وهؤلاء لا تبرأ ذمتهم؛ لأن الأصل كما قال العلماء أن كل بلد له حكمه في وجود وتحقيق الفرض الكفائي، فلا يقال في بلد نحن قريبون من البلد الفلانية؛ لأن هذا خلاف الأصل، والأصل أن كل بلد يخاطب أهلها بوجود بعض طلبة العلم ومن يتعلمون العلم الكفائي حتىٰ ينفعوا أهل البلد وحتىٰ يعلموا أهل البلد ما ينفعهم في دينهم وما يجب عليهم ويحرم عليهم في دين الله.

لهذا نقول: إن الواقع مع هذا إقبال الذي نشهده في العلم وطلب العلم؛ لكن الواقع أن العلم والفقه في الدين الناس معه مقصرون جدا، والناس اليوم كثير كثير، فهل يحتاجون إلىٰ ألف طالب علم أو إلىٰ ألفين أو إلىٰ عشرة آلاف أو إلىٰ أكثر؟ يحتاجون إلىٰ أكثر وأكثر، وكل أهل بلد يجب عليهم التفقه في الدين تفقها عينيا فيما يجب عينا فيه وتفقها كفائيا فيما يجب كفائيا فيه.

وما أعظم قول النبي عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**من يرد الله أن يهديه يفقهه**» كما جاء في أحد حديث ابن عمر، وفي الرواية المشهورة «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**»، والحظ الرواية الأولىٰ «**من يرد الله أن يهديه يفقهه**»؛ لأن حقيقة الفقه أن ينشرح الصدر للإسلام بكله ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾[الأنعام:١٢٥].

إذا تبين لك ذلك وأنه يجب علىٰ كل مسلم أن يتعلم العلم العيني ويجب علىٰ جماعة المسلمين في كل بلد أن يكون منها طلاب علم يتعلمون ويبذلون في العلم أوقاتهم وترسخ أقدامهم في العلم حتىٰ

يقوموا بالواجب الكفائي، فإن للفقه في الدين لمن أراد أن يطلبه له منهج، ومن الناس من يريد ولكن لا منهج عنده لتحصيل العلم، فلذلك يدرك بعضا ويفوته بعض ويكون مشتتا بين ذا وذاك.

أما التوحيد والفقه في التوحيد فهو الذي سماه بعض العلماء الفقه الأكبر؛ لأن الله جل وعلا قال: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾[التوبة:١٢٢]. والعلماء سموا العلم بالأحكام العبادية والمعاملات إلىٰ آخره وسموها فقها، فسموا ما يقابله الفقه الأكبر؛ لأنه الأهم والأعظم، هذا الفقه الأكبر وهو توحيد الله جل وعلا، له منهج في طلبه والعلم به، وليس العلم به تجميع مسائل أو أجوبة من الشيخ الفلاني أو العالم الفلاني أو قراءة الفتاوىٰ، ليس ذلك، هذا زاد في الطريق؛ لكن العلم بالتوحيد له منهج.

التوحيد أو العقيدة يقسمها العلماء إلىٰ قسمين:

القسم الأول التوحيد وهو ما يدخل في توحيد الربوبية والألوهية الأسماء والصفات.

والثاني العقيدة التي تدخل في أركان الإيمان الستة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر وخيره وشره وهي التي جاءت في الكتاب وحديث جبريل وما اتصل بذلك من مسائل العقيدة.

هذا التوحيد، الفقه فيه هو أعظم ما يتقرب به العبد إلىٰ ربه؛ لأنه أعظم الفرائض قد صح عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال: «**وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما فرضته عليه**» فهذا الفرض وهو العلم بالتوحيد العلم بالعقيدة هذا من أوجب الواجبات.

كيف تتعلم وما هو المنهج في ذلك؟ هذا من أعز المطالب.

لو رأيت صنيع العلماء الذين رسخت قدمهم في العلم وصار الناس يرجعون إليهم لوجدت أنهم طلبوا العلم علىٰ أشياخهم علىٰ منهج ساروا عليه وصار عليه من قبلهم وسار عليهم العلماء في قرون متطاولة، وهو أن يُبدأ في ذلك بالنُّبذ والمختصرات من الرسائل والكتب، ثم يُترقىٰ إلىٰ ما هو أكبر فنأخذ أقسام التوحيد وما ينفع فيها؛ يعني في تحقيق الفقه وطلب العلم فيها.

أما توحيد الربوبية وهو مهم لا كما يظن البعض أن توحيد الربوبية ليس مهما؛ بل طلب العلم فيه مهم؛ ولكنه ليس هو الأساس، وإنما الأساس توحيد العبادة؛ لأن من عبد الله جل وعلا وحده لا شريك له فإن عبادته لله وحده تضمنت أنه وحّد الله في ربوبيته أنه لا رب سواه جل وعلا؛ لكن توحيد الربوبية مهم، ووجه أهميته من جهتين:

الجهة الأولىٰ أنه وسيلة لقيام الحجة في توحيد الإلهية، والله جل وعلا في القرآن في آيات كثيرة جعل الحجة لازمة للمشركين في عدم توحيدهم لله في العبادة بأنهم وحدوا الله في الربوبية، قال جل وعلا مثلا ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ ﴾[يونس] يعني إذا أيقنتم أن الله هو المدبر وهو المحيي وهو المميت، فهو المستحق إذن للعبادة ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾[الأعراف].

فإذن في القرآن جعل الإقرار بأن الله هو الرب وهو المدبر وهو المحيي والمميت وهو الذي يجير ولا يجار عليه وهو الخالق الرازق إلىٰ آخره، جعله ملزما للمشرك لعبادة الله وحده دونما سواه، وهٰذا كثير في آيات القرآن.

الثاني من وجه أهمية توحيد الرُّبوبية أنَّ القرآن فيه كثير من الآيات فيها إرشاد إلىٰ صنع الله جل وعلا في ملكوته وفي تدبيره للأمر، وفي أنه ﷻ هو الرب المتصرف وحده الرزاق وحده إلىٰ آخر ذلك.

والفقه في هذا يجعل المؤمن علىٰ حقيقة التوكل عليه ﷻ، وعلىٰ حقيقة التدبر في أنه لا غَناء له عن الله جل وعلا طرفة عين، وفي حقيقة أنّ الرب جل جلاله هو الغني، وأن العبد فقير، وإنما يأتي الخلل في العبادة ويأتي الخلل في عدم الخضوع والخشوع ويأتي الخلل في ارتكاب المنكرات وفي اقتحام المحرمات، وفي التفريط في الواجبات إذا لم تعمر محبة الله جل وعلا القلوب، ولم يُجل جل وعلا أعظم الإجلال، ولم يخف منه، فإن المرء كلما تدبر ونظر وكلما علم الآيات التي فيها أن الله هو الرب جل وعلا وحده وهو المتصرف يعني ما يدخل في توحيد الربوبية، وأن كل شيء هو إنما بيده ﷻ، كلما عمر القلوب كلما خشعت ولو كادته الناس جميعًا لما أبه بذلك.

وهذا يؤدي -يعني عدم الاهتمام بالفقه في توحيد الربوبية- يؤدي إلىٰ ضعف القلوب تجاه الناس وإلىٰ ضعف القلوب في التمسك، ويكون الخشوع ضعيفا لأنه لم يجل الله جل وعلا ولم ير بديع صنع الله جل وعلا في كل شيء.

ولقد أحسن القائل:

وفي كل شيء له آية ... تدلّ علىٰ أنه الواحد

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الفقه في توحيد الربوبية كيف يكون؟ في أن تتأمل تفسير القرآن في الآيات التي فيها ذكر عظمة الله جل وعلا، وأنت تقرأ هذه الآيات تتعلم التفسير، ليظهر لك ما فيها من العلم بالتوحيد.

ثم ثانيا أن تنظر إلىٰ كتاب لابن القيم وهو كتاب «مفتاح دار السعادة» فإنه من أعظم الكتب في بيان ما به تستقرّ عظمة الله جل وعلا في نفس المسلم ويعظم بها محبته ورجاؤه والخوف منه جل جلاله، وهٰذا أيضا يُعلم بوسائل أخرىٰ.

أما توحيد العبادة فالمنهج في طلبه أن يبتدئ بالمختصرات، وخاصة كتاب «ثلاثة الأصول» للإمام الدعوة كما ذكرنا، ثم «كتاب التوحيد»، ثم بعده كتاب «كشف الشبهات».

وهذه الثلاث مراتب مهمة في أن يطلب الأول عن شيخ أو أن يقرأه بنفسه وأن يقرأ «كتاب التوحيد» علىٰ عالم أو أن يقرأه بنفسه أو يقرأ «كشف الشبهات» علىٰ عالم أو يقرأه بنفسه بحسب ما تيسر له لكن المنهج أن تقرأه علىٰ عالم أو أن تستمع أشرطة فيها شرح للعلماء علىٰ هذه الكتب.

هٰذا من أهم المهمات أن يتعلم العبد مسائل التوحيد، تأمل قول الله جل وعلا عن إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾[إبراهيم] قال إبراهيم التيمي من سادات التابعين قال: خاف إبراهيم البلاء علىٰ نفسه فدعا أن يجنبه الله عبادة الأصنام فمن يأمن البلاء بعد إبراهيم.

ولهذا من خاف من شيء هرب منه إلىٰ ضده، هرب منه إلىٰ ما ينجيه ففروا إلىٰ الله، لا مفر من الله غلا إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا خفت حقيقة من الشرك، ومن أن يحبط عملك من أن تعمل شركا، وأنت لا تدري، أو أن تعمل شيئا وأنت مفرط، العلم موجود لكنك لا تسأل، أو أن يكون عندك وأمامك وما يحبط بعض العمل أو ينقص الأجر يكسب السيئات فيما يتصل بالتوحيد وأنت لا تتعلم لاشك أن هٰذا مما يأثم به العبد ومما يُنقص حسناته في بعض المسائل.

لهذا واجب أن تتعلم حقيقة التوحيد والشرك وصور التوحيد وصور الشرك ومن أعظم ما ينفعك في هذا «كتاب التوحيد الذي هو حق الله علىٰ العبيد» للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثم المرتبة الثالثة «كشف الشبهات»، و«كشف الشبهات» مهمة؛ لأن طالب العلم بعد معرفته لثلاثة الأصول ومعرفة العبد ربه ومعرفة العبد دينه ومعرفة العبد نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بعد معرفته يحتاج

إلىٰ الأدلة في التوحيد بالتفصيل والشرك وأنواعه الأكبر والأصغر والخفي ومسائل من توحيد الأسماء والصفات والربوبية إلىٰ آخره، ثم بعدها ينظر إلىٰ شبه المشركين أن من الناس من يتعلم لكن يأتيه المشبه بشبهة فيصبح قلقا في قناعته وإيمانه بأصل دينه، لهذا لابد من أن يتعلم بعد ذلك ما الشبه التي يروّجها أو يبثّها المشركون والخرافيون في توحيد العبادة، ثم يتعلم ردّ العلماء علىٰ ذلك حتىٰ يكون علىٰ بينة ولا يمكن بإذن الله تعالىٰ وتوفيقه أن تروج عليه الشبه.

اليوم سمعنا كثيرا مثل ما تسمعون أن من الناس من أهل الفطرة وأهل التوحيد في هذه البلاد ربما شكوا بعض مسائل التوحيد، ما السبب؟ السبب أنهم لم يقبلوا، ويقولون ببعض الشبه وكأن العلماء لم يجيبوا عنها، وكأنه لا جواب عنها في كتاب الله جل وعلا وفي سنة النبي ﷺ، وفيما دونه الأئمة والعلماء وخاصة أئمة الدعوة النجدية رحم الله الأئمة جميعا، فكيف إذن يكون المرء ناجيا والعلم بين يديه وهو لا يقبل عليه، ولقد أحسن القائل إذ يقول:

ومن العجائب والعجائب جمّةٌ ... قرب الدواء وما إليه وصول
كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ ... والماء فوقها محمول

فإذا علمت الحق فإنه يجب عليك أن تؤديه حتىٰ يثبت، إذا علمت معنىٰ التوحيد وثلاثة الأصول تعلم بيتك تعلم أسرتك، أيضا تقيم الحجة علىٰ المعاند وتتمرن علىٰ ذلك حتىٰ يقوىٰ في قلبك، وحبذا أن يكون ذلك بأسلوب لطيف بأسلوب جيد، ولو كان بأسلوب آخر فإنه ينفع بإذن الله تعالىٰ؛ ولكن ينبغي أن يتحرىٰ بالتي هي أحسن؛ لكن الإغلاظ في موقعه لابد منه، والسهولة واللين في موضعه هو الأصل، ولابد منه، ولهذا أيضا الشاعر ولقد أحسن فيما قال:

أبِنْ وجه نور الحق في وجه سامعه ... ودعه فنور الحق يسري ويشرق
سيذكره يوما وينسىٰ نكاره ... كما نسي التوثيق من هو مطلق

يتذكر الحق الذي فيه يوما من الأيام، فلهذا ابذل ما عندك بعد التعلم فإنه سبب ووسيلة إلىٰ ثبات العلم والذي يتعلم ولا يبذل العلم تعليمًا؛ لأهله لصغاره لمن حوله أهل حيه للناس فيما يحسنه من لا بذل العلم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالكتابة إلىٰ آخره، فإنه ربما ضعف في هذا الجانب وقد قال جل وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ

ﭐلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠ ﴾[النساء].

إذن التعلم له منهج، فبعد أن تتعلم أُبذل العلم بقدر المستطاع.

ولهذا أنا أعجب من طائفة من طلبة العلم يتعلمون ولا يبذلون العلم، أُبذل ما علمت بيقين، علمته بأدلته وفهمته علىٰ العلماء والمشايخ أبذله، فهل لابد أن تبذله في محاضرة في مسجد؟ أو أن تلقي كلمة في مكان عام؟ ليس كذلك، تبذل العلم في بيتك، تبذل العلم في دعوة تجتمعون فيها علىٰ الخير والصلاح تبذل فيها، تأتي فيها بما ينفع، هذا بذل العلم، أنت ومن معك من زملاء أو أصدقاء وأصحاب تبذل فيها لعلم وتكون المجالس عامرة بالعلم والفقه في الدين هذا من أعظم ما ينفع في الفقه وفي الثبات عليه وفي علم ما لا تعلم، فهٰذا قد جرب فإن الذي يبذل العلم يعلم ما لم يعلم وهذا من فتح الله جل وعلا وإنعامه علىٰ عبده.

الثالث توحيد الأسماء والصفات، توحيد الأسماء والصفات يدخل في علم العقيدة الذي سيأتي بيانه فكتب العقيدة التي فيها بيان أركان الإيمان وما يتصل بذلك مختصة بشرح بيان توحيد الأسماء والصفات.

أما العقيدة فهي أعظم الفقه في الدين، التوحيد والعقيدة معا هي أعظم ما يتفقه به في الدين، والعقيدة الكتب فيها كثيرة، فهناك للمتأخرين المعاصرين متنوعة المشارب والمذاهب، وهناك كتب لعلماء السلف وهناك متوسطة في القرون المتوسطة عنب ما بين القرن الثالث إلىٰ القرن الثاني عشر هذه كتب مختلفة وأيضا اضطراب وفيها أخذ ورد من متنوعات المسائل.

والذي يجب علىٰ كل من يريد الفقه في الدين وأن يطلب نجاته أن يهتم بالعلم الموروث في العقيدة عن سلف هذه الأمة لم؟ لأن السلف الصالح علىٰ علم وقفوا وببصر نافذ كفُّوا، كما قال ابن مسعود وكما قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: إنهم -يعني الصحابة وسادات التابعين- علىٰ علم وقفوا وببصر نافذ كفوا. يعني ما تكلموا فيه تكلموا فيه عن علم وما كفوا عنه لم يكفوا عنه لأنهم ليسوا بعلماء؟ لا ولكنهم لأنهم تكلموا بعلم فيما تكلموا فيه وكفوا بعلم وببصر نافذ فيما كفوا عنه.

ولهذا يجب أن يؤخذ الاعتقاد عن سلف هذه الأمة وعن من تبعهم من أئمة وعلماء الإسلام وكتب

السلف واعتقاد والسلف مدونة معروفة.

لكن كمنهج مبسط لطالب العلم أول ما يبدأ بكتاب «لمعة الاعتقاد» لابن قدامة، ثم يليه «الواسطية» لشيخ الإسلام بن تيمية، ثم يليه «الحموية» أيضا لابن تيمية، ثم يليه «شرح الطحاوية» أو «متن الطحاوية» مع شرحها لابن أبي العز الحنفي رحمهم الله تعالىٰ جميعا.

ويقرأ كل واحد علىٰ عالم أو يسمع الشريط فيها، يأخذ منها ما تيسر وكل واحد يأخذ بقدر ما عنده من الاستعدادات والقرائح والفُهوم.

وهنا مسألة مهمة في تعلّم العقيدة وهي أن العقيدة والفقه فيها ليس سهلا وليس صعبا، ليس سهلا لأنه قد يدخل فيها بعض المباحث الكلامية التي يكون فيها رد علىٰ المبتدعة في القدر والإيمان والأسماء والصفات ونحو ذلك من المسائل، وليس صعبا لأن كل عقيدة كتبها أئمة الإسلام المتّبعون للسلف الصالح هي مستقاة؛ بل دليلها النص من القرآن أو من سنة النبي ﷺ، وثَم مسائل قليلة دليلها الإجماع.

هذه العقيدة مشتملة علىٰ أقسام:

القسم الأول بيان أركان الإيمان الستة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالىٰ.

القسم الثاني ما يتصل بمنهج التعامل مع الخلق الذي باين به أهل السنة أهل البدع، كيف تتعامل مع ولاة الأمر، كيف تتعامل مع العصاة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كيف تتعامل مع الصحابة رضوان الله عليم، كيف تتعامل مع أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، ونحو ذلك من المسائل التي صارت مسائل عقدية؛ لأن أهل السنة باينوا فيها وخالفوا فرق الضلال وجماعات البدعة من الخوارج والمعتزلة والمرجئة والرافضة إلىٰ آخر أصنافهم.

القسم الثالث سمات أهل السنة والسلف الصالح في التعبُّد؛ لأن أهل السنة في عقائدهم ليسوا كالنصارىٰ وليسوا كاليهود في أن عقائدهم مناقشات عقلية لا أثر لها علىٰ السلوك، لهذا تجد ابن تيمية في آخر «الواسطية» ذكر القسم الثالث وهو السلوك فقال في وصف أهل السنة (وهم مع ذلك يحضرون الجمع والجماعات ويصومون ويقومون الليل ويتصدقون) وإلىٰ آخر ما جاء في كلامه، ما معنىٰ هذا؟ معناه أن أثر العقيدة مكمل لحقيقة الاعتقاد.

هذا ما يتصل بالقسم الأول وهو الفقه الأكبر الفقه التوحيد والعقيدة ودين الإسلام.

أما **القسم الثاني وهو الفقه المعروف بفقه الفروع** وهو المبتدئ بالطهارة إلىٰ كتاب الإقراض.

هذا الفقه أيضا مهم، ومنهجية الطلب فيه أن يتدرج طالب العلم فيه بحسب ما تدرج فيه العلماء.

وأضرب لك مثلا علىٰ هذا التدرج فيما صنفه العلامة الحافظ عبد الله بن أحمد ابن قدامة المقدسي صاحب كتاب «المقنع» و«الكافي» و«العمدة» و«المغني» وكتب أخرىٰ كثيرة.

لما ألف كتبه في الفقه جعلها مرتبة علىٰ المنهج، فجعل «العمدة» للمبتدئين، وجعل «المقنع» بعده للمتوسطين، وفوق «المقنع»: «الكافي» لبداية المنتهين، ثم بعده لأهل الاجتهاد جعل كتاب «المغني».

وهذه المرحلية مهمة، كتاب «العمدة» تميز بأنه كتاب مختصر فيه مسائل قليلة في كل باب، وفي كل باب يذكر أصل الباب من الكتاب أو من السنة، ولا يذكر الخلاف؛ لا الخلاف العالي ولا الخلاف النازل، ولا يذكر طبعا في ذلك خلاف المذهب والروايات إلا ما ندر جدا.

فيعلم طالب العلم كيف يتعلم؛ لكن يبتدئ بكتاب مطول متىٰ ينتهي منه؟ والبحر إذا كان عميقا ولم يحسن المرء السباحة فإنه يتأذىٰ وقد يغرق ويتخلف عن ركب العلم.

لهذا تبتدئ بالعمدة شيئا فشيئا، ثم بعد ذلك تقتنع إلىٰ «المقنع».

«المقنع» مرتبة ثانية أو مختصرات المقنع وما جاء عنه مرتبة ثانية لماذا؟ لأنه جعل المسائل أطول قليلا، ويذكر في بعض المسائل الخلاف ليمرّن طالب العلم -الخلاف في المذهب يقول: في هذه المسألة روايتان وفيها وجهان- يمرّن طالب العلم علىٰ بعض مسائل الخلاف.

المرتبة الثالثة في كتاب «الكافي» تجد أنه في شرح للفقه جعل الكتاب أوسع من «المقنع»، وجعل الخلاف فيه بأعلىٰ ويذكر عدة روايات في أكثر المسائل والأوجه، وربما ذكر خلاف غير المذهب علىٰ ندرة، ويذكر أيضا الأدلة التي استدل بها علماء المذهب.

ثم في المرتبة الأربعة للمجتهدين الكتاب «المغني» وفيه أكثر المسائل والخلاف العالي والنازل والأدلة وما احتج به الحنابلة وما احتج به أصحاب المذاهب الأخرىٰ.

هذا يعطيك منهجية؛ لأن عددًا من طلاب العلم رأوا أن الفقه طويل فأخذوا يجمعون الفقه عن طريق الفتاوىٰ، يقرأ فتاوىٰ العلماء ويجمّع فتاوىٰ المشايخ، ويبدأ يقرأ هٰذا لا يحصل فقها، الفتاوىٰ تطبيق للفقه علىٰ النوازل، الفقه أكمل وأشمل وأعظم من الفتوىٰ لأنه قبل التطبيق، بعد ذلك رعاية الواقع في الفتوىٰ هٰذا تطبيق للفقه علىٰ الواقع وتنزيل له علىٰ المسألة.

لهذا لا يمكن أن يحصل العلم ويسير في منهجية من يقرأ الفتاوىٰ فقط، ولكن الفتوىٰ مساندة للطلب المنهجي سواء في التوحيد الفتاوىٰ في توحيد العبادة في العقائد أو في الفقه فإنها تسانده؛ لأنه يصل للمرء التدريج ويحصل لطالب العلم معرفة بحكم العلماء في الواقع.

إذا تبين لك ذلك، فهل هذا الذي ذكرت مما يختص به طلبة العلم؟ لا، هل هذا ما يخاطب به إلا العلماء وطلبة ممن يعلم أو يتعلم علىٰ هذا المنهاج؟ لا، يمكن أن تدرّج أنت حتىٰ أفراد الأسرة، يمكن المرأة الأم أن تدرج أيضا إذا تعلمت من عندها علىٰ ذلك، وليس من اللوازم أن تبدأ بكتاب تشرحه كلمة كلمة، ولكن الفقه والتفقه يكون بأن تمشي شيئا فشيئا علىٰ نحو ما مشىٰ عليه العلماء، تأخذ في كل باب أصول المسائل التي تنفع من تريد تعليمه.

فمثلا الشاب إذا راهق وصل إلىٰ ١٣، ١٤، ١٥، ثم أحكام لابد أن يعلّمه إياها والده أو أخوه الأكبر، ولا حياء في الدين، كذلك البنت المرأة إذا ناهزت الاحتلام أو قربت ثم أحكام لابد أن تتعلمها، كيف تصلي، كيف تتطهر، أيضا الولد كيف يحافظ علىٰ الصلوات أوقات الصلاة وأشباه ذلك، الطهارة الاغتسال.

فإذن التعلم لابد أن يكون علىٰ مستوىٰ من تعلم، كذلك في التوحيد لابد فيه من البث والتعليم فيه لابد أن يكون شيئا فشيئا.

أريد من هذا -والوقت قد أزف- أن ضرورة التفقه في الدين ضرورة ملحّة، ويجب أن يعلم إنها ليست خاصة بطلبة العلم؛ بل لابد أن نشيع العلم بيننا في بيوتنا ومع النساء ومع الأطفال، النساء منهم كثير ربما راج عليهم كلام بعض المشعوذين أو بعض القراء أو كلام النساء في مجالسهم، وربما دخلوا في أشياء في التوحيد وفي القراءات وفي الرقية إلىٰ آخره مما ينكر.

لهٰذا أنا أوصي الجميع بالإقبال علىٰ العلم، وبأن يحرص الجميع علىٰ نشر العلم والكلام في العلم.

ومن القصص التي تروىٰ في ذلك أن أحد العلماء أراد أن يرحل عن بلد فجهّز نفسه وجهز راحلته وأتىٰ منصرفا عن البلد يرحل عنها بعد أن سكنها مدة طويلة، فلما أتىٰ علىٰ بوابة البلد وأراد يشتري بعض الحاجيات له في سفره من الأكل ربما أو بعض البقول وأشياء يحتاجها معه، وقف فإذا البائعان يتباحثان في مسألة من مسائل العلم، بيّاع البقول هذا يبحث مع هذا هل النية تتجزأ أو لا تتجزأ وهذا يناقش هذا، فقال: سبحان الله بلد فيها البقالون يتناقشون في العلم أو يبحثون في العلم أتركها؟ لا والله لا

أتركها فرجع.

وهذا من صميم القلب؛ لأنه يعلم معنىٰ العلم وإنما الرحمة هي بالعلم في بيوتكم وفي جلساتكم، وكلما نشر العلم في المساجد، يتعلم طالب العلم ويتعلم المجالس ويتعلم الفارغ الذي ليس عنده من الشغل ما يشغله، ويتعلم الناس، هذا فيه إشاعة للخير وفيه إشاعة لما يحبه الله جل علا ويرضاه، ولهذا اعلم أن النبي ﷺ إنما بعث بالعلم وإنما ورث العلم وعلينا الإقبال علىٰ التفقه في الدين وأن نأخذ ذلك علىٰ أعظم ما يجب.

وأسأل الله جل وعلا أن يوفقني وإياكم لما فيه رضاه، وأن يتقبل منا ومنكم صالح العمل، وأن يمنحنا الفقه في الدين والإقبال عليه، والتفقه في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ علىٰ هدي سلفنا الصالح إنه سبحانه جواد كريم.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الأسئلة]

سؤال (١): ما هي الوسائل المعينة علىٰ التفقه في دين الله؟

الجواب: الحمد لله:

أعظم وسيلة للتفقه في دين الله أن يتقي الله العبدُ وأن يقبل عليه راجيا خائفا؛ لأن تقوىٰ الله جل وعلا من أسباب ومن وسائل؛ بل هي أعظم وسائل تحصيل العلم، قال جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾[الأنفال:٢٩]، والقرآن كله فرقان، والنبي ﷺ جاء بالفرقان، ودين الله فرقان بين الحق والباطل، وبين التوحيد والشرك، وبين الضلال والهدىٰ.

لهذا إذا أقبل العبد علىٰ التفقه في الدين فليكن دثاره وشعاره تقوىٰ الله جل جلاله.

والتقوىٰ في هٰذا معناها أن يراعي أمر الله جل وعلا وأن يراعي نهيه فيما يأتي وفيما يذر بحسب الاستطاعة فاتقوا الله ما استطعتم، وفيستغفر من القصور.

الثاني من أسباب التفقه في الدين أن يكون عنده حصيلة من حفظ القرآن الكريم وحفظ الأحاديث النبوية بحسب المستطاع؛ لأنه كلما حفظ كان فقهه أكثر؛ لأن الفقه وهو الفهم يكون بعد الحفظ، خاصة في مسائل الشريعة، فمن اعتمد علىٰ الفهم وحده فإنه يؤتىٰ، ولكن لابد من حفظ ثم فهم للمحفوظ حتىٰ

يرسخ، ولهذا قال جل وعلا لنبيه عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾[القيامة:١٨] كان هذا قبل ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[النساء:٨٢].

والوسيلة الثالثة أن يكون في تفقهه في الدين على وفق منهج أهل العلم وعلى وفق طريقة السلف الصالح؛ لأنها هي الطريقة المثلى في الفقه في الدين وأن لا يذهب إلى مسائل وأشياء تصعب عليه وثم بعد ذلك يمل من العلم، فلا يكثر على نفسه من الدروس حتى لا يمل من العلم، ويسير على وفق المنهج في طلب العلم حتى يتدرج فيه شيئا فشيئا.

قد قال الزهري في كلمته المشهورة التي ذكرها ابن عبد البر في جامع بيان فضل العلم وأهله قال: قال الزهري: من رام العلم جملة ذهب عنه جملة ولكن يطلب العلم على مر الأيام والليالي.

فالتدرج في العلم وأخذ العلم شيئا فشيئا والفقه شيئا فشيئا هذا يتجمع مع الإنسان خير كثير، فلو أخذت في كل يوم مسألة في التوحيد ومسألة في الفقه واحدة فقط عرفتها بدقة وكررتها في مسيرك، لاجتمع لك في سنتين سبعمائة وعشرين مسألة في التوحيد، وسبعمائة وعشرين مسألة في الفقه.

والآن الدراسات الجامعية في الكليات الشرعية نجد أن منهم من يتخرج وقد نسي الكثير الكثير ومنهم من بعد التخرج يرجع عاميا أو شبه عامي؛ لأنهم في المنهج أعطوهم أكثر مما يُقبلون عليه المفروض الطالب يجد ويجتهد؛ لكن كان اعلم أكثر من استعدادتهم لذلك قل تحصيلهم.

لهذا نقول: تأخذ مسألة مسألة شيئا فشيئا سبعمائة مسألة في التوحيد وسبعمائة مسألة في الفقه هذه إذن صارت معك.

ثم بعد سنتين ألف أربعمائة وبعد عشر سنين تجتمع عندك آلاف المسائل وهذا هدوء ولكنه قوة ورسوخ؛ ولكنه مع سهولته صعب أن يطبقه إلا من هو مقبل على الفقه حقيقة؛ لأن النفس تتمنى الإكثار ما يكفيها القليل، وتتمنى الإكثار الإكثار وتظن أن هذا مثلا الإكثار من المال؟ لا، هذا إذا أخذت منه شيئا لست في استعداد له ذهب عنك.

الرابع من الوسائل أنك إذا علمت شيئا علمه واعمل به؛ لأن التعليم وسيلة من وسائل ثبات العلم والعمل وسيلة من وسائل ثبات العلم، قال جل وعلا: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾[محمد:١٩]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾[النساء]، قد قال

السلف: من عمل بما علم أورثه اله علم ما لم يعلم.

ولهذا ينبغي لطالب العلم أن يوطّن نفسه أنه إذا علم مسألة يشرحها لا يقول له: هذا فوق مستواه اشرحها بالطريقة التي يستجيب لك، تثبت عندك وتنفع زوجتك وتنفع أختك والدتك تنفع من حولك تنفع صديقك لكن بحث العلم ونشره والعمل به هذا من أعظم الوسائل.

ثم الوسيلة الأخيرة الدعاء والرغب إلىٰ الله جل وعلا أن يمنحك الفقه في الدين، وخاصة في أوقات الإجابة التي يرجىٰ أن يُجيب الله جل وعلا فيها الدعاء: «**من يرد الله أن يهده يفقهه في الدين**»، «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**» فاسأل الله سؤال ملح أن يمنحك الفقه في الدين وأن يثبتك علىٰ ذلك لأن هذا أعظم من الدنيا وما عليها.

سؤال (٢): هل في الفقه في الدين سلامة من مضلات الفتن في مثل هذا الزمن؟

الجواب: لاشك أن الهداية للسبيل ولسبل الله جل وعلا المتنوعة في سبيله الواحد إنما يكون بالمجاهدة قال جل وعلا في أول سورة العنكبوت: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ وذكر في السورة جل وعلا أنواعا من الفتن المختلفة، فتنة الشهوات والفتنة بالوالدين والفتنة بانتشار الشرك في قصة نوح عليه السلام ومكثه ألف سنة إلا خمسين عاما ولم ينصر، وأنواعا من الفتن، وذكر دواءها وعلاجها في آخر السورة ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾[العنكبوت]، وكما ذكرت أن أعظم الجهاد التطوعي العلم والتعلم فإن هٰذا من أعظم بل من أرفع أسباب النجاة من الفتن.

ولهذا في السورة نفسها بين الله تفاصيل ذلك في قوله: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ۝٤٥﴾[العنكبوت].

سؤال (٣): هل من لم يتفقه في دين الله لم يرَد به خيرا أم لم ترد له الهداية حسب مفهوم الأحاديث التي سبق أن ذكرتموها؟

الجواب: الهداية والخير ينقسم إلىٰ كمال وإلىٰ درجات.

فمن يرد الله به تمام الخير وكمال الهداية يمنحه الفقه في الدين.

ومن لم يتفقه الفقه الواجب في التوحيد العيني والفقه الواجب في عباداته هذا ليس بمسلم أصلا؛ لأنه

ليس معه توحيد وليس معه عبادة.

ومن لم يتفقه الفقه الكفائي فهذا مسلم ومؤمن لكن هم درجات فله من الهداية بحسب استقامته؛ لكن كمال الهداية وكمال الخيرية موعود به أهل العلم كما في قوله: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**» يعني أن حقيقة الخير وكمال الخير إنما يؤتيه الله جل وعلا من أقبل علىٰ الفقه في الدين.

سؤال (٤): ما توجيه فضيلتكم لمن لا يرىٰ طلب العلم للناشئة بحجة أن طلب ليس بأهم من التربية وأن طلب العلم يأتي بعد ذلك؟

الجواب: وهل ثم وسيلة للتربية أعظم من العلم، ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال له النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: «**يا غلام إني أعلِّمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله**» إلىٰ آخر الحديث.

وهنا وقفتان جواب علىٰ السؤال:

الأولىٰ الحظ قوله: (**أعلمك**) فتربية الغلمان تربية الشباب بالتعليم الذي يناسب مستواهم وبالطريقة المحببة إلىٰ أنفسهم، هذه هي الطريقة الصحيحة وهي الطريقة النبوية وهي الطريقة السلفية التي عملها السلف الصالح؛ لكن ليس معناه تأخذ أبو ٩ سنين ١٠ سنين تقول له ادرس كتاب واشرحه هذا بحسب اختلافات الناس واستعداداتهم؛ لكن التعليم هو وسيلة التربية.

ثم قال: (إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله)، (احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك). هذا تعليم لتوحيد الله جل وعلا فإذن لا صلاح في التربية إلا بالتعليم وخاصة التعليم التوحيد وما به صلاح النفوس؛ لكن الوسيلة، كيف تعلم كيف ترسل هذه المعاني إلىٰ النفس، هذه تختلف باختلاف الناس والاستعدادات والزمان والمكان.

سؤال (٥): هل حفظ القرآن الكريم مقدم علىٰ طلب العلم الشرعي؟

الجواب: إذا آنس من نفسه استعدادا لحفظ القرآن ومقبل فيحفظ القرآن الكريم كاملا ثم يقبل علىٰ العلم، هذا أفضل في حقه، وهو الذي كان عليه عمل العلماء في مضىٰ، لا يقبلون من يقرأ عليهم إلا بعد حفظ القرآن.

وقد حدثني أحد مشايخنا حفظهم يقول -رحم الله الميت وحفظ الله الحي- يقول أتيت للشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ فقلت له: أريد أن أقرأ عليك، فقال: حفظت القرآن؟ قلت: لا. فقال: اذهب

احفظ القرآن ثم إيتِ لتقرأ. قال: فغبت عليه ستة أشهر معي همة وعزيمة حفظت فيها القرآن، ثم أتيت بعد هذا فقلت: يا شيخ أنا حفظت القرآن أحسن الله إليك قال: اقرأ قال: فاختبرني في مواضع ثم قال: بارك الله فيك. قال: اقرأ في كتاب كذا دخل في الحلقة.

الذي عنده قوة في الحفظ وإقبال يحفظ القرآن، ثم بعد ذلك يلتحق بحلق اعلم وإذا كان عنده من الوقت ما يحفظ فيه بعض من القرآن ليحضر في بعضه حلق العلم.

لكن حفظ القرآن هو العلم؛ لأنه بما تحتج؟ من لا سلاح عنده وحجة وبرهان بالقرآن فبما يحتج؟ نحتج بمفاهيم أو بآراء إنما الحجة في الكتاب وفي سنة النبي ﷺ.

فلقد أحسن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ إذ يقول في «نونيته»:

والجهلُ داء قاتلٌ وشفاؤه	أمران في التركيب متفقانِ
نصٌّ من القرآن أو من سنة	وطبيب ذاك العالم الرباني
والعلم أقسام ثلاث ما لها	من رابع والحق ذو تبيانِ
علم بأوصاف الإله وفعله	وكذلك الأسماء للديانِ
والأمر والنهي الذي هو دينه	وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكلُّ في القرآن والسنن التي	جاءت عن المبعوث بالفرقان

وقال في موضع آخر:

العلم قال الله قال رسوله	قال الصحابة هم أولوا العرفان

فإذن لابد من حفظ القرآن لتكون الحجة قوية.

الذي لا يحفظ القرآن كيف يحتج؟ الذي ما يحفظ من السنة بما قدر له بما يحتج وما يستدل؟ هذا عجب.

سؤال (٥): من أنواع الكفر الأكبر كفر الإعراض، فما ضابط هذا الكفر؟ وهل يعتبر من يزهد في تعلم العلم الشرعي معرضا؟

الجواب: الإعراض هو الناقض العاشر من نواقض الإسلام التي ذكرها إمام الدعوة في النواقض العشرة.

فقال: العاشر الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به.

مثل عمل الملاحدة وعمل الذي لا يأبه بهذا الدين ليس له همة في هذا الدين، لا في تعلم التوحيد ولا

في تعلم أحكام العبادة والصلاة وإلىٰ آخره، وليس له همة في العلم به، فهو لا يعلم الحق، لا لأجل أن الحق لا يستطيع الوصول إليه؛ ولكن لأجل إعراضه كما قال جل وعلا: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾[الأنبياء]، وقال جل وعلا في سورة الكهف: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾[الكهف:٥٧]، ونحو ذلك من الآيات.

فالإعراض عن دين الله الذي هو ناقض من نواقض الإسلام وكفر الذي هو كفر الإعراض؛ هو أن لا يتعلم ولا يعمل ليس له همة، مثل الماديين مثل الذي همه الدنيا ليس له همة في تعلم الدين ولا محبة الله ورسوله وليس له همة في العمل البتة، فهذا هو المعرض.

أما الذي يزهد في تعلم العلم الشرعي لانشغاله أو لأجل أنه ليس لديه استعدادت وهو مسلم موحد ويعمل الصالحات محافظ علىٰ الفرائض، فهذا ليس ملوما؛ ولكن هم درجات، ليس الصحابة كلهم علماء، وليس التابعون كلهم علماء؛ لكن الذين يطلبون العلم طائفة، وطائفة أخرىٰ يتعبدون ومعهم من العلم الفرض العيني، وأما طلب العلم وفرض الكفائي فهذا يقوم به آخرون.

فإذن كفر الإعراض لا يشمل الذي يقول: أنا ما أحتاج للعلم أنا لا أريد العلم وهو مستقيم وهو موحد علىٰ الفطرة، موحد ليس عنده شرك أكبر مخرج من الملة، وهو أيضا مصلي هذا ليس معرضا هذا مقبل موحد مسلم.

سؤال (٦): آخر الأسئلة: شاب يقول: أبي يمنعني من طلب العلم فما حكم ذلك مع رجائي الدعاء لوالدي بالهداية؟

الجواب: طلب العلم والفقه في الدّين كما ذكرنا ضرورة، وطاعة الأب إنما تكون في المعروف، قال جل وعلا ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾[العنكبوت:٨]، وقال سبحانه في آية لقمان ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[لقمان:١٥]، الوالد له حق عظيم علىٰ ولده -الوالد الأب أو الأم- لهما حق عظيم علىٰ الولد من الذكور والإناث، وواجب عليه أن يطيعهما في المعروف؛ لكن في الواجبات والانتهاء عن المحرمات لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق.

ولعله يجد من السبل ما يقترب به من والده ويتودد له ويصاحب من طلبة العلم من يأمنهم والده.

أحيانا بعض الآباء لا يأتي للولد يمنعه من طلب العلم لأنه لا يريد أن يكون طالب علم؛ لكن يخشىٰ أن يصاحب من لا يرضاهم الوالد في اتجاهم أو نظرهم إليهم أو أنهم يدخلون فيما لا يحسن، أو أنهم يتشددون بحسب نظره ونحو ذلك.

فهو يختار من يرتاح إليهم الوالد ويزورونه وإذا اطمأن الوالد أيضا إلىٰ طلبة العلم المصاحبين لأن كل والد مشفق علىٰ ولده.

ولابد أن يكون للولد والابن البار من الوسائل ما به يتيسر هٰذا الأمر ويتيسر غيره.

أسأل الله جل وعلا للجميع التوفيق والسداد.

وفي ختام هذا اللقاء لابد من الدعاء والشكر للإخوة الذين دعوني إلىٰ إلقاء هٰذه الكلمات لأنهم في الحقيقة سعوا في نفعي.

فأسأل الله جل وعلا أن يجزيهم خيرا وأن ينفعهم وأن ينفع بهم، وأن يجعلنا وإياهم وإياكم من المتعاونين علىٰ البر والتقوىٰ.

كما أسأل المولىٰ جل وعلا أن يجزي من بنىٰ هذا المسجد خير الجزاء علىٰ ما قام به، وأن يجعله في صحائف أعماله التي تسره يوم لقاه.

ونشكر له ولكل من يسهم في إعمال المساجد في هذه البلاد لأن نشر المساجد وبذل المال فيها وفي تحسينها وتيسير السبل فيها للصلاة والعبادة والعلم ونحو ذلك هذا من أعظم القربات التي يتقرب بها العبد إلىٰ ربه جل وعلا.

فاسأل الله أن يثيب الجميع، وأن يجعل ما يقدمونه حجة لهم نورا بين أيدهم يوم لقاهم لربهم جل وعلا.

ثم إني أسأل الله جل وعلا لولاة أمورنا التوفيق والسداد والرشد، وأن يجعلهم هداة مهتدين غير ضالين وأن يجزيهم خيرا علىٰ ما قدموا بما فيه نصرة للإسلام والمسلمين في بذل الخير، وأن يوفقهم للهدىٰ وتمام نفع العباد إنه سبحانه جواد كريم.

ولابد من شكر الإخوة في المكتب التعاوني للدعوة وتوعية الجاليات في النسيم علىٰ ما يبذلونه من جهود والتي منها هذه المحاضرة وما يشبهها من محاضرات وفي بذل الدعوة للمسلمين لتثبيتهم وهدايتهم ولغير المسلمين في دخولهم للإسلام.

وقد حدثني الأخ الشيخ عبد الرَّحمٰن وفقه الله أن بيننا الآن أحد الذين يريدون إشهار الإسلام علىٰ مسامعكم ليحدث له الدخول في هٰذا الدين، ثم لنفرح جميعا بأن أنجىٰ الله جل وعلا عبدا من عباده من النار، فلهم منا الشكر علىٰ يبذلونِ.

وأسأل الله الجميع التوفيق والسداد.

۞۞۞۞

محاضرات (٣/ ٨)

فضل العلم
وصفات أهله وفضلهم

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن وجعله أصل العلوم، علم الإنسان ما لم يعلم، نحمده سبحانه علىٰ أن هيأ لنا أبواب الخيرات، ونسأله أن يثبتنا علىٰ ذلك إلىٰ أن نلقاه، وهو راض عنا غير مبدّلين ولا مغيرين ولا مفتونين، اللّٰهمَّ آمين.

وأشهد أن لا إلٰه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد:

فإنّ العلم وطلبه من أفضل القربات إلىٰ الله جل وعلا؛ بل عدّ جمع كثير من أهل العلم طلب العلم أفضل النوافل؛ يعني أنهم جعلوا طلب العلم أفضل النوافل التي يطلبها العبد، ولهٰذا فإن السّعي في نشر العلم النافع المقتبَس من كتاب الله جل وعلا ومن سنة رسوله ﷺ، ومما بينه أئمة الإسلام المؤتمنون علىٰ الدين في فهم الكتاب والسنة، إنّ السعي في ذلك من الجهاد في سبيل الله جل وعلا، ومما يراغم به الشيطان وأعداء الدّين، وهٰذا لاشك حاصل؛ لأن أهل العلم في كل زمان وفي كل مكان هم الذين يرثون الأنبياء، وإذا كانوا هم ورثة الأنبياء فإن ذلك يعني أنهم القائمون بأعباء الدين، فكلما ازداد العلم ازداد الخير، وإذا قل العلم كثرت الجهالة وكثر الشر.

ومن جهة أخرىٰ فإننا اليوم بحاجة كبيرة إلىٰ أعداد كبيرة من طلاب العلم ليفقّهوا المسلمين في شرق الأرض وفي غربها، فالناس محتاجون اليوم إلىٰ من يبين لهم الحق ويبيّن لهم التوحيد الصحيح والعقيدة الخالصة ومعنىٰ اتباع السنة النبي ﷺ، ويبين لهم أحكام الشرع ويبينوا لهم ما به قوتهم في دينهم وما به اتباع منهج محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ.

وهذا نحتاج فيه إلىٰ أعداد كبيرة من طلاّب العلم سواء في داخل البلاد أم في خارجها؛ لأن الناس يحتاجون كثيرا إلىٰ طالب العلم ليعلمهم.

ومن القواعد المقررة في الفقه أنّ الوسائل لها أحكام المقاصد، فإذا كان المقصد بهذه المثابة من فضله وحكمه وأثره فإنّ الوسيلة لتحصيله وإقامته وبثه لها حكمه من جهة الوجوب الكفائي ومن جهة أيضا البذل فيه والسعي في نشره.

ولهٰذا المرء يؤجر علىٰ الوسيلة إذا كانت صحيحة شرعا، كما يؤجر علىٰ الغاية المتفقة مع الشرع، وقد قال الأصوليُّون: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. والوسيلة تبعٌ للمقصد، فإذا كان المقصد واجبا فوسيلته واجبة من حيث الحكم ومن حيث الأجر، وإذا كان المقصد مستحبا فوسيلته كذلك، وهكذا إذا كان المقصد محرما فوسيلته كذلك، إلا فيما استثني.

والعلم لمن قرأ القرآن وقرأ السنة وعلم هدي الأنبياء يجد أنه أهم المهمات، وأن به النجاة، قال الله جل وعلا: بسم الله الرَّحمٰن الرحيم ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[العصر]. الذين آمنوا هم أهل العلم علىٰ حسب ما تعلموه من الإيمان، فجمع بين العلم والعمل وقدّم العلم علىٰ العمل.

وأهل العلم قرنهم الله جل وعلا بملائكته فقال سبحانه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾[آل عمران]، فجعل الشهادة له بالوحدانية منه سبحانه -وكفىٰ بالله شهيدًا-، ثم بملائكته، وثم بأهل العلم، واقتران أهل العلم بصفوة خلق الله -وهم الملائكة- يدل علىٰ ارتفاع شأنهم وعلىٰ عظم فضل ما سعوا فيه وما اتصفوا به.

الأنبياء هم سادة العلماء، فكل نبيٍّ هو أعلم أهل زمانه بما أنزل الله جل وعلا إليه، والنبي ﷺ محمد بن عبد الله أرشده ربه جل جلاله وتقدست أسماؤه إلىٰ أن يطلب الازدياد من العلم فقال سبحانه لنبيه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه]، قال المفسرون: معنىٰ ﴿زِدْنِى عِلْمًا ﴾ أي قل يا ربي زدني منك علما، وقال آخرون: معناه يا رب زدني منك فهما.

قال سفيان ابن عيينة الإمام المعروف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: لم يزل الله سبحانه جل وعلا يزيد نبيه من العلم بالإنزال الوحي حتىٰ توفاه الله جل جلاله. وهٰذا لأن الآية كما هو معلوم مكية في سورة طه، والنبي ﷺ لم يزل الله جل وعلا يوحي إليه بالعلم ويفهمه حتىٰ كان بما أرشد الأمة إليه من العلم مستجاب الدعوة في هٰذه السورة ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾.

قال طائفة من أهل العلم: لم يأمر الله جل وعلا نبيه ﷺ أن يطلب الازدياد من شيء إلا من العلم فحسب؛ وذلك لأن العلم الازدياد منه ازديادٌ في الإيمان، ازدياد في تحقيق الشريعة، ازدياد في العبودية، ازدياد في العمل، ازدياد في الجهاد، ازدياد في أثر ذلك علىٰ خاصة الإنسان وعلىٰ عامة الناس، وأما عامة أهل الإيمان فإنهم درجات؛ يعني من بعد الأنبياء فإنهم درجات أعلاهم درجة وأرفعهم قدرا هم أهل العلم كما قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ ﴾[المجادلة:١١]؛ فجعل الجميع مرفوعين فخصّ أهل العلم بالرفعة درجات كما قاله طائفة من المفسرين.

وهذا يدلك علىٰ أنّ العبد الصالح إذا أراد القربىٰ من الله جل وعلا والطاعة له والاجتهاد والجهاد في سبيله، فإنّ أعظم الطرق إلىٰ ذلك العلم النافع؛ لأن بالعلم ازدياد الخير في نفس العبد وفي غيره، فالعلم فضله في هٰذه الشيعة عظيم، فضله يتعدىٰ أن يكون مقتصرا علىٰ عبادة من العبادات؛ بل فضل العالم علىٰ العابد -يعني علىٰ عابد المؤمنين- فضل عالم لأهل الإيمان علىٰ عابد المؤمنين كفضل النبي ﷺ علىٰ سائر الأمة، كما جاء في الأثر.

العلم يحتاج منَّا إلىٰ أن نَعْرِفَه وأن نتعرف فضله وأن نتعرّف منزلته حتىٰ نقبل عليه لأننا إذا علمنا شأن العلم وعلمنا فضله وعلمنا أثره فإن النفوس ترغب أكثر وأكثر في ذلك، فتحصيل العلم أعظم النوافل كما قلنا، والعلم منه واجب فرض علىٰ الجميع ومنه تطوّع؛ لكن بعد أداء الفرائض ليس ثم أفضل من العلم، كما قال ذلك جماعة من العلماء ورُجِّح علىٰ الجهاد في سبيل الله تعالىٰ -جهاد التطوع- لما له من عموم الأثر في الحاضر وفي المستقبل؛ بل هو في الحقيقة عُدة الجهاد وقوة النفس؛

لأن طالب العلم قوي الإرادة قوي النفس قوي الأثر لما يعلم من فضل العلم ومن رِضا الله جل وعلا عن عباده.

لهذا جاء في الحديث الصحيح: «**وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع**». العالم أو طالب العلم أو السائر في ذلك السبيل إذا سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلىٰ الجنة كما جاء في الحديث الصحيح، وهذا يعني أن فضل العلم علىٰ صاحبه أن أي طريق تلتمس فيه العلم النافع الذي مردّه ومأخذه من النص –من الكتاب والسنة ومن فهم أهل العلم– فإنّ ذلك سبيل إلىٰ أن يسهل لك به طريق إلىٰ الجنة.

العلم سبب لمغفرة الذنوب وازدياد الحسنات؛ لأن طالب العلم وهو يتعلم حسناته تزداد، وإنّ الحسنات يُذهبن السيئات، كما ذكرنا لك أنّ طلب العلم من أعظم العبادات فضلا في نفسه وأجرا وثوابا، فيكون –إذن– من أعظم الحسنات التي تُكفَّر بها السيئات قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾[هود]، وقال النبي ﷺ: «**اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»، وهذا يدل علىٰ أنّ طالب العلم يزداد من الحسنات وتكفَّر بذلك سيئاته، إذا قرأ أو إذا كتب أو إذا حضر مجلس العلم أو إذا كرر وحفظ بالنية الصالحة فإنه مأجور وحسناته مكفِّرة لسيئاته ما اجتُنبت الكبائر.

بل إن العلم لأهله ولطلبة العلم سبيلٌ لقوة في دين الله جل وعلا، فالعالم أو طالب العلم يكون قويًّا في دينه لا يدركه الشيطان إلا ما شاء الله جل وعلا، طالب العلم قوي في إيمانه؛ لأنه علم الإيمان بحجته، قوي في عمله؛ لأنه يتعبد وهو يعلم كيف تعبد النبي محمد ﷺ، فهو حين يتعبد يتذكّر ما حُجته في عبادته فيرتبط قالبا وقالبا بسنة النبي ﷺ في صلاته تذكُّرا وفي عباداته وفي صلته وفي دعوته وفي جهاده وفي أمره بالمعروف ونهيه بالمنكر وفي علاقاته، كل ذلك عن علم وعن بصير، بخلاف من يعمل تلك الأشياء عن غير علم فإنه لا يرتبط بهدي النبي ﷺ ولا يتذكّر النبي ﷺ وهدي الصحابة في ذلك.

فطالب العلم موصولٌ بأئمة الدين، موصول بأئمة الإسلام أيضا بعد نبينا ﷺ وبعد الصحابة، فيعمل وهو يعلم أن هذه قال بها الإمام أحمد، قال بها الشافعي، قال بها سعيد بن جبير، قال بها الإمام مالك، قال بها ابن تيمية، وقال بها ابن حزم، قال بها فلان وفلان، فهو موصول بتذكّر هؤلاء العلماء الذين منّ الله جل وعلا عليهم بثناء الأمة عليهم، وهذا يعني الصّلة المستمرة بأهل العلم، والنبي ﷺ يقول: «**أنت مع من أحببت**».

العلم فضله عظيم في أن طالب العلم في تعلمه يؤجر لأنه صاحب نية صالحة، والنبي ﷺ يقول: «**إنّما الأعمال بالنيات وإنّما لامرئ ما نوىٰ**» فكل عبد له ما نوىٰ، وإذا صحت نيّة طالب العلم في العلم فإنه فيما يأتي من العلم بنية صحيحة يؤجر علىٰ ما يعمل من تفاصيله، فكل عمل يعمله بنية صالحة عبادة مستقلة عظيمة يؤجر عليها، كيف إذا كان هذا العلم أعظم ما يُطلب وهو كتاب الله جل وعلا، فلهذا إذا حفظ القرآن بنية صحيحة أو طلب علم التفسير أو طلب الفقه في الدين فإن أجره حينئذ يضاعف ويضاعف والله جل وعلا لا يضيع أجر من أحسن عمله.

صاحب العلم عمله الصالح يضاعَف له بحسب ما في قلبه من اليقين، الله جل وعلا يجزي عن الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة كما جاء في الحديث الصحيح، وهذا يعني أن الناس مختلفون في تضعيف أعمالهم، فمن العباد من يؤجر بالحسنة عشر حسنات، وهذا مِنّة من الله جل وعلا وكرم في جميع أهل الإيمان، «**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها**»، كل مؤمن يأتي بحسنة يجعلها الله جل وعلا عشرة حسنات؛ لكن قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: «**إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة**» قال أهل العلم: هذا التضعيف لأجل ما وقر في قلب العامل من العلم النافع الذي يتفاوت به الناس، والمقصود بالعلم النافع هنا هو سلامة التوحيد، سلامة القلب، سلامة العقيدة، سلامة الإخلاص، ونحو ذلك من اليقين والصلاح.

لهذا قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه قال: **ولمثقال ذرة من بر مع تقوىٰ ويقين أعظم وأكبر من أمثال الجبال عبادة من المغترين.**

(**ولمثقال ذرة من بر مع تقوىٰ**) يعني إخلاص لله جل وعلا وخوف منه ورغبة في لقائه، (**ويقين**) تيقّن وهو العلم الذي لا يدرك الإنسان معه شك ولا ريب أعظم وأكبر من أمثال الجبال عبادة من المغترين؛ لأن الله جل وعلا يضاعف العمل إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، لهذا يختلف ثواب عبادة طالب العلم وعبادة غيره؛ لأن هذا يتعبد وهو يعلم كيف يتعبد وهو يعلم حجته، وهو يعلم مرجعه فيما تعبد وهو صحيح القلب وهو صحيح النية في ذلك صحيح العمل، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[العصر]، فبدأ بالعلم قبل القول والعمل.

من فضل العلم أنّ العلم يفتح للعبد أبواب الخيرات، وذلك أنّه يتعلّم سَعَة أنواع العبادات، فيتعلم الفرائض من الشعائر والنوافل، ويتعلم كيف يبيع وكيف يشتري، ويعلم كيف يصل رحمه، ويتعلم كيف يوصي، ويتعلم كيف يوقف، ويتعلم كيف يعاشر أهله، ويتعلم كيف يربي ولده، ويتعلم كيف يصحح قلبه وكيف يزهد في الدنيا وكيف يقبل علىٰ الآخرة وكيف يعظّم ربه ويتعلم ويتعلم ويتعلم، وهذا العلم بأنواعه يفتح له ولابد أبواب الخير بحسب ما قُدِّر له، ويتعلم فضل الدعوة إلىٰ الله جل وعلا، ويتعلم فضل تيسير الخير وإعانة المسلمين ومدّ يد العون لهم في أمر دينهم في أمر دنياهم، ويتعلم سلامة الصدر من الحسد والحقد والغل فيكون ذلك مؤثرا فيه، يتعلم الأمر بالمعروف فضله والنهي عن المنكر وفله ويسارع في ذلك وبحسب أصوله الشرعية وأحكامه المرعية، ويتعلم ويتعلم، فتكون أبواب الخير عنده دائما في باله لا يغفل عنها؛ لأنه يرددها ويذكرها ويراجعها فلا يغفل عن ذلك، فهو في يومه وفي ليلته في الحقيقة موصول بأنواع العبادات التي تتفتح له بنية صالحة إذا منَّ الله جل وعلا عليه في ذلك.

من فضل العلم أيضا أن العالم ومعلِّم الناس الخير وُصف بأنه مبارك بارك الله جل وعلا فيه وعليه، قال الله جل وعلا مخبرا عن قول عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾[مريم]، قال أهل العلم في التفسير: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ يعني جعلني معلِّما للناس الخير آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر أينما كنت، ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا

﴿دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾ يعني مع تلك الصفة التي هي بركة العلم فإنه متعبد لله جل وعلا غير غافل عن عبادته لربه جل جلاله.

وهٰذا هو البركة العظيمة التي هي بقاء الخير وثباته ونماؤه وزكاؤه؛ لأن البركة معناها الثبات والبقاء، جعله مباركا؛ يعني معلما للناس الخير آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر مبلغا رسالة ربه، وهذا كله يُثمر البركة من الله جل وعلا علىٰ عبده، وهذه هي التي يريدها العبد ويطلبها أن يرضىٰ الله جل وعلا عنه فيجعله ثابتا باقيا علىٰ ما يحبّ الله جل وعلا ويرضىٰ.

من قرأ سِيَر العلماء وجد أنّ أهل العلم في كل زمان ومكان هم المنافحون عن دين الله جل وعلا، وأنهم الثابتون حين تتنازع الناس الأهواء، وأنهم المستقيمون علىٰ السنة حين تدلهم البدع وتعقد الفتن ألويتها، ولهذا جاء في كلام الإمام أحمد في خُطبة كتابه «الرد علىٰ الزنادقة والجهمية»: الحمد لله الذي جعل في كل زمان فَترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يهدون من ضلّ إلىٰ الهدىٰ، ويبصرونهم من العمىٰ، ويحيون بكتاب الله الموتىٰ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه.

ثم ذمّ المخالفين الذين كان العلم عندهم، علم بدعة وضلال، ووصفهم بأنّهم يعني بأن أهل العلم الصالحين بأنهم مخالفون لأهل البدع الذين عقدوا ألوية البدعة وهم مختلفون في الكتاب مخالفون في الكتاب. أو كما قال.

أهل العلم من قرأ التاريخ وجد أنهم الأصلب من أهل العبادة أو من أهل الاحتساب أو ما شابه ذلك؛ لأنهم عن بصر نافذ وقفوا، وببصر نافذ أيضا قاموا وعملوا، كما وُصف الصحابة رضوان الله عليهم بأنهم علىٰ علم وقفوا وأنهم ببصر نافذ كفّوا، فأهل العلم فيما يأتي من مدلهمات أو مما يأتي من شبه وفي كل زمان يكونون علىٰ علم يقفون وببصر نافذ وبصيرة يتفرّسون، ولهذا ضمّهم النبي ﷺ إلىٰ نفيه حين أمره الله جل وعلا في آخر سورة يوسف أن يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾[يوسف]، ولم يؤت الناس وتَضعف هذه الأمة إلا لما نزع أُناس إلىٰ الدين بجهل، كما فعل الخوارج، وكما فعل طائفة من أهل البدع الذين خالفوا السنة، نزعوا إلىٰ الخير ونزعة إلىٰ الصلاح؛ لكنهم نزعة إلىٰ ذلك علىٰ خلاف السنة وعلىٰ خلاف طريقة الصحابة رضوان الله عليهم، فصاروا مع ما هم عليه، صاروا مذمومين علىٰ كل لسان.

فإذن أهل العلم في التاريخ هم الأفضل، وهم الأنبه، وهم الأعلم، وهم الأكثر أثرا في هذه الأمة، لما جاءت فتنة خلق القرآن وقال الإمام أحمد فيها ما قال، وقصة ذلك تعرفونها، سُئل بعض الأئمة من أعلم الناس قال: أحمد. وهذا منه -لا أدري هل هو إسحاق أو نحوه- هذا منه ليشير إلىٰ أن ثباته في ذلك الموقف كان نتيجة لعلمه الغزير بتوحيد الله جل وعلا وبسنة النبي ﷺ.

أهل العلم في كل زمن هم القدوة التي يَقتدي الناس بهم، فمتىٰ جاء الطعن فيهم صار الطعن راجعا بشكل أو بآخر إلىٰ الدين الذي يحملونه؛ لأن الناس لابد لهم من قدوة يقتدون بها ومرجع يرجعون إليه. فإذا طعن في حملة العلم وفي أهل العلم وفي من ينشر العلم قام ذلك قدحا في من قدح في دين الله جل وعلا وفي العلم.

ولهذا لا يقال: إن العالم يَسْلَم من الزّلة أو يسلم من الغلط أو سواء في العلم أو في العمل أو في السلوك، ليس كذلك؛ بل لابد له من ذنوب تُرجىٰ مغفرتها من الله جل وعلا؛ لكن الشأن أن لا يبلّغ في دين الله جل وعلا ما هو مخالف لدين الله جل وعلا أما أن يقع منه الذنب فيقع.

ولهذا قال العلماء في قواعدهم العالم لا يُتبع بزلته ولا يتَّبع في زلته، لا يتبع في زلته تأتي تعنف علىٰ ما زلّ فيه، وصار منه من غلط سواء في العلم أو في العمل أو في السلوك، وأيضا لا يتّبع في زلته كصنيع الجهلة يقولون: فعلها فلان، لماذا أنت حالق حيتك؟ قال: فلان من المشايخ حالق لحيته هذا عالم، العالم يتبع بزلته ولا يتّبع أيضا في زلته؛ لأن العالم لابد أن يقع من غلط، لابد أن يقع منه زلة، ولابد أن تقع منته هفوة ولابد يقع منه مخالفة، لماذا؟ ليبقىٰ الكمال في هذه الأمة في محمد بن عبد الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، منه يؤخذ هذا الدين، سنته هي التي تتبع، أما لو وجد عالم لا غلط فيه البتة لاشتبه -كما قال بعض أهل العلم- لاشتبه العلماء بالأنبياء، وهذا غير واقع.

فيبقىٰ الناس حينئذ، وهذه حكمة من الله جل وعلا، يبقىٰ الناس حينئذ معلَّقين بالعلماء ومتعلقين بالعلماء لكن الأصل أنهم معلقون بسنة النبي ﷺ وبهدي السلف الصالح.

العلماء لم ينالوا العلم عن شهوة، ولم ينالوا العلم بتمني النفس؛ ولكن نالوا العلم بجد وفير وببذل عريض، جمعوا ليلهم ونهارهم في العلم، حتىٰ استوىٰ لهم سوق، قال بعض الصالحين في السلوك وهو ينطبق علىٰ العلم قال: **من كانت بداياته مُحرقة كانت نهاياته مشرقة**. يعني أن بداية طالب العلم -هو أراده في السلوك- ولكن نجعله في العلم وهو صحيح، من كان بدايته في العلم قوية متينة محرقة يعني من قوتها، في نهاياته تكون حاله مشرقة؛ يعني ترق شمسه فيضيء لنفسه ويضيء للآخرين.

فصفة أهل العلم لمن قرأ التراجم وقرأ سِيرهم أنهم جَدُّوا في العلم من الصغر وطلبوا ذلك ورحلوا فيه، ومن لم يكن له رحلة فلن يكون رُحَلة بمعنىٰ أنه من لم يتعب في العلم ويطلب ذلك فلن يطلب الناس منه العلم.

ولهذا أوصي بقراءة سير أهل العلم فإنه لا مشجِّع علىٰ العلم مثل مطالعة سِير العلماء، وكيف تعلموا وكيف صبروا علىٰ العلم، وكيف صبروا علىٰ التحصيل، وكيف صبروا علىٰ الحفظ وكيف وكيف.

وقد سئل البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ صاحب الصحيح محمد بن إسماعيل: ما دواء الحفظ في العلم؟ كان البخاري يحفظ مئات الآلاف من الأحاديث، فقيل له: ما دواء الحفظ؟ كان شائعا أن هناك أدوية للحفظ ظنوا أن البخاري يتعاطىٰ ذلك، كما كان بعضهم يتعاطىٰ بعض المأكولات أو بعض اللبان أو بعض إلىٰ آخره ليقوىٰ الحفظ.

فقال من تجربته: لم أجد للحفظ أنفع من نَهْمَة الرجل وكثر النظر. أمران:

نهمة الرجل: يعني نهمة طالب العلم، وهكذا كان طالب العلم النهمة والرغبة والحرص الشديد، بحيث يجتمع في العلم ليلك ونهارك وتفكيرك.

وإدمان النظر: أيضا كثرة المطالعة، لا تغفل علىٰ العلم؛ لأن العلم ضيف شريف عليك، إن أكرمته بقي عندك وإن تركته تركك ورحل، وهذا مجرب، فبقدر ما تقبل علىٰ العلم يقبل عليك، وبقدر ما تغفل عنه يغفل عنك ويذهب.

الحفظ أساس في العلم كان العلماء عليه، ولا تلتفت لمن يزهدك في الحفظ، لأن الحفظ يبقىٰ، وأما الفهم فهو يأتي ويذهب ولكن إذا ركز الحفظ جاء الفهم بعده فبقي الحفظ والفهم ما شاء الله.

من صفات أهل العلم أن أهل العلم لما حفظوا وتعلموا كانوا علىٰ طريق واضح وهو طريق من سلك في العلم والتعلم، العلم هناك مدارس كثيرة فيه؛ لكن لم ينجح فيها بالتجربة وبالنظر وبالميدان إلا من سلك فيها طريق الأولين؛ لأن الله جل وعلا قال لنبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[القيامة]. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ يعني أن يقرأ كما قرئ عليك، اتبع قرآنه علىٰ نحو ما قرئ عليك هذا معناه الحفظ، قال ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ ليكون الفهم والبيان بعد الحفظ والاتّباع في ذلك.

وقال أيضا جل وعلا لنبيه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ﴾[طه:١١٤]؛ يعني اسمع، فإذا علمت كيف قرئ وكيف تُلي بعد ذلك اتَّبع هذا ولا تعجل، وهذا واضح في سير أهل العلم لأنهم لما سلكوا طريق الأولين نجحوا في ذلك.

لهذا لابد أن تسلك في العلم الطرق الموضحة لكم في مثل هذه الدورات التي تستفيد منها كثيرا في شرح المتون وفي بيان معاني كلام أهل العلم؛ لكن لا يُكتفىٰ بذلك، لابد أن تكون مع العلم ليلا ونهارا.

ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ قال: نظرتُ في ثبت خزانة المدرسة النّظامية –المدرسة النظامية مدرسة يعني شبه جامعة، في القرن الخامس والسادس الهجري واستمرت في العراق، وكان لها مكتبة بناها النظام الملك حد الولاة في ذلك الزمن– قال: نظرت في ثبتها فإذا فيه يعني ما يقارب ستة آلاف كتاب، فإذا فيه ستة ألاف كتاب. قال ولو قلت لي: كم قرأت في الصغر؟ لقلت علىٰ ما يزيد عن عشرين ألف مجلد.

ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ كان يكتب في اليوم الواحد كراسة، ويبلغ ما يكتب في السنة إما نسخا أو تأليفا أكثر من مائة مجلد، في السنة الواحدة.

وحدّث عن نفسه فقال كنت من نهمي في العلم أني إذا دخلت بيت الخلاء جعلت ولدي يقرأ لي خارجا ليسمع فلا يفوته، وإذا زارني بعض الثقلاء اشتغلت أثناء وجوده عندي بتجهيز الورق وبري الأقلام للكتابة، همة عالية.

الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ كان يبحث مرة في مسألة من المسائل، فأتته زوجته، يصح أن تقول زوجته والأصل فأتته زوجه –زوجه كما في القرآن وزوجته في السنة «**زوجة أبيكم في الدنيا**»– المقصود أتته زوجته وقد تعطرت وتطيبت فوقفت علىٰ رأسه قال فرفعت رأسي إليها ثم رجعت إلىٰ كتابي. إلىٰ آخر القصة. المقصود منه أنه لم يكن في قلبه في هذا الوقت إلا همّ العلم، همّ العلم وهمّ طلب العلم.

الحافظ ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ توفي سنة عشر وثلاثمائة صاحب تفسير وصاحب التاريخ ونحو ذلك، قال لطلابه يوما: هل تنشطون لتاريخ العالم؛ يعني من خلق الله الدنيا إلىٰ وقتنا الحاضر،

قالوا: قدر كم؟ عرفوا أن المسالة كبير، قال قدر أربعين ألف صفحة يعني موسوعة الآن أو أكبر، قال: لا، هذا مما تفنىٰ فيه الأعمار. قال: الله المستعان ذهبت الهمم، فاختصر لهم التاريخ الموجود الآن في أحد عشر مجلدا. ثم لما فرغ منه. قال: لهم هل تنشطون لتفسير كتاب الله. قال: قدر كم؟ قال: قدر أربعين ألف ورقة نفس الكلمة، وكان قريب التسعين من العمر، أو في أول الثمانين. قالوا: هذا مما تفنىٰ فيه الأعمار. قال: الله المستعان ذهبت الهمم فاختصره لهم في التفسير الموجود الذي هو الأكبر التفاسير الآن. ولذلك يسمىٰ إمام المفسرين.

ابن جرير الطبري لم يتزوج، وكان كل يوم يكتب من تأليفه أربعين صفحة؛ أربعين ورقة، كل يوم يكتب من تأليفه أربعين ورقة، منشغل؟ ليس بالمنشغل إلا في العلم ولهذا نفع الله جل وعلا الأمة في وقته وفيما بعده به.

فنحن إلىٰ الآن عيال علىٰ ابن جرير فيما كتب وألّف.

ومن أخبار ابن جرير رَحِمَهُ الله تعالىٰ في همته في طلب العلم ما يقوي طالب العلم في ذلك: أتاه رجل وسأله عن مسألة في الفرائض، وهو في أول الطلب كان في الشام، فاستنكف أن يقول: لا أعلم، والفرائض مما يتعلمه طلاب العلم عادة في أوائل ما يتعلمون، فقال: إن عليّ اليوم أَلِيَّة -يعني حلفا أن لا أتكلم في الفرائض- فإذا أتيتني في الغد أجيبك عن مسألة. قال: فدرست الفرائض في ذلك اليوم. والفرائض علم يقال عنه أنه علم أسبوع يعني من أراده في أسبوع أخذ جملة منه حسنة. قال: لما أتىٰ الغد أتاني..

لكن هذه الهمة همة قوية، رحل من رحل، وأتىٰ من أتىٰ ومن صفاتهم العظيمة في طلبهم للعلم أنّ العلم معهم كان ميدان خشية لا ميدان تفاخر، ولهذا نذكر بعض صفات طلاب العلم التي ينبغي لنا أن نتحلّىٰ بها قدر المستطاع، فإذا قصرنا استغفرنا ورجعنا إلىٰ الصواب.

من أهم صفات أهل العلم وطلاب العلم أن يخلصوا النية لله جل وعلا، وأن لا يطلبوا العلم لأجل أن يقال عالم أو أن يقال طالب علم، والنية في العلم أن يطلبه لله جل وعلا لكي يصحح عبادته وعمله مع الله جل وعلا، وله أن يزيد علىٰ ذلك إن آنس من نفسه رشدا أن نوي أن ينفع إخوانه المؤمنين وينشر دين الله جل وعلا، فهذه نية صالحة يؤجر عليها، فإذا نوىٰ رفع الجهل عن نفسه وعن غيره، كانت نيته صالحة لأن الجهل في هذا المقام مذموم.

من صفاتهم أنهم يحرصون علىٰ تعلّم ما به يُخلصون لله جل وعلا، وهو توحيد الله سبحانه والعقيدة الصحيحة؛ لأن أعظم ما يُطلب الإيمان، لهذا قال جل وعلا: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [العصر:٣] ﴿ءَامَنُواْ ﴾ هنا قال أهل العلم: بدأ بالعلم؛ لأن الإيمان هو العلم، وإذا كان الإيمان هو العلم فمعنىٰ ذلك أن أفضل العلم الإيمان، والإيمان هو الذي فسره العلم بالتوحيد وبالعقيدة الصحيحة.

وهكذا كان العلم من أهل النية وأن أتباع السلف الصالح يحرّرون هذا المقام؛ لأنه لا يحسن أن لا تفهمه وأن تجيده وأن تجيد مسائل أخرىٰ هي دونه في القدر، فإذا جاء مشكل في التوحيد أو العقيدة لا تحسن الكلام عليها أو تعرف وجهه وهو حق الله جل وعلا ثم تعرف ما دون ذلك هذا فيه قصور.

ثم بعد ذلك يتعلمون ما يصح به دينه وهو تعلم العبادة والحلال والحرام، بمعنىٰ ذلك أن يكون عندهم تدرج بحسب فضل ذلك وما يريده الله جل وعلا من العبد.

أما أن يكون متوسعا في السيرة وهو لا يعلم توحيد الله جل وعلا ولا السنة ولا يعلم ما يتعبد ربه في صلاته وزكاته وصيامه وحجه والأمور المهمة في ذلك وهذا قصور منه.

من صفات أهل العلم أنهم متراحمون فيما بينهم، يسعىٰ بعضهم في شأن بعض؛ لأنهم علىٰ منهج واحد وعقيدة صحيحة فيما اتبعوا فيه السلف الصالح وكانوا في ذلك، وبعضهم يحب بعضا، ولهذا ذم من ذم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ذموا العلماء الذين يحسد بعضهم بعضا؛ لأن هذا خلاف مقتضىٰ العلم، مقتضىٰ العلم أن يسلم الصدر من الحقد والغل والحسد، وأن تفرح أن يقوم بدين الله جل وعلا من شاء الله من عباده، وأن تفرح أن تكون خليا من الأمر أو خليا من الواجب، وأن يقوم غيرك به، لهذا الصحابة تدافعوا الفتيا وتدافعوا الإمارة وتدافعوا المسؤوليات؛ لأنهم أرادوا السلامة، فإذا تعينت عليهم سعوا فيها واجتهدوا وسألوا الله جل وعلا الإعانة والتوفيق.

فإذن طلبة العلم متراحمون فيما بينهم، متحابون فيما بينهم، لا يحسد بعضهم بعضا، ربنا لا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم، فإذا غلط أو زل أو أخطأ فإنه يسعىٰ في نصيحته بالطريقة الشرعية التي تحبب له الخير ولا تجعل النفوس فيها نفرة، وهذا مما يساعد علىٰ بث الخير وتقليل الشر، ويساعد علىٰ أن يكون أهل العلم وطلبة العلم أن يكونوا شيئا واحدا؛ لأنه بذلك يقوىٰ الخير ويضمحل ويضعف الشر.

من صفات طلبة العلم وأهل العلم أنهم سليمون من كل اسم سوىٰ اسم الإسلام والسنة، ولهذا ذمّ جمع من العلماء العالم الذي ينتصر لشيخه مهما كان، أو ينتصر لمذهبه مهما كان، أو أن يكون منتصرا لحزب أو جماعة أو فئة؛ لأن هذا ليس من مقتضىٰ العلم، مقتضىٰ العلم أن تُعين الخلق وتعين أهل الدين علىٰ الإسلام الذي هو سنة النبي ﷺ أن تعينهم عليه وأن تحببه لهم وأن تغلق عنهم ضده، هذا مقتضىٰ العلم النافع.

وأما إذا كان العلم فيه نصرة لمذهب أو طائفة أو حزب أو جماعة أو نحو ذلك، فهذا خلاف المقصود من العلم وخلاف النية الصالحة، فهذا مذموم فيه.

ولهذا قال بعض أهل العلم في هذا المقام -وهو الشيخ بكر أبو زيد عافاه الله ومنّ عليه- قال في كتابه «حلية طالب العلم» أو نحوه قال: من صفات طلاب العلم أن تكون يا طالب العالم ولاّجا في الجماعات والأحزاب. وذلك أنها لابد أن تحرف منهج طالب العلم عن حقيقة العلم إلىٰ غيره، وأما إذا سلم من ذلك فإنه يرجىٰ له السلامة في المنهج الذي يقتفيه، ولهذا قال أهل جل وعلا لنبيه: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾[يوسف:١٠٨]، قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في مسائل كتاب التوحيد في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ التنبيه علىٰ الإخلاص. بخلاف من يدعو إلىٰ شيخه أو إلىٰ طريقته.

من صفات أهل العلم أنهم يحرصون علىٰ نفع الناس في دينهم وأيضا في دنياهم ما أمكنهم ذلك، وأنهم دعاة إلىٰ الخير آمرون المعروف ناهون عن المنكر، لأن مقتضىٰ العلم النافع الصحيح هو حمل هذه الرسالة ووراثة النبي محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ، الأنبياء كما قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**لم يورثوا دينارا ولا دهما فإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحض وافر**» والنبي ﷺ في مهماته المختلفة ورثها عنه أهل العلم في مهمة الفتيا والإمامة وفي نفع الناس والعطف والرحمة والصلة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجميع أبواب الخير، أهل العلم هم أولىٰ بها من غيرهم، والناس في ذلك تبع لأهل العلم في ذلك؛ لأنهم يعلمون حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله في هذه المسائل العظيمة.

إذن فالعلم يقضي بحقه علىٰ طالب العلم أن يكون داعية إلىٰ الخير، ليس معنىٰ داعية إلىٰ الخير أن يكون أمامه مكرفونات ويحاضر أو خطيب جمعة، لا، داعية إلىٰ الخير بحسب ما عنده من العلم في نفسه في أهل بيته وفيمن يكون من الجهال لديه أو يسافر إليهم أو نحو ذلك، يكون في نفسه أن يعلّم لكن علىٰ طالب علم وعنده علم ولا يحرص علىٰ نفع الناس، هذا فيه نظر وليس هذا من الصفات المحمودة؛ بل من الصفات المحمودة أن يكون ساعيا في الخير في أمر المسلمين في دينهم وفي دنياهم وفي الأمر بالمعروف وفي النهي عن المنكر ومن جميع ما فيه رفعة لدين الله جل وعلا.

من صفات أهل العلم وطلبة العلم أنهم سليمو اللسان والقلب من كل ما لا يرضي الله جل وعلا.

أما اللسان فلسانهم طيب، وصفة ألسنتهم أنها طيبة، طالب علم يغتاب! نمام! يقع في هذا وفي هذا! طالب علم تجد لسانه لا يراعي فيه الله جل وعلا! إذا خاصم فجر! خاطب بخطاب سيئ! هذا من ليس من صفة أهل العلم المحمودة وليس من مقتضىٰ العلم النافع، ولهذا قال الله جل وعلا لنبيه: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾[الإسراء:٥٣]، هنا يأتي الصبر، هل يتوقع طالب العلم أو العالم أن لا يأتي أن لا يسمع شيئا يكرهه؟ لابد أن يسمع هذه الحياة، النبي ﷺ سمع ما يكره وأوذي، هل يريد أن يقال له دائما أنت كذا وكذا؟ ليس صحيحا لابد أن ينقسم الناس، ولابد أن يواجه ولابد أن يقول جاهل عليه أنت دينك هذا فيه كذا لابد أن يصبر، وأن يكون لسانه عفيفا، طيب اللسان، طيب الكلام، طيب القول، ولا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث.

إذن فطالب العلم من صفته أن يكون لسانه أحسن ما يكون، في ألفاظه، وفي تعاملاته وفي صبره، وقد كان جمع فإذا أوذوا عُرف ذلك في وجوههم؛ لكن لم يؤثر ذلك أن يكونوا يستطيلون علىٰ الناس في أعراضهم بألسنتهم، الناس لابد أن يكون مصيب، ومنهم مخطئ، ومنهم علىٰ صواب، ومنهم من ليس علىٰ الصواب، ولكن يصبر عليهم ويعلمون ويرشدون، ويكون اللسان طيبا عفيفا.

كذلك القلب، طالب العلم يجاهد نفسه أن يكون قلبه سليما، سليما من الغل والحقد والحسد علىٰ الماضين وعلىٰ الحاضرين، إلا ما كان من ذلك فيما أُذن به شرعا في بعض المسائل؛ لكن أن يكون في قلبه الأمور المنكرة وكبائر القلوب، نعوذ بالله من غش وغل المؤمنين.

من صفات طلاب العلم أيضا أن طالب العلم صاحب عمل صالح، وصاحب خوف من الله جل وعلا وخشية؛ لأن الحقيقة هو العلم هو الخشية إذا لم يثمر العلم خشية لله جل وعلا فهو علم فيه قصور

أو غير نافع أو لم يكتمل نفعه، لهذا قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر:٢٨]؛ يعني أن أهل العلم هم أحق الناس بخشية الله جل وعلا لما يعلمون من صفة الله جل وعلا في ربوبيته وأسمائه وصفاته، ولما يعلمون مما أعدّه الله جل وعلا للمؤمن وللعاصي وللمنافق وهكذا، أهل العلم ينظرون دائما في أعمالهم بنظرين:

نظر رحمة.

والنظر الثاني نظر خوف ووجل.

أما نظر الرحمة فهو نظرهم إلىٰ الخلق وإلىٰ أهل الإسلام بخاصة، ينظر إليهم ويرحمهم، يرحم العاصي حين عصىٰ؛ لأنه ما عصىٰ إلا بتسلّط العدو عليه وهو إبليس، ويرحم العبد الذي لم يفقه دين الله جل وعلا، ويرحم المحتاج من لم يعمل لدين الله، ويرحم من خالف الصواب ويرحم من خالف المنهج، ويرحم ويرحم لأجل أن يهديه إلىٰ منهج السلف الصالح وسنة النبي ﷺ.

ومن جهة أخرىٰ في قلبه الخشية والخوف من الله جل وعلا.

فيكون معه نظران:

النظر الأول: نظر خوف من الله ومن الحساب، ومما يقابل به ربه جل وعلا.

والنظر الآخر: الرحمة.

فيحمله الخوف علىٰ العمل وعلىٰ الجد، وتحمله الرحمة علىٰ ألا يكون غليظًا مع المؤمنين.

ومن صفات أهل العلم وطلبة العلم أنهم أهل صبر في طلب العلم والتحصيل فيه وأهل استمرار علىٰ ذلك، فالعلم لا يُطلب في يوم وليلة، وليس مدة طلب العلم سنة ودورة أو دورتين أو عشرة أو عشرين، العلم معك منذ أن تبدأ إلىٰ أن تموت، ولهذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ الله: اطلبوا العلم من المهد إلىٰ اللحد. لأنه لا يشبع منه.

وقال أيضا: مع المحبرة إلىٰ المقبرة. يعني الواحد لابد أن يكون دائما معه كتاب ومعه ورق.

معه همة وصبر علىٰ لذلك لا يفارقه العلم والكتاب والحفظ والمدارسة هما كان؛ لأنه إن فارق ذلك فإنه يضعف علمه أو يفقده بحسب ذلك.

من صفات طلبة العلم أنهم ساعون في الخير بعيدون عن الشر حريصون علىٰ ما فيه خير أنفسهم وخير الناس بعيدون عما فيه شر أنفسهم وشر الناس، لهذا وصف أهل العلم بأنهم الجماعة، الجماعة التي جاءت في الحديث أنّ النبي ﷺ لما ذكر الفرق «**كلها في النار إلا واحدة**» قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «**الجماعة**».

قيل للإمام أحمد: من الجماعة؟ قال: هم أهل الحديث. وفي رواية قال: هم أهل العلم. قال الترمذي في جامعه: هم أهل العلم.

فأهل العلم من أهم صفاهم أنهم ساعون في اجتماع الناس؛ الاجتماع علىٰ الدين الحق، والاجتماع علىٰ ولاة أمرهم وعدم إحداث الفتن كبيرها وصغيرها، وهذا صفة أئمة أهل السنة وأتباع السلف الصالح منذ الزمن الأول إلىٰ زمننا الحاضر إلىٰ يرث الأرض ومن عليها.

ولهذا وصف أهل العلم بأنهم الجماعة بأهم هم الحريصون علىٰ الجماعة بنوعيها جماعة الدين وجماعة الأبدان.

ومن صفاتهم أيضا أنهم متعاونون علىٰ البر والتقوىٰ؛ لأن تحقيق الخير وتحقيق الدين لا يكون بعمل فرد ولا بعمل جهة، وإنما يكون بالتعاون كل في مجاله وكل في جهته وأهل العلم هم أحرىٰ الناس وطلبة العلم بأن يرعوا ذلك وأن يتعاونوا علىٰ البر والتقوىٰ وأن يحذروا علىٰ التعاون علىٰ الإثم والعدوان.

وصفات طلبة العلم كثيرة متنوعة لعلكم تتابعون ذلك بقراءتها فيما كُتب في صفات أهل العلم.

نسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم ممن منّ عليه بحمل العلم وجعله ثابتا علىٰ ذلك، ومنّ عليه بالصفات الحسنة لأهل العلم.

ونسأله جل وعلا أن يغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، وأن يجعل عاقبتنا إلىٰ خير.

كما أسأله جل جلاله أن يوفق ولاة أمرنا إلىٰ ما فيه رضاه وأن يجعلنا وإياهم من المتعاونين علىٰ البر والتقوىٰ، وأن يوفق أهل العلم منا إلىٰ ما فيه عز الإسلام وقوة المسلمين ونشر العلم النافع وازدياد الخير واضمحلال الشر.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الأسئلة]

نجيب علىٰ بعض الأسئلة.

سؤال (١): أول سؤاله فيه استدراك لكلمة ذكرتها قال: قلت ضمن كلامك: إن الأنبياء أعلم أهل زمانهم وهٰذا لاشك فيه، ولٰكِن في عهد موسىٰ أليس الخضر عنده علم أكثر منه؟ فيقال: إن أعلم زمان موسىٰ الخضر، أم الخضر نفسه نبي؟.. إلخ

الجواب: لما ذكرتُ الكلمة جاء في الذهن الخضر، والخضر مع موسىٰ عليه السلام كان أعلم من موسىٰ في مسائل، وأما من جهة علم النبوة والعلم بالله جل وعلا وعلم الرسالة فموسىٰ عليه السلام كان أعلم؛ لٰكِن بالعلم العام الذي قاله موسىٰ كان يذكر للناس من كل شيء خبراً، فسأله سائل فقال له: يا موسىٰ: من أعلم الناس؟ فقال: أنا.

وهٰذا تفضيل مطلق في كل نواحي العلم بما يدخل فيها بعض أمور الغيب.

فقال له الله جل وعلا: يا موسىٰ إيتِ عبدنا خضرا فإنه أعلم منك، حصلت القصة المعروفة، وموسىٰ عليه السلام لم يصبر مع الخضر ففارقه الكليم كليم قلب، ونبينا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قال: «وددنا لو أن موسىٰ صبر» يعني لنرىٰ ما يعمل الخضر زيادة علىٰ ما ذكر.

فالمقصود أن الأنبياء من جهة النبوة ومن جهة الرسالة؛ الرسول هو أعلم أهل زمنه، أو أعلم من أرسل إليهم إذا لم يكن في زمنه نبي أو مرسل آخر.

قصة موسىٰ عليه السلام مع الخصر فيها فوائد كثيرة في طلب العلم، وفي الصبر علىٰ المعلم، وفي الأناة، وفي عدم المعارضة لأهل العلم، فيها فوائد كثيرة جدا في هٰذا الباب.

سؤال (٢): هل الأصح أو الأفضل لطالب أن يلازم شيخا واحدا يأخذ عنه كافة العلوم، خاصة في بداية الطلب، أم ينوع في الأخذ، وهل يصح ذلك عند عالم قد مات وبقيت آثاره بحيث يلزمها طالب العلم.

الجواب: العلم واسع، فيأخذ العلم عمن يحسنه، العلم واسع فنون منه علوم الآلة مختلفة، وعلوم الآلة علوم، ومنها العلوم الأصلية الرئيسة، هٰذه أيضا علوم وفنون.

فيأخذ العلم ممن يرىٰ أنه ينفعه في ذلك؛ لٰكِن كثرة الأشياخ قد تكون مشغلة عن الطلب وعن الملازمة، فيرىٰ ما هو الأنفع له، إذا وجد عالما قويا في العلوم يُشبع نعمته فيما يطلب، فيلازمه وفي ذلك الخير.

لٰكِن إذا كان عنده نهمة ويجد أن هٰذا العلم أو المعلم أو طالب العلم يكون جيِّدًا في الحديث لٰكِن ليس جيدا في الفقه.

يكون قويا في شرح العقيدة والتوحيد ولا يكون قويا في علم آخر، أو يدرس هٰذا ولا يدرس غيره، فإنه ينوع بحسب قوته؛ لٰكِن ينتبه لنفسه أن لا تكون كثرة المشايخ معطلة له أو باعثة له علىٰ الفتور؛ لأنه أحيانا أن يرهق طالب العلم نفسه بأكثر من نهمته وقدرته وما يحس من نفسه هٰذا يشغله، وربما يصيبه بالفتور في حين ما؛ لٰكِن إذا أخذ العلم شيئا فشيئا بحسب قدرته ونهمته فإنه يحصِّل علىٰ مرِّ الزمن.

سؤال (٣): تعلمون ما للعلم من أهمية في رفع الجهل عن الناس وعن المرأة بخصوصها، فما هي الوسائل المفيدة لرفع الجهل عن المرأة والزوجة خصوصًا؟

الجواب: المرأة مخاطبة بالعلم كما يخاطب الرجل، النساء شقائق الرجال، ومطلوب منها أن تتعلم، مطلوب منها أن تفقه في دين الله؛ لٰكِن النساء يختلفن كما يختلف أيضا الرجال، بحسب فراغها وشغلها أو بحسب استعدادها وقوتها وذكائها ونحو ذلك مما يكون معها.

فالعلم هي مخاطبة به، فالمرأة إذا أحست من نفسها رشدا، وأرادت أنها تُقبل علىٰ العلم فهناك ولله الحمد الآن كثير من النساء طالبات علم، يناقشن ويسألن، وبعضهن يؤلف ويكتب بقدر ما أعطاهن الله جل وعلا، وهٰذا أمر حسن؛ لأن من الصحابيات من كن فقيهات، عدد منهن أم الدرداء زوج أبي الدرداء كانت فقيهة عالمة عائشة رضي الله عنها كانت المرجع للصحابة في السنة وفي مسائل من الفقه واستدركت علىٰ الصحابة مسائل كثيرة.

من النساء من كانت شيخة أعني بهذا الكلمة شيخة كما قال عدد من أهل العلم في إجازاتهم: حدثتنا الشيخة الصالحة فاطمة كان يقرأ عليها الكتاب طبعا من وراء حجاب لأجل لأن عندها إجازات عالية وهي ربما أصلحت الغلط لبعض طلاب العلم، وهكذا كانت النساء.

العناية بهن في العلم والدعوة من أهم المهمات، أن يقوم العلم والدعوة ونشر الخير علىٰ الرجال فقط هٰذا غير صحيح وليس من دين الله؛ بل المرأة مطلوب منها أن تسعىٰ في العلم، وأن الزوج يعينها علىٰ ذلك، يعينها أخوها يعينها قريبها، محرمها علىٰ ذلك، ويؤثر لها إذا كانت عندها استعدادات فطرية لهٰذا، يعينها علىٰ الخير، يعينها علىٰ ما تحصِّل به العلم.

وهٰذا مهم اليوم؛ لأن أكثر ما ترىٰ اليوم من هجوم ومن أنواع من الفساد والمنكرات أكثر من يواجهها وتوجه إلىٰ المرأة.

فإذا كانت الدعوة والخير في الرجال وضعُفت في النساء معنىٰ ذلك أنها سيضعف الخير شيئا فشيئا وستقوم البيوت علىٰ شفا جرف هار.

هٰذا لا ينبغي؛ بل لا يجوز أن يكون بحال.

ومن وسائل صده أن يسعىٰ النساء في طلب العلم وأن يحرصن علىٰ ذلك كما كان الأوائل يحرصن علىٰ ذلك.

الإمام شيخ الإسلام محمد ن عبد الوهاب رحمه الله كانت له ابنتان سارة وفاطمة وكلتاهما طالبة علم متمكن، سارة بقيت في الدرعية، وفاطمة ذهبت إلىٰ جهة الإمارات، الآن كانت في القديمة تسمىٰ عمان أو ساحل عمان لقربها منه، ودرّست هناك ودرّست الأخرىٰ أيضا في الدرعية وبقيت لهن كتب أيضا موقوفة وحصلنا كتبا كثيرة.

وهٰذا كثير في تاريخ الإسلام النساء مهم أن يطلبن العلم وأن يحرصن علىٰ ذلك لما في هٰذا من نشر للخير وتعليم للصغار وللكبار .

سؤال (٤): ما رأيكم في متن حديث لطالب هل هو «بلوغ المرام» أو «عمدة الأحكام»؟

الجواب: يبدأ بـ«عمدة الأحكام» لأنه أخصر وكله من «الصحيحين» مما اتفق عليه الشيخان أو جاء في أحدهما، وهو قليل حوالي ٥٠٠ حديث، أما «بلوغ المرام» فهو نحو ١٦٠٠ حديث كثير فيبدأ بـ«عمدة الأحكام» فإذا أنهاه ذهب إلىٰ «البلوغ».

سؤال (٥): بعض من ينتسب إلىٰ أهل السنة في هٰذا العصر يقول: إن جنس العمل ليس ركنا في الإيمان وإن كان جزءا منه؛ بل هو وجب فيه فقط بمعنىٰ أن الإنسان إذا اعتقد بقلبه وأقر بلسانه؛ ولكنه لم يعمل عملا قط، فإنه مؤمن إلا أنه ناقص الإيمان.. إلىٰ آخره.

الجواب: الذي أجمع عليه أهل السنة والجماعة وذكروه في معتقداتهم وفي كتب العقيدة لهم مخالفين بذلك أهل الإرجاء بطوائفهم المختلفة أن الإيمان قول وعمل، وأنه اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان.

وأن العمل داخل في الماهية، وإذا دخل في الماهية فهو ركن فيه بإجماع أهل السنة.

والعمل الذي هو ركن في الإيمان هو جنس العمل بالفرائض وترك المحرمات، العمل بالفرائض وترك المحرمات، هٰذا هو الركن؛ بمعنىٰ أنه يعمل بالفرض ويجتنب المحرم هٰذا داخل في حقيقة الإيمان، وليس كل عمل ركنًا في الإيمان.

وأيضا ليست كل الأعمال ركنا في الإيمان، هٰذا معتقد الخوارج، أنه أي عمل فرض لا يعمل به أو أي محرم يرتكبه فإنه يقدح في أصل إيمانه فيكفر بذلك؛ لكنه إذا جاء بعمل مما أمر الله جل وعلا به وانتهىٰ عن محرم مما حرمه الله جل وعلا ونهىٰ عنه، فإنه يدخل في عقد الإيمان، فيصح معه هٰذا الإيمان

الذي اجتمع فيه اعتقاد القلب وقول اللسان والعمل الذي هو العمل بالفرائض واجتناب المحرمات، هٰذا هو القدر المجمع عليه بين أهل السنة والجماعة.

أما من جعل العمل جزء من الإيمان وليس ركنا فيه، هٰذا لا يجوز جزء من الشيء داخل في ماهيته إلا وهو ركن، هٰذه المسألة اه بحث مبسوط في كتب العقائد كما هو معروف.

الآن أركان الإيمان ستة ما فيه أحد يقول: أنها ليست أركانا من الإيمان، ولٰكن ليس فيه حديث ولا في القرآن ولا في السنة ولا كلمة عن أحد من الصحابة يقول فيها: أركان الإيمان الستة، أو أركان الإيمان ستة، لا يوجد ركن في كلام النبي ﷺ أركان الإيمان أو هٰذا من أركان الإيمان.

لكن العلماء بالإجماع قالوا: هٰذه الستة هي أركان الإيمان، كما أن أركان الإسلام خمسة، مع أنه لم يأت في السنة أركان الإسلام خمسة هي كذا إنما فيه «بني الإسلام علىٰ خمس» أو أنه سئل ما الإسلام فقال: «أن تشهد.. ».

لهٰذا نقول: العلماء جعلوا الشيء ركنا إذا كان داخلا في الماهية لا يقوم إلا به من جهة النص أو من جهة الحقيقة.

فجعلوا أركان الإيمان ستة لماذا؟ لأن النبي ﷺ سئل: ما الإيمان؟ فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره».

وهٰذا الجواب جواب عن الماهية التي سئل عنها بـ:(ما)؛ ما الإيمان؟

إذن الإيمان الذي أجيب عن حقيقته وماهيته هٰذه الستة فهي أركان.

قال: ما الإسلام؟ قال كذا فهي أركان.

نقول الآن مثلا: أركان الصلاة هل فيه دليل يقول: أركان الصلاة كذا؟ ليس فيه دليل يقول: أركان الصلاة كذا.

أركان البيع، أركان النكاح، هل فيه دليل يقول: أركان النكاح؟ لا.

كلمة ركن هٰذه مصطلح جعلها العلماء في ما دل الدليل علىٰ أنه داخلٌ في الماهية.

والعمل كذلك دل الدليل علىٰ أنه داخل في الماهية في قوله جل وعلا: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾[البقرة:١٤٣]، والمقصود عملكم وهو الصلاة.

فلما عبر عن العمل بالإيمان دل علىٰ أنه داخل في حقيقته وماهيته، وأنه ركن.

النبي ﷺ جاءه وفد عبد القيس فسألوه، فقالوا له: ما تأمرنا؟ فقال -عَلَيۡهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كما في الصحيحين: «آمركم بالإيمان بالله وحده»، قالوا: وما الإيمان بالله وحده؟ قال: «أن تشهدوا أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأن تقيموا الصلاة، وأن تؤدوا الزكاة، وأن تعطوا الخمس من المغنم».

قال أهل العلم: ذكر الخمس من المغنم لأنه عمل فيدل علىٰ أن العمل كان جوابا عن الماهية، فصار ركنا من أركان الإيمان.

هٰذا القدر متفق عليه بين أهل السنة فيما سطروه، ولا خلاف بينهم، في أن الإيمان قول وعمل ونية ويزيد وينقص، وأنه اعتقاد وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان، وأنه ليس كل عمل ركنا من أركان

الإيمان؛ بل العمل من حيث هو هو الركن لٰكِن ليس كل فرد فرد من الأعمال الصالحة يدخل ركنا من أركان الإيمان، لأن هٰذا من معتقد الخوارج.

فخالف بذلك أهلُ السنة أهل البدع من المرجئة والخوارج.

الخوارج قالوا: كل عمل ركن، فمن ترك أي عمل كفر.

والمرجئة قالوا: ليس ثم عمل أصلا داخل في حقيقة الإيمان.

وهٰذا وهٰذا خلاف منهج أهل السنة، والحمد لله أن الأمر ظاهر بين من جهة الدليل، ومن جهة المقتضىٰ.

لٰكِن هنا تنبيه وهو أن إحداث مصطلحات في مسائل العقيدة وخاصة مسائل الإيمان لابد أن يفضي إلىٰ خلاف.

لماذا؟

لأن المصطلح له عدة أوجه في التفسير، يفسره من أحدث المصطلح أو من استعمله بتفسير، ويفسره الآخرون أيضا بتفسير.

فإذا صار النزاع وقع الخلاف في أصل المسألة.

وهٰذا مما يجب الحذر منه.

مسائل الاعتقاد والإيمان نتبع فيها ولا نبتدع، لا نحدث فيها شيئا، لا مصطلحا ولا لفظا؛ لأن أصل الخلاف والفرقة التي وقعت في الأمة في القرن الأول كانت بسبب هٰذه المصطلحات ومسائل الإيمان والأسماء والأحكام.

فإذا جاءنا من جاء بمصطلحات جديدة، فإنه وإن كان قد يفسِّرها بتفسير صحيح؛ لكنه يوقع الفرقة ويوقع الخلاف؛ لأنه لن يفهم منها ذلك.

لهٰذا أحض الجميع أن لا يُجتهد في مسائل الاعتقاد، مسائل العقيدة والمنهج منهج السلف الصالح بين واضح فيها مئات الكتب، فنتبع فيها ولا نحدث فيها شيئا.

وهٰذا الاتباع هو الذي يجب علينا، وهو سبيل أهل العلم في ذلك.

جعلنا الله جل وعلا وإياكم من المستمسكين بمنهج السلف الصالح، المقتفين أثر أئمة الإسلام في ذلك إنه سبحانه جواد كريم.

وفي الختام أرجو أن تكون هٰذه الدورة دورة نافعة كالدورات التي سبقت، وأن يوفق الله جل وعلا القائمين عليها لتنظيمها، وحسن ترتيبها، وتوفير ما يحتاجه طلاب العلم في هٰذا المسجد.

كما أسأل الله أن يوفق طلبة العلم الذين يُلقون فيها العلم، وأن يعيننا وإياهم علىٰ ما فيه الهدىٰ والسداد، وأن يوفقنا جميعا إلىٰ ما فيه رضاه، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

محاضرات (٢/ ١٣)

ثمرات العلم

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، أحمده سبحانه وأثني عليه الخير كلَّه، فهو المتوحّد باستحقاق جميع أنواع المحامد، فالحمد له كثيرا كما أنعم كثيرا، وأسأله -سبحانه- أن يجعلني وإياكم ممن يحمده ويشكره كما يحب ويرضىٰ، وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا مزيدًا.

أما بعد؛

فأسأل الله -جل جلاله- لي ولكم أن يجعلنا ممن إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر.

كما أسأله المولىٰ -جل جلاله- أن يجعلني وإياكم ومن نحب من عباده وأوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وأسأله أن يبارك لنا في أعمالنا وأعمارنا وأن يجعل قليل علمنا حجة لنا لا حجة علينا.

ثم إن العلم والحرص عليه من علامات محبة الله -جل وعلا- للعبد؛ قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**» فدل الحديث بمنطوقه علىٰ أن من تفقّه في الدين وكان فقهه نافعا له أنه من علامات إرادة الله -جل وعلا- به الخير، ودلّ بمفهومه -مفهوم المخالفة- علىٰ أن من ترك العلم وسعىٰ عنه إلىٰ غيره فإنه ممن لم يرد الله به خيرا؛ لأنه ولا شك العلم يرفع العبد، كما قال -جل وعلا-: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾[المجادلة:١١]، فأهل الإيمان مرفوعون عن غيرهم، وأهل العلم من أهل الإيمان أعلىٰ من عموم أهل الإيمان بدرجات، ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾[الإسراء]، فللّه -جل وعلا- الحمد علىٰ أن وفّق من وفق منا إلىٰ الإقبال علىٰ العلم والحرص عليه، فنسأل المولىٰ -جل جلاله- أن يثبتنا علىٰ هـٰذا السبيل وأن يجعلنا ممن يرد حوض النبي -عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- غير مغيرين ولا مبدّلين ولا محدِثين، إنه سبحانه جواد كريم.

موضوع هـٰذه المحاضرة:

ثمرات العلم

ولاشك أن العلم له ثمرات، ودلّ علىٰ ذلك قول الله -جل وعلا-: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ

﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾[المجادلة:١١]، فمن ثمراته المنصوص عليها في القرآن أن أهل العلم مرفوعون درجات.

ومن ثمراته المذكورة في القرآن ما جاء في سورة النساء في قوله -جل وعلا-: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٦٧ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٦٨ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية، فدلّت الآية علىٰ أن الذي يعلم وعمل فإنّ هٰذا خيرا له في دنياه وخيرا له في آخرته، وأنّه إن أورثه العلم الطاعة فإنّه مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وفي القرآن لم يأمر الله -جل وعلا- نبيه أن يسأل المزيد من شيء إلا من العلم؛ فقال -سبحانه- في سورة طه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾، وهٰذا مما يدلك علىٰ جلالة قدر العلم أنّ الله -جل وعلا- خص به أنبياءه وخصّ به أولياءه، فإنّ العبد كلما كان أكثر علما وأورثه العلم ثمراتِه من العلم وغيره فإنه أقرب إلىٰ ربه -جل وعلا-، قد قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾[فاطر:٢٨]؛ يعني إن أحق الناس خشية لله -جل وعلا- الذين يعلمون الرّب -جل وعلا- في ذاته وأسمائه وصفاته وما جاء في شريعة أنبيائه عَلَيْهِم الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

لاشك إذن أن للعلم ثمرات، وثمرات العلم لا تستقصيها مثل هٰذه المحاضرة، ولابد لكل أحد منكم أن يسعىٰ إلىٰ العلم أولا؛ ثم أن يتفطّن لنفسه إن سعىٰ إلىٰ العلم هل حصّل ثمرات العلم؟ أو هل ناله من ثمرات العلم ما ناله العلماء من ذلك، أم لم ينل من ذلك شيئًا، أم كان متوسّطا؟ إلىٰ آخره.

لهٰذا نقول: لاشك أن العلم الذي يعتني به الناس قسمان كما هو ظاهر في حياة الناس، العلم الذي يعني به الناس قسمان:

- علم يراد للدنيا.
- وعلم يراد للدِّين.

والدنيا يعطيها الله -جل وعلا- من يحب ومن لا يحب؛ ولكن الدين لا يعطيه الله -جل وعلا- إلا

من يحب، وهٰذا كما جاء مأثورا فإنه من معنىٰ قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**» ومن معنىٰ قوله: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**».

العلم لما كان منقسما إلىٰ علم يراد بالدنيا وإلىٰ علم يراد بالدين، فإن العلماء نظروا في التفضيل بينهما.

كما قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: لما أردتُ طلب العلم نظرت فإذا العلم علمان:

- علم لصلاح الأبدان.
- وعلم لصلاح الأديان.

فنظرتُ فإذا العلم الذي لصلاح الأبدان لا يعدو الدنيا، وإذا العلم الذي هو لصلاح الأديان للدنيا والآخرة، فأقبلتُ علىٰ الفقه وتركت الطبّ.

وكان هو ممن نال طرفًا من علوم مختلفة من الطب والأدب والفراسة، إلىٰ آخره.

لهٰذا إذا قلنا: (ثمرات العلم) فنعني بها العلم الذي هو أعظم فائدة وأجزل عائدة، وهو الذي يراد للدنيا والآخرة، الذي يُصلح الله -جل وعلا- به الدنيا ويصلح الله -جل وعلا- به الآخرة، دنيا العبد؛ طالب العلم في نفسه، وآخرة العبد طالب العلم في نفسه، وكذلك دنيا غيره والمجتمع، وكذلك آخرة الأمة جميعا، كما سيأتي في ثمرات طلب العلم.

لهٰذا قال العلماء: العلم علمان:

- علم نافع.
- وعلم غير نافع.

أما العلم النافع فهو العلم بالله -جل وعلا-؛ يعني علم الدين، العلم الذي يراد للآخرة الذي يصلح الله -جل وعلا- به دنيا العبد ويصلح الله به آخرته، وهٰذا العلم هو في الحقيقة النافع؛ لأنه نفع العبد في حياته كلِّها، وحياة العبد منقسمة إلىٰ حياة أولىٰ وإلىٰ حياة أخرىٰ.

فحقيقة العلم النّافع النفع المطلق الكامل؛ هو علم الشريعة علم الدين العلم بالله -جل وعلا- وبرسوله ﷺ وبما أنزل من حدود جل جلاله.

لهٰذا لما تكلّم بعض السلف في الأنساب وسُئل: هل علم الأنساب من العلم النافع؟ قال: هو جهالته

لا تضر. يعني لا تضر العبد في دينه، ولا تضر العبد في دنياه وآخرته معا. فوجّه إلىٰ أن يعتني طالب العلم بالعلم الذي ينفعه في دنياه وفي آخرته.

وهٰذا العلم النافع هو العلم الموروث عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقد صحّ عن النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -كما في الصحيح- أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل ما بعثني الله به من العلم والهدىٰ كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكانت منها طائفة نقيّة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فاستقىٰ الناس وشربوا وزرعوا، وكان منها طائفة إنما هي قيعان لا تنبت كلأ ولا تمسك ماء، فذلك مثل ما بعثني الله به من العلم والهدىٰ ومثل من علِم وعلّم**» وهٰذا الحديث لاشك أنه يدلّ علىٰ أنّ العلم الذي خصّ الله -جل وعلا- به أنبياءه وخصّ أعلىٰ الأنبياء مقاما محمدا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بأعلىٰ العلم هو العلم الذي ورّثه النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لهٰذا صح عنه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال: «**العلماء ورثة الأنبياء فإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما فإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحض وافر**»، لهٰذا العلم النافع هو الذي له الثمرات التي سيأتي الحديث عن بعضها.

فإذن العلم علمان: علم نافع وعلم غير نافع، والعلم النافع هو علم الدِّين وهو الذي تكلم عنه شمس الدين ابن القيم -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ- تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية وناقل علمه وحافظ سيرته، حيث قال في «نونيته» في أبياته المشهورة لما تكلم عن الجهل والعلم قال:

والجهـــلُ داء قاتـــلٌ وشـــفاؤه	أمـــران في التركيـــب متفقـــانِ
نـــص مـــن القـــرآن أو مـــن ســـنة	وطبيـــب ذاك العـــالم الربـــاني
والعلـــم أقســـام ثـــلاث مـــا لهـــا	مـــن رابـــع والحـــق ذو تبيـــانِ
علـــم بأوصـــاف الإلـــه ونعتـــه	وكـــذلك الأســـماء للـــديانِ
والأمـــر والنهـــي الـــذي هـــو دينـــه	وجـــزاؤه يـــوم المعـــاد الثـــاني
والكـــلُّ في القـــرآن والســـنن التـــي	جـــاءت عـــن المبعـــوث بالفرقـــان
والله مـــا قـــال امـــرُؤ متحـــذلق	بســـواهما إلا مـــن الهـــذيان

إلىٰ آخر كلامه، فجعل العلم النافع الذي يضاد الجهل ويثمر الثمرات النافعة العظيمة في الدنيا والآخرة، جعله ثلاثة أقسام:

الأول (علم بأوصاف الإله ونعته أو وفعله)، وهٰذا يعني به التوحيد، ولاشك أن التوحيد الذي هو حق الله علىٰ العبيد العلم به هو أعظم أنواع العلوم؛ بل هو أفضل العلوم، لم؟ لأن العلم يتنوَّع بتنوع المعلوم، والتوحيد يبحث في أي شيء؟ يبحث في أسماء الله -جل وعلا- وفي صفاته وفيما يستحقه -جل وعلا- وفي حق الله -جل وعلا- علىٰ العبيد وما يتصل بذلك.

فإذن المعلوم بعلم التوحيد هو ما يتّصل بالرب -جل جلاله- وما يضاف إليه من نعوت الجلال وأسماء الجمال والجلال، فلهٰذا كان أفضل العلوم التوحيد.

قال العلماء: لأن فضل العلم بفضل المعلوم وشرف العلم بشرف المعلوم، ولهٰذا كان التوحيد أفضل العلوم وأشرفها.

وأيضا التوحيد هو أفضل العلوم النافعة؛ لأنه يُصلح اعتقاد العبد، ويُصلح باطنه، والنبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- قال في بيان تفضيله وعظم قدره عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**إني لأعلمكم بالله وأخشاكم لله وأتقاكم لله**» فكلما زاد العبد علما بالله -جل جلاله- بما يستحقه وبما يضاف إليه -جل وعلا- كان لاشك أعلم فهٰذا من جهة.

ومن جهة أخرىٰ فإن العلم بالله -جل جلاله- العلم بالتوحيد يُورث صلاح الباطن، يورث صلاح القلب، يورث صلاح العبد فيما بينه وبين الله جل جلاله.

ولهٰذا قال العلماء: إن عمل القلب متنوِّع، وقول القلب هو اعتقاده؛ اعتقاده في الله جل وعلا.

يعني العلم بالتوحيد وما يتّصل بالاعتقاد وهٰذا قول القلب، والإيمان قول وعمل، فلابد من قول القلب وعمل القلب -وقول القلب هو اعتقاد القلب وعمل القلب متنوع- ولابد من قول اللسان وعمل الجوارح في الإيمان.

لهٰذا يعظم العبد إخلاصا ونية إذا كان له الحظ الأكبر من هٰذا العلم النافع الذي هو توحيد الله -جل وعلا- والعقيدة الصحيحة.

لهٰذا ينبغي لك أن تلحظ المعنىٰ هٰذا في قوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لامرئ ما نوىٰ**»، وفي رواية أخرىٰ «**وإنما لكل امرئ ما نوىٰ**» وقوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» والنية محلها

القلب، فرجع الأمر إلىٰ أنّ أعظم أنواع العلم النافع هو علم التوحيد الذي به صلاح القلب، والذي إذا صلح القلب صلح الجسد كله.

فإذن العلم هٰذا هو أعظم ما تتوجه له في طلبك للعلم؛ لأنّ العلم يأتي بعد، ولأن الصلاح يأتي بعد.

فإذا صحّ قلب العبد وصحت نيته وصح علمه بربه -جل جلاله- ومعرفته بالله -جل وعلا- فإنه ولا شك لابد أن يخشع ولابد أن ينيب إلىٰ ربه وإن حصل منه غفلة فلابد أنه يرجع سريعا ولا يكون معرضا عن الله جل وعلا.

العلم الثاني من العلوم النافعة بعد علم التّوحيد الذي يشمل توحيد العبادة توحيد الأسماء والصفات توحيد الربوبية هو: **علم الأمر والنهي**؛ وهو علم الحلال والحرام، علم ما يصح من عبادتك وما لا يصح؛ يعني علم الظاهر، وهٰذا هو الذي يسمىٰ علم الفقه، وسُمِّي علم الفقه لظاهر قول الله -جل وعلا-: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[التوبة]، وما جاء في الأحاديث من ذكر الفقه؛ لكن في الحقيقة أنّ الفقه في القرآن هو الفهم، الفقه هو الفهم، فلهٰذا صار الفقيه هو العالم الذي يفهم معنىٰ كلام الله -جل وعلا- وكلام رسوله ﷺ، وهٰذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[الأنعام:٢٥] يعني أن يفهموه.

فإذن تسمية علم الفقه الذي يبتدئ من الصلاة إلىٰ آخره، الصّلاة وما قبلها من الشروط الطهارة والمياه التي يتطهر بها وما يتصل بذلك، هٰذا كله جعلوه كذلك؛ لأنه بعد الشهادتين وهما أعظم أركان الإسلام.

وإلّا ففي الحقيقة بعض العلماء قسم الفقه إلىٰ قسمين فقه أكبر وفقه أصغر، وجعل الفقه الأكبر هو التوحيد، وهٰذا لأجل أن يحظىٰ التوحيد والفقه جميعا بقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**» (**يفقهه**) يعني الفقه الأكبر والأصغر؛ يعني التوحيد وعلم الحلال والحرام.

ابن القيم في هٰذه الأبيات قال: (والأمر والنهي الذي هو دينه) الأمر والنهي يعني العلم بالحلال والحرام؛ يعني بالفقه، وهٰذا ولاشك أنه من علمه فإنه سيصلي علىٰ وَفق الشريعة، سيتطهر علىٰ وفق الشريعة، سيصوم علىٰ وفق الشريعة، يحج علىٰ وفق الشريعة، يبيع ويشتري علىٰ وفق الشريعة؛ بل يعاشر أهله علىٰ وفق الشريعة، ففرق بين عالم وجاهل، وليس سواء عالم وجهول.

الفقه الأمر والنهي يلاحقك في كل مكان، حتىٰ في جلستك هٰذه يلاحقك الأمر والنهي والحلال والحرام والواجب والمندوب والمباح والمكروه إلىٰ آخره، فمن علم أحكام الشريعة تصرَّف في أحواله علىٰ وفق تلك الأحكام، فيكون مأجورا في كل حال لأنه يفعل ما يفعل متذكرا حكم الشريعة ويتصرف علىٰ وفق ذلك، وإذا أتىٰ بعض الذي يريد أن يَأتيه يأتيه وهو يعلم كذا وكذا وأن هٰذا يجوز في هٰذا الحال، وهٰذا لا يجوز في هٰذه الحال.

بخلاف من هو جاهل فإنه لا يعلم إلا قليلا فسيرتكب كثيرا من الأشياء وهو لا يعلم أنه خالف، يعصي ولا يعلم أنه عصىٰ، يخالف ولا يعلم أنه يخالف.

لهٰذا صار أعظم الناس علمًا بالحلال والحرام وبالفقه هم أشد الناس استغفارا لله -جل وعلا-؛ بل أعظم الناس علما هو المصطفىٰ ﷺ فإنه يستغفر الله ويتوب إليه في المجلس الواحد مائة مرة كما صح عن النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ.

لهٰذا فائدة عِظَم العلم بالحلال والحرام أن يمشي العبد وأن يسير في أحواله كلها علىٰ وفق العلم، واحد يعاشر أهله يأتي يجلس مع أولاده يكلم زوجه، يكلم أباه، يكلم أمه، إذا كان غير عالم، أو غير طالب علم أو ما يعرف الأحكام الشرعية المتعلقة بكل هٰذا فسيعاملهم بمقتضىٰ الطبع أو بمقتضىٰ ما يهوىٰ أو مقتضىٰ ما ألف في بلده وفي مجتمعه أو ما يختاره ميزاجه ورأيه، وهٰذا لاشك أنه قد يكون ضلالا وقد يكون خروجا عن ما جاء في حكم الشّرع.

لهٰذا (الأمر والنهي الذي هو دينه) هٰذا أعظم العلوم النافعة بعد التوحيد، فمن كان عالما بالتوحيد عالما بالفقه، فإنه قد حظي علىٰ هذين النوعين من العلم النافع.

والعلم الثالث، قال ابن القيم فيه **(وجزاؤه يوم المعاد الثاني)** هٰذه أقسام العلوم الثلاثة (والعلم أقسام ثالث ما لها من رابع والحق ذو تبيان):

النوع الأول: التوحيد.

الثاني: الفقه.

الثالث: ما يحصل يوم القيامة؛ علم الجزاء؛ يعني ما يحصل يوم القيامة وما يكون فيها، وكيف يجازي الله العباد وما يجازي الله به العباد، وما يجازي الله به العباد، وكيف تكون الحسنات وكيف تكون

يحاسب الإنسان في قبره، وبما يحاسب، والعقوبات ومكفرات الذنوب إلىٰ آخر ذلك، هـٰذا لاشك من العلم العزيز الذي هو نور في صدور أهله.

ولهـٰذا تجد أن القرآن كثيرٌ من آياته في القيامة؛ بل أكثر ما جاء في القرآن التوحيد، ثم القيامة، ثم الأوامر والنواهي يعني الحلال والحرام والأحكام، لم؟ لأن الحقيقة استقبال العبد للأمر والنهي والحلال والحرام إنما يكون بعد حسن توحيده وصلاح قلبه وبعد خوفه من الله -جل وعلا- وعلمه بما يكون يوم المعاد الثاني؛ يوم القيامة.

فإذن العلم الذي هو الذي العلم النافع ويوصىٰ به، والذي ثمراته ستأتي إن شاء الله تعالىٰ، ومن ثمراته الذي هو هـٰذا العلم الذي ذكره ابن القيم: التوحيد، الفقه، ما يحصل يوم القيامة من بعد موتك إلىٰ أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

هـٰذا العلم النافع ما مصدره؟ من أين تتلقاه؟

لاشك أن العلم لابد أن يُتلقىٰ عن الله -جل وعلا- وعن رسوله ﷺ؛ ولهـٰذا قال ابن القيم بعدها: (والكل) يعني كل أقسام العلوم؛

والكـلُّ في القـرآن والسـنن التـي جـاءت عـن المبعـوث بالفرقـان

العلماء ما وظيفتهم؟ «**العلماء ورثة الأنبياء**» بنص الحديث، إذا كان العلم في الكتاب والسنة فما وظيفة العلماء من الصحابة -رضوان الله عليهم- إلىٰ وقتنا الحاضر وإلىٰ أن يرث الأرض ومن عليها؟ العلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء مبلغون، الأنبياء مبشّرون ومنذرون، يبلغون رسالات الله كما قال سبحانه الذي يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله.

إذن العلماء وظيفتهم البلاغ، بيان الحق وعدم الكتمان، فلابد أن يكون للنبي ﷺ في كل زمان من أهل العلم من يصدعون بأحكام الله -جل وعلا- لبيان التوحيد وبيان ضده من الشرك وبيان حقوق الله -جل وعلا-، وبيان الحلال والحرام، وبيان ما يقرّب الناس إلىٰ الجنة ويبعِّدهم من النار.

هـٰذه مهمة الأنبياء والمرسلين وهي البلاغ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[الشورىٰ:٤٨]، فإذا كان كذلك، فإذن العالم يشرح للعامة يشرح للناس معاني كلام الله -جل وعلا- ومعاني رسوله، يبين الأحكام بما يعلم من دليل الأحكام من الكتاب والسنة، أو من إجماع أهل العلم أو بما اجتهد فيه المجتهدون.

فإذن العالم في الحقيقة في هٰذه الأمة ورث نبينا -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ-، وهٰذه الأمة ليس فيها نبي بعد محمد -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ-، كان بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما مضىٰ نبي جاء نبي، الأنبياء في بني إسرائيل كثير جدا عددهم؛ لكن في هٰذه الأمة جعل الله -جل وعلا- العلماء يقومون مقام الأنبياء في البيان والإرشاد والجهاد وبيان الحق وبيان ضده حتىٰ يكون الناس علىٰ بصيرة، وقد قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله وهم كذلك**» كما هو في الصحيح.

إذا تبين هٰذا فإذن العلم يؤخذ عن أهله، وأهل العلم هم الذين يبينون معاني الكتاب والسنة، رام طوائف من الخوارج وغيرهم، راموا أخذ العلم عن غير الصحابة بل عن أنفسهم فضلوا وأضلوا؛ بل قال فيهم عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**سيكون قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من قول خير البرية، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم، ولئن لقيتهم لأقتلنهم قتل عاد**» وهٰذا يدلك علىٰ أن الشأن ليس في أخذ العلم؛ يعني في أخذ القرآن في أخذ السنة، وإنما الشأن في الطريقة التي يؤخذ بها معنىٰ القرآن ومعنىٰ السنة، ولهٰذا قال ابن القيم مبينا لك هٰذا المعنىٰ قال:

والجهـــــلُ داء قاتـــــلٌ وشــــفاؤه ... أمـــــران في التركيـــــب متفقـــــانِ
نــــص مــــن القــــرآن أو مــــن ســــنة ... وطبيـــــب ذاك العـــــالم الرّبـــــاني

لابد من طريق، وإلا فالنبي ﷺ ذمّ من لم يأخذ العلم عن أهله كما ذمَّ الخوارج وكما ذم غيرَهم.

لهٰذا نقول العلم لاشك النافع الذي ينفع العبد في دنياه وفي آخرته وله من الثمرات ما سيأتي بيان بعضها هو العلم بهٰذه الأقسام وهٰذا طريقه، فإن العلم الذي يستقل به العبد فإنه قد يكون فيه من البلاء عليه ومن الغلط ما لا تؤمن معه العاقبة.

لهٰذا نقول: إنه إذا اتّضح ذلك وبان لك أن العلم أعظم ما تسعىٰ إليه، وأن من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وأن النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- شبه الذي قبِل الهدىٰ والعلم الذي جاء به -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- بالأرض النقية الطيبة التي حفظت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير فنفعت الناس، قال: «**كذلك مثل من علم وعلّم**»، إذا علمت هٰذا وعلمت عظم هٰذا المثل، وأنّ أعظم من أخذ وقبِل هدىٰ

الله -جل وعلا- الذي بعثه -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- هو من علم فعلّم، زادك هٰذا حرصا علىٰ العلم وأخذا له وشغفا به ومحافظة عليه وحرصا علىٰ طريق أهله، وهم العلماء الذين ورثوا محمدا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ.

إذا تبيّن هٰذا نقول: إنّ العلم له ثمرات عظيمة لمن أخذه بحق، وهٰذه الثّمرات -يعني الفوائد والنتائج- تراها مُثمرة للعبد في نفسه، وتراها مثمرة لمن أخذ العلم أيضا في غيره، وثمرات العلم لا تقتصر علىٰ العبد في نفسه؛ بل العلم يُثمر لمن حمله بحق يثمر في نفسه وفي غيره، كلٌّ بحسب ما قدر الله -جل وعلا- له، لاشك أنّ العلماء في أنواع ثمارهم لا يتساوون، وكذلك طلبة العلم لا يتساوون، وصحابة النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- الذين هم من العلماء لم يتساووا في أثر العلم علىٰ الناس جميعا، فمنهم من كان له أعظم الأثر، ومنهم من كان له الأثر العظيم؛ لكنه أقل من السابق وهكذا، وكلُّ أثرهم كان في العلم عظيم.

لهٰذا نقول: إنّ الثمرات هٰذه منها ما هو قاصر علىٰ العبد في نفسه، ومنها ما هو متعدٍّ، منها ما هو قليل، ومنها ما هو كثير.

العلم أعظم ما يُورِث في العبد خشية الله -جل وعلا-، ولاشك أن الإيمان عند أهل السنة والجماعة يتبعّض، ويزيد وينقص، لهٰذا من أعظم ما يزيد به الإيمان العلم، والعلم يورِث الخشية، فرجع الأمر إلىٰ أنّ من ثمرات العلم علىٰ طالب العلم أن يكون ذا خشية من الله -جل وعلا-، وحقيقة الخشية التي قال فيها -جل جلاله- في وصف أهلها: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر:٢٨]؛ حقيقة هٰذه الخشية أنه خوفٌ لكن مع عدم اضطراب، الخوف يكون معه عدم اضطراب ويكون معه عدم سكينة، لهٰذا كان الخوف عامًّا، قال: خاف فلان من عدوه، وخاف من النار وخاف من الأسد وخاف من المرض، هٰذا الخوف يحدث العبد نوعا من الاضطراب؛ لكن إذا كان الخوف خوف خشية فإن هٰذا هو خوف الملائكة وخوف الأنبياء الذي هو خوف الخشية.

لهٰذا جعل الله -جل وعلا- العلماء خوفهم منه -جل جلاله- خوف خشية؛ فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾؛ لمّا كان الإيمان يتبعّض كذلك الخشية تتبعّض، لهٰذا العلم كلما زاد كلما قاد صاحبه إلىٰ الخشية، وإذا كان أضعف خشية فإنه يُذكر صاحبه بأن يعود إلىٰ خوف الله -جل وعلا-

وخشيته والإنابة إليه.

لهٰذا قال بعض أهل العلم: طلبنا العلم وليس لنا نية فجاءت النية بعد. لماذا؟ طلب العلم بدون نية، طلب العلم تبع مع زملائه تبع أصدقائه أو طاعة لوالديه أو لأي سبب من الأسباب، ما كان له نية صالحة فيه أو ما كان له نية في العلم بالله -جل وعلا- وتعظيم خشيته والإنابة إليه، ثم لما أخذ طرفا من العلوم قاده ذلك إلىٰ خشية الله جل وعلا.

لهٰذا أعظم ما يُثمر العلم في العبد أن يكون ذا خشية من الله -جل وعلا-، وأن يكون مُجِلًّا له سبحانه خائفا.

من ثمرات العلم أن يكون العبد مُخلصًا، العلم النافع الذي هو التوحيد يقود إلىٰ الإخلاص؛ لأنه يعلم، من علم التوحيد ورفع به الرّأس وحافظ عليه ولم يهجره إلىٰ غيره؛ بل تمسك به، دائما يلاحقه في إخلاصه، يلاحقه في نيّته، يلاحقه في تعظيم حق ربه -جل وعلا-، ويلاحقه في نبذ الشِّرك بأنواعه، من الشرك الأكبر والعياذ بالله والأصغر وهو كثير في زماننا هٰذا، وكذلك الشرك الخفي الذي هو في هٰذه الأمة أخفىٰ من دبيب النملة السّوداء علىٰ الصفاة السوداء في ظلمة الليل.

بعض الناس يقول: الحمد لله، نحن مخلصين ما عندنا ولله الحمد شرك. لا، التوحيد يدلك علىٰ الإخلاص في كل شيء، يلاحقك، كيف تُخلص في طلبك للعلم، كيف تُخلص في معاملتك لوالديك، كيف تُخلص في معاملتك لأهلك، كيف تخلص في علمك؛ لأن التعامل في الجميع مع من؟ مع رب العالمين جل جلاله.

فالإخلاص بأن يكون القصد وجه الله -جل وعلا- هٰذا شرط العمل: «**إنما الأعمال بالنيّات وإنما لامرئ ما نوىٰ**».

ولهٰذا جاء في بر الوالدين لما ذكر -جل وعلا- في سورة الإسراء الأمر ببر الوالدين ذكّر الله -جل وعلا- بالإخلاص كما قال سبحانه: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾[الإسراء]، قال العلماء: لابد للإنسان إذا راعىٰ والديه في حال الكبر لابد أن يكون عنده نوع ملل، لابد أن يكون عنده نوع فتور ورغبة أنه لا يفعل هٰذا الشيء، نوادر من

يكون صابرا محتسبا في كل حركة وفي كل قول وفي كل عمل، قال سبحانه: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ هل تعملون هـٰذا احتسابا وامتثالا ورغبة فيما عند الله -جل وعلا-، أو تعملونه كرها ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ إذا صلحت منكم القلوب باطنا والنية باطنا وصلحت منكم الأعمال ظاهرا ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ ﴾ الذين يكثرون الرجوع إليه استغفارا مما قد يحصل من القصور ﴿غَفُورًا ﴾ يغفر الذنب مغفرة واسعة.

هـٰذا تنبيه للإخلاص في معاملة ما، فكيف في معاملة للأهل، معاملة للأولاد، التعامل مع أهل الحقوق جميعا سواء كانوا كبارا أم صغارا.

إذن أعظم ما يثمر العلم النافع أنه يلاحق صاحبه بالإخلاص في كل عمل، لهـٰذا ذكر العلماء: أن الإخلاص في أي عمل له قدر مشترك في كل الأعمال، وكل عمل له إخلاص ونية تخصه.

فالإخلاص في جميع الأعمال هو أن يكون القصد وجه الله -جل وعلا- لا الدنيا، هـٰذا قدر مشترك في كل عمل.

والإخلاص في كل عمل؛ يعني في الأعمال يعني في كل عمل، عمل، هـٰذا بحسب ذاك العمل.

فالإخلاص في طلب العلم ما هو؟ قال العلماء: أن ينوي رفع الجهل عن نفسه وعن غيره، ينوي أن يتعلم ليرفع الجهل عن نفسه فيعمل في عمل موافق للشريعة، وأن يعمل ليعلّم غيره ويبلِّغ شريعة الله جل وعلا.

الإخلاص في بر الوالدين له حال، الإخلاص في العمل له حال، إلىٰ آخره، الإخلاص في الجهاد له حال، الإخلاص في الدعوة له أيضا تعريف.

إذن هـٰذا من عظيم ما تطلبه وتسجله من الفوائد عندك أن تتطلّب الإخلاص العام والإخلاص الخاص.

فأعظم ما يلاحقك به العلم ويثمر في قلبك الثمرات النافعة أنه يلاحقك في الإخلاص؛ أن تكون مخلصا لله -جل وعلا- في جميع أحوالك.

ولقد قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر المخلصين قال:

فلواحد كن واحدا في واحد   أعني سبيل الحق والإيمان

يعني بكل جميع أعمالك لله الواحد الأحد.

من ثمرات العلم أن العلم يورث العمل الصالح، العلم النافع لابد لصاحبه أن يكون ذا عمل؛ يعني أن يعمل بما علم، أما الذي لا يعمل بما علم فهو داخل في قول الله -جل وعلا-: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾[البقرة:٤٤]، فقال السلف رحمهم الله: العلم يورث العمل، ويهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل، فصار للعلم مع العمل له شأنان:

الأول أن العلم يورث العمل، من علم علما نافع لابد أنه يخشىٰ الله ويتقيه ويحافظ علىٰ الفرائض ويجتنب المحرمات وأهل العلم في ذلك درجات.

وأيضا العلم يهتف بالعمل، العلم دائمًا يطلب من صاحبه أن يعمل، فإن أجابه، يعني إن وجد العلم من صاحبه العمل، وإلا ارتحل عنه.

ولذلك شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦﴾[النساء]، قال: من فوائد الآية أن الفعل والعمل لما أُمر به العبد وعلمه يورث الخيرية له ويورث الثبات، قال: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾، التثبيت بأيش؟ قال تثبيتا في الإيمان تثبيت للمعلومات، ولهٰذا نرىٰ من علمائنا الصالحين حفظهم الله -جل وعلا- نفع بهم، نرىٰ منهم العمل الكثير الصالح مما ثبت العلم في قلوبهم وفي صدورهم، فنفعوا الناس عقودا من السنين عشرات السنين وهم ينفعون الناس، وذلك من فضل الله -جل وعلا- عليهم ونعمته، ختم الله -جل وعلا- لهم بخير.

إذن لابد لك إذا أردت العلم أن يثمر العلم الذي تعلمه العمل، كيف يثمر العمل؟ يعني أعظم العمل صلاح القلب بأنواع أعمال القلوب؛ لأن أعمال القلوب شأنُها عظيم، أعمال القلوب ممثل الإخلاص لله -جل وعلا-، وممثل التوكل علىٰ الله -جل وعلا-، الإنابة إليه خشية الرب -جل وعلا- محبته، الخوف منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الرّغب وحسن الظن به، أعمال القلوب من جهة عدم الكبر، التواضع لله -جل وعلا-، تحقير النفس في ذات الله -جل وعلا-، إلىٰ آخره، أعمال القلوب يجب أن تفتش عنها؛ لأنها واجبات وكثير من الناس يغفل عنها.

ثم العمل -أعمال الجوارح- منها إتيان الفرائض وترك المحرمات. والمسابقة في النوافل المسابقة في

النوافل من الصلاة والصيام والصدقات والعلم النفل والدعوة النفل إلىٰ آخره، هـٰذا كله مما يثبِّت العلم ويجعل العبد مؤتمرا بالمعروف منتهيا عن المنكر.

لاشك الموضوع يطول تفصيله؛ لكن هـٰذه إشارات لعلها تكون مفتاحًا لكم في مدارسة غيرها.

أيضا من ثمرات العلم وهو أعظم الثمرات: الصلاح، طالب العلم والعالم يُثمر علمه الذي يحمله أن يكون صالحا، ومن هو الصالح؟ أهل التفسير -علماء التفسير- فسّروا الصالح في الآيات التي وردت بأن:

الصالح من عباد الله هو القائم بحقوق الله وحقوق عباده.

هـٰذا هو الصالح، من قام بحقوق الله، وحقوق العباد فهو الصالح.

إذن الحقوق عظيمة، فالعلم يورث ويثمر في صاحبه أن يكون صالحًا؛ يعني قائما بحقوق الله بإتيانه الفائض والنوافل مسابقا في الخيرات بحسب ما قُدر له، وأن يكون قائما بحقوق العباد حقوق العباد؛ أعني جميع أنواع العباد من المسلمين ومن غيرهم، هـٰذه الحقوق التي نصّ الله -جل وعلا- عليها في القرآن أو جاءت في السنة أو أجمع عليها أهل العلم لاشك أن القيام بها دين، والعلم إذا تعلم الإنسان القرآن وتعلم السنة ورأىٰ هـٰذه الحقوق فلابد أن يمتثلها وإلا فإنه سيكون غير قائم بحقوق العلم.

ما هـٰذه الحقوق؟ أعظم حق لله التوحيد، وقد ذكرنا لك طرفا مما يتّصل بهـٰذا؛ يعني الصالح من عباد الله الذي علم فأصلحه الله -جل وعلا- لا تجده زاهدًا في التوحيد، ليش؟ لأن التوحيد بالخصوص والعقيدة بالخصوص تُنسىٰ، وتأتي الشّواغل عنها فيقع العبد في ضدها وهو لا يعلم، وقارن في ذلك بين ما عليه الناس الآن في أمر التّوحيد وأمر حساسية الألفاظ وما يتّصل بالشرك، وما كانوا عليه في هـٰذه البلاد من خمسين سنة، كيف كانت الحساسية وكيف كان الشعور، الآن بعض الصغار وبعض النساء يفعلون أشياء وين التوحيد إذن؟ وين ثمراته؟ كيف صار صالحا قائما بحقوق الله وهو ما رفع بذلك الرّأس وتحمس له وعلِمه وعلَّمه وبلغه.

إذن الصلاح يورث لاشك القيام بحقوق الله -جل وعلا-، وكلما زاد العبد معرفة حق الله زاد حرصا علىٰ التوحيد ومفرداته جميعا، وزاد خوفا من الشرك وأنواعه.

لهـٰذا قال إبراهيم الخليل -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- الذي هو أعلم أهل زمانه بالله -جل وعلا- سائلا

ربه قال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥﴾[إبراهيم]، قال إبراهيم التيمي -كما تعلمون في تفسير الآية- لما تلا الآية قال: ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟ كان إبراهيم الخليل -عليه السلام- ما أمن البلاء بعبادة الأصنام، فسأل ربه أن يجنبه ويجنب بنيه عبادة الأصنام قال من يأمن البلاء بعد إبراهيم؟ إذن نحن لا نأمن.

وإذا أمنت؛ من أمن الله علىٰ نفسه طرفة عين أتاه الله علىٰ غرة، فالله -جل وعلا- يستدرج العباد.

ثم القسم الثاني القيام بحقوق العباد.

حقوق الله -جل وعلا- في الحلال والحرام، ما أحله وما حرمه، إتيان الفرائض والمحافظة عليها في أوقاتها، وتحريم المحرمات، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في كل زمان بحسبه، هٰذه لاشك كلها فرائض ومن ثمرات العلم كما سيأتي بسط بعضها.

حقوق العباد، هٰذه من ثمرات الصلاح، لهٰذا تجد طالب العلم الحق يخشىٰ من حقوق العباد، لم؟ لأنه يعلم أن حق الله -جل وعلا- مبني علىٰ المسامحة، وحقوق العباد مبنية علىٰ المشاحّة، والله -جل وعلا- أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وأرحم الراحمين يغفر سبحانه ولا يبالي؛ لكن العباد يوم القيامة ما فيهم إلا المشاحة، لهٰذا يخشىٰ العبد من التفريط بحقوق العباد.

وحقوق العباد متنوعة كثيرة، وقد ذكرناها مفصلة في محاضرة في بيان الحقوق.

من ثمرات العلم أنّ العلم يورث في طالب العلم الاقتداء بأهله، ولقد كان السّلف يظنون بطالب العلم خيرا إذا كان يصاحب الأشياخ، ويظنون به شرا إذا كان يصاحب الأحداث، كما جاء في «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأن صحبة الأشياخ والكبار تحمل علىٰ أن يقتدي بهم، وأن يرىٰ العلم ويرىٰ فهم العلم ومعاني التنزيل ومعاني السنة وكيف يتعامل مع الأشياخ يراها أمامه، وإذا كان لا يصاحب من أخذ العلم قبله وعقد مع العلم قلبه سنين عددا، إذا كان لا يصاحبه وإنما يصاحب الأحداث فإنه لابد أن يكون عنده نقص وربما شر، كما جاء في قول من سلف:

وكل خير في اتباع من سلف   وكل شر في ابتداع من خلف

العلم يتوارثه العلماء هديا وسمتا ودلاّ، ويتفاوتون فيما بينهم في التزام ما دل عليه العلم ولاشك؛ لكن العلم والعمل محفوظ بأهل العلم وأهل الحديث والسنة بلا شك، ويتفاوتون فيه، فطالب العلم يثمر

العلم فيه أنه يحب العلم ويحب أهله ويقتدي بهم.

والعلم وأهل العلم لهم منهاج يتوارثونه، ربما لا يكون ذلك موجودا في كل كتاب، أو في كل شرح أو بيان؛ لكن أهل العلم يقتدي الخالف منهم بالسالف؛ أعني أهل العلم بالسنة المتحقّقين بهدي السلف؛ يعني علماء الضلالة والبدع لا يدخلون في ذلك.

لهٰذا فطالب العلم يُثمر له العلم أن ينهج نهج العلماء، وأن يقتدي بهم وأن ينظر سيرتهم.

ومن علامات العلم النافع أن يسير المرء سيرة أهل العلم، ومن علامات أن العلم لم يثمر الثمرات النافعة في صاحبه أنه يهجر أهل العلم أو أنه ينال منهم -والعياذ بالله- أو أنه يستهزئ بهم أو أنه يحتقرهم ويظن أن الخير ليس عندهم وإنما عند غيرهم، والله -جل وعلا- بيّن أن العلماء هم المرفوعون درجات.

من ثمرات العلم علىٰ أهله أنّ العلم النافع يورث صاحبه التؤدة وعدم العجلات إلا في الخير، ولما قيل لأبي ذر رضي الله عنه في بعض أموره التي استعجل فيها من أمور العبادات وقيل له: إنّ العجلة مذمومة قال: ليس كل عجلة مذمومة، فالعجلة إلىٰ الله -أي إلىٰ العبادة- محمودة؛ وإلا لو كانت مذمومة لم يقل موسىٰ لربه جل جلاله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾[طه].

إذا كان الواحد يستعجل في الذهاب إلىٰ المسجد، لا يأتي واحد يقول له: لا تستعجل. يستعجل في خير كما قال الشافعي:

إذا هبـــت رياحـــك فاغتنمهـــا ... فـــإن لكـــل عاصـــفة ســـكون

جاء أمر من الخير تخشىٰ أن يفوت.

فيك نشاط لقيام الليل، ما يأتي دائما.

فيك نشاط لحفظ القرآن، ما يأتي دائما.

فيك نشاط للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يأتي دائما.

فيك نشاط للدعوة، لا يأتي دائما.

فالعجلة في الخير يعني الاستعجال فيما يحب الله -جل وعلا- ويرضىٰ من الأقوال والأعمال لاشك أن هٰذا محمود؛ لكن العلم يورث صاحبه التؤدة والحلم والأناة في شأنه كله.

والتؤدة والأناة والحلم من الخصال المحمودة التي تفيد المرء في علمه وتعلمه، وكذلك في تعامله مع الناس.

ومن ثمرات العلم أيضا أن العلم يورث صاحبه التّواضع، فلا تجد عالما متكبّرا؛ نعني بالكبر أنه يردّ الحق فيغمط الناس، لا يقبل الحق ويحتقر الناس ويقع في الناس، هٰذه ليست من صفات أهل العلم، وكلما زاد العيد في العلم رسوخا صار العلم في حقه نافعا كلما تواضع لله -جل وعلا-، قد صح عن النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- أنه قال: «**إن الله أوحي إلي أن تواضعوا حتىٰ لا يفخر أحد علىٰ أحد ولا يبغي أحد علىٰ أحد**» لا تجد طالب العلم متحقق بالعلم يفتخر -يعني افتخار الجاهلية- يفتخر بنسبه ويحقر الناس في أنسابهم، ولا تجد طالب العلم متحقق بالعلم يرىٰ نفسه أعظم من الآخرين؛ بل كلما كان العلم أنفع في حقه كلما ظن أن طلبة العلم الآخرين أنهم أنفع للعباد وأنهم أخشىٰ لله -جل وعلا- ويحتقر نفسه ويتواضع لله -جل وعلا-؛ لأنه يعلم من نفسه ما يعلم، ويتعاون معهم علىٰ الخير والهدىٰ، ويبذل ما يستطيع.

الحسد يكون بين طلبة العلم ويكون بين العلماء، قد حصل في الزمن الأول، كما أنه باقٍ يحصل في كل زمان؛ لكن لاشك أن العلم يوجب علىٰ العبد أن يكون متواضعا، ويوجب علىٰ العبد أن لا يكون حاسدا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، صار فلان أحفظ مني أو صار أعلم أو صار أنفع للعباد أو صار، الواحد يفرح أن يقوم قائم بحق الله -جل وعلا- وحق العباد، وأن يؤدي هٰذه المهمة وأن يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، وأن يدعو إلىٰ الله -جل وعلا-، أن كان فلانا أذكر من فلان أو أذكىٰ من فلان أو أحفظ أو أعلم يقع فيه أو يتتبع غلطاته أو تجد أنه يلمز فلانا أو أن مؤلفات هٰذا أكثر أو لأن مؤلف فلان نفع، تجد أنه يطعن فيه أو نحو ذلك، لاشك أن العلم يجعل صاحبه لا يتحاسد مع إخوانه، ولا يحقر أخاه، قد قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»، أسأل الله -جل وعلا- أن يجنبني وإياكم وأن يجنب إخواننا ذلك.

ومن ثمرات العلم أيضا أنّ العلم النّافع الذي ذكرناه يورث أصحابه وحملته الخُلق الجميل والنعت الفاضل في أقوالهم وفي أعمالهم، ولهٰذا أحقُّ الناس بالأخلاق الفاضلة هم العلماء؛ لأنهم ورثة محمد -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- والنبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- قال فيه ربنا جل جلاله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ

﴿٤﴾[القلم]، فأهل العلم كما يرثون العلم يرثون الخُلق الفاضل ويرثون الكلام الجميل والعفو عمن أساء، ويرثون كل خصلة خير.

لهٰذا العلم يُثمر في صاحبه أن يكون عفّ اللسان وأن لا يكون بذيء اللسان، أما من كان سبَّابًا شتاما يقع في هٰذا ويقع في هٰذا ونحو ذلك، هٰذا في الحقيقة لم يتحقّق بالعلم فلم يثمر فيه العلم ثمرة نافعة، العلم يورث الخلق الحميد في تعامل الإنسان في بيته، يورث الخلق الحميد في تعامل الإنسان مع من يخطئ عليه، ومع من يتعدىٰ عليه، فكيف بما يفعله الإنسان مع غيره ابتداءً، لاشك أنّ العالم هو أحق الناس وطالب العلم هو أحق الناس بالأخلاق الفاضلة؛ بأن يبذل الندىٰ، ويعفو عن من أساء وأن يكون لسانه طيبا، وفعله طيبا، وأن يتحلىٰ بخلق النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ ما استطاع.

كما ذكرتُ لك في البداية أن ثمرات العلم تأخذها من حياة العلماء بعدما تنظر فيما دلّ عليه الدليل وهدي السلف، لاشك أنها كثيرة متعددة ومتنوعة؛ لكن لعله فيما ذُكر إشارة إلىٰ ما طُوي.

وأسأل الله -جل وعلا- أن يجعلني وإياكم ممن علم فعمل وعلّم وأن يجعل علمنا حجة لنا، وأن يقينا شرور أنفسنا، ونسأله -جل وعلا- بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ أن يوفقني وإياكم إلىٰ ما يحب ويرضىٰ، وأن يختم لنا بالخاتمة الحسنة.

اللّٰهمَّ وفقنا إلىٰ ما فيه رضاك، وجنبنا ما فيه سخطك يا أكرم الأكرمين.

نسألك اللّٰهمَّ أن توفّق ولاة أمورنا إلىٰ ما فيه الصلاح، وأن تهيئ لهم البطانة الصالحة التي تدلهم علىٰ الخير وتحثهم عليه.

اللّٰهمَّ أعن علماءنا علىٰ كل خير وأجزهم خير الجزاء علىٰ ما قدموا وبذلوا إنك جواد كريم تجزي وتُعظم الجزاء وتعظم الأجر والثواب اللهم أعظم أجورهم وثبت أقوالهم وأعمالهم، وانفعنا بعلومهم يا أكرم الأكرمين.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الأسئلة]

الأسئلة يعني بعض الإخوة يقول: إن الأسئلة إذا صارت كثيرة لا يمكن الجواب عنها جميعا، وهٰذا

صحيح؛ لكننا نستفيد من كثرة الأسئلة في موضوعات ومحاضرات؛ لأنّ المحاضرات كثيرة، ومن الأسئلة تخرج موضوعات وتخرج حاجات الإخوة وطلبة العلم والشباب؛ فيُستفاد من السؤال أحيانا في عناصر محاضرة جديدة، يُستفاد من الأسئلة في معالجة موضوع، في بيان في خطبة، لهٰذا الأسئلة تنفع وإن لم يُلقَ منها إلا القليل، جزاكم الله خيرا.

سؤال (٠١): فضيلة الشيخ -حفظك الله ورعاك- ما رأيك فيمن يتعلم العلم من أجل الدين والدنيا؛ ولكن هل يكون الأساسي هو نيل الشهادة العلمية والوظيفة، ولكم جزيل الشكر؟

الجواب: الحمد لله.

العلم لاشك أنه عبادة، العبادة لابد لها من الإخلاص فيها، فإذا طلب العلم للدنيا فقط درس في الكلية وهمه فقط أن يتخرج ويتوظّف -والمقصود بالعلم العلم الشرعي- فهٰذا نيته فاسدة، فيخشىٰ أن يكون داخلا بعموم قوله -جل وعلا- في سورة هود: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾، وقد أدخل في معنىٰ الآية السلف أشياء مما هي دون العمل؛ دون إظهار الإسلام وإبطان الكفر، وهي مبيّنة في «**كتاب التوحيد**» **مع شرحه في ذكر الأربع الصور الداخلة فيه.**

فالذي يعمل العمل الصالح يعني العمل العبادي يريد به الدنيا هٰذا لاشك أنه علىٰ خطر عظيم، وعمله نوع من أنواع الشرك؛ لأن العمل عبادة؛ العمل الصالح -العلم، الصلاة، الدعوة- كل هٰذه عبادة يريدها للدنيا هٰذه لاشك أنه من الشرك بالله -جل وعلا- نسأل الله العافية والسلامة.

لكن السؤال هنا من أراد طلب العلم الشرعي في الكليات مثلا أو أخذ الشهادة العالية من الماجستير والدكتوراه كيف يصحح نيته، كيف يجعل عمله هٰذا لله، فمنذ أن يدخل الكلية من الصباح إلىٰ أن يخرج وهو في عبادة لأن نيته صالحة، كيف يحصل ذلك؟ يحصل بما ذكرنا لك، بأن يخلص القصد بأن يكون قصده من طلب العلم في هٰذه الكلية أن يكون قصده أن يرفع الجهل عن نفسه، قصده أن يتعلم علما ينفي به الجهالة في الدين عن نفسه، يتعلم علم العقيدة الفقه الحلال و الحرام الحديث، شرحه، وبيان التفسير، حفظ القرآن، من نظر إلىٰ هٰذه الأمور فجعل دخوله هٰذه الكلية وتحضيره لرسالة الماجستير ودكتوراه أنه تعينه علىٰ رفع الجهالة عن نفسه فهٰذا نيته صالحة، فيكون بعد ذلك ما يحصّله من الدنيا

تكون تبعا لذلك لا قصدا، تكون تبعا بعد ما ينويه من النية الصالحة. هـٰذا لا بأس به.

وذكر السلف في ذلك -كما ذكرت لكم- قال: طلبنا العلم لغير الله فأبىٰ أن يكون إلا لله. كما قال ابن المبارك وغيره، يعني (طلبنا العلم لغير الله) يعني في أول الطلب ما كان عندنا نية خالصة لله؛ لكن علمنا لما تعلمنا أنه يجب الإخلاص ويجب أن يكون العلم لله (فأبىٰ أن تكون النية) أبىٰ العلم (أن تكون النية إلا لله).

فهـٰذا لاشك أن الموضوعات المهمة التي يجب علىٰ طلاب العلم أن يعتنوا بها.

أما العلم غير الشرعي مثل أنه يطلب يعلم الطب أو علم من العلوم المختلفة أو يتخصص في الرياضيات أو في الفيزياء أو في الكيمياء أو في الهندسة أو في الكمبيوتر أو في نوع من العلوم التي تراد للدنيا، فإن هـٰذه العلوم لاشك أن قيام طائفة من المؤمنين بها من فروض الكفايات، لابد أن تقوم طائفة بها؛ لأنها إذا قام بها طائفة من المؤمنين قويت الأمة وقوي أهل الإسلام واكتفوا عن غيرهم وإلىٰ غير ذلك من التعليلات المعروفة.

لذلك قال العلماء: تعلم هـٰذه الأمور أيضا يدخل في فروض الكفايات إذا كانت الحاجة إليها من الضروريات. والحاجة إليها الآن للأمّة من الضروريات كما هو واضح.

فكيف تكون النية؟

أن ينوي في طلبه لهـٰذه العلوم أن تعتز الأمّة وتقوىٰ وأن ينفع المسلمين في بلادهم وفي غيرها بعلمه. فهـٰذا إذا نوىٰ هـٰذه النية الصالحة؛ لأن هٰذه نية فروض الكفايات الصناعية فإنه يكون علىٰ خير ويؤجر إن شاء الله تعالىٰ، ولكن لو طلب بها الدنيا المحضة -يعني العلوم التي تراد للدنيا- فبعض العلماء يقول: إنه لا يأثم بذلك؛ لأنها في الأصل تراد للدنيا.

سؤال (٠٢): فضيلة الشيخ منذ زمن وأنا أطلب العلم؛ ولكن لا أرىٰ له أثر عليّ وعلىٰ أهلي إلا قليلا فما سبب ذلك وما هو علاجه؟

الجواب: كون العبد -طالب العلم- يحس بتقصيره هـٰذا من ثمرات العلم، يحس بأنّ العلم لم يثمر فيه وأنه لابد له أن يجاهد نفسه، هـٰذا من ثمرات العلم النافع؛ لأنّ الناس يفتح لهم فيه، وليس كل أحد يُفتح له في جميع العلوم، وليس أحد يفتح له في علم معين بنفسه، وليس كل أحد أيضا يفتح له العمل.

وقد جاء رجل إلىٰ الإمام مالك -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ- وقال له: يا إمامنا نرىٰ منك كل أمر جميل؛ لكنك لا تجاهد في سبيل الله. فقال: إنّ من عباد الله من فتح له باب الصلاة، وإنّ من عباد الله من فتح له باب الصيام، وإن من عباد الله من فتح له باب الحج، وإن من عباد الله من فتح له باب الجهاد، وإن من عباد الله من فتح له باب العلم والتعليم، وأنا ممن فتح لي هٰذا الباب ورضيت بما فتح الله لي.

يعني أنه يصعب أن يقيِّم الإنسان نفسه بأنه يثمر العلم فيه في كل ميدان، هٰذا صعب، ربما كان من تحميل ما لا يطاق، صعب أن يكون في كل ميدان طالب العلم موجودا، يعني أن يكون طالب علم ويعلّم ويأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر في كل وقت، ويدعو إلىٰ الله في كل وقت، ويقوم بحقوق والديه وحقوق أولاده في كل وقت، ويقوم بحقوق العامة في كل وقت؛ يعني كثرتها صعب أن يقوم بها واحد من أهل العلم.

نعم قد يهيئ الله -جل وعلا- من عباده من يقوم بهذه جميعا، وهٰذه مقامات الأئمة وهؤلاء نوادر في الأمة -مقامات المجددين- وهؤلاء لا ينبغي للإنسان أن يقيم نفسه بهم.

إذن هٰذا الذي يقول: ما رأيت العلم أثمر فيّ، أليس المجاهدة في نفسك، ولا تحتقر نفسك ولا تقل: العلم لم ينفعني أو أنا لم انتفع بالعلم فسأترك العلم، لا، العلم لابد أن يؤثر بإتيان الفرائض وترك المحرمات وتعليم العلم وبالكلمة الطيبة وتؤثر مهما كان التأثير قليلا؛ لكن لابد أن يكون ذلك مؤثرا؛ يعني العلم، أما إذا كان العلم لم يثمر، بمعنىٰ صاحبه يرتكب المحرمات ويغشىٰ الكبائر والعياذ بالله ويفرط بالفرائض أو يترك حقوق العباد أو يعتدي علىٰ العباد في أموالهم أو في أعراضهم أو في ذواتهم ونحو ذلك، فهٰذا يجب عليه التوبة إلىٰ الله -جل وعلا- والإنابة عليه، والعلم يكون وبالا عليه، نسأل الله -جل وعلا- العافية والسلامة.

سؤال (٠٣): فضيلة الشيخ ماذا يقصد أهل الأصول بقولهم: والعامي يقلِّد أهل العلم. هل معناه أن العامي يجب عليه أن يقلد أحد العلماء في كل فتواه أم ماذا، أرجو بيان ذلك؟

الجواب: التقليد معناه قَبول قول الغير من غير حجة، وهو جائز باتفاق أهل العلم في مواضع، ومنها في حال العامي الذي جاء فيه السؤال، فإن العامي لا يعلم الأدلة ولا يعلم الأحكام، فيجب عليه أن يسأل

كما قال -جل وعلا-: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١]، فإذا كان لا يعلم حكم الله -جل وعلا- فإنه يجب عليه السّؤال.

والعامي ليس وصفا واحدا؛ بل العامية تتجزأ فقد يكون طالب العلم عامّيا في مسائل؛ لا يعلم الحكم في مسائل، فيجب عليه أن يسأل أهل العلم فيها، وأن يعمل بما أفتوه في ذلك.

العامّي إذا سأل فإنه يسأل من يثق بعلمه ودينه من أهل العلم، يبحث في بلده أو يسأل عن الأعلم الأفقه أو هو بمعرفته يقول: هٰذا العالم أنا أثق بعلمه ودينه فيسأله فيعمل بما قال.

ولا يلزم العالم يعني لا يجب عليه أن يذكر الدليل للعامي، وعلىٰ هٰذا جرىٰ فتوىٰ الصحابة رضوان الله عليهم، فإنهم يفتون بلا ذكر الأدلة، وهكذا أيضا أثر عن أئمة الإسلام كمالك في المدونة والشافعي في المسائل والإمام أحمد في المسائل المروية عنه، فإنهم يفتون بلا ذكر الدليل، وهٰذا ظاهر في أنه وجب السؤال ولم يوجب الله -جل وعلا- علىٰ أهل العلم بيان الدليل للمستفتي.

والقسم الثاني ممن يقلد: العالم أو طالب العلم؛ يعني يقبل قول العالم من غير حجة إذا احتاج إليه وضاق الوقت عن معرفة الصواب في المسألة، ووثق بالعالم في علمه ودينه فإنه يجوز له تقليده أيضا بالاتفاق مع ضيق الوقت، الآن أصلي أو ما أصلي إيش أعمل؟ سأل أحد طلبة العلم أو عالم قال له: صلّ، يجوز له في حال ضيق الوقت أن يقلد وإن كان عالما أو طالب علم، العالم يقلد من هو أعلم منه، وهٰذا كثير عند علماء الإسلام، فقلد الشافعي مالكا في مسائل ثم رجع عنها، وقلد الإمام أحمد الشافعي في مسائل ورجع عنها، إلىٰ آخره كما هو معلوم، فإذا ضاق الوقت واحتجت إلىٰ العمل فلا تترك ذلك إلىٰ الهوىٰ؛ هوىٰ النفس أو إلىٰ ما تهواه أو ترجحه نفسك من غير قول عالم.

وهٰذا يشمل الرجوع إلىٰ ما يحفظه الإنسان من المتون الفقهية، مثلا حفظ الزاد أو حفظ أو يعلم أن الشيخ الفلاني له فتوىٰ في المسألة بكذا، ثم احتاج إليها إما مسألة في البيوع أو مسألة في المعاشرة الزوجية أو في الحقوق أو في الصلاة، يعلم الفتوىٰ ولكن ما يدري أوش المأخذ، أو يذكر قول الماتن في المسألة فله أن يعمل به مع ضيق الوقت لثقته بقول العالم؛ يعني ضيق وقته عن أن يبحث عن الصواب في

[١] سورة: النحل الآية (٤٣)، الأنبياء الآية (٧).

المسألة، ونحو ذلك.

مسألة تقليد العامي، تجزؤ الاجتهاد، وتجزؤ أيضا العامية، وأنها وصف يتفاضل فيه الناس هٰذا موجود ولبسطه يحتاج إلىٰ وقت طويل.

سؤال (٤٠): هل طالب العلم يفتي الناس بما يعتقده هو أو بما يفتىٰ به في هٰذه البلاد؟

الجواب: هٰذه مسألة عظيمة ومهمة في أن طالب العلم قد يترجح له في نفسه، يظهر له أن بعض الأقوال أرجح من بعض، وأن قول العالم الفلاني أصح لأجل الدليل الذي عنده، ويقتنع لهٰذا الرأي يعني بهٰذه الفتوىٰ دون غيرها وبهٰذا القول دون غيره. هٰذا يحصل كثيرا.

إن وجد هٰذا فإن العلماء ذكروا أن من حصل له هٰذا فإن له أن يعمل به في نفسه، وذلك لقول ابن عباس لسعيد قال: قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع. فإذا عمل في نفسه بما يعلمه من العلم إذا كان متحققا منه ومتثبتا منه.

وأما إفتاؤه غيره، فالصحابة في الأصل يتدافعون الفتوىٰ، الفتوىٰ ما يجوز لطالب العلم أن يتسابق إليها وأنه يفرح بمن يستفتيه؛ لأن الفتوىٰ توقيع عن الله -جل وعلا-؛ يعني إخبار عن حكم الله -جل وعلا- وإذا كان العبد في غناة عن أن يفتي، والمفتون موجودون في البلد فيحيل المستفتين إلىٰ أهل الفتوىٰ، هٰذا أبرأ لذمته وأطيب لعلمه وعمله.

والإفتاء إن اضطر إليه لحاجة فليس له أن يفتي بما يخالف ما عليه الفتوىٰ؛ يعني فتوىٰ أهل العلم الراسخين في بلده، البلد التي يعيش فيها؛ لأن العمل عمل الناس علىٰ نسقٍ واحد هٰذا مطلوب لأجل أن لا يضطرب عمل الناس في الشريعة، فيستهزئ الناس أو يستهجنون الشرع بأنواعه، مثل ما هو حاصل الآن يجتهد بعض الناس إما في بعض السنن في الصلاة أو نحو ذلك، العامة ما يعرفون تنوع الأشياء، يشككون في الأصل، إما يشكون في المفتىٰ هٰذا طالب العلم، أو يشكون في علمه، أو يشكون في الديانة يقولون: فيها سعة، اعمل بما تشاء والأمر سهل.

هٰذا لاشك له مفاسد كثيرة، لهٰذا نهىٰ علماء هٰذه البلاد وأئمة الدعوة -رحمهم الله تعالىٰ- نهوا أن يفتي أحد بما ليس عليه الفتوىٰ، لكن من ترجَّحت له مسألة فلا بأس له أن يعمل بما ترجَّح له في نفسه؛ لكن إفتاء الغير فإنما يكون لما عليه الفتوىٰ.

سؤال (٠٥): فضيلة الشيخ أنا شاب في المرحلة الجامعية، وأريد طلب العلم، فكيف أجمع بين الدراسة النظامية في الجامعة وبين طلب العلم في المساجد؟

الجواب: الحمد لله.

طلب العلم في المساجد هو معين لطلب العلم في الكليات، وكذلك طلب العلم في الكليات الشرعية معين لطلب العلم في المساجد، فهٰذا لا يناقض هٰذا ولا يعارضه، إذا وجد أنه يتعارض لأجل كثرة الدروس التي يحضرها فإنه يخفف من الدروس لا تنفعه، ويحصّل ما ينفعه ودرسنا في الجامعة ودرسنا فيها أيضا في العلوم الشرعية بأنواعها وخالطنا من درس ودرّس.

الذين أخذوا تدريس الكليات يعني التعليم بجد والتعلم من الطلاب والمدرسين الذين أخذوه بجد انتفعوا كثيرا؛ لكن الإشكال أن يأتي الطالب ما يذاكر إلا وقت الاختبار، لا شك العلوم الشرعية كبيرة مجلدات وفنون مختلفة ما يمكن تمشي بهٰذه الطريقة، ولو أنه يذاكر مذاكرة طلب للعلم ويحفظ ما يلقيه الأستاذ في يومه ويرجع للشروح ويبحث ويسأل من يلتقي به من أهل العلم في المساجد، فإن هٰذا لا شك أنه مكسب عظيم والعلم يزيد العلم علما ولا يتناقض العلم مع العلم.

من حيث الواقع بعض الدروس في المساجد وبعض الدروس في الكليات فيها نقص؛ لكن النقص تتممه بما تحصّله من علماء آخرين أو من أساتذة آخرين، الذي يطلب الكمال في كل شيء ما يحصِّل؛ لكن أنت احرص علىٰ ما ينفعك إذا وجدت بابا فيه خير فَلِجْهُ فإنه خير لك في عاقبة أمرك إن شاء الله.

فأنا أوصي الجميع بأنهم يحرصون علىٰ الدروس في الكليات وأن يراجعوا ويبحثوا المسائل التي درّسها المشايخ لهم، وأن يحرصوا أيضا علىٰ الدروس في المساجد؛ لأن هٰذه فيها نفع من جهة وتلك فيها نفع من جهة أخرىٰ، والكل يُكمل بعضه بعضا وفق الله الجميع لما فيه رضاه.

سؤال (٠٦): فضيلة الشيخ ما رأيكم بمن يفسر قول الرسول ﷺ: **«من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»** أي معرفة أفضل الأعمال في الوقت وأكثرها في أجرًا فيبادر لفعلها وتقديمها علىٰ غيرها من الأعمال الصالحة [..] فضلا في ذلك الوقت؟

الجواب: هٰذا صحيح، تفسير صحيح للحديث، وهو بعض ما يدل عليه الحديث، فمعرفة وعلم طالب العلم بما يترجح من الأعمال الصالحة، هٰذا من العلم النافع؛ يعني مثلا يعلم أن هٰذا العمل

أفضل وأكثر أجرا من هٰذا العمل، هٰذا يحتاج إلىٰ علم وفقه، فإذا علم لاشك أنه سيغشىٰ ما هو أفضل له.

الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما جاءه الحافظ أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي المعروف لما جاء إلىٰ بغداد كان يتذاكر معه الحديث ويعارضه الحديث من بعد صلاة العشاء إلىٰ الفجر؛ لأنه جاء في أيام معدودة وهو من حفّاظ الحديث ومذاكرة الحديث وحفظه ومعرفة الضعيف ومن غيره والمعلول والموضوع إلىٰ آخره، هٰذا نفعها متعد للأمة وهٰذا وقت الحافظ أبو زرعة قليل في بغداد.

فقال الإمام أحمد: استعضنا عن قيام الليل بمذاكرة أبي زرعة.

فلم يقم تلك الليالي ولم يصل النوافل ورده المعتاد، وإنما كان مع أبي زرعة يذاكره الحديث، هٰذا لاشك يحتاج إلىٰ علم، فهٰذا من الفقه في الدين «**ومن يرد الله به خيرا يفقّهه في الدِّين**».

فإذا بلغ طالب العلم في العلم مبلغا أنه يعلم الراجح من المرجوح أو الفاضل من المفضول في العبادات المتزاحمة في وقت واحد، ويرجح الراجح أو يفضل الفاضل علىٰ المفضول ويأتيه، لاشك أن هٰذا مما يؤتيه الله -جل وعلا- بعض عباده.

الواحد في أموره في ليله ونهاره يأتيه مثل هٰذا كثيرا؛ يعني مثلا يقرأ القرآن الفجر أو يستغفر، أيهما أفضل؟ الآن تجد كثيرا من الناس شاع عندهم أن قراءة القرآن والفجر دائما أنها أفضل من الاستغفار، وكثير من أهل العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية وأئمة الدعوة يفضلون الاستغفار في هٰذا علىٰ غيره؛ لأنه هدي النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ النبي -عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- بين الأذان والإقامة ما كان يقرأ القرآن، ولأجل أن يدخلوا في عموم قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾[آل عمران]، وفي عموم قوله -جل وعلا-: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨﴾[الذاريات] قال الحسن البصري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ- في تفسير هٰذه الآية: قلّ نومهم وهجيعهم خوفا من ربهم، فلما أصبحوا استغفروا خوفا من أنّ عملهم لم يقبل.

الفرق بين العقد والملح

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إلـٰه إلاّ الله وحده لا شريك له، الملك الحق المبين، وأشهد أنّ محمدا عبد الله ورسوله وصفيه وخليله صلّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدين.

أما بعد؛

فأسأل الله -جلّ وعلا- أنْ يجعلني وإياك ممّن إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر وإذا أذنب استغفر، فإنّ هـٰذه -كما قال إمام الدعوة- عنوان السعادة.

وأسأله -جلّ وعلا - لي ولك الثبات علىٰ الحق والهدىٰ وأنْ لا يزيغ قلوبنا بعد إذْ هدانا وأنْ يلهمنا ويوفقنا إلىٰ الحق، ويمنّ علينا باتباعه والالتزام به، وأنْ يوفقنا إلىٰ هَدي محمد ﷺ في جميع الأحوال في حالتي الفقر والغنىٰ وفي حالتي الرِّضا والغضب.

وأسأله -سبحانه- أنْ يصلنا بحبله وأنْ لا يقطع ذلك بذنوبنا.

ثم إنّ هـٰذه الدّروس لأجل عدم حضور من كان العادة يحضر في درس «كشف الشبهات»، نقدِّم لهـٰذه الدروس بمقدمة في العلم وطلبه كالعادة، لعلها أنْ تكون نافعةً إنْ شاء الله.

من المعلوم أنّ العلم قسمان كما يقول طائفة من أهل العلم منهم الشّاطبي في أول «الموافقات»: **العلم قسمان: عُقَدٌ، ومُلَح**.

والعقد: تعقد القلب مع العلم.

والملح: لابد منها للمسير في طلب العلم.

واستمرار المرء بِعُقَد العلم -يعني: بقوي العلم وأصوله ومنهجيته- دون مُلَحِهِ قد يجعل المرء يكسل أو يمل؛ لأنّ النفس حُمضة تحتاج إلىٰ أنْ تُصقل وتُزال بشيء من الملح، ولهـٰذا روىٰ ابن عبد البر وروىٰ غيره أنّ ابن شهاب الزهري -الإمام المعروف- كان إذا أعطىٰ الدرس في الحديث وانتهىٰ قال: هاتوا من ملحكم، هاتوا من أشعاركم، هاتوا من أخباركم. فيأخذوا: هـٰذا يقص وهـٰذا يقص، ويروي هـٰذا ويروي ذاك، فتأنس النفس بما ذُكر ويكون لها نشاطًا فيما تستقبل.

العلم عُقَدُه هي الأصل، هي الغاية، ومُلَحُهُ وسيلة لهـٰذه الغاية، وسيلة لتقوية الذهن ولتوسيع المعارف؛ فعُقد العلم أيضًا قسمان: **علوم أصلية وعلوم صناعية**.

أما العلوم **الأصلية**: فهي التفسير والحديث والفقه والتوحيد -العقيدة-.. ونحو ذلك.

والعلوم **الصناعية**: هي علوم الآلة، سمِّيت صناعية لأنها كانت اصطلاحية؛ جاءت بعد الأصول مثل مصطلح الحديث وأصول الفقه وأصول التفسير والنحو وعلوم العربية بعامة، وأشباه ذلك.

هـٰذه عُقَدُ العلم؛ يعني أنّ هـٰذه العلوم الأصلية والصناعية لابد منها لطالب العلم لاستكمال تفقهه في العلم.

وهناك علوم أُخر يحتاجها لتكميل بناء العلم، وهي التي سماها طائفة بمُلح العلم من مثل قراءة

التاريخ والأخبار والأدب والأشعار وتراجم أهل العلم والمناظرات وما أشبه ذلك، فهٰذه مُلح، الإطلاع عليها مفيد؛ لكن من جهلها فلا يضره الجهل بها في العلم، لهٰذا تجد من العلماء الكبار من قد لا يعرف بعض التراجم المفصلة أو تواريخ الوفيات لأهل العلم أو نحو ذلك، ولا يَضُرُّه هـٰذا؛ لأن هـٰذا ليس من العلم الأصلي الذي به يكون المرء طالب علم أو عالمًا؛ ولكن هٰذا من الملح.

الفرق بين العقد والملح أنّ العُقد لابد لها من رجال يُعَلّمون كيف تُفتح أو كيف تحل هـٰذه العقد؛ لأنها عقدة تحتاج إلىٰ حل، والعقدة مجتمع الشيء لتقويته وتحتاج إلىٰ فكِّها حتىٰ تعرف مسار الشيء إلىٰ من يساعدك في هٰذا، والمساعد هم الرجال؛ هم أهل العلم، وهٰذا عن طريقين:

طريق المشافهة يعني الدروس.

أو عن طريق قراءة الكتب، وفتح المغلق منها عن طريق العلماء، ولهٰذا قال من قال من السلف: **كان العلم في صدور الرجال** -يعني قبل أنْ يدوّن الحديث، قبل أن يدوّن التفسير، قبل أنْ يدوّن الفقه، كان العلم في صدور الرجال- **ثم صار في بطون الكتب، وبقيت مفاتيحه بأيدي الرجال.**

العلم انتقل من الصدور إلىٰ الكتب، هٰذا صحيح؛ ولكن المفاتيح بقيت بأيدي الرجال؛ يعني بأيدي أهل العلم، الكتب قوة قريبة لك تراجع، تفتح، تنظر، تبحث، لكن مفتاح فهم كلام أهل العلم لابد أنْ يكون معك عن طريق أهل العلم؛ لأنّ كلام أهل العلم له اصطلاحه، له أصوله، إلىٰ آخره، فلابدّ من أخذه عن مُعَلّم.

إذن. فصارت العقد هٰذه أصول العلم التي ذكرنا بنوعيها لابد فيها من مُعلم، وإنْ كان المرء أخذ عن طريق الكتب فلابد أنْ يأخذها عن طريق معلم أو يسأل فيما يُشكل منها، ولكن لابدّ من معلم يفتح لك وتستفيد منه في ذلك، مثل ما ذكرت لك المقولة: **كان العلم في صدور الرجال ثم انتقل إلىٰ بطون الكتب وبقيت مفاتيحه بأيدي الرجال.**

أمّا العلوم الأُخر أو المُلح؛ ملح العلم فهٰذه لا تحتاج فيها إلىٰ عالم، تقرؤها ما شئت؛ لأنها علوم غير مقصودة لذاتها إلاّ فيما إذا كان المرء يريد التخصص، يريد أنْ يكون متخصِّصا في الأدب، في الشعر، في الأخبار، في التاريخ، فهنا يحتاج إلىٰ أنْ يكون أَخْذَه عن معلم؛ لأنّه يصبح في حقه من العلم المقصود لذاته لا المقصود قصد الوسائل.

تكامل شخصيَّة طالب العلم في العلم لابد أنْ يكون فيها هٰذا وهٰذا، ولكن أيُّهما يغلب الآخر؟

هل يغلب عليه اهتمامه بالمُلح؛ بالتراجم بالأخبار بالقصص بالحكايات، بنتف العلم، بالكتيبات التي تنشر بالفتاوىٰ إلىٰ آخره؟

أم أنّه يهتم بالعُقَد بأصول العلوم بالعلوم الأصلية والعلوم المساعدة (الصناعية)، ويكون ذاك مكملًا؟

يظهر مما ذكرنا أنّ الصواب في هـٰذا أنّ الوسائل هـٰذه -يعني الملح- لابد أنْ تؤخذ بِقَدَرِها؛ تؤخذ بقَدْرِها وبقدَرها الملائم لما يكون معه تنشيط النفس في العلم، فإنْ كان طالب العلم يعيش بالعلم القوي -العقد- بلا ملح نفسه ستضعفُ بعد فترة ولا يستأنس بالعلم؛ لأن المُلح هٰذه كالملح في الطعام، تجعل

المرء يُقبل علىٰ الشيء ويزيد منه؛ لأنّ فيها أنسا ومعها انشراح النفس فيما يقرأ؛ لأنها توافق الرغبة مثل قراءة التواريخ والتراجم والأشعار والأخبار وما شاكل ذلك.

الذي يحصل ونراه في طائفة من الإخوان الشباب أنّهم يُغَلِّبون المُلح علىٰ العلم التَّأصيلي، ولهٰذا تجد أن بعضهم عنده معلومات واسعة مختلفة؛ لكن ليست مؤصلة، فهٰذه تكون بسبب غلبة الملح عليه، يعرف تراجم العلماء وأخبارهم وهٰذا كذا وهٰذا كذا وحصل منه كذا وفلان وفلان تناظرا وصار بينهما نُفرة، وهٰذا حكم، في أخبار طويلة وأشعار وقصص وحكايات، لكن أين هو من العلم في نفسه؟ إذا كان قد أصّل نفسه في العلم وصارت هٰذه مساعدة له فيكون قد سار سيرًا صحيحا، ولكن إذا غلبت عليه الملح وترك العقد ترك الأصول ترك العلم، فهٰذا يكون مهزوزاً ويكون عنده الملح مقصودة لذاتها، هٰذا خلاف سنة أهل العلم، سنة أهل العلم أنْ يكون هٰذا القسم تنشيطيًّا، أن يكون هٰذا القسم ترويحيًّا يُنَشِّط المرء بدل أنْ يقضي وقته الذي يرتاح فيه في كيت وكيت، يُقضِّيه مع العلم لكن بشيء تنشط معه النفس وتأنس فيه الروح.

كذلك السّعي في أخذ العلم وحفظ المتون والقراءة الجادة بدون مُلح هٰذه تسبب شيئًا من الهز والاهتزاز في نفسية طالب العلم؛ لأنّه لابد أنْ يكون عنده هٰذا وهٰذا، وإذا أخذ نفسه بالقوة دون الملح فإنه يكسل بعد فترة، هٰذا مجرَّب، وكل طالب للعلم لنفسه مع العلم إقبال وتوسُّط وإدبار، وهٰذا لابد منه، فإقبالها أنْ يكون نشيطا يجتهد في الحفظ يجتهد في المراجعة يجتهد في البحث بقوة وإقبال، ثم يرىٰ من نفسه أنه في فترة أخرىٰ يريد يتنزه، يتنزه بمعنىٰ يخرج يريد أنّه يتصل ما يريد يطلب العلم ما يريد يقرأ إلىٰ آخره، هٰذا بسبب عدم توازنه فيما سار فيه، والذي ينبغي لمن أراد العلم وأراد طلبه أنْ يكون متوازنا فيه وأنْ يرعىٰ حقوق النفس والنفس لها حقوق، وإنّ لنفسك عليك حقًّا، وإنّ لأهلك عليك حقا، وإنّ لربك عليك حقّا فأعطي كلّ ذي حقٍّ حقه.

المهم لطالب العلم أنْ لا ينقطع عن العلم ومن أسباب عدم الانقطاع أنْ يكون متوازنا فيما يطلب، أن يكون عنده عناية بالملح التي تُنشِّط نفسه يأنس بأخبار وحكايات وطُرَف وهٰذه تطربه وهٰذه يستغرب منها وهٰذا موقف، وهٰذه تقوِّيه أيضا في الكلام وفي سعة الإدراك والإطلاع علىٰ ما عند الناس وعند أهل العلم.

لذلك مثلا تجد ابن عبد البر مع مصنفاته العظيمة وهو إمام من الأئمة المشهورين مع مصنفاته العظيمة في شروح الحديث كـ«التمهيد» الذي قال فيه لنفسه:

سمير فؤادي مُذ ثلاثين حِجةً وصيقل ذهني والمفرِّج عن همي

يقصد «التمهيد» هو المفرِّج من همه، إذا نظر فيه تفرجت همومه لما يجد فيه من الأنس والانشراح، تجد أنه صنف «التمهيد» وصنف «الاستذكار» وصنف «الكافي في الفقه المالكي»، وصنّف «الجامع» المعروف، وصنّف من جهة أخرىٰ كتاب «بهجة المجالس» في الأخبار والأشعار... إلخ، شبيه «بعيون الأخبار» و«البيان والتبيين»، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه وأشباه هٰذه الكتب، «بهجة المجالس» كتاب

يُكمّل هٰذا، لماذا؟

هل معنىٰ هٰذا أنّ العالم الكبير يذهب إلىٰ مثل هٰذا النوع من العلوم لأجل أنّ الوقت عنده لا قيمة له؟

لا، ولكن لأجل توازن نفسه مع العلم، ولا يريد أنْ يخرج من العلم إلا إلىٰ العلم، فإما أنْ يخرج منه إلىٰ لهوٍ كما يلهو الناس أو إلىٰ فرجةٍ أو إلىٰ حديثٍ أو إلىٰ ما شاكل ذلك، أو إلىٰ علمٍ فيه أنس نفسه ويحصل معه المقصود ولا يخرج به عن الكتب وعن العلم، فتجدُ أنّ طائفة من العلماء اعتنوا بهٰذا وعندهم عناية بالملح.

فإذن، عُقد العلم وأصوله مهمة وهي الأصل وهي التي تقضي معها الأوقات، ولابد لك أيضا من رعاية للملح وحفظ الأخبار والأشعار والأمثال وقصص ذلك وقراءة في شيء من كتب الأدب وقراءة في كتب التأريخ والتراجم إلىٰ آخره، فهٰذه تقوّي منك الملكة في العلم ويكون معك أيضا نشاط في العلم بسبب ما ذكر.

فإذن نخلص من هٰذا إلىٰ ضرورة التّوازن، والتوازن ليس معناه التساوي، لا، يُغَلَّب؛ يعطي كل ذي حقٍّ حقه، فتعطي أصول العلم حقَّها تعطي وسائل العلم حقها وتعطي الملح أيضا حقها، وهٰذا أنت تحكم به علىٰ نفسك.

إذن طالب العلم يكون له في العلم إقبال وتوسط وإدبار، وهٰذا كما قال -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «**إنّ لكل شيء شِرَّة، وإنّ لكلّ شرّة فَتْرَة، فمن كانت فَترته إلىٰ سنتي فقد أفلح وأنجح، ومن كانت فترته إلىٰ بدعة فقد خاب وخسر**»، يعني أنّه ما من شيء إلا له قوة إقبال شرّة وقوةً وعنفوان وشدة، وله فترة ضعف بعد ذلك، فمن كان ضعفه بعد ذلك إلىٰ سنة يعني اقتصاد في المرء وسنة ومتابعة فهٰذا أفلح وأنجح، يعني لم تكن فترته إلىٰ غير الهدىٰ إلىٰ معصية، ومن كانت فترته إلىٰ معصية فهٰذا خاب وخسر، وهٰذا يجعل طالب العلم ينتبه لنفسيته لا يخسر نفسه لأجل أنه ما أعطاها حقها، وهٰذا وجدناه من بعض الإخوان وطلبة العلم فإنّهم طلبوا العلم قليلا ثم بعد ذلك كَسُلوا، السبب عدم التوازن، الرغبة كانت في الأول قوية لكن أتعب نفسه أتعب نفسه بغير توازن وظن أنه يمكن أنْ يأتيه كلّ شيء جملة مع قوة نفسه، لا، النفس تحتاج إلىٰ تدرج، ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾ [آل عمران]، الرباني: هو الذي يعلم الناس صغار العلم قبل كباره. وهٰذا يحتاج إلىٰ تدرج حتىٰ المرء مع نفسه يحتاج إلىٰ أنْ لا يأتيها جميعا ففي طلب العلم لا تأتي العلم مع كراهيته أو مع التوسط في قبوله، إذا كان لك إقبال فيه فكما قال الشاعر:

إذا هبَّتْ رياحُك فاغتنمها ... فإنَّ لكلّ عاصفة سكونُ

إذا وجدت في نفسك نشاطا في العلم أقبل واحفظ، وأكثر من الاطلاع والبحث ثم إذا خفّت نفسك مع العلم فدعك في أمور لا تخرجك عن العلم ولكن تظل معه.

هٰذه الجملة أيضا لها تفصيلات من جهة أنواع ما يسلكه المرء من المُلح وما ينبغي وما لا ينبغي، وطلب العلم الجاد وأنه هو الأصل وهو الذي ينبغي للمرء أنْ يحمل نفسه عليه وأنْ يَجِدَّ فيه وأنْ

يتخلص من الشواغل التي تصرفه عنه.

المسألة الثانية في طلب العلم: الاهتمام بالبحث

وطالب العلم من أسباب حبِّه للعلم وإقباله عليه أنْ يكون متلقِّيًا تارة وباحثا تارة أخرىٰ، إذا عاش دائما علىٰ التلقي دون أنْ يبحث، دون أنْ يطالع، يفتِّش، يحرر المسائل، يحقق في حديث، في مسألة فقهية، في تفسير آية، يذهب ينظر الصحيح، إذا لم يكن مدقِّقا أو باحثا فإنّ نفسه ربما أَسِنَت وربما ضعفت، البحث من أسباب قوة النفس والرغبة في العلم.

ولهٰذا نقول: لابد لكل طالب علم أنْ يكون معه هٰذا وهٰذا، يكون معه الإقبال، الحفظ وحضور الدروس والمطالعة، ومعه أيضا قسم آخر، البحث، والبحث ليس معناه أنه إذا بحث شيئا نشره، بحث شيئا من العلم يعني لأجل أنْ يطبعه ويظهر اسمه علىٰ ديباجة الكتب، ليس هٰذا المقصود، بحثه ليقوي نفسه وما من أحدٍ من أهل العلم إلاّ وله بحوث في فترة طلب العلم والشباب لابد له فيها نظر.

وقد نبه علىٰ هٰذا النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أوائل كتابه «المجموع شرح المهذب»، فإنّ في أوائله جملة جيدة من آداب العلم وحملة العلم وما ينبغي في ذلك.

البحث هٰذا الذي تكلموا عنه ليس معناه تخطئة الناس أو تخطئة أهل العلم؛ لأن الباحث ولو جمع لك كلاما طويلاً من الكتب فإنه يظل باحثا، ونظر العالم المحقق يختلف؛ لأنّ هٰذا يكون إيراده بحسب ما اطلع، لكن الذي لم يطلع عليه كيف يعرفه، القواعد العامة كيف يعرفها؟ الأصول التي تحكم مثل هٰذه المسائل؟ فتجد أنّ منهم من يبحث بحوثا وربما بعض تلك البحوث طُبع ولكنه خرج بصورة لا يرضىٰ عنها المحققون من أهل العلم لـمَ؟ لأنه اقتصر فيه علىٰ الجمع؛ جمع كلام أهل العلم في المسائل، وليس العلم بالنقل فقط، ولكنه نقل واستنباط وفهم وتحليل، فهٰذا مع هٰذا، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**رب ناقل فقه غير فقيه، ورب ناقل فقه إلىٰ من هو أفقه منه**»، فالناقل قد يكون غير فقيه أصلا، وقد يكون عنده شيء من الفقه ولكن ثم من هو أفقه منه لا يوافقه علىٰ ما فقِهَ من هٰذا العلم.

فإذن إذا بحثت وصار عندك رغبة في البحث والتحرير وتدقيق المسائل في التفسير أو في التوحيد أو في الحديث أو في الفقه، فلا تظننّ أنّ هٰذا هو نهاية المطاف، وأنّ ما وصلت إليه في بحثك هو الراجح، وهٰذه هي المشكلة عند كثير من أساتذة الجامعات أنهم إذا حرروا المسألة ببحثهم فيها ظنوا أنّ هٰذا هو النهاية فرجحوا، والراجح في نفس الأمر أو الصحيح عند المحققين من أهل العلم خلافه.

فلهٰذا تجد أنّ في أقوال بعضهم شيئا من الغرابة، بل تجد في أقوال بعضهم شيئا من الغرابة لخروجهم عن أقوال المحققين من أهل العلم، لأنه بحث والكتب موجود فيها كلّ شيء، لو أردت أنْ تجمع ما شئت من الأقوال في أي قول ذُهب إليه لوجدت أنّ البحث يمكن معه أنْ تجمع ما شئت.

وهناك **قصة طريفة** وإنْ كانت غريبة لكن تدلك علىٰ ما في طيّ هٰذا الكلام، كان هناك أحد الباحثين في رسالة للدكتوراه وأورد مذهب المعتزلة في مسألة خلق القرآن وسفّهه ونقل نقولا يسيرة في الموضوع، فالمناقش له وكان أشعريا المناقش للرسالة –هٰذا في الأزهر– قال له: إنك أوردت هذين النقلين أو

الثلاثة عن شيخ الإسلام وغيره في ردّ هٰذا القول؛ لكن ما تقول في حجج القوم هم احتجوا بكذا، وأورد الدليل الأول واحتجوا بكذا وأورد الدليل الثاني، واحتجوا بكذا ثالث رابع خامس عشرة عشرين إلىٰ نحو الثلاثين من الأدلة التي يستدل بها أهل الاعتزال علىٰ خلق القرآن. قال: فما ترد عليها؟ الطالب ما عنده ملكة في هٰذا الأمر فسكت، فكان هناك حضور وأساتذة والطالب طبعا يمثل أنه من أصحاب العقيدة السلفية جاء من هٰذه البلاد فأُحرِجَ، قال: رُدَّ علىٰ هٰذا كيف تقول: أنّ خلق القرآن قول ضعيف وأنّ هٰذا قول كذا رُدّ علىٰ هٰذه الأدلة فلما لم يحرِّ جوابا، قال له المناقش: إذن إذا لم تستطع الإجابة عن هٰذه الإيرادات وهٰذه الاستدلالات فاسمع جواب أئمة الأشاعرة عليها، فأجابوا عن الأول بكذا -ردٌّ في محله-، والثاني كذا والثالث كذا، إلىٰ آخره.

نعلم أنّ الأشاعرة نفع الله -جلّ وعلا- بهم في ردّ حجج أهل الاعتزال، فكانوا من أعظم الرِّماح في عنق المعتزلة فنّدوا شبههم وفنّدوا استدلالاتهم واحدة تلو واحدة.

المقصود من هٰذا أنّ هٰذا المناقش أورد هٰذه الأدلة جميعًا، كلها موجودة فأنت ممكن تورد ما شئت من الأقوال موجودة في الكتب، لكن الكلام في فقهها وكيف تصوّب الصواب وترد الخطأ.

فإذن من ليس عنده ملكة قويّة في العلم فالبحث عنده لا يؤهله أنْ ينشر بحثه ولا أنْ يجيزه عند نفسه، ولو كان مكث فيه كذا وكذا وجمع من النقول في المسألة إلىٰ آخره؛ لأنّه ثمَّ أشياء تفوته.

مثل هٰذا الطالب أورد عليه.. هٰذه نقول كثيرة رُدْ عليها، ما استطاع أنْ يرد؛ فهكذا الذي يقرأ في الكتب قد يجد أقوالا هي ضد المذهب الصحيح أو ضد القول الصحيح ما يستطيع أنْ يحللها ولا أن يرد عليها لضعفه.

فإذن البحث وسيلة لتقوية ملكة طالب العلم في العلم، وليس البحث غايته في أنْ ينشر طالب العلم بحثه وأنْ يطبعه للناس وأنْ يُنشر، إلَّا إذا أجازه عدد من أهل العلم ولا غرابة، فالإمام مسلم صاحب «الصحيح»؛ مسلم بن الحجاج النيسابوري القشيري من أنفسهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما صنّف كتابه «الصحيح»، عرضه علىٰ مشايخ بلده فوافقوه واعترضوا عليه في بعض الأحاديث، وما مكّنه العُمُر أنْ يتم كتابه علىٰ نحو ما أراد؛ بل وافته المنية كما هو معلوم قبل أنْ يحرر الكتاب كما يريد -هو محرَّرٌ في نفسه- لكن كما يريد.

ولهٰذا وقع بالإجازة في مواضع بدون قراءة وهو الكتاب الوحيد من كتب أهل الحديث الذي فيه مواضع لم ينقلها أحد من أهل العلم ألبتة بالسماع عن مصنِّفه، قِطع رواها الراوي عن مسلم وهو ابن سفيان المعروف رواها بالإجازة قِطع كبيرة منه؛ ثلاث قطع متفرقة إنما رواها بالإجازة بلا سماع ما قرأها علىٰ مسلم ولا هو أيضا عرضها عليه وإنما أجازها له لأنه ما اكتمل.

المقصود من هٰذا أنّ الإمام مسلم عرضه علىٰ مشايخ عصره، فأقروا له وسلموا، فنشر فلابد من العرض، والعرض ليس معناه أنْ تعرض للبركة أو أنْ تعرض لتأخذ القبول، لا، تعرض فإذا قيل لك: لا يصلح، فقل: هٰذا ما أردتُ. إذا قيل لك: هٰذا وهٰذا وهٰذا غيّره وألغه، فتقول: هٰذا ما أردتُ. يعني أن

تستفيد، وهٰذا الذي ينبغي في مسألة البحوث.

لكن الأصل أنّ طالب العلم يبحث لا للنشر يبحث لنفسه.

فنفسية البحث هٰذه مهمة؛ لأنّها تقوي طالب العلم، ولابد أنْ يكون عندك دفتر تحقق فيه مسألة في التفسير، تجمع أقوال المفسرين والصحيح فيها تشوف كلام السلف وما يدور حول ذلك، مسألة فقهية، فتوىٰ، سمعت فتوىٰ غريبة من أهل العلم تريد أنْ تنظر إلىٰ اختلاف أهل العلم فيها، فتبحث في ذلك حتىٰ يستقيم العود في طلب العلم.

المسألة الثالثة والأخيرة نختم بها هٰذه الكلمات:

أنّ طلب العلم يحتاج إلى نفسية خاصَّة

يعني أنْ يكون طالب العلم دائمًا يتجدد مع نفسه في حبِّه للعلم، وهٰذا لا يكون إلاّ بشيء، وهو كثرة الاتصال بأهل العلم وسماع كلامهم، والحرص علىٰ لقائهم وعدم تهجين أقوالهم؛ لأنّ الذي يعترض علىٰ أهل العلم يُحرم وهٰذا كثير وشاهدنا منه أشياء.

فطالب العلم ينبغي له لاستكمال جوانب نفسه أنْ يكون كثير الاتصال بأهل العلم؛ لأنّ رؤية طالب العلم ونظره في الأشياء وتحليله للعلوم وتعامله مع العلم وتعامله مع الكتب وتعامله مع أهل العلم وأقوال أهل العلم ويعرضُ عليه مسائل ويسمع أراءه ويرىٰ تصرفاته، هٰذه تفيد طالب العلم في كثرة إدمانه عليه وإقباله عليه، وفي ملازمة الصلة بأهل العلم.

البعيد عن أهل العلم إذا انقطع، إذا انقطع عن نفسه، لكن الذي له صلة بأهل العلم إذا انقطع سألوا عنه وين راح؟! وش تغير في الأمر؟! ولماذا تركتَ؟! والذي حصل؟ فتكون صلته بهم مدعاة للمواصلة في طلب العلم، لكن لا يكون في اتصاله بهم ينظر نظر المعترض؛ لأنه إذا كان ينظر نظر المعترض معناه أنه لن يستفيد منهم ولن يَقبل، بل لابد أنْ ينظر ويصحب علىٰ الاستفادة لا المجادلة وكن حريصًا عن أنْ تسمع في مجالس أهل العلم أكثر؛ بل أكثر وأكثر من أنْ تتكلم، تسمع وتسمع وتُجمّع، تجمع في ذهنك تجمع أخبار وتجمع الفتاوىٰ وتجمع الأراء وتجمع التحليلات والأقوال، وما شابه ذلك حتىٰ يكون لك بذلك إنْ شاء الله فرصة لأخذ العلم كما ينبغي.

نكتفي بهٰذا القدر، ونجيب علىٰ بعض الأسئلة في هٰذا.

[الأسئلة]

سؤال (٠١): يقول بعض العلماء: لا تأخذ القرآن من مُصحفي ولا العلم من صَحَفي. فما هو ضابط العلم هٰذا؟ وهل القراءة في كتب الفقه والتفسير والتوحيد الميسرة من ذلك «حاشية كتاب التوحيد» و«القول المفيد»، و«الشرح الممتع» و«تفسير ابن سعدي»، «وابن كثير» و«زاد المعاد»، ونحوها من الكتب الميسرة وما هي التي لا بد لها من شيخ ومعلم..؟

الجواب: (لا تأخذ القرآن من مُصحَفي) يعني ممن حفظ القرآن وقرأه من المُصحف؛ ما قرأه علىٰ شيخ، لا تأخذ منه القرآن؛ لأنّه يكون ولابد يفوته بعض الأشياء؛ إما في الضَّبط أو في آداب التلاوة أو في التجويد أو في الوقف أو نحو ذلك مما يتميَّز به القارئ من غيره.

سابقا قبل أنْ يكون هناك شكل للمصحف يعني شكل تام بالحركات في وقت مقولة هٰذه الكلمة كانت المصاحف بلا شكل بنَقْطٍ ولكن لم تكن مشكولة فكان يحصل فيها خلل وتصحيف حتىٰ نسب لبعض الكبار من المشهورين تصحيفات في ذلك، مثل ما يروىٰ عن ابن أبي شيبة عثمان ومثل ما يروىٰ عن غيره من تصحيفات في التلاوة.

بل قد ذكرَ لي بعض الثقات أنّ أحد الأساتذة في الجامعة من الجامعات غير الشرعية كان يدرس مادة ثقافة أو شيء من هٰذا فأتىٰ وهو يقرأ بسرعة، يملي عليهم أو عنده أوراقه التي يطالع منها، قال: وقال تعالىٰ: وإذ نتفنا الحبل فوقهم. نقل لي الثقة هٰذا وكان حاضرا، يقول: فقلنا له: يا شيخ الآية في سورة الأعراف ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾[الأعراف:١٧١]، ما استسلم هو للحق، قال: لا، لا، فيها قراءات: (وإذ نتفنا الحبل فوقهم) فيها قراءات!! هٰذا من الاستهانة بالعلم... طيب تعلم هٰذا أو تخلصا؟ إنْ كان تخلصا هٰذا والعياذ بالله تتخلص أنت من التبعة، وتنسب شيء لـ... يعني عدم احترام للعلم... إلخ.

المقصود هٰذا من جهة الصَحَفي من جهة أنه يقرأ وهو ما يعرف.

مرة أيضا واحد في مكتبة أنا سمعته، لا؛ بل سمعه غيري وهو الذي حدثني بها، يقول: يسأل وهو جاء من غير هٰذه البلاد وهو ما يعرف القرآن وعنده ولد عليه سورة الظاهر يحفظها قال السورة... السورة... هو عنده منهجه يبدأ من سورة الهَمْزة... إلخ، وهي سورة الهُمَزَة... يبدأ من سورة الهَمْزَة... إلخ!!

فمثل هٰذا هو الذي قيل في هٰذه الكلمة لا تأخذ القرآن من مُصحفي؛ لأنه يدرس بالباطل وبالغلط، ولا العلم من صَحَفي، وهي أصح من صُحُفي لأنّ النسبة للجمع لابد من إعادتها للمفرد، القاعدة في النسبة في النحو عند البصريين أنّ النسبة تكون للمفرد، مثلا ستنسب للدول لا تقول: دُوَلي وإنما تنسب إليه بالمفرد دَوْلَة، ترجع الجمع إلىٰ مفرده ثم تنسب إليه فتكون النسبة دَوْلي، ستنسب للصُّحف لابد أنْ ترجعها إلىٰ مفردها صَحيفة فتنسب إليها صَحَفي.في المدينة مَدني، وهٰذه هي القاعدة إلاّ في ما شذّ لأجل وقوع الالتباس، مثل النسبة للمدائن –المدائن المعروفة– بالمدائني، وأشباه ذلك لأجل أنه لو أرجعت إلىٰ أصلها مدينة ونسب إليها مدني لوقع الالتباس بين المدني نسبة إلىٰ المدائن والمدني الذي هو نسبة

إلىٰ المدينة، في بحث معروف في النحو.

المقصود أنّ صحتها صَحَفي بفتحتين وليس صُحُفيًا، مثل ما هـو شـائع في الأخبـار وفي بعـض الجرائـد إلىٰ آخره.

(لا تأخذ العلم من صَحَفي)، يعني ممن قرأ في الكتب دون أشياخ لأنه سيرجح من عند نفسه سيرجح بناءً علىٰ ما قرأه، والعلـم لا يؤخـذ هكـذا، العلـم منـه شـيء للترجيح ومنـه شـيء للبحث، الأقـوال كثيرة وتنوُّع الأقوال وما أورده أهل العلم في شروحهم، هـٰذا طويل لكن منه شيء للإطلاع منه شيء لمعرفة ما قيل في المسألة، للنَّظر، لعله يكون له شواهد له قوة... إلخ.

فمن كان علمه من الصُّحُف فإنـه لا يكـون علىٰ الجـادة السـوية، بـل لابـد أنْ تجـد عنـده شـواذ وعنـده أغلاط يخالف بها أهل العلم.

ولهـٰذا عابوا علىٰ ابن حزم –مثلا– عابوا عليه في مسائل الحج، أشياء وهِم فيهـا وانتقـدها ابـن القيم في «زاد المعاد» وعقد لها فصلا طويلا، أغاليط ابن حزم في الحج لأنه ما حجّ أصـلا، ولا تلقـىٰ كتـاب الحـج عن أحد من أهل العلم.

وكذلك ابن القطان الفاسي العالم المشهور صاحب كتاب «بيان الوهم والإيهام» انتقده الذهبي وغيره بأنه لم يأخذ علم الرجال ولا علم الحديث عن المشايخ عن العلماء، لهـٰذا وقع في أوهـام وفي أشياء تفـرد بها كثيرة.

ولهـٰذا سلسلة العلم إذا اتصلت يكون الاجتهاد واقع في أصوله ما يكون بعيدا، والـذين خرجـوا بـأقوال شاذة في الأمة، أو أقوال غريبة خالفوا بها قول المحققين من أهل العلم أو الجمهـور، لابـد أنْ يكـون فـيهم هـٰذا المَنْزَع أنهم فاتهم الأخذ عن الأشياخ في ذلك، وهناك أمثلة في التاريخ كثيرة.

المرء يحرص علىٰ أنْ يستفيد من أهل العلم لأجل أنْ يكون طلبه للعلم علىٰ أصوله، أما من أخذ من الصحف دون الأشياخ فإنّ هـٰذا يكون عنده نقص.

إذا حصل أنه أخذ عن الأشياخ في أصول العلوم ثم توسع بالقراءة في الكتب فـلا عيـب، هـٰذا سنة كثير من أهل العلم بل الأكثر من أهل العلـم أنهـم لا يظَلـون أعمـارهم يقـرؤون علىٰ المشـايخ، بـل جملـة مـن عمره يقرأ فإذا حصّل الأصول وشهد له بذلك واستشار شيخه ممكن أنه بعد ذلك يترك القـراءة للمشـايخ ويأخذ يقـرأ لوجـود الأصـول عنـده الأصـول في التوحيـد والأصـول في التفسـير الأصـول في الحـديث وفي الفقه... إلخ؛ يعني الأشياء التي يربط بها العلم.

وكما ذكرتُ لك في أوّل الكلام: **كان العلم في صدور الرجال ثم انتقل إلىٰ بطون الكتـب، ولكـن بقيـت مفاتيحه بأيدي الرجال.**

سؤال (٠٢): لو تكلمت أحسن الله إليك عن المراجعة والمذاكرة بين طلبة العلم؟

الجواب: هـٰذا مهم لا شك أنْ يكون لطالـب العلـم صـديق في مثـل همتـه يكـون بينـه وبينـه مراجعـة في العلم يحفظ ويُسمِّع عليه ويتراجعـان، وإذا ضـبط مسـألة أو شـرح حـديث تناقشـا فيـه أو ضـبطا بـاب فقـه

تناقشا فيه، هٰذا يورد إشكال وهٰذا يورد وهٰذا يشرح شيء منه وهٰذا يشرح شيء منه، كما كان العلماء السالفون يتذاكرون العلم المحفوظ والمفهوم.

ولما قدم أبو زرعة الرازي عبيد الله بن عبد الكريم الرازي المعروف الإمام قرين أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي، لما قدم بغداد في مدة مُكْثه في بغداد لم يصلِّ الإمام أحمد نافلة كان يقتصر علىٰ الفرائض فقيل له في ذلك، فقال: استعضنا عن النوافل بمذاكرة أبي زرعة. فمذاكرة العلم تقوي العلم وتثبته، ويكون معها قوة في الإدراك والفهم والحفظ، إلىٰ آخر ذلك.

لكن بشرط أنْ يكون الذي تذاكر معه في نفس مستواك كي يفهم مثل ما تفهم وتشترك أنت وإياه في حفظ ما تحفظون متدرِّجًا، كذلك في الحضور علىٰ العلماء.

أسأل الله -جلّ وعلا- لي ولكم التوفيق والسداد؛ وصلّ اللهم وسلّم علىٰ نبينا محمد.

موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

المنهجية في طلب العلم
(التأصيل في طلب العلم)

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

اللّٰهمَّ اهدنا في من هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا في من توليت.

اللّٰهمَّ إنّا نسألك صلاحا في قلوبنا وصلاحا في أعمالنا وصلاحا في أقوالنا.

اللّٰهمَّ وفقنا لما تحب وترضىٰ، واجعلنا في مسيرنا متبعين لنبيك ﷺ.

هٰذا اليوم أو هٰذه الليلة نذكر مقدمة مهمة نافعة -إن شاء الله تعالىٰ- في طريق طلب العلم، والدّاعي لها أنّنا نرىٰ إقبالا من الشّبيبة -بارك الله فيهم- ومحبة لطلب العلم؛ لكنّ كثيرا منهم لا يعرفون طريق الطّلب؛ كيف يطلب العلم؟ بعضهم يُمضي أوقاتا طوالا ربما سنوات؛ يُمضيها ولا يحصّل من العلم ما حصله غيره ممن أنفذ سنوات مثل السّنوات التي أنفذها ذاك، والسبب هو أنه لم ينهج في طلبه للعلم النهج الصحيح، النهج الذي يحصل معه مبتغيه -أعني طالب العلم- يحصّل طرفا مما كتب الله جل وعلا له، طرفا ينفعه، طرفا ثابتا مؤصلا يمكنه أن ينقله إلىٰ غيره نقلا واضحا لا شك معه ولا ارتياب.

كثير من الشباب يقرؤون قراءات متنوعة، تارة في الحديث، وتارة في التفسير، وتارة في الفقه، يسمعون ويحضرون مجالس أهل العلم؛ ولكنّهم إذا رجعوا إلىٰ أنفسهم فيمن حضر سنة أو حضر سنتين، إذا رجع لنفسه رأىٰ أنه لم يحصّل شيئا كثيرا، لم يفهم المادة التي أُلقيت عليه، أو لم يؤسِّس عنده -حضورُه- علما مؤصلا يمكن معه أن ينطلق ويقيس علىٰ منواله وينهج نهجه.

والسبب انعدام المنهجية الصّحيحة في طلب العلم؛ لأنّ طالب العلم لابد أن يسلك في طلبه منهجا واضحا محدّدا، إذا لم يسلكه تخلّف عن الطريق، ولذلك نرىٰ أنّ كثيرين ملّوا من طلب العلم، سنين أمضوها ثم ملّوا وتركوا، تمضي عليهم سنون أخر فيرجعون عوامًا أو قرّاءً لا يعدون ذلك.

ونريد من طالب العلم المقبل أن يتحلّىٰ بخصلتين:

الأولىٰ: أن يكون سائرًا علىٰ منهج الطلب الذي سار عليه من قبلنا من أهل العلم، وصاروا علماء بعد مسيرهم ذلك السَّير.

والثاني: أن يوطِّن نفسه علىٰ أن يكون باذلا للعلم وقته، وأنْ لا يملّ مهما كان.

روىٰ الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في كتابه «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»: أنّ أحد طلبة الحديث رام طلبه ورغب فيه وحضر عند الأشياخ وجلس مجالسهم، ثم لما مرّ عليه الزّمن رأىٰ أنّه لم يستفد شيئا ولم يُحصّل كبير علم، فقال: إنّني لا يناسبني هٰذا العلم. وترك العلم لظنّه أنّ عنده في فهمه ركودة، أو أنّه لا يصلح لطلب العلم.

قال: فلما كان ذات يوم -أي بعد أن ترك بمدة- مرّ علىٰ صخرة يقطر عليها ماءٌ قطرة تلو قطرة، وقد أثَّر ذلك الماء في تلك الصخرة فحفر فيها حفرة، فتوقف معتبرا ومتأملا ومتدبرا، فقال: هٰذا الماء علىٰ لطافته أثّر في هٰذه الصَّخرة علىٰ قساوتها، فليس عقلي وقلبي بأقسىٰ من الصَّخر وليس العلم بألطف من الماء. فعزم علىٰ الرجوع إلىٰ طلب العلم فرجع ونبغ وصار ممن يشار إليهم فيه.

هٰذا يُفيدك أنّه يحتاج طالب العلم إلىٰ العزيمة وأنْ لا يملّ، لا يقول: أنا درستُ ودرست فما استفدت. ليرجع إلىٰ السبب، ليس السبب في طبعه، في أكثر الشباب أو أكثر المقبلين علىٰ طلب العلم، ليس السبب هو أنّهم لا يفهمون، كثير منهم يفهم، ولكن السبب في عدم تحصيله للعلم أنّه لم يسلك طريقه، ولم يأخذه علىٰ المنهاج الذي به تخرّج من سبقنا من أهل العلم، هٰذا الطريق سهل ميسور، وهو أسهل من الطريقة التي يسلُكُها الأكثرون اليوم.

إذا تبيّن هٰذا يحضُر هنا السؤال المهم وهو يُرَدَّد كثيرا؛ يردِّده كثير من الشباب ويسألون عنه ألا وهو:

ما هي المنهجية الصحيحة في طلب العلم؟

كيف يسير طالب العلم في هٰذا الطريق علىٰ وفق المنهجية التي إذا وفّق الله جلّ وعلا العبد معها صار طالب علم ووفق إلىٰ دراسته؟

وهو سؤال مهم للغاية، وحضور مجالس العلم مفيدٌ فوائد جمّة، ومن أعظمها أن يتخرّج طالب العلم منها -من تلك الحِلق- أن يتخرَّج فاهمًا لما أُلقي عليه ويستطيع به -أي بما فهم- أن يُفهم غيره.

أولا يحتاج طالب العلم إلىٰ أن يكون عنده أخلاق ضرورية وصفات ملازمة له في مسيره لطلب العلم:

أوّلها وأعظمها: أن يكون مخلصًا لربّه جلّ وعلا في طلبه للعلم؛ لأنّ طلب العلم عبادة كما ثبت في الحديث الصحيح[1] «**والملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع**»، الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، فهٰذه العبادة لابد لقبولها ولتوفيق الله جلّ وعلا لصاحبها أن يكون مخلصا فيها لله جلّ وعلا، يعني لا يطلب العلم لنيل مرتبة دنيوية، لا يطلب العلم الشرعي؛ علم الكتاب والسنة لنيل جاه أو سُمعة، أو ليصبح معلما، أو ليصبح محاضرا أو ليشار إليه بالبنان، أو ليكون ملقيًا لدروس ونحو ذلك؛ لا؛ بل يكون قصده التَّعبُّد لله بهٰذا وأن يتخلص من الجهالة فيعبد الله جلّ وعلا علىٰ بصيرة.

إذن الإخلاص في طلب العلم أن يكون المراد وجه الله جلّ وعلا لا عرضًا من الدنيا -بأنواع تلك الأعراض-، ويكون ناويًا أن يرفع الجهالة عن نفسه.

(١) «جامع الترمذي»، حديث رقم(٢٦٨٢)، «سنن ابن ماجه»، حديث رقم (٢٢٣)، قال الشيخ الألباني: صحيح.

سُئل الإمام أحمد قيل له: كيف الإخلاص في العلم؟ قال: **الإخلاصُ فيه أن ينوي رفع الجهالة عن نفسه.** لأنّه لا يستوي عالم وجهول، قال جلّ وعلا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾[الزمر:٩]، وقال جلّ وعلا في آية المجادلة: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾[المجادلة:١١].

فإذن الله جلّ وعلا فضّل أهل العلم علىٰ غيرهم، والذي يطلب العلم ليعبد الله علىٰ بصيرة، ليُخلِّص نفسه هو من الجهالة، وليكون في حياته موافقًا لما شرع الله جلّ وعلا، هٰذا قد أخلص، قد أخلص؛ لأنّه قصد وجه الله جلّ وعلا، قصد أن ينجو من أن يكون متَّبعًا لهواه جاهلا مقلدا.

الإخلاص أول تلك الشرائط وأول تلك الآداب والصِّفات.

والصفات والآداب كثيرة صنّفت فيها كتب ومؤلفات بعضها صغير وبعضها كبير، لكن نذكر منها ما يهمُّ في هٰذا المقام.

ثانيها: أن يكون رفيقًا مترفِّقًا في طلب العلم؛ لأنّ النبي ﷺ أخبرنا بخبر عام فقال: «**إنّ الله يحبُّ الرفقَ في الأمر كلّه**»(١) يحبُّ الرفق في الأمر كلّه، وهٰذا ظهور في العموم، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إنّ الرِّفق ما كان في شيء إلا زانه**»(٢) ويدخل في ذلك العلم وطلب العلم. كيف يكون الترفق؟ يكون بأنْ لا تروم العلم جملة، كما قال لكَ ابن شهاب الزهري الإمام التابعي المعروف قال: **من رام العلم جملة ذهب عنه جملة، وإنّما العلم يُطلب علىٰ مرّ الأيام والليالي.**

وقد أفصح عن هٰذا المعنىٰ الشاعر حيث قال:

اليوم علم وغدا مثله ... من نخب العلم التي تُلتقط
يحصّل المرء بها حكمة ... وإنّما السَّيل اجتماع النقط

الرفق مطلوب، كيف يكون الرفق؟ بأن لا تروم العلمَ جملة.

بمعنىٰ: واحد يريد أن يروم علم **التفسير** يذهب يقرأ «تفسير ابن جرير»، «تفسير ابن جرير» فيه كلّ التفسير، هٰذا رام العلم جملة، ما يحصّل، يبدأ وينتهي من «تفسير ابن جرير»، وإذا سألته لم يعلق بذهنه من التفسير إلا القليل، يتذّكر أنه قرأ كذا وقرأ كذا؛ ولكنه لا يُفصح لك عن تفسير آية علىٰ الوجه المطلوب.

إذن كيف يكون؟ لا بد من التدرّج، والتدرج سنّة لابد منها.

(١) «صحيح مسلم»، حديث رقم (٢١٦٥).

(٢) «صحيح مسلم»، حديث رقم (٢٥٩٤).

كذلك رجل يريد أن يطلب علم **الحديث** يذهب إلىٰ «نيل الأوطار» يبدأ به، أو «فتح الباري» يقول: أنا خلاص انتهيت من مجلد من «فتح الباري»، هٰذا الرجل اعلم أنه لن يحصِّل العلم علىٰ ما كان عليه أهل العلم، فيكون قارئا مثقفا عنده معلومات متناثرة؛ لكن ليس هو العلم الذي قد أُصِّل والذي بعده سيكون عالما إنْ وفقه الله جلّ وعلا.

كذلك في **الفقه** ماذا قرأت في الفقه؟ يقول: أنا أقرأ في المغني، أنا أقرأ في «المجموع»، هٰذا يصدق عليه أنه لم يأخذ بالترفّق؛ رام العلم جملة، «المغني» و«المجموع» والكتب الكبار هٰذه إنّما يعي مسائلها الكبار من أهل العلم؛ لكن طالب العلم المبتدئ لا يقرأها قراءة من أولها إلىٰ آخرها، لا شك أنّه قد يحتاج إلىٰ بحث مسألة بخصوصها يرجع فيها إلىٰ المطوّلات؛ لكن لا يقرأها سردا يمرّ عليها.

أيضا لا يهتم طالب العلم -وهٰذا من **فروع الترفُّق**- لا يهتم بالتفصيلات فإنه إذا كان في طلبه للعلم اهتم بدقيق المسائل واهتم بالتفصيلات فإنه ينسىٰ ولن يحصّل علما؛ لأنّه لم يؤصَّل ولم يبن القاعدة التي معها تُفهم تلك التفصيلات، بعضنا يذهب إلىٰ دروسٍ مفصّلة جدا، يمكث أصحابها في كتاب سنين عددا طويلة ما انتهوا منه، أو في الباب الواحد يجلسون أشهر ونحو ذلك، ويظنّ أنّ هٰذا يحصِّل معه علما، لا، هٰذه الطريقة ليست بطريقة منهجية؛ لأنّه لم يترفق صاحبها فيها، ولقد قال جلّ وعلا: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾[آل عمران]، ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ فسّرها أبو عبد الله البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمه الله واسعة في «صحيحه»[1] قال: **الرباني هو الذي يُربي الناس بصغار العلم قبل كباره**. هٰذا الرّباني في العلم والتدريس هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره.

يَشْرُف المدرس وطالب العلم إذا درّس أن يذكر كل ما يعلم في المسألة، أن يذكر بعد تحضير واسع كل ما وصل إليه تحضيره؛ لكن هٰذا شرفٌ له؛ ولكنّه ليس بنافع لمن يعلِّمُ؛ لأنه هو يستعرض ما علم، والعالم إنما يُعطي ما يحتاج إليه السّامع، لا يعطي ما هو فوق مقدرة فهم السَّامع، يُعطي ما يحتاج إليه السامع.

إذن فلابد من الترفق، كيف يكون الترفق؟ سيأتي جوابه في بيان المنهج الصَّحيح في التدرّج في طلب العلم.

الخصلة الثالثة: أن يكون مواصلا في طلب العلم، يجعل للعلم أعزّ أوقاته وأحلاها، لا يجعل للعلم الأوقات الميّتة، الأوقات التي كلّ فيها ذهنه وضعف فيها فهمه يجعلها للعلم، يجعلها للدرس، هٰذا قد خالف وما نَصح نفسه.

---

(١) «صحيح البخاري» كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل.

إذن العلم تعطيه من وقتك أعزّ الأوقات التي فيها صفاء الذهن وقوة الذهن والفراغ.

وهٰذا إنما يكون بضميمة أمر آخر ألا وهو أن يكون طالب العلم شغفا بالعلم ليلا ونهارا، يصبح مع العلم، ذهنه مشغول بالعلم، يُمسي كذلك، همّه العلم، إذا أراد أن ينام بجنبه كتاب ربما يحتاج فيه إلىٰ مسألة.

ولهٰذا يقول بعضهم: إذا رأيتَ كُتب طالب العلم مرتّبة فأعلم أنه هاجِرٌ لها، إذا رأيتها مرتبة فاعلم أنه هاجرٌ لها، إذا أتيت علىٰ غفلة ودخلت مكتبة فلان من الناس ورأيتَ كتبه مرتبة، كلّ واحد في مكانه، معنىٰ ذلك أنه ما يطالع، الأرض ما عليها كتاب، ولا بجنبه كتاب، وإذا كان عنده طاولة ليس عليها كتاب، هٰذا معناه أنّه يأخذ الوقت الذي يفعله بعض المثقّفين أصحاب المشاغل يقول: وقت قراءة، طالب العلم ما عنده وقت يسمىٰ وقت قراءة؛ لأنّ وقته كله في طلب العلم، يصبح ويمسي ذهنه مشغول بمسائل العلم، في فترة شبابه؛ الفترة الرّئيسة في عمره التي فيها يُحَصِّل يكون شغفًا، هنا تتوزع الأوقات:

الأوقات الجليلة التي يقوىٰ فيها ذهنه يختار لها العلوم التي تحتاج إلىٰ كدّ ذهن مثل الفقه والأصول ونحو ذلك.

الأوقات المتوسِّطة يختار لها العلوم التي لا تحتاج إلىٰ كدّ ذهن مثل التفسير الحديث المصطلح ونحو ذلك.

الأوقات التي يضعف فيها فهمه يختار فيها قراءة كتب الآداب، كتب الرِّجال، تراجم الرجال، التاريخ ونحو ذلك، الثقافة العامة.

إذن هو منشغل دائما، أينما كان منشغل مع طلب العلم، دائما يفكر فيه، لا يسليه عن طلب العلم نزهة ولا صحبة.

ولهٰذا نرىٰ أنه من أكبر ما يُعاب علىٰ بعض من يظنّ أنّه طالب علم أنّه يمضي الساعات الطوال في مجالس في قيل وقال وأحاديث لا تمتّ إلىٰ العلم بصلة، هٰذا لا يكون طالب علم، وإنما يكون شيئا آخر بحسب ما أشغل به نفسه، أما طالب العلم فمشغول سَلواه وهواه ورغبته في طلب العلم، المجلس الذي فيه كلام عن مسائل العلم وبيان ما أنزل الله جلّ وعلا في كتابه أو قاله رسول الله ﷺ هٰذا مكان انشراح الصدر، ومكان سعة الصدر، أو مكان تعليم، أو مكان بيان للعلم الذي أنزله الله جلّ وعلا، هٰذا هو سعة الصدر ومكان راحته.

إذن فطالب العلم ينبغي بل يجب علىٰ أن يكون من خصاله الملازمة له أن يكون ملازمًا للعلم، لا يعطي العلم بعض الوقت إنما يعطيه كل الوقت أو جل الوقت، في فترة شبابه الفترة التي فيها تحصيل العلم.

ولهٰذا يقول بعض من تقدَّم: أعط العلم كلّك يعطيك بعضه. لأنّ العلم غزير مسائله كثيرة شتىٰ، ولهٰذا كان بعض أئمة الحديث حُدِّث بحديث وهو علىٰ فراش الموت، فقال لكاتبه: أكتبه -هو علىٰ فراش الموت- علم حصّله في هٰذه اللّحظة، هٰذا يدلك علىٰ إخلاصه وعلىٰ متابعته وقلبه شغف بذلك الشيء.

والإمام أحمد لما كان في مرضه الأخير كان ربما أنَّ؛ أصابه بعض الوجع فأنَّ أنين -يُخرج الأنين- فأتىٰ بعض تلامذته فروىٰ له بالإسناد أنّ محمد بن سيرين قول أنس بن مالك رضي الله عنه كان يكره الأنين. قال: فما سُمع أحمد آنّا حتىٰ مات.

هٰذه النفسية لطالب العلم وللعالم هي التي بها يجعل الله جلّ وعلا طالب العلم عالما في مستقبل أمره إن شاء الله تعالىٰ نافعا، يكون همه مع العلم ليلا ونهارا، يستفيد ما يحتقر فائدة يأتي بها الصغير أو الكبير، بعضهم يأتيه من هو أصغر منه بفائدة فيستكبر عليها أو لا يصغي لها كلَّ سمعه، وهٰذا لأجل أنّه عظَّم نفسه علىٰ العلم، فإذا عظم نفسه علىٰ العلم فإنّه لا يكون من المحصّلين للعلم، بل إنّ العلم يكون مع الصغير ويفوت الكبير، بعض العلم يفهمه من هو أصغر ويفوت الأكبر فإذا وضحه له استفاد.

وهٰذا يذكر أهل العلم له المثل الواضح ألا وهو قصة سليمان مع الهدهد، فإنّ الهدد مع وضاعته قدْرا وذاتا ومع رفعة سليمان قدْرا وذاتا ومنزلة عند الله وعند الخلق قال له الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢﴾[النمل]، فعلمها الهدهد وجهلها سليمان عليه السلام، فهٰذا استفاد منه أهل العلم أن لا تتكبر علىٰ من أتاك بفائدة صغر أم كبر، يأتيك بفائدة يستشكل استشكالاً أرعه سمعك لأنه يفتح لك بابا بذلك.

هٰذه الخصال الثلاث مهمة جدًّا لطالب العلم، وهناك غيرها كما ذكرت لك تطلبها من الكتب التي أُلفت في هٰذا الباب.

الآن نأتي للسّؤال المهم:

كيف يكون الترفُّق؟ كيف يكون التدرج في طلب العلم؟ أو ما هو المنهج في طلب العلم؟

الجواب: أنّ العلوم متنوعة مختلفة، العلوم الشرعية متنوعة ومختلفة:

- فمنها علوم أصلية.
- ومنها علوم مساعدة يسميها بعضهم علوم الآلة، ويسميها آخرون علوما صناعية.

فالعلوم الأصلية: هي علم الكتاب والسنة؛ يعني علم التفسير، علم الحديث، علم الفقه، ثم علم التَّوحيد نخرجه من الكتاب والسنة لأجل عظيم منزلته؛ لأنّ كل هٰذه العلوم متفرعة ومفهومة من الكتاب والسنة.

إذن عندنا العلوم الأصلية لطالب العلم: **التفسير، والتوحيد، والحديث، والفقه.**

والعلوم المساعدة: هي أصول التفسير أو ما يسمونه بعلوم القرآن، أصول الحديث أو ما يسمىٰ بمصطلح

الحديث، أصول الفقه، النحو وعلوم اللغة.

ثم هناك تقسيم آخر:

- العلم منه أصول.
- ومنه مُلح.

الأصول: مثل هٰذه العلوم سابقة الذكر كلها التي ذكرت، الأصلية والمساعدة.

والملح: كالأخبار والتراجم والغرائب والقصص والتاريخ ونحو ذلك.

أولًا: علم التفسير:

علم التفسير تتدرَّج فيه بأن تبدأ بتفسير مختصر جدا، تطّلع فيه علىٰ معاني كلام الله جلّ وعلا، وخاصة إذا كنت حافظا للقرآن فإنه يكون من أنفع الأشياء لك أن تمر علىٰ تفسير مختصر.

كان العلماء يعتنون بـ«تفسير الجلالين» في الأعصر المتأخرة، وهو نافع مفيد؛ لكن تحترز في قراءته علىٰ ما فيه من التأويلات، وقد صنّفه الجلالان: جلال الدِّين المحلِّي وجلال الدين السّيوطي.

تمرّ فيه من أوَّله تأخذ المفصل حيث إنّك تسمعه كثيرا في الصلاة تفهم المعاني باختصار وهو كله مجلدان صغار، فإذا مررت علىٰ خمسين صفحة أخذت المفصل كاملا فهمت المعاني التي تسمعها في الصلاة، فيكون معك علم واضح.

كيف تعرف أنك فهمت التفسير حتىٰ تنتقل إلىٰ غيره؟

هنا الجواب: أن تستطيع أن تفسر السّورة علىٰ نفسك، مثلا تقرأ سورة ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ فقرأت تفسيرها في «الجلالين»، وفهمته. كيف تعلم أنك فهمته؟ تُغلق التفسير وتبدأ تفسر علىٰ نفسك، فإذا استطعت أن تفسّر بصواب وبدون تلكّؤ وبوضوح في فهم الآيات عند نفسك، فإنّك تكون قد درجت؛ فهمت تفسيرها ويمكن أن تنتقل بعدها إلىٰ غيرها.

وهٰذه طريقة يأتي تفصيلها في غير التفسير.

هٰذا أولًا تبدأ بتفسير «الجلالين»، بعد ذلك تنتقل إلىٰ ما هو أعلىٰ منه مثل «تفسير الشيخ ابن سعدي»، أو مثل «تفسير البغوي»، أو «ابن كثير» أو مختصراته إذا كان هناك مختصرات سالمة من المعارضات فتَرجع إليها، تمر عليها مرورا تعرف معه المعاني.

تكون المعلومات التي فيها التي هي أطول من «الجلالين» قد أتت ذهنك بعد فهمك لما أورده الجلالان، -واضح-، فإذا أتت المعلومات الأكثر تكون المعلومات الأقل واضحة، لأنّك استطعت أن تفسِّر، ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ فسّرتها علىٰ نفسك، بعد ذلك إذا قرأت «ابن كثير»، إذا قرأت «البغوي» ونحو ذلك من الكتب التي هي أكبر قليلا، بعد ذلك ستحس من نفسك أنك أدركت أكثر وهكذا، مع مرور

الزمن تحس أنك قد نميّت فهمك لكلام الله جلّ وعلا.

التوحيد:

التوحيد قسمان:

القسم الأول: العقيدة العامّة.

القسم الثاني: توحيد العبادة.

يعني علم التوحيد الذي ستدرسه إن شاء الله، ليس تقسيم للتوحيد المطلوب؛ توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، هٰذا تقسيم للتوحيد من حيث هو علم.

العقيدة العامة: أُلفت فيها كتب منها: «لمعة الاعتقاد»، ومنها «الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، ومنها «الحموية»؛ «الحموية» ذكر بعض المسائل، ومنها «العقيدة الطحاوية»، وغير ذلك مما ذُكرت فيه مباحث الاعتقاد كاملة؛ يعني يذكرون مباحث الاعتقاد كلها، كل مباحث الاعتقاد مثل: الإيمان بالله، أسمائه وصفاته وربوبيته وما يتعلق بذلك، والإيمان بالملائكة، الإيمان بالكتب، بالرسل، باليوم الآخر، أحوال القيامة، أحوال القبر، البعث، ما يحصل في عرصات القيامة، الجنة والنار، القدَر وما يتعلق به، ثم يذكرون تفاصيل الاعتقاد، مباحث أخر مثل الكلام في الأولياء وكراماتهم، مثل الكلام في الصحابة رضوان الله عليهم، مثل الكلام في الإمامة وحقوقها، مثل الكلام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مثل الكلام في الأخلاق ونحوها كما ذكر شيخ الإسلام في آخر «الواسطية»، هٰذه تسمىٰ عقيدة عامّة لأهل السنة والجماعة.

هٰذه تأخذها بالترتيب، تبدأ بكتاب مختصر تقرأه علىٰ شيخ.

التفسير لا يحتاج أن تقرأه علىٰ شيخ، إذا أشكل عليك شيء فسل فيه أو عنه.

أما التوحيد فلابد من قراءته، تأخذ مختصرا مثل «لمعة الاعتقاد» إن حفظتها فحسن وهو المراد، وإن لم يتيسر فكررها حتىٰ تفهم مباحثها.

من الأغلاط التي تواجه طلاّب العلم أنهم يأخذون كتابا ما استعرضوا مسائله ولا مباحثه؛ يعني يحضر يعرف الموضع الذي يحضر فيه عند المعلم، وهٰذا غلط؛ بل الواجب أنْ تعرف المباحث التي تكلَّم عنها الكتاب.

«لمعة الاعتقاد» تمر عليها من أوله إلىٰ آخره، تعرف ترتيبه والمسائل التي تعرض لها ونحو ذلك، ثم بعد ذلك تقرأه علىٰ معلم أو علىٰ شيخ.

كتاب في أوائل الكتب «لمعة الاعتقاد»، مسائله واضحة مختصرة، إذا شرح لك وقرَّرَ عليه تقريرات كتبتها، بعد ذلك اضبطه، فإذا ضبطت هٰذا الشرح وعرفت من نفسك وأنست أنك أحكمته، أو أحكمت

أكثره تنتقل بعده إلىٰ «الواسطية».

تأخذ أيضا «الواسطية» علىٰ معلم. ثم كيف تعلم من نفسك أنّك فهمت الباب؟ بعض الناس يقرأ فإذا أتىٰ يعبر عما قرأ إما أن يعبر بعبارة غير شرعية غير علمية، وإما أنْ يعبر خطأ؛ يكون فاهما أصلا خطأ من جراء قراءته، لِم؟ لأنّه لم يختبر نفسه، فأنت إذا قرأت الفصل من «الواسطية» مع شرحه، تبدأ تدرسه علىٰ نفسك؛ تعبر عنه، تقول مثلا: قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الواسطية» في أولها مثلا: (فَهٰذا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ [الْمَنْصُورَةِ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ]: أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ)، تبدأ تشرح الفرقة الناجية من هم؟ أهل السنة والجماعة من هم؟ حتىٰ تعرف من نفسك أنك أدركت معاني هٰذا الكلام، إذا أتىٰ في أثنائه درست الكلام عن الصفات مثلا صفة العلو لله جلّ وعلا الاستواء علىٰ العرش تذكر ما تعرض له الشارح من المسائل، ما تأخذها سماعا أو قراءة، تقول أنا قرأت «الواسطية»، هٰذا لا تُحصِّل معه العلم بل لابد أن تدرس.

وهٰذا الذي يسميه أهل العلم: **معارضة العلم ومدارسة العلم، ومذاكرة العلم**، له ثلاثة أسماء معارضة، مذاكرة، مدارسة، ويستعمل أهل الحديث له لفظ (المذاكرة) يقول: ذاكرته بكذا، كما مرّ في بعض أخبار الإمام أحمد أنه صلىٰ العشاء هو وأبو زرعة الرازي؛ عبيد الله بن عبد الكريم الإمام المعروف، صليا العشاء سويا ثم دخلا إلىٰ المنزل فما فُوجِئا إلاّ بآذان الفجر مكثا الليلة يتذاكران، كيف يتذاكران؟ هٰذا يذكر إسناد وذاك يذكر المتن، هٰذا يذكر المتن ما تكلم عليه إذا كان عليه فقه أو نحو ذلك، يتذاكران العلم هٰذا فيه تثبيت له، أما أنْ تحضر عند الشيخ والمعلم وتسمع وتذهب، وعهدك بالدرس آخر ما سمعته، هٰذا لا يحصّل علما، تسمع وتستفيد ومأجور إن شاء الله لكن لا تنمّي العلم ولا تؤسسه عند نفسك.

فإذن إذا سمعت، قرأت الشرح، فهمت معنىٰ الكلام، علامة فهمك عند إغلاق الكتاب أنْ تبدأ تشرح وتوضح المسائل، إذا كنت فاهما مائة في المائة ستوضح كل المسائل لن يكون في ذهنك اشتباه، إذا كان فهمك ناقصا أو مضطربا أو مشوشا، ستلاحظ أنك أثناء الشرح لهٰذه الكتب الأساسية التي هي أصول، ستلاحظ أنك اضطربت، تتكلم ما تعرف كيف تعبِّر؛ اختلطت عليك المسألة، مع أنّك كنت حين أمررته، ظننت أنك فاهما له؛ ولكن عند الاختبار يُكرم المرء أو يهان، فتنظر إلىٰ نفسك فتعرف أنك فاهم أو لست بفاهم، فإذا ما استطعت أن تشرح هٰذا المقطع أو تلك الجملة فمعنىٰ ذلك أنّك تحتاج إلىٰ إعادتها، فلا تنتقل إلىٰ ما بعدها إلا بعد إحكامها.

سابقا طلاب العلم يحضرون عند الشيخ مثلا يدرّسهم، في الليل مدارسة لما درسوه، كل واحد يغلق الكتاب ويشرح لصاحبه، والآخر يشرح له، ومن الحسن في طلب العلم أن تتخذ لك صاحبا

واحدا، لا تكثر، صاحب واحد لا تكثر، فهٰذا الصاحب تراجع أنت وإياه العلم؛ تشرح له ويشرح لك تبين له خطأ فهمه ويبين لك خطأ فهمك، وتتساعدان في هٰذا.

إذا انتهيت من «الواسطية» تأتي الدرجة الثالثة، بعد فهم الواسطية تماما تأتي الدرجة الثالثة؛ تنتقل إلىٰ «الحموية»، أو إن شئت تنتقل إلىٰ «شرح الطحاوية»، ما فيه حرج.

تستطيع بعد فهم «الواسطية» تماما -إذا فهمت «الواسطية» تماما- تستطيع أن تأتي لكتب شيخ الإسلام تمرّ عليها تفهمها بإذن الله تعالىٰ.

لكن من العجب أن يأتي بعضٌ منّا ويفتح «الفتاوىٰ» ويقرأ فيها، وهو ما أحكم أصول علم الاعتقاد، جاء به نوم تعبان كليل ما عنده إلا عشرة دقائق أو ربع ساعة، قال: خلِّي نقرأ في «الفتاوىٰ». يفتح ويقرأ، ثم بعد ذلك يصبح يجادل في بعض المسائل وهو ما فهمها أصلا، وهٰذا كثير وواجهناه، كثير يأتي يقول قال شيخ الإسلام كذا، وإذا راجعت وجدت أنّ شيخ الإسلام ما قاله.

لأجل أنه أعطاه وقتا مقتطعا ليس بجيد.

الثاني لأجل أنّه ما عنده أصول تلك المسألة؛ يعني أصول تلك المسألة ليست ثابتة عنده، فيكون فهمه لكلام العلماء ليس بقوي.

الأعظم من ذلك أنْ لا يكون أحكم «الواسطية» أو «الحموية» أو «لمعة الاعتقاد»، أحكمها فهمًا، ويذهب إلىٰ كتب السلف كـ«السنة» لعبد الله بن الإمام أحمد، أو «الإيمان» لابن منده، أو كـ«التوحيد» لابن خزيمة، أو كـ«التوحيد» لابن منده، ومثل ذلك من الكتب الكبار التي ليست المسائل فيها مؤصَّلة كما أُصلت في كتب المتأخرين.

لكن إذا أصّلت المسائل ثم ذهبت إلىٰ تلك الكتب فسوف يكون استدلالك بكلام السلف علىٰ أتم وجه، فستفهمه علىٰ أتم فهم إن شاء الله تعالىٰ؛ لأنّ الكلمة من كلام السلف سوف تكون في بالك منوطة بالمسألة التي كانت عندك أصولها في تمام الوضوح، ترتبط الكلمة واضحة عندك معناها، مرادهم بها، محترزاتها، ما تحوىٰ.

من أمثلة ذلك مثلا الكلمة التي هي في أول «لمعة الاعتقاد»، حيث قال صاحب «اللمعة» في أولها في الإيمان بالأسماء والصفات: بـ(لا كَيْفَ ولا مَعْنَىٰ)؛ هٰذه يأتيها طالب العلم (ولا مَعْنَىٰ)، هٰذه إذا ما فهمها علىٰ حقيقتها فإنه إذا أتىٰ إلىٰ كتب السلف لم يفهم بعض الكلمات التي جاءت عنهم، ولهٰذا يأتي بعض أشاعرة العصر ومبتدعة العصر ويأخدون بعض كلام الإمام أحمد أو بعض كلام من تقدم علىٰ أنه تأويل لبعض النصوص لأجل أنهم لم يفهموا حقيقة المعنىٰ، لٰكن إذا فهمت معنىٰ قوله: (لا كَيْفَ ولا مَعْنَىٰ) وأن المعنىٰ المراد في قول «صاحب اللمعة»: (ولا مَعْنَىٰ) هو المعنىٰ الذي حرف النص إليه

المبتدعة، فمت كثير من كلام من تقدم.. وهكذا مسائل الإيمان، مسائل القدر، لا يمكن أن تفهم كل كلام السلف ما لم تكن العقيدة واضحة عندك كما أوضحها المتأخرون من أئمة أهل السنة والجماعة، فلا يكون عندك اشتباه. كذلك كتب السنة المختلفة يعني مثل كتاب «السنة» لأبي داود آخر كتابه «السنن»، «التوحيد» للبخاري ونحو ذلك، إذا ما فهمت الأصول فإن تلك المسائل قد لا تكون واضحة عندك ولا تؤصل عند العلم.

القسم الثاني: (١) وهٰذا لا شك أنه خروج بكتب أهل العلم عما ينبغي له، وأن قول الشيخ: (الثالث الدعوة إليه) لا يعني أن تدخل المسائل المعاصرة المحدثة في أساليب الدعوة إلىٰ غير ذلك أن تدخل في تقرير كلام أهل العلم؛ لأن المستمع متلقي عنك ما أجمع عليه أهل العلم، لا يتلقىٰ عنك آراءك، فالمدرس ينتبه إلىٰ التبعة العظيمة في هٰذا أنه يتلقىٰ عنه، إذا كان المدرس شابا مبتدئا في طلب العلم وفي الشرح لابد أن يذكر له ما يعلمه مجمع عليه، ولا يذكر المسائل التي هي آراء، فإن الدروس العلمية ليست مجالات للتربية الشبابية، أن تكون علما خالصا يؤخذ عن المعلم.

إذن فتنتبه أن تأخذ هٰذه الكتب عمن تحققها، وأنصح ثم أنصح أن تحرصوا ثم تحرصوا علىٰ علمائنا الكبار؛ لأنّ عندهم من العلم ما ليس عند غيرهم، فإن لم يكن عندك من الوقت ما يناسب أوقاتهم ونحو ذلك فلا بأس أن تلحق بغيرهم من طلبة العلم ممن هم من أساتذتنا ولكن بشروطه المعتبرة.

الثالث: الحديث:

أول ما يبدأ طالب العلم بحفظ «الأربعين النووية» وربما لو سألت أكثر الحاضرين هل حفظوا «الأربعين النووية»؟ يقول: لا، ما حفظوها وانتقلوا إلىٰ دراسة الكتب الكبار مثل «نيل الأوطار» أو «سبل السلام» أو «فتح الباري»، و«الأربعون النووية» هي القاعدة.

أُرجعكم إلىٰ شيء؛ إلىٰ الكتب التي ترجم فيها مؤلفوها لأهل العلم؛ كتب التراجم، انظر واقرأ ما تجد أنّهم ذكروا في ترجمة عالم أنّه قرأ كتابا كبيرًا، مثلا ما تجد أنّه تُرجم للعالم الفلاني الجليل بأنّه قرأ «فتح الباري»، أو قرأ «المجموع» ونحو ذلك، ما تجده؛ لكن تجد في تراجمهم أنه يقول: حفظ مثلا «الأربعين النووية»، حفظ «المُلحة» في النحو، حفظ «العمدة» في الفقه، حفظ «عمدة الأحكام». يذكرون مثل المختصرات لمَ؟ لأمرين:

الأول: ليدلك أنّ طريق العلم هو هٰذا لا غير.

الثاني: ليُبين مكانة هٰذا العالم وأنّ علمه مرسخ مؤصل؛ لأنه ابتدأ بتلك المتون فأحكمها ودرسها علىٰ

(١) الظاهر يوجد قطع في الدرس الصوتي.

الأشياخ.

ما تجد أنّ فلانا قرأ «فتح الباري»، قرأ «نيل الأوطار»، ما تجد، ما فيه، ولا يُثني علىٰ العالم بذلك؛ لأنّ هٰذه الكتب تُعرف مسائلها التفصيلية إذا أحكمت الأصول، إذا كان ثَم وقت عالم خص طالب علم جيد بأنه جعله يمر عليه كتاب من الكتب المطوَّلة، هٰذا فضل الله يؤتيه من يشاء، لٰكِن ليست قاعدة.

إذن في الحديث:

أولا تبدأ بحفظ «الأربعين النووية» حفظا لا غير، لابد تحفظها مثل الفاتحة، تحفظها وتمرُّها دائما، تحفظها، كل أسبوع لك ختمة فيها تختمها، حتىٰ تكون واضحة عندك بعد ذلك تقرأ شرحًا لها، وحبذا لو يكون علىٰ شيخ أيضا، وإنْ لم يكن فتقرأ شرحًا وتضبطه وتسأل فيما أشكل عليك أحد العلماء.

كيف يكون؟ بعد حفظ جميع «الأربعين النووية» تبدأ في كلّ حديث تقرأ «شرح النووي» عليه، النووي مختصر، أكبر من النووي «شرح ابن دقيق العيد»، ثم يليه شروح كثيرة، ولكن أكبرُها «شرح ابن رجب الحنبلي» الحافظ المعروف.

تقرأ شرح النووي فإذا قرأته علىٰ حديث «**إِنّما الأعْمَالُ بالنّيات**»[(١)] تُغلق الشرح، تبدأ تشرح الحديث، هٰذا ينفعُك كثيرا إذا أردت أن تعظ في مسجد، لك أن تبتدئ من أيّ حديث من الأربعين النووية وأنت ضابط للشرح ثم تشرح فيما ضبطت، كافٍ ونافع للغاية، احتيج إليك لخطبة جمعة تأتي مسجد فيه عدد من طلبة العلم كل واحد يقول للثاني: لا ما أخطب أنا يخطب الثاني. طالب العلم لابد عدته معه في كل مكان، أقل العدة أن يكون معك آيات مع إحكام تفسيرها؛ سورة العصر وتفسيرها، سورة الإخلاص وتفسيرها، وغيره أو «الأربعين النووية» مع إحكام شرحها، فلابدّ قاعدة لك تنطلق منها، وستكون بإذن الله رائيا ومشاهدا لعظم النفع بحفظ «الأربعين النووية» مع إحكام شرحها؛ لأنها ضمت من المسائل الشيء الكثير.

بعد ذلك تنتقل من «الأربعين النووية» إلىٰ «عمدة الأحكام» في الحديث، بعد ذلك إلىٰ «بلوغ المرام»، إذا الواحد حسّ من نفسه نشاط يقول: أنا أبدأ بـ«البلوغ» حفظا، لا بأس، وإن لم يكن فـ«عمدة الأحكام» وبعد «البلوغ» يكفي؛ خلاص بركة ونعمة، لا مانع أن تقرأ في كتب السنة؛ «صحيح البخاري» «صحيح مسلم» وفي غيرها، لكن لا تقرأ فيها وأنت ما ضبطت تلك الأصول؛ لأنّه تأتيك أحاديث ما تعرف معناها أحاديث ربما يكون المعنىٰ فيه شيء من التعارض، المسائل الفقهية المستنبطة منها ربما تعز عليك ونحو ذلك.

---

(١) «صحيح البخاري» حديث رقم (٠١)، «صحيح مسلم» حديث رقم (١٩٠٧).

◆ [رابعا]: **الفقه:**

الفقه تبتدئ بـ«عمدة الفقه» لابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومن لم يكن في هٰذه البلاد يبتدئ بأي متن من المتون الفقهية في أي مذهب؛ لكن مذهب الحنابلة هو أقل المذاهب مخالفة، أو أقل المذاهب مسائل مرجوحة، فإنّ المسائل المرجوحة مثلا في متن «زاد المستقنع» قليلة، وأكثره راجحٌ.

المقصود تأخذ متنا مثل «عمدة الفقه»، تأخذه وتضبط مسائل كل باب، مثلا تمرّ علىٰ باب المياه، باب المياه تمرّ عليه مرة سريعة فتعرف تقسيمه في الباب، ووش بدأ؟ وش انتهىٰ؟ ما مسائله؟ ثم بعد ذلك تبدأ تقرأ فيه علىٰ معلم، هٰذا لابد منه، إذا لم يتيسر تقرأه علىٰ نفسك، أو تقول: والله إنّي رجل تقدمت بي الأمور، يشار إليّ بالبنان، مدرس كذا، صعب أني أحضر، بعضهم يقول: صعب أنّي أحضر علىٰ شيخ أو نحو ذلك، لا، تقرأ وتسأل عما أشكل عليك.

كيف يُقرأ الفقه؟ هٰذا سؤال مهم، كيف يُقرأ الفقه؟ -تعذروننا الكلمة منهجية قد تكون مملة في بعض الأحيان- نرجع للسؤال: كيف يقرأ الفقه؟ كثيرون يقرؤون الفقه دون أن يعلموا كيف يقرأ الفقه، الفقه ليس كالتوحيد، فالتوحيد تصور مسائله سهل؛ مسائل الصفات فيها إثبات فيها تأويل، تأولوا العلو إلىٰ كذا؛ إلىٰ علو القدر علو القهر، تأولوا الاستواء إلىٰ كذا، واضح؛ تصورها واضح، لكن الفقه تصوره ليس بالواضح، فهم صور المسائل لئلا تشتبه بمسائل أُخر ليس بواضح، فيحتاج منك درس الفقه إلىٰ أناة أولا.

تتعامل مع هٰذا المختصر بالسؤال والجواب، كيف؟ تقول مثلا: المياه ثلاثة أقسام. تأتي تخاطب الشَّرح أو تسأل السؤال غير مخاطِب تقول: كم أقسام المياه؟ أقسام المياه ثلاثة، الأول: هو الطهور، ما تعريفه؟ يأتي، تلاحظ أنك في هٰذه الأسئلة إذا مرنت يكون الجواب بعد سؤاله، ما تعريفه؟ يقول لك: هو الماء الباقي علىٰ أصل خلقته مثلا. أو كما يقول غيره هو الطاهر في نفسه المطهر لغيره، إذن سألت وهو أجاب، تعاملت مع كتاب الفقه كأنه معلم، تسأل أنت وهو يجيب، إذا أتىٰ احتراز أو شرط تسأل بالأسئلة المناسبة تقول مثلا، إذا قال الماء الباقي علىٰ أصل خلقته تسأل تقول: مطلقا؟ وهو يجيبك يذكر لك الحالات هل خالطه ممازج أم غير ممازج ...إلخ، تبدأ أنت تسأل وتقسّم، تسأل وتقسّم، تسأل وتقسّم.

والعلم في الفقه إنما هو بشيئين هما:

أولا: بالتصور.

ثانيا: بالتقاسيم، أنفع شيء لك في الفقه التقسيم، تقول هٰذه تنقسم إلىٰ كذا وكذا.

الأشياء العارضة علىٰ الماء الباقية علىٰ أصل خلقته قسمين: ممازجة وغير ممازجة، طيب، مَثِّل للممازجة كذا وكذا، هو يمثل لك الشارح يعني نفس الماتن ابن قدامة في «العمدة» يمثل لك هو بَسْ

أنت اسأل وتجد التمثيل أمامك، تجده ممثلا.

انتهيت من أول قسم الماء الطهور.

لا تهتم في درس الفقه بالراجح، بالدليل، لا؛ لا تهتم بهٰذه، ما يراد منك أن تكون مفتيا، الذي يهتم بالراجح وبالدليل هو المفتي، إنما أنت الآن متعلم يُراد من درسك الفقه أن تتصور المسائل الفقهية وتفهم تعبير أهل العلم في الفقه، مثلا: «مختصر الزاد»، «الزاد» تعرفونه الصغير يحوي ثلاثين ألف مسألة كيف كل واحدة نعرفها بدليلها وراجح ومرجوح منها، نكون ما أمضينا وما فهمنا الزاد ولذلك الآن قليل من «شرح الزاد» من العلماء؛ لأن الطريقة التي يستعملها العلماء السابقون في الشرح والتي نفعت الطلاب وأخرجتهم أهل علم ليست هي الموجودة الآن، تفصيلات وتعليلات، تفصيلات وتعليلات، ويطول الكلام في مسألة واحدة ولا يراد من طالب العلم أن يتصور في المسألة كل ما قيل عنها، إنّما تتصور شيء؛ المسألة وحكمها بناء علىٰ هٰذا المذهب.

إذا انتهيت من القسم الأول من أقسام المياه، تغلق الكتاب وبنفس الطريقة تأتي تعيد، تعيد هٰذا القسم وتشرحه، تلاحظ إذا كان فهمك مشرِّقا تلحظه من نفسك، وإذا كان فهمك مغربا فتلحظه من نفسك وشتان بين مشرق ومغرب.

سارت مشرقة وسرتُ مغربا شتان بين مشرّق ومغرّب

تُعيد؛ إذا حَسِّيت أنك ما فهمت تعيد، تسأل أهل العلم ونحو ذلك.

المعلم الذي يعلمك في المسائل التي يعلم أنّ الفتوىٰ بخلاف ما ذُكر في هٰذا المتن، المعلِّم الرباني يذكرك بها، يقول: هٰذا والفتوىٰ علىٰ خلافه، القول الرّاجح هو كذا، ليس القول الراجح في كلّ مسألة بما يترجح للمعلم، لا، لكن القول الرّاجح بما عليه المفتون، الذين يفتون من أهل العلم الكبار، يربطك بين كتاب الفقه وبين الفتوىٰ، يجعل فيه الصّلة بينك وبين هٰذا وهٰذا، كان أهل العلم عندنا في تدريس «الزاد» يذكرون الأشياء التالية –كانوا يهتمون بالزاد، العمدة هٰذه إنما لأجل ضعف الهمم نذكرها إنما الأصل البداية بالزاد- يذكرون.

- أولا صورة المسألة.
- حكمها، حكمها يعني بناء علىٰ ما ذكره صاحب الكتاب.
- هل لشيخ الإسلام ابن تيمية أو تلميذه ابن القيم أو أحد من أئمة الدعوة، هل لهم اختيار مخالف؛ لأنهم نخلوا المذهب، فالمسائل المرجوحة بينوها.

نقول مثلا في المياه ثلاثة أقسام يقول لك المعلم: واختار الشيخ تقي الدين -يعني شيخ الإسلام أنّ المياه قسمان-، فقط؛ ما تحتاج تفصيل في كل مسألة ولا تعليق، المسألة التي فيها قول لشيخ الإسلام في

الفقه أو لأحد أئمة هٰذه الدعوة الذين حققوا ودققوا يذكرها.

المعلم يحتاج إلىٰ معرفة ما عليه الفتوىٰ فيقول لك: يفتي الشيخ الفلاني مثلا يفتي سماحة الشيخ عبد العزيز حفظه الله وأمتع به بكذا في المسألة يربطك، هٰذا الذي تحتاجه، أما نأتي عند مسألة نقول: هٰذه دليلها كذا واستدلوا لها بكذا، وهٰذا الدليل أخرجه فلان وفلان وفيه الراوي الفلاني فيه علة ولا يصح الاستدلال، والقول مرجوح والصواب قول الشعبي وإسحاق والشافعي. هٰذا في المسائل ما يحتاج لكن طالب العلم الذي يعرف هٰذه المسائل ويتحملها يقرأها في الكتب المطولة ليس كل كتاب قرأت منه أو حضرت آتي وأعطيك المعلومات، فمعناه أنّي أستعرض ما قرأت هٰذه ليست طريقة أهل العلم.

إنما طريقة أهل العلم أن يعطيك ما ينفعك، هكذا في سائر الأبواب في الفقه، كل باب تمرُّ عليه علىٰ هٰذه الطريقة، إذا ضبطت المسائل بتصورات، تأتي أنت مع مرور الزمن تكون القاعدة قد بنيت، المسألة هٰذه مرجوحة راجحة دليلها القول المخالف تنبني معك مع الزّمن، يأتي كل ركن في مكانه الصحيح، تنبني؛ يبدأ البنيان معك يرتفع ويرتفع؛ تتصور المسائل.

في البداية يكون عشرة في المائة فاهمها؛ فاهم أدلتها، تصورت المسائل، بعد سنة تلاحظ أنها خمسة عشر في المائة، بعد سنتين عشرين وهكذا مع الزمن.

أما الطريقة الموجودة اليوم يأتي طالب العلم عنده في مسألة تفصيل ساعة، تسأله في مسائل أخرىٰ في الفقه ما عنده علم بها هٰذا خلل في طلب العلم، شمولية و بعد ذلك تبدأ تُنمي تنمي حتىٰ يكبر.

علىٰ نفس الطريقة تسير في العلوم المساعدة، انتهينا من العلوم الأصلية تسير في العلوم المساعدة علىٰ نفس الطريقة تبدأ بالمختصرات ثم ترقىٰ شيئا فشيئا.

وذكرت لك أن من العلوم **التاريخ** يدخل فيه سيرة النبي ﷺ، و«سيرة ابن هشام» فيها كفاية في ذلك، كذلك يدخل فيه أنواع التاريخ هٰذه علوم التي هي المُلح تقرأ ما شئت من ذلك.

العلوم المساعدة لابد من العناية بها؛ أصول التفسير أصول الفقه، أصول الحديث الذي هو المصطلح.

والنحو ولا علم بدون نحو يقول الشاعر الذي هو ابن الوردي:

جمّل المنطقَ بالنحو فمن يحرم الإعراب بالنطق اختبل

طالب العلم تجد كلامه مكسّر، هٰذا يصلُح؟ ما يصلح، كيف أنا أأْتَمِنَه علىٰ فهم معاني الكتاب والسنة وهو لا يفهم النحو؟ ليس مؤتمنا في الواقع، لأنّه سيكون مقلد ينقل لكن يأتيني في مسائل يجتهد فيها وعبارته أصلا عربيته ليست بجيدة ما يفهم اللسان العربي، هٰذا لا شك أنّه خلل، لابد من العناية بالنحو، **والنحو عمدته الإعراب**، تقرأ علىٰ شيخ ثم تُعرب ما شئت، أي شيء يقابلك أعربه، تقرأ خبر في الجريدة

أعربه، سورة تقرأها من القرآن أعربها، حديث أعربه، هٰذا يخلصك، يبين النحو عندك طلاسم وإلا بدأت تشارك فيه.

الآن من كبار العلماء كان يأتي يسأل في الإعراب، لابد من مجالس أهل العلم الذي يدرس فيه النحو والعلوم الأخرىٰ لابد يسأل، ما إعراب قوله تعالىٰ كذا؟ ما إعراب الجملة الفلانية؟ ينشطون مع الإعراب، إذا ترقىٰ وحفظوا الألفية فيأتي بالإعراب وبالدليل، مثلا يقول: محمد قادم، محمد ما إعرابها؟ قال: مبتدأ. -دروس النحو هٰذه مَا هِي موجودة الآن راحت، والله المستعان- يقول المعلم: قلتَ مبتدأ ما الدليل يقول قال ابن مالك في «الخلاصة»:

مبتدأ زيد وعاذر خبر إنْ قلت زيد عاذر مِن اعتذر

ذكر لك الدليل من البيت، مثلا لو قلت: الآية ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾[النحل:٦٠]، هنا يقول: ﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول، -صحيح؟- لابد له في صلته من عائد يعود له، أين العائد؟ يقول: الطالب العائد محذوف. يسأل المعلم ما الدليل؟

يقول: قول ابن مالك:

.... والحذف عندهم كثير منجلي

في عائد متصل إن انتصب بفعل أو وصف كمن يرجو يهب

قال الدليل، هٰذا يربط لك بالنحو تماما، لكن هٰذه الطريقة ليست موجودة الآن.

المقصود من هٰذا نختم الدرس بالوصية بالجد في طلب العلم، وأن تحرصوا علىٰ المنهجية، والأمة اليوم بحاجة إلىٰ علماء، إلىٰ طلاب علم، لأنه أين الموجهون؟ يوجهون الناس بالآراء بالأفكار بالثقافات بالمفاهيم؟ لا؛ إنما يوجه بالعلم؛ العلم الراسخ، يقول، يستحضر دليله، يفهم أصول المسألة وكلام أهل العلم عليها، حتىٰ يسير الناس علىٰ بينة، ونحن بحاجة إلىٰ طلاب علم اليوم، والطلاب الراغبون في العلم كثيرون؛ لكن طلاب العلم قليلون، من هم طلاب العلم؟ هم الذين يسيرون علىٰ وفق الطريقة الصحيحة التي سار عليها من كان قبلنا من أهل العلم، وهي هٰذه الطريقة التي ذكرتُ لك.

وإن أنت طبقتها فستكون منتفعا بإذن الله أكبر الانتفاع تحس في نفسك في سنَة أنك تغيرت تغير واضح، وأحسست من نفسك أنك طالب علم بدأت تفهم، وإن أهملت وحضرت ورحت وجئت وما أصلت، فإنك ستحرم بقدر ما أخللت بذاك.

أسأل الله أن ينور قلبي وقلوبكم بالهدىٰ والاستقامة، وأن يجعلنا من طلبة العلم الذين يخشونه، وأنْ يجعلنا للناس أئمة هدىٰ يرشدون من ضل إلىٰ الهدىٰ ويحيون بكتاب الله الموتىٰ، وأسأله لكل واحد حاضر معنا أن يكتب الله جلّ وعلا له خير خاتمة في حياته، وأن ييسر لنا الخير أينما كنا، وأن لا يكلنا

لأنفسنا طرفة عين، وأن يأخذ بأيدينا إلىٰ كلّ قول أو عمل يحبه ويرضاه إنّه ولي ذلك والقادر عليه.

و﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٢ ﴾ [الصافات]، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه.

فهرس

المقدمة ٢

أسباب عدم تحصيل العلم رغم المحاولة ٢

خصلتين علىٰ طالب العلم أن يتحلىٰ بهما ٢

قصة رواها الخطيب البغدادي ٢

ما هي المنهجية الصحيحة في طلب العلم؟ ٣

خصال لطالب العلم ٣

الأولىٰ الإخلاص ٣

الثانية: الرفق في طلب العلم ٤

الرفق في طلب التفسير ٤

الرفق في طلب الحديث ٥

فرع في الرفق ٥

الثالثة مواصلة طلب العلم ٥

كيف يكون الترفق في طلب العلم؟ ٧

تقسيم العلوم إلىٰ أصلية ومساعدة ٧

تقسيم آخر للعلوم ٨

كيفية دراسة علم التفسير ٨

كيف تعرف أنك فهمت التفسير حتىٰ تنتقل إلىٰ غيره؟ ٨

كيفية دراسة علم التوحيد ٩

كيفية دراسة علم الحديث ١٢

كيفية دراسة علم الفقه ١٤

الخاتمة (وصية بالجد في طلب العلم) ١٧

فهرس ١٩

محاضرات (٣/ ٥)

عوائق طلب العلم

(جملة من العوائق التي تُعيق عن طلب العلم)

أو

(المخدّرات التي تجعل كثيرين يسيئون ظنا بالعلم وهذا السبيل)

أو

(الحجب التي تحجب عن رؤية طلب العلم الصحيح)

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه اللّه تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده وأوافه، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد..

أسأل الله جل وعلا أن يجعلني وإياكم ممن صلُحت لهم الأقوال والأعمال والقلوب، وساروا في ذلك علىٰ ما يحب ويرضىٰ، كما نسأله أن يوفقنا إلىٰ عمل صالح وإلىٰ قول صالح يكون لنا حين نلقىٰ ربنا جل جلاله.

ثم إننا نفتتح هذا الفصل بعد انقطاع طويل ابتداءً لهٰذه الدروس التي نرجو الله جل وعلا أن تكون نافعة لملقيها ولسامعها وللمبلَّغ بها.

كما جرت به العادة فإنّ افتتاح الدروس في كل فصل يكون فيه كلمة تتعلق بالعلم والحض عليه، والحذر من العوائق التي تعوق في مسير طالب العلم.

ولاشك أن كل طالب علم أَنِس بهذا السبيل وسلَك هذا الطريق، فإنه يرىٰ أن العلم هو أهم المهمات؛ لأن العلم هو العلم بالله جل وعلا، والعلم بالله جل وعلا هو أعظم ما يستفيده المرء في هٰذه الحياة، فبقدر علمه بربه جل جلاله ومعرفته بخالقه وإلهه ومعبوده يكون قُربه من مولاه؛ لأن أقرب الناس إلىٰ الله جل وعلا هم أعلم الناس بهم ﷻ، لهذا قال النبي ﷺ: «**إني لأعلمكم بالله وأخشاكم لله وأتقاكم لله، فمن رغّب عن سنتي فليس مني**» أو كما جاء عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

والأنبياء ارتفعت منازلهم لأجل علمهم بربهم جل وعلا وبشريعته وما يحب جل جلاله.

وهٰذا العلم يُدرك كل طالب علم أنه من أهم المهمات وأعظم المطالب، فالواجب علىٰ كل طالب علم أن يجعل أكثر حياته فيه، وأن يَقسم حياته ما بين تعلم أو تعليم أو أداء للنصح لعباد الله أو لمن له وِلاية عليه كلٌّ بحسب ما هو فيه، وهٰذا هو معنىٰ البركة التي تكون في أهل العلم، فإن أهل العلم مباركون، جَعل الله جل وعلا في أقوالهم وأعمالهم البركة كما قال جل علا: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾[مريم] قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ يعني أن عيسىٰ عليه السلام جعله الله مباركا بتعليم العلم أينما كان، فأينما كان يعلم ويرشد ويدعو إلىٰ ما يحب الله جل وعلا ويرضىٰ، وبقدر الازدياد من هٰذه الصفة يزداد المرء قربا من الله جل وعلا ويزداد بركة في أقواله وأعماله، والأنبياء لذلك جعل الله عليهم البركة ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾[الصافات:١١٣]، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**قولوا: اللهم صل علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد كما صليت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد كما باركت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد**» وآل محمد علىٰ أحد الأقوال هم المتبعون له من أهل التقوىٰ، فيدخل فيه كل مؤمن متّبع لسنة النبي ﷺ.

وهٰذا المطلب يدركه كل طلاب العلم الذين أَنِسُوا للعلم وشرح الله جل وعلا صدورهم له.

ومعلوم أن العبادات النوافل مراتب، والعلم منه ما هو فرض ومنه ما هو نفل، والعلم الذي هو فرض قد يكون فرض عين وقد يكون فرضا علىٰ الكفاية، وإذا نظرنا اليوم فإننا نجد الناس لم يقم فيهم بالعلم

من يكفي، وخاصة العلم السلفي الصحيح الذي يعتمد فيه صاحبه علىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعلىٰ نهج السلف الصالح، فإن الذين يتبعون هذا السبيل اليوم أقل القليل، وهذا يؤكد علىٰ كل طالب العلم في هذا السبيل أن يحرص علىٰ نفسه وأن لا يضيّعها وأن يزداد من العلم بحسبه وأن يكون متقلبا ما بين التعلم أو التعليم، وما بين التأثير بالعلم أو التأثير بالدعوة في أي مكان كان، بحسب قدرته وبحسب ما أُعطي.

الأمم في التاريخ؛ بل أمة الإسلام في تاريخها مر بها فتن كثيرة ومرت بها إحن، ومرت بها بلايا، ومرت بها ابتلاءات عظيمة، فمرة يكون بأسها بينها شديد، ومرة يسلّط الله عليها عدوا من غيرها فينال منها ما يناله بحسب قدر الله جل وعلا، قد حصل في ذلك في زمن الإسلام وتاريخ الإسلام الشيء الكثير كما تعلمون، إذا نظرت إلىٰ القرن الأول وجدت فيه أشياء كثيرة ما حصل من القتال والفتن التي كانت بين الصحابة، ثم ما كان في عهد الأمويين من فتن كبيرة، ثم في عهد العباسيين.

حتىٰ أتت الفتنة الكبيرة من تسلّط الدولة العبيدية المسماة الفاطمية علىٰ كثير من بلاد الإسلام وساموا أهل السنة سوء العذاب، حتىٰ أنهم ربما أتوا العالم فأرادوه علىٰ قول شيء يختارونه فإذا أبىٰ مشطوه بالحديد مشطا، وقد قال الذهبي في موضع: وقد نُزع عن فلان جلده حتىٰ يكون نكالا لغيره مما فعله أولئك.

وهكذا في الحروب الصليبية المعروفة فوقعت، وجاءت حروب التتار الكبيرة وحصل ما حصل في تاريخ الإسلام.

وهذا كله إذا نظرت إليه نظر تاريخ وجدت أنّ أهل العلم في تلك الحقب وتلك الأزمان لم يتخلوا فيها عن العلم والتعليم، ولم ينصرفوا عن العلم والتعليم إلىٰ أمور أخرىٰ؛ لأن العالم وطالب العلم يؤثر بحسب ما يستطيع، وينفع بحسب ما يستطيع؛ لكن النفع الباقي له ولغيره هو العلم؛ لأنه ينفع الله به أمما كثيرة.

وكثيرون ساءت ظنونهم بالعلم لأجل ما يبتلي الله به العباد من أمور كثيرة في أرض الله جل جلاله.

ولهذا ينبغي التنبيه علىٰ:

جملة من العوائق التي تُعيق عن طلب العلم

أو سمّها:

المخدّرات التي تجعل كثيرين يسيئون ظنا بالعلم وهذا السبيل

أو سمّها:

الحجب التي تحجب عن رؤية طلب العلم الصحيح

أولها: ضَعْف الهمة.

وهذه دائمة، فإن العلم يحتاج إلىٰ همة قوية، وأهل العلم هم أكثر الناس همّة فيما يحب الله جل وعلا ويرضىٰ، وبرؤية للمصالح والمفاسد المتعلقة بالشخص نفسه والمتعلقة بغيره أيضا.

لهذا نجد أن أكثر الناس همة هم الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، وإذا نظرنا سير الأنبياء في القرآن وجدنا أن هممهم عظيمة في تبليغ رسالات الله وفي أداء الواجب الذي أوجبه الله جل وعلا عليهم من بيان حقه جل وعلا في عبادته وحده لا شريك له، وبيان حقه سبحانه في أسمائه وصفاته، في الردّ علىٰ أهل الباطل مقالتهم ومجادلتهم وفي بيان شريعة الله والتودد إلىٰ الخلق في بيان هذه الشريعة لعل النور يدخل إلىٰ النفوس.

وهٰذا ظاهر في سيرة جميع الأنبياء.

هذا نوح عليه السلام أي همة كان عليها وهو يعظ قومه ليلا ونهارا وصباحا ومساءا وهو يسر لهم ويعلن لهم تارة، ويدعوهم مدة كم؟ ألف سنة إلا خمسين عاما ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت].

وأيّ همة كان عليها إبراهيم عليه السلام وهو ينظر إلىٰ قومه وهم يعبدون الأصنام التي ينحتونها بأيديهم، ثم هو في ذلك صابر وحاجّهم بالعقل وحاجّهم بالدفع ودعا الأبعدين ودعا والده والأقربين، وكان في ذلك متنقلا مرة في مصر، مرة في مكة، ومرة هنا وهنا، هذا كله لنشر رسالة الله جل وعلا، هذه همة ولا شك ولا تستغرب لأن أهل العزم هممهم عالية.

وإذا نظرت إلىٰ سير بقية الأنبياء فستجد ذلك ظاهرا، فمن قرأ بعض الكتب التي أُلفت في علو الهمة فإنه سيجد من ذلك الشيء الكثير.

فطالب العلم لا يصلح أن يكون ضعيف الهمة، خائر العزم، متواكلا؛ بل يجب عليه إذا أراد سلوك هذا السبيل أن يكون قوي الهمة، لا يقنع بالدون.

علىٰ قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي علىٰ قدر الكرام المكارم
وتَعْظُم في عين الصَّغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

قد يأتي أحد وينظر إلىٰ كتاب فيقول: كيف أقرأ أنا هذا الكتاب الكبير لأجل ضعف الهمة؛ لكن مع علو الهمة يفتح الله جل وعلا له.

وقد طلبت مرة من الأستاذ محمود محمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ الأديب المعروف ومحقق أجزاء كثيرة من «تفسير الطبري»، طلبت منه أن يرشدني إلىٰ كتاب في اللغة العربية لأقرأه، فقال لي: اقرأ «لسان العرب». فقلت: «لسان العرب» عشرين مجلد كيف أقرأه؟ فقال: إذن اذهب لصنعة أخرىٰ للتجارة أو للوظيفة لا تصلح للعلم، أيش عشرين مجلد -هذه عبارته- قرأناه علىٰ شيخنا مرتين -أظن أن شيخه يقصد به المرصفي- وفي الثالثة ما أكملناه.

وهكذا صنيع العلماء، الحافظ ابن حجر قرأ البخاري علىٰ شيخه في عشرة أيام كل «البخاري»، وقرأ

«صحيح مسلم» في ثلاثة أيام، وقرأ «سنن ابن ماجه» في يوم.

وهكذا صنيع أهل العلم في كثير من الأنحاء، شيخ الإسلام ابن تيمية ألّف عددا من كتبه ورسائله التي الآن تدرس وتشرح في جلسة، مثل ما فعل في الواسطية وفي الحموية في التدمرية وفي أشباه ذلك.

سبب ذلك قوة العلم، ثم علوّ الهمة، فأول مخدِّر وعائق وحجاب هو ضَعف الهمة، فإذا تحركت الهمم جاء الله جل وعلا بالفتوح من عنده سبحانه، وهذا نوع من المجاهدة لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾[العنكبوت].

وقد ذكر ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «صيد الخاطر» أنه إذا جاءه جماعة من البطّالين ويَقصد بهم الذين يريدون الجلوس للكلام والقيل والقال والأخبار ونحو ذلك، قال: إذا جاءوا اشتغلتُ أثناء مجيئهم في بري الأقلام وقص الأوراق وتجهيزها للكتابة. وهٰذا لاشك أنه لا يكون إلا مع علوّ همةٍ في هذا السبيل، فالذي يريد أن يكون العلم في وقت دون وقت، وفي حال دون حال، هٰذا مع الزمن لا يحصّل لأنه مع الزمن تكثر الأمور.

وهذا هو العائق الثاني من العوائق والحجاب الثاني وهو أن يكون المرء أو طالب العلم مسوَّدا.

كما قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيما علّقه البخاري في «صحيحه»: تفقهوا قبل أن تُسَوَّدُوا ويبدأ التَّسْوِيد؛ يعني أن يكون المرء سيدا يبدأ بتزويجه، فإذا تزوّج بدأ ذلك، لهذا قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيها قال أبو عبد الله: وبعد أن تسودوا. يعني أن يطلب العلم وأن يتفقه قبل أن يكون ذا سيادة وأمر ونهي وسيادة وبعد أن يكون، والناس يتنوعون في ذلك قد تكون الولاية بالزواج والأولاد، وقد تكون الولاية بأن يكون مدرسا معلما، فيكون عنده الشيء الكثير من مما يبذله في تدريسه وفي تعليمه وفي الأنشطة التي تكون في المدارس، ونحو ذلك، وقد يكون في القضاء، وقد يكون في وظيفة، وقد يكون مديرا للعمل مما يحتاجه في دنياه، وقد يكون أكبر من ذلك.

فالسيادة لاشك أنها حجاب عن الاستمرار في العلم، ولهذا قال أبو عبد الله البخاري منبّها الطالب عن ذلك قال: وبعد أن تسودوا؛ ليحرك فيهم العزيمة علىٰ أن لا ينقطع عن العلم بشيء من ذلك.

قد كان بعض أهل العلم ينظر في المسائل مدة طويلة، وهي في نفسه يريد لها حلا، كما قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قد مات رسول الله ﷺ وودنا أنا سألناه عن أبواب من الربا. والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ تمنوا أن لو سألوا عن كذا وكذا من أبواب العلم، سألوا عمر، أو سألوا عليا، في قصص معروفة.

وكذلك ما يحصل من أن طالب العلم قد يكون عنده مما يُشغله ما يفرِّط في سؤال أهل العلم عما يشكل، وفي مطالعة العلم قبل أن يذهب أهله، فإنه لا يدري متىٰ الناس يحتاجون إليه، وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كان صغيرا، وكان يسأل الصحابة ويتلقف العلم من هنا وهناك حتىٰ رجع الناس إليه، قال له صاحب له من الأنصار: أتظن يا عبد الله أن الناس يحتاجون إليه وهؤلاء صحابة رسول الله ﷺ بينهم. فهذا ابن عباس استمر وحصّل ونظر حتىٰ بعد أن تولىٰ الولايات، وقد ولاه علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إمرة الكوفة ومكث فيها زمانا، ثم رجع إلىٰ مكة وتولّىٰ أيضا ولاية أخرىٰ، وكذلك غيره؛ ولكن مسيرة العلم واحدة، وفي العمر -عمر الإنسان- قد يعوقه هذا العائق من حيث يشعر ومن حيث لا يشعر، فإذا كان طالب العلم صاحب عزيمة، فإنه يجعل الأصل عنده استمراره في العلم، بأي نوع يختاره لكن لا يتقطع عن العلم، ثم غيره مما

يكلَّف به أو مما يعينه عن أمر دينه ودنياه من أنواع الأعمال لا تصده عن ذلك، وكذلك أهله وأسرته ونحو ذلك، يأخذ من كل شيء بقدر ويعطي كل ذي حق حقه.

من الحجب أيضا قول بعضهم: العلم يصرف عن الدعوة والناس اليوم يحتاجون إلىٰ الدعوة، وأما العلم فلا يحتاجون إليه.

وهذا مخدر كبير، أدرك كثيرين فأصابهم، وهو أنهم يقولون: العلم الدعوة أهم منه، تصاحب الشباب تذهب معهم، تخالط تذهب تعظ أو تشتغل في شيء؛ لكن العلم ليس مؤثرا، أو متىٰ ستؤثر بالعلم بعد سنين طويلة جدا، وهذا مخدر وحجاب كبير، وناشئ من غلط فهم العلم والعمل الأصل أن العلم يتجزأ وأن الدعوة أيضا متبعضة ومتجزئة، فالعلم لا يأتي جميعا، والدعوة أيضا لا تأتي جميعا.

فطالب العلم إذا علِم علَّم ودعا بحسب ما يُفتح له من هٰذا الباب، فيجعل ميدانه في العلم وفي التأثير بحسب ما يُعطىٰ، والانشغال عن العلم بالدعوة يورِث أن تكون الدعوة علىٰ جهل، وهذا هو الذي أصاب الكثير من الناس.

الناس في هذا أصبحوا ثلاث طوائف:

إما أن ينقطع للعلم ولا يؤثر شيئا.

وإما أن يتجه للدعوة وهو جاهل أو شبه الجاهل.

وهٰذا مذموم وهٰذا مذموم؛ لأن العلم الذي لا ينفع صاحبه ولا ينفع به غيره هذا غير نافع يعني للناس، وطالب العلم إذا علم قلّ أن يعلم ويحفظ هذا العلم في الأمة، فإذا صار معك العلم فإن الدعوة تكون بحسب ما أوتي العبد من العلم.

فالدعوة متبعضة والعلم هو أساس الدعوة لا يمكن أن يدعو العبد بدون علم، يدعو إلىٰ ما علم وأما ما لا يعلمه فإنه حينئذ يكون ممن قفا ما ليس له به علم، وقد قال جل جلاله: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾[يوسف:١٠٨]، والبصيرة هي العلم، أدعو إلىٰ الله علىٰ علم، فالعلم يتجزأ، إذن فالدعوة تتجزأ، إذا علم شيئا بدليله ووضح عنده فإنه يدعو إلىٰ ذلك يعلّمه بحسب ما ينفع.

وبعض الناس يظن أن الدعوة لا تكون إلا بالمواعظ، أو لا تكون إلا بالمحاضرات، أو بالذهاب إلىٰ القرىٰ، أو بإلقاء الكلمات ونحو ذلك، في الأمور العامة التي يتكلم الناس فيها، هذا غير صحيح؛ لأن الأنبياء هم أكمل الدعاة، وكلام الأنبياء إنما كان في حق الله جل وعلا وتوحيده وعبادته، فإذا علّم طالب العلم، فقد دعا؛ لأنه بتعليمه يدعو إلىٰ الله جل وعلا، يدعو نفسه ويدعو غيره أيضا؛ لكن الناس مقامات وكل يفتح له بحسبه.

قد سئل مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ انقطاعه للعلم وتركه أبواب أخر من أبواب الجهاد فقال: إن من الناس من فُتح له أبواب الصلاة، منهم من فتح له فتح له باب الصدقة ومنهم من فتح له باب الحج والعمرة، ومنهم من فتح له باب الجهاد، ومنهم من فتح له باب العلم، وأنا فتح لي باب العلم ورضيت بما فتح الله لي.

وهذا بقي أثر الإمام مالك إلىٰ اليوم في ذلك لشدة حاجة الناس إلىٰ بقاء العلم النافع في هذا.

فإذن لا يسوغ الالتفات إلىٰ هذا الخاطر أو الحجاب الذي هو من كيد الشيطان في أنه لا تنشغل بالعلم؛ لأن الدعوة، أهم وقد قالها من قبلنا أناس من قبلنا خمسة عشر هذا عشرين سنة ولما تقدمت بهم السن صاروا ضعيفين في العلم، فلا أحسنوا العلم ولا أحسنوا الدعوة بعد ذلك، العلم سلاح في يدك

تحاج به وتجاهد به تبلغه تدعو به، بحسب ما قسم الله جل وعلا للعبد.

الحجاب الرابع أو المخدّر الرابع قول كثيرين: العلم يقسّي القلب.

وهذه تسمع ويقولها بعض أشباه الجهال والعياذ بالله، وإذا كان العلم يقسي القلب فلا نعلم شيئا يلين القلب بعد العلم، العلم ما هو؟

العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة هم أولو العرفان

هٰذا العلم كما عرفه ابن القيم في «النونية»، العلم مصدره ودليله قال الله قال رسوله، القرآن كله بما فيه من العلم بالله والعلم برسوله والعلم بما وراء الغيب -الجنة والنار وما أعدّ الله- والعلم بالأحكام الشرعية والحلال والحرام، هذا كله الذي في القرآن سماه الله جل وعلا موعظة فقال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾[يونس]، وفضل الله ورحمته القرآن، والموعظة التي جاءت القرآن، والشفاء لما في الصدور الذي جاء والهدىٰ والرحمة هو القرآن، فالقرآن موعظة بكل ما فيه، فالعلم هو أكبر موعظة، العلم النافع لا يقسي القلب، العلم النافع يخشع معه القلب ويلين؛ لكن خشوع قلب العالم أو طالب العلم ليس كخشوع قلب العابد الجاهل، فإن ذاك قد يأتيه من الخواطر أو من الإيمانيات ما يجعله في الظاهر ألين قلبا؛ لكن ذلك في الحقيقة ألين قلبا وأخشع وأخضع، كما هو ظاهر من حال الصحابة رضوان الله عليهم، كانوا أقوىٰ ومن بعدهم كانوا إذا تليت عليهم بعض الآيات أو إذا ذكرت عليهم بعض القصص والرقائق ربما خر بعضهم مغشيا عليه لأجل رقّة قلبه، ورقة القلب ولينه ليس هو الأمر المحمود؛ بل لابد أن تكون رقته ولينه علىٰ وفق ومقتضىٰ العلم النافع.

ولهذا قال جماعة من أهل العلم منهم ابن تيمية وغيره قالوا: إن من غُشِي عليه من السلف ووجود هذا فيهم لأجل قوة الوارد وضَعف القلب عن الاحتمال.

وهذا صحيح فإنه إذا صار الوارد قويا والقلب ليس فيه من قوة العلم ما يحجبه أو يكون قويا علىٰ هذا الوارد فإنه قد يسقط صاحبه، ولهذا قلب طالب العلم ليّن خاشع خاضع بحسب حاله وبحسب ما أعطاه الله؛ لكن أيضا هو علىٰ بصيرة من الدين.

تُسرع البدع إلىٰ قلوب والأهواء إلىٰ قلوب فيها لين وليس عندها تحصين بالعلم النافع، قد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: «**أتاكم أهل اليمن هم أرقّ أفئدة**» وهذا ظاهره المدح لهم وفيه ما يشير إلىٰ أنه تسرع فيهم الأهواء لأجل رقة تلك الأفئدة، فالفؤاد الرقيق أو العاطفي أو تقول المتحمس أو كثير الوجل والخوف قد يأتيه أهل الأهواء فيجرفونه، وأمّا العلم فإنه يعطي الخشية ويورث الخشية لكنها خشية العلماء وليست خشية العباد الجهلة.

ولهذا جاء في الأثر أو في الخبر: **عالم واحد أشد علىٰ الشيطان من ألف عابد**. هذا وإن كان في إسناده مقال؛ لكن ربما يصح موقوفا، وظاهره معناه الصحة لأن العالم لا يستطيعه الشيطان لا من جهة الشبهات ولا من جهة الاستمرار علىٰ الشهوات، قد يغلبه في شهوة أو قد يغلبه في شبهة؛ لكنه يستبصر فيعود في بصيرة من جهة بيان الحق في الشبهة، ومن جهة سلامة القلب من الشهوة بالاستغفار والإنابة.

فإذن العلم يورث خشوع القلب ولا يورث قسوة القلب والعياذ بالله، ومصداق الله ذلك في قوله

تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر:٢٨]، يعني أن أهل الخشية الحقيقة هم العلماء هذا جاء علىٰ سبيل الحصر ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يعني إنما يخشىٰ من عباد الله جل وعلا العلماء، كأن البقية ليسوا من أهل كمال في الخشية، وخشية العلماء تختلف بحسب حالهم، وبحسب ما هم عليه.

فإذن إذا كان طالب العلم وجد في قلبه شيئا من قسوة أو إقبال علىٰ ذنب أو تفريط في أمر الله فلا يُرجع لك إلىٰ العلم فيسيء الظن بالعلم، أو ينظر إليه غيره فيجده كذلك فيرجع ذلك إلىٰ العلم حاشا وكلا.

وإنما مرجع ذلك إلىٰ شهوة خفية وإلىٰ مرض في النفس، قد يكون مع العلم، هناك مرض في النفس مع العلم، إما مرض شهوة يلازمها، وإما مرض شك يكون معه، وإما مرض شهرة، وإما مرض جاه، وإما مرض تكبر وأشباه ذلك.

حتىٰ إنّ من أهل العلم من كان لا يرضىٰ أن يسمىٰ أن يخاطب إلا بالملك يعني في الزمن الأول، كما قيل ملك العلماء فلان، وملك النحاة فلان، كان لا يرضىٰ أن يسميه أحد بأبي فلان أو بالعالم أو العلامة حتىٰ يقال ملك النحاة، هذه شهوة خفية تكون في الإنسان، وهذا لا يكون مرد عدم الخشية إلىٰ العلم ولكن لأجل مرض في النفس، وهذا يعالج بحسب ما هو عليه.

أما العلم فإنه يورِث الخشية، وإذا لم يورث في طالب العلم الخشية والإنابة والرجوع إلىٰ الله والأنس به والاستغفار وملازمة التقوىٰ، فإنه يجب أن يحاسب نفسه علىٰ ذلك، وأن يجعل العلم الذي معه حجة له في الرجوع إلىٰ الصراط المستقيم.

ومن العوائق التي تذكر في هٰذا السبيل والمخدرات التي تخدّر عن طلب العلم وتثبط قول كثيرين: إن العلماء هم أقل الناس أو أبعد الناس تأثيرا في الأحداث إذا وقعت وأنهم يرغبون الصّمت والسلامة ويتركون توجيه الأمة.

وهذا يدل بحسب كلامهم أن العلم يؤدي إلىٰ التثبيط وعدم الجهاد أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو قول كلمة الحق ونحو ذلك.

هٰذا من وساوس الشيطان، ومن إدخال أهل الأهواء لأجل أن لا يقتدي الناس بالعلماء، ولم يحدث هذا مرة؛ بل كلما حدثت فتنة منذ زمن السلف إلىٰ يومنا هٰذا وكلما حدث خلاف فإنه يعيب الجاهل علىٰ من صمت بصمته.

وما أحسن كلمة الخلفية عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ حيث وصف الصحابة ومن سلف بقوله: إنهم علىٰ علم وقفوا وببصر نافذ كفّوا. بمعنىٰ أنهم حين يتكلمون يتكلّمون بعلم، وحين يكفون عن الكلام وعن المقال فإنهم يكفون ببصر نافذ بشرع الله جل وعلا.

وكان السلف في الفتن يكثرون الصمت ويُقِلّون الكلام، ولهٰذا كانت كلماتهم تحفظ فتنقل، وأما كلام الخلف فهو كثير، وفي الفتن يكون أكثر، وهٰذا من قلة العلم بمنهج السلف في ذلك.

كلمات الإمام أحمد مثلا كانت قليلة في فتنة خلق القرآن التي استمرّت نحوا من عشرين سنة أو أكثر من عشرين سنة؛ ولكنها حُفظت ونُقلت ولو كان في العشرين سنة التي استحكمت فيها هذه الفتنة كل يوم يقول كلاما ويصدر كلاما ويتناقلها الناس لأصبح ذلك في مجلدات، ولكن لم يكن هدي السلف ذلك.

قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ وسئل: الرجل تكون عنده السنة أيجادل عليها؟ فقال: لا، يخبر بالسنة فإن

قبلت منه وإلا سكت. لأنّ الواجب البيان، أمّا إصلاح العباد هذا إلىٰ الله جل وعلا ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[البقرة:٢٧٢]، وقد أشار إلىٰ هذه المسألة الحافظ ابن رجب في رسالته المشهورة «فضل علم السلف علىٰ علم الخلف» وقال في ضمن كلامه: كلام السلف قليل كثير الفائدة وكلام الخلف كثير قليل الفائدة.

وإذا وزنا هذا بالميزان في وقت الفتن والأمور والمتقلبة فإننا نجده ظاهرا في أن الكلام القليل المؤصّل المستدل له هو الذي ينفع وأما غيره فإنه كثير لكن يُنسي بعضه بعضا، فإذا قال قائل: ما الذي قال فلان؟ نسي لأن الكلام كثير وهو تكلم عشر مرات عشرين مرة ثلاثين مرة ونحو ذلك.

ولهذا نقول: إن العلماء يؤثرون ويغيّرون في الأحداث والفتن؛ لكن التأثير والتغيير الشرعي، أنظر إلىٰ قول النبي ﷺ: «**من رأىٰ منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فلسانه**» يعني فليغيره بلسانه «**فإن لم يستطع بقلبه**» يعني فليغيره بقلبه وذلك بكراهة هذا الأمر، وهٰذا صحيح في ميدان التأثير والتغيير، فإنه ليس العبرة بأن يكون هناك تغيير علىٰ وفق ما يريد صاحب الحق؛ لكن العبرة أن يقول كلمة حق تبقىٰ، وأن يؤثر بحسب ما يعلمه من كتاب والسنة وهدي السلف، وهذا يبقىٰ وسيتذكره الناس ولو بعد حين، وكم مرة في الفتن بقي الكلام -كلام العالم- هو المحفوظ الذي كان قليلًا الذي مرجعه الكتاب والسنة ونُسي غيره، وهذا هو الذي حفظ علىٰ مدار الزمان وعلىٰ مدار أيام الله جل وعلا.

المطلوب من أهل العلم ومن طلبة العلم أن يكونوا مؤثرين في الأحداث؛ لكن بما لا يُحدث فتنة، وبما لا يكون قولا علىٰ الله بلا علم؛ لأنه قد يبتلىٰ هو في نفسه من جرّاء ما يقول بكلام لم يتق الله فيه، بمعنىٰ لم يجعله مؤصلا راجعا في كل كلمة يحرص علىٰ أن تكون مختارة أو مما يعلم أنها حق في نفسها.

أهل العلم -كما ذكرنا لكم من قبل- من السلف الصالح يؤثرون في الأحداث بمقتضىٰ العلم الذي معهم، ولا يتأثرون بها، فربما كان قليل كلامهم أبلغ، وربما كان إعراضهم أبلغ، وكلٌّ بحسبه وكل في مجاله.

لهذا طلبة العلم ينبغي لهم في خضم الأحداث أو تغيرت أن يبتعدوا عن الاجتهادات الفردية، إذا كانوا سيتكلمون أو يقولون، فإنهم لا يتّجه هو إلىٰ شيء فيعلنه في الأمة، فيعلنه في الناس، وما أكثر اليوم وسائل الإعلام خاصة الإنترنت بأسهل سبيل؛ بل ينبغي له أن يتقي الله وأن يتأخر شيئا فشيئا بحيث يستشير ويرجع ويكون معه حجته فيما يقول.

ومن العوائق أيضا في سبيل العلم قول القائل: **إن العلم يحتاج إلىٰ عمر طويل، وإلىٰ تفرّغ، وإلىٰ زمن، وأنا لا يسعني القدرة علىٰ التفرغ، ولا علىٰ أن أكون كذلك.**

وهذا صحيح من جهة؛ من جهة أن العلم يحتاج إلىٰ أن يبقىٰ مع الإنسان؛ لكن لا تدري ما الذي يفتح الله جل وعلا لك، العالم أنفاسُه له، وطالب العلم في مشيه يكتب له فهو في عبادة عظيمة، وكم من إنسان لم يأنس في نفسه في العلم قوة ثم بعد ذلك طلب العلم وصبر عن ذلك حتىٰ برّز فيه، وكم منهم من كان في الدراسة وسطا أو دون الوسط وكان غيره من الذين يأخذون تقديرات عالية كانوا أفهم وأسبق منه وأحفظ؛ لكن بقي هٰذا طالب علم ينفع، وأولئك مشوا في الحياة فلم ينفعهم ذلك التميز.

والسبب في ذلك هو أنه يعلم أن طلب العلم أنه عبادة عظيمة محمودة، وإذا عرفوا المطلوب حقر ما بذل فيه، بقدر الاستمرار تكون العاقبة، لا تستخسر وقتا تمضيه في جلسة علمية ولا تستخسر وقتا تمضيه

في قراءة كتاب وسماع شرح كتاب في شريط أو نحوه لأن هذا يورثك حبَّ العلم ويورثك حب أهله ويسهل عليك العلم شيئا فشيئا.

وقد ذكرت لكم قبل الليلة أن أحد أهل الحديث كما رواه الخطيب البغدادي في كتابه «الجامع في أخلاق الراوي وآداب السامع»، قال: كان شاب يطلب الحديث فعَسُر عليه، فبينما هو عند صخرة أو عند حجر، فإذا الماء يتقاطر عليها شيئا فشيئا قطرة قطرة وقد حفر فيها حفرة، فقال: هذه عبرة لك يا فلان، ليس قلبك بأقسىٰ من الحجر، وليس العلم بأخف من الماء، فرجع صار من أهل الحديث ومن رواته، وهذا صحيح.

ومن العوائق في ذلك -لعلنا نختم بها- أن يقول القائل: هل تظن أنك ستبلغ مبلغ الشيخ فلان، أو العالم فلان أو الداعية فلان أو فلان المشهور بالعلم، هؤلاء فعلوا، وهؤلاء كان لهم كذا.

فيضرب له أمثلة من المشاهير لكي يحجزه عن الوصول إلىٰ هذه المراتب العليا وهذا من وساوس الشيطان الكبيرة لأن العلم في ذاته محمود وفي مآلاته في الدنيا والآخرة محمود، وليس الغرض من طلب العلم أن يكون المرء إماما لكل الناس، أو أن يكون عالما يشار إليه؛ بل إذا قصد ذلك ونواه فنيته فاسدة؛ بل الغرض من العلم هو أن ي يكون ما بينك وبين الله جل وعلا عامرا، وأن تكون عالما بالله تعرف ربك جل وعلا وإذا قرأت في الكتاب أو في السنة عرفت حق الله وحق رسوله ﷺ وأنست بفهم الكتاب والسنة، وأعظم أنس وأعظم طمأنينة في هذه الدنيا هي طمأنينة الإيمان، وخاصة في حال قراءتك للقرآن أنت تعلم ما تقرأ، وسماعك للسنة وأنت تعلم ما تسمع، وأنت تصلي وتعلم الصلاة وما تقول فيها وأحكامها، وترىٰ حركة الناس وتعلم أحكام ذلك هذه من أعظم الطمأنينة التي يرجع إليها العبد.

فلهذا إياك والمخدِّر الذي يأتي به الشيطان ويثبط عن العلم بأنه لن تكون العالم فلان، ليس الأمر كذلك.

الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعا هل كانوا علىٰ مرتبة واحدة ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾[البقرة:٢٥٣] هل كانوا جميعا من أولي العزم؟ لا، أولي العزم منهم خمسة، وهل الخمسة هؤلاء علىٰ مرتبة واحدة؟ ليس الأمر كذلك.

فإذن الوَهَم في أن يقول قائل في طلب العلم لن أطلب حتىٰ أكون كاملا مدركا، كيف طلبت العلم لا أعرف أخرج المسائل الفقهية، ولا أخرج الحديث ولا أعرف كيف ألقي كلمة سليمة ونحو ذلك، لا يشترط ليس العلم المقصود منه ذلك، العلم نيته الصالحة كما ذكرت لكم مرارا أن تنوي رفع الجهل عن نفسك، فإذا تعلمت وترفع الجهل عن نفسك وتكون عالما بالله فإنه يرجىٰ أن يكون لك أثر فضل العلم والعلماء وهو أنهم مرفوعون؛ لأن الله جل وعلا قال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة:١١]، وبقدر ما تؤتىٰ من العلم يرفعك الله جل وعلا درجات، ثم المرء يوم القيامة مع من أحب، وتقام ويوم القيامة ألوية، فمع من يكون الإنسان؟ يكون مع أشبه الناس به، وإذا كنت نفسه معلقة بفلان وفلان فإنه يرجىٰ أن يكون معهم؛ لأن العلم وُصلة وسبيل في ذلك، قال جل وعلا في الظالمين: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات]، قوله: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ من هم الأزواج؟ هم النّظراء والأمثال والأشباه، فيحشر الظالم مع مثيله، القاتل مع القاتل، والمشرك الذي يعبد الوثن مع الوثن، والذي يعبد الصنم مع

الصنم، والذي يعبد النبي مع الذي يعبد النبي، فالذي يحشر: يحشر الظالم مع شبيهه ونظيره ومثيله، قال بعض أهل العلم، وكذلك أهل الإيمان الأمثال مع بعضهم بعضا؛ لأنه يكون أطمن لقلوبهم وأبلغ في ذلك.

بهذا نقول في فاتحة هذه الدروس: يجب علينا جميعا المتحدث والمحدَّث أن نحرص على العلم النافع، وأن لا يشغلنا عنه شاغل لأنه هو الباقي، وأما عوارض الدنيا تزول، والمرء بقدر مسيره فيه يعطيه الله جل وعلا، ويحاسب نفسه، وبقدر محاسبته لنفسه يعطيه الله جل وعلا من فضله.

نسأل الله جل وعلا أن يقينا وإياكم العثار، وأن يجعلنا من أهل الآثار إنه سبحانه جواد كريم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

[الأسئلة]

سؤال (١): إذا أخطأ عالم من علماء أهل السنة أو طالب علم في بعض مسائل علمية، ما الضوابط الشرعية التي يعمل بها طالب العلم في التعامل معهم؟

الجواب: أولا المسائل الشرعية نوعان:

مسائل ظاهرة بينة في أن الدليل دلَّ عليها بظهور.

والنوع الثاني مسائل اجتهادية متعلقة بالنوازل وبما يكون.

أما الكلام في الأولي وما يختلف الناس فيه في المسائل التي فيها دليل ظاهر بين فالخطأ ظاهر والصواب ظاهر لأجل ظهور الدليل في ذلك.

وأما المسائل الاجتهادية وهي التي تكون فيها النوازل أو يكون فيها الدليل فيها غير ظاهر مما يحصل فيه الخلاف عمن طريق الاجتهاد، فهذه قد اختلف السلف وما عاب بعضهم بعضا.

ولهذا نقول: إن طالب العلم يجب عليه أن يتحرى الحق، وأن لا يستعجل إذا اشتبه عليه الأمر، ثم ينظر إلى تحقيق المصالح الكبرى ودرء المفاسد، والناس طلبة العلم قد يتقاربون في فهم الأدلة وفي فهم المسائل؛ لكن قد يختلفون في أمرين:

أما الأول في تحقيق المناط، وما من مسألة شرعية نازلة إلا والنظر فيها يكون من جهتين -كما قال الشاطبي- في «الموافقات»:

الأولى من جهة محل الدليل يعني من جهة الدليل في نفسه وما دل عليه.

والثانية في تحقيق المناط، وهو إدراك المسألة بإلحاقها وجعلها تحت دليل، فإذا كان الدليل موجودا ولكنه لم يدرك تحقيق المناط فيها وقع الاختلاف، وأكثر ما يقع الاختلاف في النوازل وفي الأمور الاجتهادية هو في تحقيق المناط، هل هذه تلحق بهذا أو تلحق بهذا، وهنا يتفاوت أهل العلم والنظر في ذلك، فإذا وقع هذا الأمر فإن المسألة، إذا كان ليس فيها دليل ظاهر بين فإنه لا مشاحة في أن يختلف الناس أو يختلف طلبة العلم أو يختلف العلماء، الأمر فيه سعة وينصح بعضهم بعضا ويناصح بعضهم بعضا حتى يصيروا إلى أمر؛ لكن ينبغي أن لا يتكلم الواحد والواحد في هذه المسائل الاجتهادية والنوازل؛ بل تكون هذه من اختصاص الهيئات واختصاص مجموعة من أهل العلم يجتمعون ويبحثونها ويسدد بعضهم بعضا فيها؛ لأن من سنة السلف كفعل عمر أنه إذا جاء فيه مسألة جمع لها أهل بدر، وهو الخليفة الراشد، وهكذا كان كثير من أهل العلم يستشير ولا يستقل بالأمور في الأمة.

فإذا وقع اختلاف في المسائل الاجتهادية، قد يكون فيه سعة؛ لأن هذا نص وقصده خيرا إن شاء الله في بابه، وهذا نظر من جهة وقصده خير إن شاء في بابه؛ لكن ما ينبني عليه عمل، وينبني عليه مصير الأمة، فإنه يجب أن يكون لعلماء الأمة الكبار يجتمعون ويصدرون عن رأي واحد في ذلك، وأن لا يكون هذا لأفراد طلبة العلم لأنها إذا حدثت الفتن والنزاعات والأقوال لما يترتب عليه عمل، فإن هذا يكون مدعاة لحدوث أشياء.

فإذا كانت مسائل علمية ولو كان يتعلق بالاعتقاد وموقف الحدث الفلاني قد يختلف الناس، هؤلاء ينظرون من جهة، وهؤلاء ينظرون من جهة، وكل مجتهد في الخير إن شاء الله، فإذا وقع هذا فلا ينبغي أن يضلل بعضهم بعضا إذا لم يخالف الدليل أو كان وجهته في تحقيق المناط قريبة ليست بعيدة، ولا ينبغي أن يضلل بعضهم بعضا وأن يبغي بعضهم علىٰ بعض؛ لأنه من أعظم ما يكون من نتيجة الفتن أن يبغي بعض الأمة علىٰ بعض، وخاصة طلبة العلم وأهل العلم، كونهم يختلفون في مسألة، يروح هذا يسب هذا وهذا يسب الآخر ويذم بعضهم بعضا، وكل يجرم الآخر ويحمل قوله علىٰ فساد في النية وعلىٰ فساد في القصد وعلىٰ فساد، دون رؤية بحقيقة الأمر، وما توخاه هذا وما توخاه ذاك، وما جعله في تحقيق مناط الحكم هنا وهنا إن هذا يوقع في البغي.

وكما ذكر شارح الطحاوية ومر معنا في أواخر «شرح الطحاوية» أنه ما وقعت الاختلافات في الأمة ولا وقع بأس الأمة بعضها علىٰ بعض إلا من سببين عظيمين:

الأول: التأويل.

والثاني: البغي.

يتأول ثم بعد ذلك يبغي بعضهم علىٰ بعض.

لقي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ عالما من علماء الحنفية أو نحو ذلك، عالما من العلماء، فناظره في مسألة فلم يتفقا، فلما تقابلا -وقد ذكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمة الشافعي في أول المجلد العاشر- فلما تقابلا أخذ الشافعي مبتدرا يد أخيه وقال: له ألا نكون إخوانا وإن اختلفنا في مسألة، ما الذي يضر، إذا لم يكن مخالفة لدليل ظاهر بيّن، إنما في تحقيق المناط اختلفوا تمثيل، اختلفوا في رؤية المصالح، ألا يكون إخوانا طلبة العلم لابد أن يكونوا كلهم علىٰ شكل واحد وقول واحد، هذا قد لا يتيسر.

فهنا إذا اختلف أهل العلم يعذر بعضهم بعضا إذا كانت المسألة في المسائل الاجتهادية، وفيما لا يترتب عليه عمل للناس ويترتب عليه فتنة ونحو ذلك، وهذا أيضا قاله الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إسحاق أخونا وإن كان يخالفنا في مسائل.

ولهذا ينبغي أن يتعلّم طالب العلم ويوطّن نفسه أن يتلقىٰ من غيره ردّا عليه، أو أن يتلقىٰ من طالب العلم الآخر نقدا له وتخطئة وربما شدة عليه.

محمد بن الحسن كتب رد علىٰ «سير الأوزاعي»، ومالك رد علىٰ ابن أبي ذئب وابن أبي ذئب رد علىٰ مالك، وهكذا العلماء، وقصد الجميع الحق؛ لكن لا يؤول ذلك إلىٰ أن يبغي بعضهم علىٰ بعض؛ لأنه إذا وقع ذلك فقد أصابهم الشيطان، إذا وقعوا في التأويل، فهذا قصده كذا، هذا يريد كذا، هذا يعمل لأجل كذا ونحو ذلك من التأويلات الباطلة، إذا دخل التأويل ثم بغىٰ بعضهم علىٰ بعض وقت الفتن

الأعظم وهي تنافر القلوب وعدم الثقة.

ولهذا ينبغي أن يُحرص علىٰ الدليل، وأنه بعد النظر في الأدلة يحقق المناط الذي تناط المسألة به ثم بعد ذلك تلحق بالدليل وبالقواعد الشرعية والأصول المناسبة لها.

سؤال (٢): ظهرت ظاهرة في أوساط طلبة العلم وهي أن العلم وخصوصا علم التوحيد والعقيدة لا يؤخذ إلا من أهل هذا البلد؛ بل وأهل نجد خصوصا، وإذا ظهر أحد العلماء من غير هذا البلد، وكان مبرزا في علوم كثيرة بدؤوا برميه بالتهم وما هو منه براء وما توجيهكم والله يحفظكم.

الجواب: أولا العلم ليس له بلد، العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة، من أخذ العلم علىٰ منهج السلف في التوحيد والاعتقاد وتفقه في الكتاب والسنة في ذلك، فهو أهل أن يؤخذ عنه، وليس من شرطه أن يصيب في كل مسألة، فإذا أخذ عنه وغلط في مسألة فإنه يسدد، وكم أفاد الطالب شيخه فيما غاب عنه.

وقد ذكر أن العلامة الشيخ محمد أمين الشنقيطي صاحب «تفسير أضواء البيان»، أول ما قدم كان لا يعرف مذهب السلف، تكلم بكلمة بخلاف مذهب السلف فأرشده أحد العلماء إلىٰ أنه لابد أن يطّلع علىٰ كتب السلف وكتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم وكتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلامذته.

فقرأها قال في أسبوع واحد مر عليها جميعا.

وحدثني الشيخ حماد الأنصاري رَحِمَهُ الله تعالىٰ قال: أنه بعد أسبوع قال: ما في هذه الكتب حق.

وهذا أصبح يدافع علىٰ مذهب السلف ويدافع عليها ويؤصلها بتأصيلات قوية متينة.

فالقول أن العلم السلفي الصحيح التوحيد والعقيدة أن هذا يؤخذ من بلد ليس كذلك؛ بل الدعوة السلفية يجب أن نجعلها للمسلمين جميعا، وأن لا نجعلها لفئة مخصوصة؛ لأن الدعوة السلفية هي دين الله جل وعلا، فإذا كان كذلك لا نحصرها في فئة، نحصرها في بلد، وإنما نوسعها بحسب الإمكان، بقدر الإمكان نوسعها، قد يكون التوسيع في بلد، وقد يكون حتىٰ في الإنسان نفسه؛ في العالم، يقول: والله أنت قلت كذا وكذا توافق الأدلة وجزاك الله خيرا إلىٰ آخره، وفيه مسألة كذا هذه الدليل فيها كذا، وفيه مسألة كذا الحق فيها كذا.

ومن نظر إلىٰ رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلىٰ المخالفين، وجد أن فيها إرشاد، إلا المعاندين منهم.

فإذن هنا توسيع الدائرة والإرشاد أولىٰ من الحكم كما ذكر السائل، فإنهم يرمونهم ويتنقصونهم، هذا لا يسوغ بل يرشد حتىٰ يكون شهابا يرمىٰ به أعداء العقيدة والتوحيد، لا أن يقال فيه كذا، ويتبرأ منه؛ لأن الإنسان ضعيف، فلا يكن طالب العلم ومن عنده بصر في مسائل العقيدة لا يكن عونا للشيطان علىٰ العالم أو طالب العلم؛ بل يرشده ويسدده باللين لأن قصده هو الحق.

هذه مسألة مهمة بينة.

لاشك أن علماء هذه البلاد وخاصة علماء في نجد صار لهم من الاختصاص في تدريس التوحيد والعقيدة وكثرة تداول الكتب المؤلفة في ذلك وكثرة قراءة كتب السلف ما صار لهم مزيد اختصاص وفهم لتفاصيل المسائل في هذا.

لهذا يرجع إليهم في هذين العلمين؛ لأنهم أهل اختصاص فيه لكثرة ما قرؤوا وتدارسوا فيما بينهم من هذه المسائل.

سؤال (٣): هل يشترط للحكم علىٰ رجل معين بالخروج: الخروج علىٰ ولي الأمر. أم يشترط: أن يكفر صاحب الكبيرة؟

الجواب: المسألة هذه تحتاج إلىٰ صياغة من جديد وهي: هل يشترط للحكم علىٰ رجل معين بأنه علىٰ مذهب الخوارج -مو بالخروج- علىٰ مذهب الخوارج بخروجه علىٰ ولي الأمر أم يشترط أن يكفر صاحب الكبيرة؟

المقصود أن من هو علىٰ مذهب الخوارج من اعتقد اعتقاد معتقد الخوارج ومعتقد الخوارج فيهم خروج علىٰ ولي الأمر إذا ارتكب كبيرة.

لماذا يخرجون عليه؟ لأنهم يعتقدون أنه كفر بارتكابه الكبيرة، فهذه صفة؛ ولكن لا يقال إن فلان إذا قال أنه لا بأس بالخروج علىٰ ولي الأمر يقال إنه من الخوارج، ولكن يقال: إنه يرىٰ الخروج علىٰ ولي الأمر أو يرىٰ السيف، أو وافق الخوارج في هذه المسألة أو شابه الخوارج في هذه الصفة.

والأصل في ذلك كله قول النبي ﷺ لأبي ذر «**إنك امرؤ فيك جاهلية**» فدل علىٰ أن الصفات تتبعض رجل يكون سلفيا وربما كان فيه خصلة جاهلية، ويكون فقيها ويكون فيه صفة من صفات الخوارج أو خصلة من خصالهم، وهذا بحسب الحال.

فالوصف بأنه خارجي، هذا لابد أن يكون معتقدا معتقد الخوارج؛ لكن يقال: هذا يرىٰ الخروج علىٰ ولي الأمر هذا لا يقتضي أن يكون من الخوارج؛ لأن المعتزلة يرون الخروج علىٰ ولي الأمر وبعض المذاهب أيضا ترىٰ الخروج علىٰ ولي الأمر لمصلحة كما يزعمون.

والأدلة المتظاهرة من الكتاب والسنة توجب طاعة ولاة الأمور وعدم الخروج عن طاعتهم ما داموا مسلمين.

سؤال (٤): هل هناك قواعد تأصيلية لتوعية الناس عن الكلام في أعراض العلماء وعدم عصمتهم من الخطأ؟

الجواب: المسألة هذه ربما تكونون علىٰ علم بها، لكن بدر لي إلىٰ أن أنبه علىٰ مسألة وهي:

أن بعض الناس يقول في العامي إذا خالف قوله قول العالم يقول العالم غير معصوم، أول ما يبدأ بمخالفته بقول العالم، إذا قيل له الشيخ فلان يقول كذا، أو العالم الفلاني أو شيخ الإسلام يقول كذا هذا غير معصوم مباشرة، وهذه حيلة شيطانية لكي لا يذهب إلىٰ البحث في الحق نفسه، وإنما يصادر القول الآخر ويغلطه لأنه أصلا غير معصوم فأصلا وقع في خطأ قبل أن يبحث، وهذه حيلة شيطانية، والواجب أنه ينظر ويسمع ما يقول العالم بدليله، وإذا لم يتضح له كلام العالم فإنه يسمع مرة أخرىٰ، أو يذهب ويسأله ويبحثه ويبحث معه حتىٰ تظهر له المسألة في ذلك لعله أن يوافقه في هذا.

العلماء أعراضهم حرام؛ لأنهم أعلىٰ الأمة مقاما؛ يعني بعد نبيها ﷺ، والعلماء ورثة الأنبياء؛ لأنهم هم يحفظ الكتاب والسنة ودين الله جل وعلا، إذا كانت لحوم المؤمنين جميعا وأعراضهم حرام فيعظم الوزر بعظمة أو بازدياد رفعة من وُقع في عرضه؛ لأجل شدة ترتّب الأثر علىٰ ذلك.

مثلا شخص من الناس وقع في عرضه لكن الوقيعة فيه حرام «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا**»، «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله**»، إذا كان في عامة الناس حرام يعظم بالمفسدة المترتبة علىٰ هٰذا القدح، والناس مقامات فإذا كان هناك مفسدة أكبر فإنه تكون هنا

الوقيعة أكبر؛ يعني الجرم أكبر أو الإثم أكبر.

مثلا ابن مع والده في بيته، اثنين ابن وابن يأتون ويقدحون في والدهم، هذا أعظم مما لو تناول عرض الأخ، اثنين من الإخوان في أخيهم، هذا عظيم وهذا أعظم، أعظم اثنين مثلا يغتابون خادما عندهم هنا حرام أيضا إذا كان مسلما؛ ولكن الأثر يزداد بازدياد المكانة.

العلماء أرفع الناس مكانة، ولهذا القدح فيهم يخلي الناس لا يثقون بنقلة الشريعة وحفاظها وهو الآن حاصل وقبل الآن نسأل الله العصمة من الضلال.

سؤال (٥): هذا شبيه بالسؤال: كثر طعن الناس في هذه الأحداث في المشايخ السلفيين إلىٰ آخره، التعليق علىٰ الأنباء؟

الجواب: يريدون العلماء يعلقون علىٰ الأنباء، صحيح ولذلك يقترح أن يكون للعلماء ووش يسمونه عندكم سياسيا؟ ناطق رسمي، كل يوم يأتي يعلّق: هذا كلام، عشان يرتاح الناس، ليس هو المنهج، المنهج العالم إذا نكلم مرة أخذ كلامه، يرجع فيه للأصول، ما هو كل مرة لازم يتكلم، تكلم مرة خلاص انتهىٰ، يُبين، وليس لابد أن يكون علىٰ نحو ما إذا بينه بعض أهل العلم وأقره الآخرون انتهىٰ أيضا ذلك، لا يلزم أن كل واحد يتكلم بنفسه فإذا تكلم بعضهم وقام بواجب بعض، الحمد لله المسألة ظاهرة.

نكتفي بهذا القدر احفظ الأسئلة الباقية وإن شاء الله نلتقي السبت القادم بإذن الله تعالىٰ.

۞۞۞۞

محاضرات (١/ ١٠)

أسْبَابُ الثَّبَات عَلَى طلب العلم

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرا إلىٰ يوم الدِّين.

أما بعد..

فهٰذه بداية للدُّروس التي سبق أن بدأناها في العام الماضي، وأسأل الله جلّ وعلا أن ينفعنا بما مضىٰ وأن ينفعنا بما سيأتي وأن يثبته في قلوبنا، وأن يمنّ علينا بالعمل بما علمنا، وأن لا يكلنا لأنفسنا طرفة عين، وأسأله بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ العظيمة الجليلة أن يمنّ علينا بالبصيرة في كلّ ما نأتي وما نذر، وأن يجنّبنا سلوك غير سبيل سلف هٰذه الأمة في كل أحوالنا، إنّه جواد كريم.

وبمناسبة هٰذه البداية نُذكّر بشأن العلم وما ينبغي أن يستحضره طالب العلم وهو يعاني العلم ويعاني حمله ويسير في طريقه؛ لأنّ العلم ليس بالطَّريق الهيّن، وكما قد قيل: العلم طريقه طويل، قد قال بعض السلف: (**اطلبوا العلم من المهد إلىٰ اللَّحد**)، وقد قيل للإمام أحمد وقد ظهر الشَّيبُ فيه، قيل له: إلىٰ متىٰ وأنت مع المحبرة؟ -يعني كانت معه أدوات العلم؛ ورق ومحبرة-، فقال كلمة مشهورة: **مع المحبرة إلىٰ المقبرة**. يعني أنّه مواصل في هٰذا لا ينقطع.

وسبب الانقطاع فيمن انقطع عن العلم يرجع إلىٰ أسباب، فمن تلك الأسباب:

١- أنّه لم يَعِ حقيقة معنىٰ العلم ولماذا يطلب العلم.

٢- والثّاني أنّه ربَّما كانت النية في أصلها ضعيفة؛ لأنّه بقوة النية في طلب العلم يكون الاستمرار والحِرص عليه.

٣- والثَّالث من أسباب الانقطاع أن يكون المرء متعجّلا، يريد أن يكون طالب علم، أو أن يكون عالمًا محصِّلا عارفًا بأكثر المسائل في سنوات قليلة، هٰذا لا يَحْصُل أبدًا؛ بل العلم طريقه طويل.

٤- وقد يكون السَّبب راجعا إلىٰ ضعف بصيرته في شأن العلم، ويظنّ أنَّ العلم نفعه قليل، وأنّ غيره من الطُّرق التي ربما يغشاها بعض المستقيمين أو الذين ظاهرهم الالتزام أنها أسرع في تحصيل المقصود وأنها هي التي بها يحصل المرء علىٰ ما يتمنَّىٰ من رجوع الخلق إلىٰ ربهم جلّ وعلا.

وهٰذا من أسباب الانقطاع عن العلم أنه يقول: ماذا فعل العلماء؟ ماذا حصّلنا من العلم؟ ولكن هناك طرق أخرىٰ كذا وكذا، هٰذه بها يكون المرء أكثر تأثيرًا ويكون محقًّا للحق ومبطلا للباطل، فتنصرف نفسه

عن العلم.

والحقيقة أنّه فاته أنّ العلم كالماء الذي يثبت في الأرض فينفع الله جلّ وعلا به من يأتي بعد، كما مثّل ذلك النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في الحديث الصحيح الذي قال فيه: «**مَثَلُ ما بعثني الله به من العلم كمثل غيث أصاب أرضا**» فالعلم الشرعي غيث، وهٰذا الغيث؛ غيث نافع.

ومن فوائد الفروق اللغوية في التفسير أنّ أكثر ما يستعمل **الغيث** في الكتاب والسنة فيما ينفع من الماء والمطر، وأمَّا **المطر** فأكثر ما يستعمل فيما يضر مما ينزل من السماء، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾[الشعراء]، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[يوسف]، فالنّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- مثّل لنا العلم بالغيث، وهٰذا فيه مع تتمة الحديث بأنّه أصاب أنواعا من الأرض فكانت منها أرض قبلت العلم فارتوىٰ الناس منه وأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وفيه أيضا تسميته بالغيث، والغيث يُغيث الأبدان ويغيث القلوب، وهكذا العلم فإنه بهٰذه المثابة.

٥- من أسباب الانقطاع عن العلم التي لمسناها في الشباب في السِّنين الماضية ودائما تتجدد: أنهم لا تكون صلتهم بالعلم وأهل العلم مستمرَّة، بل عهدهم بالعلم وأهل العلم في الدُّروس فقط، وما عدا ذلك فهم يصاحبون الناس من أصنافٍ شتىٰ، فلا تكون النفس دائما متحرِّكة بالعلم، بل تكون تتحرك بالعلم في وقت قليل؛ في وقت الدرس، وما بعد ذلك فأكثر الحديث الذي يتحدث به ليس في العلم، هٰذا يجعله غير متعلِّق بالعلم، والعلم يحتاج إلىٰ أن يتعلَّق به طالبه دائما؛ نفسُه معه في كلِّ حال، وقد كان بعضُ أهل العلم ينصرف عن ملذّات الدُّنيا لأجل العلم؛ الملذّات المباحة من مال أومن زوجة أو من نظر مباح وأُنْس ونحو ذلك لأجل انشغاله بالعلم، وقد قال بعض الشعراء في ذلك من العلماء حيث أتته جارية ولم يلتفت إليها وقد كانت حسنة الخَلْق والخُلق فقال فيها أبيات لما أتته وذكر زينتها إلىٰ آخره فقال:

فقلت ذريني واتركيني فإنّني شُغِلتُ بتحصيل العلوم وكشفها

ولي في طِلاب العلم والفضل غِنىٰ عن غناء الغانيات وعَرْفِها

يعني أنّه مشغول بشيء أعظم غلب علىٰ نفسه، وهٰذا متىٰ يكون؟ إذا كان المرء دائما مع العلم؛ قراءة، في صحبة من يتكلمون في العلم، في تبليغ العلم، في الكلام في العلم، في رؤية العلماء، في الحديث معهم، في سماع كلامهم تجد النفس تنشغل به، ويكون العلم طبعا له، أولا يكون تطبع يأتي بشيء من الكلفة، ثم يكون طبعا له حتىٰ إذا تحدث حدّث بالعلم، إذا أرشد أرشد بالعلم، إذا بيّن بين بالعلم، فيكون في ذلك الأنس له، ولا شك أنّ هٰذا يحتاج إلىٰ جهاد وقد قال جلّ وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا

لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[العنكبوت].

فالجهل هو ضد العلم، والجهل داء -كما قال ابن القيم- داء قاتل يقتل صاحبه من حيث لا يشعر، فيقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «نونيته»:

والجهل داء قاتل وشفاؤه أمران في التركيب متفقان
علم من القرآن أو من سنة وطبيب ذاك العالم الرباني

يقول: (الجهل داء قاتل). لا شك قاتل لرؤية العبد لِما يجب عليه في دينه، كذلك داء قاتل للعبد في أنه يجعله ليس من الأحياء، فالعالمون أحياء وغيرُهم أموات، وسبب موتهم هو الجهل؛ لأنّ الجهل مميت مثل ما قال هنا قاتل، فكل من جهل فقد قُتل وقد مات، والجهل ليس بمرتبة واحدة بل الجهل أنواع كثيرة فكل من جهل شيئا فقد أصيبت مقاتله من الجهة التي جهل فيها، قال:

والجهل داء قاتل وشفاؤه ....

ما شفاء الجهل؟ قال:

.... وشفاؤه أمران في التركيب متفقان
علم من القرآن أو من سنة ....

هٰذان الأمران: علم من القرآن أو من السنّة. من الذي يبيّن نصوص القرآن والسنة وينزِّلها منازلها ويجعلها في معانيها الصَّحيحة؟ قال:

.... وطبيب ذاك العالم الرباني

ليس أي عالم؛ لكنّه عالم رباني يخشىٰ الله ويتّقيه فيما يقول وفيما يأتي وفيما يذر، فنصوص الكتاب والسنة نعم هي شفاء الجهل، وكثير من الناس ينفي الجهل عن نفسه بالحرص علىٰ الكتاب والسنة لكنه لم يَستضِئ بكلام أهل العلم وبنور أهل العلم، لم يستضيء بذلك، ولما لم يستضئ بذلك أُصيبت مقاتله؛ لأنه قال: (وطبيب ذاك العالم الرباني)، هٰذا التعبير بـ(طبيب ذاك العالم الرباني) يفهمك بأن العلم دواء، فإذا أتىٰ رجل فأخذ من الدواء ما لا يصلح له يهلك أولا يهلك؟ يهلك.

قد هلكت الخوارج لأنهم أخذوا نصوص الكتاب ونصوص السنة؛ ولكن نزلوها في غير منازلها، فأخذوا من نصوص الكتاب ما استدلوا به علىٰ أنّ فاعل الكبيرة كافر قال: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا ﴾[النساء:٩٣]، قالوا: هٰذا يدل علىٰ أنه كافر.

أخذت المرجئة بعض النصوص نصوص الكتاب ونزلوها في غير منازلها «من قال: **لا إلٰه إلا الله دخل الجنة**»، «من كان آخر كلامه: **لا إلٰه إلا الله دخل الجنة**» ونحو ذلك من النصوص، فنفت العمل

وأبقت القول والاعتقاد وأرجؤوا ذلك فأصيبت مقاتلهم، لماذا؟

لأنهم لم يكن طبيبهم في فهم النصوص صحابة رسول الله ﷺ ولا علماء زمانهم، أخذوا من أنفسهم ولم يتابعوا أهل العلم المتحقِّقين به، فأصيبت مقاتلهم.

وهكذا في كل زمن الحرص علىٰ العلم مطلوب؛ لكن لا يمكن أن تكون حريصا علىٰ العلم ومصيبًا في ذلك إلاّ أنْ تستضيء بفهم أهل العلم؛ لأنَّ العلم في هٰذه الأمة موروث ليس علما مستأنفا مبتدأً، في كل زمن يبتدئ الناس منه ويستأنفون علما جديدًا لم يكن معروفا في من قبلهم، بل علمنا في هٰذه الأمة علمنا موروث، ولهٰذا قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**العلماء ورثة الأنبياء، فإنّ الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر**» لهٰذا! تنتبه إلىٰ هٰذا الأصل العظيم ألا وهو الحرص علىٰ العلم حق؛ ولكن ينبغي أن يكون طبيبك في ذلك الحرص -في تلقي النصوص- طبيبك العالم الرباني، فإن لم يكن ربَّانيا كان عالما ذا هوىٰ؛ له مقاصد له أغراض أيضا أصابك شيء من عدم فهم نصوص الكتاب والسنة، وأصابك شيء من الجهل بقدر ما فاتك من ذلك.

والعلم أنواع، الجهل خطير وداء قاتل، ولابد أن تسعىٰ في شفاء نفسك منه عن طريق أهل العلم بفهمهم نصوص الكتاب والسنة، والعلم أنواع كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

والعلم أنواع ثلاث ما لها ... من رابع والحقُّ ذو تبيان
علم بأوصاف الإله ونعته ... وكذلك الأسماء للديَّان

هٰذا العلم الأول: الأسماء والنعوت والصفات؛ يعني التوحيد جميعه: توحيد العبادة وتوحيد الربوبية كله من ثمرات المعرفة والعلم بأسماء الله وصفاته.

ففي اسم الله الأعظم (الله) الذي مرجع الأسماء الحسنىٰ جميعا إليه فيه أنه هو المستحقُّ للعبادة وحده دون ما سواه.

ففي اسمه الرّب أنه هو ذو الربوبية.

في نعوت الجمال أنّه هو المستحق للعبادة.

وفي نعوت الجلال أنّه هو المستحق للإجلال والتعظيم وإفراده بالربوبية وهكذا...فقال:

علمٌ بأوصاف الإله ونعته ... وكذلك الأسماء للديان

هٰذا ثلث العلم بالتوحيد، ولهٰذا سورة الإخلاص صارت ثلث القرآن؛ لأنّ القرآن فيه العلم كله، وثلث العلم التوحيد فصارت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن؛ لأنها فيها التوحيد كله؛ توحيد الربوبية

والألوهية والأسماء والصفات.

قال بعدها:

والأمـــر النهـــي الـــذي هـــو دينـــه ....

هٰذا النوع الثاني من العلم: الأمر والنهي الذي هو معرفة الحلال والحرام:

- المأمور به ويشمل الواجب والمستحب.
- والمنهي عنه ويشمل المحرم والمكروه.

والأمـــر والنهـــي الـــذي هـــو دينـــه ....

هٰذا النوع الثاني الذي هو علم في الفقه؛ الحلال والحرام (علم الأحكام).

والثالث منها هو علم الجزاء يوم القيامة، قال:

.... وجـــزاؤه يـــوم المعـــاد الثـــاني

الذي يدخل في ذلك علم السلوك، ما يصحِّح به المرء قلبه، ما يصحِّح به سلوكه، مقامات الإيمان، ومقامات الزُّهد، والعبادة، ومعرفة جزاء كل عمل يوم القيامة وما يحصل يوم القيامة من أنواع الجزاءات للمؤمنين وللكافرين، للمقصرين وللمطيعين؛ لأنواع الناس.

إذن فلتعلم هنا أنّ هٰذه الثلاث هي العلم. فتسعىٰ:

- إلىٰ العلم بالتَّوحيد، هٰذا ثلث العلم.
- إلىٰ العلم بالحلال والحرام، هٰذا الثُّلث الثاني من العلم.
- إلىٰ العلم بما تزكي به نفسك، قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾[الشمس].

كيف تحصل علىٰ هٰذا العلم؟ بتدبر نصوص الكتاب والسنة بما يكون يوم القيامة، وحال الناس يوم القيامة، والنُّصوص التي جاءت بما يكون به الثواب يوم القيامة؛ نصوص الزهد، نصوص الثواب، الأذكار، ما يتعلَّق بذلك، كلها من فروع هٰذا.

فإذن عندنا هٰذه أقسام العلم ثلاثة، إذا كنت حريصا علىٰ هٰذا العلم فلتكن حريصا علىٰ هٰذه العلوم الثلاثة، ثم لتَنْفِي عن نفسك ما استطعت من أسباب الجهل، وقد عرفت أسباب الجهل، ثم احرص تمام الحرص علىٰ أن لا تنقطع عن الطريق، وتذكر قول ابن شهاب الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث نصح المتعجلين فقال: **من رام العلم جملة ذهب عنه جملة، وإنما يطلب العلم علىٰ مرِّ الأيام والليالي**. قليلًا قليلا، لو ما

نكسب كلّ يومين إلا مسألة؛ يعني مسألة نضبطها وتكون ثابتة بدليلها ووضوحها فبعد سنة سنحصل قريبا من مائة وثمانين مسألة، وبعد سنتين ثلاثمائة وستين مسألة واضحة، بعد عشر سنين ألف وستمائة مسألة، أحسب بعد ثلاثين سنة يكون الواحد عالم راسخ في العلم، تكون المسائل واضحة مبسوطة عنده بوضوح وفهم غير ملتبسة، هٰذا إذا كان في كل يومين مسألة، فكيف يكون لو كان في كل يوم مسألة، لو كان في كل يوم مسألتين، خذ ما تحصَّل من العلم، ولكن يحتاج منك إلىٰ مواصلة.

المطر إذا أصاب أرضًا وكان مطرا شديدًا يمشي أو يظل راكدًا في الأرض؟ يمشي بل يذهب إلىٰ الأودية والشعاب؛ لأنّه قوي، لكن هل الأرض التي نزل عليها أول مرّة نزولا شديدا يكون انتفاعها مثل الأرض التي استقر عليها الماء؟ ليس كذلك، هٰذا مثال للتقريب.

المطر الذي يأتي قليلا قليلا؛ أسبوعا أسبوعين تجد مثلا نصف متر في الأرض كلها رويانة، لٰكِن بعد ذلك لو يزيد أسبوع ثاني...، هٰذا وصف بليغ فيما يناسب العلم، إذا ارتويت من العلم بعد ذلك الشيء القليل الذي يأتي تحس أنه ينفع الناس، وتذكره بوضوح.

فمثلا تجد بعض طلاب العلم قد يتكلم بالكلمات؛ لكن ما تقنع منها النفوس وهو طالب علم لماذا؟ لأنها لم تنتج عن رسوخ وفهم لما يتكلَّم فيه، تلحظ في الكلام فيه شيء من الاضطراب، فيه شيء من عدم الوضوح، ما استطاع أن يوصل لك الكلام بوضوح تام، لماذا؟ لأنّه غير راسخ في هٰذا المقال الذي قاله.

وهكذا طالب علم أو عالم يكون عنده تسعين في المائة من العلم الذي معه واضح وعشرة في المائة غير واضح، تجد أنه يلتبس عليه فلا يستطيع تأدية هٰذا الذي التبس عليه -مشكل عنده-، فإذا كان العلم راسخًا واضحًا قد طُلب علىٰ مهل فإنه يثبت في القلب، وبعد ذلك يمكنك أن تنفع النَّاس به، فلا يَغيبنّ عنك هٰذه الحقيقة وهي أنّ العلم يُطلب شيئا فشيئا.

أمَّا التَّذوق فهٰذا ليس أهله من العلم في قليل ولا كثير، **ما معنىٰ التذوق؟**

التذوق هو ما رأيناه كثيرا يحضر عند فلان من المعلِّمين أو من المشايخ الكبار شهرًا وبعد ذلك راح للثاني، راح للثالث، فما استفاد لأنه متذوِّق، فتجد الإخوان يُقبلون سنة شهر شهرين ثم يُحبطون، هٰذا العلم غير متَّصل، هٰذا ما يستفيد سنين ثم ينقطع في الغالب ينقطع ثم يصبح كغيره من الناس، أما الذي يصبر ويصابر علىٰ مرّ الزّمان فإنّه هٰذا يحصِّل بحسب ما كتب الله له.

٦- **وممَّا هو من أسباب ثبات العلم** وعدم الانقطاع عنه أن تكون مخلص القصد فيه لابد من

الإخلاص في العلم؛ لأن العلم قد أُمر به في القرآن وأمر به النبي ﷺ ، وإذا كان مأمورًا به فإنه عبادة؛ لأنّ العبادة هي **ما أُمر به من غير إطِّراد عرفي ولا اقتضاء عقلي**، فإذا كان مأمورًا به فهو عبادة، فإذا كان عبادة يلزم فيها الإخلاص.

كيف يكون اِلإخلاص في العلم؟ ما النِّيّة في العلم؟ سُئل الإمام أحمد عن ذلك –مشكلة- كيف يكون مخلصًا في العلم؟ كيف يكون مخلصًا في عمله؟ كيف يكون مخلصًا في صلاته؟ في صيامه ...إلخ؟ كل عبادة يُخلص فيها إذا كان قد أراد بها الله جلّ وعلا، العلم مع إرادته الله وعدم إرادته الرياء والسمعة ولا المكابرة ولا المجاهرة في الناس بالكلام ولا التَّقدم والتَّصدُّر، أن يريد بالعلم نفي الجهل ورفع الجهل عن نفسه.

قيل للإمام أحمد: كيف النية في العلم؟ قال: ينوي رفع الجهل عن نفسه.

لماذا؟ لأنّ الجهل؛ جهله بالله جلّ وعلا، جهله بما يستحقُّه جلّ وعلا، جهله بصفاته وأسمائه، جهله بأمره ونهيه، جهله باليوم الآخر وما فيه من تفصيلات وجزاء كل واحد علىٰ ما يعمل، هٰذا لا شك ما يرضىٰ به ذوي النفوس الحية.

فإذا طلب العلم يريد به الدنيا فهو من أهل الدنيا، فإذا طلب العلم لله يريد الأجر والثواب ويريد نفي الجهل عن نفسه؛ فإنه يكون مخلصا.

لاحظ هٰذه النية إذا أتت إليك واستقرّت فهي مباركة؛ لأنك دائما تحسُّ أنك جاهل، ما فيه أحد ينقضي من العلم حتىٰ من عُمّر مائة عام أو أكثر وهو في العلم ما انقضىٰ، العلم واسع لا يستطيع أحد أن يحيط به جميعًا من الناس، وهو واسع يعني من غير الأنبياء، وسَعته هٰذه تحتاج إلىٰ أن تكون دائمًا معه، بالنِّيَّة أن تنوي رفع الجهل عن نفسك وستلحظ أنّ بها أشياء ما عرفتها، فإذا كانت النية الصالحة موجودة ستستمر علىٰ العلم، لكن إذا كانت النية غير صالحة والله تعبت خلاص عرفت كذا وكذا، لا العلم طويل.

العلم بالقرآن، العلم بالتفسير، لا ينتهي، فإذا تأمَّلت أنّ ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ صنف كتابه التفسير مختصرا، وقد قال لهم: هل تنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: قدر كم؟ قال: قدر ثلاثين ألف ورقة. قالوا: هٰذا ممَّا تمضي فيه الأعمار. فقال: الله المستعان ماتت الهمم. فاختصره لهم في ثلاثة آلاف ورقة؛ يعني قدر العشر وهو الموجود اليوم في ثلاثين جزءا، فأين الباقي؟ موجود في غيره من التفاسير أشياء لم يذكرها ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنما هو قرّب علمه بالتفسير واختصره، هٰذا القدر من العلم بالقرآن، هٰذا القدر الهائل إذا وصلنا

إلىٰ آخر التفسير نسينا شيئا من أوّله، هٰذا موجود مررنا علىٰ تفسير سور القرآن ثم من الآيات ما نسينا تفسيرها؛ هٰذا طبع الإنسان.

فإذا كان المرء معه دائما نية رفع الجهل عن نفسه لا ينقطع عن العلم، دائما يحس أنه ضعيف جاهل، يأتيه الصغير فيعلمه شيئا لم يعلمه من قبل، وهو أصغر منه، يقول: والله اطلعت علىٰ هٰذه المسألة وفوق كل ذي علم عليم يفرح بها.

تجد أن صاحب النية الصحيحة إذا أرشده من هو أصغر منه أفرح ما يكون، لماذا؟ لأنّه حصّل علما يرفع به الجهالة عن نفسه، أما لم تكن نيته صحيحة فإنّك تجد عنده استكبار في العلم: لا، ليس كذلك. ما يفرح بالعلم، تأتيه بالعلم الواضح الصحيح ولا يفرح به؛ لأنّ نيته مدخولة.

النية الصالحة في العلم سبب عظيم من أسباب الثبات عليه والاستمرار عليه.

٧- **أيضا من أسباب الثبات: الصبر علىٰ المعلّم**، فإنّ المعلمين أو المشايخ ليسوا علىٰ درجة واحدة في التَّعامل مع الطلاب، يختلفون، كل واحد تجد عنده أشياء، فمنهم من قد لا يهتم بالسُّؤال ويفصل الجواب لكلّ أحد، إذا كان الطَّالب يستريح له المعلم فصّل له، إذا كان يرىٰ أنه ليس بأهل أو له فيه نظر ما فصّل له، يحتاج طالب العلم إلىٰ أن يصبر.

كذلك قد يكون في بعض المعلِّمين خصال تخصه، كل واحد من المتعلِّمين أو المعلمين -كلنا بشر- كل واحد فيه عيوب أو فيه نقص أو له طبائع خاصَّة به.

فإذا كان المرء -أعني طالب العلم- طلَبَ مَن يطلب عليه العلم من أهل الكمال، هٰذا لن يحصّل، تجده يأتي إلىٰ فلان وينتقده -من طلاب العلم-، والثاني ينتقده والثالث ينتقده، مَنْ الكامل عنده؟ لا أحد، وهٰذا يغلب علىٰ الذوّاقين الذين يتنقلون، حتىٰ أن بعضهم حضر عددا من الدروس المختلفة سأله أحد العلماء أو أحد المشايخ عما أخذ من العلم فقال: حضرت عند فلان فذكر كذا وكذا وكذا كلمة إما أخطأ فيها أو -المقصود شيء غريب- والثَّاني قال كذا، والثالث ما فصّل، والثَّالث غلط في حديث والرابع ذهب في مسألة و...أخذ يعد ويعد، فقال له: بئس الرّجل أنت أن جمعت...

٨- **من أسباب عدم المواصلة في العلم** أنْ يَطلب طالب العلم معلما فيه الكمال هٰذا لا يوجد إلاّ في المشايخ؛ في عِلّيّة المشايخ يعني المشايخ الراسخين في العلم الكبار، وهؤلاء قد لا يمكنهم أن يعلموا كلّ الأمة، أن يعلموا كل من أراد طلب العلم، ولكن خُذ من المعلم ما أصاب فيه وهو الأكثر ما دام أنه معلم ووثق فيه الطلاب وعنده حسن أداء للعلم وتصور له، وصوابه أكثر من خطئه أو خطأه قليل يُعدُّ، فخذ

منه صوابه والخطأ راجعه فيه بصره حتىٰ يبصر.

من المهم في طلب العلم أن تكون متواضعًا مع المعلمين، وهٰذا سبب من أسباب مباركة الله جلّ وعلا لعِلمك؛ لأنّ التّواضع للمعلم سببٌ للاستمرار، وعدم التّواضع للمعلّم سبب للانقطاع، وهٰذا مأخوذٌ من قصة موسىٰ عليه السلام مع الخضر، موسىٰ عليه السَّلام ما صبر، والخضِر عنده علم عجيب؛ علمٌ من الله جلّ وعلا عجيب، فموسىٰ عليه السلام رأىٰ الأوّل فاعترض مع أنّه عاهده أن لا يعترض، والمسألة الثّانية –رآها- الغلام الذي قتله الخضر فاعترض موسىٰ عليه السلام ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾﴾[الكهف] ثم الجدار، فأخبره أنه لن يستطيع معه صبرًا ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾[الكهف]، ماذا قال –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-؟ قال: «**وددنا أنّ موسىٰ صبر**» لو صبر لأخذنا علم كثير لكنه لم يصبر فحُرم من علم الخضر.

وسبب الخلاف في الاستنكار هو الاختلاف في العلم، الخضر في هٰذه المسائل أعلم من موسىٰ، فاستنكر موسىٰ عليه السلام –وهو كليم الله جلّ وعلا ومن أولي العزم من الرّسل- كان عند غيره من العلم ما ليس عنده.

ما سبب الخلاف؟ سبب الاعتراض، اختلاف العلم، لهٰذا قد يكون عند بعض الطلاب اعتراض، عدم فهم، عدم قناعة؛ لكن السبب في عدم القناعة اختلاف العلم، ولهٰذا قال ابن الوزير محمد بن إبراهيم اليماني أو غيره في أبيات حسنة في بيان سبب اختلاف الناس؛ سبب اختلاف الآراء وأنّ سبب ذلك هو اختلاف العلوم، قال:

تسلّ عن الوفاق فربُّنا قد ... حكىٰ بين الملائكة الخِصاما

الخصام في إيش؟ قصة آدم وحديث اختصام الملأ الأعلىٰ وغير ذلك، كذلك الاختصام في شأن أهل النار وغير ذلك...

كذا الخضِر المكرّم والوجيه الـ ... ـمكلّم إذ ألمّ به لماما
تكدّر صفو جمعهما مرارا ... فعجّل صاحب السرّ الصراما

(والوجيه الكلم) يعني موسىٰ، (تكدّر صفو الجمع) بأي شيء؟ باعتراض موسىٰ عليه السلام موسىٰ اعترض فبيّن له الخضر أن ليس له هٰذا؛ أنه ليس من أدب المتعلم مع المعلم أن يعترض عليه بشيء لا علم له به، ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾[الكهف:٧٣]، إلىٰ أن قال له: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾[الكهف].

قال هنا

تكـدّر صـفو جمعهـما مـرارًا فعجّـل صاحـب السـرّ الصَّرامـا
فـفـارقه الكلـيم كلـيم قلـب وقـد ثنّـىٰ علـىٰ الخضـر الملامـا
وماسبب الخلاف سوىٰ اختلاف الـ ـعلوم هنـاك بعضـا أو تمامـا

(الكلم) موس، (ما سبب الخلاف؟) اختلاف العلوم، هٰذا الطالب مثلا يستنكر علىٰ المعلم يقول: لا ليس كذا -وهو نظر لها من جه- سبب الاختلاف هو اختلاف العلم؛ هٰذا علمه واسع وهٰذا علمه ضيق، فصاحب العلم الضيق اعترض علىٰ صاحب العلم الواسع، فصار بينهما ما قد يسبّب الانقطاع من الاستفادة ولذلك قال:

وماسبب الخلاف سوياختلاف ال ـعلوم هنـاك بعضـا أو تمامـا
فـكان مـن اللّـوازم أن يكـون الإلـه مخالفًـا فـيها الأنامـا
فـلا تجهـل لهـا قـدْرا وخـذها شـكورًا للـذي يحـيىٰ الأنامـا[1]

يعني (هٰذه في مسائل القدر) إلىٰ آخر أبياته.

المقصود من ذلك أنّ صبر المتعلّم علىٰ المعلم وعدم كثرة الاعتراض هٰذا يجعله يستمرّ ويستفيد؛ لأنّ طالب العلم وهو يسمع إذا عوّد ذهنه أن يعترض، أنْ يستشكل لن يتابع الكلام؛ يفهم أوّله وآخره وتسلسل المعلم.

فأنت تستمع مثلا لأحد المشايخ وهو يتكلم، فكلما أورد كلمة أتيت باعتراض، إذا أورد لفظ حديث قلت في ذهنك: لا هٰذا ليس لفظ الحديث. الحديث له ألفاظ وروايات أنت حفظت واحدة فيمكن المعلم عنده ثلاث أربع روايات فانشغلت بالاعتراض، إذا انشغلت بالاعتراض حُرمت، ولكن إذا انشغلت بالفائدة، فما كان من الفوائد فيها الصواب استفدت، وما كان فيه غير الصَّواب خطأ ذهب وحده، أو شيء صححته بينك وبين نفسك أو راجعته فيه، هكذا يكون العلم، أما الاعتراضات النّفسية هٰذه التي تطلب الكمال أو نفسية الناقد الذي كلّما سمع شيئا من معلمه نقد ولو في نفسه، يحضِّر في نفسه أسئلة واعتراضات والمعلم يتكلم، هٰذا لا يستفيد، وهٰذا سبب من أسباب الانقطاع في العلم.

٩- **من أسباب الانقطاع**: وهٰذا أيضا لاحظناه أن يكون المرء يطلب شيئا كبيرا، فعنده همة في أول الطلب، هٰذه الهمة تكسِر الجبال، ماذا تريد؟ أنا أريد أحفظ الكتب الستة، أو يقول مثلا: «الواسطية» هٰذه

[1] اللفظ المذكور في الكتاب هو (العظاما)

مختصرة، أنا أريد أحفظ «التدمرية». أو يقول: لا أريد أحفظ «بلوغ المرام» هٰذا خفيف أريد أحفظ «منتقىٰ الأخبار» فيه ستة آلاف حديث أو نحو ذلك، لا أريد أحفظ «زاد المستقنع» هٰذا مختصر أريد أحفظ مثلا الإجماع والخلاف الذي في «المغني»، هٰذه الأشياء التي ذكرتها مرّ عليها بعض الشباب ممن هم علىٰ هٰذه الشاكلة، صحيح أول الأمر عنده هٰذه الهمة العظيمة ويشكر عليها؛ لكن هٰذه الهمة لا تستمر، وما عُرف عن أحد إلا نوادر أن تستمر معهم هٰذه الهمة.

فإذن من وسائل الانقطاع عن الطلب أن تحمِّل نفسك في فترة الهمَّة والقوَّة ما لا تحتمله في تلك الفَترة، ولكل عمل شِرّة كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح قال: «**إنّ لكل عمل شِرّة، وإنّ لكل شرَّة فترة، فمن كانت فترته إلىٰ سنتي فقد أفلح وأنجح، ومن كانت فترته إلىٰ معصية فقد خاب وخسر**» لكل عمل شرة حتىٰ الإقبال علىٰ العلم له شِرّة –عنفوان- كأنّه سيقرأ مائة مجلد وسيحفظ ويعمل؛ ولكن لهٰذه الشِّرّة فترة لابدّ (**إنّ لكل عمل شرة**) الشرة العنفوان والقوّة (**ولكل شرة فترة**) حتىٰ في العبادات يجد من نفسه نشاط وإقبال، تجده صاحب إقبال علىٰ العبادة وكثرة طاعات وإقبال علىٰ التلاوة، ويجد أحيانا من نفسه الكسل.

إذن الفترة هٰذه لابد منها، لكن المهم لا تكن فترة إلىٰ نكوص، فإذا كان فترة وكل واحد منا علىٰ أدنىٰ ما ينبغي فالحمد لله، (**لكل عمل شرة**) ما الذي ينبغي؟ أنه إذا أقبلت ووجدت من نفسك الشرة خذ بما يطاق، لا تأخذ بشيء لا تحتمله في الفترة، يعني مثلا إذا وجدت إقبالا احفظ القرآن، احفظ مثلا من متون الأحاديث «الأربعين النووية» في شرة في فترة قوة احفظه، مثلا «بلوغ المرام»، «عمدة الأحكام» بحسب ما يتيسر لك، وجدت عندك قوة احفظ «كتاب التوحيد»، احفظ مثلا «الواسطية» ونحو ذلك.

هٰذه إذا حصَّلتها في فترات الشرة في فترات القوة فأنت علىٰ خير عظيم، والواقع أنَّ الذين وجدوا من أنفسهم الشِّرة هٰذه والقوة والعنفوان ما استطاعوا أن يكملوا هٰذه الكتب إلا نوادر، حتىٰ هٰذه الكتب التي عند بعض الناس أنها مختصرة ما استطاعوا أن يكملوها، لهٰذا عليكم من العمل ما تطيقون.

١٠- **من أسباب الانقطاع**: أنّك تطلب شيئا بعيدًا، تطلب أشياء العلماء إلىٰ الآن ما حصلوها إلا نوادر في الأمة حصلت ذلك، فإذا وجدت هٰذا من نفسك فلتكن قوتك فيما تطيق وما ينفعك، وإذا تحركت رياحك فاغتنمها كما قال الشاعر:

إذا هبَّت رياحك فاغتنمها ... إنّ لكلّ عاصفة سُكون

الحديث: «**إنّ لكل عمل شِرّة، وإنّ لكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلىٰ سنتي فقد أفلح وأنجح** –هنا

عدة ألفاظ في آخره- **ومن كانت فترته إلىٰ معصية** –أول قال: **إلىٰ بدعة**. (لفظان)-**فقد خاب وخسر**».

١١- **من أسباب الانقطاع** عن العلم: أنّ المرء لا يطالع ولا يبحث، مثلا من بعض طلبة العلم يأخذ بالوصية المعروفة بالتدرج في العلم وأن يمشي شيئا فشيئا؛ لكن لا يبحث ولا يطالع يعني في غير موضوعه، مثلا نقول لطالب العلم أولا تمشي مع «الواسطية» وشروح «كتاب التوحيد» والفقه في «الزاد» وشروحه إلىٰ آخره في العلوم؛ لكن لا يكون عنده مطالعات، فيجد أنّ هٰذه المتون فيها شيء من الثقل ما فيها إفراح للنفس؛ تنويع للنفس، والنفس تحتاج إلىٰ تنويع وتقليب، فإذا لم يكن عنده مطالعات مثلا في التراجم، مطالعات في التاريخ، مطالعات في الأخبار، في اللُّغة، ما كان عنده بحث كان إذا مرّت عليه مسألة، يبحث هٰذه المسألة يجمع الأقوال فيها هٰذه آية ما كلام المفسرين فيها، إذا ما كان عنده مطالعة متنوعة ولا بحث فتجد أنه يخمد بعد فترة.

فإذن يحتاج طالب العلم مع التَّدرُّج إلىٰ أن يكون له إلمام كيف يبحث؟ يبحث ويكتب ويطلع معلمه أو يطلع المشايخ علىٰ ما كتب، حتىٰ ينمون عنده هٰذه الموهبة، ولقد قال النووي في مقدمات «المجموع» أو في غيرها أنه من أسباب ثبات العلم وتحقيقه أن يكتب المرء ما بحثه وما حقَّقه، يبحث وينظر ويكتب، لا يكتب للتَّصنيف مثل ما هو موجود الآن، صغار مثلا ما حقَّقوا العلم تجد أنهم ألفوا كتبا ونشروها، بعض الرسائل الصغيرة التي رأيتها رسالة من أولها إلىٰ آخرها فيها حوالي خمسة وعشرين صفحة مثلا وفيها أظن حوالي ثمانية عشر خطأ نَحويا؛ فيها ثمانية عشر خطأ في اللغة، وهي خمس وعشرين صفحة، هٰذا مثل ما قال ابن حزم في رسالته –عظيمة- «التلخيص في وجوه التخليص»: **كيف يكون مأمونا علىٰ العلم من لا يحسن اللغة**. كيف يؤمن علىٰ العلم؟ كيف نأمنه علىٰ فهم الكتاب والسنة؟ وعلىٰ أن ما نقله لنا من كلام أهل العلم قد فهمه جيدا؟ إذا كان ما أحسن كتابة عشرين صفحة بدون أخطاء، فكيف يكون مأمونًا علىٰ كلام العلماء الذين ينقل عنهم؟

إذن فانتبه إلىٰ هٰذه أنّ القصد من الكتابة التي أقول لك هو البحث ليس هو النشر، لا، بل تبحث مسألة تجعلها في نفسك، فكم من مسألة كتبنا فيها وهي مطمورة، إذا رأيتها عَجَب؛ لكن في فترة ما كتبناها في فترة أوائل الطلب الواحد فرح بها جدًّا، فرح أنه كتب وحقق، لكن لو تنظرها الآن خلاص.

وقد حصل لي في فترة من الفترات أن جمعتُ الأصول اللُّغوية لعلوم الحديث، وكان أحد الذين كتبوا في المصطلح يتمنىٰ أن تجمع الأصول اللُّغوية لعلوم الحديث، مثلا حديث الصحيح ما معنىٰ الصحيح في اللغة؟ ولماذا اختار أهل الحديث هٰذا الاسم؟ الحسن لماذا؟ المضطرب، المدبج،

المنقطع، المقطوع، المرسل، المدلس، الضعيف لماذا اختاروها؟

من فترات -مثل ما يقال- الشباب أن جمعت هٰذا من كتب اللغة في بحث استمرّ مدّة طويلة هٰذه الأقوال، فأخذتها وقرأتها علىٰ الشَّيخ الأستاذ أديب العربية محمود شاكر المعروف تعرفونه كان في الرياض مكث فترة، قرأت فيها عليه بعض كتب اللُّغة، وأنا فرحت بهٰذا الذي كتبت وهو دقيق ينظر فيه ويعني فيه عجب، فقلت: يا شيخ أنا عندي كتابات في اللغة لعلك نعطيك فترة... فلما قرأ ما قرأ -هي ليس فيها أخطاء- قلت: يا شيخ إيش رأيك؟ قال: -ماشي، أنا كنت أبغاه يمدح هٰذا عمل جيد، قال: هٰذا عبث شباب. هي كلمة قاسية لفرحٍ، لكنها نافعة؛ جعلت المرء ينتبه؛ لكنها كانت خطوة في البناء اللغوي مثلا في طلب العلم، نعم، لكن نشرها لم يكن مناسبًا مثل ما قال: هٰذا عبث شباب، عبث شباب هٰذا صحيح، شاب فرح وجمع إلىٰ أن حصَّل علىٰ الشيء وكتبه.

فالمقصود البحث يُنمِّي عندك القوة العلمية ويجعلك مواصلًا في الإطلاع علىٰ الكتب وفي النظر، لكن لا تنشر ولا تستعجل، خلّها عندك؛ لأنه جزء من بنائك العلمي.

فإذن كيف تمنع الانقطاع لمن كان متدرجا في طلب العلم برعاية المتون؟ يكون بهٰذا الأمر وهو أنك تبحث وتكتب وتُري المعلِّمين ما كتبت حتىٰ يصحّحوا لك المسار، تكون كتاباتك نقية ومتَّزنة، ولكن لا تستعجل بشيء فإنما هي لغرضين:

لاستمرارك في العلم وعدم الانقطاع.

ثم لتكوين الملكة العلميَّة المناسبة.

هٰذه كلمات اقتضاها عدم مجيء أكثر الإخوة في هٰذا الدَّرس، ولعلَّ أن يكون فيها بعض النُّصح، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ نبيِّنا محمد وعلىٰ آله وصحبه.

بسم الله الرَّحمن الرحيم

الحَمْدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلام على رسولِ الله، وعلى آلِه وصحبِهِ ومن اهتدى بهداه.

أمَّـا بعـد.. فإنَّ الاهتمام بالعِلْم، والرَّغبَ فيه، والحِرصَ عليه، والإقبالَ عليه؛ دليلُ صحَّةِ القلوبِ؛ لأنَّ القلْبَ إذا صحَا لنفسه، وعرَفَ ما ينفعُه فإنَّهُ سيحرص على العلم؛ ذلك لأنَّ الله جلَّ جلاله مدح أهلَ العلم، ورفعَهُم على غيرهم درجاتٍ، قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة]، وقال جلَّ وعلا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر]، فعدمُ استواءِ مَنْ يعلَمُ مَع مَنْ لا يعلم، هٰذا إنَّما يذكُرُه ويعيهِ أهلُ الألباب؛ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وأمَّا الجاهِلُ فهو لا يعرِفُ أنَّهُ جاهِلٌ، ويقنَعُ بالجهالَةِ، ثُمَّ هُـو لا يعلَـمُ معنـى العِلْـمِ وأهمِّيـةَ العلـم، وأنَّ العلـم هـو الشَّـرفُ الأعظمُ في هٰذه الحياة؛ ولهٰذا قال العلماءُ: مِنْ دلائلِ أهمِّيةِ العلـمِ أنَّ الله جـلَّ جلالُـه مـا أمـر نبيَّـه ﷺ أنْ يـدعُوَ بالازديادِ مِنْ شيءٍ إلَّا مِنَ العلْمِ، فقال سبحانه لنبيِّه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾[طه]، ولم يأمره بدعاء الازدياد من غير العلم، وكفى بذلك شرفًا.

العلْمُ يشتركُ كثيرون في الاهتمامِ به، لكن لا يستوون في أخْذِه، ولا في طريقة أخذه، وهم طبقات:

فمنهم **المتعجِّل**: الذي يظنُّ أنَّ العلم يحصَّلُ في أسابيع، أو في أشهر، أو في سنين معدودة، وهٰذا بعيدٌ عنِ الصَّوابِ؛ لأنَّ العلمَ لا ينتهِي حتى يموتَ المرءُ ويبقى من العلم أشياءَ كثيرة لم يعلمْها، فإنَّ العلم واسعُ الأطراف، واسعُ الجَنبَات، واللهُ جلَّ وعلا هـو ذو العلـم الكامـل، وأعطـى البشـرَ بمجموعهم بعض علْمِه، فهٰذا يفوتُ عليه شيءٌ من العلم، وذاك يفوت عليه شيء من العلم؛ ولكن بمجموعهم لو جُمِعَ علْمُ ما فيها لكان شيئًا قليلًا جدًّا مِـن علـم الله، كـما تضَعُ الإبرة في البحر، ثم تخرجُها لم تُنقِص مِنْ ماءِ البحْرِ شيئًا.

وإذا كان كـذلك، فـإنَّ رَوْمَ العلـمِ لا يمكـن أن يكـون بإطلاقٍ؛ بل ينبغي لطالـبِ العلْـمِ أنْ يكـونَ متـدرِّجًا فيـه؛ والتَّدرُّج سُنَّةٌ لابُـدَّ منهـا، هـي سـنَّةُ النَّبـيِّ ﷺ، وهـي سُـنَّةُ الصَّحابةِ، وهي سُـنَّةُ أهـلِ العِلْـمِ بعـدَهُم؛ فـالنَّبيُّ -عَلَيْـهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ما علَّمَ الصَّحابةَ العِلْمَ جملةً واحدة، وإنَّما علَّمهم في سِنين عددًا؛ في مكَّةَ علَّمهُم أصْلَ الأصول؛ الذي به سلامةُ القلبِ وصحَّتُه وسلامةُ العقلِ وصحَّتُه= ألا وهو توحيدُ الله جلَّ جلالُه، والبراءَةُ مِنْ كُلِّ ما سوى الرَّبِّ جلَّ وعلا، ثُمَّ بعْدَ ذلك أتَى العِلْمَ شيئًا فشيئًا لصحابَةِ رسولِ الله ﷺ، وكلٌّ أخذَ مِنَ العلْمِ بقدْرِ ما يُسِّرَ له وقُدِّر له.

هكذا أهلُ العلم مِـن بعـد الصَّـحابة لا تجـدُ أنَّ أولئـك خاضوا العلْمَ خوضًا واحدًا، فمنهُـم مـن بـرَّزَ في العربيـة، ومنهم من برَّز في علم الأصول، ومنهُم من برّز في التَّفسـير، ومنهم من برَّز في الحديث، ومنهم مـن بـرَّز في علـوم الآلـة

الأخرى كالمصطلح ونحوه، ومنهم من برّز في الفقه، وهكذا في علوم شتَّى.

وإذا كـان كـذلك، كانـت وصيَّةُ ابن شهـاب الزُّهـري -التي لابدَّ أنْ نحفظها- نِعْمَ الوصـيَّة حيـث قـال: مَـنْ رامَ العلمَ جملةً ذهبَ عنه جملةً؛ إنَّما يُطلبُ العلْمُ على مـرِّ الأيَّـام واللَّيالي. فالمتعجِّلون لا يحصِّلون العلمَ، فلابـدَّ -إذن- مِـن التَّدرُّج.

ثُم ثَم صنفٌ آخرَ أيضًا مِن الشَّباب أو من طلَّاب العلم وهم المتذوِّقون.

المتذوِّقون: أهلُ التَّذوُّقِ في أخْذِ العلْمِ؛ يأتِي ويطْلُبُ علمًا ما مدَّةً قليلةً، ثم يأتِي ويحكُمُ على هٰذا العلـم، أو يحكُـمُ علـى من يُعلِّمُ ذاكَ العلمَ، وأيضًا ينتقِلُ إلى آخـرَ، ثُـمَّ يحكُـمُ علـى ذلك العِلْمَ الآخر، وعلى من يُعلِّمُ ذلك العلمَ الآخرَ.

وهٰذا دليلُ نقصٍ في العلْمِ، ونقصٍ في الإدراكِ والعقْلِ؛ لأنَّ العُلومَ لا يَحْكُمُ عليْها إلَّا مَنْ حواهَا مِن جميـعِ جنباتِهـا، وأحاطَ من ورائِهَا. وهٰـذا لا يتـأتَّى لأكثـرِ الشَّـبابِ الـذين يتذوَّقون؛ تجدُ أنَّه في مدَّةٍ مِن الزَّمن -أشهر أو سنة- حضَـرَ عند فلانٍ مِنْ أهلِ العلْمِ، أو مِنَ المعلِّمين مِـن طلبـة العلـم، فحَكَم على نفسه أو على ذلك المعلم بأنَّه كذا وكذا، ثُمّ انتقلَ إلى غيره.

ثُمّ في الآخِرِ تجِدُ أنَّ هٰذا النَّـوعَ ييـأسُ ولا يحصِّـلُ علـمًا كثيرًا؛ ذلك لأنَّه تعجَّلَ، وكان متـذوِّقًا في العلْـمِ، والتَّـذوُّقُ بمعنَى كثْرَةِ التنقُّلِ، والأخذُ مِن هٰذا بشيءٍ والأخذ مِـن ذاك

بشيءٍ، هٰذا لا يكونُ المرءُ به عالِـمًا، ولا طالِبَ علم، وإنَّما كما قال الأوَّلون: يكون أديبًا؛ لأنَّهم عرَّفُوا الأدَبَ بأنَّـه: **الأخذُ مِنْ كلِّ علْم بطرَفٍ**. وهٰذا ممَّا لا ينبغِي أنْ يُسلك، يعنِي لا يصلُحُ أنْ يكونَ طالِبَ العلم الذي أراد صحَّةَ العلمِ، متذوِّقًا.

إذن فرجَعَ السَّبيلُ إلى أن يكون مؤصِّلًا نفسَه، متدرِّجًا في العلم، والتَّأصيلُ –تأصيلُ العلمِ وتأصيلُ طلبِ العلْمِ– أمرُه عزيزٌ جِدًّا، وعليه أنْ يحفَظَ كما حفِظَ الأوَّلون.

انظر –إنْ كنْتَ معتبِرًا– كُتُبَ التَّراجِمِ حيْثُ ترجَمَ أولئك المصنِّفُون لأهلِ العلم؛ تجِدُ في ترجَمَةِ إمامٍ مِنَ الأئمَّةِ وحافِظٍ مِنَ الحفَّاظِ أنَّهم يذكُرُونَ في أوائل ترجمتِه أنَّه قرَأَ الكتابَ الفلانيَّ مِنَ الكُتبِ القصِيرةِ مِنَ المتون المختصرَةِ، وقرَأَ الكتابَ الفُلانيَّ، وحفِظَ كذا، وحفِظَ كذا.. لماذا يذكرون هٰذا ويجعلونه منقبةً لأولئك؟ لأنَّ حفْظَ تلك المتونِ، وقراءةَ تلك المختصراتِ هي طريقةُ العلم في الواقع، وهٰذه سنَّةُ العلماءِ، ومَن تركَها فقد تركَ سنَّةَ العلماءِ في العلم والتَّعليمِ، منْذُ تشعَّبَ العلمُ بعْدَ القرْنِ الرَّابعِ الهجْرِيِّ.

لهٰذا ينبَغِي لَكَ أنْ تكُونَ حريصًا على التَّأنِّي في طلَبِ العلْمِ، وأنْ تُحكِمَ مَا تسمَعُ وما تقرَأُ شيئًا فشيئًا.

ومِنَ المهمَّاتِ أيضًا أن لا تُدخِل عقلَك إلَّا صورةً صحيحةً مِنَ العلْمِ، لا تهتمّ بكثْرَةِ المعلوماتِ، بقدْرِ ما تهتمّ بأنْ لا يدخُلَ العقْلَ إلَّا صورةٌ صحيحةٌ للعلْمِ، إذا أردْتَ أنْ

تتناوَلَها تناولتَها تناوُلًا صحيحًا؛ تناولتَها بالاحتجاجِ أو بالذِّكرِ أو بالاستفادَةِ.

أمَّا إذا كُنتَ تُدخِلُ في عقلِكَ مسائِلَ كثيرَةً، وإذا أتى النِّقاشُ لحظْتَ مِنْ نفسِك أنَّ هٰذه المسألةَ فهِمتَها على غيرِ وجهِها، والثَّانيةَ فهمتَها على غيرِ وجهِها، لها قيدٌ لم تهتمَّ به، لها ضوابطُ ما اعتنيْتَ بها، فتكونُ الصُّورُ في الذِّهنِ كثيرَةً، وتكونُ المسائِلُ كثيرَةٌ؛ لكن غيْرُ منضبِطَةٍ، وليْسَ ذلك بالعلْم.

إنَّما العلمُ أنْ تكونَ الصُّورةُ في الذِّهنِ للمسألَةِ العلميَّةِ منضبِطَةً؛ مِن جهَةِ الصُّورةِ –صورَةِ المسألةِ–، ومِنْ جهةِ الحُكْمِ، ومِنْ جهةِ الدَّليلِ، ومِن جهةِ وجْهِ الاستدلالِ، فهٰذه الأرْبعُ اهتمَّ بها جدًّا:

الأولى: صُورةُ المسألَةِ.

الثَّانيةُ: حُكْمُ المسألةِ، في أيِّ علْم: في الفِقْهِ أوِ الحديث أو المصطلَحِ أو الأصولِ أو النَّحوِ أو التَّفسيرِ...إلخ.

الثَّالثةُ: دليلُها، ما دليلُ هٰذا الذي قالَ كذا وكذا؟

الرَّابعَةُ: ما وجهُ الاستدلالِ؟ استدلَّ بدليلٍ، كيْفَ أعْمَلَ عقلَهُ في هٰذا الدَّليلِ فاستنبَطَ منْهُ الحُكْمَ؟

فإذَا عوَّدت ذِهنَك في هٰذه الأربع سِرْت مسيرًا جيِّدًا في فهْمِ العلم، والذي يُحيطُ بذلِكَ: الاهتمامُ باللُّغةِ العربيَّةِ، الاهتمامُ بألفاظِ أهْلِ العلْمِ؛ لأنَّ مَن لم يهتمَّ بألفاظِ أهْلِ العلْمِ وبلغةِ العلْمِ لم يُدْرِك مراداتِهم من كلامِهم.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد

طلب العلم

كلمة

لفضيلة الشَّيخ

صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونية الأولىٰ

الشيخ لم يراجع التفريغ

همة السلف في طلب العلم

لفصيلة الشّيخ

صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل العلماء مرفوعين منزلة، وسهّل لطالب العلم طريقا إلىٰ الجنة كلما سلك طريقا إلىٰ العلم، فله الحمد كثيرا كما أنعم كثيرا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد..

فأسأل الله جل وعلا أن يجعلني وإياكم ممن صلحت له الأقوال والأعمال، صلُح له قول اللسان وقول القلب، واستقام له عمل القلب وعمل الجوارح، كما أسأله سبحانه أن يقينا العثار في القول والعمل، وأن يجعلنا مباركين معلّمين للخير مفتّحين أسبابه أينما كنّا، إنه سبحانه جواد كريم.

وهذه المحاضرة تأتي افتتاحا لهذه الدروس العلمية الصيفية التاسعة في جامع شيخ الإسلام ابن تيمية في حي سلطانة بمدينة الرياض، وهذه الدورات ولا شك انتفع بها عدد كبير من طلاب العلم ومن محصليه ومن المقبلين عليه، فإنها سبيل نجاة وسبيل هداية، كما أنها سبيل لرفع الأمّة من الواقع الذي تعيش فيه؛ لأن رفع الأمة مما تعيش فيه تحتاج إلىٰ أسباب كثيرة تبذل وتيسّر السبل لها، ومن ذلك أن يكثر طلبة العلم لشدة الحاجة اليوم إلىٰ ورثة الأنبياء، فإن هذه الأمة لم يكن فيها نبيٌّ بعد رسول الله ﷺ؛ بل خُتمت الرسالات والنبوات بمحمد بن عبد الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، ولكن بقي ورثة محمد بن عبد الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ وهُم أهل العلم وحملة العلم وطلبة العلم، فإنهم أهل الوِراثة الحقيقة.

وصحّ عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ أنه قال: «**العلماء ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**» لهذا كانت الحاجة ماسة إلىٰ التربية العلمية لكي تقوىٰ الأمة ويبقىٰ فيها العلم النافع المستقىٰ من الكتاب والسنة علىٰ نهج سلف الأمة، هذا العلم النافع قوّة وفيه إرغام للأعداء كما قال ابن الوردي في «لاميته»:

في ازديـاد العلـم إرغـام العِـدَا وجمـال العلـم إصـلاح العمـل

في ازدياد العلم وبث العلم ونشر أسبابه من الدورات العملية والمحاضرات والدروس وما شابه ذلك فيه دعوة إلىٰ الخير علىٰ بصيرة؛ لأن الدعوة إنما تكون بالعلم، فإذا صح العلم صحت الدعوة وكانت علىٰ بصيرة، قال جل وعلا: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[يوسف]، والبصيرة هي العلم النافع؛ لأنّ البصيرة للقلب هي ما يبصر به القلب الصواب في المعلومات والمدركات.

والصواب في المعلومات والمُدركات يكون بالبصيرة بالعلم النافع، بالعلم المتلقىٰ من مصدر التلقي المأمون الصحيح، وهو كتاب الله جل وعلا القرآن العظيم وسنة محمد بن عبد الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ وما تفرّع عنهما من علوم مختلفة.

لهذا تجد يا طالب العلم أنّ الله جل وعلا رفع شأن العلم والعلماء في القرآن الكريم، ورفع شأنهم

النبيُّ ﷺ، يقول الله جل وعلا لنبيه عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾[طه]، ويقول الله جل وعلا: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ﴾[المجادلة:١١]، فأهل العلم والذين أوتوا العلم مرفوعون درجات بوعد الله جل وعلا الصَّادق لهم.

وكذلك بين جل وعلا في القرآن العظيم أن الأنبياء حملوا العلم فبلّغوه كما أمرهم الله جل وعلا بذلك، وكل رسول أُمر الناس أن يطاع وإنما أتىٰ الرسل بالعلم من الله جل وعلا فيما أوحي إليه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ﴾[النساء:٦٤].

والعلم النافع أثنىٰ عليه النبي ﷺ في الحديث الصحيح «**مثل ما بعثني الله به من العلم والهدىٰ كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا**» وهذا العلم النافع مُثِّل بالماء في هذا الحديث، ومُثِّل الوحي في القرآن بأكثر من آية بالماء، والوحي علم، والعلم وحي من جهة أنه يؤخذ من الوحي.

فعظم شأن العلم ينظر إليه بالنظر إلىٰ عظم شأن النبوة وعظم شأن الرسالة، فازدياد العلم هو بقاءٌ لأنوار الرسالة.

ومن فوائد قصة موسىٰ عليه السلام مع السّحرة ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية حين قال: **إن السحر والسحرة يكثرون إذا قلّت أنوار العلم والنبوة، ويضمحلون إذا ازدادت أنوار العلم والنبوة**. وهذا صحيح، ظاهر من قصة موسىٰ ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾[الشعراء] فكل ما أفكوه فالعلم والسنة يلقفه ويبتلعه ويأخذه ويصيح به من كل جانب.

العلم لابد فيه لتحصيله من أمور:

[النية الصَّالحة في طلب العلم]

أولها النية الصالحة؛ لأن طلب العلم عبادة، ومدارسة العلم غشية كما قال السلف، فطلب العلم عبادة وكما جاء في «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ قال: «**ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلىٰ الجنة، وإن الملائكة لتضح لطالب العلم رضًىٰ بما يصنع**» العلم هو طلب عبادة فيحتاج إلىٰ عزيمة وصبر -كما سيأتي- ويحتاج أولا إلىٰ تصحيح النية.

وطالب العلم قد يأتي للعلم ويأتي لمدارسته ويحضر بدون نية؛ لكن إذا طلب العلم جاءت النية؛ لأنه حينئذ يحاسب نفسه.

قال ابن المبارك وغيره من أئمة السلف: طلبنا العلم وليس لنا فيه نية، فجاءت النية بعد. لأن النية الصالحة في العلم ربما غفل عنها طالب العلم إما لصغره أو لأنه لم يستحضر هذا الأمر؛ لكن أول ما يتعلم بالعلم حديث «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوىٰ**» والأعمال جمع عمل، وهو العمل الذي يراد به وجه الله جل وعلا، ومن ذلك العلم وطلب العلم، فكل طلب للعلم هو بالنية، فمن أراد به ووجه الله جل وعلا فهو بحسب نيته، ومن أراد به الدنيا وأن يزداد منها، أو أن يلتفت الناس إليه، أو أن يشيروا إليه أو أن يكون مِطوَلًا يتحدث ويحسن الكلم فإنه حينئذ فاسد النية.

قال السلف الصالح من أئمة أهل الحديث: النية في العلم أن تنوي به وجه الله جل وعلا.

قال الإمام أحمد: النية في العلم أن تنوي به رفع الجهل عن نفسك.

وبه تلحظ أن رفع الجهل متوجه إليك، فإذا طلبت العلم فاعلم أنك تتعلم لترفع الجهل عن نفسك، الجهل بأي شيء؟ الجهل بأعظم ثلاثة أمور يسأل عنها العبد في قبره ألا وهي الجهل بالله والجهل بالدين والجهل بالرسول ﷺ، فإن المرء يسأل في قبره؛ بل إن المسلم والمسلمة يسأل الجميع في قبره عن ثلاث من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ ولما كان العلم النافع متوجها إلىٰ رفع الجهل –جهل المرء أو المرأة – بهذه الثلاث، فيتعلم ما يستحقه الله جل وعلا من الربوبية والعبادة وحده دونما سواه ومن الأسماء وصفاته ونعوت الجمال والجلال والكمال، ويتعلم دين الإسلام بالأدلة، ويتعلم حق النبي ﷺ واسمه وسيرته وما دلت عليه ودلائل نبوته عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ، يتعلم ذلك ليكون مسلما رافعا الجهل عن نفسه في هذه المسائل العظام.

وإذا كان آنس من نفسه رشدا وقوة في العلم وحفظا، فإنه يضيف إلىٰ هذه النية أن ينفع المسلمين، ينوي وهو يتعلم أن ينفع المسلمين، وأحب عباد الله إلىٰ الله أنفعهم لعباده، فإذا نوىٰ بعلمه أن ينفع العباد، أن ينفع عباد الله في المسجد وفي بيته وأن ينفعهم في الإجابة في أسئلتهم أو في إرشادهم أو في تعليم الجاهل، تعليم الصلاة، تعليم التوحيد، تعليم الصلاة، تعليم شروط الصلاة، هكذا، أينما كانت الحاجة ويوطن علىٰ ذلك فهو علىٰ نية صالحة.

[الصبر علىٰ طلب العلم]

يحتاج طالب العلم إلىٰ أمر ثاني بعد النية ألا وهو أن يعلم أن طريق العلم ليس بالقصير، طريق العلم طويل جدا بل هو مع الإنسان منذ أن يبدأ في العلم إلىٰ أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا بوفاته.

وإذا كان كذلك فإنّ توطين النفس علىٰ الصبر مطلوب.

والصبر هنا من جهتين:

الجهة الأولىٰ: أن العلم عبادة، وكل عبادة تحتاج إلىٰ صبر.

والأمر الثاني: الصبر علىٰ الثبات علىٰ سلوك طلب العلم، فإن طالب العلم يحتاج إلىٰ صبر كثير، هل هو صبر في حضور الدروس فقط؟ لا، صبر في ملازمة المشايخ؟ لا، هل هو صبر في استماع العلم؟ لا، ليس هذا فقط؛ بل صبر علىٰ أن لا يشغله عن العلم ما هو دونه، وهذا أعظم ما وُجد أنه يعيق العلم، وهو أنه خاصة في الشباب –وأكثركم من الشباب– خاصة في هذا السن فإنه قد يشغلك عن العلم الأصحاب أو النُّزه، أو يشغلك عن العلم أمور كثيرة مما تلذ لها النفس، تأخذ من هذه حظا لكن بحيث لا تشغلك عن العلم.

ولقد قال بعض العلماء وهو ابن عطاء الله قال: **من كانت بداياته مُحرقة كانت نهاياته مشرقة**. من كانت بداياته محرقة قوية كانت نهاياته مشرقة.

ونحوه قول ابن المبارك أيضا قال: إذا مررت بجدار فرأيت مكتوبا عليه موعظة، فقف عندها لتتعظ؛ ولكن الفقه في الدين إنما يكون بالمشافهة والسماع.

وهذا يبين لك أن الإنسان في المواعظ خاصة الشباب قد يجدها مع صحبه في أي مكان يكون فيه، مما يرقق قلبه أو مما يقوي همته في الاستقامة ونحو ذلك.

لكن العلم يحتاج إلىٰ المشافهة والسماع، فقد يكون في ذلك انقطاع عما تلذ له النفس، لذلك ينبغي الصبر. وكما قال ذاك من كان بداياته محرقة في العلم، إذا كانت في شبابك كانت البدايات قوية محرقة أحرقت شبابك وأحرقت قوتك، وصخَّرت ما أعطاك الله من الشباب والقوة وقوة الذهن والنشاط، صخرته للعلم، كانت النهايات مشرقة؛ أشرقت عليك فقها وعلما واستقامة بإذن الله، وأشرقت علىٰ غيرك أيضا.

وأما من كانت في البدايات ضعيفا فإنه سيظل ضعيفا دون استفادة.

لهذا ينبغي أن توطّن نفسك علىٰ أن طريق العلم يحتاج إلىٰ صبر.

وخذ مثلا لذلك قصة موسىٰ عليه السلام مع الخضر كيف أنه لم يصبر فلم يستفد من الخضر إلا ثلاث مسائل فقط؛ لأنه لم يصبر وقد قال النبي ﷺ كما في الصحيح «**وددنا لو أن موسىٰ صبر**» يعني فتعلمنا وأخذنا وعلمنا ما عند عبد الله الخضر.

الصبر في العلم يحتاج منك إلىٰ قوة؛ قوة نفسية صارمة في أن تحفظ وأن تفهم وأن تستمع، وأن يكون العلم هو الشغل الشاغل.

قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: ربما أتتني المسألة في العلم وأنا مع أهلي -يعني في حالة أن يكون مع أهله-، وربما انقدح لي في العلم تحريرا أو كما قال وأنا مع أهلي، وهذا من باب أولىٰ أنه إذا كان مع غيرهم في حالٍ يكون فيه الأنس أقل أن يكون تعلقه بالعلم أكبر وأعظم.

ابن رجب رحمه الله تعالىٰ الحافظ العلامة زين الدين عبد الرَّحمٰن بن أحمد بن رجب الحنبلي المتوفىٰ سنة ٧٩٥هـ رحمه الله تعالىٰ كان في العلم ليلَه ونهاره، ولذلك صنَّف هذه التصانيف الشائقة البديعة التي يحتاج إليها، أكثرها ليس فيه تكرير، ليس تكرار لمؤلفات من قبله.

ابن رجب كانت همته في العلم عالية جدًّا، حتىٰ إنه قرأ ما قرأ من العلم في شبابه علىٰ مشايخه وتأخّر زواجه، فلما تزوّج أتته امرأته متعطّرة ومتطيبة، ووقفت علىٰ رأسه وهو منكب علىٰ أوراقه وكتبه، فرفع رأسه إليها وقال: نظرت إليه وفإذا هي كذا وكذا وصفها من جهة استعدادها له وتزينها وتطيبها وتجملها، قال: ثم أطرقت برأسي علىٰ أوراقي وأكملت فغضبت امرأتي وذهبت؛ لأنه لم يلتفت إليها كثيرا الواجب أن يعطىٰ كل ذي حق حقه وإن لأهلك عليك حقا؛ ولكن أحيانا تزيد الهمة ويزيد الرغب فيصبر المرء في علمه عما هو بحاجة إليه، فيختار ما يقوىٰ به تعلق النفس وهو العلم والكتابة والبحث والتحرير.

بعض أهل العلم كان إذا نام لا ينام إلا بجانبه بعض الكتب والمراجع الأساسية لماذا؟ لأنه قد يحتاج، يفكر في مسألة تكون بجانبه.

[التدرّج في طلب العلم]

المسألة الثالثة أو الصفة الثالثة من صفات طالب العلم أو مما يحتاجه طالب العلم: أن يتعلم في

علمه أن الأمور لا تأتي شيئا واحدا، لا تأتي مرة واحدة، وإنما تأتي شيئا فشيئا فالعلم، لا يأتي جميعا، ومن أراد العلم جملة -كما قال ابن شهاب الزهري ذهب عنه جملة-، وإنما يطلب العلم علىٰ مر الأيام والليالي.

[الهمَّة العالية في طلب العلم]

السمة الرابعة وهي المقصودة بهذه المحاضرة أن تكون الهمة عالية.

والهمة وصف نفسي، وصف للنفس تُشغل صاحبها إلىٰ المعالي، من الناس من تضعف همته فيرىٰ العلم لا قيمة له، وكثير من الناس والشباب يعني أيش فائدة العلم؟

وكان بعض العلماء يحفظ «القاموس المحيط» الفيروز آبادي، القاموس ما معناه البحر، ولا يصلح أن يسمىٰ المعجم قاموسا؛ لأن المعجم الكتاب الذي يُفك فيه الإعجام؛ يعني ما جهلته وما استعجم عليك، أما القاموس فمعناه البحر إذا كان معجم يسمىٰ قاموسا فهو غلط، فهو ظن أن القاموس بمعنىٰ المعجم لكن القاموس بمعنىٰ البحر، فيروز آبادي سمّىٰ كتابه «القاموس المحيط والقابوس الوسيط لما تفرق من كلام العرب كما قيل» يعني منتشرا جمع فيه لغة العرب، كان بعض العلماء يحفظ القاموس، فسئل عنه بعض العلماء الآخرين لكنه كان عصرانيا يعني يحب العلوم العصرية، وإن كان من العلماء ويميل إليها، فقيل إن فلانا يحفظ القاموس فقال: ما شاء الله زادت في مصر نسخة من القاموس.

وهذا فيه توهين بشأن الحفظ، والحفظ هو أساس العلم، الحفظ هو أساس العلم الموروث عن النبي ﷺ، الله جل وعلا قال لنبيه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة].

الأول: الحفظ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، وقال في الآية الأخرىٰ ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[الفرقان]، ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾[الإسراء:١٠٦].

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ يعني يأتي البيان والفهم والإيضاح بعد الحفظ.

كذلك السنة، السنة النبي ﷺ أوصىٰ بحفظها فقال: «**نضر الله امرءًا**» وفي رواية «**نضر الله وجه امرئ**» نضر يعني جعل الله وجهه ناظرا نضرا في الدنيا والآخرة «**نضر الله امرئ سمع مقالتي فحفظها** -وفي رواية: **فوعاها**- **فأداها كما سمعها فرُب مبلغ أوعىٰ من سامع**» الصحابة ألم يحفظوا السنة؟ حفظوها، كانوا فقهاء؟ ليس كل الصحابة فقهاء؛ لكن حفظوا السنة فبلغوها، فأتىٰ من فهم السنة ووعاها وشرحها حفظا للدين في هذه الأمة.

أبو هريرة رضي الله عنه كان يراجع الحديث ليحفظه، فعلم النبي ﷺ مشقته في ذلك فقاله له «**يا أبا هر ابسط رداءك**» فبسطه، قال: «**ضم رداءك**» فضمه، قال: فما نسيت بعدها من العلم إذا سمعته شيئا.

أكثر من حفظ السنة من الصحابة أبو هريرة رضي الله عنه، وكان يصحب النبي ﷺ علىٰ ملء بطنه.

هذه الهمة، الشغف الذي في داخل الإنسان أساسه الحفظ؛ يعني يحرص علىٰ أن يحفظ؛ لأن الفهم عرض يطرأ ويزول، اِلْحَظ من تخرج منكم مثلا من الثانوي، من تخرج من السنة الأولىٰ من الجامعة، من تخرج من الجامعة كم بقي معه من المعلومات التي فهمها؟ القليل؛ لكن إذا حفظ تبقىٰ

المحفوظات، وإذا ذهبت إذا راجعها رجعت، ثم إذا راجع شرحها أتىٰ متىٰ أراد ذلك بتوفيق الله.

لهذا يحرص طالب العلم علىٰ أن تكون همته قوية كما كانت همة السلف في الحفظ.

الهمة الثانية المحتاج إليها: الهمة في ملازمة المشايخ والرحلة وطلب العلم، نرىٰ الآن في هذه الدورة ولله الحمد ممن رحلوا لطلب العلم، منهم من أتىٰ من الكويت ومن الإمارات ومن عمان ومن البحرين ومن غيرها، ومن بلاد المملكة أيضا جاءوا من عدد من البلاد، هذه الرحلة في طلب العلم هي نوع من الهمة التي كان السلف يحرصون عليها.

خذ مثلا ما علقه البخاري في «صحيحه» ووصله في كتابه في كتابه «الأدب المفرد»، وهو قوله: ورحل جابر بن عبد الله -وكان في المدينة- إلىٰ عبد الله بن أنيس -الصحابي وكان في الشام- من أجل حديث واحد.

وصله في «الأدب المفرد» في أن جابر بن عبد الله -الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يعني عنه وعن أبيه- رحل إلىٰ عبد الله بن أنيس قال: سمعت أن عبد الله بن أنيس لديه حديث لم أسمعه. فرحل من المدينة إلىٰ الشام شهرا، فلما دخل إلىٰ الشام سأل عن بيت عبد الله بن أنيس فدُل عليه، فلما طرق الباب خرج له الخادم فقال له: أين عبد الله بن أنيس. فقال من أنت؟ لا يعرفه ليس من أهل دمشق. فقال: أنا جابر بن عبد الله. الخادم قال: صاحب رسول الله ﷺ؟! قال: نعم. فذهب فأتاه عبد الله أنيس، فعانقه، ثم قال: أتيت إليك من المدينة سمعت أن عندك حديثا عن النبي ﷺ أردت أن أسمعه منك. قال وأي حديث ذاك. فقال: قوله -يعني النبي ﷺ-: «**يحشر الناس يوم القيامة عراة غرلا بهما**» فقال: نعم فقص عليه الحديث.

هذه الهمّة تأثر بها صغار الصحابة، عبد الله بن عباس كان هو وله صديق من الأنصار، عبد الله بن عباس شباب في وقت عمر بن الخطاب كان في أوائل العشرينات من العمر، كان له صاحب من الأنصار فكان عبد الله بن العباس يغشىٰ مجالس من الصحابة ويحرص علىٰ أن يستفيد منهم، فعاتبه صاحبه من الأنصار وقال: يا عبد الله أتظن أن الناس يحتاجون إلىٰ علمك أو يحتاجون إليك، وهؤلاء صحابة رسول الله ﷺ موجودون؟ فابن العباس لم تثنه هذه الكلمة عن الهمة وملازمة الكبار لأن الناس فعلا احتاجوا إليه بعد أن قل الصحابة، فكان يلازم باب أحد الصحابة -باب أحد الأنصار- حتىٰ تسفي عليه الريح التراب وهو عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ ويصبر حتىٰ يخرج إليه أو يخرج الصحابي ويصحبه إلىٰ المسجد، يصحبه إلىٰ مكان فيسأله عن العلم.

وهمة السلف في ذلك فيها أخبار كبيرة، ومن طالع كتب السير والتراجم وجد من ذلك شيئا كثيرا.

ونذكر بعض الأخبار في هذا لتُبين شدة همة السلف في هذا الأمر.

قال الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ عامر بن شراحيل الشعبي أحد أئمة التابعين، وهو يذكر بعض علومه يقول: لو شئتم أنشدتكم شهرا شعرا -يعني شهر كامل، لو شئتم أنشدكم شهرا شعرا- لا أعيد. يعني ما أكرر عليكم؛ لكن ما يناسب العالم تكون همته دائما الشعر، وإنما الشعر يستفاد منه بحسب الحاجة إليه.

أبو حاتم الرازي والد عبد الرَّحمٰن كتاب الجرح والتعديل -أبو حاتم الرازي محمد بن إدريس

الرازي- كان أحد أئمة الإسلام الجهابذة المعروفين وصاحب سنة وحجة، قص عن نفسه خبر طلبه للعلم وهو صغير قال: تركت الرّي لطلب العلم سنة ٢١٣هـ ورجعت إلىٰ الري ٢٢١هـ يعني كم مكث؟ مكث سبع سنين وأشهر، ذهبت أو خرجت من الري في طلب الحديث وذكر قصته، كيف أنه يخرج من بلد إلىٰ بلد ماشيا علىٰ الأقدام.

قال وهذا هو المهم لكم الآن: وقد أحصيت ما مشيت علىٰ قدمي في طلب العلم حتىٰ بلغت ألف فرسخ، فلما بغت ألف فرسخ تركت الإحصاء، ألف فرسخ أحصاها هو، ويخبر عن نفس في كتابه ألف فرسخ يعني يرويها عنه ابنه، ألف فرسخ كم؟ الفرسخ خمس كيلوات، ألف فرسخ في خمسة: خمسة آلاف كليمومتر مشاها علىٰ قدميه في طلب العلم، الآن سيارات ولا طلب علم، فيه طيارات والعلم ضعيف ما يُحرص، يأتي العالم ويجتهد، وربما يزور البلد قليل من يحرص علىٰ الأخذ عنه والسماع منه وحضور درسه.

والسلف وأئمة الإسلام كيف كانوا أئمة؟ بتوفيق الله جل وعلا لهم أولا وآخرا، ثم أعطاهم الله جل وعلا أسبابا فيها القوة وفيها الهمة.

وذكر عن نفسه أشياء من رحلته من بلد إلىٰ بلد لتحصيل ربما حديث واحد حتىٰ جمع العلم.

الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ رحل رحلات كثيرة، وكان منها للحج خمس مرات، وكان ثلاث منها من الخمس لقصد لقاء أهل العلم في الحج، قال: أنفقت في رحلة -ما عنده مال المال قليل- أنفقت في رحلة ثلاثين درهما، الدرهم محدود ثلاثين درهم يعني ثلاثة دنانير؛ لأن الدينار من عشر إلىٰ اثنا عشر درهم؛ يعني الدرهم فضة والدينا ذهب، قال: أنفقت مرة ثلاثين درهما يعني من كثرتها وهذا يدلك علىٰ شدة الصبر في المأكل وفيما يركب وربما ماشيا إلىٰ آخره.

الإمام أحمد لما انتهىٰ أمره إلىٰ القوة والوقوف بالسنة ونصرة السنة، لما جاءت فتنة خلق القرآن مُنع من التحديث قال له ولي الأمر: لا تحدث فالتزم، وصار يذهب إلىٰ المسجد ويرجع، ولا يلقي العلم.

قال بقيّ بن مخلد صاحب أكبر مسند من مسانيد الحديث لا يوجد، أكبر مسند من مسانيد الحديث مسند، مسند بقي بن مخلد، بقي بن مخلد أحد علماء الأندلس، رحل من الأندلس إلىٰ بغداد وذهب يسأل ما يدري عن فتنة خلق القرآن، ولا منع الإمام أحمد ابن حنبل، أين أحمد ابن حنبل؟ أين أبو عبد الله؟ أخبروه بأنه لا يحدّث.

قال فطرقت عليه الباب في بيته وطلبته فأتاني وقلت له: أنا طالب علم أتيت من المغرب. قال له الإمام أحمد: من أفريقية؟ قال: لا أبعد إذا أردنا أفريقية قطعنا لها البحر، أنا من الأندلس. قال: مرحبا بك. قال: ما تريد؟ قال: والله ما أتيت إلا لآخذ العلم عنك. فقال له الإمام أحمد: لعلك سمعت ما عليّ من أني لا أحدّث. قال: ولكني أريد الحديث وحدي أو أعطني من العلم. فقال له الإمام أحمد: بشرط. قال: اشترط ما بدا لك. قال: أن لا تجلس في حلقة من حلقات العلم والحديث.

حتىٰ لا يُعرف أنه يجلس في حلق العلم، ويأتي الإمام أحمد معناه الإمام أحمد أصبح يعلم في بيته.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

فقال: لك ما اشترطت. قال: إذن ايتني كل يوم علىٰ هيئة سائل. -وطالب العلم سائل يسأل العلم-، ثم اطرق الباب، فإذا خرجت أعطيتك خبزا ومع الخبز حديثا أو أحاديث، فأخذ سنين يأتيه.

قال: فتلفعت بعمامة وصفها ولبست لباس السؤّال الفقراء، قال: كل يوم آتي وأطرق الباب علىٰ هيئة سائل وأقول لهم: الأجر رعاكم الله. قال بقي: وكانت صفة السؤّال في بغداد: الأجر رعاكم الله؛ يعني ابتغوا الأجر أو أطلبوا الأجر أو نحو ذلك.

يقول: فيأتي الإمام أحمد ويعطيني بعض الخبز ومعه حديث أو أحاديث.

قال: فأخذت كثيرا. قال: فلما مات الخليفة وجاء الذي بعده وكان صاحب سنة -يعني به المتوكل- صار الإمام أحمد يدرس في المسجد، قال: فكان يدنني ويخصني من بين الطلاب ويقول: هذا يصدق عليه أنه طالب علم، كيف يصبر هذه السنين الطويلة في هيئة سائل، وكل يوم يأتي، فيها هضم للنفس، يأتي بهذه الصفة لأجل أن يأخذ من الإمام أحمد علم حديث أو حديثين كل يوم، قال: هذا يصدق عليه أنه طالب علم.

هذه همة ليست بالسهلة وازدراء للنفس ليس بالسهل، ورحلة من الأندلس إلىٰ بغداد لأجل هذا الأمر، ليس بالسهل، وكلها تعطيك عظم هذه الهمة.

يقول: حتىٰ مرضت ففقدني أبو عبد الله، فسأل عني، فقالوا: إنه مريض فزارني في الخان، كان يسكن في الخان؛ يعني فندق، وأنا كنت مستقليا سمعت جلبة ثم دخل عليّ الداخل من أهل الخان أنت تعرف أبا عبد الله؟ أنت من أصحاب عبد الله؟ فقلت: نعم. فقال: لِم لَم تخبرنا من أول ما نزلت؟ أتىٰ أبو عبد الله أحمد أتىٰ لزيارتك، ففتح الباب، فدخل أحمد فقال له: فقدناك فزرناك، زادك الله ثوابا، أو قال: أرج الثواب من الله، يا بقيّ إن أيام الصحة لا سقم فيها، وإن أيام السقم لا صحة فيها، أعلاك الله إلىٰ العافية، ومسح عنك بيمينه الشافية. قال: والطلاب حوله يكتبون ما يقول. أعلاك الله إلىٰ العافية ومسح عنك بيمينه الشافية.

الوقفة هنا في القصة أخذتم عبرتها؛ لكن خذ كلمة الإمام أحمد: إن أيام الصحة لا سقم فيها، وإن أيام السقم لا صحة فيها.

يريد بذلك أنّ طالب العلم همّته تكون في أيام الصحة، فلما كانت أيام الصحة التي لا سقم فيها فعندك المجال والهمة قوية لطلب العلم؛ لأنه ربما أن يعرض لك عارض، وهذا مأخوذ من قول النبي ﷺ: **«وخذ من صحتك لمرضك»**.

ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أحد العلماء الإسلام المعروفين وصفه الذهبي في كتابه «سير أعلام النبلاء» بقوله: عبد الرَّحمٰن بن علي البكري -لأنه من ذرية أبي بكر الصديق- المعروف بابن الجوزي عالم العراق وواعظ الآفاق. وأخذ في سرد جملة من أخباره.

ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان في صغره وفي كبره عنده الهمة والإلحاح في طلب العلم آخذا قول الإمام أحمد: أطلبوا العلم من المهد إلىٰ اللحد. ماذا يقول؟ يقول: كنت إذا أراد أن يزورني أحد اشتغلت أثناء

زيارته بتجهيز الأوراق للكتابة وبري الأقلام؛ يعني ما يضيع وقته معهم، يستأنس معهم بالكلام؛ لكن من جهة اليد والعمل يشتغل بما ينفعه لأن الوقت هذا ماشي والذهن معهم بالكلام؛ لكن العمل اليد يبري الأقلام ويجهز الأوراق.

وكان يقول عنه أحد تلامذته: إذا دخل الخلاء أوصىٰ ابنته أو نحو من ذلك: أن تقرأ عليه من الخارج؛ يعني تقرأ عليه إما كتاب كذا مما يناسب أن يسمعه.

من همته وصفاء نيته أنه ألف أكثر من خمسمائة كتاب بعضها في رسالة وبعضها كبير في مجلدات كبيرة.

الحافظ ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ صاحب «فتح الباري» شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المصري صاحب التصانيف البديعة المعروفة، ماذا يقول عن نفسه؟ ذكر الكتب التي قرأها علىٰ مشايخه، فذكر أنه قرأ الموطأ علىٰ أحد مشايخه في جلسة واحدة، جلسة واحدة كم؟ خمس ست ساعات، وقرأ «صحيح مسلم» في ثلاثة أيام علىٰ مشايخه وأجيز بذلك، وقرأ... وأخذ يذكر ما قرأه في أيام من الكتب علىٰ مشايخه وهو مدون في ترجمته في كتاب السخاوي «الجواهر والدرر في ترجمة الحافظ ابن حجر».

هذه الهمة تحتاج منك إلىٰ تأمل، تحتاج إلىٰ سعة وقوة في أن تتعرف لماذا نبغ السلف؟ لماذا كثر فيهم العلماء؟ كان يحضر في المجلس الواحد ليستمع للحديث أكثر من عشرة آلاف، حتىٰ إنه ذُكر في بغداد مرة، أنه لما عطس الشيخ الذي يعلِّم أو الشيخ الذي يُقرئ، صار الناس يقولون: رحمك الله رحمك الله حتىٰ وصلت كلمة رحمك الله وهو في حديقة قصره قال: ما هذا؟ قال: يشمتون المحدث فلان؛ لأن الناس متواصلين ويستمعون الحديث وينقل بعضهم إلىٰ بعض.

عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال -كما رواه البخاري في «صحيحه»: كان لي جار من الأنصار وكنا نسكن في بني أمية بن زيد حي في العوالي المدينة، كانت الأحياء بأسماء القبائل أو بأسماء الناس، قال: كنا نتناوب علىٰ النزول إلىٰ المدين أنزل يوما وينزل هو اليوم الذي يليه، فأخبره ما نزل من الوحي أو ما جاء من العلم، وإذا لم أنزل جاء فأخبرني.

إذا ما حصلت علىٰ العلم جميعا لا بأس أنك تجتهد مع أصحابك في أن يتناقل بعضكم العلم، كلموه بالتلفون يجلس ساعة أحوالك ورد اجعلها في العلم، اجعلها فيما ينفعك، ماذا سمعت، ماذا استفدت، حضرت اليوم عند من؟ ما هي الفوائد؟ وإذا حضرت عند معلم اكتب الفوائد، ومن زكاة هذه الفوائد أنك جلست مع أصحابك، والله حضرت عند فلان من العلماء أو من طلبة العلم أو المشايخ فاستفدت ذكر كذا وكذا فائدة إما فائدة في العقيدة أو في الفقه أو التفسير إلىٰ آخره أو العلوم المساعدة وهكذا.

إذن نحتاج إلىٰ عزيمة صادقة وأن نطالع كيف طلب السلف العلم، أئمة الحديث وصلوا إلىٰ هذا المستوىٰ بالنوم؟ وصلوا به بالارتخاء؟ وصلوا إليه بالاشتغال يمنة ويسرة؟ لا، لكن تعبوا وأصلحوا النية فآتاهم الله جل وعلا ثواب ما عملوا.

لهذا أوصي الجميع والوقت يضيق عن بسط الأمثلة، أوصي بأن تحرصوا علىٰ مجالسة العلماء الأحياء والأموات، جالسوا العلماء الأحياء والأموات، أما الأحياء فاستفيدوا منهم لفظا وسماعا، وأما الأموات فاقرؤوا كتبهم.

دخل جماعة إلىٰ عبد الله بن المبارك، والذهبي له رسالة في أخبار ابن المبارك اسمها «قضِّ نهارك مع ابن المبارك»، دخل عليه جماعة فخرج عليهم فكأنه لم يستأنس لهم، فقال له بعضهم كأن عندك من يؤنسك، كأنه يشير أنك جالس مع أهلك أو جالس مع عيالك، قال: إي والله عندي من هو أفضل منكم أنا مع سير صحابة رسول الله ﷺ ومع سير تابعيهم. يعني في العلم فإذا أنست بالعلم وأنست بأهله بعثت فيكم الهمة القوية.

ولهذا وصيتي لنفسي أولا ولكم أن تكثروا من مجالسة العلماء الأحياء والأموات، أما الأموات، فإنك ستحيي عند الهمة في أن تكون مثلهم، والسلف نبغوا وصاروا أئمة ونفعوا المسلمين، وبقي نفعهم إلىٰ الآن إلىٰ قيام الساعة، لم؟ صدق اللجأ إلىٰ الله جل وعلا وإصلاح النية وأن العلم طلبوه علىٰ أصوله فنفعوا.

سابقا قبل ٢٠ سنة و٣٠ سنة زملاؤنا وأصحابنا ورفقاؤنا كنا طلاب علم يعني كنا لا نفهم شيئا في وقت من الأوقات، عندي دفاتر أسجل فيها الفوائد قبل مدة أفتش في بعضها التي كتبتها أول ما جلست في حلق العلم أو استمعت إلىٰ العلم أو قرأت، فإذا فيها أشياء لا تساوي اليوم أن تكون فائدة؛ لكنها في أول الأمر كانت فائدة مهمة: إما في العقيدة أو في السنة أو في المصطلح أو في الفقه.

فالعلم يزداد بالهمة، ففي ذاك الزمان فوائد وحريصين، العلماء يتخرمون ويذهبون فيبقىٰ من يبقىٰ للأمة يبقىٰ للمسلمين من يحمل هذه الأمانة من يحمل الكتاب والسنة؟ من يحمل الفقه؟ من يحفظ للنبي ﷺ علمه في أمته؟ أنتم.

إذا ما حفظه أهل العلم وجدوا في ذلك من يحفظه؟ لا شك أنه سيذهب، ولذلك نخشىٰ من وقت يأتي فيه قول النبي ﷺ: «**إن الله لا يقبض هذا العلم انتزاعا من صدور العلماء لكن بقبض العلماء حتىٰ إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوسا جهالا**» كيف قبض العلماء؟ يعني موتهم، ينقطع العلماء؛ إذن ينقطع طلبة العلم، فيتخذ الناس رؤوسا جهالا فيسألون فيفتون بغير العلم فَيَضلون ويُضلون.

فهذه المسألة صعبة، صعبة جدا فكل واحد منكم يأنس من نفسه رشدا وقوة فأفضل شيء في سبيل الله اليوم هو العلم، أعظم أنواع العلم أعظم أنواع الجهاد الذي تحتاجه الأمة الجهاد العلمي، أن تتعلم وتحفظ وتفهم وتقوىٰ في هذا الجانب، إذا كان عندك قوة وملكة في هذا حتىٰ تنفع الأمة، الأمة بحاجة اليوم إلىٰ من؟ إلىٰ العلماء الربانيين الذي يقودون الأمة إلىٰ الخير ويشرحون سنة رسوله ﷺ.

في ختام هذه الكلمة أوصيكم بالاستفادة من هذه الدورة ومن جمع الدورات، وبالاستماع إلىٰ كلام أهل العلم سواء بالمشافهة والمجالسة وبثني الركب أو بالاستماع إلىٰ الأشرطة وما خلفوه من العلم فإنكم لا تدرون متىٰ سيحتاج الناس إليكم، لا تدرون متىٰ سيحتاج إليكم منكم من عمره خمسة عشر

عشرين بعد خمسين سنة الكثير والأكثر من طلبة العلم اليوم والعلماء سيذهلون ويبقىٰ الصغار بعد ثلاثين أربعين سنة سينفعون، لا تدرون، فاحفظوا علم النبي ﷺ في أمته، احفظوا فقه الإسلام في هذه الأمة.

ولا يكون علىٰ أيديكم ذهاب حمل العلم بل احرصوا وجدوا في ذلك نية صالحة وجهاد في سبيل الله.

ولذلك قال: جمع من أهل العلم أفض النوافل علىٰ الإطلاق طلب العلم، قالوا: الجهاد؟ قالوا: لا، طلب العلم أفضل من الجهاد. يعني جهاد النفل، لماذا؟ قال: لأن طالب العلم ينتفع منه الناس، نفْعه متعد، ينفع في حاضره وفي مستقبله، فطلب العلم نفعه متعد، ولذلك فضله كثير من أهل العلم علىٰ الجهاد.

وهذه المسألة تبحث في أول كتاب الجهاد من كتب الفقه ويقولون إن أفضل النوافل الجهاد والأكثر أفضل النوافل طلب العلم لمن كان عنده القدرة علىٰ ذلك.

أسأل الله الكريم أن يوفقكم إلىٰ ما فيه انشراح الصدر في سبيل العلم والتعلم، وأن يوقيّ منكم العقل منكم العقل والقلب والفهم وأن يصحح منكم النية وأن يجعلني وإياكم ممن استقام لسانه واستقام فعله واستقام قلبه علىٰ ما يحب ويرضىٰ.

كما اسأله سبحانه أن يجزي عنا مشايخنا ومن علَّمنا خيرا، وأن يجعلنا ممن حمل الرسالة وأدّىٰ العلم إلىٰ من بعدنا، كما أداه من قبلنا إلينا، إنه سبحانه جواد كريم.

اللّٰهمَّ وفق ولاة أمورنا لما تحب وترضىٰ، واجعلنا جميعا من المتعاونين علىٰ البر والتقوىٰ، نسألك اللّٰهمَّ رضاك، نسألك اللّٰهمَّ رضاك، نسألك اللّٰهمَّ رضاك.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ بينا محمد.

[الأسئلة]

المقدم: أحسن الله إليكم ورفع درجاتكم ونفعنا بعلمكم.

سؤال (١): فضيلة الشيخ: أنا لي رغبة في طلب العلم وإفادة غيري؛ ولكن مشكلتي أني إذا سمعت العلم أنساه ولا يبقىٰ في ذاكرتي منه شيء، وبماذا تنصحونني؟ وجزاكم الله خيرا.

الجواب: الحمد لله وبعد:

الناس يتفاوتون في طلب العلم، ليس كل من طلب العلم صار حافظا لكل ما يسمع؛ لكن سيحفظ شيئا، والعلم يؤخذ شيئا فشيئا، فإذا كرر حفظ، وأنا أوصيه بأن يجتهد في حفظ القرآن؛ لأن الحفظ غريزة، وبالحفظ وتكرار الحفظ تزداد وتقوىٰ، ومن جرب وجد أن حفظ القرآن به يبدأ الطريق في انفتاح الحافظة، السائل إذا كان أنه لم يحفظ القرآن، فليجتهد في حفظ القرآن.

لذلك كان جمع من أهل العلم يعني في الزمن القديم لما كان طالب العلم يأتي للمسجد ويلازم المشايخ في كل اليوم، إذا أتىٰ يريد العلم وهو لم يحفظ القرآن قالوا: لا، احفظ القرآن أولا ثم إيتِ؛ لأن حفظ القرآن يفتق الحافظة.

لهذا من حفظ، جرب حفظ القرآن يجد مثلا أن أول عشرة أجزاء تجد يجلس في الثمن ساعة يحفظ فيه يحفظه، ثم يحتاج إلىٰ تكرار؛ لكن بعد ذلك في العشرين جزء الثانية يسهل يسهل حتىٰ ربما حفظ ثلاثة أثمان أربع نصف جزء في جلسة بين المغرب والعشاء أو بعد الفجر، وهذا واقع.

فإن الحافظة مع ممارستها واستعمالها تزيد، لذلك أوصيه بحفظ القرآن والاجتهاد في العلم فإن العلم يزداد بإذن اله تعالىٰ، والحفظ يأتي إن شاء الله تعالىٰ.

سؤال (٢): كيف يكون الحال من به شوق في مجالسة العلماء؛ ولكن هو بعيد عن العلماء كما هو حالنا في أوربا؟

الجواب: الحمد لله اليوم وسائل سماع أهل العلم أصبحت ميسورة، الأشرطة موجودة، واليوم نقل علىٰ الانترنت، ووسائل السمعية والبصرية موجودة، فتحصيل العلم بسماع العلماء الحاضر منهم ومن توفاهم الله جل وعلا -رحمهم الله تعالىٰ جميعا ورفع درجاتهم في جناته- سهلة ميسورة، فإذا لم تكن بالقرب من أهل العلم لتشافههم فاحرص علىٰ أشرطتهم وعلىٰ سماع دروسهم وشروحهم.

سؤال (٣): بعض الشباب يعتمد علىٰ الأشرطة في تحصيلهم للعلم، حيث إن البعض منهم يتساهل في ملازمة الحلقات، بحجة أنه يوجد هذا الدرس مسجلا لشيخ من المشايخ، فما توجيهكم؟ وجزاكم الله خيرا.

الجواب: المشافهة بحضور الدروس لها فوائد أخرىٰ غير فوائد سماع العلم، لاشك أن سماع العلم الأشرطة غاية الفائدة، وكثير النفع؛ لأنك تسمع من كلام أهل العلم الراسخين فيه في ذلك، لكن هناك أمور الأخرىٰ لا تحصل بسماع الشريط:

منها الجلوس مع طلبة العلم في الحلقة وفي المسجد؛ لأن هذا يحصل لطالب العلم به أمور نفسية

وعبادية كثيرة مهمة.

العلماء كانوا أول ما يروّون لطالب العلم أول ما يُرَوُّون لطالب العلم من الأحاديث حديث المسلسل بالأولية وهو حديث «**الراحمون يرحمهم الرَّحمٰن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**» الراحمون يرحمهم الرحمن، هذا الحديث أول ما يُسمعه الشيخ لطالبه إذا أراد أن يطلب العلم السابق هذا الحديث، ليبين أن مأخذ هذا العلم علىٰ الرحمة بالخلق، فإذا صار منعزلا يدرس في بيته ربما حصل له نوع استعلاء، ونوع عجب في نفسه، أو بعد عن مخالطة الناس، وكما تعلمون المخالطة والمصاحبة في الخير وملازمة الناس في اجتماعاتهم وعدم البعد عنهم هذا مقاصده شرعية كثيرة.

أيضا الاستفادة من هدي المعلم في لفظه ولحظه وتربيته وتأنيبه ومشيته وكيف يعالج الأمور وكيف تعرض له وكيف يجيب وكيف يتعامل مع من يغلظ عليه، مع من يسيء الأدب عليه، علىٰ من يزيد في إكرامه، هذه كلها آداب تستفاد من هدي العلماء بملازمتهم.

الثالث أيضا هناك أمور من العبادة والخشية، والعلماء إذا نظرت إليهم في هديهم وعباتهم وفكرهم وحرصهم علىٰ الخير تأثرت في أعظم مما تحتاج إليه وهو الاستقامة ولزوم عبادة الرب جل وعلا.

أما في السماع تستمع العلم لكن أمور النظر في هديه وفي صلاته ومبادرته للمسجد وحرصه علىٰ ختم القرآن وحفظه علىٰ قيامه في الليل هذه ما تستفيدها من الأشرطة إنما تستفيدها من الملازمة والسماع، كيف يعبّر، كيف يتأثر إذا عرض عليه شيء هذه إنما تعرض مع أو تأتي مع الحضور.

لهذا كان ابن الجوزي يقول: شيخنا فلان حضرنا عنده واستفدنا من بكائه أكثر مما استفدنا من علمه؛ يعني استفاد من علمه لكن استفاده من بكائه وورعه وخشيته أكثر.

فتؤثر في نفس الطالب طالب العلم تؤثر فيه شخصية المعلم، شخصية شيخه، سلوكه، كيف يتعامل، كيف يبكي من خشية الله، كيف يصلي، كثرة تلاوته للقرآن، خشوعه، كيف يتعامل في أهله ونحو ذلك، الأشرطة ما تحصل علىٰ ذلك، الأشرطة مهمة؛ لكن لابد من ملازمة العلماء حتىٰ لا تفقد جوانب من الخير أخرىٰ.

سؤال (٣): ما حكم خروج المرأة لتحصيل العلم في المدارس أو للتدريس، وكذلك الذهاب إلىٰ دار تحفيظ القرآن النسائية لحفظ القرآن؟ وجزاكم الله خيرا.

الجواب: الأصل أن النساء شقائق الرجال، التكليف بالواجبات وفيما يراد منهن شرعا فهن شقائق الرجال، مثل الرجال فيما يطلب منهن من حيث الواجبات، إلا ما اختصت المرأة من أحكام.

وطلب العلم المرأة مخاطبة بأن تطلب العلم، وأن تحرص علىٰ ذلك؛ لكن بشروطه الشرعية المعتبرة:

ومنها في هذا المقام أن يكون بإذن وليها، وأن لا يكون معه بعض ما لا يُحمد من الأمور، وأن لا تفرط في بيت زوجها أو في أولادها ونحو ذلك، فإذا حصل اجتماع هذه الشروط وانتفاع الموانع فالمرأة سعيها في العلم له فضل كبير، واليوم المرأة نحتاج إليها في التعليم وفي الدعوة لكثرة الواردات والحاجة

إلىٰ النساء في ذلك المجال وفقهن الله.

لذلك أنا أوصي النساء في طلب العلم؛ أن يطلبوا العلم؛ لكن لا يكون طلب العلم النفل عندهن مقدما علىٰ أداء الواجبات؛ لأن بعض النساء قد تُهمل زوجها البتة، أو تهمل بيتها، تهمل أولادها أو نحو ذلك، فيحصل من هذا أمور غير محمودة فتتوازن في ذلك وتحصل المصالح وتدرأ المفاسد ولها أجرها بحسب نيتها إن شاء الله.

أربع مسائل في العلم

(الصبر على العلم)

لفضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

اللَّهمَّ نسألك علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا، وقلبًا خاشعًا، ودعاءً مسموعًا، ربنا لا تكلنا لأنفسنا طرفة عين، فإنه لا حول لنا ولا قوة إلا بك.

أما بعد..

فأسأل الله جل وعلا لي ولكم أن يجعلنا ممن استعمله في طاعته، ويسر له سبيل الخير، ووفقه إليه، كما نسأله سبحانه أن يمن علينا برؤية الحق حقًّا، وأن يمن علينا أخرىٰ باتباعه، وأن يمن علينا برؤية الباطل باطلًا، وأن يمن علينا أخرىٰ باجتنابه، إنه سبحانه أكرم مسؤول.

وفي فاتحة دروس هٰذا الفصل نرجو إن شاء الله تعالىٰ أن يكون لدينا من الهمة في العلم والتعلم، وفي الطلب والحرص علىٰ ذلك ما يؤهلنا للاستمرار في هٰذا السبيل؛ لأن العلم ودواعيه يذهب بالغفلة عنه، وبرؤية غيره، ومن أقبل عليه، وعلم -حق العلم- ثمرة العلم، وفضل العلم، ورضىٰ الله جل وعلا عمن علم فعمل، وتواصىٰ بالحق، وتواصىٰ بالصبر، فإنه يتيسَّر عليه المطلوب، وتنبعث عنده الهمة.

ولهٰذا نرىٰ في قصص السالفين من الأنبياء والمرسلين ومن الصالحين فيها ما يبعث الهمة علىٰ القوة في الحق، والثبات عليه، والنظر في معطيات ما أنزل الله جل وعلا علىٰ رسله عليهم الصلاة والسلام.

فإذا نظرنا إلىٰ قصص الأنبياء والمرسلين جميعًا وجدنا من فوائدها للمتأمِّل والمعتبر، أنها تعطي العبد المؤمن أنواعًا من الثبات:

أولًا: الثبات علىٰ الحق، وإن كثر المخالفون.

الثاني: الثبات علىٰ سنة المرسلين وعلىٰ هُداهم، والنظر إلىٰ أولئك بأنهم السلسلة الماضية، وأنهم السادة الذين منّ الله جل وعلا عليهم بلزوم صراطه، فلا يستوحش حينئذٍ من قلة السالكين، ولا من قلة الموافقين له في هٰذا السبيل، بل ينظر إلىٰ أن قبله وقبله من أئمة الناس، من الأنبياء والمرسلين ومن تابعيهم وخاصة صحابة رسول الله ﷺ ما يهيئ له أن يسير علىٰ منوالهم، وأن ينتهج نهجهم، وأن يتخلق بأخلاقهم.

والثالث: أنه يستفيد من ذلك أن الأمور المحمودة لا يمكن أن تكون إلا بالصبر المتنوّع، الصبر علىٰ طاعة الله جل وعلا، والصبر علىٰ لزوم تقواه، ولهٰذا نرىٰ في قصة يوسف -عليه السلام- أنه قد تكرر ذكر الصبر، لما له من أثر عظيم في ذلك، وكذلك في قصص غيره من الأنبياء، ترىٰ أن الصبر له المنزلة العظمىٰ في الثبات علىٰ الحق والدين والطاعة، والثبات أيضًا علىٰ العلم والتفقه، ولزوم ذلك الطريق، قال جل وعلا: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف].

ولهٰذا يجب علىٰ طالب العلم أن يعتبر بعد ذلك بسيرة من صبر من الصحابة رضوان الله عليهم ومن التابعين لهم بإحسان، ومن أئمة الإسلام، فمن صبر ظفر، [وهٰذا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما قبض رسول الله ﷺ وأنا شاب، قلت لشاب من الأنصار: يا فلان هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ ولنتعلم منهم، فإنهم كثير. قال: العجب لك يا ابن عباس، أترىٰ أن الناس يحتاجون إليك، وفي الأرض من ترىٰ من أصحاب رسول الله ﷺ ؟ قال: فتركت ذلك وأقبلت علىٰ المسألة، وتتبع أصحاب رسول الله ﷺ فإن كنت لآتي الرجل في الحديث يبلغني أنه سمعه من رسول الله ﷺ فأجده قائلا، فأتوسد ردائي علىٰ بابه،

تَسْفي الريح علىٰ وجهي، حتىٰ يخرج، فإذا خرج قال: يا ابن عم رسول الله ﷺ ما لك؟ فأقول: حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ فأحببت أن أسمعه منك. قال: فيقول: فهلا بعثت إلي حتىٰ آتيك. فأقول: أنا أحق أن آتيك. فكان ذلك الرجل بعد ذلك يراني، وقد ذهب أصحاب رسول الله ﷺ واحتاج إليَّ الناس، فيقول: كنت أعقل مني.]

وهكذا في فعل السلف، فقد صبروا، وتحملوا شدائد العلم والتحصيل، من رحلات عظيمة في أخذٍ لبعض الأحاديث، أو للقيا بعض أهل العلم.

وهٰذا نقتبص منه أنه لا علم إلا بصبر، وإذا كان الأمر كذلك فالصبر المطلوب هنا عبادة، وتركه ترك لعبادة محبوبة لله جل وعلا لأنه أول واجب علىٰ العبد هو العلم، والصبر مطلوب في كل عبادة من العبادات، وفي سورة العصر يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

والإيمان هنا فيه العلم كما هو معلوم والعمل بعده، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والتواصي بالصبر يعود علىٰ هٰذا كله.

لهٰذا نرىٰ اليوم ضعفًا عامًّا في الإقبال علىٰ العلم، وفي مداولة العلم ومدارسته، بين الأصحاب والأصدقاء والزملاء فيما بينهم، وهٰذا يضعف العلم، يضعف الملكة عند المرء نفسه، ويضعفها أيضًا في الصلة بإخوانه وزملائه.

لهٰذا نرىٰ السلف رضوان الله عليهم إذا اجتمعوا تذاكروا العلم، وكان تذاكر العلم أهم المهمات عندهم، لم يكونوا ليقضوا رحمهم الله أوقاتهم إذا التقوا إلا في مذاكرة العلم، حتىٰ إن المذاكرة إذا خشي أن تفوت ترك معها بعض النوافل والسنن، كما ترك الإمام أحمد قيام ليلة لما قدم أبو زُرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي المعروف، لما قدم قال: استعضنا عن القيام بمذاكرة أبي زرعة. وذلك لأن مصلحة المذاكرة متعدية علىٰ المسلمين، ويفوت وقتها بذهاب من يُذاكر معه العلم.

وهٰذا الذي ينبغي علىٰ طالب العلم:

أولًا: أن يُصبر علىٰ العلم في تلقيه، وفي لزوم العلماء، وسماع الدروس، وفي قراءة الكتب، واستخلاص الفوائد، وهٰذا يحتاج إلىٰ صبر ومصابرة.

والثاني: يصبر أيضًا إذا التقىٰ بأصدقائه ورفقائه وزملائه، يصبر عن اللهو، ويصبر عن مقتضيات الطبيعة، في إمضاء الأوقات بما لا ينفع في تذاكر العلم.

فإذا تذاكر طلاب العلم فيما بينهم العلم هٰذا له فوائد عظيمة:

أولها: تثبيت العلم.

وثانيها: قيام الصلة علىٰ المحبة الصحيحة في الله جل وعلا.

وثالثها: أن طالب العلم مع أخيه في تذاكر العلم ينزل عليهم من الله جل وعلا السكينة وتَحفُّهم الملائكة، وهٰذا من فضل الله جل وعلا العظيم علىٰ عباده.

إذا تبين ذلك فإني أوصي نفسي أولًا، ثم أوصي جميع من يسمع هٰذا الكلام، بالصبر علىٰ مقتضيات العلم والدرس، والصحبة في أن تكون في العلم والعمل لا في غيره، لأن الزمن يمضي والعمر قصير.

المسألة الثانية في مقدمة هٰذه الدروس في هٰذا الفصل

يكثر اليوم عند طلاب العلم تداول بعض الوسائل الحديثة في العلم، أو في الدعوة، أو نحو ذلك، مثل الأشرطة، أو الأسطوانات، ومثل ما هو موجود في البرامج المختلفة التي يُبحث فيها عن طريق الكمبيوتر، أو في شبكة الإنترنت، وما أشبه ذلك.

فهذه ينبغي أن يُنظر إليها بأناة ورويّة في حق طالب العلم، لأن الإيغال فيها قد لا يكون محمودًا في المستقبل، فيما يتعلق بصلة طالب العلم بالكتاب.

وهذه الأشرطة، أو هذه المنتجات من البرامج أو غيرها، أو ما هو موجود علىٰ شبكة الإنترنت، ونحو ذلك، ينبغي أن يؤخذ بقدر ما ينفع المسلم، وما ينفع طالب العلم، في العلم والبحث، وما ينفع غيره في الدعوة والإصلاح، لكن ليس ذلك هو الوسيلة الوحيدة، وليس هدفًا لطالب العلم.

فالأصل في العلم أن يكون عبر المشايخ، وعبر الكتب، وأن يكون بالمطالعة، والفرق بين هذه وهذه، أن هذه البرامج، وما هو موجود في أجهزة البحث المختلفة، هو أن هذه البرامج، وهذه الأدوات الحديثة، تعطيك ما تبحث عنه، أما النظر في الكتب، فلأجل بحث مسألة واحدة، تمر علىٰ مائة مسألة، وتستفيد خيرًا كثيرًا، وربما لبحث في تفسير آية مررت علىٰ تفسير عدة آيات، وربما في بحث عن حديث واحد، مررت علىٰ أحاديث كثيرة، استفدتها في العلم والعمل، وصليت علىٰ النبي ﷺ في أثناء ذلك المرات والمرات، فإذا ضاق الوقت، واتجه طالب العمل إلىٰ البحث، أو أراد أن يبحث بحثًا، أو أن يخطب خطبة، أو نحو ذلك، فليستفد من هذه الوسائل، لأنها مفيدة ونافعة كثيرًا، أما أن تكون هي الوسيلة الوحيدة ويترك الكتاب، وتترك القراءة، فهٰذا ليس بصحيح، وهو من وسائل ضعف العلم عند طالب العلم.

وقد جربنا أنه بمطالعة الكتب حتىٰ في البحث وأنت تبحث في كتاب، لو صبرت علىٰ ذلك، فإنك تأخذ فوائد كثيرة جدًّا، ما كنت تظن أنك ستستفيدها، لولا الله جل وعلا ثم هذه الطريقة.

والسلف -رضوان الله عليهم- كانوا أشد منا في ذلك، حيث إن الكتب التي يتداولونها لم تكن مفهرسة أصلًا، ولهٰذا كانوا يحتاجون في القراءة أن يمروا علىٰ أشياء كثيرة، وإنما يعرفون الحديث مثلًا عن طريق الجزء، يعني مثلًا إذا نظرت في الفهرس المصنف لمسند الإمام أحمد الذي عمله ابن عساكر وجدت أنه يشير إلىٰ أجزاء، يقول: في الجزء كذا، في الخامس عشر من مسند الشاميين، في الجزء العاشر من مسند المكيين، وهكذا، وهٰذا يعني في الأجزاء بحسب التجزئة الأولىٰ، وهٰذا كان في القرن السادس الهجري، فكيف الشأن في القرن الثاني، والقرن الثالث.

كان أكثر العلم ثبت بفضل الله جل وعلا أولًا، ثم بكثرة النظر، فإذا كرر طالب العلم النظر في العلم ثبت، فإنه يثبت عنده، وهٰذا يحتاج إلىٰ صبر، وله ارتباط بالمسألة الأولىٰ.

نقول: إن الوسائل الحديثة، تعاطيها طيب في العلم وينفع طالب العلم، لكن ليست هي المقصود، وليست هي الوسيلة الوحيدة، أو الوسيلة المثلىٰ، بل الوسيلة المثلىٰ في طلب العلم والنظر هي حضور الدروس، أو سماع الدروس، أو قراءة كتب أهل العلم، والبحث فيها، لأن هٰذا يعطي ملكة وقوة في أشياء كثيرة، حتىٰ في اللغة.

إذا قرأت فإن لغتك تستقيم، وتزداد معرفتك بمواضع الكتاب، وبطريقة المؤلفين فيه، أما البرامج المعاصرة، فإنها إذا بحثت بها وصلت بسرعة، لكن يفوتك أشياء كثيرة في هٰذا الباب.

المسألة الثالثة في هٰذه المقدمة:

اليوم نرىٰ أن المسائل التي يتكلم فيها طلاب العلم، أو يتداولونها فيما بينهم، كثير منها يُتداول بالتقليد، ولا ينظر فيها إلىٰ تحقيق المسائل -وخاصة في الأمور الخلافية- ومعلوم أن طالب العلم إذا أراد أن يعمل، فليبحث، أو يقلد من يثق بدينه وينجو إذا ضاق به الوقت.

أما إذا أراد أن يبحث عن الحق، وأراد أن يقضي، وينظر في الراجح والمرجوح، فإن هٰذا يحتاج منه إلىٰ صفتين عظيمتين، هما: الأولىٰ العلم، والثانية العدل.

والقاضي في المسائل العلمية، ربما كان أعظم من القاضي في مسائل الخصومات، لأن مسائل الخصومات يقضي فيها بين اثنين، هل الحق مع هٰذا، أو مع هٰذا؟

وأما في المسائل العلمية والدينية التي يقع فيها الاختلاف، فطالب العلم يجدها فرصة لبحث المسألة، ولا يخوض في شيء بدون أن ينظر.

فأحيانًا تقع مسائل، ويكثر فيها البحث، أو التردد، فنجد أن كثيرين يمرِّرون المسائل بالتقليد، هٰذا ينقل عن فلان، وهٰذا ينقل عن فلان، وهٰذا غير محمود لطالب العلم المدقق، الذي يريد أن يتثبت من العلم، فعليه أن يجعل هذه مناسبات لبحث المسائل، والتحرِّي عنها، ولا يلزم أن يكون متسرعا بأن يحكم، فالحمد لله ربما كان النظر في مثل هذه المسائل، والحكم فيها قد وكِّل به غيره من الناس، ولٰكِن هو لأجل تحري الحق عليه أن يحكم بعلم وعدل، فينظر في المسألة بمقتضياتها من أصلها، وبعدل في ألا يتجرأ، فيقول: هٰذا غلط. بدون ما يعرف الحقيقة، لأنه سيحاسب علىٰ ذلك، يقول: هٰذا بطال. بدون ما يتأمل، أو يقلد فيها، وهو لا يعرف ما الوجهة أصلًا، ويكثر الأمر بدون بينة.

وهٰذا له أمثلة كثيرة في دنيا الناس اليوم، لأن الحديث اليوم صار مفتوحًا لكل أحد.

فالصحف فيها ما لا حصر له، وشبكة الإنترنت فيها ما لا حصر له والفضائيات فيها ما لا حصر له، وفي الخطب والمحاضرات أيضًا أشياء لا حصر لها من هٰذا الباب، فطالب العلم يجب عليه أن يتحرىٰ الحق، وأن يستفيد من مثل إيراد هذه المسائل، في بحثها وتدقيقها، وألا يتوانىٰ في بحث هذه المسائل اتكالًا علىٰ بحث غيره فيها، لأن المقصود الفائدة.

المسألة الرابعة والأخيرة:

طلب العلم عبادة -كما ذكرنا- من أفضل وأجل العبادات.

وهٰذا يعني أن طالب العلم لا بد أن يحاسب نفسه، بين الحين والآخر في علمه الماضي وفي علمه المستقبل، لأنه أحيانًا يكون قد طلب العلم لهوىٰ أو لشهوة أو نحو ذلك، فتجد أنه يمضي وقتًا طويلًا في طلب علم هو يشتهيه، ولكن غيره من العلوم أولىٰ منه، وهو أحوج إليه، لكن هو يشتهي هٰذا.

فعلىٰ سبيل المثال، واحد يشتهي النظر في السيرة والبحث، يشتهي تخريج الأحاديث، يشتهي بحث بعض المسائل الفقهية، ويطول فيها جدًّا، ويفوت معه بحث أشياء أخرىٰ، هي أهم له وربما جهلها، وهي متعلقة بدينه، متعلقة بعمله، أو متعلقة بأمور مهمة، هو يعانيها، أو يقع فيها.

لهٰذا نقول: إن طالب العلم إذا سلك هٰذا السبيل، فعليه أن ينتبه من شهوة العلم، فشهوة العلم شهوة خفية، قد تصرف صاحبها عما ينبغي له.

وفرق بين عُقد العلم، ومُلَح العلم، فعقد العلم هذه لا بد منها، وملح العلم بحسب الوقت، تنظر في التراجم، تنظر فيما تشتهي من أمور، في تفاصيل في اللغة، أو في الأدب، أو نحو ذلك، فهٰذا لا بأس به.

لكن عُقد العلم هذه أن تنظر إلىٰ ما أنت محتاج إليه، ثم بعد ذلك تقبل عليه.

والعلم كما أن له شهوة، فإن له طغيانًا، لهٰذا قال وهب بن مُنَبِّه: «إن للعلم طغيانًا كطغيان المال» وهٰذا واقع، فإنه كما أن الإنسان إذا ازداد ماله، دخله الشيطان فطغىٰ وبغىٰ، فكذلك العلم الذي لا يصاحبه تقوىٰ من الله جل وعلا فإنه ربما كان معه الطغيان، وكان معه البغي، بل كثير من الخلافات التي وقعت في الأمة من الزمن الأول، لما صاحبها البغي والتعدي، وقعت الفرقة الشديدة، ووقعت الخلافات الشديدة، وصار بأس الأمة بينها، كما ذكر شارح الطحاوية في أواخرها، وكما ذكر نقلًا عن ابن تيمية في موضع من كتبه.

فالعلم له شهوة عارمة بطالب العلم، يعني قد يصيبه شهوة عارمة في نوع من العلم، أو في نوع من البحث، أو نحو ذلك، فيكون معه انصراف عما هو أولىٰ له، فينبغي له أن ينظر ويحاسب نفسه.

كذلك العلم ربما يرىٰ من نفسه الملكة وكذا فيجد أن عنده نوع اعتداد وقوة، بحيث يتسلط بهٰذا العلم علىٰ الآخرين، كما ذكرنا لكم أن العلم مبناه علىٰ الرحمة والتراحم، العلم هو ما ورّثه النبي ﷺ لهذه الأمة، والله جل وعلا قد وصف نبيه بأنه رحمه ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ [الأنبياء].

فالعلم الذي معه البغي، والذي ليس معه عدل، ولا تقوىٰ، فهذا وبال ليس علىٰ صاحبه فحسب، بل ربما علىٰ الآخرين، فلهٰذا نحذر من هذين الأمرين: الشهوة، والطغيان في العلم، فالشهوة مذمومة، والطغيان مذموم، ومن حرك و رأىٰ واقع الناس اليوم، وجد أنه يوجد فيه هٰذا وهٰذا.

نسأل الله جل وعلا السلامة والعافية، وأن يثبتنا علىٰ دينه، إنه سبحانه جواد كريم، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الأسئلة]

سؤال (١): كيف تكون مذاكرة العلم ومدارسته المذاكرة الصحيحة التي يستفيد منها الطالب؟

الجواب: هٰذا بحسب ما يراد مذاكرته، فإذا كانت المذاكرة في المحفوظ، فعليهم أن يتذاكروا فيما يحفظون، وإذا كانت المذاكرة فيما يفهم، فعليهم أن يتذاكروا في المفهوم، يعني فيما يفهمه هٰذا، ويفهمه هٰذا من المسائل المشكلة، فإذا كانت المذاكرة يراد منها مذاكرة كتاب الزكاة مثلًا، فلا بد من مراجعة الأحاديث فيه، فمذاكرته أن تتداول بعض الفوائد من الأحاديث المتعلقة بأمور الزكاة، فهٰذا يورد ما عنده، وهٰذا يورد ما عنده كذلك.

وإذا كانت المذاكرة مثلًا في الفقه، في فقه الزكاة، فيأتي هٰذا مثلًا يقول: ما شروط وجوب الزكاة؟ فيأتي هٰذا بشرط، وهٰذا بشرط، ويفسر هٰذا وهٰذا، ويمشون هكذا، الباب الأول، فالباب الثاني، إلىٰ آخره.

فالمذاكرة بحسبه، مذاكرة المحفوظ شيء، ومذاكرة المفهوم شيء آخر، وأكثر السلف كانت مذاكرتهم في المحفوظ، لأن حفظ العلم هو الأساس، وهو الذي سيُنقل، خشية من الغلط في ذلك، أما اليوم فينبغي أن يكون في هٰذا وذاك، يحفظون ويراجعون فيما بينهم المحفوظ، ويراجعون فيما بينهم العلم بأنواعه.

سؤال (٢): ماذا عن الكتاب الذي طبع مؤخرًا في دار الباز، وهو (جمع الجوامع، الجامع الكبير وزيادته للسيوطي)، خمسة عشر مجلدا؟

الجواب: هٰذا مطبوع سابقًا، والسيوطي له كتاب «الجامع الكبير»، و«الجامع الصغير»، و«الجامع الصغير» محدود يعني صغير، وقد قسمه العلامة الألباني -رحمه الله تعالىٰ- إلىٰ قسمين: «صحيح الجامع» و«ضعيف الجامع». **وهما** قسمان مفيدان يقرِّبان، وإن كان الحكم علىٰ أن هٰذا صحيح، أو أن هٰذا ضعيف، لا يسلم في كل موطن، وعلىٰ طالب العلم أن يبحث ويدقق، ولكنها مفيد للغاية في هٰذا الباب، والجامع الكبير للسيوطي له شرطه، وكتب كثيرة نقل عنها، وقد قسمه إلىٰ قسمين:

١- قسم الأقوال.

٢- قسم الأفعال.

وهو كتاب كما هو معروف كبير جدًّا، طبع قسم الأقوال، وقسم الأفعال مستقل، في مجلدات كثيرة جدًّا، وصُوِّر عن المخطوطة أيضًا في مصر، أظنه في الهيئة العامة للكتاب، صورت إحدىٰ نسخ المخطوط، وكان خطها دقيقا جدًّا، فصورت في مجلدين، وهي أيضًا سهلة في البحث.

والأحسن منه «كنز العمال».

و«**كنز العمال**» رتب الجامع الكبير علىٰ الأبواب، وجعل ترتيبها مثاليا وطيبا، والأكثر هو الرجوع إلىٰ «كنز العمال»، أو إلىٰ المتن، يعني الأصل الذي هو «الجامع الكبير»، لكن الجامع الكبير قد لا تجمع الأحاديث في الباب الواحد، يعني مثلًا إذا بحثنا عن السلب في الجهاد، أو حرم المدينة، كيف تجدها؟ قد تجد حديثًا واحدًا في الباب، أو قد لا يأتي غيره، لكن في «كنز العمال» ترجع إلىٰ هٰذا الموضوع، فستجد الأحاديث، وستجد الآثار، عن الصحابة في هٰذا الباب.

سؤال (٣): نرجو منكم التكرم بكشف شبهات من قال: إن علماء هذه البلاد يشددون في الأحكام، ويأخذون من الأدلة أكثرها تشددًا، وذلك بعد أن طالعت بعضهم في بعض القنوات الفضائية، الذين

يتعرضون لإفتاء الناس بفتاوىٰ تخالف ما عليه هٰذا البلد، فأصبح هناك تذبذب في تلقي الفتاوىٰ، وتردد في استقبال فتاوىٰ علماء هٰذا البلد، حتىٰ قال بعضهم: إن علماء البلاد الأخرىٰ ليسوا أجهل من علماء هذه البلاد. أرجو من فضيلتكم كشف هذه الشبهة إلىٰ آخره؟

الجواب: هٰذا الخلاف موجود منذ خلق الله جل وعلا الدنيا، والخلاف في العلم ما بين مشدد فيه ومتساهل موجود من الزمن الأول، لكن إذا كان الأخذ بالأشد، أو الأخذ بالأسهل هو نتيجة هوىٰ، دون نظر في مقتضىٰ الأمر، فإن هٰذا وباله علىٰ من أفتىٰ، والعياذ بالله، ليست المسألة مسألة تشهي، لكن المسألة مسألة دليل، المسألة إعمال للقواعد الشرعية.

قد تجد أن بعض العلماء من السلف يشدد في مسألة، ويتساهل في مسألة أخرىٰ، لكن لا تجد من علماء السلف من يسهل في كل شيء، أو يشدد في كل شيء، لأن كلا منهم كان يتحرىٰ الحق بحسب ما وصل إليه، وبحسب ما يرىٰ من إعمال الأدلة والقواعد الشرعية، تجد أنه في مسائل يتشدد، وفي أخرىٰ يسهل.

إذا أخذنا مثلًا المذاهب الفقهية، تجد أن مذهب الحنابلة في العبادات فيه نوع ميل إلىٰ الاحتياط، وبراءه الذمة، إلىٰ آخره في الأحكام، فصار هٰذا المذهب فيه نوع تشديد مقارنة بمذهب الشافعية، ومذهب الحنفية، أو المالكية، لكن في المعاملات تجد أن المسألة بالعكس، فمذهب الحنابلة أيسر وأسهل، والمذاهب الأخرىٰ أضيق.

فنخلص من هٰذا إلىٰ أن وجود من يشدد، أو من يسهل، قديم، لكن لا يكون هٰذا عن هوىٰ، ولا عن رغبة في التسهيل، فهٰذا ليس من صنيع أهل العلم، وإنما تجد عند العالم الواحد، في مسائل من العبادات والمعاملات ما يشدد فيها، وأخرىٰ يسهل فيها، وذلك بحسب ما ظهر له من الوجه الشرعي، وإعمال القواعد.

ولهٰذا نرىٰ الآن من يتهم العلماء، فيقول: إن علماء هذه البلاد يشددون في الأحكام. وهٰذا ليس بصحيح، بل هم يتكلمون في المسائل بمقتضىٰ الدليل ومقتضىٰ القواعد الشرعية، فيسهلون فيها، وهناك مسائل بمقتضىٰ الدليل والقواعد يشددون فيها، وليس لغرض التشديد لٰكِن هٰذا مقتضىٰ الحكم أن يكون علىٰ هٰذا النهج.

فمثلًا أنا سمعت مرة من سنين طويلة أحد المشايخ يقول لمُسْتَفْتٍ: المسألة فيها ثلاثة أقوال: فيها قول كذا، وقول كذا، وأيسرها هٰذا القول، وهٰذا هو الأنسب لك إن شاء الله.

ومثل هٰذا الجواب ليس مستقيمًا، لا علىٰ القواعد الشرعية، ولا علىٰ أصول الفتوىٰ، ولا علىٰ ما ينبغي للمفتي أن يعامل به المستفتي، وليست المسألة اختيارا.

ويمكن أن نرجع إلىٰ ما أنكره الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ- علىٰ بعض مشايخ زمنه، لأنه كان المفتي في وقته يحفظ أربع كتب من مختصرات المذاهب الأربعة، وإذا أتاه المستفتي قال له: تريد الفتوىٰ علىٰ أي مذهب؟ قال: علىٰ مذهب الشافعي مثلا. فيقول له: في «متن الإقناع» يقول: كذا. أو في «متن المنهاج» يقول: كذا. أو في «التنبيه» كذا، إلىٰ آخره، فأنكر عليه هٰذا الصنيع.

فالمفتي ليس له أن يأتي دائمًا بأيسر الأقوال التي اختلف فيها العلماء، لأن اختلاف العلماء تارة يكون اختلافا قويا، وتارة يكون اختلافا ضعيفا، وهنا يجب علىٰ المفتي أن يفرق بين هٰذا وذاك، يجب أن يفرق بين الأخذ بالأسهل، وبين بالحزم، وبين المسألة قبل وقوعها، وبعد وقوعها.

فإذا وقعت المسألة وانتهت، وكان وقوعها ناتجا عن جهل صاحبها، أو عن أنه جرىٰ له هٰذا الشيء، وليس في المسألة وضوح من جهة الدليل الشرعي، فإنه يُسهّل له بعد وقوعها، لكن قبل وقوعها، فإنه ليس له أن يقول إلا ما ظهر دليله، وقاعدته الشرعية.

وهذه الصورة نص عليها العلماء من القرون الأولىٰ، لما ظهر الخلاف، لأن المسألة بعد وقعها يعني ينبغي للمفتي أن يتحرىٰ، لأنه ربما كان الذي وقع في الشيء بنىٰ علىٰ مذهبه، أو بنىٰ علىٰ شيء عنده، أو يكون غير عالم بالحكم، فإذا كان فيه مجال للتسهيل، بغير أخذ بشيء ضعيف في المسألة، فإنه أولىٰ من التشديد، أو من الأخذ بالحزم فيها.

أما قبل الوقوع، فليس له أن يسهّل، لأن الناس إذا سهلت عليهم بلا حجة، فإنه لا حد له، يتنازلون يتنازلون حتىٰ يؤول الأمر –والعياذ بالله– بهذه الأمة إلىٰ مثل ما حصل لليهود، حيث أحل الأحبار لهم الحرام، فاستحله الناس، وهٰذا لا ينبغي.

وعلماؤنا رحم الله الأموات منهم، وبارك في الأحياء يتحرون في ذلك، فتارة تكون الفتاوىٰ فيها شدة، وتارة يكون فيها تسهيل، ليست دائمًا فيها شدة، وليست دائمًا فيها تسهيل، بل بحسب المقتضي.

سؤال (٤): هل ذكر المفسرون سندا صحيحا لابن عباس رضي الله عنهما أو غيره عن صفة سفينة نوح عليه السلام علما أن بعضهم قالوا أنه عندنما اكتشف في تركيا سفينة علىٰ رأس جبل أنها سفينة نوح أن الوصف في الأثر مطابق لها ؟

الجواب: هذا لا يثبت فيه شيء – فيما أعلم – في وصف السفينة بدقة، والجبل الذي استقرَّت عليه واستوت عليه هو الجودي ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[هود]، الجودي يقولون: إنه في جهة كردستان، جهة الأكراد بين العراق وبين تركيا هناك جبل قيل: إنها استقرت عليه، ويزعمون أن هناك أشياء من آثار السفينة لٰكِن ليست صحيحة، الجبل معروف اسمه الجودي إلىٰ الآن في تلك المنطقة.

سؤال (٥): ذكر الفقهاء أن من سبق الإمام بركنين أو سبقه الإمام أو أن من كبر قبل الإمام وسلم قبله أن صلاته باطلة.

الجواب: الفقهاء رحمهم الله يفرقون في هٰذه المسألة يعني فقهاء الحنابلة بين بطلان الركعة وبطلان الصلاة والأصل في ذلك المتابعة أن الإمام إنما جعل ليؤتم به، فمعنىٰ الإمامة والإئتمام أن يكون المأموم تابعا للإمام ومحل المأموم من أفعال الإمام أربعة أحوال: إما أن يكون سابقا له، وإما أن يكون موافقا له، وإما أن يكون تابعا له، وإما أن يكون متخلفا عنه.

هٰذه أربع أحوال، السبق فيه وعيد شديد، «أما يخشىٰ الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله صورته أو قال راسه راس حمار» هٰذا فيه التشديد العظيم عن المسابقة، والمسابقة إذا كانت بركن ولم

يتبع الإمام فيها فإنه علىٰ كلام الفقهاء فإنه تبطل الركعة وعليه أن يعيد هٰذه الركعة أو أن يعيد الركن هٰذا ويأتي به بعد الإمام .

أما إن كان تخلف عليه بركنين، الواقع ما حصلت المتابعة، يعني مثلا هٰذا راكع والإمام بعده، ما وقعت المتابعة ولا هنا ما وقعت المخالفة ولا وقع يعني الموافقة هنا صار اختلاف كبير هٰذا في ركن بعيد هٰذا راكع والإمام ساجد هٰذا في التشهد والمأموم يركع أو هٰذا المأموم بعد سمع الله لمن حمده والإمام سجود الثاني، ونحو ذلك، هٰذا تخلف عنه بركنين، فافتقد هنا المتابعة فافتقد هنا المتابعة.

بركن عندهم يعني وقعت مخالفة الفصل بينها بركن يسير لذلك قالوا تبطل الركعة لأنه ما حصلت منه المتابعة، أما إذا كان الفرق ركنين فإن الصلاة تبطل علىٰ حسب كلامهم.

لهٰذا نقول هٰذه الأحوال الأربعة: المسابقة حرام ولا تجوز وتبطل الصلاة أو الركعة.

الموافقة مكروه، وصفتها أن يكبر مع الإمام أن يركع مع الإمام أن يسحد مع الإمام.

الذي صح عنه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كما في حديث الأعرج عن أبي هريرة وفي حديث غيره أنه قال: «إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا، ولا تكبروا حتىٰ يكبر، وإذا ركع فاركعوا ولا تركعوا حتىٰ يركع، وإذا سجد فاسجدوا ولا تسجدوا حتىٰ يسجد» وصح عنه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أنه قال: «لا تسبقوني بالتكبير ولا بالركوع ولا بالسجود ولا بالانصراف » يعني بالتسليم، رواه مسلم في صحيحه، هٰذا يدل علىٰ أن الموافقة أنها خلاف المأمور به لهٰذا نص العلماء علىٰ أنها مكروهة.

الحالة الثالثة المخالفة وهي علىٰ النحو الذي فصلت لك الفرق ما بين الركن والركنين في معنىٰ ذلك.

الحال الرابعة هي المأمور بها وهي المتابعة، بأن يكون فعل المأموم أفعاله في أركانه في الصلاة أن تكون بعد الإمام إذا ركع تبدأ تركع إذا سجد تبدأ تسجد ن إذا فرغ من التكبير تبدأ تكبر، وهكذا، هٰذا هو السنة والسنة فيها الخير والبركة لمتبعيها.

الصلاة أمرها عظيم فينبغي للعبد أن لا يعرض صلاته للخطر.

سؤال (٦): سمعتك مرة من المرات تكلمتم عن مسألة سكوت الإمام الذهبي علىٰ بعض الأحاديث في المستدرك لا يدل هذا علىٰ موافقته لحكم الحاكم رحمه الله وأن أول من أتىٰ بعبارة أخرجه الحاكم ووافقه الذهبي هو المناوي في «فيض القدير»، فهل تذكرون أحدا من أهل العلم أشار لهذه المسألة فندها وبحثها بحثا موسعا؟

الجواب: لا أذكر أحدا في ذلك لٰكِن هي نتيجة استقراء وبحث خاص بي، وكان لي بحث مما دعا لهٰذا هو أني بحثت في سنين ماضية عن شروط «الصحيحين» ما هو شرط البخاري ، وما هو شرط مسلم، تعلمون أن هٰذه الكلمة يعني كثيرا ما تداول، شرط البخاري هو كذا وشرط مسلم هو كذا، وهٰذا علىٰ شرط البخاري وهٰذا علىٰ شرط مسلم أو علىٰ شرطهما، فما هو شرط البخاري وما هو شرط مسلم؟

هٰذا السؤال بعض العلماء ذكر جوابا عنه لكنه لا يفي ولا يشفي الغلة، الحقيقة.

مثلا يقولون: الحديث الصحيح شرطه أن لا يكون فيه مدلس قد روىٰ بالعنعنة، ونجد في

«الصحيحين» مدلسين قد رووا بالعنعنة.

أن لا يكون في إسناده مجهول، لأن المجهول ضعيف، نجد في «الصحيحين» فيه أسانيد رجال مجهولين.

أن لا يكون ممن رمي بالبدعة ، في «الصحيحين» من رمي بالبدعة .

الاتصال، أن يكون قد لقي من أخذ عنه ، هنا شرط البخاري اللقي وشرط مسلم المعاصرة كما هو معروف ، هٰذه أدت إلىٰ بحث هٰذه المسألة بحثتها بحثا بجمع ما ذكره العلماء في هٰذه المسألة في المسألة يعني جمعا سميته تسمية مسجوعة أظن «جلىٰ الكتب والآثار في شروط الصحيحين من أخبار» بحث فيه طول نحو من مائتين صفحة أو قريب منها، فكل جزئية من هٰذا الموضوع بحثت، يعني شرط البخاري في كل مسألة، قالوا شرط الحديث الصحيح هو ما نقله العدل الضابط عن مثله إلىٰ منتهاه ولم يكن شاذا ولا معللا. هنا هل هٰذا الكلام ينطبق علىٰ الصحيحين؟

أخذ كل شرط منها -شرط وجودي أو شرط عدمي- هل كل ما في «الصحيحين» يشترط أن لا يكون شاذا في كل لفظ، فيه مسألة بحثت في آخر البحث، قصدت بحث هٰذه المسألة مسألة الحاكم فيما استدركه علىٰ الشيخين، قال: هٰذا علىٰ شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه، علىٰ شرط البخاري ولم يخرجه، فأدىٰ ذلك إلىٰ بحث وصنيع الحافظ الذهبي في مختصر المستدرك، فوصلت من خلال البحث إلىٰ أن الحافظ الذهبي له مختصرات كثيرة اختصر سنن البيهقي واختصر عدد من الكتب وكانت طريقته في المختصرات أنه تارة ينشط ويذكر علة الإسناد تارة ينشط يظهر له حكم الإسناد فيقول صحيح إسناده صحيح أو علىٰ شرط البخاري حتىٰ في غير «المستدرك» وتارة لا ينشط يسكت، فكوننا نقول إنه وافق الحاكم أم لم يوافقه هٰذه المسألة فيها نظر، لم يوافقه ظاهرة، إذا اعترض عليه، لٰكِن إذا سكت، والمعلوم أنه لا ينسب لساكت قول، ولهٰذا نقول: إن الذهبي لا يصح أن يقال فيما سكت عنه إنه وافق، يقال: سكت عنه، المناوي استعملها قليل، يعني في كلمات بعض الأحاديث قليلة جدا، بعد ذلك توسعوا فيها ووجد كل ما ذكر حديث لم يتعقبه الذهبي قالوا ووافقه الذهبي .

ثم بعد ذلك جعل الأمر إلىٰ أنه قيل صححه الحاكم ووافقه الذعبي وهو غلط منهما أو لم يصيبا، هٰذه مسألة تحتاج إلىٰ دقة من طالب العلم، المقصود منها أن قول: وافقه الذهبي فيما لم يعلق عليه هٰذا ليس بصحيح، والذهبي في مختصره للمستدرك له طريقتان فيما يسكت عنه:

تارة لا يكتب شيئا بأن يقول الحاكم مثلا علىٰ شرط البخاري ومسلم وهو يسكت لا يقول: علىٰ شرط البخاري يذكر فقط المتن، ويسكت.

وتارة يقول: علىٰ شرطهما، أو يقول: علىٰ شرط البخاري أو يقول: صحيح، فقط إذا قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

هٰذا كله ما يقال عنه إنه وافقه فيه يعني الموافق تحتاج إلىٰ بحث يعني هو اشترط علىٰ نفسه الموافقة، الحقيقة أنه لم يشترط علىٰ نفسه الموافقة.

سؤال (٧): في مسألة التأصيل العلمي في جانب علم الفقه، التي ذكرتموها في أحد الدروس،

السؤال: كيف نستخرج المسائل؟ هل نستخرجها من كتب المطولات، أم من المختصرات؟

الجواب: المسألة إذا مرت بك، فهي بحسب استعدادات طالب العلم، إذا كان طالب العلم يعرف المسألة، ويعرف كلام أصحاب المختصرات فيها، ويعرف المذهب، فعليه أن يذهب إلىٰ الكتب المطولة في المذهب، ثم بعد ذلك إذا نظر في الكتب المطولة في المذهب والتعليل، ينتقل إلىٰ كتب الحديث المطولة، مثل «نيل الأوطار»، و«فتح الباري»، أو «المحلىٰ»، أو ما أشبه ذلك.

أما إذا كان لم يطَّلع علىٰ المسألة أصلًا، فإن تصور المسألة من الكتب المختصرة أيسر، وأدعىٰ للفهم من تصورها في الكتب المطولة؛ لأن الكتب المطولة تشرح المسألة فيها في كلمتين، أو ثلاث، وتبقىٰ بقية الصفحات كلها في الاستطرادات والخلافات.

أما في الكتب المختصرة، فتجد أنه يؤصل المسألة، ويُصورها، ثم بعد ذلك يحكم عليها، ويترك التفصيل لغيره.

سؤال (٨): هل العمل شرط صحة للإيمان أم منه ما هو للصحة ومنه ما هو للكمال؟

الجواب: هٰذه مسألة كثر فيها البحث في الفترة الأخيرة، ومن خاض فيها منهم من خاض بعلم ومنهم من خاض بغير علم، والمسألة تحتاج إلىٰ بسط إن شاء الله لمرة من المرات نبسطها لكم في أحد الدروس بإذن الله.

سؤال (٩): أبلغ من العمر ما بعد الثلاثين عامًا، ولم أطلب العلم في الصغر بسبب أصحابي، يقولون لي: لا سبيل لك إلىٰ هٰذا. ما العمل في هٰذا الأمر؟

الجواب: كثير من العلماء طلبوا العلم في الكبر، منهم من طلب العلم في الثلاثين، ومنهم من طلب العلم في الأربعين، فالسن ليس دليلا.

فالله جل وعلا قال لنبيه في آخر سورة الشورىٰ ﴿ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا ﴾ [الشورىٰ:٥٢] والنبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- درىٰ الكتاب ودرىٰ الإيمان بعد الأربعين.

فهٰذا الطالب لا ييأس، لأن العلم عبادة، وليس المقصود أن تصبح شيخًا، أو أن تصبح معلمًا، بل تطلب العلم لترفع الجهل عن نفسك، ولكي تقي نفسك التعبُّد بجهل، أو التعامل مع نفسك، ومع من حولك بجهل، فإذا طلبت العلم، وتعاملت بحق وعلم، فإن ذلك يكون عبادة تؤجر عليها.

سؤال (١٠): هل يلزم في صيام النوافل مثل الست من شوال أو الأيام البيض أو الاثنين أو الخميس لتبييت النية من الليل أو أنه يجوز النية من النهار؟

الجواب: إذا كان ما تنوي صيامه نفلا فإنه لا بأس من إحداث النية من النهار في أي وقت قبل الزوال أو بعد الزوال علىٰ الصحيح، وأجرك علىٰ قدر ما بقي من يومك، بشرط أن لا تكون قد طعمت قبلا، والنبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يدخل بيته ويقول لهم: «أعندكم طعام» فإن قالوا: لا، قال: «فإني إذن صائم» دل قوله: «إني إذن صائم» علىٰ أنه أحدث النية للصيام بعد جوابهم، لأنه قال: «إني إذن صائم» هٰذا دليل المسألة خلافا لمن ذهب لعدم جواز إحداث النية في النوافل من النهار، لٰكِن الأجر بقدر ما بقي من اليوم.

إذا تبين ذلك فصيام الست نفل فيصدق عليها قاعدة النفل، لأنه له أن يحدث النية من النهار، من اي وقت من النهار، لٰكِن العلماء قالوا: إن أجره في ذلك اليوم بقدر ما بقي، لأنه من النية يصبح صائما أما ما قبل ذلك فقد أمسك عن الطعام والشراب لا بنية التعبد فلذلك لا يؤجر عليه، أمسك بالطبع ما وجد أكلا انشغل، نام، لكنه إذا بدأ النية هنا بدأ التعبد، فيكون أجره فيما بقي، فيكون اليوم من ست شوال الذي صامه بنية من اثناء النهار صار ناقصا، فلا يكمل حينئذ صيام الدهر له.

أما إذا كان الصيام فرضا أو واجب من الواجبات صيام رمضان لابد من تبييت النية من الليل كما في حديث حفصة وغيرها وإن كان الصيام واجب قضاء أو واجب كفارة من الكفارات أو نحو ذلك أو نذر وما أشبه ذلك فيجب أن يبيت النية من الليل لأن الواجب لا يصلح فيه إحداث النية من النار.

سؤال (١١): متىٰ يكون التقليد مذمومًا، ومتىٰ يكون محمودًا ؟

الجواب: الأصل في التقليد لطالب العلم أنه مذموم، لكنه يذم إذا كان يقلد مع إمكانية أن ينظر في المسألة بدليلها، والتقليد هو قبول قول العالم من غير حجة، فإذا قبلته بدليله، فلست مقلدًا، لأنك تكون في هذه الحالة قد اتبعت الدليل، لأنك سمعت القول بدليله.

إذا أمكنك أن تعرف الدليل، ولم تحرص علىٰ معرفته -في طالب العلم ليس في العوام-، فإن هٰذا يذم بقدره، لأنك تكون قد قلدت.

وذكر ابن عبد البر أن العلماء أجمعوا علىٰ أن المقلد ليس بعالم.

والمقلد أيضا من يعرف أقوال المذهب، بدون ما يعرف أدلتها، يعرف التوحيد والأحكام، هٰذا شرك، وهٰذا توحيد، وهٰذا كذا، لكنه لا يعرف الأدلة، هو يعرف أن هذه بدعة، لكنه لا يعرف دليل بدعيَّتها، وهٰذا كله تقليد.

فالتقليد يُحمد إذا ضاق الوقت عليه، يعني ضاق الوقت عليه وهو يحتاج إلىٰ مسألة، كأن يكون -مثلًا- في الصلاة، واشتبهت عليه مسألة: هل يسجد للسهو، أو لا يسجد؟ فسأل من يثق بعلمه، فقال له: لا تسجد. فهٰذا محمود.

إذا اشتبهت المسألة وكانت المسألة لها علاقة بمصالح ومفاسد، ولا يتسع الوقت للنظر فيها، فقلدت غيرك في هذه المسألة، من باب براءة الذمة، فإن هٰذا محمود أيضا، وهناك أيضًا أحوال أُخَر تنظر في محالّها.

أسأل الله جل وعلا أن يوفقنا لما فيه رضاه. نكتفي بهذا القدر بارك الله فيكم، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد.

بسم الله الرّحمن الرحيم

الحمدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسولِ الله، وعلى آلِه وصحبِه ومنِ اهتدَى بهداه.

أمَّا بعدُ..

فموضوعُ كلمةِ هٰذا اليَومِ عن (**نفسيَّةِ طالِبِ العلْمِ حينَ يتلقَّى الدَّرس**)، والمستمِعُونَ للعلْمِ يختلفُونَ: يختلفون مِن جهةِ رغبَتِهم فيما يسمعُون، ويختلفُونَ أيضًا مِنْ جهةِ استعداداتِهم، فليسَتِ الرَّغباتُ واحدَةٌ وليسَتِ الاستعداداتُ واحدةٌ.

فالرَّغباتُ مختلفَةٌ:

- منهم مَن يستمِعُ للعلْمِ رغبةً في تحصِيلِه، هٰذا هو الغالِبُ ولله الحمْدُ.
- ومنهم مَن يستمِعُ للعلْمِ رغبةً في تقييمِ المعلِّمِ أو في معرفَةِ مكانتِهِ مِنَ العلْمِ وحُسنِ تعليمِه أو حُسن استعداداتِه للعلوم.
- ومِنْهم مَنْ يأتِي مرَّةً ويترُكُ عشرَ مرَّاتٍ.

وفيِه رغباتٌ متنوِّعَةٌ، ويهمُّنَا منها مَنْ يأتِي للعلْمِ رغبةً فِي العِلْمِ، فحِينَ يأتِي طالبُ العِلمِ للدَّرسِ راغبًا فِي الاستفادَةِ ينبَغِي أنْ يكُونُ علَى نفسيَّةٍ وحالَةٍ قلبيَّةٍ خاصَّةٍ، وحالَةٍ عقليَّةٍ أيضًا خاصَّة.

أمَّا الحالَة القَلبيَّة والنَّفسيَّة:

♦ فأنْ يكونَ قصْدُه مِن هٰذا العِلْمِ أنْ يرفَعَ الجهْلَ عنْ نفسِه، وهٰذا هو الإخلاصُ في العلْمِ؛ لأنَّ طلَبَ العلمِ عبادَةٌ، والإخلاصُ فيه واجِبٌ، والإخلاصُ في العِلْمِ بأنْ ينْوِي بتعلُّمِه رفْعَ الجهْلِ عنْ نفْسِه، وقدْ سُئِلَ الإمامُ أحمَدَ عنِ النِّيَّة فِي العلْم كيف تكون؟ فقال: **أنْ ينوِيَ رفْعَ الجهْلِ عنْ نفسِهِ.**

فإذا كان في طلَبِه للعلْمِ يرُومُ أنْ يكونَ معلِّمًا، أو أنْ يكونَ داعِيًا، أو أنْ يكونَ مؤلِّفًا ونحوَ ذلك فالنِّيَّةُ الصَّالحَةُ فيه والإخلاصُ في ذلك يكون بشيئَين:

الأوَّلُ: أنْ ينوِيَ رفْعَ الجهْلِ عنْ نفْسِه.

الثَّاني: أنْ ينوِيَ رفْعَ الجهلِ عنْ غيْرِه.

فإذا لم ينوِ أحدَ هٰذين، أو لم ينوهِمَا معًا، فإنَّه ليس بصاحِبِ نيَّةٍ صحيحَةٍ، فإذا رامَ أحدُنا أنْ يطلُبَ العِلمَ فلابدَّ أنْ يكونَ ناويًا رفْعَ الجهْلِ عنْ نفسِه، وإذا نوَى هٰذه النِّيَّة يكونُ مستحضِرًا -بالطَّبع- أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه خلَقَهُ ولَهُ عليْهِ أمرٌ ونهيٌ في أَصْلِ الأُصولِ -ألَا وهُوَ حقُّه جلَّ وعلا: التَّوحيدُ-، وكذلِكَ فِي الأمرِ والنَّهيِ في الحلالِ وفي الحرام، ومِنْ أسبابِ الإقدامِ على المنهيَّاتِ في العقائِدِ وكذلك فِي السُّلوكِ الجهْلِ، وثَمَّ أسبابٌ أخْرَى.

فإذا عَلِمَ ورَفَع الجهْلَ عنْ نفسِه، كان عالـمًا بمرادِ الله جلَّ وعلا، ثُمَّ بعْدَ ذلك يستعِينُ اللهَ جلَّ وعلا في امتثالِ مُرادَاتِهِ الشَّرعيَّةِ، هٰذا أمرٌ نفسيٌّ مهِمٌّ.

♦ والأمرُ النَّفسيُّ- الثَّاني المهِمُّ أيضًا: أنَّه حينَ يتلقَّى العِلمَ يتلَقَّى وهو واثِقٌ مِنْ علْمِ المعلِّم؛ يعنِي أنْ يكونَ فِي نفسِهِ أنَّ الأصْلَ فِي المُعلِّمِ أنَّهُ يعلِّمُ على الصَّوابِ، فإذا دخَلَ وفِي نفْسِه أنَّ المُعلِّم يعلِّمُ غلطًا أو أنَّ معلوماتِه مشوَّشةٌ، أو أنَّه كذا وكذا ممَّا يُضعِفُه في العِلمِ، فإنَّه لنْ يستفِيدَ؛ ذلك لأنَّه إذا استمَعَ سيستَمِعُ بنَفَسِ المُعارِضِ، فسيأتِي إذا قال كلمةً أخذ يفكِّرُ بعدَها نصْفَ دقيقة أو دقيقة فيما قال، قال: هٰذا صحيحٌ وفي اطِّلاعاتِه، وقد اطَّلَعَ كذا وكذا ممَّا يعارِضُ كلامَ المعلِّم، ثم في هٰذه الدَّقيقة يكون المعلِّمُ قد أتى بشيءٍ آخَرَ، فإذا انتهى هٰذا من تفكِيرِه سمِعَ جملةً أخرى، فتكونُ مشوَّشةً أيضًا، فيدخُلُ في اعتراضاتٍ، وهٰذا يَحرُمُ المُستَمِعَ العِلْمَ.

وإذا كانَ عِندَ طَالِبِ العِلْمَ فيما يسْمَعُ إشكالاتٍ أو إيرادَاتٍ فيكونُ عندَهُ ورقةٌ أو كُرَّاسَةٌ بيْنَ يديْهِ يكتُبُ الإشكالَ ثُمَّ لا يفكِّرُ فيه، وهو يستمِعُ العلم، يكتب المسألة كذا وكذا، ثُم بعد ذلك إذا فرغ مِن

هٰذا الدَّرسِ يذهب هو ذلك اليوم أو بعده ويبحث هٰذه المسألة أو يسألُ عنها.

ومِن المعلوم أنَّه ليس من شرْطِ المعلِّم أنْ يكون محقِّقًا، وليس مِن شرْطِ المعلِّم أن يكون مُصيبًا دائمًا، فقد يكون له اختيارات أو آراء تخالِفُ المشهور، أو يكون له توجيهاتٌ غلِطَ فيها؛ لكنَّ الشَّأنَ أنْ يكونَ المعلِّمُ مشهودًا له بالعلْم، مؤصَّلًا في العلم، يعرِفُ ما يتكلَّمُ به، فإذا عرَفَ ما يتكلَّم به وعرف أقوالَ النَّاسِ وعلَّمَ العلمَ، فإنَّه قد يكون عنده غفلةٌ في مسألةٍ أو في حكمٍ أو نحو ذلك، فيغلَطُ مرَّةً أو يغلَطُ في تصوُّرٍ ونحوِ ذلك، ليْسَ بالعجِيبِ؛ لأنَّ المعلِّم بشَرٌ والبشَرُ خطَّاؤون.

المهمُّ أنْ تتلقَّى العلمَ ممَّن وثِقْتَ بعِلْمِه وأنْتَ في نفسيَّةٍ غيرِ معارِضَةٍ، وهٰذا يحرِمُ كثِيرين علمًا واسعًا؛ حيثُ إنَّهم يتلقَّوْن العلْمَ بنفسيَّةِ السُّؤالِ بنفسيَّةِ مَن يستشْكِلُ، ولهٰذا مَنْ أكثَرَ السُّؤالَ في حلقاتِ العلْمِ لا يكُونُ مُجيدًا.

وقد حضرتُ مرَّةً عند الشَّيْخ عبدِ الرَّزَّاقِ عفِيفي العلَّامةُ المعروف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، وكان عندَه مَنْ يسألُه عنِ المسائلِ في الحجِّ، فإذا أتى مُستفتٍ يستفْتِي فيأتِي هٰذا السَّائلُ ويقول له: فإنْ كان كذا. يحاوِلُ أنْ يتعلَّمَ

العلمَ بطرْحِ مسائلَ أُخَر غيْرَ المسألة التِي استفْتَى فيها السَّائل، فقال له الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **العِلْمُ لا يُؤتَى هكذا، وإنَّما يُؤتى العِلْمُ بدراسَتِهِ.**

وهٰذا صحيحٌ؛ لأنَّ المتعلِّمَ حين يحضُرُ عند أهلِ العلْمِ فيَسمَعُ فإنَّه إذا عرَضَ لذِهنِه أنَّه في كلِّ ما يأتِي يسأل أو في كلِّ ما يسمع يعترِضْ، كما مرَّ معنا كثيرًا مِنْ بعْضِ الإخوانِ والشَّبابِ في حلقاتِ العلْمِ؛ يُوردون أسئلةً ويُوردونَ استشكالاتٍ طبعًا بحسَبِ ما عندَهُم مِنَ العِلمِ سألُوا واستشكَلُوا ولو صبَرُوا لكان خيرًا لهم.

هٰذه النَّفسيَّةُ تؤثِّرْ على الذِّهنِ وعلى صفائِه وعلى تصوُّرِ العُلومِ في أثناءِ الدَّرْسِ.

لهٰذا ينبَغِي لنَا أنَّنا حينَ نتلقَّى العِلْمَ أنْ نتلقَّاهُ بنفسيَّةِ مَنْ ليْسَ عنْدَه عِلْمٌ البتَّة، يسمعُ ويسمعُ ويسمعُ، وإذا استشكَل فيكونُ بعد ذلك في محلِّه يقيِّدُ، ثمَّ يبحثُ أو يسألُ عنْ ذلك.

طبعًا هٰذا في حقِّ مَنْ وثِقنَا بعلمِه فأخذْنا عنْهُ العِلمَ عنْ ثقةٍ بما يأتِي به.

وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمَّد.

❁❁❁❁

نفسيَّةُ طالِبِ العِلْمِ حينَ يتلقَّى الدَّرْسَ

كلمة

لفضيلة الشَّيخ

صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونية الأولى

سالم
موقع التفريغ
للدروس العلميّة والبحوث الشرعيّة
www.attafreegh.com

الشيخ لم يراجع التفريغ

نصائح مهمة تشحذ الهمة

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا.

أمّا بعد..

فأسأل الله جل وعلا أن يجعلني وإياكم من أهل القَبول لديه، وممن غُفر لهم الذنب والتقصير.

اللّٰهمَّ من أحسن منا فتقبل منه إحسانه، ومن أساء منا فاعفُ عنه وتجاوز عن إساءته.

ثم إن الدروس الباقية في هٰذا الفصل قليلة، وبودي أن لو تمكنا من ختم هٰذا المتن المختصر الطحاوية، ولهٰذا فإنه قد يكون من المناسب أن نجعل الأسبوع القادم الدُّروس فيه يومية؛ يعني كل يوم بعد المغرب من السبت -فقط الأسبوع القادم - حتىٰ نأخذ خمسة أو ستة دروس في الأسبوع يمكن معه إن شاء الله تعالىٰ أن نختم الكتاب بإذنه تعالىٰ.

وتكون إذن بعد المغرب من يوم السبت القادم إن شاء الله السبت الأحد الاثنين الثلاثاء الأربعاء والخميس إن احتجنا إليه.

أسأل الله للجميع الإعانة والتوفيق، وتُنَبِّهون الإخوان الذين ما حضروا؛ لأن الدرس سيصير بعد المغرب يوم السبت، ونسير علىٰ ذلك الأسبوع القادم، ثم نرىٰ إن كان من المناسب أن نكمل علىٰ هٰذه الطريقة حتىٰ نختم؛ لأن هناك قرب اختبارات وأشياء قد ما نتمكن من الختم إلا بهٰذه الطريقة.

ثم إنه بين يدي هٰذا الدَّرس نذكر أشياء تهم طالب العلم في سيره لطلب العلم والتلقي عن الأشياخ والحرص علىٰ ما ينفعه، وهي تذكرة وربما يكون بعضها قد سبق لكم سماعه منّي أو من غيري.

الأمر الأول: الذي ينبغي لك أيها الطالب أن تعتني به أتم عناية أن تذكّر نفسك دائما بأنّ العلم عبادة تتقرَّب بها إلىٰ الله جل وعلا، وأنّ العلماء ذكروا أن أفضل التطوّع أفضل الأعمال بعد الفرائض طلب العلم، وكثير منا طلبه للعلم يكون واجبا؛ لأنه لم يأخذ القدر الكافي فيما ينفعه في دينه؛ في التوحيد، في إصلاح العقيدة، وفي إصلاح العمل بمعرفة الأحكام الشرعية، وهٰذا يحثّك ويجعلك لا تمل ولا تَكِل، وهما الدعّان اللذان يصيبان طالب العلم الملل والتعب والكلل من الحفظ ومن المدارسة ومن الكتابة ومن اقتناء الكتب ومن المطالعة إلىٰ آخر ذلك.

فإذا علمت عظم المقصود وعظم الفضل للعلم وفي طلبه، وأنه أفضل الأعمال، حتىٰ إنّ أهل العلم فضّلوه علىٰ الجهاد -جهاد النفل جهاد التطوع يعني جهاد الأعداء-؛ لأنَّ طلب العلم متعدٍ، لأن طلب العلم متعدي النفع، والقاعدة الشرعية أن الأعمال المتعدِّية في النفع هي أفضل من الأعمال القاصرة، وكلما كان التعدي تعدي النفع أكثر، كلما كان أفضل مما هو أقل منه في تعدِّي النفع، ولهٰذا كان مذهب كثير من أهل العلم أنَّ طلب العلم أفضل من الجهاد التطوع؛ يعني لأن نفعه أكثر تعديا في الغالب.

المسألة الثانية: هي طريقة طلب العلم، وألحظ الإخوة الذين أمامي الآن أن أكثرهم ربما يكون قد سار بتوّه في طريق طلب العلم أو توسّط.

طريقة طلب العلم مهمة، طلب العلم منكم من يحرص علىٰ الحضور عند المشايخ وطلاّب العلم والمعلّمين، فيحضر ويسمع ويكتب، أو يحرص علىٰ التسجيلات؛ لكن هٰذا وحده لا يكفي لابد من الدَّرس والمراجعة، لابد أن تدرس كأنه غدا لديك اختبار، تختبر في هٰذه المواد؛ لابد تدرس وتدقّق في الألفاظ وفي الأدلة وتحفظ وترتِّب وتكتب حتىٰ يكون عندك التلقِّي علىٰ أقوىٰ ما يمكن أن تعمله، وإلا فالسَّماع والكتابة وحدها لا تنفع، تسمع فقط وإلا تسمع وتكتب ثم تنسىٰ هٰذه الفوائد إلىٰ بعد سنة، ترجع إليها تثقل عليك؛ لكن إذا كان لك مراجعة فيما سمعت، مراجعة أسبوعية تدرس فيها الفوائد، تدرس فيها المتن أولا، وتراجع الكلمات ثم الشرح والفوائد، وتحفظ الأدلة، وتنظر كيف تعامل المعلم أو الشيخ كيف تعامل مع النصوص الشرعية، كيف تعامل مع المتن، كيف تعامل مع المسائل، كيف شرح، أوضح، هٰذا هو بالدُّربة احفظ المسائل ويكون عندك قدرة ودُرْبة علىٰ نقل هٰذا العلم.

فإذن كيف تتعلم؟ هٰذا مهم أن تسأل نفسك دائما كيف تتلقىٰ العلم؟ وكيف تأخذ بذلك؟ ومن المهم هنا أن تحرص علىٰ ثلاثة أمور:

الأوَّل: أن يكون ما تقيِّده من الفوائد عن المعلم أو عن الشيخ أو عن طالب العلم أن يكون مرتَّبا بخطٍّ واضح، البعض يكتب بخط صغير متقارب الكلمات ويحشر الصفحة، هٰذه لا تنشِّطه للقراءة، إذا أراد أن يُراجع، فتكتب سطر وتترك سطر بخط واضح والصفحات -ولله الحمد- والورق كثير.

الأمر الثَّاني: أن يكون هناك تلخيص لما قرأت؛ يعني بعد أن تسمع أنت ستنتخب أحسن ما سمعت، ثم بعد ذلك اختر أيضا الفوائد ممَّا كتبت؛ لأن بعض ما كتبت ربما يكون فيه تَكرار، ربما يكون فيه زيادة ونحو ذلك.

المرحلة الثانية أن تنتخب أحسن ما كتبت، الفوائد التي تراها أكثر فائدة لك وتردّدها وتحفظها.

الأمر الثالث: أنه بعد حين لابد أن ترجع إلىٰ ما كتبت عن الشيخ وتراجعه مرة أخرىٰ حفظًا ودراسة؛ لأنّ العلم يذهب بالغفلة ويبقىٰ مع التَّرداد، فيه كتب كثيرة ومختصرات إذا قرأناها مرة ثانية وقد قرأناها عشرة وعشرين مرة تخرج لنا منها فوائد، والمرء لا(١) يَقُل: هٰذا الكتاب قرأناه، هٰذا المتن قرأناه. لا، إذا صار عندك فرصة تراجع ما كتبت، تراجع ما قرأت، وكلما كان الأمر أثبت كلما كان أقوىٰ لك في المستقبل؛ لأنه كلما ثبتت عندك العلوم كلما كان التصور أسهل لديك وحفظ المعلومات الجديدة أسهل؛ لأن ما بني علىٰ صحيح فهو صحيح، وما بني علىٰ مختل فهو مختل، وما بني علىٰ غلط فهو غلط، لهٰذا صارت البِنْيَة الأساسية واضحة وصحيحة فيكون ذلك له أثره فيما بعده.

الثالثة: مما ينبغي لطالب العلم أن يعتني به كثيرا أن يمايز بين الزوائد في شرح الكتاب الواحد أو شرح الكتب المتماثلة المتقاربة، مثلا شرحنا «لمعة الاعتقاد»، شرحنا «الواسطية»، وشرحنا «الحموية»، الآن «الطحاوية» لا شك في كل شرح فيه زيادات علىٰ الشرح الآخر، ربما يكون شرح «الواسطية» أطول من غيره؛ لكن تجد في شرح «الطحاوية» مسائل جديدة ليست هناك، وأيضا في المسألة ربما فيه فوائد

(١) انتهىٰ الشريط الرابع والثلاثون.

وتفصيلات ليس فيما مر، هٰذه أيضا مع بقائها في «شرح الطحاوية» تأخذها زيادة، وتضعها مع شرح الواسطية، هٰذا بالنسبة إلىٰ شرح الشخص الواحد.[1]

لكن إذا كنت تحضر عند أكثر من عالم وأكثر من طالب علم أو سمعت عددا من الأشرطة، والشّروح سمعت من هٰذا، وسمعت من هٰذا، وسمعت من هٰذا، كيف تستفيد من هٰذه الكتب جميعا؟ كل معلم له طريقة له طريقة في التعامل مع الفن أصلا له طريقة في التعامل مع الكتاب في شرح المسائل في تقريب العلم؛ لكن هناك قدر مشترك من المعلومات يكون عند الجميع، وهناك فوائد يتميز بها فلان عن فلان؛ لأنه وفوق كل ذي علم عليم، لابد، لابد أن يكون هٰذا له ما ليس عند ذاك من الفوائد، لن يتطابق الجميع علىٰ شرح واحد.

لهٰذا كيف تعمل في مثل هٰذه الحالة؟

تنظر إلىٰ أكثر الشروح تفصيلًا وإفادة، ثم تنشر الزوائد من الكتب التي سمعت شرحها، أو مما دونت من الفوائد تدوِّنها علىٰ هٰذا حتىٰ يكون أصلا.

يعني تأخذ مثلا شرح سماحة الشيخ[2] علىٰ «كتاب التوحيد» مثلا وتجعله أصلا ثم تأتي في الفوائد الأخرىٰ وتدونها علىٰ هٰذا الشرح، فيكون عند الشرح لهٰذا الكتاب قد جمعته من شروح عدد أهل العلم ودونت فيه أكثر الفوائد التي حرصت عليها.

إذن هٰذه الطريقة مهمَّة في التلقي من معلم واحد أو من شيخ واحد، وكذلك في التَّلقِّي من عدد من المعلمين أو عدد من طلبة العلم والأشياخ.

تختار أحد الشروح التي هي أكثر فوائد، ثم بعد ذلك تأتي بالفوائد الزائدة وتدوِّنها عليه.

المسألة الرابعة: فيما ينفعُك في طلب العلم أن تنتبه دائما إلىٰ أن كثرة التَّفصيلات ليست دليل صحة، وقلَّة التفصيلات ليست أيضا دليل صحة.

وهٰذه مهمة لطالب العلم؛ لأنه سيتعامل مع شروح المشايخ، سيتعامل مع شروح الكتب، ويتعامل مع فوائد ينتقيها من هنا وهناك.

فإذن متىٰ تحرص علىٰ التفصيلات؟ ومتىٰ لا تحرص عليها؟ التفصيلات التي هي طول شرح للمسائل تارة تكون تابعةً لأصل المسألة، فهٰذه احرص عليها، وتارة تكون استطرادات يُستغنىٰ عنها في فهم أصل المسألة وما يتصل بها، فهٰذه يمكنك أن تستغني عنها في الدرس والمراجعة إلىٰ آخره.

وأنت تقرأ مثلا لابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أو لابن القيم يورد المسألة ثم بعد ذلك يستطرد، هٰذه الاستطرادات تارة تكون تخدم أصل المسألة وتارة تكون لا، هي تنظير للمسألة من مسألة إلىٰ أخرىٰ.

وهنا لابد من الانتباه كثيرًا إلىٰ كثرة المعلومات، ونحن الآن في وقت كثرة المعلومات، تسمع من الفتاوىٰ الكثير، تسمع من الشروح الكثير، وتقرأ من الكتب الكثير، وهٰذا الشرح مطول وهٰذا مفصل،

---

(١) ولعل تفريغ هذه الشروح وغيرها يسهّل هذه الطريقة أكثر.

(٢) الشيخ إذا قال: سماحة الشيخ فهو يقصد الشيخ عبد العزيز ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ.

ترجع إلىٰ فتح الباري تجد فيه، وترجع شرح الطحاوية تجد فيه، ترجع إلىٰ فتاوىٰ ابن تيمية.

فكيف تتعامل مع هٰذا الطول؟ تتعامل معه بأنه ما يخدم فهمك للفن اجعله الأساس، ثم هٰذه التفصيلات إذا كانت تخدم المسألة فانقلها علىٰ نحو ما ذكرنا سابقا، وكثّر الفوائد والتفصيلات التي تخدم أصل المسألة، وإلا فإن المسألة الواحدة يمكن أن نمكث في شرح حديث أسبوعا كامل، شرح حديث واحد، إذا كان ستتكلم علىٰ التحليلات اللغوية، ثم أولا قبل كل شيء التخريج مثلا، وتراجم الرواة والتصحيح والتضعيف، ومن قال بصحته والاستطراد في ذلك، ثم نتكلم علىٰ اللغويات والتراكيب والفوائد اللغوية في الحديث، ثم بعد ذلك المسائل الأصولية والأحكام الفقهية واختلاف العلماء والفوائد، هٰذه ستطول جدا المسائل.

ثم لا غرابة أن وجدنا أن الحافظ بن دقيق العبد رَحِمَهُ اللَّهُ شرح في مجلدين كبيرين إذا طبعا فستكون أربعة كبار، شرح في هذين المجلدين نحوًا من أحد عشر حديثا من كتابه «الإلمام»، وهٰذا المسمىٰ بشرح الإلمام لابن دقيق العيد الموجود منه مجلدين، لم يؤلف منه إلا مجلدين شرح فيه بضعة عشر حديثا أو اثنا عشر أو ثلاثة عشر؛ يعني أنه لا زال في أوله، حتىٰ أنه ذكر عند حديث «لولا أن أشق علىٰ أمتي لأمرتهم بالسواك» عند كل صلاة أكثر من ثلاثمائة مسألة، هٰذا لو أردنا أن نتعرض لمثل هٰذه التفاصيل في الشروح.

إذن سيكون الطالب يجلب له كل شيء من الكتب وكل المسائل تعرض عليه، هٰذا ليس هو العلم، العلم أن تخدم المتن الذي تحفظه أو تدرسه مما يكون موافقًا للمنهجية أن تخدمه بالشروح والتفصيلات حتىٰ تضبطه.

ثم بعد ذلك إذا جاءت التفصيلات تأتي التفصيلات وأنت بالخيار تأخذ منها ما تشاء وتدع منها ما تشاء؛ لكن الطول لا يخدم.

لهٰذا تهتم كثيرا بما ينفعك من التفصيلات، التفصيلات هٰذه لا تتساهل في أن تسمع الكثير وتقول هٰذا أفضل، لا، قد يكون ذلك ويشتّت ذهنك في العلم.

فإذن الطريقة المثلىٰ لهٰذا ما ذكرته لك من أن هٰذه التفصيلات تميِّزها، هل تخدم أصل الكتاب؟ هل تخدم أصل المسألة أم أنها استطرادية في مسائل لا صلة لها بأصل المسألة.

مع الزمن ستجد أنك ترقّيت في العلم، تفصيلات استغنيت عنها في سنتك الثالثة في طلبك للعلم أو الرابعة؛ لكنك تجد ...... في أول السن صار واضحا بحيث تقول: كيف استفدت هٰذه الفوائد؟ كيف أجعلها فوائد أصلا، فتجد أنك تحتاج إلىٰ تفصيلات أخر ومزيد من العلم وتدقيقات، وهكذا ينبني بناء العلم لك شيئا فشيئا.

المسألة الخامسة: وقد ذكرتها لكم مرارًا الاهتمام بالكتب التي تقرأ فيها، والطبعات، والآن المطابع ترمي بآلاف من المطبوعات المختلفة، لابد أن تنتقي الكتاب الذي تأخذ منه، تجعله مرجعا لك في مكتبتك، ليس كل كتاب يصلح، ليس كل طبعة أعني تصلح، يعني مثلا «فتح الباري» متقاربة الطبعات؛ لكن مثال كم له من طبعة؟ له أكثر من عشر طبعات، بداية من طبعة الهند إلىٰ الطبعات الأخيرة هٰذه

الملونة التي فيها أحمر وأسود الصغيرة طيب، عندك «شرح مسلم» للنووي أيضا طبعات كثيرة، «المغني» كم هناك من طبعة له الكثير، كتب الفقه، كتب الحديث، كتب الرجال كم لها من طبعة؟ تأخذ لابد تنتقي الطبعة وتحفظها بحيث أنه تكون عندك في المراجعة.

هٰذه المعلومات سبق أن سمعها الأكثر مني؛ لكن وجود كثير من الأخوة ممن ربما لم يسمعوا القديم يجعلنا نكرر ليتّضح الأمر.

المسألة السادسة: أهمية البحث، وهٰذه ألقينا فيها كلمة مستقلة مطوّلة، وجاءتني رسالة من بعض الإخوة يقول فيها أنه سمع هٰذه المحاضرة أو الكلمة في منهجية البحث، وهي ألقيناها هنا في بداية الدروس في أحد الفصول-: وهٰذا تعقيد للعلم الذي ذكرت ويثبط الهمة وو إلىٰ آخره من الكلام، قال في آخره: وأظنك أنت –يعنيني- أظنك لا تطبق ما ذكرت أصلا.

وهٰذا الكلام وإن كان انفعاليا؛ لكنه دليل صحة؛ لأنه كون المرء استمع للكلام وتأثر وأحس أن هٰذا صعب هٰذا دليل خير، لماذا؟ لأنه يدل علىٰ أنه وجد أن طريقته التي كان يسير عليها في البحث ليست هي الطريقة السليمة، هٰذا الذي كان يهمنا أن نوصله للإخوة، أن يكون هناك سعي في أن يكون البحث موافقا للطريقة السليمة، والعلوم إنما تثبت بالبحث، لا يمكن أن تتقدم في العلم إلا بالبحث، والبحث إذا كان سليمًا كانت النتائج سليمة، وإذا كان البحث قاصرًا أو غير ممنهج كذلك ستكون النتائج علىٰ غرار قوة البحث وضعفه.

لهٰذا نقول: كيف تبحث؟ هٰذه مهمَّة جدًّا، فينبغي أن تراجع الكلمة التي قلناها سابقا وتهتم بالبحث يعني أن يكون عندك تقسيم لوقتك، تدرس علىٰ المشايخ جزءا، تقرأ المتون الأساسية وتحفظ وتؤسس نفسك في جزء، تقرأ المطولات والشروحات هٰذه والأشياء التي ترغب فيها في بحث المسائل هٰذا جزء، وأيضا تبحث في مسائل بحثا مكتوبًا، هٰذا مهم لأن الذي لا يبحث لا تتأصل عنده المسائل، الذي لا يبحث ويطالع المسألة، ينظر ماذا قال هنا وماذا قال هنا أوش قال في الكتاب الفلاني، لا تتأصل عنده المسائل.

في مسألة من المسائل كنت أنا أظن أنه مجمع عليها، وإذا بي في حج هٰذا العام عرفت أن فيها خلاف، وخلاف قديم للسلف وقوي، وهناك من نسبها من نسب المسألة إلىٰ الإجماع أن العلماء أجمعوا عليها.

فإذن العلم لا يكون إلا بالبحث؛ لكن البحث هنا لا يكون بحثا مقروءًا؛ يعني تقرأ فقط، بل لابد أن تكتب؛ لأنه إذا لم تكتب ستلحظ أنه أن بحثك بعد شهرين أو ثلاثة أربعة خمسة انتهىٰ، لا تذكر منه شيئا، لهٰذا إذا بحثت في ساعتين أو ثلاث أو خمس تكتب ما بحثت يبقىٰ، وإلا فستبقىٰ المعلومة معك لمدة أسبوع أسبوعين ثم تذهب.

وهٰذا واقع ومجرّب، لهٰذا أؤكّد علىٰ أهمية أن تبحث وأن يكون بحثك مكتوبًا تارة أو تارات، ومقروءا تارة.

في تفسير آية لا تحرص علىٰ أن تسأل أيش معنىٰ الآية الفلانية؟ ابحث قبل، ثم بعد ذلك اسأل المشايخ والعلماء عن معناها.

المسألة الفقهية، ما حكم كذا وكذا؟ ابحث قبل، ثم بعد ذلك سل.

ومرة كتب أحد القضاة إلىٰ سماحة جدّي الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ، كتب إليه يسأله عن حكم مسألة عرضت له في القضاء، فأجابه الشيخ بسطرين قال: المسألة معروفة في جميع كتب أهل العلم؛ لكنك كسلان لا تبحث. والسلام.

وهٰذا واقع؛ لأن طالب العلم إذا تعود علىٰ أن يسأل ولا يبحث، فإنه سيصاب؛ لأن السؤال لن يأتي دائما، السؤال لا ينشط الإنسان.

ومرة كان الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي رَحِمَهُ اللهُ في الحج، ذكرت لكم القصة وكان واحد جنبه يسأله ويسأله ويسأله، قال: العلم لا ينال بهٰذه الطريقة، اقرأ المسائل اقرأ العلم اقرأ الكتب بعد ذلك أشكل شيء تسأل عنه، أما كل مسألة تسأل عنها، ما حكم كذا ما حكم كذا، لو عمل كذا لو لم يعمل لا تحصّل العلم بذلك.

فإذن البحث مهم وبعد البحث تسأل، بعد البحث تعرض علىٰ أهل العلم ما بحثت، والله هٰذه طريقتي في بحث مسألة فقهية هل هي سليمة أم ليست بسليمة؟ هٰذا تخريج حديث أحاديث خرجتها بهٰذه الطريقة، مثلا تكون متأثرا في تخريج الأحاديث بمدرسة من المدارس الموجودة في تخريج الأحاديث، وتكون المدرسة عليها ملاحظات أو ليست المدرسة الصحيحة في التخريج، فإذا عرضتها علىٰ من يبحث معك أو يناقشك أو يعلّمك فإنك ستستفيد.

فإذن من المهم أن يكون لطالب العلم بحث مقروء يقرؤه هو، يبحث المسائل، وبحث مكتوب يعرضه علىٰ من هو أعلم منه.

المسألة السابعة: كثيرًا ما أُورد مثلا أو يورد غيري ممن يدرّسون -خاصة العقيدة- خلاف المذاهب الضالة، مثلا قول الخوارج، قول المعتزلة، قول الأشاعرة، قول الماتريدية قول كذا، وربما يأتي بعض طلبة العلم منكم يحرص علىٰ مراجعة كتب القوم، وهٰذا لا يُنصح به، ولا ينبغي لطالب العلم في طلبه للعلم أن يسلك هٰذا السبيل؛ لأن الأصل أن مذاهب هؤلاء من مذاهب أهل الأهواء، وأهل الأهواء لا يقرأ كلامهم؛ لأنه لا يؤمن علىٰ طالب العلم أن يتأثر، أو أن يجد فيما قرأ شبهة لم يردّها شيخه، فتبقىٰ الشبهة ويحتار في رده عليها إلىٰ آخر ذلك.

لهٰذا يعني عدد من الأخوة طلبوا أسماء مراجع المذاهب المخالفة لمذهب أهل السنة والجماعة من كتب المعتزلة والخوارج والأشاعرة، وطبعا الجواب أنه لا يرشد أحد إلىٰ هٰذه المذاهب من طلاب العلم إلىٰ كتب القوم حتىٰ يقرأها، لا؛ بل الذي نقل له هٰذه المذاهب وبينها له ثقة فيأخذها علىٰ هٰذا النحو.

وقد كان مشايخنا رحمهم الله -رحم الله الأموات وأطال في عمر الأحياء وبارك في الجميع-، كانوا يعتمدون في نقل المذاهب المخالفة علىٰ أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ونحوهما ممن يعتنون بنقل المذاهب هٰذه فقط، ولا يرجعون إلىٰ أصل الكتب؛ لأنهم ثقات وحديث النبي ﷺ إذا نقله عدل ثقة قبلناه واعتمدناه وصار حجة لنقل العدل الضابط عن مثله، فكيف بمذاهب الآخرين التي هي مذاهب

ردية.

ربما يأتي وقت يكون طالب العلم بَحّاثة في تحقيق مسألة ما، هنا قد يرخص له إذا كان يريد الرد ويريد المناقشة ونحو ذلك، قد يرخَّص له في حد محدود؛ لكن طلاب العلم من أمثالكم يقرؤون في كتب القوم وفي تفاسير الأشاعرة وتفاسير المعتزلة أو نحو ذلك، لا، ولا يعرّض المرء دينه للخطر.

هٰذه بعض كلمات تناسب البداية، ونجيب بعدها علىٰ بعض الأسئلة.

[الأسئلة]

سؤال (٤٠٦): لا يخفىٰ عليكم ما يحصل من مخالفات في التعزية في هٰذا الزمن، وأقلها اجتماع أهل الميت القريبين والبعيدين في بيت أحدهم أو في بيت الميت، وتلقي العزاء لمدة أيام، وقد اختلفت آراء العلماء في هٰذا.

فالسؤال: إذا حصل لي ذلك هل أترك المنزل ولا أستسلم، مع أن أقاربي يحملون الإنسان علىٰ ذلك؟ إلىٰ آخره.

الجواب: مسائل التعزية واجتماع أقارب الميت الذين يُقصد تعزيتهم أو مواساتُهم في موت قريب لهم؛ يعني الاجتماع المعروف الذي يسمىٰ اجتماع العزاء، هٰذا حصل الكلام؛ كلام الشباب فيه وبعض الناس في هٰذا الوقت من جرّاء فتوىٰ لفضيلة الشيخ محمد بن عثيمين في أنّ الاجتماع لا يشرع، أصل الاجتماع؛ بل الذي يشرع هو التفرّق.

وبقية علمائنا وعلىٰ رأسهم سماحة الشيخ عبد العزيز وبقية المشايخ يقولون: لا بأس بالاجتماع، وهٰذا القول هو الأولىٰ والرّاجح؛ لأن الاجتماع إلىٰ أهل الميت في هٰذا الزمن يحصل به التَّعزية، والتعزية سنة وعملٌ مشروع قد قال عليه الصلاة والسلام: «**من عزىٰ مصابا فله مثل أجره**»، والمواساة مشروعة، وإذا تفرق الناس فلن تحصل المواساة والتعزية إلا بكَلَفة؛ يعني أين تلقاه هل في العمل الفلاني ستجده أو في بيته أو خرج، وسيكون هناك مشقة في التتبع وفوت للتعزية.

ولهٰذا قال من أفتىٰ بمشروعية الاجتماع قال: إنه يدخل تحت قاعدة الوسيلة للمشروع مشروعة، وأنّ الوسائل لها أحكام المقاصد، فلما كان المقصَد وهو السعي مشروعا فوسيلته **الآن** وهي الاجتماع مشروعة، في مثل هٰذه المدن الكبار مثل تفرّق الناس ونحو ذلك، لا يحصل إلا بهٰذا، إلا فيما ندر إذا كانت القرية صغيرة أو الإنسان معروف أنه طول الوقت في هٰذا أو كان المعزىٰ واحد فقط؛ يعني واحد فقط إما أن يكون في بيته أو في عمله، فهٰذه المسألة تختلف؛ لكن إذا تعدّدوا وصارت التعزية لا تحصل إلا بالاجتماع اجتماع من يُعزىٰ أولىٰ من تفرقهم؛ لأنّ التعزية التي فيها تسلية ومواساة وتحصيل للأجر لا تحصل إلا بذلك.

هنا هل الاجتماع يُعد من النياحة؟ الاجتماع لا يعدّ من النياحة إلا إذا انظمّ إليه أن يصنع أهل الميت الطعام للحاضرين جميعًا ليظهر الفخر ويظهر كثرة من يحضر الوليمة ونحو ذلك، وهٰذا موجود، كان في الجاهلية، ولهٰذا جاء في حديث أبي أيوب: كنا نعدُّ الاجتماع إلىٰ أهل الميت وصنعهم الطعام من النياحة.

فالنياحة تشمل شيئين صنع الطعام مع الاجتماع، لماذا؟ لأن أهل الميت هم الذين يصنعون الطعام ويدعون الناس ليقال: هٰذا عزاء فلان أنه أكبر عزاء، أو أنهم اجتمعوا لأجل فلان، فلان ما يموت ويروح هكذا، مثل ما يقول بعض البادية، فيعملون سرادقات ضخمة وكذا، وهم الذين يتكلفون بصنع الطعام وبنحر الإبل وبذبح الذبائح؛ ليكثر من يجتمع عليها، هٰذه النياحة المنهي عنها بالاتفاق.

أما الاجتماع اجتماع المواساة والعزاء دون صنع الطعام ودون تكلف، فإن هٰذا لا يدخل في النياحة، وقد جاء في «صحيح البخاري» أنّ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كان إذا مات لها ميت اجتمع النساء من قرابتها إليها، اجتمعوا إليها، فقالت: فربما حضر وقت الطعام فقامت امرأة إلىٰ برمتها أو كذا فصنعت شيئا يأكلونه. يعني هؤلاء القرابة القليلين.

اُستدل بهٰذا الحديث علىٰ أن أصل الاجتماع للنساء لأجل المواساة تجتمع المرأة بقريبتها أختها فلانة كذا أن هٰذا له أصل من هدي السلف.

أيضا الاجتماع اجتماع الرجال ليس ثم ما يمنع منه.

ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ وغيره تكلموا عن مسألة الاجتماع، وقالوا: إن هدي السلف هو التفرق، والنبي ﷺ ما أُثر عنه أنه جلس في مكان ليقبل العزاء أو نحو ذلك. وهٰذا صحيح؛ لكنه ليس الحال هو الحال، وليس الوقت هو الوقت، وليست الصورة هي الصورة الموجودة في هٰذا الزمن، فكلام ابن القيم علىٰ بابه في قرية؛ واحد معروف إذا ما لقيته في بيته تلقاه في المسجد أو في السوق أو نحو ذلك، في شيء محدود هٰذا صحيح.

أما في مثل بلد لا يمكن أن يلتقي فيه الناس إلا باجتماع، أو إذا تفرّقوا عسر علىٰ الناس تحقيق سنة العزاء فإن الاجتماع للعزاء لا بأس به.

أما تحديد مدة فلا أصل له، تحديد مدة ثلاثة أيام سبعة أيام اختلف فيها الفقهاء لكن لا أصل له من السنة، السنة ليس فيها دليل يدلُّ علىٰ أن مدة العزاء محدودة بأيام؛ بل مدة العزاء تكون بحسَب من يأتي، إذا كان الناس يأتون يوم فينتهي، يومين وانتهىٰ، خمسة أيام وانتهىٰ وهكذا، وإن كان غالب أحوال الناس أنهم في ثلاثة أيام الأول ينتهون؛ لكن لا أصل لتحديد المدة في الشرع.

سؤال (٤٠٧): ما هو رأيكم في قراءة طلاب العلم للجرائد؟

الجواب: الجرائد هٰذه فيها ما ينفع وفيها ما يضر، فهي بحسب الحال، إذا كان يطلع علىٰ أشياء تنفعه في دينه أو في الأخبار أو فيما حوله ليكون علىٰ بينة، هٰذا طيب لا بأس به، أما إذا كانت ستشغله علىٰ طلب العلم أو يقرأ جريدة يبقىٰ فيها ساعة، والكتاب ما يصبر عليه ساعة، هٰذه ليست من سيما أهل العلم.

سؤال (٤٠٨): لو رأيتم جعل الدروس بعد صلاة العشاء نظرا لأحوال بعض الطلبة؟

الجواب: بعد العشاء الوقت ضيق وصعب أننا نستمر بعد العشاء الأسبوع القادم نستمر الأسبوع كاملا؛ يعني كل يوم بعد العشاء؛ لأن بعد العشاء تعترضه ارتباطات ومناسبات وإلىٰ آخره، بعد المغرب يمكن أن نستمر في الأسبوع كله، ونسأل الله الإعانة للجميع.

سؤال (٤٠٩): نحن مجموعة شباب نريد أن نقرأ العلم علىٰ المشايخ؛ ولكن لم نجد أحدا من المشايخ نقرأ عليه، كما هو المعتاد في التدرج لطلب العلم.

الجواب: ستجد إن شاء الله تعالىٰ، المشايخ ولله الحمد كثير خاصة في الحواضر الكبيرة مثل الرياض والقصيم ومكة والمدينة وأشباه ذلك هاهنا طلبة العلم والمشايخ كثير؛ لكن لا تشترط خذ من يفيدك من يكون نافعا للطلاب وصابرا عليهم، ولا تشترط أن يكون الذي تقرأ عليه فلان. بعض الناس: فلان.

مرة أذكر أحد الطلاب كان من القصيم، ولقيني في مكان نسيت الآن أين هو، قال: أنا جاي من القصيم وأريد أن أقرأ عليك، أمر عليك متن من المتون نسيت ماهو، أظن «ثلاثة الأصول» أو غيره، قلت له: خير إن شاء الله ذاك الوقت كان عندي بعض الفراغ، قلت غدا إن شاء الله بعد العصر أو بعد غد، قال: لا أنا أريد الليلة. لماذا الليلة؟ قال: لأني بعد الفجر راجع إلىٰ القصيم، طيب الليلة الآن فيه دعوة قد ننتهي عشرة ونصف أو إحدىٰ عشر، قال: استرحلك ساعة وبعد الثانية عشر أنا مستعد أسهر إلىٰ الفجر حتىٰ نتمّه، هٰذا شيء مو معقول، قال: والله المستعان الأولين جاهدوا في طلب العلم وفي التعليم، طيب أنت جاهد اجلس للظهر.....

الشاهد بعض الإخوة يتشدد في اختيار المشايخ والمتون الأولىٰ لا تحتاج إلىٰ تشدد تأخذ من تقرأ عليه؛ لأن التصور الأول والإمرار الأول لعلم يكون ممن ينفع، لا تشترط، لا تتشدد فيه، وبعد ذلك يمكن أن تجد من هو أمكن في تدريس العلم.

سؤال (٤١٠): نريد منهجا جيدا في قراءة الكتب، هل يكتفىٰ بقراءة مرة واحدة أم لابد من تكرار الكتب، وكيف يمكن هٰذا مع الكم الكبير للكتب؟

الجواب: قراءة الكتب تختلف، بعض الكتب يكون كتاب علم مؤصل، هٰذا ممكن تقرأ مرتين ثلاث، وبعض الكتب لا يكون للمرجع فقط تقرأ مرة عند الحاجة، يعني مثلا «تيسير العزيز الحميد»، «فتح المجيد»، هٰذه تقرأها عدة مرات لأنها كتب أصول، و«شرح الواسطية» للشيخ ابن رشيد رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ، مثل «شرح الطحاوية» ونحو ذلك هٰذه مهمة لو قرأتها كذا مرة لا بأس، مثل شرح شروح البلوغ، مثل الشروح علىٰ الزاد أو الحواشي ما يضر هٰذا بل هو أفضل إذا كررتها؛ لكن مثل «فتح الباري» تمر عليه مثل المغني الكافي إلىٰ آخره تمر عليه كذا مرة ليس هٰذا الكتاب أو ذاك مما يقرأ كثيرا.

فإذن بعض الكتب إذا كررتها أمكن لك وبعضها إذا مررت عليها وقت الحاجة وعند المراجعة فهٰذا هو المقصود.

سؤال (٤١١): كتاب «مدارج السالكين» نرجو أن تكون هناك كلمة قصيرة حوله؟

الجواب: «مدارج السالكين» من الكتب الكبيرة المهمة للعلامة شمس الدين بن القيم رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ شرح به كتابا مختصرا لشيخ الإسلام الهروي كتاب اسمه «منازل السائرين إلىٰ الله»، وهي مراتب في المقامات والأحوال عند أهل التصوف، شيخ الإسلام الهروي كان حنبليا؛ ولكنه ربما تأثر بالطرق الصوفية وشارك القشيري والحُلَيمي وجماعة ومثل هؤلاء الكلاباذي في المقامات والأحوال والتعاريف لها.

هٰذا الكتاب الذي هو منازل السائرين اعتنىٰ به الصوفية وحولوه إلىٰ أشياء من وحدة الوجود وأشياء

تخالف هدي السلف، فأراد ابن القيم، وقد كان في فترة من حياته متأثرا بالقوم بعض التأثر، أراد ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يكتب كتابا سلفيًّا في السلوك يهدي به المتصوِّفة ويكون أيضا سبيلًا لأهل السنة في إطلاع علىٰ السلوك السلفي .... «منازل السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين».

الكتاب في أكثره يمكن أن يفهم ويوجه علىٰ منهج السلف، وفي بعضه أشياء لا توافق منهج السلف ولا تربية السلف إلا علىٰ ضرب من التأويل يصعب، مثل الكلام علىٰ منزلة البرق ومنزلة الصعق ومنزلة كذا وكذا، ومثل الكلام علىٰ الفناء وأشباه ذلك مما لا يفهمه كل أحد.

حتىٰ إنه في أثنائه ذكر أشياء ربما اعترض عليها بعض العلماء؛ لكن ابن القيم له وجهته في ذلك ووجهته صحيحة، وأراد به هداية الطائفتين يعني الصوفية يهتدوا إلىٰ منهج السلف، ويريد ممن يكونوا علىٰ منهاج السلف أن يكون عنده سلوك شرعي؛ يعني عنده زهد عنده عبادة، عنده رعاية لمقامات القلوب وأحوال القلوب والإيمان والعمل الصالح وما أمر الله جل وعلا به من منازل العبادة.

سؤال (٤١٢): هل يمكن أن يخرج الشرح للطحاوية مطبوعًا كما فعل بعض المشايخ الآن؟ نأمل ذلك.

الجواب: وأرجو أنا أيضا أن يكون ذلك متحقِّقًا.

سؤال (٤١٣): كيف يكون الإخلاص في طلب العلم، هل يكون طلب العلم للعمل أو للدعوة، آمل الإجابة والتوضيح الشافي؟

الجواب: ذكرنا لكم مرارا أن الإخلاص في طلب العلم والنية فيه يكون بشيئين:

الأول أن يكون متقربا به إلىٰ الله جل وعلا وحده، لا يريد بطلب العلم نيل جاه في الدنيا ولا سمعة ولا أن يصرف وجوه الناس إليه، أن يكون مخلصًا لله، يرجو الله والدار الآخرة، والقصد وجه الله بالأعمال والأقوال والنيات.

والثاني في تحقيق الإخلاص والنية الصَّحيحة في طلب العلم أن ينوي بطلبه للعلم رفع الجهل عن نفسه، حين يطلب، لماذا تطلب العلم؟ تنوي رفع الجهل عن نفسك، والجهل ذمه الله جل وعلا وامتدح أهل العلم وبين أنه رفعهم علىٰ المؤمنين درجات.

فإذن يطلب العلم ليرفع الجهل عن نفسه، لهٰذا سئل الإمام أحمد: كيف تكون النية صالحة في العلم؟ قال: أن ينوي رفع الجهل عن نفسه؛ يعني مع نية الإخلاص لله جل جلاله.

ثم بعد ذلك يترقىٰ وجد في نفسه انشراحا أن يعلم غيره، هنا يكون معه نية أخرىٰ أيضا أن ينوي بطلبه للعلم رفع الجهل عن الناس، يكون لا ينوي أن يتصدر، أن يقال: هٰذا فلان بل ينوي أن يرفع الجهل عن الناس، وهٰذه النية الصالحة لها علامة ولها دلالة؛ وهو أن يكون في تعلُّمه لنفسه أو تعليمه أن يعلِّم ما يحتاجه الناس، أما أن يعلم ما لا يحتاجه الناس، فهٰذه ربما تكون لشهوة في النفس، وربما تكون لغرض آخر.

لهٰذا ابن تيمية لما بحث مسألة الأعمال -ذكرتها لكم عدة مرات- لما ذكر الأعمال التي يفعلُها المؤمن لرغبة وشهوة له فيها، مثلا يحب يُكرم الناس لأجل رغبة هو في داخله، إذا أكرم الناس يرتاح،

يحب يعطي فلان ويعطي فلان ويسعىٰ ويكون عنده نخوة شيء يجده في صدره، إذا كان هٰذه ارتاح ونحو ذلك.

طلب العلم يطلب العلم لأنه ينشرح لطلب العلم، تقول له أدرس العقيدة، يقول أنا منشرح في مصطلح الحديث وللرجال هٰذا الأمر، منشرح الصدر في هٰذا الأمر منشرح الصدر في طلب الصدر، يبحث معك في الحلال والحرام لا يعرف أحكام كثيرة لا في الصلاة ولا في الحج ولا في البيوع أو في معاملته مع أهله أو نحو ذلك من الأحكام.

فهنا سئل شيخ الإسلام: هل من عمل عملا مما يتعبد به للذة تحصل له في هٰذا العمل هل هو مأجور أم يكون مرائيا؟ وأجاب عنها في رسالة مطبوعة بتحقيق الدكتور رشاد سالم رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ.

وملخص الجواب أنه إن كان في أصله مخلصًا لله جل وعلا فيكون ما حصل له من لذة الطاعة يكون تبعًا لأصله؛ لكن ينبغي أن يتنبه إلىٰ التفريق ما بين اللذة التي هي للدنيا واللذة التابعة؛ يعني شيء تبع شيئا أو هو مستقل في اللَّذات هو يريده بلذة له.

واستدل له -الجواب طويل- استدل له بما ثبت في السنن أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لبلال: «**يا بلال أقم**(١) **الصلاة أرحنا بها**»، فقوله: «**أرحنا بها**» دل علىٰ أن حصول الراحة للإنسان بالتعبُّد لا يمنع صحة العبادة والإخلاص فيها.

كذلك السِّياحة، المرء يذهب لشيء يجده في نفسه من السياحة، وقد أثنىٰ الله جل وعلا علىٰ بعض عباده بأنهم سائحون، والسَّائحون إما أن يكونوا الصائمين كما في تفسير، أو أن يكونوا المجاهدين في سبيل الله في تفسير، فحصول هٰذه اللَّذّة لهم لم تمنع الأجر.

المقصود من ذلك أن تحصيل النية في العلم وفي الانتباه لهٰذا الأصل مهم لأجل الإقبال علىٰ الخير والمداومة علىٰ ذلك.

نكتفي بهٰذا القدر.

سؤال (٤١٤): لو تكرمت وجعلت الدرس في أول الأسبوع بعد العشاء وباقي الأيام بين المغرب والعشاء لأن الغياب كثير وبعض الإخوان قد يتأخر عن الحضور.

الجواب: رأي مبارك، يعني قصده فيه ناس ما جاءوا اليوم يجيون الأسبوع القادم بعد العشاء علىٰ العادة يكون قد فاتهم الدرس، نجعله الدرس القادم بعد العشاء، أيش رأيكم؟ مناسب وننبهم علىٰ أن باقي الأسبوع يكون بعد المغرب، خير إن شاء الله.

نكتفي بهٰذا، ونلتقي بكم إن شاء الله تعالىٰ. وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد.

(١) انتهىٰ الوجه الأول من الشريط الخامس والثلاثين.

أدبُ طالب العلم
مع مشايخه ومعلِّميه

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

[الدرس السابع من دروس شرح الطحاوية]

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وأشهد أن لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبد الله ورسوله، صلَّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعد..

فأسأل اللهَ جل وعلا أن يجعلني وإيَّاكم من المتقرِّبين إليه بما يحبُّ، ومن المخلصين له دينَهم، وأن يجعلنا من أهل الدُّعاء المسموع والقلب الخاشع، وأن لا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين.

وقد جرت العادة أنَّه في ابتداء هٰذه الدُّروس أن نقدِّم بمقدِّمة نافعة في آداب المتعلِّم في طلبه للعلم، ومع مشايخه، وفي صِلته بالكتب، وبالحفظ.. وأشباه ذلك ممَّا يحتاجه المتعلِّمون.

ولا شكَّ أنَّ الأدب العام لطالب العلم مهمٌّ كأهمِّية العلم؛ لأنَّ من لم يُدرك الأدب ولم يكن متأدِّبًا بآداب أهل العلم فيما يأتي وفيما يذر وفي منهجه وفي طريقته؛ فإنَّه يفوته الانتفاع بالعلم كثيرًا؛ لأنَّ هناك صلة قوية متينة ما بين الأدب والعلم؛ أدب طالب العلم وما بين العلم نفسِه.

وقد ذكروا أنه كان يُحصىٰ في مجلس الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ يُحصىٰ فيه عدد من الألوف كلهم يسمعون كلامه وكان الذين يكتبون منهم قريبا من خمسمائة وأما الباقي فيستفيدون الأدب والهدي والعلم؛ يعني العلم العام.

وهٰذا ملاحظ فإنه ليس كل من يحضر متحقِّقًا للعلم، متحققا بطريقة تحصيله، ولكن لن يعدم خيرًا وفائدة، وقد قال أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (**لا خير في الدُّنيا إلا لأحد رجلين متكلِّم عالم أو صامت واعٍ**) وهٰذا ظاهر بيِّن فيما تلاحظه فإنَّ الدنيا لا خير فيها إلا لعالم متكلِّم يفيد أو صامت كافٍّ عمّا لا يعنيه واعٍ للعلم النافع الذي يلقىٰ إليه، كما قال ربنا جل وعلا: ﴿**لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾**﴾ [النساء]، وقد صحَّ عنه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أنه قال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليومِ الآخرِ: فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَو لِيَصْمُتْ**»، وهٰذا كما قال أبو الدرداء (لا خير في الدُّنيا إلا لأحد رجلين صامت واعٍ أو عالم متكلم) أو كما قال.

لهٰذا عرضنا فيما سبق عددًا من الآداب في صدر هٰذه الدُّروس التي ينبغي لطالب العلم أن يتعاهدها وأن يتعلمها.

ونذكر في هٰذه الليلة: **أدب طالب العلم مع مشايخه ومعلميه.**

وقبل هٰذا نذكر بعض الكتب التي عُنيت بآداب طالب العلم بعامة ومع المشايخ بخاصَّة، فمن ذلك:

- كتاب ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ «الجامع».
- وكتاب الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضا «الجامع».
- ومن ذلك كتاب ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ «تذكرة السَّامع والمتعلم».
- ومن ذلك مقدِّمة «المجموع شرح المهذب» للنَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- ومن ذلك أيضا ما تفرق في كتاب «سير أعلام النبلاء» من آداب كثيرة.
- ومنها ما جاء في مقدمة «سنن الدارمي» أيضا.

وفي عدد من الكتب التي ذكرت فيها آداب كثيرة لطالب العلم، وقد صُنِّف في هٰذا الوقت المتأخِّر يعني في زماننا مؤلفات كثيرة ما بين من أجاد ومن توسط ومن كان ضعيفا.

والمقصود من ذلك أن يحصِّل طالب العلم مع العلم الأدب، ونعني بالأدب الهدي والسَّمت الذي يكون عليه، ولهٰذا كان من الأصول العامة التي ينبغي التواصي بها أن يكون طالب العلم ذا سمت حسن وذا هدي ودل، فقد قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: ما كان أحد أشبه هديا وسمتا ودلًّا لرسول الله ﷺ من ابن مسعود. وقال بعض أصحاب ابن مسعود: ما كان أحد أشبه سمتا لابن مسعود من الربيع بن خُثيم. وهكذا في أمثلة كثيرة يكون المتعلِّم يأخذ مع العلم الهدي والسَّمت والأدب؛ لأنَّ هٰذه لا يحصِّلها المتعلم بالقراءة للكتب ولا يحصلها بالإطلاع ولا يحصلها بكثرة السماع المجرد عن الاختلاط، ولهٰذا كان كثيرٌ من طلاب العلم الذين لا يخالطون المشايخ ولا يقتربون منهم يفقدون كثيرًا من الهدي والسمت والمنهج لأجل عدم القُرب من أهل العلم والمشايخ.

فالأصل العام أن يكون طالب العلم حريصا علىٰ الهدي وعلىٰ السَّمت وعلىٰ العلم، وأن يكون متأدبا بآداب المشايخ، وكلَّما كان المرء أصحب للمشايخ وأقل صحبة لأقرانه كلَّما كان أقرب إلىٰ العلم؛ لأنه هناك صلة وثيقة ما بين إدراك العلم والمخالطة، فإذا خالط من هو أكبر منه من أهل العلم والمشايخ فإنَّه يكون هديه وفهمه وفكره قريبًا من هديهم وعلمهم وفكرهم وسمتهم ورؤيتهم للأشياء وكيف تعلَّموا وكيف أخذوا وكيف يتعاملون مع الكتب ومع الناس إلىٰ آخر ذلك، ممَّا لا يدركه من قرأ في الكتب وحدها.

ولهٰذا قال بعض المتقدِّمين كما ذكره العسكري في بعض كتبه وذكره غيره قال: من أعظم البليَّة تشيّخ الصَّحفيّ. يعني الذين أخذوا العلم عن الصحف ولم يخالطوا المشايخ فإن تصدرهم يحدث بلاء وإن

انتفع الناس بهم، لكن عدم مخالطتهم لأهل العلم وأخذهم الهدىٰ والدلّ والسمت من أهل العلم فإنه يُفقدهم ذلك شيئا كثيرا، لهٰذا في هٰذا الدرس الموجز كمقدمة لهٰذه الدروس نعرض لبعض آداب طالب العلم مع المتعلم ومع شيخه وذلك إكمالًا لجملة آداب عرضنا لها فيما مضىٰ في صدر هٰذه الدروس.

أول الأدب مع المشايخ والمعلمين:

أن يكون الطالب حَسَن الظن بشيخه في العلم الذي يتعلمه منه.

وهٰذا يعني أن ينتقي لنفسه من يحسن العلم الذي يعلمه، معلوم أن أهل العلم لا يدركون كل العلوم، فليس من شرط العالم أو الشيخ الذي يعلم أن يكون متصدرا في كل فن وفي كل علم، هٰذا قلّ من يؤتاه، ولكن المهم أنه إذا تكلم في علم من العلوم أجاد، يحسن تقرير العقيدة، يحسن تقرير الفقه، يحسن تقرير الحديث، ويحسن تقرير التَّفسير، الأصول، النحو، إلىٰ آخر العلوم، فتأخذ العلم ممَّن يحسن تقريره، وهٰذا إذا تحرَّيت وأقبلت علىٰ العالم عالمًا بمنزلته في العلم الذي يعلمه فإنَّ الذي ينبغي عليك أن تحسن الظن به فيما يقول؛ يعني أن تأخذ ما يقول أخذ المستفيدِ لا أخذ المعترض.

وهٰذا كتقعيدٍ عام ينفع في حسن التلقِّي وقَبول العلم واستقرار العلم في الصدر؛ لأنَّ من المتعلمين من يحضر عند شيخ مثلا، وهٰذا المعلِّم أو الشيخ إذا تكلم تجد أن المتعلِّم يورد الاعتراضات علىٰ هٰذا الشيخ، وهو يتكلَّم يورد الاعتراضات فيما بينه وبين نفسه، فتجد هٰذه أنَّ الاعتراضات التي يوردها علىٰ كلامه تفوّته ربط الكلام بعضه ببعض، وتفوّته أيضا الاستفادة من الشَّيخ والمعلم فيما يقول وفيما يقرِّر.

لهٰذا أوَّلا انتقاء المشايخ، وأن تنتقي العالم الذي يحسن تقرير العلم الذي يدرسه كلٌّ في مجاله، فإذا اخترت فتُحسن الظنَّ به في أن الأصل فيما يقوله هو الصَّواب في هٰذا العلم، وألا تكثر الاعتراضات عليه فيما يقول وفيما يقرر.

الثاني من الآداب:

أن يكون طالب العلم متأدبا مع شيخه في لفظه وفي جلسته وفي فعله

وهٰذا أخذه أهل العلم من قصَّة جبريل مع المصطفي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في الحديث المشهور المعروف؛ وهو أنَّ جبريل لمَّا أتىٰ النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في صورة رجل جاء إليه متعلِّمًا، فأقبل النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وثنىٰ ركبتيه بين يديه وأسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه وجعل يديه علىٰ فخذيه، فهٰذا أدبُ الجلسة بين يدي المعلِّم، وهٰذا الأدب يفيد فوائد منها:

أوَّلًا: أن يتعلم طالب العلم الصبر في التعلُّم.

والثَّاني: أن يكون هٰذا داعيا لإقبال الشيخ علىٰ المتعلم للإجابة؛ لأنَّ للمشايخ حبّ ورغبة فيمن يكون

متأدِّبًا في الكلام معهم؛ لأنَّه من سنن أهل العلم المتوارَثة أنَّ العلم إنما يكون في المتأدِّبين.

ابن عباس ﵄ أمسك بزمام ناقة زيد بن ثابت فقالوا له: هٰذا وأنت ابن عم رسول الله ﷺ؟! فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بعلمائنا.

وقد جاء في بعض الآثار أن من السنة توقير العالم، وهٰذا له شواهده العملية من هدي الصَّحابة رضوان الله عليهم.

فإذن الجِلسة أمام العالم لها أثر، والتَّكلُّم معه في طريقته له أثر علىٰ المتعلِّم وعلىٰ العالم جميعا: أما أثره علىٰ المتعلم وهو أن يوطِّن نفسه علىٰ احترام العلم وأهله، وإذا العالم احترم العالم الذي يكون أمامه فإنه سيحترم العلماء الأولين، وكم رأينا من ذوي فضاضة وغلظة علىٰ العلماء الحاضرين فصاروا ذوي فضاضة وغلظة علىٰ العلماء العابرين السابقين، والأمر من جهة ما يَقَرُّ في نفس المتعلم واحد؛ فإذا تعلم الأدب في اللفظ فإنه يكون متأدبا في العلم وحمله.

كان رجلان أتيا إلىٰ الأعمش أحدهما صاحب حديث والآخر ليس بصاحب حديث، فأغلظ الأعمش –وكان فيه نوع حدّة– علىٰ صاحب الحديث بكلام فيه غلظة، فلما انتهوا قال الآخر لصاحب الحديث في حضرة الأعمش: لو قال لي ما قال لك لم أحضر إليه أبدًا. فقال الأعمش: أوَ يكون أحمق كمثلك يترك خيري الدنيا والآخرة لغلظتي.

إذا كان هٰذا تركَّب في نفس بعض المشايخ أو في كلامه أو في طريقة تعامله أن فيه غلظة، فهل يترك المتعلِّم الأدب لأجل شدة الشيخ أو لأجل تعنيفه أو نحو ذلك؟ هٰذا ليس بصحيح؛ لأن طالب العلم ما أخذ في طريق العلم إلا وهو مؤثِرٌ له علىٰ الدنيا، مؤثر له علىٰ الرَّاحة، ومن جملة الدُّنيا والراحة أن يكون الكلام معه دائما بعبارة لا تسوؤه، ولهٰذا يدخل ذلك في التَّأدُّب في اللفظ بحيث أنه إذا سأل يسأل متأدبا، ينتقي أحسن العبارات، وإذا تكلَّم في حضرة شيخه تكلَّم بأحسن العبارات، وإذا أراد المعلِّم أو الشيخ أن يعنف أو عنّف أو تكلم فإنَّ ذلك الطالب يحتمله ولا يردُّ عليه مقالته.

[ثالثا:] من الأدب أيضًا مع الشيخ الأدب في الأفعال، وهو أن لا يرىٰ العالم طالب العلم علىٰ هيئة لا تحسن؛ في لباسه، أو في مشيته، أو في خفة في تصرفاته، أو في نقص في الأدب معه وهو يكلمه، فيكون معه في فعل حسن، قالوا: ومن الآداب أن لا يمشي المتعلم بين يدي شيخه إلَّا بأمر شيخه، وأن يكون وقورًا في مماشاة المشايخ غير مكثرٍ للحديث، غير مكثر للحركة، وهٰذا لا شك له أثر علىٰ المتعلِّم وعلىٰ الشيخ فيما يفيد به المتعلم.

فإذن هٰذه الثَّلاث –الأقوال والأفعال والجلسة، هيئة الجلوس– لها أثر في إقبال المتعلم علىٰ العلم

واحترامه أهله وفي إقبال المعلم علىٰ إفادة المتعلم.

من الآداب وهو الأدب الثالث:

أن يكون طالب العلم متأدِّبًا مع شيخه في السؤال

عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كما في الصحيح أراد ابن عباس أن يسأله عن المرأتين اللَّتين تضاهرتا علىٰ رسول الله ﷺ، يقول ابن عباس: مكثتُ سنة أتحيَّن الفرصة لأسأله حتىٰ إذا كان وقت قفولنا من الحج ذهب عمر إلىٰ شجرة أراك ليقضي حاجةً له، فانتظرت فلما رجع سألته فقلت له: يا أمير المؤمنين من المرأتان اللتان تضاهرتا علىٰ رسول الله ﷺ؟ فقال: هما عائشة وحفصة.

فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين لقد كان هٰذا في نفسي سنةً أريد أن أسأل عنه فما سألتك هيبة لك. قال له عمر: لا تفعل أبدًا ما بدا لك فسل وما كان عندي من علم أخبرتك به. أو كما قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، هٰذا الكلام من عمر وهو الرجل المهيب من أثر أدب ابن عباس، فانفتح الباب لأجل هٰذا الأدب وهٰذه الهيبة التي كانت عند ابن عباس لعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعين.

هٰذا الأدب في المخاطبة وفي السؤال وتحرِّي الوقت المناسب، هٰذا مهمٌّ جدًّا في طالب العلم مع شيخه لم؟ أولا ليس كل وقت يكون بالُ المعلم أو بال الشَّيخ جيِّدًا محبذا لإجابة السؤال، هو بشر يعتريه ما يعتري البشر، وأعظم إذا كان السؤال بالهاتف في مثل هٰذا الزمان فإن المتَّصل لا يدري ما حال الشيخ، فقد يكون جوابه ليس تامًّا، وقد يكون لا يريد الجواب ونحو ذلك، فالطَّالب يكون عاذرا لشيخه في كل ما يحصل منه من جهة السُّؤال والجواب، وأن يكون ذا هيبة وأن يتحرَّىٰ الوقت المناسب للسؤال، فلا يسأله مثلا وهو متعب، لا يسأله في وقت يكون من حقوقه؛ يعني من حقوق الشيخ مع نفسه أو مع أهله، لا يسأله في وقت يريد الانصراف؛ لأن باله يكون مشغولا، قد لا يستحضر الجواب من كل جهة ومراد المتعلم من السؤال أن يستفيد من شيخه، وهٰذا إنَّما يكون في حال يكون فيها الشيخ مع طلابه حسن الاستحضار أو مرتاح البال فيفيض عليهم ممَّا عنده، أما إذا كان باله غير جيد فينبغي لطالب العلم أن يتحرىٰ وأن يكون شيخه حِسُّه مُحِسًّا بأن هٰذا الطالب يهابه ويحترمه ويحبه فإنه يختصه ويخصه بأشياء قد لا يفيضها علىٰ الآخرين، وهٰذا ظاهر بيِّن في سيرة كثير من أهل العلم.

انظر مثلا كم نقل ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ عن شيخ الإسلام ابن تيمية من مسائل لم ينقلها غيره؛ بل كان يختصه بكلمات وبفوائد وبعلوم لم يعطها غيره.

وكذلك أهل العلم فيما يتواردون فإنهم يختصُّون بعض طلابهم بأشياء، وهٰذا إنَّما كان نتيجة لحسن أدب الطالب، وحسن إظهار هيبة الشَّيخ ووقت السُّؤال ونحو ذلك مما هو من الآداب العامَّة.

صيغة السؤال أيضا مهمَّة، عدم الاعتراض في الجواب هٰذا مهم، فإذا كان مثلا في الدرس فلا يحسن إذا أجاب الشيخ إجابةً أن يعترض الطَّالب؛ بل يذهب معه وينبهه إلىٰ رأيه في المسألة، إذا كان هو مثلا يعني الشيخ ترك شيئًا أو ما استحضر الجواب أو أخطأ أو ذهب ذهنه إلىٰ شيء آخر ونحو ذلك من عوارض البشر، ينبهِّه والأصل في أهل العلم أن يكونوا رجّاعين إلىٰ الحق، فإذا استبان الصَّواب إلىٰ الشيخ من جرّاء كلام الطالب عنده فإنَّه ينبه الطلاب بعد ذلك علىٰ هٰذا الأمر.

فإذن نخلص من هٰذا إلىٰ شيئين:

الأوَّل: أنه لا يُشترط أن يكون العالم مصيبًا دائما، مفصلا للمسائل دائمًا، قال: كنا -يعني في رواية الحديث- إذا نشطنا أسندنا وإذا كسلنا أرسلنا. يعني قد يكون الحديث مسندًا عند العالم فيختار أن يكون مرسلًا، فيقول مثلا: عن ابن عباس أن النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قال كذا، أو يقول الزهري قال رسول الله ﷺ كذا، وإذا نشط أسند، وهٰذا يعني أنَّ العالم قد يكون عند الجواب مفصلا؛ لكن لأجل شيء في باله، أو ضيق المجلس، أو ما يعتري المرء عادة يختصر الجواب، وقد يكون ثم في الاختصار شيء من الخلل.

فإذن طالب العلم إذا رأىٰ في جواب مسألة ما ليس بمستقيم، فإمَّا أن ينبِّه الشيخ أو أن يعرض السُّؤال مرَّةً أخرَىٰ في وقتٍ آخر؛ ليأخذ الجواب ويعرف اجتهاد العالم أو رأيه في هٰذه المسألة أو جوابه علىٰ السُّؤال؛ لأنَّ الشيخ والعالم أو المعلم ليس دائما نشيطًا أن يقول كل ما عنده، فتارة يكون نشيطا وتارة لا يكون نشيطا، فتجد الجواب مختصرًا وأحيانا ربما كلمة واحدة.

من الآداب أيضا وهو الرابع:

أن يكون طالب العلم مع شيخه صبورا

- والصَّبر يعني في التعلم.
- والصَّبر علىٰ أخلاق شيخه.
- والصَّبر علىٰ انتزاع الفوائد منه.

هٰذه ثلاثة أشياء:

المسألة الأولىٰ: صبره علىٰ التَّعلم: في أن يكون صابرا علىٰ حضور الدرس، كما قلنا إذا كان واثقا بعلم شيخه فلا يحكمن علىٰ شيخه أو يزهَد فيه إذا حضر درسا أو درسين أو ثلاثة، فهٰذا ربما تأتي عوارض، أو نوع الدرس يحدده، أو المتن مثلا ما فيه مجال للتفصيل وللإفادة، فلا يكن الطالب عجِلًا غير صبور في الحكم في التعامل مع شيخه وفي الحكم عليه.

وهٰذا كثير عند الشباب في أنهم يستعجلون في الحكم ولا يصبرون خاصة مع المشايخ الكبار الذين لهم علم بالعلوم الأصلية في الشريعة، والصبر عليهم ومعهم يفيد الطالب كثيرًا.

المسألة الثَّانية: الصَّبر علىٰ الشَّيخ من جهة أخلاقه: فقد قدَّمنا طرفًا منه؛ ما يشير إشارة إلىٰ أصل ذلك، وقصَّة موسىٰ عليه السلام مع الخضِر معلومة لديكم، كيف أنّ موسىٰ عليه السلام كما روىٰ البخاري وغيره «**سئل فقيل له: من أعلم أهل الأرض؟ فقال موسىٰ: أنا. فأوحىٰ الله إليه ايتي عبدَنا خضِرًا، فإنه أعلم منك**». في القصة المعروفة، وموسىٰ عليه السلام لما صحِب الخضر لم يصبر عليه:

قال في المرة الأولىٰ له -ركب السفينة فخرقها الخضر- فقال له موسىٰ: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الكهف]، لأنَّ الأصل الصبر.

المرة الثانية سأل فكرر عليه الجواب، فقال الخضر لموسىٰ: ﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ ﴾ هٰذه فيها تخويف وفيها غلظة، ﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الكهف] ثم فارق الكليم الخضر بسبب عدم الصبر، ولو صبر- وددنا أن موسىٰ صبر – لأخذ منه علما كثيرا.

فهٰذا الأصل العام؛ وهو أن الطالب مع الشيخ يكون صبورا ولا يستعجل عليه في مسائل لا يحسنها الطَّالب، هٰذا وجدناه من بعض الإخوان؛ أنهم يستعجلون.

خُذْ مثلا علم قبل مخالطته لهٰذا العالم، والشيخ، علم مسألتين أو ثلاث مثلا في مصطلح الحديث، علم حكم المرسل أو حكم الحديث الضعيف والاستدلال به أو نحو ذلك أو الحديث الضعيف أو الحديث هٰذا ليس بصحيح، أو علم أن الراجح في المسألة كذا، فإذا خالط هٰذا عالما وابتدأ هٰذا بكلام ذهب ذاك لعدم صبره يعارضه، فيقول مثلا معترضا: هٰذا حديث مرسل، أليس هٰذا الحديث مرسل يا شيخ؟ -مثلا-، يقول هٰذا الحديث أليس حديثا ضعيفا؟ ونحو ذلك.

وهٰذا الطالب لقلة صبره وأيضا لقلة العلم فإنه اعترض، وهٰذا الاعتراض الذي هو من جراء عدم الصبر يسبب المفارقة وعدم إحسان الشيخ الظَّن بهٰذا الطالب وعدم إفادته.

ومعلوم كما قلنا أن العلوم مختلفة وأن المشايخ مختلفون في استعداداتهم وفي علومهم، وأيضا الطالب قد يكون متأثِّرًا بكلام عالم فيأخذ هٰذا الكلام ويدلي به علىٰ عالم فيقع منه عدم الصبر والاستعجال.

المسألة الثالثة: ترك الصبر الذي يفضي إلىٰ خسارةٍ في اقتناص الفوائد: العلم مراتب؛ هناك علم هو تقرير للعلم، مثل تحضر تسمع شرح كتاب وتقرير علىٰ متن أو تقرير علىٰ كتاب مطوّل، هٰذا علم يمكن

أن يؤدىٰ والطالب يسمع؛ لكن هناك فوائد لا يجدها الطالب في كتاب بسهولة؛ فوائد متنوِّعة حصَّلها الشيخ من مشايخه المتنوِّعين ومن معلومات كثيرة ومن قراءات متنوعة بضوابط وفوائد ونحو ذلك، وهٰذه الفوائد والضَّوابط والنُّكات الرَّصينة هٰذه لا يوصلها الشيخ لأي طالب؛ بل يخصُّ بها بعض طلابه؛ لأنها من الفوائد المهمة عنده، فلا يظهرها لكلِّ أحد، لهٰذا إذا صبر المتعلم علىٰ العالم فإنَّه يخصه بأشياء تفتح له باب العلم، بل ربما كانت الواحدة من تلك الفوائد تساوي رحلة كما يقال.

لهٰذا ينبغي لطالب العلم أن يكون صبورًا وأن يعلم أنَّه كلما طالت صحبته لشيخه وكلما طال حسن أدبه معه وكلَّما كان صبره عليه أكثر كلما أعطاه من العلم؛ من العلم الخاصّ الذي قد لا يكون ثم مناسبة لإبدائه لكل أحد، رأي العالم في النَّاس، رأي العالم في الأوضاع، رأي العالم في بعض المسائل الخاصَّة ونحو ذلك، هٰذه قد لا يحسن أن تُبدىٰ في الدروس، وإنما قد يخص بها بعض الطلاب، وهٰذا إنما يكون لمن عنده الأدب مع الشيخ وحسن ظن الشيخ بالطالب في أنه حافظ لكلامه مستفيدٌ منه.

الأدب الذي يلي هٰذا وهو الخامس:

أن يعلم الطالب أنّ حضوره لمجلس الشيخ إما في علم أو في مجلس ليس من مجالس العلم؛ يعني في مجلس معتاد في بيته أو يصحبه في رحلة أو يمشي معه في وعظ أو إلقاء دروس أو محاضرات أو علم أو نحو ذلك، أو يصحبه في حج أو في سفر إلىٰ آخره، أنْ يكون طالب العلم مع الشيخ متحريا للاستعداد.

يعني أن لا يبتدئ الكلام دون استعداد منه لذلك، بل يقتنص هٰذا الوقت ولو كان ضئيلا في أن يأتي الأسئلة المهمة المشكلة، أو أن يتحرىٰ الفوائد التي لا يكون المجال مفتوحًا أن يلقيها دائما، وهٰذا يحتاج إلىٰ استعداد، معلوم أنّ كل طالب علم إذا قرأ، فإن لديه مشكلات يشكل عليه قراءة في الكتاب الفلاني وكلام العالم، ويشكل عليه فتوىٰ العالم ولا يدري ما وجه هٰذا؛ هٰذا الحديث كيف يوجَّه، الفتوىٰ علىٰ كذا والحديث فيه كيف نوجه هٰذا، أنت قلت –مثلا– مرة كذا والسنة دلت علىٰ كذا، بما توجِّه هٰذا؟ وأشباه ذلك من المُشكلات التي تعترض طالب العلم في قراءاته، ومن المشكلات التي تعترض طالب العلم فيما يسمع من الفتاوىٰ والعلم، فإنَّ هٰذه تحتاج منه إلىٰ وقت مناسب للسُّؤال، وهٰذا كما ذكرت يحتاج إلىٰ استعداد.

فإذن صلة طالب العلم بشيخه في مجلس العلم أو في خارج مجلس العلم لا بد أن يكون علىٰ استعداد، لا يأتيه للمجلس هكذا عفوا، وخاصة في هٰذا الزمن الوقت فيه أصبح أقل من القليل، فإذا أراد طالب العلم أن يستفيد من المعلم أو من شيخه أو من العالم فيكون مستعدا للحضور فيما يفكِّر به وفيه وفيما سيعرضه قبل حضوره، من الناس مثلا من يظهر علىٰ باله سؤال وقت الجلوس فيلقيه، وهٰذا غير

مناسب؛ لأنه قد لا تكون أنت مفكِّرًا في السؤال من كل جهة فيأخذ العالم أو الشيخ الانطباع عنك بأنك تستعجل في السؤال، وبالتالي قد لا يفتح لك ويفصل لك أو يعطيك المنزلة اللائقة بعلمك.

فينبغي أن يكون طالب العلم مستعدا في مخالطته للعلماء وللمشايخ في أن يكون حذِرًا في الكلام هائبا بأن يسأل إلا بشيء يحسن السؤال عنه لا يورد إشكال إلا بإشكال يحسن الاستفهام عنه وهكذا.

وأما أن يحضر ويلقي أي سؤال أو أي كلام ونحو ذلك فهٰذا ليس مناسبا؛ لأنه قد يُعطي الشيخ نظرًا علىٰ طالب العلم ليس بحسن.

هٰذه بعض آداب عامة مع المشايخ، والأدب الذي ينبغي حفظه وتجده في الكتب التي ذكرنا بكثرة أن **موالاة طالب العلم لشيخه أنها واجبة**، ومعنىٰ الموالاة يعني أن يحبه وأن ينصره وأن يذُبَّ عنه ونحو ذلك بما يعلمه هو.

ولهٰذا جاء في كتب الآداب أو في بعضها أنه يُحرم الطَّالب من علم الشيخ إذا كان مغتابًا له، وهٰذه مجرَّبة؛ لأن غيبة طالب العلم للشيخ تُفقد محبته وتفقد الاستفادة من علمه بعد ذلك، والأمور تأتي شيئا فشيئا؛ لأن القلب كلما كان أكثر محبة وأكثر قبولا لما يُقال ورغبة في هٰذا المعلم أو في هٰذا الشيخ أو العالم كلما كان أذب عنه واحفظ لعرضه وأكف اللسان عنه.

وما علمنا أحد من خاصة طلبة أحد من أهل العلم المتقدمين أو المتأخرين إلا وينشرون محاسنهم، معلوم أن العلماء أو طلبة العلم ليسوا بأنبياء ولا يشترط فيهم الوَلاية؛ يعني أن يكونوا من كُمَّل المؤمنين وإنما يستفاد منهم علىٰ ما فيهم، وكلما كان العالم أو الشيخ أكثر إتِّباعا وأكثر استقامة وأكثر مجاهدة وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر فهو أعلىٰ لمقامه، لكن يؤخذ من العالم ما عنده وأن لا يتْبع العالم بزلته، فالعالم لا يتَّبع في زلته، وكذلك لا يُتْبَع في زلته، فلا يشنَّع عليه بأشياء يقولها مثلا وتنشر عنه ويترك الخير الكثير الذي يقوله.

فلو تتبع الناس سقطات العلماء في الماضي من الأموات رحمهم الله تعالىٰ ورفع درجتهم لوجدوا شيئا كثيرا، فما من عالم إلا وله زلة، ولما ذكر الذهبي في «سير أعلام النبلاء» في ترجمة محمد بن نصر المروزي لما ذكر بعض ما قيل قال: ولو فتحنا هٰذا الباب -يعني ما يقال- لما سلم لنا محمد بن نصر المروزي ولما سلم لنا ابن منده ولما سلم لنا فلان وفلان.

فإذن العالم يغتفر قليل خطئه في كثير صوابه، كما قال ابن رجب في فاتحة كتابه «القواعد» حيث قال: فلقد سنح بالبال -يعني يصف كتابه- علىٰ جناح الاستعجال في أيام يسيرة وليال، والمنصف من اغتفر قليل خطإ المرء في كثير صواب. وهٰذا هو المنصف، يعني كل عالم لابد أن يكون له غلط هل يشترط في

العالم أن يحرر كل مسألة أو أن يكون إماما في كل مسألة ولو ذكرنا ما نقل فمالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ نقلت عنه أشياء كما هو معلوم، الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نُقلت عنه أشياء، أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقلت عنه أشياء، أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقلت عنه أشياء، وهكذا، العلماء ما منهم أحد إلا وثَمّ شيء، قال بعض أهل العلم هٰذا فيه حكمة من الله جل وعلا حتىٰ لا يظنَّ الناس بعالم أنه وصل مرتبة الأنبياء في أنه يؤخذ قوله كلُّه، وأن يقبل بعمله في الإقتداء كلّه؛ يعني أن يقبل بعلمه كله في الإقتداء، فلا بد من ظهور بعض النقص، وكلما قل النقص كلما ظهرت إمامة العالم وازدادت مكانته للناس وكلما زاد النقص كلما قلت مكانته وهكذا.

فإذن ينبغي لطالب العلم أن يتحقق قول الله جل وعلا: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ﴾ [التوبة:٧١]، وأن يتحقق قول الله جل وعلا: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ ﴾ [المجادلة:١١]، وأن يعلم أن أهل العلم هم أهل الرفعة في هٰذه الدنيا وأن أهل العلم درجات فلا يجعلنهم في مرتبة واحدة وأن يطلب الكمال في العالم أو في المعلم أو في شيخه، هٰذا لا يكون، وما من أحدٍ إلَّا وله قصوره إما في مقاله أو في أفعاله أو تصوره للمسائل أو في إلقائه للعلم، فيأخذ الطالب من العالم أحسن ما يجده والحَكم في ذلك كله سنَّةُ المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام.

هٰذه كلمات مختصرة في ابتداء هٰذا الدرس.

وأسأل الله جلَّ وعلا أن ينفعني وإيَّاكم بما سمعنا، وأن يجعلنا متأدِّبين مع علمائنا ومشايخنا، وأن يلحقنا بالصَّالحين، وأن يجعلنا في زمرة العلماء العالمين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ نبيِّنا محمَّد.

[الأسئلة وأجوبتها]

سؤال (١): سؤال يُكتب لثالث مرَّة: ورد عن الإمام أحمد أنه كان يترك السنة الراتبة، فإذا سئل عن ذلك قال: اكتفينا بدرس أبي زرعة أو كلمة نحوها، -(اكتفينا عن الرَّواتب بمذاكرة العلم مع أبي زرعة هٰذه كلمة الإمام أحمد- فهل ينطبق هٰذا علىٰ وضعنا في هٰذا المسجد؟

الجواب: لا، لا يُتصور في عالم أو في طالب علم أو في رجل صالح يرجو ما عند الله جل وعلا ويحب المصطفىٰ ﷺ أنه يترك النوافل، فمن ترك النوافل رُدَّت شهادته كما قال أهل العلم، وإنما قد يترك العالم أو طالب العلم بعض النوافل لمصلحةٍ راجحة؛ لأن النوافل نفعها قاصر، وقد ينشغل طالبُ العلم بما نفعه متعدٍّ ويفوت وقته، فأبو زرعة من أهل الرَّي فلما قدم بغداد تذاكر العلم مع أحمد ليلة كاملة حتىٰ أصبح من بعد صلاة العشاء وفي النهار فترك الإمام أحمد الرواتب والوتر فيما يُذكر، وهٰذا لأجل أن مذاكرة العلم مع أبي زرعة هٰذا نفعها متعدٍّ للأمة مصلحتها عامة في العلم وفي الإرشاد وفي نقد الأحاديث

وفي تعليلها ونحو ذلك، والرَّواتب قاصرٌ نفعها علىٰ من أداها، وأيضا مذاكرة أبي زرعة تفوت والرواتب يمكن أن يزيد من النوافل المطلقة في وقت لاحقٍ ويأتيه الثواب.

يعني أنّ الأصل المتابعة في السنة، الأصل أداء هٰذه الرواتب، وقد يعرض لطالب العلم، قد يعرض للشيخ ما يرجحه من جهة أنه أفضل شرعًا لا من جهة هواه أو من جهة رغبته، ومعلوم أنَّ الرواتب أنها ليست مفروضة لكن من جهة المصلحة التي يرجوها في تركها المصلحة المتعدِّية، فهٰذا يسوغ، لكن لا يكون ديدنا له ولا هديًا له.

وهٰذه لها نظائر، فبعضهم ترك قيام الليل لأجل التَّفكُّر، وبعضهم ترك بعض الصلوات لأجل التَّأليف يعني الرواتب لأجل التأليف، ونحو ذلك مما هو معلوم.

سؤال (٢): ما حكم تحية المسجد، وماذا أفعل لو دخلت المسجد في وقت نهي؟

الجواب: تحية المسجد سنة مؤكَّدة وليست بواجبة علىٰ الصحيح، وإذا دخلت المسجد وقت نهي فالعلماء اختلفوا في ذلك اختلافًا كثيرا طويلا، والاختلاف من جهة التَّرجيح فيه صعوبة.

ومن أهل العلم من قال: النهي مقدم؛ النهي عن الصلاة في هٰذه الأوقات يعني أوقات النهي، وتحية المسجد سنة والنهي يدلُّ علىٰ التحريم فلا تصلَّىٰ وقت النهي، وهٰذا مذهب الإمام أحمد وجمع من أهل الحديث.

وآخرون من أهل العلم قالوا: إن النهي عن الصَّلاة في وقت النهي هي الأوقات الخمسة المعروفة، ثلاثة أوقات مضيقة ووقتان واسعان، هٰذا لغير الصلوات ذوات السَّبب، أما إذا كانت الصلاة لها سبب مثل ركعتي الوضوء ومثل تحية المسجد والاستخارة وركعتي الطَّواف وركعتي الدخول في الإحرام عند من قال به ونحو ذلك، فإن هٰذا يعتبر من ذوات السَّبب فتُفعل وقت النهي، وهٰذا مذهب طائفة من أهل العلم منهم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وينصره طائفة من أهل العلم في هٰذا الزمن.

والشَّوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما عرض إلىٰ هٰذه المسالة ذهب مذهبًا غريبًا، هو أصولي وتعارضت عنده الأدلة؛ لأنَّ الدَّليل الذي فيه الأمر بصلاة المسجد فيه الأمر بتحية المسجد هٰذا فيه عموم، فيه أنه إذا دخل في أي وقت فيركع ركعتين، والنهي عن الصلاة هٰذا فيه خصوص الأوقات ولكنه فيه عموم الصلوات، وذاك فيه عموم الأوقات وفيه خصوص الصَّلاة، فأي العمومين يقضىٰ به علىٰ الآخر وأي الخصوصين يقضىٰ به علىٰ الآخر؟ نظر فيه نظرا أصوليا ولم يترجح له شيء -في نيل الأوطار-، وقال: فإن قلتَ ما الذي تحصل لكَ في هٰذه المسألة المشكلة؟ قلتُ: تحصَّل لي أن لا تدخل المسجد وقت النهي، حتىٰ لا تصلي تحية المسجد. يعني لا تدخل المسجد أصلا.

وهٰذا يبيِّن لك أن المسألة مشكلة من جهة الترجيح لتعارض العمومين فيها والخصوصين، وإذا أعملنا القاعدة أن الاحتياط يقضي بالترك لأجل النهي، وأن درأ المفسدة مقدَّم وإذا اجتمع حاظر ومبيح فيقدم الحاضر ونحو ذلك من القواعد، فإنه يرجَّح بذلك عدم أداء الصلاة وقت النهي كما هو مذهب الإمام أحمد.

ومن نظر في أنها ذات سبب وأنّ النبي عليه الصلاة والسلام أمر الرجل الذي أتىٰ وهو يخطب في الجمعة وقال له: «**أصليت ركعتين**» فقال: لا، فقال: «**قم فصليهما**»، وأن ذلك كان وقت نهي، جعل ذلك من ذوات الأسباب.

وتبقىٰ المسألة فيها هٰذه المذاهب.

سؤال (٣): ما رأيك يا شيخ في الإكثار من الأسئلة علىٰ الشيخ من باب الأخذ أكبر كمية من العلم، أي حرصًا من الطالب؟

الجواب: أولا العلم ليس بالسؤال، العلم بالتعلم، السؤال كاشف عما يشكل في العلم، وإذا كان طالب العلم يُكثر من السؤال لأخذ العلم فلن يحصّل علما؛ لأن الأسئلة لا يجمعها زمام، ومعلوم أنّ تقرير العلم من جهة الكتب غير الجواب علىٰ الأسئلة، وقد نأتي نقرر المسألة في كتاب ونفصل الكلام فيها ويأتي السؤال ويكون الجواب عليه مقتضبا أو يكون الجواب عليه له منحنىٰ آخر.

فإذن العلم التأصيلي ليس بالأسئلة، هٰذا كأصل تأخذ معك، الأسئلة إنما تنفع لكشف ما يشكل، شيء يشكل عليك في العلم تسأل عنه لكشفه، وأما إذا كان السؤال للتعلم فليس كذلك، فالعلم ليس بالسؤال وإنما يؤخذ العلم بالتعلم والسؤال بالعلم في كشف ما يشكل من العلم.

سؤال (٤): من الملحوظ قلة من يتصدىٰ لتدريس علوم الآلة من أهل العلم فما هو السبب، وما هو الحل بالنسبة للطالب؟

الجواب: علوم الآلة محدودة، ولا ينبغي للطالب أن يُكثر من علوم الآلة علىٰ حساب العلوم الأصلية؛ علوم الشريعة العقيدة، التوحيد، الفقه، الحديث، التفسير، هٰذه هي العلوم الأصلية التي ينبغي لطالب العلم أن يعتني بها، ويأخذ من علوم الآلة ما يحتاجه لفقه الكتاب والسنة، هٰذا هو الأصل الذي ينبغي لطالب العلم أن يتعاهده.

علوم الآلة طويلة عريضة ليس لها طرف، بحر لا ساحل له، وهي علوم اصطلاحية، والتحقيق فيها وفهمها يحتاج منك إلىٰ وقت طويل وإلىٰ أخذ عن عدد من العلماء؛ لأن استيعاب تلك العلوم متنوع، وعرض تلك العلوم أيضا متنوع، فمنهم من يعرضها بتوسط، ومنهم من يعرضها بطول، من أهل العلم

من يعرضها لحاجة الطالب لما هو فوق حاجة الطالب إلىٰ آخر ذلك، فلذلك أنت تأخذ منها ما ينفعك في فقه الكتاب والسنة، وخاصة النحو وأصول الفقه.

النحو وأصول الفقه هٰذه ينبغي علىٰ كل طالب علم أن يعتني بهما، ولم أذكر أصول الحديث يعني المصطلح؛ لأن الغالب يهتم بالمصطلح، غالب من نرىٰ من الإخوان الاهتمام بالمصطلح، لكنهم لا يهتمون بالنحو ولا بأصول الفقه، وهما علمان مهمان فالعلوم الثلاثة هٰذه: أصول الفقه، أصول الحديث، أصول العربية يعني النحو، هٰذه أهم علوم الآلة.

سؤال (٥): قد يوجد تقرير لبعض العلوم عند الأصاغر بما لا يجده المرء عند الأكابر، فيترك هؤلاء ويلزم هؤلاء في أخذ العلوم؟

الجواب: أن العلم يؤخذ ممن يفيد فيه، فقد يكون الصغير أكثر إفادة، لكن لا يترك طالب العلم أهل العلم الكبار لا يسألهم ولا يحضر دروسهم ولا يأخذ من هديهم ولا يحضر مجالسهم، هٰذا يعطي خللا في بِنية طالب العلم في نفسه، الذي ينبغي أن يأخذ العلم ممن يفيده، إذا كان طالب العلم الذي هو أقل في سنه أكثر إفادة للطالب فيأخذ منه، ولكن لا يترك أهل العلم الكبار والمشايخ.

فهنا مسألة ينبغي التنبيه عليها، وهي أنه ليس تقييم طالب العلم من جهة الفائدة الكبرىٰ أو كَثرة الفوائد يكون بكثرة الكلام، قد يكون الشرح طويلا لكن الفائدة قليلة، مثل ما قال ابن رجب في كتابه «**فضل علم السلف علىٰ علم الخلف**» وهو كتاب مهم ومفيد جدا –فضل علم السلف علىٰ علم الخلف– قال: **كلام السلف قليل كثير الفائدة، وكلام الخلف كثير قليل الفائدة.**

قد يكون المعلم الذي سماه الأخ السائل سماه من الأصاغر يعني ممن يصغر الكبار في سنه أو نحو ذلك قد يكون أكثر تفصيلا أو أكثر معلومات لكن طريقته لا تفيد الطالب هٰذا لا يعني أنه أكثر إفادة، قد تكون المعلومات أكثر ولكن الإفادة أقل، قد يكون كلامه من جهة التفصيل ومن جهة الاستطراد أكثر ولكن إفادته أقل؛ لأن العالم يربي طالب العلم في العلوم، يربيه شيئا فشيئا، يعطيه ما ينفعه وما يحتاجه في فهم المتن، في فهم الكتاب الذي يُقرأ عليه، وهٰذا لابد فيه من رعاية لهٰذا، ذكر العلماء في قوله تعالىٰ ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾[آل عمران]، أن الرباني هو الذي يربي الطلاب بصغار العلم قبل كباره يعني في التربية ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ ففي تعليم الكتاب وفي الدرس يحتاج إلىٰ تدرج، فإذن ينبه الطالب لأن الأصاغر لا يعني كثرة كلامهم وكثرة تفصيلاتهم أنها أنفع، فقد تكون أنفع وقد لا تكون أنفع بحسب المنهجية والطريقة.

سؤال (٦): بعض الطلاب يهتمون كثيرا بالدروس في المساجد ولا يهتمون بالدراسة المنهجية في الجامعة، فيكون الطالب متعثرا في الدراسة المنهجية بحجة أنّ العلم يؤخذ من المساجد؟

الجواب: هٰذا غير صحيح؛ بأن الدراسة الجامعية ليست مفيدة، لا الدراسة الجامعية مفيدة، ولكن:

كثرة المعلومات، واحد.

عدم بروز المعلِّمين فيما يعلّمون، اثنين.

وعدم ثقة الطالب في مشايخه في الجامعة لأسباب، ثلاثة.

أيضا ضعف بعض الأساتذة في الجامعة في المستوىٰ العلمي يجعل الطالب لا يتفاعل مع الدرس في الجامعة.

أيضا الهدي العام، والسمت وملازمة السنة، وإذا سأل الطلاب بعض الأساتذة في الجامعة وجاءت إجاباتهم ليست بمستقيمة فإنه لا يحسن الظن به أوْ لا يستفيد منه.

فيه عوامل كثيرة وأسباب كثيرة، تجعل الطالب لا يحسن أو لا يحبِّذ الدراسة في الجامعة من جهة الجد، وهٰذا غير جيد.

الكتب التي تدرسها في الجامعة في الإجمال كتب منهجية عظيمة؛ لكن قد تكون أعلىٰ من مستوىٰ بعض الطلاب فهي موضوعة لمستوىٰ الطلاب قبل ثلاثين سنة، نفس الكتب التي درسها الآن يدرسها الطلاب مثلا في الشريعة يدرسوها في أصول الدين هي نفس الكتب التي كانت تدرس منذ عشرين، ثلاثين سنة لما كان الطلاب يقرؤون علىٰ المشايخ وكانوا أقوىٰ وكانوا يتخرجون من المعاهد العلمية ومستواهم أعلىٰ.

فإذن الخلل متنوع، فكثرة المعلومات التي يتلقاها الطالب في الكلية تجعله ما يتحمَّل، ويجد أن الدراسة في المسجد أيسر، أيضا الدراسة في الجامعة يجد أنها ليست بالطريقة التي يرتاح إليها.

هٰذه نظرة عامة، يبقىٰ ولا شك أنّ المسجد له بركته، مكان عبادة وهو أحب البقاع إلىٰ الله جل وعلا، واجتماع الطلاب وهم جالسون علىٰ الأرض ويسمعون ويثقون بالمعلم ويأخذون منه، وكلٌّ يحرص علىٰ هٰذا الدرس هٰذا أمر نفسي وأيضا عبادي ويجعل النية فيه صالحة، ولهٰذا يستفيد أكثر، فإذن المسألة تحتاج من طالب العلم إلىٰ تعاهد في نفسه وكلٌّ يقيّم نفسَه.

سؤال (٧): هل يصح أن يقال: إن من صفات طالب العلم كثرة الشيوخ حتىٰ يتجرَّد طالب العلم من التعصب للرجال كما يظهر من حال أهل الحديث بخلاف حال كثير من أهل الفقهاء؟

الجواب: التعصُّب مذموم بالاتِّفاق، التعصب مذموم بالاتفاق؛ باتفاق المحدثين والفقهاء وجميع

أصناف العلماء، لكن ما هو التعصُّب؟

التَّعصُّب أن تأخذ بقول وتنصره وتدفع غيرَه مع عدم وضوح الدليل عليه، هٰذا هو التعصب، تأخذ بقول فلان لأنه قال، والأصل عندنا أن الحق لا يعرف بالرِّجال، ولكن الرجال يعرفون بالحق، هٰذا الأصل العام عند السلف؛ يعني أن قبول كلام المتكلم إذا كان علىٰ إطلاقه وتدفع عنه وتنصره سواء وافق الحق أم لم يوافقه ولو ظهر لك الدليل بخلافه، فهٰذا هو التعصب المذموم هٰذا هو الذي يقال فيه تعصب، أما أن يكون الرجل محبًّا لشيخ من المشايخ ويأخذ بأقواله لظهور دليلها عنده، أو يأخذ طائفة من الناس بمذهب من المذاهب لظهور الدَّليل عندهم فيه أو لمتابعتهم لتأصيل المذهب فهٰذا ليس بتعصب إذا لم يردوا القول الحق إذا ظهر الدَّليل.

فإذن ثَم فرق ما بين المتابعة والتقليد، فقد يتابع المذهب في مسألة ويتابع شيخًا معينا في مسألة لاقتناعه بكلامه مع أنَّ السنة تكون بخلافه، لكنه هو مقتنع بكلام هٰذا العالم وبوجهة نظره في هٰذا الدليل وبتوجيهه لهٰذا الاستدلال ونحو ذلك فيأخذ به هٰذا لا يعد تعصبا، فلو كان كذلك لقيل في كل من أخذ يقول أحد من أهل العلم إنه يتعصب له، وهٰذا ليس بصحيح.

فإذن كثرة الشيوخ قد تكون محمودة وقد تكون مذمومة؛ قد تكون محمودة إذا كانت في تنوُّع العلوم، وقد تكون مذمومة إذا كانت كثرة الشُّيوخ تسبب الإرباك لطالب العلم في طلب العلم، بعض الناس يذهب هنا يحضر لعشرة أو لستة أو ثمانية من أهل العلم هنا وهناك وفي النهاية ماذا حصّل؟ تجد أنه لم يحصّل، والأفضل أن يجعل له شيخا مختصا في التوحيد والعقيدة فيأخذ طريقته حتىٰ ينهيها معه، ثم بعد ذلك يريد أن ينتقل إلىٰ غيره لا بأس، فهو يأخذ له شيخًا في الفقه ويأخذ ما عنده، ويأخذ له شيخًا يثق به في السنة؛ الحديث، ويأخذ ما عنده في ذلك، ثم كل طالب علم تتكون شخصيّته بقدر تأثير الشيخ المعين فيه، فهو يميل لفلان في الفقه، يميل إلىٰ فلان في الحديث بحسب استعداداته وما جعل له.

طلّاب شيخ الإسلام ابن تيمية منهم المتخصِّص في العقيدة، ومنهم المتخصص في الفقه كابن مفلح، ويكون في غير ذلك أقل، ومنهم المتخصِّص في الرَّد علىٰ المتصوفة ومنهم المتخصِّص في الرجال ونحو ذلك.

فإذن لا يعني الأخذ من شيخ والذب عنه وتلقي ما يقول أن يكون الرجل الطالب كهيئة شيخه في كل شيء لا يعني ذلك؛ بل يكون هو باستعداداته وبما وهب الله جل وعلا وما يسر له وما قدر له «**واعملوا فكل ميسر لما خلق له**» يكون ينصبغ بصبغة جديدة بحسب ما كتب الله جل وعلا له.

كما يظهر من حال أهل الحديث بخلاف حال كثير من الفقهاء، بعض أهل الحديث يتعصبون أكثر من

تعصب الفقهاء، وبعض أهل الفقه يتعصبون أكثر، وهٰذا ليس علىٰ إطلاقه أنَّ كل من كان من أهل الحديث ليس بمتعصب وكل من من أهل الفقه فهو متعصب هٰذا ليس بصحيح، ولا يقول هٰذه من يفقه العلم ويعرف مدارك أهله.

لأن أصلًا التقليد يجري مثلا أخذ قول العالم الفلاني بأن الحديث صحيح؛ أحد العلماء قال هٰذا الحديث صحيح وبناء عليه نأخذ منه كذا وكذا، طيب هل هو شارك العالم الفلاني الذي أخذ قوله هل شاركه في صحة الحديث؟ هل شاركه في البحث وصارت صحة الحديث عنده عن دليل لا عن تقليد له؟ سؤال.

الثاني هل إذا نظر في الرجال نظرا متجردا سيشارك هٰذا العالم؟ لا.

الخلاف في درجات الحديث وهل الحديث هٰذا صحيح أو حسن أو ضعيف بين أهل العلم في الحديث أكثر من خلاف الفقهاء؛ لأنها مبنية علىٰ الحكم علىٰ الرجال، ومعلوم أن الرجال من الرواة المتفق عليهم قليل؛ قليل جدا وأكثر الرواة مختلف فيهم، إما من جهة الثقة والضعف هل هو ثقة أو ليس بثقة، وإما من جهة صحة حديثه مطلقا في بعض الأحيان كحال المختلطين، وإما من جهة صحة حديثه في بلد وعدم صحته في بلد آخر كحال عدد مثل معمر وغيره، معمر من رواة الصحيح لكن حديثه في البصرة إذا علمنا أن الحديث هٰذا في البصرة فإنه ضعيف وإن كان من رواة «الصحيحين»، وهو من الأفذاذ في العلم، وهل هٰذا الحديث معلل؟ ومعلوم أن العلل والتعليل يدخلها الاجتهاد في كثير من الأحيان، هل يرجح قول يحيىٰ القطان في هٰذا الرجل علىٰ قول أحمد؟ هل يرجح قول بلدي الرجل؛ يعني إذا كان الرجل كوفيا نرجح قول العالم من أهل الكوفة في ثقته أو نرجح قول البغدادي في توثيقه؟

هٰذه مسائل كلها تبين لك الكلام في صحة الإسناد أيضا فيه خلاف وميدان فيه للاجتهاد والأخذ والنظر.

هل يؤثر العمل في صحة الحديث أم لا يؤثر؟ هل تؤثر رواية الصحابي في تقوية المرفوع أم لا؟ وهٰذه مسائل كثيرة تحتاج إلىٰ نظر.

ولهٰذا نقول: إنّ التقليد يكون من أهل الحديث في صحة الأحاديث وفي قبولها كما يكون في أهل الفقه في قبول الفتوىٰ ونحو ذلك، فالتقليد موجود لن يسلم أحد من التقليد؛ لكن هو درجات، والتعصب هو المذموم.

سؤال (٨): كيف نفسر قبول كثير من السلف عند النظر في بعض شيوخهم أنهم أهل نحل وملل من غير أهل السنة والجماعة، مع أن المشهور عن السلف انتقاء الشيوخ؟

الجواب: هٰذا الكلام ليس صحيح علىٰ إطلاقه، فالسلف في رواية المبتدعة لم يجعلوا المبتدعة علىٰ درجة واحدة، بل التحقيق أن المبتدعة من أهل الرِّواية درجات، فإذا علموا أنّ هٰذا الرَّاوي الذي اتُّهم بالبدعة أنه صادق في قوله صادق في روايته فإنه يقبل حديثه ولا يقبل مطلقا، بل يقبل بعض حديثه انتقاء كما خرج البخاري لعمران بن حطان وكما خرّج لقتادة وكان يرىٰ القدر إلىٰ آخره.

هناك عدد من أهل العلم من رواة الحديث لم تؤثر بدعتهم في صدق حديثهم، وكان منهم من أثَّرت بدعته في صدق حديثه، كما قال أحدهم: كنا إذا هوينا أمرا صيَّرناه حديثا.

بعض أهل العلم يقول: لا يؤخذ برواية المبتدع فيما يؤيد بدعته أما في غيرها فلا بأس.

والتَّحقيق عند أهل العلم عند المحققين كما ذكرها ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكلامه متين في آخر «شرح علل الترمذي»: أنّ المسألة فيها تفصيل، وأنه لا يُطلق القول بقبول رواية المبتدع ولا يُطلق القول بردها، بل لابد من التفصيل.

والمذاهب في المسألة متعددة:

منها مذهب من يردُّ أحاديث المبتدع إطلاقا، هٰذا مذهب شائع.

ومنها مذهب من يقول العمدة في رواية المبتدع صدقه فإذا ثبتت ثقته من جهة الصدق فلا ننظر إلىٰ عدالته من جهة البدعة، وهٰذا مذهب بعض المتأخرين وليس بجيد.

ومذهب المحققين من أهل العلم كالبخاري ومسلم والإمام أحمد وجماعة أنهم ينظرون إلىٰ هٰذا المبتدع فيما يروي بحسب بدعته، فلا يجعلون البدع مرتبة واحدة، فبدعة الإرجاء لا يجعلونها كبدعة الخروج؛ يعني أن يكون مرجئا ليس كأن يكون خارجيا، فالقدري حال، الجهمي حال، المعتزلي حال، المرجئ حال، وهكذا في أنواع البدع، فيجعلون لكل ما يناسبه فالذين ابتلوا بالقدر من أهل البصرة عُفي عن أكثرهم من جهة الرواية، الخوارج أنتقي من أحاديثهم ما ظهر صدق القائل فيه أو غلب علىٰ الظن صدق القائل فيه، فمنهم من كان يرىٰ الكذب في الحديث كفرا، من طوائف الخوارج من يرىٰ الكذب في الحديث كفرا، ولهٰذا قبل منهم عدد كما في «الصحيحين»؛ لكن في الجملة ترىٰ أن هؤلاء نوادر أربعة خمسة عشرة لكنهم نوادر في جملة الرواة .

كذلك المرجئ تجد أنه يتركون الرواية عنه، لهٰذا البخاري قال: في كتابي هٰذا لم أخرج لأحد إلا وهو يقول الإيمان قول وعمل. ما روىٰ لأحد وهو يقول الإيمان قول وعمل هٰذا قد يكون من جهة التعزير أن لا يروي عن مرجئ، وقد يكون من جهة اتهامه في صدق حديثه.

أما الجهمية والمعتزلة فإنهم لم يرووا عن جهمي وعن معتزلي شيئا بل من أجاب في الفتنة فتنة خلق

القرآن وسكت فإنهم تركوا حديثه اتِّقاء واحتياطا، حتىٰ البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ مع جلالته وأنه إمام من أئمة أهل السنة والجماعة وأمير المؤمنين في الحديث لما ترجم له ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل قال محمد بن إسماعيل البخاري ترك أبي وأبو زرعة الحديث عنه، يعني أنه عند أبي حاتم وعند أبي زرعة متروك قال لما أظهر القول في اللفظ في القصة المعروفة بينه وبين محمد بن يحيىٰ الذهلي فيما هو معروف.

لما ترجم لمسلم لأجل تولي قال صدوق تجد مسلم بن الحجاج النيسابوري صدوق، هٰذه الفتنة ترىٰ أن من وقف فيها أهل الحديث وأهل السنة اشتدُّوا في التغليظ عليه حتىٰ لا يقتدي الناس بهم، مع أن الأمة أجمعت علىٰ إمامتهم وجلالتهم كالبخاري ومسلم وعلي بن المديني ويحيىٰ بن معين إلىٰ آخره، وهل يصبر كل أحد علىٰ ما قوي عليه إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

أسأل الله أن يغفر لهم ولنا وأن يحشرنا معهم في زمرة أوليائه وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمَّد.

خطبة جمعة

غيبة العلماء

لفضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٣)

الشَّيخُ لم يراجع التَّفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

[الخطبة الأولى]

الحمد لله جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يهدون من ضلّ إلىٰ الهدىٰ، ويحيون بكتاب الله الموتىٰ، ويبصرون الناس من العمىٰ، فكم من قتيل لإبليس قد أحياه العلماء، وكم من ضالٍّ تائه قد هداه العلماء، فما أحسن أثر العلماء علىٰ الناس، وما أقبح أثر الناس علىٰ العلماء، ينفون عن دين الله تحريف الجاهلين، وتأويل المبطلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، واختلفوا في الكتاب وخالفوا الكتاب، وشاقّوا الكتاب والسنة.

فهدىٰ الله الناس بالعلماء؛ لأنّ العلماء ورثة الأنبياء.

الحمد لله، الذي له الحمد كله، والذي جعل علماء هٰذه الأمة خير الناس، كما أنّه جعل صحابة رسول الله ﷺ خير هٰذه الأمة.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله، وصفيه خليله، نشهد أنه لا خير إلا دلّ الأمة عليه، ولا شرّ إلا حذّرها منه، فصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد كفاء ما أرشد، وكفاء ما بيّن، وكفاء ما علّم، وكفاء ما دل إلىٰ الطريق المستقيم، وكفاء ما بيّن من طرق الضلالة والغواية، وصلىٰ الله علىٰ آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

أما بعد؛

فيا أيها المؤمنون اتقوا الله حق التقوىٰ، واتقوا يوما ترجعون فيه إلىٰ الله يحاسَب المرء منّا في ذلك اليوم العظيم علىٰ لسانه وعلىٰ جوارحه وعلىٰ فَرْجه وعلىٰ قلبه، يحاسَب علىٰ كل ما عمل، وعلىٰ كل ما نطق به، وعلىٰ كل ما عقدَه قلبُه، وكل شيء في ذلك اليوم سيُعرض عليك من عمل، إنْ كان خيرا وإن كان شرا، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.

أيها المؤمن، إن الله جل جلاله عظّم في كتابه شأن العلماء، شأن علماء الدِّين؛ لأنهم الذين حملوا في صدورهم كتاب الله -جل وعلا- وسنة رسوله ﷺ ، ثم بيَّنوا ذلك للناس فرفع الله المؤمنين بالله ورسوله رفعهم درجات، وجعل أرفع المؤمنين درجات أهل العلم ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[المجادلة:١١]، فأهل العلم هم أرفع هذه الأمة درجات، فصحابة رسول الله ﷺ أيضا هم درجات، وأرفعهم علماؤهم، والعشرة المبشرون بالجنة هم أرفع أولئك.

وصحابة رسول الله ﷺ جعلهم الله خير هذه الأمة؛ لأنه رضي عنهم واختارهم لصحبة نبيه ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[الفتح:١٨]، ومع ذلك مع ثناء الله -جل وعلا- علىٰ صحابة رسوله الكريم ﷺ وقوله في شأنهم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾[الفتح:٢٩]، ومع ما أثنىٰ الله عليهم بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾[التوبة:١٠٠]، ومع ما أثنىٰ الله عليهم في آيات كثيرة، فقد ظهر أناس في زمن الصحابة يضللون الصحابة، ويرون أن ما هم عليه ليس بحق؛ بل كفّروا بعضا منهم؛ لأنهم رأوا أنهم لم يحملوا دين الله وأنهم فرّطوا في الدين وأنهم رضوا بالدنيا عن الآخرة، وأنهم حكّموا الرجال في دين الله،

ورضوا بغير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فضلّلت الأمة من وقع في الصحابة، ثم أجمع المسلمون من أهل السنة والجماعة علىٰ أنّ من ذكر الصحابة أو ذكر علماء هٰذه الأمة بغير خير فإنه علىٰ غير السّبيل؛ يعني علىٰ غير سبيل أهل السنة والجماعة؛ لأنّ علماء هٰذه الأمة هم الذين ورِثوا محمدا ﷺ، ورثوا أقواله وورثوا القرآن، وورثوا السنة، وورثوا أفعال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ونقلوها إلىٰ الناس، فمن طعن في الصحابة فإنه يطعن في الدين؛ لأن الصحابة هم الذين نقلوا الشريعة، وهم الذين بلّغوها إلىٰ الناس، فإذا طُعن فيهم رجع النقل إلىٰ من طعن الشرع، وهذه من أكبر وسائل الملحدين في الطعن في الإسلام أنهم يقولون: إن الصحابة مطعون فيهم، وكيف يُرضىٰ في نقل الشريعة بنقل من طُعن فيه، ومن قتل وعمل، ومن ارتكب بعض المعاصي، ومن قاتل لأجل الدنيا.. ونحو ذلك من الأمور التي أجمع العلماء، وأجمعت الأمة علىٰ تضليل من قال بذلك.

كذلك لما توالىٰ الزمان طعن أناس كثيرون في أئمة أهل السنة وفي أئمة أهل الحديث، طعنوا فيهم، تارة بعدم معرفتهم بالدّنيا، وتارة بأنهم يدخلون علىٰ الولاة، وتارة بأنهم لا يفقهون إلا النصوص ولا يعلمون العقليات، وتارة.. وتارة..، والغرض من ذلك كله أن يطعنوا في العلماء، وإذا طُعن في أهل العلم طُعن في الشريعة؛ لأنَّ الشريعة إنما يبينها أهل العلم، يبينون كتاب الله ومعانيه، ويبينون السنة ومعانيها، فمن طعن في أهل العلم رجع طعنه -إن كان مريدا أو غير قاصد- رجع الطّعن إلىٰ الشريعة؛ لأنّ الشريعة إنما يبلغها هؤلاء العلماء الذين ورثوا محمدا ﷺ بشهادته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حين قال: «**إنّ الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»(١) العلماء ورثة الأنبياء، فالطعن فيهم حقيقته أنه راجع إلىٰ الطعن في الشريعة.

وإنّ الطعن في العلماء وتشويه سمعة العلماء -**بحق أو بغير حق**- عند العامة إنّ ذلك يورث الشك فيهم، وإذا أورث الشك في أهل العلم رجع ذلك إلىٰ عدم الثقة بأقوالهم، وعدم الثقة بالعقيدة التي ينشرونها، وعدم الثّقة ببيانهم للكتاب وبيانهم للسنة، وعدم الثّقة ببيانهم للفتاوىٰ المعاصرة، وللنوازل الحاضرة التي تجدّ في أحوال المؤمنين، وما يجد في أحوالهم أفرادا وجماعات، **وإذا نُزعت الثقة تسلَّط الجهال، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا.**

أيها المؤمنون، إنّ الله -جل جلاله- لما رفع منزلة العلماء جعل غيبة كل المسلمين كبيرة من كبائر الذنوب فإن الله -جل جلاله- قال: ﴿**وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾[الحجرات:١٢]، فجعل الغيبة من جنس أكل الميتة، وأكل الميتة كبيرة من الكبائر، فهكذا الغيبة كبيرة من الكبائر، وتعظم الغيبة إذا كان المغتاب صحابةَ رسول الله ﷺ، أو إذا كان المغتاب العلماء الذين يعلمون الكتاب والسنة ويبصِّرون أهل العمىٰ، وينصرون السُّنة بالاعتقاد والعمل، تعظم الغيبة وتكبر الكبيرة، وإذا كانت الغيبة تلك كبيرة.

فمن ذكر العالم بغير ما يرضىٰ فإنه قد اغتابه، وإذا اغتابه فإنه قد ارتكب تلك الكبيرة والنبي ﷺ نهىٰ عن الغيبة، نهىٰ عن الغيبة ثم سئل عنها: ما الغيبة؟ فقال: «**ذكرك أخاك بما يكره**» قال: أرأيت إن كان في

(١) «سنن الترمذي»، حديث رقم(٢٦٨٢) . «سنن ابن ماجه»، حديث رقم (٢٢٣) . قال الشيخ الألباني: صحيح.

أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»،(١) والبهتان أعظم من الغيبة، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾[الأحزاب].

إن الغيبة إذا كانت كبيرة من كبائر الذنوب فمن مارسها بين الصلوات، فإن الصلاة إلىٰ الصلاة ليست مكفِّرة لما بينهما؛ لأنّ من شرط تكفير الذنوب أن تُجتنب الكبائر، فمن أصرَّ علىٰ هٰذه الكبيرة ولم يستغفر ولم يتب ولم يُنِب إلىٰ ربه، فإن صغيرته لا تكفرها الصلاة ولا يكفِّرها الصيام ولا تكفرها الجمعة ولا تكفرها العمرة ولا يكفرها الحج، قال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾[النساء]، فشرط تعالىٰ لتكفير السيئات أن تُجتنب الكبائر، وكذلك قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الصلاة إلىٰ الصلاة مكفرات لما بينهما ما اجتنبت الكبائر**»، وفي لفظ: «**ما لم تغشَ كبيرة**»، وكذلك قال: «**رمضان إلىٰ رمضان، والعمرة إلىٰ العمرة، والجمعة إلىٰ الجمعة مكفرات لما بينهما إذا اجتُنبت الكبائر**».(٢)

فهٰذا الذي وقع في الغيبة بذكره أخاه بما يكره، إن كان في أخيه ما يقول، وإن كان في أهل العلم ما يقول، فقد ارتكب تلك الكبيرة، وإن كان ما يذكر كذبا وبهتانا، إن كان ما يذكر زورا وإفكا، فإن مصيبته وكبيرته أعظم، وصلاته إلىٰ صلاته ليست مكفرة لما يرتكبه من الذّنوب؛ بل تجتمع عليه الذنوب إن لم يشأ الله أن يغفر له في الآخرة، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الحديث الصحيح الذي يصف فيه الذنوب ويصف فيه صغارها بلْه الكبار يقول: «**كمثل قوم تفرقوا في واد فأتىٰ هٰذا بعود صغير وأتىٰ ذاك بعود وأتىٰ الثالث بعود فجمعوه تحت قدرهم فأنضجوا قَدِيرَهم**» يعني ما بداخل القدر «**وهكذا الذنوب تهلك صاحبها**».(٣)

أيها المؤمن، إن الله رحمك بأن جعل صلاتك إلىٰ صلاتك مكفِّرة لما بينهما فإنك إذا ارتكبت تلك الكبيرة من الغيبة والبهتان، أو من الكذب علىٰ أهل العلم، فإنّك علىٰ خطر عظيم فالنجاة النجاة، النجاة النجاة، وإيانا وسبيل المبطلين الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون ويرتكبون النهي مع علمهم بذلك، ويطعنون في أهل العلم، ويعلمون أنهم هم خيرة أهل الأرض بما يحملون في صدورهم من القرآن من كلام الله، ومن كلام المصطفىٰ ﷺ، إذا تحدّثوا تردد في أنفاسهم كلام الملك العليّ العظيم، وإذا تحدّثوا تردد مع أنفاسهم كلام المصطفىٰ ﷺ كأنه حي حاضر يحدثنا، يفقهوننا، ويعلمون الجاهل، ويفتون، ويعلم الناس أثرهم إذا قام الأشهاد يوم القيامة من أخذ من عالم كلمة فاهتدىٰ بها فنفعته في دينه فإنه سيعلم عِظَم أثرها يوم القيامة.

فكيف يكذب المبطلون علىٰ أهل العلم، وكيف يبهت المبطلون أهل العلم، وكيف يغتاب الناس أهل العلم، وهم خيرة الله في أرضه ومن ذكرهم بغير خير فهو علىٰ غير السبيل.

---

(١) أخرجه مسلم ، حديث رقم (٢٥٨٩).

(٢) أخرجه مسلم، حديث رقم (٢٣٣).

(٣) «مسند أحمد» (تحقيق أحمد شاكر وحمزة الزين)، حديث رقم (٢٢٧٠٧)، وهو في «السلسلة الصحيحة» برقم (٣٨٩).

إن الكذب علىٰ أهل العلم كبيرة من الكبائر، وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**من حدّث بحديث يرىٰ أنه كذب فهو أحدث الكاذِبَين**» وفي ضبط «**فهو أحد الكاذبين**»،[1] وقد قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[النحل]، فالكذب في هـٰذا الزمان راج، ونتج عن الكذب الغيبة والبهتان، ونتج عن ذلك أمور كثيرة فشت في الناس.

أيها المؤمن، إن إيمانك يعصِمُك من ارتكاب الزنا، إن إيمانك يعصمك بإذن الله وتوفيقه من ارتكاب شرب الخمر، ومن أكل الربا، ومن السرقة، ومن الموبقات ومن الشرك بالله، ومن السحر ومن التولي يوم الزحف، ومن قذف المحصنات الغافلات، وهـٰذه يجتمع المؤمنون علىٰ إنكارها وعلىٰ بغضها؛ ولكن هل عصمك إيمانك من الغيبة؟ هل عصمك إيمانك من الكذب؟ هل عصمك من البهتان؟

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: **إنه يكثر في الصالحين أن يجتنبوا الزنا وشرب الخمر، ولكنهم يقعون في كبائر الذنوب باللسان من الغيبة ونحوها. ومن كبائر الذنوب في القلب من العجب والكبر ونحو ذلك.**

وهـٰذا الذي قاله صحيح لأن الكبائر متنوعة، والله -جل جلاله- جعل من اللسان كبيرة، وقد سأل معاذ رسول الله ﷺ حين قال له: «**كفَّ عَلَيْكَ هَذَا**»، قال معاذ: يا رسول الله؛ وإنّا لَمُؤاخَذون بما نَتَكلَّم به؟ فقال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ -أو قال: عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ- إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»،[2] فماذا يقول أولئك الذين اجتمعوا في المجالس فأخذوا يغتابون هذا العالم، ويغتابون ذاك، ويقذفون القاضي هـٰذا ويقذفون القاضي ذاك، ولا يرعوا للشرع حرمة، ولا يرعوا لما في صدور العلماء من كلام الله وسنة رسوله ﷺ حرمة، ولا يرعوا للعقيدة الصحيحة التي يبلِّغها أهل العلم وينشرونها حرمة، ويرتكبون هذه الكبيرة بذكرهم العلماء بما يكرهون، ومع ذلك يأنسون، وكأنهم علىٰ طاعة وكأنهم في طواف أو في تلاوة قرآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

اللّٰهمَّ نسألك سؤال ملحٍّ يرجو الإجابة، أن تجعل ألسنتنا عفيفة، اللّٰهمَّ اجعل ألسنتنا عفيفة، وقلوبنا محبة للمؤمنين، ربنا لا تجعل في قلوبنا غلاًّ للذين آمنوا، ربنا اجعلنا ممن يتكلّم بالخير.

اللّٰهمَّ اجعلنا ممن ينطق إذا نطق بالخير، ونعوذ بك من لسانك يؤول بنا إلىٰ النار، نعوذ بك اللّٰهمَّ من لسان يؤول بنا إلىٰ النار.

واسمعوا لقول الله -جل وعلا- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرَّحمٰن الرحيم: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المؤمنين من كل ذنب، فاستغفروه من قلوبكم حقا، وتوبوا إليه صدقا، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) مسلم: مقدمة، باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكذابين.

(٢) «سنن الترمذي»، حديث رقم (٢٦١٦). «سنن ابن ماجه»، حديث رقم (٣٩٧٣). قال الشيخ الألباني: صحيح.

[الخطبة الثانية]

الحمد لله حق الحمد وأثناه وأجله، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله، نشهد أنه بلّغ الرسالة وأدىٰ الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق الجهاد.

اللّٰهمَّ صلِّ علىٰ نبيك محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدين.

أما بعد؛

فإن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد بن عبد الله، وشر الأمور محدثاتُها، وكلَّ محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وعليكم بالجماعة فإنّ يد الله مع الجماعة، وعليكم بلزوم تقوىٰ الله فإن بالتقوىٰ الفخار والرفعة؛ فـ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾[آل عمران]؛ يعني قد حققتم إسلامكم ظاهرًا وباطنًا.

هٰذا واعلموا رحمني الله وإياكم أن الله جل جلاله أمركم بالصلاة علىٰ نبيه فقال قولا كريما: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾[الأحزاب]، اللّٰهمَّ صلِّ وسلم وبارك علىٰ عبدك ورسولك محمد صاحب الوجه الأنور والجبين الأزهر، وارض اللّٰهمَّ عن الأربعة الخلفاء الأئمة الحنفاء الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون، وعنَّا معهم بعفوك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

اللّٰهمَّ أعزّ الإسلام والمسلمين، وأذِلّ الشرك والمشركين، واحم حوزة الدين، وانصر عبادك الموحدين.

اللّٰهمَّ انصر المؤمنين الذين يجاهدون في سبيلك في كل مكان، اللّٰهمَّ أيّدهم بتأييدك وانصرهم بنصرك وقوِّهم بقوتك وأعزهم فأنك القوي العزيز.

اللّٰهمَّ ارفع عنا الربا والزنا وأسبابه، وادفع عنا الزلازل والمحن وسوء الفتن، ما ظهر منها وما بطن عن بلادنا هذه بخاصة، وعن سائر بلاد المؤمنين بعامة، يا أكرم الأكرمين.

اللّٰهمَّ نسألك سؤال مُلِحٍّ يريد الإجابة ويطمع فيها ويخاف ذنوبه، نسألك أن تغفر لنا أجمعين، اللّٰهمَّ اغفر لنا أجمعين.

اللّٰهمَّ لا تمتنا إلا وقد وفقتنا لتوبة نصوح بها ترضىٰ عنا، وأنت أرحم الراحمين وأجود الأجودين.

عباد الرحمـٰن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾[النحل]، فاذكروا الله العظيم الجليل يذكركم، واشكروه علىٰ نعمه يزدكم، ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون.

أدبُ السُّؤال

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الذي هدانا للخيرات وجنَّبنا سُبل المنكرات، وأشهد أن لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبد الله ورسوله، وصفيُّه وخليله، صلَّى الله عليه وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد..

فأسأل الله جلّ وعلا أن يجعلني وإيَّاكم ممَّن إذا أُعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، وهٰذه الثَّلاث هي عنوان السَّعادة، من وُفّق إليها فقد أوتي خيرًا عظيمًا؛ من إذا أُعطي شكر وإذا ابتلي صبر وإذا أذنب استغفر، فمن حيزت له هٰذه الثَّلاث فقد حِيزَ له خيرُ الدُّنيا والآخرة، أسأل الله جلّ وعلا أن يجعلنا وإيَّاكم من أهلها.

هٰذه الكلمة موضوعها عن:

أدبِ السُّؤال

والسُّؤال هٰذا المقصود به سؤال أهل العلم أو سؤال المعلِّمين عمّا يحتاجه النَّاس.

وإلَّا فإنَّ عموم لفظها يشمل سؤال الرَّب جلَّ وعلا في الدُّعاء؛ لأنّ سؤالَ الله جلّ وعلا له أدبٌ وله أحكام ينبغي للعبْدِ أن يحيط بها وأن يكون مراعيًا لها؛ لأنَّ كثيرًا من أسباب ردِّ إجابة السُّؤال أنْ يكون السُّؤالُ فيه اعتداءٌ-يعني من الله جلَّ وعلا -، أو يكون السُّؤال على غير المشروع أو أن يكون السَّائل لم يحسن المسألة، فقد قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في سؤال الله جلّ وعلا: إنِّي لا أحمل همّ الإجابة ولكن أحمل همّ الدُّعاء فإذا وُفِّقتُ إلى الدُّعاء جاءت الإجابة.

موضوعنا عن أدب السُّؤال الذي هو سؤال أهل العلم، والحاجةُ ماسَّة إلى معرفة آداب سؤال أهل العلم، ما طريقة سؤالهم؟ وعمّ يُسألون؟ وكيف يكون السُّؤال؟ وكيف تُتلقَّى الإجابة؟ وما ينبغي للمسلم من توقير أهل العلم وعدم الإلحاح عليهم بالمسائل، ونحو ذلك من الآداب.

وأهل العلم فيما مضى قد دوَّنوا كثيرًا من هٰذه الآداب في مصنَّفاتهم في «أدب العلم والتَّعلم» وفي «أدب الطالب مع شيخه» وفي «حقوق أهل العلم بعامَّة» والله جلّ وعلا قال في محكم كتابه: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[التوبة:٧١]، قال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ﴾ يعني بعضهم يحبُّ بعضًا وينصر بعضًا ويُقيل عثرة بعض.

ومن أكثر أهل الإيمان حقًّا في الوَلاية والمحبَّة والنُّصرة= أهل العلم؛ لأنَّهم لما شهد الله جلّ وعلا لهم به

هم أخصُّ أهل الإيمان؛ لأنّ الله قرنهم بنفسه وملائكته في الشَّهادة له بالتَّوحيد حيث قال جلّ وعلا: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]، فأولو العلم من النَّاس هم الصَّفوة، كما قال أيضًا سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١] فالله جلّ وعلا رفع المؤمنين على النَّاس جميعًا درجات، ورفع أهل العلم من المؤمنين على أهل الإيمان عمومًا درجاتٍ، فهم الخاصَّة، وهم الصَّفوة؛ لأنَّ معهم من فهم كلام الله جلّ وعلا وفهم سنّة رسول الله ﷺ ما جعل قلوبهم أكثر نورًا من قلوب غيرهم؛ لأنَّ النُّور بالعلم، والنُّور إنَّما هو بفقه القرآن والسُّنَّة ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾[المائدة:١٥]، من فَقُه القرآن وفقه السُّنّة كان أعظم نورًا في القلب وكان أعظم حقًّا لحقوق أهل الإيمان.

الملاحظ أنَّ الحريص على الخير من النَّاس يسأل أهل العلم؛ يسألهم في مسائل فقهيَّة فيما يواجهه، أو يسألهم في مسائل اجتماعية فيما يواجهه من مشاكل في بيته أو في عمله أو نحو ذلك، ويسأل المتعلمُ المعلمَ، لكن وجدنا كثيرًا من الأسئلة قد خرجت عمَّا ينبغي من مراعاته من توقير أهل العلم ومن مراعاتهم وعدم الإخلال بحقِّهم، فتجد أنَّ من النَّاس من يخوض في سؤاله أهلَ العلم أمورًا لا ينبغي أن يخوض فيها.

وأصل كثرة السُّؤال وكثرة المسائل قد جاء النَّهي عنها فقد ثبت في «الصَّحيحين» من حديث أبي هريرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا ما استطعتم، فإنَّما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**» قال أهل العلم: قوله: «**كثرة مسائلهم**» يعني عما لم يقع وعما لم يأت بيانه في الكتاب المُنَزَّل، ولهذا جاء في الصَّحيح أنّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ أشدّ المسلمين بالمسلمين جُرمًا من سأل عن شيء لم يحرَّم على المسلمين فحرِّم عليهم لأجل مسألته**»، وقد قال جلّ وعلا: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ [المائدة:١٠١].

والأحاديث التي جاءت في النَّهي عن كثرة السُّؤال متعدِّدة، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما رأيتُ قومًا خيرًا من أصحاب محمَّد ﷺ ما سألوه إلَّا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قُبض، كلُّها في القرآن. قد قال جلّ وعلا: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾[البقرة:٢٢٢]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ [البقرة:١٨٦]، إلى آخر هذه المسائل، مجموع ما سأل صحابة رسول الله ﷺ الذين هم منه مقرَّبون إنَّما هي ثلاث عشرة مسألة وكلُّها في القرآن.

وقد كان الصَّحابة من توقيرهم للنَّبيِّ ﷺ ومن كراهتهم لكثرة المسائل يحبُّون أن يأتي الرَّجل من البادية ومن خارج المدينة حتى يسأل النَّبيَّ ﷺ فيستفيدوا من السُّؤال ومن الجواب، وقد جاء أيضًا في الحديث

الصَّحيح: «**إنّ الله كره لكم قيل وقال وكثرة السُّؤال وإضاعة المال**» وقد قال أيضًا الحجَّاج بن عامر الثُّمالي أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إيَّاكم وكثرة السُّؤال**».

فالأحاديث دالة على أنَّ كثرة الأسئلة لأهل العلم إنَّما ذلك داخلٌ في المكروه إلَّا ما يحتاج إليه العبد فيما يأتي بضوابطه، والله جلّ وعلا أمر المؤمنين بأنْ يسألوا إذا جهِلوا، وقد قال ﷻ لما أنكر كفَّار قريش أن يكون الرَّسول بشرًا رجلًا، وقالوا: إنَّ الرَّسول يجب أن يكون ملكًا.

قال ﷻ في سورة النَّحل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾.

هٰذه الآية أمر الله جلّ وعلا فيها أهل الشِّرك -كفَّار قريش وغيرهم- أن يسألوا أهل الذِّكر -يعني أهل الكتاب- عمَّا إذا كان الرَّسول الذي جاءهم بشرٌ أم هو ملَكٌ؟ فإذا كان الرَّسول الذي جاءهم بشرًا فاقبلوا رسالة محمَّد ﷺ لأنّه بشرٌ قد خلت من قبله الرُّسل، وقد وصف أهل الكتاب بأنَّهم أهل الذِّكر؛ لأنَّ الكتاب الذي أنزله الله جلَّ وعلا هو الذِّكر، وأعلى الذِّكر القرآن كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾[الحجر].

وهنا في هٰذه الآية قال جلّ وعلا: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ قال العلماء: هٰذه الآية نازلة في سؤال أهل الكتاب، ولكنّ عموم لفظها يشمل سؤال أهل القرآن وأهل السُّنّة؛ لأنَّهم أحقُّ ببيان ما نزَّل الله جلَّ وعلا، ولهٰذا قال: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾

قال الشَّيخ عبد الرَّحمٰن بن سِعدي في تفسيره عند هٰذه الآية: وعموم هٰذه الآية فيها مدحُ أهل العلم، وأنَّ أعلى أنواع العلم: العلم بكتاب الله المنزّل، فإنَّ الله جلَّ وعلا أمر من لم يعلم بالرُّجوع إلى أهل العلم وأهل الذِّكر في جميع الحوادث، وفي ضمن ذلك تعديلٌ لأهل العلم وتزكيةٌ لهم، حيث أمر الله جلّ وعلا بسؤالهم وأنَّه بذلك يخرج الجاهل من التَّبعة.

إذن الأصل موجودٌ في كتاب الله وأنّ المرء إذا جهل شيئًا ولم يعلم حكمه فإنَّه يسأل عنه أهل العلم، وإذا سأل عنه أهل العلم -أهل الكتاب والسُّنَّة الذين رسخت قدمُهم في ذلك- فإنَّ تبعته في ذلك تزول؛ لأنَّه قد سأل مَنْ أمر الله جلَّ وعلا أن يُسأل، فمن جهل شيئًا وسأل عن حكمه فأفتي من ثبْتٍ، فإنَّ تبعته قد زالت وقد برئ من التَّبعة، فإذا امتثل ما أفتى به فيكون قد زال عنه المحذور؛ لأنَّه امتثل ما أمر الله جلّ

وعلا به في قوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(١).

سؤال أهل العلم وسؤال أهل الذِّكر له أحوال

النَّاس يحتاجون إلى أن يسألوا ولابدّ، ولكن هٰذا السُّؤال من حيث هو له أحوال:

- حالٌ من جهة السَّائل.
- وحالٌ من جهة المسؤول.

فالسَّائل ينبغي له أن يراعي حتَّى يصل المسؤول إلى الجواب الموافق للحقِّ إن شاء الله آدابًا وأن يراعي أشياءً منها:

من تلك الأشياء التي يجب أن يراعيها السَّائل أن تكون مسألته واضحة غير ملتبسة -يعني أن يتبيَّن المسألة قبل أن يسأل- والملاحظ أنَّ من المسلمين مَنْ إذا جاء على باله مسألة أو واجهته مشكلة فإنَّه يأتي أهل العلم ويسألهم مباشرةً دون أن يستحضر ويستعدَّ لتفاصيل هٰذه المسألة، أو مباشرةً يرفع الهاتف ويسأل العالم عمَّا عرض له دون أن يستحضر ما اتَّصل بهٰذه المسألة، فإذا سأله عن بعض التَّفاصيل قال: والله لا أعرف هٰذا، فلان أوصاني، هٰذا كذا، لا أدري.

فلابدَّ للسَّائل أن يستحضر تفاصيل المسألة قبل أن يسأل؛ لأنَّ السُّؤال تسأل فيه عن حكم الله جلّ وعلا الذي إذا أدركته؛ يعني أدركت الحكم فقد برئت من التَّبعة، والمسؤول - العالم الذي يُسأل - لابدّ أن تكون المسألة عنده واضحة، وإلا فكيف يجيب على شيء ليس بواضح.

ولهٰذا ينبغي للسَّائل أوَّلا أن يستحضر السُّؤال جيِّدًا، وأن يُعدّ له في عبارة ملخَّصَة، لا تظنّ أنّ المسؤول، المفتي، أو طالب العلم الذي تأهَّل للجواب لا تظنّ أنَّ الذي يتَّصل عليه واحدٌ فقط أو اثنين، اليوم مع الهاتف صار الذي يتَّصل من الدَّاخل أو الخارج بأهل العلم عشرات الآلاف في السَّنة مثلا، وفي اليوم الواحد قد يتَّصل عشرين أو ثلاثين، فلهٰذا كان من الأدب الذي ينبغي مراعاته أن يستحضر السَّائل ضيق وقت المفتي، ضيق وقت المجيب على السُّؤال، فعليه أنْ يُعِدّ السُّؤال بعبارة واضحة لا لَبْس فيها ولا غموض، ويجتهد في أن يُعين المفتي على وقته، وحتى تكون المسألة أنفع؛ يعني لا تظن أن هٰذا الذي أجابك أو ردّ عليك بالهاتف من أهل العلم أنَّه لك وحدك، بل اعتقد أنَّ الذي يسأل أهل العلم في اليوم عشرات النَّاس يسألون في كلِّ وقتٍ، فلابدّ من رعاية الحال والتَّأدُّب معهم في اختصار المسألة، وتقبّل الجواب

---

(١) سورة: النحل، الآية (٤٣)، الأنبياء، الآية (٧).

بحسب ما أورد، فإذا كانت المسألة واضحة كان الجواب واضحًا.

ولهٰذا ترى أنَّ أسئلة جبريل عليه السَّلام للنَّبي ﷺ دليل على وضوح المسألة وما ينبني على وضوح المسألة من وضوح الجواب.

قال جبريل عليه السَّلام للنَّبي ﷺ: «**أخبرني عن الإسلام**» سؤال ملخَّصٌ وواضحٌ، «**أخبرني عن الإيمان**»، «**أخبرني عن الإحسان؟**» وعن أشراط السَّاعة، قال: «**وما أمارتها**» ونحو ذلك.

فوضوح السُّؤال وقلَّة ألفاظه باستحضار تفاصيله ووضوح السُّؤال قبل أن تسأل هٰذا من الآداب التي ينبغي مراعاتها، وكثيرًا ما تكون الإجابة غير واضحة؛ لأنَّ السَّائل لم يحسن السُّؤال، فلو أحسن السَّائل الاستعداد للسُّؤال فسأل لكانت الإجابة واضحة.

من الآداب التي ينبغي مراعاتُها في السُّؤال أنْ لا يسأل السَّائل أهل العلم عن شيءٍ يعرف جوابه: بعض طلبة العلم، أو الذين لديهم إطِّلاع ولديهم معرفة، يكون قد بحث المسألة وعرف ما فيها من الأقوال ونحو ذلك، فيأتي ويسأل، فإذا سأل وأُجيب بجوابٍ موافقٍ لأحد الأقوال أتى باعتراضات، يقول: هٰذا ما دليله؟ هٰذا الدَّليل قُدح فيه بكذا، أو وجِّه بكذا، قال بعض أهل العلم فيه كذا، ونحو ذلك. ففرقٌ ما بين أن تسأل لتستفيد أو لتعلم وأنت لا تعلم، وما بين أن تناظر.

والعالم أو المعلِّم ليست وظيفته ولم يفتح لك المجال لتناظره، ابتدئ له وقُل: أنا أريد أن أناظرك في المسألة الفلانية.

ما معنى المناظرة؟ معناها أجادلك فيها تعرف ما عندي وأعرف ما عندك حتى نصل إلى الحقِّ، وهٰذا غير مطلوب مع عدم رعاية الأدب مع أهل العلم؛ لأنَّ في ذلك بعضُ التَّعدِّي على حقِّ أهل العلم إلَّا إذا أفصحت له بأنَّك تريد أن تبحث معه هٰذه المسألة، فإذا أذن لك بالبحث فإنَّه عند ذاك تخرج المسألة من كونها استفتاء وسؤال وجواب إلى مسألة بحث واستفصال، وهٰذا أيضًا يكون عند المتعلِّمين في مجالس العلم، فإنَّه يكون عنده معرفة بالجواب ولكن يسأل ليختبر -بعض الأحيان- أو ليُعلم غيره بأنَّه سأل سؤالًا جيِّدًا ونحو ذلك.

وهٰذا الوقت الآن تقاصر عن أن نسأل عن شيء قد علمناه، فلنسأل عن شيء لم نعلمه، فلهٰذا كان ممَّا ينبغي التَّأدُّب فيه أن لا تسأل عن شيءٍ إلَّا عن شيء لم تعلمه، وذلك لأنّ الله جلّ وعلا قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإنْ كنت تعلم فلا تسأل؛ لأنَّه قد جاء عندك العلم ووقت المفتي أو العالم أو طالب العلم ينبغي أن يُصرف إلى أشياء كثيرة، والواجبات الآن يتقاصر عنها وقت الكثيرين، فكيف

بالاستطراد ونحو ذلك.

من الآداب التي ينبغي مراعاتها أيضًا في السُّؤال: أنْ لا تذكُر للعالم قول غيره، بعض النَّاس يسأل أهل العلم بالهاتف -والهاتف الآن قرَّب وأكثر من إشكالات الأسئلة- يسأل واحدٌ وبعده يسأل الثَّاني، وبعده يسأل الثَّالث، والرَّابع، فهو يضطرب في المسألة، ثم بعد ذلك يذهب إلى شيءٍ غير جيِّد وهو أنَّه يذهب إلى أسهل تلك الأقوال، وهٰذا لا ينبغي، فإنَّه الذي ينبغي في السُّؤال أن تبحث عمَّن تثق بعلمه ودينه في ذلك، كما قال أهل العلم: ينبغي للمستفتي أنْ يسأل من يثق بعلمه ودينه. فإذا وثقتَ بعلم فلان ودينه فإنَّك تسأله ولا تسأل غيره؛ لأنَّك إذا سألت غيره فإنَّه قد يكون عنده من الجواب غير ما يكون عند الأوَّل فتقع أنت في حيرة، وعهدتك تبرأ.

وفي حالٍ لك أن تسأل غير من سألت أوَّلًا، وذلك فيما إذا كان جوابه مُشكل من جهة الدَّليل؛ إذا كان عند المرء معرفة ببعض الأدلَّة ونحو ذلك فأشكل عليه الجواب من جهة الدَّليل فإنّ له أن يسأل غيره؛ لأنَّه ما اقتنع بالجواب لا من جهة عدم مناسبته لحاله أو من جهة صعوبة الجواب أو أنَّه لا يناسب أو يريد أن يبحث عمَّن يخفِّف له؟ لا؛ ولكن من جهة أنَّه استشكل هل هٰذا حكم الله جلّ وعلا وحكم رسوله ﷺ في المسألة أم لا؟ لفهمه من بعض الأدلَّة والأحاديث خلاف ذلك.

فإذن من الآداب ألَّا تسأل أكثر من عالم في المسألة لأنّ كثرة الأسئلة هٰذه:

أوَّلًا: تضيق وقت العلماء.

والثَّاني: أنَّه يوقع ذلك السَّائل في إشكالات، وكثيرٌ من الذين سألوا يقولون: احترنا ما ندري، هٰذا يقول كذا وهٰذا يقول كذا. نقول: أنت الذي أخطأت أوَّلًا حيث سألت أكثر من عالم، سل من تثق بعلمه ودينه وخذ بفتواه وتبرأ أمام الله جلّ وعلا؛ لأنَّ الله جلّ وعلا أمرك بأن تسأل أهل الذِّكر وقد امتثلت بسؤال أهل الذِّكر، فلا تزد على نفسك ثقلًا وحملًا.

من الآداب أيضًا أن لا تسأل حين تسأل بإلغازٍ في السُّؤال، مثلا هناك من يسأل ويقول: فلانٌ من النَّاس حصل له كذا وكذا. وهو يريد أن يخرج عن مسألته بخصوصه إلى مسألة مشابهة، وهو يظنُّ -هٰذا السَّائل- أنَّه إنْ أجيب على تلك، فمسألته مثل تلك المسألة، فيقول مثلًا: فلان لو حصل عليه كذا وكذا. ومسألته في الواقع تختلف عن تلك ولكنَّه يظن أنّ هٰذه وتلك سواء، فحتى لا يظن العالم أنّه هو الذي وقع في المسألة وهو الذي يحتاج إلى الجواب فإنَّه يعمِّم.

سؤال أهل العلم ليس فيه عيبٌ؛ بل هو شرف ويدل على حرص السَّائل على الخير ورغبته في إبراء

ذمته، وأن يكون متخففًا من التَّبعة حين يلقى ربَّه جلّ وعلا، فحين تسأل لا تسأل أهل العلم بإلغاز، سَلْ عمّا وقع بوضوح ولا حرج في ذلك، فقد سألت بعض الصَّحابيات النَّبيَّ ﷺ عن المرأة إذا رأت الماء؛ عن المرأة إذا احتلمت ماذا يكون حكمها؟ والحياء لا يكون في السُّؤال؛ لأنّ الحياء محمودٌ ولكن فيما إذا كان الحياء يُبعدك عن معرفة حكم في الدِّين فإنّ ذلك غير محمود كما جاء في الحديث.

فإذن من الآداب التي ينبغي لنا أن نُراعيها أن تسأل السُّؤال الذي تحتاجه، وأنْ لا تظنَّ أنّك إذا ألغزتَ بالسُّؤال وأجاب أنّ الجواب مطابقٌ على مسألتك، لو قلت له المسألة بوضوح والسُّؤال أو الحادثة التي تريد أن تسأل عنها بوضوح يكون الجواب مختلفًا تمامًا، فلا تكن ملغزًا في سؤال أهل العلم؛ لا عن مسألة فقهية ولا عن أشخاص ولا عن أحوال، بل ينبغي أن يكون السُّؤال واضحًا وذلك من توقير أهل العلم ومن السَّعي للوصول إلى الجواب الصَّحيح، أمَّا أن نعمي على أهل العلم حتى نحصل منهم على جواب، فإنَّ هٰذا لا يوافق ما ينبغي من توقير أهل العلم، وأيضًا لا تبرأ به أنت لأنك أوقعت العالم في الجواب، ولو عرف السُّؤال على حقيقته ومرادك منه لربَّما أجاب بجوابٍ آخر، فأنت لا تبرأ.

ولهٰذا نرى أنَّ كثيرًا من الإشكالات التي حصلت في تضارب أقوال بعض أهل العلم في بعض المسائل إمَّا الفقهية أو المسائل الواقعة أو الاجتماعية أو نحو ذلك، إنَّما جاء من جهة من يسأل بسؤال ملغز معمًّى، أو يكون المراد وراءه وليس في ظاهره، وهٰذا لا ينبغي؛ لأنَّ الله جلّ وعلا أمرنا بأمر واضح فتعدَّى هٰذا الأمر لما ينبغي من الأدب في السُّؤال.

من الآداب التي ينبغي مراعاتها في السُّؤال أن يكون السَّائل يسأل لنفسه وأن لا يسأل لغيره: يأتي كثيرٌ من الأسئلة يكون فيها سائلٌ يقول: أحد الأقارب أوصاني يسأل عن كذا وكذا. أو يقول: لو حصل لفلان -صديق لي في العمل- حصل معه كذا وكذا وأوصاني لأسأل له. لم هو لا يسأل؟ يختلف الحال لأنّ المفتي أو العالم لابدّ أن يستفصل، لابدّ أن يسأل؛ ما الذي حصل؟ هل حصل كذا وكذا؟ فإذا كان السَّائل غير من حصلت له المسألة فإنَّه لا يكون ذلك معينًا على الجواب إلاّ فيما كان السّؤال مختصرًا وكان المانع من سؤال السَّائل هيبة العالم أو الاستحياء، كما فعل علي رضي الله عنه حيث كان رجلًا مذّاءً -يعني كثير المذي- فاستحيا أن يسأل رسول الله ﷺ لمكان ابنته -يعني لأجل أنَّ فاطمة رضي الله عنها زوج علي- فخشي أن يسأل وهاب أن يسأل واستحيا عليٌّ رضي الله عنه أن يسأل في مثل هٰذا السُّؤال الذي له تعلُّق بالزَّوجة فأوصى المقداد أن يسأل النَّبي ﷺ عن هٰذه المسألة وهي كثرة المذي، فسأله فأجابه النَّبيُّ ﷺ ثم نقل الجواب إلى عليٍّ رضي الله عنه.

إذن الأصل أن لا يسأل المرء إلَّا فيما يخصُّه؛ لأنّ الجواب يختلف بحسب السَّائل وبحسب عرض

السُّؤال، والنَّاقل ليس دائما ينقل الصُّورة على حقيقتها، وكثيرًا ما يحصل من الأجوبة ما ليس فيه دقَّة من جهة عرض السَّائل.

من الآداب المرعيَّة في السَّائل أنَّه إذا سأل أهل العلم في الهاتف أو بغير الهاتف فلا يُسَجِّل الجواب مكتوبًا أو على جهاز التَّسجيل إلَّا بإذن العالم: وقد مرَّ عليّ بعض الإخوة مرَّة أنْ سجّل لأحد أهل العلم جوابًا ليس كما ينبغي، وهٰذا راجع إلى أنّ العالم يجيب على قدر الاستفتاء، ولو استحضر العالم أنّ هٰذا سيسجّل وأنَّ الجواب سيسمعه آخرون لكان جوابه غير الجواب الأوَّل...

فمن عدم توقير أهل العلم وعدم رعاية حقِّهم؛ بل من الافتئات على حقِّهم أن تسجِّل جواب أهل العلم بالهاتف أو كتابة ثم تنشره دون إذنه؛ لأنَّه هو الذي له الحقّ في أن تنشر فتواه على الملأ أو لا تنشر أو لا تسجل، فالسَّائل سأل فيما يخصُّه، فهل أذن العالم لك أن تسجِّل السُّؤال والجواب بالهاتف؟ لم يأذن.

فإذا أردت أن تسجِّل فتستأذنه في البداية، وتقول: أحسن الله إليك أنا محتاجٌ للجوابِ مسجَّلًا على الشَّريط والآن أريد أن أسجله. فإذا أذِن تكون أنت قد أتيت بما ينبغي من الأدب، ولم تكن ممن لا يوقِّرون أهل العلم أو يجعلون الأمر غير واضح لهم؛ فيستغل بعض الفرص فيسجل عليهم ما لا يرغبون في تسجيله، لهٰذا مرَّةً من المرّات حصل مثل هٰذا ولما سئل قال: أبدًا ما قلت كذا وكذا على تفاصيله، بل المسألة فيها تفصيل بنحو ما. السُّؤال والجواب في التَّسجيل واضح، لِمَ قال العالم إنّ المسألة فيها تفصيل؟ لأنّه استحضر من المسألة الآن فيه أخذ ورد معنا ذلك فيه إشكال لكنّه ظنّ حين سأله السَّائل بالهاتف أنها لا يعدو عن اهتمام السَّائل بنفسه.

إذن مما ينبغي من توقير أهل العلم -وقد أمرنا بتوقيرهم كما جاء في الأثر عن عددٍ من التَّابعين أمرنا بتوقير أهل العلم- أن لا تفتئت عليهم بتسجيل أو كتابةٍ وتنشر إلَّا بعد إقراره، حتى ما تسمعه منه في درس بشرح مسائل، لابد من أن تعرضه عليه فيقر أن ينشر أو يصور أو ينسخ أو يسجل إلى آخر ذلك، لابد من ذلك لأنَّ ما يصلح للقليل قد لا يصلح للكثير؛ لأنَّ الكثير يعني الأمة أو النَّاس تختلف طبقاتهم، قد يرعى العالم حين يتكلم الحاضرين؛ يرعى حال الذين أمامه، هٰذا لو استحضر أنَّه سيُنشر على النَّاس فيطلع عليه فئات من الناس وبعقول مختلفة لكان جوابه يختلف عن الجواب الأوَّل.

ولهٰذا ترون أنَّ بعض الأسئلة التي يسأل فيها أهل العلم بالهاتف يكون الجواب مختلفًا عما لو سئلوا مثلًا في برنامج نور على الدَّرب، فيكون الجواب هناك في تفصيل وفيه دليل وفيه تعليل ونحو ذلك؛ لأنَّه سينشر على الملأ، لكن الجواب لك يكون على حسب الحال يصلح هٰذا أو لا يصلح، يجوز أو لا يجوز، السُّنّة

كذا –باختصار–؛ لأنّ الوقت يضيق عن أن يفصِّل لكلِّ أحد.

هٰذه من بعض الآداب المتعلِّقة بالسَّائل.

لعلنا نضيف **من الآداب** المتعلِّقة بالسَّائل أنْ لا يسأل السَّائل عن أشياء لا يفهمها إلَّا الخاصة ويثير السُّؤال أمام العامَّة –أمام الملأ–: يعني في مثل هٰذه المحاضرة يأتي سؤال قد لا يعلم معناه ولا يفهم جوابه إلَّا فئة قليلة من طلبة العلم، فلم تسأل أمام الناس؟ كذلك إذا حضرت في مجلس عند بعض أهل العلم فإنّ المجلس يحضر فيه العامي والمتوسط المثقف المتعلم طالب العلم فلا تسأل العالم أو طالب العلم عن سؤال إنما هو للخاصة يعني ليس العامة، وقد قال علي رضي الله عنه: حدّثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله. وقد بوب البخاري في (كتاب العلم) من «صحيحه» بقوله: (باب من خصّ بالعلم قوما دون آخرين كراهيةَ أن يقصر فهمهم عنه فيقعوا في أشد منه).

مثال ذلك أن يأتي –في مثل هٰذا الجمع المبارك ممن هم حريصون على الخير والأجر والثواب– يأتي ويسأل عن بعض المسائل الدقيقة في العقيدة، الناس يُطلب منهم المسائل العامة فيما يجب عليهم من العقيدة؛ لكن لا ينبغي أن تسأل عن المسائل الدقيقة أمام من لا يفهم الجواب فيما لو أجاب المسؤول عن السؤال، مثلا الكلام على بعض أحاديث الصفات التي قد لا يفهمها البعض، مثلا الكلام على بعض الآراء في مواقف يوم القيامة والاختلاف فيها ونحو ذلك، والكلام على بعض دقائق المسائل في الفقه واختلاف أهل العلم فيها هٰذا يقول كذا وهٰذا يقول كذا، العامة إنما يحتاجون قولا واحدا بدليله يمشون عليه، ولكن السؤال الخاص إنما يكون لأجل هٰذا السائل ولمن هم في طبقته، ولهٰذا ينبغي أن تُفرق فرقا مهما بين السؤال والبحث –بين السؤال الذي تحتاج معه إلى جواب وبين بحث المسألة– فتارة يكون السائل يريد بحث المسألة في المقام ويعرضها بصيغة سؤال، وهٰذا غير مناسب، ولهٰذا نقول: لا تسل عن أشياء لا يفهمها إلا الخاصة، فمن أدب السؤال أن تسأل بما يناسب الحال بما يناسب المقام، وأن لا تسأل عن أشياء لا يستوعب الجواب عليها أكثر الحاضرين.

من الآداب أيضا أنك إذا سألت فأجبت، أو سمعت علما، فإنّك تستفصل فيه أو تسترجع فيه حتى تفهمه؛ لأنّ بعض أهل العلم قد يكون جوابه سريعا، مثلا تسأل أنت وقد أتيت بأدب السؤال؛ فراعيت السؤال وأتيت بكلمات واضحة وتأنيت فيه واستوضحت الصورة والمسألة، فأوضحت للعالم فيكون الجواب سريعا، يكون جواب العالم ربما سريعا، فهنا ينبغي لك أنْ لا تأخذ ما علق بذهنك في هٰذه الحال بل إذا كان عندك اشتباه فتستفصل منه أو تسترجعه في الجواب حتى تفهمه، قد روى البخاري في «صحيحه»

عن ابن أبي مُليكة أنه قال: كانت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لا تسمع شيئا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه. وقد بوب عليه البخاري أيضا في (كتاب العلم) من «صحيحه».

فالأدب الذي كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم أنهم إذا سمعوا شيئا يَستشكل عليهم فإنهم يراجعون حتى يفهموه، حتى لا ينقلون للناس نقلا خاطئا أو حتى لا يعلم بشيء غير واضح.

فإذن هٰذا ينبغي للسائل إذا أجيب ولم يتضح له جواب أن لا يترك السؤال على الجواب الذي هو غير واضح فيذهب يعمل بشيء غير واضح، بل يسترجع ولا بأس أن يقول: ما فهمت الجواب. أو يقول: هل كذا أو كذا. فيستوضح حتى يكون الجواب واضحا قارًّا في ذهنه.

من الآداب التي ينبغي للسائل مراعاتها أن يكون لبقا مع أهل العلم متأدبا معهم، وأن يكون لأهل العلم هيبة في صدره وتوقيرًا في قلبه: فإنّك إذا زدت في احترام العالم وشعر بذلك منك فإنه يزيدك من العلم والجواب لأنك قد تحقَّقت بالزيادة؛ يعني أصبحت متأهلا للزيادة؛ لأنّ دليل تأهّل طالب العلم للتفصيل في الجواب والاستفادة الكاملة من العالم أن يكون متأدّبا معه، ما يأتي مثلا ويستعمل كلمات غير جيّدة أو كلمات فيها جفاء، بل يتأدب ويتحيّن الفرصة الجيّدة للعالم فيسأله.

هنا تنتبه إلى أنّ أوقات العالم تختلف، فهناك وقت قد يكون مناسبا لك لا يكون مناسبا له، فيكون الجواب الذي جاءك بحسب حاله هو، قد يكون مستعجلا، قد يكون وراءه أمر، قد يكون وقت الصلاة قرب فيريد أن يستعد بوضوء أو نحوه، قد يكون وقت نومه، قد يكون عنده ما يشغله، قد يكون في البيت شيء أهمّه، قد يعالج في ذهنه مسألة من المسائل التي في المجتمع أو التي يريد أن يبذل فيها بعض الشيء فيكون ذهنه منشغلا، فينبغي أن تراعي حال العالم حين تسأله فتقول له هل هٰذا وقت مناسب للسؤال أو أرجئ السؤال إلى وقت آخر، فإذا قال: أرجئه إلى وقت آخر. فيكون هٰذا زيادة في أدبك وأجر لك ويكون قد راعيت وتأدبت، وإذا أتى وقت آخر وسألته يكون مهيأ نفسه لأنْ يفصّل لك ويجيب المسألة بما ينبغي، فالمتصل دائما هٰذا وارد هو المرتاح، وأما المتصل به فلا يُدرى حاله، فهٰذا يظن أنه ينبغي له أن يقول العالم له كذا وكذا، وأن يرحب به بأعظم ترحيب وأن يفصل له أعظم تفصيل، لا يدري ما حال المتصل به، أحوال الناس في بيوتهم أو في أعمالهم مختلفة وقد يكون الذّهن منشغلا بتلك الحال فقد يكون وقد يكون، فينبغي أن يراعى ذلك وأن لا يظنّ أنّ المسؤول أو طالب العلم إذا سُئل أنه دائما ذهنه في نفس المستوى وفي نفس التأهيل بأن يجيب دائما جوابا مفصلا بأدلته إلى آخره.

لهٰذا لو تذهب وترى في المدوّنة مثلا التي دُونت فيها أسئلة مالك وبعض أصحابه والأجوبة، وكذلك

أسئلة للشافعي، وكذلك أسئلة أصحاب أحمد لأحمد، لا تجد الأجوبة متفقة من حيث التفصيل وعدمه، فتجد بعض أصحاب أحمد -لو رأيت المسائل المختلفة عن أحمد- تجده يسأله سائل فيكون الجواب: لا يصلح هٰذا، أكرهه. وفي مسائل أخر تجد أنه فصّل، لِمَ في موضع اختصر وفي موضع فصّل؟ نحن نقرأ الكتاب لا نستحضر الحال التي سُئل فيها ذاك السؤال والحال التي سُئل فيها السؤال مرّة أخرى، وإنما نقول: لِمَ فصل في موضع وفي موضع لم يفصل وإنما أجاب بإجابة مختصرة؟ واقع الحال وواقع العالم النفسي والذهني والزمني والمكاني يفرض عليه أشياء كما سيأتي أيضا، ولهٰذا ينبغي أن يراعى ذلك في حال سؤال أهل العلم.

ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا حَبْر الأمة في القرآن وحِبْرها؛ يعني كثير العلم في كتاب الله جل وعلا بدعوة النبي ﷺ، مكث زمانًا طويلا تردّد في نفسه مَن المقصود بالمرأتين في قول الله جلّ وعلا: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴾[التحريم:٤]، من المرأتان؟ قال ابن عباس: تردد ذلك في نفسي زمنا طويلا، وهِبت أن أسأل عمرا لأنّ عمر كان يحب ابن عباس وكان يقدمه في المجالس ويباهي به كبار الصحابة لما يظن ويلمح فيه من علم وتُؤدة وأدب وفهم عنده في الكتاب والسنة. قال ابن عباس: هبت أن أسأل عمر عن المرأتين اللّتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ. قال: حتى كان منصرفه مرّة من الحج فصحبته فقال لي: يا ابن عباس قرّب لي وَضوءا -يعني ماء-. فلما قرّبت له الوضوء قلت له في أثنائه يا أمير المؤمنين مَن المرأتان اللتان قال فيهما الله جل وعلا ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ ﴾؟ قال: فأجابني عمر فقال: عائشة وحفصة.

وكان ابن عباس ربما توسد بردته في يوم حار عند باب أحد الأنصار ليستفيد منه علما، سمع عنده حديث عن النبي ﷺ فأراد أن يتثبّت منه أو أراد أن يأخذه منه مباشرة، فيأتي فيطرق الباب فيقولون هو قائل -يعني نائم- أو هو في الدّار أو مثل ما يقول أحدنا اليوم هو مشغول أو نحو ذلك فانتظر، انتظر حتى خرج فلما خرج قال: يا ابن عمّ رسول الله ﷺ منذ متى وأنت هنا؟ فقال ابن عباس: منذ كذا وكذا. وكان يتوسد البردة وتسفي الريح التراب عليه تذللا في العلم واحتراما لأهل العلم، فلما رآه على هٰذه الحال انشرح صدر المسؤول أن يجيبه عما أراد وعظُم في نفسه، فكان ابن عباس إذا سأل أُجيب غير كثير ممن هم في طبقته من الصحابة رضي الله عن الجميع، ولهٰذا قال كلمته المشهورة: **ذللتُ طالبًا فعززتُ مطلوبًا**. يعني لمّا كنت طالبا كنت أذلّ لمن أستفيد منه ولكن لما أحتاج الناس إلي عززت مطلوبا؛ لأنه صار عندي من العلم ما ليس عند غيري.

وقد قال ابن عباس لبعض الأنصار -وكان صديقا له- اذهب بنا يا أخي إلى صحابة رسول الله ﷺ نسألهم عن العلم ونستفيد منهم، فقال: ذاك الأنصاري يا ابن عباس أتظنّ أنّ النّاس سيحتاجون إليك وهؤلاء صحابة رسول الله ﷺ الكبار بين ظهرانيهم. قال: فتركت العلم والسؤال وذهب ابن عباس يسأل. ذهب كبار الصحابة فأتى زمن ابن عباس فيه هو من كبار صحابة رسول الله ﷺ، فاحتاج الناس إلى علمه وأصبح يجيب الناس بما فتح الله جلّ وعلا عليه ومنّ عليه من العلم، الشاهد من ذلك أنّ السائل والمتعلم يحتاج إلى أدب وهو مراعاة أهل العلم وأن لا يضيق بالعالم إذا لم يفتح له صدره دائما، بشر هو، أحيانا يكون على حال وأحيانا يكون على حال أخرى؛ وهٰذا لعله من أسباب عدم إكثار الصحابة سؤال النبي ﷺ تأدبا معه وتوقيرا له عليه الصلاة والسلام، وحتى يكون ذلك أبلغ في الأدب معه عليه الصلاة والسلام.

هٰذا من جهة أدب السائل.

أما العالم فأيضا يحتاج إلى أن يكون -أو طالب العلم- معه أدب في الجواب، وأهل العلم يعلمون ذلك وهم الذين يعلمون غيرهم في ذلك، فإنْ كان من بعض طلبة العلم أو المنتسبين إلى العلم أو أهل العلم من لم يكن للسائل حفيّا أو اشتد على السائل أو وبّخه فلا يغضب السائل ويأتي -كما هو حاصل اليوم- يذهب ويقول: فلان من المشايخ سألته ونهرني وقال لي كذا وكذا، ليش نحن جَايِّين نطلب منه شيئا ونحو ذلك.

هٰذا لا ينبغي لأنّ حال المسؤول ينبغي لك أن تعذره؛ لأنّه خاصة في هٰذا الزمن ليس في زمن الرياض أو المملكة منذ خمسين سنة، الذين هم في الرياض كلهم خمسة آلاف أو أربعة آلاف، الواحد يسأل سؤالا واحدا في اليوم، وقد يمر أيام ما أحد سأل لوضوح الأمور، الآن الهاتف كل لحظة يشتغل، والمسجد هٰذا سائل والثاني والثالث، والرسائل التي تحتاج إلى جواب، ونحو ذلك من المشكلات العظام أيضا التي تحتاج إلى علاج، وما أشبه ذلك.

فلابد أن نكون ملتمسين عذرًا لأهل العلم ولطلبة العلم، لابد، وإذا كنا غير ملتمسين للعذر فإن هٰذا غير جيد في حقّنا ومن ترك مراعاة الأدب؛ أدب السؤال وأدب الجواب.

أيضا العلماء يختلفون، بعضهم يكون سهل الجواب، وبعضهم يكون غير سهل الجواب، وهٰذا راجع إلى طبيعته؛ طبيعته التي جعله الله جل وعلا عليها، فإذن السائل ينبغي له أن يلتمس العذر، وأن يتأدَّب وأن يوقر العالم ويستفيد من علمه بقدر ما يحب العالم وأن لا يقصيه في أموره.

من الأدب المهم أيضًا -أدب السائل- أن لا يحرِّج السائلُ العالمَ أو طالب العلم مثال ذلك مثلا أسئلة مرّت جاءني في أحد المحاضرات سؤال يقول: أسألك بالله وبوجهه وأقسم عليك أن تجيب على هٰذا

السؤال.

طيب المسؤول قد يكون له نظر في أنّه لا تناسب إجابة هٰذا السؤال على العامة، فأنت الآن أحرجته شرعا؛ لأنّ من السنة إبرار المقسم؛ فإذا أقسم عليك أحد بالله فإنه من السنة أن تجيبه «**من سألكم بالله فأجيبوه**» فالآن أحرجته.

هو يرى المصلحة الشرعية السؤال لا يعرض ولا يجيب عليه وأنت تحرجه شرعا في أن يجيبه.

وهٰذا من غاية ما يكون من عدم رعاية الأدب وعدم احترام أهل العلم وطلبة العلم؛ لأنّك تريد أنت الإجابة لغرضٍ في نفسك، ومثل هٰذا الذي يكون معه إقسام وسؤال بالله غالبا بل الأكثر والجلّ لا يكون هو الذي يريد أن ينتفع لنفسه، وإنما يريد أن يكون هٰذا جوابا لأشياء تتعلق بالمجتمع أو بالأمة بالرأي العام ونحو ذلك، يريد أن ينتشر الجواب عن ذلك.

العالم أو طالب العلم قد يترك جواب بعض المسائل لغرض شرعي صحيح يرعاه، وقد يرعى من المصالح الشرعية ما لا يستبينه السائل، فإذا حرّج السائلُ طالب العلم في مثل هٰذا التحريج كان هٰذا في غاية ما يكون من الإساءة، فإما أن يجيب عليه العالم فيقع عدم المصلحة الشرعية، وإما أن يرتكب النهي، فبذلك يوقع العالم أو طالب العلم في الحرج في أي المفسدتين أدنى حتى يرتكبها، هل يرتكب مفسدة الجواب أو مخالفة إبرار المقسم ونحو ذلك.

المسائل التي يُسأل عنها تنقسم إلى:

- مسائل في التَّوحيد والعقيدة.
- ومسائل فقهيَّة.
- ومسائل اجتماعيَّة.

المسائل التي في العقيدة: تارة تكون غايتها للبحث والفائدة، وتارة تكون لها مِساس بموقفٍ سيكون في الواقع:

تارة يكون البحث في مسائل التوحيد والعقيدة لغرض إفادة السَّائل؛ السائل يبحث عما يريد أن يستفيده، مثلا مسألة في التَّوحيد، معنى الشهادتين، واستفصال حول باب من أبواب «كتاب التوحيد»، أو مسألة من مسائل الصفات أو الإيمان بالقدر أو ما أشبه ذلك.

وهناك أسئلة يسأل لكي ينبني على هٰذا السؤال شيئا من التصرُّفات في نفسه أو في من معه سواء في داخل هٰذه البلاد أو في خارجها، فهنا ينبغي للسائل؛ بل يجب عليه أن يبين للعالم الذي يسأله غرضه من

السؤال، وأن لا يدلس عليه؛ فيقول هٰذا السؤال لشخصي، أو يقول هٰذا السؤال أريد أن أرسله إلى بلد كذا وكذا لكي ينتفع منه بعض من سألنا من هناك.

مثلا أسئلة جاءت من الجزائر يختلف الجواب، أسئلة جاءت من مصر يختلف الجواب، إذا كان السؤال تبعثه من نفسك بنفسك يختلف جوابه عما إذا كان سينبني عليه عمل أمة، ينبني عليه عمل في المجتمع، يترتب عليه مصلحة أو مفسدة إلى آخره؛ لأنّ الحكم الشرعي الفرق بين العالم وطالب العلم والدّارس، الفرق بين المفتي والباحث أنّ المفتي يبني فتواه على أشياء كثيرة؛ يرعى النصوص ويرعى كلام أهل العلم ويرعى القواعد الشرعية ويرعى ما أمر الله جلّ وعلا به من الأصول وما نهى الله جلّ وعلا عنه، فيرعى أشياء كثيرة غير المسألة الموجودة في الكتاب، فقد يجد السائل المسألة موجودة في كتاب من الكتب ويذهب يطبقها على الواقع لا ليس الأمر كذلك، ولو كان الأمر لما احتاج أهل العقول أن يطلبوا العلم على أهل العلم وإنما يقرؤون ويُكتفى بقراءتهم.

ولهٰذا قال بعض من تقدّم: **لا تأخذ العلمَ عن صَحَفِي ولا القرآن عن مُصْحفي**. (**لا تأخذ العلمَ عن صَحَفِي**) يعني عمن يقرأ في الصحف، والنسبة إلى الصحف صَحَفي وليس صُحُفي؛ لأنّ النسبة تكون إلى الصَّحيفة على وزن فعيلة وليست النسبة إلى الجمع؛ لأنّ القاعدة اللغوية أن النسبة تكون إلى المفرد لا إلى الجمع، فقال: **لا تأخذ العلمَ عن صَحَفِي ولا القرآن عن مُصْحفي**. يعني بَسْ الذي قرأ القرآن من مصحف وحفظ من المصحف لا تأخذ عنه القرآن، لابدّ أن يكون قد قرأ القرآن على شيخ أخذه عنه؛ لأنه هناك أشياء لا يدركها بقراءته في المصحف، كذلك العلم هناك أشياء لا يدركها بقراءته للكتب، ولهٰذا عاب بعض أهل العلم بعض الفحول في مسائل لأنهم اقتصروا على ما قرؤوا:

أخطأ ابن حزم في مسائل في الحج ما السبب؟ أنه قرأها وما حجّ ورأى المشاعر ورأى ما فيه الناس.

شيخ الإسلام ابن تيمية كتب منسكا من المناسك على ما هو موجود عنده في الكتب، ثم لما حجّ غيّر رأيه في مسائل كثيرة.

كذلك ابن القطان مثلا -أحد علماء الحديث المعروفين- لكنه لم يأخذ علم الحديث عن رواية وعن أهل العلم وإنما كان -ذكر ذلك الذهبي- كان أكثر أخذه لذلك عن طريق القراءة ووقع في أشياء كثيرة لا يقع فيها أمثاله من أهل العلم.

إذن هناك فرق بين أن يكون السؤال لحالة تخصك أنت، أو أن يكون السؤال لحالة عامة في مسائل العقيدة والتوحيد.

وكذلك في مسائل الفقه: إذا كان السؤال شخصي هٰذا له حال، وإذا كان السؤال ستنشره وسيبني عليه عمل أناس كثير هٰذا ينبغي أن توضحه للعالم حتى يتحرَّى في جوابه الأنفع للأمة، ولهٰذا بعض أهل العلم يفتي بفتاوى خاصَّة لفلان من الناس ويأتي هٰذا ويقول أفتاني الشيخ بكذا وكذا، فيذهب على أن الشيخ هٰذه فتواه وإذا سئل العالم يقول لا هٰذه فتوى ما أفتيت بها يعني للعامة وإنما أفتى بها لمسألة خاصة.

الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ -إمام هٰذه الدعوة عجّل الله له المثوبة ورفع درجته في الجنة- أفتى في بعض المسائل في مسألة معروفة في الطلاق مرة واحدة فقط مدونة موجودة، مرة واحدة وفي بقيتها يفتي على غير هٰذه الفتوى، في تلك المرة هل نأخذها ونجعلها قاعدة؟ لا؛ لأنه رأى من حال السائل وحال السؤال ما يجعله يفتي بتلك الفتوى.

فإذن العالم قد يخصّ في حالة معينة بفتوى لو قيل له: إنها ستنتشر، لا يفتي بتلك الفتوى، وهٰذا مما ينبغي للسائل أن يرعاه، فيكون الأدب في ذلك أن تخبر العالم أنّ هٰذا السؤال خاص بي في مسائل التوحيد والعقيدة، أو أنّه سيبعث إلى بلد كذا وكذا وينتشر، أو نتدارسه نحن والإخوان وسنرتب عليه كذا وكذا في عمل في إنكار منكر إلى آخره، فهٰذا يختلف.

وبعض السَّائلين -وحصل مرارا، وأنا أدركت بعض هٰذه الأشياء - مع الأسف أنه يعتقد من الذكاء أن يُبهم السؤال ويستغفل العالم فيسأله حتى يقع في جواب، هو ما أوضح له الصورة.

فيقول: مثلا إذا حصل من واحد أنه قال كذا وكذا فهل يكون مرتدًّا أم لا؟ هل يكون مبتدعا أم لا؟ هل يكون فاسقا أم لا؟ بعض العلماء خاصة بعد ما مرت تجارب يستفصل أو قد لا يجيب على السؤال، وبعضهم قد يجيب على ظاهره باعتبارها مسألة علميَّة عامَّة، لو سئل عن تنزيلها في الواقع ربما اختلف جوابه.

فهٰذا من المهم أن تتبيّنه قبل السؤال، وأنْ لا تُلغز أو تبهم وتظن أن هٰذا من الذكاء أو أنك أخذت منه جوابا، في الواقع أنت تأثّمت بما ستنقل وتأثمت بوضع العالم، وقد حصل كما رأى بعضكم كثير من الاختلاف في الفتاوى في فترة مضت، هٰذا ينقل كذا وهٰذا ينقل كذا، وكثير منها راجع إلى أنّ السائل ما أعطى العالم الحقيقة في ما وراء كلمات سؤاله، إنما سأل سؤال عام ذلك ظنّ أنها مسألة علمية وما استفصل منه فأجاب على أنها مسألة علمية، فهٰذا ما راعى الآداب والتفريق بين المسألة العلمية وتطبيقها في الواقع، فلهٰذا أخذ هٰذا الجواب وحصل من الاختلاف والآراء المتضاربة ما حصل لأجل هٰذه المسائل.

إذن إذا كانت المسألة عقدية أو كانت المسألة فقهية فلابدّ أن ترعى الأدب فيها، وأن تفرّق حين تسأل

السؤال بين أن تكون شخصيَّة أو عامة، وأن تبين ذلك للعالم الذي تسأله.

أحوال السّؤال

السّؤال له أحوال، سؤال المسجد بعد المحاضرة يختلف عن سؤال المسجد بعد ما ينصرف العالم من الصلاة، يختلف عن السؤال في الجامعة، يختلف عن السؤال في درس يلقيه العالم، يختلف عن السؤال فيما إذا كان راكبا سيارته -يسمع بسرعة ويجيب-، فهٰذا السائل يأتي راغبا -ما شاء الله- والمسؤول يأتي يريد أن ينتهي؛ مثلا ألقى محاضرة زمنها كذا وكذا، فهو يريد أن يكون الجواب على نحو ما، يأتي يسأل سؤالا هكذا عرضا ويأتيه الجواب فيأخذ هٰذا الجواب وهو صادق في أنّ العالم أجابه، لكن غير صادق في أنّ العالم فهم ما أراده بأبعاده وما وراء كلمات السؤال، ولهٰذا ينبغي أن نفرق -رعاية للأدب وإبراء للذمة- بين أحوال؛ السؤال؛ سؤال المسجد بعد محاضرة له حال، سؤال المسجد بعد الإمامة له حال، سؤال بعد درس من الدروس في مجلس من مجالس العلم في الفقه أو في التوحيد أوغيرهما له حال في الإجابة والاستفصال والرد إلى آخره، سؤال الجامعة، سؤال الهاتف له حال، سؤال السيارة له حال .. إلى غير ذلك من الأحوال.

وقد ذكر لي بعض كبار السن أنه أراد مرة أن يسأل الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ سؤالا في السيارة فأجابه الشيخ قائلا: إنّ السيارة ما فيها فتاوى إذا رُحنا إلى البيت فادخل واسأل، أو إذا كنا في المسجد ادخل واسألني فيه. لماذا؟ لأنه راكب معه في السيارة فيعرض له أشياء هٰذا مرّ وهٰذا يسلّم وهٰذا.. والمفتي ينقل عن الله جلّ وعلا وموقع عن رب العالمين حينما يجيب يقول: هٰذه فتوى الله جلّ وعلا في المسألة. ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾[النساء:١٧٦]، هٰذا كلام الله جلّ وعلا، هٰذا حكم الشرع، فالمسألة عظيمة، ولهٰذا كثير من السلف هاب السؤال وردّ السائل وتردد، وتردد وقال: لا أدري. كثيرا، الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ كان يسأل ويجيب لا أدري وهو أبو عبد الله مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ، أتاه سائل من مِصْرٍ بعيد قال: يا أبا عبد الله أتيتك من بلد كذا وكذا من أبناء لك أو إخوان لك يحبونك وحملوني أربعين مسألة، فقال مالك: سَل فسأل المسألة الأولى فقال الإمام مالك: لا أدري، والثانية: لا أدري، والثالثة: لا أدري، أجاب عن سبع مسائل أو قيل أربع مسائل، وفي ثلاث وثلاثين أو ست وثلاثين مسألة قال: لا أدري.

لو عالم يأتي ويقول اليوم هٰذا؛ لا أدري ولا أدري، سيقال: هٰذا ما عنده خبر ما عنده علم. قد يكون الحال غير مناسب قد يكون يريد أن يؤدّب السائل وقد وقد... فقال هٰذا للإمام مالك: يا أبا عبد الله أتيتك من كذا وكذا وكلُّهم ينتظرون جوابا أأذهب إليهم وأقول: مالك يقول في ثلاث وثلاثين مسألة لا أدري؟ قال: قل لهم إنّ مالكا لا يدري. ما أبردها على القلب. لماذا؟ لأنه إذا أجاب يجيب عن الله جلّ وعلا، هٰذا

حكم الكتاب والسنة، وهي مسألة تجلّ لها القلوب، ولهٰذا نُهينا عن كثرة المسائل، وهٰذا مما ينبغي لنا أن نتركه -كثرة السُّؤال-؛ هٰذا سؤال كذا، سؤال كذا، سؤال كذا، في مكان واحد مائة سؤال مائتين سؤال، ذهن المسؤول يكلّ ويتعب وقد يضعف في آخره، ولهٰذا يأتي بالمسائل الكبيرة والكبيرة، ولا أحد يقدر يحلها؛ لا أدري، فالمسؤول بشر، العالم بشر، طالب العلم بشر، فينبغي أن يُراعى الحال وأن لا تكثر المسائل.

جاء في النصوص -ونختم بهٰذا حتى لا نطيل عليكم- النهي عن كثرة المسائل وقد قال العلماء كثرة المسائل الناس تجاهها على أحوال؛ يعني على أقوال:

❖ من الناس -وهو قول طائفة من المتسبين لأهل الحديث- مَن لم يسأله وقالوا يكفينا ما عندنا من النصوص ولا نحتاج أن نسأل؛ لأنه نهينا عن السؤال، ويأخذون بعموم ما ورد في النهي عن المسألة والنهي عن كثرة المسائل «**وإياكم والمسائل**» «**وإياكم والأغلوطات**» ونحو ذلك مما جاء في الأحاديث، فأخذوا به على ظاهره فلم يسألوا، وهؤلاء أدَّى بهم ذلك إلى ألاّ يكونوا فقهاء وأن يكون فهمهم للشريعة قاصرًا أو على غير السّداد، كما ذكر ذلك ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ تعالى، هٰذا صنفٌ، قالوا: لا تسأل عندك النصوص عندك الكتب ما يحتاج لأنّ السؤال منهي عنه وكثرة المسائل معيبة، فعندك إذا احتجت دور من الكتب وإذا لم تحتاج فلا تسل، وهٰذا الحال أو الفعل غير صواب.

❖ والفعل الثاني أو الحال الثاني: حال أهل الرأي الذين شقّقوا المسائل وسألوا عن أشياء لم تقع، وافترضوا أحوالا لم تقع في زمانهم:

منها أشياء لم تقع ولن تقع أبدا؛ لأنها خيال أو لا يمكن أن تتصور إلا في الذهن أما في الواقع لا تتصور.

ومنها أشياء تخيلوها ووقعت، ووقوع البعض لا يعني أنّ ما شققوه أنه مأذون به.

بالمثال يتضح الحال: بعض فقهاء أهل الرأي من الحنفية وغيرهم لهم كتب فيها الطريقة التالية: أرأيت إن كان كذا فمثلا يبدأ الكتاب، الوقف هو كذا، أرأيت إن كان كذا، فالجواب كذا، يعني أنه يسأل العالم مائة سؤال مائتين ثلاثمائة سؤال، كلها تشقيق للمسائل، فيه أشياء واقعة وأشياء غير واقعة، وبإيراد الحيل في هٰذه المسائل.

وابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أتاه رجل يسمع حديثه، فقال ابن عمر: من السُّنَّة تقبيل الحجر الأسود، قال الرجل لابن عمر: أرأيت إن هناك ثَم زحام؟ قال: من السُّنة تقبيل الحجر الأسود. قال: أرأيت إن غُلبت عنه؟ قال: من السنة تقبيل الحجر الأسود. قال: أرأيت إن لم يمكنني تقبيله. قال: دع أرأيت في اليمن -هو كان من أهل اليمن- من السنة تقبيل الحجر الأسود. فإذا تمكنت من تطبيق السنة فطبق ما تمكنت، لا تكثر من

أرأيت إن حصل كذا؟ أرأيت إن حصل كذا؟ وهٰذا يحرمه كثيرون يظنون العلم بكثرة السؤال، يسأل عن أشياء لا يعلم عن حكمها يسأل ويسأل، لا، العلم بالتعلم وإنما السؤال كاشف للعلم وليس أساسا في العلم، لأنّ الله جلّ وعلا يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾،(١) فإذا استشكلت فاسأل، إذا كنت لا تعلم فسل، وأما كل شيء تسأل عنه في موقع واحد تسأل عشرين ثلاثين سؤال، هٰذا غير محمود.

فإذن هٰذا القسم وهو السؤال عن أشياء لم تقع وكثرة المسائل باقٍ في النهي عنه «**فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**» سؤال عن أشياء لم تقع.

❖ القسم الثالث وهو حال فقهاء الأمة فقهاء أهل الحديث ومن تابعوا حال السلف في ذلك: وهم الذين يسألون عن معاني الكتاب والسنة وعما يدخل في دلالاتها من الفقه، هٰذا السؤال المحمود الذي من بحث عنه فهو الذي يرضى قوله وعمله، تسأل عن معنى آية، تسأل عن معنى حديث، استشكلته فتسأل عن ذلك فهٰذا لا يدخل ضمن المنهي عنه.

النبي ﷺ قال: «**من نوقش الحساب عذب**» فقالت عائشة: يا رسول الله أليس الله جلّ وعلا يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾[الانشقاق]، قال رسول الله ﷺ: «**ذلك العرض، ومن نوقش الحساب عذّب**» (**العرض**) يعني أن يعرض عليه أن يحاسب بمعنى تعرض عليه، عملت كذا وكذا وسترتها عليك وعملت كذا وكذا وأثيبك عليها وهكذا، هٰذا عرض للمسائل، وأما المناقشة فإنّ معها العذاب؛ لأنّ الله جلّ وعلا لا يناقش الحساب أحدا إلاّ عذبه كما قال عليه الصلاة والسلام: «**من نُوقش الحساب عُذّب**».

هٰذا القسم محمود سؤاله، وهو الذي فعله أهل العلم ويفعلونه مع مشايخهم؛ يسألون عن أشياء تخصُّهم في دينهم؛ يستفتون، أو يسألون عن معاني الكتاب والسنة، ويسألون لرجاء نفعهم.

من **المسائل** التي ينبغي أيضًا أن تراعى في أدب السؤال ما يخصُّ الذين يسألون أهل العلم في عقب المحاضرات أو النَّدوات: السائل الذي أَرسل السؤال في الورقة طبعا يضيق المقام أن تعرض جميع الأسئلة بعد محاضرة أو بعد ندوة؛ لكن هو يحتاج إلى الجواب، وهٰذا الذي يفرز الأسئلة ينبغي أن يكون متأدِّبًا مع العالم في السؤال، وأحيانا لا يرعى الأدب في ذلك بأن تُحجب بعض الأسئلة وتُعرض بعض الأسئلة،

---

(١) سورة: النحل، الآية (٤٣)، الأنبياء، الآية (٧).

الأسئلة التي فيها مخالفة لرأي هٰذا الذي يفرز لا يعرضها والتي توافق رأيه يعرضها، هو لم يؤتمن على هٰذا!! أؤتمن على أنّ المسألة التي تفيد السائل وتناسب الحال وله أن يقيم الحال حال المسجد يرعى المصلحة ويدرأ المفسدة أو ينظر لرغبة الشيخ أو العالم فيما يسأل عنه وما لا يسأل عنه هٰذا لابد منه، طيب، لكن أن يكون هو يختار ما يريده ويلغي ما لا يريده، هٰذا نوع من عدم الأدب مع أهل العلم في السؤال، وسببوا إشكالات كثيرة، فيأتي هٰذا ويستدعي عالم أو يطلب من عالم فيسأله عن أشياء هو يريدها، أو تأتي الأسئلة فيبعد بعض الأسئلة التي جوابها يعلم أن العالم يجيب هٰذا الجواب لكن هٰذا الجواب غير مرضي عنه، يعني أنت حكم على أهل العلم في أجوبتهم؟ هٰذا يسبب فرقة في الأمة ويسبب أشياء من عدم رعاية وتوقير أهل العلم.

الذي ينبغي من الأدب للذين يسألون أهل العلم أن يسألوا الأسئلة النَّافعة، سواء كانت توافق ما عنده أو لا توافق؛ لأنّ العالم هو الذي سيجيب بما دلت عليه النصوص -إذا كان راسخا في العلم- والهوى بعيد عن أهل العلم، وهٰذا من تزكية الله جلّ وعلا لهم، ولهٰذا لا ينبغي لهٰذا الذي يفرز الأسئلة أن ينتقي على رغبته بل يسأل، ويقول للعالم قبل أن يأتي الأسئلة إذا جاءت: ما الأسئلة التي تحبّ أن تعرض وما التي لا تحب أن تعرض؟ فيقول له: الأسئلة التي فيها كذا وكذا لا تعرضها؛ لأنه قد لا يناسب عرضها أمام الناس في مسجد، منهم من يكون خالي الذِّهن أصلا عن بحث هٰذه المسألة، يأتي تعرض فيطلع على شيء هو في غنية عن أن يطلّع عليه.

إذن هٰذه المسألة بحاجة أن تُرعى في الندوات والمحاضرات أن يكون الذي يفرز الأسئلة يرعى ما يرغبه العالم فيما يعرض وفيما لا يعرض، وأن لا يتحكم هو؛ لأنّ تحكمه يسبب بعض عدم رعاية توقير أهل العلم، لهٰذا نجد أنّ بعض المشايخ يعتذر عن بعض الندوات ويعتذر عن بعض المحاضرات، لمَ؟ لأنّه يخشى أن تأتي أسئلة لا يناسب الجواب عليها أمام العامة.

مثل ما ذكرنا السلف ما أجابوا على كل سؤال في كل مقام، وإنما يختلف الجواب بحسب اختلاف الحال، يفصل في موضع، لا يفصل في موضع، يمتنع عن الجواب في موضع، إلى آخر ذلك.

النَّبي عليه الصلاة والسلام كان يتكلم فأتاه رجل فسأله: متى الساعة؟ فلم يجبه عليه الصلاة والسلام وأكمل حديثه، ثم سأله: متى الساعة؟ وأكمل حديثه، ثم قال: متى الساعة؟ فأجابه النبي ﷺ عن السؤال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾[النازعات] ما يعلمها عليه الصلاة والسلام ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[الأعراف:١٨٧] جلّ وعلا، فلما ألحّ في المسألة كره النبي ﷺ ذلك منه وقال: «**إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»، هٰذا الجواب غير السؤال –صحيح؟- لأنّ السؤال كان بـ(متى) عن

الزمن النبي ﷺ أجابه بقوله «**إذا وسد**» بعلامة من العلامات، وأشراط الساعة معلومة.

كذلك في قول الله جلّ وعلا لما سأل النبيَّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- الناسُ عن الأهلّة كان الجواب: ﴿قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ﴾[البقرة:١٨٩]، الصحابة -يعني بعضهم- سألوا وقالوا: لمَ يبدُو الهلال في أوّل الشهر رفيعا ثم يكبر ثم يكبر حتى يستتم؟ يعني هل هم يفهمون وضع الأرض ووضع القمر لو فصل لهم إلى آخره لو فصل لهم؟ لن يفهموا ذلك، سألوا سؤالا لا تستوعب الجواب عليه عقولُهم فكان الجواب ﴿قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ﴾ أجيبوا بشيء غير السؤال بما ينفعهم؛ وهو أنّ الأهلّة هٰذه مواقيت، لم يبدو كذا ثم يكون كذا، هٰذا عُدل عن الجواب عنه وفي هٰذا أصل شرعي في أنّ العالم قد يعدل عن الجواب إلى شيء آخر، ويأتي بعض الناس ويقول هٰذا هروب من الجواب، الشيخ ما أجاب هرب من الجواب، ليس هروبا من الجواب لأنّه لا يريد أن يجيب لخوفه من الجواب ونحو ذلك، لا، العالم مربي يربي الناس ويجيب بالأصلح لهم لما يرعى فيه المصلحة ويدرأ المفسدة.

هٰذه بعض ما يتعلق بالآداب التي ينبغي مراعاتها حين السُّؤال.

وأسأل الله جلّ وعلا أن ينفعني وإيّاكم بما سمعنا، وأن يجعلنا من المتأدِّبين الذين يريدون وجه الله والدّار الآخرة، وأسأله جلّ وعلا أن ينفعنا بعلمائنا، وأن يجعلنا من المتعاونين معهم على البرّ والتقوى، والمتأدبين معهم، والذّابين عنهم قول أهل السوء، وأسأله سبحانه لي ولكم العفو العافية والمعافاة الدائمة في الدّنيا والآخرة، وأن يختم علينا هٰذا الشهر الكريم بقبولٍ وغفران، وألاّ يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يوفق ولاة أمورنا لما يحب ويرضى، هٰذا وصلَّى الله وسلم وبارك على من علمنا الخير وأدَّبنا أحسن تأديب نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وأشكر لكم حسن هٰذا الاستماع وحسن الإقبال، وأسأله سبحانه أن يجعلنا جميعا ممن غفر له أول ذنبه وآخر ذنبه، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

[الأسئلة وأجوبتها]

سؤال (١): كيف أوفِّق بين النهي عن كثرة السؤال وبين قول ابن عباس: أوتيته -عن العلم- بلسان سَؤول وقلب عقول؟ وأحسن الله إليكم.

الجواب: الحمد لله، ذكرنا أن الأحوال ثلاثة: حال الممتنع عن السؤال، وحال من يفرِّع المسائل التي لم تقع، وحال من يسأل عن علم الكتاب والسنة.

ابن عباس في أسئلته كان يسأل عن علم الكتاب والسنة؛ عن معاني النصوص، وقول النبي -عَلَيْهِ

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**» هٰذا حمل على وجهين:

الأول: أن يكون هٰذا النهي عن كثرة المسائل في حال تنزُّل القرآن، كما قال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾ [المائدة:١٠١]، فحين يُنزّل القرآن لا تسل، أُدِّبَ الصَّحابة بهٰذا التأديب، وكثرة المسائل حين ينزل القرآن هٰذه غير جيدة بل منهي عنها؛ لأنه ربما سيأتي الحكم في فترة من التشريع لاحقة، فيكون كثرة السؤال استعجال للأحكام ولو أبديت لأساءتهم، ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أوتي العلم بكثرة السؤال؛ لكن سؤال عن معاني النصوص سؤال عن السنة عن الحديث وليس سؤالا عن المسائل التي لم تقع أو تشقيق للمسائل، لهٰذا ذكرنا لكم أن الأحوال ثلاثة:

حال من لم يسأل مطلقا وهٰذا مذموم.

وحال من شقق المسائل كصنيع أهل الرأي، وهٰذا جاء نهي السلف عنه.

وحال من سأل عن فقه الكتاب والسنة، وهٰذا هو المحمود وهو صنيع الصحابة وصنيع أهل العلم بعدهم.

سؤال (٢): فضيلة الشيخ حديث «**من سأل عن علم فكتمه أُلجم بلجام من نار**» هل المقصود بالعلم هنا عموم العلم أو العلم الشرعي؟

الجواب: المقصود بهٰذا العلم الشرعي؛ لأنه إذا أطلقت نصوص العلم في الكتاب والسنة فإنما يراد به أنفع العلوم وهو العلم الشرعي، «**فمن سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة**» وقد جاء في بعض الأحاديث وحمله أهل العلم على أن هٰذا الوعيد في حالة من تعيَّنت عليه الإجابة فامتنع وبامتناعه لا يظهر العلم في الأمَّة.

أما إذا كان مكفيًّا فإنه له أن يحيل الجواب على غيره، وقد جاء سائل إلى بعض الصحابة وسأله فقال: اذهب إلى فلان، ثم ذهب إلى الثاني فقال: اذهب إلى فلان، والثالث حتى سبعة، والسابع أرجعه إلى الأول فقال ذهبت إلى فلان وفلان وفلان وكلهم يحيل إلى الآخر حتى أحالني السابع إليك، فقال: الآن إذن، فأجابه.

فإذن قوله: (**من سئل عن علم فكتمه**) هو العلم الذي يجابهه عينية وفرض على من سئل أما إذا كان مكفيا فإن له أن لا يجيب إحالة للجواب على غيره.

سؤال (٣): كثيرا ما تعرض لأحدنا مشكلة ما ويبحث عن جوابها في كتب الفتاوى، فهل يكتفي بجواب قضية مشابهة لما يريد أن يسأل عنه أم لابد أن يسأل العلماء؟ والله يحفظكم ويرعاكم.

الجواب: الذي في الفتاوى على قسمين:

منه ما يمكن أن ينطبق على حالته.

ومنه ما لا يمكن أن ينطبق على الحالة.

الذي ينطبق على الحالة في مثل مسائل لا تتعلق إجابتها باختلاف الواقع والحال، هٰذا إنما يعلمه المفتي؛ يعني مثل مسألة في الصلاة، سئل الشيخ فلان عن رجل إمام ترك ركعة من الصلاة سها فيها، ثم سُبِّح به إلى آخره، فهٰذا إذا حصل معك الحال فهي مشابهة لها فتعمل بمقتضى الفتوى.

سئل مثلا عن حكم التصوير، سئل عن حكم صلة الرحم ونحو ذلك، سئل عن الوتر، سئل عن القنوت هٰذه تنطبق على الناس في أي وقت وفي أي زمان.

لكن هناك أشياء متعلقة باختلاف الأزمنة، متعلقة برعاية قواعد، هٰذه لا تطبقها؛ لأنه إذا طبقتها على غير زمنها فإنه قد يكون في ذلك إخلالًا، هٰذا حصل كثيرين طبقوا فتاوى في وقت ما على غيره، فصار في ذلك إخلالٌ بمراد العالم حين أفتى بتلك الفتوى؛ لأن الفتوى لها حال.

مثلا فتاوى تتعلق بالجهاد، فتاوى تتعلق بالتكفير، فتاوى تتعلق بموقف المسلم من غيره، فأجاب العالم بإجابة لاشك أنه قد رعى الحال التي في ذلك الزمن، أفتى فتاوى في الجهاد يختلف عما إذا كان الحال حال أخرى؛ مثلا شيخ الإسلام ابن تيمية له فتاوى تتعلق بجهاد التتار، هل تأتي وتطبِّق بما ورد في جهاد التتار على غير تلك الصورة، وأنت تلحق الصورة المتأخرة بتلك الصورة المتقدمة؟ لاشك أن هٰذا يحتاج للإلحاق إلى عالم راسخ في العلم يقول: المناط في هٰذه الحال في هٰذا الزمن هو المناط في تلك الحال.

ولهٰذا عند الأصوليين مناط الحكم يختلف باختلاف الحال، وعندهم قاعدة يعبر عنها بعض أهل العلم بقوله: بساط الحال مؤثر في الفتوى. حال الفتوى، حال الاستفتاء، حال الناس مؤثر في الفتوى، كذلك -مثل ما ذكرنا- اختلاف الأزمنة مؤثر في الأزمنة، الأحكام واحدة لكن الفتوى تختلف؛ لأنه يكون إعمال قاعدة قد ترجح شيء على شيء، وهٰذا واضح فيما لو رعاه طالب العلم لوجد لذلك مأخذًا ظاهرًا.

فإذن المسائل التي تقرأ؛ تقرأ في الفتاوى تختلف بعضها يمكن أن يطبق وبعضها لابد فيه من تحقيق المناط، لهٰذا عند الأصوليين هناك شيء يسمى تخريج المناط، وهناك شيء يسمى تحقيق المناط؛ تحقيق المناط يعني أن يحقق العالِمُ أنّ مناط الحكم في الواقعة هو كذا وكذا، فإذا حقق العالم المناط جاءت الفتوى، ولهٰذا

العبارة المشهورة أن الحكم يدور مع علته وجودا وعدما، والعلة تارة تكون علة قياس وتارة تكون علة قواعد، وهٰذا لاشك أنه يحتاج إلى عمق في القواعد وفي الأصول، وهٰذا إنما هو لأهل العلم.

فإذن القارئ يستفيدُ من الفتاوى في معرفة أحكام لم يطلع عليها يعمل بها في نفسه، إذا حكم في مسألة مختلفة، لا يلحق هٰذه بهٰذه، إذا كانت عين المسألة يعمل بها في نفسه في القنوت في الصلاة في الزكاة إلى آخره في الحج لا بأس.

لكن إذا كانت هٰذه مثل هٰذه، ووش الفرق؟ العالم عنده ربما فرق لم يخطر على بال القارئ.

ولو كانت المسألة بالعقل لما كان فرق بين عالم وغيره، والله أعلم.

❁❁❁❁

محاضرات (٣/ ١٢)

قواعد القواعد

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٣)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبد الله ورسوله وصفيَّه وخليله، نشهد أنَّه بلَّغ الرِّسالة وأدَّى الأمانة ونصح الأمَّة وجاهد في الله حقَّ الجهاد، صلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد..

فموضوع هٰذه المحاضرة أو هٰذا الدَّرس

قواعد القواعد

وكمقدِّمة لهذا الموضوع ومدخل بين يديه فإنَّه لا يُراد أن يُدْرَسَ في هٰذا الدَّرس تأصيل القواعد الشَّرعيَّة ووضع القواعد للتَّقعيد؛ فإنَّ هٰذا مجاله مجال الدِّراسات المتخصِّصة والبحوث المتخصِّصة، وإنَّما نريد من هٰذا البحث أو هٰذا الدَّرس أن نَخْلُص إلى نتيجة فيما يتعلَّق بالتَّقعيد وفَهْمٍ للقواعد، ثمَّ ما ينبغي اتِّخاذه مع القواعد، وما لا ينبغي اتِّخاذه مع القواعد.

وأسباب إنشاء هٰذا الدَّرس:

الأوَّل أنَّ النَّاس يمرُّ بهم كثيرًا -وخاصَّةً القرَّاء وطلبة العلم- التَّقعيد؛ وذكر القواعد؛ القاعدة في هٰذا كذا، والأصل في هٰذا كذا، وإذا جاء التَّقعيد فإنَّه يُفهم اندراجُ الفروع تحت هٰذه القاعدة، وأنَّ المسلم يطبِّق هٰذه القاعدة بإدراج فروعها التي تندرج تحت ألفاظها ويشملُ عموم لفظ القاعدة للفروع يُدرجها فيها بما فهم من القاعدة، ولهذا كثُرَ في هٰذا الوقت التَّأصيل والتَّقعيد، كلٌّ يقول: القاعدة كذا وكذا، وفهم السَّلف لهٰذه المسألة كذا، والأصل في هٰذا كذا، والسَّلف نقلوا في هٰذه المسألة كذا، وربَّما جُعل بعض الأقوال للسَّلف قاعدة مطَّردة، وربَّما طُرحت قواعد وأصول قرَّرها أهلُ العلم في كتبهم ودلَّلوا عليها، فلهٰذا كان من اللَّوازم أنْ يُجعل مدخلٌ لهٰذه القواعد ولفهم التَّقعيد ولما ينبغي اتِّخاذه مع التَّقعيد مع ضرب بعض الأمثلة.

والثَّاني: أنْ نعطي أصولاً عامَّةً ينضبط بها التَّفكير، ينضبط بها عقل طالب العلم أو عقل المسلم بعامَّة في هٰذا العصر الذي كثُرت فيه الآراء، وهٰذا العصر كما ترون وتسمعون وتشاهدون كثرت فيه الأقوال، كثرت فيه الاتجاهات، كثرت فيه الآراء حتى إنَّها تكثر بعد كلّ يوم وليلة، وسبب ذلك الإخلال بالتَّأصيل العلمي، وسبب ذلك الإخلال بالرُّجوع إلى قواعد العلم.

ومن أسباب حدوث ذلك التَّفرُّق أو كثرة الآراء وكثرة المدارس كثرة التَّقعيد الذي يورده أصحاب كلِّ جهة، ويكون ذلك التَّقعيد تارةً مسلَّمًا وتارةً غير مسلَّم، وربَّما كان مسلَّمًا من جهة غير مسلَّم من جهة أخرى، كما سيأتي لذلك مثالٌ.

وهٰذا ممَّا جعل كثيرٌ من النَّاس وخاصَّةً الشَّباب يتخبَّطون في وضع ضوابطَ عقليَّةٍ؛ لأنَّ الكلَّ ولله الحمد يريد السَّلامة، يريد أنْ يتقرب من ربِّه جلّ وعلا، يريد أنْ يعلم الحقَّ ثم يتّبع الحقَّ، هٰذا ديدن الجميع، ولهذا كلُّ ما دعا داعٍ إلى الحقِّ بطريقته فإنَّه يجد له أتباع ويجد من يقتنع بفكرته، وسبب الاقتناع بالأفكار الخاطئة

أو الأفكار النَّاقصة أو الأفكار المتبلبلة -يعني غير الثَّابتة التي ليس لها أصول واضحة- هو الكلام، هو الآراء، إيراد أصول، إيراد نقول، إيراد شواهد، إيراد أدلَّة ونحو ذلك، ويكون ذلك الإيراد من الأدلَّة والأصول والقواعد والشَّواهد ناقصًا، يكون صحيحًا في نفسه لكن يكون ناقصًا، وسبَّب ذلك أنْ كثرت الآراء وعرَضَ كلٌّ فكرته بطريقة وعارضت ما عند الآخر، ولو رجع الجميع إلى العلم لضبطهم العلم لكانوا يدًا واحدةً على من سواهم.

لهٰذا أقول: إنَّ هٰذا الدَّرس مدخلٌ وليس تقعيدًا كاملًا لهٰذه المسألة العظيمة؛ بل هو مدخلٌ لذلك يفتح لطالب الحقِّ ولطالب الصَّواب في هٰذه المسائل ما يُمَكِّنُه أنْ يَضبط عقله وفهمه وإدراكه للأمور وللأحداث وللموازين المختلفة.

القواعد عرَّفها أهلُ العلم بأنَّها جمع قاعدة، والقاعدة ما يُبنى عليها غيرها، قاعدة الشَّيء ما يُبنى عليها غيرها.

ولهذا قالوا: إنّ تعريف القاعدة عند أهل الاصطلاح: أنَّها أمرٌ كلِّيٌّ ترجع إليه فروعٌ كثيرة.

وقال بعضهم: إنّ القاعدة أمرٌ أغلبيٌّ ترجع إليه فروعٌ كثيرة.

ونفهم من هٰذا التَّعريف أنّ القاعدة عبارةٌ تجمع قلَّة في الألفاظ؛ لٰكِن يدخل تحتها صورٌ كثيرةٌ؛ لأنّ القاعدة موضوعة لجمع الفروع المختلفة.

وهٰذه القواعد التي وضعها أهل العلم وأُصِّلت هٰذه أقسام: منها ما هي قواعدُ عامَّةٌ، ومنها ما هي قواعدُ خاصَّةٌ.

- قواعد عامَّة لجميع أهل العلم؛ يعني يتَّفق عليها العلماء جميعًا خاصَّة في الفقه.
- ومنها قواعدُ خاصَّة في الفقهيات تختلف ما بين مذهب وآخر.

والقواعد تُقسم باعتبارٍ آخر إلى أنّ:

- منها قواعدُ وأصول متَّصلة بالعقيدة.
- ومنها قواعد وأصول متَّصلة بالفقه.
- ومنها قواعد وأصول متَّصلة بالسُّلوك وأنواع التَّعامل.

وإذا تأمَّلت الكتب المؤلَّفة في هٰذا الشَّأن فتجد أنّ ظهور القواعد المتَّصلة بالعقيدة في كتب أئمَّة السَّلف ظهور ذلك بيِّن واضحٌ لمن طلبه، وكذلك القواعد الفقهيَّة، وكذلك قواعد السُّلوك التي تُبحثُ عند ذكر الاعتصام بالكتاب والسُّنّة واتّباع طريقة السَّلف الصَّالح في الفهم وفي العبادات وفي أنواع التَّعامل.

هٰذه أنواعٌ للقواعد وللأصول قد تجد قاعدة في العقيدة، قاعدة في الفقه، قاعدة في السُّلوك والتَّعامل، وهٰذه لابدّ أنْ ترعى جميعًا؛ لأنّ ذلك التَّقعيد ما وُضع إلَّا لفائدة.

نعلم أنَّ كلَّ شيءٍ شرعيٍّ لابدّ له من دليل، هٰذه القواعد ما دليلها؟ القواعد بأقسامها لابدّ أنْ يكون لها دليل، والدَّليل تارةً يكون بنصٍّ من الكتاب والسُّنّة، يقال: دليل هٰذه القاعدة كذا من الكتاب أو من السُّنّة:

مثلا قاعدة: (الأمور بمقاصدها). دليلها قولُ النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّما الأعمالُ بالنِّيات**».

مثلًا: لا مُحَرَّم مع ضرورة. دليلها قول الله جلّ وعلا: ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِ﴾[الأنعام:١١٩]، وهكذا.

وكذلك في مسائل الاعتقاد هناك قواعدُ لها أدلَّتها، وفي مسائل السُّلوك هناك قواعدُ لها أدلَّتها.

فإذن تعرف القاعدة ويستدل لها بالنَّصِّ من الكتاب أو السُّنَّة.

كذلك القاعدة يُستدلُّ لها بالإجماع: أجمع السَّلف، أجمع الأئمَّة على أنَّ من القواعد كذا.

وكذلك يُستدلُّ للقاعدة بالاستقراء، باستقراء إمام من الأئمَّة، مسائل معيَّنة في باب أو في أبواب، فيُخرج قاعدة باستقرائه، وهو رجلٌ مأمونٌ إمامٌ من الأئمَّة فيكون ذكره للقاعدة واستنتاجه للقاعدة صوابًا صحيحًا.

إذا نظرتَ في الكتب تارةً تجد أنَّه يُنَصُّ على أنَّ هٰذه قاعدة، يقال: لأنَّ القاعدة كذا، لأنَّ الأصل كذا، وتارةً لا تجد هٰذا النَّصَّ بأنَّ هٰذه قاعدة وأنَّ هٰذا هو الأصل، وإنَّما تجد التَّعبير بأمر كلِّيٍّ يرجع إليه أفراد كثيرةٌ، أمرٌ كلِّيٌّ، يقال مثلا: لأنَّ كلّ كذا ثم يذكر الحكم، أو يقول: فكلُّ شيءٍ ثُمّ يذكر الحكم، التَّعبير بأمر كلِّيٍّ يفهم منه أنَّ هٰذا تقعيدٌ؛ لأنَّ الكلِّيات ترجع إليها أفرادُها، فتجد ذلك تارةً بذِكر القاعدة الأصل والأصل هو القاعدة؛ لأنّ الأصل يأتي بمعانٍ عند أهل العلم، ومن إيراداتهم للأصل أنْ يكون الأصل بمعنى القاعدة، فيقال مثلا: إنَّ أكل الميتة بخلاف الأصل. فيكون معنى (الأصل) هنا يعني (القاعدة)؛ لأنّ القاعدة أنَّه لا يجوز الأكل إلَّا ممَّا أحلَّ الله جلَّ وعلا، كما ذكر ذلك الأصوليُّون وغيرهم.

ذكرنا أنَّ القواعد أقسامٌ:

ومنها القواعد العَقَديَّة.

- مثالها: أنّ النَّصَّ محُكَّم والعقل معطَّلٌ في أبواب العقائد.
- مثلا من قواعد العقيدة: أنَّ الأسباب مرتبطة بمسبَّباتها وأنَّ إلغاء الأسباب لا يجوز وهو معارضة للشَّرع وقدحٌ في العقل.

مثال الفقهية كما ذكرنا:

- الأمور بمقاصدها.
- والتَّابع تابع.

ومثال السُّلوكيَّة:

- كلُّ عبادة لم يتعبَّدها أصحابُ رسول الله ﷺ فلا تتعبَّدوها. يعني أنَّ العبادات مبناها على التَّوقيف وأنَّ المعاملات مبناها على الإخلاء؛ يعني بما يكون عند النَّاس بما يُصلح دنياهم ما لم يرد فيها نصٌّ يحرِّمها.

لماذا أنشأ العلماءُ القواعد ؟

لأنَّ بعد الفتوح الإسلاميَّة وبعد أنْ توسَّعت رقعة دولة الإسلام ظهرت مشاكل، ظهرت أراء، ظهرت مذاهب، ظهرت أفكار جديدة، وظهرت صورٌ للمسائل كثيرةٌ، فكان لزامًا حتى تُضبط المسائل في الباب الواحد -وهو ما يسمَّى بالضَّابط- أو تضبط المسائل في أبواب مختلفة أنْ تُجعل قواعد يرجع إليها فهم تلك المسائل، هٰذا في الفقهيات.

كذلك في العقديَّات لما كثر خلافُ المخالفين للجماعة لطريقة أهل السُّنّة، لطريقة السَّلف الصَّالح

وُضعت قواعد تضبط هٰذا الأمر.

فإذن القواعد في الأصل لم تكن موجودة معبَّر عنها بالقاعدة عند السَّلف الصَّالح -يعني عند الصَّحابة والتَّابعين-، وإنَّما وضع العلماء هٰذه القواعد وعبَّروا عنها بقاعدة، بأصل ونحو ذلك من التَّعبيرات؛ لأجل أن تُضبط المسائل وحتَّى يسهُل على النَّاظر أنْ يتفطَّن للمسائل المتفرِّقة وما يجمعها من قاعدةٍ وأصلٍ واحدٍ.

فكثرة الفروع كانت من أسباب نشأة القواعد، كثرة المسائل، كثرة الإيرادات. كثرة الفروع، وكثرة الأقوال لابدَّ أنْ تُضبط بضابطٍ، فكان لذلك أُنشئت تلك القواعد وأنشئت الأصول حتى ينضبط العلماء بضابطٍ واحدٍ، وحتَّى إذا أتى من ليس بمجتهدٍ، مَن ليس بعالم غزير العلم لا يأتي ويستقرئ مرَّةً أخرى ويُخرج أصولًا يضبط بها علمه ونفسه، والعمر قصير لا يتحمَّل أنْ ينظر المرء في أمورٍ كثيرةٍ، لٰكن إذا ضُبطت القواعد فإنَّه تُرَدُّ الفروعُ وتُرَدُّ المفردات إلى تلك القواعد فينضبط الأمر.

من أسباب نشأة علم التَّقعيد أو القواعد أنَّ العقل والفهم إذا لم ينضبط بضابطٍ، إذا لم ينضبط بتقعيد فإنَّه يشذّ؛ لأنَّ الآراء مختلفة، والحكم على المستجدَّات والنَّوازل يختلف فيه فلان عن فلان، حتَّى مِن العلماء يختلف فيه، ولهذا تجد أنَّ اختلاف السَّلف من التَّابعين خاصَّة في الغالب لا يرجع إلى اختلاف القواعد، أمَّا اختلاف العلماء من أهل المذاهب المعروفة يرجع إلى تقعيد؛ وذلك لأنَّ أولئك نظروا في القواعد وضبطوا المسائل بالتقعيد، وأمَّا من قبلهم فإنَّه لم تتأصَّل ذلك فكانت المسائل عندهم مبنيَّة على اجتهاده في النَّازلة، فيأتي من بعده ولا يدري قاعدته في هٰذه المسألة فيقلِّدُه في هٰذا الباب أو في تلك المسألة ولا ينظر إلى مأخذه من جهة التَّقعيد العامِّ.

أيضًا من أسباب وضع التَّقعيد ومن أسباب نشأة القواعد أنْ لا يتأثَّر طلَّاب العلم وأنْ لا يتأثَّر النَّاس بالمتشابهات؛ لأنَّ التَّقعيد يَضْبِط، ومن المعلوم أنَّ القواعد كما ذكرنا دليلُها المحكم عن الكتاب والسُّنّة، وأمَّا المتشابهات التي ترد -وسيأتي تفصيل للمحكم والمتشابه إنْ شاء الله تعالى- أمَّا المتشابهات فإذا أوردت على من ليس براسخ في العلم فربَّما تشتتت، ربَّما نظر إلى المسألة ولم يتفطَّن لمأخذها من القواعد، فكان من اللّوازم أنْ توضع في العقيدة، قواعد في السُّلوك، قواعد في الفقهيَّات حتى ينضبط النَّاس، وإذا أوردت المتشابهات فإنّ طالب العلم إذا نظر إلى المتشابه الذي يخدش القاعدة يعلم أنّ للعلماء فيه نظرًا، يعلم أنَّ للعلماء فيه توجيهًا، ولا يترك القاعدة وهي الأصل الأصيل لأجل إيراد أحدٍ من النَّاس متشابهًا من المتشابهات ولو كان دليلًا من الكتاب والسُّنَّة؛ لأنّ من أدلة الكتاب والسُّنّة ما هو متشابه لا يعلم به إلَّا بعد ردِّه إلى المحكم.

هٰذه أمورٌ مهمَّة بين يدي هٰذا الموضوع، ومع تجدُّد الأحوال وتغيُّر الأمور في تاريخ الإسلام حدثت نوازلُ، وحدثت حوادثُ كثيرةٌ؛ حوادثُ متغيِّرةٌ، حوادث متجدِّدةٌ، هٰذه الَّتي سمَّاها العلماءُ نوازل، والَّتي قال فيها عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ تعالى: تحدُثُ للنَّاس أقضيةٌ بقدر ما أحدثوا من الفُجور. لابدَّ أنْ يكون هناك نوازلُ متجدِّدة تنزل بالنَّاس قضايا جديدة، فلابدّ أنْ يُحدث لها أحكامٌ.

هل كلَّما أتت قضيةٌ وكلَّما أتى شيءٌ يُرجع الأمر فيه إلى اجتهادٍ جديدٍ؟ أم أنَّ هناك ضوابط وقواعد إذا رجع العلماء إليها قلَّ اجتهادهم في النَّوازل، وتيسَّر الأمر عليهم في نظرهم إلى المستجدات؟ لا شكَّ أنَّ

حدوث النَّوازل كان من أسباب التَّقعيد وأيضًا خَدَم التَّقعيدُ العلماء وطلبة العلم في النَّظر إلى النَّوازل والمستجدات.

النَّوازل يعني الحوادث المختلفة والمستجدَّات في البلاد وفي الدُّول وفي المجتمعات، هٰذه ترجع إلى أسبابٍ:

• من أهمِّ أسبابها التَّطوُّر؛ لأنَّ النَّاس يتطوَّرون، كلُّ زمن تجد أنَّه يُدخل تحسينات على ما قبله خاصَّة في أمور المعاملات، تأتي معاملاتٍ جديدةٍ ليست في الزَّمن الأوَّل، والعقل بطبعه يحبُّ أنْ يجدِّدَ يحبُّ أنْ يأتي بأشياء جديدة، هٰذا التَّطوّر الذي يحدث عند النَّاس إذا لم ينضبط بتقعيدٍ فإنَّه لا حدَّ للعقل؛ لأنَّ العقل يريد أنْ يتطوَّر ويصل إلى أشياء قد تبعده تمامًا عن الشَّريعة وعن الدِّين الذي ارتضاه الله جلّ وعلا.

فكانت القواعد مُرجعَةً لهٰذه النَّوازل إلى أصولٍ ثابتة مهما حدث تجدِّد في الأحوال ومهما حدث تجدُّد وتغير في الأمور وفي المستجدَّات، فإنّ القواعد تضبط ذلك في فهم طالب العلم وفي حكم العالم وفي فتواه حتى ترجع إلى أصولٍ ثابتةٍ؛ لأنَّ هٰذه الشَّريعة ثابتة، من أوصاف الشَّريعة أنَّها شريعة ثابتةٌ، ثابتة من جهة النَّظر إلى الأشياء، ثابتةٌ من جهة الأحكام، ثابتةٌ من جهة تعبيد النَّاس لله جلّ وعلا، ولكن الفتوى كما هو معلوم تتغيَّر بتغيُّر الأحوال والأزمان؛ لأنَّ الفتوى مبنيَّة على اختلاف أحوال النَّاس، وتارة يكون اعتماد المفتي على العرف، وهٰذا له بحثٌ آخر ليس هٰذا مجاله.

أيضًا من أسباب وجود النَّوازل التي دعت إلى ضرورة فهم القواعد وضرورة التَّقعيد وأنْ يربط المسلم نفسه بالقاعدة فضلًا عن طلَّاب العلم فضلًا عن العلماء، أنَّ الزَّمان يفسد، وكما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام: «**لا يأتيكم زمانٌ إلَّا والَّذي بعده شرّ منه حتى تلقوْا ربَّكم**» فإذا استجدَّ الزَّمان بأنواعٍ من الفساد وأنواع من التَّغييرات كما قال عمر بن عبد العزيز: تحدُث للنَّاس أقضيةٌ بقدر ما أحدثوا من الفجور. هل إذا تجدَّد الفجور وازداد الفجور أو ازداد بُعد النَّاس عن الدِّين هل نأتى لهم بأشياء جديدة لم يكن عليها الأمر الأوَّل؟! التَّقعيد يضبط هٰذه النَّوازل التي هي رَاجعة إلى فساد الزَّمان وفساد أهله بأمر يجعل الشَّريعة ثابتة ويجعل النَّظر وحكم الكتاب والسُّنَّة ثابتًا لا يتغيَّر؛ لأنّ هٰذه الشَّريعة صالحة لكلِّ زمانٍ ومكانٍ كما هو معلومٌ، وحُكمها في أوَّل الزَّمان كحكمها في آخره، والله جلّ وعلا عَلِمَ أنّ هٰذا الدِّين باقٍ إلى قيام السَّاعة فجعل أحكامه باقيةٌ إلى قيام السَّاعة.

فإذن مهما حدث من فساد النَّاس، مهما حدث من تغيُّرٍ، مهما حدث من أمورٍ فإرجاعها إلى أصول الشَّرع يضبط ذلك، ويجعل ذلك الفساد ليس وسيلة إلى تغيير الشَّرع، وسيلةً إلى تغيير أهله، وسيلة إلى انقلاب العقل، وإلى انقلاب الفهم في معالجته لتلك الأمور؛ لأنَّ القواعد ثابتةٌ ولأنَّ التَّقعيد واحدٌ لا يتغيَّر، جعله العلماءُ والأئمَّة من قبل حتَّى يمشي عليه النَّاسُ جيلًا بعد جيل.

إذا تأمَّلت هٰذا فمن الذي قعَّدَ هٰذه القواعدَ؟ ومن الذي يُقَعِّدُ؟ ومن الذي يحقُّ له أن يطبِّق القواعدَ؟

الذي يُقبَلُ تقعيدُه أهل العلم، فإذا كان التَّقعيد في العقيدة بذكر أصولٍ وقواعدَ يُرجع إليها في أبواب الاعتقاد، فلابدَّ أنْ يكون ذلك التَّقعيد من عالم بالعقيدة، عالم بدقائق أقوال السَّلف، عالم بالأقوال المخالفة لأقوال السَّلف، ولهذا قلَّ التَّقعيد في العقيدة بعد زمن السَّلف الصَّالح، وأئمَّة الإسلام، شيخ الإسلام ابن

تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأجل طول باعه في هٰذا الأمر أيضًا أتى بقواعد ضبطت لنا مسائل العقيدة وقرَّبت لنا أقوالَ السَّلف في ذلك.

فإذن، التَّقعيد لابدَّ أنْ يكون من عالم راسخ في علمه، فإذا كان في العقيدة فلابدَّ أنْ يكون من عالم راسخ في العقيدة، وقد ذكرنا مرارًا أنَّ العقيدة؛ عقيدة أهل السُّنّة والجماعة منها أبوابٌ متَّصلة باعتقاد القلب وهو شرح أركان الإيمان السِّتّة؛ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى، ومن العقيدة عقيدة السَّلف ما سمَّاه بعض أهل العلم بالمنهج ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨]، وهو طريقة التَّعامل في الأمور:

مثل: مسائل الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، هٰذه من العقيدة.

مثل: مسائل الإمامة من العقيدة، الصَّحابة من العقيدة، الكلام في الولاية وكرامات الأولياء، وما يتعلق بذلك، هٰذا من العقيدة..

وهكذا في المسائل التي خالف فيها أهل السُّنّة غيرهم وجُعلت تلك المسائلُ من العقيدة؛ لأنَّها كانت ممَّا ميَّز أهل السُّنّة عن غيرهم من فرق الضَّلال، لابد أنْ يكون المُقَعِّدُ عالمًا بما خالف فيه أهل السُّنَّة غيرُهم.

فإذن العقيدة في أبوابها جميعًا تشمل مسائل الاعتقاد أركان الإيمان، وتشمل المنهج، وتشمل أيضًا السُّلوك، ولهٰذا في «العقيدة الواسطيَّة» لشيخ الإسلام ابن تيمية جعلها على هٰذه الأقسام الثَّلاثة:

- شرح أركان الإيمان.
- ثم مسائل التَّعامل: المنهج، الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، الإمامة، والصَّحابة، وكرامات الأولياء، وما يتَّصل بذلك من مباحث.
- ثمّ في آخره مبحث الأخلاق والسُّلوك عند أهل السُّنّة والجماعة.

من يُقعِّد هٰذه المسائل لابد أنْ يكون راسخًا في ذلك، هل يُقبل من كلِّ أحدٍ أنْ يقعِّد؟ لا يسوغ أنْ يقبل من كلِّ أحدٍ أنْ يقعِّد، لِمَ؟ لأنَّه لو قُبل من كلِّ طالب علم أنْ يقعِّد في العقيدة مسائل لصار هناك انحرافات؛ لأنَّ العقيدة أمرها واحدٌ منذ زمن السَّلف الصَّالح وإلى وقتنا هٰذا وإلى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها.

فالتَّقعيد لابد أنْ يكون راجعًا إلى قول أئمَّةِ السَّلف أو إلى قول المحقِّقين من الأئمَّة كشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ومن نحا نحوهم، وشُهد له بالإمامة في هٰذا الباب.

أيضًا التَّقعيد فيه استحضار المقعِّد الفروع الكثيرة التي تندرج تحت هٰذه القاعدة، وأحيانًا بعض النَّاس قد يستعجل يُقَعِّد وهو لا يستحضر كلَّ الفروع التي تندرج تحت هٰذه القاعدة مما عايشه أو ممَّا علمه، وإنَّما استحضر بعضًا فأخرج قاعدةً، ولهٰذا تجد أنّ من النَّاس حتَّى من بعض طلبة العلم يُقَعِّد قاعدةً، ثم يورد عليه معترضٌ بشيء فيكون خارمًا لقاعدته، صحيحٌ أنَّ القواعد أغلبيَّة؛ لٰكن هٰذا لا يعني أنْ تكون المعارضاتُ للقاعدة كثيرة.

الثَّاني: التَّقعيد إذا جاء من مختلفين؛ يعني فلانٌ له طريقة تخالف طريقة فلان، وأتى التَّقعيد في هٰذه المسائل المختلَف فيها فإنَّه نتيجةً لاختلاف الآراء وللرَّغبات وللغايات يكون ثمَّ تقعيدات مختلفة، ولهٰذا تجد في مثل

هٰذا الزَّمان من قعَّد ممَّن هو ليس من أهل العلم يقعِّد بحسب الواقع الذي يعيشه، إنْ كان واقعًا دعويًّا يقعِّد بحسب الواقع الذي هو فيه، إنْ كان واقعًا فقهيًّا يقعِّد بحسب الواقع الذي هو فيه، والواجب أنّ الذي يحقُّ له أنْ يقعِّد أنْ يكون متخلِّصًا من أنْ يكون متبنِّيًا لرأي من الآراء؛ لأنَّ التَّقعيد هو استقراءُ المسائل، وذكر أصول هٰذه المسألة من أدلَّة الشَّرع حتى تكون مرجعًا يرجع إليه إذا حضرت فروعٌ جديدة، وقد رأينا في هٰذا الزَّمن أنَّه حصل هناك تقعيدٌ لأشياء لا يوافق عليها الأئمَّة من قبل، وجُعلت قواعد وتبُنِّيت وصارت هناك آراءٌ وآراء ممَّا سبَّب اختلافًا في وجهات النَّظر وعدم دقَّة في ذكر هٰذه الآراء.

الثَّالث: من المسائل المتَّصلة بمبحث: من الذي يقعد؟ ومن الذي يحقُّ له التَّقعيد؟ أنه لا يسوغ لأحد أنْ ينسب قاعدة من القواعد للسَّلف الصَّالح، يقول: القاعدة عند السَّلف هي كذا إلَّا عن أحد طريقين:

الأوَّل: أنْ يجد نصًّا على أنَّها قاعدة، يجد نصًّا: والقاعدة كذا، والأصل كذا. في قول إمام من الأئمَّة أو في كتب الاعتقاد أو في كتب السَّلف الصَّالح رضوان الله عليهم، لابدَّ أنْ يكون ثمَّ نصٌّ حتى لا نجعل السَّلف مقعِّدين لقواعد خاطئة، والسَّلف لا شكَّ أنَّهم خير هٰذه الأمَّة: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**» فمن النَّاس من يأتي ويقول: القاعدة عند السَّلف كذا، هل نصَّ السَّلفُ على هٰذه القاعدة؟ لا تجد جوابًا بالإثبات بأنَّهم نصُّوا عليها، من أين أُوتي بهذه القاعدة؟ بفهم ذلك المقعِّد، والمقعِّد إذا كان من أهل العلم فإنَّه لن يجْتَرِئَ على تقعيدٍ دون نصٍّ من السَّلف الصَّالح على هٰذا التَّقعيد إذا نُسبت تلك القاعدة للسَّلف. هٰذا الطَّريق الأوَّل لفهم التَّقعيد المنسوب للسَّلف الصَّالح أن ينصَّ على هٰذه القاعدة عند السَّلف.

الثَّاني: أنْ يستقرئ عالمٌ راسخٌ متأنّي لكلام السَّلف في المسألة ثم يُقعِّد، فإذا أتي عالمٌ راسخٌ في العلم متأنِّي فيما يأتي وفيما يذر ويستقرئ كلام السَّلف وبعد استقرائه لكلامهم ولأحوالهم يُخرج تقعيدًا، مثل ما قعَّد لنا شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تعالى قواعد كثيرة في العقيدة، وكذلك في السُّلوك، ونسب هٰذه القواعد للسَّلف فإنَّه انضبطت الأفهام، وإذا نظرت في أقوالِ السَّلف وفي أحوالهم لا تجد أنَّها تخرج عن تقعيدات شيخ الإسلام ابن تيمية، لمَ؟ لأنّ شيخ الإسلام استقرأ وهو راسخٌ في العلم، واستقرأ وهو ينظر إلى أقوال السَّلف جميعًا، ما استعجل فنظر إلى قولٍ أو قولين أو عشرة أو عشرين أو خمسين فأخرج فيها قاعدة، ربَّما لا يكون السَّلف موافقين على هٰذه القاعدة، ويكون ذلك القول وذلك التَّقعيد مخالفًا لأقوال السَّلف.

من القواعد المهمَّة التي ينبني عليها النَّظر في كلام النَّاس وفي أقوال المقعِّدين وفي الأدلَّة وفي الآراء المختلفة أصلٌ وقاعدة: **المحكم والمتشابه**.

تجدُ أنَّ المصنِّفين في علوم القرآن يذكرون المحكم والمتشابه، المصنِّفين في أصول الفقه يذكرون المحكم والمتشابه.

والمحكم والمتشابه من المباحث المهمَّة التي -ولا أكون مجازفًا- يجب أنْ يفهمها كلُّ مسلم، خاصَّةً في مثل هٰذا الزَّمان والأزمنة التي فيها الأقوال والآراء والتَّقلُّبات المختلفة.

الله جلّ وعلا قال في محكم كتابه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ

كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران:٧]، بيّن جلَّ وعلا أنَّه جعل من آي القرآن منها ما هو محكم، ومنها ما هو متشابه، ابتلاءً من الله جلّ وعلا لعباده.

ما هو المحكم من الآيات؟ هو الواضح المعنى، هو البيّن المعنى، الذي يفهمه من قرأه بدون إشكال، واضح المعنى مفهوم، وهناك آياتٌ أخر مشتبهات يعني تشتبه ولا يُدرى وجهها حتى تُردَّ إلى المحكم، هٰذه المشتبهات كثيرةٌ في القرآن، يشتبه النَّظر في هٰذه الآية هل هٰذه الآية على ظاهرها؟ هل هٰذه الآية يؤخذ منها الحكم؟ أم أنَّ هٰذه الآية مبيَّنٌ معناها في مكان آخر مبيَّنٌ معناها في آية أخرى؟ جعل الله القرآن منه محكمٌ ومنه متشابه، المحكم الواضح المعنى، والمتشابه الذي يشتبه على النَّاظر في معناه.

كذلك السُّنّة منها محكمٌ ومنها متشابه، ولهٰذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الّذِينَ سَمَّى اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ**»، «**الّذِينَ يَتّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ**» هم أهل الزَّيغ، قال جلّ وعلا: ﴿**فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ**﴾، ولهٰذا لـمَّا جاءت الخوارج، احتجَّت الخوارجُ على مبدئهم وعلى مذهبهم بنصوصٍ من الكتاب والسُّنّة، احتجُّوا على تكفير صاحب الكبيرة بنصٍّ من القرآن، واحتجُّوا على ذلك بنصٍّ من السُّنّة، احتجُّوا على آرائهم بنصوص، والنَّبيُّ ﷺ ثبت عنه كما في «الصَّحيحين» من أوجه متعدِّدة أنّه قال في الخوارج: «**يَمْرُقُونَ مِنَ الدّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيّةِ، أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ لِمَنْ قَتَلَهُمْ أَجْرًا عِنْدَ الله جلَّ جلاله**» ما سبب ضلالهم؟ أنَّهم أخذوا المتشابه وتركوا المحكم، من الذي يعلم المتشابه من المحكم؟ مَن الذي يردّ المتشابه إلى المحكم؟ صحابة الرَّسول ﷺ، والخوارج لم يرجعوا إلى الصَّحابة، فصار استدلالهم بالمتشابه، استدلوا بالقرآن وبالسُّنَّة وليس كلُّ مستدلٍّ بالقرآن وبالسُّنَّة مصيبًا وناجيًا؛ بل لابدّ أن يكون استدلالهم بالقرآن وبالسُّنَّة راجعًا إلى فهم أهل العلم الذين يُرجعون المتشابه إلى المحكم.

إذا نظرت في الآراء المختلفة في أقوال المرجئة، في أقوال القدرية، كلٌّ يحتجُّ بالقرآن والسُّنَّة؛ لكن هل احتجاجه بالكتاب والسُّنّة على فهم السَّلف؟ هل هو على فهم الصَّحابة؟ هل هو على فهم أئمَّة الإسلام؟ لو كان على فهمهم لما حصل خروج عن الجماعة الأولى، و لكانت هٰذه الأمَّة جماعة واحدةٌ لكن سبب الخلاف وسبب الفرقة الأخذ بالمتشابهات وترك المحكمات، لهٰذا من الأصول العظيمة في التَّقعيد أنْ تتبيَّن المحكم من المتشابه، أنْ تضبط محكمات الشَّرع، محكمات الدِّين، محكمات العقيدة، فإذا أتى آتٍ بدليل آخر يخالف المحكم فلابدّ أنْ تسأل عنه؛ لأنَّك واقفٌ على محكم، واقفٌ على دليل، على قاعدة ولا تخرج عنه إلَّا بشيءٍ قويٍّ من نصٍّ من الكتاب أو السُّنّة أو تقعيد أهل الإسلام.

إذا نظرت في المحكم والمتشابه على هٰذا النَّحو فإنَّك تتعجَّبُ أنْ كان في كتاب الله وهو كلام الله جلّ وعلا الحكيم الخبير ما يشتبه، أنْ كان فيه ما ضلَّ بسببه بعضُ النَّاس، ما ضلَّ بسببه أممٌ، ما ضلَّت بسببه فرقٌ وجماعاتٌ ومذاهبٌ متعدِّدةٌ، كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام: «**وستفترق هٰذه الأمَّةُ على ثلاثٍ وسبعين فرقة، كلُّها في النَّار إلَّا واحدةٌ، وهي الجماعة.**»

قال الشَّاطبي رَحِمَهُ اللهُ في «الموافقات»: إنَّه لا يعجز أحد أنْ يستدلَّ على رأيه في مسألةٍ من المسائل بالكتاب أو بالسُّنّة، فالنَّصارى استدلَّت على رأيهم في أنَّ بعثة النَّبيِّ ﷺ حقٌّ ولكنَّها مخصوصةٌ بالعرب، بقول الله

جلّ وعلا: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[الشُّعراء]، وبقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[الزُّخرف]، كذلك استدلَّ من لم يحرِّم الخمر، وقال: إنَّ الخمر لم تحرَّم في كتاب الله جلّ وعلا استدلَّ على ذلك بقول الله جلّ وعلا: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾[المائدة]، فأمر بالاجتناب ولم يذكر التَّحريم نصًّا، كذلك استدلَّ كما قال أهل الفرق المختلفة؛ استدل الخوارج بما استدلوا به.. إلى آخر ما ذكرنا لك...

إذا كان هٰذا في الكتاب والسُّنّة منه محكمٌ ومنه متشابهٌ، وإنَّ اتِّباع المتشابه من الكتاب والسُّنّة نوعٌ من أنواع الزَّيغ الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ**» فلأَنْ يقع التَّشابه في الكلام وفي الأقوال وفي الآراء وفي الأفعال، لأنْ يقع التَّشابه في أحوال الصَّحابة: في أقوالهم وفي أفعالهم من باب أولى؛ لأنَّه وقع التَّشابه في الكتاب وفي السُّنّة، ووقع التَّشابه أيضًا في أقوال الصَّحابة وفي أفعالهم، ووقع التَّشابه أيضًا من باب أولى في أقوال وأفعال التَّابعين، ووقع التَّشابه ومن باب أولى في أقوال وأفعال الأئمَّة والعلماء، وقع التَّشابه ومن باب أولى في الذين صنَّفُوا كتبًا.

فإذن ليس النَّجاة وليست معرفة الحقِّ في أنْ تجد قولاً مكتوبًا في كتاب أو قولًا منسوبًا إلى عالم، أو رأيًا يستدلُّ عليه صاحبه بالكتاب أو بالسُّنّة أو بأقوال بعض أهل العلم حتى يكون استدلاله موافقًا للقواعد المحكِّمة التي قرَّرها أئمَّة الإسلام.

فإنَّ هٰذه القاعدة وهي معرفة المحكم والمتشابه، وأنَّه لا فهم لأقوال السَّلف ولا نجاة ولا بُعد عن طريق الزَّائغين وطريق المخالفين حتى يكون ذهاب المرء إلى المحكمات من القواعد والأدلَّة دون المتشابهات.

القواعد من مزاياها أنَّها محكمةٌ لأنَّها أمرٌ كليٌّ وضعه العلماء بالاستدلال بالنُّصوص المحكمة دون المتشابهة، أمَّا أقوال أهل الزَّيغ، أقوالُ أهل الضَّلال فإنَّهم يستدلُّون بأدلَّةٍ لٰكن هٰذه الأدلَّة معارضة بمثلها، معارضة بغيرها، وأبلغ منه في البعد وأبلغ منه في البطلان أنْ يُستدل بحالٍ من الأحوال بفعل تابعيٍّ، بفعل مجموعةٍ من التَّابعين، بقول من أقوالهم، بقولٍ وجده في كتاب، بقول وجده منسوبًا إلى عالم ولو استدلَّ عليه حتى يوافق ذلك النُّصوص من الكتاب والسُّنّة، وما قعَّده أهل العلم من القواعد التي تعصم من أخذَ بها من الخطإ في هٰذا الباب العظيم.

أيضًا في الفقهيَّات: المحكم والمتشابه هٰذا تنظر إليه في أبواب العقيدة وفي أبواب التَّعامل وفي أحوالٍ كثيرة.

إذا نظرنا في الفقهيات نأخذ مثالًا لقاعدة تقعيديَّة في هٰذا البيان، وهٰذا التَّقعيد في الفقه الذي يضبط الذِّهن ويُخلِّص المرء في تقلُّبات الأحوال من كثير من الإشكالات أنْ تعلم أنَّ الفقه هو العلم بالحلال والحرام من نصوص الكتاب والسُّنّة، وما فهمه الأئمَّةُ واستنبطوه من الأحكام، الفقه مرتبطٌ بعضه ببعض، الفقه مبنيٌّ بعضه على بعض، ففهم أحكام العبادات مبنيٌّ على فهم القواعد، مبنيٌّ على معرفة النُّصوص والأحكام في أبوابٍ أخرى من الفقه، ويتأكَّد ذلك من بناء واعتماد الفقه بعضه على بعض إذا أتت النَّوازل؛ لأنَّ النَّازلة قد يردُّها بعض النَّاس إلى دليلٍ؛ دليل واحدٍ، يردُّها بعض النَّاس إلى باب من أبواب الفقه،

فيكون نظره فيها تارةً مصيبًا وتارة يكون النَّظر خاطئًا، متى يكون خاطئًا؟ إذا كانت المسألة لها صلة بأكثر من باب من أبواب الفقه، مسألة لها صلة بدليل، لها صلة باجتهاد، لها صلةٌ بفهم لِبابٍ من الأبواب الفقهيَّة، والفقه في النَّوازل مرتبطٌ بعضه ببعض، لا يتصوَّرُ أنْ يأتي أحدٌ ويُفتي في نازلةٍ عظيمةٍ أو يحكم في واقعة أو يحكم في مسألةٍ من المسائل التي تهمُّ المسلمين وهو يعلم بابًا من الأبواب، أو متخصِّصٌ كما يقال في لغة العصر بأبواب البيوع مثلا أو المعاملات وتأتي نازلةٌ من النَّوازل ويحكم فيها، الفقه الذي يحتاج إليه المجتهد ويفتي به في النَّوازل هٰذا مرتبطٌ بعضه ببعض، فإذا أتي متجرِّدٌ مثلًا وتكلَّم في مسألة فقهية عظيمة ينبني عليها رأيٌ، ينبني عليها اختلافٌ، ينبني عليها تفرُّقٌ، ينبني عليها أنْ يتَّبعه منها أناس، أو يتَّبعه فيها فئات أو جماعات أو يتغيَّر فيها حالُ بلدٍ، أو ينبني عليها مواقفٌ، أو ينبني عليها عملٌ وجهادٌ أو نحو ذلك، إذا تكلَّم في مسألةٍ وهو يعلم منهاج السُّنّة نفسه أنَّه لم يضبط الفقه كلّه فإنَّه قد جنى على نفسه؛ لأنَّه تكلَّم في هٰذه النَّازلة ببعض ما عنده من العلم وهو يعلم أنَّه لم يضبط هٰذا العلم كلّه.

النَّوازل تحتاج في التَّقعيد من السَّائل والمسؤول وتحتاج إلى التَّقعيد والمتبوع والتَّابع ومن الفرد ومن الجماعة إلى أنْ يكون الذي يتكلَّم فيها ضبط الفقه، والفقه متَّصلٌ بعضه ببعض، لا يكون خبيرًا بباب من الأبواب أو بابين أو ثلاثة؛ لأنّ هٰذا مرتبطٌ بعضه ببعض، والفقه مبنيٌّ على التَّقعيد، فإذن يكون الارتباط بكلام الأئمَّة والعلماء وبالتَّقعيد وبالأدلَّة من الكتاب والسُّنّة، ولو كان النَّاس كذلك لانضبطوا؛ لٰكن الجرأة والإعجاب وأسباب كثيرة جعلت المرء يتكلَّم ثم جعلت من يتَّبعه، ولا شكَّ أنَّ كلَّ من عنده علمٌ لابد أنْ يكون عنده نوع حجَّة، ويكون عنده احتجاج؛ لكنّ الشَّأن ليس في وجود الاحتجاج، الشَّأن أن يكون الاحتجاج في المسائل الفقهيَّة وفي المسائل الخلافيَّة خاصَّةً التي ينبني عليها آراء ومواقف وأحوال أنْ يكون الاحتجاج في نفسه سليمًا ثمَّ أنْ يكون سالما من المعارضة؛ لأنّ كثيرًا من الاحتجاجات إذا نظرت إليها في نفسها تجد أنَّها سليمة، لكن إذا نظر إليها عالمٌ قال: هٰذا معارَضٌ بدليل كذا، هٰذا معارَضٌ بقاعدة كذا، هٰذا لا يستقيم لأنّ فيه كذا وكذا.

فإذن ليس الشَّأن في هٰذه الأبواب أنْ يتجرَّأ متجرِّئ في تقعيد الفقهيَّات التي ينبني عليها المواقف والأحوال والآراء المختلفة، أنْ يكون عالـمًا ببعض الفقه، عالما ببعض المسائل، عنده مراجعه فإنَّ الفقه ملكة، لو كان الفقه مراجعة الكتب لسهُل الأمر من قديم؛ لكن الفقه ملكة تكون بطول ملازمة العلم، بطول ملازمة الفقه، حتى يكون هٰذا النَّاظر وهٰذا الفقيه مجتهدًا قد فهم أدلَّة الشَّرع وأَمِنَ هو أنْ يتكلَّم الشَّرع بهوى.

وهٰذا لا شكَّ أنَّه من الأصول المهمَّة، ونخلص منه إلى أنَّ الذي يحقُّ له التَّقعيد في هٰذه المسائل ويُتّبع قوله هم المجتهدون، الذي يحقُّ له ذلك هم أهل الاجتهاد؛ لأنّ الفقه بعضه مبنيٌّ على بعض، وبعضه يقود إلى بعض، ولا يمكن أنْ يفرَّق بين كلام الله جلّ وعلا، ولهذا من تجرَّأ على كلام الله وكلام رسوله ﷺ فيعلم من نفسه أنَّه يعلم بعضًا دون بعض، وترك التَّأنِّي ولم يزدرِ نفسه في هٰذا الباب فإنَّه قد جنى على نفسه وليس بمعذور؛ لأنَّه علم نقصه وتجرَّأ وحكم على ما لا يسوغ له الحكم فيه.

هٰذا التَّقعيد لفهم القواعد في الفقهيَّات له آثار.

من آثاره –وهٰذا للمثال وليس للحصر- ما يعلمه كلٌّ منكم من دخول كثير من النَّاس وخاصة بعض المنتسبين إلى العلم أو طلبة العلم دخلوا في مسائل التَّفسيق والتَّكفير والتَّبديع، وجعلوا قواعد للتَّبديع ليست معروفة عند أهل العلم، ولهذا تجد أنَّ أهل العلم يخالفونهم، استدلُّوا على ذلك التَّقعيد بأدلَّة وبأقوال لكن لِمَ لَمْ يستدل أهل العلم ولِمَ لم يفهمُوا تلك القواعد على نحو ما أورد أولئك؟ لأجل أنَّ الفقه بعضه مرتبطٌ ببعض، بعضه صلةٌ لبعض، والتَّقعيد والعلم بعضه صلة لبعض، وأولئك أخذوا بعضًا وتركوا بعضًا.

كذلك في مسائل التَّكفير تجد هٰذا يكفِّر وذلك لا يكفِّر ويأتي احتدام إمَّا تكفيرُ دول وإمَّا تكفير أشخاصٍ أو تكفير علماء أو تبديعٌ لأشخاص أو علماء أو طلبة علم أو دعاة، أو تفسيق لهٰذا أو هٰذا، ويختلف هٰذا مع هٰذا.

وإذا نظرت إلى كلام أهل العلم وجدت أنَّه موافقٌ للعلم منضبطٌ لا اعتراض عليه، وهؤلاء يتجادلون فيما بينهم، وهٰذا يورد حجّة وقاعدة، وذاك يورد حجَّة وقاعدة، وسبب الخلاف فيما بينهم أنَّهم لم يرجعوا إلى تقعيد القواعد التي يتكلَّمون فيها، ومن أهمِّها في هٰذه المسائل أنّ الفقه مبنيٌّ بعضه على بعض، وأيضًا الفقه في بعض مسائله مبنيٌّ على العقيدة، والعقيدة في مسائل التَّكفير مبنيَّةٌ على باب حكم المرتدِّ، وبابُ الرِّدَّة.

فإذن هٰذه متَّصلة بهذه، فالجرأة على التَّقعيد والجرأة على التَّطبيق يُسبِّبُ آثارًا من الخلاف وآثارًا من التَّفرُّق، وآثارًا من الاستقلال بالآراء، هل يقال: فلان له رأيٌ هٰذا أخطأ فيه، هو رأيٌ، هٰذا صحيح، والأمر سهل لو كان هٰذا يرجع إليه، ومقتصرٌ عليه؛ لكن فيما نرى في هٰذا الوقت نجد أنَّه ليس الأمر كذلك، نجد أنّ كلّ من له رأيٌ وله فهم لا بدَّ أن تجد من يتَّبعه على ذلك، وهٰذا سبَّب لنا آراء كثيرة وفرق كثيرة وأقوال كثيرة، وهٰذا ممَّا يجب أن يُدْرَأ وأن يجتمع أهل الحقِّ وأن يجتمع المؤمنون وطلَّاب الإصلاح وطلَّاب الخير وطلَّاب الدَّعوة وطلَّاب الجنَّة وطلَّاب الدَّار الآخرة = على كلمة سواء، وأن لا يسعوا في التَّفريق وفي زيادة الفُرقة فيما بينهم بأن ينضبطوا في تقعيد قواعدهم وفي تقعيد كلامهم وفيما يأتون وفيما يذرون؛ لأنَّ مراد الجميع الخير وهداية النَّاس إلى الدِّين والإصلاح وإزالة المنكرات والأمر بالمعروف وفُشُوِّ الخير وزوال الباطل، وهٰذا إنَّما يكون بالاجتماع والائتلاف، وأمَّا الفرقة فإنَّها مُفْرِحَةٌ للشَّيطان ومُحْزِنَةٌ لعباد الله المؤمنين.

مثال لتقعيد القواعد في السلوك وقد ذكره بعضهم وهو: أن ينضبط ذهنك في التَّعامل والسُّلوك بأنَّه **ليس كل قدح ولا كل مدح حقًّا**، فلابدَّ إذن من التَّثبُّت، التَّثبُّت في القوادح، والتَّثبُّت فيما يُمدح به.

كلمة للحافظ الذهبي الذي له من اسمه نصيبٌ، فقد قال فيه المُحَدِّث الطَّرابلسي وكان يسمع به ولم يره حتَّى قَدِمَ عليه دمشق ورآه قال في الحافظ الذهبي:

ما زلت بالسَّمع أهواكُم وما ذُكِرَتْ ... أخباركم قَطُّ إلَّا مِلْتُ من طَرَب

وليس من عَجَبٍ أن مِلْتُ نحوكم ... فالنَّاس بالطَّبع قد مالوا إلى الذَّهب

قال الذَّهبيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى: **ما من إمام كامل في الخير إلاَّ وثَمَّ أُناسٌ من جهلة المسلمين ومبتدعيهم يذمُّونه ويحطُّون عليه، وما من رأس في التَّجهُّم والرِّفض والضَّلالة إلَّا وله أناسٌ ينتصرون له ويذبُّون عنه،**

ويدينون بقوله بهوًى وجهل، وإنَّما العبرة بقول الجمهور الخالين من الهوى والجهل المتَّصفين بالورع والعلم. انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

ومأخذه في آخر كلامه من قول النَّبيِّ ﷺ في جنازة مُرَّ بها فأثنوا عليها خيرًا ومُرَّ بجنازة أخرى فأثنوا عليها شرًّا، فقال النَّبيُّ ﷺ في الجنازة الأولى التي أثنوا عليها خيرًا: «هي في الجنَّة»، وقال في الجنازة الثَّانية التي أثنوا علينا شرًّا: «هي في النَّار»، قال: «**أنتم شهداء الله في أرضه**» من هم شهداء الله في أرضه؟ هم المسلمون المتمسِّكون بما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ الذين خَلَوا من الهوى والجهل والَّذين اتَّصفوا بالورع والعلم، فهاتان صفتان عدميَّتان وصفتان وجوديَّتان، أمَّا الصِّفتان الوجوديتان فأن يكونوا متورِّعين، وأن يكونوا علماء، يكون عندهم ورع وعندهم علم، من النَّاس من عنده ورع ولكن لا علم عنده، فهل يقبل كلامه في النَّاس فيما يُقدح به في فلان ويُمدح من أجله لفلان، هل من عنده ورعٌ بلا علم يقبل قوله في هٰذا؟ أمَّا الصِّفتان الأعدميَّتان فأن يكون خاليًا من الهوى وخاليًا من الجهل، خاليا من الهوى لأنَّ الهوى يجعله يقدح فيمن ليس على طريقته، والهوى يجعله يمدح من كان على طريقته، فبإعجابه وهواه مدح وبإعجابه وهواه قدح وهٰذا يسبِّب خللًا في السُّلوكيات وخلَلًا في التَّعامل وخللًا في القلوب وخللًا في محبَّة المؤمنين بعضهم لبعض، وفي أمور كثيرة من الشَّرع تنبع من أهل الإخلال بهذه القاعدة وهي قاعدة (أنَّه ليس كلُّ قدح أو مدح حقًّا) فلابدَّ إذًا من التَّثبُّتِ.

ولهٰذا نقول: لابدَّ أن يكون النَّاظر في المدح وفي القدح تابعًا للجمهور، وهؤلاء الجمهور هم الذين اتَّصفوا بالعلم والورع، واتَّصفوا بالخلوِّ من الهوى والجهل، تجد من النَّاس متَّصفٌ بالعلم وعنده ورع لكن عنده بعض هوى، لذلك تجد أنَّ في كلامه ما يخدش في كلامه، ما لا يطمئنُّ المرء معه أنَّ هٰذا هو القول المنسوب لأئمَّة الإسلام أو للسَّلف الصَّالح، يكون عنده ورعٌ ولكن ليس عنده علم، عنده علم وليس عنده ورعٌ، وهكذا يكون عنده علمٌ ويكون عنده جهالةٌ ببعض الأشياء فيتسبَّب من أجل ذلك بما مدح وبما قدح في خلل في أذْهُنِ النَّاس وفي أذهُن وأفهام المسلمين.

فلابدَّ إذن من أن يكون هناك تقعيدٌ عامٌّ في مسائل النَّظر في المدح والقدح، وهٰذا الزَّمن كما ترون وتعلمون ما من إنسان وخاصةً من المشتهرين من طلبة العلم أو من العلماء أو من الدُّعاة أو من غيرهم إلَّا وله مادحٌ وله قادحٌ.

الإمام أحمد ثَمّ من قدح فيه حتَّى قال الكرابيسي كلمته المعلومة في قدح من قدح في الإمام أحمد، كذلك الإمام الشَّافعي ثَمَّ من قدح فيه؛ لكن الله جلّ وعلا أظهر فضائل أولئك وجعل قدح من قدح في أهل العلم الرَّاسخين أمره راجع إليه، وليس بذي صواب.

قدح ومدح، القدح له أسباب، ومدح المادح له أسباب، وهٰذه القاعدة أو تقعيد لقواعد التَّعامل (ليس كلّ قدح أو مدح حقًّا) لابدَّ أن نتعرَّف أسباب القدح، يَقدح طالب علم في طالب علم؟ لِمَ يقدح مسلم في مسلم؟ لِمَ يقدح مؤمن في مؤمن؟ ما أسباب القدح عندهم؟ القدح له أسباب من الأسباب:

▲ أن يكون هٰذا قرينًا لهٰذا، وكون هٰذا قرينًا لذاك يجعل القدحُ سهلاً؛ لأنَّ القرين يكون مع مُنَافِسِهِ القرينُ في تنافس، فربَّما أراد أن يغلبه أو أن يكون مُقَدَّمًا عليه فجعله ذلك يقدح. الإمام مالك تكلَّم في ابن

أبي ذئب، وابن أبي ذئب قال في الإمام مالك: يُستتاب مالك فإن تاب وإلاَّ قتل، الإمام مالك أحد أئمَّة الإسلام وابن أبي ذئب ثقة إمام، وهٰذا إمامٌ وهٰذا إمامٌ بينهم ما بين الأقران.

وقد قال ابن عبَّاس ما حاصله: إنَّ العلماء -أو قال نحوها- ليتنافسون أو يتحاسدون كما تنافس أو تحاسد التُّيوس في زروبها. وهٰذا ظاهر بيِّن، فقد يكون قدح هٰذا في ذاك سببه أنَّ هٰذا قرينٌ لذاك، والمؤمن المسدَّد الورع يحبُّ من ينصرُ دين الله، يحبُّ من يقول الكلمة ولو كان ما معه إلَّا واحد أو ليس معه أحدٌ، وذاك معه أممٌ من النَّاس، المهم أن يكون دين الله جلّ وعلا منصورًا وأن يكون الكتاب والسُّنّة منشورًا بين الخلق، ليس المهم أن يكون هٰذا أكثر أو أنا عندي أكثر، وذاك أفرح بخطئه، بل أفرح بصوابه ولو لم يكن معي أحد، وأحزن لخطئه ولو كان معي أمّة من النَّاس، لهٰذا من أسباب القدح أن يكون هٰذا قرينٌ لذاك.

▲ من أسباب القدح: الحسد، والحسد نهى الله جلّ وعلا عنه، وهو يأكل الحسنات كما جاء في الحديث، قال جلّ وعلا: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾[النِّساء]، وقد قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**إيَّاكم والحسد فإنّه يأكل الحسنات كما تأكل النَّارُ الحطب**».

الحسد ما سببه؟ سببه أنَّه حسد هٰذا وتمنَّى زوال نعمة الله عليه لشيء في صدره عليه، وحقيقة الحسد أنَّه عدم رضا بفعل الله، عدم رضا بقضاء الله جلّ وعلا، من أعطى ذاك؟ من الذي أعطاه الفضل؟ من الذي أحسن إليه؟ من الذي جعله هاديًا للنَّاس؟ من الذي جعله كذلك وأمدَّه بمال؟ وأمدَّه بسمعة حسنة؟ الذي أمدَّه بذلك هو الله جلّ وعلا، فإذا حسدته فتكون في الحقيقة معترضًا على فضل الله الذي يؤتيه من يشاء.

▲ من أسباب أيضًا القدح التَّحزُّبات المختلفة، هٰذا من فئة وهٰذا من فئة، وهٰذا يقدح في ذاك وهٰذا يقدح في ذاك؛ لأجل حزبه وفئته.

▲ من أسباب القدح أيضًا أن يُقدح في عالم، يُقدح في إمام لأجل إسقاطه، وإذا أُسقط كان ثمَّ هدف من وراء إسقاطه، فإذا قُدح في عالم فزال ذلك العالم، كان السَّبيل لهذا أن يأتي ويقرِّر للنَّاس ما يريد فيكون بعد ذلك سائرًا.

من أسباب القدح في العلماء أو من أسباب القدح في الموجِّهين أن يكون لذلك القادح هدفٌ يسعى من ورائه بعد القدح إلى إسقاط ذلك، وإذا أسقط هٰذا المقدوح فيه وهو المشهود له بالخير وتفرَّق النَّاس عنه لم يكن موجِّهًا ولم يسمع النَّاسُ كلامه، فخسر النَّاس وخسر الدِّينُ ناصرًا من أنصاره.

المدحُ أيضًا له أسباب: من أسباب المدح الذي يكون تارةً بحقٍّ وتارةً بغير حقٍّ:

▲ من أسباب المدح زيادة الإعجاب: يُعجب بشخصية، يعجب برجل فيكون إعجابه هٰذا سببًا لأنْ يمدحه بدون استثناء، يملك عليه قلبه، يملك عليه مشاعره حتَّى يكون هو الكامل الذي لا عيب فيه، هٰذا الإعجاب يجعله يمدح بإطلاق ولا يرى عيوبه كذلك.

▲ كذلك من أسباب المدح الزَّائد أو غير الحقّ، تارةً يكون حقًّا وتارة يكون على غير الحقّ، من أسباب المدح التَّحزُّبات أيضًا والجماعات المختلفة والآراء المختلفة، يمدح لكي يظهر هٰذا فيُقبل النَّاس عليه؛ لأنَّه من الفئة الفلانية، يمدح آخر لم؟ لأنَّه من الفئة المقابلة.

والقاعدة التي تضبط لك هٰذا (أن ليس كلُّ قدح أو مدح حقًّا) فلابدَّ أن تتثبَّت، والوَرع يتخلَّص من الهوى، يتخلَّص من أن يرى بقلبه، بل تنظر بالعلم، تنظر في هٰذا في المقدوح فيه وفي الممدوح تنظر فيه بعلم، والموازنة في هٰذا الأمر بأن تكون مع نفسك متحرِّيًا للحقِّ طالبًا الصَّواب، وألاَّ تكون ذي هوى لا على هٰذا ولا على ذاك؛ بل نتج من جرَّاء إهمال هٰذه القاعدة أن كان من يتوسَّط فلا يمدح بإطلاق ولا يقدح بإطلاق كان متّهمًا من الفئتين، لا هؤلاء يرضون عنه يعني المادحين ولا القادحين يرضون عنه، وكلٌّ كان مدحه أو قدحه متجاوزًا للحدِّ أو ليس بدقيق في وصف من وصفوه، فيكون فيه نوع خير وفيه غير ذلك، والمؤمن إذا كانت حسناته كثيرة وكانت سيئاته قليلة فإنَّه هو المسدَّد كما قال بعض أهل العلم: إذا زادت حسنات الرَّجل وقلَّت سيئاته فهو العَدْل.

من ذا الذي تُرضى سجاياه كلُّها كفى المرءَ نُبلًا أن تعدَّ معايبه

هٰذا من جهة ما يقوم بقلبك؛ يعني من القدح أو المدح، أمَّا من جهة التَّعامل فقد أوضحنا أنواع التَّعامل في الدَّرس الماضي.

هٰذه نتيجة لعدم رعاية هٰذا الأصل، وهو أنَّ طائفة جعلوا المدح حقًّا جميعًا، وطائفة أخرى جعلت المدح غير حقٍّ والقدح هو الحقُّ، وهٰذا فيه عدم دقَّة وأولئك فيهم عدم دقَّة، والصَّواب أن يُنظر يعني الورع، ويكون المرء في نفسه ما دلَّ عليه الشَّرع، فمن وافق الشَّرع فهو المحمود، ومن خالف الشَّرع فهو المذموم.

ومن قواعد أهل السُّنّة أنَّ المؤمن يجتمع فيه موجب المحبَّة ويجتمع فيه موجب عدم المحبَّة؛ لأنَّه إن أصاب وسدَّد فهو يحبُّ فيما أصاب فيه وسدَّد، وإن ضلَّ أو عصى أو خالف الحق عامدًا عالـمًا بذلك أو عُرِّف به ولم يرجع فإنَّه يجتمع فيه هٰذا وذاك فيكون محبوبًا من جهة غير محبوبٍ من جهة.

والتَّوسُّط هو شعار هٰذه الشَّريعة وشعار هٰذا الدِّين، وهو أنَّ هٰذا الدِّين وسطًا بين الأديان السَّالفة وهٰذه الطَّائفة أهل السُّنّة والجماعة وسطٌ بين الطَّوائف المختلفة.

خاتمة لهٰذا الموضوع

أمثلةٌ لتطبيق بعض القواعد خطأً

بعض القواعد العامَّة نمثل لتطبيقهَا خطأً، وثمَّ عدَّة أمثلة لٰكِـن نذكر منها مثالين:

الأوَّل: قاعدة: الجماعة ما وافق الحقَّ وإنْ كنت وحدك. هٰذه قاعدة عامَّة قالها ابن مسعود رضي الله عنه وأهل العلم تتابعوا عليها.

هٰذه القاعدة منها دُخِل إلى أنَّ المرء إذا تبنّى فكرة أو قولًا واقتنع به فإنَّه ينظر إلى المخالفين الكثير ويقول: أنا على الحقِّ، ودليل ذلك أنَّنا قليل، وأمَّا المخالفون فهم كثرة، ودليل باطلهم أنَّهم كثير، وقد قال ابن مسعود: الجماعة ما وافق الحقَّ وإن كنت وحدك.

لا شكَّ أنَّ العبرة ليست بالكثرة؛ بل العبرة بموافقة الحقِّ، قد تكون موافقة الحقِّ من قلَّة، وقد تكون موافقة الحقِّ من كثرة، ففي أوَّل الإسلام كانت موافقة الحقِّ من قلة، ثم لما انتشر الإسلام كانت موافقة الحق من كثرة.

فإذن ما جاء في النُّصوص في ذمِّ الكثرة ومدح القلَّة كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾[الأنعام:١١٦]، وكقوله: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾ [يوسف]، وكقوله جلّ وعلا: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾[هود]، وغير هٰذا من النُّصوص التي تدلُّ على مدح القلَّة، هٰذا لا يدلُّ على أنَّ القلَّة محمودة دائمًا؛ بل كما قال ابن مسعود في هٰذه القاعدة العظيمة (الجماعة ما وافق الحقّ وإن كنت وحدك) الجماعة العبرة فيها ما وافق الحقَّ، وأي حقٍّ هٰذا؟ هو الحقّ الذي دلَّت عليه القواعد التي استدلَّ عليها أئمَّة الإسلام بالنُّصوص من الكتاب والسُّنّة، هٰذا هو الحقّ، أمَّا مجرّد القلَّة فإنَّه قد يكون المرء انفرد وكان أصحابه قليل ويكونون شُذَّاذًا، وقد يكون في زمن من الأزمة أو في مكان من الأمكنة يكون أهل الحقّ الذين هم على الصَّواب قليلٌ، فلا بدَّ إذن من رعاية القواعد الشَّرعية التي بها نطبِّق هٰذه القاعدة.

مثال ثاني: وأخير للتَّطبيق الخطأ أو لذكر بعض القواعد خطأً القاعدة المستنبطة من قول الله جلّ وعلا: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾[الأنعام:١٥٢]، ومن قوله جلّ وعلا: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾[المائدة:٨]، العدل أمر الله جلّ وعلا به: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[النحل:٩٠]، ويتَّصل بذلك ما جُعلت قاعدة وهي أن السَّلف لا يوازنون بين الحسنات والسَّيِّئات، وأنَّ السَّلف إذا كان عند الرَّجل سيِّئة فإنَّهم لا ينظرون إلى حسناته، وهٰذا التَّقعيد من أنَّ العدل مأمورٌ به، ومطلوبٌ هٰذا أمر معلوم وهو أصل من أصول الدِّين وليس قاعدة فحسب؛ بأصل من أصول الدِّين، والعدل مطلوبٌ في لفظك وفي قولك وفي أقوالك؛ لأنَّ السَّمٰوات والأرضين ما قامت إلاّ بالعدل، والله جلّ وعلا حَكَمٌ عدلٌ لا يرضى بالظُّلم وحرَّم الظُّلم عن نفسه، وجعله بين العباد محرَّمًا، يظلم المرء غيره ويتَّخذ غير سبيل العدل في قوله، في عرضه، في رأيه، له إلى آخر وذلك.

مسألة الموازنة أيضًا بين الحسنات والسَّيِّئات وربطها بالعدل، هٰذا التَّقعيد، وهٰذا الرَّبط ليس بدقيق؛

لأنَّ قاعدة الموازنة بين الحسنات والسَّيِّئات تارة تكون حقًّا وتارة تكون مردودة، فيُرَدّ أن يوازن بين الحسنات والسَّيِّئات في مسائل، ويقبل أن يوازن بين الحسنات والسَّيِّئات في مسائل.

ولهذا من رأى طريقة شيخ الإسلام ابن تيميَّة وجد أنَّه ذكر الحسنات والسَّيِّئات في مسائل معلومة موجودة وفي حكمه على بعض الفئات حتّى بعض المعتزلة وبعض الأشاعرة، ولم يأخذ بهذه القاعدة في مسائل، فجعلها قاعدة مطَّردة هو مما افتقر إلى تنظير وتأصيل متَّبعًا في طريقة السَّلف الصَّالح وكان فيها نوعُ عدم استقراءٍ كامل لذلك فحصل منها الخلل.

نعم لا يوازن بين الحسنات والسَّيِّئات إذا كان المقام قام ردٍّ على المخالف، مقام ردٍّ على مبتدع، مقام ردٍّ على ضالٍّ؛ لأنَّك إذا ذكرت حسنات ذلك المردود عليه أو ذلك الضَّال أو ذلك المبتدع أو ذلك الظَّالم ذكرت حسناته في مقام الرَّدّ عليه فإنَّك تغري به، وفي هٰذا المقام إنَّما يذكر ما عنده من الأخطاء أو السَّيِّئات ويرد عليه فيها؛ لأنّ القصد نصيحة الأمَّة وذكر الحسنات في هٰذا المقام إغراءٌ به.

وفي المقابل أو في الحالة الأخرى أنَّ الحسنات والسَّيِّئات تُذكر إذا كان المقصود تقييم الحالة، المقصود تقييم الشَّخص، المقصود تقييم المؤلَّف، المقصود تقييم الكتاب، المقصود تقييم فئة.. إلى آخر ذلك.

فالأخذ بهذا والتَّقعيد له عامَّة، ونسبة ذلك إلى السَّلف بإطلاق ليس بدقيق، لا في هٰذه الجهة ولا في تلك الجهة، وتحتاج المسألة هٰذه وغيرها من المسائل التي يقعّد منها أن تُعرض على أهل العلم كغيرها من التَّقعيدات الحاضرة؛ لأني ذكرتُ لكم في المقدِّمة أنَّ التَّقعيد لا بدَّ أن يكون من الرَّاسخين في العلم حتَّى لا يحصل خلل في الأمَّة خللٌ في الفهم أو خللٌ في التَّصوُّرات.

هٰذا، وأسأل الله وجلَّ وعلا أن ينفعني وإيَّاكم بما ذكرنا، وأن يغفر لي زللي وخطئي وخطلي، وكلُّ ذلك عندي، وأسأل الله لي ولكم التَّوفيق والسَّداد والهداية، وأن يجعلنا من المتَّبعين لسلفنا الصَّالح المبتعدين عن طرق أهل الضَّلال والخلاف، وصلى الله وسلم وبارك على نبيِّنا محمَّد.

[أسئلة والجواب عنها] هذه بعض الأسئلة:

سؤال (١): هل خلاصة القول أن تُقدَّم دراسة القواعد والأصول الفقهية على دراسة الفقه كما هو الحاصل في غالب من يطلب العلم؟

الجواب: إنّ دراسة الفقه والتَّوحيد بهما ينجو المرء، أمَّا دراسة القواعد فإنَّما يحتاج إليها المجتهد، والقواعد كما ذكرنا منها قواعد عامَّة، وقواعد خاصة في الفقهيات، وهٰذه صَنعة المجتهدين أو صنعة طلبة العلم المتقدِّمين، وهناك قواعد عامَّة تضبط السُّلوك، تضبط التَّعاملات، تضبط التَّعامل مع أهل العلم، تضبط القراءة إلى آخر ذلك.

فهٰذا هو الذي يَحسن بطالب العلم أن يتتبَّعها لأنَّها تضبط عقله وتصرفاته من أوَّل طريقه في طلب العلم، أمَّا العلم النَّافع كما قال ابن القيم:

والعلم أقسام ثلاثٌ ما لها	من رابع والحقُّ ذو تبيانِ
علم بأوصاف الإله ونعته	وكذلك الأسماء للدَّيانِ
والأمر والنَّهي الذي هو دينه	وجزاؤه يوم المعاد الثَّاني

فالعلم النَّافع التَّوحيد والفقه؛ يعني الحلال والحرام وعلم الجزاء وما يحصل يوم القيامة، هٰذه هي العلوم النَّافعة.

فتركيز طلَّاب العلم على الفقه والتَّوحيد هٰذا لا شك أنَّه هو الذي به تصحُّ قلوبهم وتصحُّ عباداتهم.

سؤال (٢): أنا شابٌّ وعندي همَّة ورغبة في طلب العلم، ولكن لا أعلم ما هي الطَّريقة الصَّحيحة التي يسير عليها الإنسان إذا أراد طلب العلم، أرجو منك توضيح ذلك لي ولغيري... إلى آخره؟

الجواب: طلب العلم من الأمور المهمَّة؛ لأنَّه يحصل به المرء على فضيلة العلماء وإنَّ العالم ليستغفر له كلُّ شيء حتَّى الحيتان في جوف الماء، وهٰذه فضيلة لأهل العلم ولطلبة العلم، «**وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًى بِمَا يَصْنَعُ**»، كما جاء ذلك في الحديث الصَّحيح عن النَّبيِّ ﷺ.

طريقة طلب العلم تحتاج إلى تطويل وإلى كلام مفصَّل؛ لكن ثَم كلمة سبق أن ألقيتها بعنوان «المنهجية في طلب العلم»، وهي موجودة مسجَّلة، وحبَّذا إن شاء السَّائل أن يراجعها أو يراجع غيرها من الكلمات التي فيها بيان الطَّريقة المرحلية لطلب العلم وتأصيل الطالب.

سؤال (٣): من خلال الحديث في الدَّرس السَّابق عن معاملة الوالدين، فهناك مشكلة تواجهني وهو عندما تحصل مناسبة زواج لأحد الأقارب يكون في هٰذه المناسبة بعض المنكرات الظَّاهرة كالغناء والرَّقص ولبس القصير وغيرها من الأمور الأخرى، فاضطررت من منع زوجتي من الحضور إلَّا أنَّ والدتي أقامت الدُّنيا ولم تقعدها؛ لماذا تمنع زوجتك من ذلك؟ فأوضحتُ لها، ولكنها لم تقتنع بذلك، وعللتْ بأنّ النَّاس جميعهم يفعلون ذلك.

سؤالي: هل عملي هٰذا صوابٌ أولا، وكيف أعمل مع والدتي، وما الأساليب المناسبة في ذلك؟

الجواب: إذا كان حضور مثل هٰذه الدَّعوات؛ الدَّعوات الواجبة التي هي وليمة العرس، إذا كان حضورها فيه منكرات إذا كان حضورها فيه فعل العبد بعض المنكرات كسماعه للغناء أو رؤيته لبعض المنكرات ولا يستطيع إنكارها، فيجمع بين الأمرين بأن يحضر ثم ينصرف، وهٰذا الذي كان يعمله الإمام أحمد ويعمله غيره من السَّلف؛ في أنَّهم إذا دُعُوا إلى دعوة واجبة حضروا وإذا رأوا منكرًا أنكروا وانصرفوا، فهذا يكون فيه إجابة الدَّعوة الواجبة، ويكون فيه أيضًا إنكارًا للمنكر ثم انصراف ويكون معذورًا.

وحقُّ الوالدة لاشكَّ أنَّه عظيمٌ وتجب طاعة الوالدين في غير معصية الله تعالى، فالذي ينبغي على هٰذا السَّائل أن يقنع والدته وأن يجعل زوجته ووالدته في أحسن تعامل، وأن يحيل أمر المنع إليه لا إلى زوجته لأجل أن يحصل الائتلاف؛ لأنّه غالبًا الوالدة لا تغضب على ولدها أو لا تقاطع ولدها، وأمَّا زوجة الولد فإنَّه كثيرًا ما تحصل بينها وبين أم الزَّوج كثيرًا من الخلافات، فيُرجع المنع إليه ويقول: ستذهب إذا رأت منكرًا فإنَّها تتَّصل بي وآتي لآخذها من هٰذا المكان، يكون فيه جمع بين ما أمر به شرعًا وترك ما حظر شرعًا.

سؤال (٤): ذكرتَ أنَّ الذي يحكم في النَّوازل لابد أن يكون مُلمًّا بالفقه بأكمله من أوله إلى آخر بسبب ارتباط بعضه ببعض، مع أنَّنا نجد بعض الأبواب لا ارتباط لها البتة بأبواب أخرى، وقد ذكرت بعض المحقِّقين من الأصوليِّين أنَّ الاجتهاد يتجزَّأ، فيكون مجتهدًا في باب دون باب آخر وهكذا، وقد ورد عن بعض الأئمَّة الذي لا يشكُّ أحدٌ في إمامتهم واجتهادهم أنَّهم سئلوا عن بعض المسائل فقالوا: لا ندري، كما

ورد عن مالكٍ وغيره، فكيف نوفِّق بين هذا وبين ما ذكرت؟

الجواب: هٰذا السُّؤال كنت مستحضرًا له حين كلامي عن المسألة، ولهذا قيَّدت ارتباط الفقه بعضه ببعض بالإفتاء في النَّوازل، أمَّا في غير النَّوازل؛ يعني فيما يعرض كثيرًا ويتردَّد فيكون من أحوال النَّاس المعتادة فهذا كما قيل: الاجتهاد يتجزأ؛ يعني من ضبط أبواب الطَّهارة فإنَّه يجيب عن مسائل الطَّهارة، أو من ضبط أحكام النِّكاح والطَّلاق والعدد والنَّفقات إلى آخره يتكلَّم في الأحوال الشَّخصية وأحوال البيوت، ومن ضبط مسائل البيوع يتكلَّم في البيوع؛ لكن إذا كانت المسألة نازلة بالأُمّة كالنَّوازل التي يحصل معها تغير من الأحوال وتقلُّب في الآراء يتوقَّع معها تفرُّق النَّاس فإنّ الذي يحكم في هٰذه النَّوازل خاصَّة إذا كان فيها حكم على فئة أو حكم على طائفة أو فيها إقرارُ شيءٍ أو منع شيءٍ أو نحو ذلك -النَّوازل العظيمة- هٰذه متعلِّقة بأهل العلم الرَّاسخين فيه المجتهدين الذين استحضروا الفقه وربطوا بعضه ببعض واستحضروا القواعد والأصول العقدية وما قاله الأئمَّة.

فكلامي ليس معارضًا لما هو متقرِّرٌ عند الأصوليِّين وهو صواب، وهو أنَّ الاجتهاد يتجزَّأ وأنَّ المرء يمكن أن يجتهد في مسألة في باب من الأبواب، ولا يجتهد في الباب الآخر لضبطه هٰذا الباب؛ لكن المسائل النَّازلة التي تتعلق بالأمَّة، فكما قيل عن عمر ﷺ: كانت تنزل به النازلة فيجمع لها أهل بدر.

سؤال (٥): كيف يجمع المرء بين طلب العلم والأهل من ناحية الوقت، وأيُّهما أولى في ذلك؟

الجواب: لا شكَّ أنَّ الواجب مقدَّمٌ على النَّفل، بعض العلم واجب فرض عين عن ما تصحح به عقيدتك وهو أجوبة الأسئلة الثَّلاثة -ثلاثة الأصول- من ربُّك؟ ما دينك؟ من نبيُّك؟ تعلم ذلك بأدلَّته هٰذا فرض عين على كلِّ مسلم، لابد أن يتعلّمه ولو فرّط في بعض حقوق الأهل.

كذلك في الفقه ما تصحُّ به عباداتك، ما تصحُّ به صلاتك، إذا كان صاحب مالٍ كيف يزكِّي والنِّصاب إلى غير ذلك، هٰذا واجبٌ تعلّمه.

فإذا كان العلم واجبًا فهو مقدَّمٌ على النَّفل، أمَّا إذا كان العلم نفلًا وكان هناك واجبات معارضة للنَّفل فإنَّه يقدِّم الواجب مثل حقّ والديه ومثل حق أهله وزوجته وأولاده، فإنَّه لا يفرِّط في هٰذا الحقِّ الواجب لأجل تحصيل نفل من النَّوافل.

النَّاس مختلفون منهم المشغول، ومنهم الذي يعتمد عليه أهله، ومنهم من يكون الاعتماد عليه متوسِّطًا؛ يختلفون، والواجب أن يقدِّم المرء الواجبات، والنَّوافل هي تلوى الواجبات، وما تقرَّب أحد إلى الله جلَّ وعلا بشيءٍ هو أحبّ إليه مما افترضه الله سبحانه وتعالى كما جاء في الحديث الصحيح «**ما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبّ إليَّ ممَّا افتَرَضْته عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتى أُحبَّه**» يعني بعد الواجبات، فلابد -من المهمَّات- أن تقدِّم الواجبات على النَّوافل، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**إنّ لأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقّا، إنّ لِنَفسِكَ عَلَيْكَ حَقّا، وَلِرَبّكَ عَلَيْكَ حَقًّا أَعْطِ كُلّ ذِي حَقٍّ حَقّهُ**»، فالواجبات كثيرة تؤدِّي الواجبات، والنَّوافل تقدّم عليها الواجبات، ولا يُفقه تطبيق ذلك إلَّا بالمِران وتقديم واجبات الشَّرع على ملذَّات النَّفس.

أبعد من ذلك بعض النَّاس يذهب إلى نوافل ليس إلى واجبات؛ بل إلى مباحات ويفرِّط في واجبات،

يذهب في سهر متنوِّع ويترك أهله، يترك واجباتٍ مطلوب منه أن يفعل كذا، والده كبيرٌ في السِّنِّ يتكلَّف لو فعل الفعل وذاك يذهب للقيل والقال أو فيما يؤنس نفسه، ليس في فعله لا آتٍ بفرض ولا نفل ومع ذلك يفرِّط بواجبات.

لاشك أنَّ كثيرًا من مشاكل النَّاس ومخالفاتهم للشَّرع كثير من المشاكل والشَّكوى التي تحصل من الأهالي على الأبناء، من الآباء على الأبناء، ومن الزَّوجة على الزَّوج، ومن الزَّوج على زوجته هو من الإخلال بأداء الواجبات وتقديم الواجب على المستحبِّ فضلًا عن المباح.

سؤال (٦ والأخير): كيف يُجمع بين قول النَّبيِّ ﷺ: «**يَئِسَ الشَّيْطانُ أنْ يَعْبُدَهُ المسلمونَ، وَلَكِنْ في التَّحْرِيش بَيْنَهُمْ**» مع أنَّه قد حصل الشِّرك في هٰذه الجزيرة والشِّرك اتِّباع للشَّيطان، أفتونا جزاكم الله خيرا.

الجواب: أنَّ هٰذا الحديث رواه مسلم في «الصَّحيح»: «**إِنّ الشّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**» خلاصة جواب أهل العلم أنَّه أيس لم يؤيَّس، أيس هو لما رأى انتشار الإسلام وقوة الإسلام وأهل الإسلام، أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، لكن لم يُؤيِّسه الله جل وعلا من ذلك، فيأسه من عبادة المصلين له في جزيرة العرب لما شاهده من قوَّة الإسلام وقبول النَّاس للحق، والله جلَّ وعلا لم يؤيِّسه، ولهذا لما وجد له كرَّة أخرى نشط وعاد للدَّعوة إلى الشِّرك وتحبيب عبادة غير الله للنَّاس، فحصل رجوع النَّاس لعبادة غير الله، والشَّيطان فرح بذلك لأنَّه أيس أوَّل مرَّة؛ ولكنه لم ييأس بعد ذلك، فقد قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**إِنّ الشّيْطَانَ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ** – في لفظ: **أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ**– **الْمُصَلّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**»، قال بعض أهل العلم في قوله: «**الْمُصَلّونَ**» تنبيه إلى أنَّه الذي لا يضره الشَّيطان الذي يوصف بأنَّه من المصلِّين الذين قال جلَّ وعلا فيهم: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾[المعارج]. ولتمام البحث في ذلك موضع آخر إن شاء الله تعالى.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمَّد.

محاضرات (.../ ...)

كيف بدَأ الكتابُ

لفضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

الشَّيخُ لم يراجع التَّفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم، وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.
أما بعد ..

فإني أحمد الله تعالىٰ أن هيأ لنا أسباب الخير، وأعاننا علىٰ سلوكها، والالتزام ها.

ثم أحمده سبحانه علىٰ أن حصل هٰذا الجمع الطيب في هٰذا المهرجان الذي يُشكر من تفاعل معه؛ لأجل أهمية القراءة وضرورتها للإنسان بعامة وللمسلم بخاصة.

ولا غرو فإن أول ما أنزل من القرآن الكريم ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ الآيات، لهٰذا فإني أجدني مقودا إلىٰ مثل هٰذا اللقاء، ومثل هٰذه المحاضرة لأسباب عدَّة:

الأول منها أن التكامل والتعاون واجبٌ من واجبات الشريعة، الله جل وعلا قال لعباده: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾[المائدة:٢]. ولا يعلم المسلم أين الخير الكامل فيما يتعاون فيه مع إخوانه، ولذلك كان التعاون مطلوبًا بغضِّ النظر عن ما يقدِّره الإنسان من قوة هٰذا الموضوع أو من أثره، فإن الأثر بيد الله تعالىٰ.

ولذلك فإن الحرص علىٰ التعاون فيما ينفع الإنسان المسلم هٰذا مطلبٌ، فإذا تعاونا جميعا علىٰ تعليمه وتثقيفه وإدراكه للعلوم الإلهية، ثم للعلوم الدُّنيوية النافعة، فإنَّ في هٰذا تعاونا علىٰ البر والتقوىٰ.

السبب الثاني أن الحرص علىٰ الكتاب حرص علىٰ العلم لأن العلم النافع بل كل أنواع العلوم إنما تأتي من جهة القراءة، والإعلام هو فرع عما يُقرأ:

أولا يكتب، ثم يقرأ، ثم يصاغ مرئيا أو مسموعا.. إلىٰ آخره.

فالقراءة والكتاب ضرورة واليوم يلحظ عزوف عن الكتاب وعن القراءة وعن التفاعل مع الكتاب، ومعنىٰ ذلك أن هٰذا عزوف عن العلم النافع، وعزوف عن الثقافة النافعة، وعزوف عن إدارة الإنسان لنفسه، فإن إدارة الذات أيضا مطلوبة، ومن معالم إدارة الذات أن يحرص علىٰ تعليم الإنسان نفسه، وعلىٰ تثقيفها، وطريق ذلك القراءة، ونجد أن القراءة اليوم قد تكون للجرائد والمجلات بصفحات كثيرة، قد يرىٰ المرء كتابا ويقول: كيف أقرأ كتبا مائة صفحة بينما هو في تصفحه للجرائد والمجلات يجد أنه يقرأ خمسين صفحة أو أكثر؛ ولٰكن ما نوع القراءة وما طريقتها.

واليوم هناك علوم تقول إن القراءة تكون قراءة سريعة، كما أنها تكون قراءة متأنية، فهناك موضوعات حتىٰ في الكتب تقرأ سريعا ولا يلزم أن تقرأ الكتاب كله.

السبب الثالث أن بيني وبين الكتاب عِشْقًا ومحبة طويلة الأمد منذ كنت صغيرًا، وحرصت علىٰ الكتب، وأحببت الكتاب؛ حتىٰ إنه في مكان نومي لابد أن يوجد مجموعة كبيرة من الكتب، ولو لم أقرأ بس فقط لأنظر إليها، هٰذا يعرفه الذي يهوىٰ شيئا ما، ويولع به؛ فإنه يجد أن بينه وبينه محبة وصلة

وتواصل يجعله لا يكاد يرضىٰ بمفارقته، والكتاب عنصرٌ من العناصر المهمة في الحياة في تقويم الإنسان نفسه، وبازدياد معارفه، وفي صلته بربه جل وعلا.

السبب الأخير أن أعظم الكتب الأخير مكانا لكنه الأول منزلة أن أعظم الكتب هو القرآن الكريم، ومن عزف عن قراءة الكتب فقد يعزف عن قراءة القرآن العظيم، ومن أحب قراءة القرآن فإنه يحب القراءة، والأمر مرتبط بشيء ما بين هٰذا وهٰذا .

لذلك أحببت أن أشارككم وأشارك المنظمين لهٰذا المهرجان، ولهٰذا التفاعل الثقافي في هٰذا المجمع المبارك إن شاء الله تعالىٰ أن أشارككم في هٰذا الموضوع إحساسا مني بالواجب ثم صلة علمية بيننا فيما نحب أن تكون فيه الصلة.

الموضوع عن الكتاب، والكتاب من حيث هو سُمِّي كتابا؛ لأنه جُمعت فيه الصحف أو الكلمات؛ إما أن يكون جمع الكلمات فيسمىٰ كتاب، وإما أن تكون جمع لأوراق وصحف فيسمىٰ كتابا؛ لأن مادة كتاب بمعنىٰ مجموع، فكلمة كتب يعني جمع، والكتيبة سميت كتيبة لأنها تجمع الناس الكثير، والكاتب سمي كاتبا لأنه يجمع الكلمات والحروف وينظمها في سلك واحد، والكتاب أيضا سمي بذلك لأنه يجمع الكلمات ويجمع الصحف.

لهٰذا قبل أن يجمع القرآن في مصحف واحد سمّاه الله جل وعلا كتابا، فقال جل وعال في فاتحة سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة، وإشارة باللام التي تدل علىٰ البعد هٰذا ذا هٰذا إشارة اسم الإشارة، واللام تدل علىٰ البعد، والبعد هنا بعد حسي وبعد معنوي:

أما البعد الحسي فهو أنه إشارة إلىٰ أن القرآن سيجمع في كتاب بعد حين، وكما هو معلوم أن الذي جمع القرآن بعد وفاة النبي هو أبو بكر الصديق –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–، ثم جمع الجمع الكبير في عهد عثمان –رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أجمعين–.

وأما البعد المعنوي فإن الإشارة في الشيء باللام التي تدلُّ علىٰ البعد المعنوي تدل علىٰ رفعة المنزلة وعلو الشأن وعظم المكانة.

وهٰذا وهٰذا هو في القرآن العظيم، ولذلك القرآن يسمىٰ كتابا باعتبار كتابته، ويسمىٰ قرآنا باعتبار أنه يتعبد بقراءته، ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١﴾[الحجر]، هناك بعض الباحثين المعاصرين كتب في أن القرآن غير الكتاب، وقال: إن الكتاب والقرآن غاير الله بينهما في قوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ فمعناه أن الكتاب شيء والقرآن شيء آخر، ولٰكن هٰذا غلط من جهة اللغة، ومن جهة الحقيقة الشرعية؛ لأن القرآن هو الكتاب، فإذا نظر إلىٰ كونه مقروءًا متعبدا بقراءته وتلاوته فيسمىٰ قرآنا، وإذا نظر إلىٰ كونه مجموع الأوراق فيسمىٰ كتابا، وإذا نظر في أنه من صحف يسمىٰ مصحفا..، وتعدد الأسماء تدل علىٰ شرف المسمىٰ وعلىٰ علو صفاته وتنوعها.

العرب لم يكونوا يعرفون الكتاب من حيث هو مجموع فيه موضوعات، وإنما ابتدأت معرفتهم بالكتاب بالقرآن العظيم، ولذلك كانت سمة القرن الأول الهجري أن الكتابات التي يكتبها الناس تكون

في ورق، أو في صحف؛ في جلد.. أو ما أشبه ذلك، أو في عظام؛ يجمعونها في عظام الإبل إذا وكلت العظم يغسلونها وتكون بيضاء ويكتبون فيها ثم تجمع.

في عهد النبي ﷺ كان إذا نزل شيء من القرآن قال: اكتبوه، فيكتب بعضه في جلد وبعضه في عظام وبعظه في كذا وجمعت في صندوق يسمىٰ صندوق المصحف عند عمود في المسجد النبوي معروف إلىٰ الآن يقال له في ذلك الوقت: اسطوانة المصحف.

ثم لما جاء في عهد أبي بكر الصديق جمعت ورتبت كما هو معلوم بحسب العرضة الأخيرة التي عرض فيها النبي ﷺ القرآن علىٰ جبريل عليهم السلام في السنة الأخيرة قبل وفاته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

ابتدأ العلم بالصحف والكتابة وكيف تكتب، فكتبت أحاديث النبي ﷺ ثم كتبت بعض الخطب، ثم كتبت بعض الأوامر الأميرية من أمير المؤمنين أو من الخلفاء والرسائل وإلىٰ آخره جمعت إلىٰ أن وصل إلىٰ نهاية القرن الأول فأمر عمر بن عبد العزيز بجمع السنة، وأمر بذلك محمد بن شهاب الزهري عالم السنة المعروف فجمع كثيرا من السنة من الناس -من الصحابة والتابعين الذين نقلوا عن الصحابة- وكتب ذلك في صحف.

وابتدأت حركة تدوين العلم المتصل بالقرآن، أو المتصل بالسنة، في كتب، في صحف تجمع.

ثم تنوعت في القرن الثاني الهجري اهتمامات العلماء فمنهم من يهتم باللغة العربية، ومنهم من يهتم بالتاريخ، ومنهم من يهتم بالسيرة، ومنهم من يهتم بكذا وكذا، فأصبح كل واحد من أهل العلم يكتب ما اهتم به في مؤلف وبدأ اسم الكتاب يظهر، ولذلك الكتب باسم كتاب كتاب فلان وكتاب فلان وكتاب فلان هٰذه لم تظهر بصفتها المعروفة إلا في القرن الثاني الهجري، وإنما القرن الأول كانت صحف مجموعة في موضوع واحد مثل «مغازي عروة بن الزبير» ومثل «تفسير ابن عباس» في بعض من نقل عنه وكتبه مثل عكرمة وغيره وأشباه ذلك.

وفي القرن الثاني تعددت فكتب في التفسير، وكتب في الحديث، والسنة وكتب في اللغة العربية بأنواعها وكتب كثيرة في ذلك.

ثم صارت القرآن الثالث توسعت. ثم انتشر جدا حتىٰ أصبح في القرن الثاني هناك الآلاف من الكتب في المكتبة الإسلامية في بغداد عند هارون الرشيد رحمه الله تعالىٰ.

هٰذا يعطيك الحركة السريعة خلال قرنين من الزمان بدايةً من أنه لا يوجد كتاب في الأمة إلىٰ أن توجد كتب بالآلاف في نهاية القرن الثاني الهجري، وهٰذه الكتب ليست من غيرنا إنما هي كتب أنشئت من الأمة، بخلاف ما ترجم من اليونان وأمر هارون الرشيد بترجمته فإنه لا يدخل في ذلك، فالكتب التي ألفت كثيرة جدا، ومن اطلع علىٰ كتاب «الفهرس» لابن النديم المتوفىٰ في أواسط القرن الرابع الهجري فإنه يجد المئات من أسماء الكتب، من اطلع علىٰ تراجم أهل العلم فإنه يجد أنه وكتب ويذكرون لكل عالم عشرات من الكتب في جميع الفنون.

كان هناك مما أثر في حركة الكتاب وتاريخ الكتاب في الأمة العربية: التنافس الموجود، فكان هناك أنواع من التنافس:

التنافس الأول تنافس في علوم القرآن الكريم القراءة والقراءات، كان هناك القراءة البصرية والقراءة الكوفية، وهناك القراءة المكية والمدنية والشامية إلىٰ آخره، ابن عامر يقرأ في الشام وألفت كتب فيما يتعلق بقراءاته لرصدها، وكذلك غيره، ثم جمعت هٰذه في قراءات متنوعة في كتب.

كذلك في تفسير تلك القراءات ألف عدد في التفسير في هٰذا، وتنوعت الكتب في ذلك السبيل.

التنافس بين المدارس المختلفة كان له الأثر في مد تأليف الكتاب وأيضا في صناعته، فالصراع ما بين الكوفيين والبصريين في النحو جعل كل منهم يؤلف في تفسير القرآن وفي اللغة العربية في النحو وفي العلل وغير ذلك.

كذلك في المذاهب مذهب أهل الرأي ومذهب أهل الحديث والردود بينهما؛ إذا نظرت إلىٰ الردود التي حصلت في وسط القرن الثاني ما بين أهل الرأي وأهل الحديث، ما بين ربيعة الرأي في المدينة مع الإمام مالك بن أنس الإمام المحدث المعروف، وكذلك ما بين محمد بن الحسن وما بين أهل الحديث الردود كثيرة جدا بين ابن أبي شيبة وأبي حنيفة وأشباه ذلك من الردود.

حركة الردود الفقهية كانت من ثمراتها أنها تدوّن في كتب فنشط الكتاب بسبب أيضا هٰذا التنافس بين الفقهاء.

كذلك هناك التنافس بين أصحاب العلوم النظرية مثل علوم الهندسة والجبر والمقابلة والجغرافيا وعلم الحيوان، إلىٰ آخره، فمن أراد أن يكتب في شيء غريب ليشتهر به ولينفع به كتب في مثل هٰذه العلوم إذا كان يجيدها، فلا تكاد تجد في نهاية القرن الثالث الهجري من عنده علم إلا ويدونه في كتاب.

في نهاية القرن الثالث الهجري لا تكاد تجد أحد لم يكتب كتابا وهو من أهل العلم؛ بل الكل كتب كتابا إما جزء صغير وإما الكثير.

الكتب الكبار التي هي مجلدات بدأ ظهورها في أواخر القرن الثاني الهجري كما صنف الإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني كتابه المصنف وهو موجود أحد عشر مجلدا، ثم تعددت الكتب ذات المجلدات الكثيرة، فالكتب ذات المجلدات الكبيرة في نهاية القرن الثاني الهجري، ثم مشت وأكثرها ما يتعلق بالقرآن وبالسنة أو في اللغة العربية كـ«العين» الخليل بن أحمد الفراهيدي وغير ذلك، فكثرت الكتب المتعلقة بهذا.

في نهاية القرن الثالث الهجري أصبحت الكتب توجد ليست بالمجلدات فقط بل بعشرات المجلدات، والقصة المعروفة أن ابن جرير الطبري لما أراد كتابة التاريخ، ابن جرير توفي تقريبا سنة ٣١٠هـ وعاش ٨٦ تقريبا عاشها للعلم والكتابة، حتىٰ إنه كما ذكر ياقوت في «معجم الأدباء» أحصي له أنه في كل يوم من عمره يكتب أربعين ورقة؛ يعني قصموا ما تركه من مؤلفات علىٰ عدد أيان عمره فوجدوا أنه يكتب أربعين صفحة يوميا، وهٰذا لا شك أنه عمل كبير، ابتدأت المؤلفات الكبيرة ابن جرير

في قصته المعرفة لما قال لطلابه أتنشطون لتاريخ العالم؟ ما كانوا يعتادون منه أن يقول لهم: أتنشطون؟ معناه المسألة فيها صعوبة سألوه قالوا: قد كم؟ حتىٰ لا يصيب الطلاب الطلاب ملل، قال: قدر ثلاثين ألف صفحة تاريخ العالم منذ خلق الله العالم يعني آدم إلىٰ وقته هو، قال: قدر ثلاثين ألف صفحة، قالوا: هٰذا مما تفنىٰ فيه الأعمار، قال: الله المستعان ماتت الهمم. فاختصره لهم في ثلاثة آلاف ورقة وهو الموجود عندنا تاريخ الطبري في ١٠ مجلدات أو أحد عشر مجلدا، وكذلك قال: مثل هٰذا أو قريب منه في تفسير القرآن .

بعد هٰذا صار هناك نشاط في التأليف في المجلدات الكبيرة.

نُقلة أخرىٰ..

كان العلماء يحرصون علىٰ اقتناء أكثر من نسخة من الكتاب والواحد الكتاب لم يكن يكتفي العالم بنسخة واحدة من الكتاب أنا حصّلت كتاب «العين» للخليل أحمد بنسخة واحدة، كان الأكثر يأخذ أكثر من نسخة -نسختين أو ثلاثة- لأن الكتب كانت بالخط ومعلوم أن الخط يعتريه النقص ويعتريه الغلط، وهٰذه أمور دقيقة أمور في الشريعة وأمور في اللغة فلابد من ضبطها، فكان العالم يحرص لسلامة علمه أن يقرأ من أكثر من نسخة ويقابل النسخ بعضها علىٰ بعض، فيأخذ نسخة قرئت علىٰ فلان من العلماء، ويأخذ نسخة ثانية قرئت علىٰ فلان من العلماء حتىٰ يجمع بينها، إذا جاء مشكل رجع للنسخة الثانية فيصحح بعض النسخ في بعض، طبعا لما ظهرت الطباعة النسخة واحدة، الآن مع أنه يحصل غلط في المطابع لٰكِن النسخة واحدة يطبع منها عشرة آلاف عشرين ألف مائة ألف نسخة، سابقا لا؛ الكاتب يكتب سنة كاملة في كتاب أو أشهر هو نسخة واحدة مخطوطة، إذا أراد أن ينقله مرة ثانية ويكتبه مرة ثانية قد يصيبه غلط في عينه في كتابته في قراءته، فكانوا يحرصون علىٰ أن يجمعوا أكثر من نسخة.

وكما قال الجاحظ فيما هو مذكور في كتابه «الحيوان» قال: لم تكن نفسي تطيب حتىٰ أقتني من كل كتاب ثلاث نسخ. يريد أن يكون دقيقا فيما يتلقىٰ ودقيقا في العلم.

وهٰذا يعطينا درس في هٰذا الزمن؛ حرص الأولين علىٰ الدقة في التلقي، ليس المسألة مسألة كثرة قراءة بقدر ما هي دقة ما تحصل عليه، فإذن هنا لابد من الاستفادة من مدرسة السابقين في أن العلم لابد له من دقة فيما تحصِّل من النسخ كما سيأتي إن شاء الله في آخر الكلام في المطبوع.

أيضا المخطوطات كانت تختلف من حيث الخط، والمخطوطات تختلف اختلافات عديدة وقيمها قيمتها المادية تختلف أيضا بحسب المحتوىٰ، من أي جهة من جهة أولا الكاتب، المخطوط يكتب لٰكِن من الذي كتبه، الناسخ من الذي نسخ هٰذا الكتاب، الناسخ قد يكون تاجرا ينسخ ويبيع بسرعة، فهٰذا يكثر فيه الغلط، وقد يكون مدقق.

ولذلك المخطوطات تختلف بحسب من نسخها، فإذا كان المخطوط بخط مؤلفه تلك الغاية، وخط المؤلف ينقسم إلىٰ قسمين: مسودة ومبيضة، المسودة هي التي يشطب عليها يكتب يكتب، ثم بعد ذلك يشطب سطر يشطب موضوع يضيف يحشي عليها في الهوامش، ثم مبيضة. المبيضة هٰذه هي الصورة

النهائية لها بعد المراجعة، وهي التي يأذن العلم بقراءتها عليها ثم تنسخ في مخطوطات متعددة.

فإذن أول ما يتعلق بتاريخ الكتاب نسخ الكتاب المخطوط، كما ذكرت لك لابد معرفة من الناسخ، هل هو ممن ينسخ كثيرا، أو من المتأنين في النسخ، هل المؤلف نفسه، أم من تلامذة المؤلف أم من غير ذلك.

وأقدم نسخة موجودة الآن من كتب الأئمة هي نسخة كتاب «الرسالة» للإمام الشافعي بخط تلميذه الربيع بن سليمان كتبها نحو سنة ٢٥٠ للهجرة، وهي محفوظة في أحد المكاتب في مصر، وعنها طبع الشيخ أحمد محمد أحمد شاكر «الرسالة»، لكنها موجودة بخط الربيع عن الإمام الشافعي وهو تلميذه، فهٰذه غاية، إذا وجد مثل هٰذا فهو من أنفس ما يكون. أعلىٰ منه كتاب الإمام نفسه أو العالم نفسه لٰكِن هٰذا لا يوجد في مثل تلك القرون السابقة.

النظر الثالث المهم أن يكون الكتاب مقابل، وبعض الكتب تجد أنه يكتب في آخره: (بلغ مقابلة علىٰ أصل سليم) أو يكتب: (بلغ مقابلة) فقط، وتارة يقول: (بلغ قراءة علىٰ مؤلفه)، ومرة يقول: (تم بقراءة المؤلف وهٰذه إجازته) يكتب تحت (إجازة المؤلف لمن قرأ هٰذا الكتاب) هذ ا الكتاب يكون الغاية، ولذلك الذين يحققون الكتب يطلعون علىٰ الكتب السليمة إذا وجدت مثل هٰذه النسخ فهي تسمىٰ الأم؛ يعني النسخة الأم التي هي المرجع لأجل قوتها وسلامتها.

هناك أنواع من التحسينات علىٰ الكتب، تعلمون أن أول ما بدأ الكتاب تاريخ الإسلامي لم يكن منقوطا، إنما كان الكتاب في غير نقط وبغير تشكيل؛ ليس عليه نقط ولا عليه أيضا تشكيل، فيقرأ القارئ الكتاب بحسب قدرته علىٰ القراءة، ولذلك صار هناك تصحيف كثير في القراءة، وبعضهم يقرأ من كتاب غير منقوط، غير مشكل، هو معلوماته قليلة فيخطئ في القراءة، فيحفظ خطأ فينقل خطأ إلىٰ آخره، وهٰذه كثرت في القرآن الخطأ، وفي الشعر؛ لٰكِن القرآن عولج بحفظه ونقله بالتواتر علىٰ حسب القراءات السبع أو العشر أو الأربع العشر قراءة المعروفة، وحفظت بالتواتر حتىٰ لا يكاد أحد يخطئ في القرآن إلا ويرد الخطأ عليه لأنه محفوظ كما أخبر الله جل وعلا بأنه هو الحافظ له ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الحجر]، حتىٰ قال بعض أهل العلم: لو أخطأ أحد في القرآن لغلطته الصبيان. يعني صبيان المسلمين لأنه محفوظ.

وقال آخر: لا تأخذ العلم من صَحفي ، يعني الذي أخذ علمه بالقراءة فقط ما اتصل بالعلماء ولا لازم أهل العلم، ولم يعرف بصلته بأهل العلم؛ لأنه لابد في القراءة توجد إشكالات، أشياء ما فهمها، فمن المعلم إذا لم يكن من علمه فلابد هناك من يبين له الكتاب.

ولذلك قال الشاطي في أول «الموافقات» كان العلم في صدور الرجال فأصبح في بطون الكتب بقيت مفاتيحه بأيدي الرجال. وهٰذا صحيح يقول هنا لا تأخذ العلم من صحفي يعني ممن قرأ في الصحف، ولا العلم من القرآن من مصحفي، واحد تقرأ عليه القرآن، تقول: أنت أخذت القرآن من أين؟ يقول: حفظته من نفسي لا تأخذ عليه من نفسي، قرأته حفظت عليه فلان في الحلقة، علىٰ شيخ، وإذا كان معاه

إجازة أفضل؛ يعني مأمون القراءة، لذلك ألف أبو هلال العسكري كتابا لطيفا فيه نوادر سماه «تصحيفات المحدثين»؛ يعني الأشياء التي قرئت أو كانت تقرأ غلطا فجمعها في كتاب سماه «تصحيفات المحدثين» في ثلاث أجزاء فيه لطائف، وفيه كتاب «تصحيفات القراء»، وفيه كتاب اسمه «التصحيف والتحريف» للصفدي فيه كثير من اللطائف إذا قرأتها ترىٰ نوادر من ذلك.

مثلا هناك أحد من يعلِّم كان يدرس مادة يعني يدرس مادة من المواد الشرعية، فكان عنده في الكتاب الذي يدرسه أن النبي ﷺ (اتخذ خاتما من ورِق)، هو قرأها (من ورَق)، هٰذا معنىٰ التصحيف، قرأها (من ورَق) جاء يشرح للذي عنده أو شرح للطلاب قالوا له: كيف من ورَق؟ قال من زهده -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يلف الورق ويجعله مثل الخاتم، لاحظ أن القراءة الخطأ أدت إلىٰ فهم خطأ وأدت إلىٰ تفسير خطأ واليوم كثير من المشكلات عندنا العلمية والإسلامية في فهم الدين فهم الشريعة راجعة من قراءة خطأ، ثم من تفسير خطأ، ثم من نتائج غلط.

لهٰذا لما جاء في قصة الخوارج مع ابن عباس ومع علي بن أبي طالب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- الخوارج من عباد من لازم الصحابة، بعضم كان من الصحابة لكنه ارتد بعد ذلك، الذي قال فيه النبي: «ويلك من يعدل إن لم أعدل»، قال علي -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وأرضاه: من أين أتي أولئك مع عبادتهم؟ قال: من العُجمة أتوا. ماذا يقصد بالعجمة؟ يقصد أنهم لم يحسنوا قراءة القرآن والسنة ولم يحسنوا فهم العلم، فكانوا كالأعاجم في عدم فهم ما قرؤوا.

فإذن انحرفوا الانحراف الكبير لأجل عدم إحسان القراءة.

إذن الكتاب في طريقته كان مهم جدا أن يكون مضبوطا، لذلك كان العلماء يحرصون علىٰ أن يقرأ الطالب الصغير في الابتدائي وفي المتوسط في كتب مشكولة شكلا تاما، كانوا يقرئون الصغار القرآن ويعلمونه معنىٰ الحركات، يقرئون مثل «رياض الصالحين» مشكول تام عشان يعرف ينطق هٰذا اقرأ بصوت عالي؛ لأنه إذا استقام لسانه وعرف معنىٰ الحركات فإنه بعد ذلك سيحسن القراءة سينتج عن حسن القراءة حسن الفهم حسن التطبيق.

الكتاب مرّ بمراحل كثيرة ما بين سنة ٤٠٠هـ إلىٰ سنة ٩٠٠هـ، أو يعني إلىٰ أواسط القرن التاسع الهجري ، هٰذه المراحل هي في تأنيق الكتاب تأنق تحسين الكتاب، فكان الكتاب يحسن من حيث الورق.

الورق كان في السابق علىٰ نوعين: ورق نباتي مصنوع من نباتات، والثاني ورق من الجلد، يسمىٰ ورق وهو وجلد جلد الغزال، وموجود كثير من الكتب محفوظة بالجلد الآن كتبت في أواسط القرن الخامس يعني ٤٥٠ ٤٧٠ مثل كتاب «الاستذكار» لابن عبد البر في قطعة منه مكتوبة بالجلد، مثل «موطأ الإمام مالك» موجود منه مثل قطعة من «صحيح البخاري»، وأشياء من ذلك موجودة.

هٰذا نوع إما من الجلد إما من الورق النباتي.

ولذلك في اختبار الكتاب عند الخبراء، الخبراء اليوم عندهم اختبار للكتاب هل هو صحيح أو مزور

يختبرونه أولا بالورق، يأخذ الورق وينظر كم عمر الورق، في كثير أتوا بكتب واكتشفنا أنها مزورة منسوبة إلىٰ علماء في القرن السادس الهجري والسابع الهجري؛ لٰكِن الورق من ١٠٠ سنة ١٥٠ سنة، ورق مخطوطات حديث من المصنع ليس تصنيع ذلك الزمن، عند أهل الخبرة كل قرن له ورق كان متداول، مثل التجارة وصناعة الورق، كان سمات للكتاب في كل قرن من حيث الورق ونوعية الورق ونوعية الكتابة والحروف وكذلك نوعية الجلد الذي يعلوه.

كان هناك التأنق في الكتاب تارة يكتب في الصفحة الواحدة خمس أسطر فقط؛ لأجل تحرص علىٰ الجمال، تكون كل ورقة لوحة من اللوحات من جمال الخط سواء في القرآن أو في غيره.

مر التأنق التأنق في الجلد الغلاف التأنق في الورق في نوعية الخط في الألوان المستخدمة، تأخذ الكتاب تجد أن في الصفحة الواحدة ثلاث أربع ألوان، كتاب جميل جدا وهو بخط اليد، فيها أنواع من الجمال، في حجم الكتب.

أنفس الكتب وأقيم الكتب ما كان مشتملا علىٰ هٰذه المواصفات التي ذكرنا جميعا، تكون بخط معروف، بورق متأنق محفوظا حفظا جيدا لا يوجد فيها عيوب، وأن تكون أيضا بألوان ومزخرفة، تارة يكون في الكتاب نوع من ماء الذهب، تارة الصور الملونة وما أشبه ذلك.

نسخة من «مقامات الحريري» منسوخة في القرن في أواسط القرن السادس أو في أواخر القرن السادس الهجري كبيرة ضخمة جدا مقامات الحريري كل مقامة معها صورة ملونة، محفوظ نسخة واحدة نفيسة جدا غاية في النفاسة، محفوظة في مكتبة من مكاتب أوربا وأخذها أحد المستشرقين وصورها بتصوير يشابه المخطوط وبيعت في معرض ألمانيا السنة الماضية، وكل مقامة فيها صورة ملونة رسم أنيق ودقيق وجميل جدا.

هٰذا نوع من الاهتمام بالكتاب..

كتب الأدب وكتب الشعر كانت تحظىٰ باهتمام كبير في تأنقها؛ وذلك لأن الطالب لها في الغالب يكونون الأغنياء والأمراء والخلفاء والتجار ليتفاخروا بتحصيلهم لهٰذه النسخ النفيسة.

أما الكتب الشرعية فكتب التفسير يوجد منها شيء نفيس وكتب الحديث قليل جدا أما كتب الفقه فلا تكاد تجد كتابا منقولا بنفاسة إلا نادر جدا؛ لٰكِن كتب الشعر كتب الأدب وما أشبه ذلك تجد عندها في العالم الآن نسخ كثيرة جدا من ذلك..

نختصر الوقت.. مضىٰ الزمن حتىٰ بدأت الطباعة، لما بدأت الطباعة كان هناك نُقلة كبيرة جدا في نوعية الاهتمام بالكتاب، بدأت الطباعة كما هو معروف سنة ١٤٥٠م؛ لٰكِن بالأحرف اللاتينية، لٰكِن الحرف العربي أول حرف عربي ظهر ١٥١٤م في مدينة في إيطاليا، وبعد ذلك في البندقية سنة ١٥٣٠م طبعت نسخة من المصحف؛ لكنها مغلوطة محرّفة وهي في إيطاليا أول نسخة طبعت في العلم ومحرفة، كاتب الوالي الوالي العثماني كاتب رئيس الكنيسة في روما بأن هٰذه نسخة ونحن نطلب إتلافها فأتلفت كل السنة ماعدا نسخة واحدة حفظت في (دير) موجودة في إيطاليا اطلعت علىٰ صورة منها وهي مطبوعة

لكنها تالفة ومغلوطة جدا.

أهم مرحلة في الطباعة سنة ١٥٩٠هـ هٰذا حيث بدأت في روما مطبعة خاصة تسمىٰ مطبعة الميدتشي عائلة كانوا يهتمون وضعوا حروفا عربية جميلة فطبعوا عددا من الكتب المهمة منها كتاب «القانون» لابن سينا وكتاب الإدريسي «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» في الجغرافيا ومنها «الآجرومية» في النحو ومنها «الكافية» لابن الحاجب ومنها «أصول إقليدس» لطاليس وبعض الكتب في هٰذا الصدد، حوالي ثمانية كتب طبعتها هٰذه المطبعة.

ومن بعد ١٦٠٠م انتشرت الطباعة في أوربا حتىٰ لا تكاد تجد مدينة إلا وفيها مطبعة عربية؛ لأجل أن المستشرقين الذين يكتبون عن العالم الإسلامي والعربي لخدمة الأهداف الاستعمارية كانوا يحرصون علىٰ أن تكون بحوثهم باللغة العربية، فنشطت في أوربا مطابع العربية كثيرا.

ولذلك نأتي لسنة ١٧٥٠ حيث بدأت بدأ دخول المطابع إلىٰ البلدان العربية، ثم شيئا فشيئا قصة الطباعة في الوطن العربي وتواريخها، وفي المملكة العربية السعودية كان أول مطبعة -لأجل أن الوقت الأخ أن وقت الأذان حان وأنا ورائي سفر مع الأسف- أول مطبعة وجدت في الجزيرة مطبعة في مكة المكرمة حوالي سنة ١٨٨٢م أو ١٨٨٠ ميلادي، وطبعت كتب ثم هناك المطبعة الأميرية طبعت كتب كثيرا جدا في أول ١٣٠٠ ثم المطبعة الماجيدية وفي جدة أنشئت مطبعة وفي المدينة أنشئت مطبعة ثم في غيرها.

أهم المطابع كانت مطبعة بولاق في مصر فأنشئت حوالي سنة ١٨٣٠م، وبدأت الطباعة في مصر بقوة ثم انتشرت المطابع وأصبح الكتاب مطبوعا.

لٰكِن هنا سؤال مهم: وهو هل يعني أن الكتاب المطبوع معناه أنه سليم؟ ليس الأمر كذلك.

فلابد أن نفهم من الذي صحح الكتاب هل الطابع دار النشر مدققة تدقق في التصحيح، تنقل بأمانة أم أنها تطبع للتجارة، هناك دور للتجارة هناك دور نشر تطبع فقط للتجارة، ليس عندها تدقيق علمي ولا علماء يصححون، بخلاف المطابع السابقة فكان تدقيق أكثر، ولذلك حرص طبعة العلم والحريصين علىٰ العلوم الشرعية والأدبية والتاريخية يحرصون علىٰ أن تكون الكتب محققة كتاب محقق يعني أنه مقابل علىٰ عدة نسخ ومطبوع طبعة قريبة من السليمة.

الوقت يضيق، والحديث ذو شجون، والكتاب لا يُمل..

أكرر شكري علىٰ هٰذه الدعوة الكريمة لوجودي بينكم وأسجل تقديري علىٰ هٰذا النشاط في هٰذا المقر التعليمي المميز، ولجميع الجهات التي أسهمت في ذلك، نسأل الله تعالىٰ للجميع التوفيق والسداد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

محاضرات (٢/ ٣٤)

طالبُ العلم
والكُتُب

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه.

أما بعد؛

فأسأل الله -جل وعلا- أن يجعل هٰذه السنة لنا سنة خير وعلم وعمل وتُقىٰ وصلاح، وأن يزيدنا فيها من العلم النافع والعمل الصالح.

وأسأله -جل وعلا- أن يقوي همتنا في العلم والعمل، وأن يُعلي عزمنا في دَرْسِ العلم وتحصيله والمحافظة عليه والثبات علىٰ ذلك.

وكمقدمة لدروسنا في هٰذا الفصل -إن شاء الله تعالىٰ- نتحدّث كالعادة بحديث عام مما يَسنح في الخاطر بما يكون معه النفع إن شاء الله تعالىٰ.

وحديثنا سيكون عن:

طالب العلم والكتب

من المعلوم أن العلم يُتلقّىٰ بأحد طريقين:

- إما عن طريق المشافهة والسّماع ومجالسة أهل العلم وأخذ العلم عنهم سماعًا.
- وإما أن يكون عن طريق الكتب بالمطالعة والنّظر والاستفادة.

والأوَّل هو طريق الثاني، والثاني صوابه مبني علىٰ الأول، كما قال بعض أهل العلم: **كان العلم في صدور الرجال، ثم صار في بطون الكتب وبقيت مفاتيحه في أيدي الرجال.**

يعني أنّ طالب العلم الكتب له مهمة؛ ولكن هٰذه الكتب إنما يُحسن التعامل معها ويحسن فهمها من أسس نفسه عن طريق طلب العلم علىٰ أهل العلم وخالطهم وفهِم مراد أهل العلم بكلامهم فيما دوَّنوه في الكتب.

التّدوين -تدوين العلم- في الكتب قديم في الناس وكانت الحضارات السالفة لحضارة الإسلام كانوا يعتنون بالكتابة، وكانت كتب الله -جل وعلا- تكتب كما قال جل وعلا: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾[سبأ:٤٤]، وقال جل وعلا: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾[البينة]، وربُّنا -جل وعلا- خطَّ لموسىٰ

عليه السلام في الألواح وكتب له فيها.

وبقيت الكتب في الناس يتداولونها بالكتابة، وكان من الأمور المهمة أن تُحفظ من التغيير والتبديل، وأن يهتم بها الناس، وأن يحافظوا عليها.

وهٰذه المسألة عامة في الأمم، وكتب الله -جل وعلا- جعلها الله ﷻ ابتلاء وامتحانا للأمم: هل يحافظون عليها أم لا؟ فحصل في الكتب قبل القرآن عدم المحافظة حيث دخلها التحريف في اللفظ ودخلها التحريف في المعنىٰ بما هو معلوم، وخصّ الله -جل وعلا- هٰذا القرآن وعلوم نبي الإسلام محمد -عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- بالحفظ كما قال جل وعلا: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر]، والذِّكر هنا هو القرآن والسنة المبينة له محفوظة أيضا، فالله جل وعلا حفظ القرآن وحفظ السنة، ومعنىٰ ذلك أنّ هناك أشياء مما يُكتب يطرأ عليه التحريف والتغيير والتبديل، فليس كل ما كتب يُعَدُّ صحيحا، وليس كل ما زُبِرَ في الورق عُدَّ نافعا وصوابا؛ بل لابد أن يكون من العلم المحفوظ ويكون حفظه حفظ ألفاظه وحفظ معانيه أيضا من التغيير والتبديل.

في أوائل هٰذه الأمة ما كتب من الصحابة السنة إلا نفر قليل، وهكذا فيمن بعدهم كتبوا أشياء؛ من التابعين كما هو معلوم في صحيفة همام بن منبه عن أبي هريرة وكغيرها كتبوا أشياء من السنة، وحفظت أيضا رسائل للمصطفىٰ ﷺ إلىٰ ملوك الأطراف وإلىٰ عماله والأمراء عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكذلك حفظت رسائل للخلفاء الراشدين وللأمراء من بعدهم ومراسلات الصحابة فيما بينهم، حتىٰ جاء وقت تدوين العلم، فصُنفت المصنفات ودُونت وتوسع الناس في ذلك حتىٰ صار التصنيف في كل أنواع العلوم، فصنف أول ما صنف في الحديث والسنة، ثم صنف في التفسير، ثم صنف في اللغة ومعاني القرآن، ثم توسعت التصانيف والكتب.

لما كان الأمر كذلك العلماء أوصوا الطلاب بحفظ الكتاب من التغيير والتبديل؛ لأن الكتاب يُكتب وينسخ، والنَّسخ والكتابة إذا كانت صحيحة فإن الكتاب يكون صحيحا، وإذا كانت الكتابة غير دقيقة وكان النسخ غير دقيق دخل من الخلل في العلم من جهة عدم الدقة في الكتابة أو عدم الدقة في النسخ، ولهٰذا ذكر طائفة من الأدباء ومنهم الجاحظ في كتابه الحيوان وذكره غيره أيضا أنّ من أهل العلم من كان يقتني من الكتاب الواحد ثلاث نسخ برواية واحدة وربما إذا تعددت الروايات أيضا حرصوا أكثر علىٰ

اقتناء كل الروايات التي رُوي بها الكتاب، وهـٰذا لأجل الحرص علىٰ دقة العلم ودقة تلقيه؛ لأنه ربما اختلف لفظ عن لفظ أو سقطت جملة أو تحرّف في موضع فبان في الموضع الآخر.

أهل العلم أوصوا الطلاب طلاب العلم أن يحرصوا جدا علىٰ كتبهم؛ بأن يكون الكتاب محفوظا من التغيير والتبديل، وأن يكون التقييد عليه له آدابه، وأن يكون طالب العلم فيما يكتبه علىٰ الكتاب بعد نسخه من تعليقات ومن حواشٍ ومن فوائد ومن مطالب وأشباه ذلك أن يكون دقيقا فيما يكتب حتىٰ يتسنىٰ له أن يستفيد مما كَتَب وحتىٰ لا يتغير الكتاب بكتابةٍ في أثناء الأسطر وأشباه ذلك.

بهـٰذا جعل أهل العلم في كتب الرواية وكتب طلب العلم جعلوا آدابا لطالب العلم في تعامله مع الكتاب، فالكتاب لطالب العلم أشبه ما يكون بأحد أعضائه، فكتب طالب العلم خلاياه التي يعيش بها، وهي سمعه وبصره الذي لو فقده لضعف في العلم شيئا فشيئا، وترىٰ أن الذي يضعف في المطالعة ويضعف في النظر في العلم وفي القراءة تجد أنه يضعف قليلاً قليلا وينسىٰ العلم شيئا فشيئا حتىٰ يكون أمّيا بعد مر سنين من الزمان، وهـٰذا لأن مطالعة العلم في الكتب من أهم ما يكون.

وهـٰذا يتطلب أن يكون لطالب العلم صلة عظيمة بالكتاب، وهـٰذه الصلة لها آدابها ولها رونقها ولها شروطها التي بينها أهل العلم في كتبهم ككتاب الجامع لابن عبد البر، وكتاب ابن جماعة في أدب الطلب «تذكرة السامع والمتكلم»، وكتب كثيرة في هـٰذا ذكروا كيف يتعامل طالب العلم مع الكتب.

ونذكر من هـٰذا أشياء، وقبل أن ندخل في الآداب العامة فإننا نذكر أنّ اهتمام طالب العلم بكتبه يدل علىٰ اهتمامه بالعلم.

فمن الآداب التي ينبغي لطالب العلم أن يعتني بها:

ترتيب الكتب

أولا أن يرتِّب كتبه حتىٰ يتسنىٰ له أن يراجع، إذا كانت مسألة تحتاج أن يراجع لها بعض الكتب فلابد له من أن يرتِّبها.

وترتيب الكتب بحسب حال هـٰذا الطالب، فإذا كان يحتاج أن يرتب كتب التفسير جميعا وكتب الحديث جميعا ويصنف التفسير إلىٰ علومه والحديث إلىٰ علومه والفقه إلىٰ مذاهبه وأشباه ذلك، فلا بأس، وإذا كان يرىٰ ثمة ترتيب آخر يرىٰ أنه أنفع له فلا بأس.

المقصود أن يكون الكتاب في مكانه الذي إذا احتاجه طلبه.

والكتب علىٰ قسمين: كتب كبيرة وكتب رسائل صغيرة.

أما **الكتب الكبيرة**: فهٰذه سيراها في المكتبة لأنها كبيرة عشر مجلدات خمسة عشرة مجلدا وثلاثة أو أربعة هٰذه ظاهرة.

ولكن الذي يحتاج إلىٰ العناية به **الرسائل الصغيرة** التي هي مهمة وربما يكون فيها من العلم ما ليس في الكتب الكبار، إذا احتاج أن يراجع كتابا منها أو رسالة فبحث عنه لا يجده، لم؟ لأنه ما وضعه في مكانه المناسب.

وهٰذه الرسائل الصغيرة ينبغي أن يهتم بها في أن تكون في مكان مستقل؛ يعني أن لا تكون ضمن البحوث أو ضمن الكتب الكبيرة، فيضع كتاب كبير وبجنبه كتاب صغير عبارة عن أوراق وبجنبه رسالة أربعين صفحة أو خمسين صفحة إلىٰ آخره.

وهٰذا النوع اعتنىٰ به العلماء حيث وضعوا له ما أسموه بالمجاميع، ترون في فهارس المخطوطات بما يسمىٰ مجموع، المجموع عبارة عن مجلد أو أكثر فيه عشر رسائل أو فيه اثنا عشرة رسالة أو أكثر من ذلك، فإذا تهيأ لطالب العلم أن يجمع هٰذه الرسائل الصغيرة في مجموع ويجمع النظائر في مجلد، يجعل الرسائل التي في أداء طلب العلم في مجلد مستقل، أو الرسائل التي في مصطلح الحديث الصغيرة في مجلد مستقل، أو الرسائل التي في علوم التفسير أو علوم القرآن يجعلها مجموعة أو ما أشبه ذلك، كذلك الكتب والرسائل الفقهية يجعلها مستقلة، ومن المناسب في الكتب والرسائل الفقهية أن يبوّبها علىٰ حسب أبواب الفقه، مثلا يجعل رسالة في الجنايات في موقعها في الفقه، فيرتب الكتب يبتدئ بالرسائل التي في الطهارة، ثم الرسائل التي في الصلاة، ثم الصلاة أيضا يرتبها أيضا في داخلها شروط الصلاة أولا، ثم الأحكام التي فيها، ثم سجود السهو يجعلها في مكانها، التي في الزكاة أيضا يجعلها بعد الصلاة، وهكذا في نظائرها؛ يعني أن يرتب هٰذه الرسائل الصغيرة التي قد لا يصل إليها لو احتاج في خضم كتبه أن يرتبها بحسب موضوعات الفقه، كذلك غيرها من العلوم في التاريخ أو في العقيدة أو ما أشبه ذلك، يجعل العقيدة العامة مستقلة في الكتب أو الرسائل العامة في العقيدة، أو التي تبحث في مسألة في العقيدة يرتِّبها علىٰ مباحث في العقيدة حتىٰ يتسنّىٰ له مراجعة ذلك.

إذن أول أدب أن يحسن الترتيب، والترتيب -ترتيب المكتبة- هو عنوان طالب العلم في عنايته بكتبه.

أما إذا أتىٰ وكان المكان متيسرا ووجدت أن الكتب مبعثرة إلىٰ آخره فهٰذه لها أحد احتمالين:

إما أن يكون من كثرة بحثه وكثرة مطالعته للكتب جعلها تنتشر، وهٰذا أمر محمود ولكن لابد أن يكون بعدها يرجعها إلىٰ ترتيبها.

وإما أن يكون هو أصلا غير مرتب.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في كتابه في قضاة مصر الذي سماه «رفع الإصر عن قضاة مصر» ترجم لأحد قضاة مصر حيث تولىٰ القضاء، وكان يجلس في مكان فيه كتبه وكانت كتبه حسنة التصفيف مصففة بطريقة جميلة، فدخل عليه أحد الناس من طلاب العلم، وقال له: ما أحسن تصفيف هٰذه الكتب. قال الحافظ ابن حجر يعرّض به أن حُسن تصفيف الكتب يدل علىٰ عدم المطالعة فيها وعدم الاشتغال، ففهم القاضي هٰذا وأسرها في نفسه، قال: حتىٰ تولىٰ هٰذا الرجل الذي انتقد القاضي تصفيف كتبه، قال: تولىٰ الكتابة للناس في أنكحتهم -يعني عقود النكاح وما يسمىٰ مأذون الأنكحة- فعثر منه القاضي علىٰ غلطة في أحد صكوك النكاح، قال: فعزره تعزيرا بليغا حافظا تلك الكلمة.

المقصود أنه استدل بحسن التصفيف علىٰ عدم الاشتغال وهٰذا ليس بمطَّرد؛ بل طالب العلم إذا أراد أن يشتغل بفن أو ببحث فيجلب عدد من الكتب تكون أمامه ويبحث هٰذا في هٰذا وإذا انتهىٰ منها أرجعها في أماكنها حتىٰ يتسنىٰ له أن يطالعها.

الاهتمام بالنسخ المصححة

الأدب الثاني من آداب التعامل مع الكتب: أن يهتم طالب العلم بالنسخ المصححة.

في القديم كان الكتاب يُشترىٰ من الوراقين، يقال: فلان وراق؛ يعني عنده مكان ينسخ فيه الكتب ويبيعها، أو يبيع لمن أراد أن يبيع كتبه، يسمىٰ هؤلاء الوراقون الذي يعتنون بنَسْخ الكتب باليد أو بيع الكتب.

وهؤلاء الوراقون منهم المعتني ومنهم غير المعتني، وأشبه ما يكون في هٰذا الزمن بالمطابع، المطابع الموجودة الآن هي ورثت عمل الوراقين فيما مضىٰ من الزمان.

لهٰذا نقول: إن صنعة الوراقين فيما مضىٰ تناولها أهل العلم بالتحليل، وأنّ طالب العلم يحرص علىٰ أن يشتري كتابا مصححا مدققا، أو أن ينسخ بيده ويقابل ما نسخ بأصله، أو أن يشتري كتابا ويقابله بنسخة معتمدة مقروءة علىٰ أهل العلم، وأشباه ذلك.

يعني أن طالب العلم مع الكتب لابد له من أن يعتني بالنسخ الصحيحة في النسخ المخطوطة أو في

المطبوعات.

وفي هٰذا الزمن عناية جل طلاب العلم بالمطبوعات.

ولهٰذا نقول: المطبوعات كثيرة وقد ابتدأ بالطباعة باللغة العربية منذ أكثر من خمسة قرون -يعني منذ أكثر من خمسمائة سنة- ابتدأت الطباعة بالعربي يعني من نحو سنة ١٤٠٠ أو ١٥٠٠ بالميلاد لأنها هكذا أُرخت يعني من نحو خمسمائة سنة أو أربعمائة سنة وزيادة، وأكثر ما طُبع في اللغة العربية في البلاد العربية والإسلامية منذ نحو مائتين سنة من الزمان، وما قبل ذلك تطبع في بلاد الغرب لاهتمامهم بالطباعة.

المقصود من هٰذا أن الكتب طباعتها قديمة، واليوم الذي يُطرح في السوق أنواع من دور النشر، وأنواع من الكتب، وأنواع من أسماء المحققين أو أسماء المصححين إلىٰ آخره.

ولهٰذا حصلت مرّات أنه تُنقل عبارات وجمل عن كتب مطبوعة مؤخرا تكون طباعتها غير صحيحة وغير دقيقة فيقع الخلط كما حصل لي مثلا عدة مرات في قاعات الجامعة من أني أقرر شيئا مثلا بناء علىٰ نسخ مطبوعات الصحيحة ويأتي بعض الطلاب مجتهدا ويبرز الكتاب الذي طبع مؤخرا فإذا الكلام الذي فيه غير صحيح؛ لأن الطبعات المتأخرة ليست كلها مُعتنىٰ بها، وهكذا الطبعات المتقدمة.

إذن فالمطبوعات سواء منها طبع منها قديما أو ما طبع حديثا لابد لك من البحث هل هٰذه الطبعة صحيحة، وإذا أردت أن تعتني بشراء كتاب أو أن تعتني بعلم ما فلابد أن تحصّل الكتب الصحيحة المطبوعة بدقة فيه، فتسأل أهل العلم أو الذين يعتنون بهٰذا الجانب، فتقول مثلا: الكتاب الفلاني ما النسخة المعتمدة منه؟ مثلا تقول: «تفسير القرطبي» ما أصح نسخه؟ «تفسير الطبري» ما أصح نسخه؟ «صحيح البخاري» ما أصح نسخه التي تقتنيها؟ وتكون عندك في المكتبة ما تحتاج معها إلىٰ نسخة أخرىٰ.

الملاحظ اليوم أنه مع كثرة المطبوعات تجد أن دور النشر تطبع لغرض التجارة بطبعات لا تأمَنُها، لهٰذا ينبغي لك أن تسأل عن الطبعة التي تقتنيها أو الطبعة التي تريد شراءها، ولا تشتري أي كتاب طُرح أمامك؛ بل تسأل عنه وتعرف دار النشر التي أصدرته، وإذا كان اعتنىٰ به أحد المحققين، تسأل هل هٰذا المحقق دقيق أو غير دقيق أو غير دقيق؟ هل هو تجاري أو غير تجاري؟ إلىٰ آخر ذلك، يعني أن اهتمام طالب العلم بالنسخة الصحيحة التي يقتنيها لابد منه.

تشتري مثلا كتاب بعد السؤال عنه، تقول مثلا: «تفسير القرطبي» النسخة الصحيحة منه ما هي؟ فإذا أجبت عن هٰذا السؤال ذهبت وتقتني هٰذه النسخة سواء كانت مطبوعة أو مصورة أو مطبوعة طبعا حديثا بالكمبيوتر؛ يعني أن تحرص علىٰ النسخ الصحيحة.

الملاحظ -من جهة نظري- أنّ ما بأيدي الإخوان من الكتب أنّ كثيرا منها يكون نسخا غير صحيحة تكون نسخة لكن غير دقيقة اعتنىٰ بها أحد الناس عناية لا تسمىٰ عناية، أو يقال: إنها صححت بمعرفة الناشر أو ما أشبه ذلك، ويكون فيها من الأغلاط والسقط وأشباه ذلك ما يَعيبها، ولا يصلح أن تقتنىٰ لطالب علم يرجع إليها ويبحث من خلالها.

إذن فالأدب الثاني أن يحرص طالب العلم علىٰ اقتناء النسخ الصحيحة سواء كانت مطبوعة طبعات قديمة أو كانت مطبوعة حديثا، المهم أن تكون نسخة صحيحة، فيعرف دور النشر المعتنية الدقيقة ودور النشر التي لا تعتني حتىٰ يميز، يعرف المحققين الذين يتاجرون والمحققين الذين يعتنون بتحقيقاتهم، ويعرف أيضا مزايا الطبعات وتعدد الطبعة للكتاب الواحد وميزة هٰذه علىٰ هٰذه.

نتفرع من هٰذا إلىٰ أن طالب العلم الذي يعتني برؤية التحقيقات وما يعمله المتأخرون من حواش وتعليقات، لابد له أيضا أن يعرف أيضا طبعات الكتاب؛ لأنه حصل مثلا أنّ المحقق يرجع إلىٰ جزء وصفحة فهٰذا يظن أن الكتاب طبع مرة واحدة، فيذهب ويرجع إلىٰ الجزء والصفحة هٰذه فلا يجده، فيقول أن هٰذا وهم أو غلط أو نحو ذلك، قد يكون الكتاب طبع مائة مرة أو عشرين مرة أو ثلاثين مرة أو خمس أو أربع إلىٰ آخره.

فإذن معرفة طالب العلم بطباعة الكتب، وعدد مرات طباعتها، وميزة هٰذه وهٰذه، هٰذا أيضا من مكملات العلم ومن ملحه التي هي من الآداب العامة التي ينبغي لطالب العلم العناية بها.

الحرص على نظافة الكتاب وطريقة حفظه

الأدب الثالث مع الكتب الحرص علىٰ نظافة الكتاب وطريقة حفظه؛ يعني أن يكون الكتاب نظيفا ليس عليه غبار يَعْلق به، أو يكون متسخا، أو أن يكون عليه كتابات سيئة، أو أن يكون يضعه في موضع غير لائق به؛ يعني أن يضع الكتاب فيما يكون لائقا به.

فمما لا يليق بالكتب خاصة كتب أهل العلم التي فيها بيان معاني الكتاب والسنة أن تكون عليها الأتربة أو أن تكون متسخة، تنظيف الكتب هٰذا دليل توقير ما اشتملت عليه وتعظيم شعائر الله، وقد قال جل

وعلا: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾[الحج]، فإذا كان الكتاب في التفسير أو كان في السنة أو كان في فقه الحلال والحرام أو في العقيدة فإن النفس تنبعث في المحافظة عليه وفي تنظيفه من إجلال الله -جل وعلا- وإجلال العلم الشرعي الذي هو مأخوذ من الكتاب والسنة.

كذلك أن يكون طالب العلم في تعامله مع الكتاب من جهة صيانته وحفظه بأن لا يتخذه صندوقا لأوراقه ورسائله الخاصة أو الفواتير التي تكون عنده -فواتير الكتب أو نحو ذلك-، فتأخذ ونظر كتابا فتجد أن فيه فاتورة أو رسالة أو فيه قلم أو في داخله محّاية إلىٰ آخره.

وقد قال بعض العلماء: **لا تجعل كتابك بوقا ولا صندوقا.**

هـٰذا من الأدب المهم مع الكتاب لا تجعله صندوقًا يعني أن تجعل فيه الأقلام وتجعله مستودع لفلوس والريالات؛ يعني تفتح الكتاب تجد فيه كل هـٰذا، ثم تلاحظ أن الجلدة تغيرت والكتاب تغير إلىٰ آخره من جرّاء الصيانة.

كذلك لا تجعله بوقا يعني لا تلف الكتاب لفا لا يليق به، يعني مثل هـٰذا الكتاب تجد أن بعضهم يلف الكتاب كذا ويأخذه وأحيانا يجعله كأنه بوقا، فهـٰذا لا يليق؛ لأن الكتاب فيه كلام الله -جل وعلا- وكلام رسوله ﷺ فلا يليق أن يُجعل بهـٰذه المثابة.

كذلك لا يليق أو يُوضع عليه كأس ماء أو شاي وما أشبه ذلك.

كتب أهل العلم التي فيها نصوص الكتاب والسنة تجعل أعلىٰ ما تجعل أسفل تجعل فوقها دفاتر بيضاء وأشباه ذلك.

وهـٰذا مما يجعل في القلب تعظيما لكلام الله -جل وعلا- وكلام رسوله ﷺ، وكل ما استفيد من العلوم من هذين الأصلين.

كذلك مما يتعلق بحفظ الكتاب أن ينتبه طالب العلم في طريقة الكتابة علىٰ الكتب، أحيانا نرىٰ بعض الكتب يُعلق عليها حواشي بحيث أنه تضيع فائدتها، وقد نهىٰ العلماء فيما سبق عن الخط الصغير علىٰ الكتب، أن تُكتب الكتب بخط دقيق أو أن يُعلق عليها من الفوائد ما يكون بخط دقيق، بحيث إذا أراده طالب العلم لم يتهيأ له أن يستفيد منه.

وندم -فيما يذكر- الإمام أحمد مرة علىٰ أنه كتب حديث بخط دقيق لما احتاج لها في كِبَره لم يحسن

أن يستخرج تلك الفوائد؛ لأنها كانت بخط صغير وتقارب الحبر مع بعضه حتىٰ فاتت الفائدة.

بعض العلماء لا يكون خطه حسنا أو بعض طلاب العلم لا يكون خطه حسنا هٰذا ليس بعيب؛ لكن أن يرتب الكتابة بحيث أن تكون بخط واضح، لهٰذا كان بعض العلماء ممن خطه غير جيد هو نفسه لا يحسن قراءة خطه مثل شيخ الإسلام ابن تيمية كان هناك أحد طلابه هو الذي يستخرج كتابه، وقد ذُكر هٰذا في التراجم ونبّه عليه الحافظ ابن كثير في الجزء الرابع عشر من «البداية والنهاية» في سنة وفاة تلميذ شيخ الإسلام ونسيت اسمه الآن،(١) قال: وكان هو الذي يحسن استخراج خط ابن تيمية، وإذا أراد ابن تيمية أن يأخذ موضعا لا يستخرجه إلا هو. لأن شيخ الإسلام يكتب بسرعة ويشتبه، ربما التبس عليه، ولكن هٰذا من دقته يحسن ذلك، ولكن هٰذا قد لا يتهيأ دائما.

ولهٰذا طالب العلم يحتاج إلىٰ معرفة كيف يكتب علىٰ الكتب نبّه علماء الحديث في آداب الكتابة أن طالب العلم إذا أراد أن يكتب: فيبتدئ في الكتابة من السطر الذي فيه أو عليه التعليق، ثم يرتفع إلىٰ أعلىٰ ولا ينزل إلىٰ أسفل؛ يعني قرأت علىٰ شيخ أو تعلق علىٰ كتاب فأتيت إلىٰ موضع فتبدأ بالكتابة من هٰذا السطر إلىٰ أعلىٰ؛ لأنه ربما أتىٰ في السطر الذي بعده فائدة تحتاج إلىٰ الكتابة عليها فالتبس عليك، كيف تكتب تعرج عليه، وإذا كتبت إلىٰ أعلىٰ فحبذا أن تكون الكتابة واضحة وفيها نوع ميول متساوي الأسطر، حتىٰ إذا احتجت إلىٰ ضبط يمكنه إدخاله في الفراغات في ما بيت الميول.

ربما بعضكم رأىٰ بعض الكتب القديمة المحشاة فتجد أن الكتابة أتت علىٰ شكل مثلثات هٰذا ليس عبثا لكنه لأنه يكتب بهٰذه الطريقة علىٰ طريقة الأقدمين لأنه قد يحتاج إلىٰ ضبط بعد ذلك فيدخله في هٰذا الفراغ، أو أن يقابل هٰذا الكتاب بنسخة أخرىٰ فيقول في هٰذا الفراغ نسخة كذا وكذا وهكذا.

فإذن تهتم بوضوح الخط وبأن يكون مرتبا في معرفة مكان البداية، فإذا أتيت إلىٰ ما كتبته أنت وعلقته اعرف أن هٰذه الجملة التعليق عليها سيكون عليها في هٰذا الاتجاه.

وحبذا لو راجعتم كتب المصطلح قد بينوا كيف تكتب وتحشي علىٰ الكتب، في ضوابط لهم وتفصيلات سواء كانت في التضبيط -يعني بيان الكلمة والتصحيح عليها- أو كانت حاشية أو بيان نسخة

(١) قال ابن كثير في (ج١٤/ ص١٩٤): وفي هٰذا اليوم - أي يوم السبت يوم عرفة من سنة ٧٤٩هـ - توفي الشيخ عبد الله بن رشيق المغربي كاتب مصنفات شيخنا العلامة ابن تيمية ، كان أبصر بخط الشيخ منه، إذا عزب شيء منه علىٰ الشيخ استخرجه أبو عبد الله هٰذا ، وكان سريع الكتابة لا بأس به، دينا عابدا، كثير التلاوة، حسن الصلاة، له عيال، وعليه ديون، رَحِمَهُ اللهُ وغفر له آمين.

أو كيف تكتب صحة العبارة أو ما أشبه ذلك، فنحيلكم علىٰ كتب المصطلح لأنهم كتبوا في هـٰذا وأوفوا المقام.

انتخاب الفوائد من الكتب

من آداب الكتب أيضا التي ينبغي العناية بها أن يكون طالب العلم له فوائد ينتخبها من الكتاب؛ يعني أنه إذا قرأ كتابا لا يثق بحافظته وذاكرته ولو كان شبابا، بل فوائد هـٰذا الكتاب ينتخبها في دفتر خاص عنده، أو يشير إليها في بداية الكتاب في ورقة في أوله بأن يضع شبيها بالفِهرس له؛ لأن هـٰذه الفوائد التي تناسبك قد لا تناسب شخصا آخر، تحتاج أنت إلىٰ أن تراجع ما استفدته من هـٰذا الكتاب.

وقبل ليلتين كتاب كنت قرأته منذ نحو عشر سنوات فلما نظرت في أوله أخذته من مكانه في المكتبة -وهو كتاب لجمال الدين القاسمي «الفضل المبين في شرح الأربعين»- وإذا بي قد قرأت الكتاب وذكرت الفوائد التي فيه، فإذا بها فوائد كثيرة تسعين في المائة منها نسيته فبدل أن أقرأ الكتاب مرة أخرىٰ فإذا هـٰذه فائدة وهـٰذه فائدة وهـٰذه فائدة.

ومنها مثلا من الفوائد التي كانت فيه الفرق ما بين العالم والعارف ولم عدل الصوفية عن العالم إلىٰ العارف؟ لماذا يقولون: العارف فلان، لا يقولون: العالم؟ هـٰذا من فوائده.

من الفوائد أيضا نقلا كان جيدا ومتينا عن ابن حزم في الفِصَل في معنىٰ قضىٰ وقدر، وقال في آخره جمال الدين القاسمي لما أتم النقل وهـٰذا ألطف ما قيل في معنىٰ قضىٰ وقدر أو القضاء والقدر وأحقه بالقبول. وهو كما قال، ربما نذكره لكم في مكانه.

هـٰذه الفوائد التي تكتبها في صدر الكتاب مهمة إذا راجعت بعد حين تجد أن الفوائد معك.

يعني أن الكتاب إذا قرأته أو أن الكتب إذا قرأتها فتنتخب منها ما تراه مفيدا لك وتجعله في صدر الكتاب في الورقة الأولىٰ علىٰ شكل فهرس فيه عبارة مختصرة.

وهـٰذا لاشك أنه مهم جدا لطالب العلم إذا حصل أن تجعل له دفترا خاصا تنتخب فيه ما تحتاجه فهـٰذا مهم وسترجع إليه ولابد بعد زمن.

يعني لا يناسب أن تقرأ هكذا وتقول: هـٰذه القراءة كافية لأنك بعد شهر أو شهرين أو ثلاثة أو سنة تنسىٰ؛ لكن لو قيدت فإنك سترجع إليه بعد سنين تجد أن الفوائد ماثلة أمامك. وكما قيل: الفهم عرض يطرأ ويزول والكتابة قيد. تقيد ما فهمته أو تقيد ما استفدته.

أدب إعارة الكتب

من الآداب أيضا المتعلقة بالكتاب أدب الإعارة.

والإعارة للكتب منهي عنها إلا لمؤتمن عليها؛ لأن كتابك أنت أولىٰ الناس به، إلا إذا وجدت من هو حريص علىٰ هٰذه الكتب وإذا استفاد منها أرجعها.

وذكر في ترجمة الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ أن رجلا طلب منه أن يعيره كتابا فقال: لك ثلاثة أيام. فقال: قد لا تكفي. قال: قد عددت أوراقه، فإن احتجت إلىٰ نسخه فالثلاثة كافية، وإن احتجت إلىٰ قراءته فالثلاثة كافية، وإن كنت تريد أن تستكثر به فأنا أولىٰ بكتابي.

وهٰذا صحيح فيه كتاب الجزء الأول كتاب كبير عندي -ما أريد أن أذكره ربما فيسمعه هٰذا فيظن أنه تعريض به- الجزء الأول من كتاب من ثمانية مجلدات استعاره أحد الإخوة وإلىٰ الآن من اثني عشر سنة ما وصلني، وهو يقول: ما أدري أين ذهب. وأيضا الجزء الثامن من كتاب آخر والكتاب ربما لا آسف عليه كثيرا ولكن الجزء الثامن منه له أكثر من عشرين سنة إلىٰ الآن ما رجع، ولذلك قال القائل:

لا تعيرن كتابا ... واجعل العذر جوابه

من أعارن كتابا ... فلعمري ما أصابه

وقال آخر: آفة الكتب إعارتها.

وقيل لرجل في الهند كوّن مكتبة عظيمة قيل له: كيف كونت هٰذه المكتبة؟ قال: من استعارة الكتب. قال: كيف؟ قال: أستعير كتابا فلا أرده، وتكونت هٰذه المكتبة. فقيل له: أليس هٰذا جناية علىٰ من استعرت منهم؟ قال: من أعار الكتاب فهو مجنون، ومن رد ما استعار فهو أكثر جنونا منه.

وهٰذا لأن الكتاب النفوس متعلقة به، فقد ذكر الحافظ ابن رجب في مسألة في كتاب القواعد ضمن قاعدة: أن الكتب لا قطْع في سرقتها؛ يعني إذا سرق كتابا فعند بعض العلماء لا يقطع؛ لأن فيه شبهة أنّ الحق في الكتاب للجميع.

لهٰذا قد يأخذ بعض طلبة العلم مثلا أو بعض الزملاء كتابا ويرىٰ أن له حقا فيه، خاصة إذا كان وقفا أو كان مهدىٰ إليك أو ما أشبه ذلك فيتساهل فيه ثم تخسر أنت الكتاب.

فإن كنت لا تعلم أن هٰذا الذي جاء يطلب الإعارة جاد وسيستفيد منه في أيام يسيرة وليال وإلا فلا تُعِر الكتاب؛ لأن في إعارته حرمانك من الاستفادة، وليس كل مستعير للكتاب مأمونا علىٰ الكتاب، فكم

استعار أناس وما ردوا الكتب.

استعراض الكتب بين حين وآخر

أيضا من الآداب المتعلقة بالكتاب -الحديث ذو شجون ويطول- من الآداب المتعلقة بالاهتمام بالكتب أن يستعرض طالب العلم كتبه بين حين وآخر؛ يعني أن لا يجمع الكتب دون استعراض لها، يأتي أخذ الكتاب ووضعه وأخذ الكتاب ووضعه وأخذ الكتاب ووضعه، ثم إنما يراجع طائفة قليلة منها، لابد من استعراضها، تأتي وتستعرض هٰذه الكتب حتىٰ تتذكر الموضوعات، لأن من الناس من اشترىٰ الكتاب مرتين وثلاث وأربع؛ لأنه ينسىٰ أن الكتاب عنده لقلة استعراضه لكتبه، ولو أنه كثير الاتصال بكتبه خاصة في مثل بلادنا مكتبات بعض الطلاب -طلاب العلم- كبيرة إذا استعرض كتبه تذكر أن الكتاب عنده، أما إذا ترك الاستعراض ربما طلب الكتاب من غيره وهو عنده أو نسي ما في الكتب أو تابع لموضوعه ولم يراجع فيه إلىٰ آخره.

الاهتمام بالكتب الموقوفة

من الآداب أيضا المتعلقة بالكتب الاهتمام بكتب الوقف.

والكتب الموقوفة يعني التي عليها طبع أنه وقف أو ختم بأنها موقوفة أو أشباه ذلك هٰذه الاحتفاظ بها في مكتبتك لابد أن يكون علىٰ شرط الواقف، والواقف حين وقفها جعلها علىٰ طلبة العلم، وإذا كنت لا تستفيد من الكتاب وغيرك بحاجة إليه فدفعك الكتاب إلىٰ من يحتاجه أولىٰ، نعم قد يكون لك حاجة فيه ولو مرة في السنة تراجع فيه فهٰذا لا بأس؛ لأن الكتاب موقوف علىٰ طلاب العلم؛ لكن إذا كنت لا تراجعه تمر عليك أربع خمس سنين وأنت لا تراجعه تعرف نفسك ليست ذات همة في مراجعة هٰذا الكتاب أو الكتب بعامة أو قد لا تحتاجه في المستقبل فإن الاحتفاظ به في هٰذه الحال خلاف الأولىٰ، وبعض أهل العلم يقول لا يجوز الاحتفاظ به بل يدفع إلىٰ مستحقه يدفع إلىٰ من ينتفع به؛ لأن الواقف وقفه علىٰ من ينتفع به وإذا كنت لا تنتفع به فمن ينتفع به أولىٰ.

ومن هنا كان كثير من طلاب العلم من يتنزه عن الاحتفاظ بالكتب الموقوفة إذا كان عنده فضل مال يمكن أن يحصّل الكتاب ببذل ماله لأنه ربما يركن الكتاب ولا يستفيد منه، فإذا كان موقوفا ربما لحقه إثم من حبسه عمن ينتفع به، وهٰذا ربما ظهر أكثر في البلاد التي يكون الكتاب فيها شحيحا.

العناية بالكتب

من الآداب أيضا المتعلقة بالكتاب أن يهتم في الكتاب بتجليده وبطانته وبهارته حتىٰ يكون الكتاب بالوضع اللائق به للاستمرار؛ لأنّ طالب العلم حين يقتني الكتاب، نقول: الأفضل له أن يستحضر نوعين من النية:

أما الأول أن ينوي الانتفاع به في تخليص نفسه من الجهل.

والثاني أن ينوي أن يستفيد غيره من هـٰذا الكتاب إما أهله وولده وإما من يكون عنده أو أن يوقف الكتب بعده أو أن يبذلها لغيره بإهداء أو أن يبيعها إلىٰ آخره.

وهـٰذا يعني أنه كلما اعتني بالكتاب من جهة جلده والمحافظة عليه بما يبقىٰ أكثر في المستقبل كلما كان ذلك أكثر في الأجر والثواب.

ومن عجائب التفريط في الكتب ما ذكره القِفطي صاحب كتاب «إنباه الرواة»[1] -ربما ذكرته لكم مرة- في قصته مع كتاب الأنساب للسمعاني كان حريصا علىٰ الكتب جدا وجمع مكتبة من أنفس ما جُمع، قال: عُرض علي كتاب الأنساب للسمعاني بخط مصنفه الأجزاء الثاني والثالث والرابع، والأول مفقود بخط مؤلفه السمعاني، وبين القفطي والسمعاني نحو ٢٥٠ عاما أو قريبا منها. فاشترىٰ هـٰذه الثلاثة، قال: اشتريتها فلما مضىٰ مدة من الزمن وهو سأل عن الكتاب عن الجزء الأول وسأل فظن أن فقد وانتهىٰ، وبخط المصنف عُرضة إلىٰ أنه أعير ففقد، أو أنه ضاع أو إلىٰ آخره. قال: فمرة جاءني خادمي جاءه خادمه بسرّة من بُقول وقد لُفّت بورق كتاب، قال: فأخذت الورقة قبل -يعني البقول ما له قيمة عنده بالنسبة لهـٰذه الورقة، فلما نظرت إليها فإذا هو خط السمعاني الذي أعرفه فأتيت بنسخة الأنساب فإذا هـٰذا الورق من الجزء الأول المفقود.

قال: فذهبت سريعا إلىٰ الذي يبيع البقول فوجدت عنده بعض أوراق بقيت من هـٰذا، فقلت له: أين بقية هـٰذه الأوراق؟ قال: لففنا بها البقول وتفرقت في البيوت. فقال: إنا لله وإنا لله راجعون، مأساة، مصائب قوم عند قوم فوائد.

---

(١) «إِنْبَاهُ الرُّواة علىٰ أنْبَاء النُّحاة»، كتاب يُعدُّ من أهم المصنفات التي تناولت تراجم علماء العربية. ألفه أبو الحسن، جمال الدين بن يوسف القفطي (٥٦٨-٦٤٦هـ، ١١٧٢-١٢٤٨م). والكتاب معجم شامل لتراجم أعلام اللّغة والنحو منذ القرن الأول الهجري وحتىٰ زمان المؤلف، منتصف القرن السابع الهجري. وهو كتاب كبير يمتاز بسداد المنهج وجودة التصنيف وغزارة المادة.

هٰذا يأسىٰ علىٰ فقده، وذاك فرح لأنه وجد هٰذه الأوراق التي لا قيمة لها بخط الحافظ السمعاني يلف بها البقول ويعطيها الناس. قيل: فأقام مناحة شهرا من الزمان علىٰ العلم وأهله وعلىٰ كتاب «الأنساب» للسمعاني.

نريد من هٰذا نقول: إن الكتب لابد من العناية بها من جهة تجليدها من جهة حفظها، هٰذا وجدها مفرقة أن تتفرق الأوراق وأن تضيع؛ لكن لو كانت محفوظة مضموم بعضها إلىٰ بعض، فكان ذلك أدعىٰ إلىٰ استمرارها في مكتبتك.

والمسائل المتعلقة بذلك كثيرة لعل فيما ذكرنا تنبيهًا علىٰ بعض ما يحتاج إليه.

أسأل الله -جل وعلا- لي ولكم التوفيق والسداد والصلاح والرشاد.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

ننبه إلىٰ أن هٰذا الأسبوع عندنا درس الخميس -إن شاء الله- الصباح بعد صلاة الفجر ودرس يوم الجمعة بعد صلاة العشاء، درس يوم الخميس هنا ودرس العشاء في «فتح المجيد» في مسجد الأمير عبد الرحمٰن بن عبد الله الذي هو قريب.

وبالنسبة لدرس الاثنين الزاد هٰذا الأسبوع ما يكون عندنا شيء وننبهم الأسبوع القادم إن شاء الله علىٰ ما يجدّ في ذلك.

وليلة الأحد نكمل «كشف الشبهات» إن شاء الله تعالىٰ.

الخميس الصباح في الكتب التي كنا نقرأ فيها.

والجمعة مساء بعد العشاء في كتاب «فتح المجيد» في أواخره لعلنا ننتهي منه إن شاء الله في الأسابيع القادمة.

هٰذا وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

محاضرات (١/ ٥٨-٥٩)

المنهجية في قراءة كتب أهل العلم

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، الذي بعث محمّدًا بالهدىٰ ودين الحق، ليظهره علىٰ الدين كلّه، وكفىٰ بالله شهيدًا، وأشهد أنْ لا إلٰه إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبد الله ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلّم تسليما مزيدًا.

أما بعد؛

فأسأل الله -جلّ وعلا- لي ولكم العلم النافع، والعمل الصالح، والقلب الخاشع، والدّعاء المسموع. اللّهمَّ علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا أرحم الراحمين.

ثم إنِّي مسرورٌ بهٰذا اللِّقاء بالإخوة طلبة العلم في هٰذا البلد المبارك، وبالشباب بعامة، لما بيننا من صلة ومحبَّة في الله وإنْ لم نلتق قبلُ.

ولا شك أنّ العلمَ، من أقوىٰ الرّوابط بين أهله، فطالب العلم لطالب العلم أخٌ وناصرٌ ووليٌّ ومحبٌّ، فَهُم خاصّة أهل الإيمان، وقد قال جلّ وعلا: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[التوبة:٧١]، ومن مقتضىٰ الولاية، أنْ يحبّه وأنْ ينصرَهُ وأنْ يكون معه كما يحبّ أنْ يكون مع نفسه.

طلب العلم طريقٌ طويل، لا يكون إلاّ بتركٍ للهو والشّهوات، وإقبال جادٍّ عليه، لأنّ الله -جلّ وعلا-، وصف وهو أصدق الواصفين، وأصدق القائلين، وصف ما أنزل علىٰ محمد بن عبد الله -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-، بأنّه قول ثقيل، فقال جلّ وعلا: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[المزمل]، والقول الثقيل هو (الكتاب والسنة) ولهٰذا لما قيل للإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة رَحِمَهُ اللهُ في مسألة، توقف عن الإجابة فيها، قال القائلُ له: هٰذه مسألة سهلة، أو مسألة يسيرة. فقال: لا تقل هٰذا فما في العلم صَغُرَ أو كَبُر شيءٌ يسيرٌ أو شيء سهل، لأنّ الله -جلّ وعلا- وصفه بأنه ثقيل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾.

وهٰذا الفهم العظيم، هو أول درجات الصّعود في طلب العلم، أنْ تفهم أنّ العلم كلَّه ثقيل، فكل مسألة من مسائل العلم، تحتاج منك إلىٰ إقبال بقلْبٍ، وفهمٍ مستقل، فمن قال هٰذه مسألة سهلة فمرّ عليها وعنها مرور الكرام، فإنّه لن يحصِّل العلم حتىٰ يكون العلمُ عنده سواء، بكلِّياته وجزئياته، بقواعده وفروعه، بأصوله وتفريعاته، سواء من جهة العناية به، سواء من جهة تحصيله، وترديده وحفظه، وتثبيته، فالعلم إذا تركته تركك، وإذا أقبلت عليه أعطاك بعضَه، كما هو معلوم في المقالة المشهورة: العلم إنْ أعطيته كلّك أعطاك بعضه، وإنْ أعطيته بعضك لم تدرك منه شيئا.

وهٰذا واقع مجرَّب.

هٰذه المحاضرة عُنونت بـ:

المنهجية في قراءة كتب أهل العلم

وموضوعها مهم، لأنَّ كثيرين قرءوا كتبًا متنوعةً، لكن تجيء الشّكوىٰ منهم، متواتَرة بأننا لم نحصِّل علمًا راسخا مقعّدًا، لم نضبط العلم بحيث نطمئن إلىٰ هٰذا العمر الذي بذلناه في العلم، وهٰذا تجده عند

كثيرين؛ لأنهم قرؤوا مدّةً طويلة وربما حضروا بعض الدروس عند أهل العلم، وربما كتبوا الكتابات أو البحوث أو ألّفوا، ولكن في قرارة نفسه يدرك أنّه لم يحصِّل من العلم ما به تتميز مسائله، وما به يتّضح المُشْكِلُ منه.

فلهٰذا جاءت هٰذه المحاضرة-وكانت مهمَّة- لأنّه لابدّ من منهج مضبوطٍ للقراءة في كتب أهل العلم، ومن لم يسر في حياته كلِّها علىٰ منهج منضبط يرجعُ إليه، فإنّه سيترك الطَّريق الواضح، وسيأخذ بالطرق المختلفة.

كُتب أهل العلم، إذا نظرت إليها في هٰذا الزّمن وجدتها تصل إلىٰ عشرات الآلاف في الفنون المختلفة.

فهل العلم كثير، بكثرة هٰذه الكتب؟

الجواب ما وصفه وأجاب به الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ﷺ إذ قال: **العلم نقطة كثّرها الجاهلون**. يعني أنّ أصل العلم، الذي فقهه الصحابة -رضوان الله عليهم- قليل، هو فقه الكتاب وفقه أحاديث النبي ﷺ، وهٰذا قليل بالنسبة إلىٰ ما كَثُرَ في زمن علي ﷺ من كثرة المسائل والتفريعات التي لا يحتاج إليها الناس.

وكلّما ازداد الناس بعدًا عن الزمن الأول، احتاجوا إلىٰ ازدياد العلم، أو ازدياد الكتب لأجل أنْ يفقهوا، كما قال: العلم نقطة كثّرها الجاهلون، فلأجل وجود الجهل وأهله كثر التأليف وكثر التصنيف، لأجل أنْ يبسط العلم لأهله، وبه أهله يهدون الجاهل ويرشدون الضال.

كذلك إذا تقدمتَ في الزمن وجدت أنّ الكتب في أوّل زمان الإسلام قليلة، ثم تكثر شيئا فشيئا، وهٰذه الكتب تنوّعت بتنوع العلوم والفنون.

فأوّل ما دوِّن من الكتب: الحديث، فأوّل ما دون بعد القرآن العظيم دُونت السنة، علىٰ اختلاف أنواع التدوين ما بين صحائف محدودة، إلىٰ أشياء كثيرة.

ثم تلاها تدوين التفسير عن ابن عباس ﷺ كما هو معلوم في الصحيفة الصادقة التي رواها علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ، والتي قال فيها الإمام أحمد ﷺ: إنّ بمصر صحيفة في التفسير يرويها علي بن أبي طلحة، لو رحَلَ رجل لها ما كان كثيرًا. وهٰذه الصحيفة صادقة صحيحة عن ابن عباس وإنْ لم يلق عليُّ بنُ أبي طلحةَ ابنَ عباس، كما هو معلوم، فهي مروية بالوجادة عن مجاهد عن ابن عباس، كما حرّره الحافظ ابن حجر في أول التفسير من كتاب «فتح الباري».

جاءت مصنفات في التوحيد -في العقيدة- لما ظهرت الفرق المختلفة من خوارج ومرجئة، جاءت الرسائل ومختصرات التصنيف إمّا في كتب أهل الحديث، وإما مفردة شيئا فشيئا.

ثم توالىٰ الزمان، حتىٰ صار لكل فنٍّ كتب كثيرة.

وإذا أردنا أنْ نضبط المنهجية في قراءة كتب أهل العلم، فإننا نقسِمُ ذلك إلىٰ قسمين:

الأول منهجية عامة تصلح للضّبط في قراءة أيٍّ نوع من كتب أهل العلم، سواءٌ أكان في العقيدة، أمْ كان التفسير، أم الحديث، أم الفقه.. إلىٰ آخر الفنون الأصلية، والمساعدة، فالعلوم الأساسية والعلوم

الصناعية كلها ثمَّ ضوابط عامة يمكن أنْ تسير عليها في منهج واضح تضبط به العلم المنتشر في تلك الكتب.

وثَمَّ ضوابط خاصة بكل علم، التفسير له قواعدُ تحصيل علمه وله قواعد ضبط التفسير من حيث هو، الحديث كذلك، العقيدة كذلك، إلىٰ آخر الفنون...

القسم الأول: الضوابط التي تصلح لجميع كتب أهل العلم.

نقدِّم لها بمقدمة: وهي أنّ العلم الشرعي ينقسم إلىٰ قسمين:

- علم مقصودٌ لذاته.
- وعلم مقصودٌ لغيره.

أما العلم المقصود لذاته فهو علم الكتاب والسنة، فقه كلام الله جلّ وعلا، وفقه حديث رسول الله ﷺ هٰذان العلمان هما المقصودان بالأصالة، وبهما يُمدحُ أهل العلم، ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[المجادلة:١١]، يعني الذين فقهوا عن الله -جل وعلا- مرادَه وعن الرسول ﷺ مراده.

علم الكتاب وعلم السنة فيه التَّوحيد، وفيه الحلال والحرامُ.

فرجعَ الأمرُ إذن إلىٰ علمين، ألاَ وهما علم العقيدة والتوحيد، وعلم الحلال والحرام، الذي هو الفقه.

هٰذا العلمان التوحيد والفقه، مقصودان لذاتهما؛ لأنّه بالتوحيد يتحقق الإخلاص، وعبادة الله -جلّ وعلا- وحده دون ما سواه، والإيمان بأركان الإيمان حقّ الإيمان، وبالفقه يكون الامتثال في الأمر والنهي، لأنّ الله -جل وعلا-، جعل دينه أخبارًا وأوامر ونواهي، فالتّصديق بالأخبار هو الاعتقاد، وامتثال الأوامر والنواهي هو امتثال العمليات، كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، صدقًا في الأخبار وعدلاً في الأمر والنهي.

فإذن العلمان المقصودان لذاتها في طلب العلم هما التوحيد والفقه.

والمقصود لغيره من الفنون ما كان من العلوم الصِّناعية المختلفة، علوم العربية بعامة ليست مقصودة لذاتها، علم النحو، وعلم الصرف، وعلم المعاني والبيان، والبديع، وعلوم البلاغة المختلفة، وعلوم الاشتقاق وهي ضمن الصرف، ومفردات اللغة، وأشباه ذلك، وكذلك أصول الفقه، أصول الحديث، السيرة، هٰذه كلّها مقصودة لغيرها، ليس طلبها مقصودًا لذاته، يعني أنّ طالب العلم إذا قرأ هٰذه الفنون فإنما يقرؤها للتوصُّل إلىٰ العلمين المقصودين، ألا وهما علم التوحيد وعلم الفقه، فقه الكتاب والسنة، فإذا رامَ أنْ يجعل الوسيلة غاية، فإنه لا يكون فاقِهًا الكتاب والسنة، وإنّما يكون قام ربما بفرضٍ كفائيٍّ في تعلم وسيلة مساعدة لفقه الكتاب والسنة.

هٰذا النوع بعامة -العلم المقصود لذاته والمقصود لغيره- كتُبُه كثيرةٌ متنوعة، كما قلنا: هٰذه منهجية تشمل الجميع.

فأوَّل الضوابط في ذلك: أنْ تعلم أنّ كتب أي علم من العلوم تنقسم إلىٰ كتب مختصرة -متون-، وإلىٰ

متوسِّطة، وإلىٰ منتهية، إلىٰ شروح كبار.

فأيُّ علم من العلوم، التفسير، شروح الحديث بل الحديث نفسه، والفقه، والعقيدة، إلىٰ آخر ذلك، كتبه ما بين مختصر ومطوّل، من رامَ المطول قبل المختصر فقدَ منهجيَّةً مهمة في استقرار الأصول، والمختصرات لها فائدة، وفائدتها تثبيت أصول العلم، والبناء كما هو معلوم يحتاج إلىٰ أساس قبل تشييد ارتفاعه، فالمختصرات طريق للكتب المتوسطة، طريق للكتب المطوَّلة.

فإذن من لم يُحكم المختصرات فلا يُديمنّ النظر في المطوّلات، وإنما المطولات في أي فنٍّ من الفنون يُحتاج إليها في معرفة ما أشكل من المختصرات، فالمطولات بالنسبة للمختصرات، كالعلوم الصناعية بالنسبة للعلوم الأساسية، يعني أنّ ابتداء طالب العلم والمتوسط أيضا لا يكون بالكتب المطولة.

فإذن لا يحسنُ أنْ نسمع من بعض طلبة العلم المبتدئين أنْ يقول قرأت كتاب «فتح الباري»، وقرأت «المغني»، قرأت «المجموع شرح المهذب»، قرأت «المحلىٰ»، قرأت «نيل الأوطار»، إلىٰ آخر ذلك.

هٰذا لا يَحسن؛ لأنّه وإنْ قرأ فسيؤول به الأمر إلىٰ عدم التحصيل، سيكون ثمَّ معلومات متناثرة في قلبه لا يجمعها زمام ولا يربط بينها رابط.

هنا لابدَّ إذن كمنهجية في القراءة أنْ تبدأ بالمختصر، ثم المتوسط، ثم المطوَّل، في تأسيسك؛ لكن إنْ أردتَ مراجعةَ مسألة، فتراجعها في أيِّ كتاب شئتَ، في المطول أو المتوسط أو غيره.

لكن كتأسيس في طلب العلم، لابدّ من رعاية الاختصار، قبل المتوسط، قبل المطوَّل، وما أحسن صنيع الموفق ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ، إذ ألّف في الفقه ما يمثل هٰذا المنهج، فألَّفَ مثلاً كتاب «العمدة في الفقه»، المعروف وهو كتاب مختصر، أطول منه قليلا «المقنع» وله منهج، أطول منه «الكافي» وله منهج، والمنتهي يقرأ «المغني».

وسمعت الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي -رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ مرّة- يقول: إنّ الموفق ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ سبق المدارس الحديثة، فجعل «العمدة في الفقه» للمستوىٰ الابتدائي، و«المقنع» للمستوىٰ المتوسط، و«الكافي» للمستوىٰ الثانوي، و«المغني» للمستوىٰ الجامعي.

طبعًا بالنسبة إلىٰ أهل العلم الذين يدركون هٰذه الكتب، وإلاّ فربّما قرأ بعض من في المستوىٰ الجامعي الآن، «العمدة» ولم يدرك أكثره.

فإذن من المهم في المنهجية في القراءة، أنْ يكون ثمَّ تفريق ما بين التأسيس والإطلاع، وهٰذه مرة كلمة قلتها وسجلت وهي مهمة لو رُجِعَ إليها، وهي: «**الفرق ما بين العقد والملح في العلم**». العلم منه عُقَد يصار إليها ومنه ملح مساندة، فمن رام المُلح وترك عقد العلم، فإنّه لن يدرك بل سيكون عنده أخبار كثيرة ومعلومات أو ثقافة لكن لا يستطيع أنْ يتكلم بوضوح في مسألة عَقَدية، أو في مسألة فقهية.

فإذن أول المنهج العام في قراءة كتب أهل العلم بعامة، أنْ يكون ثمَّ انتقال من المختصر إلىٰ المطوّل، وهٰذا يتفرّع بتفرع الفنون المختلفة.

الثاني: أنْ يكون القارئ منتبهًا إلىٰ مذهب الإمام أو المؤلف، فالعلماء ألّفوا كتبًا ولكن ألفوها بحسب

نزْعَةِ كلّ منهم من جهة مذهبية، فمنهم من هو من الحنابلة، ومنهم من هو من الشافعية، ومنهم من هو من الحنفية، المالكية، وكذلك منهم من صفا مشربه في السنة، ومنهم من صار عنده صواب كثير وغلط قليل في السنة، ومنهم من خلط سنة وبدعة إلىٰ آخر ذلك، فمعرفة هـٰذا المؤلِّف والمُؤَلَّف مهم قبل الإقبال عليه، وهـٰذا لابدّ منه، لأنّه قد يتأثر القارئ، بمؤلف وهو لا يدري إلىٰ أيِّ شيء نزع.

فمثلاً بعض طلبة العلم، يرجّح دائما ما في (شروح كتب الحديث) علىٰ ما في الشروح المطولة في كتب الفقه، لأنّ شارح الحديث عندهم أكثر استقلالا وأميل للاجتهاد من الذي ألّف في الفقه، فينظر إلىٰ أنّ ترجيح صاحب كتاب الحديث أوثق من ترجيح صاحب كتاب الفقه، هـٰذا ليس صوابًا علىٰ إطلاقه.

بل نجد أنّ شرّاح الحديث نزعوا في ترجيحاتهم إلىٰ مذاهبهم، فمثلا، تجد أنّ الحافظ النووي في «شرح مسلم» رجَّح ما يرجحه الشافعية، وإذا دخل أيضا في استدلالٍ وتطبيقٍ لأصول الفقه، فهو يطبق أصول الفقه الشافعية، فينظر الناظر إلىٰ أنّه إذا قال في مسألة ما هـٰذا الحديث صحيح، وهـٰذه المسألة الراجح فيها كذا لمجيء الحديث الصحيح بها. فيرجِّح من جهة ترجيح النووي، المبني علىٰ صحة الإسناد، وهـٰذا صحيح في كثير من المسائل، وغيرُ صحيح في بعض، لهـٰذا نجد أنّه رجح أشياء في مسائل الصواب خلافُها، لم؟

لأنّ صحة الإسناد، أو صحة الحديث، ليست كافية في الفقه، بل الأهم منها، أنْ ننظر في وجه الاستدلال من الحديث علىٰ المسألة، وجه الاستدلال يعني الاستنباط، كيف استنبط الحكم من المسألة، استنباط الحكم من الدليل، هـٰذا يُرجع فيه إلىٰ أي علم؟!

إلىٰ أصول الفقه، الحكم بصحة الإسناد يُرجع فيه إلىٰ مصطلح الحديث وإلىٰ علم الرجال.

في كلا الأمرين المصطلح والرجال، وعلم أصول الفقه، هـٰذه كلّها لها تبعات ولها خلفيات سابقة، فتجد أنّه رجّح صحة الإسناد لمذهبٍ له في الإسناد.

فمثلاً، تجدُ أنّه يرجح صحة الترجمة المعروفة (عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه)، أو يرجِّح صحة (بهز بن حكيم عن أبيه عن جده)، أو ما أشبه ذلك، وغيره قد ينازعه في ذلك.

كذلك من جهة رجل، هل هو ثقة أم ليس بثقة، هل هو صدوق أم هو يهم، هل هو مقبولُ الرّواية في هـٰذا الباب أم ليس بمقبول الرواية، هل هو مقبول الرواية عن هـٰذا الشيخ أم ليس بمقبول الرّواية، وهـٰذا مما يدخل في علم علل الحديث.

المسألة الثانية أصول الفقه إذا صح الإسناد، وصح الحديث، فكيف نستنبط الحكم من الدليل لابدّ من استخدام أصول الفقه فيأتي استخدام أصول الفقه في بعض الأحيان موافقا لمذهب المؤلف، فينظر الناظر ويقول: هـٰذه المسألة رجحها الحافظ ابن حجر، رجّحها الحافظ ابن حجر بناءً علىٰ مذهبه في أصول الفقه، فيأتي الناظر، ويقول الدليل كذا وصحّح إسناده الحافظ أو صححه الحافظ في «الفتح» أو في «البلوغ»، ورَجّح كذا.

لكن المسألة لا تقف عند هـٰذا الحد، بل لا بد من النظر في أصول الفقه التي بها استنبط الشارح الحكم

في المسألة.

ولهٰذا نقولُ: إنّ بعض المسائل، جاء الخَلل فيها:

- من جهة العقيدة.
- من جهة عدم إحسان تطبيق أصول الفقه.
- أو من جهة عدم معرفة هدي السلف.
- أو من جهة أنّ المؤلف لم يُكمل الآثار في هٰذا الباب.

وهٰذا متنوعٌ كثير، فتجد مثلًا عند الحافظ النووي، عنده أشياء حتىٰ في كتاب «رياض الصالحين»، في كتاب رياض الصالحين عقد بابًا في كراهة الحلف بالأمانة وبتربة فلان وبقبر فلان، والحديث الذي استند إليه قوله – عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»، واستند أيضا إلىٰ ما صح في السنن عنه عليه الصلاة والسلام أنّه قال: «**من حلف بالأمانة فليس منّا**»، فيأتي الناظر ويقول النووي قال: يكره، ما دليل النووي؟ أتىٰ بالدليل الذي فيه قوله – عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»، ويدخل في عموم قوله من حلف بغير الله الحلف بالقبر أو بالتربة أو بالأمانة، إلىٰ آخر ذلك، فإذًا هناك بونٌ شاسعٌ ما بين قوله: مكروه، وما بين قول النبي ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»، وقوله: «**من حلف بالأمانة فليس منا**»، ومن المتقرر عند المحققين من أهل العلم أنّ قول النبي ﷺ: «**ليس منّا من فعل كذا**» أنّه يدلّ علىٰ التحريم كما هو مقرر عند الجمهور في تحقيق أصول الفقه.

إذن الترجمة شيء والاستدلال شيءٌ آخر، لو ناقشنا النووي لَمَ ذهبتَ إلىٰ الكراهة؟ ما ندري بمَ يجيب؟ لكنْ أظنّ أنّه نزع إلىٰ شيء عنده في أصول الفقه، به فهم من قوله: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»، أنّ المقصود به كفر النعمة أو الشرك الأصغر، وهٰذا يدخل في كراهة التحريم، ولم يطلق كراهة التحريم، وإنّما أطلق الكراهة دون التحريم.

المقصود من هٰذا أنْ تنتبه إلىٰ الفرق ما بين وجه الاستدلال وما بين حكم صاحب الكتاب، وهٰذه مسألة كبيرة تُدخلك في أنواع من البحث في قراءة كتب أهل العلم.

فإذن ضابط عام، فيما تقرأ من كتب أهل العلم أنْ تتبين منهج المؤلف، فليس كلّ عالمٍ رجّح مسألة، تكون راجحة في نفس الأمر، بل لابدّ لرجحان مسألة، من صحة الدليل، ورجحان الاستدلال.

ومن الفُروق المهمة في قراءة كتب أهل العلم، وفي طلب العلم ألاّ يظنّ الظان أنّ الراجح في المسائل العلمية يكون راجحًا لمجيء الدليل لقولٍ، وعدم مجيء الدليل لقول آخر، هٰذا قليل، وهٰذه هي المسائل التي تسمىٰ مسائل الخلاف، وهي ليس الكلام فيها، وإنّما أكثر الخلاف مجيء دليل، ينزع المجتهد الأول منه بوجه استدلال، وينزع المجتهد الثاني منه بوجه استدلالٍ آخر، متىٰ يكون الاستدلال راجحًا؟ ويكون القول في المسألة راجحًا؟ إذا كان الاعتراض علىٰ الاستدلال الأول أقل من الاعتراض علىٰ الاستدلال الثاني.

تجد مثلا إذا نظرت مثلا في «نيل الأوطار» أو «فتح الباري» أو «المجموع» أو «المغني»، أو غير ذلك،

ترىٰ أنّ هٰذا الإمام ينزع من نفس الدليل إلىٰ حكم، والآخر ينزع إلىٰ حكم آخر من نفس الدليل، وهٰذا راجع إلىٰ اختلاف المجتهدين.

متىٰ يكون القول راجحا؟ نرجح الأول أو الثاني؟! ليست المسألة مسألة أهواء ولا شهوات، يرجِّح ما كان الاعتراض عليه من القولين أقل، وإلاّ فلا تتصوَّر أنّ ثمة مسائل كثيرة في العلم الرَّاجح فيها راجح مطلق، بمعنىٰ أنْ يكون الأول صوابًا تاما، والآخر غلطًا تامًّا، هٰذا قليل في مسائل العلم، والأكثر أنْ يكون هٰذا عنده وجه استدلال، وهٰذا عنده وجه استدلال، لكن الاعتراض علىٰ أحد الاستدلالين أكثر من الاعتراض علىٰ استدلال الإمام الآخر، فيكون ما قلّ عليه الاعتراض راجحًا وما كثُر عليه الاعتراض مرجوحًا.

الضابط الثالث: من الضوابط العامة في المنهجية، أنْ ينتبه طالب العلم، إلىٰ المسألة التي يقرؤها في فَهْمٍ بلغةِ أهل العلم، وهٰذا يحتاج إلىٰ شيء من التَّفصيل:

ذلك أنّ لغة أهل العلم، بها أُلفت العلوم فمن نظر مثلا في فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بما يفهمه من لغته الدّارجة أو من لغة الجرائد أو من لغة الثقافة العصرية، فإنّه سيخطئ في كثير من المسائل، في فهمها، في فهم مراد شيخ الإسلام من كلامه، لأنّ أهل العلم علىٰ اختلاف العصور دوّنوا العلم بلغة العلم، لم يدونوا العلم بلغتهم في زمانهم حتىٰ يتواصل العلم ويلحق الآخر بالأول في فهم العلم.

فإذن العلم له لغة، العلم له مصطلح، العلم له ألفاظ، يجب أنْ يُفهم العلم بالوعاء الذي احتوته تلك الألفاظ، فالألفاظ وعاءٌ للمعاني فكل لفظ، في كتب أهل العلم لا يسوغُ أنْ يفهم بما عند القارئ من المقررات السابقة، لأنّه إذا فهمه علىٰ هٰذا الأساس فإنه سيفهم العلم علىٰ غير مراد أهله، وهٰذه مهمة جدًّا، وإنما تدرك بطلب العلم عند أهل العلم، كيف أو ما مراد العلماء في الفقه في هٰذه الكلمة؟ و هٰذه الكلمة؟ وهٰذه الكلمة؟ ما مرادهم في العقيدة بهٰذه الكلمة؟ وهٰذه الكلمة؟ وهٰذه الكلمة؟ ما مرادهم في النحو؟ إلىٰ آخره.

فألفاظ العلم ألفاظ رعاها العلماء.

وهكذا ينبغي علىٰ كل طالب علمٍ درّس أو تلقىٰ العلم أنْ يجتهد في التعبير عن العلم بلغة أهله، فإنْ عبّر عن العلم بغير لغة أهله، فإنّه لن يكون متصلا مع من سبقه بسبب وثيق، وكذلك من فهم كلام أهل العلم علىٰ غير ما تقرره لغة أهل العلم، فإنه لن يدرك.

الضابط الرابع من الضوابط العامة: أنّ كتب أهل العلم المطوّلة والمتوسطة والمختصرة، تحتاج من القارئ ومن طالب العلم إلىٰ تدوين للمهم منها، فالقراءة وحدها غير مجدية، فلابد مع القراءة من تدوينٍ وكتابة، وكم سمعنا في كتب أهل العلم، وفيما خلّفوه مختصرات للكتب، تجد مثلا العالم الفلاني اختصر الكتاب الفلاني، واختصر الكتاب الفلاني، واختصر الكتاب الفلاني، لـمَ؟ هل هو رغبة في الاختصار من حيث هو؟ لا، الاختصار نوعٌ فهمٍ للمختصَر.

ولذلك انتخاب طالب العلم من كتب أهل العلم ما ينفعه في فهم العلم هٰذا مهم.

فتأخذ مثلا في قراءتك في المختصرات أو في المطولات تأخذ الفوائد وتجعلها في كُنَّاشَةٍ مستقلة، في دفتر مستقل.

وهٰذه الفوائد تترقىٰ معك، بترقي عمرك في طلب العلم.

فستجد يومًا ما بعد سنين عددا، أنّ ما كتبته في أول الطلب مع أنه كان عندك أعَزّ من بيضِ الأَنُوق في الفائدة، ستجد أنّه لا شيء، لأنّه صار عندك واضحا جدا، بحيث إنك تقول: كيف كتبت أول عمري هٰذه الفائدة.

فمثلا واحد يكتب الفرق بين السنة والمستحب، بعد سنين يرجع يقول: كيف أنا أفرق بين السنة والمستحب!! يعني هٰذه المسألة واضحة ما تحتاج إلىٰ أنْ تكتب فائدة من كتب أهل العلم.

مثلا يكتب هل المباح من الأحكام التكليفية أو خارج عن الأحكام التكليفية، فائدة ينقلها من كتاب أصول أو كتاب قواعد، وهٰذا يجد في يوم ما أنّ هٰذه المسألة لا تستحق أنْ تدون.

القواعد انقسامها إلىٰ قواعد كلية وإلىٰ قواعد جزئية، والجزئية انقسامها إلىٰ كذا وكذا في قواعد الفقه، هٰذه سيكتبها يوما ما، ثم بعد ذلك يقول: هٰذه لم أحتج أنْ أكتبها، لظنه أنها صارت واضحة عنده، فمن سهولتها قال: لا احتاج إلىٰ كتابتها، وهٰذا غير صحيح. فإنما تتضح بالانتخاب.

يعني أنّك إذا قرأت كتابا، فاجعل دائما بجنبك الدفتر والقلم، واكتب الفوائد التي تمر بك، أكتبها تارة بالعنوان، ترجع إليها في وقت فراغك وتملي، وتارة تكتبها بالتفصيل حتىٰ تراجعها مرّةً وثانيةً وثالثةً، فإذا اتضحت، صار ما بعدها من العلم أيسر، كما تعلّم الصغير ألف باء تاء ثاء، فإنّ العلم كذلك يحتاج إلىٰ تعوّد.

هٰذه بعض الضوابط العامة في قراءة كتب أهل العلم بعامة.

وسبق أنْ ألقيت كلمة بعنوان: «**كيف تقرأ كتب شيخ الإسلام ابن تيمية**». مؤلفات شيخ الإسلام العقدية، ومؤلفات شيخ الإسلام الفقهية، سواء من الرسائل والقواعد والأصول في هٰذا العلم أو من هٰذا العلم، أو من الكتب الكبار.

كيف تقرأ كتب شيخ الإسلام ابن تيمية. هٰذه آمل أنْ يرجع إليها الأخ لأنها تفصيل وهي طويلة بعض الشيء، تفصيل لضوابط عامة في قراءة كتب شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي تنطبق أيضا في جمل منها علىٰ غير كتب شيخ الإسلام.

إذا تبين ذلك، فالقسم الثاني ممّا يحتاج فيه إلىٰ تبيين المنهجية، التّفصيلات بالنسبة للفنون، يعني كيف نقرأ كتب التفسير، كيف نقرأ كتب العقيدة، كيف نقرأ كتب الفقه، كيف نقرأ كتب الحديث إلىٰ آخره، تلك ضوابط عامة، ونأتي الآن إلىٰ ضوابط خاصة بكل فن من الفنون.

نبتدئ **بالتفسير** لأنّه شرح كلام الله –جلّ وعلا–، وفَسْره، وبيان تأويله.

التفسير لا شك أنّه من العلوم المهمة جدا بل هو أصل العلوم، لأنه فقهُ القرآن؛ والله –جلّ وعلا– قال لعباده: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[محمد]، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ

عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[النساء]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[ص]، والآيات في الأمر بالتدبر متنوعة، التفسير كتبه منها المختصر ومنها المطول؛ لكن كيف يترقّىٰ طالب العلم في فهم التفسير، كيف يقرأ كتبه؟ منهم من يقرأ المطولات من كتب التفسير دائما وهٰذا ينطبق عليه ما ذكرناه قبل ذلك.

المنهجية العامة لتحقيق هٰذا العلم، أنْ ترتب القراءة فيه علىٰ هٰذه المراتب:

أما المرتبة الأولىٰ: فهي معرفة الوجوه والنظائر في التفسير، فالتفسير بيان لمعاني القرآن، القرآن ثـمَّ فيه كلمات كثيرة تكررّت في السور، فقد تكون الكلمة لها معنىٰ في سورة البقرة، والمعنىٰ نفسه في سورة آل عمران وتمشي إلىٰ آخر المصحف، وهٰذه ما تسمىٰ بالكلمات ذات المعنىٰ الواحد.

وهناك كلمات لا، الكلمة واحدة ولها عدة معاني في القرآن، وهي التي تسمىٰ الوجوه والنظائر أو الأسماء المتواطئة والمُشْتَرَكَة.

معرفة المفردات هٰذه مهمّة، ومعرفة المفردات تكون بقراءة كتب الوجوه والنظائر، وكتب مفردات القرآن، أما الوجوه والنظائر فمن أمثَلها كتاب ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ «الوجوه والنظائر» وهو من الكتب المفيدة في هٰذا الباب، يقول لك مثلا كلمة (السماء) جاءت في القرآن علىٰ معنيين، (الأرض)، جاءت في القرآن علىٰ ثلاثة معانٍ، (الدابة) جاءت في القرآن علىٰ كذا معنىٰ، ويقدم قبل هـٰذا بمقدمة يبين لك فيها الأصل العام لمعنىٰ هٰذه الكلمة.

الخُطوة الأولىٰ إذن في قراءة التفسير أنْ تطلب معنىٰ الكلمات التي يكثر ورودها في القرآن لأنّك إذا ضبطت هٰذه الكلمات فإنها تتكرر في التفسير فتريح قلبك وعقلك من دقة النظر والحفظ حين قراءة كتب التفسير، وتروح تهتم بشيء آخر، وكذلك مفردات القرآن.

ومن أمثلها علىٰ غلطٍ عنده في الاعتقاد، وانتمائه إلىٰ مذهب المتكلمين، كتاب «مفردات القرآن» للراغب الأصفهاني، وهو من أمثل الكتب في معرفة معاني المفردات.

المرتبة الثانية: في قراءة كتب التفسير أنْ ترجع في التفسير إلىٰ اشتقاق الكلمات؛ يعني أنْ تضبط الكلمة هٰذه من أين اشتُقَّت في اللغة، وتبحثها بحثًا لُغَويا لأنّ بحث الكلمات بحثا لغويا، يقوي الملكة وما يحفظ والمحفوظ في علم التفسير.

المرتبة الثالثة: أنْ تنظر إلىٰ كتب التفسير، وكتب التفسير -كما هو معلوم- منقسمة إلىٰ مدرستين:

- مدرسة التفسير بالأثر.
- ومدرسة التفسير بالرأي، ومدرسة التفسير بالرأي أيضا لها عدة أقسام:
  - منها ما هو من الرأي المحمود يعني الاجتهاد والاستنباط، المقبول، الذي له أُسُسه، المقبولة شرعا.
  - ومنها ما فسر القرآن برأي مجرد يعني بغير حجة، إما في الاعتقاد أو في غيره.

فكتب التفسير إذن علىٰ قسمين: كتب التفسير بالأثر وكتب التفسير بالرأي.

كتب التفسير بالأثر، نعني بها الكتب التي تمحضت في نقل الآثار، فيأتي في التفسير هـٰذه فسرها ابن عباس كذا وهو قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير مثلا، وابن مسعود وعلقمة إلىٰ آخر ذلك، به قال فلان وفلان وفلان يعني نقل أقوال السلف في التفسير تسمىٰ التفسير بالمأثور.

من المهم الطالب العلم، قبل أنْ يقرأ في كتب التفسير بالرأي المحمود، مثل «تفسير القرطبي»، أو «تفسير الألوسي» أو تفسير كذا وكذا من الكتب، سواء كانت من مدرسة التفاسير الفقهية أو الموسوعية، قبل أنْ يقرأها لابدّ أنْ يطالع قول السلف في التفسير، لـمَ؟ لأنّه من المتقرر عند أهل العلم بعامة أنّه لا يجوز أنْ يُعتقد أنّ صوابا في مسألة من مسائل التفسير يحجب عن الصحابة والتابعين، ويُدرِكُ هـٰذا الصواب من بعدهم؛ لأنّهم هم الذين نزل عليهم التنزيل -أعني الصحابة- فنقلوه إلىٰ من بعدهم، فكل تفسير يضاد، -والحظ أنني أقول: يضاد، ولا أقول: يخالف- تفسير السلف فإنه قطعًا غلط؛ لأنّه لا يجوز أنْ يُعتقدَ أو يظنّ أنّ ثمة صوابا في التفسير يُحجب عن سلف هـٰذه الأمة لأنه لا يجوز أنْ نقول أو نظن أنّ كلمة من القرآن جهلها الصحابة وأدركها من بعدهم، فسرها الصحابة بتفسير ويأتي المتأخر فيفسرها بتفسير مضاد له ويكون الصواب مع المتأخر هـٰذا قطعا ممتنع.

ولهـٰذا نقول: في أساسيات قراءة كتب التفسير أنْ تبدأ بقراءة التفسير بالمأثور، قبل التفسير بالرأي، أنْ تطالع آثار السلف في الآية، قبل أنْ تنظر في اجتهادات المتأخرين التي تكون مبنية علىٰ العلوم المختلفة؛ النحو ومفردات اللغة وأصول الفقه إلىٰ غير ذلك..

كتب التفسير بالأثر متدرجة، هناك صحيفة علي بن أبي طلحة التي ذكرنا مهمة أنْ تقرأ تفسيرها أول ما تقرأ ثم «تفسير عبد الرزاق» وهو مطبوع في أجزاء قليلة، ثم «تفسير ابن جرير»، «تفسير البغوي»، «تفسير ابن كثير» إلىٰ آخره، هـٰذه مدرسة التفسير بالأثر.

ثم مدرسة التفسير بالرّأي يعني بالاجتهاد والاستنباط، وأكثرهم استخدموا علوم الآلة يعني اللغة والمفردات في التفسير.

هـٰذه وهـٰذه فإذا ضبطت أقوال المفسرين ومشيت ومعها خَطوة فخطوة، ترجع إلىٰ التفسير بالرأي -لا بأس-، يكون عندك منهجية صحيحة تدرك بها الصواب من غيره في التفسير.

العقيدة كيف تُقرأ كتب الاعتقاد؟

العقيدة في الأصل واضحة هي بيان أركان الإيمان، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[البقرة:٢٨٦]، فالإيمان بأركان الإيمان الستة سهل واضح تقبله الفطرة، لكن لما شاع الخلل في ذلك، ألّف أهل العلم كتبا في الاعتقاد، وهـٰذه الكتب عند السلف علىٰ قسمين:

منها كتب أوردت الاعتقاد إيرادًا إجماليا.

ومنها كتب فصلت كل مسألة من مسائل الاعتقاد، فأُلف في الإيمان وحده عدة مؤلفات، أُلّفَ في القدر وحده عدة مؤلفات، ألّف في الكتاب -يعني في القرآن- عدة مؤلفات، وهكذا.

فإذن كتب الاعتقاد، منها ما عُرضت فيه العقيدة بعامة، ومنها ما عُرض فيه موضوع من موضوعات العقيدة.

طبعا يمشي معك ما ذكرناه أولا من التدرج بقراءة المختصر ثم المتوسط ثم المطول من الكتب.

وهٰذا ذكرناه في محاضرة بعنوان «**المنهجية في طلب العلم**»، يمكن أنْ ترجع إليها بتفصيل.

إذا سرت في فهم مختصرات العقيدة، فهل هٰذه هي النهاية؟

بعض طلبة العلم يرىٰ أنّ الأكثر فائدة أنْ يقرأ في الكتب المطولة في العقيدة، يقرأ مباشرة في فتاوىٰ شيخ الإسلام، يقرأ مباشرة في «الإيمان» لابن منده، يقرأ مباشرة في كتاب «التوحيد» لابن منده مثلا، أو الكتب المتقدمة، أو في «الشريعة» للآجري أو في كتاب اللالكائي، وهكذا.

وهٰذه الكتب لا شك أنّها أصّلت مذاهب السلف؛ لكن مذاهب السلف وأقوالُهم تفرقت بحيث إنّ المؤلفين الأقدمين لم يجعلوها متواليةً في انضباطٍ تأليفي واضح في مؤلفاتهم القديمة.

فأتىٰ المتأخرون من أهل العلم والسنة، كشيخ الإسلام ابن تيمية وابن قدامة، وغيرهما، أتوا فلخّصوا هٰذه العقائد في كتب مختصرة ومتوسطة لابدّ لفهم كلام السلف من فهم هٰذه الكتب.

فإذن الطريق إلىٰ فهم المطولات، أنْ تفهم مختصرات الاعتقاد، مثل «الواسطية» لشيخ الإسلام و«الحموية» و«لمعة الاعتقاد» لابن قدامة وهكذا في كتبٍ كثيرة مختلفة.

إذا ضبطت الكتب هٰذه، يمكن أنْ ترجع **إلىٰ الكتب المتقدمة علىٰ ثلاث مراتب:**

المرتبة الأولىٰ: أنْ يكون الإطلاع علىٰ المطول عند تقرير المسألة المختصرة، يعني مثلا، تأتي مسألة الإيمان في العقيدة، هل الإيمان قول وعمل واعتقاد أم أنّه قول واعتقاد دون عمل؟ المسألة المعروفة بالخلاف ما بين أهل الحديث والسنة ومرجئة الفقهاء.

الفرق بين هٰذا وهٰذا يكون في الكتب المختصرة لَمْحَة عنه، لكن تفصيله يكون في المطولة، إذا احتجت إلىٰ تفصيله تذهب إلىٰ الكتب المطولة بخصوصها، هٰذه المرتبة الأولىٰ.

ويتبع هٰذه أنْ تنتقل من مرتبة المختصر بعد إحكامه إلىٰ المطول بعامة، يعني إذا قرأت مثلا العقيدة وضبطتها علىٰ المنهجية فيها بقراءة المختصر ثم المتوسط إلىٰ آخره علىٰ نحو ما سبق إيضاحه، فإنك تنتقل إلىٰ كتب المتقدمين لقراءتها من أولها.

إذا ضبطت شروح الكتب المتأخرة فإنّ كتب المتقدمين ستَنْزِلُ كل مسألة منها منزِلها، أما إذا أخذت كتب المتقدمين دون النظر في قواعد المتأخرين التي ضبطوا بها الاعتقاد، فإنه سيكون ثم خلل كبير في فهم منهج أهل السنة وعقيدة أهل السنة.

مثال ذلك: ما ورد في بعض كتب أهل السنة من الكلام علىٰ أبي حنيفة الإمام -رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ ورفع درجته في الجنة-، هٰذا. لو أقبل مقبلٌ علىٰ كتب العقيدة الأولىٰ مثل بعض كتب السنة ونحو ذلك لوجد فيها كلامًا علىٰ هٰذا الإمام، لم يقله أئمة أهل السنة المتأخرون، وإنّما هجروا هٰذا الكلام وتركوه، فلا ترىٰ مثلا في كتب شيخ الإسلام ابن تيمية مقالةً سيئة في الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ، مع أنّ كتب السنة

المتقدمة فيها من هٰذا الكلام وفيها الكلام عمّا فعله وعما فعله... إلىٰ آخره، وأما الكتب المتأخرة فلا تجد فيها ذمّا للإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ بما في كتب الأولين، بل هُجِر ما في كتب الأولين، وقُرِّر ما يجب أنْ يقرر تباعًا لمنهج أهل السنة بعامة، لأنّ المسألة تلك كانت لها فتوىٰ بظروفها وزمانها إلىٰ آخره، فألف شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» ومنهم أبو حنيفة، مع أنّ قوله في الإيمان معروف وقوله في كذا معروف؛ لكن كما قيل في حقه: إنّه لا يُنْظر فيه إلىٰ هٰذه الأمور، لو قرأ قارئ في الكتب المتقدمة قبل المتأخرة فإنه سيحصل عنده خلل في الفهم.

من أين يأتي الخلل؟

يأتي الخلل من جهة أنّ كلام السلف له بساط حال قام عليه إذا لم يَرْعَ المتأخرُ بساط الحال الذي قام عليه كلام السلف فإنه لن يفهم كلام السلف، يعني أنْ تعرف حال ذلك الزمان، وما كان فيه من أقوال، ومن مذاهب، ومن فتن إلىٰ آخر ذلك، فينبني كلامهم علىٰ ما كان في ذلك الزمان، لكن المتأخر لما ترك، علمنا أنه تركه لعلة.

ولهٰذا مثلا لما طبع الشيخ عبد الله بن حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومعه بعض المشايخ في مكة لما طبعوا كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يروا بأسا من أنْ ينتزعوا منه بابًا كاملا، وهٰذا لأجل المصلحة الشرعية التي توافق منهج أهل السنة والجماعة، فانتزعوا فصلا كاملا متعلق بأبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وبأصحابه، وبالأقوال التي فيهم وذمهم أو تكفيرهم، إلىٰ آخر ذلك، انتزعوه.

لِمَ؟ هل انتزاعه كما قال بعضهم إنّه ليس من أداء الأمانة؟ لا بل هي أمانة، لأنّ الأمانة التي أُنيطت بنا ليست هي أمانة قبول المؤلفات علىٰ ما هي عليه، وإنما هي أمانة بقاء الأمة علىٰ وحدتها في العقيدة، وعلىٰ وحدتها في المحبة.

فإذا ذهب ذاك الكلام مع زمانه فإنّ تكراره مع عدم المصلحة الشرعية منه لا حاجة إليه، وهٰذا لا شك أنه من الفقه المهم.

بعض كلمات السلف في المبتدعة، بعض كلمات السلف في أهل الأهواء لها بِساطُ حال في الزمن الأول، وليس ذلك منطبقا علىٰ بساط الحال في الزمن هٰذا، ولذلك ترىٰ أنّ بعضهم أخذ من تلك الكلمات كلمات عامة فطبقها علىٰ غير الزمان الذي كان ذلك القول فيه، ولو رأىٰ كلام الأئمة الحفاظ والمحققين من أهل السنة، لوجد أنّه يخالف ذلك الكلام في التطبيق، أما في التأصيل فهو واقع.

هٰذا استطراد لبيان أهمية قراءة كتب المتأخرين من أهل السنة في الاعتقاد وإِحْكامها قبل إدمان النظر في كتب السلف؛ لأنّ إدمان النظر في كتب السلف دون معرفةٍ بقواعد أهل السنة التي قعّدها أهل السنة والجماعة المتأخرون فإنّ هٰذا يُعطي خللاً في فهم منهج السلف بعامة، وهٰذا له أمثلة كثيرة ربما تحتاج إلىٰ وقت طويل.

المرتبة الثانية: معرفة أقوال المردود عليهم من كتبهم، هٰذا الآن منهجية للمنتهين ليس للمبتدئين في طلب العلم، يعني بعد أنْ يُحكم الأصول والمختصرات، ويضبط كلام السلف، ينتقل بعدها إلىٰ معرفة

أقوال المردود عليهم من كتبهم؛ لأنّه لا يسوغ أنْ تقبَل ردًّا علىٰ مردودٍ عليه بعامة، دون أنْ تسمع أو تقرأ كلام المردود عليه إلاّ إذا كان الناقل له ثقة وهٰذا لا شك أنّه يكفي؛ لكن قراءة الكتب التي منها أخذت الأقوال توضّح لك المراد.

فتجد مثلا أنّه يقال: قال فلان كذا، ومذهب مثلا الأشاعرة في المسألة كذا، وإذا نظرت كتبَ القوم وجدت أنّ لهم تفصيلا، لم يحتج المؤلف إلىٰ ذكره في هٰذا الموطن لكن القارئ فهمه علىٰ الإطلاق، فيحصل هناك لبس في فهم مذهب القوم.

نعم نحن لا ندافع عن أهل البدع لكن الله -جلّ وعلا أوجب علينا أنْ لا يجرمنّا شنآن قوم علىٰ ألا نعدل، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾[المائدة:٨]، والمتخلص من هواه يكون متخلصا منه في العلم أولىٰ منه في الحُكْمِ وفي الرأي؛ لأنّ العلم يحتاج إلىٰ تجرد ومن تجَرَّدَ في العلم أقبل علىٰ الله -جل وعلا- بقلبٍ سليم.

فينظر مثلا في أقوالهم، في القول من حيث هو حتىٰ إذا أتىٰ من يردّ علىٰ من ردّ عليهم، فيقول: لا هٰذا ليس في كتبنا، فتكون أنت عنده بالحجة الدامغة؛ يعني من كان منتهيًا في طلب علىٰ العقيدة يقول لا مذكور في الكتاب الفلاني كذا وكذا، مثل المسألة التي كثيرا ما نمثل بها.

مثلا، نقول: المتكلمون والأشاعرة والماتريدية إلىٰ آخره يرون أنّ التوحيد الذي هو الغاية هو توحيد الربوبية، لا توحيد الإلهية، يعني من آمن بوجود الله -جلّ وعلا- وأنّه هو القادر علىٰ الاختراع وأنّه هو الخالق هٰذا يكفي في تحقيق (لا إله إلاّ الله)، فيأتي قائل، فيقول هٰذا ليس بصحيح، ليس عند علمائنا من الأشاعرة أو الماتريدية إلىٰ آخره ليس عندنا هٰذا الكلام، وإنما أنتم ترددون كلامًا، تبعًا لعلمائكم لا تدرون معناه، فتقول له: إنّ كتبكم المختصرة مثل ما في «السنوسية» المعروفة بأصول مذهب الأشاعرة أو عقيدة الأشاعرة، قال فيها ما نصه: فالإله هو المستغني عما سواه المفتقر إليه كل ما عداه، فمعنىٰ (لا إله إلا الله) لا مستغنيا عما سواه، ولا مفتقرًا إليه كل ما عداه، إلاّ الله.

فهنا تقوم أنت بالحجة الواضحة البينة.

ثم الحظ أيضا أنك قد تنقل كلاما عن متقدم ردّ به علىٰ من تقدمه، ولكن يكون في المذهب عند المتأخرين غير ما ذكره الإمام الأول عمن تقدمه، فتكون أنت تقول كلاما يأتي صاحب المذهب المنحرف يقول: ليس عندنا كذا، وقد يشكك الناس ويرد، مثل ما حصل فعلا في عدد من المؤلفات الموجودة.

فإذن طلاب العلم المحققون الذين يزاولون التأليف بخاصة هٰذا لابدّ لهم أنْ يرجعوا إذا أرادوا أنْ يؤلفوا، وخاصة في الردود أنْ يرجعوا إلىٰ أصول كتب الناس حتىٰ يرووا الكلام فيها نصا حيث يكون مع ذلك القيام بالأمانة، ونقل الأقوال كما هي.

لكن أعود فأنبه أنّ هٰذا ليس إلاّ بعد الإحكام في الاعتقاد، لا يصلح الرجوع إلىٰ كتبهم للمبتدئين ولا أوصيكم جميعا بالرجوع إلىٰ كتبهم لكن من أراد أنْ يردّ ردا صحيحًا أو أنْ يكون ذا منهجية كاملة في

ذلك، فلابدّ أنْ يسير علىٰ هـٰذا النحو.

المرتبة الثالثة والأخيرة: الإطلاع علىٰ فتاوىٰ العلماء في العقيدة، كثير من المسائل تنظيرية في كتب الاعتقاد سواء أكانت كتب الاعتقاد المتأخرة أو كتب الاعتقاد المتقدمة، تنظيرية.

من الذي يطبقها علىٰ الواقع؟

المحققون من أهل العلم والراسخون من أهل العلم، فالإطلاع علىٰ فتاوىٰ العلماء، ينقل تلك المسائل من كونها نظرية إلىٰ كونها علىٰ بساط الحال، وبساط الواقع، فإذا المرتبة الثالثة في منهجية قراءة كتب العقيدة، أنْ ترجع إلىٰ الفتاوىٰ في المسائل، لتربط ما بين ما هو موجود في كتب التوحيد وما هو موجود علىٰ الواقع.***٢٦

العلم الثالث: علم الحديث

وعلم الحديث التدرج فيه معلوم بأنْ تُحفظ الكتب المختصرة كـ«الأربعين النووية» ثم «العمدة» عمدة الحديث، ثم «بلوغ المرام»، أو أنْ ينتقل من «الأربعين النووية» إلىٰ «البلوغ» مباشرة، وينتقل بعدها إلىٰ «المنتقىٰ» إلىٰ آخر ذلك.

وهـٰذا واضح في التدرج العام في طلب علم الحديث.

لكن كتب الحديث، تحتاج منك إلىٰ منهج واضح في قراءتها، وأعني بكتب الحديث هنا شروح الأحاديث، أما كتب الحديث التي هي المتون فهـٰذه موجودة في الشروح.

شروح الأحاديث مختلفة بحسب اختلاف المؤلفين، وبحسب اختلاف الكتب، فشروح البخاري كما هو معلوم متنوعة، شروح مسلم متنوعة، شروح أبي داود متنوعة.

ولكن هناك صبغة عامة علىٰ هـٰذه الشروح، يمكن أنْ تنضبط إذا سرتَ عليها بضابط ومنهجية مقبولة في قراءة كتب الحديث:

الأول من هـٰذه الضوابط في قراءة كتب الحديث بخاصة أنّ المسألة الفقهية التي ذكرت في كتب الحديث يكون تفسيرها في شرح الحديث بحسب مذهب الشَّارح.

فإذا أراد الشارح -مثلا- أنْ يعرِّف المرابحة، فسيُعَرِّفُها بما عند أهل مذهبه.

إذا أراد أنْ يعرِّف مثلا العُروض في زكاة العروض، فسيعرفها بما عنده في مذهبه.

إذا أراد أنْ يبيّن معنىٰ الفقير والمسكين، سيبينها بما عنده في مذهبه.

إلاّ أنْ يكون محققا، يتوسع في كل مسألة وهـٰذا نادر أنْ تجد من يتوسع في كل مسألة من جهة التفسير.

فإذن تفسير الكلمات تفسير المسألة، صورة المسألة، هـٰذه ينبغي أنْ تؤخذ من كتب الفقه لا من كتب الحديث، وهـٰذا ضابط منهجي مهم، لأنّك ترد علىٰ هـٰذه المسألة في شروح الأحاديث، وضبط المسألة بتصويرها وبيان ما يتعلق بها ليس من واجبات الشارح، وإنّما هي راجعة إلىٰ الفقه، ففي كتب الفقه ترىٰ تفصيل الكلام علىٰ صورة المسألة وبيان ما عليها من الضوابط أو الشروط إلىٰ آخره، تجدها هناك.

فإذن قبل قراءة مسألةٍ ما في كتب الحديث تنظر هل فسَّرها هـٰذا الشارح بتفسير يستوعب الاستدلال أو

يستوعب المذاهب جميعا، ويرجّح فيها، أم هو ذكر تعريفا ومرّ عليه.

بل ينبغي لك أنْ لا تُقبل علىٰ كتاب حديث من حيث الشرح في مسألة من المسائل إلاّ وقد تصورتها فقهيًا، تصورت المسألة من حيث هي -ليس المقصود الحكم-، تصورت المسألة من حيث هي في كتب الفقه.

يعني مثلا أوقات النهي عن الصلاة، هٰذه إيضاحها يكون في كتب الفقه من حيث التعريف والضابط وتفصيل الكلام عليها يكون في كتب الفقه وكتب الحديث.

هٰذه المرتبة الأولىٰ؛ أنْ تأخذ صورة المسألة من كتب الفقه قبل قراءة شرح الحديث، إذا كان شارح الحديث لم يستوعب الكلام علىٰ صورة هٰذه المسألة.

وفي الغالب كما جربت وربما جرب الكثيرون منكم، أنّ شارح الحديث يعتمد علىٰ أنّ المسألة واضحة والصورة واضحة فيبدأ يتكلم عن حكمها اختلف العلماء فيها، استدل هٰذا بكذا وهٰذا بكذا، أما صورة المسألة فلا يأتي عليها ببيان.

المرتبة الثانية: أنّ تلحظ أنّ كتب الحديث بعامة، أعني شروح الأحاديث منها ما هو تأصيلي، ومنها ما هو للمجتهد، فمثلا كتاب «فتح الباري» هٰذا للمجتهدين، وإنْ كان يرجح فيه، لكن إيراده للخلاف وللترجيح وللمسائل بعبارة عالية جدًّا، من حيث صياغتها الأدبية، وصياغتها الفقهية أيضا، وغلط من قال: إنّ الحافظ ابن حجر، ليس من بابة الفقه؛ بل هو محدث فقيه وعبارته في ذكر الخلاف من أرفع عبارات أهل العلم لكنه يصلح للمجتهد الذي تصوّر الخلاف في المسائل، قبل «فتح الباري».

فلهٰذا ترىٰ مثلاً أنّ كتاب «جامع العلوم والحكم» هٰذا ينفع في تصوير المسائل وفي ذكر تأصيلاتها فيما ذُكر في الأربعين النووية للنووي رَحِمَهُ اللَّهُ.

بعده يأتي شرح «بلوغ المرام» لمحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني المعروف، وشرحه المسمىٰ «سبل السلام».

لكن فيه مسألة ربما خفيت علىٰ كثيرين، وهو أنّ «سبل السلام»، لم يؤلفه الصنعاني قصدا وإنما اختصر به كتابًا آخر لأحد علماء الزيدية وذلك الكتاب اسمه «البدر التمام»، وهو موجود بكامله، فاختصر «البدر التمام» في «سبل السلام»، وأضاف عليه بعض الأقوال، و لذلك تجد أنّ هٰذا الكتاب فيه عدم تحقيق في المسائل المنسوبة إلىٰ الإمام مالك والإمام أحمد رحمهما الله، أما الحنفية والشافعية فالغالب عليه الصواب، أما ما ينسب للإمام أحمد أو ينسب للإمام مالك، يعني من مذاهبهم فهٰذا تجد فيه هفوات كثيرة، بسبب أنّ الأصل علىٰ هٰذا الأساس، الأصل هو الذي نقل النقول الكثيرة.

فإذن في قراءة الكتب هنا من جهة العزو لا تأخذ العزو عن كتاب حديث، يعني قال الحافظ ابن حجر، ومذهب الإمام أحمد كذا، أو مذهب الحنابلة كذا، لا تأخذه منه لا تأخذه من الصنعاني، لا تأخذه من «نيل الأوطار»، لا تأخذ قوله مذهب الشافعية كذا، ومذهب الحنفية من هٰذه الكتب، بل لابدّ من الرجوع إلىٰ الكتب كتب المذاهب نفسها، لِمَ؟

لأنّا وجدنا أنّ عزوهم للمذاهب يختل كثيرا وخاصة في «سبل السلام» و«نيل الأوطار».

المرتبة الثالثة: أنْ تنتبه في قراءتك لكتب أهل العلم في الحديث وشروح الأحاديث إلىٰ أنّ مؤلفي الشروح لا يشترطُ فيهم أنْ يكونوا محققين في كل فنّ من الفنون، فلا تظنّن أنّ شارح «بلوغ المرام» أو شارح «نيل الأوطار»، أو شارح «البخاري» أو شارح «مسلم» أو شارح «أبي داود» أو «الترمذي» لأنه شرح كتاب حديث فهو محقق في كل المسائل التي شرحها، والواقع يخالف ذلك.

مثلا لو نظرت -هٰذا تمثيل لأجل كثرة الورود عليه- إلىٰ كتاب «نيل الأوطار» للشوكاني رحمه الله لوجدتَ أنه في الأصول إذا أورد مسائل الأصول فهو يحققها لأنّه قويٌّ في الأصول، أما إذا أتىٰ لمسائل التخريج -تخريج الحديث والرجال والحكم علىٰ الإسناد-، فتجد فرقا كبيرا بين مستواه فيه ومستواه في علم أصول الفقه.

فإذن تعرف الميدان الذي يحقق فيه المؤلف (الشارح) فمثلاً عندك الصنعاني يميل إلىٰ الظاهرية، ويتابع ابن حزم كثيرا في ترجيحاته وفي استدلالاته، «نيل الأوطار» من جهة استنباطه وإيراد الأدلة، واستعمال أصول الفقه، تجد أنّه يحقق في ذلك، ولأجل قوة تحقيقه وقع في مشكلات في بعض المسائل، لكن في التخريج في الرجال في الأسانيد إذا حكم هو ليس محققا في علم الحديث، وإنما هو ناقل ينقل في الغالب عن غيره، أو يذكر ما بدا له.

فإذن في منهجيتك في قراءة كتب الحديث -يعني شروح كتب الأحاديث- ينبغي بل يجب أنْ تعرف فنّ المؤلف، فن المؤلف ما هو؟ هل هٰذا المؤلف شرَحَ وفنه الرجال والأسانيد، شرح وفنه الفقه، شرح وفنه الأصول، شرح وفنه الاعتقاد، شرح وفنه اللغة، فإذا عرفت منهجه وعرفت فنه الذي يحققه، عرفت ميزة هٰذا الكتاب، وكيف تجعله في مرحليات القراءة.

أما أنْ يُظَن أنّ كل شرح للأحاديث ففيه كلّ الصواب، فهٰذا ليس كذلك كما هو معلوم.

لهٰذا تجد أنّ بعض الخلاف يكون في كتب الفقه أقوىٰ منه في بعض شروح الأحاديث، لم؟ لأنّه يكون المؤلف في شرح الحديث لم يحقق المسألة ويعتني بها كما اعتنىٰ بها شارح الفقه كالنووي في «المجموع» أو الحافظ ابن قدامة في «المغني» أو ابن حزم إلىٰ آخره.

أيضا من المنهجية المتقررة في كتب الحديث -ولا نطيل عليكم بهٰذا-، أنّ كتب الأحاديث يعني شروح الأحاديث الكبيرة، قل أنْ تسلم من غلط في العقيدة وسبب ذلك، ليس راجعًا إلىٰ قصورٍ أو إلىٰ بدعة في مؤلفيها بل كلهم حريصون علىٰ السنة؛ لكنه راجع إلىٰ عدم الإطلاع علىٰ ما في الباب من الآثار والسنن تارة، وراجع تارة أخرىٰ إلىٰ عدم الإطلاع علىٰ كلام المحققين في هٰذه المسألة، بل ربما وقع من بعضهم كلامات قبيحة في حق بعض الصحابة، وهٰذا لا شك أنّه لا يسوغ أنْ يقبله طالب العلم علىٰ إطلاقه.

بل تعرف أنّ شروح الأحاديث فيها سمين كثير وصواب كثير، وفيها أيضًا بعض الغلط.

يعني مثلاً هل يجوز أنْ يُقرّ في شرح من شروح الأحاديث، لعن معاوية؟ لا يجوز.

هل يجوز أنْ يقرَّ في شرح من شروح الأحاديث وصف عمر ﷺ بالمسكين؟ أين يقع هـٰذا المسكين من كلام رسول الله ﷺ، مثل ما قال بعض الشرّاح.

هل يتهم عمر ﷺ بإحداث بدعة التراويح، كما في بعض الشروح.

هل نجعل بعض الشروح مقبولة لأنّها شرح حديث لأجل مؤلفها وجلالته وإمامته إلىٰ آخر ذلك، ونقبل كل ما فيها؟

الصواب: لا، الصواب الكامل ليس إلاّ عند رسول الله ﷺ، ومن كان صوابه أكثر من أهل العلم، فهو الحري بالثناء، هو الحري بالإجلال؛ لأنّه اجتهد في أنْ يكون صوابه أكثر، وهـٰذه مسائل راجعة عند كثيرين إلىٰ مسألة الاستنباط والاجتهاد.

ومن القواعد المقررة عند الفقهاء أنّ العالم لا يُتْبَعُ بزلته وكذلك لا يُتَّبَعُ علىٰ زلته.

قال بعض العلماء: جعل الله -جلّ وعلا- لكل عالم غلطا إمّا في قول أو في فعل ويعلم الناس أنّه غلِط في هـٰذا حتىٰ لا يرتفع عالم إلىٰ مرتبة النبوة.

لا يمكن أنْ يُعتقد في أحدٍ أنّه علىٰ الصواب التام لا يخطئ البتة، هـٰذا ليس إلاّ إلىٰ رسول الله ﷺ.

لهـٰذا شروح الأحاديث ينبغي من جهة التوحيد والعقيدة، أنْ تُنظر علىٰ احترام مؤلفيها والترحم عليهم، وعذرهم فيما أخطؤوا فيه، لكن لا يتابعون علىٰ ذلك.

نقول: أخطأ أو يقول العالم الراسخ: أخطأ العالم، أولا يذكر أصلا أنّ فلان أخطأ؛ لأنّه ما من عالم إلاّ وله سهو، قد يكون غُلِبَ عليه، ما حقق المسألة، تبع ما كان شائعا عندهم إلىٰ آخر ذلك كما هو موجود عند كثيرين.

فلابدّ أنْ تُلاحَظ مثل هـٰذه المسائل في قراءة كتب شروح الأحاديث؛ يعني أنْ تجعل العقيدة معك، فلا تتساهل في من يتكلم علىٰ الصحابة ولو كان من شراح الحديث، أو يحسّن البدعة والخرافة، ولو كان من شراح الحديث، أو من يحسّن البدع العملية ولو كان من شراح الحديث، فإنّ هـٰذا لا يقبل منه، وهو علىٰ نيته ونترحم علىٰ الجميع، لكن طالب العلم لا يقبل كل ما في الكتب المختلفة؛ لأنّ مؤلفها فلان وفلان بل يُنْظَر إلىٰ دليلها وإلىٰ موافقتها لقواعد السلف الصالح رحمهم الله تعالىٰ.

لو أردنا أنْ نطيل لأخذنا الفقه وأخذنا الأصول والنحو والصرف إلىٰ آخره، ولكن ذكرنا العلوم الثلاثة هـٰذه (التفسير والعقيدة والحديث)، لتكون دليلا علىٰ غيرها والقواعد العامة، والضوابط العامة في أول الكلام ربما تمشي معك في قراءتك لأكثر الفنون.

وفي الختام أسأل الله -جلّ وعلا- أنْ يلهمني وإياكم الرشد والسداد، وأنْ يقينا الزلل والعثار، وأنْ يجعل صوابنا أكثر من خطئنا.

اللّهمَّ إنّا نستغفرك من سيّئاتنا وخطلنا وغلطنا، ونسألك اللّهمّ أنْ تعفوَ عنا جميعا، اللّهم ارحمنا وارحم آباءنا وارحم أمهاتنا، اللّهم واغفر لنا جميعا، ونسألك اللّهم أنْ تصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأنْ تصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأنْ تصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا.

اللّهمّ وأصلح ولاة أمرنا ووفقهم اللّهم لما فيه الرشد والسداد، وباعد بينهم وبين سبل أهل البغي والفساد يا أرحم الراحمين.

وفي الختام أيضًا أشكر الإخوة القائمين علىٰ فرع الوزارة في منطقة مكة المكرمة وعلىٰ رأسهم مدير الفرع الأخ الدكتور حسن الحجاجي، علىٰ اعتنائهم بهٰذه الدروس والمحاضرات والدعوة، ولا شكّ أنّ هٰذا من الواجبات الشرعية المهمة التي أُنيطت بالمسؤول أولا ويؤديها واجبا شرعيا من جهة أخرىٰ، فيؤديها علىٰ أنّها واجب ويؤديها علىٰ أنها مطلوبة شرعا.

فإثراء البلاد بالدروس العلمية وبالدعوة والمحاضرات النافعة هٰذا لا شك أنّه أمر مطلوب شرعا، وأيضا مما تُيسر له السبل ولله الحمد في هٰذه البلاد المباركة.

فلهم منا الشكر الجزيل ودعاؤنا لهم ولنا جميعا بالتوفيق والسداد.

وفي الختام أيضا ننبه علىٰ ما ابتدأ به إمام هٰذا المسجد وفقه الله لكل خير وزاده من الصلاح والتوفيق والهدىٰ، ننبه إلىٰ أنه في مثل هٰذه المقدمات التي يقدم بها لأهل العلم وطلبة العلم ليس من السنة أن يبالغ في وصف المتحدث ولا في وصف الضيف، وإذا كان ثَم ثناء فيكون في ظهر الغيب، أما في حضرته وهو يسمع فإن الحي لا يؤمن عليه الشيطان ولا تؤمن عليه الفتنة، وإذا كان نبينا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ- قال لمن قال له: يا سيدنا وابن سيدنا وقال أيضا: وابن خيرنا قال: «**قولوا بقولكم أو ببعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان**» فأين حالنا نحن.

وينبغي علينا أن لا تبالغ في الأمر، وإذا كان من ثناء أو حسن منٍّ ففي عدم حضرة صاحب الشأن؛ لأنه أدعىٰ لثباته وعدم مدخل الشيطان عليه، وهو اتباع للسنة التي نتبعها جميعا، جزىٰ الله جميعا خير الجزاء ووفقنا جميعا لما يحب ويرضىٰ.

وصلّ اللّهم وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الأسئلة]

المقدم: جزاكم الله خير وجعل ذلك في موازين حسناتكم، أيها الإخوة باسمكم جميعا نتقدم بالشكر والتقدير لفضيلة الشيخ صالح جزاه الله خيرا علىٰ هٰذه المحاضرة الطيبة القيمة.

وفي الحقيقة هناك أسئلة كثيرة صُدّرت بإعلام الشيخ بالمحبة في الله

الشيخ: أحبهم الله..

طلب: وأيضا هناك عدة طلبات تقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نرجو من فضيلتكم أن تخصصوا درسا بالمجيء لأهل مكة كل شهر أو كل شهرين أو ثلاثة أشهر أو بحسب استطاعتكم جزاكم الله خيرا.

الجواب: أهل مكة ولله الحمد طلاب العلم فيها والعلماء كثير، وكما قيل: أهل مكة أدرىٰ بشعابها

وبما يصلح لأهلها؛ لكن لا يمنع هـٰذا أن نزور إن شاء الله في مثل هـٰذه المحاضرة بين فَيْنة وأخرىٰ، ومكة لا يختار بها بدلا لأنها أفضل أرض الله -كما هو معلوم- والعمل الصالح فيها مضاعف؛ ولكن الواجبات كثيرة -كما هو معلوم- ونسأل الله -جل وعلا- للجميع الإعانة.

سؤال (٠١): ما الضوابط لدعوة الأئمة في مساجدهم للعامة، هل يبدأ بتصحيح العقيدة وبعد ذلك بغيرها أو يجمع بين العقيدة والفقه والزهد؟

الجواب أن هـٰذه المسألة المهمة؛ لأن دعوة العامة فيها التوحيد والعقيدة والاستقامة، لاشك أنه قيام بواجب عظيم، وهـٰذه مهمة الأنبياء والمرسلين ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[يوسف]، وقال جل وعلا: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[آل عمران:٧٩] قال بعض أهل العلم: الربّاني هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره.

والعقيدة لها مرتبتان: عقيدة إجمالية، وعقيدة تفصيلية.

والعقيدة الإجمالية هـٰذه هي التي لا يصح إيمان أحد حتىٰ يؤمن بها، وهي المتعلقة بأركان الإيمان؛ الإيمان بالله ربا بالله إلها وبتوحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات والإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره شره من الله تعالىٰ.

فشرح الإيمان وأركان الإيمان يصح بها إسلام المؤمن، فلابد من تعليم هـٰذا للناس حتىٰ يكونوا مؤمنين إيمانا صحيحا.

والقسم الثاني من العقيدة التفصيلي: وهـٰذا التفصيلي راجع إلىٰ ما يحتاج إليه، فمن المسائل ما تفصلها للناس لا بأس؛ مثل أصول المسائل التي جاءت في الكتاب والسنة؛ الإيمان بالملائكة الإيمان العام بالصفات صفات الله جل وعلا باليوم الآخر بالكتب والرسل وبالقدر هـٰذا الإيمان إذا فصلته بما جاء في النصوص فهـٰذا محمود أيضا.

ولكن هناك مرتبة من التفصيلي وهي أن يكون تفصيلا لائقا بأهل العلم مثل: الخلاف في مسألة عقدية بين أهل السنة وبين غيرهم، المعلوم أن عامة المسلمين علىٰ الفطرة لا يعرفون في الصفات التأويل، ولا يعرفون في الإيمان الإرجاء، ولا يعرفون في القدر الجبر كما هو مذهب الأشاعرة وغيرهم، وهـٰذا إذا كان المخاطب خاليا ذهنه من هـٰذه الأشياء فالأصل ألا تلقي عليهم الخلاف؛ بل تعلمهم ما دلت النصوص عليه تعليما عاما.

ولا تدخل العامة في مسائل من الصفات مثلا أو من القدر أو من مسائل الإيمان لا تسعها عقولهم، وقد قال علي رضي الله عنه: ما أنت محدِّث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة. لهـٰذا نهىٰ الإمام مالك رحمه الله عن قراءة أحاديث الغرائب، الأحاديث التي فيها أشياء جديدة لا تسعها عقولهم، بيانها أو إلقاؤها علىٰ الناس لابد أن يكون معها شرحها لأنه لا يسوغ أن تلقي شيئا من العلم الذي هو للخاصة علىٰ العامة دون بيان له وشرح، وإذا كان عقل العامل لا يسع الشيء فإنه لا يسوغ أن توقعه في قلبه، وقد

تحدثه بشيء يكون له به فتنة، والعلم من أصوله أن منه ما يخص به قوما دون آخرين.

وقد بوب علىٰ هٰذا البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: باب من خص بالعلم قوما دون آخرين. وساق فيه النبي –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– أنه قال لعائشة، بل في باب آخر وهو باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقع الناس في أشد منه، وساق فيه حديث عائشة «**لولا حدثان قومك بكفر لهدمت الكعبة ولبنيتها علىٰ قواعد إبراهيم**» مع أنه عمل صالح أن تبنىٰ علىٰ قواعد إبراهيم؛ لكن المصلحة الشرعية تقتضي أن تتركها فتركها النبي –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– لأجل ذلك.

فإذن السلف نهوا أن يحدث العامة بأحاديث الصفات الغريبة وأن يفصل ذلك في الخطب، أن يفصل ذلك في المحاضرات التي يحضرها العامة وإنما هٰذا علم لطلبة العلم، فإذا وُجد من عنده اشتباه في ذلك أو وقع هناك بدعة عامة في الناس فلابد من البيان العام.

فالأصل أن دعوة الناس إلىٰ التوحيد والعقيدة مبنية علىٰ شرح أركان الإيمان، الشرح الإجمالي والتفصيلي بما جاء في النصوص، أما الخوض في الخلافات وما هو تفصيل كما هو معلوم في كتب شروح العقيدة فهٰذا لا يرغب فيه للعامة فقد يكون لبعضهم فتنة.

سؤال (٠٢): أسئلة كثيرة تدور حول: هل من منهج أهل السنة والجماعة أخذ كلمات متناثرة من كلام الأقران، وضمِّها إلىٰ بعض مع اختلاف المناسبة وظروف الكلام، ثم الرَّد علىٰ هٰذه الكلمات مجتمعة وما يلحق ذلك من تفسيق أو تبديع أو منهج الموازنة بين الحسنات والسيئات.

وما هي ضوابط تكفير وتبديع المعين؟

الجواب: ننبه علىٰ منهج السؤال، والأدب في السؤال: أنّ سؤال السائل يُراد منه ليفيد نفسه ويفيد غيره بمسائل علمية.

أما السؤال الذي يُشخَّصُ فيه حالةُ شخص أو حالة فئة ولو لم يذكرها نصا، فإنني لا أرغب أن أسأل عنها؛ لأن هٰذا قد يجيب المجيب غافل عما حرَّر عليه السائل سؤاله فيقع الناس في إشكال.

ولهٰذا نجد أن بعض المشايخ سئلوا هل أنت قلت كذا وكذا؟ قال: أنا ما قلت كذا، والآخر يقول: لا أنا سألت هو قال. فيكون النتيجة –طبعا الشيخ صادق والسائل يقول: سألت فأجابني صادق– لكن جاءت من جهة السؤال، فالسؤال صياغته مهمة.

ومن حسن أدب طالب العلم أن يُحسن السؤال.

لهٰذا من المنهج العام في الإجابة في مثل هٰذه المحاضرات ألا يُجاب عن سؤال يشخَّصُ علىٰ شخص أو علىٰ فئة؛ بل يترك الجواب عنه، إذا كان مسألة عامَّة علمية فنعم، ولو كانت متعلقة بفرق باعتبارها فِرقا عامة موجودة في الكتب، أما ما يشخص علىٰ فلان من الناس الحاضر أو علىٰ كتاب فلاني أو ما أشبه ذلك، فهٰذا يكون الحديث مع صاحبه شخصيا لأجل إفادته، وأما إشغال من لم يفهم هٰذه المسائل بتلك المسائل فهو ليس ممَّا يراد.

فلينتبه لهٰذا، فهي قاعدة حتىٰ في الندوات والمحاضرات بعامة رعاية للاجتماع والائتلاف.

ما ضوابط تكفير وتبديع وتضليل المعين ؟

هٰذه مسألة تكلم عليها أهل العلم؛ لكن ينبغي كقاعدة أن يُعلم أن منهج أهل السنة والجماعة التفريق ما بين ثنائيَّة الكفر والكافر أو التكفير، وثنائيَّة البدعة والتَّبديع، وثنائية الفسق والتفسيق، فليس كل فسق قام بمعيّن صار المعين به فاسقا، وليس كل كفر قام بمعين صار به كافرا، وهٰذا لاشك أنّ له ضوابط وله قواعد تحكمه.

فإذن تقرير المسألة من حيث هي ما حكم كذا؟ فيقال: كفر أو شرك أو بدعة.

من قامت به تلك المسألة من قام به الكفر، فلابد من إقامة الحجة عليه حتىٰ يُحكم عليه باللَّفظ بأنه كافر، والحجة يُقيمها ورثة الأنبياء.

كذلك البدعة لابد من إقامة الحجة علىٰ من عمل بدعة أو دعا إلىٰ بدعة، فقد يكون قال ذلك عن تقليد أو نحو ذلك، فقبل أن تُطلِق عليه أنه مبتدع وتجري عليه أحكام المبتدع لابد من إقامة الحجة عليه.

لكن هنا يُنتبه إلىٰ التفريق ما بين الحكم الباطن والحكم الظاهر.

فالحكم الظاهر في التكفير وفي التبديع وفي التفسيق هٰذا لا بأس به باعتبار أنّه رعاية للتَّعامل معه.

فمن قام به الكفر لا تعامله علىٰ أنه مسلم حتىٰ تُقام عليه الحجة، من قام به الكفر لا تعامله معاملة مسلم مسدّد؛ بل في الباطن لا نحكم بكفره وفي الظاهر نأخذ الحذر منه في مسألة الذبائح ذبائح المشركين ومسألة الأضاحي عن المشركين وأشباه ذلك والدعاء للمشركين، تكلم العلماء فيها أنه وإن لم تقم عليهم الحجة فإنهم لا يدعىٰ لهم ولا يضحىٰ عنهم وأشباه ذلك؛ لأنهم قام بهم الكفر ظاهرا فنحتاط لديننا.

كذلك مسألة الفسق من جاهر بفسق وقد يكون غافلا عنه، فإنه لابد من الحكم عليه بالفسق باطنا وظاهرا بإقامة الحجة ببيان ذلك له والإنكار عليه ونصيحته وأشباه ذلك، وقبل ذلك فإنك تعامله معاملة الفاسق احتياطًا لدينك.

وكذلك المبتدع فتعامله معاملة المبتدع احتياطًا لدينك؛ لكن لا تصرح ببدعته.

وهنا ننتبه إلىٰ ضابط مهم أيضا في البدعة وهي أن هناك فَرْقا بين مخالفة السنة والبدعة فليس كل مخالفة للسنة إلىٰ غيرها يعدُّ بدعة كما حرّر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وإنما البدعة ملتزمٌ بها كما هو معروف بتعريفها: **طريقة مخترعة في الدين يضاهىٰ بها الطريقة الشرعية يقصد بالسلوك عليها نفس السلوك علىٰ الطريقة الشرعية؛ يعني من حيث التقرب إلىٰ الله.**

فقوله في تعريف البدعة (طريقة في الدين) طريقة يعني مسلوكة، فمن ضوابط البدعة أن كلا ملتزَما بها، أما لو خالف أحد السنة في وقت فلا يقال له: هٰذه بدعة أو أنت مبتدع؛ ولكن يقال له: السنة كذا، فإذا التزم بها صار ملتزما ببدعة، إذا التزم بها يعني يكرّرها فإنها صارت حينئذ تضاهىٰ بها الطريقة الشرعية.

مثلا لو رأيت أحدا قال: كلمة مثلا التوسل بالذوات أسألك بجاه أبي بكر، اللّٰهمَّ أسألك بجاه عمر أو بجاه أحمد ابن حنبل أو إلىٰ آخره، فهنا هل هٰذا مبتدع أم لا؟

فنقول له: هٰذا غلِط، أنت مخطئ، وهٰذا الدعاء بالجاه بدعة الدعاء بالجاه بدعة الدعاء بالذات بدعة لأن الجاه لصاحبه وأن ليس للإنسان إلا ما سعىٰ.

فالحكم عليه بهٰذا متىٰ يكون بالبدعة؟ إذا لازم؛ التزم به، كرّر، فهو يلازم هٰذا الشيء.

مثل الأشياء التي؛ ذكر معين في وقت معين هٰذا أتىٰ به مرة، مرة بعد الصلاة سلّم بعد الصلاة المفروضة ورفع يديه ودعا، رفع يديه ودعا.

هنا نقول: هٰذا خلاف السُّنّة، تقول: بدعة إذا كان صاحبها التزمها بعد كل صلاة يمارس هٰذا الفعل، كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الفرق بين البدعة ومخالفة السنة هو ضابط الالتزام. فإن التزم مخالفة السنة فهو من أهل البدع، وإن لم يلتزم فقد خالف السنة وأخطأ في ذلك فينكر عليه أو يدعىٰ إلىٰ آخر ذلك.

فإذن هٰذه المسألة ؛مسألة الفرق بين الكفر والكافر والفسق والفاسق والبدعة والمبتدع هٰذه المسألة مهمة.

وفي الجملة أوصيكم بأن هٰذه المسألة الذي ينبغي علىٰ طلاب العلم أن يعرفوا الكفر وشعبه، والشرك الأكبر والأصغر وشعبه، وأن يعرفوا الفسق والمفسِّقات، وأما الحكم علىٰ المعين فهو لأهل العلم، لك أن تحتاط لنفسك لكن الحكم عليه ليس إليك، فكما أنك ليست مخولا للفتوىٰ في مسائل الطهارة والصلاة والحج والبيع والشراء والنكاح والجنايات فلست مخوّلا في مسائل التكفير من باب أولىٰ فالنهي أشد، فلك أن تحتاط لدينك لكن ليس لك أن تحكم. فالحكم لابد أن يرجع إلىٰ أهله.

وإذا انضبطنا بهٰذا الضابط حصل تقارب بين الأفكار المختلفة في هٰذه المسألة العظيمة.

سؤال (٠٣): هل قراءة كتب العلم علىٰ هٰذه المنهجية تكفي أم لابد من الطلب عند العلماء؟

الجواب: الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول «الموافقات» جعل مقدمات بإحدىٰ عشرة أو اثنا عشرة مقدمة مهمة لطالب العلم أن يراجعه.

ومنها الفرق بين -ما حاصله في المقدمة- الفرق بين الكتاب والشيخ وساق فيه قول بعض العلماء: كان العلم في صدور الرجال -فالعلم لم يكن مدونا من أول الأمر- كان العلم في صدور الرجال فصار في بطون الكتب وبقيت مفاتيحه بأيدي الرجال.

لاشك أنه لا يستغنىٰ بالعالم عن الكتاب، كما أن من قرأ الكتاب وصار شيخا به فقد أتىٰ ببلية، كما قال أحد علماء الحديث وأئمة السلف: من أعظم البلية تشيخ الصّحفية؛ يعني الذين يقرؤون الصحف والكتب، فالعلم في الكتب ولكن مفاتيح فهم الكتب بأيدي الرجال.

فإذن هٰذه المنهجية لا يُتصور أنها تخرج طالب علم بلا رجوع إلىٰ أهل العلم؛ بل لابد من طلب العلم علىٰ الأشياخ، ولابد من الجلوس عند الأشياخ كما جلس جبريل عليه السلام عند النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إذْ جاءه وهو جالس في أصحابه قال: فأسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه وجعل كفيه علىٰ فخذيه. من أدب طالب العلم عند العالم، فسأله.

فلا بد من شيخ من معلم ولا يفقه العلم بلا شيخ.

فأهل العلم انتقدوا علىٰ من لم يكن لهم أشياخ وأخذوا من الكتب انتقدوا عليه انتقادات كثيرة، ترىٰ منها ما انتقد الذهبي علىٰ ابن القطان الفاسي، وما انتقد العلماء علىٰ ابن حزم وانتقدوا علىٰ جملة من الناس الذين قلت مشايخهم أو انعدموا أو قرؤوا العلم وأخذوا عن قراءة فقط، ينفع ولكن يصبح الغلط كثيرا، لابد من المشايخ وبهم يفهم العلم، وأعظم ذلك قول الحق جل جلاله وتقدست أسماؤه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] وقال جل وعلا: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾[التوبة:١٢٢].

مثلا في السنة يمكن -الأحاديث- تصلهم أخبار النبي ﷺ لكن لابد من المقابلة والأخذ علىٰ أهل العلم مباشرة.

هٰذا وأسأل الله الختام لي ولكم بالهدىٰ والثبات وأن يغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

✡✡✡✡

(١) سورة: النحل الآية (٤٣)، الأنبياء الآية (٧).

محاضرات (٢/ ٣٢)

طالب العلم والبحث

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه حامدا شاهدا أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد؛

فأسأل الله -جل وعلا- أن يجعل عملي وعملكم له خالصا، وأن يجعل ما سبق من أعمالنا مقبولا، وأن يبارك في قليلها وأن يعظم أجرنا فيها.

كما نسأله -سبحانه- أن يقينا العِثَار فيما نستقبل من أعمارنا، وأن يجعلنا من أهل الثبات علىٰ القول الحق والعمل الصائب، إنه سبحانه جواد كريم.

ثم إنه كما جرت العادة في فاتحة هٰذه الدروس نطرح مسألة من المسائل التي تهمّ طالب العلم، والعلم بها لابدّ منه لمن يعاني طلب العلم، ويعاني البحث، ويعاني النظر في كلام أهل العلم المتقدمين منهم والمتأخرين.

فقد ذكرنا جملة من المسائل التي يهتمّ بها طالب العلم، وسنح في البال أن نتكلّم الليلة عن مسألة مهمّة في هٰذا المجال ألا وهي: **طالب العلم والبحث.**

قد ذكرنا لكم فيما سبق في هٰذه الكلمات أنّ طالب العلم لابدّ له أن يجمع ما بين ثلاثة أشياء:

- ما بين تلقي العلم عن الأشياخ الذين ينفعونه.
- والثّاني الإطلاع والقراءة والتوسع في المطالعة.
- والثّالث في البحث؛ بحث المسائل وتحريرها والنظر في كلام أهل العلم فيها باحثًا مدوِّنا كاتبا ما يصل إليه في بحثه.

وقد ذكرنا المسألتين الأوليين:

طالب العلم والقراءة علىٰ الأشياخ، ومنهجية الطلب، وكيف يتعامل مع المشايخ، وأشباه ذلك وما يتفرّع منها.

وذكرنا أيضا طالب العلم والقراءة، وكيف يقرأ كتب أهل العلم، ومنهجية القراءة في كتب أهل العلم، والفرق ما بين كتب الأهل الفقه وكتب أهل الحديث في مقدمةٍ لذلك، إلىٰ أشباه هٰذه المباحث التي تتّصل بهاتين المسألتين.

وبقي أن نذكر شيئا من القول في مسألة طالب العلم والبحث.

والذي دعا إلىٰ ذلك؛ يعني إلىٰ طرح هـٰذا الموضوع شيئان:

الأول: ما ذكرته من أن طالب العلم لابد له أن يبحث، ولا ينبت لطالب العلم ريش لجناحيه يصلح له أن يطير بهما في سماء العلم إلا بالبحث، فمن لم يبحث يبقىٰ في العلم ضعيفًا.

والأمر الثاني: أن البحث به تتضح المسائل، وبه يتبيّن طالب العلم معلومات كثيرة متنوِّعة لم تكن تحصل له بلا بحث.

فكم من معلومات استفدناها من جرَّاء بحث مسألة في اللغة، أو بحث تفسير آية، أو في بحث موضع حديث، فمرّ معنا أثناء البحث مئات الفوائد المختلفة، وهـٰذه إذا كان طالب العلم صحيح الذهن فإنه يستفيد مما يمرّ عليه، ولهـٰذا يفضَّل دائما أن يكون البحث لطالب العلم المبتدئ أو لطالب العلم الذي في طريق الطلب دائما يفضَّل أن يعاني البحث وأن لا يرجع دائما إلىٰ الفهارس التي توصله إلىٰ المقصود بأقرب طريق؛ لأنّ هـٰذه الفهارس إما فهارس كشفية عن طريق المادة، أو عن طريق أول الحديث مثلا، أو عن طريق كلمة في آية إذا كان لا يحفظ القرآن، طيبا يعاني هـٰذه الآية في أي سورة ينظر ويتأمل لأنه سيستفيد من خلال ذلك، هـٰذا الحديث أين أجده في البخاري، موضوع الحديث هل هو في كتاب كذا، في مسلم أين أجده وهكذا.

بمعنىٰ أنه إذا كان ثَمّ وقت عند طالب العلم فكلما كان أبعد في بحثه عن الوسائل المساعدة السّريعة كالفهارس، فضلا عن السريعة جدا كالكمبيوتر والبرامج الحديثة، كلما كان مستفيدًا للمعلومات ومتوسعا فيما لا يتصل ببحثه.

يبحث مسألة في الفقه فيمر علىٰ كتاب كامل من كتب الفقه؛ يعني مثلا كتاب البيوع حتىٰ يصل إلىٰ مسألة، من خلال هـٰذا البحث سيمر علىٰ المسائل هـٰذه وسيرسخ في ذهنه بعض ما يرسخ، وسيمضي ويعبر بعض ما يعبر؛ لكنه سيستفيد فوائد كثيرة.

لهـٰذا نقول: إنه كأصل عام لطالب العلم مع البحث كلّما كان أبعد عمَّا ييسِّر له البحث جدا في مقتبل الطلب ومتوسّط الطلب كلما كان أنفع له.

فإذن كمنهجية ابتدائية لا تفرح بسهولة العثور علىٰ المسألة في مقتبل أمرك بقدر ما تفرح إذا بحثت عن مسألة وتعبت في البحث حتىٰ وجدتها.

طبعا من المسائل ما هو معروف المكان، أو من الأحاديث ما هو معروف المظنة، لكن منها أحاديث لا تدري أين يوجد.

فلا بد أن تبحث، وهٰذا البحث قد يكون عن طريق «المعجم المفهرس» مثلا في الحديث؛ تبحث عن هٰذه الكلمة، ويخرج لك الباب والكتاب إما في البخاري وإما في مسلم إلىٰ آخره من الكتب، والجزء والصفحة في مسند الإمام أحمد إلىٰ آخره، هٰذا متيسّر، لكن إذا أردت الفائدة الكبرىٰ لا تعاني ذلك إلا إذا كان عندك متسعا من الوقت؛ بل عاني التّعب، مثلا تنظر في موضوع الحديث، إلىٰ آخره.

هٰذا كمقدمة مهمّة في أنك في بحثك في أي مسألة كلّما عانيت أكثر كلما استفدت أكثر.

هٰذه فوائد علمية، إضافة إلىٰ الفوائد التّعبدية الكبيرة التي يحصل عليها طالب العلم إذا مرَّ علىٰ تفسير آيات كثيرة فيها ذِكر الرحمٰن -جل جلاله- وذكر صفاته وذكر نعوت كماله، وما يحصل للقلب من فوائد العبادة والرِّقة والخضوع لله -جل وعلا-، المرور علىٰ الأحاديث كم من مرة سيصلي علىٰ النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-، ربما مررت علىٰ مجلد كامل لتبحث عن حديث؛ بل ربما أيام، في بعض الأحاديث أو بعض الآثار مكثنا أياما نبحث عنها حتىٰ وجدت، في خلال ذلك إذا صلحت النية من طالب العلم فإنه سيصلّي علىٰ النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- مرات كثيرة.

فإذن في معاناة البحث فوائد في العبادة وفوائد في التعبد، فإذا كان ثَم متّسع من الوقت عند طالب العلم فلا يختر الطريق السّهل.

البحث -كما ذكرنا- مهم؛ ولكن البحث يتنوّع بتنوّع الباحث، فقد يكون الباحث محدود الإطلاع، محدود العلم، ففي بحثه يريد أن يعرف شيئًا يسيرا، وقد يكون الباحث يريد التوسّع فيبحث عن أشياء كثيرة ومعلومات متوسِّعة، وقدرة الباحث علىٰ البحث لا يمكن أن تَحْدُثَ عندك إلا بشيء، لا يمكن علىٰ الإطلاق أن تحدث عندك إلا بشيء ألا وهو الإطّلاع علىٰ الكتب، فكلما كانت معرفتُك بكتب أهل العلم أكثر وبما يختصّ به هٰذا الكتاب عن ذاك، مميزات هٰذا الكتاب، مميزات هٰذا المؤلَّف، ما تميّز به المؤلِّف، إلىٰ آخره، كلّما كان قدرتك علىٰ البحث أعظم.

معلوم أن كتب التّفسير مختلفة، هل تريد كلمة مختصرة تعرف معناها، أم تريد خلاف العلماء في هٰذه الكلمة؟

ثم إذا رأيت خلاف العلماء في معناها، هل تريد أصول هٰذا الخلاف أم لا؟

إذا نظرت هل هٰذا الخلاف مبني علىٰ أمرٍ في القراءات، ففي القراءات تنظر إلىٰ أصول هٰذه القراءة، ثم إلىٰ علل هٰذه القراءة، ثم إلىٰ مأخذ هٰذه القراءة.

بمعنىٰ أن البحث إذا أردت أن يضيق ضاق، وإذا أردت أن يتّسع جدّا اتسع.

فما من مسألة في أي مجال من مجالات العلم، وفي أي فن من الفنون إلا ويمكن أن تَكتب عليها صفحات كثيرة في هٰذا الزمن؛ لأنّ العلم كثير والكتب كثيرة جدا؛ ولكن يختلف الباحثون في مدىٰ الإطلاع علىٰ الكتب.

إذن من لم يطَّلع علىٰ الكتب فإنه لن يستطيع أن يبحث، والإطلاع علىٰ الكتب ليس معناه أن تقتني الكتاب، المكتبات العامة مثل مكتبات الجامعات، المكتبات المفتوحة العامة، هٰذه فيها آلاف الكتب، ومعلوم أنّ طالب العلم المبتدئ أو المتوسط أو حتىٰ أكثر طلبة العلم لم يحصِّلوا كل الكتب، ولهٰذا كيف يطَّلعون علىٰ الكتب وعلىٰ موضوعاتها وعلىٰ شروط هٰذا الكتاب وما تميز به ومنهجه إلىٰ آخره في كل فن من الفنون؛ في التفسير وأصوله، وفي الحديث وأصوله، وفي اللغة وأصولها، والفقه.. وإلىٰ آخر العلوم جميعا، لاشك أن هٰذا يتطلب منك -معرفة الكتب- أن تعيش في المكتبات العامة، وهٰذا هو الذي يفقده كثير من طلبة العلم والشباب أنهم لم يطّلعوا علىٰ الكتب، يقولون: الكتاب ما سمعنا به، ما شفناه في السوق، هٰذا ليس عذرا لأن المكتبات العامة فيها حصيلة الكتب التي طبعت من نحو ثلاثمائة سنة أو أربعمائة سنة والمخطوطات إلىٰ آخره إلىٰ زماننا هٰذا.

فكيف يكون طالب العلم باحثا إذا لم يعرف الكتب، يكون في المسألة يعرف كتابا أو كتابين، في مذهب ما عندك كتاب أو كتابين، في شرح البخاري مثلا عندك كتابا أو كتابين، طيب أين بقية الشروح؟ شرح مسلم عندك شرح واحد، فأين بقية الشروح؟ سنن أبي داود عنده شرح أين بقية الشروح؟ وكتاب في الأصول عنده مثلا الروضة وشرحها، أو عنده كتاب التحرير في أصول الشافعية والحنفية ويظن أن هٰذه هي المسألة كلها؟ لا، كل علم فيه مئات الكتب وليس عشرات، ففي الأصول ثم مئات، وفي اللغة ثم مئات، وفي اللغة مثلا فيه من أسماء اللبن فيه مؤلف إلىٰ لسان العرب وتاج العروس، أسماء اللبن فيه مؤلف، أسماء جسم الإنسان، الرأس هٰذا فيه مصنف في أسمائه في اللغة بالدقة؛ العين، السواد ماذا يسمىٰ، ما بداخل السواد البياض ما يسمىٰ، الرموش هٰذه أسماءها في اللغة العربية، والحواجب

والأجفان وأسماءها إلىٰ آخره. الأزمنة النهار من بدايته إلىٰ نهايته والشمس، والليل من بدايته إلىٰ نهايته ثَم فيه مؤلفات في أسمائها.

إذن ما ثم مسألة حصيلة هٰذه القرون العظيمة قلّت أو صغرت في علوم الشريعة الأصلية أو المساندة إلاَّ وثَم فيها تصنيف كثير؛ لكن يختلف الناس في الاطلاع، بعض الناس يقول: ما ندري منين جابها فلان، المسائل كبيرة، العلوم طويلة ما نكون مثل الذي يقول: ما لم نطلع عليه فليس بشيء، مثل القصة التي تعرفونها عن الإمام أحمد حينما أتىٰ بحديث فقال له رجل: هٰذا حديث ما سمعناه. قال له: هل سمعت نصف العلم؟ قال: نعم، قال: والنصف الآخر؟ قال لم أسمعه. قال: هٰذا في النصف الذي لم تسمعه.

وثَم من يدّعي في العلم ويتكبّر عليه؛ ولكن ليس الكلام فيه، مثل ذاك الرجل الذي ما ثم غريبة في اللغة إلا ويأتي بها، وما يسأل عنىٰ شيء إلا ويجيب، فاجتمع بعض طلابه الذين يحبون البحث وراء الأستاذ، اجتمعوا قالوا: لنُخرج كلمة لا أصل لها، ونسأل الشيخ عنها، فإذا هم يقطعون بيتا من الشعر:

أبا منذرٍ أفنيتَ فاستبق بعضَنا ....[1]

(فاستبق بعضنا) قال: نأخذ هٰذه الكلمة (ق بعض) هٰذه نأخذها ونسأل الشيخ عنها فلما أتوا في الصباح، قالوا: يا شيخ وجدنا كلمة لا نعرف معناها قال: ما هي؟ قالوا: كلمة (قبعض).

قال: (قبعض) هٰذا نبات طيِّب الرائحة ينبت في أعالي جبال اليمن. وهم في بغداد، وكيف يصلون إلىٰ اليمن وكيف يثبتون صحة هٰذه المسألة إلىٰ آخره، قد يكون مصيبا وقد لا يكون، وبعض أهل العلم أوردها وقال: مصيب في هٰذا، قال هٰذا: قال الشاعر:

---

(١) البيت لطرفة بن العبد في قصيدة و تكملته (حنانَيْكَ! بعضُ الشرّ أهوَن من بعضٍ).

قال المفجع البصري: كان المبرد لكثرة حفظه للغة وغريبها يُتهم بالوضع فيها، فتواضعنا علىٰ مسألة نسأله عنها لا أصل لها لننظر ماذا يجيب!؟ وكنا قبل ذلك تمارينا في عروض بيت الشاعر:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

فقال البعض: هو من البحر الفلاني، وقال آخرون: هو من البحر الفلاني، وتردد علىٰ أفواهنا من تقطيعه: القبعضنا، ثم ذهبنا إلىٰ المبرد، فقلت له: أيدك الله تعالىٰ ما القبعضُ عند العرب !؟ فقال هو القطن، وفي ذلك يقول الشاعر:

كأن سنامها حشي القبعضا

قال: فقلت لأصحابي ترون الجواب والشاهد، فإن كان صحيحًا؛ فهو عجب، وإن كان مختلقًا علىٰ البديهة فهو أعجب !!

(إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب : معجم الأدباء ؛ لياقوت الحمويّ).

كأن سنامها حُشِي قبعضا

فإذن العلم واسع وطالب العلم متىٰ يتوسع في البحث إذا اطلع علىٰ الكتب، لهٰذا لا يُتصور أن تكون باحثا بدون إطلاع علىٰ الكتب، ولن تكون مطّلعا علىٰ الكتب إذا اقتصرت علىٰ ما يباع أو ما عندك؛ لأنّ الكتب بحر لا ساحل له، لما تحمله هٰذه الكلمة من معنىٰ (بحر لا ساحل له).

فإذن كيف تتطّلع علىٰ الكتب، تعرف الفنون المختلفة وما أُلف فيها؟ تذهب إلىٰ المكتبات العامة، ولهٰذا أنا أريد علىٰ طلاب العلم أن يجلسوا في المكتبات العامة، هٰذه الكتب التي في الرفوف لمن حفظت؟ حفظت لطلاب العلم، إذا كان طالب العلم كسْلان لا يتصل بالكتب في أماكنها ولا يعرف الطبعات، ولا يعرف هٰذا الكتاب هل هو موجود، غير موجود، وقديم أو غير قديم، هٰذا يصيبه فيه ضعف بقدر ما فاته من ذلك.

إذن من المهمات في البحث الاطلاع ووسيلة الاطلاع علىٰ الكتب ومعرفة شروحها أن ترتاد المكتبات العامة وتعرف ما في كل فن من الكتب.

المسألة الثالثة: أنّ الباحث لابد أن يحدِّد ما يريد، إذا كان يريد بحث مسألة لابد أن يتجه إليها تكون دائما نصب عينيه وهو يبحث، ثُم يعلم أنّ الكتب التي تبحث في أيّ فن من الفنون لها اتجاهات:

ففي التفسير ثَم مدارس: التفسير منقسم إلىٰ مدرستين كبيرتين:

- مدرسة التّفسير بالأثر.
- ومدرسة التّفسير بالاجتهاد والرأي، ومدرسة التفسير بالاجتهاد والرأي تنقسم إلىٰ أربع أو خمس مدارس وكل من هٰذه فيها مؤلّفات.

إذا نظرت إلىٰ اللغة: اللغة ثَم فيها مصنفات وتختلف هٰذه المصنفات في قوّتها وضعفها وفي الثِّقة بما فيها، من غيرها في الاستشهاد.

كتب النحو مختلفة المدارس ثَم ثلاث مدارس أو أربع مدارس في النحو معروفة:

مدرسة البصريين، والكوفيين، ومدرسة أهل الموصل ببغداد، والمدرسة الأندلسية في النحو.. إلىٰ غير ذلك.

فإذن وأنت تبحث المسائل تطول عليك فلابد أن تكون محدَّدًا في بحثك حتىٰ تصل إلىٰ الشيء؛ لأنك قد تجد أمامك بحرا متلاطمًا وردود وخلافات إلىٰ آخره، فلا تدري من أين تبدأ وإلىٰ أين تنتهي.

لهٰذا تكون المسألة محددة تعرف أولا كيف تأتيها شيئا فشيئا، بمعنىٰ أن تبدأ بالأيسر ثم تبدأ في التوسّع، الأطول فالأطول، ولا تذهب إلىٰ المطول ثم ترجع إلىٰ المختصر.

مثلا: طالب علم يبحث في تفسير كلمة فيها قراءات مثلا، أو يبحث في تفسير كلمة فيها لغة، يذهب إلىٰ «البحر المحيط»، هٰذا بحر محيط علىٰ اسمه ما المناسب؟ يذهب إلىٰ ابن كثير أقرب، إذن يذهب إلىٰ أقل منه، طيب.

فإذن من الأمور الجيّدة للباحث في أول بحثه أن يبتدئ بالكتب المختصرة التي توصله إلىٰ المقصود حتىٰ يتصور، ثم يتقدّم في بحثه.

نصل هنا في هٰذه المسألة إلىٰ معرفة أنَّ الكتب نمت مع الزّمان، نمت مع القرون، ولهٰذا الخالف يأخذ من السالف، المتأخر يستفيد من المتقدِّم.

إذا نظرت مثلا إلىٰ كتب الفقه وجدت أن مدرسة مثلا الإمام أحمد ابن حنبل ومذهب الإمام أحمد ابن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفقه الكتب كثيرة جدا؛ لكن يمكن أن تحصرها في كتب محدودة، وهٰذه الكتب أخذت من كتب محدودة إلىٰ أن تصل إلىٰ زمان المتقدِّمين في الفقه الحنبلي، يعني لا يأتي الباحث ويأخذ في الفقه خط واحد في التأليف ويستكثر به، هٰذا فيه ضعف في البحث؛ مثلا: ينقل عشرة نقول أو اثنىٰ عشر نقلا كلها من كلام المتأخرين من الحنابلة مثلا أو من الشافعية لا شك هي مدرسة واحدة بعضهم ينقل عن بعض، وبعضها موسّع وبعضها مختصر.

لكن الباحث ينتبه إلىٰ المدارس الموجودة في هٰذا الفن، فإذا أراد أن يتوسع فلا يُشغل نفسه بالتوسع في الخط الواحد أو في المدرسة الواحدة؛ بل إذا أراد أن يتوسّع يتوسع في الموجود في جميع هٰذه المدرسة أو المذهب الفقهي أو المذهب النحوي أو التفسير أو الحديث إلىٰ آخره.

نقف وقفة عند البحث في كتب الفقه لطلب العلم والبحث في كتب الأصول كمثال.

كتب الفقه -كما ذكرنا لك- عدة مدارس، كلام الفقهاء في كتبهم؛ كل مذهب هو الذي يؤتمن علىٰ نقل مذهبه؛ يعني إذا وجدتَّ كلام المذهب تريد تعرف رأي الحنابلة في مسألة: تأخذه من كتب الحنابلة، ما تأخذ رأي الحنابلة من «سبل السلام» أو من «فتح الباري» أو نحو ذلك؛ لأنه ما دام أنّ المصدر الأصيل موجود فإن الأخذ عن الفروع ضعيف.

مثل: في كتب الفقه من يأخذ مثلا عن «مختصر المقنع» يعني: «زاد المستقنع» في مسألة نُصّ عليها في المقنع، أو يأخذ من «الإقناع» في فقه الحنابلة مسألة موجودة في كتب شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأن صاحب الإقناع كثيرا ما يقول وقال الشيخ كذا يعني شيخ الإسلام ابن تيمية، أو يأخذ مثلا من الحواشي؛ حواشي كتب الحنابلة وهي كثيرة جدا: حواشي المنتهىٰ، حواشي الإقناع، حواشي الفروع إلىٰ آخره. يأخذ من الحواشي الكلام في الخلاف والروايات والإنصاف موجود.

إذن فالباحث إذا كان يعرف الكتب فإنه إذا نزل درجة في البحث فإنه معرّض للغلط، فكلما علا إسناده وعلا النقل كلما كان أقوىٰ، هٰذا في الفقه فقه الحنابلة عند المتأخرين، وكيف وصلت عند المتوسطين، فكيف إذا انتقلنا عند المتقدمين، كذلك عند الشافعية، كذلك عند المالكية، عند الحنفية، كتب الحنفية الآن طبع منها عشرات، هل كل هٰذه الكتب معتمدة عند الحنفية؟ لا، ثَم كتب ظاهر الرواية وثَم كتب أخرىٰ، فما هو المعتمد عندهم لابد أن يعرف طالب العلم، ما الكتب التي يعتمد عليها أصحاب المذهب حتىٰ إذا نقل يكون نقله موافقًا للصواب عند أهله.

مثلا المذهب المالكي فيه كتب معتمدة وفيه كتب غير معتمدة؛ يعني عند المتأخِّرين والمذهب، إذن لابد من معرفة ذلك، هٰذا بنظرة عامة.

نصل هنا إلىٰ بحث إذا أراد طالب العلم أن يبحث في جمع الأقوال المختلفة للعلماء في مسألة فقهية كيف يفعل؟

مثلا عندنا مسألة: **الوقوف بعرفة إلىٰ زوال الشّمس**. يعني في يوم عرفة، هل هو مجزئ في الحج؟ يعني علىٰ الوقوف بعرفة أو من وقف هل يعتبر حجه تام؟ يعني أتىٰ بالركن أم لا بد من الوقوف بعد الزوال؟ يعني هل الوقوف بعرفة يبتدئ وقته من بعد الزوال أم من فجر يوم عرفة؟ طيب.

مسألة: إذا وقف بعرفة وقبل غروب الشمس نفر منها؛ يعني خرج من عرفة وغربت عليه الشمس وهو خارج عرفة، هل حجه صحيح أم ليس بصحيح؟ التحلل الأول يحصل بإيش؛ بأي شيء؟ هٰذه مثلا مسائل فقهية، مسائل مشهورة ستجدها في الكتب؛ لكن هنا نأتي إلىٰ منهجية كيف منهجية البحث شيئا فشيئا.

أولا لابد أن تتضح الصورة؛ صورة المسألة، اتضاح الصورة إذا كانت صورة المسألة قد عرضت عليك عن طريق شيخ أو فهمتها أو تصورتها فهٰذا طيب، إذا لم تتضح لك صورة مسألة من المسائل

فالخلاف؛ خلاف العلماء في المسألة يوضح الصورة، بمعنىٰ إذا صارت الصورة واضحة أيش معنىٰ هـٰذه المسألة، تنظر إلىٰ خلاف العلماء فيتضح لك حدود الصورة وستقرب أو طبعا إذا تمكنت من السؤال عنها فهـٰذا حسن، تأتي الآن إلىٰ بحث أحد هـٰذه المسائل الفقهية التي ذكرنا، طبعا تعرف أن المذاهب الفقهية منقسمة إلىٰ خمسة مذاهب: المذاهب الأربعة ومذهب الظاهرية، مذاهب أهل الحديث هي داخلة في مذاهب الأئمة الأربعة؛ لأنها بين أقوال أحمد والشافعي ومالك، هـٰذا يسمىٰ عند العلماء الخلاف العالي.

وثَم خلاف أقل وهو كلام العلماء غير المتبوعين مثلا خلاف الأوزاعي، خلاف الثوري، خلاف الليث، خلاف إسحاق، خلاف ابن جرير، أو خلاف المتقدين من التابعين إلىٰ غير ذلك.

فإذا أراد طالب العلم أن يبحث مسألة في ذلك فإنه يبتدئ بالخلاف العالي ثم ينزل إلىٰ أن يصل إلىٰ عهد الصحابة -رضوان الله عليهم-، وهـٰذه المنهجية هي التي تفقِّه وتفيد الباحث، خلافا لمن ظن أن الصّواب العكس أنك تبدأ من عهد الصحابة ثم تصعد، هـٰذا غير جيد؛ لأن مع تقدم العصور المسائل اتضحت وصار الخلاف محدد والأدلة محددة، فإذا نظرت إلىٰ كلام المتأخرين؛ يعني كلام الأئمة ثم انتقلت شيئا فشيئا إلىٰ الخلاف أن تصل إلىٰ زمن التابعين ثم زمن الصحابة في الكتب والمصنفات هنا تصل في البحث إلىٰ رؤية واضحة وقوة.

وهـٰذه هي طريقة أهل العلم والمحققين فيما يعرضونه في البحث كما تراه في «المغني» و«المجموع» وفي «المحلىٰ»، وفي غير هـٰذه الكتب.

هـٰذه الخطوات تتنوع بحسب المذهب؛ يعني تأخذ رأي الحنابلة قد تجد الرأي في كتاب حديث في شروح الأحاديث مثل «نيل الأوطار» أو «فتح الباري» أو ما أشبه ذلك أو «شرح النّووي علىٰ مسلم»، هـٰذا طيب؛ لكنه قد ينسب إلىٰ مذهب ما ليس قولا لصاحب المذهب؛ يعني قد ينسب «فتح الباري» للإمام أحمد أقوالا هي في الواقع أخذها من بعض كتب المذهب؛ لكن ليست هي المذهب، إذا أتىٰ الباحث وقال الحنابلة كذا أو مذهب الإمام أحمد كذا هـٰذه تحتاج منه إلىٰ تأنِّي لابد أن يأخذها من كتب أصحابها، كذلك الشافعي المالكي أبو حنيفة إلىٰ آخره.

الظاهرية إذا قيل: هـٰذه المسألة تبحث ما مذهب الظاهرية فيها، مذهب الظاهرية يُؤخذ من أقوال داود الظاهري، وأقوال داود الظاهري مدونة في عدد من الكتب، وفيه كتاب جمع المسائل التي خالف فيها

داود الأئمة الأربعة، ابن حزم خالف داود في المدرسة الظاهرية في مسائل وذهب إلىٰ خلاف مذهب الظاهرية؛ يعني خلاف مذهب داود في هٰذه المسائل؛ يعني طالب العلم تبدأ تحدد عنده المسار، فإذا عرف أصبح دقيقا في بحثه.

أنا أرىٰ اليوم كثيرا ممن يبحثون ويحققون الكتب خاصة من طلبة العلم المتوسطين لا يرعون جانب المنهجية في البحث والتعليقات وتحقيق المسائل، فلهٰذا يجد طالب العلم إذا نظر في هٰذه التحقيقات يجد صوابا كثيرا ويجد خلطا أيضا أو ضعفا في المنهجية.

نأخذ مسألة من مسائل الأصول؛ نأخذ مثلا مسألة من مسائل الأصول، الأصول أصول الفقه متنوعة بحسب المذاهب، فالحنابلة لهم أصول، والشافعية لهم أصول، والمالكية لهم أصول، والحنفية لهم أصول، والظاهرية أيضا أو ابن حزم بالخصوص له أصول فقه خاصة به دونها في كتابه «الإحكام في أصول الأحكام».

إذن، إذا أردت أن تبحث مسألة من مسائل الأصول تقول: قال الأصوليون: كذا. إذا قلت هٰذه الكلمة فإما أن تنسب إلىٰ مذهب؛ يعني قال الأصوليون في مذهب الحنابلة: كذا، أو أن تنسبها إلىٰ إجماع الأصوليين، ومعلوم أن المسألة دقيقة.

فمثلا: إذا قال القائل: **قال الأصوليون: الأمر للوجوب**. هٰذه الكلمة ما لها معنىٰ؛ لأن الأصوليين مختلفون هل الأمر للوجوب أم لا؟ اختلاف طويل.

آخر يكون أدق في التعبير فيقول: **قال الأصوليون: الأصل في الأمر أنه للوجوب**. هٰذه أدق من الكلمة السابقة وتكون أقرب إلىٰ قول جمهرة من الأصوليين أكثر من الأوائل، إذا قال الأصوليون: الأمر للوجوب هؤلاء قلة، إذا قال: قال الأصوليون: الأصل في الأمر أنه للوجوب هؤلاء كثرة من الأصوليين، وقد يكون منسوب إلىٰ مذهب أو مذهبين من مذاهب الأئمة أو أكثر، وهكذا تمشي في أنواع المسائل.

مثلا إذا قال: قال الأصوليون: الأمر إذا عرض له استفهام فإنه يدل علىٰ الاستحباب. هٰذه قد تجدها مثلا في فتح الباري، قد تجد مثل هٰذه الكلمات؛ لكن هو لا يعني بالأصوليين إجماع الأصوليين: إنما يعني طائفة من الأصوليين الذين استفاد منهم هٰذه المسألة.

مثلا: تأتي هٰذه المسألة هل الاستفهام يدل علىٰ الاستحباب أم لا؟ الاستفهام صارف من صوارف الأمر من أن يكون أصله الوجوب أم لا؟ هٰذه مسألة فيها بحث بين علماء الأصول.

المقصود من ذلك أن طالب العلم إذا أراد أن يبحث مسألة من مسائل الأصول فليعلم طرائق الأصوليين في بحث المسائل حتىٰ تكون عبارته دقيقة فيما إذا بحث يعرف مدارس الأصول وكتب الأصول ومميزاتها إلىٰ غير ذلك.

تقسيم الأصول -أصول الفقه- كيف قسموه، تقسم الفقه، كل هٰذه مهمة لطالب العلم وهو يبحث.

تنظر إلىٰ مسألة كلية أخرىٰ من المسائل في بحثك، إذا أراد أن يبحث مثلا في اللغة، كتب اللغة معلوم أن بعضها ينقل عن بعض، بعضها مختصر لبعض، وبعضها يجمع كتبا متعددة، فمثلا يأتي طالب العلم - مثل ما نشوف في كتب ورسائل إلىٰ آخره- يقول مثلا: قال في «لسان العرب» كذا، وقال الجوهري في «صحاح اللغة»: كذا؛ يعني جاب نفس العبارة في «اللسان» كذا وفي الصحاح العربية، طبعا صاحب «الصحاح» متقدم في القرن الرابع الهجري وصاحب اللسان متأخِّر، صاحب «اللسان» جمع خمسة كتب ابن منظور ليس له كلام في لسان العرب، ولذلك يأتي طالب العلم ويقول قال ابن منظور في لسان العرب: كذا، هٰذا كلام لا معنىٰ له، هٰذا الكلام لا معنىٰ له للعلم الذين يفهمون اللغة، أن يقول: قال ابن منظور في «لسان العرب» معنىٰ كذا هو كذا، هٰذا ليس له مانع لماذا؟ لأن ابن منظور ذكر في مقدمة كتابه أنه جمع خمسة كتب أو ستة فرتبها في هٰذا الكتاب، فلم يؤلف تأليفا مستقلا خلافا لفيروز آبادي في القاموس المحيط الذي جمع كُتبا لكن صاغها بصياغته، وثَم أشياء تفرد فيها ورد فيها علىٰ من سبقه ورد عليه واستدرك وأُستدرك عليه إلىٰ غير ذلك مما هو معروف.

إذن طالب العلم -مثلا: في اللغة- يعرف تسلسل كتب اللغة والكتاب الذي دخل في غيره، والكتاب الذي استقل به صاحبه، يعرف من أين أُستقي ذلك حتىٰ يكون دقيقا، هٰذا لا يتأتّىٰ لك إلا بمعرفة مدارس اللغة وكيف نشأت الكتب وصنفت وأشباه ذلك.

منزلة كتب اللغة؛ هل كل كتاب لغة معتمد؟ لا، هل إذا قال فلان: قال: صاحب الكتاب الفلاني يعني انتهىٰ في المسألة؟ لا، لأن صاحب اللغة أيضا يحتاج إلىٰ دليل له يدل علىٰ أن ما نقله صواب، وإلا فيكون الاحتجاج غير مستقيم.

خذ مثلا: الجوهري في كتابه «صحاح اللغة العربية» ذكر أنه ألَّف كتابه هٰذا بعد أن مكث في البادية نحو من أربعين يتلقف اللغة، فأخذت هٰذه الكلمة منه علىٰ أن كل كلمة أوردها في كتابه معناه أنه سمعها من العرب الأقحاح بعد أن خالطهم في البوادي.

هل يعني ذلك أن العرب الذين خالطهم لم يدخل إليهم اللحن البتة؟ هٰذا واحد.

الثاني هل يعني كلامه هٰذا أنه ليس ثم مادة أوردها إلا وهي مسموعة له من كلام العرب؟

ولذلك جاءنا كتاب الجوهري وهو معروف سماه «الصحاح»، وهو عند أهل اللغة بمنزلة كتب الصحاح في الحديث؛ لكن ثم فيه أشياء لا مستند لها عند الباحث اللغوي الصحيح.

وثَم مسألة من مسائل العقيدة المشهورة عندكم هي مسألة الاستواء المعروفة قال: استوىٰ بمعنىٰ استولىٰ، قال الشاعر:

قد استوىٰ بشر علىٰ العراق

يعني استولىٰ، وهٰذا غلط والشعر لا يصح إلىٰ آخره، إذن فليس معنىٰ ورود الكلمة في كتاب من كتب اللغة أنها في اللغة كذلك؛ لكن هٰذا متىٰ يصل إليه الباحث إذا تطور في بحثه وفي تدقيقه وعلم أننا كلما رجعنا إلىٰ الزمن الأول كلما كنا في سعة؛ يعني في معلومات واسعة ثم تبدأ تضيق تضيق إلىٰ أن نصل إلىٰ الصواب في العلوم كلها.

يأتي آتٍ ويقول: قال الشاعر -يحتج بمسألة- يقول: قال الشاعر كذا، طيب هٰذا الشاعر من هو؟ يقول هٰذا بيت لا يعرف قائله، طيب كيف عرفنا أن هٰذا البيت محفوظ؟ أولا وأن هٰذه الكلمة التي أحتج بها حفظت ورويت علىٰ هٰذا النحو؟ من الذي رواها؟ وهل هو من حفاظ العربية أم لا؟ ثم هل خولف فيها أم لا؟ ثم هل القافية واحدة أم تعددت القافية؛ لأن من علامات الشعر الملحون أن تتعدد القافية في البيت الواحد إلىٰ غير ذلك.

إذن فالبحث إذا أردته علىٰ حقيقته فإنه متوسِّع جدًّا؛ يعني ليس ثم مسألة إلا وراءها مسألة، وراءها مسألة حتىٰ يصل الباحث في تحقيق العلم إلىٰ أهله، فلا يمكن أن تحقق أنت مسائل في العربية حتىٰ تحكم العربية وتُحكم المؤلفات وتحكم أصول الاستدلال، وثَم مصطلح للغة أليس كذلك؟ ألف السيوطي «الاقتراح في أصول النحو» وثَم «البلغة في أصول اللغة»، وثم في التاريخ «مصطلح التاريخ»، وثم في الفقه «أصول الفقه»، وفي التفسير «أصول التفسير». وفي الحديث «أصول الحديث».

إذن ليس ثم علم إلا وله أصول تصل بها، هٰذه قوانين تضبط بها.

إذن الباحث لابد أن يكون متئدا في بحثه متريثا، فالعلم واسع جدا جدّا أكبر مما تتصور، فلهٰذا لابد أن يكون ثم هدوء في البحث وفي أخذ العلم، وأن يتحرىٰ طالب العلم الصواب المختصر، ولا يظن أنه إذا

نقل نقلا معناه انتهىٰ، انتهىٰ الأمر هـٰذا قاله فلان، وانتهت المسألة؟ لا، فالعلم واسع ومدارسه كبيرة متنوعة.

إذا أراد طالب العلم أن يبحث مسألة تاريخية، التأريخ يعرض لك إما في كتب أهل العلم، ابتداء من موضع من التاريخ أو من السيرة، أو تَرِد عليك شبهة أو إيراد أن الصحابة كانوا يفعلون كذا أو حصل في وقعة كذا، تريد أن تحقق المسائل.

طبعا كُتب التاريخ المتأخرة أخذت كما قلنا: أخذت عن المتقدمة مثل سائر العلوم.

كتب المتقدمين في التاريخ كانت بالأسانيد، ما قبل الطبري من الكتب، كتاب ابن إسحاق؛ بل ما قبله، كتاب عروة بن الزبير، وكتب التابعين في السيرة والتاريخ، وكتب وهب بن منبه في التاريخ وكتب ابن جرير وكتب ابن أبي خيثمة إلىٰ آخره، ثَم كتب كثيرة في التاريخ كانت تروىٰ بأسانيدها، ما ثم واقعة إلا بأسانيدها، فتأتي فتنظر في كتب المتأخرين فتجد أن ثَم وقائع بلا إسناد، تبدأ من ابن الجوزي؛ بل ما قبله ابن الجوزي في «المنتظم» إلىٰ ابن الأثير في «الكامل» إلىٰ ابن كثير في «البداية والنهاية» إلىٰ آخره، مع أن ابن كثير حافظ من حفاظ الحديث تحرّىٰ ودقق لكنه أيضا اعتمد علىٰ ما ساقه من قبله.

إذن التاريخ يروىٰ هكذا؛ لكن إذا أردت أن تبحث مسألة فهل تبحثها بوجودها في البداية والنهاية، يقول لك قائل: ذكرها في البداية والنهاية، هل معناه انتهت؟ لم تنته المسألة.

إذن ثم كتب قبل البداية والنهاية عرض فيها للمسألة إلىٰ أن تصل إلىٰ مصدر هـٰذه القصة أين هو؟ فإذا بحثت وبحثت ستجد المصدر.

فإذن، مسائل التاريخ تروىٰ هكذا، فإذا أتينا إلىٰ قضية في محك وأردنا أن نبحث فيها لابد من التدقيق وإلىٰ الرجوع في التاريخ أول ما طَبعوا طبعوا التاريخ للطبري، وطبعوا كتب في التاريخ متنوعة مثل سير ابن هشام أول من طبعها، وتواريخ مختلفة تاريخ مكة والمدينة وتاريخ بغداد وتاريخ مصر وتواريخ المغرب إلىٰ آخره، تواريخ فارس هم الذين طبعوها، أخذوا من هـٰذه الكتب أشياء وقالوا: هـٰذا الموجود في تاريخ المسلمين.

فإذن الباحث لا يقول: هـٰذا ذكره الطبري هـٰذا غير مستقيم في أصول البحث؛ بل لابد أن ينظر إلىٰ استقامة ما أورد إذا كان مستقيما، فقصص التاريخ تذكر للعبرة؛ لكن إذا كان فيه ثم إشكال لابد أن يحقق المسألة ويبحث هـٰذه القضية إلىٰ أن يصل إلىٰ الزمن الأول.

لم يكتب للتاريخ مصطلح وأصول في بحث التاريخ، إلا من أحد الباحثين في الزمن الحاضر، وسمَّىٰ كتابه «مصطلح التاريخ» واعتمد في كتابه علىٰ أصول الحديث ومصطلح الحديث مع النظر في الدراسات التاريخية يعني مع إضافات، وهٰذا لاشك مهم؛ لأن التاريخ نقل بالأسانيد، نعم أسانيد التاريخ لا ينظر إليها نظرنا إلىٰ أسانيد الحلال والحرام والعقيدة؛ لكن إذا كان المقام مقام استدلال فلا بد أن يبحث الباحث.(١)

خذ مثلا علما آخر فيما يبحث طالب العلم وما يبحثه -في مسائل التوحيد ذكرنا لكم في ذلك لكن نعيدها- في مسائل التوحيد سيبحث مذهب السلف في مسألة، فهل يبحثها في كتب السنة المتقدمة مباشرة أم يرتب البحث؟ نقول: لابد أن يرتب البحث كما ذكرنا من مختصرات كتب أئمتنا أئمة الدعوة كابن تيمية وابن القيم أين ذكروها؟ كيف عرضوا المسألة؛ صوّروها؟ ثم بعد ذلك تبدأ تنتقل إلىٰ الكتب المطولة للسلف حتىٰ تصل إلىٰ كتب السنة المتقدمة بالأسانيد، هـٰذا يعطي ثراء في تصور المسألة، ثم تبدأ تتوسع؛ لأن المتأخر من أئمة السنة يسَّر لك عرض المسألة وأعطاكها في قالب قاعدة منتهية، وفي كتب السلف قد تجد نقلا عن إمام يمثِّل بعض القاعدة العقدية ونقل عن آخر يكملها إلىٰ آخره فمجموع كلام السلف صاغه الأئمة المتأخرون.

فإذن طالب العلم يرتب بحثه بالتوسع في ذلك، إذا أراد أن يبحث في مسألة من مسائل اعتقاد أهل البدع مثلا: من مسائل الأشاعرة ينظر أين ذكرت المسالة كيف صوروها، أولا ترجع إلىٰ كتب الأئمة تنظر كيف عرضوا للمسألة، كيف صوروا مذهب أهل السنة وكيف صوروا منهج المخالفين من الأشاعرة والمعتزلة والخوارج إلىٰ آخره.

ثم تنتقل منها إلىٰ كتب القوم، ولابد للباحث المتخصّص في العقيدة ليس كل طالب علم أن يعرف أنواع هـٰذه الكتب ومميزاتها إلىٰ آخره، ثم بعد ذلك يرجع إلىٰ الرد عليها عند شيخ الإسلام وابن القيم والأئمة رحمهم الله تعالىٰ.

كتب الحديث وهي آخر المطاف كثيرة جدًّا، ومناهج علماء الحديث في الشروح مختلف، وكما ذكرت لك في كلمة سبقت يظن الظان أن المسألة إذا ذكرها أحد شراح الحديث معناه أنها هي مذهب أهل الحديث، أو أنّ هـٰذا القول هو الأحق بأن يلقىٰ وهـٰذا ليس علىٰ إطلاقه.

---

(١) انتهىٰ الوجه الأول.

فإذا نظرتَ إلىٰ بداية شرح كتب السنة، شرح البخاري من أول من شرحه؟ الحافظ الخطّابي محمد بن سليمان بن محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكذلك سنن أبي داود شرحه الخطابي أيضا في كتاب «معالم السنن»، وكل من الكتابين مختصر جدا ومطبوع، بدأ العلماء يفرِّعون علىٰ هٰذه النواة الأولىٰ شرح كل بحسب ما يفهم من الفقه علىٰ مذهبه، ولهٰذا تميَّز الحافظ ابن حجر في كتابه «فتح الباري» بأنه جمع ما قاله العلماء في الحديث: سواء علماء اللغة أو علماء الإسناد أو علماء الفقه، مثلا إذا جاءت كلمة في حديث رواه البخاري تجد أن هٰذه الكلمة يفسرها من تقدم بكلمة، هٰذه ليس معناها أنها مسلَّمة، تجد أن الخطابي قال: هٰذه الكلمة معناها كذا؛ لكن عند ابن حجر تجد أنه توسَّع نقل عدة نقول عن السلف يعني السلف اللغويين.

مثلا أتينا إلىٰ حديث «**أخرجوا اليهود والنصارىٰ من جزيرة العرب**»، طيب جزيرة العرب عند الحنابلة لها حد، وعند الشافعية لها حد، وعند المالكية لها حد، عند علماء اللغة لها حد، اختلفوا فيها وطوَّلوا، يأتي شارح الحديث يقول جزيرة العرب هي كذا وكذا، فهل عند الباحث انتهىٰ الحد عند هٰذه المسألة يعني خلاص، ذكر الشراح يقول ذكر الشراح أنها كذا يعني انتهىٰ؟ لا؛ لأنه لابد البحث جزيرة العرب في أصل بحثها هل هو فقهي أم لغوي؟ لابد تسأل نفسك هٰذا السؤال، فإذا كان فقهيا المرجع عند أهل الفقه، وإذا كان لغويا فمرجعه عند أهل اللغة.

إذن أصل البحث هو بحث لغوي؛ يعني جزيرة العرب هٰذه كلمة موجودة معروفة عند العرب في استعمالاتهم وجاء استعمالها في النص في الأحاديث إلىٰ آخره.

فإذن تعرف مأخذ هٰذا البحث الذي تبحثه، فيكون إذن كتاب شرح الحديث هو مثل الهادي لك لتعرف مداخل البحث، فإذا قرأت للشارح ونقل عن الفقهاء تذهب إلىٰ كتب الفقهاء وتتوسع، نقل الشارح عن اللغويين تذهب إلىٰ كتب اللغة وتتوسع، ثم بعد ذلك يكون العلم عندك ثريا متوسعا في هٰذه المسألة.

مثلا هٰذا حد جزيرة العرب في «شرح المُفَضَّليات» المعروف اختيارات المفضَّل ثَم فصل طويل جدا فصل فيه أقوال العلماء والأشعار وما يتعلق بذلك في حد جزيرة العرب، هٰذا بحث موجود في شرح من شروح أشعار العرب كتاب أدبي وهو متقدم في الزمان في القرن الثاني نقل عن الفقهاء ونقل عن التابعين

عن الشعبي ونقل عن غيره في حد جزيرة العرب ونقل عن اللغويين وعن الأئمة وقول الإمام مالك إلىٰ آخره.

فإذن ثم مصادر للبحوث موجودة في كتب الحديث، فطالب العلم إذا اقتصر في مسألة ما علىٰ ما هو موجود في كتب الشروح المتأخرة وقال: خلاص هٰذه هي كلمة الفصل، يضعف بقدر ذلك، طيب إذا كان العالم هو الذي استدلَّ بما هو موجود عند الحافظ، بما هو موجود عند النووي، فهٰذه لها مزيتها؛ لأن العالم الأصل فيه أنه اطلع علىٰ أشياء كثيرة جدا، ثم اختار كلام الحافظ ابن حجر، ثم اختار كلام النووي، فيكون هٰذا الاختيار دلَّ علىٰ أن هٰذا الكلام هو أحسن ما وجد، فإذا كان العلام متبحرا في العلم ثم اختار من كلام العلماء بعضه فيدل ذلك علىٰ نفاسة هٰذا الكلام وعلىٰ أنه هو الصحيح عنده.

فإذن، نأتي إلىٰ مسائل الرجال يأتي باحث ويقول: هٰذا الحديث إسناده حسن؛ لأن فيه فلان قال: الحافظ ابن حجر فيه صدوق، هٰذا الكلام في الحقيقة لا معنىٰ له، الحافظ ابن حجر ألف التقريب ليكون كاشفا معك في اليد في أسفارك؛ يعني تعرف تقريبه ليس الحكم علىٰ الرجل، نعم يدل هٰذا علىٰ أن الحكم هو اختيار الحافظ والحافظ حافظ وله جلالته في العلم؛ لكن المسألة لم تنته عند هٰذا الحد، لابد أن تتطلع علىٰ كلام الأئمة المتقدمين، من قال: ثقة لماذا قال: ثقة؟ ومن قال: ضعيف لماذا قال؟ هل ضُعِّفَ مطلقا أو ضُعِّفَ في زمن دون زمن يعني اختلط أو في بلد دون بلد أو في حضرة كتبه أو في غير حضرة كتبه أو هل هو مقبول في كل العلوم؟ أو يعني ثَم أشياء كثيرة تأتي.

فإذن الباحث لابد أن يكون دقيقا وكلما صار أدق كلما صار أحرىٰ بالصواب في العلم.

نأتي إلىٰ المتأخرين في شروح الحديث خاصة علماء الهند، علماء الهند شرحوا البخاري، شرحوا مسلما، وشرحوا أبا داود، وشرحوا جامع الترمذي، وشرحوا النسائي، وشرحوا ابن ماجه، شرحوا الجميع، و«مسند الإمام أحمد» شرحه الشيخ أحمد البنا رَحِمَهُ اللَّهُ، هٰذه الشروحات للأحاديث من أين استقيت؟ لابد للمؤلف مراجع، فإذا أراد الباحث أن يقتصر عليها فإنه يضعف بقدر ذلك، تبحث تكشف سريعا هٰذا حسن، لكن إذا أردت أن تبحث بحثا مدققا وتنشره ويكون لك فائدة بشيء تقتنع به لابد أن تتوسع في البحث مرة وتصل إلىٰ أقصىٰ الموجود، هٰذه الطبقة من الشروح تجد أن اعتمادهم علىٰ أربعة أنواع من الكتب:

- في اللغة اعتمدوا علىٰ القاموس دون غيره.

- وفي شروح الأحاديث اعتمدوا علىٰ شرح المشكاة الذي هو «مرقاة المصابيح» لملا علي القاري و«فتح الباري» و«نيل الأوطار»، هٰذا الثاني.
- الثالث في نقلهم للمذاهب الفقهية اعتمد بعضهم علىٰ بعض، السلسلة تدور، هٰذا يأخذ من هٰذا، وهٰذا سبق هٰذا، وإلىٰ آخره.
- الرابع في مسألة التحقيق والتحرير إذا قال: الراجح فهو يرجِّح بحسب ما تاح له في ذلك الوقت بحسب وضعه، تارة تجد أنه يقول: إن هٰذا واجب تارة يقول أنه مستحب، وكلما كان أقوىٰ في الأصول وفي الاستدلال وفي الاجتهاد كلما كان نظره أدق، من لم يدرك علم الأصول مثل من أدرك علم أصول الفقه كالشوكاني، ليس بمنزلة من أدرك علم الإسناد والصحيح من الضعيف مثل من لم يدرك ذلك في الشروح.

فإذن ليس كل ما قيل في شروح الأحاديث هٰذه المتأخرة مسلم؛ بل لابد للباحث لا يقتصر عليها ليصل إلىٰ كلام المتقدمين.

أغرب من ذلك أن يقتصر الباحث علىٰ كلام بعض المعاصرين في بحوثهم، سواء في اللغة أو في العلوم المختلفة، لاشك أن هٰذا ضعف لأنه من حيث أخذوا فخذ، ومن حيث نقلوا فانقل، والحمد لله الآن ثورة علمية كبيرة بوجود هٰذه الكتب بيننا، فلابد للباحث أن يصل إلىٰ أوائل المسائل.

هٰذه الكلمات لعلها تفتح مجالا في استقبال هٰذه الدروس علىٰ تنشيط كل واحد منكم وممن يسمع هٰذا الكلام في البحث، فطالب العلم ما يشتاق للعلم يتحرك فيتفاعل معه إلا بالبحث، لابد أن يقسم أمره علىٰ هٰذه الأقسام الثلاثة:

- لابد من طلب العلم علىٰ الأشياخ.
- لابد من المطالعة والقراءة لتستفيد.
- لابد من بحث مسائل تتنقح عندك وتتضح الصورة ويكون عندك شغف بالعلم.

وكلما كنت أرغب في البحث كلما كان رغبك في العلم وصلة بالكتب أعظم.

أسأل الله جل وعلا أن يقويني وإياكم في العلم والتحصيل، وأن يذكِّرنا منه ما نسينا إنه سبحانه جواد كريم.

أسأله -جل وعلا- أن يثبت العلم في قلوبنا، وأن يعلمنا ما جهلنا، وأن يذكِّرنا بالعلم والعمل جميعا وأن يختم لنا بالرضا إنه جواد كريم.

سبحانه نسأله وهو مجيب بدعوة الداعي إذا دعاه.

كما أسأله -جل وعلا- أن يبارك في أعمار علمائنا الذين عن طريقهم فهمنا العلم ونبت لنا أجنحة طرنا بها في سماء العلم، وأسأله سبحانه أن يرحم المتقدمين من علمائنا الذين أفادونا بمصنفاتهم وبعلومهم فبيننا وبينهم سبب وثيق وصلة عظيمة ألا وهي صلة العلم ولهم منا الدعاء دائما: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر].

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

✪✪✪✪

[الأسئلة]

سؤال (٠١): نرىٰ هناك من كبار علماء الإسلام في القديم والحديث من لهم قدم راسخة في العلم، وقد فقدوا البصر منذ الصغر، فكيف حصلوا هٰذا العلم دون الإطلاع علىٰ الكتب؟

الجواب مختصر، (الجمل) المعروف الذي شرح تفسير الجلالين، وله شرح كتاب في فقه الشافعية كان في الليل كان أعمىٰ البصر، كان في الليل تقرأ له زوجته، لابد أن يُقرأ عليه، الشيخ محمد بن إبراهيم -رَحِمَهُ اللهُ- الجد ورفع درجته كان يقرأ عليه من الشباب الشيخ عبد العزيز بن صالح بن مرشد كانا متزاملين يقرأ عليه الكتب، في دروسه يقرأ عليه خاصته من الطلبة يحضرون بعد العشاء هو يعرف مظان البحث؛ لأنه مر علىٰ كتب كثيرة يقول: ايتني بالكتاب الفلاني البحث فيه، يفتشون له ويقرؤون كلام أهل العلم، فمن فقد البصر فبالعلم يكون من أولي البصيرة، فهم أولوا الأبصار إذا كانوا علماء.

سؤال (٠٢): ما صحة الحديث: نهىٰ رسول الله ﷺ أن يبرك أحدكم كما يبرك البعير؟

الجواب: هٰذا ليس علىٰ هٰذا اللفظ، هو هٰذا الحديث مشهور معروف؛ يعني مشهور التداول لا مشهور المعنىٰ الاصطلاحي «**لا يبرك أحدكم كما يبرك البعير**» هٰذا هو القدر المحفوظ، ثم اختلفت الرواية في بقية الحديث «**وليضع يديه قبل ركبتيه**» ورويت «**وليضع ركبتيه قبل يديه**» والعلماء اختلفوا أيّ هٰذه الروايات هو الصحيح.

والصواب عندي أن كل هٰذه الروايات فيها اضطراب، لا يصح منها شيء؛ بل الزِّيادات هـٰذه كلها مضطربة، والثابت هو أول هٰذا الحديث «**لا يبرك أحدكم كما يبرك البعير**»، وإذا تقرر ذلك فإنّ النهي في هٰذا الحديث عن مشابهة البعير في هيئة البُروك؛ لأنه نهىٰ عن بروك كبروك البعير (**لا يبرك أحدكم كما يبرك البعير**) فظاهر من الحديث أنَّ النّهي عن أن يبرك المصلي بروكًا كبروك البعير، وبروك البعير له هيئة، وهـٰذه الهيئة قد تكون بتقديم اليدين علىٰ الرّكبتين، وقد تكون بتقديم الرّكبتين علىٰ اليدين.

والهيئة: هي **أن يكون الأعلىٰ المؤخرة، وأن يكون الرأس منخفضا.**

هـٰذه هي الهيئة المنهي عنها؛ يعني إذا سجد أحدكم فلا يبرك بروك البعير؛ يعني لا يجعل رأسه منخفض يصل إلىٰ الأرض هكذا مثل البعير إذا أراد أن يبرك ويبقىٰ ظهره عالٍ؛ هـٰذه صفة بروك البعير، فيها إضرار بالمصلي.

وهٰذا داخل تحت قاعدة عامة وهي أن: **المصلي لا يشابه الحيوانات ولا يماثلها في هيئة الصلاة.**

فنهىٰ عن إقعاء كإقعاء الكلب، وعن نقر كنقر الغراب، الغراب ينقر بإيش؟ ينقر بمنقاره، هل نقول: إن المنقار هو الأنف هو أشبه شيء بالمنقار ونقول: إن معناه أن لا يجعل أنفه علىٰ الأرض؟ لا، العلماء فهموا من نقرة الغراب هـٰذه من السرعة، ينقر ويرفع رأسه، كذلك لا يبسط أحدكم يديه كما يبسط الكلب، وأشباه ذلك؛ فإذن النهي في هٰذا الحديث عن الهيئة.

والهيئة هـٰذه قد تحصل بتقديم اليدين علىٰ الرّكبتين؛ يعني في ابن آدم، وقد تحصل بالعكس.

فإذن المقصود من السّنة في ذلك أن لا تشابه البعير في هيئة البروك، إن قدَّمت يديك علىٰ رجليك ولم تشابه فالأمر واسع، وإن قدّمت الركبتين ولم تشابه فالأمر واسع؛ لكن لا تشابه البعير في هيئة البروك.

لهٰذا ذكر التّرمذي في «جامعه» حينما ساق الحديث قال: وقال بعض أهل العلم: يقدم يديه علىٰ ركبتيه، وقال آخرون: يقدم ركبتيه علىٰ يديه، والأمر في ذلك واسع جدًّا. كأنه يلمح إلىٰ ما ذكرنا.

هناك بحث لغوي بحثه بعضهم هل ركبتا البعير في رجليه أم في يديه؟ وهـٰذا في الحقيقة بحث مفيد لغوي؛ لكن هو خارج عن محلّ الفقه عند التدقيق؛ لأن المقصود الهيئة، الرُّكَب إذا كانت في يدي البعير أو كانت في رجليه هيئة البعير واحدة وهو أن الرّأس منخفض و[المؤخرة] مرتفعة.

سؤال (٠٣): حديث أخرجه الحاكم في «مستدركه» وصححه الألباني وهو في ما معناه: إن القرآن يأتي يوم القيامة ويقول لصاحبه مخاطبا له: يا ربّ ألبسه به حلة في الآخرة.

هل هٰذا يدل علىٰ أن القرآن مخلوق؟

الجواب: الحديث صحيح وله شواهد متعدّدة في معناه.

والجواب أن هٰذا لا يدل علىٰ أن القرآن مخلوق، إن الله -جل وعلا- يجعل القرآن ممثلا في هٰذا الشيء، وهٰذا ليس المقصود منه أنّ القرآن مخلوق، وأنه يتكلم لأنه مخلوق، وبمثل هٰذا احتج المعتزلة بمثل هٰذا الحديث والحديث الآخر «**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه تقدمه سورة البقرة وآل عمران كأنهما غيايتان -أو غيابتان أو فرقان- من طير صواف تحاجان عن صاحبهما**» هٰذه المحاجة، هٰذه بلسان المقال؛ لكن الله -جل وعلا- يجعل القرآن كذلك يعني عمل صاحب القرآن تلاوة صاحب القرآن يجعلها كذلك، مثل العمل الصالح يأتي الإنسان في قبره، لهٰذا له نظائر، مثل الوزن العمل الصالح، يوزن في الميزان.

سؤال (٠٤): هل معنىٰ الإطلاع علىٰ الكتاب قراءته كلِّه أم معرفة منهج المؤلف فيه؟

الجواب: قراءة كل كتاب صعب؛ لكن تعرف الكتاب أيش فيه، تعرف منهج المؤلف، تعرف البحوث التي فيه، بحث، بحوثه متميزة غير متميزة، إذا كان كتاب في الفقه من أين درسه هو، هل هو متأخر متوسط متقدم، كتاب من شروح الأحاديث؛ ميزته، كتاب في الأصول هل هو مطول يطول في الأمثلة ما يطول، هل هو يميل إلىٰ العقليات أم له نقل .. يعني تعرف منهج المؤلف، تقرأ منه حتىٰ يحصل لك خبرة.

سؤال (٠٥): كيف يجمع طالب العلم بين فهم وإدراك أصول العلوم وهي فيما يبدو أنها كثيرة ومتشعبة، ومعظمها اجتهادات كتّاب وبين العلوم، نرجو ذكر الثمرة المرجوة؟

الجواب: لاشك أن طالب العلم يبتدئ إلىٰ العلوم نفسها، لكن إن كان عنده قدرة للبحث، البحث علىٰ ما ذكرنا، والذي ذكرناه علىٰ هٰذا التوسع قد لا يناسب الأكثرين؛ لكن لابد من معرفته، المقصود العلم نفسه، كما أنه إن كان عند الإنسان قدرة علىٰ البحث ليس معناه أن البحث فرض؛ لكن البحث مساعد إذا استطاعه أو يجاوزه إلىٰ ما يستطيع.

سؤال (٠٦): كيف السبيل إلىٰ العلم الذي يورث الخشية من الله عز وجل؟

الجواب: لقد سألت عن عظيم، العلم الموروث عن المصطفىٰ - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- يورث الخشية كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر:٢٨]، فمن أخذ العلم الموروث عن النبي - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- وهو العلم بالقرآن وبحديثه - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- وتأمَّل في ذلك فإنه يورثه الخشية، فقد قال بعض السلف: طلبنا العلم لغير الله فأبىٰ أن يكون إلا لله. يعني طلبناه في زحمة الشباب والتنافس ثم لما طلبوه وعلِمُوا ما أنزل الله -جل وعلا- علىٰ رسوله وعلموا ميراث المصطفىٰ - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- الذي هو العلم جاءتهم الخشية، وجاءهم الإخلاص وجاءهم الإخبات، وهٰذا معنىٰ قول آخر: طلبنا العلم وليس لنا فيه نية ثم جاءت النية بعد.

والنية والإخلاص هي أن يرفع الجهل عن نفسه، رفع الجهل بحق الله -جل وعلا- أو الجهل بسنة النبي - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- أو الجهل بكيفية عبادته ربه -جل وعلا-، إذا نويت وقصدت رفع الجهل عن نفسك فهٰذا هو معنىٰ الإخلاص في العلم، معنىٰ النية: «**إنما الأعمال بالنيات**» النية الصالحة في العلم أن تنوي رفع الجهل عن نفسك، لا تنوي الترفع زيادة المعارف، تنوي به الشهادة، تنوي به الوظيفة، هٰذه كلها من نيات للدنيا، النية الصالحة تنوي رفع الجهل عن نفسك.

فإذا آنست من نفسك رشدا، وأنك ستحصل إن شاء الله فتنوي مع ذلك رفع الجهل عن غيرك، وبثّ ميراث النبي - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- وتبليغ العلم؛ لأنه - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- قال: «**بلغوا عني ولو آية، فرُبَّ مبلغ أوعىٰ له من سامع**» وقال أيضا - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- فيما رواه أبو داود وغيره: «**نضر الله أمرؤا سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعىٰ له من سامع**» وهو حديث صحيح، وهكذا.

فإذن النية الصالحة في طلب العلم أن ينوي المرء رفع الجهل عن نفسه ورفع الجهل عن غيره؛ أهله في البيت، الذين يخالطونه، ولذلك العالم يستغفر له كل شيء حتىٰ الحيتان في جوف الماء، لم؟ لأنه لا يتصرف إلا بعلم، إن أصاب بعلم، وإن خالف فهو يخالف بعلم، يستغفر الله جل وعلا يعرف معنىٰ الاستغفار إذا استغفر، ويعرف معنىٰ الطاعة إذا أطاع والصواب في هٰذا وهٰذا، ولذلك أكثر الناس خشية هم العلماء الذين انتفعوا بعلمهم، جعلني الله وإياكم منهم ووقانا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

سؤال (٠٧): رجل توضأ وأكل طعاما ثم صلىٰ المغرب، ولما حان وقت صلاة العشاء تبين أن في الطعام الذي أكله لحم إبل فماذا عليه؟

الجواب: يعني صلىٰ المغرب وهو قد أكل لحم إبل يتوضأ ويعيد الصلاة؛ لأن لحم الإبل ناقض من نواقض الوضوء علىٰ الصحيح لقوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**من أكل لحم جزور فليتوضأ**».

وهل يلزم السؤال عن نوع اللحم قبل الأكل منه؟

إذا شك يسأل، والمرء إذا كان قدّم للناس لحم إبل يقول لهم بطريقة مهذبة؛ فيقول لهم: لحم الإبل مفيد فقدمناه لكم.. وأشباه ذلك.

سؤال (٠٨): هل يدخل من فاتته الصلاة مع من يقضي أو من يصلي النافلة؟

الجواب: من فاتته الصلاة يصلي وحده، أو يتصدق عليه أحد فيصلي معه، فإن صلىٰ مع من يصلي النافلة أو مع من يقضي ممن لم ينوِ الإمامة فالصلاة صحيحة؛ لكن تركها أولىٰ لعدم مجيئها في السنة.

نكتفي بهٰذا القدر، ونلتقي إن شاء الله الأسبوع القادم، والدروس إن شاء الله تبدأ الخميس بعد الفجر عندنا، والسبت إن شاء الله نبتدئ في الطّحاوية وفقني الله وإياكم لما فيه رضاه.

❂❂❂❂

الوصايا الجليَّة للاستفادة من الدُّروس العلميَّة

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وفّق من شاء إلىٰ سُبل مرضاته، وعلّم من شاء تعليمًا، وأدّب من اختاره تأديبًا.

فله الحمد علىٰ ما منَّ علينا من النعم الجزيلة والعطايا الكثيرة، له الحمد كثيرا كما أنعم كثيرا، وله الشكر جزيلا كما تفضل علينا جل وجلاله، وأنعم بركة وأصيلا.

أحمد الله وأشكره وأُثني عليه الخير كله.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا مزيدًا.

أما بعد..

فأسأل الله جل وعلا أن يستعملني وإياكم فيما يحبّ ويرضىٰ، وأن ييسر لنا جميعا سُبل الخير وأن يغلّق عنّا سبل الشر إنه سبحانه جواد كريم.

كما إني في فاتحة هٰذه الدروس العلمية -وهي الدورة السادسة في مسجد شيخ الإسلام ابن تيمية بحي سلطانة بمدينة الرياض- في فاتحة هٰذه الدورة والدروس العلمية لابد من التَّذكير؛ لأن هناك أناسًا لهم عليكم فضل لِمَا رتّبوا في هٰذه الدورات والدروس العلمية، وليسوا واحدا أو اثنين أو ثلاثة، فلهٰذا لا تُخلوا من عرفتم ومن لم تعرفوا منهم من دعوات صالحة أن يجزيهم الله خيرًا وأن يزيدهم من نصرة الحق، ومن الدعوة إليه ومن فتح أبواب الخيرات، والتقرُّب إلىٰ الله جل وعلا بها. وهٰذا من الحقوق التي ينبغي تعاهدُها.

ثم إنّكم كما عهدتم كل عام، هٰذه الدَّورات والدروس العلمية مشتملة علىٰ علوم متعدِّدة وفنون مختلفة في هٰذا الوقت الوجيز، وهو ثلاثة أسابيع غير كاملة يعني ثمانية عشرة درسًا في كل فن من الفنون، تحصِّلون علمًا كثيرا مجتمعًا في هٰذا الوقت الوجيز.

ولذلك كان من اختيار بعض الإخوة الذين أقاموا هٰذه الدروس العلمية في هٰذا المسجد اختاروا عنوان هٰذه المحاضرة التي فاتحة هٰذه الدورة بـ:

الوصايا الجلية للاستفادة من الدُّروس العلمية

وبحكم ما مرّ علي من تجربة قصيرة في الدَّورات السابقة، وما أعلم من حال كثير من الإخوة نتجت هٰذه الوصايا التي سأذكرها إن شاء الله تعالىٰ.

وأنتم تعلمون أنه لابد أن لكل دورة أو دروس علمية أو أي شيء يقام لابد له من أركان؛ أشياء يقوم عليها، ولا يمكن أن يقوم الشيء مع فواتها.

وتلك الأركان:

الأول: وجودُ المعلم، طالب العلم الذي يدرّس؛ الشيخ.

والثاني: وجودُ المتعلمين الراغبين الجادِّين.

والثَّالث: وجود المكان المناسب الذي يصلح لإقامة الدورات التي يحضرها عدد كبير في مدة وجيزة.

والرَّابع: التنظيم المناسب الذي يسبق تلك الدروس العلمية.

وغير ذلك ممَّا سيأتي:

وأبدأ أولا فيما ينبغي أن يكون عليه التنظيم في هٰذه الدروس العلمية، لاشك أن عظم الاستفادة من هٰذه الدروس لابد له من تنظيم جيد، ومن إعداد مبكّر، حتىٰ يستفيد الجميع مما يُلقىٰ في هٰذه الدورات أو الدروس.

والتنظيم يعنىٰ به ترتيب الوضع المناسب لهٰذه الدروس، فقبل إقامتها لابد للمنظِّم أو للإمام المسجد أو للإخوة الذين يعملون أو لإدارة الدعوة أو مركز الدعوة أو من ينظم الدورة في أي مكان لابد له أن ينظر إلىٰ حاجة طلبة العلم وحاجة الشباب الذين يرومون هٰذه الدروس، وهٰذه الحاجة تختلف باختلاف المكان والزمان، وتختلف باختلاف المعلِّمين، وما يراد أن يعلم الطلبة.

ولهٰذا ينبغي أن يُنظر في البلد والمكان والزمان ما المناسب فيه، فلا شك أن دورات الشتاء من حيث الزمان غير دورات الصيف في ترتيبها الوقت كما سيأتي.

أيضا من جهة المكان؛ البلد، المسجد، وضع ذلك، ليس كل أحد يريد أن يقيم دورة أو دروس علمية يناسب أن يقيمها في مسجده؛ لأنه سيحضر الجم الغفير، وسيحضر الطلبة الذين يريدون الاستفادة، وهٰذا ينبني عليه ترتيب المكان، وينبني عليه ترتيبات كثيرة حتىٰ يستفيد، وصلاحية المكان في نفسه من جهة إذا كان في الصيف من جهة أن يكون التكييف جيدا ومن جهة أن يكون المداخل والمخارج.

فإذن الدُّروس العلمية من جهة التنظيم تختلف فلا بد من رعاية الحال زمانا ومكانا.

ثم أيضا المنظِّمون ينبغي لهم أن يعتنوا بادئ ذي بدئ بالتنظيم والترتيب للدورة قبل قيامها بوقت طويل؛ لأنك تحتاج إلىٰ ترتيب مع المشايخ في أوقات محدَّدة حتىٰ هم أيضا يرتِّبون أنفسهم.

مرّ علينا بعض الإخوة يريدون إقامة دروس، أو بعض الدورات المختصرة أو المطولة ويحاولون يقولون: أقنع الشيخ فلان أن يشترك معنا. وبالتالي ظهر أنهم لم يخبروه إلا قبل المدة بأسبوعين أو ثلاثة أو نحو ذلك، وهو عنده تراتيب أُخر انشغل بها، أو لم يستطيع أن يجيبهم، وهٰذا الحق معه لا معهم؛ لأن المسألة في الالتزام بثلاثة أسابع متوالية أو أسبوعين متواليين أو ربما أكثر في بعض الأماكن شهر متوالي في وقت محدد، في زمان محدد، هٰذا يحتاج إلىٰ أن يرتِّب نفسه، وخاصة في العطل التي يكون للكثير فيها ترتيبات.

فإذن المنظم عليه أولا أن يرتب قبل مدة طويلة أربعة أشهر، خمسة أشهر، ستة أشهر، حتىٰ يستطيع أن ينسق مع الجميع.

هٰذا أيضا يسبقه اختيار الذين سيشاركون، من يختار المنظمون، من يختار من العلماء من طلبة العلم من المشايخ، هٰذا سيأتي بيان صفات المعلم الذي يصلح للدَّورات.

من المشايخ أو من طلبة العلم أو من المعلمين من يصلح لدروس علىٰ طول السنة؛ لكن لا يصلح للدورات؛ لأن الدورات هٰذه فيها تتابع في المعلومة وفيها تركيز للدرس وفي الوقت وصلة أيضا كثيرة بالطلاب، ورعاية للجميع من أوجه مختلفة.

ولهٰذا ينبغي لمن يرعون مثل هٰذه الدروس أن يختاروا من يناسب في تحقيق الهدف من الدَّورات، فترتيب الأمر باختيار العلماء، باختيار المشايخ، في الزمان والمكان والترتيب معهم مسبقًا هٰذا مهم لأنه العنصر الأساس في إنجاح الدروس.

الأمر الثالث في التنظيم أن يرتِّب المنظمون الأمر مع من سبقوا في فهم ما يُحتاج إليه في الدورات؛ يعني مثلا يكون في بلد ما سواء كان في داخل المملكة العربية السعودية أم في خارجها، أول مرة يريدون أن يقوموا بدورة ولكن ما يعرفون، فمن الحسن أن يتّصلوا بمن أقام بدورات وناجحة، من أقام دروسا علمية ناجحة ويستشيروهم؛ لأن المؤمن يستشير وما خاب من استشار.

وبعض الدورات فشلت؛ لأنهم ما استشاروا لأن يظنون المسألة ترتيب علىٰ ورق، فلما حضر الناس والزمان والمكان صار هناك نوع من الخلل، فلذلك لابد من أن تنظر في حال الدورات التي نجحت كيف نجحت.

الأمر أيضا الثالث الذي يحتاج إليه المنظمون والقائمون علىٰ شؤون الدورات سواء أكانوا في مراتب الدعوة التي تتبع لوزارة الشؤون الإسلامية أم كانوا من أئمة المساجد أم كانوا من الإخوة الذين يجتمعوا علىٰ الخير، لابد أن يعتنوا بقصد إفادة الطلاب، ليس المقصود أن يشارك فلان من الناس؛ لأجل أن يكثر الحضور، وإنما المقصود إفادة الطلاب في هٰذه الدروس العلمية، ومعلوم أن المشاركين منهم من يناسب للمحاضرات؛ لكن لا يجيد فنّ التعليم، ولو أجاد فن التعليم قد لا يجيد فن التدريس بهٰذه الدورات المكثفة، أيضا منهم من لا يُحسن مخاطبة الطلاب -طلاب العلم- في هٰذا الوقت الوجيز في العلم الذي يُحسنه، مثلا هو يحسن أصول الفقه، الجدول لما نظموه كان فراغ في العقيدة، قالوا درس العقيدة، حصل هناك نوع من الارتباك وأيضا الطلاب ما استفادوا.

أيضا من الجهات المهمة أن تكون المادة التي تُجمع المادة -المادة التي تقوم عليها الدورة-؛ يعني الموضوعات -الفنون- أن تكون مشتملة علىٰ كل ما يحتاج إليه الطلاب، وأهم ذلك وأعظمه كما سيأتي التوحيد، ثم العلم بالسنة ثم ما يتبع ذلك.

فإذن المنظمون يحتاجون إلىٰ رعاية المكان وتهيئته، وإلىٰ رعاية الزمان، وإلىٰ رعاية المعلم، واختيار المعلم والمدرس واختيار الشيخ الذي سيلقي اختيارا بعناية؛ لأن المقصود النفع، وأيضا اختيار الموضوعات اختيار الفنون، اختيار الكتب، اختيار المتون أن يكون ذلك بدقة.

فهٰذه قد لا يستطيعها كل أحد، ولهٰذا كان من حسنات الإخوة القائمين علىٰ هٰذه الدروس العلمية في مسجد شيخ الإسلام ابن تيمية وفي مقدّمتهم الأخ فهد الغراب وفقه الله لكل خير وغيره من الإخوة، كان من حسناتهم أنهم يستشيرون أهل العلم ويستشيرون طلبة العلم فيما يحسن اختياره من الموضوعات

والفنون والمتون، سبق في الدورة الماضية أنه جرب كذا ما الذي يناسب؟ بعض الكتب لا يكون متنا يصلح في منهجية طلب العلم، نعم هو متن صغير؛ لكنه لا يصلح متنا في المنهجية إما لتفرّق مادته أو ضعف أسلوب أو عدم اشتماله علىٰ كل ما يُحتاج إليه في هٰذا الفن أو ما أشبه ذلك.

فإذن الترتيب مع من يحسن العلم فيمن ينظم هٰذه الدورات هٰذا مهم.

فهٰذه إشارات بضرورة الترتيب والتنظيم لعله أن يسمعها بعض الأخوة في كل مكان وأن يعدّوا للأمر عدته؛ لأنه لابد من القيام للحق فيما ينفع الناس.

الركن الثاني المهم من أركان إقامة هٰذه الدروس: المعلم، الشَّيخ، طالب العلم الذي سيلقي الدَّرس.

ولاشك أن المشايخ أو أن طلبة العلم يختلفون في استعداداتهم، فالله جل وعلا وهب الناس مواهب، وقد يوهب المتأخر ما فات علىٰ المتقدم، وقد يوهب الصغير ما لم يدركه الكبير، وهكذا؛ بل قد يكون المتوسط في السن أقرب إلىٰ حاجة الشباب حاجة طلاب العلم فيما يعرفه من استجابتهم للعلم وكيف يلقي عليهم العلم، ربما كان أكثر من بعض من هو أكبر منه سنًّا.

لهٰذا اختيار الشيخ والمعلم هٰذا من أهم أسباب نجاح الدروس العلميَّة، ولهٰذا أشرتُ إلي فيما سبق إلىٰ أنّ الدروس هٰذه يُعطىٰ فيها متن لمدة وجيزة، قد يكون المتن يمكن تدرسه في سنة، كل أسبوع درس في كل أسبوع درس وينجح من يدرسه؛ لكن لو ضممتها أن يشرح متن في أسبوع ربما لم يستطعه ذاك الذي يستطيعه في سنة، تجد أنه ربما شرح أربع ورقات أو ثلاث صفحات ثم ترك أكثر من ثلثي الموضوع ثلثي المتن بلا شرح.

لهٰذا من المهم لمن ينظم، ومن المهم أيضا للمعلم، لطالب العلم أو للشيخ أن ينظر في تقسيم المتن علىٰ الزمن، عنده ثمانية عشرة درسا، إذا كان كل يوم درس، وكل أسبوع فيه ستة دروس، فعندنا في ثلاثة أسابيع مثلا ثمانية عشرة درسا، عندنا في أسبوعين كم؟ اثنا عشر درسا وهكذا.

فإذن يقسمه بالترتيب والذي حصل في دورات -سواء تقام في هٰذا المسجد أو في غيره-، أن علم الشيخ أو علم المعلم أو علم طالب العلم كان أكبر من زمن الدورة، ففصّل تفصيلات كثيرة ومفيدة لكن ضاق الوقت فترك الطلاب بلا إكمال، والملاحظ أن الذين يستفيدون من الدورات ليسوا هم الذين يحضرون، أنتم تحضرون قد يبلغ عددكم بالمئات؛ لكن من يستفيد من الدورات آلاف، عشرات الآلاف؛ بل ربما مئات الآلاف، وحدثني بعض الإخوة من الدعاة ومن المشايخ ممن زاروا بعض البلاد في إفريقيا أو أوروبا وجدوا فيها الدورات التي أقيمت في هٰذا المسجد أو في غيره مسجلة علىٰ الأشرطة؛ لكن ينتفع الناس بالكتاب الذي شرح كاملا بالمتن الذي شرح كاملا، يوجد عندهم مجموع في عشرة أشرطة، في ثمانية أشرطة إلىٰ آخره.

ولهٰذا أوصي المشايخ وطلبة العلم وأوصي المعلمين في هٰذه الدورات وفي أي مكان أن يرتبوا الزمن، وأن لا ينساقوا وراء المعلومة فينقضي الزمن ولم ينقض من الكتاب إلا صفحة أو صفحتان.

لهٰذا كان من اللوازم أن ينبه القائمون علىٰ الدروس أن ينبهوا الشيخ فيما لو استطرد في البداية لو مضىٰ درسان وهو مستطرد ويفوت جزء من الوقت أن ينبهوه علىٰ ضرورة الزمن، والاهتمام بالزمن وأن يكون الشرح متواكبًا مع قصر المدة وما ينبغي في ذلك.

أيضا ينتبه إلىٰ مسألة وهي في اختيار المنظّمون أو اختيار القائمون علىٰ الدروس المشايخ واختيار المعلّمين، منهم من يحسن الدروس؛ لكن بتحضير، الدورات العلمية، ولابد من الإيضاح -إيضاح ذلك-؛ لأنه إن شاء الله نرجو أن يكون منكم جيلًا كثيرا ممن يدرّس وبعلم في دورات سواء في داخل المملكة أو خارجها؛ لأنها مسؤولية في أعناقنا وفي أعناقكم في حمل العلم ونقله؛ لأن الناس محتاجون أكثر ما يحتاجون إليه إلىٰ العلم وكلٌّ يعلِّم ما يُحسن.

نقول: من المهم أن ينتبه طالب العلم إلىٰ أنه ليس كل العلم يلقىٰ بتحضير، أحيانا تحتاج إلىٰ تحضير، وأحيانا يكون التحضير سببا في إطالة المادة، في إطالة الموضوع، في إطالة الإلقاء، فهو يحضّر من كتب كثيرة، فإذا جاء لإلقاء الدرس أتىٰ بمعلومات تفصيلية مما حضَّره؛ لكن لا يحتاجها الطالب في شرح هٰذا الكتاب، تجد أنه يفصل ونقل من الكتاب الفلاني ونقل من الكتاب الفلاني؛ لكن الدورات في الواقع والدروس العلمية المكثفة هٰذه تحتاج إلىٰ معلم يُمِرّ المتن بإيضاح عبارته وبيانها والاستدلال عليها وإيضاح العلم وحفظ مقصود العلم ومقصود المؤلف في كلام والمرور علىٰ ذلك سريعا بلا إخلال.

وهٰذا يحتاج إلىٰ دُربة ويحتاج إلىٰ علم حاضر في كل الفن، وتحضير قليل، ولكن التحضير الواسع ربما أخلّ بالعملية التعليمية في الدروس العلمية هٰذه.

لهٰذا ينبغي أن يكون هناك نوع من التسهيل في إلقاء المعلومات؛ لابد من القوة العلمية والفوائد؛ لأن طلبة العلم إذا لم يجدوا فوائد فإنهم لن يستمروا، فإذا كانت المادة العلمية قوية، وكان المعلم مستعدا وملكته قابلة، ولغته قريبة واضحة، وإلقاؤه فيه سُهولة وعدم تقعّر، فإنه تكون الفائدة أكثر والمرور علىٰ المتن أيسر ومن ثم يكون تحصيل المتلقي أعظم.

الجهة الثانية في المعلم أن الطلاب قد يحتاجون إلىٰ السؤال، وأنت تلاحظ في الدورات العلمية أن المكروفونات أمام الملقي كثيرة؛ لأن الذين يسجلون كثر وهٰذا يعني أن الفائدة من كلام المعلم أو من كلام الشيخ ليست مقصورة علىٰ الحاضرين.

ولهٰذا لا ينبغي أن يقطع الحاضر الكلام بأسئلة تخلّ بالتسجيل؛ لأن المراد أيضا مع فائدة الموجودين أن تُحفظ هٰذه الدروس مشروحة، كيف ظنّكم لو وجدنا شرح إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله لكتاب «التوحيد» مسموعا لدينا بعد هٰذه السنين؟ كيف لو وجدنا شرح شيخ الإسلام ابن تيمية أو تفسيره للقرآن موجودا أو شرحه للواسطية؟ كيف لو وجدنا شرح الشيخ محمد بن إبراهيم مسجلا؟ وأنتم الآن عندكم شروح جلة من العلماء كسماحة الشيخ عبد العزيز رحمه الله ورفع درجته الجنة وألحقه بالصديق، وكذلك شروح عدد من مشايخنا كالشيخ ابن عثيمين والشيخ صالح الفوزان أو من لهم مشاركات قوية في التعليم والدروس، هٰذه موجودة لديكم والاستفادة منها عظيمة، فلابد من

حفظها، هٰذا الحفظ أيضا مقصود من الدورات والدروس العلمية حفظ هٰذا العلم في أشرطة حتىٰ ينتفع طلبة العلم بعد ذلك، لا تدري متىٰ يحتاج الناس إلىٰ هٰذا العلم.

لهٰذا المعلم ينبغي أن يستحضر هٰذه التبعة العظيمة في أنهم يلقِي كلام والكلام سيسجل وسيستفيد منه الناس ليس في غضون سنة أو سنتين أو ثلاثة سنوات؛ بل سيستفيدون منه ربما بعد مائة عام، لهٰذا عليه تبعة عظيمة، وأيضا المتلقي من طلاب العلم الذين يحضرون الدروس لابد أن يستحضروا هٰذه الملحوظة، وأن لا يقطعوا درس الشيخ ليس بالأسئلة ألا يقطعوه أيضا بالحركة، لا يشتتوا الذهن بقيام جلوس؛ لأن هٰذا أيضا يضعف الدرس، هٰذا أيضا يؤثر المعلم.

فإذا كان الجميع منصتا وكان متلقيا التلقي الصحيح، كان المعلم أنشط في إلقاء العلم، ولهٰذا كان سفيان وغير وسفيان كمالك من أهل العلم يقول: كنا إذا نشطنا أسندنا -يعني الحديث- وإذا كسلنا أرسلنا. كيف هو المسألة بالمزاج ومرة يسند الحديث ومرة يرسل يقول: قال رسول الله ﷺ بدون ذكر الإسناد، هٰذا راجع إلىٰ الوضع النفسي للمعلم لاشك، لكن أيضا راجع إلىٰ المتلقي وهٰذا ألاحظه أنا في الدروس والمشايخ يلاحظونه، لأن حركة الطلاب واستعداد الطالب وتلقيه وحسن إنصاته وحسن كتابته ينشّط المعلم للفوائد، مرات مثلا في بعض القرىٰ وفي بعض زياراتي ألقي الدرس ولا أحد يكتب ولا وجود لتسجيل، ولا أحد معه ورقة وقلم يكتب، طبعا هٰذا ليس من خصال طالب العلم، معه حضور بلا سلاح، سلاح طالب العلم ما هو؟ القلم والورقة، هٰذا الذي يجمع فيه السلاح للمستقبل، المعلم إذن لن ينشط فإذا شاف أن الطالب لم يهتم فإذن لن ينشط.

فإذن هٰذه الدروس في التسجيل مهم جدا أن يتعاون فيها المعلم والمتعلم في إنجاحها، وفائدتها ليست مقصورة علىٰ الحاضرين، وإنما علىٰ جميع من سيسمع، هي ممتدة علىٰ جميع من سيسمع في بلاد شتىٰ ربما في أوربا في أفريقيا في الصين في إندونيسيا في الشمال في الجنوب في أي مكان. لهٰذا احرصوا علىٰ الإفادة والاستفادة.

أيضا مما ينبغي للمعلم أن يكون مستحضرا أن هٰذه الدورات والدروس العلمية هي للمتوسطين من الطلاب، لا ينبغي أن يحملها علىٰ المتقدمين؛ لأن المتقدمين قلة ولا علىٰ المبتدئين فتفوت الفائدة علىٰ المتوسطين، فيكون التوجه فيها إلىٰ المتوسطين من طلاب العلم، في أسلوبها؛ فيستخدم أسلوبا في بيانه لا يرتفع عنه الحاجة ولا يتقاصر عنه الرّيض المبتدئ؛ بل بيْن بين، وهٰذه صفة الربانيين من العلماء فيما وصفهم الله جل وعلا بقوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[آل عمران:٧٩]، والله جل وعلا هنا وصف الرباني من أهل العلم بأنه يعلّم ويدرُس، أما الذي يعلِّم ويستغني علىٰ أن يدرُس، فهٰذا ليس ربانيا يعلّم.

صفة التعليم قال أبو عبد الله البخاري: الرباني هو الذي يعلّم الناس صغار قبل كباره. يعني بحسب الحاجة، والنبي ﷺ أوتي جوامع الكلم وكان الكلام يُختصر له اختصارا، يفهمه العامي والذكي والبليد والحاضر والبادي إلىٰ آخره.

فإذن في هٰذه الدورات يستحضر المعلم فيما يُلقيه يستحضر المتوسطين من طلاب العلم والمتلقِّين، ولو كان الذي أمامه جميعا من الحاذقين، فلابد أن يستحضر لما كانت الدورة دروس علمية مكثفة في مدة وجيزة فستحفظ الأشرطة وستنقل إلىٰ آخره استحضار المتوسطين في العلم، وهٰذا يعني أنه سيفيدهم فوائد يرتفع بهم في العلم والتعريفات والضوابط والقواعد إلىٰ آخره.

ومما ينبغي أن يكون عليه المعلم وأن يحرص عليه أن يتجنّب في الدورات الأساليب الإنشائية؛ يعني الوصفية، يأتي يتكلم ويتكلم؛ لأنني أنا لاحظت في مشاركاتي السابقة وفي الدروس التي ربما ألقيتها، ألاحظ أن الطلاب والمعلم يتكلم، متىٰ يبدأ يكتب؟ إذا وجد فائدة، وخاصة إذا كانت الفائدة مشتملة علىٰ تعريف أو ضابط المسألة أو تقسيمات، تعريف مثلا نقول: وتعريف التوحيد هو كذا، تعريف الحقيقة كذا، تجد أن الطالب بدأ يكتب، أو ضابط المسألة هو كذا، ضابط الصفيق من الثياب كذا، ضابط السدل كذا، هنا النمص تعريفه كذا، تجد الطالب مباشرة يأخذ القلم ويبدأ يكتب، يتكلم المعلم يقول: وهٰذه منقسمة إلىٰ أربعة أقسام، منقسمة إلىٰ ثلاثة أقسام، ألاحظ مباشرة طلاب العلم وهم يحضرون الدرس يبدؤون يكتبون.

إذن الطلاب والمتعلمون إذا حضروا الدورات يريدون الاستفادة، والاستفادة التي تكون متوسطة أن يحرص المعلم -وهٰذه وصية لكل معلم- أن يحرص علىٰ ذكر الفوائد دون الاستطراد في الوصف، وهٰذه هي التي تبقىٰ يدوّنها هؤلاء وتبقىٰ معهم وهي التي تفتِّح لهم فهم العلوم.

إذا ضبط لهم متن الوحيد وأعطاهم الضوابط، الشرك الأكبر تعريفه ضابطه الأصغر تعريفه ضابطه، التنديد تعريفه وضابطه، ما الفرق بين هٰذا وهٰذا؟ الفرق بين الشرك الأصغر والخفي، وأشباه هٰذه المسائل، هٰذه هي التي ستبقىٰ معه، وهي الفوائد التي لن يجدها في كل كتاب.

أما الوصف فيمكن أن يقرأ ويستفيد، والناس ملكات هم درجات عند الله؛ لكن الضوابط هٰذه هي حصيلة علم طالب العلم، المعلم حصيلته العلمية هي الفروق الدقيقة، وإلا لماذا الناس لا يقرؤون في الكتب، ويقتصرون عليها؛ لأن الكتب ليس فيها كل شيء، وإنما حتىٰ يصل لابد أن يقرأ كتب كثيرة، وأن يلاقي مشايخ كثيرين حتىٰ يحصل له ملكة في العلم.

هٰذه فائدة المعلم أنه يفتح لطالب العلم في الدورات الآفاق، فلهٰذا أوصي بالحرص علىٰ التعاريف، الحرص علىٰ الضوابط، علىٰ نكتة المسألة، علىٰ الفروق بين المسائل المتشابهة، علىٰ التقاسيم، قسّم، تارة يأتي المعلم التقسيم في ذهنه لكنه يعطف التقسيم بالواو، مثل ما هو موجود في كتب الفقه أو في بعض كتب العقيدة أو بعض كلام المتقدمين، تجد أنه يقسم لكنه لا يقول النوع الأول النوع الثاني والنوع الثالث، إنما يعطفها بالواو أو بأو، الشيخ وهو يدرُس أو وهو يستفيد ويقرأ أو يحضر أو في حياته العلمية يعرف هٰذا الواو أو (أو) أنها تقسيمات.

فإذن في الوقت الحاضر الطلاب لما تقول له: والشرك أكبر وأصغر وخفي. أو تقول الماء طاهر وطهور ونجس ومشكوك فيه، يمكن ما يلتفت له وتصبح العبارة أشبه بعبارات المتون.

لكن لو أتىٰ المعلم وسهل الأمر وقال: القسم الأول هو كذا، والقسم الثاني هو كذا والقسم هو كذا.

أيضا في اختلاف العلماء في المسائل الخلافية، يذكر المسألة الخلافية والأقوال فيها مرتّبة، القول الأول دليله وجه الاستدلال منه، القول الثاني دليله وجه الاستدلال منه، والترجيح الذي يظهر له، وقد لا يكون راجحا عند غيره ولكن الترجيح الذي يظهر له.

من المهم أيضا للطالب في نظرته للمعلم أنه لا ينظر للمعلم في الدورات والأستاذ حتىٰ في الجامعة أنه إمام في كل شيء، عالم حافظ، لا تنظر إليه بهٰذه النظرة.

إذن لن تستفيد إلا من أناس كما وصفهم الذهبي بقوله: كدتُّ لا أراهم إلا في كتاب أو تحت أطباق تراب. لا تصعب الشرط في تلقي العلم تنتقد هٰذا وتنتقد هٰذا، أن يلقي العلم وهو متّق لله فيه، لا ينسب لله جل وعلا ولرسوله ﷺ أو لدين الإسلام أو للعلم الشرعي ما لا يعرفه من كلام أهل العلم، لا يدخل اجتهاداته الشخصية في العلم؛ لأن المقصود في الدروس العلمية هي نقل العلم كما نقله العلماء، بقاء العلم في هٰذه الأمة، العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة قال أهل العلم حتىٰ يبقىٰ في الناس.

إذن لا يصعب الشرط فتسيء الظن.

وأيضا لا تشترط في المعلم خاصة في الدورات أن لا يخطئ في مسألة ليس صحيحا، قد يكون عند أحد الطلاب مثل ما وجدناه عدة مرات، بعدما نلقي المسألة أحد الأخوة يقول: ترىٰ هٰذه المسألة أنت قلت فيها كذا وهٰذا؛ يعني مرجوح أو فيه كذا، أو في حديث الفلاني أو بعض أهل العلم فصل التفصيل الفلاني، فيفيد الطالب المعلم وابن الخشاب الحنبلي يقول: أنا تلميذ تلامذتي، وهٰذا صحيح؛ لأن العلم يستفيد وأيضا يستفيد والفائدة من هٰذا إلىٰ هٰذا والفائدة، أنت الحظ من منكم يدرس حديثا تخرج ودرّس سواء تدريس أو في وزارة المعارف يعني في المدارس الثانوية أو المتوسطة أو تدريس في كليات أو نحو ذلك أو لما يدرس الإنسان أو ما يدرس طالب العلم تجد أنه يستفيد من الطلاب، وهكذا حتىٰ مع السنين تقل استفادته من الطلاب يكون هو يفيد أكثر؛ لأن أمامه عقولا تناقشه فيما يقول، وهو قد يركّز ويستعد؛ لكن تأتي مسألة يجد أنه لابد أن يقول فيها فيذكر ما عنده؛ لكن يكون ما عنده فيها ليس هو القول الصحيح أو ليس هو التحقيق أو يفوته شيء أو يغلط في نسبة حديث أو ما أشبه ذلك.

إذن فالعلم بين المعلم في الدورات بين المعلم والمتعلم، لا يرتفع المعلم عن أن يستفيد من الطلاب، ولا يستنكف الطالب أن يُفيد المعلم أو أن يظن أن المعلم يجب أن لا يخطئ أو أن يكون القمة في شرحه هٰذا لا يمكن.

لهٰذا لابد أن يكون هناك استفادة، وكل أحد من طلاب العلم المشهود لهم بالعلم والمشهود لهم بالمعرفة وحفظ الفن الذي يدرس فيه، لابد أنك ستستفيد منه ما شاء الله من الفوائد؛ لكن لا تشترط شروطا يصعب وجودها إلا في أحمد بن حنبل أو البخاري أو ابن تيمية أو الأئمة هٰذا لا يمكن.

ننتقل إلىٰ **الركن الثالث وهو المتعلم**، طالب العلم الذي يحضر الدورات ما خصاله؟ ما صفته؟ كيف يستعد لهٰذه الدورات؟ كيف ينشط لها؟ كيف يهيئ لنفسه أكبر استفادة من الدورات والدروس العلمية؟

أولا طالب العلم يجب عليه إذا أراد حضور الدورات العلمية أن يُخلص الرجاء في ربه الكريم أن يفتح قلبه للعلم والاستفادة؛ لأن القلب تأتيه الشواغل والخواطر، فبينما هو ينصت إذ يأتيه خاطر يقطع عنه الاستفادة ثم يريد أن ينصت من جديد تلخبط عليه الإنصات والفوائد فيلغي الأخير الأول؛ لأنه ما تابع، فلابد من حسن اللجأ إلىٰ الله جل وعلا أن يمنحك الفقه في الدين والاستفادة والصبر علىٰ العلم؛ لأن العلم لابد له من صبر.

وهٰذا فيه الإخلاص، وفيه الصدق مع الله جل وعلا، وفيه حسن التوجه؛ لأن هٰذا العلم عبادة، طلب العلم عبادة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىٰ بما يصنع، الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضىٰ بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له كل شيء حتىٰ الحيتان في جوف الماء، وهٰذه فضيلة عظيمة.

فإذن أحسن الظن بالله جل وعلا، وأحسن اللجأ بأن يفتح الله جل وعلا قلبك بالعلم وأن يرسِّخ العلم في قلبك.

الأمر الثاني مما ينبغي أن تحرص عليه أن تكون عدتك في طلب العلم كاملة، ما هي العدة؟ أن يكون معك القلم، تتعهد القلم ولو رأيتم كتب أهل العلم، مثل الجامع للخطيب، أو كتاب ابن عبد البر الجامع لبيان العلم وفضله، أو ما شابه ذلك من الكتب، تلاحظ أنه يركّز علىٰ استعداد طالب العلم بأدواته:

القلم، القلم أصبح إبرة وين القلم؟ ما لقيته، هٰذا ما ينفع، لابد من الاستعداد كما تستعد لأي شيء؛ لأن هٰذا سلاحك فإذا فتك فاتك شيء من العلم.

أيضا الدفاتر تنسيقها، أنا أرىٰ بعض المذكرات، أو بعض الدفاتر والكراريس التي يكتب فيها بعض الإخوة ليست صحيحة، وليس قصورا منه لكن ما نبه كيف يكون لابد من تنشيطها أن تكون مرتبا في العلم، والترتيب في تلقي العلم فيتبعه وأنت تلاحظ إن شاء الله تعالىٰ أن يكون ذهنك مرتبا في المستقبل، أما إذا كنت مشوشا في ترتيب العلم فيتشوش ذهنك، ثم بعد ذلك تتشوش في المستقبل في تلقي العلم وفي تدريسه. لابد أن تكون مرتبا؛ يعني لكل مادة لكل متن من المتون لكل فن كراسة خاصة، تعرف تكتب الفوائد الفائدة، تعليق علىٰ المسألة لا تجعلها متوالية مثلا، هٰذا مثال، لا تجعلها متوالية، أو تكتب علىٰ الكتاب الفوائد حتىٰ تمتلئ ثم بعد ذلك تريد أن ترجع إليها فلا تحسن الرجوع إليها.

لهٰذا سئل الإمام أحمد سئل عن الكتابة بالخط الصغير كتابة الحديث بالخط الصغير قال: أكرهه؛ لأنه لا يدري متىٰ يحتاج إليه، فربما احتاج إليه فلم يستطع استخراجه، وهٰذا صحيح، يكتب بخط وسط السطر ثم يبدأ يرجع ثم ينزل ثم يرجع في مدة يريد أن يدرس، يريد هو أن يراجع العلم يملّ ولا ينشط لأن كتابته ليست حسنة ولا مرتبة.

فإذن الأفضل أن تجعل لك في المتن الذي تدرسه أن تجعل أرقاما متسلسلة من واحد إلىٰ الأخير، وفي كل مسألة عليها تعليق من المعلم من الشيخ، ليشرح لك أن تجعلها في صفحة مستقلة، ولو لم تكن إلا سطر واحد، وسيأتيك لماذا؟

مثلا قال المراد بكذا هو كذا لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ واستدل، هٰذه سطر واحد، لا تقول صفحة فارغة، اجعلها فارغة؛ لأنك سنحتاج يوما ما إلىٰ أنك تفصل أنت في هٰذه المسألة.

افرض أن الشيخ وهو يعلّم ما فصل وأنت احتجت إلىٰ التفصيل، فتجعلها كالتتمة لذلك، وهٰذا جُرّب ووجد أنه ناجح جدا؛ لأنك تكتب أصل المسألة ثم بعد ذلك تضيف معلوماتك.

فيكون إذن شرح المعلم لهٰذا المتن أساسا عندك يمكنك أن تنمّي المعلومات والشروح عليه، فيكون أساسا لشرح لك أنت في نفسك أكبر فيما تستقبل من عمرك المبارك إن شاء الله تعالىٰ.

لهٰذا لابد إذن في الدفتر في الكراريس أن تكون مرتبة، لا تكتب علىٰ الكتاب، سابقا يحرصون علىٰ الكتابة لقلة الورق أو لأسباب، والآن ولله الحمد أرخص ما يكون الدفاتر والكراريس، اجعل أرقاما متسلسلة كل تعليق في صفحة، إذا أردت أن تراجع تقابل بين هٰذا وهٰذا.

الوصية الثالثة لطالب العلم، قد يكون طالب العلم يحضر بعض الدروس، وقد يحرص علىٰ حضور الدورات جميعا، فما الذي ينبغي له؟ ينبغي له إذا أراد أن ينتقي من الدروس أن لا ينتقي الفن الذي يختاره بحسب فراغه، وإنما الفن الذي يحتاجه في دينه، بعض الإخوة يكون لم يدرس التوحيد، أو درسه من مدة ويريد أن يسترجعه، هنا يجعل هٰذا هو الأساس، وبقية الوقت يجعله للموضوعات والفنون الأخرىٰ، بعضنا قد يكون مشغولا مع أسرته خاصة في الصيف عنده عمل عنده برامج أخرىٰ يريد، يعني عنده أشياء في يومه وليلته، فما الذي يختاره؟ يختار العلم الذي يحتاج إليه في دينه لتكملة ملكته العلمية واستعداداته في العلم.

هٰذا قد يكون بسبب المعلم أنه والله موجود الشيخ فلان يدرّس أحضر لأستفيد منه وقد يكون لأسباب أخر.

لكن لابد من اختيار الوقت والفن الذي يناسب طالب العلم.

أيضا مما ينبغي لطالب العلم أن يتمسك به أن يحضّر للدرس تحضيرًا جيِّدًا، فكيف يحضر والدروس متوالية ومتتابعة؟ قد يكون تحضيره بحفظ المتن ولو لم يسمّع علىٰ الشيخ، يحفظه ليكون هٰذه الأسابيع قضاها في تكوين علمي صحيح، وقد يحضّر بالنظر في المسائل التي يحتاج إليها، مثلا يقرأ ثلاثة أسطر أربعة أسطر صفحة، والله هٰذه المسألة غريبة أبحث، ما يحضّر كل مسألة كما يحضرها المعلم، وإنما يستعد لينظر، هٰذا الاستعداد ليس المقصود منه فقط أنه يتعلم، المقصود منه أن يقارن ملكته بما يعطيه المعلم، وهٰذه مع الزمن تجد أنه ينمي نفسه بهٰذه الطريقة، فيحضر وينظر فيه تعامل الشيخ مع الكتاب، وكيف هو تعامل مع الفن، في التوحيد، في الأصول، في شرح أحاديث البلوغ مثلا، كيف يتعامل؟ هو الآن مثلا جرب مثلا فيه «بلوغ المرام» وستبتدئون إن شاء الله دراسة من كتاب الصلاة، خذ حديثا وانظر مثلا في تحضيره في «سبل السلام» أو في «فتح الباري» أو إلىٰ آخره، كيف أنت وجدت؟ ثم قارن كيف تعامل الشيخ مع هٰذا المتن مع الحديث، لاشك أنك ستخرج بفوائد، ربما تكون غائبة عنك.

والملاحظ أن المشايخ في تدريسهم لا ينقلون للطلبة كيف يتعالمون مع العلم، يعطونهم العلم؛ لكن كيف يتعامون مع العلم، كيف يدرس الآن أتكلم؟ كيف أرتب كلامي؟ أشرح حديث كيف أرتب؟ كيف أحضر له؟ كيف أختار ذلك؟ هٰذا لا ينقل، يذهب العالم ولا ينقله إلىٰ من بعده.

والذي ينبغي أن يختار المعلم والعالم أن يختار من طلابه من يحسن التدريس وأن يعطيه كيف يعلّم، كيف يدرّس، كيف يرتب المسائل إلىٰ آخره.

هٰذه إذا لم يكن في الدورات فرصة لها لأن الجمع الغير حاضر ولا يمكن أن يعرف من هو الطالب والحافظ، لو قام أحد من الناس أنا والله حضرت عند في الدورة في شرح البلوغ أو شرح الأربعين النووية، ما أعرف، من حضر ومن لم يحضر، يمكن أتذكر واحد اثنين خمسة؛ لكن الحضور الأكثر لا أتذكر، لا يمكن نقل أشياء من العلم إلا بتعاون الطالب والمدرس يعلّم والشيخ يلقي لابد أن يكون عنده تحضير، وهٰذا التحضير له أنحاء شتىٰ، تارة يراد منه تحضير الطالب أن ينظر إلىٰ المعلومة من حيث هي، وتارة أن يقارن كيف هو تعامل مع التعليم، كيف تعامل هو مع المتن، كيف تعامل مع الحديث، والمعلم والشيخ كيف تعامل معه، هو كيف نظر إليه ومن جهة تحضيره، فيستفيد فوائد جمة لا يمكن تحصيلها إلا بتجارب.

من الوصايا أيضا التي ينصح بها الطالب العلم: ألا يقول كما ذكرنا، والله الدورة مسجلة؛ يعني ما دام مسجلة آخذها من تسجيلات كذا والحمد لله، ما لها داعي أكتب كل شوي أكتب أكتب ما دام مسجلة، والحمد لله.

وهٰذا غلط كبير يقع كبير يقع فيه كثير من الإخوة؛ لأن كتابة الطالب مع الشيخ هٰذه مؤثرة في استعداداته العلمية وفي مشيه في العلم كما ينبغي؛ لأن العلم إذا لم تكابده فإنه يتركك، إذا لم تكابد العلم فإن العلم لا يأتيك، تقول سأسمع وبعدين آخذ التسجيلات، هٰذا ما ينفع؛ لأن هٰذا ترك للمجاهدة، ترك للمكابدة، بل الذي ينبغي أنه تظن أنه لا تسجيل أنا وأحرص علىٰ اقتناص الفوائد ومراجعة ما كتبت، هٰذا يعطيك ملكة في تلخيص العلم، ستسمع لاشك أنك ما قاله المعلم وما قاله الشيخ حرفيا، فيه أحد يستطيع يكتب حرفيا؟ ما يمكن.

ولهٰذا ما ينبغي التفريق بين ما نقله الطالب كتابة، وما سُمع، وهٰذا جربناه في بعض الدروس الذين لخصوا الدرس تلخيصهم فيه يكون نقص كبير عما هو موجود في التسجيل، أو عما يعرفه المعلم من نفسه.

لكن ما المقصود من ترك الكتابة المقصود أن تتدرب علىٰ ملكة التلخيص، أنك تسمع كلام ومباشرة هٰذا الكلام تستوعبه ثم تلخص هٰذا الكلام، فتجد أنك في أول الأمر الشيخ يسرع ما أستطيع، والمرة الثانية والله فاتني وكتبت شوي، لا تمل، تعوّد ويأتي حين فإنك الذي تسمعه لو قيل لك أعده ستعيده؛ لأنك تربيت علىٰ ملكة في أنك الكلام تستطيع أن تختصره، تستطيع أن تختصره علىٰ أروع مثال، وهٰذا ما يكون إلا بدربة كيف تتدبر لأن لا تعتمد علىٰ التسجيل؛ بل لابد أن تكتب فورا معه شيئا فشيئا.

من الوصايا أيضا قد يكون في هٰذه الدورات العلمية طبقات مختلفة من الحاضرين:
فمنهم من يحضر للعلم.
ومنهم من يحضر مبتدئ يقول: أنا أريد أن أطلب العلم، مبتدئ.
ومنهم من يحضر لمجلس الذكر خاصة بعد الفجر مثلا أو في أوقات الإجابة، يريد أن يحضر لمجلس الذكر ويستمع.
ومنهم من يحضر لفائدة والذي يحصل عليه يحصل والذي ما يحصل عليه خلاص.
والذي ينبغي حقيقة أن يتعاهد طلاب العلم من يحضرون في هٰذه الدورات، واحد يحضر يلاحظه من في جنبه وهو طالب علم يعرف كيف يكتب، يلاحظون أنه بوده لو تعلم؛ لكن لا يحسن الطريقة، العلم عليه صعب إلىٰ آخره.
لهٰذا ينبغي أن يرحم بعضنا بعضا في الدروس العلمية وفي العلم جميعا.
ولهٰذا ذكرت لكم مرارا أن العلماء في المتون ربما ابتدؤوا متونهم بالوصية لطالب العلم والسؤال بالرحمة: اعلم رحمك الله، مثل مثلا في «ثلاثة الأصول»: اعلم رحمك الله أنه يجب علينا تعلم، إلىٰ آخره.
الرحمة والتراحم العلماء أول ما ينقلون في العلم في الإجازات -إجازات الحديث- أول ما ينقلون حديث الراحمون «**الراحمون يرحمهم الرَّحمٰن ارحموا من في الإرض يرحمكم من في السماء**» هٰذا الحديث «الراحمون يرحمهم الرَّحمٰن» هو الحديث المعروف عند العلماء بالمسلسل بالأولية؛ لأن كل شيخ يقول عن شيخه: حدثنا شيخنا فلان وهو أول حديث سمعته منه، حدثني شيخي فلان وهو أول حديث سمعته منه، إلىٰ آخره إلىٰ أن يصل إلىٰ طبقة تبع تابعين.
لماذا حديث «الراحمون يرحمهم الرَّحمٰن»، اعلم رحمك الله؟ لأن طالب العلم من خصاله التي بها يبارك الله جل وعلا له، ويرحمه الله جل وعلا بها، أن يكون رحيما، بمن؟ رحيم بمن حوله، يرشد هٰذا ويعلمه ويعينه ويبذل، فالراحمون يرحمهم الرحمن.
فإذا كانت في طلب العلم رحيما بالخلق، رحيما بزملائك، رحيما بأصدقائك، رحيما بالحضور في أنوع شتىٰ من الرحمة والتعاون والخير، فأبشر برحمة الله جل وعلا لك بوعده الصادق لقول نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن**» فالرحمة لها أوجه شتىٰ.
هٰذه وصايا مختلفة متنوعة لعلها أن تكون معجزة لملقيها ولمن يستمعها.
وأسأل الله جل وعلا أن يجعلكم مباركين، وأن ينفع بكم.
وقبل أن تؤذن معنىٰ في الدعاء أن يجعل فلانا مباركا هو ما جاء في الدعوة في ما جاء في سورة مريم أن عيسىٰ عليه السلام قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[مريم:٣١] ارجعوا إلىٰ تفسيرها ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ بأن تكون معلما للعلم، قال العلماء في تفسيرها من السلف ومن العلماء: المبارك من عباد الله هو الذي يعلّم الناس الخير.

فأسأل الله أن يجعلكم مباركين وأن ينفع بكم، وأن يجعل هٰذه الدروس العلمية مفيدة لملقيها ومفيدة للمتلقي، وأن يبارك في الجميع، وأن يلهمكم الرشد والسداد وأن يمنحكم جميعا وإيانا الفقه في الدين، والتزام السنة، وأن لا يكلنا لأنفسنا طرفة عين إنه سبحانه جواد كريم.

اللّهمَّ اغفر لنا جما وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الأسئلة]

سؤال (١): فضيلة الشيخ نحضر إلىٰ هٰذه الدورة من أماكن بعيدة من خارج هٰذه البلاد ولا يوجد في بلادنا طلاب علم، ولكننا نستطيع الحصول أشرطة الدورة إلىٰ أي مدىٰ نستطيع الاستفادة منها؟

الجواب: كأنه يعني هل نحضر منها وندرس هناك؛ لا بأس أن تعلّم، ليس من شرط التعليم أن تكون عالما متمكنا، أو مدرسا في جامعة أو متخصصا في فن، درّس لكن انتبه إلىٰ الحساب، انتبه تقوىٰ الله جل وعلا فيما تقول، لا تنسب لعالم قولا لم يقله تخلصا من موقف، لا تقل علىٰ ما تعلم، قل ما تتيقن من الدليل الواضح مما تعلمته من الأشرطة أو غيرها ما تتيقن دون زيادة.

ليس مهما أن يكون كلامك لمدة نصف ساعة في الدرس، اجعل كلامك ربع ساعة عشر دقائق؛ لكنه يكون يقيني لا تحاسب عليه وإنما تجزىٰ عله الجزاء الأوفىٰ إن شاء الله تعالىٰ.

وأنا ألاحظ بعض الذين كانت لهم رغبة في التعليم في المساجد ولم يستمروا أنهم أتوا من جهة أنهم توسعوا في الكلام بأشياء غير يقينية؛ بأشياء لم يعلموها من العلم حقا، أحرجوا في الكلام أو استطردوا دخل في أشياء وتصورات واجتهادات له عقلية في المقام، العلم لا يوافقه، العلم ضد ما قال، أو أن كلامه غلط علمي، ونحو ذلك.

فتفرق أنهم يقولون هٰذا يقول أشياء، ربما نسب بعضهم إلىٰ بعض أهل العلم كلاما ليتخلص لا أنا سمعتها من الشيخ وهو ليس بصحيح.

فإذن التعليم وحضر لهٰذه الدورات وذهب إلىٰ بلده جزاه الله جل وعلا خيرا، وأسأل الله جل وعلا أن يكتب خطواته وأن يجعله من طلبة العلم وأن يقرّ العلم في صدره وأن ينفع به من شاء من عباده، لا بأس يحضر علىٰ هٰذه الدروس التي سمعها وينقل ما فهمه بيقين، لست محاسبا علىٰ أن تشرح كل العلم، ولكن إذا نقلت العلم فانقل العلم وأنت متيقّن لا تكذب علىٰ الله وعلىٰ رسوله، لا تكذب علىٰ العلماء، لا تقل شيئا أنت تستنتجه استنتاجا، وإنما تنقل ما تعلمته وسمعته من مشايخك أو قرأته بيقين وفهمته دون لبس أو غموض ولو كان قليلا فإنه يبارك الله جل وعلا فيه.

ربما منكم من سمع أو حضر عند بعض المشايخ في بعض القرىٰ ما عنده علم كثير، كلمات يقرأ عليه الطالب في بكلمات لكنها كلمات صحيحة وفيها بركة، لأنها ليست غلطا في نفسها، وإن لم يكن فالناس درجات المعلومات درجات؛ لكن هٰذا اتقىٰ الله جل وعلا فقال له ما يعلم فقال لك ما يعلم ولو كان قليلا فينفعك الله به، فتنتقل إلىٰ ما بعده.

إذن فوصيتي للجميع أولا ينقلوا العلم، انقل العلم في بيتك، انقل العلم لأصدقائك، انقل لمن يحتاج إليه؛ لكن انقل بيقين واخش الكتاب عند الله جل وعلا؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ يحاسب العالم إذا كذب في علمه لأنه يكذب علىٰ من؟ يكذب علىٰ الشريعة أن هٰذا أثره الفاسد وهؤلاء هم علماء السوء والعياذ بالله.

سؤال (٢): فضيلة الشيخ إني أحبكم في الله كيف أقاوم الفتور وضعف الهمة في طلب العلم؟

الجواب: اعرف المقصود، فضل العلم، نهاية العلم ما هو؟ إذا طلبت العلم، ما الفضل العظيم الذي ستحصل عليه، منازل العلماء عظم أجر أهل العلم، عظم أجر طالب العلم، الأحاديث الواردة في ذلك؛ بل الآيات وتفسير أهل العلم لها.

لابد فضل العلم تقرأه وتكثر منه فضل في نفسه، وفي هٰذه الدورة أو في هٰذه الدروس ثم درس يتعلق بالتربية والأخلاق -أخلاق طالب العلم- يتعلق بأخلاق طلاب العلم وأخلاق الدعاة يلقيه الأخ الشيخ عبد العزيز السدحان وفقه الله، هٰذا مهم أن تعرف فضل العلم، فضل الدعوة، وفضل نقل الخير والهدىٰ، هٰذا يشجعك أكثر وأكثر وتحتسب.

سؤال (٣): فضيلة الشيخ طلبت العلم عدة سنوات ومع ذلك ليس لدي معلومات ولا أشعر بالفائدة فبماذا تنصحونني جزاكم الله خيرا؟

الجواب: أولا لا تقولك لم أشعر بالفائدة؛ لأن طالب العلم في عبادة، والمقصود من طلب العلم ما هو؟

المقصود أولا رضىٰ الله جل وعلا عن العبد أنه حرص علىٰ العلم، تعلمون أن الرجل الذي في الحديث مات بين بلدين، فأتت الملائكة قالت قيسوا إلىٰ أي البلدين فوجد أنه أقرب إلىٰ بلد الهجرة فغفر له، لماذا؟ لأن طالب العلم في حركته في العلم هو في عبادة، طلبك العلم أنفاسك كلامك الذي تكلم فيه إنصاتك استعمالك لجوارحك، في هٰذا الأمر هٰذا كله عبادة لله جل جلاله، أنت احتسب أنك في عبادة، تقول: ما استفدت، لا تقول: ما استفدت، هو ربما هو خير لك من نوافل الصلاة، أو من بعض نوافل العبادات؛ لأن هٰذا فيه عظم أجر وتعبد لله جل جلاله لما تسمع من كلام الله جل وعلا وكلام رسوله ومعنىٰ ذلك.

ثم الفائدة متبعّضة لا يظن أنه إما أن تكون عالما أو لا تكون طالب علم أصل، ليس المقصود من كل طالب علم أن يكون عالما، إنما المقصود بطلبك للعلم أن ترفع الجهل عن نفسك، أن تتعبد لله جل وعلا بعبادات صحيحة، أن تكون عقيدتك صالحة، تأتي الله جل وعلا بقلب سليم ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾[الشعراء]، سليم من الشبهة وسليم من إقرار الشهوة.

هٰذا من فوائد العلم، أنك ترفع الجهل عن نفسك، ولا أظن أحدا طلب العلم سنين لم يستفد منه أجرا ولم يستفد منه رفعا للجهل عن نفسه، لا يمكن إذا كانت نيته صادقة، فالله جل وعلا لا يضيع أجر من

أحسن عملا، ثم هو لابد أن يكون هو رفع الجهل عن نفسه لو ما نفعت إلا نفسك وعيالك هٰذا خير عظيم.

سؤال (٤): أقول في نفسي لن أستطيع شيخا ربانيا؛ لأني لست علىٰ ذكاء قوي أو غير ذلك من الأعذار، بماذا تنصحني؟

الجواب: بما نصحت به أخاك قبل، ليس من شرط طلب العلم أن تكون عالما ربانيا، اسأل ربك التوفيق، ولا تدري هل إذا تصدرت للعلم وصرت عالما مشارا إليه، ما تدري هل ذمتك تبرأ أو لا تبرأ، لا تدري هل هو ابتلاء لك أم أنه أفضل؟

المهم أن تنوي رفع الجهل عن نفسك، وأن يرضىٰ الله جل وعلا عنك لأنك سلكت طريقا تلتمس فيه علما وتطلب العلم وصلاح القلب وصلاح الجوارح، هٰذا هو المقصود.

أما أن تكون عالما أو لا تكون، هٰذه علمها عند رب العالمين، والله جل وعلا ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨)﴾[القصص:٦٨].

أسأل الله لك التوفيق ولإخوانك جميعا ولكل من رام خيرا فلم يدرك مبتغاه؛ لكن:

لا تسئ بالعلم ظنا يا فتىٰ إن سوء الظن بالعلم عطب

كما قال الشنقيطي في شعره.

سؤال (٥): أحيط فضيلتكم علما بأن من ثمرات هٰذه الدورة إقامة عدد من الدورات في بعض دول إفريقيا.

أرجو منكم أن توصوا جميع الحضور محاولة إقامة مثل هٰذه الدورات في المملكة وفي خارجها؟ ما توجيه فضيلتكم من يشارك في الدورات في بلد تكثر فيه البدع والشركيات؟

الجواب: أولا كما ذكرنا سالفا: نشر العلم عبادة وجهاد، الله جل وعلا في مكة أمر نبيه أن يجاهد المشركين بماذا؟ بالسنان؟ لا، إنما يجاهدهم بالعلم ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)﴾[الفرقان]، يعني بالعلم بالقرآن، أعظم ما يكون جهاد الأعداء بالعلم، لأنك تبقي الخير وتبقي التأثير، طالب العلم يؤثر، أما الصالح في نفسه هٰذا لا يؤثر إلا علىٰ نفسه؛ لكن طالب العلم ينشر الخير تتوسع الدائرة مع الزمن وهكذا.

ولهٰذا جاء في الحديث -وفي إسناده مقال- «**فضل العالم علىٰ العابد كفضلي علىٰ أدناكم**» رواه الترمذي وغيره بإسناد فيه مقال.

لكن العلم لاشك أن طالب العلم له فضيلته العظيمة، لهٰذا إذا تهيأ له إذا تعلم في بلاده هٰذا عظيم، إذا تهيأ له أن يرحل وأن يعلم من هو محتاج فهٰذا عظيم.

مثلا بعض الطلاب طلاب العلم حضروا وعندهم ملكة في التوحيد مثلا خاصة أو في شرح بعض المتون الصغيرة وفي فهم العلم أو في إلقاء السيرة، عندنا يمكن لا يُشار إليهم؛ لأن الناس يصيرون إنما هو أعلم، ومع وجود الأعلم يكون من هو أقل منه لا يصار إليه، هٰذا شيء طبيعي؛ لكن ربما لو ارتحل إلىٰ

بلد أخرىٰ كما ذكر وأقام دورة في إندونيسيا، أقام دورة في أفريقيا، أقام كذا علمية مع من يختار وبذلوا فيها المال وعلّم الناس الدين والعقيدة والتوحيد، ربما وجد نفسه في تلك الديار شيخًا.

وهٰذا ينبغي أن يُنظر، لا يتجاسر المرء علىٰ العلم؛ لكن ينتبه إلىٰ أن العلم الذي معه ينفع به من يأخذه منه.

ولهٰذا أنا أوصي الجميع في بلادهم أن يقيموا الدروس العلمية، وأن يتقوا الله جل وعلا فيما يقولون، وإذا كان ثم بلد -كما قال- تنتشر فيه البدع الشركيات فأعظم ما تعلّم ولا شك ما دعت إليه الرسل جميعا وهو التوحيد الله جل جلاله الذي هو حق الله عبيد والعقيدة الصحيحة، فهٰذا أعظم ما تورثه وتلقيه في أي المكان، ثم تدرسهم السنة؛ لأنها هي التي تبقىٰ والقبول، تعلّمهم كلام الله جل وعلا، تعلمهم السنة دلالة الأحاديث إما من أربعين نووية أو ما أشبه ذلك، فهٰذا هو الذي يبقىٰ وهو الذي ينشر الخير لا وهو الذي كما هو ملاحظ يغيض الأعداء.

ومرّ علينا كثير من الإخوة يدرسون في بلد يدرسون في «كتاب التوحيد» قام عليهم من قام الذي قام عليهم؟ قام عليهم العلماء علماء تلك البلد، لماذا؟ لأن هٰذا ولو كان درس بسيط يعلمون أثره، هٰذا معناه أنه سينشئ طلبة علم ممن يهتمون بالعقيدة، نحن هؤلاء سينتقدون علينا أوضاعنا البدعية والشركية، أو سينكرون علينا، يتخيلون ما يتخيلون بوسوسة الشيطان وعداوة الشيطان لأولياء الله الصالحين، لهٰذا أعظم ما تجاهد به أعداء الله جل وعلا والشيطان، نشر العلم فانشره في أي مكان بحسب ما تستطيع، واتق الله في ذلك وقل ربِّ زدني علما.

سؤال (٦): ما هو نصيب أصحاب التخصصات العلمية كالهندسة والكيمياء وغيرها من هٰذه الدروس والدورات، لاسيما أن شريحة كبيرة من الشباب من هٰذه التخصصات ينتظرون الفائدة وجزاكم الله خيرا.

الجواب: من الواجب علىٰ كل مسلم أن يتعلم ما به تصح عقيدته وما به تصح عباداته، هٰذا يجب علىٰ المهندس، ويجب علىٰ الطبيب، ويجب علىٰ الذي يدرس الرياضيات والكيمياء، أو المهندس المعماري، أو المتخصص في الكمبيوتر، في أي فن من الفنون النظرية هٰذه.

يجب عليه أن يتعلم العلم الشرعي، لا يكون كطالب علم؛ لكن يتعلم ما تصح به عقيدته ويتعبد لله جل وعلا تعبدا صحيحا.

ولهٰذا هٰذه الدورات فرصة، وربما لم عندهم وقت إنما بعضهم طلاب يشتغلون في طول السنة، يحضرون هٰذه الدورات فيستفيدون علما كثيرا في وقت وجيز، أو يكون فعلا قد تخرج وتوظف إلىٰ آخره فيأخذ من كل علم ما يحتاج إليه، ولاشك أن أمثال هؤلاء لديهم استعدادات فطرية لكي يفهموا العلوم الشرعية.

لهٰذا كان بعض الحكماء من لم يكن مهندسا فلا يدخل داري، قاله لطائفة، من لم يكن مهندسا فلا يدخل داري، لماذا؟ لأن أصحاب هٰذا الفن والذين يدرسونه عقولهم مرتّبة فتصلح للعلوم الشرعية.

وهناك علمان الذي هو علم الهندسة والطب أقرب ما يكون للعلوم الشرعية، لهٰذا الشافعي يذكر عنه أنه قال: نظرت في العلوم، فإذا أفضل العلوم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان، فتأملت فإذا علم الأبدان -الذي هو الطب- ينجيك الدنيا، يصلح أمر البدن في الدنيا، وإذا بعلم الأديان يصلح البدن والروح في الدنيا والآخرة، فآثرت علم الأديان علىٰ علم الأبدان.

والشافعي رحمه الله كان متوجه في الطب، كان عنده علم بالطب والفراسة والأشياء هٰذه، حتىٰ كان موته بسبب تعاطيه بعض العلاجات الطبية لقوة الحافظة، كما هو معلوم الشافعي مات صغيرا يعني ما عمِّر؛ يعني كان مولده سنة خمسين ومائة ووفاته سنة أربع ومائتين يعني عاش أربع وخمسين سنة، سبب موته أنه تعاطىٰ بعض الأشياء الطبية، كان يحسن الطب تعاطىٰ بعض الأشياء الطبية التي أثرت علىٰ دمه فأصابه نزيف كما ذكر الذهبي في السير وفي غيرها.

المقصود أن العالم قد يعتني، ابن القيم كان طبيبا يعتمد الطب والفلك أيضا، لو نظرت في كتابه «مفتاح دار السعادة» شرّح للإنسان تشريحا عجيبا ذكر الكبد ووصفها وتشريحها، وطبقات الجلد كيف يعرفها؟ كان يعاني بعض هٰذه الأشياء؛ لكن لا يصلح العالم أن يشهر هٰذه الأشياء، ربما هو يعلمها؛ لكن لا يصلح أنه يشهرها، أيضا ذكر لك في «مفتاح دار السعادة» صورة للخسوف والكسوف، وعملية حسابية هندسية من جهة الأشكال المخروطية وحساب القطر والزوايا إلىٰ آخره، والزمن، حيث إنك لو أخذت بها فتستطيع أن تحسب متىٰ يكون الخسوف والكسوف.

إذن العلماء الربانيون علماء الأمة كان لهم اشتغال ببعض هٰذه العلوم؛ لأن هٰذه العلوم تورث صحة في العقل؛ يعني قوة في العقل، فإذا كان من هُيئ له علم الطب أو علم الهندسة أو ما أشباهها وفق لدراسة العلم الشرعي وأن يجمع بين هٰذا وهٰذا فهٰذا ليس بعزيز:

وعلىٰ قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي علىٰ قدر الكرام المكارم

ومن عجائب الشافعي رحمه الله مما نختم بها المجلس أنه كان يتعاطىٰ الفراسة، والفراسة كما هو معلوم ثلاثة أقسام: فراسة طبيعية، فراسة إيمانية إلىٰ آخره تعلمونها في العقيدة.

المقصود منها الفراسة الطبيعية التي يستدل بها من الشكل شكل الوجه أو شكل بعض البدن علىٰ خفي الصفات، يقول مثلا هٰذا أعينه حادة فتدل علىٰ قوة ذكائه، هٰذه عينه باردة عنده غباء بدون ما يخالطه، هٰذا مشيته تدل علىٰ أنه مستعجل في أموره، هٰذا شكل جبهته يدل علىٰ كذا.

هٰذا العلم موجود قديما في الناس منه ما هو صواب ومنه ما هو غلط.

الشافعي تعاطاه وذهب إلىٰ اليمن ليدرس هٰذا العلم ويأخذ كتبه، قال: فحصّلت كتبا كثيرة فيه، وإذا فيها أنه إذا وُجدت خصلتان في المرء كان لئيمًا، وهو أن يكون صفتان -لن نذكر الصفات حتىٰ لا تكون ممكن في بعض الناس ويكون لها أثر فيه- يقول: فأخذتها، يقول فلما رجعت إلىٰ مكة يقول أتىٰ بي الطريق هو ودابته ومعه بعض الناس -ذكرها الشافعية في كتبهم الفقهية وذكرها جمع في الرحلات وفي

مناقب الشافعي- يعني قصة مشهورة، يقول: فأتاني في الطريق في الليل علىٰ رجل عنده مكان مهيأ للمسافرين.

يقول: فلما رآني ظننت أنه يعرفني، يقول: فأكرمني وأنزلني ورحب بي أعظم ترحيب وأدخلني منزلا حسنا وفراشا مريحا إلىٰ آخره، وأخذ دابتي سأذهب بها إلىٰ مكان الدواب وسأعلفها الليلة، فأخبرته أني سأذهب غدا فقال: لو ما عجلت، ما مثلك يأتينا ونحو هٰذا الكلام.

قال: فلما بت تلك الليلة فتأملت في صفاته، فإذا بها صفات اللئيم التي نظرت إليها في كتب الفراسة. قلت: وخاسرتاه هٰذه الرحلة لدراسة وقد أتاني أكرم الناس الذي يوصف بأنه اللئيم.

قال: بت أحسن ليلة، فلما أتىٰ الصبح شكرته وأعظمت عليه الثناء، وركبت دابتي وقد قربها إلي وأعانني علىٰ ركوبها.

يقول: فلما أردت المسير قلت له: يا فلان قد أحسنت إلينا أعظم إحسان وفعلت وفعلت. وعدد فضائله، فإذا أتيت مكة فسل عن محمد بن إدريس الشافعي فسأكافئك علىٰ ما صنعت بي من الإكرام.

قال: فنظر إلي نظرا مغضبا، وقال: يا هٰذا ما رأيت رجلا بوقاحتك، أكرمك وأكرم دابتك، وأنزلك في منزلي وتجلس علىٰ فراشي وأهيئ لك الطعام والشراب وتقول لي هٰذا الكلام، أنقد لي كذا وكذا من الدراهم، يقول هٰذه الدراهم ما يأخذ إلا عُشر ما طلب، أنقد لي وإلا والله لن تذهب وسأفعل بك وأفعل، يقول: فعظمت محبتي لكتب الفراسة.

يقول: فاحتفظت بها فأعطيته وذهبت وأنا أذم فيه وأنظر في كتب الفارسة، هٰذا أثّر في الشافعي -هٰذا استطراد لتنشيط الإخوة- أثر في الشافعي.

حتىٰ إنه كان يسأل رحمه الله تعالىٰ إذا أتىٰ له خادمه بطعام، ممن اشتريته؟ صف لي من اشتريت لي منه؟ قال تلميذه الربيع قال: أتيته مرة بطعام فقال: ما صفة من اشتريته منه، قال: صفته كذا وكذا، فقال: لن آكل كلوه أنتم أو أرموا به لماذا؟ قال: هٰذه أبشع صفة لا آكله، أثّرت فيه مع أن ذلك غلط.

وهٰذه قصة فيها فوائد -يعني إيرادها فيه فوائد-:

أولا ينبغي لك أيها الطالب في العلم أن تحرص علىٰ قراءة التراجم؛ لأن الآن ما شاء الله أول الكلام كان منكم من هو شارد وسارح ورايح في ألف وادي؛ لكن لما بدأت القصة انشدت الأذهان، هٰذا في طبيعة الإنسان، اقرأ التراجم تراجم وسير العلماء وسير الأولين تنشط وتستجم للعلم؛ لأن العلم منه ملح ومنه عقد.

العقد غليظة صعبة لكن ملح العلم سهلة وتستلذ بها، لهٰذا كان الزهري وغيره من العلماء إذا انتهىٰ الدرس قال: هاتوا لنا من أخباركم، هاتوا لنا من أشعاركم، فإن للقلب إحماضة أو كما قال.

فلا بد أولا من مطالعة التراجم لتنشط.

الثاني أن تستفيد من هٰذه القصة ومن أمثالها أن العالم، قد يكون ترىٰ في ترجمته شيئا غريبًا؛ لأنه بشر، والله جل وعلا بقدره وحكمته جعل في بعض العلماء أشياء من الصفات ليست هي صفات الكمال،

لماذا؟ ليبقىٰ الكمال والاقتداء في النبي ﷺ، ما يأتي أحد ينزّل العالم منزلة النبي يأتي عالم ما أخطأ تماما فعله كفعل النبي ﷺ لا يمكن، ويكون قصورا منه من العالم؛ لكن القصور يكون بحكمة من الله جل وعلا وأمر كوني سيِّر إليه لمصلحة أعظم، وهو أن لا يغلو الناس في أحد.

لابد أن تجد شيئا غريبا من هو الكامل؟ من هو الذي يقتدىٰ به؟ هو العالم الرباني الذي يعلّم الناس الخير وينشر في الناس الهدىٰ، ويعلّم الناس السنة ونحو ذلك.

أما الأشياء التي قد تكون في حياته، هٰذه لا تلتفت إليها؛ لأنه ما من أحد إلا وستجد عنده ما تجد، لو رأيت ترجمة مالك وجدت فيها، لو رأيت أحمد وجدت فيها، لو رأيت ترجمة أبي حنيفة جدت فيها؛ لكن الآن الناس مجمعون علىٰ الثناء علىٰ هؤلاء الأئمة الأربعة.

الإمام أبو حنيفة تقرأ في بعض الكتب منهم من كان في عصره من يلعن أبا حنيفة لبعض المسائل؛ ولكن استقر علىٰ الثناء عليه وعلىٰ أنه من العلماء وعلماء الفقه وأهل الاجتهاد إلىٰ آخر ذلك.

فالعالم إذا قرأت في التراجم أفادك أن أهل العلم في الأزمنة جميعا لم يكونوا كاملين؛ بل لابد من نقص، وهٰذا النقص لا تنسبه إليهم فقط؛ بل هو ابتلاء من الله جل وعلا ليظهر كمال الكامل وتظهر نصيحة الناصح، وليظهر أن الإقتداء التام في الأنبياء.

في المسألة يغلط، يخالف الدليل، ويخالف السنة يقول: لا أنا أظن كذا، يخالف الدليل يعني ابتلاء من الله جل وعلا، يظهر الاتباع لأنه يظهر المتبع أنه يتبع النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ.. في مصالح أخر.

والفائدة الأخيرة من القصة أنّ دروس العلماء وطلبة العلم والدروس العلمية حبذا لو يكون المعلم يُلقي فيها بعض القصص والفوائد التي تكون فيها تربية ويكون فيها توجيه لطالب العلم؛ لأنها أوقع في القلب وأكثر أثرًا من العلم المجرَّد أو في بعض الناس أو في بعض الأحوال.

ونختم بهٰذا، وفي هٰذا القدر كفاية.

وأسأل الله جل وعلا أن يثيبكم علىٰ حسن إنصاتكم وعلىٰ حضوركم، وأن يبارك فيكم، وأن ينفعكم بهٰذه الدروس نفعا عظيما، وأن يجزل للجميع خير الجزاء، وأن يوفق ولاة أمورنا لما فيه رضاه، وأن يمنّ عليهم بالهدىٰ والتوفيق للصالحات إنه سبحانه جواد كريم.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

منهج الإمام
محمد بن عبد الوهاب
في العقيدة

لفضيلة الشّيخ

صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بعث في فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يهدون من ضل إلىٰ الهدىٰ ويبصرون بكتاب الله أهل العمىٰ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم علىٰ الناس، وما أسوأ أثر الناس عليهم، ينفون عن دين الله تحريف الغالين وتأويل المبطلين ونزعات الجاهلين.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد..

فيا أيها الإخوة في الله طلبة العلم ومن يحرص علىٰ كل خير، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

وأسأل الله جل جلاله أن يجعلني وإياكم ممن إذا أعطي شكر، وإذا أبتلي صبر، وإذا أذنب استغفر.

كما أسأله سبحانه أن يجعلنا من حملة العلم ومحصليه حتىٰ يتوفانا الله جل وعلا إليه.

كما أرغب إليه جل جلاله أن يثبتنا علىٰ طريقة أهل السنة والجماعة أئمة السلف الصالح، ومن نهج نهجهم وسار علىٰ منوالهم إنه سبحانه سميع مجيب.

إن موضوع هذه المحاضرة موضوع مهم؛ لأنه يمثّل لبنة في فهم هذه الدعوة الإصلاحية التي ظهرت في نجد وشاع نورُها في تسديد أمر الدين في بلادٍ كثيرة في الجزيرة وفي غيرها.

وذلك لأن كثيرين في هٰذا الزمن من رغِبُوا عن العقيدة الصحيحة ومنهج السلف الصالح فيها.

وأيضا كثيرون في هذا الزمن من رغب في الدعوة السلفية وفي صفات السلف الصالح؛ لكنهم لم ينهجوا أئمة هذه الدعوة في دعوتهم وفي صِلاتهم وفيما يقررونه ويكتبون.

وأيضا تتضح أهمية هذا الموضوع أنّ الانتساب لدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في هذا الزمن رغِب فيه غلاة؛ نسبوا أنفسهم إلىٰ هذه الدعوة، ولا يصحّ لهم هذا الشرف؛ لأنهم لم يأخذوا بكل منهج أئمة الدعوة في ذلك الذي اقتفوا به أثر السلف الصالح في ذلك؛ بل غلوا في ذلك وأخذوا جملا من كلامهم ونزّلوها علىٰ مرادات الأهواء.

وهناك أيضا طائفة أخرىٰ جفت وانتسبت إلىٰ دعوة السلف؛ لكنها تساهلت في أمر التوحيد والاعتقاد؛ بل في أمر الدين حتىٰ صاروا مفرّطين في انتسابهم لهذه الدعوة التي هي في الواقع دعوة إصلاحية في أمر ديننا.

هدىٰ الله جل وعلا إليها -يعني في تجديد أمر الدين- الإمام المصلح شيخ الإسلام أبا عبد الله وأبا علي محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي المُشَرَّفي التميمي المولود سنة (١١١٥هـ) والمتوفىٰ سنة (١٢٠٦هـ) في الدرعية.

وكلكم يعلم سيرة هذا الإمام، وطرفا كثيرا أو قليلا من مؤلفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ؛ ولكن الشأن في أنّ منهج هذا الإمام لم يبسط للناس في التعرف علىٰ مفرداته؛ في كيفية تقريره لمسائل العلم في العقيدة أولا وفي

التوحيد، وفي مسائل الفقه والاختلاف، وفي الاستدلال، وأيضا في السير، وأيضا في مسائل العمل والسلوك والتربية، وأيضا في مسائل العلاقة مع ولاة الأمور وواجبات كل أحد بحسبه في ذلك.

ونحمد الله جل وعلا أن جعل الأكثرين في هذه البلاد وفي غيرها يحرصون علىٰ تعرف منهج السلف الصالح في مسائل العقيدة وفي المسائل التي ذكرنا، وعلىٰ طريقة أئمة السنة والجماعة في هذه المسائل، ولاشك أن هذا من المطالب المهمة؛ لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حذر وأنذر فقال: «**وستفترق هذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**» قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «**هي الجماعة**»، وفي رواية قال: «**هي من كان علىٰ مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»، وأيضا حَذَرًا وخوفا من قول الله جل وعلا: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾**﴾[الأنعام]، وحذرا من قول الله جل وعلا: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ**﴾[هود].

ولهذا فإن الحريص علىٰ آخرته والحريص علىٰ النجاة لابد له أن يرجع إلىٰ ما كان عليه أئمة السلف الصالح فيأخذَه بلا غلو ولا جفاء، فيأخذه بلا شدة ولا ارتخاء؛ بل علىٰ نهج وسط فيه ظُهور الحق وفيه الرحمة بالخلق، كما كان علىٰ ذلك أئمتنا رحمهم الله تعالىٰ.

وأيضا تظهر أهمية هذا الموضوع في هذا الزمن في أن عمق العلم والنظر قلّ، غلب عليه العاطفة والحماس عند الأكثرين، فيُتَلَمَّس شيء من هدي أئمة السلف أو ما كان عليه أئمة الدعوة رحمهم الله تعالىٰ جميعا، فيقال: إن هذا هو منهج أئمة الدعوة، وهذا هو الذي قرره أئمة الدعوة، وهذا الذي ذهب إليه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ونحو ذلك، في مسائل قد يتقاصر الكثيرون حين يقررونها عن تَدَرُّس المنهج في تتبعه.

وهذا من الاستعجال ومن القضاء بغير علم، ومن المعلوم أن النبي ﷺ قال: «**القضاة ثلاث فقاضيان في النار وقاضي في الجنة**»، والقضاء كما يكون في مسائل الخصومات، كذلك أعظم منه القضاء في المسائل العلمية والبت فيها، فإذا كان القضاة ثلاثة قاضيان في النار وقاض في الجنة فإن في المسائل العلمية تكون التبعة أكثر؛ لأن البينات والدلائل في المسألة الفردية -يعني فيما يقع من خصومة فردية- هذا هين أو هذا قليل، أما في المسائل العلمية فيحتاج إلىٰ جهد أكبر وجمع أكبر، لهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له علىٰ نحو ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فإنما هي قطعة من النار فليأخذ أو ليدع**».

والقضاء في المسائل العلمية والنظر فيها يحتاج إلىٰ تفرس وإلىٰ تأمل، وخاصة إذا كان سيترتب علىٰ هذا النظر منهج، أو سيترتب عليه عمل، أو سيترتب عليه فِراق، أو سيترتب عليه دعوة، أو سيترتب عليه نسبة أشياء إلىٰ السلف الصالح رضوان الله عليهم.

وإذا اختلفت الأمور واشتبهت فالواجب علىٰ العلماء وعلىٰ طلاب العلم أن يدعوا المشكوك فيه إلىٰ اليقين؛ لأن الله جل وعلا قال في محكم كتابه:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ ﴾[آل عمران].

فتأمّل قول الله جل وعلا في هذه الآية العظيمة ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ فدلت الآية علىٰ أن الزيغ وُجد في القلوب أولا، ثم صار الاتباع للمتشابه، وليس المتشابه في نفسه سببا للزيغ؛ لكن الزيغ وجد لأسباب كثير ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾، وأما الذين لا يوجد في قلوبهم زيغ ولا هوىٰ وإنما يحبون الحق ويبحثون عنه فإنهم يؤمنون بالمحكم ويعملون به ويردون المتشابه إلىٰ عالمه جل وعلا ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾، وهذا هو الواجب في هذه المسائل.

لهذا نرىٰ في هذا الزمن كثر الكلام علىٰ منهج أئمة الدعوة هذا هو الذي يقرره أئمة الدعوة قرره الشيخ محمد بن عبد الوهاب، هذا هو منهج ابن تيمية هذا هو منهج ابن القيم، هذا منهج السلف، وكثير منها قضاء بغير علم كما يعرفه المتبصر في هذه المسائل.

والناس في ذلك ما بين غالٍ فيها وما بين جافٍ، وهذه الأمة وسط﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ [البقرة:١٤٣]، وكذلك وسط بين طرفي الغلو والتفريط.

إذا تبين هٰذا، فإن الإمام المصلح مجدد أمر الدين في زمانه محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ كان مقتفيا لأثر من قبله؛ حتىٰ إنه لا يُعرف له في مسألة أنه تكلم فيها من غير سابق له من أئمة الإسلام، وإنما كان يتّبع من قبله من الأئمة وخاصة الإمام أحمد ابن حنبل الشيباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفىٰ ٢٤١هـ، والإمام ابن تيمية المتوفىٰ سنة ٧٢٨هـ والعلامة ابن القيم والحافظ الذهبي وابن كثير ونحو ذلك من العلماء الذين قرروا منهج السلف بوضوح.

فإذن هو في منهجه متّبع لأئمة الإسلام من أئمة السلف الصالح فمن بعدهم، ولم يكن في منهجه مبتدعا منهجا جديدا، لا في العقيدة ولا في العلم ولا في التعامل بأي نوع من التعامل.

لهذا إذا تكلمنا علىٰ منهجه في الواقع في تقرير العقيدة فإنه منهج للسلف الصالح؛ لكنه ظهر أكثر في كلام الإمام لأجل أنه صاحبه دعوة وجهاد ونشر الخير ومعاداة، وهذا ستظهر فيه -يعني هذا الواقع- تظهر فيه معالم المنهج أكثر؛ لأنه يحتاج إلىٰ تطبيق علىٰ بعض الوقائع.

ما هي العقيدة أو التوحيد الذي نبحث في منهجه فيه؟

العقيدة والتوحيد: علم يبحث في حق الله جل وعلا علىٰ عباده، وما يتصل بنعوت الرب جل وعلا وأسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والأمور الغيبية، وهذا يدخل في أركان الإيمان الستة؛ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالىٰ.

والعقيدة والتوحيد بينهما تلازم؛ لكن بينهما فرق، وذلك أنّ العقيدة تشمل شرح أركان الإيمان هذه يعني ما يتصل بتوحيد الله جل وعلا والإيمان به بتوحيده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته والإيمان ببقية أركان الإيمان الستة، وما يتصل بذلك مما خالف فيه أهل السنة والجماعة الفرق الضالة بأنواعها في

مسائل التلقي في مسائل التعامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة ولاة الأمور، وفي الموقف من زوجات النبي ﷺ أمهات المؤمنين والصحابة إلىٰ آخر ذلك، وفي الأخلاق والسلوك التي يكون عليها أهل هذا الاعتقاد، كما قرره ابن تيمية في «الواسطية» حيث جعلها ثلاثة أقسام كما هو معلوم للدّارس.

أما التوحيد فهو أخص من العقيدة، ويُعنىٰ به تقرير حق الله جل وعلا علىٰ عباده، وهو ما يستحقه ﷻ في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأعظم هذا وأفضله هو عبادة العبد للواحد الأحد وحده دونما سواه، وهو المسمىٰ بتوحيد العبادة.

والتوحيد من أهل العلم من قسمه إلىٰ ثلاثة أقسام في كلامه كالحافظ ابن جرير الطبري وكابن بطة الحنبلي وجماعات، وابن تيمية وابن القيم ومن سار علىٰ هذا النهج.

ومنهم من قسمه إلىٰ قسمين وهو توحيد في المعرفة والإثبات وتوحيد في القصد والطلب.

فالأول ثلاثة أقسام ألوهية وربوبية وأسماء وصفات.

والتقسيم الثاني **توحيد في المعرفة والإثبات** وهو توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، **وتوحيد في القصد والطلب** وهو توحيد العبادة أو توحيد الإلهية.

وهذا القسم أعني توحيد القصد والطلب هو الذي شحذ همة الإمام المصلح رَحِمَهُ اللهُ في دعوته الإصلاحية في تجديد أمر الدين.

كذلك يدخل في العقيدة والتوحيد اتّباع النبي الكريم محمد بن عبد الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في اتباع سنته والحض عليه والنهي عن البدع ومحدثات الأمور.

إذا تبيّن هذا فما هي معالم هذا المنهج علىٰ الإجمال؟

أولا منهج الأئمة جميعا، ومنهم الإمام المصلح رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ أن العقيدة والتوحيد أمر متّصل بالغيب، فلا يقرر إلا بالنصوص، أو بما أجمع عليه السلف الصالح، يقرر بالكتاب وبالسنة، وبما أجمع عليه السلف الصالح؛ وذلك لأن أمور الغيب ليست كأمور الشهادة.

فمنهج التلقي في ذلك في تقرير العقيدة واضح، وهو أن العقيدة والتوحيد لا يقرر إلا بنص من القرآن أو من السنة أو مما أجمع عليه السلف أو فهمه الصحابة رضوان الله عليهم من النص من القرآن أو من السنة.

وحينئذ يكون تقرير هذا منطلقا من أن العقل لا مدخل له في أي مسألة من مسائل الاعتقاد والتوحيد والإيمان، وإنما هي مسألة تسليم بحت، العقل تابع للنقل في فهم دلالته وفي فهم ما دل عليه النص، أما النص فهو الذي يؤخذ منه تقرير الاعتقاد.

فإذن أول معلم من معالم المنهج: أنّ منهج السلف الصالح ومنهج أئمة الإسلام في تقرير العقيدة هي أنّه لا يصح أن تؤخذ العقيدة إلا من كتاب الله جل وعلا ومن سنة رسول الله ﷺ، ومن ما أجمع عليه السلف.

فحينئذ لا يكون الاستدلال بالعقل في مسائل الاعتقاد دليلا ولا منهجا، وحينئذ لا يكون الاستدلال بالوجه أو الاستحسان أو ما يظهر لفلان أو ما يستحسنه فلان من أنه له مدخل في ذلك.

وأيضا يبطل حينئذ أن تؤخذ مسألة من مسائل الاعتقاد من رجل تفرّد بها، حتىٰ ولو كان من أئمة الإسلام، أو كان ممن كان لهم الشأن من التابعين فمن بعدهم، وإنما تؤخذ مسائل الاعتقاد كمنهج ومسائل التوحيد من الأشياء المتفق عليها الظاهرة البينة التي دل عليها كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله ﷺ وأجمع عليها العلماء، كذلك لا مدخل حينئذ فيها لتقرير العقيدة في نقل عن عالم حتىٰ ولو كان من أبرز أهل العلم؛ لأنه أتىٰ بكلمة لا يُعرف لها دليل من كتاب الله ولا من سنة رسوله ﷺ، وهذا مرجعه أن هذه المسائل الغيبية لا يدخلها قياس ولا يُنَظَّر عليها ولا تلحق بمثلها، وإنما هذه المسائل الغيبية يجب فيها التسليم لما دل عليه الدليل، دون نظر في عقل يُثبت شيئا أو يستحسنه أو يرفضه.

المخالفون لهذا المنهج ساروا في عدة طرق ومناهج، فمنهم الذين حكّموا العقل علىٰ النص وجعلوا في مسائل الاعتقاد العقل مقدَّمًا علىٰ الدليل؛ لأن العقل عندهم -كما يزعمون- قاطع وأما الدليل عندهم ليس بقاطع يعني قطعي الدلالة، -ليس قطعي الثبوت إنما القصد قطعي الدلالة- العقل عندهم قاطع وأما النص فإنما عندهم ليس بقاطع، فبذلك يحصل هذا وهذا.

يبطل حينئذ استدلال الناس بمسائل الاعتقاد بالمنامات أو بما يراه، أو يقول: جاءني شبه إلهام كما يدعيه قوم من الصوفية ونحوهم في إثبات أشياء أو نفي أشياء عن طريق المنامات وعن طريق الرؤىٰ وعن طريق الوَجد وعن طريق أشياء مشابهة لذلك.

أيضا يبطل في هذا سلوك أهل البدع في تقرير مذاهبهم من الخوارج ومن المرجئة والقدرية والمعتزلة والجهمية والأشاعرة ونحو ذلك، ممن يُثبتون عقائدهم بالاستدلال ببعض الأدلة دون بعض، ولا يأخذون كل ما جاء في المسألة من الأدلة؛ ولكن يأخذون ببعض ويتركون بعضا، ولهم نصيب من قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾، الواجب أن تؤخذ مسائل العقيدة من الكتاب والسنة في جميع ما رووا فيها؛ لأن مسائل العقيدة مسائل غيب، والغيب لا يدخله النسخ لأنه خبر لا يدخله النسخ ولا يدخله أيضا الإنساء وإنما ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[البقرة:١٠٦] مسائل العقيدة فيه محكمة، وإنما يقع التدرج ويقع أشياء من الأمور العملية لأن هذه أخبار متعلقة بالغيب.

وعلىٰ هذا كان منهج الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كتبه فتجد مثلا كتاب التوحيد تجد أول هذا الكتاب كتاب التوحيد وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات]، فلم يجعل حتىٰ خطبة لكتاب للكتاب التوحيد، الواحد يؤلف كتاب الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، هذا كتاب أردت فيه بيان توحيد..، لم يجعل هذا الإمام المصلح لم يجعل ولا كلمة في مقدمة كتابه؛ لأن لا أحد يدل علىٰ التوحيد أعظم من رب العالمين، فكان من تعظيم الله جل وعلا ومن الدلالة علىٰ أن المنهج في التوحيد أنه لا يُسبق كلام الله بكلام، ولا يسبق كلام رسوله ﷺ إلا بكلام الله جل وعلا وتقدس.

لهذا تجد أن «كتاب التوحيد» وهو في تقرير توحيد الإلهية وما يضاد توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية

وتوحيد الأسماء والصفات وما يتصل بذلك من مباحث كما هو معروف، هذا الكتاب ليس فيه إلا آية أو حديث، وأحيانا يأتي بكلام يوضّح معنىٰ كلمة أو جملة أو حكمٍ في الآية والحديث من نقل من بعض أهل العلم المعتبرين في ذلك.

وعلىٰ هذا جميع كتب الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، عاب قوم الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ فقالوا: إنه لا يطنب في التأليف معلوماته قليلة، لا يفصل لا يستطرد، وهذا في الواقع من المنهج؛ لأن الدعوة دعوة التوحيد، ليست هي دعوة لطلبة العلم، ليس علما خاصا بفئة من الناس يتعلمونها، التوحيد حق الله علىٰ العبيد، للجميع الصغير والكبير والمرأة والرجل وطالب العلم والبدوي والقريب والبعيد يأخذه، فإذا فصّل فيه وأطال فإن بعض طول الكلام ينسي بعضه بعضا، فلهذا كان يختصر جدا في تقرير التوحيد والعقيدة بالدليل من الكتاب والسنة ليكون المتلقي لهذا المنهج معه الدليل الواضح البين من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ وليس معه تفصيل كلام يذهب قوة الاستدلال.

ومعلوم أن كثرة البحوث التي نشأت في زمن القرن الثاني والثالث أَضعفت من أخذ العقيدة من مصدرها الكتاب والسنة، وكثر الخلاف فيها لأنه كثر الكلام.

واليوم نرىٰ لما كثر في تقرير العقيدة بتفصيل الكلام وتنويع الجمل حتىٰ عند العامة في المحاضرات وعند الناس لما كثر الكلام صار فيه هناك الآن إثارة للخلاف في مسائل.

أصبح بعض طلبة العلم يخوض بعض المسائل التي قررها الأئمة في التوحيد، يقول في بعضها خلاف، وهذه بعضها كذا ويذهب عن النص ودلالته يقول: ابن تيمية يقول: إن التوسل كذا أنه بدعة، ويقول: الشفاعة أنها بدعة وليست شركا، ويخرج الدلالة لقول فلان وقول فلان، وهذا في الحقيقة يخلّ بسلامة المنهج في أنّ النص إذا كان واضحا محكما واضح الدلالة بيّن الدلالة فإنه حينئذ يجب تقريره علىٰ هذا ونقله إلىٰ الناس وبيان ذلك.

المعلم الثاني من معالم هذا المنهج المبارك أنّ تقرير التوحيد والعقيدة بعامة هو أولىٰ الأولويات وأولىٰ المهمات، وذلك لقول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «**إنك تأتي قوما أهل كتاب فليكمن أو لما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله**» وفي رواية أخرىٰ عند البخاري في كتاب التوحيد «**فليكن أول ما تدعوهم إليه إلىٰ أن يوحدوا الله**» وعند مسلم في أول صحيحه: «**إلىٰ أن يعرفوا الله**» وهذا يدل علىٰ أن أولىٰ الأولويات في الدعوة هو أن يدعىٰ إلىٰ التوحيد.

والدعوة إلىٰ التوحيد لابد فيها من ترتيب للأولويات في داخله.

فإذن عندنا مسألتان في تفرد هذا المنهج:

الأولى: أن الدعوة إلىٰ توحيد الله جل وعلا في ألوهيته وعبادة الناس للواحد الأحد دونما سواه، أن هذا هو منهج هذا الإمام المصلح في دعوته.

فلم يبدأ دعوته بسلوكيات ولا بزهديات، ولم يبدأ دعوته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مسائل التي يقع فيها الناس من الذنوب العامة، ولم يبدأ دعوته بكذا وكذا، وإنما صبر وصبر سنين حتىٰ

يقرر توحيد العبادة وما يدل من حق الله في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته جل وعلا.

إذا تبين ذلك فإنّ التوحيد إذا كان هو أهم المهمات، والتوحيد والعقيدة أولا لو كانوا يعلمون، فإن مسائل التوحيد تختلف أيضا في ترتيب أولوياتها، لهذا تجد أن الإمام في دعوته وفيما يقرره وفي رسائله، ما يقرره في كتبه وفي رسائله تجد أنه لا يجعل المسائل المتصلة بالعقيدة والتوحيد في مرتبة واحدة؛ بل أخّر بعض المسائل حتىٰ اتضحت الدعوة وانتشرت، وبدأ بالمسائل العظيمة.

المسألة العظيمة الأولىٰ أن دعوة غير الله جل وعلا شرك، الاستغاثة بغير الله جل وعلا شرك، طلب المدد والحاجات من الأموات وشفاء الأمراض وجعل المخلوق له صفات الخالق أن هذا كفر وشرك.

وأخر بعض المسائل في مثل بعض مسائل تقرير الصفات والرد علىٰ الأشاعرة، في بعض مسائل التوسل أخرها، في بعض مسائل التبرك لم يوردها، وذلك بيّن في منهجه.

فإذن إذا قلنا: التوحيد أولا وهو أهم المهمات، فليس معنىٰ ذلك لأن يعطىٰ الناس كل مسائل التوحيد دفعة واحدة، يعطىٰ لقوم يجهلون الأصول وعندهم خلل في أصل التوحيد، عندهم وقوع في شركيات كبرىٰ، فنبحث معهم مسألة التبرك بالصالحين، أو التبرك بالماء أو بالسؤر أو التمسح ببعض الصالحين الأحياء أو بعض تأويل الصفات أو نحو ذلك، ليس الأمر هكذا.

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأ دعوته بشيء عظيم واضح؛ لأن حجة الخصم فيه هي أضعف ما يكون، ولو ركّز علىٰ بعض المسائل التي فيها من الكلام ما فيها، من النقول عن العلماء مثل مسائل التبرك أو مسائل التوسل أو بعض مسائل تأويل الصفات أو نحو ذلك، لترك العلماء في وقته الذين ناهضوه وآذوه لتركوا الكلام في المسائل المهمة وركزوا علىٰ هذه المسائل ليطعنوا فيه أو ليردوا عليه، فكان من الحكمة أنه أخذ بسنة النبي ﷺ في أنه قرّر توحيد العبادة الأكبر.

تعلمون مثلا مسائل الحلف بغير الله جل وعلا ما جاء تحريم ذلك إلا في المدينة، أما في مكة ما كان تحريم ذلك، فكان الرجل يحلف بأبيه ويحلف بالكعبة ويحلف ببعض الأشياء يعني غير الآلهة، ولكنه لم يُنْهَ عنه بعد ذلك، قوله ما شاء الله وشئت هذا إنما نهي عنه في المدينة في قصة مع اليهود مع بعض أحبار اليهود حيث قالوا لبعض الصحابة: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تنددون تقولون ما شاء الله وشاء محمد. فلما بلغ النبي ﷺ ذلك قال: «**قولوا ما شاء الله وحده**» هذا كان في المدينة، المسألة عقدية كانت متصلة بالتوحيد؛ لكن لم تقرر في هدي النبي ﷺ في مكة.

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخر الكلام عن كثير من هذه المسائل؛ بل إنه سئل عن بعض أشياء تنسب إليه استدل بها المعارضون فقال فيها: أقول سبحانك هذا بهتان عظيم. أنا ما قلت هذه الأشياء. التي تنسب إلي حتىٰ قيل عنه إنه يقول: لا أنكر التوسل بالصالحين وإنما أنكرت –هذا ثابت من كلامه– وإنما أنكرت ما أجمع العلماء عليه وهو دعوة غير الله معه.

وهذا من الحكمة لأن التوحيد أولا؛ لكن ليست كل مسائل التوحيد في نفس المرتبة، يقول التوحيد أولا، لا يفهم منها الشباب والذين يدعون إلىٰ منهج السلف الصالح أنك تأتي في كل مكان وفي كل بلد

وفي كل مجلس، تأتي بكل مسألة في ذهنك أنها من التوحيد وتعرضها على أساس أنها من المهمات والمطالب في الاعتقاد، لا، لابد أن ينزل هذا بحسب تمكّن الدعوة من النفوس وعدم تمكنها، إذا كنا في قوم وثنيين في بلد من البلاد، أو في قوم يكون عندهم تقديس الأضرحة وعبادة غير الله والنذر لها والذبح والاستغاثة بالأموات ونحو ذلك، ومسائل البدع ووسائل الشرك يؤخر الكلام عنها حتى تتقرر هذه المسألة العظيمة؛ لأن الناس إذا كثر عليهم الكلام بعضه أنسى بعضا، مثل ما قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضا. هذا صحيح.

فإذن منهج الإمام رَحِمَهُ اللهُ تعالى أن الدعوة إلى التوحيد أولا؛ ولكن هناك أولويات في مسائل التوحيد والعقيدة لابد أن ترتّب، فليست كل المسائل في نفس المنزلة.

كذلك إذا تكلمنا كما سيأتي في السنة والبدعة ليست مسائل السنة والبدعة في مرتبة واحدة، بعضها أغلظ من بعض، فلابد من التدرج في هذا الأمر؛ لأجل قبول الناس للحق في ذلك؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها.

المعلم الثالث في منهج هذه الدعوة المباركة: أن الإمام المصلح رَحِمَهُ اللهُ تعالى لم يفرّق في دعوته ما بين أصناف الناس، لم يجعل دعوته خاصة بالشباب، لم بجعل دعوته للأذكياء أو للنابغين، وإنما جعل دعوته لكل مكلّف؛ لأنها دعوة ليست لحزب وليست لسياسة وليست لغرض دنيوي، وإنما هي لتعبيد الناس لرب العالمين، فتارة تتوجه الدعوة إلى شباب، تارة تتوجه الدعوة إلى فئة، هذا لا يجوز لأن المقصود تعبيد الناس لرب العالمين.

فتخصيص الدعوة لطائفة من المكلفين دون طائفة والتركيز عليهم هذا ليس منهجا نبويا، وإنما الدعوة للجميع سيكون الشباب في الغالب هم الأكثر تقبلا لا لأجل تخصيصهم لكن لأجل أنهم هم الأكثر تقبلا كما قال جل وعلا: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس:٨٣]، وقال ابن كثير معنى ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ يعني أمهم شابا لأن أكثر أتباع الأنبياء كانوا شبابا لا لأجل أن دعوة الأنبياء والمرسلين توجهت إلى الشباب؛ ولكنهم الأسلم من جهة الأهواء في قبول الحق فإذا كانت الدعوة عامة فستقبلها في الغالب هذه الفئة أكثر من غيرها من الفئات لقلة الهوى وفيهم في الغالب.

فكان من منهج الإمام رَحِمَهُ اللهُ في دعوته أن دعوته خاطبت أمراء القرى في وقته، وخاطبت العلماء، وخاطبت العامة، وخاطبت الحضر، وخاطبت البادية، وخاطبت النساء والرجال.

فكان العلم يبث في النساء كما يبث في الرجال، وكان في الدرعية في ذلك الوقت كان هناك مكان يخصص للدروس -كما ذُكر- يحضره الرجال ويحضره النساء كل يوم في أواخر وقت الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

فكانت الدعوة عامة، كان الآراء والبادية توجه الدعوة لهم، وكان الكبار توجه الدعوة لهم، الأمراء خاطبهم بما يناسبهم وما يليق بهم، العلماء خاطبهم بما يناسبهم وما يليق بهم، حتى إنه تودّد للعلماء

الذين يرىٰ أن فيهم خيرا.

ومن أمثلة ذلك رسالته المشهورة لعبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف الأحسائي أحد علماء الأحساء الأشاعرة في ذلك الوقت، وكتب إلىٰ الشيخ محمد عبد الله هذا، ينتقد عليه بعض المسائل فأجابه الإمام برسالة طويلة فيها منهج الأدب مع المخالف فكتب إليه يبين إليه الصواب في هذه المسائل بعبارة علمية هادئة، وقال فيها بعد الإجابة عن عدد من الأسئلة، ووالله إني لأدعو لك في صلاتي وأرجو أن تكون فاروقا في دين الله في آخر هذه الأمة كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاروقا لها في أولها، وذلك لما رأيت ين مجيئي إليك في الأحساء أنك كتبت علىٰ أول كتاب الإيمان في «صحيح البخاري» من أن الإيمان قول وعمل، كتبت عليه هذا هو الحق الذي يجب اعتقاده، فسرني هذا منك لكونه يخالف المشايخ الذين أخذت عنهم. يعني بهم الأشاعرة، الذين يقولون إن الإيمان هو الاعتقاد والقول أو الاعتقاد وحده.

وهذا نوع من الخطاب فيه توجيه للدعوة وجمع، فإذن هو لم يستعدِ الناس علىٰ الدعوة، وإنما كانت الناس عادوا الدعوة لأنها لا توافق أغراضهم، وهذا مهم في منهج الدعوة في نشرها مثلا بعض الناس يذهبون إلىٰ بلد من البلاد يريدون الدعوة في أي مكان في أفريقيا أو في آسيا أو في الجزيرة أو أي مكان، ويرىٰ أشياء هو يقول هذا الحق أنا لن يهمني أمير ولن يهمني حاكم ولا يهمني عالم، هذا ليس بصحيح؛ لابد أن تضع الأمور في مواضعها، وأن تشرح الدعوة وتبين الدعوة، إذا عادوها لأجل أنها حقّ، فهذا أنت قد أبرأت ذمتك؛ لأن تكون العداوة حينئذ منهم لكراهتهم للحق؛ لكن أن تأتي تهجم مثلا الوالي أو تهجم العالم أو تسفه بهم أو ترد عليهم، فإنه حينئذ يكون مدخل للشيطان علىٰ قبول هذه الدعوة.

والإمام رحمه الله تعالىٰ كن سهلا جدا مع العلماء ومع الأمراء حتىٰ أنهم قالوا له أخرج من البلد فخرج في قصته مع ابن معمر في العيينة، قال: لا أستطيع أنك تبقىٰ في البلد. فخرج منها فعوّضه الله جل وعلا خيرا مما ترك.

هذه مسألة مهمة في المنهج في أن الدعوة ليست خاصة، هي دعوة الإسلام عامة لكل المكلفين ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[الذاريات]، هي للجميع.

فإذن التخصيص ليس من سمات هذه الدعوة، السرية ليست من سمات الدعوة، الانغلاق ليس من سمات هذه الدعوة، الدعوة واضحة من أول يوم ومنتشرة، فلم يكن الشيخ رحمه الله تعالىٰ يهيئ -مع شدة الناس في زمنه ومعاداة الأمراء والعلماء- لم يكن يهيئ الأمر بأمور سرية تمشي حتىٰ يريد التكثير إنما أوضح الحق من أول ما اعتقده بأسلوب حكيم وتدرج مُرضٍ يوافق السنة والكتاب.

المعلم الرابع في ذلك: أن ما سبق الدعوة من أشياء؛ من أقوال لعلماء، أو من سلوكيات للناس، أو من أناس ماتوا، فإن أئمة الدعوة رحمهم الله تعالىٰ سكتوا عن الماضي ولم يقدحوا في المعظمين للناس فيما مضىٰ، ما تجد أنه قدح في رؤساء الطرق؛ يعني في الماضين أما الذين في وقته واجههم، العايشين مثل تاج وشمسان ومجموعة والمويس وفلان وفلان من كان في وقته واجههم؛ لكن من سبق فإنه لم يتكلم عنهم

لماذا؟ لأنه تارة يأتي الداعية إلىٰ التوحيد ويظن أنه يصل إليه بإثبات فسق رجل يدعىٰ أنه من الصالحين، يتكلم له شخص في دعوة البدوي وسؤال البدوي والاستغاثة به أو نحو ذلك، تجده يقول: البدوي أصلا رجل فاسق، رجل كان لا يصلي كان وكان وكان، ليس هذا هو المقصود.

كان منهج الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان لا يتكلم علىٰ سلوكيات من سبق في الجملة، لا يتكلم عنهم ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾[البقرة]، ولكن كان يقرر التوحيد إذ هل ذاك الرجل كان كذا أو لم يكن كذا، فهذا ليس من شأنه والحكم علىٰ الأشخاص أو أن هذا فيه وما فيه، هذا يحجب الحق في الدعوة وهذه مسألة مهمة اليوم.

لأن مرة كان أحد الإخوة من أحد البلاد الأفريقية أتىٰ يسأل عن بعض المسائل وقال: نجد أن الدعاة إلىٰ السلفية وإلىٰ التوحيد عندنا يبدؤون ببيان أن المعظمين عند قومنا أنهم لم يكونوا صالحين، وأنهم كانوا فسقة، يتكلم علىٰ المرغني يقول كذا، ويتكلم علىٰ فلان يسبه يقول كذا هذا أوغر الصدور، صار الناس ما يسمعون الدليل، ما يسمعون الحق وإنما ينتصرون لهذا الذي يعظمونه.

وهذه جبلة الإنسان أنك إذا تركت الحق وطعنت في الشخص فإن الناس يتجهون إلىٰ من يعظمونه يدافعون عنه؛ لأنهم يكبرون في أنفسهم أن أحدا ينال منه، ولا ينظر قلت حقا أو قلت غير حق أو يناقشه بدليل لا ينظر، كيف تتكلم في فلان هذا رجل صالح يأتي يقولا لا ليس بصالح.

هذه قضية ليست بشرعية هو انتهىٰ وذهب إلىٰ ربه إن كان صالحا فله جزاء الحسنىٰ، وإن كان غير صالح فسيجد الجزاء عند الله.

المهم في الدعوة هو تبيين توحيد الله جل وعلا، وتبيين ما اشتملت عليه الأدلة من عبادة الله وحده دون ما سواه وترك الشرك ووسائل الشرك والبعد عن البدع والمحدثات.

فإذن كان من منهج الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لم يكن يطعن في معظم الناس قبله حتىٰ إنك تجد أنه لم يتكلم في البوصيري، لم يتكلم في ابن الفارض، لم يتكلم في البدوي لم يتكلم في الكواز، لم يتكلم في العيدروس، لا تجد له كلام في هؤلاء، مع أنه ذكر أن ما اشتمل عليه كلامهم فيه وفيه؛ لكن هل هم صالحين أو كانوا كذا، هذا ليس من منهج الدعوة.

فإذن هذا دعا إلىٰ القبول، دعاها إلىٰ الانتشار لأنه ما تعرض لما تتعقب له النفوس بالباطل وهو الطعن في المقدمين.

حتىٰ أنه سئل مرة فقيل له: إنك تقول إن الناس منذ أربعمائة سنة ليسوا علىٰ شيء أو أنهم كفار فقال في جوابه: أقول سبحانك هذا بهتان عظيم.

حتىٰ لما أتت مسألة البحث في القبة الموجودة علىٰ حجرة النبي ﷺ التي في وسطها القبر قبر النبي ﷺ وكان يُنكر البناء علىٰ القبور، بناء القباب، القباب علىٰ قبور الصالحين يهدمها؛ لأنه لا يجوز ووسيلة من وسائل تعظيمها إلىٰ آخره، والنبي ﷺ بعث عليا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ألا يدع قبرا مشرفا إلا سواه، «**وألا تدع قبرا مشرفا إلا سويته**» المشرف يعني فيه علو.

ولما قالوا له: القبة التي على قبر النبي ﷺ إنك تقول: لو أقدر عليها لهدمتها. فقال: سبحانك هذا بهتان عظيم ولهذا أفتى هو يعني من جهة عملية، وعلماء الدعوة والولاة من آل سعود من الدولة السعودية الأولى إلى أنها لا تتعرض بشيء، وذلك لأن هذا من مصلحة الدعوة، وأن لا يفضي إلى ما هو أشد من رد التوحيد والتعرض إلى أننا لا نحب النبي ﷺ ونتقصه؛ بل نهين النبي ﷺ إنما هذه وسيلة من وسائل الشرك، فيمنع الشرك وتمنع وسائله في أن يحصل شيء عند ذلك، والأمور تترك لرعاية المصالح والمفاسد في ذلك.

أيضا لما قيل له: إنك تكفر من عند قبة البدوي والكواز قال: أنا لا أكفر من عند قبة البدوي والكواز، لعدم وجود من ينبههم.

وهنا خاض قوم من المعاصرين خوضا سيئا في منهج الدعوة هل كان منهج الدعوة الشيخ محمد وأئمة الدعوة هل كانوا يعذرون بالجهل أو لا يعذرون بالجهل، ونحو ذلك من الألفاظ وهذه لم تكن أصلا عندهم بهذا اللفظ **نعذره بالجهل أو لا نعذره** وإنما كانت المسألة مرتبطة بأصل شرعي آخر وهي **هل بلغته الحجة أو لم تبلغه الحجة والحجة المناسبة وغير المناسبة.**

وهنا نستطرد فنقول لم يجعل أيضا علماء الدعوة في قيام الحجة وفهم الحجة لم يجعلوا المسألة واحدة؛ يعني أن كل مسائل التوحيد بنفس النسق، كلها بنفس الحجة، كلها بنفس البيان، لا، تختلف، ففيه مسائل أعظم من مسائل، في مسألة إقامة الحجة، قالوا أما الاستغاثة بغير الله فهي واضحة والحجة فيها بينة قاطعة، وهناك مسائل قد يقع في إقامة الحجة فيها نوع اشتباه، فتحتاج إلى تكرار وبيان كمسألة الشفاعة.

فالمسألة إذن لا تستوي، فلابد أن ننزل الأشخاص، تنزل المسائل، أن تنزل في موضعها، وأن لا يتعرض لأشخاص مضوا وانتهوا، أما رؤوس الضلالة في زمنه فقد واجههم وفضحهم رؤوس الضلالة في زمنه، أما من مات وانتهى وصار له معظمون إلى آخره، فإن هذا يبين لهم الدعوة ولا يتعرض للأشخاصهم.

فهذه مسألة تحتاج إلى تفرس وعناية؛ لأن الواقع فيها اليوم قد يخالف ما كانوا عليه.

المعلم الخامس من معالم منهج الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تقرير العقيدة: أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كان يحمل العقيدة حملا كاملا على منهج السلف الصالح.

فحملها في أبواب أركان الإيمان توحيد الله ربوبيته أولهيته أسمائه وصفاته والإيمان بالكتاب وعدم تأويل الصفات وتقرير ما قرره السلف وعد الدخول في الغيبيات بما ينفي ذلك عن ظاهرها.

ودخل أيضا في مناهج فيما يسمى يسميه بعضهم المنهج أو التعامل دخل فيه على نحو ما كان السلف الصالح.

وقرر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشره بالطريقة الشرعية على ما توجبه الشريعة دون غلو فيه ودون تفريط، وقرر طاعة ولاة الأمور في ذلك والسمع لهم والطاعة فيما لم يأمروا فيه بمعصية

والجهاد معهم ونصرة ذلك.

وقرر المنهج في التعامل مع المخالف من المشركين والمبتدعة.

فكان له في كل مسألة الكلام الأوفىٰ والتقرير البين، فتجد ليونته ورحمته في مسألة، وتجد قوته وشدته في مساكنة المشركين والنوم معهم، وتكثير سواد المشركين في أي مكان.

فنوع التعامل مشىٰ فيه علىٰ ما دلت عليه النصوص دون أهواء أو نظر إلىٰ ما لم يدل عليه الدليل، أو لم يكن عليه منهج السلف الصالح.

كذلك في مسائل السلوك والأخلاق بعض الدعوات لم تؤثّر العقيدة في سلوكها كانت العقيدة عندهم اسما..

نرجع إلىٰ المعلم الخامس وهو أثر العقيدة أو المنهج في الاعتقاد عند الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في تربية الناس من طلبة العلم ومن غيرهم؛ بل جميع الناس علىٰ السلوك الحسن والتعبد لله جل وعلا.

أقول: السلوك علىٰ المصطلح عند العلماء؛ يعنىٰ بالسلوك ما يعمله العبد في سلوكه مع ربه جل وعلا ومع الخلق.

هناك دعوات تهتم بالعقيدة؛ لكن تجد أن العقيدة لا تؤثر في أصحابها من جهة التعبد، فيكونون ضعيفين في التعبد حتىٰ في الواجبات، ربما كان إهمال أو في التطوعات من باب أولىٰ أو كان هناك تساهل في السلوك فيما يتعلق برحمة الخلق والتعامل معهم؛ مع الوالدين مع الأسرة مع الأبناء مع الزوجة مع مع إلىٰ آخره، وهذا خلاف أثر الاعتقاد الصحيح، لماذا؟

لأن حقيقة الاعتقاد أنه إيمان بالله وبكتبه وبالنبي محمد ﷺ وأنه إيمان باليوم الآخر، فمن كان عنده إيمان بالله وما يستحقه جل وعلا، وعنده إيمان بالنبي ﷺ وما جاء به، وعنده إيمان بالقرآن وتطبيق لذلك، وعنده إيمان باليوم الآخر وخوف من الله جل وعلا، فلا بد أن يؤثر هذا في سلوكه:

أولا حرصه علىٰ عبادته بربه جل وعلا.

وثانيا في حسن تعامله مع إخوانه والخَلق.

لهذا تجد أن العقيدة التي دعا إليها الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقلت الناس في نجد بالذات نقلت الناس الذين كانوا قريبين من الدعوة إلىٰ أنهم كانوا أكثر تعبدا أكثر إعمارا للمساجد العمارة المعنوية والتبكير للصلوات والتواصي بالحق التواصي بالصبر، البذل كان طالب العلم من طلبة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول له: نريد أن تكون في منطقة كذا أبعد منطقة في القضاء أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو في الدعوة وما شابه ذلك فيذهب؛ لأن عندهم الرغبة العقيدة -يعني في تقريريها- لها سمتٌ يغلب علىٰ صاحبه في تعبده وفي سلوكه وفي أنواع تعامله وهذا مهم جدا اليوم في كل دعوة تدعو إلىٰ التوحيد.

أما أن يكون طائفة ممن يهتمون بالعقيدة أو يهتمون بالتوحيد أو نحو ذلك عندهم جفا في تعاملهم أو في سلوكهم، أو عندهم ضعف في التعبد وتفريط في حق الله جل وعلا، أو غشيان للذنوب والمعاصي ويقول: أنا أدعو للتوحيد وأدعو للعقيدة، فهذا لم يربَّ علىٰ العقيدة الصحيحة ولم يأخذها بحقها.

إذن فالذين يأخذون هذا المنهج ينقلون أنفسهم إلىٰ منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم، والسلف الصالح كانوا أسلم الناس عقيدة، وكانوا أسلم الناس منهجا بأنواع التعامل، وكانوا أسلم الناس سلوكا، في السلوك والتعبد تركوا تفريط المفرطين وأيضا تركوا غلو الصوفية والذين تبتلوا إلىٰ آخره فخالفوا السنة، فإنما أخذوا بالنهج الوسط وهذا من ثمرات منهج تعليم العقيدة.

المعلم السادس في ذلك: هو أن تقرير التوحيد عند الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ تقرير العقيدة كان ظاهرا أتم ظهور في الحض والدعوة إلىٰ الاتباع لسنة النبي ﷺ.

الاتباع للسنة من حيث الأخذ بها والاستدلال بها في العلميات، الاتباع للسنة من حيث العمل بها في العمليات، الاتباع للسنة بالرجوع بالهدي إلىٰ ما كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم، فكان منهجه يعلمه العوام في المسائل المشتبهة التي تشتبه علىٰ كثير من العلماء، فيكون تقريره لها أسهل تقرير.

فيقول لقائل في مسائل مثلا في بعض البدع العامي ممن تربوا وأخذوا من هذه الدعوة، يسأل في مسألة مما يستحسنها الناس يقول: هل فعلها النبي ﷺ؟ هل فعلها الصحابة؟ فإذا قالوا: لا. إذن الجواب واضح ولا ندخل في تفصيلات مثل ما دخل فيها طائفة حتىٰ من الأذكياء والعلماء.

مثلا المولد العلماء بحثوا فيه أكثر من مائة بحث وفيه كُتب لكن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ رباهم باتباع السنة علىٰ كلمة واحدة، فعل النبي ﷺ أم لم يفعل؟ لم يفعل لا نفعل، وهذه الوجازة في الأسلوب للسنة سهلة وتقبلها الفطرة من أي فرد كان، إلا إذا أتت عليها معارضة؛ لكن تبقىٰ في الفطرة مؤثرة، ما فعلها النبي ﷺ.

مثل هذه الليلة ليلة النصف من شعبان طائفة من الناس يحيون هذه الليلة إما بحفلة وإما باجتماع علىٰ عبادة، وإما بشد الرحل إلىٰ مكان ليكون فيه كذا وكذا، ويخصصون هذه الليلة بقيام واجتماع وحفل ويخصون الخامس عشر أيضا بالصيام دون غيره، حتىٰ ولو كان يوم الجمعة فقط يخصون الخامس عشر بصيام، وهنا هذه بالمناسبة، هنا يسأل السائل فعل النبي ﷺ أم لم يفعل؟ إذا قال: فعل نفعل إذا قال: لا لم يفعل لكن هذا فيه..، يظهر لك أنه ليس فيها اتباع.

فإذن هنا منهج تعليم الناس للسنة والبدعة لم يتبع فيه رَحِمَهُ اللَّهُ المنهج المعقد في تعريف البدع وفي الأخذ بها، وإنما المسألة واضحة جدا فيما علّم الناس فيها.

ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ في «كشف الشبهات»: (والعامي من الموحدين يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين)، لماذا؟ لأنّ معه الحق القليل الواضح الذي لا يستطيع أن يجادل معه خصمه لكن يذهب إلىٰ بنيات الطريق فيضل في ذلك.

فمنهجه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في الدعوة إلىٰ الاتباع للسنة، في السنة التعلم والتعليم، نَجْد في ذلك الوقت كان لا يوجد فيها عند أحد في نَجْد قاطبة لا يوجد عند أحد نسخة كاملة من كتاب البخاري وإنما يوجد أجزاء جزء عند هذا وجزء عند هذا وجزء عند هذا إلىٰ آخره قد لا يكون وجدت مكتملة إلا لمن رحل للشام

وجاء بنسخة مكتملة؛ لكن طلبة العلم لا يعرفونه، وإنما عندهم كتاب في مذهب ما، الحنبلي عنده كتاب في المذهب الحنبلي، والشافعي عنده كتاب في المذهب الشافعي إلىٰ آخره.

فأحيىٰ اتباع السنة والبحث عن اتباع الدليل والحرص علىٰ ذلك في المسائل العلمية وفي المسائل العملية ولكنه في ذلك لم يكن غاليا.

وبعض من أخذ بدعوته غَلا في مسألة الدليل وفي مسألة الاتباع حتىٰ خرج بها عن نهج السلف الصالح الوسط في هذه المسائل؛ حتىٰ أبطل أو حتىٰ هجّن الأخذ أصلا من كتب الفقه، قال: أصلا هذه الكتب كتب الفقه كتب باطلة وبلغ بهم إلىٰ أنه لا يؤخذ العلم إلا من كتب السنة ونحو ذلك مما خالفوا به منهج العلماء.

فإذن منهجه رَحِمَهُ اللهُ في تقرير العقيدة والاهتمام بالسنة القولية والعملية، وتعليم الناس ذلك وفي العلميات أيضا حضّ الناس علىٰ الحرص علىٰ السنة تعلما، فشاعت كتب السنة في نَجْد وتعلّم الناس ذلك وشُرحت لهم كتب السنة بما لم يكن من قبل؛ لكن مع الاهتمام بكتب الفقه والاهتمام بما قرره العلماء دون غلو في ذلك.

في مسألة من المسائل سئل عنها الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالىٰ جميعا وهي مسألة الحاج إذا رمىٰ جمرة العقبة وقصّر أو حلق ثم لم يطف ذلك اليوم طواف الإفاضة ذلك اليوم، هل يرجع علىٰ إحرامه أم أنه يتحلل ويبقىٰ متحللا حتىٰ يطوف ولو بعد عدة أيام.

هناك من أهل العلم من قال: يرجع إلىٰ إحرامه إذا مر عليه غروب الشمس ثم بعد الغروب ولم يطف يرجع يلبس الإحرام إلىٰ آخره، يرجع حرما كما كان.

سئل عنه عبد الله بن محمد وفيها دليل الذي هو حديث أم سلمة المعروف بسنن أبي داود فقال: هذا الحديث إسناده جيّد، وقد قواه فلان إلىٰ آخره؛ لكننا لم نتجاسر علىٰ العمل به؛ لأننا لا نعلم أحدا من الأئمة عمل به، لا يمكن شيء مسألة في السنة أنه لا يعمل بها لا الإمام أحمد ولا مالك ولا الشافعي ولا يعمل بها أبو حنيفة ولا يعمل بها سفيان ولا يعمل بها الأوزاعي ولا يعمل بها الليث ولا يعمل بها إسحاق.. فيه غرابة كيف سنة تمضي علىٰ الصحابة لا يعملون بها، والأئمة أيضا يقول الحديث نعم ثابت ظاهر إسناده الصحة، وفيه بحث في متنه هل هو شاذ أو منكر أو إلىٰ آخره معروف عند أهل العلم؛ لكن لم يعمل به أئمة الإسلام، فقال: لم نتجاسر عن العمل به.

وهذه المسألة مهمة اليوم في منهج اتباع السنة في الدليل، هل نستدل علىٰ مسألة بفهم نفهمه أو بشيء دل عليه الدليل لكن لم يعمل به أئمة الإسلام، نحن نتبع منهج السلف الصالح، نتبع أئمة الإسلام، فإذا أتىٰ في مسألة، نقول: الأئمة لم يعملوا بها إذن كيف نعمل بها أو في مسألة الأئمة علموا بها نقول هي بدعة وأئمة الإسلام عملوا بها.

لذلك لما أتىٰ الإمام المصلح في مسألة ختم القرآن دعاء الختم في الصلاة، نظر فيها فوجد أنّ أئمة الإسلام يقولون بها، ويفعلونها؛ سفيان ومالك والشافعي وأبو حنيفة وأحمد رَحِمَهُ اللهُ؛ بل حض عليها وقال:

لا تجعل دعاء الختم في قنوت الوتر، اجعل لنا دعاءين دعاء الختم بعد الفراغ من القراءة، وابن تيمية وابن القيم يأتي قائل يقول لا، هذه بدعة.

إذن ماذا نفعل في صنيع الأئمة جميعا هناك من يغلو في الاتباع فيفسر الأشياء بحسب ما ظهر له حتىٰ ولو،،، يقول: أنا ما عندي، ولو الأئمة كلهم خالفوا المسألة اتباع لمنهج إذا كان هذا من طريقتهم، وأخذوا بذلك وقالوه، ومخالفتهم في ذلك خروج عن الصراط لماذا؟ لأنه لا يتصور في مسألة فيها ظهور أنها بدعة وخلاف السنة ويتتابع عليها أئمة الإسلام في قرون متعددة ولا يفعلون.

بخلاف البدع التي يعلمها أهل البدع فإن أئمة الإسلام ينكرونها حتىٰ ولو تتابع الناس عليها؛ لكن تتابعوا مع إنكار المنكر، وهنا تتابعوا مع عدم الإنكار، فدل هذا علىٰ أن لها اعتبارا، سيما أنه نص عليها من نص عليها من الأئمة، فتجد أنه لم ينكر هذه ومشىٰ فيها وعليها أئمة الدعوة كما تعلمون إلىٰ وقتنا الحاضر، وهكذا في مسائل أخر.

فإذن الأخذ بالدليل في هذه المسائل من منهجه رَحِمَهُ اللَّهُ أن يؤخذ بالدليل في مسائل العقيدة؛ ولكن مسائل العقيدة لا مدخل فيها للعقليات، فإذا جاء نص من الكتاب أو من السنة فإنه هو الحجة في هذا الباب؛ لكن نأخذ فيه بفهم السلف الصالح، في بعض الأحاديث فيها ذكر لصفة من الصفات؛ لكن هل تطلق الصفة أولا تطلق، أو في آية هل تطلق الصفة أو لا تطلق، لابد ننظر في هدي السلف الصالح، ولا يأتي أحد يقول أنا أفهم من الدليل كذا، طيب فهم من سبق أين هو لابد أن يدعم الفهم بفهم من سبق من أئمة الإسلام؛ لأنه بالاتفاق كانوا علىٰ الحق المبين.

المعلم الأخير –الوقت يضيق عن تفاصيل ذلك- معالم منهجه في تقرير العقيدة، أنه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ومن سلك بعده في ذلك اعتنىٰ بالرد –الرد التفصيلي- علىٰ من خالف العقيدة في مسألة أو في أصل التوحيد والاعتقاد، ولأئمة الدعوة كما تعلمون الرّدود الكثيرة.

الرد علىٰ المخالف في مسائل التوحيد هذا فيه فائدتان:

الفائدة الأولىٰ: إنكار المنكر.

الفائدة الثانية: في تقرير الحق وبيان المحجة وإقامة الحجة.

لهذا اهتموا أنه من يهاجم الدعوة دعوة الإسلام أو يعني دعوة التوحيد، ويبين مثلا؛ يحسن عبادة الأولياء أو يحسن الذهاب إلىٰ المشاهد أو الاستغاثة بالصالحين أو نحو ذلك؛ يعني من الأموات ردوا عليه، وهو رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ وأئمة الدعوة أيضا ردوا علىٰ كل من خالف الدعوة في هٰذا.

ولكن الرد يكون بعلم وبحلم، والرد يكون بعلم وبحلم؛ لا يكون الرد خالٍ من العلم وفيه قوة في الألفاظ وتعدي، فيفهم منه القابل أنك لست قويا في الحجة، فإنما عندك نزاع وشدة في الكلام وإلىٰ آخره وتتهجم دون قوة في الحجة والبيان، فكانوا أقوياء في ردودهم والردود مهمة في تبيين الملة وتبيين الحق.

إذا تبينت هذه المعالم فنمر مرورا سريعا علىٰ بعض كتب الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ونأخذ أمثلة أو بيان معالم هذا المنهج في هذه الكتب.

أولا وأشهر الكتب «كتاب التوحيد» كتاب التوحيد ظاهر فيه المنهج:

أولا في تقرير التوحيد في الكتاب والسنة.

الثاني في إنه رعىٰ إجماع السلف حتىٰ أنه، لما أتت مسألة التمائم من القرآن قال: لما كانت التمائم من القرآن فقد إلىٰ آخره، فذكر فيها قد أخطأ فيها جماعة إلىٰ آخره وهنا رعىٰ ما اتفقوا عليه ورعىٰ أيضا ما اختلفوا فيه.

الثالث ننظر في «كتاب التوحيد» إلىٰ أنه قرر الأولويات فيما قرره في المسائل، بيّن أن أول ما يدعىٰ التوحيد، وأنه أهم من الفرائض، وبيّن كيف يعامل المخالف أيضا فيما ذكره في المسائل.

إذا أخذت كتاب «ثلاثة الأصول وأدلتها » مثلا، أو «الأصول الثلاثة»؛ يعني ثم كتابان كتاب سهل لتعليم العقيدة العامة ويسمىٰ الأصول الثلاثة أو ثلاثة الأصول والكتاب الكبير المعروف ثلاثة الأصول وأدلتها أو الأصول الثلاثة وأدلتها.

تجد أن هذا الكتاب مبني علىٰ شرح ما يهم المتعلم المبتدئ، في بيان واجب العلم وواجب العمل وواجب الدعوة وواجب الصبر وفي بيان أصول الدين الثلاثة معرفة العبد ربه ومعرفة العبد دينه ومعرفة العبد نبيه ﷺ، وأوضح ذلك باختصار كل مسألة بدليلها.

وهنا ننبه تنبيه في هذا الكتاب إلىٰ أن بعض الناس قالوا: إن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أن قوله: إنه يؤخذ دين الإسلام بالأدلة أن هذا وافق فيه المعتزلة، كما قال بعض طلبة العلم عندنا. وهذا غلط كبير علىٰ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

المعتزلة ومن نحا نحوهم في المنهج العقلي، لا يصح عندهم الإسلام إلا بالدليل العقلي؛ يعني بمعنىٰ لابد أن يُثبت الدليل العقلي إما بالنظر عندهم أو يتحرىٰ إلىٰ آخره والدليل عندهم هنا النظر في الكونيات والنظر في النفس.

أما أئمة الإسلام وعلماء السلف فهنا ينظرون إلىٰ معرفة الإسلام إلىٰ دين الإسلام بالدليل الشرعي يعني من الكتاب والسنة. المعتزلة والجهمية ومن نحا نحوهم والأشاعرة عندهم الدليل العقلي أول واجب عندهم هو النظر أو الشك علىٰ أقوال عندهم في ذلك بمعنىٰ النظر في الملكوت حتىٰ تثبت بالعقل أنّ الله جل وعلا واحد في خلقه، وأنه هو الذي يعبد بالعقل؛ لكن عندنا ليس الأمر كذلك، وإنما هو بالدليل الشرعي؛ يعني أن يعرض الدليل علىٰ هذه المسألة.

لذلك مثلا إذا أتىٰ لمسألة من المسائل وأما النذر فدليله قول الله تعالىٰ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾[الإنسان:٧] مثلا، أو نحو ذلك ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ﴾[البقرة:٢٧٠].

كتاب «فضل الإسلام» -كل كتب الشيخ يسيرة أوراقها قليلة لكن منهجها واضح وتصلح للجميع في التعرف علىٰ المنهج.

«فضل الإسلام» كتاب في منهج الاتباع، منهج السلوك، منهج العمل، منهج التسمية الموقف من البدع وذم البدع والابتداع وأهله حتىٰ في مسائل المسميات تكلم عنها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في هذا الكتاب؛ لأجل

أن لا يظن الظان أنه يدعو إلىٰ أن يسمىٰ هو باسم خاص مثل ما فعل الظلمة سموا الشيخ وأتباعه بالوهابيين، هذه تسمية لا نقرها؛ لأننا إنما نتبع السلف الصالح، إذا جاءت المسألة من جهة العقيدة فنحن سلفيون نتبع السلف الصالح مع أهل السنة والجماعة، في مسألة الفروع نحن حنابلة حنبليون، أما إحداث هذه التسمية فهذا يُراد منه الصد عن الحق وتسميات باطلة لأن المقصود منها معروف.

جاء الشيخ في «كتاب فضل الإسلام» جاء الدليل من الكتاب أو السنة ثم بعض كلام السلف بعض كلام الصحابة في هذه المسائل.

إذا أخذت مثلا كتاب «مسائل الجاهلية» وجدت أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدد مسائل خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية. لماذا؟ لأن كما ذكر في أوله لأن الضد لا يعرف حسنه إلا بضده.

.... والضدُّ يظهر حسنَه الضدُّ

.... وبضدها تتبين الأشياء

وهذا صحيح لأنك تعلم بهذا الكتاب ما كان عليه أهل الجاهلية وما أمر به الله جل وعلا عن الكتاب أو جاء بالسنة لمخالفة أهل الجاهلية.

أولها في عبادة الله وحده دونما سواه وما كان عليه أهل الجاهلية في ذلك، في الاتباع في كل المسائل التي كانوا عليها سواء في التوحيد أو في مسائل العمل والسلوك.

فكان من منهجه في هذا الكتاب أنه قرر العقيدة طبعا بالكتاب والسنة؛ لكن قرر العقيدة بمعرفة الضد؛ لأنه كيف تتصور ما جاء في الإسلام إلا بمعرفة ما كان عليه أهل الجاهلية، وقد قال بعض السلف: إنما تُنقض عرىٰ الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية. وإذا لم تعرف الجاهلية كيف كانت وكيف نقل النبي ﷺ الناس من الجاهلية إلىٰ الإسلام.

إذن لم تتعرف إلىٰ الأحوال المشابهة لأحوال الجاهلية وتظن أن كل شيء جائز في الإسلام، الذين علقوا الصور صور المعظمين، والذين عبدوا غير الله جل وعلا، وبنوا القباب علىٰ الكنائس علىٰ القبور وجعلوها معابد، هذا كان عليه أهل الجاهلية، فحذّر منها النبي ﷺ.

إذا أتىٰ أتٍ اليوم وقال: لا، هذا شيء طيب. إذا عرف التاريخ وما كان عليه وما يقابله فإنه حينئذ تتبين لك دلالات النصوص وكيف يوقع النص علىٰ الواقع أو كيف ينزّل النص علىٰ الواقع.

هذه كلمات موجزة في هذا الباب تفتح آفاق دعوية في فهم دعوة الإمام المصلح والمنهج إذ ذاك في تقرير هذه العقيدة والتوحيد، ولا شك أنّنا نرىٰ أن هذه الدعوة بفضل الله جل وعلا وبرحمته ومنته وعونه وأنها تنتشر وتنتشر، فاليوم لا نكاد مذهب لبلد وإلا وتجد فيه طائفة ينافحون عن هذه الدعوة ويدعون إلىٰ ما كان عليه السلف الصالح ويقررونها في ذلك؛ لكن الواجب عليهم زيادة العلم وزيادة تعرف هدي العلماء وما كانوا يسيرون عليه في طريقة تقريرهم للتوحيد والعقيدة والعمل والسلوك، لنكون شبيهين أو مشابهين لمن سلفنا.

فكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

أسأل الله جل وعلا أن يرفع درجة الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب بأعلىٰ الجنان، وأن يجزيه عنا خير ما جزىٰ به مصلحا عن إصلاحه، وداعية عن دعوته.

كما أسأله سبحانه أن يوفق الجميع ممن يسيرون علىٰ منهاج هذه الدعوة إلىٰ تحري الحق والنظر فيه وعدم التسرع في ذلك، إنه سبحانه جواد كريم وهو بالإجابة جدير عليه توكلنا وإليه أنبنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

❁❁❁❁

كيف تقرأ
كتب شيخ الإسلام ابن تيمية

لفضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

المحاضرة الأولى

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدين.

أما بعد..

فإن موضوع هذا اللقاء عن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ، وشيخ الإسلام له مؤلفات كثيرة، وكلام كثير علىٰ المسائل في الاعتقاد وفي الفقه وفي التأصيل وفي التفسير وفي شتىٰ العلوم الشرعية الأصيلة.

وكلامه رَحِمَهُ اللهُ وتعالىٰ علىٰ مكانته عميق غزير كثير الفوائد جم العوائد؛ ولكن أكثر كلامه يحتاج إلىٰ تبصُّر ونظر، يحتاج إلىٰ من يكون عالمًا بالعلوم الشرعية أو طالب علم فيها حتىٰ يفهم مراده في كلامه.

ووُصف شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ بأنه إذا تكلم ظُنَّ أنه لا يحسن إلا ذلك الفن، فإذا تكلم في الفقه فهو حامل رايته، وإذا تكلم في العقيدة فهو حامل رايتها، وإذا تكلم في التفسير فكأنه لا يحسن إلا التفسير، وهكذا في شتَّىٰ العلوم حتىٰ إنه قد حقق بعض مسائل نحوية ولغوية وكان قوله فيها هو الصواب رَحِمَهُ اللهُ.

وإذا ناظر أو تكلم مع أحد المتخصصين في فن من الفنون أفاده بأشياء لم تكن عنده، فإذا تكلم مع الفقهاء أفادهم بأشياء، وإذا تحدث مع المتكلمين أو الفلاسفة أو الصوفية أفادهم بأشياء لم تكن عندهم من العلوم، وهذا شيء مشهود له به.

وشيخ الإسلام ابن تيمية إمام أثَّر في العالم؛ أثر في المسلمين وجدد الدين فهو مجدد المائة السابعة، وذلك لأنه نصر عقيدة السلف الصالح بمفهومها العام، ونصر ما قرره أئمة السلف بعد أن اندثر كلامهم إلا عند قليل من الناس.

لهذا نقول: إن فهم كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ينبني علىٰ أشياء، وأن القارئ لكتب شيخ الإسلام ابن تيمية يحتاج إلىٰ قراءة بعد العلم بهذه الأشياء، أما أن يكون قارئا لها وقارئا لكلامه كأنه يقرأ في صحيفة، أو كأنه يقرأ كلام مثقف، أو كأنه يقرأ كلام طالب علم عادي هذا يُحدث من اللبس والخلل ما رأينا بعضه.

فكلام شيخ الإسلام ابن تيمية تميَّز بمزايا:

أولا: أنه كان رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ يوجز الكلام في مسألة في موضع ويبسطها في موضع آخر، فتجده في بعض المواضع يقول: وقد بسطنا هذه المسألة في موضع آخر. ويكثر ذلك منه.

فإذن كلامه فيه اختصار الكلام علىٰ المسائل في موضع، وبسطها في موضع آخر، وما اختصر فيه يكون هو زبدة كلامه، وما طوَّل فيه يكون هو تفصيل كلامه والاستدلال له والتنظير له.

ثانيا: تميَّز كلامه بأنه ألَّف التآليف فيما يريد وخاصة في مسائل الاعتقاد، فجعل منها تواليف مختصرة، وجعل منها تواليف مطوَّلة، والمختصرة كما سيأتي هي ذريعة المطولة والوسيلة إليها، فمن لم يفهم المختصرات التي ألفها شيخ الإسلام فإنه لن يعيَ معاني المطولات.

فله في المختصرات: «الواسطية» و«الحموية» و«التدمرية»، وله في السلوك «التحفة العراقية»، وله في الكرامات «قاعدة في المعجزات والكرامات» إلىٰ آخره، هٰذه مختصرات يؤصل فيها الكلام، ويكون هو خلاصة ما عنده من العلم في ذلك، وأما المطولات فيبسط فيها القول ويذكر أقوال المخالفين ويذكر ما يحتاج إلىٰ ذكره من الردِّ عليهم.

الأمر الثالث: تميز كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ بأنه يؤصل ويستطرد؛ يعني تميز كلامه بتأصيل واستطراد:

فالتأصيل ما يذكر فيه أصل المسألة ويذكر فيه صورتها، ويذكر فيه الحكم عليها.

ثم يستطرد إما ناقلا للأقوال التي تؤيد كلامه، وإما ينقل النظائر التي تدل علىٰ أن قوله الذي ذكره صواب، وأنه هو الراجح، وأنه هو الذي لا يسوغ القول بغيره في بعض المسائل، وإما أن يكون استطر ببيان أقوال المخالفين في هذه المسألة والرد عليها.

فإذا أتىٰ طالب العلم ونظر إلىٰ تأصيله يقف عنده، ثم إذا نظر نظرة أخرىٰ ووجد بداية الاستطراد يضع هنا بداية الاستطراد حتىٰ يفرّق بين كلامه في التأصيل وكلامه في الاستطراد.

وكلامه رَحِمَهُ اللَّهُ في الاستطراد إنما هو -كما ذكرتُ- لأسباب قد يكون يذكر النظائر والكلام المستطرد لا يراد منه تأصيل المسألة وإنما يراد منه التدليل علىٰ صحة الأصل؛ إما بتقعيدٍ أو تنظير أو استدلال أو نُقُول أو برد علىٰ مخالف أو بيان ضعف حجة من خالف ذلك التأصيل.

لهذا ينتبه طالب العلم بأنه لا يأخذ كلامه دائما من المستطردات؛ بل يأخذها من التأصيلات؛ لأن الاستطراد قد يكون -كما ذكرتُ- عنىٰ به شيئا عرض فيه لبعض ما يريد من هذه المسألة التي استطرد إليها، كتنظيره لمسألة بمسألة.

مثلا خُذْ كتابه اقتضاء الصراط المستقيم تجد أنه يمكن أن يُلَخَّص في صفحات يعني في أربعين خمسين صفحة؛ لكنه يذكر المسألة ثم يستطرد كثيرا.

كذلك في أول «درء التعارض» تجد أنه رد بردود مختصرة، ثم بعد ذلك استطرد بأخذ الأوجه علىٰ إبطال قانون الرازي وأتباعه باستطرادات مختلفة تبين بطلانه إما من جهة التنظير أو النقول والرد عليها كما ذكرت.

فينتبه طالب العلم أنه إذا نظر في كلام شيخ الإسلام يفرق ما بين التأصيل والتنظير، ما بين التأصيل والاستطراد، ولا يأخذ المسألة دائمًا من الاستطراد.

أيضا من مميزات كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ: أن كلامه يكثر فيه المحكم والمتشابه عنده فيما يقرّر محكم، وتارة في كلامه إما في الاستطراد أو أحيانا في بعض التأصيل يكون من المتشابه.

ونعني بالمحكم ما يتَّضح معناه وبالمتشابه ما يحتمل المعنىٰ أو لا يتضح أو يكون مشكلا علىٰ أصول السلف؛ لأن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ كان متابعًا للسلف الصالح لا يخرج عن أقوالهم، وخاصة أقوال أئمة

أهل الحديث كأحمد وباقي الأئمة، فهو قد يورد كلاما ينظر إليه العالم أو طالب العلم ويجده مشكلا وهذا يسمىٰ المتشابه؛ لأن المتشابه موجود في كلام أهل العلم، ويُحلُّ هذا المتشابه بالنظر في المواضع الآخر التي تكلَّم فيها عن هذه المسألة فيكون في الموضع الآخر إيضاح لهذا الموضع الذي اشتبه علىٰ الناظر.

فإذن هٰذه ينبغي التنبه لها وهي أنه في كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ محكما ومتشابها، وهٰذا إنما يعرفه أهل العلم، يعرف الكلام المؤصل الذي يوافق كلام السلف ويوافق كلامه هو في المختصرات كما سيأتي في التطبيق، وكلامه الذي يشتبه يحتمل أنه يريد به كذا ويحتمل أنه يريد به كذا، فنحمل كلامه علىٰ ما نعلمه من طريقته ومن تقريره ومن عقيدته رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

النقطة الخامسة: من مميزات كلامه أنه يكثر النقول، ويسهب في النقل علىٰ أهل العلم، وهذا الإسهاب في النقل للتدليل علىٰ أن ما ذهب إليه ليس متفردا به أو ليس غريبا، كما أكثر من النقول في «الحموية»، وكما أكثر من النقول في مواضع في «درء التعارض»، وفي رده علىٰ الرازي إلىٰ آخر كتبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

السادس: أنه يكثر الاستدلال، وهذا من مزايا شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ أدلته التي يوردها كثيرة ومتنوعة، فتجد أنه:

يستدل بآيات القرآن استدلالا مستفيضا.

ويستدل بالسنن ويميز رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين المقبول منها وغير المقبول، وما أدرجه أئمة السنة قبله في تواليفهم وما لم يوردوه.

كذلك يستدل بالإجماع إذا وجد.

كذلك يستدل بالقياس.

يستدل بالتقعيد الفقهي.

يستدل بأقوال الصحابة فيما يريد تقريره.

يستدل بالتنظير.

وهذه أنواع من الأدلة معلومة في أصول الفقه.

السابع: كثرة استعماله لعلوم الآلة، فيكثر من استعمال أصول الفقه، يكثر من استخدام النحو في الموارد التي يحتاجها، يكثر من استخدام ما يحتاجه من كلام المناطقة وكلام المتكلمين فيما يريد تقريره أو ما يريد الرد فيه علىٰ المخالفين.

الأخيرة: أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستعمل مصطلحات أهل الفنون، ولكل فن مصطلح، وهذه التي يسميها العلماء اللغة العرفية.

فشيخ الإسلام إذا تكلم في مسألة فقهية استخدم كلام أهل الفقه؛ لغة الفقهاء.

وإذا تكلم في مسائل عقدية استخدم لغة ذلك العلم.

وإذا تكلم في مسائل أصولية استخدم لغة الأصوليين.

وإذا تكلم في مسائل لغوية أو نحوية استخدم لغة أهل ذلك الفن.

وإذا تكلم مع أهل السلوك والصوفية استخدم لغة أولئك.

فالناظر في كلامه إذا لم يكن له علم بعلوم الآلة وبمصطلحات أهل الفنون ربما خلَّط في الاصطلاحات، وربما جعل كلمة بمعنىٰ كلمة أخرىٰ، وكلّ كلمة لها معنىٰ لا تشركها فيه الكلمة الأخرىٰ.

فهناك فرق في الأوضاع العرفية اللغوية للكلمات علىٰ حسب استعمال أصحاب كل فن، وبين الاستخدام اللغوي؛ لأن العرف تخصيص والاصطلاح لا مشاحة فيه.

فإذا نظر الناظر في كلام شيخ الإسلام وقرأ كلامه وهو علىٰ غير معرفة بمراده بتلك الكلمات والاصطلاحات انتقل إلىٰ ذهنه أنه يريد من تلك المسألة أو من تلك الكلمات ما في ذهنه من معنىٰ تلك الكلمة، فيقع الخلط كما يقع في كلام عدد ممن ينقلون عن شيخ الإسلام ولا يفهمون مرامي كلامه.

فيستخدم كلمات ينبغي بل يجب أن تُفهم علىٰ مصطلحات أهل الفنون، لا تفهم علىٰ حسب ما يتبادر إلىٰ الذهن؛ لأن لغة العلم محكّمة، ويتميز أهل العلم فيما بينهم ويتفاضلون بمقدار استعمالهم للغة العلم، فكلما كان العالم أكثر استعمالا للغة العلم كلما كان قدرْه وتأصيله أرفع؛ لأن لغة العلم محكَّمة ولأنها تنفي التداخل.

وشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ طبق ذلك كثيرا، فتجده يستخدم المصطلحات التي يستخدمها أهل العلوم.

فإذا كان ثم كلمة تحتمل أكثر من وجه أو ليس فيها ثَم اصطلاح متفق عليه بين الفئات تجد أنه يذكر أن هذه الكلمة مجملة، فهي إن فُسِّرت بكذا فتحتمل كذا وإن فسرت بكذا فتحتمل كذا، وينبغي حملها علىٰ المعنىٰ الصحيح، وخاصة في الكلمات التي يستخدمها المتكلمون ويستخدمها أتباع السلف الصالح، فيكون ثَم فرق بين استعمال هؤلاء واستعمال هؤلاء، أو بين الكلمات التي ربما أنها في مصطلح الحنفية مثلا من الفقهاء لها عرف خاص عندهم وعند غيرهم لها معنىٰ آخر.

وكذلك في الكلمات التي يكون المصطلح الحادث فيها عند أهل الفن مخالف لما كان في العرف الشرعي، لما كان قد جاء في الكتاب والسنة.

وهذا متنوع ويحتاج في بسطه والتمثيل عليه إلىٰ وقت أطول من هذا.

المقصود أن هذا الذي ذكرتُ من النُّقاط هذه من مميزات كلامه، فإذا نظر الناظر في كلامه ينبغي له أن يستحضر هذه المسائل، وأن يفرّق بين الواحدة والأخرىٰ، وأن يتنبّه إلىٰ ما أورده من ذلك فيفهم كلامه علىٰ نحو ما أراده، لا يفهم كلامه علىٰ ما في عقله وتصوُّره من التصورات؛ لأنه إذا فهمتَ كلامه علىٰ ما في ذهنك كنت محكّما لنفسك علىٰ شيخ الإسلام، وإنما يقبل الحكم منه رَحِمَهُ اللهُ علىٰ نفسه؛ لأنه هو الذي استعمل الكلام، وكلامه يُفهم عن طريقه لا عن طريق غيره.

وإذا أشكل شيء من ذلك من كلام شيخ الإسلام وأشكل بعض ما تميز كلامه مما ذكرت في مسألة أو في اصطلاح أو في استعمال أو في استدلال أو في مذهب نقضه أو في مذهب أيّده، وأشكل ذلك فإذا أردت

أن تعلم طريقته ومذهبه فترجع إلىٰ كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأن ابن القيم في كتبه يفصل كلام شيخ الإسلام، ويبيِّن ما فيه ويكثر الاستدلال له، ويوضحه إيضاحًا مفصلا.

ومن الكلمات المأثورة عن الشيخ عبد الرزاق عفيفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمة واسعة أنه كان يقول: شيخ الإسلام ابن تيمية يأتي إلىٰ جدار الباطل فيلطمه حتىٰ يتهدّم، وأما ابن القيم فيأخذ هذا الجدار حجرا حجرا فيكسره إلىٰ أشلاء.

وهذا صحيح فإن شيخ الإسلام يرد بالأصول ويرد بالفروع وبالتنظير مرة واحدة، حتىٰ ترىٰ وصف من وصفه بأنه كالموج المتلاطم، أما ابن القيم فهو مرتب، يأتي: الوجه الأول، الوجه الثاني، الوجه الثالث، فيأخذ كل مسألة علىٰ حدا ويورد الكلام عليها مفصلة واضحة، أما شيخ الإسلام فهو يمُوجُ، ولهذا يقع الالتباس في فهم كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، ولكلٍّ درجات.

كيف تستفيد أو تقرأ كتب شيخ الإسلام في العقيدة؟

شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كما ذكرتُ لكم- جعل كلامه في الاعتقاد متنوعا، فمنها كتب مختصرة وهي أيضا علىٰ درجات في الاختصار، ومنها كتب مطولة، ومنها فتاوىٰ مختصرة، ومنها فتاوىٰ مطولة.

فطريق فهم كلامه أن تُضبط المختصرات.

فمن المختصرات «الواسطية» و«الحموية» و«التدمرية»، وهذه المؤلفات الثلاث مهمة في فهم كلام شيخ الإسلام وفهم مذهبه وطريقته وتقريره للمسائل.

فلابد لطالب العلم حتىٰ يفهم كلام شيخ الإسلام في المطولات وفي الفتاوىٰ -في الأجوبة المطولة- أن يستوعب هذه الثلاث استيعابا تاما، ولهذا كان أهل العلم يقرئون الطلاب هذه الثلاث المختصرات قبل أن يُقرأ عليهم في المطولات؛ لأن هذه المختصرات فيها تأصيل العلم العقدي الذي نصره شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فيها تأصيل أقواله التي نصر فيها مذهب السلف الصالح وعقيدة السلف الصالح ومنهج السلف الصالح رحمهم الله تعالىٰ.

فلا بد من استيعاب «الواسطية» وفهمها لفظة لفظة، لابد من استيعاب «الحموية»، لابد من استيعاب «التدمرية».

فإذا استوعبت هذه علىٰ قد ما أتاك الله جل وعلا من الفهم ويسره لك، فإنك إذا قرأت بعد ذلك المطولات كردِّه علىٰ الرازي أو «درء التعارض» أو الأجوبة المطولة في الفتاوىٰ كشرح حديث النزول وغير ذلك فإنك تفهم الكلام؛ لأنه مبني علىٰ تأصيل سابق، أما أن تقرأ المطول من كلامه قبل المختصر هذا يحدث في النفس إلتباسا؛ لأنه لا يمكن أن تقيم أعلىٰ البناء إلا بإقامة أسفله، فإذا أقمت الأعلىٰ دون الأسفل كان إما علىٰ وشك تهدم أو لم يكن بناءً مستقيما.

لهذا شيخ الإسلام رتّب لكَ: فأعطاك «الواسطية»، ولما سئل عن الاعتقاد في الصفات كتب «الحموية» أطول منها، وكتب «التدمرية»، وهي مراتب: «الواسطية» هي الأولىٰ، «الحموية»، «التدمرية».

فإذا ضبطت «الواسطية» وهي تشمل معتقد السلف الصالح عامة؛ لكن ليس فيها ردود وليس فيها أقوالا للمخالفين، وإنما فيها الآيات والأحاديث في مسائل الصفات، وكذلك في مسائل الإيمان وفي

مسائل القدر، ثم الكلام علىٰ منهج أهل السنة والجماعة في إنكار المنكر، وفي مسائل الإمامة والصحابة، وزوجات النبي ﷺ، والكلام علىٰ بقية مسائل الاعتقاد العام.

«الحموية» فيها تفصيل أكثر، وذكر فيها نقول كثيرة عن أهل العلم من السلف في تأييد طريقة السلف، وما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، كذلك فيها تأصيل لمذاهب المخالفين، كتأصيل لمذهب الفلاسفة من قولهم بالتجهيل وأهل الوهم والتخييل، إلىٰ آخره من مما فيه تأصيل لكلامه في مصنفات أخر.

«التدمرية» فيها تقعيد للردود، وبيان لمسألة الشرع والقدر ومسائل الصفات، وتأصيل القواعد التي بها يرد علىٰ المخالفين، ونقض شبه أولئك من أصولها ومن جذورها.

فإذا أردت أن تفهم المطولات فلا يمكن ذلك مطلقا إلا بفهم المختصرات، يمكن أن تفهم بعض كلامه؛ لكن يشكل البعض الآخر، ويشكل البعض الآخر، حتىٰ تكثر المشكلات، والعلم إنما ينبني علىٰ تصور سليم من أول لحظة.

واحرص -كما أوصىٰ بذلك عدد من المشايخ- أن لا تُدخل ذهنك إلا الصورة الصحيحة للمسائل، سواء كان في العقيدة أو في الفقه، لا تدخل في ذهنك صورة مشوهة، لا تدخل في ذهنك صورة غير واضحة للمسألة، فإذا أدخلت صورة فهمتها من بعض الأوجه ولم تفهمها من بعض ربما أتت الحاجة إليها فلم تستفد منها، وربما أتت الحاجة إليها فقررتها علىٰ غير طريقة أهل العلم وعلىٰ غير طريقة شيخ الإسلام فيما ذكر.

إذن فلابد أن تتصور المسائل تصورًا أول ما ترد عليك، تحرص علىٰ أن لا تدخلها ذهنك إلا بوضوح، هذا بعد ذلك ننتقل منها إلىٰ غيرها، أما إذا جمعت شتات من المعلومات وشتات من المقروءات دون تأصيل لهذه المسائل، فإنها تلتبس عليك هذه المسائل، ويحصل كما نرىٰ ونسمع يحصل التباس، فبعضهم يجعل مسألة من مذهب السلف الصالح وليست من مذهبهم، نعم هو قرأها لكن ما قرأها بتأصيل، يذكر أن مسألة أن شيخ الإسلام يرىٰ فيها كذا ولكنه يفهمها علىٰ غير وجهها، يأخذها من المستطردات ما يأخذها من التأصيلات، يأخذها من الكلام المحتمل دون الكلام الواضح.

كلامه في الاعتقاد -شيخ الإسلام ابن تيمية- تارة يكون محتملا لا تأخذ منه تقرير المسألة كما يكون في الاستطرادات كثيرا، وتارة يكون واضحا جليا، وهذا الواضح والمحتمل إنما تفهمه إذا كنت قد أحكمت المختصرات التي ذكرت لك وهي «الواسطية» و«الحموية» و«التدمرية» تتضح لك مراداته بكلامه، بعد فهم مصطلحات العلوم ولغة أهل العلم كما ذكرته لك سالفا، هذا بالنسبة للاعتقاد.

وثَم قسم آخر للفقه والمسائل الفقهية أعرض له عرضا موجزا في الدقيقتين التي بقيت.

فكلام شيخ الإسلام في الفقهيات ليس سهلًا، وتقريره في مسائل الفروع والفقه ليس سهلا؛ وذلك لأنه جمع في ذهنه أقوال أهل العلم المختلفة، جمع في ذهنه أقوال السلف وأقوال الأئمة المتبوعين رحم الله الجميع، وجمع في ذهنه الأدلة لهؤلاء وهؤلاء.

ولهذا نقول: تميز كلام شيخ الإسلام في الفقهيات بالذات بتصوير المسائل، وبكثرة الاستدلال عليها، وبتنظيرها فقهيا، وبكثرة التعليل بالقواعد الفقهية، وبذكر الجمع والفرق وهو فن من الفنون القواعد الفقهية، وبالتعليل بمقاصد الشريعة وبالرجوع إلىٰ الأصول من جهة المقاصد التي كانت في زمن النبي ﷺ، ومقصد الشارع من الأحكام كما هو قاعدته في المعاملات ونظريته في البيع.. إلىٰ آخر ذلك، كذلك يكثر من الترجيح فيما يذكر.

وهو في كل ذلك متبع لمذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، فإن شيخ الإسلام في أصوله وفي تصويره للمسائل حنبلي المذهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فتفهم كلامه بعد فهم كلام أهل المذهب.

ولهذا إذا أردت أن تتصور مسألة فقهية تحدث عنها شيخ الإسلام في العبادات أو في المعاملات أو في الأمور الاجتماعية أو في الحدود والجنايات أو في السياسة الشرعية إلىٰ آخره، تقرأ قبل ذلك كلام الحنابلة في مختصراتهم، أو اقرأ كلام أبي محمد الموفق رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «المغني»، فإنك ترىٰ في كلامه ما يؤصل لك المسألة ويصورها لك، ثم بعد ذلك إذا قرأت كلام شيخ الإسلام يكون التصور قد سبق كلامه؛ لأنه هو يعرض للخلاف مباشرة، ويعرض للأقوال مباشرة، ويذكر الأدلة وهذه لابد من مقدمة لها، والمقدمة أن ترعىٰ كتب الحنابلة من جهة التصوير ومن جهة التقعيد والأقوال المختلفة والردود عليها من كتبهم، بعد ذلك ترىٰ كلام شيخ الإسلام.

لهذا ترىٰ أنه يذكر الروايات ويذكر الأقوال عن الإمام أحمد وهذه مستفادة من كتب الحنابلة.

هذه كلمات مختصرة في مزايا أو ميزات كلام شيخ الإسلام ورعايتها ينبني عليها إن شاء الله الفهم الصائب لكلام شيخ الإسلام، والوقت قصير والموضوع يحتاج إلىٰ جلسات طويلة.

لكن أسأل الله جل وعلا أن ينفع بهذا القليل وأن يبارك لي ولكم في العلم والعمل.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

المحاضرة الثانية

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدين.

أما بعد..

فهذه الكلمة صلة لكلمة سبقت في الفصل الماضي حول خصائص كلام شيخ الإسلام ابن تيمية علىٰ وجه العموم، وفي العقيدة علىٰ وجه الخصوص.

وقد ذكرنا فيما مضىٰ أنَّ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تميَّز كلاه بمزايا منها ثَمانٌ مهمة وقد مرت، وتلك الثَّمان تنطبق علىٰ كلامه في العقيدة وعلىٰ كلامه في مسائل الفقه وعلىٰ كلامه في مسائل التفسير وغير ذلك.

وحديثُنا اليوم عن موضوع عنون له بـ:

كيف تقرأ مباحث شيخ الإسلام ابن تيمية الفقهية؟

وكلام شيخ الإسلام في الفقه ليس موجودا في مصنف معروف له؛ يعني أنه لم يؤلف مؤلفا في الفقه استوعب فيه مسائل الفقه حتىٰ يكون هذا الكلام دراسة لما كتبه في ذلك المصنَّف، وإنما كان كلامه في الفقهيات مبعثرا إما علىٰ شكل بحوث في بعض مؤلفاته، وإما علىٰ صورة فتاوىٰ أجاب بها المستفتين، وإما علىٰ شكل قواعد أوردها أو نقول نقلت عنه عن طريق تلامذته ونحو ذلك.

ولهذا نقول: إن الناظر في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ينبغي له أن يكون مستحضرا مزايا كلام شيخ الإسلام التي سلفت، وأن يتنبه أيضا لما سيأتي من خصائص لكلامه في الفقهيات رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

شيخ الإسلام كما هو معلوم أحد المجتهدين الكبار، وأُطلق عليه أنه مجتهد مطلق، وهو في الحقيقة جمع بين أنواع الاجتهاد فهو:

مجتهد مطلق يعني غير مقيد بمذهب من المذاهب.

وكذلك هو مجتهد في المذهب؛ يعني في المذهب الحنبلي الذي درسه وتتلمذ له أو لحياته.

وهو مجتهد أيضا في التخريج في المذهب.

وهو مجتهد أيضا في الفتوىٰ.

وهذه أنواع من طبقات المجتهدين، فالمجتهد تارة يكون مجتهدا مطلقا وهو أعلاها، وتارة يكون مجتهدا في المذهب، وتارة يكون مجتهدا في التخريج، وتارة يكون مجتهدا في الفتوىٰ.

وفوق ذلك كله أن يكون مجتهدا مستقلا كالأئمة الأربعة رحمهم الله ونحوهم كابن حزم الذين اجتهدوا في الأصول وفي الفروع، ونعني بالأصول نعني أصول الفقه والكلام علىٰ الرجال يعني لا يقلدون غيرهم في الحكم علىٰ أي وسيلة من وسائل إثبات الحكم الشرعي.

لهذا شيخ الإسلام كان مجتهدا في هذه جميعا، وهذه لها أثر إذا استحضرتها في رعاية كلامه ومواقع حججه وبيناته.

مزايا كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في الفقه:

أولا: إذا صوَّر المسائل فإنه يصورها في الغالب علىٰ مبنىٰ تصوير الحنابلة رحمهم الله لتلك المسائل، فإنه درس المذهب الحنبلي وتتلمذ له وقرأه وحفظ منه ما حفظ، وتصويره للمسائل إذا عَرَضَها مبني علىٰ تصوير الحنابلة رحمهم الله، وهذا يعني أن فهم كلامه في الفقهيات لابد أن يُقَدِّم الناظر فيه لنفسه بالنظر كتب الحنابلة حتىٰ يكون تصوير المسألة واضحا، حتىٰ تكون صورة المسألة في ذهنه مطابقة لما سيصفه شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومن الأخطاء في ذلك أن من الناس من يأخذ صورة المسألة وطريقة عرضها من بعض كتب الحديث مثلا أعني شروح الأحاديث أو من بعض كتب الشافعية كالمجموع أو من بعض كتب المذاهب الأخر كالمحلىٰ أو نحو ذلك، ثم ينظر في كلام عالم كشيخ الإسلام ابن تيمية فيحصل له خلل يقل أو يكثر في صورة المسألة في الذهن، وإذا خلَّت صورة المسألة في الذهن لاشك أنه ما يكون بعد ذلك من الاستدلال والتعليل سيكون في التصور ناقصا.

المزية الثانية: من مزايا كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ انه تميز في كلامه الفقهي بسعة إطلاعه علىٰ مذاهب الناس، فهو واسع الإطلاع في المذهب الحنبلي، فهو يورد الروايات عن الإمام أحمد روايتين وثلاث وربما أكثر في بعض المسائل، ويورد الأقوال في المذهب أيضا بأسماء أصحابها، ويورد أحيانا أقوال الأئمة الآخرين بقية الأئمة الأربعة واختلاف الأقوال عنهم، وكذلك يستحضر أو هو واسع الإطلاع في معرفة مذاهب السلف في المسائل.

ولهذا تميز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ باستحضار الأقوال في المسألة حتىٰ إنه يستوعب ما قيل فيها، فلا يتكلم في المسألة إلا بعد أن يعرف المذاهب فيها، وهذا يورده بكثرة.

فطالب العلم إذا انتبه لهذه الخصلة عند شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ لا يشتت ذهنه؛ لأن كثرة إيراد المسائل كثرة إيراد أصحاب الأقوال لتلك المسائل هذه قد تشتت الذهن، وطالب العلم يهتم حين قراءة كلام شيخ الإسلام ابن تيمية بصورة المسألة قبل معرفة الخلاف، ثم معرفة الخلاف العالي فيها في المذهب؛ لأنه هو الذي درستموه وتصوره أقرب، ثم بعد ذلك ينتقل إلىٰ الخلاف بين الإمام أحمد والأئمة الآخرين، ثم إلىٰ خلاف السلف في ذلك أو خلاف الأئمة المتبوعين الذين اندثرت مذاهبهم كالليث والأوزاعي إلىٰ آخر ذلك.

إذن شيخ الإسلام لسعة علمه يخلط هذه جميعا، وخلطها لاشك أنها من أسباب كونه مجتهدا مطلقا اطلع علىٰ كلام الناس وتوسع فيه؛ لكن كثرة نقل الخلاف والأقوال ينبغي لطالب العلم أن يلحظها حتىٰ لا يتشتت ذهنه حين قراءة كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في الفقه.

المزية الثالثة: من مزايا كلامه في الفقهيات كثرة استدلال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالنصوص؛ أعني بالقرآن والسنة، والقرآن يعني بالقراءات، والسنة يعني بمختلِف الروايات، وهذا ظاهر بين وهو يورد الحجج من الكتاب والسنة، وإذا عرض من الأدلة من السنة فإنه يدخل فيها بالكلام علىٰ صحة الأحاديث وعلىٰ الرجال، وهذا في تارات ينفرد به؛ يعني يكون نظره فيه نظر مجتهد استقل بالحكم علىٰ الحديث واستقل

بالاجتهاد في الرجل في بعض الأحيان، وإذا نقل كلام الأئمة في التصحيح والتضعيف اختار منه، وإذا نقل كلام علماء الجرح والتعديل أيضا رجَّح ما يظهر له.

وهذا يعني أن كلامه في ذلك قد يكون موافَقا عليه عند غيره من الأئمة وقد لا يكون موافقا عليه، فطالب العلم إذا نظر في دليل مسألة أوردها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينبغي له أن ينظر إلىٰ كلام الأئمة الآخرين في هذه حتىٰ يظهر له كيف اجتهد شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الحديث حتىٰ وصفه بهذا الوصف من الحسن أو الصحة أو الضعف إلىٰ غير ذلك.

وشيخ الإسلام يضعف كثيرا بالنظر إلىٰ المتن، فهو ينظر إلىٰ المتون بقوة ما أدركه من العلم نظر مجتهد، فيضعف ويصحح بالنظر إلىٰ المتن، ولو كان الإسناد ضعيفا، ولو كان الإسناد صحيحا، فربما كان من الأسانيد ما هو ضعيف وحسَّن الحديث لمتنه، وربما كان من الأسانيد ما هو صحيح وضعف الحديث أيضا لمتنه، والعكس كذلك ربما كان من الأسانيد ما هو ضعيف وصحح الحديث لمتنه، وهذه قوة نظر مجتهد مطلق.

وهكذا كان الأئمة أحمد والشافعي ومالك وأبو حنيفة وغيرهم يفعلون من قوة إدراكهم لقواعد الشرع ومعرفتهم بمقاصد الشارع.

المزية الرابعة: في كلامه في الفقهيات أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ظهر في كلامه تطبيق أصول الفقه، فهو حين يتكلم علىٰ ويورد أدلتها يستنبط، وهذا الاستنباط يوافق القواعد المعروفة في علم أصول الفقه.

ومن المعلوم أن علم أصول الفقه مبني علىٰ أربعة أركان:

- الحكم.
- والدليل.
- والاستدلال.
- والمستدل.

وشيخ الإسلام يخلط هذه جميعا ويستحضرها استحضارا واحدا، فتارة تجد أنه في المسألة الواحدة يأتيها من جهة النظر في الحكم، ومن جهة النظر في الاستدلال، ومن جهة النظر في الركن الأخير وما فيه من قواعد الترجيح، إلىٰ غير ذلك.

فمن لم يدرك أصول الفقه فإنه يكون نظره في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ضعيفا، وهذا ظاهر في أن من الناس من لم يتصور أدلة شيخ الإسلام ابن تيمية، وربما استدل بدليل أورده شيخ الإسلام ابن تيمية ولم يدرك موقع الاستدلال، أورد الدليل لكن ما وجه الاستدلال؟ لم يدرك ذلك، وذلك لأن معرفة الاستدلال مبني علىٰ وسيلة وهي علم أصول الفقه إذْ الاستدلال هو الركن الثالث من أركان أصول الفقه، وهذا يحتاج إلىٰ دقة نظر في المطالع لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية في أصول الفقه.

وهو في أصول الفقه ليس مقلدا تماما وإنما له اجتهادات في مسائل من أصول الفقه، لم يجتهد في كل المسائل كاجتهاد الأئمة المستقلين أحمد والشافعي ومالك إلىٰ آخر أولئك؛ ولكنه له اجتهاد في بعض

المسائل مدون اجتهاده في «المسودة في أصول الفقه»، فمن المسائل ما يوافق فيها مذهب الحنفية، ومن المسائل ما يوافق فيها مذهب الشافعية؛ يعني في أصول الفقه، وإن أكثر اتباعه في مسائل أصول الفقه لكلام أئمة الحنابلة رحمهم الله تعالىٰ.

المزية الخامسة: كثرة إيراده للنظائر، وهذا علم مهم أعني به علم النظائر في الفقه؛ لأن المسائل الفقهية إذا تواردت وصارت نظائرها كثيرة قويت المسألة وقوي تأصيلها، وشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ يورد النظائر ويكثر منها فيما أسميناه في المحاضرة السالفة بالاستطراد، فإنه إذا أصل مسألة يبدأ بذكر النظائر لهذه المسألة التي يريد منها أن يبيِّن أن هذه المسألة موافقة لنظائر كثيرة جاء الشرع بالتَّوافق في الحكم فيها مع المسألة الأصلية التي عرض لها.

وهذا لاشك أنه من علوم المجتهدين؛ لكن ليس كلٌّ يدرك معنىٰ هذه النظائر التي يوردها شيخ الإسلام ابن تيمية في كلامه.

المزية السادسة: من وزايا كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ التعليل بمقاصد الشريعة، وهذا مما انفرد به شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتوىٰ فإنه أكثر جدا من التعليل بمقاصد الشريعة، نعم كان العز بن عبد السلام الصوفي الأشعري كان كثير الإيراد لذلك؛ أعني لإيراد الفتاوىٰ بناء علىٰ المقاصد، وله فيها مؤلفات من «القواعد الكبرىٰ» و«القواعد الصغرىٰ» وغير ذلك؛ لكن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تميَّز بعرض مقاصد الشريعة علىٰ أصول السلف، وهذه لم يسبق إليها علىٰ نحو ما أورد في فتاويه وفي بحوثه.

واعتنىٰ في مقاصد الشريعة بتصنيف الفروع علىٰ المقاصد، مقاصد الشريعة لها أقسام منها مقاصد راجعة إلىٰ المكلف، ومنها مقاصد راجعة إلىٰ أحكام العبادات، منها مقاصد راجعة إلىٰ أحكام المعاملات، ومنها مقاصد راجعة إلىٰ الأحكام العامة السياسة والسياسة الشرعية وغير ذلك.

شيخ الإسلام صنف الفروع بناء علىٰ المقاصد، وهذه لاشك تحتاج إلىٰ نظر من هضم أدلة الشرع والمسائل والتحقيق فيها حتىٰ يستطيع أن يُلحق كل مسألة بمقاصدها في الشرع.

وهذه ينبغي لطلاب العلم أن يهتموا بها؛ لأن المسائل الفقهية -أعني حكم المسائل الفقهية- هذا ينبني علىٰ مقاصد الشريعة، شيخ الإسلام كثيرا ما يذكر أن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ودرء المفاسد وتقليلها، وهذا ينبني عليه كل الأحكام الفقهية، فإذا نظر في مسألة لم ينظر إليها من جهة الدليل فقط إذا تنازع المسألة عدة أدلة، وإنما ينظر إليها مع ذلك بهذه الأمور التي ذكرنا من أصول الفقه والنظائر والمقاصد والقواعد الفقهية وما سيأتي.

إذن فمقاصد الشريعة من العلوم المهمة ومن أخطاء الناظر في كلام شيخ الإسلام الفقهي أنه إنما يهتم حين النظر للدليل من النص، وهذا لاشك أنه ضعف فقهي راجع إلىٰ عدم معرفة العلم علىٰ حقه، وإنما الناظر في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ينبغي له أن يدرك ما تنبني عليه الأحكام، والأحكام لا تنبني فقط علىٰ الدليل من الكتاب والسنة، وإنما تنبني علىٰ أشياء كثيرة معروفة عند المحققين من أهل العلم، فمن لم يهتمَّ بكل مسألة يوردها شيخ الإسلام ابن تيمية -أعني من هذه المسائل التي أوردها الثَّمان- فإنه ربما نظر إلىٰ المسألة بغير النظر الذي تستحقه.

المزية السابعة في كلامه: التعليل بالقواعد الفقهية، شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ كثير التعليل فيما يورده في المسائل الفقهية بالقواعد، وسواء كانت القواعد العامة المتفق عليها بين المذاهب أم القواعد الخاصة في المذهب الحنبلي، أو في غيره من المذاهب، فهو يكثر التعليل، والقواعد الفقهية بها يتم فهم المسائل الفقهية علىٰ نسق واحد؛ لأن القواعد تجمع المسائل بحيث لا يكون ثمة تناقض بين هذه المسألة وتلك المسألة.

ومن عجائب من يقرؤون كلام شيخ الإسلام ابن تيمية الفقهي أن منهم من يرجح تارة كلام شيخ الإسلام في مسألة ويرجح كلام غيره في مسألة أخرىٰ، وهذا عند الناظر في الفقه نظر مجتهد متعمق لا يُقبل البتة؛ لأنه يجد أن الترجيح كان بناء علىٰ نظر في المسألة بانفرادها، وهذا ليس نظر مجتهد وليس نظر عالم؛ بل العالم إذا نظر في مسألة بالنظر في الأدلة وباعتبار ما جاء فيها فإنه إذا نظر في مسألة أخرىٰ لا يخلي نظره من كل المسائل التي تلحق بالقاعدة التي تندرج تحتها هذه المسألة التي يريد أن يجتهد فيها.

ولهذا شيخ الإسلام لا تجد في فتاويه ولا في اختياراته تناقضا بين المسائل.

كذلك المذاهب تجد مثلا المذهب الحنبلي في اختياراته لا تجد يعني فيما عليه المتأخرون لا تجد تناقضا كذلك المذهب الشافعي كذلك المذهب الحنفي؛ لأنهم يبنون علمهم علىٰ القواعد، تارة يكون في المسألة دليل ضعيف لكن يقوي هذا القول أنه مندرج تحت قاعدة لو قلنا بهذا الدليل فيها لانخرمت القاعدة في نظائر أخرىٰ، وهذا يسبب التناقض، ومن المعلوم أن الشريعة لا تكون متناقضة في الأحكام المتماثلة كما قررها شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع عدة وابن القيم، فإنهم قرروا أن الشريعة لا تفرق بين متماثلين ولا تساوي بين مفترقين.

وهذا مما ينبغي أن يهتم به طالب العلم كثيرا في الاستفادة من كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في الفقه، فإن من طلبة العلم من ينظر في المسألة بمجردها، ينظر الأدلة ويقول هذا الدليل صحيح هذا الحديث إسناده صحيح ومعنىٰ ذلك يأخذ بالحكم في المسألة، وإذا نظر في مسألة أخرىٰ نظر إليها من جهة الأدلة فقط دون بقية ما يستدل به في المسألة.

وإذا تأملت كلامه وجدت أن أخذه بتلك المسألة بذلك القول يناقض أخذه في المسألة الأخرىٰ بالقول الآخر؛ لأن هذا مبني علىٰ قاعدة وهذا مبني علىٰ قاعدة فيتصادم المأخذان، وهذا عيب لا شك عند للناظر في الفقه؛ لكن لأجل ضعف العلم بالفقه والضعف في علوم الشريعة جميعا في هذا الزمان لا يحس الناس -أعني الخاصة؛ طلبة العلم- لا يحسون بهذا التناقض وهذا من الضعف الذي ينبغي تداركه بالتأمل في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وكيف أنه في مسألة يختار قولا وفي مسألة أخرىٰ يختار القول الموافق لذلك القول، وهذا له كلاه آخر يطول.

المزية الثامنة: من مزايا كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ أنه يطبِّق في كلامه الفقهي ما يسمىٰ عند المجتهدين بعلم الجمع والفرق؛ لأن المسائل مجتمعة ومتفرقة فالمسائل المجتمعة يلحق بالمسألة المنظور فيها الحكم الذي أُعطِيَتْهُ المسألة الأخرىٰ التي تقرر الحكم فيها الدليل، فإذا أتىٰ المجتهد فينظر في المسألة بما يجمعها مع المسائل الأخرىٰ التي اتضح دليلها أو التي اتفق العلماء عليها ونحو ذلك.

كذلك في الفرق وهو المسائل المشتبهة صورة ولكنها تختلف حكما هذا مما اعتنىٰ به شيخ الإسلام، فلا تجد شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يفرق بين المجتمِعات ولا يجمع بين المفارِقات في المسائل الفقهية.

هذه خصائص عامة لكلام شيخ الإسلام لابد من رعايتها والنظر فيها حتىٰ تتنمَّىٰ عند طالب العلم ملكة النظر في المسائل الفقهية، وحتىٰ يتدرج في تربية نفسه علميا في إدراك لكلام أهل العلم الفقهي، والناس في هذا الزمن -أعني في الفقه- أخذوا فيه بثوب واسع ولكن التحقيق فيه علىٰ طريقة المتقدمين قليل قليل.

الفقرة الثانية من كلامنا:

إذا قرأت كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسألة من المسائل:

فأولا ينبغي إذا أردت المسألة التي تقرأ لشيخ الإسلام فيها أن تراجع كتب المذهب الحنبلي حتىٰ يتم تصور المسألة علىٰ الصواب، فأولا تراجع كتب المذهب تتصور المسألة تصورا، فإذا تصورت المسألة ومأخذ المسألة وضابطها في الباب الذي ورد.

وبعد ذلك ترجع إلىٰ كرم شيخ الإسلام وتقرأ فإذا قرأت كلام شيخ الإسلام بطوله، ميزت بحسب تطبيق الدرس السابق أو المحاضرة السابقة في كلامه في الاستطراد وفي التأصيل والتفريع إلىٰ آخره، تذكر خلاصة لرأي شيخ الإسلام بعد قراءة المبحث كاملا، هذه الخلاصة التي تستنتجها؛ لأن من كلام شيخ الإسلام ما تجد أنك لا تخلص معه لرأي واضح؛ لكن إذا نظرت وتأملت ربما خلصت في مسائل كثيرة برأي.

إذا خلصت إلىٰ هذا الرأي تراجع في المرحلة الثالثة كلام تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية وما ذكروه من اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وأعني بهم ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن ابن القيم كتبه مشهورة كـ«زاد المعاد» و«إعلام الموقعين» إلىٰ آخرها، وأما ابن مفلح فإنه يذكر كثيرا في كتابه «الفروع» وفي كتابه «الآداب الشرعية» يذكر رأي شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: قال شيخنا، أو قاله شيخنا، وهذا يعني أن هذه المسألة التي أوردها صاحب الفروع أنها هي قول شيخ الإسلام ابن تيمية الذي خلص إليه وعرفه تلامذته عنه رحمهم الله تعالىٰ، كذلك هناك كتب خاصة ذكرت اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية كـ«الاختيارات» وكـ«مختصر الفتاوىٰ» وفي «الإنصاف» أيضا للمرداوي يذكر فيه كثير من المسائل اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وفي لفظ الاختيار ما يشعر بأنه يختار من أقوال غيره، وهذا يكفي في أنه لا يتفرد بقول من الأقوال فيما اختار، إذا قلنا اختار شيخ الإسلام يقتضي قول القائل اختار أن هناك أقوالا اختار منها، وهذا واقع وصحيح فإن هذه الاختيارات مبنية علىٰ معرفته وعلمه بأقوال من سبقه من أهل العلم في تلك المسائل، فإنه ليس لشيخ الإسلام مسألة خرق فيها الإجماع البتة؛ بل ما من مسألة إلا وقد سُبق إلىٰ القول فيها إما سبقه الجمهور أو سبقه كثير أو سبقه قلة، المهم أنه لا يخترع المسائل اختراعا وإنما يتابع من قبله ولا يتدرج في مسألة بقول لم يسبق إليه.

بعد ذلك تأتي إلىٰ مراجعة الكلام مرة أخرىٰ حتىٰ يتَّفق مع خلاصة الرأي الذي ذكره ابن القيم وابن مفلح وصاحب الاختيارات، يتفق لك كلام شيخ الإسلام، فتبدأ من البداية -هذه آخر مرحلة- وأنت تتصور الحكم الذي خلص إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، بعد ذلك إذا بدأت تعرف كيف يذهب ويجيء ويتموج في إيراد الأدلة وإيراد التعليلات والقواعد والمقاصد حتىٰ يكون عند طالب العلم:

أولا: فهم لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثانيا: معرفة ودُربة لكيف تعالج المسائل الفقهية.

المسألة الأخيرة إذا اختلفت الفتاوىٰ والنقول عن شيخ الإسلام، فمثلا تجد في الفتاوىٰ «مجموع الفتاوىٰ» التي جمعها الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ وأجزل له المثوبة، تجد أنه ربما وجدت فتويين متناقضتين، يعني إحداهما علىٰ قول وإحداهما علىٰ قول آخر، هذا إذا عرفت المتقدم من المتأخر فإن كلام شيخ الإسلام المعتمد هو المتأخر من الفتويين المتأخر زمانا لا موضعا في الفتاوىٰ؛ المتأخر زمانا، وإذا لم تدرك وهو الأكثر فإنك ترجع إلىٰ الكتب التي أسلفتُ لك فيما ذكره ابن القيم وابن مفلح وصاحب الاختيارات يكون هو قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

وهذا خلاصة لهذا المبحث المهم وهو الذي عُنون له بـ:

كيف تقرأ كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ وأجزل له المثوبة.

ولاشك أن هذا يعطيك لفتة في أن العلم ينبغي أن يؤخذ بحقه، وأن يؤخذ بجد، ولا يؤخذ بالأماني، فإن العلم صارعه الشباب والصغار؛ ولكن العلم في السابق لا يصارعه إلا الرِّجال الفحول، وهذا من نكد الزمان وأهله، لٰكِن ينبغي لطلبة العلم الحريصين أن يكونوا علىٰ بينة مما ذكرنا وأن يسعوا في أخذ العلم كما أخذه العلماء السالفون، فإنه بذلك تقوىٰ الملكة وتبرأ ذمة المرء في النظر في نصوص الشريعة، فإن التجرؤ علىٰ النظر في نصوص الشريعة دون استعداد ودون أخذ للمسألة بحقها هذا لاشك أنه يجر المرء إلىٰ الإثم؛ لأنه يقول علىٰ الله وعلىٰ رسوله ﷺ ما لا يعلم؛ لأنه ليس عنده وسائل العلم.

أسأل الله لي ولكم أن يشرح صدورنا وأن يوفقنا وأن يلهمنا القول والعمل والصواب فيهما.

و صلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد.

[مقدمة]

الدروس العلمية العامة في العلم والدعوة والتربية

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدين.

أما بعد:

فأسأل الله جل وعلا لي ولكم العفو والرضوان والمغفرة للذنوب والآثام، وأن يجعلنا في هٰذه الحياة الدنيا ممن يقيمون الحق ويقومون للحق، وأن يكونوا ممن جعلهم الله جل وعلا من الدعاة إلىٰ سبيله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[فصلت].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند هٰذه الآية: هٰذا حبيب الله، هٰذا خليل الله، هٰذا ولي الله، هٰذا صفوة الله من خلقه، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلىٰ ما أجب الله فيه، من دعوته، هٰذا حبيب الله هٰذا صفي الله.

وهٰذا هو ما دلت عليه الآية، فإنه لا أحسن قولا ممن دعا إلىٰ الله جل وعلا، وكان عاملا بما دعا عالما بما دعا متابعا للمصطفىٰ ﷺ، فأعلىٰ المقامات في الدين هو مقام الدعوة، ولهٰذا كان الأنبياء هم سادة الدعاة إلىٰ الله جل وعلا: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[يوسف]، قال إمام هٰذه الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ وأجزل له المثوبة وجزاه عنا وعن المسلمين خير الجزاء عند هٰذه الآية في مسائل كتاب التوحيد ما مقتضاه قال: في قوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ التنبيه علىٰ الإخلاص؛ لأن كثيرين ولو دعوا إلىٰ الله فإنهم ربما يدعون إلىٰ أنفسهم أو إلىٰ شيخهم أو إلىٰ طريقتهم.

ولهٰذا في مقام الدعوة إلىٰ الله الذي هو أعلىٰ المقامات فيه التنبيه علىٰ الإخلاص، فيه أن يكون الداعي إلىٰ الرب جل وعلا مخلصا في قوله، مخلصا في عمله، يروم هداية الخلق إلىٰ الحق جل وعلا، ويروم أن يكون قوله حقا وفعله حقا ودعوته حقا، وهٰذه إنما تكون بعد العلم النافع وبالتمرس في العلم ومعرفته ومعرفة كلام أهله حتىٰ تكون الدعوة إلىٰ الله جل وعلا صائبة.

هٰذه الدروس التي هٰذا الدرس فاتحتها، الحاجة إليها ماسة؛ وذلك أننا نرىٰ أن كثيرا من الناس -بل أكثر الناس- ليسوا طلبة علم، وليس همهم أن يكونوا من أهل العلم ولا طلبة العلم ولا الذين يعلمون

معاني الكتاب والسنة، وإنما الأكثر همّهم من المستقيمين أن يكونوا علىٰ معرفة بأمر الله علىٰ معرفة عامة بما يرشدهم ويدنيهم من الخير وبما يباعدهم من الشر.

هٰذه الكثرة الكاثرة تتمثل في طبقات كثيرة من المجتمع، تتمثل في أكثر الطلاب، وحتىٰ طلاب الكليات الشرعية، تتمثل في طلاب العلوم المدنية، تتمثل في طلاب الطب والهندسة والكيمياء والفيزياء، تتمثل أيضا في طلاب المدارس الثانوية والمتوسطة، تتمثل في الموظفين، تتمثل في المدرسين تتمثل في جهات شتىٰ وطبقات شتىٰ من المجتمع، تتمثل في كثير من كبار السن ومن الآباء ومن الإخوان الذين ليسوا من الطلبة وليسوا من الموظفين بل هم من التجار الذين يتسببون في هٰذه الحياة.

فإذن ليس من المنطق وليس من أداء الواجب الشرعي أن يكون الجهد منحصرا في مخاطبة طائفة قليلة من الناس، نعم العلم هو الأصل ونشر العلم وأداء رسالته وتعليم طلبة العلمِ العلمَ النافع وتأسيسه فيهم وتأصيل العلم فيهم، هٰذا من تكوين رأس المال وتكوين التي يقوم عليها أمر الدعوة وتنتشر؛ ولكن لابد أيضا من مخاطبة الناس جميعا بما جاء في الكتاب والسنة من مخاطبة الناس جميعا بما قرره علماؤنا بما قرره أئمة السلف الصالح رضوان الله عليهم؛ لأن الناس أحوج ما يكونون إلىٰ الدعوة وإلىٰ العلم؛ بل قد قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: إن حاجة الناس إلىٰ العلم وإلىٰ الدعوة أكثر من حاجتهم إلىٰ الطعام والشراب؛ لأنهم إن فقدوا الطعام والشراب فإن غاية ذلك الهلاك؛ هلاك البدن والموت، أما إن فقدوا العلم النافع وفقدوا الدعوة الصالحة فإنه ربما هلكت قلوبهم وفسدت أرواحهم فكانت عاقبتهم بعد الممات شر عاقبة.

هٰذا معنىٰ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، وهٰذا صحيح.

إذن لابد أن يكون هناك خطاب، وأن تكون هناك دعوة وحركة إلىٰ فئات المجتمع جميعا.

إنه من الخطأ البيّن أن يسعىٰ الناس إلىٰ مخاطبة فئة معينة، أن يسعوا إلىٰ مخاطبة فئة الشباب فحسب، أن يسعوا إلىٰ مخاطبة المستقيمين فحسب، بل إن الدعوة للصغير والكبير، إن الدعوة تخاطب الرجل والمرأة، تخاطب الأمين والمأمور، تخاطب جميع طبقات المجتمع، وهٰذا هو الذي ينبغي أن يحمله طالب العلم أن يحمله الداعية وأن يحمله كل من يروم الاستقامة بأن يخاطب فئات المجتمع جميعا، إذا خاطب أحدا أو خالطه فليستحضر أنه يرغب في أن يكون داعيا إلىٰ الله وأن ييسر الخير وأن يحبب الخير

إلىٰ ذلك المدعو، خاطب كبيرا أو صغيرا، خاطب فاسقا أو صالحا، ليستحضر ذلك وليخاطب كلا بما يناسبه فإن في ذلك الصلاح والإصلاح وإن الصلاح والإصلاح مما يرغب فيه المستقيمون جميعا.

لهٰذا كانت هٰذه الدروس التي هي متنوعة في أبوابها، متنوعة في موضوعاتها، متنوعة فيمن تخاطب، متنوعة أيضا في القضايا التي تعالج؛ منها أشياء واقعة، ومنها كتب تُحلَّل، ومنها أخلاق تدرس، ومنها حث علىٰ خير، ومنها تحليل لمواقف معينة، إلىٰ آخر ما يجدّ أو سُمع أو ربما يسمع.

نريد أن نكون ممن يوصلون ما يرغبون من الخير وما معهم مما علموه من الكتاب والسنة إلىٰ الناس جميعا، وهٰذا من عيوب طائفة من الناس أنهم قصروا الدعوة علىٰ فئة معينة، فتراه أكثر من يخالط الشباب، وتراه أكثر من يخالط أصحابه، أكثر ما يخالط من يميل إليهم نفسيا؛ ولكنه لا تجد عنده المجاهدة أن يخالط من ليس بمستقيم حتىٰ يهديه، أن يتعلم كيف يقنع من عنده شبهة.

من الناس من يكون عنده شبهة في مسألة من المسائل، كثيرا ما يأتي بعض الشباب ويقول: عندي قريب من حاله كذل وكذا ويورد من الشبه كذا وكذا، إما شبه في المال، وإما شبه في الدين أو أحيانا في العقيدة، كيف يرد علىٰ أولئك؟ تجده منزويا لا يتعلم كيف يرد علىٰ أولئك وكيف يهدي.

منهم من يكون في معاشرته في أهله معاشرته في بيته في انفصام في الشخصية كما يقال. إذا خالط الشباب وخالط الزملاء وجدته داعية وجدته حبيبا وجدته ذا خلق عظيم؛ لكنه في بيته بالعكس من ذلك، إذا خاطب والده لم يخاطبه مخاطبة الداعية، كيف تكون تلك الأنواع من المخاطبات، هٰذه لابد لها من تأصيل، ولابد لها من عرض حتىٰ يتمكن الناس من نشر الدعوة في صفوف المجتمع جميعا، ومن القيام بالحق الذي أوجبه الله جل وعلا علىٰ هٰذه الأمة، فإن هٰذه الأمة ميزها الله وفضلها بتها داعية إلىٰ الخير آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر قال جل وعلا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[آل عمران:١١٠]، وقال جل وعلا: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[آل عمران].

فالدعوة إلىٰ الله جل وعلا هي خصّيصة هٰذه الأمة، فالأمة ما استقامت فيها هٰذا الإسلام مع كثرة المجابهات وكثرة الهجوم عليه وعلىٰ أهله ومحاولة نزعه من الصدور ومن المجتمعات إلا بقيام الدعاة وبقيام أهل العلم في وجه كل من حاول أن يصدّ الناس عن الدين.

هٰذا لاشك أنه يحتاج إلىٰ تقعيد وإلىٰ تأصيل؛ لأن كثيرين ربما دعوا ولكن دعوا علىٰ غير الطريقة الشرعية.

وقد قال الله جل وعلا: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥]، قال بعض أهل العلم: في هٰذه الآية ذِكر لطبقات ثلاث من الناس الذين لا يرغبون في الخير أو الذين ليسوا من أهل اليقين هم علىٰ أحد الطبقات الثلاث:

قال جل وعلا في مخاطبة أهل الدين الذين يدعون إلىٰ الله جل علا: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ وهٰذا خطاب يناسب طائفة من الناس فإن من الناس من لا يناسبه الوعظ يعني التخويف والترغيب الشديد؛ ولكن تناسبه الحكمة أن تكون معه حكيما فيما تأتي.

والحكمة هي وضع الأمور في مواضعها الموافقة للغايات المحمودة منها.

الناس يختلفون في خطاباتهم، لا يخاطب الصغير مثل ما يخاطب به الكبير، لا يخاطب المتعلم بمثل ما يخاطب به الجاهل، لا يخاطب الذكي بمثل ما يخاطب به المتوسط أو البليد، لا يخاطب العامي بمثل المثقف، أو المثقف المتوسط لا يخاطب بمثل ما يخاطب به عالي الثقافة، وهكذا من عنده شبهة لا يخاطب الخطاب من ليس له شبهة، في أنواع من الناس.

قال بعض أهل العلم: في هٰذه الآية تصنيف الدعوة بحسب فئات المجتمع، قال جل وعلا: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[النحل:١٢٥]، وهناك من يحتاج إلىٰ أن يدعىٰ بالحكمة بالترغيب، بمخالطة حكيمة، بكلمة حكيمة، بدعوة حكيمة، تجد أنه يقبل يريد الرقة يريد اللين يريد الحكمة وهو بعد ذلك يقبل ويكون من أهل الخير ومنهم من يحتاج إلىٰ الموعظة وهٰذه الموعظة وصفها الله جل وعلا بقوله: ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾.

فمن الناس من يحتاج إلىٰ الموعظة، الموعظة هي الترغيب والترهيب وصف الجنة وصف النار، وصف مآل من أطاع أمر الله جل وعلا ووصف مآل من خالف أمر الله جل وعلا، إذا أتىٰ علىٰ رأسه قوارع الوعد والتهديد فإن قلبه يصحو ويقبل علىٰ الخير؛ لأنه يحتاج إلىٰ الوعظ.

منهم من يحتاج إلىٰ الترغيب، إذا رغبته في الخير أقبل، وإذا خوفته وشددت عليه بالتخويف ربما أصابه

شيء من القنوط، فلا بد في طائفة من الناس أن يُسلك معهم هٰذا المسلك وهو الموعظة الحسنة.

والطائفة الأخيرة الذين يعلمون وعندهم من الشبه ما عندهم قال جل وعلا: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾، فالدعوة إلىٰ سبيل الله تكون في طائفة من الناس بالمجادلة بالتي هي أحسن، والمجادلة هي لمن عنده شبهات، لمن عنده آراء، لمن يخالفك في الطريقة، يخالفك في المنهج، كيف يكون المخاطبة له، قال جل وعلا: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾، لست مجادلة حسنة فحسب ولكن ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ يعني أحسن ما تجد، أحسن ما عندك من اللفظ، أحسن ما عندك من البيان، أحسن ما عندك من الحجة والبرهان فيكون الخطاب للناس به لهٰذه الطائفة؛ لأنهم بمجادلتهم بالتي هي أحسن يكون القرب ويكون البيان ويكون الإقبال علىٰ سبيل الله وإلىٰ سبيل الله جل وعلا.

هٰذه الدروس التي هٰذا فاتحتها ستتعرض فيها إن شاء الله إلىٰ مواضيع متنوعة، ستتعرض فيها إلىٰ موضوعات مختلفة، موضوعات تتعلق بالعلم كما هو ظاهر في عنوان هٰذه الدروس، **دروس عامة في العلم والتربية والدعوة.**

والعلم لا نعني به العلم الذي يؤخذ في الحلق، بقراءة كتب وشرحها، وتقرير المسائل وتقعيدها.

وإنما في العلم من جهة مثلا آداب العلم وآداب المتعلم، كيف تقرأ الكتب، كيف تقرأ كتب السنة، كيف تقرأ كتب الحديث، كيف تقرأ كتب الفقه، وما الفرق بين كتب الفقه وكتب الحديث، وما ميزات كلام أئمة السلف في العقيدة، ما ميزات كلام ابن القيم، كيف تقرأ الكتب في السيرة، كيف تلخص الفوائد، إلىٰ آخر ذلك مما تحتاجه فئات متنوعة من القراء؛ لأن القراء في هٰذا الزمن ليسوا مخصوصين بطلبة العلم؛ بل نجد ولله الحمد في هٰذه البلاد وفي غيرها الكثرة الكاثرة من الناس وخاصة المستقيمين تقرأ، ومنهم من يقرأ الكتب العامة الثقافية المختصرة التي في ورقات، ومنهم من يقرأ الكتب المتخصصة في أنحاء شتىٰ من أنواع القراءة.

هؤلاء يحتاجون أيضا إلىٰ تقعيد وتأصيل فأتىٰ هٰذا القطاع من هٰذه الدروس التي سنتكلم فيها إن شاء الله تعالىٰ عن العلم وكيف تتعلم، وكيف تقرأ، وكيف تلخص، وكيف تتعامل مع الكتب، وما هي مكتبتك التي ينبغي أن تكون عندك دائما، ما هي الكتب النافعة، الكتب غير النافعة، مما يخاطب فيه طبقات كثيرة متنوعة من المجتمع.

كذلك خطاب في التربية إنّ هٰذه الدروس أيضا تعنىٰ بالتربية، والتربية لاشك مطلب مهم والتربية الجادة ضرورة كما هو ظاهر ومعلوم؛ لأننا نحتاج لأن نربي الناس لا تربية لهو ولا تربية ضياع للأوقات، ولكن تربية جد من يعلمون أن الحياة دقائق وثوان، إذا فاتت الحياة فلا حياة بعدها، ولابد أن نسعىٰ إلىٰ الخير؛ لأن «**من دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا**».

فالتربية بجميع طبقاتها، تربية الرجل لنفسه، تربية الرجل لإخوانه في بيته، تربية الرجل للصغار، تربية المرأة لأولادها، تربية المرأة لنفسها، تربية الرجل لزوجه؛ بل وتربية الزوجة لزوجها؛ لأن من النساء من تشكو زوجها وتقول: فيه وفيه وفيه ولا تدري ما السبيل إلىٰ علاج ذلك، لاشك أن تربية المرء لمن حوله أن هٰذا مطلب مهم، وكما ذكرنا أنه من المفارقات العجيبة ومن المتناقضات أن يكون ثم شخصية لطالب العلم شخصية متنوعة؛ في بيته شخصية وفي خارج بيته شخصية أخرىٰ، وكذلك كثير من الناس ممن ليسو بطلبة علم تجد أنه ربما كان مستقيما في نفسه؛ لكن لا يستطيع أن يؤثر علىٰ أحد؛ هل لأنه ليس عنده القدرة علىٰ التأثير؟ أظن ذلك ليس بصحيح في كثير من الناس؛ بل السبب أنه لم تُعلم الطريقة: كيف يخاطب هؤلاء، وكيف ينشر فيهم ما يحمله من الحق والهدىٰ.

التربية التي نريد أن نناقش بعض موضوعاتها تتصل أيضا بتربية طلبة العلم، وبالخطاب الموجه لبعض الدعاة، بالخطاب الموجه لقادة بعض الدعوات، الخطاب الموجه للدعوات عامة في هٰذه البلاد وفي خارجها، لاشك أن هٰذا نوع من التربية مطلوب؛ لأن المرء لا يخلو في هٰذه الحياة في كل لحظة إما أن يكون مربًّا أو مربي؛ بل إن المرء في نفس اللحظة يكون مؤثرا ومتأثرا من الجهتين جميعا، وهٰذا لاشك أنه يحتاج إلىٰ أن يحمله كثير منَّا وأن يكون نظره بعيدا ليس نظره مختصا بطائفة في تربيتهم دون طائفة أخرىٰ؛ بل لابد أن يكون حاملا لهٰذه الدعوة حاملا لهٰذه التربية مخاطبا جميع الفئات بها.

سنعرض -إن شاء الله تعالىٰ- إلىٰ موضوعات مهمة في التربية التي تكون في قطاعات كثيرة، تربية الأستاذ لتلاميذه في الفصل، تربية طالب الابتدائي، تربية طالب الثانوي، تربية طالب الجامعة، هل تخاطب طالب الجامعة الذي عنده آراء وعنده شبهات وعنده مفاهيم مختلفة، منهم من يكون مستقيم، ومنهم من لا يكون مستقيما كيف يخاطبه الأستاذ، هل هو بخطاب المعلم العادي، خطاب من في المسجد من يحضر هل هو كخطاب من لا يحضر المسجد، لاشك أن هٰذه متنوعة وتحتاج إلىٰ رسائل

خاصة إلىٰ فئات كثيرة من هؤلاء وكيف يربون من حولهم.

كذلك في قطاع من هٰذه الدروس ومجموعة منها نعرض إلىٰ موضوعات متصلة بالدعوة، والدعوة أمرها متوسع وشائك، والدعوة الناس يختلفون في فهمها، وكيف تكون الدعوة، والذي ينبغي تقريره أن الدعوة لا يجوز لأحد أن يحصرها في نفسه، لا يجوز لأحد لأن يقول: إن الدعوة فيّ وغيري يجب أن ينساق لما أقول في الدعوة ولا يتكلم إلا بما أريد أو بما أقرر، إن الدعوة يجب أن يكون الحكم فيها كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله ﷺ، وما قرره أئمتنا من أئمة السلف ومن علمائنا وفقهم الله جل وعلا.

إن هٰذه الدعوة التي سنعرض إلىٰ موضوعات متصلة منها متنوعة المشارب ومتنوعة الطرح، ونخاطب فيها فئات كثيرة، ونرىٰ أن الحاجة ملحة إلىٰ ذلك؛ لأننا نرىٰ في هٰذا الزمن أنه مع انتشار الفساد وانتشار الموبقات وانتشار الفواحش وتيسير سبل ذلك للناس في هٰذه البلاد وفي غيرها نجد أن الناس المستقيمين اختلفوا فيها؛ بل إن الناس علىٰ جميع طبقاتهم اختلفت نظرتهم لمعالجة ذلك الفساد ومعالجة تلك الموبقات، وقد قسمنا من قبل بالاستقراء فئات الناس فيما يحصل من فساد، وما يحصل في المجتمعات من موبقات، ومخالفة لشرع الله ولدينه قسمناهم إلىٰ طبقات:

- فمنهم أهل العلم، فئة من المجتمع أهل علم.
- منهم طائفة كبيرة ليسوا بأهل علم؛ ولكنهم أهل غيرة علىٰ دين الله وأهل حمية في الدين.
- ومنهم طائفة أهل علم وأهل غيرة جميعا.
- ومنهم طائفة أيضا ليسوا بأهل علم ولا بأهل غيرة.

فهٰذه الطائفة الأخيرة الذين ليسوا بأهل علم ولا بأهل غيرة، هم أرباب الشهوات الذين لا تهمهم إلا دنياهم، وقلوبهم معلقة بالأرض وقلوبهم معلقة بالدنيا وبالمال والجاه والسمعة وملذات هٰذه الحياة الدنيا، وقلبه لم ينتقل إلىٰ الآخرة ولم تحركه الآخرة ولم تشوقه الجنة ولم تخوفه النار، فهؤلاء أتباع كل ناعق ليس الحديث معهم.

فالدعوة أيضا تحتاج إلىٰ تقسيم هٰذه الفئات، وأن من مجتمعنا في علاج تلك الموبقات وعلاج ذلك الفساد من سرىٰ في علاجه بالعلم دون الغيرة، فتجد أنه يقنن القوانين ويقعّد القواعد العلمية ولكنه غير متحرِّك للأمر بالمعروف وللنهي عن المنكر، وغير متحرك لمجابهة أهل الفساد، غير متحرك لمجابهة

العلمانيين، غير متحرك لمجابهة المشركين، غير متحرك لمجابهة أهل البدع، غير متحرك لنصرة دين الله في ميادين كثيرة علمه نافع في نفسه وفي ما ينشره من العلم؛ لكن هٰذا ينبغي أن يكون تقعيده موافقا لتقعيد الطائفة الذين اتسموا بالغيرة والعلم علىٰ دين الله؛ لأن من لم يكن قد عاش شرا من الشرور من لم يكن قد رأىٰ هٰذه الشرور وعاش المشاكل في نفسها فإنه قد لا يتحرّك في تقرير المسائل العلمية، لا يتحرك فيها تحركا صحيحا ولا يقعدها بفقه في النصوص الفقه الصحيح.

ولهٰذا في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ ما يميزه حيث إنه جعل آيات القرآن في زمنه منصبة علىٰ الواقع الذي عاناه وعاشه، ومن الناس حتىٰ من أهل العلم في زمنه من لم يوافقه علىٰ ذلك، وذلك لأنه ما عاش ما عاشه الشيخ، ولا تحرك بالهم الذي تحرك به إمام هٰذه الدعوة رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

من الناس وهو قطاع كبير من الناس أهل غيرة علىٰ المحرمات أن توجد، عندهم غيرة علىٰ الفساد غيرة علىٰ وجود بعض أنواع الظلم، غيرة علىٰ وجود بعض أنواع الفساد، غيرة علىٰ وجود أهل الشر بطبقاتهم المختلفة؛ لكن هٰذه الغيرة حملتهم علىٰ أن تحرّكوا بها لغير ما يقتضيه العلم الشرعي الصحيح، تتحرك بالغيرة وجاوزوا الحد الذي يمليه العلم علىٰ الغيرة، والغيرة لابد لها من قائد والغيرة محركة، ولكن قائد الغيرة هو العلم، فإذا كانت غيرة بلا علم فقد صاحب الغيرة السبيل إلىٰ النجاة والسبل إلىٰ تصحيح هٰذه الغيرة.

من الشباب كثير ومن الناس من الشيب كثير تحركوا بغيرة، حتىٰ أحيانا حرموا ما أحل الله جل وعلا، تحركوا بغيرة فأنكروا أشياء لا يسوغ الإنكار فيها، تحركوا بغيرة فوصفوا بعض من ارتكب شيئا من المعاصي بأنهم مبتدعة أو كفار أو مارقون من الملة والعياذ بالله.

نعم إن الغيرة مهمة، وكما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: إن القلب بلا غيرة قلب ميت. لأن الغيرة هي التي تجعل المرء يحافظ علىٰ ما عنده من الإيمان والتقوىٰ والصلاح.

أما الذي لا يغار علىٰ حرمات الله فإنه لا يحمل المحافظة علىٰ رأس ماله وإيمانه ودينه.

طائفة كبيرة في هٰذا البلد وفي غيره أيضا من المسلمين في كل مكان، نعم تحركوا بالغيرة؛ ولكن هٰذه الغيرة منها ما كان علىٰ موجب العلم، ومنها ما لم يكن علىٰ موجب العلم، وما لم يكن علىٰ موجب العلم من الغيرة فإنها غيرة مذمومة، لهٰذا ترىٰ أن من أهل العلم يقول: إن الغيرة ليست محمودة في نفسها،

فالخوارج حينما خرجوا وقتلوا عثمان، إنما حركتهم الغيرة علىٰ مكافحة الظلم والغيرة علىٰ التصرف في الأموال؛ ولكن آلت بهم هٰذه الغيرة بالمذمومة لأنهم لم يهتدوا بهدي الصحابة إلىٰ أن قتلوا عثمان رضي الله عنه.

أيضا من أنواع المجتمع من أصناف الناس في هٰذا التقسيم الرباعي أهل العلم، منهم أهل العلم والغيرة، هؤلاء هم الراسخون في العلم الذين علموا حدود ما أنزل الله جل وعلا وفقِهوا الكتاب والسنة، وسعوا في الإنكار علىٰ ما يقتضيه العلم، لم يكن العلم عندهم منعزلا عن الغيرة؛ بل الغيرة تحرّكهم علىٰ الإنكار وهؤلاء يصلحون ولا يفسدون، وإن كان إصلاحهم إنما يكون علىٰ المدىٰ الطويل؛ لكنه إصلاح كمثل الغيث الذي ينبت الأرض وينفع الناس ولكن من الناس من لا يشاهد؛ لأنك ترىٰ الأرض وقد أمطرت في تو اللحظة ولم ينبت منها النبات؛ ولكن بعد مدة زمنية طويلة شهر أو شهرين تراها أنبتت بإذن الله.

والدعوات والدعوة لا يظن أنها تقاس بالزمن فهٰذه أول الدعوات إلىٰ دين الله جل وعلا دعوة رسول، هي دعوة نوح عليه السلام، إذ هو أول المرسلين دعا قوما مخالفين وقوم مشركين إلىٰ دين الله جل وعلا، فهٰذه الدعوة مكثت في الأرض ألف سنة إلا خمسين عاما ومع ذلك ما استجاب لنوح إلا قليل كما قال جل وعلا ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾[هود] قال المفسرون: هم بضعة وسبعون رجلا وامرأة، وقال آخرون: بل لم يزيدوا عن اثني عشرة رجلا وامرأة، وهٰذا لاشك أنه غريب إذ دعوة تمكث في الأرض هٰذا الزمن الطويل رسول مؤيد بالمعجزات ومؤيد بالبراهين ولا يكون معه إلا هٰذا العدد القليل.

إذن هٰذا برهان علىٰ أن الأمر في الدعوة، لابد أن يكون الصواب، وليس المدة وليس كم من مستجيب، إن نوحا عليه السلام مكث تلك المدة، وكانت دعوته صوابا لأنه رسول من عند الله وفي دعوته ما ينبغي؛ بل ما يجب أن نأتسي به إذ لابد أن نصدق المرسلين ونتبع المرسلين.

إن الدعوة لاشك أنها لا تقاس بزمن، بل الأمر في الدعوة أن تكون في دعوتك علىٰ صواب، إن استجاب الناس في سنة أو في عشر أو في مائة، فإن الأمر ليس هو ذاك وإنما الأمر أن تكون داعيا إلىٰ الله علىٰ صواب، إذا أذن الله جل وعلا بالانتشار الدين إذا أذن الله جل وعلا بفشوّه وألا يبقىٰ بيت بحجر ولا مدر إلا واستقام أهله، فذاك فضل الله يؤتيه من يشاء ولكن إن لم يكن كذلك فلله الحجة البالغة، وكما

قال جل وعلا: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[الأنعام]، وقال سبحانه: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾﴾[القمر]، لاشك أن المؤمن ينبغي له أن ينظر إلىٰ ذلك.

علاج هٰذه القضايا سنعرض له إن شاء الله تعالىٰ في هٰذه الدروس العامة.

هٰذا شيء مما حدا أن تقام هٰذه الدروس، فالدروس أقيمت سدا لنقص في الحلقات العلمية؛ لأن الحلقات في المساجد كما ذكرت تخاطب طائفة من الناس، وفئات كثيرة من المجتمع تحتاج إلىٰ تواصل أن تتخاطب دائما ودائما؛ لأنها إن لم تخاطب دائما فإنها ستضعف في الإيمان، ستضعف في الغيرة، ستضعف في معرفة ما يجب وما يحرم وما ينبغي وما لا ينبغي.

الناس تعوّدوا أن يكون عندهم ما يسمعون، وأن يكون عندهم ما يقرؤون، ولو ترك ذلك لضعفوا ولما ثبتوا أو لقلّ إيمانهم وقلّ حتىٰ يرىٰ المرء نفسه بين حين وآخر وإذا به قد تغير.

إنما نرىٰ أن كثيرا من الشباب ولله الحمد انطلق بالدعوة من الشباب والكبار انطلق بالدعوة في جلسات عامة، في مجالس، في أسرهم، في رحلات، في عمرة، في حج إلىٰ غير ذلك من أنواعها؛ لكن ما الذي يطرح في تلك الجلسات؟ من الذي يطرح في تلك الرحلات؟ ما الذي يطرح في تلك الأسفار؟ لاشك أنه يحتاج إلىٰ توجيه وإلىٰ تثبيت وإلىٰ تقعيد أيضا فيما يأتون وفيما يذرون.

من أجل ذلك أيضا كانت هٰذه الدروس التي نسأل الله جل وعلا أن يعيننا علىٰ الاستمرار فيها.

إذا نظرت من جهة أخرىٰ: نظرت إلىٰ أن هناك قطاعا عظيما في المجتمع؛ بل هو نصف المجتمع كما يقال لم يهتمّ به في الدعوة الاهتمام الصحيح، ألا وهم النساء، والنساء كما سبق في الحديث الصحيح شقائق الرجال، نرىٰ أن كثيرين من الشباب استقاموا واهتدوا، لكن ما نسبة المستقيمات في النساء.

المرأة مغفول عنها تسلط عليها أدعياء الشر ففتنوها عن دينها إلا من رحم الله جل وعلا، وحببوا لها الشهوات، وحببوا لها التفريط في الواجبات، وحببوا لها عصيان والدها وعصيان زوجها إلىٰ آخر ما هنالك من المشكلات التي تسمعون ونسمع.

لابد من مخاطبة المرأة أيضا، ومخاطبتها بنشر الدعوة فيها والتعرف علىٰ مشكلات النساء، لاشك أنه مجال من المجالات المهمة من الدعوة، إذ المرأة هي الأم وهي الأخت وهي التي تقوم في البيت، هي التي تتحرك.

نشكو كثيرا من منظر النساء في الأسواق، ومن منظر النساء في الشارع، من حديث النساء إذا اجتمعن مع بعضهن؛ لكن نسأل عن أسباب ذلك،وكيف السبيل إلىٰ معالجة هٰذا الأمر في النساء، إنه من الغلط ولا شك أن تحصر الدعوة في الرجال، وأن يحصر الخير في الرجال فحسب، فالمرأة هي المرأة، وهي التي يرجىٰ أن يكون إذا صلحت أن يكون معها صلاح المنزل وصلاح البيت واستقرار نفسية الزوج واستقرار نفسية الأب والأخ إلىٰ غير ذلك، إنها موعودة بالجنة ومتوعدة بالنار، كما أن الرجل موعود بالجنة ومتوعد بالنار.

إذا نظرت اليوم في مجتمعنا وجدت أن هناك انفصالا بين طلبة العلم وبين عامة الناس هٰذا الانفصال في مشارب شتىٰ:

أولا أن كثيرين من الناس عندهم من الأفكار وعندهم من التجربة التي مارسوها في الدعوة ما نفعت ما احتفظوا به لأنفسهم وما نقلوه.

ونريد أن تكون هٰذه الدروس هي منبرا وصوتا لنقل هٰذه التجارب ومثل هٰذه الآراء ممن جرب فنجح إلىٰ غيره ممن لم يجرب.

هناك من الشباب ومن المثقفين من عنده أفكار متنوعة، وهٰذه الأفكار حديثة في ذهنه، ليس هو من المؤهلين للإلقاء، ولا من المؤهلين للخطابة مثلا، ولا من المؤهلين للدعوة إما تورعا منه وإما أن يكون الواقع كذلك.

هٰذا هل يسوغ له أن يحبس ما عنده من الأفكار ومن الآراء المهمة في نشر دعوة الحق في الناس جميعا، هل يسوغ أن تحبس؟

هٰذه الدروس جاءت لنقل مثل هٰذه الأفكار والآراء، حتىٰ تصل إلىٰ فئات كثيرة من المجتمع.

فمن الناس من يكون عنده رأي وفكرة لم يوصلها في شريط يسمعه المئات بل الآلاف بل عشرات الآلاف؛ لكن ربما لو أعطاه أحد طلبة العلم أو أحد الدعاة ووزن هٰذه الفكرة بميزان الشرع وحكم عليها بالعلم، فإنه ربما تكون فائدتها لفئام كثيرة من الناس، لآلاف؛ بل ربما لمئات الآلاف، لا نريد أن نكون محدودين في الدعوة، وننظر إلىٰ بلدنا فقط.

إن هٰذه الدعوة التي مشىٰ عليها أئمة السلف الصالح فنجحت وأثمرت وثبت أهل الإسلام علىٰ الدين

إلىٰ وقتنا هٰذا، منذ ذلك الزمان إلىٰ هٰذا الزمان إنها لم تكن هكذا وإنما كانت بجهود، بفضل الله جل وعلا وتوفيقه أولا، ثم بجهاد أهل الجهاد وأهل العلم فنقلوا ذلك، نقلوه في كتب، نقوله بالرواية، نقوله بأنواع من النقل حتىٰ وصلنا، إذا كنا محدودين في هٰذا البلد، فمن المسؤول عن إيصال الدعوة الصحيحة، دعوة أئمتنا أئمة السلف الصالح إلىٰ شتىٰ بقاع الأرض، من المسؤول؟

هٰذه البلاد ولا شك عليها المسؤولية العظمىٰ؛ لأن الله جل وعلا منَّ عليها بأنواع من المن:

مّن عليها بهٰذا الصفاء في العقيدة، فنشأ الناشئ منا وهو لا يعرف إلا العقيدة الصحيحة، نشأ الناس منا وهو علىٰ الفطرة لم تغير فطرته، «وكل مولود يولد علىٰ الفطرة»، نشأ الناشئ منا وهو لا يرىٰ فيما حوله الموبقات الكبيرة، لا يرىٰ الخمور، لا يرىٰ تيسير سبيل الزنىٰ، لا يرىٰ تيسير سبيل الفواحش، ثَم ذنوب ومعاصي كثيرة ومتنوعة؛ لكن ما يخاطب به أو ما يتوجه به ذاك إلىٰ الفرد، قليل أو ضعيف، فالاستقامة هنا سهلة، وكون أهل هٰذه البلاد ينطلقون بالدعوة أحرىٰ، من أن ينطلق بها غيرهم لأنهم تميزوا بأشياء كثيرة، أهل هٰذه البلاد أنعم الله عليهم ومنّ بالمال، والناس محتاجون إلىٰ أن ينتقلوا، إلىٰ أن ينتقل إليهم فيبين لهم، بالتجربة وُجد أن مخاطبة فئات كثيرة من المسلمين في أنواع شتىٰ من الأرض بالكلمة بالدعوة أنتج النتائج الباهرة، هٰذا لابد من أن ينقل إلىٰ أولئك، وهٰذا لابد لأن يكون من واقع التجربة.

لهٰذا أدعو من كان عنده فكرة من الإخوة ومن الحضور وممن يسمع أو عنده رأي أو عنده موضوع محاضرة أو درس يطرح في أي مجال من المجالات، لعلاج تربوي لعلاج دعوي لمسألة علمية، لكتاب يحتاج إلىٰ النقد، يحتاج إلىٰ التقييم إلىٰ غير ذلك أن يقدمه لإمام هٰذا المسجد حتىٰ نتدارس هٰذا، ويكون ضمن هٰذه السلسلة من الدروس؛ لأنه لاشك أن الواحد، لا يمكن أن يعمل إلا شيئا قليلا، والذين عملوا وعملوا إنما عملوا بفضل الله جل وعلا أولا عليهم، ثم بجهود إخوانهم؛ لأن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، والمرء يهتم بنشر الحق والهدىٰ، وهٰذا يكون عن تلاقح الأفكار وإبداء الآراء، ولا يحتقرن أحد من المعروف شيئا، كما قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**ولا تحقرن من المعروف شيئا**» ربما كلمة أو وُريقة تقدمها فيكون فيها فتح لباب فكرة لم تكن بالبال ولا بالحسبان، عرض لمشروع مثلا من مشروعات الدعوة وكيفية القيام بالواجب في مجال معين، هٰذا يُقدَّم حتىٰ نرىٰ كيف يعالج ويوزن بالعلم الشرعي فإن كان مناسبا طُرق ذلك للناس.

لاشك أن هٰذه الدروس سيكتنفها قصور شديد؛ لأن المتحدث جديد في هٰذا الميدان، وإن كنا نُحسن بعض العلم، فإن مثل هٰذه المجالات تحتاج حتىٰ تنضج، حتىٰ ننضج فيها وحتىٰ نقوم فيها بالواجب إلىٰ وقت وإلىٰ زمن؛ ولكن بالتسديد وبالمشورة يحصل من ذلك شيء، إن وفق الله جل وعلا، فلهٰذا ما كان فيها من قصور فإنه طبع القاصر، وما كان فيها من تسديد فإنه بفضل الله جل وعلا أولا ثم بما بذله إخوان لنا في هٰذه المقترحات التي نسأل الله جل وعلا أن يصل إلينا منها ما ينفع عامة المسلمين.

هٰذه كلمات كمقدمة لهٰذه الدروس، ولاشك أن هناك استفسارات وهناك أسئلة تتعلق بهٰذا الموضوع، أو هناك اقتراحات، فنستمع إلىٰ ما حضر منها.

ونسأل الله جل وعلا لي ولكم الهدىٰ والسداد والتوفيق والرشاد، وأن يجعلنا من القائمين بالحق للحق إلىٰ الحق جل وعلا، وأن لا يكلنا لأنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ذنوبنا وأن لا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا.

وأسأله جل وعلا أن يصلحنا ويصلح قلوبنا وأن يصلح ولاة أمرنا وأن يوفق ولاة أمرنا وعلماءنا إلىٰ ما يحب ويرضىٰ، وأن يجعلنا من المتعاونين علىٰ البر والتقوىٰ، وأن يمنّ علينا بالبعد عن مهاوي الردىٰ وأن يوفقنا إلىٰ كل خير وأن يجعلنا من الدعاة إلىٰ دينه حتىٰ نلقاه وهو راض عنا وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الأسئلة]

سؤال (١): هٰذه الورقة الأولىٰ: يقول بعد السلام: إننا نبارك هٰذه الدروس، التي لا تعلمون كيف كان فرحنا بها حين سمعنا بها إلىٰ آخر الكلام الذي سيأتي.

الجواب: أولا قول الأخ بارك الله فيه (إننا نبارك) هٰذا مما لا يجوز؛ لأن الذي يبارك هو رب العالمين، فالبركة لله جل وعلا، والعبد يبارك عليه كما قال جل وعلا: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾[الصافات:١١٣]، ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾[الأنبياء:٧١]، ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾[الإسراء:١] فالمبارك هو رب العالمين، والعباد مبارَك.

والبركة قسمان: بركة ذاتية وبركة عملية.

والذين بارك الله جل وعلا عليهم بركة ذات وعمل جميعا إنما هم الأنبياء والمرسلون، فالأنبياء

والمرسلون فيهم بركة الذات، وفيهم بركة العمل، وغيرهم من المسلمين من المؤمنين فيهم بركة عمل بقدر ما عندهم من الخير، كما ثبت في «صحيح البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ» أن النبي ﷺ لأصحابه وهم جلوس وفيهم ابن عمر قال: «**إنّ من الشجر شجرة بركتها كبركة المسلم**» قال أهل العلم: دلّ هٰذا علىٰ أن كل مسلم فيه بركة بحسبه.

قال في تتمة الكلام: وإن كانت هٰذه الدروس مفيدة فهي في هٰذا الوقت الذي تغيرت فيه مجريات الأحداث وتفرّق فيها الصالحون هي أشد فائدة وأعظم منفعة.

نسأل الله أن ينفع بها. إلىٰ آخر ذلك.

الجواب: جزاك الله خيرا ونسأل الله جل وعلا أن يجيب دعاءك وأن يوفقنا إلىٰ ما يحب ويرضىٰ.

سؤال (٢): قال: هل من الممكن أن نشاركم في طلب بعض المواضيع -يعني بعض الموضوعات-؟

الجواب: لا أدري هل يسأل ما عندنا من الموضوعات، أو هو سيقترح موضوعات؟

علىٰ كل بالنسبة لما عندنا من موضوعات، هٰذا سوف يكون بعد كل درس يُعلن موضوع الدرس القادم، إن شاء الله تعالىٰ.

والموضوعات متعددة، وكثيرة إن شاء الله تعالىٰ، ولاشك أن السائل يحمل أيضا موضوعات، فنرجو أن يقدِّم ما عنده من الموضوعات والاقتراحات لعلها تكون لبنة في بناء هٰذه الدروس.

سؤال (٣): ما هو الموضوع الذي سيطرح الأسبوع القادم؟

الجواب: كان فيه اقتراح، ولا بأس به، وهو الذي وافق عليه مكتب الدعوة، وهو أن يكون أول الدروس «تتمة وصايا عبد الله بن مسعود»، أو ما عنون له بـ«عهد ابن أم عبد»، فسبق أن طرقنا في هٰذا المسجد بعض من تلك الوصايا، وستكون فاتحة هٰذه الدروس شيء من سيرة عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وبعض وصاياه في العلم والعمل.

سؤال (٤): ماذا لو أقيم معهد يدرّس فيه المواد الشرعية، ويكون هٰذا المعهد معهدا لإعداد الدعاة إلىٰ الله في شتىٰ البلاد، ويتقدم إليكم من رغب حتىٰ الأجانب، ويكون باشتراك رمزي، إلىٰ آخره، وجزاكم الله خيرا؟

الجواب: هٰذا المعهد:

إما أن يكون علىٰ منهج علمي يعني أكاديمي.

وإما أن لا يكون كذلك.

إن كان علىٰ منهج علمي فهٰذا فيه الجامعات، الجامعات الإسلامية في هٰذه البلاد ولله الحمد تقوم بهٰذا المجال، جامعة الإمام محمد بن سعود رَحِمَهُ اللَّهُ، الجامعة الإسلامية، جامعة أم القرىٰ إلىٰ غير ذلك.

أما أن ينشأ معهد بغير الطريقة العلمية؛ يعني هكذا لغير المتعلم، هٰذا لا يناسب لأن الدعوة لابد فيها من العلم.

سؤال (٥): هٰذا سائل يقول: أقترح أن يكون من مواضيع -الأصح لغويا موضوعات- هٰذه الدروس مناقشة المناهج الدعوية المختلفة المطروحة في الساحة من قبل الجماعات الإسلامية، ولو دون ذكر اسم الجماعة الدعوية التي تمثل المنهج؟

الجواب: لاشك أن عرض ما عليه المناهج الدعوية المختلفة مهم؛ ولكن الناس في طريقة عرض ذلك يختلفون، وربما عرض في هٰذه الدروس إن شاء الله تعالىٰ شيئا من ذلك لكن علىٰ طريقة إن شاء الله تحقق المصلحة وتدرأ المفسدة؛ لأن أهل هٰذه البلاد ولله الحمد من جميع الفئات يرومون الحق ولكن إيصال الحق بالطريقة المرضية هو الذي نحتاجه إن شاء الله تعالىٰ.

سؤال (٦): يقترح أن يكون هٰذا الدرس غير ثابت في هٰذا المسجد بل يكون متنقلا بين ثلاثة أو أربعة مساجد في الرياض؟

الجواب: هٰذا متروك للإمام المسجد وفقه الله؛ لأن القائمين علىٰ المسجد هم الذين اقترحوا هٰذا الدرس وهم أولىٰ به.

سؤال (٧): أيضا يطلب إعلان طلب مزيد من الأفكار والاقتراحات والموضوعات المقبلة حتىٰ يمكن لو كان فيها عناصر عند بعض السامعين ويمد بها وتكون أنفع في الموضوع.

الجواب: يعني موضوعات أربع خمسة أسابيع ويكون من عنده فكرة تتعلق بموضوع من هٰذه الموضوعات يقدمها حتىٰ يكون الموضوع متكاملا.

لاشك أنه طيب لكن أمامنا الآن قبل الحج هٰذا الأسبوع والأسبوع الذي بعده ثم نواصل بعد ذلك، ويكون إن شاء الله تعالىٰ ما أراد.

سؤال (٨): أقترح أن يكون من الموضوعات المطروحة في هٰذا الدرس: ترجمة لبعض العلماء الأحياء الذين يجهلهم كثير من الناس مثل الشيخ حماد الأنصاري والشيخ محمود محمد شاكر، أقترح مناقشة بعض كتب صلاح الصاوي؟

الجواب: علىٰ كل حال فيه من الأشياء الغير حميدة، نريد أن تكون هٰذه الدروس مفتوحة، يعني ليس فيها تحفظ؛ لأن التحفظ ما يوصل كل ما في الذهن إلىٰ المستمع، وأحيانا يكون في الذهن بعض القواعد، بعض الأفكار، بعض المسائل؛ لكن لأجل التحفظ وخشية أن لا يفهم الكلام ما يراد منه، فإنه تفوت مصالح كثيرة، ولهٰذا ستعرض هٰذه ربما بعض الأسئلة وبعض النقاشات حتىٰ نعلم ما في أذهان الناس، وحتىٰ يعالج ذلك بالطريقة الصحيحة، ربما أحيانا تعرض فكرة من الأفكار، ويكون أنا ألقيها مثلا؛ لكن يكون عند بعض الحاضرين عليها تحفظ، يقول: هٰذه الفكرة غير صحيحة فنريد أن يناقش بعضنا بعضا؛ يعني من أتىٰ بفكرة ينتقدها آخر أيضا يوجه بأن هٰذه منتقدة؛ لكن يكون الأمر معللا، يكون الاقتراح معللا ويكون أيضا النقد معللا؛ لأن من أهداف هٰذه الدروس إن شاء الله تعالىٰ أن يكون الشباب ليس بينهم حواجز، والحواجز التي تكون بين الشباب الحواجز النفسية والإقليمية، أو أحيانا من جهة الأفكار، هٰذه تعرقل فهم الواحد للآخر، وأحيانا كثيرة يكون المختلفان متقاربين؛ ولكن لأجل عدم حسن الحوار، أو عدم الوصول إلىٰ محط المسألة التي اختلفوا فيها يكون هناك اختلاف، فلعل وجود المتحدث هنا أنه يصل بين هٰذا وهٰذا حتىٰ تزول بعض تلك المتناقضات.

سؤال (٩): ما رأيك في مشروع إنكار المنكر، بأن يجتمعوا في المسجد عند الشيخ ويخبروه بالمنكر ويعلق عليه الشيخ، ويوصله أحد الإخوان علىٰ الجهات المختصة لإزالته، وكذلك البشائر أن يخبرنا أن المنكر قد زال؟

الجواب: هٰذا مشروع من حيث إنه إنكار المنكر أنه مطلوب ولا شك وإنكار المنكر واجب؛ ولكن الطريقة في إنكار المنكر يجب أن تكون شرعية، والمنكر لا يجوز إشاعته، وكل من أشاع منكرا لا يعلمه أحد فإنه يشترك في ذلك لأن الله جل وعلا قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [النور:١٩]، ومحبة إشاعة الفاحشة ظاهر أن سببه القذف الذي قُذفت به الصديقة بنت الصديق فبرأها الله جل وعلا من فوق سبع سماوات، ومجرد أن يقال: إن هٰذا المكان فيه من المنكر كذا وكذا لأناس لم

ينكروه ولم يعلموا عنه، فإن هٰذا ليس من الطريقة الشرعية، يصل المنكر بأسلوب خاص، أن هٰذا المنكر فيه كذا وكذا يعلمه الذي علمه، وإن أراد أن يعطيني إياه أو أحد من طلبة العلم أو رجال الهيئات أو أحد العلماء الأجلاء أو غير ذلك فإنه يكون أبرأ ذمته وسعىٰ في الطريق الصحيح.

لأن المنكر ينبغي لنا أن لا ننشره أن لا يخبر أحدنا أن البلاد فيها منكرات كثيرة لأن هٰذا إذا سمعه السامع فإن نفسيته تضعف، كل شيء خرب والمنكرات انتشرت فيضعف، الذي أخبر به قد تكون نفسه قوية؛ لكن من الناس من يغرىٰ بالفساد أكثر إذا علم أنها كثرت، فإذن المنكرات تنكر بالطريقة الشرعية وهٰذا المشروع جيد نصفه، وهو أن يبلغ أو يبلغ أحد من أهل العلم أو رجال الهيئات بأن في المكان الفلاني منكرا فينكر بالطريقة الشرعية بالقنوات المعروفة في هٰذه البلاد.

سؤال (١٠): تحدثنا عن أهمية توجيه المرأة وتعليمها، وهناك نساء لا يستطعن الحضور إلىٰ هٰذا المسجد، نأمل منكم كتابة بعض الرسائل الخاصة بهن، تتضمن نقاط مختصرة في العلم والتربية وغيرها، وطبع ذلك علىٰ حساب المحسنين؟

الجواب: سيكون ذلك إن شاء الله تعالىٰ في هٰذه الدروس عدة رسائل إلىٰ المرأة، رسالة إلىٰ الفتاة، رسالة إلىٰ المرأة العاملة، رسالة إلىٰ الأم، رسالة إلىٰ الزوجة إن شاء الله تعالىٰ، نسأل الله أن ينفع بذلك.

وإذا سجلت من استحسن ذاك يوصله إلىٰ من يستفيد منه.

سؤال (١١): كذلك هناك دعوة السجناء هم بحاجة إلىٰ الدعوة، وتوضيح بعض أمور العبادة لديهم.

الجواب: لاشك أن السجناء لا بد أن يعاملهم الداعية برحمة، كذلك من أذنب وانحرف فإنه يعامل بالرحمة؛ لأن الرحمة بها يحدث الخير ولا تنزع الرحمة إلا من شقي، والرحمة إذا نظرت إلىٰ المذنب ترحمه برحمة أن كان عدوك وعدوه إبليس متسلطا عليه ففاز به صار أسيرا هٰذا عند إبليس، فترحمه كما لو أسر أخ لك عند عدو فإنك ترحمه وتسعىٰ في خلاصه، كذلك من أذنب بمعصية أو إثم أو أتىٰ موبقة وسجن أو غير ذلك فإنه يرحم.

وما أحسن قول العلامة شمس الدين بن القيم في «نونيته» في وصف هٰذه الحال قال:

واجعل لقلبك مقلتين كلاهما ... من خشية الرَّحمٰن ناظرتان
لو شاء ربُّك كنتَ أيضا مثلهم ... فالقلبُ بين أصابع الرَّحمٰن

فالذي ينظر إلىٰ العاصي علىٰ أن هٰذا فيه وفيه وفيه ويتكبر عليه ويتعالىٰ بنفسه، لا، لا تكن كذلك؛ لأن القلب بين أصبعين من أصابع الرَّحمٰن، فالذي هداك هو الرَّحمٰن لم تهدي نفسك من الله عليك بذلك ووفقك وذلك أضله الله جل وعلا وأقام عليه الحجة ولكن ترحمه، لعل الله جل وعلا أن يرحمه، فيكون من المهتدين.

نحن بحاجة حقيقة إلىٰ أن يكون شيء كلمة موجهة للسجناء لعل الله جل وعلا أن من علينا وعليهم بالرحمة.

سؤال (١٢): نتمنىٰ أن يُعلن عن كل درس في الدرس الذي يسبقه؟

الجواب: نعلن عن ذلك إن شاء الله، وهٰذا بالنسبة للموضوعات العامة ربما لا يكون فيه وضوح وفائدة ظاهرة؛ لكن إذا كان فيه موضوع كتاب؛ يعني سنناقش في الدرس في الأسبوع القادم أسبوع من الأسابيع سنناقش في الدرس القادم كتاب كذا، حتىٰ يحضر وإذا قلنا في الصفحة الفلانية يكون الإخوة معهم الكتاب.

سؤال (١٣): يقترح طرح موضوع حول قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ [الرعد:١١]؟

الجواب: هٰذا موضوع مهم، جزاك الله خيرا.

سؤال (١٤): من المقترحات أن يتخلل هٰذه الدروس شيء من الرقائق: الوعظ، الموت، الدجال، ويوم يقوم الناس لرب العالمين، ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ ﴾[المزمل:٢٠]، ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ ﴾[النبأ:٤٠]، وجزاكم الله خيرا؟

الجواب: لاشك أن الوعظ جزء من الدعوة كما قال جل وعلا: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ [النحل:١٢٥]، فالوعظ مهم؛ لكن الوعظ درجات الناس فيه مختلفة، فهناك الواعظ الذي إذا وعظ أبكىٰ وهدىٰ الناس، وهناك من لا يحسن ذلك؛ بل يحسن درجة منه ربما لا يتأثر منها الجميع، لهٰذا بكل مجال رجال، وربما يكون من ذلك شيء بما يناسب لعل الله جل وعلا يعين وييسر.

سؤال (١٥): لماذا لا تكون أولىٰ الدروس عن المكتبة وكتب أهل العلم وآداب العالم والمتعلم

وطريقة القراءة ونحو ذلك؛ لأنها أقوىٰ في طلب العلم، وجزاكم الله خيرا؟

الجواب: في الواقع اختيار الدروس منوط بالإذن لها، فأحيانا يكون الدرس يقدم ويتأخر الإذن له من الجهات المختصة -وفق الله الجميع لكل خير-، ويكون الموضوع يتأخر إلىٰ حين، يكون الموضوع، يطرح ولابد من تقديمه والأخذ الموافقة عليه حتىٰ يعرض.

سؤال (١٦): هل ستكتب هٰذه الدروس وتطبع؟

الجواب: لا، لن تكتب ولن تطبع إلا أن يشاء الله، لأن هٰذه ما أريد أن أتكلم فيها بلغة العلم الواضحة؛ بل نريد أن نقرب فيها من الناس قليلا حتىٰ يكون التأثير أبلغ.

وبالتالي فإني لا أوافق علىٰ كتابتها ولا علىٰ طبعها إلا ربما أشياء يكون مناسب ذلك منها فهٰذا الله أعلم متىٰ يكون.

سؤال (١٧): يقترح وجود مكان للمعذورات من النساء؛ يعني المرأة التي لا يجوز لها أن تدخل المسجد؟

الجواب: هٰذا الاقتراح لإمام المسجد.

سؤال (١٨): ما رأيكم أن ينتهي الدرس قبل الأذان مباشرة وذلك ليتمكن من لديهم مساجد وارتباط ببض المساجد الأخرىٰ من أداء ما عليهم والله يحفظكم ويرعاكم؟

الجواب: هٰذا اقتراح جيد ونطبقه إن شاء الله، بحيث يكون الدرس لمدة ساعة أو ساعة إلا خمس دقائق وقبل الأذان بخمس دقائق أو ثلاث دقائق ننتهي إن شاء الله.

سؤال (١٩): فيما يخص إنكار المنكر، هناك منكرات ظاهرة كالربا مثلا كل الناس تعرفه فما رأيك في إنكار ذلك؟

الجواب أن هٰذا المنكر -الربا- لاشك أنه من الموبقات؛ يعني من الكبائر والنبي ﷺ لعن كاتب الربا وآكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، والله جل وعلا آذن من يرابي بحرب من الله ورسوله، وإنكاره إنكار الربا وإنكار غيره من المنكرات هو تطبيق لقوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**من رأىٰ منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**».

وفقه هٰذا الحديث:

أولا أنه قال: «**من رأىٰ منكم منكرا فليغيره**» والكلام متعلق بالمنكر وليس في الحديث ذكر لصاحب المنكر.

الثاني أنه قال: «**فليغيره بيده فإن لم يستطع**» لأن الناس منهم من هم أهل اليد، ومنهم من ليسوا من أهل اليد، وقوله: «**فمن لم يستطع**» يعني إذا لم يكن من أهل اليد أو كان وضعف فينتقل إلىٰ التغيير باللسان؛ تغيير المنكر، ولاحظ قوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**فليغيّره بيده**» فباليد تحصل الإزالة، نتكلم عن المنكرات بأنواعها.

مثلا رأيت في مكان شيئا محرما، فهٰذا تريد أن تنكره بيدك فتزيل ذلك، واضح أنه تم تغييره، فليغيره بيده فزال؛ لكن قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**فإن لم يستطع فبلسانه**» يعني فليغيره بلسانه، هل اللسان يُزيل؟ الجواب: أحيانا يزيل وأحيانا لا يزيل، فالشرع ما أناط الإنكار بالإزالة؛ ولكن أناط الإنكار بالتغيير، والتغيير يحصل باللسان، فمن أنكر بلسانه فقد غيّر، ولا يشترط في حصول الإنكار الزوال؛ بل هٰذه مرتبة قد تحصل وقد لا تحصل، ولهٰذا قال أيضا فإن لم يستطع فبقلبه؛ يعني فليغيره بقلبه، (**يغيره**) يعني يغير المنكر ذلك بقلبه لكراهته وعدم الرضا به وأن يفارق المجلس الذي هو فيه إن كان.

فإذن الحديث فيه ذِكرٌ للمنكر أنه ينكر.

ولهٰذا كانت السنة أنّ المنكر إذا أُنكر برؤيةٍ فإنه يتسلط الإنكار علىٰ الواقع فيه وعلىٰ المنكر إذا كانا متلازمين.

أما إذا كانا منفكين فإن إنكار المنكر يتوجه إلىٰ المنكر بنفسه، وأما الواقع فيه فهٰذا له حكم آخر إذا كانا منفكين.

مثاله من يحلق لحيته هٰذا منكر متلازم، المنكر مع الواقع فيه متلازمان، لا يمكن أن تنكر شيئا إلا بالإنكار علىٰ الواقع فيه.

غير المتلازم أن يكون هناك رجل -مثلا والعياذ بالله- أمامه صورة محرمة أو أمامه خمرة أو أمامه شيء محرم، فهنا إنكار المنكر يتوجه إلىٰ هٰذا المنكر، تنكره بيدك تزيله؛ -يعني هٰذا المنكر- بخطاب لصاحب المنكر تنكره بقلبك، أما الصنيع مع صاحب المنكر فإنه هنا لما انفك فيكون التوجه في الإنكار بالمنكر والمخاطب هو صاحب المنكر، وفرق بين هٰذا وبين ما إذا وُوجه صاحب المنكر بالإنكار.

إذن في الحديث لفظان مهمان:

الأول قوله: «**من رأى منكم منكرا**» فهو في المنكر وليس في الواقع فيه.

الثاني قوله: «**فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه**» فسمّىٰ اللسان مغيرا وذلك لا يقتضي الإزالة.

إذا تقرر ذلك فهدي السلف الصالح في فهمهم لأحاديث الإنكار ولطرق الإنكار أن الإنكار يجب أن يكون مع توافر شروطه، ومثل الربا الموجود في البنوك وفي غيرها عند بعض التجار.

فهٰذا وغيره من الكبائر أو من المعاصي يجب علىٰ أهل العلم وعلىٰ طلبة العلم أن يكون لهم فيها طريقتان -أعني طريقين-:

الأول من جهة تحذير من هٰذا المنكر وبيان أنه محرم ومنكر إلىٰ آخر ذلك وأن هٰذا لا يجوز، ويغلظ العبارة في ذاك في بيان كلام الله جل وعلا وكلام رسوله وكلام أهل العلم في ذلك، حتىٰ يتضح للناس أن هٰذا حرام.

والطريقة الثانية معالجة الأمر علىٰ القنوات الرسمية المعروفة، عن طريق الهيئات، عن طريق أهل العلم، عن طريق أمراء المنطقة، عن طريق المسؤولين بالنصح المشروع.

فهٰذه شيء وهٰذه شيء، فالطريقة السلفية في الإنكار أن يستعمل هٰذا وهٰذا، طريق في النصيحة هٰذا لا يعلم يكون سريا، وطريق في الإنكار يشتد فيه المرء علىٰ المنكر الموجود دون نظر إلىٰ الواقع فيه.

ولهٰذا قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ في قصة حديث بريرة لما جاءته وأخبرته أنهم اشترطوا لهم الولاء فقال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ خطب الناس وقال: «**ما بال رجال يشترطون شروطا ليست في كتاب الله كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط**»، قال أهل العلم: هٰذا فيه دليل علىٰ أنّ الواقع في المنكر لا يذكر، وإنما يذكر المنكر والذي اشترط شروطا ليست في كتاب الله هٰذا باطل، والنبي ﷺ نهىٰ عن ذلك وبينه وقال: «**وكل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل**» ولكن من الذي وقع فيه وهو يعلم ذلك أخبرته به عائشة لما أرادت أن تشتري بريرة وأن تعتقها ولكنهم اشترطوا لهم الولاء، فلم يذكر من وقع في هٰذا الشرط الباطل، المخالف للقرآن؛ ولكنه ذكر المخالفة.

فإذن ثم انفصال بين هذين الأمرين وهو أن ينكر المنكر بدون النظر إلىٰ واقعه هٰذا في حالة المنكرات العامة المنتشرة، مثل انتشار مثلا الربا انتشار في بعض الأماكن مثلا أنواع من الفساد، في بعض أنواع

الظلم ونحو ذلك، فهٰذا يعالج بطريقة عامة في إنكار هٰذه المنكرات، ومن جهة التخصيص وتعيين الفاعل إلىٰ آخر ذلك، فهٰذا يواجه بنصيحة خاصة، هٰذا هو هدي السلف في معالجة ذلك.

ولو تأمل المتأمل منكم طريقة سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله، وطريقة مشايخه من قبله مفتي الديار السعودية محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ لوجدوا أنهم تسلسلوا علىٰ هٰذه الطريقة بأنها هٰذه هي الطريقة السلفية المرعية.

سؤال (٢٠): بما أن الحج قريب فلماذا لا يطرح موضوع عن الحج؟

الجواب: في الواقع الموضوعات المتعلقة بالحج هٰذه لا تَختص بمثل هٰذه الدروس العامة، فلهٰذا لها مجالاتها محاضرات مستقلة أو نحو ذلك.

سؤال (٢١): حبذا لو يكون هناك دروس أو تأملات في آيات أو أحاديث معينة وربط ذلك بالواقع الذي نعيشه؟

الجواب: نقول: يكون ذلك إن شاء الله تعالىٰ.

نكتفي بهٰذا القدر، نسأل الله جل وعلا العفو والعافية. وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد

محاضرات (٢/ ٣٠-٣١)

طالب العلم
والاعتناء بالسنة والحديث

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين، وأشهد أنّ محمدا عبد الله ورسوله هو الصّادق الأمين، وصلّىٰ الله وسلم وبارك عليه كلما صلىٰ عليه المصلون وكلما غفل عن الصلاة عليه الغافلون.

أما بعد..

فأسأل الله -جل وعلا- أن يجعلني وإياكم ممن استعملهم فيما يحب ويرضىٰ، وبارك لهم في أقوالهم وأعمالهم، ومنحهم التوفيق في حركاتهم وسكناتهم، إنه سبحانه جواد كريم، وغفور رحيم، وهو علىٰ كل شيء قدير، جل جلاله وتقدست أسماؤه وعلت صفاته.

ثم إننا في هٰذا الدرس الذي نستقبل به دروس هٰذا الفصل الثاني من عام ١٤٢٠ من هجرة المصطفىٰ ﷺ، ونسأل الله -جل وعلا- أن يجعلنا فيه ممن طلب العلم له وبذلوه له وجلسوا متعلمين عالمين أنّ الأجر والفضل ورفعة المنزلة إنما هي في تعلّم ما قال الله وقال رسوله وما قرّره أئمة أهل العلم من أهل السّنّة والجماعة.

وكما اعتدنا في مقدّمة الدروس أن يكون هناك درس منهجي أو في توجيه طلاب العلم وما يحتاجون إليه في العلم بعامة أو في بعض العلوم بخاصة.

وقد ذكرنا في هٰذه الدّروس المنهجية كثيرا مما يحتاجه طلاب العلم في العلوم المختلفة كالعقيدة والتفسير وعلوم الآلة والعلوم الصناعية وأشياء كثيرة، وكتب الفقه، وكتب الحديث، وما يتصل بالمقدمات اللغوية، والمقدمات لفهم التفسير وبالاستدلال بالقرآن وبمنهجية الطلب بشكل عام، وذكرنا أشياء في ذلك نرجو أن تكون مفيدة لقائلها ولسامعها إن شاء الله تعالىٰ.

ومما يجدر التنبيه عليه والاهتمام به من كل طالب علم **الاعتناء بالسّنة والحديث**؛ لأنّ السّنة والحديث هي أصل العلوم؛ لأنّها هي قال رسول الله ﷺ، والنبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بين للناس الدين في حياته بأقواله وأفعاله.

فحقيقة رسالة النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- هي إيداع سنته في الناس وبيان ما أمره الله -جل وعلا- بإبلاغه قولا وعملا.

ولهٰذا كان أعظم ما يعتني به طالب العلم بعد العناية بالقرآن أن يعلم سنة النبي ﷺ العلمية والعملية بما فيها العقائد والأحكام وعلوم القرآن والتّفسير والآداب والأخلاق والسلوك إلىٰ آخر ذلك من أنواع وموضوعات السّنّة.

فالاهتمام بالحديث وبالسنة مما يكون معه طالب العلم قويًّا في ملكته متّصلا علىٰ الحقيقة بميراث الرسول ﷺ ؛ لأن النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ- إنما ورَّث أمته العلم، والله -جل وعلا- أمرنا في كتابه في أكثر من ثلاثين موضعا بطاعة الرسول ﷺ.

الطاعة هنا:

- في الأخبار باعتقادها واعتقاد ما دلّت عليه.
- وفي الأحكام والأوامر بامتثالها بحسب الاستطاعة والانتهاء عما نهىٰ الله -جل وعلا- عنه والاستغفار عن التقصير.

وهٰذا مع غيره إنما يُعلم بالسنة وبالحديث.

ولهٰذا كان العلم في زمن السلف؛ زمن الصحابة -رضوان الله عليهم- وفي زمن التابعين وتبع التابعين كان العلم إما أن يكون آية محكمة أو سنة ماضية، هٰذا هو العلم، والصحابة اجتهدوا؛ ثم بعد ذلك صار إضافة إلىٰ الكتاب والسنة هناك هدي الصحابة واجتهاد الصحابة وما قاله الصحابة في النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ.

ولهٰذا قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ:

العلـــم قـــال الله قـــال رســـوله	قـــال الصـــحابة لـــيس خُلـــفٌ فيـــه
مـــا العلـــم نصـــبك للخـــلاف ســـفاهة	بـــين الرســـول وبـــين رأي فقيـــه

أو كما قال أيضا ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «النونية»:

العلـــم قـــال الله قـــال رســـوله	قـــال الصـــحابة هـــم أولـــو العرفـــان
مـــا العلـــم نصـــبك للخـــلاف ســـفاهة	بـــين الرســـول وبـــين رأي فـــلان

وهٰذا يشمل الخلاف في رد السنة لخلاف أحد المتكلمين في العقائد وهو أعظم الاختلاف الذي ردت فيه السنة ولا يعذر فيه أحد.

ثم بعد ذلك يأتي الخلاف الذي حصل بين الصحابة في المسائل العلمية والفقهية وفي تفسير القرآن إلىٰ

آخر ما هنالك من خلاف في ذلك.

فصار المُتميِّز عند السّلف هو الذي يعلم الكتاب والسنة أكثر، فمن زاد علمه بكتاب الله -جل وعلا- وبالسنة سنة النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ- كان هو الأعلم وهو الأفقه.

ولهٰذا ذكروا في الموازنة ما بين مثلا بين إبراهيم النخعي وبين عامر بن شراحيل الشعبي وهما فقيهان معروفان، أحدهما كان في الكوفة والآخر كان في البصرة، كانوا يقدمون الشعبي لما كان عليه من السنة والعلم بما قال النبي ﷺ، وقلّت مخالفته للصواب لأجل كثرة اتباعه للدليل وسماعه له، وكثرة معرفته بالأخبار وبالسنن وكثرة ما روىٰ منها ذهب طائفة من أهل العلم يقدمون ما يقول أو ما يفتي به علىٰ غيره.

وهٰذا هو المعروف في هدي السلف فإنه إذا زاد العلم بسنة النبي ﷺ التي: منها تفسير القرآن، ومنها تقرير التوحيد والعقائد، ومنها الفقه، ومنها الآداب، ومنها هدي النبي ﷺ في تعامله مع المشركين ومع المخالفين ومع صحابته، إذا زاد علمه في هٰذا كان أعلم وأفقه وكان أحرىٰ بالصواب.

وهٰذا يعني أنّ هدي السلف الصالح في العلم والتعلم هو الاهتمام بالسنة -سنة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والأحاديث-.

ثم يسّر الله الأمر بأن صُنفت كتب الحديث كان من أوائل ما صنف في ذلك «الموطأ» للإمام دار الهجرة مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ، فصنف «الموطأ» وهو علىٰ اختصاره فيه من العلم الشيء الكثير جدا، حتىٰ قال طائفة من أهل العلم: ليس بعد كتاب الله أصح من موطأ مالك بن أنس، وذلك لأجل أنه كان قبل كتاب البخاري ومسلم.

ثم لما تتابع أهل العلم في التأليف في الحديث وفي كتابة السنن تنوعت ما بين صحاح ومسانيد ومعاجم وأجزاء حديثية وأنواع كثيرة من التآليف معروفة عند المتتبِّعين لها.

وكان من أجلّ ما كتب أهل العلم الكتب السِّتة المشهورة: كتاب البخاري أبي عبد الله، وكتاب مسلم بن الحجاج، وكتاب أبي داود السخستاني السنن، وجامع أبي عيسىٰ الترمذي، وسنن المجتنىٰ والمجتبىٰ للنسائي، والسنن للحافظ ابن ماجه رحمهم الله تعالىٰ.

وهٰذه المصنفة علىٰ الأبواب وعلىٰ الموضوعات.

وأما المسانيد فأعظمها مما هو بين أيدينا مسند إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن عبد الله بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الذي كتب وصنف مسنده علىٰ مسند العشرة ثم مسند المهاجرين ثم مسند

الأنصار ومسند المكيين والمدنيين والشاميين إلىٰ آخر ذلك ثم مسند النساء في آخره.

وهٰذه الكتب لم يزل أهل العلم يعتنون بها جدا الكتب الستة مع مسند الإمام أحمد ومع الموطأ.

والعلم بالسنة هٰذا من أهم ما يعتني به طالب العلم، والاهتمام بالعلم بحديث النبي ﷺ يقوىٰ به الإنسان في طلب العلم يقوىٰ فيه الملكة في العلم ويقوىٰ فيه الحفظ وتقوىٰ فيه الدراية في الفقه والفهم، ويحصل له خير كثير في السلوك وفي معرفة الهدي والسنن، في أموره كلها، ليس في أمر اللباس فقط أو في بعض السنن؛ ولكن في جميع أموره في بيته وفي لفظه وفي حواره وفي تعامله وفيما يأتي وفيما يذر وفي حسن خلقه، فسنة النبي ﷺ أبوابها واسعة.

وإذا كان كذلك، فإن العناية في علم الحديث لم يزل أهل العلم يوصون بها ويهتمون بها، فطلاب العلم بحاجة كبيرة جدا إلىٰ العناية بهٰذا العلم، فالعناية به هو موضوع هٰذه الكلمة وهٰذا الدرس، ويمكن أن نجعله في عدة نقاط أو موضوعات.

الموضوع الأول

أما الأول فهو: أن علم الحديث قسمه العلماء إلىٰ علم رواية وإلىٰ علم دراية:

☚ **وعلم الرواية** قصدوا به نقل الحديث بالإسناد، فقد كان الصحابة وكان التابعون في غالب أحوالهم يذكرون سندهم في السنة والحديث منهم إلىٰ النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ-، وربما لم يذكروا السّند وإنما قالوا: قال النبي ﷺ، وكانوا إذا نشطوا أسندوا وإذا تقاصروا لم يسندوا وأرسلوا.

والرواية يعنىٰ بها نقل الحديث بالإسناد؛ بالسّماع، فيسمع يتحرىٰ أن يسمع من المشايخ علم الحديث، يتحرىٰ أن يسمع من المشايخ الأحاديث فينقلها ويرويها ويكتب عنده ما سمع، أو يكون عند الشيخ الذي سمع منه يكون عنده أجزاء أو كتب فيأخذه إجازة ويقرأ عليه، فيكون عنده سماع في ذلك ثم يرويه كما سمعه.

ولأجل هٰذه الرواية التي جاء فيها من الفضل لقول النبي ﷺ: «**نضَّر الله امرءا سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها فرُبّ مبلَّغ أوعىٰ من سامع**»، وهٰذا الدعاء العظيم منه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ- قوله: (**نضر الله امرءا**) يعني جعل وجهه في نضرة وهي نضرة النعيم دعاء له بالجنة.

وأعظم من جاهد في العلم في الحقيقة هم أهل الحديث برواياتها، وكانوا يرحلون في الأمصار ويطلبون حديثا واحدا في رحلة طويلة، قد رحل بعض الصحابة -رضوان الله عليهم- لأجل حديث، رحل بعضهم

من مصر إلىٰ المدينة ومن بغداد إلىٰ الكوفة، وبعضهم من الشّام إلىٰ مصر من أجل حديث واحد؛ كما رحل أحد الصّحابة في سماع حديث «**من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة**» جاء يطلب هٰذا الحديث حتىٰ يرويه ويبقىٰ، فحِرص الصحابة علىٰ السماع ومن بعدهم علىٰ السماع حتىٰ تكوّنت الرواية.

وهٰذه الرواية بقيت منقولة بـ(حدّثنا) و(أخبرنا) و(أنبأنا) و(عن) حتىٰ زمن التصنيف، ثم انتقلت الرواية من هٰذا الزمن إلىٰ زمن التصنيف فصار لا يُنقل السماع المفصل لأحاديث مجموعة وإنما ينقل سماع الكتب، فنقل مثلا مصنفات ابن أبي أعروبة نقلت سماعا، ونقل موطأ مالك سماعا ونقل مثلا جامع ابن وهب سماعا ونقل جامع فلان سماعا ومصنف عبد الرزاق ومصنف ابن أبي شيبة وهكذا الكتب الستة وهكذا المعاجم والمسانيد والأجزاء نقلت بالسماع، فصارت بدل أن تكون مجموعة كما كانت في القرن الأول والثاني يذهب العالم وطالب علم الحديث يذهب يجمع من هٰذا البلد ومن هٰذا البلد ومن هٰذا البلد ثم ينسقها، صار الأمر مدونا في الكتب وصارت أسهل، فنُقلت بالسماع.

ظلت الرواية بعد ذلك للكتب سواء منها كتب الحديث أو كتب التفسير، وهناك أيضا رواية للكتب جميعا حتىٰ كتب اللغة وأي كتاب إنما ينقل بالرواية ظلت هكذا عدة قرون، ثم تُرك قراءة الكتب وقراءة الكتب بالقراءة والمطالعة؛ يعني بأن يقرأ الكتاب علىٰ شيخه ثم يجيزه به بقراءته له من أوله إلىٰ آخره، صار الأمر في أواخر القرن السادس ثم السابع إلىٰ إجازة وما قبلها؛ لكن كثرت في القرن السادس والسابع إلىٰ إجازة مجملة للحافظ لأن يُقرأ؛ ثم يحضر من يحضر للختم ويجيز الحاضرين بكل ما رواه.

فكثرة الإجازات، وهٰذه تسمىٰ الرواية، والإجازات باقية في الأمة إلىٰ وقتنا هٰذا ويعتني بها طائفة من الناس وهم طلبة العلم يعتنون بهٰذه الإجازات بقاءً لهٰذه السنة والمحافظة علىٰ الرواية سواء أكانت رواية للكتب أم كانت رواية للأحاديث وهي نادرة يعني الأحاديث بدون كتب وهي نادرة، وغالبا ما يُسمع المجاب أول حديث وهو الحديث الذي لُقِّب بالحديث المسلسل بالأولية وهو حديث «**الراحمون يرحمهم الرحمٰن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**» وهٰذا يسمىٰ المسلسل بالأولية لأنه كان أول حديث يسمعه الطالب من شيخه من أواخر القرن الثاني ثم الثالث إلىٰ زماننا الحاضر.

هٰذا الصنف الأول يسمىٰ بالرواية.

والرواية طالب العلم معها له أحوال:

الحال الأولىٰ لطالب علم الحديث اهتمامه بالرواية: أن يكون عارفا بكيفية الرواية، كيفية الرواية بالتلقي، كيف يُنقل الحديث وصيغ التحديث؟ وكيف يبتدئ المحدث بالحديث سابقا؟ وكيف كُتبت الكتب وروايات الكتب واختلاف هـٰذه الروايات المنقولة؟ والأحاديث كيف نقلت بالرواية بالزيادة وبالنقصان؟ وما يتعلق بالرواية التي هي نقلا وليس بحثا بالاتصال وعدمه لأن هـٰذا القسم الثاني، كيف تكون الإجازات وأنواع الإجازات؟ من المهتم؟ من هو مثلا البخاري؟ من رواة مسلم؟ من رواة سنن أبي داود؟ من الذي روىٰ «المسند»؟ ما حال «المسند» من جهة الرواية؟ وأشباه ذلك، ليعرف كيف رُويت هـٰذه؛ لأنّ طالب العلم لابد له من هـٰذه المعرفة إذا أراد التمكن؛ لأنه يحصل له بذلك فهم لكلام العلماء في مسائل كثيرة في الترجيح وفي النظر وفيما يُجيبون به عن الشبهات والأقوال المختلفة.

كان طائفة من أهل العلم لا يهتمون كثيرا بالرِّواية في العصور المتأخِّرة؛ لأنها أصبحت للنقل لا للحفظ، وإنما يحرص الطالب علىٰ الإجازات وعلىٰ كثرة السماع ويرحل من بلد إلىٰ بلد لتحصيل كثرة المشايخ وكثرة من سمع منهم وأجازوه، وهـٰذا صار فيه [قُصور] في المقصود من الرواية وهو حفظ السنة إلىٰ أن يكون المقصود من الرواية هو التكاثر كما حصل في الأعصر المتأخرة، ولهـٰذا امتنع كثير من العلماء عن الإملاء وامتنعوا عن تلاوة الأحاديث بإسنادها منهم إلىٰ النبي ﷺ لأنه يكون بينهم عشرة خمسة عشر نفس وقل ذلك في الأعصر المتأخرة لأجل كثرة الإجازات.

فامتنع طائفة من كثرة السماع وتتبعه كالحافظ ابن كثير مثلا وانشغلوا بغيره، لهـٰذا الحافظ ابن حجر لما ذكر ابن كثير في «الدرر الكامنة» ما حاصل كلامه قال: لم يكن له همة في تحصيل الأسانيد والإجازات كعادة أهل الحديث.

أما في زماننا الحاضر فثمَّ من طلاب العلم ومن المشتغلين بتحصيل الأسانيد من بَالغ في تحصيل الإجازات، وصارت شغله الشاغل وهمَّه الذي يفكر فيه دائما.

وهـٰذا في الواقع ليس مقصودًا لأن تحصيل الإجازات والأسانيد وبقاء الرواية هـٰذا مطلوب لأجل الحفاظ علىٰ هـٰذه السنة وعلىٰ هدي أهل العلم في ذلك؛ لكن هو مقصود لغيره، المقصود هو الفقه في الدين لأن الله -جل وعلا- أثنىٰ علىٰ من يتفقه في الدين، أما مجرد تحصيل هـٰذه الإجازات دون علم بما فيها، فهـٰذا ليس مطلوبًا؛ بل ليس مرغوبا فيه.

فوُجد من عنده إجازات عالية وأسانيد في بعض الأمصار وليس من أهل الاستقامة أصلا؛ عنده مثلا كبائر من الذنوب، وعنده موبقات، وعنده أشياء ليست بحسنة، وبعضهم ليس علىٰ طريقة أهل الحديث في سلوكه، وبعضهم علىٰ عقائد باطلة، وغلاة في التّصوف مثلا، أو في المذاهب البدعية في العقائد كالأشعرية وغيرها، وبعض المنتسبين أيضا لعلم الحديث بالغوا في ذلك حتىٰ صاروا يجمّعون هٰذه الروايات من هاهنا وهاهنا هٰذا ليس مقصودا في ذاته، وإنما إذا حصل هٰذا شيء طيب ويحرص عليه طالب العلم، لكن إذا لم يحصل إلا بتعب فليس هو المقصود.

والناس اليوم بحاجة إلىٰ تعليم العلم النّافع، نعم لابد من بقاء سلسلة الإسناد وبقاء الرواية؛ لكن أن تكون هي الشغل الشاغل، فهٰذا خلاف الأصل والمقصود من الرواية وطلب علم الحديث.

مما يدخل في بحث الرواية أيضا معرفة؛ عند بعض العلماء يدخل في الرواية معرفة طبقات الرجال والحفاظ ورواة الأحاديث حتىٰ يميز في الرواية ما بين السّماع وصحته يعني في طريقة الأداء واللُّقي وأشباه ذلك، لكن هي تدخل في القسم الثاني وهو الدراية الذي سيأتي بيانه.

مما يتصل بالرواية أن كثيرا من كتب أهل العلم التي طُبعت وخاصة الكتب الستة والمسند ونحوها لم تطبع علىٰ رواية واحدة معروفة، هناك ما طبع علىٰ رواية؛ لكن الأكثر أنها طبعت علىٰ نسخ خطية؛ لكن ليست علىٰ رواية معروفة، بأن يقال مثلا في البخاري هٰذا طريق أبي الوقت نسخة أبي الوقت، مثلا هٰذه نسخة الكشميهني، هٰذه رواية الفربري عن البخاري، هٰذه رواية ابن شاكر عن البخاري وهي غير موجودة، أو في سنن أبي داود يقال: هٰذا من أولها إلىٰ آخرها هي رواية اللؤلئي أو رواية ابن الأعرابي يَدخلها أشياء ليست من الرواية.

لذلك كثر الغلط عند الذين يعتنون بتخريج الأحاديث، اليوم تحقيق الكتب في أنهم جعلوا هٰذه الكتب المطبوعة معتمدة في التخريج ويتعقّبون العلماء الأوائل إذا نسبوا حديثا وعزوه إلىٰ السنن أو إلىٰ الصحيح أو ما شابه ذلك، يعتمدون علىٰ ما بين أيديهم من الكتب في نفي أو إثبات كلام العلماء السّالفين، وهٰذا غلط جرّهم إليه عدم المعرفة بالرّوايات، ورواية الكتب وكيف طبعت هٰذه الكتب والنسخ وكيف تُعتمد النسخة الخطية من غير النسخة المعتمدة.

ولقد أحسن كثيرا –مثلا- الحافظ الزيلعي في «نصب الراية» حينما تكلم في عدد من المواضع علىٰ أحاديث نسبت مثلا لسنن ابن ماجه –وسنن ابن ماجه بالذات فيها اختلاف تقديم وتأخير- هو لا يقول

هو ليس في السنن إنما يقول: ليس في نسختنا من السّنن.

لهٰذا بعض العلماء المعاصرين المدققين يقول مثلا: لم أره في الطبعة كذا من «سنن أبي داود»، لم أره في طبعة البخاري الموجودة مع فتح الباري الطبعة السلفية، أو راجعت مواضع كذا وكذا ولم أره. ومن غير هدي المتحققين بالعلم والعالمين بمنزلة أهل الحديث السّالفين والعلماء والأئمة الحفاظ من غير اللائق بأهل العصر أن يقول: غلِط فلان ووهم فلان، ويغلطونهم وهو الروايات لا يعرفها معنىٰ روايات الكتب -كتب الحديث- وما فيها من الاختلاف.

هٰذه كلّها في النقطة الأولىٰ الموضوع الأول.

☚ القسم الثاني من علم الحديث **علم الدِّراية** وهٰذا التقسيم للمتأخرين أن علم الحديث ينقسم إلىٰ علم رواية ودراية، والدراية اختلف فيها أهل العلم علىٰ قولين:

الأول أن الدراية يقصد بها دراية رواية الحديث من حيث صحة السند أو عدم الصحة ومنزلة الرجال من الثقة وعدم الثقة، فترجع الدراية إلىٰ دراية التخريج والحكم علىٰ الأحاديث.

وقال آخرون: الدراية إنما هي دراية بالمتن لا بالسند؛ يعني بفقه الحديث وبما يحمله من العلم.

والأظهر في ذلك أن كلمة الدراية من حيث إنها راجعة إلىٰ دَرَىٰ، يدري، وأنها لفظ مصطلح -والاصطلاح لا مشاحة فيه- الأظهر أنها تشمل الأمرين لأنه هناك دراية في السند وهناك دراية في للمتن ودراية في السند بتصحيحه ومعرفة رجاله، ودراية المتن بالفقه فيه.

وهٰذه الدراية هي التي تنافس فيها العلماء وتميز فيها الأئمة وأهل العلم بالحديث عن أهل السماع والنقل، فأهل المرتبة الأولىٰ هؤلاء قد لا يكون عندهم فقه وقد لا يكون عندهم علم وإنما هم نقلة وقد أدوا ما سمعوا، ونسأل الله -جل وعلا- لهم نضرة في وجوههم ودخولهم في دعاء النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

أما الدراية فهٰذه تشمل دراية الأحاديث المروية صحة وضعفا، ومنزلة الرجال، وطبقات الرجال، كلام أئمة أهل الجرح والتعديل وما يتّصل بذلك من المباحث مما سيأتي تفصيله، ودراية المتن بمعرفة فقهه وتفصيلات العلماء في ذلك.

وهاتان المسألتان يأتي الكلام عليهما فيما نستقبل إن شاء الله تعالىٰ.

الموضوع الثاني

هو موضوع رجال الحديث، وهو جزء من الدِّراية التي ذكرنا -دراية الرواة-، دراية الحديث تشمل دراية الرواة، ودراية الإسناد من حيث الاتصال وعدمه، ودراية الحديث من حيث الصحة والضعف.

أما الرجال فعلم الحديث في معرفة الرجال علم طويل وصعب، وكان العلماء سابقا يستصعبون البحث في الرجال ومعرفة رجال الحديث، وقليل منهم من يحسن ذلك؛ وذلك لأن المسألة ليست مقتصرة علىٰ تحصيل كتب الجرح والتعديل كـ«الكمال» و«تهذيبه» و«تهذيب التهذيب» والسلسلة هـٰذه، أو «التاريخ الكبير» و«الجرح والتعديل» وما شابه ذلك من الكتب، و«الضعفاء» للعقيلي، و«الكامل» لابن عدي، وسلاسل طبقات الحفاظ إلىٰ آخره، فتحصيل هـٰذه الكتب ليس كافيا في أن يكون طالب العلم عارفا بالرجال.

وعلم الرجال مهم لكن لا يمكن لكل أحد أن يبرز فيه، لذلك هناك قدر يحتاجه طالب العلم لمعرفة الرجال، وهو أن يعلم أسانيد العلماء علماء الحديث وحفاظ الحديث في كل طبقة من الطبقات.

وهـٰذه ييسرها له مثل كتاب طبقات الحفاظ للحافظ شمس الدين الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، أو مشاهير علماء الأمصار لابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

يعلم في كل طبقة المشاهير، لا يعرف -مثلا- عشرة آلاف راوي، لا، لكن في كل طبقة يعلم المشاهير. يعني -مثلا- يركّز علىٰ الصحابة المشهورين الذين رووا الحديث أسماؤهم دائما تأتي علىٰ الذهن من كثرة ما يسمع، مثل أبي هريرة عبد الرَّحمٰن بن صخر الدوسي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومثل عائشة ومثل الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم أجمعين، ومثل جابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت والعشرة المبشرين، وثَم كثير من الصحابة لكنهم ليسوا كثيرين جدا، ليسوا بالمئات إنما قد يبلغ عددهم ثلاثين من المشهورين بالرواية والبقية تكون رواياتهم أقل.

هؤلاء يعرف طالب العلم من حيث الزمن يعرف أين كانوا في أي بلد، يعرف تلامذة الصحابي هـٰذا الذي نقلوا عنه الحديث.

فستجد مثلا أن الرواة عن أبي هريرة محصورون -يعني المشاهير منهم- أربعة أو خمسة أكثر الأحاديث عليهم.

ثم تجد أن الرواة عن ابن عمر عشرة أو إحدىٰ عشر، المشهور منهم أيضا، هؤلاء مشهورون وفيه بقية كثيرة رووا.

لكن تجد أن المسألة من حيث علم الجرح والتعديل والرواة وطبقات الرواة تؤول إليه إلىٰ أنك عرفت شيئا، وهٰذا الشّيء الذي تعرفه هو الذي ستجده متداولاً كثيرا في كتب أهل العلم، تجده متداولا كثيرا في التفسير وفي شروح الأحاديث إلىٰ آخره.

وهٰذا لا يتطلَّب منك جهدا كبيرا إنما هو لبضعة أشهر فممكن خمسة ستة أشهر إلىٰ سنة وتعرف هٰذا بتفاصيله؛ يعني هٰذا من يرو عنه وهٰذا لم يرو عنه وكان في أي بلد، المهم تعرف انتقال الأسانيد والرواة ومتىٰ كان الحديث مدنيا ثم كيف صار شاميا، ثم كيف صار مصريا، ثم كيف صار مثلا كوفيا إلىٰ آخره، هٰذه لها فوائد كثيرة في فهم كلام العلماء وتحرير المسائل والدِّقة في النظر.

وهكذا في التّابعين وتبع التابعين، ثم الحُفّاظ الذين تدور الأحاديث عليهم، كثير من الأحاديث تجد أنها تدور علىٰ هٰذا الزهري وأصحاب الزهري، مثلا الشعبي، وإبراهيم النخعي وأصحابه، مثلا أبي إسحاق السَّبيعي ومن معه، الأعمش وأشباه هؤلاء، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، ومالك وأصحاب مالك، وأشباه هؤلاء؛ يعني تجد أنها محصورة المشهورين أو الحفاظ تجد أنهم ليسوا بالكثير.

ثم بعد ذلك إذا انتقلت إلىٰ الفئة الذين كتبوا وصنفوا يكون الأمر أسهل عليك لكثرة تداول أسمائهم، وأشباه ذلك.

القسم الثاني في معرفة الرِّواية أو يعني في الرجال: أن تعلم من الرِّجال من هم الذين من الحفاظ وأئمة الحديث الذين تكلَّموا في الرجال، هٰذا من الدِّراية، من هم الذين جرحوا وعدّلوا؟ من هم الذين تدور أسماؤهم في أن يقال: قال: فلان هٰذا ثقة؟ أئمة الجرح والتعديل من هم؟

هؤلاء أسماؤهم محصورة ومعروفة وهم طبقات: منهم المتشدد، منهم المتساهل، ومنهم المعتدل.

فمنهم المتشدد الذي يقدح ويطعن في الراوي لأدنىٰ مخالفة عنده أو أدنىٰ غلط.

ومنهم المتساهل الذي يوثق من ليس بثقة أو بحسب ما رأىٰ بدون سبر أحاديثه والنظر ويوثق المجاهيل أو ما أشبه ذلك.

ومنهم متوسِّطون معتدلون يأخذون بالنظرة الشمولية للراوي ويسبرون أحاديثه ولا يكتفون بالقليل.

طبقات الرواة هٰذه ثلاثة، منهم المتشدد، منهم المتساهل، ومنهم المتوسط، وهٰذه ذكرها السخاوي في جزئه المعروف وذكر أمثلة لهم، وهؤلاء تعرفهم في كتب الجرح والتعديل .

ومن المهم أن تعلم أيضا مكان العالم، في أيِّ بلد؟

مثلا واحد من أهل المدينة قدح في أحد علماء الشام، أحد الرواة في الشام، وأحد أئمة الجرح والتعديل في الشام وثّقه، القريب منه أوثق، القريب منه أعرف؛ لأن هـٰذا ربما يكون بنىٰ علىٰ أشياء، يكون هنا عندك معرفة البلدان تكون معرفة لماذا، أوش الذي يرجح من أقوال أئمة الجرح والتعديل؟

لأن الحاصل في كثير من صنيع الذين يعلّقون علىٰ الكتب الآن أنه يشوف حسب الأشهر، هـٰذا قال فيه ثقة وهـٰذا قال فيه صدوق.

حتىٰ بعضهم قال يجمع العدد عدد الذي وثقه وعدد الذي ضعفه ونشوف الأكثر.

هـٰذه قضايا ما هي قضايا انتخاب ولا قضايا من الأكثر، هـٰذا علم لابد له من أصول.

مثلا أهل الكوفة يوثقون أحد رواة الكوفة، ويأتي واحد من مصر ويضعفه، هل يقبل كلامه؟ ويأتي ويقول: الجرح مقدم علىٰ التعديل!! ليس الأمر كذلك.

إذن فمسألة أقوال أئمة الجرح والتعديل والقول الذي يؤخذ به وما لا يؤخذ به، هـٰذه مسألة عظيمة تحتاج إلىٰ نظر من الأئمة وأهل العلم بالحديث وليس كل أحد يستطيع ذلك.

لكن طالب العلم من أمثالنا يكفي يعرف طبقات أئمة الجرح والتعديل، في أي بلد كانوا، ومن هو المتشدد منهم والمتساهل والمتوسط، يكون عنده خلفية بحيث إذا صار عنده قراءة شرح من شروح الأحاديث أو أراد ترجمة من تراجم الرجال يعرف الكلام الذي يدور ماذا يُعنىٰ به وكيف ينزله منزلته.

الموضوع الثالث

وهـٰذه الموضوعات يطول الكلام عنها جدا.

لكن الموضوع الثالث موضوع تصحيح الأحاديث وتضعيفها وهي داخلة في الدراية فيما ذكرنا لكم.

وهـٰذه مما اعتنىٰ بها الصحابة والتابعون واعتنىٰ بها أئمة أهل العلم والحديث، وكان الحفظ وكتابة الأجزاء والمقابلة والمقارنة والسبر والاعتبار وجمع الشواهد ليُعرف الأحاديث الصحيحة من غيرها.

الأحاديث الصحيحة في معرفتها لاشك أنها راجعة إلىٰ تحقّق شروط الحديث الصحيح.

والحديث الصحيح عرفه طائفة من المتأخرين بأنه: **ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله إلىٰ منتهاه، وكان خاليا من الشذوذ والعلة.**

وهـٰذا في الجملة تعريف لا بأس به ويستقيم في الجملة.

معرفة الحديث الصحيح تكون مبنية علىٰ معرفة السّند والثقة والعدالة والخلو من الشذوذ والعلة إلىٰ

آخره.

وهٰذه المسائل لاشكّ أنها راجعة إلىٰ الاجتهاد؛ لأنّ معرفة أنّ هـٰذا عدل وضابط هـٰذه يختلف فيها العلماء، هٰذا يقول: فلان ثقة وهٰذا يقول: فلان صدوق، من الذي يرجح؟ مسلم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ- عند أكثر العلماء ثقة وإمام وعند بعض أهل عصره صدوق، بعض أهل العلم إمام ثقة وعند غيره يكون ثقة ربما أخطأ عنده أغلاط، بعضهم كان ثقة لكن ربما كان يغرب ويخطئ في بعض الأحاديث إذا كان في بلد من البلدان.

فإذن المسألة راجعة إلىٰ الاجتهاد؛ مثل مثلا معمر إمام معروف وعالم وهو شيخ عبد الرزاق الذي يروي عنه في الطريق المعروف طريق الصحيفة الصادقة صحيفة أبي هريرة، وكانت الأحاديث التي يرويها في كل البلدان صحيحة، إلا إذا روىٰ في البصرة، ما رواه في البصرة فيه نظر، عالم جليل يروح للبصرة يتلخبط، بعض العلماء يأتي يقول: هـٰذا عالم ثقة يصحح حديثه؛ لكن المدققون من أهل العلم ينظرون؛ هل هـٰذا مما يُعل أو لا يعل؟ هل روايته هـٰذه مقبولة أو ليست مقبولة؟ بعضهم صحيح حديثه في الشاميين ولا يصح حديثه في المدنيين، وبعضهم العكس، وهكذا في أشياء كثيرة كأمور الاختلاط وتغيرها وأسبابها.

إذن فالمسألة أعني بذلك أن الحكم علىٰ حديث بالصحة راجع إلىٰ اجتماع شروط، هـٰذه الشروط تحققها اجتهادي، كون العالم يحكم بأنّ هـٰذه متحققة أو ليست متحققة، هـٰذا أمر اجتهادي فرجع الأمر إلىٰ أن مسألة التّخريج ومعرفة الأحاديث الصحيحة من غيرها أمر اجتهادي.

لكن فيه من الأحاديث ما هي ظاهرة الصحة، وفيها أشياء فيها اجتهاد بعضهم يصحح وبعضهم يضعِّف.

هـٰذا البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما عرض كتابه وهو قد مكث فيه سنين طويلة لجمعه والتحري في صحته، عرضه علىٰ علماء عصره وافقوه علىٰ ما أورده وأنّ أحاديثه صحيحة خلا أربعة أحاديث لم يوافقه علماء عصره، أتىٰ المتأخرون قالوا: الصواب في هـٰذه الأربعة أحاديث مع البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ لكن أهل العصر من العلماء كأحمد وكأبي زرعة ونحوهم لم يوافقوه علىٰ ذلك. إذن المسألة فيها اجتهاد.

كذلك مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عرض كتابه ما قالوا: هـٰذا صحيح أبقاه، وما قالوا: غير صحيح أزاله، وهو كان يرىٰ أنه صحيح.

أحاديث صححها الإمام أحمد تجد أن غيره يضعفها، صححها الشافعي صححها مالك وغيره يضعفها.

إذن هٰذه المسألة فيها اجتهاد.

وإذا كان الأمر كذلك كان طالب العلم ينظر فيها علىٰ تؤدة ومهل، وما يأتي ويقول: هٰذا الحديث صحيح ويطعن في كلام عالم أكبر منه وأعلم منه أو من هو متحقق بعلم الحديث أو الأئمة السابقين، هٰذه مسائل ليس كون عالم مثلا من المعاصرين صحح الحديث أنه صحيح عند الجميع ليس متفقا علىٰ صحته، المتّفق علىٰ صحته الذي رواه البخاري ومسلم واتفقا عليه، هٰذا متفق علىٰ صحته كما هو الاصطلاح وفيه بعضها أيضا فيه مناقشة كما هو معروف.

إذن معرفة طالب العلم بأنّ اجتماع طرائق الحديث لأجل أن يكون صحيحًا إنما هي مسألة اجتهادية، هٰذه تجعله يهتم أكثر بعلم الحديث ويطلب مشاركة أهل العلم وفي التخريج وفي صحة الأحاديث، وأيضا تجعله متواضعًا متطامن الرأس والنّفس لأئمة أهل الحديث السالفين.

مثلا ليس من صفة طلاّب العلم أن يأتي يقول: هٰذا الحديث صححه الإمام أحمد ويقول بعدها: وليس كما قال. وليس كما قال!! هٰذه ما يقولها طالب علم يعرف معنىٰ الاجتهاد في الحديث وفي التخريج وأنها مسألة اجتهادية في التصحيح والتضعيف، ويتكلم علىٰ اجتهاد الإمام أحمد بأنه ليس كما قال.

الإمام أحمد يحفظ ألف ألف حديث، أنت هل تحفظ ألف حديث؟ هل تحفظ ألفين لو حفظت، ألف ألف حديث يعني مليون حديث، خرج مسنده فيه نحو أربعين ألف حديث من سبعمائة ألف حديث مسموعة كما يقول عبد الله بن الإمام أحمد.

إذن المسألة تحتاج من طلاب العلم إلىٰ خوض في علم الحديث بقوة وفرح به ومعرفة؛ لكن بتواضع لأهل العلم السابقين، وألاّ يرفع رأسه، وطالب العلم إذا رفع رأسه وبدأ يقول: هؤلاء عندهم بحث ونحن عندنا بحث، إذن هنا تأتي مسألة الضعف؛ لأن علم الحديث إنما هو بالحفظ، ليس هو بالبحث، البحث يوصلك إلىٰ أشياء لكن تغيب عنك أشياء كثيرة، والحافظ يقارن ما بين الروايات.

مثلا يأتي يقول لك: هٰذا والله روىٰ ألف حديث أخطأ في ستة أحاديث، -راوي- يقول: روىٰ ألف حديث أخطأ في ستة أحاديث من يعرف هٰذا؟ الحافظ الذي يقلب في ذهنه روايات فلان هٰذا صحيح

هـٰذا ما فيه إشكال هـٰذا أخطأ في اللفظ الفلاني، فحينئذ يحكم علىٰ الراوي بأنه ثقة أو أنه ربما أخطأ إن كثرت أخطاؤه أو إلىٰ آخره.

فإذن المسألة تحتاج منه إلىٰ عناية حتىٰ تعرف كلام العلماء ومنزلة كلام أئمة أهل الجرح والتعديل والذين يصححون الأحاديث ويتكلمون فيها من السابقين والمتأخرين، وبعدها يكون عند لطالب العلم مشاركة ومعرفة؛ لكنها مع تواضع وتطامن، وهـٰذه سمة أهل العلم وطلاب العلم المتحققين بأخلاق أهل العلم.

التّصحيح والتضعيف تارة يكون منصوصا عليه في كتاب من كتاب العالم يقول مثلا: هـٰذا حديث صحيح، وتارة يقول بالنقل بأن هـٰذا صححه فلان، وخاصة عند العلماء المتأخرين مثل: النووي والحافظ العراقي وشيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير وابن حجر إلىٰ آخره، وربما هم حكموا من عند أنفسهم علىٰ كثير من الأحاديث.

هناك شعب كثيرة للموضوع لكن هي إشارات تناسب هـٰذا المقام.

الموضوع الرابع

يتعلق بالدراية؛ الدراية من حيث فقه الحديث.

وفي الحقيقة أن هـٰذا هو المقصود، ففقه السّنّة هو المطلوب شرعا، فقه القرآن وفقه السنة؛ لأن الله جل وعلا أثنىٰ علىٰ الذين يتفقهون في الدين فقال جل جلاله: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾[المجادلة:١١]، والعلم هـٰذا هو العلم بالكتاب والسنة -العلم بالدين- وهو الذي قال الله -جل وعلا- فيه: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾[التوبة:١٢٢]، الدين في ذلك الوقت ما هو؟ هو القرآن وسنة النبي ﷺ قولا وفعلا.

فإذن الدراية بالسنة هو حقيقة دراية الشّريعة دراية الدين، فالعلم بالدين هو العلم بالسنة، والسنة من حيث ما اشتملت عليه مشتملة علىٰ أعظم أمر وهو الذي من أجله بُعثت الرسل وهو توحيد الله -جل وعلا-، وما ينبغي لله -جل وعلا- من صفات الجلال والكمال، وما يستحقه ﷻ في العبادة، وما يجب له -جل جلاله- من الخوف والرجاء والمحبة إلىٰ آخر ذلك من أنواع العبادة، هـٰذا هو أصل السنة.

لكن عند طائفة من المتأخرين انقلبت المسألة إلىٰ أن العلم بالسنة هو العلم بالآداب في المشي

واللباس والأكل، والسنة في توحيد الله وفي العقيدة والسنة في شرائع الإسلام العظيمة لا تُعلم أو تبدّل وتغير، هٰذا في الحقيقة ليس من أهل السنة والجماعة؛ لأنه وإن اهتم بالحديث بأشياء؛ لكنه أصل السنة هي ما بعث به الرسول ﷺ، هو لم يبعث -عليه السلام- لم يبعث معلّما للناس كيف يأكلون وكيف يشربون وكيف يلبسون وكيف يمشون وكيف ينامون أو نحو ذلك، هو بعث للناس ليدعوهم إلىٰ كلمة التوحيد لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله، بُعث للناس للإيمان بالله والكفر بالطاغوت، وهٰذه المسائل من سنته منها ما هو واجب -يعني مسائل الآداب- ومنها ما هو مستحب، ومنها ما هو من خصائصه، فالعلم بها مطلوب والعمل بها مطلوب شرعا؛ لكنها ليست في منزلة توحيد الله جل وعلا، ولا العلم بأحكام الطهارة والصلاة والعبادات وحقوق الخلق وما أشبه ذلك.

فحقيقةً العلم والعمل بالسنة إنما هو العلم والعمل بما يستحقه الله -جل جلاله- في توحيد عبادته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ومسائل الإيمان والقضاء والقدر ومسائل اليوم الآخر، وهٰذه المسائل العظام التي الإيمان بها نور الصدر والخروج من الابتلاء بالإيمان بالنبي عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنه بعث للابتلاء: «**إنما بعثتك لأبتليك وابتلي بك**».

هٰذه أعظم المسائل، فالعلم بالسنة -دراية السنة- أن تهتم بمسائل التوحيد والعقيدة في السنة وأن تحفظ الأدلة فيها في كتاب الله -جل وعلا- وفي سنة رسوله ﷺ المبينة للقرآن، وأن تعلم مكان الاستدلال من الدّليل، هٰذه دراية السنة فقه السنة، ثم إذا انتهيت من توحيد العبادة توحيد الأسماء والصفات، ثم بعد ذلك مسائل القدر والإيمان، تعلم هٰذه شيئا فشيئا، هٰذا هو العلم بالسنة وهو الاهتمام بالحديث.

يعني مثلا قد يأتي طالب العلم ويكون مهتمًّا بالسنة بالتخريج وفي معرفة الصحيح والضعيف؛ لكنه الأحاديث الواردة في التوحيد قد ما يعرف فقهها، والأحاديث الواردة في الأسماء والصِّفات، في القدر، في الإيمان، لا يعرف حسن توجيهها، هٰذا فيه نقص في العلم بالسنة.

ولهٰذا أحسن ابن القيم لما ذكر رَحِمَهُ اللهُ في الأبيات المشهورة لما ذكر العلوم قال فيها:

والجهلُ داء قاتلٌ وشفاؤه	أمران في التركيب متّفقانِ
نص من القرآن أو من سنةٍ	وطبيبُ ذاك العالم الرباني
والعلم أقسام ثلاثٌ ما لها	من رابع والحقُّ ذو تبيانِ

علــم بأوصـــاف الإلـــه وفعلـــه وكـــذلك الأســـماء للـــديَّانِ
والأمــر والنهــي الــذي هــو دينــه وجــزاؤه يــوم المعــاد الثــاني
والكـلُّ في القــرآن والســنن التــي جــاءت عــن المبعــوث بالفرقــان

وهٰذا يعني مسائل العلوم هٰذه التوحيد والجزاء ما فيها اجتهاد، هل لأحد أن يجتهد فيها؟ إذا جاء النص استسلمنا، أما مسائل الفقه، نعم، فقه الأحكام قد يكون فيها اجتهاد لدلالة الحديث علىٰ أكثر من وجه.

إذن فالاهتمام بالسنة الاهتمام بالأحاديث ومعرفة الصحيح منها مما هو في توحيد الله جل وعلا.

أما الأحكام وهو القسم الثاني فهٰذه صنف فيها العلماء مصنفات جمعت أحاديث الأحكام بما فيها الصحيح وغير الصحيح؛ لكن مما احتج به طائفة من العلماء، مثل كتاب «الإلمام» لابن دقيق العيد، ومثل «المحرر» لابن عبد الهادي، ومثل «بلوغ المرام»، ومثل قبله «عمدة الأحكام» للحافظ المقدسي، وما أشبه هٰذه الكتب، قبلها «منتقىٰ الأخبار» للمجد ابن تيمية، هٰذه صنفت في الأحكام تجمع ما في الصحيحين وما في السنن والمسند إلىٰ آخره.

هٰذه العناية بها عناية بالسنة، أحكام، فقه، هٰذه دراية بالسنة ومعرفة كيف تستنبط الأحكام اختلاف العلماء في ذلك مما هو معروف في هٰذا الباب.

القسم الثالث الآداب العامة وهٰذه مهمة معرفة السنة فيها والأحاديث المروية لأنها هي التي يحتاجها طالب العلم في الوعظ، يحتاجها للبيان للعوام، يحتاجها في البيان في بيته، يحتاجها في كثير من العلم في الآداب والرقائق والمواعظ والأحاديث التي في هٰذا الباب السنة، ولهٰذا لما أتىٰ المتصوفة وذهبوا إلىٰ التصوف واخترعوا أشياء من عند أنفسهم في العبادات وفي الزهد وفي الانقطاع ألّف علماء الحديث كتب في الزهد، وكتب الزهد أو كتب الرقائق كتب مستقلة وتارة في الكتب الكبار مثل كتاب الزهد والرقائق -المستقل- لابن المبارك، مثل كتاب «الزهد» لابن المبارك أو للإمام أحمد أو لجماعة أو مثلا كتاب البخاري فيه الرقائق الزهد والرقائق في أثناء كتابه، وفيه «الأدب المفرد»، لماذا ألفت هٰذه الكتب؟ لأنها قسم من السمة لابد أن يعلمها أهل العلم وأن يعلمها الناس وأن تبين لهم.

وربما كانت حاجة الناس في الوعظ والإرشاد وفي الترقيق إلىٰ هٰذه المسائل أعظم فيما يبين حقيقة الدنيا والآخرة وفي سيرة النبي ﷺ وأخبار الصحابة وكيفية الآداب العامة وآداب المجالس، مثلا آداب

المسجد آداب الحديث وأشباه ذلك هٰذه الأكل الطعام الشراب الأذكار، هٰذه مهمة أيضا لابد من طالب العلم أن يعتني فيها بسنة النبي ﷺ.

الموضوع الخامس

الاهتمام بالسنة الناس فيه ما بين غال وجافٍ ومعتدل، وهدي أهل العلم الراسخين من القديم هو الاعتدال وليس الغلو وليس الجفاء:

فالذين غلوا وجعلوا مسائل من السنة كالأصول العظيمة والقواعد العظيمة في الشريعة من حيث الدعوة إليها والإنكار فيها والكتابة فيها والاهتمام بذلك اهتماما أكبر من الاهتمام(١) بالسنة في العبادات وبالسنة في التوحيد وأشباه ذلك، غلوا في ذلك حتىٰ في ذلك حتىٰ جعلوا بعض المسائل يفاصل فيها وهي من المسائل المختلف فيها أصلا والسنة فيها غير واضحة، وهٰذا مما لا ينبغي؛ لأن هٰذا تشدد وغلو، والنبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-؛ بل الله -جل وعلا- نهانا عن الغلو في دين الله جل وعلا.

وأناس جفوا وهم أكثر الذين لا يعتنون بالسنة من المنتسبين إلىٰ العلوم المختلفة مثل علوم الآلة وبعض المنتسبين للتفسير وبعض المنتسبين لعلم الكلام وما أشبه ذلك في الأمة من قديم وحديث جفوا حتىٰ لا يُرىٰ للسنة عليهم أثر ولا يعلمون السنة، فينطقون بالآراء وبالقواعد التي ورثوها ودرسوها في بعض الكتب، فهؤلاء كما عندهم جفاء وتقصير فكذلك عندهم عدم علم؛ لأن حقيقة العلم: العلم بقال الله وقال رسوله ﷺ وقال الصحابة هٰذا العلم النافع.

أما أهل العلم الراسخون من القديم فهم أهل الاعتدال في هٰذا، يعظِّمون السنة ويُنزلون مسائلها بحسب مقتضىٰ الشريعة، ويعلمون مسائل الواجبات ومسائل المحرمات ومسائل المستحبات والمكروهات، والمسائل التي فيها السنة ظاهرة ومشهورة، والمسائل التي فيها السنة خفية، ويأخذون الناس بما يصلحهم لا بما يفرقهم.

ومثلا في رسالة كان أحد الدعاة كتب لسماحة الجد الشيخ محمد بن إبراهيم -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ- يقول له: إني ذاهب للهند للدعوة وإنهم إذا رأوا أني أقبض أو أضع اليمنىٰ علىٰ اليسرىٰ، لا، يقول: إذا رأوني أرفع اليدين في غير تكبيرة الإحرام قالوا: هٰذا وهابي، وربما لم يسمعوا لي وربما يمكنوني من الحديث في

---

(١) انتهىٰ الشريط الأول.

مساجدهم.

فإذن هٰذه مسألة فيها شدة في كثير من البلاد: مسألة الجهر بالتأمين، ومسألة رفع اليدين، وكذلك مسألة القبض في بعض البلاد المغرب والمالكية وأفريقيا.

فكان من جواب سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: أنك إذا رجوت في ترك هٰذه السنة وهو أن تدعوهم إلىٰ توحيد الله جل وعلا وإلىٰ السنن العظيمة فهٰذا هو الواجب عليك، أن تترك السنة لما هو أوجب. لكن إذا لم ترجُ ذلك فلا تترك السنة.

وهٰذا هو الذي ينبغي علىٰ العبد أن يعمله؛ لأنه يدرّج الناس إلىٰ الأعظم ربما ترك بعض الأشياء لتحصيل أشياء، هٰذه أشياء ربما تحصل في المجالس، مثلا يأتي غلط؛ لكن لو جادلته في كل شيء فاتك أن ترتب علىٰ إفهام المخاطب أو إفهام الناس المسألة العظمىٰ؛ لأنك إذا أوردت عليه مثلا عشر مسائل أحيانا نناقش ببعض العلماء في بعض البلاد وفيه بعض الأشياء تمر منهم غلط لكن لا نتعقب كل ما يقول في كل مسألة، مثلا إذا تعقبت ما يقول في كل مسألة فاتك المهم، فأصبحت المسألة في ذهنه معارضة، يعني أنا أخطئ في كل مسألة، هٰذه أخالف فيها، وهٰذه أخالف فيها وهٰذه أخالف فيها، فربما سكت صاحب الحكمة والدعوة سكت عن أشياء لأجل أن يركّز ويهتم بالمسائل العظمىٰ مما أخطأ فيها صاحب الكلام والمخالفة للسنة.

مثلا بعض المسائل في التشديد في بعض المسائل التي يرىٰ أنّ القول الصّحيح فيها أنه واجب، والجمهور مثلا يقولون: إنها مستحب، أو أنها يرىٰ أن الصواب الحرمة والجمهور مثلا يقولون: بالكراهة، أو هناك الأكثر أو الكثير من أهل العلم يقول بالكراهة، فتجد أنه يشدد الإنكار فيها أو يجعلها من المسائل التي السنة فيها كذا والسنة فيها أمر يأتي ويدخلها تحت ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[النور]، هٰذه ليست في مثل هٰذه المسائل، إنما هٰذه في المسائل العظيمة أو المسائل التي استبانت فيها السّنة وليس فيها خلاف في فهم ودراية السنة.

أما التي فيها خلاف هٰذا أو هٰذا واجب أو هٰذا محرّم، فإن هٰذا لا تُجعل المسألة مسألة مفاصلة وإنكار شديد إنما هو تعليمي.

مثلا الأكل بالشمال، الأكل بالشمال نهىٰ عنه النبي ﷺ وطائفة من العلماء وهم الظاهرية وبعض أهل

العلم قالوا بحرمة الأكل بالشمال، وجمهور أهل العلم علىٰ أنها الأكل بالشمال مكروهة لمشابهته الشيطان ولنهي النبي ﷺ عن ذلك، إذا علم طالب العلم حقيقة السّنة في ذلك وكلام أهل العلم يكون توجيهه لمن وقع في هٰذا الأمر يكون توجيهه بالأسلوب المناسب الذي يبيِّن فيه الأمر.

مثلا يقول: السنة الأكل باليمين، والنبي ﷺ نهىٰ عن الأكل بالشمال، يأتي واحد ثاني يقول: هٰذا حرام عليك قد تدخل في كبيرة لأنك شابهت الشيطان كما يقول طائفة من الظاهرية.

فإذن العلم بالسنة، معرفة مراتب خلاف العلماء فيها، هٰذا يجعل طالب العلم تبعًا للأئمة الأوائل يجعله معتدلاً فيما يأتي وفيما يذر.

مثل الآن الشرب قائما، الشرب قائما اختلف فيه العلماء، وعامة العلماء أو أكثر العلماء علىٰ كراهته، إذا كان لغير حاجة أو في غير شرب زمزم:

ومن أهل العلم من قال بالتحريم.

ومنهم من قال بالنسخ؛ لأن النبي ﷺ شرب في حجة الوداع قائما فقالوا: هٰذا ناسخ للذي قبله وعلي بن أبي طالب شرب في رحبة الكوفة قائما إلىٰ آخره في بحث معروف.

وعامة أهل العلم مثل الأئمة الأربعة وشيخ الإسلام يقولون بالكراهة لغير حاجة، إذا صار ثمة حاجة فإن الحاجة ترفع الكراهة.

يأتي مثلا يشتبك في بيته أو مع الناس في كل مسألة من هٰذه المسائل، أو ينكر فيها ويغلظ فيها في الإنكار ويجادل فيها حتىٰ يُظن أن كل مسألة هي مسألة مجادلة.

هٰذا ليس صفة المتحقق بالسنة، وإنما هو يرشد ويعلم، يقول مثلا: النبي ﷺ نهىٰ عن الشرب قائما، السنة الشرب جالسا، ما يأتي يقول: الشرب قائما حرام. ممكن يعرف القول الثاني، أو أن النبي ﷺ شرب قائما.

فإذن المسائل الآداب في السنة الناس فيها -مثل ما ذكرتُ لك- بين أهل غلو وتشديد، وما بين أهل جفاء ما يهمّهم شيء في هٰذه المسائل، وما بين أهل اعتدال وهم أهل العلم الراسخون الذين هداهم الله جل وعلا ووفقهم.

هٰذه المسائل أنتم تعلمون أمثلة أكثر من ذلك.

فالسنة واجبٌ الاهتمام بها، والعناية بعلم الحديث وفقه السنة مع فقه القرآن هو حقيقة العلم، لهٰذا

نوصي الجميع بذلك، وأن تعتنوا به أكمل عناية، ودائما من كان همّه الكتاب؛ كتاب الله -جل وعلا- حفظا وتلاوة ومدارسة، والسنة أيضا حفظا وقراءة ومدارسة، فإنه ولا شك سيرىٰ النور في قلبه وفي صدره، ويرىٰ أن الفتن وما يَعرض علىٰ النّفوس فيصدها عن الحق يرىٰ أنه تضمحل لأجل قوة الوارد عليه من الحق الذي يحرق الله -جل وعلا- به ما يعرض للقلوب من الباطل.

وهٰذا ما ينبغي علينا جميعا أن نهتم به؛ العناية بالسنة والقراءة قراءة كتب الحديث والمطالعة فيها وكثرة مراجعتها.

أسأل الله -جل وعلا- أن يوفقنا وإياكم بما فيه رضاه وأن يكتب لنا الحسن، وأن يجعلنا من أهل الحديث العاملين به، وأن يغفر لنا نقصنا إنه سبحانه جواد كريم غفور رحيم.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[**الأسئلة**]

سؤال (٠١): بعض الناس يقول: لماذا نشغل الناس بالمتون الفقهية كالزاد وغيره بدلا من أن نصلهم بالتعلم بكتب الأحاديث كالبلوغ وعمدة الأحكام فكيف نرد عليه؟

الجواب: هٰذا السؤال أنا أجبت عنه في درس منفصل وهو المقدمة في الفرق بين كتب الفقه وكتب الحديث .

كتب الحديث لا تغني عن كتب الفقه، لابد من أن يكون طالب العلم أن يمشي علىٰ سنة الأولين في العلم، سنّة الأولين في العلم هي هٰذه، إذا ما مشىٰ علىٰ هٰذا المضمار ومشىٰ علىٰ نحو ما مشىٰ العلماء الأوائل لم يدرك، سيصيبه تخبط وتخبط، ثم بعد ذلك يكون خطؤه أكثر من صوابه، الزاد أو عمدة الأحكام أو نحوها من الكتب الفقهية في أي من المذاهب الأخرىٰ هٰذه تجمع لك مسائل الباب في مكان واحد، ومسائل الباب التي تحتاج إليها وتراها تحدث أمامك قد يكون دليلها القرآن، وقد يكون دليلها السنة، وقد يكون دليلها فعل الصحابة، وقد يكون دليلها القياس، وقد يكون دليلها القاعدة، وقد يكون دليلها مرسلات، وقد يكون دليلها اجتهاد الإمام، وهٰذه ليست كلها في البلوغ؛ يعني كم أحاديث الصحابة في البلوغ؟ يعني عدة أحاديث المياه وأنواعها مثلا عدة أحاديث هٰذه كل مسائل المياه ليست كذلك، إذا أتيت مثلا إلىٰ الصلاة، الصلاة أحاديث فيها كثيرة، الزكاة ربما فيها أحاديث؛ لكن فيه مسائل،

مثل كتاب الحوالة كم فيها من الأحاديث؟ حديث واحد، لكن تجد المسائل التي يحتاجها الناس ما في الباب إلا قول النبي ﷺ: «**مطل الغني ظلم، وإذا أحيل أحدكم عَلَىٰ مَلِيءٍ فليحتل أو فَلْيَتْبَعْ أوفليتّبع**.» ما في الباب إلا هٰذا الحديث يعني تقرأ في البلوغ صفحتين وانتهىٰ هل كتاب الحوالة انتهىٰ؟ الشركات مثلا، الكلام علىٰ مسائل الربا تفصيله والعلة فيه وما يتعلق به.

إذن كتب الفقه تدخل فيها كتب الحديث، كتب الحديث التي توردها هٰذه تدخل في مسائل، لهٰذا من الطرق المناسبة للتعلم عند بعض الناس وليس لكل أحد من الطرق المناسبة أنهم إذا قرأت باب الفقه باب الآنية مثلا تقرأ أحاديث الآنية في منتقىٰ الأخبار وفي البلوغ أو في العمدة تقرأ تعرف تعلم حدود هٰذا وهٰذا والاجتهاد فيه.

يعني مثلا تقرأ في الحديث أن النبي ﷺ **انكسر قدحه فاتخذ مكان الشَّعب سلسلة من فضة** أو كما جاء في الروايات الأخرىٰ، كتب الفقه أيش فيها؟ (إلا ضبّة يسيرة من فضة لحاجة)، ضبة يسيرة لحاجة، لفظ الحديث ما فيه هٰذا، الحديث فعل النبي ﷺ انكسر قدحه فاتخذ مكانه، هٰذه القيود نقول: اجتهاد العلماء والنظر في القواعد، فيها قياس، فيها نظر في أحاديث أخر، لهٰذا يحصل خلاف.

فإذن طريقة أهل العلم أن يجمعوا ما بين قراءة كتب الفقه وقراءة كتب الحديث، والعناية بالسنة والاهتمام بها هي العناية بكتب الفقه والاهتمام بها؛ لأن هٰذا وهٰذا يعطيك قوة في العلم.

وخذ مثلا العلماء علماء هٰذه الدعوة الحاضرين والمتقدمين إلىٰ زمن الإمام محمد بن عبد الوهاب أجزل الله له الثواب كانوا يجمعون بين هٰذا وهٰذا، فقويت ملكتهم في الحديث، قويت ملكتهم في الفقه، وأدركتم وعرفتم سيرة الشيخ عبد العزيز ابن باز رفع الله درجته مع النبيين كيف قوته في الفتوىٰ وفي السنة ومعرفته في الفقه، ما فيه فتوىٰ يعني فيها غرابة وخروج؛ يعني مع قوة علمه وإدراكه ونصرته للسنة، وهكذا من كان قبله الشيخ محمد بن إبراهيم أو الشيخ سعد بن عتيق وأئمة الدعوة عناية السنة يقرؤونها وكتب السنة تتلىٰ وتقرأ وتشرح وكتب الفقه تدرّس لكنها في توازن هٰذا هو منهجهم.

فيه طرق أخرىٰ جاءت بعدم الاهتمام بكتب الفقه لكن تنظر إلىٰ قوة أصحابها العلمية تحكم عليه، تجد فيه نقص، تجد في مسائل الفقه فيه نقص يحكم اجتهاده طيب، كلها اجتهاد الإمام احمد في كل مسألة والله الحديث عمومه يدل علىٰ كذا، طيب كلام أهل العلم ما اطلع عليه أو ما عرفه فليحقه النقص بقدر ما فاته من كلام الفقهاء.

سؤال (٠٢): متىٰ يكون قول أحد الأئمة معتبرًا كالإمام مالك والإمام أحمد إذا رد سنة؛ لأنه لم يكن عليه عمل أهل المدينة، أو إذا أسّس سنة لأنه رأىٰ عليه عمل أهل مكة وغيرها من الأمصار؟

وكذلك إذا قال: أحد أئمة هٰذا الزمن رأيت أئمة الدعوة يعملون كذلك؟

الجواب: هٰذا السؤال جيد وإذا كان في التعبير قصور، الأئمة ما يقال فيهم: رد سنة أو أسس سنة. هي مسائل اجتهاد، مسائل اجتهاد، الإمام مالك ما يردّ سنة، يقول: هٰذه السنة يقول قول النبي ﷺ هاته، لكن ليس عليه أهل المدينة فإذن يكون منسوخا، ليش؟ لأنه كيف يكون من هدي سنة النبي ﷺ ويكون ما عمل بها الخلفاء الأربعة، ولا عمل بها فقهاء المدينة ولا يعرفها أهل مكة.

إذن كيف السنة غيرت ما عمل بها أحد ما عمل بها أحد يصير يعمل بها بعد ذلك؟ فالإمام مالك كان يرىٰ -لا نقول: رد السنة- ولكن كان يرىٰ أن الحديث إذا ثبت ولم يجر عليه عمل أهل المدينة أنه منسوخ، ولهٰذا تجد في «الموطأ» الإمام مالك يذكر الحديث ثم يذكر بعده بالرواية من عمل به، مثلا عمل أبي بكر أو عمل عمر أو عمل ابن عمر وكان ابن عمر يعمل كذا، ليدل أنه كان معمولا به في المدينة؛ يعني أن هٰذا الحديث ليس منسوخا ولم يُترك العمل به؛ لأنه عنده من نقل العلم والسنة عملا إنما هم أهل المدينة؛ لأنها دار الخلافة ودار العلم، فعنده أنه يؤوِّله؛ لكن بعض الأحيان السنة تخفىٰ تكون السنة خفيت علىٰ مالك فقال بخلافها، مثلا إباحته لذي الناب من السِّباع لعدم ظهور السنة عنده في ذلك أو عدم تحريمه لها، وعدم العلم بالسنة لا يعني رد السنة.

فإذن التأويل هٰذا بابه واسع، والتوجيه من العلماء لما جاء من الأحاديث بابه واسع، وهٰذا كما قال شيخ الإسلام يمكن يراجع الإخوة كلامه في رسالته رفع الملام عن الأئمة الأعلام، مهمة في هٰذا الباب، عالم إمام ما عمل بحديث، ما عمل بأحاديث، صحيحة لكن ما عمل بها ليش؟ هل هو لا يعمل بالسنة؟ لا، هم نصرة السنة وهم حملة العلم، وهم الذين نقلوا للناس كلام النبي ﷺ ودعوهم إلىٰ اتباعه؛ لكن له في ذلك توجيه، له في ذلك تأويل وتارة يعتقد أن الحديث منسوخ، وتارة يعتقد أنه مخصوص وتارة يعتقد أنه ليس باقيا مثلا علىٰ عمومه.

أما أن يقول: أو إذا أسس سنة مثل الإمام أحمد. أثبت سنة لأنه رأىٰ عليها عمل أهل مكة. لا يقال: أثبت سنة إنما يقال قال في المسألة بالجواز أو بأنها مستحب؛ لكن ما يثبت سنة بدون دليل أنها سنة، يقول: هٰذه سنة النبي ﷺ وهو ليس فيها دليل يثبت أنها سنة، ففرق ما بين إجازة المسألة اجتهادا في

السنة وبين كون المسألة من السنة.

وهو كأنه يشير إلىٰ مسألة الختمة، دعاء ختم القرآن الذي كان عليه أهل مكة ويذكر فيه أهل المدينة كلام الإمام أحمد، يذكر فيه أهل المدينة كلاما من عثمان وكان يعمل بها أهل مكة والعلماء والأئمة وأئمة السنة والسلف يصلون معهم دون نكير علىٰ الصفة هٰذه إذا ختم...

سئل الإمام أحمد عنها قال: نسألك؟

قال: نعم.

قال: إلىٰ أي شيء تذهب في هٰذا؟

قال: يروي فيه أهل المدينة شيئا عن عثمان، وكان أهل مكة يفعلونه، وكان سفيان وغيره يصلي معهم. يعني سفيان بن عيينة.

قال: أأفعله؟

قال: نعم.

قال: كيف أفعل –هٰذا كلام الفضل بن زياد–

قال: إذا قرأت قول: أعوذ برب الناس ثم ختمتها فارفع يديك وطوِّل.

قال: أأجعله في القنوت.

قال: لا.

لأن القنوت ليس موضع ختم القنوت، هٰذا دعاء القنوت كلام الإمام واضح هٰذا اجتهاده، وهٰذا كلام الشافعي، وهٰذا كلام أبي حنيفة في المسألة وهو عامة أهل العلم، إذ لا منكر لهٰذه الصفة، لا نعلم أحدا من أهل العلم أنكر هٰذه الصفة.

وإنما أنكر بعض المالكية صفة أخرىٰ كانت شاعت في بعض الأمصار، وهي أنه إذا سلّم من الصلاة يصلي الصلاة فهو لا يدعو في الصلاة وإنما إذا سلّم قام الإمام واقفا وقام الناس وراءه ودعا هو وأمنوا قياما بعد الفراغ من الصلاة.

ونقول: الأئمة الذين اجتهدوا في هٰذا واضح اجتهادهم أن ما جاء في الرواية به أن لقارئ القرآن عند ختمه دعوة مستجابة، هٰذا ثبت عن أنس رضي الله عنه وله حكم المرفوع وكذلك عن ابن مسعود بإسناد جيد وفعلها أنس وفعلها ابن مسعود وفعلها جماعة، وكان معروفا هٰذا الفعل في المدينة أنه إذا ختم دعا، لم

يكونوا يختمون القرآن في التراويح، لما كثر الختم واعتنوا به جاء الدّعاء.

هل يكون الدعاء في القنوت؟ القنوت ليس محل لدعاء الختم؛ لأن القنوت لدعاء القنوت.

إذن أين يجعل دعاء الختمة؟ عند ختمه فهو عند ختمه متىٰ يكون؟ متصلا به.

هل ما بعد الختم وقبل الركوع مكان للدعاء في الصلاة؟ نعم هو مكان للدعاء لأن النبي ﷺ دعا لما نزلت النازلة دعا قبل الركوع.

قال العلماء: فدلّ علىٰ أن هٰذا الموضع هو دعاء إذا جاء ما يناسبه شرعا، فلذلك مشىٰ العلماء عليه بدون نكير لأنه الموضع موضع دعاء، وعند الختم لقارئ القرآن عند ختمه دعوة مستجابة، ولم ينكره أحد، حتىٰ قال به أئمة السنة كلهم مالك والشافعي وأحمد وابن تيمية وابن القيم وأئمة الدعوة، إذا كان هؤلاء علىٰ طريق فمن سار معهم فهو سائر علىٰ السنة والاتباع إن شاء الله تعالىٰ.

المقصود هنا ما نقول: أثبت سنة، إنما قال في مسألة بقول اجتهاد منه أو تحقيق السنة أو ما شابهه.

ونفس الكلام ينطبق علىٰ قوله: إذا قال أحد العلماء في قوله هٰذا الزمن رأيت أئمة الدعوة يعملون ذلك؛ لأن علماء الدعوة من وقت الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلىٰ زماننا حرصوا، وكان العلماء –ليس مثل الآن– سابقا يشتدون في مخالفة الهدي ومخالفة السنة في سنن العبادات وفي سنن الأقوال والأعمال، فمشىٰ العلماء علىٰ المحافظة علىٰ ما دلت عليه السنة.

نعم باجتهاده؛ لكن تتابعهم في مسألة علىٰ اجتهاد واحد في المسائل الفقهية والمسائل العلمية، حتىٰ ولو كان فيه قول آخر؛ لكن يصلح الناس باتباع منهج العلماء؛ علمائهم وطريقتهم سالف عن سالف، يعني الاجتهاد الآخر هو قول آخر، لماذا يرجح القول الآخر عن هٰذا القول تأتي المسألة بحث علمي لكن من حيث العمل عمل الناس وما جرىٰ عليه الناس مثلا في مساجدهم وفي مسائل الفتوىٰ وفي مسائل بعض العبادات هٰذه ما يمكن أن يجتهدون فيها كل واحد.

والمشكلة مرّة مثلا أحد علماء الدعوة الشيخ سعد بن عتيق رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان في مسألة يدرس جاء واحد وتكلم بكلمة انتقاد أو من كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه مرجوحية، فطرده من الحلقة؛ قال له: لا تحضر معنا؛ لأنه يعلم أنه فتح لباب لتعارض اجتهادك باجتهاد إمام لكن يمكن أن يعرضه ما يقول أن قول الشيخ مرجوح، ليحدث فجوة، والناس اجتمعوا علىٰ التوحيد واجتمعوا علىٰ الدعوة وعلىٰ حب هٰذه الدعوة، لو كان عبر بطريقة أخرىٰ يسأل عن وجه الصواب، ما يقول قول العالم مرجوح أو

استدلاله ليس في محله أو فيه ضعف.

وهٰذا هو الذي جعل الآن انفتاح في المعارضة، انفتاح في المخالفة، هو الذي جعل اليوم المسائل تناقش، الآن صارت مسألة طلب الشفاعة بالأموات، قالوا: فيها قولان، وبعض طلبة العلم وصلوا إلىٰ هٰذا وأخذوا بعض كلام ابن تيمية وقالوا: هٰذا يدل علىٰ أن المسألة ليست قولا واحدا.

فإذن ندخل شيئا فشيئا في مسائل التوحيد والخلاف ويصبح اجتهاد واحد يكون هو كلامه وكون هو المقدم علىٰ كلام الأئمة العلماء، هٰذا غير مقبول.

في هٰذا الزمن فيه علماء يردون؛ لكن لو فتح المجال يأتي زمن يتلكم المتكلم باجتهاده يضعف العلم فلا يأتي من يرد عليه، فيتبّع الناس من يفتي لهم بحسب ما ظهر له، ويقع الناس في قول النبي ﷺ: «**ويتخذ الناس رؤوسا جهالا فيسألون فيفتون فيضلون ويضلون**».

فيه مسائل راجحة ومرجوحة، ولكن الهدي العام ينبغي المحافظة عليه، وتغييره يكون من أهل العلم هم الذين يعرفون يرجحون ويرون مسألة، والله مسألة الزمن اختلف يفتي أهل العلم فيها، هو كان عليه أئمة الدعوة لكن الزمن اختلف، مسائل بعض العبادات أو المسائل الفقهية والفتوىٰ تغيرت واجتهدوا فيها اجتهادا حادثا نعم؛ لكن يأتي أفراد من الناس وطلبة العلم ويضادون الهدي أو يجتهدون في مساجدهم اجتهادات من عند أنفسهم هٰذا غير مقبول.

سؤال (٠٣): كثيرا ما نسمع أن (الخلاف رحمة) ما معنىٰ هٰذه الجملة وهل هي صحيحة؟

الجواب: الخلاف ليس رحمة الخلاف شر، والله -جل وعلا- يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾[هود].

لكن من قالها قصد به أن الخلاف فيه سعة للناس؛ بمعنىٰ أن الصحابة -رضوان الله عليهم- تفرقوا في الأمصار، صاروا يفتون بحسب ما يرون من حالة أهل البلد، وتلحظ هٰذا بعض الفتاوىٰ تجد أنها تناسب الخلاف الذي عندنا؛ لكن في بعض البلاد الصحابة أفتوا غيرها وورثوها مثلا وصار فيها فتاوىٰ ومثلا من مذهب الحنفي ويفتىٰ فيها في بعض المسائل يكون الاختلاف فيها فيه سعة.

في البلاد الباردة اختلاف أوقات الليل والنهار وصلاة الفجر إلىٰ آخره في مد الوقت بعض الشيء هٰذا يختلف فيه اختلافات واجتهادات.

فالأصل أن الخلاف ليس رحمة الخلاف شر والرحمة في الاتفاق لا في الاختلاف؛ لكن خلاف العلماء واختلاف العلماء صار فيه توسعة علىٰ الأمة بالأقوال وبما يناسب البلاد وسعة الأمة واختلاف الناس في بلادهم وعاداتهم وأحوالهم، صار اختلاف العلماء في سعة في بعض المسائل التي يسوغ فيها الاجتهاد.

أما التي ظاهرة فيها الكتاب أو السنة بينة فيها فيكون الخلاف فيها إما أنه ملغي أو أنه ضعيف.

نكتفي بهٰذا القدر، وإن شاء الله نلتقي يوم السبت القادم بإذنه تعالىٰ.

وفق الله الجميع لما فيه رضاه.

الفرق بين
كتب الفقه وكتب الحديث

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛

فابتداء درس «كشف الشبهات» نؤخره -إن شاء الله تعالىٰ- أسبوعًا؛ يعني مع بداية الأسبوع القادم، وفي هٰذه الليلة إن شئتم صار لقاءً مفتوحًا، أو ذكرنا شيئًا مما يتعلّق **بآداب طالب العلم**، وما يحتاجه في تعلّمه في نظره في كتب أهل العلم.

نجمع بينهما؟ طيّب، لا بأس نجمع بينهما، نأخذ كلمة مختصرة.

فنقول وبالله التوفيق:

من المسلَّم به لدىٰ كل طالب علم حريص عليه أنّ طلب العلم هو غاية ما يحصِّله المرء لنفسه من الخير؛ لأن العمل تابع للعلم، والعمل بلا علم لا ينفع، لأن من شرط صحة العمل وصحة النية الإخلاص والعلم بما يميِّز به عملَه ويفرِّق به بين العادة والعبادة، فكثيرون يعملون أعمالًا هي من جهة العادات، أو قد يعملها المرء من جهة الجبلة والطبيعة أو بما جرىٰ عليه أهله ومجتمعه، لكن العلم يحمله علىٰ أن يفرق بين نية العمل الذي يتقرب به إلىٰ الله -جل وعلا- وبين العمل الذي يعمله عادةً والعمل الذي يريد به أن يكون وسيلة إلىٰ أمرٍ محبوب.

وطالب العلم في طريقه في طلب العلم يحتاج إلىٰ فرق مهم، وهٰذا الفرق كثيرون لم يُدركوه، وهو:

الفرق بين تناول كتب الفقه وكتب الحديث

كتب الفقه: فيها كلام علىٰ المسائل الفقهية وفيها الأدلة وفيها الخلاف.

وكتب الحديث: فيها أيضًا الكلام علىٰ المسائل الفقهية وفيها الأدلة وفيها الخلاف والترجيح.

فمن جهة النظر إلىٰ المحتوىٰ قد يتشابه هٰذا وهٰذا، ولهٰذا يشتكي كثير من طلاب العلم الذين في الكليات الشرعية -ككلية الشريعة أو كلية أصول الدين في الرياض أو في نحوهما- يشتكون من أنهم إذا دخلوا الكلية وابتدؤوا في دراسة الفقه والحديث، يشتبه عليهم تقرير هٰذا وتقرير هٰذا، يشتبه عليهم شرح الأستاذ الذي يدرِّسهم الفقه مع شرح الأستاذ الذي يدرسهم الحديث، من جهة أن كلًّا منهما يورد أدلة وخلافًا وتصويرًا للمسألة، ربما كان إيراد هٰذا يختلف عن إيراد ذاك من جهة الاستيعاب أو الاستدلال أو بيان وجه الاستدلال أو استخدام علوم الآلة أو الترجيح، إلىٰ غير ذلك.

وهٰذا يجعل طالب العلم في كثير من الالتباس في جهة تحصيل العلم، وهل يطلب علم الأحكام من كتب الحديث أو يطلبها من كتب الفقة؟

وبسبب عدم معرفة كيفية تناول الأحكام؛ هل هو من كتب الحديث أم من كتب الفقه وما ميزة هٰذه وهٰذه؟ وهل هٰذه تعارض هٰذه أم لا؟ بسبب عدم العلم بهٰذه المسائل، حصل نقصٌ عند كثيرين من طلاب العلم، وما اكتملت ملكتهم في العلم من جهة التّكامل بين هذين العلمين العظيمين: الفقه والحديث.

لهٰذا نقول: إنّ كتب الحديث -كما هو معلوم- سابقة لكتب الفقه، وأوّل ما دُوِّن العلم دوِّن علىٰ جهة الرواية والإسناد، حتىٰ ما كان من فتاوىٰ ووقائع وأسئلة نُقلت في مصنَّفات أهل العلم -المختصة أو العامة- نُقلت بالأسانيد، فعلم الحديث من حيث هو رواية ودراية يشتمل علىٰ إسناد وعلىٰ متن، وهـٰذا المتن قد يكون مرفوعًا للنبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- وقد يكون قولًا لصاحب أو قولًا لتابعي أو ما دون ذلك.

يستعمل كثير من أهل الحديث هـٰذه الكلمة: (رواية ودراية)، وفي تفسير الرواية والدراية اختلاف:

فمنهم من يقول: **الرواية** هي نقل الحديث بالإسناد. **والدراية** هي تمحيص هـٰذا الإسناد من حيث الصحة وعدم الصحة، من حيث هل هو مستقيم أم غير مستقيم؟ هل هو معلول أم غير معلول؟ هل يحتج به أم لا يحتج به؟ وهـٰذا قول طائفة كثيرة من أهل العلم.

وآخرون يقولون: **الرواية** راجعة إلىٰ النقل، **والدراية** راجعة إلىٰ فقه الحديث، وفقه الحديث هو درايته. والرواية هي النقل، فيدخل علىٰ هـٰذا في النقل مصطلح الحديث، يستعمل مصطلح الحديث، والنظر في الرجال. وتكون الدراية هي الفقه؛ يعني النظر في المتن.

هـٰذا كان سابقًا، ولهـٰذا مصطلح الحديث سابقٌ لأصول الفقه، وأصول الفقه أتت بعده من جهة التّصنيف؛ من جهة تقعيد الفن، ومن جهة الاستعمال أصول الفقه سابقة لأصول الحديث، سابقة للمصطلح، لأن أصول الفقه هي أصول الاستنباط، وهي موجودة في زمن النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- قبل أن يكون ثَمَّ أسانيد.

لهـٰذا تنظر إلىٰ علم الفقه وعلم الحديث إلىٰ أنَّه لا انفصال بينهما في الحقيقة، فالفقه هو فقه الأحكام الشَّرعية وهـٰذا يكون مبنيًّا علىٰ أدلة، ومن الأدلة السنة.

ينتج من ذلك أنّ أدلة الفقيه أعم من أدلة المحدِّث، بمعنىٰ أنَّ الكتاب الذي يعرض لمسائل الفقه تكون أدلته أوسع من أدلة الكتاب الذي يعرض لفقه الحديث، لِمَ؟ لأنّ من نظر في فقه الحديث يكون الدَّليل هو الذي يتكلم عليه من الحديث، عنده حديث في «البلوغ» يشرحه، أو حديث في «منتقىٰ الأخبار» ويشرحه مثل «نيل الأوطار»، أو حديث في «البخاري» يشرحه أو نحو ذلك، فيكون شرحه مبنيًّا علىٰ هـٰذا الحديث، واستنباطه للحكم بما في هـٰذا الحديث من الحكم.

أما الفقيه فإنه يستنبط الحكم من عدة أدلة، قد يكون الدّليل نصًّا من الكتاب أو السنة، وقد يكون إجماعًا، وقد يكون قياسًا شموليًا، وقد يكون قياس علّة، وقد يكون قول صاحب، أو قول إمام، إلىٰ آخره.

نَخْلُص من هـٰذا إلىٰ نتيجة مبدئية وهي أن كتب الفقه تختلف عن كتب الحديث من جهة الأدلة.

نرجع إلىٰ تأصيلها فنقول:

إن كتب الحديث إذا رجعنا إلىٰ أولها فتجد أن الإمام يبوّب علىٰ الحديث بما فيه من الفائدة؛ لكن لا يرىٰ الاختلاف الذي فيه، فمثلًا الإمام البخاري في تبويباته يبوِّب علىٰ فقه الحديث الذي عنده، أبو داود

في تبويبه يبوّب على فقه الحديث الذي عنده، الترمذي، النسائي، ابن خزيمة، إلى آخره، يبوِّبون ناظرين في التبويب -والتبويب هو عبارة عن الحكم أو الفائدة- راجع إلى فقههم لهذا المتن.

لكن إذا نظرت في المسألة نفسها نظرتها في كتب الفقه فتجد أن الفقيه يستدل بعموم آية، أو بمفهوم آية، أو يستدل بعدد من الأحاديث، أو يستدل بقاعدة، أو بأقوال الصحابة، إلى آخر ذلك.

رجع الأمر إلى أنه في الزّمن الأول قبل شيوع المصنفات وشروح الحديث المطولة، المحدِّث يستنبط بناءً على هذا المتن الذي عنده، ولا ينظر إلى جميع أدلة المسألة، لا ينظر إلى كلِّ ما في المسألة من الأقوال، لهذا يدخل في نظره إلى هذا المتن فيستنبط منه، أما المفتي أو الفقيه إذا أراد أن ينظر في هذه المسألة التي تناولها الحديث فإنه يستحضر أشياء أخر.

لهذا صار كلام الفقهاء يختلف عن كلام طائفة من أهل الحديث، لِمَ؟ لأنه قد يكون المحّدث ينظر إلى هذا المتن باستنباط ما فيه من فوائد من هذا المتن، دون النظر إلى أن هذه الفائدة هل هي الحكم في نفس الأمر أم أنه يأتي معارض فينظر إليه من جهة أخرى.

وقد ذكرتُ لك فيما مضى أنَّ الأقوال المتضادّة أو الأقوال المتقابلة في الفقه، فإنه يكون القول أرجح إذا كان المعارض له أقل، فإنّ القولين المختلفين في الفقه لا تظن أن أحد القولين له دليل والآخر ليس له دليل، هذا نادر؛ بل الأكثر - وجُلّ المسائل - يكون هذا القول له أدلته وهذا القول له أدلته؛ ولكن أي القولين يكون أرجح؟ القول الأرجح هو الذي يكون الاعتراض على ما استدلَّ به أصحابه أقل من الاعتراض على القول الآخر.

وهذه فائدة رصينة مهمة يحتاجها الناظر في كتب الفقه وكتب الحديث جميعًا.

فهذه الأقوال المتقابلة والاختلافات جاءت نتيجة إلى نظر العلماء في المسائل الفقهية، بعد ذلك صُنِّفت متون الفقه ثم صنفت المطولات في الفقه.

ثم ظهرت شروح كتب الحديث، شروح كتب الحديث استفادت من كتب الفقه، فأوائل كتب الفقه التي بَسطت القول في المسائل الفقهية الخلافية كتب ابن المنذر، ومثلها مع شيء من الاختلاف المصنفات، «مصنف ابن أبي شيبة» و«مصنف عبد الرزاق» وأشباه هذه، فتجد أن هذه بسطت القول في المسألة بذكر أقوال العلماء؛ المصنفات بدون ذكر أدلتهم لأنها رواية، ومثل كتب ابن المنذر تجد أنه يذكر القول ويذكر دليله.

ظهرت كتب الفقه بعد ذلك فيها ذكر الخلافيات وفيها دليل كل قول إذا كان الكتاب في الفقه عامًّا مقارنًا يقارن فيه صاحبه بين المذاهب، أما إذا كان كتاب مذهب خاص فإنه لا يورد أدلة الأقوال الأخرى.

خذ مثلًا كتاب ابن حزم «المحلّى بالآثار شرح المجلى بالاختصار» وهو كتاب ألّفه للمبتدئ من طلاب العلم كما نص عليه في أثناء كلامه على صور صلاة الخوف، قال: وإنما كتبنا هذا الكتاب للمبتدئ من طلاب العلم وتذكرة للفقيه. وهذا واقع من جهة أن الناظر فيه يجد أنه يذكر أقوالًا متعددة

بالإسناد، فهو عبارة عن جمع ما يراه ناصرًا لأصل المسألة، وقد يذكر الخلاف ويذكر الترجيح، أما الاستيعاب فإنه في كتب مطولة أُخر.

في هٰذا الكتاب مثلًا هل هو كتاب فقه أم كتاب حديث؟ هو علىٰ طريقة كتب ابن المنذر من جهة أنه يذكر المسألة ويذكر الاستطراد بذكر الأدلّة تارة بالإسناد، وقليلًا بلا أسانيد.

إذا نظرت في هٰذا الكتاب يحصل عندك شيء من التردّد في فهم المسألة، لم؟ لأنه جاء تقرير المسألة مع بيان الخلاف، مع الأسانيد، مع الدِّراية، مع الاستنباط، مع رأي ابن حزم الأصولي، مع رده علىٰ المخالفين.

مثال آخر : كتب ابن عبد البر «التمهيد» و«الاستذكار» وغيرها؛ شروح الموطأ، لكنها شروح نظر فيها إلىٰ المسألة لا إلىٰ المتن، فهو قد يشرح المتن ثم يخرج من المتن إلىٰ المسألة ثم يفصِّل الكلام في المسألة كأنها مسألة فقهية مستقلة.

وهٰذا نوع من شروح كتب الحديث نقابله بكتاب ابن حزم، فكتب ابن عبد البر وكتاب ابن حزم متقابلان، هٰذا له طريقته وهٰذا له طريقته، إذا نظرت في هٰذا وهٰذا وجدت أن طريقة الفقهاء موجودة في كتاب ابن حزم، وطريقة المحدِّثين موجودة في كتاب ابن عبد البر، في الجملة.

بخلاف ما يظنه كثيرون، أن كتاب ابن حزم هو كتاب حديث، هو كتاب فقه، لكن فقه بناه علىٰ الأثر بتوسّع، فكأنه صوّر المسائل الفقهية كمتن فقهي ثم استوعب ما في المصنفات وما نُقل عن السّلف في هٰذه المسائل ونظر فيها نظرًا مختصرًا، فهو كتاب فقه توسع فيه في الاستدلال.

تطورت المسألة من جهة التاريخ فدخلنا إلىٰ مرحلة «المغني» لابن قدامة، وما ماثله، مثل «المجموع شرح المهذب» للنووي، كتابان متقاربان من جهة أنهما كتابان فقهيان منهجهما واحد من جهة الفقه.

هٰذا المغني كتاب حنبلي يعرض فيه إلىٰ الأدلة والخلاف.

وكتاب النووي كتاب شافعي يعرض فيه لتأصيل المسألة والأدلة والخلاف.

يمتاز كتاب النووي عن كتاب ابن قدامة بأن فيه استيعاب للغويات، وفيه الحكم علىٰ كثير من الأدلة من جهة الإسناد، يقول: هٰذا إسناده صحيح، إسناده قوي، إسناده ضعيف إلىٰ آخره، وله ترجيحاته المخالفة للمذهب، كما أن ابن قدامة له ترجيحاته المخالفة للمذهب.

في مقابلتهما نذهب إلىٰ كتب الحديث في ذلك الزّمان «فتح الباري» مثلًا - بعده بزمان - فيه عرض المسألة بحسب إيراد البخاري واستيعابه للأدلة أو للخلاف هو بحسب حاجة المسألة إلىٰ ذلك.

فنخلص من هٰذا العرض الموجز إلىٰ أنّ: كتب الفقه وكتب الحديث يخدم بعضها بعضًا:

فمن نظر في شروح كتب الحديث وأراد أن يستفيد، فلا بد أن يكون مؤصلًا في الفقه، فإذا أُصِّل في الفقه كان نظره في كتب الحديث جيدًا، لِمَ؟ لأن كتب الحديث ما تصوِّر المسألة، وإنما تبني علىٰ أن المسألة صورتها واضحة، وأما كتب الفقه فهي تصور المسألة ثم تذكر دليلها - هٰذا واحد.

الثاني: أن كتب الحديث ليس فيها استيعاب للأدلة علىٰ اختلافها، لكن كتب الفقه تجد أنه يذكر دليل

المسألة إذا كان من الكتاب أو السنة أو القياس أو القواعد إلىٰ آخر ذلك. يذكر كل ما في الباب عنده من أدلة في هـٰذه المسألة.

الفرق الثالث: أن كتب الحديث فيها إيراد المسألة بحسب مجيئها في الحديث دون تكامل للباب، يعني الباب في كتب الحديث لا يتكامل في ذهن طالب العلم، فإذا نظرت مثلًا في كتاب الجهاد في البخاري، أو الإمارة في مسلم، أو نظرت في باب من الأبواب في كتب الحديث فتجد أنّ هـٰذه الأبواب فيها من الفوائد بقدر مجيئها في السّنة؛ لأنه مبني علىٰ الاستدلال من السنة فقط، لكن كتب الفقه يكون فيه عرض الباب بذكر المسائل التي تدخل تحت هـٰذا الباب ودليلها من القرآن أو من السنة -وهو موجود في كتب الحديث- أو من القياس أو من القواعد أو من قول صاحب أو استنباط، أو فتوىٰ للإمام، فتجد أن المسائل في كتب الفقه أكثر منها في كتب الحديث.

يعني ذلك: أن من نظر في كتب الحديث جميعًا فإنه يخلص بنتيجة وهي: أنّ المسألة إذا كان دليلها حديثًا عن النبي - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- فهو موجودٌ في كتب الحديث بتفصيله وببيان الخلاف فيه ودرايته وروايته وما يتَّصل بذلك؛ لكن إذا كان دليلها قاعدة عامة، دليلها آية، دليلها القياس، دليلها قول صاحب، دليلها فتوىٰ الإمام، فلا تجدها في كتب الحديث.

ينبني علىٰ ذلك أنَّ الناظر في كتب الفقه يكون الباب في ذهنه أرتب وأوسع، لكن كتب الفقه فيها قصور -في العموم- من جهة النظر في الحديث أو في المتن بدون تأثّر صاحب المذهب بمذهبه في النظر، لأنه يكون الدليل من السنة مثلًا في البخاري لكن في كتاب المذهب الفقهي ولو كان مطولًا خلافيًا، فيه الخلاف العالي والنازل، لكن يكون نظره في الحديث بناءً علىٰ مذهبه، هـٰذه الحيثية هي نوعٌ من القصور في كتب الفقه من جهة طالب العلم المتوسِّع، فيكملها بالنظر في كتب الحديث، لكن كتب الحديث - يعني الشروح المطولة - تجد أن المسألة لا يتصوّرها طالب العلم تصورًا جيدًا، يعني في المسائل التي تحتاج إلىٰ تصور، أما في المسائل الواضحة فليس الكلام فيها، فلا يتصور المسألة تصورًا واسعًا، لا يتصور المسألة تصورًا دقيقًا، لا يستخدم أصول الفقه في الاستنباط، بخلاف كتب الفقه الموسعة.

تُستخدم أصول الفقه في كتب الحديث المطولة إذا احتاج إلىٰ الترجيح في الخلاف.

من الفروق المهمة أنّه يظن طالب العلم أن شارح الحديث أقرب إلىٰ الاجتهاد من شارح المتن الفقهي، أو يكون شارح المتن الفقهي ولو كان يورد الأدلة أو كذا، لكنه لا يسلم من التعصب، أما شارح الحديث فقد يظن كثير من طلاب العلم أنه يسلم من التعصب، فيقبل علىٰ كتب الحديث بناءً علىٰ أن أصحابها متجردون -رحم الله أهل العلم جميعا-، وكتب الفقه يقول: لا؛ عندهم تقليد، وعندهم نصرة لمذاهبهم، فلا ينظر فيها. وهـٰذا غلط من جهة أنّ أصول الاستنباط التي بها يستنبط العالم ما هي؟ العالم الذي سيشرح كتب الحديث يستنبط من الأدلة ويرجِّح بناءً علىٰ ماذا؟ لا شك أنه بناء علىٰ ما عنده من أصول الفقه؛ لأنّ أصول الفقه هي أصول الاستنباط، فهو سينظر في هـٰذه المتون، ينظر في هـٰذه الألفاظ؛ ألفاظ الأحاديث ويستنبط ويرجِّح بين الأقوال، لكنه لن يسلم من التقليد لأنه سيرجِّح بناءً علىٰ ما في

مذهبه من أصول الفقه، ويظنّ الناظر أنه يرجّح بناءً علىٰ الصحيح المطلق، وهٰذا غير وارد البتة، لأنّه ما من شارح للحديث، إلا وعنده تبعيَّة في أصول الفقه، أصول الاستنباط، فهو سيشرح ويقول: هٰذا الراجح لأنه كذا. فيأتي طالب العلم المبتدئ أو المتوسط ممن ليس له مشاركة في الاستنباط عميقة، فينظر إلىٰ ترجيح صاحب الحديث بأنه أكثر تجرُّدًا من ترجيح صاحب الفقه، وهٰذا غلط لأن صاحب الفقه متأثر في استنباطه بمذهبه، وكذلك شارح الحديث متأثِّر في استنباطه بمذهبه، لكن بما أنه يشرح الحديث فينظر الناظر إلىٰ أنه متجرد، وهو متجرد بلا شك لن ينصر ما يعتقد أنه غير صحيح، لكن سيتأثّر من الباطن بأصول الفقه التي دَرَسَها، ولهٰذا لا بدّ أن تعلم أن الشرّاح إنما هم أتباع مذاهب، وليسوا مجتهدين الاجتهاد المستقل أو المطلق، لأن الاجتهاد المطلق أو المستقل -علىٰ خلاف في التسمية والتعريف- راجع إلىٰ أنه يجتهد في أصول الفقه كما أنه يجتهد في النظر في الرجال، فله اجتهاداته في الفنين جميعًا، مثل الأئمة الأربعة، وبعض من اندرست مذاهبهم كسفيان والأوزاعي وابن جرير، فهؤلاء لهم اجتهادات في أصول الفقه وفي الرِّجال جميعًا، وكذلك ابن حزم له طريقة مخالفة لما قبله في أصول الفقه -أصول الاستنباط- وكذلك في النظر في الرجال، لا يقلد، وإنما له نظره المستقل، فهٰذا يسمىٰ مجتهد مستقل، لكن بعدما دوِّنت المذاهب وانتشرت لا يوجد هٰذا، حتىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ- فإنه في أصول الفقه وهي أصول الاستنباط يتبع مذهب الحنابلة، إلا ما ندر مما رجحه أو بحثه بحثًا مستقلًا، مثل الكلام في عموم البلوىٰ وأشباه ذلك، في مسائل أخذها من غير أصول الحنابلة، ولهٰذا إذا نظرت في المسودة، مسودة آل تيمية في أصول الفقه وجدت أن استدراكات شيخ الإسلام علىٰ قول أبيه وجده في هٰذه المسائل نادرًا أو قليلًا.

إذا أتيت إلىٰ مثل الحافظ ابن حجر والنووي وأشباه هؤلاء، فإنهم من جهة الاستنباط سيدخلون في النظر، هل هٰذا اللفظ من ألفاظ العموم أم لا؟ هل المفهوم يخصص أم لا ؟ هل مفهوم المخالفة معتبر في هٰذا أم لا ؟ هل الدلالة دلالة نصية أو دلالة ظاهر؟ هل ينسخ هٰذا هٰذا أم لا؟ فيرىٰ طالب العلم الذي ليس عنده مشاركة في كتب أهل العلم في الأصول، يرىٰ أن ما ذكره شارح الحديث أرجح مما ذكره الفقيه، لِمَ؟ لأنّ هٰذا يشرح كتاب الحديث ويعتمد علىٰ السنة وذاك يعتمد علىٰ كتاب المذهب، وهو في الواقع ليس الأمر كذلك، لأن هٰذا وهٰذا جميعًا يتأثر في الاستنباط والنظر بأصول الفقه التي دَرَسَها. وهي أصول مذهبه.

فالنووي وابن حجر رحمهما الله تعالىٰ في الاستنباط في أكثر المسائل؛ بل في جلِّ المسائل هم تبع للشافعية، ويأتي الناظر ويقول: رجّحه النووي، ويذهب عن قول ابن قدامة مثلًا أو يذهب عن قول فلان من الحنفية أو غيره باعتبار أن ذاك ينصر مذهبه لأنه رأىٰ القول في كتاب فقهي، وهٰذا لم ينصر مذهبه باعتبار أنه وجده في كتاب شرح مسلم أو البخاري أو غير ذلك، هٰذا من عدم معرفة الفرق بين كتب الفقه وكتب الحديث.

في كثير من المسائل يأتي طالب العلم وينقل أقوالًا عن الحافظ ابن حجر أو عن النووي، حتىٰ في

صورة المسألة، حتىٰ في نوعية النظر في الخلاف، وإذا تأمل وتوّسع وجد أنهم نقلوها من كتب الفقه الشافعية، وعلماء الشافعية -رحمهم الله تعالىٰ- خدموا كتب الحديث، ولهٰذا صارت ترجيحات المحدثين المتأخرين - أو ترجيحات الناظر في كتب الحديث من المتأخرين- تبعًا لترجيحات الشافعية لأنهم خدموا كتب الحديث أكثر من غيرهم. خدمة الحنفية لكتب الحديث قليلة، خدمة الحنابلة لكتب الحديث أقل، وهكذا.

فإذن طالب العلم الذي يريد أن يؤسس نفسه من جهة النظر - بدون أن يكون يومًا بالخليصا ويومًا بحزوىٰ- يكون دقيقًا في النظر في أنه ينظر في كتب الفقه وكتب الحديث ويعلم هٰذه ما مميزاتها، وهٰذه ما مميزاتها.

وحتىٰ تصل إلىٰ منهجية دقيقة في هٰذه المسألة فرتِّب نفسك في مراحل:

المرحلة الأولىٰ: أنه إذا عرضت لك المسألة في كتب الحديث، فاطلب تصورها من كتب الفقه، لأن تصوير شروح الحديث غالبًا ما يكون ناقصًا، بناءً علىٰ أنّ الناظر في هٰذا الكتاب -وهو كتاب فيه الخلاف والترجيحات- ليس من الطلاب المبتدئين، بخلاف حال كثيرين من الشباب أو طلبة العلم الصغار، فإنه يقبل علىٰ هٰذه الكتب المطولة وهو لا يعرف صورة المسألة أصلًا أو مقدماتها في كتب الفقه.

فأولًا تطلب صورة المسألة من كتب الفقه.

[المرحلة الثانية]: ثم تنظر في كتب الفقه ما دليل المسألة؟ فإن كان دليلها من القرآن فهٰذه ظاهرة في أنك لن تجد الكلام مفصلًا عليها في كتب الحديث إلا إذا كان ثم حديث يدل عليها، فإذا كان دليلها من القرآن فتحتاج إلىٰ كتب أحكام القرآن، كتب أحكام القرآن كل كتاب تبع لمذهبه، «أحكام القرآن» للقرطبي مالكي، «أحكام القرآن» لإلكيا الهراس شافعي، «أحكام القرآن» للجصاص حنفي، «أحكام القرآن» لعبد الرزاق الرسعني حنبلي، وهكذا.

فإذن هناك تأثيرات أيضًا من هٰذه الجهة، فلا يظن الظان أنه بوجود المسألة في كتاب أحكام القرآن فإنه خلص الناظر فيها وهو المؤلف من التقليد، ليس كذلك، بل تجد أنهم ينصرون مذاهب فيها الدليل واضح من الكتاب، لكن يدخلون في النظر منه من جهة أصول الفقه، فينصرون المذهب الخاص لقناعتهم بذلك. من جهة الدليل والاستدلال.

فإذن صورة المسألة أولًا أخذناها، ثم يليها دليلها، فإن كان من القرآن فظاهر.

[المرحلة الثالثة]: إذا كان من السنة فتنظر إلىٰ قول شارح كتاب الفقه، وبعده تنظر إلىٰ قول علماء الحديث وشراح الحديث في كتبهم، فيكون النظر في كتب أهل الحديث المطولة نظر في هل إيراد هٰذا الكتاب -الكتاب الفقهي- لهٰذا الدليل والاستدلال كاملًا أم غير كامل؟ هل الأسانيد صحيحة أم لا؟ هل الدليل صحيح من جهة النقل أم لا؟ ثم النظر في الدلالة، هل هي كما قال أم لا؟ فيكون في هٰذه المرحلة تخدم كتب الحديث كتب الفقه ويكون الناظر في كتب الحديث مؤصلًا في المسألة الفقهية بعد معرفة دليلها.

المرحلة الرابعة: أن ينظر في الدليل إذا كان من جهة القواعد.

القواعد -كما ذكرنا- قسمان: قواعد متفق عليها، وقواعد مختلف فيها.

القواعد المتفق عليها: هـٰذه تمشي مع جميع المذاهب.

أما المختلف فيها: فكل مذهب له قاعدة، ودليل هـٰذه القاعدة في المذهب تارة يكون مبنيًا علىٰ فهمهم لدليل من الكتاب أو السنة، وتارة يكون مبنيًا علىٰ فروع منقولة عن إمام المذهب.

فإذا كان الدليل من التقعيد عامًا يعني من القواعد الكلية فإن هـٰذا القول به ظاهر وواضح، أما إذا كان هـٰذه القاعدة دليلها خاصًّا بمذهب أو فروع منقولة في مذهب فإنه لا تخلو المسألة أيضًا من جهة النظر إلىٰ تنازع في الفهم والدِّلالة وفي دليل هـٰذه القاعدة، تجد قواعد يستدل بها الشافعية لا يوافقهم عليها الحنابلة، قواعد عند الحنفية ليست مستقيمة عند المالكية والحنابلة والشافعية، قواعد يذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية خرج بها عن بقية المذاهب، تعقيدات واضحة من دلالات النصوص، العز بن عبد السلام أتىٰ بقواعد في كتابه «القواعد الكبرىٰ»؛ قواعد الأحكام في مصالح الأنام في كثير من التقعيدات -كثير ليس الأكثر- خرج بها عما هو صواب في نفسه، وهكذا.

فإذًا إذا كان الدليل بالقاعدة لا يعني أنه صحيح مطلقًا، بعض طلبة العلم أو الشباب إذا قيل له القاعدة كذا يظن إنها خلاص انتهت مسلّمة، بمعنىٰ أنها كالنص، لا، ينظر في القاعدة إذا كانت كلية فهـٰذا صحيح، أما إذا كانت قاعدة خاصة بمذهب من المذاهب فيعرض لها النزاع كما يعرض لأي مسألة فقهية.

بعد ذلك تنظر في قول الصحابي، هل استدلوا بأقوال الصحابة أم لا؟ هل هـٰذا الصاحب له مخالف أم لا؟ إلىٰ آخره، تنظر فيما يأتي به من الأدلة.

الآن تقسيم آخر:

وللنظر في كتب الفقه أو كتب الحديث رتِّب نفسك في تصوّر أي مسألة لاستيعاب ما فيها بهـٰذه المراحل الستة:

الخطوة الأولىٰ: تصوير المسألة.

يعني أي مسألة تعرض عليك في كتب الفقه أو كتب الحديث رتبها حتىٰ تفهمها بدقة علىٰ هـٰذه المراحل الستة...

هـٰذه المسألة ما صُورتها في الواقع؟ ما صورتها التي تخرجها عن ما عن غيرها ؟ ما صورة هـٰذه المسألة التي تتميز عن مثيلاتها؟ أولا صورة المسألة.

الخطوة الثانية: **حكم المسألة** بحسب ما عُرف في كتاب فقه أو كتاب حديث إلىٰ آخره، ما حكمها ؟ مثلًا في المتن الفقهي يقول : كذا جائز، أو: ويشترط كذا. فما هي صورة هـٰذا الشرط ، والشرط حكم فتفهم الصورة ثم تفهم الحكم.

الخطوة الثالثة: **دليل هـٰذا الحكم**، بحسب إيراد المؤلف، ما وجهه؟ ما هو دليله؟ ثم ينظر في هـٰذا الدليل بحسب الخطوات التي ذكرتها لك من قبل. دليل الحكم الذي أورده المؤلف.

الخطوة الرابعة: وجه الاستدلال، وهو استخدام أصول الفقه في النظر في الأدلة، وجه الاستدلال ما هو؟ كيف استنبط من هٰذا الدليل ذلك الحكم.

الخطوة الخامسة: الخلاف في المسألة، ما هو الخلاف في المسألة؟ الأقوال الأُخر؟ وذاك القول الآخر تعمله بنفس الطريقة، ما دليل القول الآخر؟. ما وجه الاستدلال؟ إلىٰ آخره.

الخطوة السادسة: الترجيح.

فلو جعلت لكل مسألة في كتاب فقه أو كتاب حديث هٰذه المراحل في النظر، وجدت أن كتب الفقه وكتب الحديث غير متعارضة، متفقة، هٰذا يخدم هٰذا وهٰذا يخدم هٰذا، وهو الذي تراه في صنيع العلماء والأئمة، ما ترىٰ عالمًا يزهِّد في كتب الفقه، أو ترىٰ عالمًا يزهد في كتب الحديث، حاشا وكلا، بل يقول: كتب الحديث هي الأصل، وكتب الفقه هي استيعاب للأبواب بحسب أدلة المسائل.

هٰذا يحتاج إلىٰ مزيد بسط وتفصيل في بعضه، لكن الخلاصة من هٰذه الكلمة الموجزة أن طالب العلم ينظر إلىٰ كتب الفقه وكتب الحديث علىٰ أنها شيء واحد غير منفصل.

وإذا نظر الناظر وقال: لا، ليس الأمر كذلك، كتب الحديث هي الأصل استنباط من السنة، وأما كتب الفقه فهي آراء الرجال، فنقول: هٰذا الكلام غير دقيق، لمن مارس النظر في هٰذه وهٰذه، ولمن استقبل استفتاءات النّاس ومشاكل النّاس، لكن طالب العلم من حيث نظره لنفسه صح، هو يحتاج إلىٰ نوع معين فيستوعب ما فيه، لكن من حيث فهم الباب فهمًا كليًّا فإنه لا بد له أن ينظر في هٰذا وهٰذا، لا يستغني عن هٰذا ولا عن هٰذا.

جرّب في هٰذه وخذ مسألة، وانظر لها في كتاب فقه، فتجد أنها مذكورة ودليلها وقد يكون ثم خلاف بحسب الحكم، لكن تجد أنها في شرح كتاب من كتب الحديث إن كان مطولا قد يورد لك خلاف وأقوال فيها، إذا نظرت في كتاب فقهي أطول منه ستجد أنه يورد هٰذا، وذكرت لك في البداية كتب ابن المنذر، فإن كتب أهل الحديث في الخلاف وكتب الفقهاء أيضا في الخلاف، معتمدة بكثرة علىٰ كتب ابن المنذر، ومنها الموجود ومنها غير الموجود، وكتب ابن المنذر من أشهرها الأوسط والبسيط، الأوسط موجود أكثره، والبسيط موجود قطع يسيرة منه، ونحو ذلك، وكتب ابن عبد البر، تجد أنه ما يورد في «المغني» أو ما يورد في «المجموع شرح المهذب» أو في خلافيات أهل العلم هي مبنية علىٰ هٰذه الكتب.

فإذن الناظر من طلاب العلم ينبغي له أن يكون جامعًا في النظر بين هٰذا وهٰذا، لا يكون زاهدًا في كتب الفقه فيُحرم النظر وفهم الفقيه وذهن الفقيه وشمولية الفقيه في الباب، ولا يكون زاهدًا في كتب الحديث لأجل أنها أدلة، والأدلة موجودة في كتب الفقه، فيفوته كثير من البسط في المسائل والخلاف ومعرفة آراء أهل العلم في المسألة، حتىٰ يكون ترجيحه ونظره علىٰ أساس؛ وهو الاطلاع علىٰ أقوال الناس في المسألة .

نكتفي بهٰذا القدر في هٰذه المقدمة، وهي لها في الحقيقة ذيول وشروح وبسط، ونستقبل بعض الأسئلة.

[الأسئلة]

سؤال (٠١): قد يعترض شخص ويقول: إننا لو تأملنا الكتب في شروح الحديث لرأيت أنهم أقل خطأ من غيرهم، من الذين أقروا ... كتبًا في الفقه، فنجد المحدثين لا يستدلون بقول صاحب، ولو وجدوا حديثا ولو ضعيفًا، والفقهاء أغلبهم يقدمون الرأي علىٰ الحديث إذا ضعف، فهل هٰذا الكلام صحيح؟

الجواب: المشكل في مثل هٰذه المسائل أن يكون طالب العلم الذي يُلقي مثل هٰذه الإشكالات، أن يكون عنده النظري واسع، والتطبيق قليل، أي أنه فهم هٰذه الكليات من دون ممارسة، لكنه لو مارس ممارسة واسعة لوجد أن هٰذا الكلام غير صحيح، فيقول: لو تأملنا في كتب شروح الحديث لرأيت أنهم أقل خطأ من غيرهم، هنا أقل خطأ مبني علىٰ ماذا؟ علىٰ أنهم أقل خطأ من الفقهاء مبني علىٰ إيش؟ لا شك أنه لا بد أن يكون عند الناظر ترجيح في كل مسألة من أن كلام الشارح أرجح من كلام الفقيه المعين، وكلامنا ليس علىٰ الترجيح بين فلان وفلان، بين ابن حجر وابن قدامة، بين النووي وابن قدامة أو نحو ذلك، ليس الكلام في هٰذا، الكلام في ميزة كتب الفقه وكتب الحديث وما الفرق بينهما حتىٰ يستوعب طالب العلم هٰذا الفرق، وكون كتب الحديث أقل خطأ الجواب ليس كذلك، هي فيها مَعْرِض للاجتهاد والنظر، وكتب الفقه فيها معرض للاجتهاد والنظر.

كتب الفقه تختلف بحسب صاحب الكتاب الشّارح، فإذا كان محققا عالمًا فيكون رؤيته في المسائل وترجيحاته بناءً علىٰ نظره في الأدلة، نظره في القواعد إلىٰ آخره، هٰذه مكانة العالم، ونظر المحدث قد يكون ضعيفًا، مثلًا خذ شروح طائفة من علماء الهند لكتب الحديث، هي شروح أحاديث؛ لكن كثير من علماء الهند شرحوا «البخاري»، شرحوا «مشكاة المصابيح»، وبعضهم شرح «مسلما» أيضًا، منهم من شرح «الترمذي»، لكن شرحهم له هل هو علىٰ طريقة أهل الحديث، أو علىٰ طريقة الحنفية؟ أكثرها علىٰ طريقة الحنفية، فيقرر لك مذهب الحنفية من دون أن تشعر، فيأتي الناظر ويقول: هٰذا كله سنة وأدلّة إلىٰ آخرها، لكن أدلة الآخرين قد يورد منها دليلًا أو دليلين ويكون هٰذا الذي أورده ليس هو الحجة في الباب.

إذا نظرت إلىٰ بعض كتب الحديث المتقدمة مما فيه نصرة لمذهب معين، مثل مثلًا كتاب البيهقي «السنن الكبرىٰ» و«السنن الوسطىٰ» و«السنن الصغرىٰ» له هٰذه كلها مطبوعة، تجد أنه أراد الاستدلال لأقوال الشافعي، أتىٰ التركماني في تعقباته، وعارض ما استدل به البيهقي في المسائل، الحنابلة في بعض المسائل لهم رأي آخر.

فإذن اعتماد العالم علىٰ الأثر والحديث تكون الحجة معه ويكون أقل خطًا ممن يكون اعتماده علىٰ النظر والرأي، هٰذه كلية صحيحة، ولهٰذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في موضع له أظنه في أول «الاستقامة» يقول: إن أهل الحديث – أو الذين يعتمدون علىٰ الأثر من أهل العلم– هم أقدر الناس علىٰ الفتوىٰ بما يناسب الزمان الذي يعيشون فيه، لأن الفتوىٰ تتغير بتغير الزمان، فيكون عنده انطلاق وسعة

في الفتوىٰ، بخلاف أهل الرأي والفقه الجامد فإنهم يكونون عند النظر في المسائل النازلة والحادثة أكثر انحباسًا وأقل انطلاقًا فيها، لِمَ؟ لأن هـٰذا ينظر في النصوص ويستنبط منها، وذاك ينظر في نصوص إمام ويريد أن يطبِّقها، ونص الشارع يستوعب الأزمنة والأمكنة وأما نص الإمام المعين -علىٰ جلالته- فإنه كان بناءً علىٰ البلد التي كان فيها، ولهـٰذا صاحب الأثر، -نقول : نعم-، أقل خطأ من صاحب الرأي وصاحب الفقه المجرد من الدليل، هـٰذا لاشك، فذاك تكثر أخطاؤه وهـٰذا أقل، لكن بالنسبة لكتاب حديث وكتاب فقه، لا، يكون بحسب المؤلف، المؤلف من هو؟ انظر مثلًا للفرق بين «سبل السلام» و«نيل الأوطار»، تجد أن الفرق واضح بين هـٰذا وهـٰذا، الشوكاني مثلًا في مصطلح الحديث وفي النظر في الإسناد تبع للحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» ونحوه، ما له اجتهاد في الإسناد ولا يعرف الرجال ولا طبقاتهم ولا كذا. وإن كان نظر فيه فهو مقلد بحت، إذا أتىٰ في الأصول فله اجتهادات في الأصول ربما خالف بها أئمة المذاهب، ربما له اجتهادات،كما في «إرشاد الفحول»، يرىٰ أشياء مخالفة للجميع، طيب، يرىٰ الناظر مثلًا في نيل الأوطار فإذا صحح ورجح يقول هـٰذا مجتهد، يعني لا يقلد ولا يتعصب للآخرين، لكن ملكته الاجتهادية ليست كاملة لأنه في الأسانيد مقلد، فقليل ما يكون عنده معرفة بالتخريج والإسناد استقلالًا، وإنما هو ناقل عن غيره، لكن من جهة الأصول نعم، من جهة الإطلاع يخفي عليه بعض الأقوال وبعض الأدلة، فهو يرجح بناءً علىٰ ما أورد، لكن يكون في المسألة أدلة أخرىٰ، قواعد، لصاحب هـٰذا القول، لا يوردها، وفي الغالب هو لخّص الفتح وزاد عليه، لكن في «سبل السلام» تجد أن صاحبه ينظر نظرًا آخر لأنه لخص كتاب «البدر التمام» وزاد عليه أشياء، فالنظر مختلف، نظر شرح الحديث في «سبل السلام» مختلف من حيث الوجهة والمنهج عن «نيل الأوطار»، وهما كتابا حديث، هـٰذا «شرح البلوغ»، وهـٰذا «شرح المنتقىٰ».

إذن فهـٰذا القول ناتج من عدم الاستيعاب، وعدم معاناة كتب الفقه وكتب الحديث ولو عانىٰ واستوعب لوجد أن المسألة ليست علىٰ ذلك، أما قوله: إن الفقهاء أغلبهم يقدمون الرأي علىٰ الحديث إذا كان الرأي فيه ضعف. هـٰذا غير صحيح.

سؤال (٠٢): ما هي عقيدة الماوردي، وما رأيكم في كتابه «الأحكام السلطانية»؟

الجواب: الماوردي أشعري، واتهم بالاعتزال، وهو صاحب تفسير «النكت والعيون»، طبع في الكويت ثم طبع في غيرها، واتهم بالاعتزال في مسائل وفي الجملة هو أشعري المذهب. وكتابه «الأحكام السلطانية» من جهة الإمامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير دقيق، غير موافق لتفاصيل مذاهب السلف.

سؤال (٠٣): يقال: إن ابن حزم مذهبه ظاهري؟

الجواب: وهل يشك في ذلك أحد؟!! ابن حزم ظاهري في الفقه وفي غيره.

سؤال (٠٤): من المعروف عند أهل الحديث أنه لا ينظر إلىٰ حال الصحابي وعدالته وشخصيته فهو ثقة في جميع الأحوال، لما لهم من المنزلة الرفيعة، ولكن يعارض هـٰذا أن الصحابة رضوان الله عليهم لا

يسلمون من سوء الحفظ وبينهم منافقون، وقول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٠٦]، الآية نزلت في أحد الصحابة، وكيف لا ينظر في عدالة الصحابي، أرجوا التوجيه ؟

الجواب: إذا كان الله -جل وعلا- هو الذي زكىٰ الصحابة وهو الذي عدلهم فلا قول لأحد، وبحث عدالة الصحابة بحث مطول معروف، والذي أورد هٰذه الشبهة من الزمن الأول المعتزلة، وهي شبهة موجودة عند الزيدية في هٰذا الزمن وما قبله، ولهٰذا تجد أن ابن الوزير اليماني أفاض في رد هٰذه الشبهة، في كتابه «الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم»)، وفي كتاب آخر سماه «العواصم والقواصم».

سؤال (٠٥): هٰذه المرة الأولىٰ التي أحضر فيها هٰذا الدرس، وهو أول درس أحضره، سؤالي: هل بدايتي في طلب العلم صحيحة بهٰذا الدرس، أم علي أن أحضر درسًا قبل هٰذا الدرس، وماذا تقول فيما يرد علىٰ الذهن أحيانًا من أن طلب العلم يحتاج إلىٰ صاحب عقلية فذة، وأما غيره فلا نصيب له من العلم؟

الجواب: الكاتب ما شاء الله خطه جميل، وسياقه لما أورد سياق جيد وصحيح؛ يعني من حيث العربية، تركيب جيد، وهٰذا يدل علىٰ أنه مؤهل لطلب العلم، والاستدلال بالخط علىٰ العقلية لها أصل، الحافظ الذهبي كان مقرئًا من القراء، قرأ بالعشرة وله كتاب «طبقات القراء»، كان من أسباب توجهه للحديث أن أحد مشايخه قال له حينما رأىٰ خطه -خطه غير جيد-، قال له: خطك يشبه خط المحدثين، قال: فوقع حب الحديث في قلبي، ونقول للأخ: خطك يشبه خط العلماء فتوجه إلىٰ الخير.

سؤال (٠٥): ما الذي يمنع أن يكون النووي مثلًا مجتهدًا مستقلًا، فله اجتهادات في الأصول؟

الجواب: مجتهد مستقل؟ لا هو شافعي مجتهد في المذهب، لا مجتهد مطلق فضلًا من أن يكون مجتهد مستقل، وإذا كان مجتهدًا في المذهب لا يعني أنه يرجح في مسألة أو مسألتين أو خمس أو عشر غير مذهب الشافعي، لكن هو استيعابه لأقوال المذهب، وأما «المجموع شرح المهذب» فهو بداية للنووي رحمه وتوفي قبل إكماله، وأوله إلىٰ كتاب الحيض -كما تعلمون- مطول وحاول أن يستوعب فيه الأقوال والروايات والنظر، ثم طال عليه فاختصره بعد ذلك. مثل الحافظ ابن حجر أراد أن يشرح البخاري شرحًا مطولًا فصعب عليه ذلك فشرحه شرحًا متوسطًا وهو «فتح الباري»، هٰذه ذكرها بعض أهل العلم ونقلها الكتاني في «فهرس الفهارس والأثبات»، عن بعضهم وقال هو علىٰ عهدته، وجدت له ما يؤيد هٰذا الكلام.

سؤال (٠٦): هل المقصود بأهل الحديث الذين يدرسون علم الحديث والمصطلح وعلم الرجال والجرح والتعديل، أم أن المراد بأهل الحديث الذين ورد ذكرهم عند بعض السلف؟

الجواب: فإذا قيل: أهل الحديث، فثم إطلاقان:

أهل الحديث باعتبار العقيدة باعتبار السنة.

وأهل الحديث باعتبار الرواية.

فإذا قيل: أهل الحديث، فهٰذا يشمل رواة الأحاديث، وقد يكون في نفسه ليس من أصحاب العقيدة

الصحيحة، ليس على عقيدة أهل الحديث.

وأهل الحديث من جهة العقيدة قد يكون فقيها ليس عنده علم بطريقة أهل الحديث في الرواية والإسناد وطبقات الرواة ومصطلح الحديث والجرح والتعديل، لكن يكون على عقيدة أهل الحديث فهو من أهل الحديث.

فإذن أهل الحديث لها إطلاقان، إطلاق يدخل فيه الرواة، وهذا إذا نظر إلى جهة الرواية فقط، وإطلاق يراد به صحة الاعتقاد فهو الذي قال فيه الإمام أحمد لما سئل عن الطائفة المنصورة والفرقة الناجية، قال: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم. قد يكون فقيها يكون موافق لأهل الحديث، فأهل الحديث الذي يعتقدون ما جاء في الأحاديث ولا يردون الحديث بالعقل، هذا من أهل الحديث بعام، وأهل الحديث باعتبار الرواية نعم كل راو يكون من رواة الأحاديث يدخل في مسمى أهل الحديث، في التقييد.

سؤال (٠٧): هل هناك مراجع تكلمت عن هذا الموضوع بإسهاب؟

الجواب: هي موجودة في كتب آداب الطلب في بعضها، وهي مجموعة من جهة الممارسة.

سؤال (٠٨): ما رأيك فيمن قال: إن الإمام المجدد يعني الشيخ محمد بن عبد الوهاب حنبلي غير مجتهد، وليس عنده نظر في الأدلة وأنه متميز في التوحيد فقط؟

الجواب: هذا قول قاله بعض العلماء؛ لكن منشأ هذا القول عدم معرفة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، وعدم معرفة كتبه، ولا حال نجد قبل مجيء الدعوة، نجد قبل مجيء الدعوة لا تعرف كتب الحديث أصلًا، ترى في رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، يقول لأحد أهل العلم كاتبه في رسالة قال: وقد نظرت يومًا عندك في كراريس نقلتها من أول البخاري في مسألة الإيمان إن هذا هو الحق، فسرني ذلك لما أعلم من أن ذلك مخالف لطريقة آبائك وأجدادك. لأنهم أشاعرة، يعني لمن وجه له الكلام، نجد نادرًا تجد فيها كتاب حديث، إذا وجد ففيها البخاري للبركة لكن تجد السنن، تجد شروح الأحاديث؟ لا تجد وإنما فيه كتب الفقه وبعض البخاري للبركة وليس للنظر.

لما أتى الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى- بدعوته امتلأت الدرعية بكتب الحديث حتى ترى أن الشيخ سليمان بن عبد الله في كتابه «تيسير العزيز الحميد» نقل عن أكثر من ستمائة كتاب من كتب الحديث بعضها لا نعرفه الآن، منها أشياء المعوّل في النقل عليه، ما ندري عنها أي هذا الكتاب، إلا عنده، والكتاب معروف لكنه انتهى. أُخذ لما جاءت الجيوش أو الحملة الظالمة، وأخذوا ما أخذوا من كتب الحديث وفرقوها.

فالشيخ محمد بن عبد الوهاب أبناءه محدثون، الشيخ عبد الله له شرح في «البخاري»، الشيخ سليمان بن عبدالله أيضًا له شرح في «البخاري» يومي بعد المغرب في مجلس الأمير، يذهب في الإمارة ويلقي هذا الدرس، وصفه ابن بشر، كذلك لهم إقراء في «مسلم» والسنن وفي «المنتقى» وفي «البلوغ» إلخ. وأنت لو ذهبت إلى غير هذه البلاد وجدت أن العناية بكتب الحديث لا توجد إلا عند السلفيين، والسلفيون من أين جاءتهم العناية بكتب الحديث، هل هي ممتدة عندهم في بلادهم ورثوها؟ أم كانت

نتيجة الدعوة السلفية؟ اهتمام أصحاب الحديث وأتباع الدعوة السلفية بكتب الحديث وكتب فقه الحديث كان ناشئًا من اهتمام علماء الدعوة بها، لكن كثرة كلامهم في الفقهيات وقلة كلامهم في كتب الحديث وشروح الأحاديث فيما بين أيديكم الآن له سبب وهو أن أكثر كلامهم كان لأجل الحاجة، حاجة العامة، حاجة الناس، هم أئمة دعوة، معلمون، مفتون، مدرسون، يستقبلون كلام الناس يستقبلون الفتاوىٰ والإشكالات، أمامهم دولة وإرساليات قاضي عليه مشكل، ومفتي في بلد استفتىٰ فأرسل، فكان كلامهم راجعًا إلىٰ قولٍ فصل في المسألة بما هو راجح عندهم لأجل الحاجة العملية لذلك، ولو دُرست دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب دراسة جيدة لوجد أن سبب توجه الناس في كثير أو الأكثر من بلاد المسلمين اليوم من جهة السَّلفيين كان ناتجًا من اهتمام الدعوة بكتب الحديث. «كتاب التوحيد» فيه في كل باب: رواه أبو داود بإسناد جيد بإسناد حسن، هٰذا حديث صحيح... إلخ

كيف يقال: إن الشيخ ما يميز صحيح الحديث من سقيمه !!

والعالم الذي ذكر هٰذا الكلام عن الشيخ بناه علىٰ استدلاله بحديث خروج المصلي إلىٰ المسجد، يعني دعاء المشي إلىٰ الصلاة: اللّٰهمَّ إني أسألك بحق السائلين عليك ... حديث أبي سعيد الخدري، وقال إنه أورده في أول كتاب «آداب المشي إلىٰ الصلاة» وهو حديث ضعيف، وهٰذا يدل - هٰذا كلام ذلك العالم-علىٰ أنه لا يميز بين صحيح الحديث من سقيمه.

نقول: هٰذه النتيجة صحيحة لو كان الأصل الذي بُنيت عليه صحيحًا، فهو قال هٰذا الحديث ضعيف، ولهٰذا الشيخ لا يميز صحيح الحديث من سقيمه، نقول: أنت ضعفت الحديث لكن الحافظ ابن حجر حسنه، فالشيخ إذا أخذ كلام الحافظ وحسنه وأورده، وأورد هٰذا الحديث فهل يشترط لدرايته صحيح الحديث من سقيمه أن يتبع رأي أحد العلماء جاء بعده بمائتي سنة، أو ثلاثمائة سنة، هٰذا ما يقوله منصف، لأن نفس الأحاديث مختلف فيها بعضهم يصحح وبعضهم يضعف.

فليس دليل الحكم علىٰ الإمام محمد بن عبد الوهاب أنه لا يدري أنه أورد حديثًا هو عند بعض العلماء ضعيف هٰذه حجة واهية، كون بعض العلماء ضعفه وهو أورده بناء علىٰ من صححه، هٰذا لا نخلص منه بما ذُكر.

سؤال (٠٩): قرأت «مختصر تفسير ابن كثير» للرِّفاعي، فماذا أقرأ بعد ذلك في التفسير؟

الجواب: تقرأ كتاب ابن كثير الأصل مرة ثانية وثالثة فيه بركة، إذا أردت أن تتوسع ترجع لابن جرير في بعض الآيات المشكلة، كتاب «أحكام القرآن» للقرطبي، وما شابه ذلك.

سؤال (١٠): ما معنىٰ أشعري المذهب ؟

الجواب: يعني أنه يتّبع في العقيدة أبا الحسن الأشعري.

سؤال (١١): هٰذا يسأل يقول: أن أحد الأخوان نصحه بأن لا يحضر دروس الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز حفظه الله، ويعلل ذلك بأن الشيخ -حفظه الله- لا يصلح لمن ابتدأ لطلب العلم لأن الشيخ يعلق تعليقات بسيطة لا تصلح إلا لمن تبحّر في طلب العلم؟

الجواب: هٰذا يرجع إلىٰ استيعاب طالب العلم، إذا كان يحضر ويستوعب ويفهم فكلام الشيخ درر، وهو ما ينبغي العناية به من كلام أهل العلم في هٰذا الزمن حفظه الله.

سؤال (١٢): أيهما أصح عبارة: التوحيد هو أهم الواجبات، أو التوحيد أول الواجبات؟

الجواب: هو أول واجب وآخر واجب وأهم واجب فيما بينهما. أول واجب يعني قبل البلوغ، وآخر واجب قبل الممات، وما بينهما هو أهم الواجبات.يعتني بالتوحيد.

سؤال (١٣): لماذا يذكر قوم لوط في القرآن بفعلهم ولم يذكروا بكفرهم؟ فهل هم مسلمون قبل دعوة النبي لوط أم ماذا؟

الجواب: هٰذا سؤال معروف، وفي جوابه نرجع السائل إلىٰ كتب التفسير؛ لأني ما أريد أن يأخذ كلامي، لأن هٰذه شبهة أوردها طائفة من المعاصرين بأن نبيًّا – وهو لوط عليه السلام – إنما ذكر عنه النهي عن الفاحشة فقط، وأصاب القوم ما أصابهم إلخ. أولئك لم يكونوا كفارًا، وإذا رجع السائل إلىٰ كتب التفسير في أول موطن ذكرت فيه قصة لوط وجد كلامهم فيه.

سؤال (١٤): هل هناك فرق بين الرِجْل والقدم؟

الجواب: الرِّجل من حيث اللغة يشمل ما بين أطراف الأصابع إلىٰ اتصال الفخذ بالحوض، هٰذا كله رِجل، وهي تشمل الفخذ والركبة والساق والقدم، فإذا قيل: الرجل فتشمل هٰذا جميعًا. والقدم خصوص القدم، ففي الحديث: «**يضع الجبار فيها قدمه**»، وفي رواية «**رجله**»، وفي رواية (رجله) المقصود منها القدم تفسيرها بالرواية الأخرىٰ؛ لأنه يطلق الكل ويراد به الجزء، مثل تفسير قول الله جل وعلا في السارق: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾[المائدة:٣٨]، ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ ليس إلىٰ آخر العضد، وإنما إلىٰ الكف فقط.

سؤال (١٥): هل نكتفي بسماع الشروح العلمية بعد العودة إلىٰ مدننا لقلة المشايخ هناك؟

الجواب: نعم تستمع لشروح الكتب في الأشرطة، وما أشكل عليك تسأل أهل العلم عنه بالهاتف، أو إذا قدمت تجمع الإشكالات، لأن معرفة الإشكال علم في نفسه، إذا استشكلت فهٰذا دليل الفهم، لكن إذا مررت بالكلام ولم تستشكل شيئًا فهٰذا يدل علىٰ إما أنك فهمت كل شيء، وهٰذا -في الغالب- لا يكون في المبتدئ، وإما أن يكون فهمك لا شيء؛ لأنه ما استشكلت شيء،كله واضح واضح، يعني ما فهمت دقائق المسائل، فاستماع الأشرطة طيب، نفع الله بها، لكن لا بد من الاتصال بأهل العلم لأن هناك الهدي والسّمت والدل ورؤية العالم للأمور وكيف يتعامل مع العلم والفقه وكيف يتعامل مع من حوله، هٰذا ما يحصلها طالب العلم إلا بالمخالطة.

سؤال (١٦): ما رأيك فيمن يترك كتب خاصة في المذهب كـ«الروض المربع» و«الإقناع» و«المقنع» وترك البحث في تخريج الرواية الصحيحة للإمام أحمد؟

الجواب: هٰذه مراتب في المذهب، فمذهب الإمام أحمد مرتب، فابن قدامة صاحب «المغني» ترىٰ أنه رتب الكتب في مراحل.

أول مرحلة كتاب «عمدة الفقه».

المرحلة الثانية «المقنع».

المرحلة الثالثة «الكافي».

المرحلة الرابعة «المغني»

ومما سمعت من الشيخ عبد الرزاق عفيفي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كان يقول: ابن قدامة عمل الفقه علىٰ مراحل كالمراحل الدراسية الآن.

فـ«العمدة» للابتدائي، و«المقنع» للمتوسط، و«الكافي» للثانوي، و«المغني» للجامعي. هٰذا ترتيبها، وهٰذا صحيح، ترتيب منطقي.

نكتفي بهٰذا القدر وجزاكم الله خيرًا وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد.

محاضرات (.../...)

كيفية دراسة الفقه

(مقدمة في كيفية الاستفادة من كتب الفقه،

وكيف يدرس طالب العلم الفقه علىٰ أنجع السُّبل)

لفضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ محمد عبد الله ورسوله وصفيه وخليله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدين.

أسأل الله جلّ وعلا لي ولكم التوفيق للصالحات، والسداد في القول والعمل، والإصابة في كل حال، وأسأله سبحانه أن يجعلنا ممن يمن عليه بالعلم النافع والعمل الصالح وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، لا حول لنا ولا قوة إلا به سبحانه، اللّٰهمَّ وفقنا للصالحات، ومُنّ علينا بما تحب وترضىٰ.

أما بعد..

فنذكر مقدِّمة في **كيفيَّة الاستفادة من كُتب الفقه، وكيف يَدرُس طالب العلم الفقه علىٰ أنجع السُّبل.**

أولًا الفقه من حيث مسائلُه:

منه المسائل التي كانت واقعة في زمن النبوة، فنزلت فيها آيات أو آية فأكثر، وبيّن فيها النبي ﷺ الحكم، فهذه مسائل منصوصٌ علىٰ حكمها، وفي الغالب تكون النُّصوص الدَّالة علىٰ ذلك ظاهرة في المعنىٰ، ومنها ما هو قابل لاختلاف المجتهدين في فهم دلالة النصوص علىٰ تلك المسائل.

ومنه مسائل وقعت بعد زمن النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وهٰذه المسائل احتاج إليها الناسُ لتوسع البلاد الإسلامية، ومخالطة العرب لغيرهم، ومعلوم أنّ طبيعة أهل مكة والمدينة وأهل الجزيرة ليست هي طبيعة أهل الشام والعراق وأهل فارس وأهل خراسان وأهل مصر، فطبائع مختلفة في الحالات الاجتماعية، في المساكن، فيما يستخدمون، في الوقت، في الجوّ إلىٰ آخره، فظهرت مسائل احتاج إليها الناس يسألون عنها الصحابة رضوان الله عليهم، وهٰذا هو القسم الثاني، وهي المسائل التي اجتهد فيها الصَّحابة رضوان الله عليهم، واجتهاد الصحابة في هذه المسائل كان مبنيًّا إمّا علىٰ دلالة نص في إدخال مثلًا المسألة في عام، أو في الاستدلال بمُطلق علىٰ هٰذه المسألة، أو بالاستدلال بقاعدة عامة دلّ عليها دليل في هذه المسألة؛ نحو القواعد المعروفة كرفع الحرج، والمشقة تجلب التيسير، والأمور بمقاصدها، ونحو ذلك من القواعد العامة.

وهناك مسائل اجتهدوا فيها، والاجتهاد كان علىٰ غير وضوح في الدليل؛ يعني يُستدل له ولكن قد يُستدل عليه، وهٰذا ظهر وظهرت الأحوال المختلفة بين الصحابة بقوة في هذا الأمر، فهذا النوع مما دُوِّن بعد ذلك في أقوال الصحابة وصارت المسألة عند الصحابة قولين أو أكثر من ذلك.

ممثل حكم الجمع بين الصلاتين للمطر، هل يُقتصر فيها علىٰ المغرب والعشاء أم يُلحق بها أيضًا الظهر والعصر، وممثل الكلام في الأقراء هل هي الطهر أم الحيضات، ونحو ذلك من مسائل اختلف فيها الصحابة، وهذا من نوع الاختلاف الذي له دلالته في النصوص.

هناك مسائل كما ذكرتُ لكم ظهرت مثل استخدام مصنوعات أو أطعمة الكفار التي قد يستخدمون فيها أو في صنعها بعض الأمور؛ مثل أنفحة الميتة ونحو ذلك، هٰذا لم يظهر إلا لما دخل العراق ظهر مثل هذه المسائل، مثل بعض الألبسة الخاصة التي كانت عندهم، مثل الحمام ودخول الحمام، وهو بيت الماء الحار الذي كان في الشام ونحو ذلك، ومثل أنواع من البيوع لم تكن معروفة في زمن النبي -عَلَيْهِ

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وإنما أُحدثت بعد ذلك، وأمثال هذا كثير مما فيه الخلاف بين الصحابة رضوان الله عليهم.

هٰذا الخلاف بين الصَّحابة رضوان الله عليهم غالبه مسائل اجتهاد، وقليل منه مسائل خلاف، والفرق بينهما أنّ المسائل المختلف فيها تارة تكون مسائل اجتهاد، وتارة تكون مسائل خلاف.

فيُعنىٰ **بمسائل الاجتهاد** ما لم يكن في الواقعة نصٌ فاجتهد هذا الاجتهاد، ويُلحق به ما كان فيها نص، ونعني بالنص ما كان فيها دليل من الكتاب أو السنة، لكن هذا الدليل يمكن فهمه علىٰ أكثر من وجه، فاجتهد في المسألة، ففهم من الدليل كذا، وفهم آخر من الدليل شيئًا آخر، مثل ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾[البقرة:٢٢٨]، هنا هل القرء هو الطهر أم هو الحيضة؟ هذه تدخل في مسائل الاجتهاد التي لا تثريب علىٰ المجتهدين فيما اجتهدا فيه.

القسم الثاني: **مسائل الخلاف** وهو وجود خلاف في بعض المسائل، وكما ذكرتُ لكم كان نادرًا عند الصحابة رضوان الله عليهم، والخلاف ما يكون اجتهد برأيه في مقابلة الدَّليل، مثل ما كان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يفتي في مسألة الربا بأنه لا ربا إلا في النسيئة، وأنّ التفاضل في الربويات ليس من الربا، وإنه ليس ثم أصناف ربوية، لكن النسيئة يعني التأجيل، أما التفاضل بين نوعين مختلفين مما هو معروف بربا الفضل فإن هذا لا يعده ربا، هذا اجتهاد في مقابلة النص.

كذلك إباحته مثلًا في زمن طويل كثير من عمره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نكاح المتعة وظن أنّ هذا ليس بمنسوخ ونحو ذلك.

وغير هذا من المسائل التي جاء فيها دليل واضح، هذه تسمىٰ مسائل خلاف، وهذا يكون الخلاف فيها ضعيفًا، ولا يجوز الاحتجاج بمثل هٰذا؛ لأن المجتهد من المجتهدين من الصحابة فمن بعدهم قد يجتهد ويغيب عنه النص، يغيب عنه الدليل، أو يكون له فهم ولكنه معارض بفهم الأكثرين، فهذه هي التي يسميها أهل العلم ويخصها شيخ الإسلام ابن تيمية بالذكر بأنها (مسائل خلاف).

ومسائل الخلاف غير مسائل الاجتهاد، قالوا وعليه فأن المقالة المشهورة «لا إنكار في مسائل الخلاف»، فيكون تصحيحها «لا إنكار في مسائل الاجتهاد» ونفىٰ بمسائل الاجتهاد المسائل التي حصل فيها خلاف، وللخلاف حظٌّ من النظر للخلاف حظ، من الأثر حظٌّ من الدليل.

أما إذا كان القولان: أحدهما مع الدليل بظهور والآخر ليس كذلك، فإنا نقول: ليس هذا من مسائل الاجتهاد، بل من مسائل الخلاف، والخلاف منهيٌ عنه. والعالم إذا خالف الدليل بوضوح فيقال: هذا اجتهاده وله أجر، لكنه أخطأ في هذا الأمر، ولا يعوّل علىٰ اجتهاده في مقابلة النص.

هذه الأقوال أيضًا كثرت في زمن التابعين، وزمن التابعين كانت الحاجات تزيد في وقائع جديدة، وكثرت الفتوىٰ بناء علىٰ ما استجد من الواقع علىٰ نحو ما ذكرتُ من استدلالهم بالكتاب، استدلالهم بالسنة، استدلالهم بإجماع الصحابة، ونتجت هناك أقوال في مسائل في التابعين.

ومن المتقرر أن المسألة إذا كانت بعينها موجودة في زمن الصحابة، فإنّ إحداث قول زائد علىٰ أقوال الصحابة يعد هذا من الخلاف الضعيف؛ يعني إذا اختلف الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في مسألة علىٰ قولين، فإن زيادة

التابعي بقول ثالث، فإن هذا يعد ضعفًا يعني يعدّ من الخلاف الضعيف عند أكثر أهل العلم، ذلك لأنه يكون القول الثالث فهمٌ جديدٌ للأدلة؛ فهم زائدٌ علىٰ فهم الصحابة للأدلة.

وإذا كان كذلك كان مقتضىٰ أن الصحابة رضوان الله عليهم قد فاتهم فهمٌ قد يكون صوابًا في الآية، وهذا ممتنع؛ لأنَّ الصحابة رضوان الله عليهم الفهم الصحيح للأدلة عندهم، ولم يُدَّخر لسواهم من الفهم الصحيح ما حجب عنهم، بل الخير فيهم، فهم أبرُّ الأمة قلوبًا وأعمقها علومًا وأقلها تكلفًا، كما ذكر ذلك ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

يجتهد التابعي في مسألة نازلة جديدة اختلفت في حيثياتها عما كان في زمن الصحابة رضوان الله عليهم، ظهرت هناك أيضًا مسائل جديدة، حتىٰ جاء في القرن الثالث للهجرة فدُوِّنت الكتب، لما دُونت الكتب كان تدوين الكتب علىٰ نوعين:

- كتب للأثر.
- وكتب للنظر وللرأي.

أما الكتب الأثر: فهي الكتب التي يصنفها أئمة الحديث علىٰ الأبواب يجعلون بابًا للطهارة، وبابًا للآنية، وبابًا للجلود، وباب خاص لجلود السباع، مثلًا جلود ما يؤكل لحمه إلىٰ آخره، ويأتون بالآثار في هذا كما صنع ابن أبي عروبة وعبد الرزاق في «مصنفه» وابن أبي شيبة وغير هؤلاء كثير، وكما صنع أيضًا مالك في «الموطأ» وجماعات، هذا نوع، وهو العلم الذي نقل فيه هؤلاء الأئمة أقوال من سبقهم في الأحكام، وهٰذا لما صُنف صار أئمة الأثر والحديث يدورون في المسائل حول أقوال المتقدمين من الصحابة والتابعين، ومن اشتهر بالفقه ممن بعدهم، فيدورون حول هذه الأقوال.

والقسم الثاني من الكتب هي كتب الرأي: ويعنىٰ بكتب الرأي الكتب التي تعتمد في الأحكام علىٰ الأقيسة، وهذا مبني علىٰ مدرسة كانت في الكوفة، وهي مدرسة أهل الرأي ممثل حماد بن أبي سليمان، قبل إبراهيم النخعي، وأبو حنيفة، وكذلك في المدينة مثل ربيعة الرأي شيخ مالك ونحو ذلك، ظهرت كتب لهؤلاء ولمن بعدهم ممن تبعهم هذه معتمدة علىٰ الأقيسة، وعلىٰ القواعد العامة فيفرعون الأحكام علىٰ الأقيسة والقواعد.

لاحظ أنَّ هذه هي التي عناها أهل العلم بالأثر وأهل الحديث بالذم؛ إيّاكم وكتب الرأي، إياكم وأهل الرأي فإنهم أعيتهم الآثار أن يحملوها فذهبوا إلىٰ الرأي ونحو ذلك، لأنهم يستدلون بالقياس وبالقواعد، ويقدمونها علىٰ الآثار، وهذا لا شك أنه ليس بطريق سويّ، ذلك لأنّ:

أولًا من حيث التأصيل: أولئك جعلوا القياس أصحّ من الحديث، ويقولون: القياس دليله قطعي، القاعدة دليلها قطعي، طبعًا القياس حينما نقوله هو أعم من خصوص ما عليه الاصطلاح الأخير، يعنىٰ بالقياس ما يدخل فيه تحقيق المناط، يعني القواعد التي تدخل في العبادات والمعاملات، فيستدلون بأدلة قطعية علىٰ القواعد، فإذا أتىٰ دليل يخالف القاعدة يقولون: هذا آحاد، حديث آحاد فلا نقدّمه علىٰ الأقيسة، يقدمون مثلًا القياس علىٰ الحديث المرسل، يقدِّمون القياس علىٰ الحديث المتصل إذا كان لا يوافق القواعد، وهكذا، فظهر عندهم خلاف للآثار، وهذا هو الذي عناه السلف بذلك، وهم لهم

أصولهم، فالحنفية مثلًا عندهم أصول الفقه التي تخالف أصول أئمة الفقه الذين هم من أهل الحديث مالك والشافعي وأحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعين في أنحاء كثيرة؛ في أبواب كثيرة.

مثلًا عندهم أنّ العام أقوىٰ من الخاص، فعندهم أنّ دلالة العام علىٰ أفراده قطعية إذا كان الدليل قطعيًا. وأما دلالة الخاص علىٰ ما اشتمل عليه من الفرد يعني من المسألة الخاصة فهذه دلالتها ظنية، فيجعلون العام مقدمًا علىٰ الخاص، ولا يحكمون للخاص علىٰ العام، وهكذا في التقييد والإطلاق هكذا في مسائل شتىٰ.

مثلًا عندهم الحديث المرسل مقدم علىٰ المسند، فالحديث المرسل مثلًا عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ قال كذا، عن إبراهيم النخعي أن رسول الله ﷺ قال كذا، وهكذا المراسيل عامة كمراسيل أبي العالية ونحوه من كبار التابعين وغيرهم، يعتبرون أن هذه المراسيل أقوىٰ من الأحاديث المسندة، فإذا أتىٰ حديث مرسل وحديث متصل في المسألة نفسها، أخذوا بالحديث المرسل وتركوا الحديث المسند المتصل؛ لأصولهم لدلالة عقلية عندهم علىٰ ذلك.

وهذا طبعًا أنتج أقوالًا أكثر من الأقوال التي كانت موجودة في زمن الصحابة والتابعين، فصار عندنا تفريعات كثيرة.

كذلك في مسألة القواعد يقولون: الاستدلال بالقياس مقدم علىٰ الاستدلال بالأثر؛ لأن القياس دليله واضح يعني مثلًا القاعدة دليلها واضح، وأما الأثر فإنه فرد، والقاعدة شملت أحكامًا كثيرة، كل أدلتها تعضد هذه القاعدة، وأما الأثر فهو واحد في نفسه، وعندهم أنّ القاعدة هي قطعية علىٰ ما اشتملت عليه وأما الآثار فإنها ظنية، هذا هو الذي نهىٰ عنه السلف بشدة، وحذّروا من النظر في الرأي لهذا الأمر، وكتب الحديث علىٰ هذا، علىٰ الذي أسلفت فيما هو تبويب وإيراد ما في الباب من أدلة من كلام النبي ﷺ؛ يعني من آثار أو من كلام الصحابة أو من التابعين أو من تبع التابعين بالأسانيد.

أهل الأثر ويمثلهم بوضوح في اتباع أصولهم الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ ورحمهم أجمعين:

ينظرون في المسألة فإذا كان فيها حديثًا عن النبي ﷺ قدّموه إذا كانت دلالته ظاهرة، أو من باب أولىٰ إذا كانت نصًّا.

فإذا لم تكن كذلك نظروا في فتاوىٰ الصحابة فيما يُثبت أحد الاحتمالين في الفهم، كذلك إذا جاءت فتوىٰ عن الصحابي وكان فيها احتمال في الفهم نظروا في أقوال أصحابه من التابعين بما يوضح لهم معنىٰ قول الصاحب، إذا كان القول ظاهرًا أو نصًّا من الصحابي في مسألة نازلة وليس له مخالف أخذوا به.

إذا اختلف الصحابة في المسألة علىٰ قولين هنا تنازعوا، فيأخذون بقول من؟

فمنهم من قال: نأخذ بقول الخلفاء الراشدين أو بأحدهم إذ وُجِد ذلك؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»، وإذا مثلًا عثمان خالفه ابنُ عباس أخذوا بقول عثمان، وإذا عمرُ خالفه ابنُ عمر أخذوا بقول عمر وهكذا، وإذا اجتمع الخلفاء الأربعة في مسألة أخذوا بها بقوة.

تارة تكون الآثار متعارضة في المسألة فيكون للإمام أكثر من قول، وفي هٰذا كثرت الروايات عن الإمام أحمد في المسائل، تجد مسألة له فيها عدة روايات؛ لأنه في الرواية الأولىٰ مال إلىٰ ترجيح أحد الآثار في المسألة، والرواية الثانية نظر في المرة الأخرىٰ واختار آخر، وهكذا

المقصود أنهم يدورون في النظر مع الآثار، والإمام أحمد لما استفتي أو كان يستفتىٰ كثيرًا تلامذته صنفوا المسائل عنه، فهذه المسائل عن الإمام أحمد كثيرة جدًّا تبلغ نحو سبعين كتابًا من المسائل أو نحو ذلك لأصحابه، منها الشيء المختصر ومنها الكبير، هذه نقل منها طائفة من أصحابه ما هو معتمدٌ عنده مما يعرفونه من كلام الإمام أحمد وهم المسمَّون بالجماعة عن الإمام أحمد، هٰذه الأقوال دَوَّنها بعض الحنابلة في المختصرات ابتداءً من الخرقي فمن بعده، حولوا الفقهَ إلىٰ أنه فهم الإمام في النصوص.

كان سابقًا مثل ما ذكرت لكم الأئمة ينظرون في الآثار.

فلما أتىٰ التلامذة كثُرت عليهم الآثار تنظر مثلًا في الفقه في المصنف «مصنف» ابن أبي شيبة «مصنف» عبد الرزاق تحتار أقوال مختلفة وأسانيد ومسائل تعترضها أحيانًا أدلة أصولية، وأحيانًا أدلة تحتاج إلىٰ معرفة رجال الإسناد، وأحيانًا النظر في القرآن وفي السنة وهل يُحمل هذا علىٰ هذا أو لا، فالتلامذة ضعفوا عن ذلك مع وصية الأئمة بأن يأخذوا من حيث أخذ الأئمة، لكن وجدوا في أنفسهم الضعف فتمسكوا بفهم الأئمة للنصوص؛ لأجل أن يُريحوا أنفسهم دوَّنوا هٰذا.

وهذا التدوين أضعف باب النظر في آثار السلف؛ تدوين الفقه مثل «مختصر الخرقي» وغيره أو «مختصر المزني» للشافعية أو «مختصر الطحاوي» أو مثلًا كتب محمد بن القاسم عن مالك مثل «المدونة» وغيرها أضعف النظر في الآثار التي هي عمدة هؤلاء الأئمة، فصاروا يدورون مع نصوص الأئمة؛ بل زاد الأمر بعد ذلك حتىٰ أصبحوا يخرِّجون عليها كأن هذه قد نص عليها الإمام بمسألة جامعة، وهي كما ذكرتُ لكم أنهم ذكروها جوابًا علىٰ الاستفتاءات، والمُستفتي إذا استفتىٰ فالجواب يكون علىٰ قدر الفتوىٰ ولا يستحضر المفتي حين السؤال أنّ كلامه سيكون عامًا أو خاصًا أو نحو ذلك، فإنما يجيب علىٰ حسب السؤال، أحيانًا ينتبه لهذا الأمر فيجيب قدر السؤال.

لهذا ظهرت هناك أقوال، أقوال في المذهب الواحد، مثلًا عند الشافعية عدة أقوال: أقوال العراقيين وأقوال الخراسانيين، قول للشافعي في القديم وقول في الجديد، ومن منهم من أخذ بهذا ومن منهم من أخذ بهذا؛ لأجل نظرهم بأن الإمام ما أراد بنصه هذا المعنىٰ المعين، بل أراد شيئًا آخر هذه كانت جواب، أو هذه أراد بها خصوص المسألة ما أراد مثيلاتها، ونحو ذلك.

كذلك أصحاب الإمام أحمد كثُرت عندهم الأقوال وأصحابه كثير، ولأجل كثرة الروايات تعددت الأقوال في المسألة، لهذا مثلًا عند الحنابلة عندنا عدة مراحل مرّت بها وهي ثلاثة مراحل:

١- مرحلة المتقدمين.

٢- مرحلة المتوسطين.

٣- مرحلة المتأخرين.

فالمتقدمون من أوله يعني من الخرقي أو ما قبله إلىٰ القاضي أبي يعلىٰ.

ومن القاضي أبي يعلىٰ إلىٰ آخر الشيخين الموفق والمجد هذه تعتبر من المتوسطين.

ثم بعد ذلك يبدأ المتأخرون علىٰ خلاف بعضهم يزيد في هذا قليلًا.

مثلًا فالشافعية عندهم قسمان: متقدمون ومتأخرون، والحد عندهم بين المتقدمين والمتاخرين رأس الأربعمائة.

وهكذا عند المالكية أيضًا عندهم طبقات، هذا التجديد في فهم الكتب فهم نصوص الأئمة إلىٰ آخره.

هذه المراحل في كل مرحلة دُوِّنت كتب، هذه الكتب تختلف في أسلوبها، سواء في الفقه أو في أصول الفقه تختلف في أسلوبها، تختلف في استيعابها ما بين ماتن وموسع قليلًا، ما بين ضابط للعبارة وسهل العبارة، وما بين ذاكر للخلاف وغير ذاكر للخلاف.

فلهذا المسائل التي يذكرها المتقدمون تجدها أوضح من التي يذكرها المتأخرون، فكلما تقدم الزمن كلما كان الكلام أوضح، فالمتأخرون يذكرون المسائل لكن يصعب فهم كلامهم في بعض الأنحاء، فإذا صعب فهم كلامهم ترجع إلىٰ كلام المتقدمين في نفس المسألة تجدها أوضح، وليس المقصود بذكر المذهب الحنبلي فقط، لكن كتأصيل عام، لهذا نقول: أن التفقه وحرص المرء علىٰ أن يكون عنده ملكة فقهية يكون مبنيًا علىٰ هذا الذي ذكرته، وأنت تلاحظ أنه فيما ذكرتُ كان هناك متون وهذه الأخيرة، وكان هناك استفتاءات وهي المتوسطة، وكانت هناك الآثار وهي المتقدمة.

- فأولًا الآثار هي التي ظهرت في الأمة، وهذه الآثار كان منها ما هو جواب أسئلة.
- ثم بعد ذلك كلام الأئمة كان عن استفتاءات مثل المدونة سئل الإمام مالك فأجاب، كذلك الإمام الشافعي كثير منها أسئلة، وعلم الإمام أحمد في المسائل كثير.
- والثالث مصنَّفات.

لهذا الفقه وتنمية الملكة الفقهية والحاسة الفقهية في فهم المسائل، وفي التعبير عنها وفي إدراك كلام العلماء علىٰ المسائل الفقهية، يكون برعاية هذه الثلاث مجتمعة.

أولًا: العناية بالمتون.

ثانيًا: العناية بالفتاوىٰ.

ثالثًا: العناية بالآثار.

لا بد منها علىٰ هذا النحو؛ يعني تعكس، هي في تاريخ الأمة بدأت: الآثار، الفتاوىٰ، ثم تدوين المتون. الآن نعكس، إذا أردنا طلب الفقه نعكس؛ لأن مثلًا في زمن أهل الآثار زمن الصحابة والتابعين عندهم اللغة وأصول الفقه، وأصول الفقه مبناها علىٰ اللغة، فعندهم ملكة في الفهم والاستنباط وهذه ليست عند المتأخرين؛ لكن ننمي هذه الملكة وتتنامي هذه الملكة إذا عكسنا الطريق.

أولًا نبدأ بالمتون، ثم بالفتاوىٰ، ثم بالآثار.

فإذا أتيت إلىٰ الناحية التطبيقية مثلًا عندنا تقرأ في «الزاد» متن من متون الكتب للمتأخرين من الحنابلة، هذا تأخذه وتتصوّر مسائله، مسائل مجرّدة، تفهم صورة المسألة، وهٰذا أهم مما سيأتي بعد؛ لأن ما بعده

مبني عليه، فإذا لم تتصور المسألة كما هي صار ما بعدها مبنيٌّ علىٰ غلط، وما بُني علىٰ غلط فهو غلط.

فإذن تبدأ أولًا بتصور المسائل، مسائل الباب، إذا كان هناك معها أدلة واضحة في كل مسألة، هذه دليلها كذا، وهٰذه دليلها كذا كحجة للمسألة إلىٰ آخره.

ثم تنظر في فتاوىٰ الأئمة، تنظر في فتاوىٰ علمائنا، مثلًا فتأخذ مثلًا باب المسح علىٰ الخفين، تقرأ هذا الباب وتفهم مسائله علىٰ حسب ما يُذكر من الدليل المختصر، ما تتوسّع؛ لأنك إذا توسعت ضِعْت، إذا توسعت في كل مسألة وطلبت أدلتها والآثار فيها ما نخلص في كل مسألة فيها في الكتب كتب الآثار وكتب الحديث وكتب العلماء من الخلاف الشيء الكثير، لكن تفهم هذه المسائل ثم تنظر في الفتوىٰ، السؤال والجواب من علماء وقتك؛ يعني من علمائنا فإذا نظرت إلىٰ هذا، هذا يقوِّي عندك أنّ الفهم الذي فهمته في المسائل مع ربطه بالواقعة -الذي هو بالسؤال- يكون الفهم عندك اتصل من المتن إلىٰ الواقع، وكثير من الناس يفهم الفقه فهمًا نظريًا لكن إذا أتىٰ يُسأل، ذهنه ما دربه علىٰ هذا الانتقال، أي الانتقال من المسائل الفقهية بأدلتها إلىٰ أنّ هذه الصورة المسؤول عنها هي داخلة في ذلك الكلام، أو هي المرادة بتلك الجملة في المتن.

كيف تتنمّي هذه الملكة؛ الربط بين الكتاب الفقهي والواقع؟ بمطالعة الفتاوىٰ، هنا تتنامىٰ، تبدأ يكون عندك حاسة في المقارنة، إذا سُئلت ذهنك مباشرة ينتقل لأجل هذه الدُّربة -أو ما نقول: سُئلت- مثلًا سألك أحد في بيتك أو أنت سألت نفسك أو وقعت واقعة تبدأ تتأمل سيكون عندك دربة إلىٰ أنَّ هذا هو المراد؛ أنّ هذه داخلة في المسألة.

أنت تلحظ أنه بمطالعة كلام المفتين علىٰ المسائل:

- يصير عندك سَعَّة في الدليل، (واحد).
- وتثبيت لتصور المسألة ولحكمها، (اثنين).
- (والثالث) يكون عندك معرفة بما عليه الفتوىٰ من علمائك.

وهذه الثالثة مهمة، لماذا؟ لأننا مثلًا الآن الواحد عمره مثلًا خمسة وعشرين سنة أو ثلاثين سنة، كم هذه المسائل عهده بها؟ عهده بها خمس سنين أو عشر سنين، صحيح؟ لكن العالم الذي يفتي مثلًا عمره خمسين أوستين أو سبعين أو ثمانين، هذا له بها من العهد خمسين سنة، مرت عليه ما هو مرة أو مرتين، مرت به عشرين ثلاثين خمسين مرة، ألف مرة، حتىٰ صارت عنده واضحة مثل اسمه من كثرة تكررها، فإذن هنا هذه الفتاوىٰ بمنزلة المصفِّي للكلام الذي تقرأه في المتن، هل هو مما يُفتىٰ به ويعمل به أم لا؟

مما نلحظ مما سبق أن ذكرناه فيه مسائل نقول: ليس عليها العمل، يعني الفتوىٰ ليست عليها، مثل إيش مثلا؟ فيه مسائل كثيرة.

مثلًا في طهارة جلد الميتة بالدباغ من المعروف مثلًا في ما قرأناه في «زاد المستقنع» أنه لا يطهر جلدُ ميتة بدباغ مطلقًا؛ لكن لو كان الحيوان يحل أكله بالذكاة، قالوا: يباح استعماله في يابس من حيوان طاهر حال الحياة. يعني مما يباح في ذلك، أو مما كان دون الهرة في الخلقة، إلىٰ ما هو معروف، إذا نظرت في

الفتوىٰ، الفتوىٰ علىٰ خلاف ذلك.

فإذن هٰذا الضرب الفتوىٰ تبيّن لك ما عليه العمل في المتن مما ليس عليه العمل، فإذا ضبطت هذا الضرب يأتي عندك هناك سعة جديدة في الفهم، فتنتقل - بعد ما تُحكم هذا الأمر تحكم الباب أو تحكم الأبواب - إلىٰ كتب الخلاف كتب الآثار يكون عندك فهم؛ إلىٰ أن هذا القول أقوىٰ من هذا القول، هذا القول ليس عليه العمل، تظهر عندك إشكالات، لماذا يفتون مثلًا بهذه الفتوىٰ؟ والآثار جاءت فيها كذا وكذا، بغير ذلك، في مثلا هل المرأة الحائض تقرأ القرآن أو النفساء تقرأ القرآن أم لا؟ تعرف الفتوىٰ عند أكثر المشايخ علىٰ أي قول؟ ثم إذا نظرت في الآثار ظهر عندك شيءٌ ثاني، يبدأ عندك هنا علم مهم جدًا في الفقه وفي كل فن وهو علم الاستشكال.

إذا استشكل مستشكل هٰذا معناه أنه يفهم، إذا كان استشكاله واقعيًا، إذا استشكل لماذا يفتون بكذا؟ مع أنّ الأثر دل علىٰ كذا مع أن الدليل يحتمل كذا، فإذا سأل أحدًا من أهل العلم أزال عنه الإشكال وأجاب عن إشكاله، وقد قال القرافي في «فروقه» قاعدة الفرق بين الكبائر والصغائر: ومعرفة الإشكال علم في نفسه.

لأنه من المهم أنك تستشكل، ما فهمت كيف يقولون كذا، والدليل محتمل لكذا، ليش ما اعتنوا بكذا؟ لماذا ما ذكروا القاعدة؟ هٰذه القاعدة تشمل هٰذه لماذا ما استدل بالقاعدة؟

هناك استدلالات كانت مهجورة عند السلف، الأدلة موجودة ولم يستدلوا بدليل منها، ولما أتىٰ المتأخرون أو بعض المعاصرين استدلوا بأدلة لم يستدل السلف في المسألة بتلك الأدلة، هٰذا إشكال، لماذا؟ لماذا السلف ما استدلوا إلىٰ مسألة كذا وكذا بالدليل الفلاني؟ واستدل به بعض الناس من هذا العصر بعض المشايخ أو بعض طلبة العلم لماذا؟

هذا الإشكال يتولد عندك مع إشكالات أُخر، تحل هذا وتحل هذا حتىٰ يرسخ الباب في ذهنك، يرسخ الباب بتصوُّره بمعرفة دليله، وبمعرفة الفتوىٰ وبمعرفة الأقوال الأخرىٰ بعد حين، هٰذه مراتب، ومعرفة الأقوال الأخرىٰ وجواب هٰذا وجواب هذا.

إذا عكست المسألة ما يحصل عندك ملكة فقهيَّة، إذا بدأت مثلًا بالآثار فسيكون عندك معرفة بالخلافيات كثيرة، لكن الملكة الفقهية ضعيفة، وتحصيلك للمسائل قليل؛ لأن مثلًا إذا نظرنا في كل مسألة سنبحث عما جاء فيها من الأسانيد والمصنَّفات أو في كتب الحديث وهل هذا صحيح أم غير صحيح وما ورد عن الصحابة والتابعين سوف تطول علينا المسألة؛ تطول جدًّا، والأئمة في عهدهم كانوا علىٰ قرب من عهد الآثار علىٰ قرب من عهد الصحابة ما عندهم علوم كثيرة جدًّا أشغلت أذهانهم.

الآن مثلًا من القرن الثالث إلىٰ الآن ألف ومائة سنة كم ظهر من العلوم التي شغلت أذهاننا وأخذت حيِّزًا من الأذهان، ولذلك صار الذهن لا يستطيع أن يكون مركزًا علىٰ ذلك؛ يعني غالب الطلاب يكون مُركّزًا علىٰ الآثار ومستخرج منها الفقه الصحيح.

لهذا نعم نقول: الغاية هي الآثار، وهذا الذي يجب، فالدين هو الكتاب والسنة هوالأثر، ولكن كيف تصل إليه؟ لا بد أن تسلك الطريق الذي سلكه العلماء في الأزمنة المتأخرة بعد فوات التمكن في العلوم

وآلاتها.

بدؤوا بالمتون المختصرة جدًّا، هذا كالبناء، ثم بعد ذلك يرون فتاوىٰ العصر فيرون ماذا يفتي به علماء عصرهم، الشافعية علىٰ الشافعية، والحنفية علىٰ الحنفية، ثم يبدؤون بإيراد الإشكالات والنظر في الآثار.

مسألة: كيفية التدرج في طلب الفقه.

الفقه طويل، وهٰذا شيء مما لا شك فيه، ويحتمل في تدرسيه كل يوم عدة سنين لو ندرس مثلًا مثل كتاب «زاد المستقنع»؛ لكن هذا الأمر وهو كون الفقه طويلًا وأنه يحتاج إلىٰ سنين، هذا يَسهُل باتِّباع الطَّريقة الآتية:

أولًا: أن تأخذ كلَّ باب علىٰ حدة، ما تخلط بين الأبواب، تأخذ متن فتأخذ مثلًا كتاب الزَّكاة تأخذه وتفهمه لو تجلس فيه شهر مع معلم أو مع نفسك، تدرسه جملة جملة، تقرأ وتنظر حتىٰ تتصوَّر الجملة، هنا إذا كان المعلِّم قد وصل معك إلىٰ كتاب الزكاة أو كان في أحد من المشايخ يقرأ علىٰ سبيل المثال في الزكاة فهنا تستمر معه يجري لك الأمر، وإذا لم يُمكن ذلك وأردت أن تقرأ أنت فلابدّ من أن تكون علىٰ صلة بأحد العُلماء الذين يعون كلام أهل الفقه.

هذه الصِّلة فائدتها كلما استشكلت شيئًا تسأل، كلما ما فهمت عبارة تسأل، ترتيب ما استقام في ذهنك تسأل، وهو يوضح لك هذا الإيضاح أما باتصال هاتفي أو بملاقاة هذا الإيضاح، وهذه الصلة تجعل المسائل تتضح.

ثم أيضًا يكون الحرص علىٰ ملازمة أهل العلم في سماع كلامهم؛ لأنّه جرّبنا هذا قبلكم في مسائل كثيرة في الفقه تمرّ عليها لكن ما تتَّضح لك إلا بسماع كلام أهل العلم فيها، إما مثلًا في كلمة أو في فتوىٰ أو هو تكلم يناقش المسألة تناقشه، تجد أنه يعطيك مفتاحًا لفهم هذا الباب أو لفهم هذه المسألة ما أدركته بمجرد القراءة.

فإذن:

أولًا: إحكام الباب يكون بدون مداخله؛ يعني تأخذ كتاب معينًا ككتاب الزكاة مثلًا أو بابًا معينًا فتدرسه بدون مداخلات، يعني مثلًا واحد يقول: أنا أقرأ مثلًا في كتاب الزكاة وفي نفس الوقت يأخذ في كتاب البيوع، وفي نفس الوقت يأخذ كتاب في الحدود، فالذهن لا يجمّع بهذا الطريقة فتختلط عليه المسائل.

فإذا أخذت مثلًا كتابًا علىٰ هذا، تبدأ بتحرير جُمله، وإذا حررت جملة علىٰ وقت ما عندك فهمت، أعني بتحرير الجمل معرفة كل لفظ ومعناه من حيث اللُّغة ثم بعد التركيب.

طالب العلم في الفقه بخصوصه لا بد أن يكون حساسًا في اللغة، لأنه إن لم يكن حساسًا في اللغة استعمل في كلامه غير لغة العلم، وهذا يضعف معه طالب العلم، بلا شك مثلًا في الفقه كلاما ثقافيا يعني موعظة كأنه كلامًا عاما، هذا يضعف الواحد معه، لكن إذا درب ذهنه ولسانه علىٰ أن كل لفظ له دلالته يجتهد علىٰ أن يستعمل ألفاظه مع مرور الزمن، يبدأ يترقىٰ شيئًا فشيئًا حتىٰ يستعمل ألفاظه، فإذن :

أولا: معرفة ألفاظ الفقهاء ودلالة كل لفظ.

ثانيا: ثم معرفة التركيب لهذه الجملة.

ثالثا: ثم الحكم.

رابعا: دليل الحكم، قد يكون راجحًا في نفس الأمر وقد يكون مرجوحًا، المهم تعرف الدليل الذي اعتمد عليه في هذا الحكم؛ لأن معرفة الدليل يعطي ذهنك قريحة في استنتاج الحكم من الدليل علىٰ فهم جماعة من العلماء الذين صنَّفوا هذا أو رضوه مذهبًا.

الخامس: القول الآخر في المسألة بشرط أن يكون قولًا قويًّا، وليس في كل مسألة، يعني مثلًا: مثل ما كان في المشايخ رحمهم الله الأولين الذين يدرّسون الفقه عندنا هنا فيذكرون اختيارات شيخ الإسلام، وقد يكون بعدها استدلال أو ترجيح.

هذه خمس خطوات، إذا أخذت مثلًا باب من الكتاب، بعد ذلك ترجع إلىٰ نفسك باختبار، إذا سمعت شرح الباب مثلًا من معلم من شيخ أو عالم أو قرأته وناقشت فيه أحد العلماء، أو سمعته بواسطة شريط أو نحوه، بعد ذلك اختبر نفسك في هذا الباب. كيف تختبر نفسك؟

تأخذ متن مجردًا عن الشرح وتجتهد في أن تشرح، أن تغلق مثلًا، «الروض المربع» أو «شرح الشيخ ابن العثيمين» أو «حاشية البليهي» أو «حاشية ابن قاسم» إلىٰ آخره، وتبدأ تحفظ المتن.

ستلحظ في أول مرة أنك فيه مسائل تصورتها، وعبارتك كانت عبارة جيدة رضيت عنها، لكن في مسائل أردت أن تتكلم اشتبكت عندك الخطوط، ما عرفت، اشتبهت مع أنك حين القراءة كانت واضحة، مثل ما يأتي في الاختبار، فقبل الاختبار تقول: أنا والله فاهم. وحينما جاء الاختبار استشكلت أو ضاعت عليك، كذلك في الفقه، فإذا راجعتها علىٰ هذا النحو وحاولت أن تشرح فسيكون تقييمك لنفسك.

شيئًا فشيئًا، بهذه الطريقة تقوىٰ مداركُك، تقوىٰ قوّة ذهنك.

ثانيًا: يقوىٰ تعبيرُك، التعبير عن المسألة بلغة العلم يقوىٰ.

ثالثًا: يكون لسانك متحريًا في الألفاظ، لا تأتي إلىٰ المسألة فتذكرها بالمعنىٰ، يعني تذكر ما يدل عليها بحسب ما تفهم، بل تكون دقيقًا في اللفظ فتعبر بتعبيره، تعبِّر بلغته، شيئًا فشيئًا بحسبه.

أنت والله أخذت خمسين من عندك، نفسك استشكلت مسائل تعيدها، ثم تكرر مرة أخرىٰ، حتىٰ يكون عندك دربة.

وأنت تسير علىٰ هذا تأتيك مسائل يكون لك رغبة في أن تطلع علىٰ الكلام فيها، فهذا لا بأس أن تذهب إلىٰ المطولات، مثل «المغني» في الفقه، أو مثل «المجموع» أو نحو ذلك، لكن ما يكون ديدنك هذا في الباب كله تطالع. لا. هذا يكون في مسائل تختارها فتطالعها، لماذا؟

لأنّ الكتب المطوّلة كتب سايحة،والكتب المختصرة كتب مجموعة، تناول المجموع أسهل من تناول المبسوط أو السايح، لماذا؟

لأنك مثلا تجد «المغني» أصعب من «الزاد»، واحد يجيء يقول: والله «الزاد» عبارته كده و«المغني»

كله أدلة، فتمشي معه بسلاسة.

ولكن الواقع أنّ «المغني» بالنسبة لطالب العلم المبتدئ مضرّ، بخلاف مثلًا المختصرات؛ لأن المختصر يعوّد العقل علىٰ نوعية معينة من التعامل مع الكلام الفقهي، يعوِّده علىٰ الحصر، يعوده علىٰ العبارة من لفظين ثلاثة، يعوِّده علىٰ مبتدأ وخبر، يعوده علىٰ شروط، يعني يحكِّم الذهن، أما ذاك فيكون مبسوطا، والمبسوط هٰذا الذهن يقرؤه بسهولة، يمشي ثم بعد ذلك ما يتربّىٰ عنده إلا يتذكر أن المسألة فيها أقوال، أما العبارة والإدراك ما يتربىٰ عليه.

ولهذا كان الشيخ عبد الرزاق عفيفي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: الموفق صنف في الفقه كتابًا أربعة: -هذا تعبير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ- للابتدائي وللمتوسط وللثانوي وللجامعي:

- فصنف للابتدائي «العمدة في الفقه».
- وصنف للمتوسط «المقنع».
- وصنف للثانوي «الكافي».
- وصنف للجامعي «المغني».

فلاحظ «عمدة»، ثم «مقنع»، ثم «كافي» ثم «مغني»، و«المغني» لا يريد أحد بعده شيء.

لكن هذا لا بد يمشي علىٰ هذا النحو، لا بد أن يكون عندك تسلسل.

فإذن قراءة في المطول دائمًا، هذا غلط، وتركه دائمًا أيضًا غلط. لماذا ؟

لأنّ للمطولات في الإسهاب يحل بعض الإشكالات، فأحيانًا يأتيك قول لم تفهمه مثلا في القول فصلًا، كيف تحل المسألة؟ مثلًا اتصلت ما وجدت أحدًا، كيف تفهم هذا القول في الفقه بخصوصه؟ تذهب إلىٰ الخلاف في المسالة، إذا لم تفهم قولًا من الأقوال، اذهب إلىٰ الكتب التي فيها ذكر الخلاف، بمعرفة الأقوال المختلفة يتَّضح لك المراد بالقول الذي استشكلته، هذه مجربة ونافعة جدًّا في حلِّ مثل هٰذا.

علىٰ كل حال هناك عدة أشياء أُخر؛ لكن ربما يحتاج الكلام عليها إلىٰ طول مثل الكلام علىٰ مراتب كتب الحنابلة، لماذا اختاروا كتابًا دون كتاب، كيفية الدَّمج بينها؟ وهل يسوغ لطالب العلم أن ينوّع مثلًا عند أحد العلماء من «الزاد» وعند الثاني من «منار السبيل» وعند الثالث من كذا.. هذه كلها أشياء تحتاج إلىٰ أجوبة لكن تحتاج إلىٰ مزيد من الوقت، نكتفي بهذا القدر.

سؤال (١): سمعنا أنكم ستقيمون دروسا تربوية في جامع الملك خالد فهل السماع صحيح؟

الجواب: السماع صحيح؛ لكن هل الخبر صحيح؟ أقول لك: الخبر نعم صحيح دروس تربوية عامة ربما تكون كل أسبوعين؛ لكن المسجد لم يحدد بعد، لا أدري هل في مسجد الملك خالد، أو في مسجد شيخ الإسلام ابن تيمية إلىٰ الآن ما قررت في هٰذا.

أسأل الله جل وعلا لي ولكم التوفيق والسداد، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين. والحمد لله.

المدخل
لدراسة علم المقاصد الشرعية

الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٣)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأصلِّي وأسلِّم علىٰ الرَّحمة المهداة والنعمة المسداة محمد بن عبد الله صلاةً وسلاما دائمين، ما تتابع الليل والنهار، كلَّما صلىٰ عليه المصلون، وكلَّما غفل عن الصلاة عليه الغافلون.

أمَّا بعد..

فأسأل اللهَ -جل وعلا- أن يجعلني وإياكم من المباركين الذين بارك في أقوالهم وفي أعمالهم، والبركة في هٰذا الموضع يُعنىٰ بها ما جاء في قول الله جل وعلا: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾[مريم:٣١]، قال المفسرون: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ أي: معلِّمًا للناس الخير آمرًا لهم بالمعروف ناهيا لهم عن المنكر، وهٰذا ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة

فاسأل الله -جل وعلا- أن يجعلني وإياكم ممن استعمله في ذلك، وأن يمنحنا الفقه في دينه، والعلم بحدود ما أنزل علىٰ رسوله والعمل بذلك، إنَّه سبحانه جوادٌ كريم.

أمَّا بعد..

فموضوع هٰذه المحاضرة ضمن هٰذه السلسلة موضوع مهم؛ لأنَّه يتعلق بالمقاصد الشَّرعية، ونعني **بالمقاصد الشرعية المقاصد التي اعتبرها ورعاها الشرع فيما سنّ وشرع من الأحكام.**

واختيار هٰذا الموضوع ممن اختاره لأسباب:

أولا أن العلماء من القديم -من علماء السلف إلىٰ يومنا- لم يزالوا يعتبرون المقاصد في أحكامهم وفي فتاويهم، تارةً ينصُّون علىٰ ذلك، وتارة يعتبرونه فيما ينظرون به إلىٰ الأحكام الشرعية بعامة.

ففهم كلام السلف، وحَمْلُ متشابهه علىٰ مُحكمه، ودراية مقاصد الأئمَّة في أحكامهم، وعدم الاستدلال بالمتشابه أو الاستشهاد بالمتشابه من ذلك علىٰ المُحكمات، هٰذا إنَّما يُدرك بمعرفة مقاصد الأحكام الشرعية التي رعاها الأئمة.

والسَّبب الثاني أنَّ كلمة المقاصد الشرعية كثُر تناولها في هٰذا الزمن، واعتنىٰ بها كثيرون بالتأليف والتصنيف والرَّسائل الجامعية أو البحوث فيما دُونَ الرسائل الجامعية.

والناس فيها ما بين مُفْرِطٍ ومَفَرِّط، وما بين متوسع في الخطل وما بين مسدد، وهٰذا تبع لمأخذ قديم عند العلماء فيمن يرعىٰ النظر إلىٰ العلل والمعاني المستنبطة من الأحكام وهم جمهور أهل الفقه، وبين من لا يرعىٰ ذلك وهم المتمسكون بالظَّاهر المعروفون باسم الظاهرية.

فإن مبنىٰ فهم علم المقاصد علىٰ معرفة المعاني والغايات والعلل التي بنىٰ عليها الشارع الأحكام.

ومن يقول بالظاهر لا يأخذ بالعلل وينفي التَّعليل في أفعال الله جل وعلا القولية والتَّعليل في أفعال الله جل وعلا الشرعية.

ولذلك فإنّ من قال بالظاهر في كثيرٍ من المسائل فإنه لا ينظر إلىٰ مقصد الشَّارع من تحريم المحرّم أو من إيجاب الواجب، وإنما يقول: نقتصر علىٰ ظاهر اللفظ.

وهٰذا تَلَاهُ ونتج عنه أن جُعلت مسائل من الواجبات وهي عند عامة أهل العلم من المستحبَّات، وجُعلت مسائل من المحرمات وهي عند عامة أهل العلم من المكروهات، وحُصرت أصناف ارتبط بها التحريم عند أهل الظاهر وعدّاها الجمهور ممن يرعىٰ العلل والمقاصد إلىٰ ما يشابهها ويماثلها ويشترك معها في العلَّة والمعاني.

وقابل هؤلاء **أهل النّظر والرأي** الذين تركوا الآثار وتركوا ظاهر الدّليل، واعتبروا المقاصد والقواعد العامة بحسب اجتهاد إمامهم، وهم المعروفون بأهل الرأي في مدرستين مشهورتين في المدينة وفي الكوفة، وهؤلاء قابلوا من تمسك بالظاهر وتركوا العمل بالأحاديث والآثار لأجل مخالفتها للقواعد العامّة التي فهموها من الشريعة والمقاصد التي استنبطوها منها.

وصار جمهور أهل الفقه من أهل الحديث متوسِّطين فأعملوا الآثار والأحاديث والنُّصوص، وأخذوا بالمقاصد، فكانوا وسطًا بين هؤلاء وهؤلاء، كما خص الله جل وعلا هٰذه الأمة بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[البقرة:١٤٣]، يعني: عدلًا خيارًا؛ لأنَّ الأوسط هو الأمثل والأحسن والأعدل في فهمه وكلامه وعقله وإدراكه، كما قال جل وعلا مثنيًا علىٰ قول أوسط الأولاد في قصة أصحاب الجنة: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨﴾[القلم]، ﴿أَوْسَطُهُمْ﴾ يعني أعدلهم مقالًا وأعقلهم رأيًا وأفهمهم في المدارك.

لهٰذا صار المصنفون والمؤلفون والكاتبون بين هٰذه الأنحاء الثلاثة في الأحكام الفقهية بعامة، وفي تناول هٰذا الموضوع بخاصة، وإن كان الأكثر ممن كتب علىٰ اعتبار المقاصد وعلىٰ اعتبار الآثار علىٰ طريقة الجمهور.

والسبب الثالث في طرق هٰذا الموضوع: أن موضوع المقاصد مرتبطٌ بالمصالح، والمصلحة التي اعتبرها الشرع مطلوبٌ تحقيقها؛ لأنَّ الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، والمصالح أنواع:

- منها مصلحة معتبرة في الشَّرع.
- ومنها مصلحة ملغاة.
- ومنها مصلحة مسكوتٌ عنها؛ لم يعتبرها الشرع ولم يُنصَّ علىٰ إلغائها، وهي التي سماها طائفة من العلماء بالمصالح المرسلة.

وهٰذا النوع من البحث في المصالح توجّه الناس فيه -في هٰذا الزمن- ما بين غال وما بين جاف، ومنهم من زعم وكتب -وربما الآن له أتباع- من أنَّ الشريعة تبعٌ للمصالح، وليست المصالح تبعا للشريعة؛ بل جعلوا أن المصلحة إذا وجدت فثَم الشرع، وهٰذا خلاف المقصود من علم المقاصد؛ لأن الفهم وتعلم علم المقاصد الشرعية يُحدث يقينًا عند الفقيه وعند طالب العلم بأنَّ الشريعة جاءت بالمصالح وبالتالي فإنَّ المصالح تبعٌ للشريعة، فحيث ما وُجد الشرع ووجدت أحكامه فثم المصلحة.

ومن أسباب بحثه أيضًا -وما ينبغي منكم من العناية به- أنَّ طائفة من فقهاء العصر وعددًا من الفئات والجماعات المعتنية بالدَّعوة الإسلامية في أصقاعٍ كثيرةٍ تعتني بعلم المقاصد، وعنايتها بعلم

المقاصد لأجل النَّظر فيما تُعامل به من حولها من التَّجمُّعات، وفيما تعامل به أفرادها من التنظيم والتربية.

فاعتنىٰ طائفة من الدُّعاة وطائفة من الجماعات بعلم المقاصد لا لأجل البحث الاجتهادي الفقهي؛ ولكن لأجل فهم روح الشريعة ومقاصد الشريعة في التعامل مع التجمُّعات المختلفة، وفي التعامل مع الأفراد في التربية والتَّعليم، وهؤلاء منهم المتوسِّط ومنهم الغالي ومنهم الجافي، في أنحاء شتىٰ تُعلم من الواقع.

لهٰذا فإنّ البحث في مقاصد الشريعة والدخول فيه يستوجب أن يكون بحثًا مطوّلًا حتىٰ يفهم طالب العلم ما يتصل بهٰذا الموضوع الذي ربما كان غامضا عند الأكثرين؛ لكن عنوان هٰذه المحاضرة:

المدخل لدراسة علم المقاصد الشرعية

فلا يعدو ما سأذكره من أن يكون كلمات وجيزات كمدخل تفهم به كلام العلماء وما أُلِّف في هٰذا الموضوع من البحوث المستقلة التي في ضمن كتب كبيرة.

أولا: ما المقصود بالمقاصد الشرعية؟

المقاصد اختلفت فيها تعاريف العلماء؛ لكن تقريب ذلك أن نقول:

إن المقصد هو المعنىٰ أو الغاية أو السر أو الحكمة التي من أجلها شرع الشارع أحكام الشريعة، إما علىٰ الإجمال وإما علىٰ التفصيل.

وهٰذا من جهة المعنىٰ العام والتقريب.

ولكن من جهة التأريخ منهم من عرف المقاصد الشرعية بأنها: **المعاني التي رعاها الشرع في وضع الشريعة، أو: راعاها الشارع في وضع الشريعة.**

ومنهم ما قال: **الغايات والأسرار التي نظر إليها الشارع في سن الشريعة.**

ومنهم قال: **إنَّ المقاصد الشَّرعية هي الغايات التي أرادها الشَّارع في تشريعه لتحقيق مصالح الخلق في الدنيا والآخرة.** وهٰذا تعريفٌ حسن ومنضبطٌ في الجملة.

إذن فالمقاصد الشرعية هي الغاية؛ ما الهدف الذي من أجله شُرعت الأحكام.

العبادات؛ ما هو الهدف العام والغاية التي من أجلها شُرعت العبادات؟

البيع؛ ما الغاية من أنه أبيح؟

الإجارة؛ ما الغاية في أنه أذن بها؟

الربا؛ ما الغاية من أنه حرم؟

النكاح؛ ما الغاية في أنه طُلب؟

الجمع بين المرأة وأختها؛ ما الغاية من أنه حُرّم؟ وهكذا في أنحاء.

القتل من قتل متعمدا؛ ما الغاية أنه يقتص منه؟ **من قتل خطأً**؛ ما الغاية التي من أجلها شرع أن تؤخذ منه الدية؟

وهكذا في الأمور العادية في حياة الإنسان مثل أحكام الأكل والشرب والأطعمة ونحو ذلك.

فإذن هٰذه المقاصد والغايات هي التي يدرسها العلماء في النظر إلىٰ المقاصد الشرعية، وفي النظر إلىٰ المقاصد الشرعية ما يفيد كثيرًا جدًّا الباحث والفقيه في الشريعة.

ولهٰذا بعد أن عرّفنا هٰذه المقاصد بتقريب.

فلابد من أن نعلم أنَّ كلمة مقاصد شرعية هٰذه ما ظهرت إلا في أوقاتٍ متأخرة؛ يعني بعد قرون من الزمان الأول؛ لكنَّها كانت عند الأولين ممن ألف في أصول الفقه، كانت موجودة في بحوث القياس في الكلام علىٰ العلة والنظر في المناسب من مسالك العلة، فإنهم نظروا في أن الشريعة ارتبطت بعلل؛ وهٰذه العلل فيها أحكام:

- تارة تكون ضرورية.
- وتارة تكون حاجية.
- تارة تكون تحسينية.

فأصل المدخل أصولي، ثم اعتنىٰ به من تخصص في الفقه من أهل الأصول، فأبرزه أكثر كشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وقبله ابن عبد السلام في «القواعد»، وبعد هؤلاء الشاطبي في كتابه المشهور «الموافقات».

فإذن مبحث المقاصد الشرعية في أصله هو مبحثٌ في القياس؛ لكن الواقع أنَّ حقيقة المقاصد الشرعية ليست هي حقيقة العلَّة في القياس، وذلك لأمورٍ متعدِّدة.

نذكر منها علىٰ سبيل المثال، أن القياس يُبحث فيه عن العلة التي تكون جامعة ما بين حكم مسكوت عنه وحكم منصوص عليه.

فتكون العلة؛ استخراج العلة لأجل أن يُحكم علىٰ مسألة مسكوت عنها كما هو معروف في مبحث القياس.

والقياس بهٰذا المعنىٰ صار قياس علة، وعند الفقهاء وأئمة الاجتهاد القياس أعمّ من ذلك:

- فقد يكون قياس علة.
- وقد يكون قياس معنىٰ.
- وقد يكون قياس قاعدة وشُمول.

وهٰذا الذي يجعل العلماء يذكرون القياس تارةً في أبواب العبادات، ويذكرون القياس تارة في أبواب أخر، لا لأجل أنّ المعنىٰ قياس العلة؛ ولكن المعنىٰ المقصد الذي يجمع هٰذا والقاعدة التي تجمع هٰذا وذاك.

فإذن معنىٰ مقاصد الشريعة والغرض من مقاصد الشريعة أوسع من استخراج العلل التي من أجلها نعدّي الحكم من منصوص عليه إلىٰ مسكوت عنه.

وهٰذا يحتاج إلىٰ نظر من جهة أخرىٰ لإيضاحه؛ وهو أننا ننظر إلىٰ ما أوجب الله جل وعلا من إقامة الصَّلاح ودرء الفساد في أحوال العباد، وهٰذا مقصد من المقاصد العامة في التشريع، الله جل وعلا أمر بالإصلاح ونهىٰ عن الإفساد فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[الأعراف:٥٦]، وقال مخبرا عن

قول شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[هود:٨٨]، وقال جل وعلا: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾[البقرة]، ونحو ذلك من الأدلة، وهٰذه لا يمكن أن تسمَّىٰ عللًا تُعدِّي بها حكمًا مسكوتا عنه إلىٰ حكم منصوص عليه بجامع هٰذه العلة؛ لأن هٰذا مقصد عام من التشريع.

إقرار الحق ورفع الظلم.

تحصيل المصالح ودرء المفاسد. ونحو ذلك من المقاصد العامة.

هٰذا يبين لك إذن أن المقاصد الشرعية أو مقاصد الشريعة أعم من كونه بحثا في العلل التي يبحثها القياسيون في مبحث القياس، أو ينظر إليها الفقهاء في الأحكام القياسية؛ بل مقاصد الشريعة أعظم وأهم وأكبر من أن تكون محصورة في العلة التي يكون بها القياس.

لٰكِن العلماء الذين بحثوا المقاصد الشرعية:

منهم من يبحثها ناظرًا إلىٰ معنىٰ القياس؛ لم يتخلص منه.

ومنهم من يبحثها ناظرا إلىٰ استخراج الحِكَم وأسرار الشَّريعة من جهة الإعجاز بالشريعة ومعرفة التشريع.

ومنهم -وهم الأئمة المجتهدون- من ينظر إلىٰ المقاصد كعلم؛ لأجل أن تستوعب الشريعة الأحكام التي يحتاجها الناس مهما تطاول الزمان.

وهٰذا القسم الأخير هو المهم في النظر إلىٰ علم المقاصد الشرعية.

إذن فائدتنا من النظر في علم المقاصد الشرعية والعناية به من جهة هٰذا التعريف الذي عُرِّف به أن المقاصد الشرعية يحتاجها العلماء لأجل أن تستوعب الشريعة كل ما يُحدثه الناس من أقضية مهما بلغت.

وقد قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور. وهٰذا يمكن أن يحمل علىٰ عدة معاني -أعني كلمته هٰذه-، ومنها أن علماء الشريعة لا يقفون في الشريعة عند ما نص عليه الأوائل؛ بل كلما استجد بالناس الأحوال نظروا في روح الشريعة والمقاصد الشرعية التي رعاها الشرع والغايات التي رعاها الشارع من الأحكام وحكموا في الأحكام الجديدة بما تقتضيه الآثار والأدلة وبما يقضيه النظر في المقاصد.

لهٰذا فإن تعريف المقاصد شمل مسائل؛ فقلنا مثلا في التعريف: **إنَّ المقاصد هي الغايات التي رعاها الشارع في تشريعه لمصلحة الخلق في الدنيا والآخرة.**

والغايات هٰذه ليست لكل أحد، الغاية قد تكون معلومة وقد لا تكون معلومة، عامَّة الناس لا يعلمون المقاصد.

فإذن هٰذه الغايات والمقاصد ليست شرطًا في التعبد، أنت تتعبد سواء علمت أو لم تعلم، تمتثل للأمر والنهي سواء علمت أو لم تعلم ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر:٧]، هٰذا هو الأصل لعامة الناس.

لكن من يرعىٰ الغايات؟ يرعاها العلماء الذين يبحثون في الاجتهاد والأحكام والفتوىٰ.

(الغايات التي رعاها الشارع) وهنا في قولنا: (رعاها الشارع) نخلص إلىٰ أن الشارع رعىٰ هٰذه ولم يترك النظر فيها إلىٰ الاجتهاد، (رعاها الشارع)؛ قولنا: (رعاها الشارع) معناه أن الذي رعىٰ هٰذه الغايات ليس العلماء وإنما هو الشرع، وهٰذا نخلص منه -كما سيأتي إن شاء الله- إلىٰ الطرق التي نعرف بها مقاصد الشريعة، فإذن كيف نعرف الغاية التي رعاها الشارع؟ يأتي بيانها.

فإذن هٰذه المقاصد ليست هي التي رعاها العلماء، وإنما رعاها الشارع، والعلماء رعوا ما رعىٰ الشارع، فإذا جاء عالم أو علماء ورعوا أشياء لم يدلَّ الشرع علىٰ اعتبارها؛ بل دل علىٰ إلغائها فإنهم يكونون حينئذ مشرّعين في ما دل الشارع علىٰ إلغائه، وذلك مثل البدع، فمن أتىٰ واستحسن البدع، وقال مثلا: لو أقمنا الاحتفالات وأقمنا الموالد وأقمنا كذا مما يتقرب به إلىٰ الله، هٰذا فيه حض النفوس علىٰ التعبد، وهٰذا مقصد مطلوب أن تتعبد، فنقول: هٰذا مقصد لم يرعه الشرع وإنما رعاه بعض العلماء وأخطؤوا في ذلك؛ لأن الشرع حكم بإلغاء هٰذا المقصد؛ لأنه مقصد ليس بشرعي، وإنما مقصد أو مصلحة ملغاة.

فإذن في قوله هنا في التعريف: (التي رعاها الشارع في تشريعه) نخلص منه إلىٰ أنه لابد أن يكون هناك دليل واضح علىٰ اعتبار هٰذا المقصد وعلىٰ استخراج هٰذا المقصد.

قال: (لمصلحة الخلق) المقاصد التي اعتبرها الشارع لمصلحة الخلق.

مصلحة الناس؟ لا، ليس مصلحة الناس؛ بل لمصلحة الخلق جميعا؛ لمصلحة الأرض، لمصلحة النبات، لمصلحة الحيوان، لمصلحة الهواء، لمصلحة العباد المكلفين من الجن والإنس.

فإذن المصالح الشرعية التي رعاها الشارع في الأحكام أكبر من أن تكون متعلقة بالمكلف، ولهٰذا إذا نظرنا مثلا في مبحث تلوث البيئة فإنه يُبحث من جهة المقاصد، مبحث استغلال خيرات الأرض نبحثه في المقاصد، إذا نظرنا إلىٰ مبحث العناية بالحيوانات إلىٰ آخره، هٰذا راجع إلىٰ مقاصد الشريعة ونصوصها، وهكذا، وكذلك إذا نظرنا إلىٰ أحوال المكلَفين في علاقاتهم ببعضهم أو في تصرفاتهم أو في تعبداتهم فإن هٰذا أيضا مرعي في جانب المقاصد الشرعية.

النقطة الأخيرة في التعريف أن علم المقاصد متعلق بالدنيا والآخرة، (بمصالح الخلق في الدنيا والآخرة)، ومعلوم أن الخلق منقسمون إلىٰ مكلَّفين وغير مكلفين، ومن كان من المكلَّفين فإن مصالحهم مربوطة بالدنيا والآخرة، أما غير المكلفين فإن مصالحهم منوطة بما فيه صلاحهم في الدنيا.

فإذن نصَّ علىٰ الدنيا والآخرة، فإذن المقاصد الشرعية اعتبر فيها مصالح العبد في الآخرة مصالح المكلف في الآخرة، تارة لا يُستنتج ولا يعرف غاية إلا النجاة من النار كما قال جل وعلا: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ﴾[البقرة:٢٢١]، وقال جل وعلا: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ﴾[البقرة:٢٦٨]، وكذلك في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[يونس:٢٥]، ونحو ذلك من أدلة اعتبار أو النظر إلىٰ الآخرة.

وهٰذا مهم في أن ينظر العبد إلىٰ ما قصده الشارع في أحكامه بأن الشريعة في أحكامها ما عقلنا منها وما لم نعقل، بحسب تفاوت العلماء رعت مصلحتك التي لا تدركها في الدنيا والآخرة معا.

فإذن صلاح الأرض بالأخذ بالشريعة، وفساد الأرض بعدم الاعتبار الشريعة، وصلاح الدنيا والآخرة باعتبار الشريعة، وفساد الدنيا والآخرة بعدم اعتبار الشريعة.

إذا تبيَّن ذلك فننتقل إلىٰ المسألة التي تليها وهي:

أدلة اعتبار المقاصد

لمَّا قلنا: إنَّ المقاصد كعلم لم يكن معتنىٰ به في زمن السلف كعلم، وإنما اعتُني به تطبيقا، فما المنهجية التي تدل علىٰ اعتبار المقاصد؟

ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «مفتاح دار السعادة» بحث ذلك بحثا موجزا، وقال: لو أنّ الأدلة تبلغ مائة أو مائتين لسقناها؛ ولكنها تبلغ ألف دليل من الكتاب والسنة أو تزيد بطرق مختلفة، وهٰذا واقع؛ لأن المقاصد التي قصدها الشرع منها مقاصد عامة ومنها مقاصد خاصة، وهٰذه المقاصد الخاصة باعتبار كل نوع من أنواع التشريع، فالعبادات لها مقاصد، الصلاة لها مقاصد؛ الصلاة المفروضة بأحكامها والجماعة والعبادات المفروضة هٰذه لها مقاصد، والنوافل لها مقاصد، وثَم أدلة تدل علىٰ هٰذا كله.

كذلك إذا انتقلت إلىٰ المعاملات، إذا انتقلت إلىٰ عقود التبرعات من الوقف والوصية والصدقة ونحو ذلك، وإذا انتقلت إلىٰ التعامل مع الناس في الأنكحة والكفالة وفي النفقات وأشباه ذلك، فعندك من هٰذا مجالٌ كثير.

إذن فالمقاصد الأدلة عليها بتفصيل كثيرة جدًّا كما ذكر ابن القيم؛ لكن من الأدلة التي دلت علىٰ اعتبار المقاصد أنّ الله جل وعلا نصَّ في أكثر من آية علىٰ أن هٰذه الشريعة -شريعة الإسلام- جاءت بموافقة الفطرة ورفع الحرج، فقال جل وعلا: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج:٧٨]، وقال جل وعلا: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[البقرة:١٨٥]، ونحو ذلك مما فيه رفع الحرج ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾[التغابن:١٦]، وهٰذا مقصد عام، ولهٰذا جاءت رسالة محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ برفع الآصار والأغلال التي كانت عليهم، قال جل وعلا: ....

محبة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مطلوبة في حياته ومطلوبة بعد وفاته ومعرفة سيرته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مطلوبة في حياته ومطلوبة بعد وفاته، فمع معرفته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالتاريخ ووجود هٰذه المعاني المطلوب تحقيقها من جهة عامة؛ لكن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ترك الاحتفال فدل هٰذا علىٰ أن تركه سنة لماذا؟ لأن المقتضي للفعل موجود في زمنه، الشرط للفعل موجود في زمنه، المانع منتف في زمنه، فإذن يقتضي ذلك أن يكون تركه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سنة.

فإذن هٰذه الاحتفالات بأنواعها والبدع بأنواعها يمكن أن تستنتج من هٰذا التقعيد مع مجمل نصوص الشريعة أن الشارع يقصد إلىٰ عدم إحداثها، وأنّ الشارع ألغاها ولم يعتبرها؛ لأن إحداثها واعتبارها فيه مضاهاة التشريع، والشريعة كمُلت والناس ليسوا بحاجة إلىٰ مزيد فيه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، ولهٰذا اعتبر الصحابة تركه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هٰذا المعنىٰ، فما أحدثوا شيئا من ذلك في عهد الخلفاء ولا في عهد التابعين ولا في عهد تبع التابعين ولا في عهد تبع التابعين حتىٰ جاءت سنة ٣٣٠ هجرية فبدأت الاحتفالات بالموالد.

هٰذه بعض الطرق التي تُدرِك بها المقاصد الشرعية للأحكام المتنوعة.

المسألة التي تليها:

أمثلة

هٰذا مدخل، نذكر أمثلة،

إذا نظرت إلىٰ هٰذه المقاصد فالعلماء نظروا في مقاصد الشريعة ومن باب التبسيط والتقريب قسموا المقاصد من حيث أهميتها إلىٰ ثلاثة أقسام قالوا:

- **مقصد ضروري**، وهو أرجح المقاصد أهم المقاصد.
- القسم الثاني **مقصد حاجي**، الناس يحتاجونه ورعاه الشارع.
- الثالث **مقصد تحسيني**؛ تكميلي.

المقصد الضروري والمقصد الحاجي والمقصد التحسيني ارتبط عندهم بشيء أسموه الضروريات الخمس التي رعاها الشرع.

- هٰذه الضروريات الخمس، هي أن الشريعة جاءت في أحكامها وفي مقاصدها:

١. بحفظ الدين أولا.
٢. ثم بحفظ النفس.
٣. ثم بحفظ العقل.
٤. ثم بحفظ النسل.
٥. ثم بحفظ المال

فأسموا هٰذه الخمس علىٰ هٰذا الترتيب –مهم هٰذا الترتيب، وهٰذا الترتيب هو ترتيب الجمهور، وإن كان في بعضه خلاف؛ لكن هو ترتيب الجمهور والمقرر عند المجتهدين.

هٰذه الخمس تأتيك فيما رعاه الشارع من الأحكام الضرورية المقاصد الضرورية، وفيما رعاه الشارع من الأحكام الحاجية والأحكام التحسينية.

لهٰذا لو نظر ناظر إلىٰ كتاب المقاصد «الموافقات» للشاطبي لوجد أنه بدأ الكلام علىٰ هٰذه المسائل المقاصد الضروريات الحاجيات والتحسينيات ودخل في تعريفه.

ويهمني تقريبا ومدخلا لعلم المقاصد أن أذكر الربط ما بين هٰذه الأشياء وعلم المقاصد، كيف وجد هٰذا الربط؟

هٰذا التقسيم اصطلاحي، ويمكن أن تفهم المقاصد بدون هٰذا التقسيم؛ لكن هٰذا التقسيم مع كونه اصطلاحيا لكنه مهم؛ لأنه بهٰذا التأصيل ننظر إلىٰ المصالح وهي المقاصد، والغايات التي رعاها الشارع، ننظر إليها بنوعين من النظر مرتبين:

النظر الأول: الضروريات وهٰذه الضروريات الخمس مرتبة:

الدين؛ يعني أن الشرع اعتبر المحافظة علىٰ الدين مقصدا من مقاصده.

ثم الثاني: **النفس**، الشرع اعتبر المحافظة علىٰ النفس مقصدا من مقاصده.

والثالث: **العقل**، الشرع اعتبر المحافظة علىٰ العقل مقصدا من مقاصده.

الرابع: **النسل**، اعتبر المحافظة علىٰ النسل مقصدا من مقاصده.

الخامس: **المال**، الشرع اعتبر المحافظة علىٰ المال مقصدا من مقاصده.

لماذا نرتبها خمسة؛ لأنه عند التعارض يظهر فائدة المقاصد، عند التعارض في المحافظة علىٰ هٰذا.

فإذا جاءنا مثلا من يقول: كيف الشريعة تأمر بالجهاد الذي قد يموت فيه عشرات الآلاف من الناس وهي جاءت بحفظ النفس؟ نقول: مرتبة حفظ النفس تالية لمرتبة حفظ الدين، ومرتبة الحفاظ علىٰ الدين الذي هو حق الله جل وعلا وهو توحيده وعدم الإشراك به هٰذا هو الذي رعته الرسل في رسالته، وهو الذي قصده الشارع في أول ما قصد أن يُحافظ علىٰ الدين.

فإذن المحافظة علىٰ الأنفس باعتبار الشارع تكون تالية للحفاظ علىٰ الدين.

ننظر إلىٰ مسألة أخرىٰ في الترتيب: المحافظة علىٰ النسل، المحافظة علىٰ النسل مطلوب؛ لكنه بعد المحافظة علىٰ النفس، فإذا جاء من يقول: أنا أريد أن أسقط هٰذا الجنين بعد نفخ الروح فيه، أنا أريد أن أسقطه لأنه:

أولا: لم يوجد، لم يصبح نسلا.

ثانيا: أنا لا أستطيع أن أقوم بهؤلاء جميعا، بنفقة هؤلاء، أنا لا أستطيع التربية، عندنا مشاكل كذا وكذا وكذا.

فهل يقال له: أسقط في أي وقت، أم يقال له: لا؟ الشريعة ما فيها نص ما فيه دليل هل تسقط أو ما تسقط؟؛ لكن العلماء اتفقوا علىٰ تحريم هٰذا النوع بعد نفخ الروح فيه؛ لأن المحافظة علىٰ النفس مقدمة علىٰ المحافظة علىٰ النسل الذي يظنه هو يعني النسل غير هٰذا المعين.

مثاله أيضا: شخص يقول: جاءني من يريد القضاء علىٰ نفسي، أو يريد الاعتداء عليه؛ لكن لابد أن تدفع لي من المال كذا وكذا، فهل الشريعة جاءت ببذل المال لقاء سلامة النفس، نقول: نعم؛ لأن المحافظة علىٰ النفس مقدم علىٰ المحافظة علىٰ المال، وهٰذا سواء باعتبار المفرد أو باعتبار بيت المال، وباعتبار الدولة بعامة.

وهٰذا ترتيب الخمس مفيد جدا في تطبيقات كثيرة.

◄ نأتي إلىٰ التقسيم الثاني وهو أن المقاصد: المقصد تارة يكون ضروريا، وتارة يكون حاجيا، وتارة يكون تحسينيا.

المقصد الضروري تارة يكون متوجها إلىٰ الدين أو إلىٰ النفس أو إلىٰ العقل أو إلىٰ النسل أو إلىٰ المال.

كذلك المقصد الحاجي يكون متوجها إلىٰ الخمسة.

كذلك المقصد التحسيني يكون متوجها إلىٰ الخمسة.

إذن هٰذا التقسيم هٰذا مرتبط مع هٰذا التقسيم.

ما معنىٰ الضروري؛ **المقصد الضروري** الذي اعتبره الشرع؟ **الذي لا تقوم الحياة إلا به، لا يقوم** الدين إلا به، فالمحافظة عليه أمر ضروري وإيجاده أمر ضروري؛ وهٰذا يعني أن الشريعة حينما رعت المصالح فإنها رعت في تحقيقها جهتين:

الجهة الأولىٰ: الإيجاد.

والجهة الثانية: المحافظة.

الإيجاد، إيجاد حفظ الدين، والثاني المحافظة عليه بإزالة المانع منه أو ما يؤثر فيه، فأوجدت المحافظة علىٰ النفس ومنعت مما يضد ذلك، أوجدت المحافظة علىٰ أصل الدين؛ يعني إيجاد المقصد والمحافظة عليه، أوجدت المحافظة علىٰ الدين، ثم شرعت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي به ثباته، شرعت الجهاد الذي به ثباته، ونحو ذلك من المسائل.

فإذن تعريف **المقصد الضروري عند أهله أنه ما لا تقوم المحافظة علىٰ هٰذه الخمس إلا به**، ما يمكن تقوم الحياة إلا به من جهة النظر إلىٰ هٰذه الأمور الخمسة.

الحاجي يعني ما يحتاجه الناس في أن تكون حياتهم حياة هنية بيسر وسهولة، فالمقصد الحاجي هو الذي يدخل فيه التيسير، يدخل فيه رفع الحرج، يدخل فيه عدم المشقة علىٰ العباد.

فمثلا لو أمر الشارع فمثلا لو أمر الشارع بالصوم في السفر يتحمله الناس، لا يموت إذا صام في السفر، إذا صلىٰ أربعا في السفر كل صلاة في وقتها لن يموت وتبقىٰ حياته، لكن ستصيبه مشقة من ذلك، إذا خلع الجورب وغسل رجليه في البرد القارص لن يموت منه؛ ولكن عليه فيه مشقة، فهٰذا الأمر اعتبر الشارع فيه التيسير والتخفيف وهو الذي يسمىٰ بالمقاصد الحاجية أو المقصد الحاجي.

الثالث المقصد التحسيني، سموه التحسيني لأنه يتعلق بمحاسن الحياة بمحاسن العادات، بمكارم الأخلاق، من مثل أمور الأكل والشرب أمور الإكرام -الضيافة-، بعض المسائل المعتبرة في تحسين حياة الناس.

من المهم في هٰذه الأمور جميعًا أن نذكر أن الشريعة جاءت بشيئين:

أولا: إيجاد المقصد.

والثاني: جاءت بالمحافظة عليه.

فهم النصوص وفهم المقاصد الشرعية، المجتهد ينظر في أن الشريعة جاءت بإيجاد هٰذا الأمر؛ يعني بإيجاد النسل، الشريعة من مقاصدها إيجاد النسل، ومن مقاصدها المحافظة علىٰ النسل.

من مقاصدها إيجاد المال وتنمية المال وتوزيع المال، ومن مقاصدها المحافظة علىٰ ما أوجدته.

كذلك العقل، العقل القوي السليم الذي يكون صالحًا للحياة في تعمير الأرض وفي قوة المسلم وتعبيد الناس كمدنية ومجتمع لله جل وعلا، إيجاد العقل مقصد من مقاصد الشريعة، وأيضا المحافظة علىٰ العقل مقصد من المقاصد.. وهكذا.

نختصر المقام في مبحث أخير وهو ذكر بعض المقاصد علىٰ وجه التفصيل..

[المسألة الأخيرة في ذكر:

بعض المقاصد العامة والتفصيلية للشريعة

من أمثلة المقاصد أن الشريعة جاءت لتحصيل المصالح ودرء المفاسد: **تحصيل المصالح وتكميلها ودرء المفاسد وتقليلها.**

وهٰذه المصالح والمفاسد تارة تكون متعلقة بأمور العبادة، تارة تكون متعلقة بأمور المعاملات أو بأمور الجنايات أو بمسائل الأطعمة إلىٰ آخره، وتحصيل المصالح ودرء المفاسد هٰذا من أعظم مقاصد الشريعة.

بل زعم طائفة من العلماء كابن عبد السلام في «قواعده» وجماعة أنّ الشريعة في جميع أحكامها ترجع إلىٰ هٰذا الأصل، وهو رعاية المصلحة ودرء المفسدة.

وهٰذا يحتاج إلىٰ مزيد بحث ويكون صحيحا إذا نظرت إلىٰ المصلحة باعتبار واسع لما يشمل مصالح الدنيا والآخرة بنوع من الإيضاح.

من المقاصد: **أن الشريعة جاءت بالاجتماع والنهي عن الافتراق.**

فالاجتماع الناس في الدين وفي الأبدان مقصد من مقاصد الشريعة لهٰذا جاء الأمر بالاعتصام بكتاب الله ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[آل عمران:١٠٣]، لا تفرقوا في الدين بأن تشرعوا ما لم يأذن به الله وأن تتعبدوا بما لم يتعبد به نبينا ﷺ، لا تأتِ بما لم تقره الشريعة من الأحكام فتحكم بغير شرع الله، الاجتماع في الدين، وكذلك الاجتماع في الأبدان بأن لا يُخرج عن ولي الأمر، وأن لا يُسعىٰ عليه، وأن يجتمع الناس بأن تكون لهم الهيبة والقوة علىٰ أعداء دينه.

الفُرقة أيضا - ممّا يقابلها- جاءت الشريعة بالنهي عن الفرقة؛ فرقة في الدين ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾[الشورىٰ:١٣] وكذلك الفرقة في الأبدان بأن يكون الناس فوضىٰ لا سُراط لهم كما جاءت الأدلة الكثيرة من النهي عن الافتراق.

من مقاصد الشريعة أيضا العامة: **الأمر بالعدل والنهي عن الظلم.**

قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾[النحل:٩٠]، وقال جل وعلا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[يونس:٤٤]، وقال نبينا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**قال الله تعالىٰ: إني حرّمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا**»، وقال جل وعلا في الحكم والتحاكم: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾[ص:٢٦].

فإذن من مقاصد الشريعة رفع الظلم بأنواعه: الظلم بحق الله جل وعلا بالشرك به جل وعلا، الظلم في حق نبيه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، الظلم في حق العباد في ما بينهم، والظلم في حق النفس بأن لا تسعىٰ فيما يسعدها في الآخرة.

الشريعة نفت الظلم وسعت إلىٰ إبطاله، وأوجبت ما يضاد ذلك من العبادات والأحكام التي تخلص المكلف من داعية هواه كما سيأتي، وأمرت بالعدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾[النحل:٩٠]، قال طائفة من السلف: هٰذه الآية من سورة النحل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ تأتي علىٰ جميع الشريعة؛ لأن المقصد العظيم

من الشريعة إقامة العدل، **والعدل بمعناه العام هو أن يعطىٰ كل ذي حقٍّ حقه**، هٰذا العدل أن تعطي الله جل وعلا الذي له أعظم الحقوق حقه بعبادته دونما سواه، هٰذا مقصد دعت إليه الشريعة؛ بل إنما جاءت الرسل لهٰذا المقصد الأعظم، وهكذا في أمور العدل الأخرىٰ.

من المقاصد التي رعتها الشريعة **أن الشريعة جاءت لتخليص المكلف من داعية هواه**. والقرآن العظيم ليس كتاب فلك ولا كتاب حساب ولا كتاب طبيعيات وإن كان فيه من أصول هٰذه العلوم ما فيه، لماذا؟ لأن هٰذه العلوم جميعا لا يدخلها الهوىٰ، وإنما يدخلها الخطأ والصواب، من نظر إلىٰ الفلكيات، فقال: القمر يخسف لأجل كذا أو يخسف لأجل كذا، هو لا يتدخل بهواه، إنما يستكشف ما سيكون صوابا أو يكون خطأ، كذلك الحساب ليس لأحد هوىٰ في أن يكون عشرة زائد عشرة تساوي خمسة عشر، هٰذه لا يدخلها الهوىٰ، كذلك في أمور الزراعة وفي أمور الحيوان.

فإذن الكتاب والسنة لم يأتيا في بيان هٰذه الأمور التي لا يدخلها الهوىٰ، ولهٰذا لما أتىٰ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ إلىٰ الذين يؤبّرون النخل ورآهم يؤبرونه قال: «**لو تركتموه لصلح**» أو نحو ذلك، فتركوه فأتوا للنبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: إننا تركناه علىٰ ما قلت، وخرج شيصًا، أو كما جاء في الصحيح فقال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**»، أو بالرواية الأخرىٰ فهي أثبت من حيث السند قال: «**إنما ظننت فلا تؤاخذوني بالظن**»، وهٰذا منه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ للتشريع لا لأجل أن يخسّرهم هؤلاء، وإنما صار منه هٰذا بأمر الله ليُحدث للأمة تشريعا في أن هٰذه الشريعة إنما جاءت لتخليص المكلّف من داعية هواه في الأمور التي يدخلها الهوىٰ، أما الأمور التي لا يدخلها الهوىٰ فيتضح له هي صواب أو خطأ، فالأمور التي يدخلها الهوىٰ: شهوات الإنسان؛ شهوته في أن لا يكون مكلفا، شهوته بأن لا يحاسب علىٰ أخذ المال، شهوته في أن يأتي من النساء ويذر بحسب ما يرغب، يأتي شهوته كيف شاء وبحسب ما يرغب، هٰذه أمور له هوىٰ فيها، يظلم من شاء، يتسلط ويكون واليا، أو يكون متسلطا أو يكون علىٰ ناس فيأكل، أو يكون عند ناس يعملون؛ فيظلم ويترك من يشاء إلىٰ آخره، هٰذه أمور يدخلها الهوىٰ.

فالشريعة جاءت بإخراج المكلفين من دواعي الهوىٰ، ولهٰذا القرآن فيما فيه من أمور أخر لا يدخلها الهوىٰ إنما جاءت لتقوية الإيمان حتىٰ يخرج من داعية الهوىٰ ويستقيم للتعبد لرب العالمين، هٰذا مقصد عظيم من مقاصد الشريعة بأن يخلص المرء داعية هواه.

أيضا من مقاصد الشريعة العامة **أن يكون الناس خَلِيِّين من الخصومات.**

جاءت الشريعة بالقضاء بالفصل بين الناس فيما يختلفون فيه؛ ولكنها جاءت لتقليل مسالك الخصومة.

فإذن المسائل الشرعية التي قد يحدث منها خصومة تجد أن الشارع يقلل المسالك التي يحدث منها خصومات؛ لأن الشريعة جاءت بجمع الناس وبقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠] وبقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[التوبة:٧١] وبقوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[الحجرات:١٢]، وبقوله: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان**» إلىٰ آخره من النصوص، كيف يستقيم هٰذا الأصل العظيم والمقصد العام؟

بأن لا يكون هناك سبيل للخلافات، فإذن جاءت الأحكام الشرعية لتضييق باب الخلافات، لهٰذا تأتي الشروط في البيع، الشروط في الإجارة، الشروط في الشركات، لتقليل ما قد يحدث من الخلافات.

تأتي تسأل العالم تقول ما حكم كذا، أنا راضي، يقول: لا يجوز، لماذا؟ لأنه قد يحدث خلاف بعد ذلك.

يأتي مثلا رجل يريد أن ينكح أخت زوجته مع وجود زوجته، يجمع ما بين المرأة وما بين أختها، هٰذا يحدث خلافات، الشريعة جاءت بصلة الرحم، فهٰذه الخصومة فيما بينهما جاء التشريع بتحريم الجمع بين الأخت وما بين أختها؛ لأجل أن لا يحدث قطع للرحم إلىٰ آخره، فإذن هٰذا من مقاصد الشريعة العظيمة.

هٰذه مقاصد عامة رعتها الشريعة.

وهناك مقاصد خاصة، ما معنىٰ المقاصد الخاصة؟؛ يعني إذا أتينا للعبادات فهناك مقاصد للعبادات، إذا أتينا للمعاملات في البيوت فهناك مقاصد، إذا أتينا لعقود التبرعات هناك مقاصد، المساقاة والمزارعة لها مقاصد شرعية بنيت عليها، وهكذا.

وهٰذا القسم الأخير وهو المقاصد التفصيلية للتشريع هٰذا مما يتفاوت العلماء والمجتهدون في النظر إليه، لهٰذا يختلف العلماء في الاجتهاد من جهة النظر إلىٰ: هل هٰذا المقصد معتبر أم لا؟ بعض العلماء وإن كان عالما يكون نظره للمقاصد ضعيفًا؛ فتجد أن فتواه لا تستوعب الأزمنة والأمكنة.

لهٰذا ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ نصَّ في أكثر من موضع علىٰ أن فقهاء الحديث هم الذين يرجع الناس إليهم؛ لأنهم يعتبرون الدليل والأثر ويعتبرون المقاصد والمعاني، فلهٰذا تجد أن فتواهم تصلح للناس فتكون ميسَّرة علىٰ الناس.

خذ مثالا: الإمام أحمد ابن حنبل في مسألة من مسائل البيع يقول: ينعقد البيع بالمعاطاة، طائفة من العلماء قالوا: لا البيع لا ينعقد إلا أن يقول البائع: بعتك، ويقول المشتري: قبلت، لابد من اللفظ والصيغة، هٰذا يضيق علىٰ الناس، الناس متعارفون خذ ريالات بدون كلام، الإمام أحمد لنظره إلىٰ مقصد الشارع من وجود البيع هو التيسير ليس للشارع قصد الصيغة بعينها؛ لكن ما عده الناس تراضيا فإنه يؤدي التراضي، فإذا كان الناس يؤدي من التراضي يدخلون الريال في الآلة ويخرج لهم علبة شراب، أن هٰذا يكفي؛ لأن هٰذا حصل به المقصود.][1]

نهىٰ النبي ﷺ عن الغرر لأجل أن لا تؤكل أموال الناس بينهم بالباطل ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[البقرة:١٨٨]؛ لكن جاءت بإباحة اليسير من الغرر، اليسير من الغرر لابد منه، تريد أن تشتري بيتا أكيد لن تعرف أساسات البيت، ولن تعرف حيطانه المبنية به، ولا تعرف في وسطه إسمنت جيد، هناك أشياء كثيرة من الغرر اليسير الذي عفت عنه الشريعة؛ لأن الشريعة لو اعتبرت نفي جميع أنواع

---

(١) هذه المسألة في الشريط موجودة بعد مسألة أدلة المقاصد لكن غلب ظني علىٰ أن الشريط غير مرتب فوضعتها هنا. والله أعلم –انتبه بعد مسألة أدلة المقاصد وقبل الكلام علىٰ الاحتفالات التي هي من المصالح الملغاة.

الغرر حتىٰ ما كان منه يسيرا لصار الناس في ضيق في معايشهم، ولما استطاعوا تبادل الأشياء فيما بينهم؛ ولابد أن تكون أشياء من الغرر.

كذلك هناك في النكاح وفي الجنايات وأمور كثيرة.

إذن فهٰذا المسألة الأخيرة مما ينبغي للعلماء وللفقهاء ودارسي الفقه أن يعتنوا بها وهي:

استخراج المقاصد الشرعية من العبادات.

استخراج المقاصد الشرعية من الجهاد.

استخراج المقاصد الشرعية من أحكام البيع.

استخراج المقاصد الشرعية التي رعاها الشارع في تحريم الربا، في النهي عن الغرر في عقود عمارة الأرض، في الزراعة في النكاح، في المحافظة علىٰ النسل، في المحافظة علىٰ البيئة، ما هي المقاصد الشرعية هٰذه من أهم العلوم التي هي الغاية من علم المقاصد.

وهٰذه المحاضرة مدخل إلىٰ علم المقاصد، وليس بيان هٰذه المسائل مقصودا؛ لأنه هو علم المقاصد، وهو غاية المقاصد ونهاية المقاصد، ولكل علم كما هو معلوم مبتدأ وغاية، فذكرنا مبتدأه.

وأسأل الله جل وعلا أن يجعلني وإياكم من الفقهاء في دينه، وأن يلهمنا رشدنا وأن يقينا شر أنفسنا، وأن يوفقنا للفقه في دينه، والعلم بأحكام كتابه وسنة نبيه ﷺ، إنه سبحانه أكرم مسؤول وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

[الأسئلة]

شكر الله لمعالي الشيخ صالح علىٰ هٰذا العرض الشيق الطيب، وهنا في الحقيقة جملة من الأسئلة اخترنا منها ما له علاقة مباشرة بالمحاضرة.

سؤال (١): ما هو أفضل طريق يسلك في سبيل المنهجية في دراسة مقاصد الشريعة، وهل هناك كتاب مختصر يسهل علىٰ المبتدئ حتىٰ يعرف المقاصد الشرعية؟

الجواب: الحمد لله.

أولا علم المقاصد -كما ذكرنا- له جهتان:

جهة استخراج الحِكَم الشرعية والمقاصد الشرعية؛ ليعظُم يقين العبد بهٰذه الشريعة وبأنها من عند الله جل وعلا وبأن تطبيقها فيه مصلحة العباد، وهٰذا القدر متاح لكل أحد ولكل طالب علم.

والجهة الثانية معرفة المقاصد في كلِّ حكم، أو في كل باب من أبواب الشريعة لتطبيقها علىٰ ما يجدّ في حياة الناس، وهٰذه لا أنصح طلاب العلم المبتدئين أو من لم ترسخ قدمه في العلم أنه يظن أن بدراسته لبعض المقاصد وقراءته ذلك أنه سيكون مجتهدا في مسائل العصر، فنخرج بطرف مفرِط في رعاية المقاصد، وهو أنه علم مقصدًا فضرب بهٰذا المقصد النُّصوص الشرعية.

ولهٰذا ذكرتُ لك في أدلة معرفة المقاصد أن أول الدليل هو الأمر والنهي، هٰذا مقصود في حدِّ ذاته إذا امتثلت الأمر وانتهيت عن النهي فقد حققت المقصد الشرعي.

لٰكِن العلماء أهل الاجتهاد إذا نظروا في المقاصد فإنهم قد يحملون الدليل إذا كان فيه مجال للحمل علىٰ المقصد والقاعدة لتكون رعاية المصلحة أعم وأشمل، وهٰذا إنما يتحقّق به علماء الشريعة أهل الاجتهاد والرُّسوخ في العلم.

جواب السؤال كُتبت عدة كتب ورسائل في هٰذا الموضوع، والعلماء دائما يرجعون إلىٰ كلام ابن تيمية في هٰذه المسائل وإلىٰ كلام الشاطبي، كلام ابن تيمية وكلام الشاطبي مختلف ومتفق:

متفق من حيث الرعاية، من حيث التأصيل انطلقا من منطلق واحد.

لكنه مختلف من حيث التطبيق إذ الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نظر أكثر ما نظر في التأصيل، وابن تيمية نظر في التطبيق، وإذا جاءت المسائل الخلافية قال: الحكم فيها كذا؛ لأن الشريعة جاءت بكذا وكذا؛ فنظر في المقاصد لأجل ما عاناه هو من الاجتهاد في المسائل التي كانت محل اجتهاد في زمنه.

لهٰذا ينبغي لطالب العلم أن يتدرّج فيها بالأخذ:

أولا بما ذكره الشاطبي ومن لخص كلامه بعدة كتب لخّصت كلام الشاطبي.

ثم **ثانيا** يأخذ بمدرسة ابن تيمية في هٰذا الأمر ومن تبعه في ذلك مثل ابن عاشور وجماعة.

سؤال (٢): لا يخفىٰ عليكم أهمية كتاب «الموافقات»؛ ولكن اختلاف الطبعات وطريقة القراءة فيه يحتار طالب العلم فما أحسن الحواشي عليه؟ وما هي المقدمات التي تسبق قراءة مثل هٰذا الكتاب الذي قد يكون في عبارته شيء من الصعوبة؟

الجواب: كتاب «الموافقات» هٰذا كتاب ليس سهلا، كتاب صعب وإنما يفهمه من كان له دُربة ومعرفة بأصول الفقه؛ لأجل أن تفهم «الموافقات» لابد تدرس أصول الفقه جيدا وخاصة الأحكام التكليفية؛ قسم الحكم التكليفي والأخير الاجتهاد، ثم تدرس الأدلة باب الاستدلال.

وجميع أصول الفقه تخدمك في ذلك وبما فيها القياس ومباحثه.

ولكن كتاب «الموافقات» كتاب صعب.

هناك عدد كما ذكرت لك لخصوا الكتاب.

من أمثلة من لخص ما رأيته مؤخرا كتاب اسمه «نظرية المقاصد عند الشاطبي»، وهو رسالة جيدة.

وهناك مختصر وجيز «المختصر الوجيز لمقاصد التشريع»، أيضا موجود في صفحات معدودة للأستاذ أو للشيخ عوض القرني، وأظنه كان مقررا علىٰ الطلاب.

فيه «مقاصد الشريعة» لابن عاشور.

فيه «القواعد» للعز بن عبد السلام.

وأشباه هٰذه الكتب يعني هٰذه تقرب النظر في كتاب الشاطبي.

كتاب الشاطبي كتاب صعب قوي يحتاج إلىٰ ملكة في الأصول قبل الدخول فيه.

سؤال (٣): ما هي العلاقة بين مقاصد الشريعة وبين تضعيف الأحاديث من جهة المتن؟

الجواب: هٰذا سؤال جيد ومهم؛ لكن جديد عليّ، يحتاج إلىٰ مراجعة حتىٰ أُحكم الجواب.

سؤال (٤): ذكرتم أن ابن القيم أنه تكلم عن المقاصد، والذي أذكره أنه ذكره في «إعلام الموقعين»، وهل لابن رجب كلام أيضا عن المقاصد؟

الجواب: ما أعلم أن ابن رجب تكلم عن المقاصد من حيث هي.

لكن ابن القيم عرض للمقاصد في ثلاثة من كتبه أو أربعة؛ بل هي أربعة.

عرض لها في «مفتاح دار السعادة» من جهة العلل والأحكام عامة.

وعرض له في كتاب «شفاء العليل» من جهة تعليل أفعال الله جل وعلا الكونية والشرعية ودخل في المبحث هٰذا.

وعرض له في كتاب «إعلام الموقعين» في نظر المجتهد وقياس المعنىٰ وعموم المعنىٰ والفرق بينه وبين عموم العلة وأشباه ذلك. وعرض له أيضا في «إعلام الموقعين» حينما تكلم علىٰ الحيل والرد عليها، ونظر المجتهد في الأحكام.

وأخيرا في كتاب «زاد المعاد» في أواخره فيما اختار من الأحكام علّل كثيرا من اختياراته التي هي تبع لاختيارات شيخه ابن تيمية بالمقاصد الشرعية.

في «السياسة الشرعية» أيضا له أذكر أنه تكلم عن المقاصد في سياسة الناس في الأحكام وفي الأمر والنهي في السياسة الشرعية. في «الطرق الحكمية في السياسية الشرعية».

سؤال (٥): يعتني كثير من المعلقين بذكر مقاصد العبادات في كتبهم سواء في العبادات وغيرها، ويفردون المؤلفات في ذلك كالطوسي ونحوه، هل يعاب علىٰ المكلف كونه يبحث ويسأل عن علة تشريع الحكم الفلاني، وما رأيكم في جهة التأليف المذكورة؟

الجواب: هٰذا سؤال مهم أيضا وكبير؛ لكن أختصر الكلام عليه في مسألتين:

الأولىٰ: أن هناك فرقا ما بين علة الحُكم والحكمة من الحُكم، وكثير ممن يعرضون لأسرار التشريع يعرضون للحِكم والأسرار وليس للعلل والمقاصد.

مثال الفرق بينهما: الفطر في السفر وقصر الصلاة في السفر؛ رخص السفر بعامة، رخص السفر بعامة العلة الشرعية التي أنيط بها الحكم هي السفر ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[النساء:١٠١]، فإذن إذا وُجد الضرب في الأرض -وهو السفر- وُجد الحكم وهو إباحة الترخص برخص السفر التي منها قصر الصلاة؛ لكن الحكمة هي دفع المشقة؛ لأن أكثر من يسافر تصيبه المشقة، وإذا قلنا: أكثر من يسافر فباعتبار المكلفين في الماضي والمستقبل؛ يعني في زمن التشريع إلىٰ يوم القيامة لا ينظر إلىٰ زمن معين مثل زمننا تذهب بالطيارة وكذا أنه ما فيه تعب، ينظر إلىٰ التكليف من حيث إذن الحكمة اختلفت عن العلة، العلة هي السفر والحكمة هي المشقة.

والناس فيما يعرضون من أسرار الشريعة يعرضون كثيرا إلىٰ الحِكم، وهٰذه لا بأس أن يخوض فيها العالم وطالب العلم ويُخرج ما يجعل الناس يعجبون بالشريعة ويلتزمون بها وتكون مدخل إلىٰ الدعوة إلىٰ الدين أو لتثبيت القناعة بالشريعة في بيان محاسنه.

لكن العلل الشرعية منوطة بطرق لإثباتها وطرق لتعديتها، وهٰذه لا يليق أن يعتني بها إلا أهل الاجتهاد الذين يستطيعون إخراج العلة بشروطها المعروفة وأن تكون العلة معتبرة ويعدّونها بعد ذلك.

المقاصد الشرعية كما ذكرنا تارة تكون مرتبطة بالعلل، تارة تكون مرتبطة بالحكم، وتارة تكون أعم من ذلك كله يدخل فيها العلة والحكمة وما شابه ذلك.

سؤال (٦): ما العلاقة بين المقاصد الشرعية والمصالح المرسلة؟

الجواب: ذكرنا أن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح ودرء المفاسد، والمقاصد الشرعية مبنية علىٰ تحصيل المصالح ودرء المفاسد؛ هٰذه المصلحة:

إما أن يُنَص عليها في الشرع؛ فتكون مصلحة معتبرة ومقصدا من مقاصد الشارع؛ يعني منصوص عليها في الشرع إما بدليل معين أو باستقراء أو بقواعد أو.. إلىٰ آخره.

وإما أن تكون ملغاة فتسمىٰ المصلحة الملغاة التي لم يعتبرها الشرع، مثل ما مثلت لكم بمثال الاحتفالات إلىٰ آخره.

وإما أن تكون -وهي الثالثة- مصلحة سكت عنها الشارع فلم يذكرها في الاعتبار ولم يذكرها بالإلغاء؛ وهي التي سميت مرسلة؛ مرسلة يعني مطلقة، مطلقة من أي شيء؟ من الاعتبار أو الإلغاء، أرسل الشارع اعتبارها وأرسل الشارع إلغاءها، فلم ينص فيها علىٰ اعتبار أو إلغاء، وإنما دلت الأدلة العامة والقواعد علىٰ اعتبار هٰذه المصلحة، فسميت إذن هٰذه مصلحة مرسلة.

فإذن المصالح المرسلة تدخل ضمن المقاصد، فالمصلحة هي المقصود، وقد تكون المصلحة منصوصا عليها أو معتبرة شرعا بالتنصيص عليها أو باستقرائها، وقد تكون مرسلة بما يثبته الناس في أزمنتهم.

وأول من اعتبر المصالح المرسلة عمر رضي الله عنه؛ عمل أشياء كثيرة في الدولة؛ عمل ديوان الولاية، وعمل بيت المال، وعمل الولايات المختلفة.. هٰذه مصالح مرسلة؛ لأن الشارع ما أتىٰ بهٰذه التنظيمات وهي راجعة إلىٰ دنيا الناس وتصلحهم وهي من المصالح المرسلة.

عثمان رضي الله عنه اعتبر المصالح في العبادات وفي المعاملات: في العبادات في جمع المصحف وفي الأذان الأول للجمعة -وعمر أيضا المصالح في أشياء من غير ما ذكرنا- اعتبر في الأذان الأول في الجمعة واعتبرها أيضا في المعاملات في الولايات وفي المال وفي أشياء أخرىٰ.

إذن المصلحة المرسلة إذن هي جزء من المصالح التي ترعاها المقاصد، هٰذا باختصار لهٰذا من تكلم في المقاصد لابد أن يبحث المصالح المنصوص عليها والمصالح المرسلة.

سؤال (٧): هل المقاصد الحاجية هي الرّخص؟

الجواب: الرخص من المصالح الحاجية، مثل ما ذكرنا الرخصة في السفر بالمسح، رخص السفر هٰذه من الحاجيات، التي عدم رعايتها لا يضر بالناس؛ لكن يصيبهم بنوع من المشقة وعدم التيسير.

أما الحاجيات أما المصالح الحاجية أكبر بكثير؛ لأنها كما ذكرنا ترجع إلىٰ الدين ترجع إلىٰ النفس ترجع إلىٰ العقل، ترجع إلىٰ النسل، ترجع إلىٰ المال .

سؤال (٨): ما هو الفرق بين الحكمة والعلة والمقصد؟

الجواب: ذكرنا الفرق.

سؤال (٩): نختم بهذا السؤال وهو ليس له علاقة بما سبق، يقول السائل: أكدت الوزارة على منسوبيها عدم مخالفة الفتوى المعمول بها أو تتبع زلات الفقهاء، ولعلمائنا الأجلاء برامج شتى في نشر الفتاوى؛ لكن الملاحظ أن كثير من كتاب أعمدة الصحف هذه الأيام يذكرون فتاوى بين الناس شاذة أو ضعيفة أو مرجوحة غير معمول بها؛ بل بعضهم نصب نفسه مفتيًا للناس، ما هو دور الوزارة في هذا الموضوع وما توجيه فضيلتكم؟

الجواب: هذا موضوع أولا مثله لا يطرح في المساجد؛ لأن استيعاب الحاضرين للجواب وللمسألة مختلف، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى الابتلاء في الفتاوى الشاذة قديمة، والفتاوى التي فيها ترخيص قديم، وإذا كانت الفتوى منسوبة إلى عالم معتبر صارت أيضًا مشكلة كبيرة.

ولهذا قال من قال من أهل العلم: زلة العالِم زلة العالَم، إذا كان عالم وإمام وزل لابد أن يتبعه كثير أكثر الناس ما عنده علم يعرف الصحيح من غير الصحيح فيتبعه في هذا، فهناك مسائل في هذا الزمن أفتى بها من أفتى من العلماء الأجلاء وممن هو دونهم، وصار لها ذكر في الصحف مثل مسألة تغطية المرأة لوجهها ومثل قيادة المرأة للسيارة، ونحو ذلك التي أباحها بعض أجلة العلماء مثل الشيخ ناصر الدين الألباني أباح المسألتين.

وهذا في الواقع قديم، فهناك من أباح شرب النبيذ لأجل أنه أفتى بجوازه بعض فقهاء الكوفة من سادات التابعين ومن بعدهم.

وهناك من أخذ في جواز بعض التصرفات بفتوى الإمام الشافعي أو بفتوى الإمام مالك أو نحو ذلك، وهذا لاشك أنه يحتاج إلى رعاية.

والذي ينظر في حال المجتمع عندنا من زمن بعيد -من بعد زمن الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى- أن الناس تُرِكوا في الفتوى بحسب ما يشتهون، ولذلك صار من نتيجته هذا الذي بسببه ما تستطيع أن تحدّ الناس بأن لا يقولوا بخلافه؛ لأن أصلا المشايخ يختلفون في المسائل؛ تجد مثلا مسألة بعض المسائل الكبيرة يعني في المجتمع تجد أنهم يختلفون هذا يجيز وهذا لا يجيز.

المقصود: الواجب على الجميع أن يتمسكوا بما دل عليه الدليل، وأن يطلبوا البراءة لذمّتهم في دينهم، وهذا من جهة عمل المكلف مع نفسه؛ لأن من مقاصد الشريعة أن يكون المكلّف متخلِّصا من هواه في المسائل، إذا علم الدليل الشرعي هو يبحث عما يهواه لأجل رخصة مرخِّص، وهو في داخله يعلم أنه ربّما لم يكن صوابا، لهذا جاء في الحديث الصحيح أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس**» الحق له نور، والإثم يُتشكك فيه ولو أفتى به من أفتى.

النظرة الثانية لهذه المسألة ما ينبغي لمن له قدرة في العلم والنصيحة أو الوجاهة بأن يبذل ما يجب عليه شرعا من النصيحة بشروطها المعتبرة شرعًا في تحصيل المفسدة ودرء المفسدة المترتبة على مثل

هٰذه الكتابات؛ لأن هٰذه الكتابات في هٰذا الموضوع تنفس بها من تنفس بها في أمور الشرع، وهي ليست مرضيا عنها لا من جهة الدولة، ولا من جهة العلماء، ولا من جهة أهل الخير؛ لكن تنفس بها من تنفس، والواجب نصيحة أولئك والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالطرق الشرعية والدعوة إلىٰ الخير.

والزمن في كل وقت وحين لابد أن يظهر فيه شيء من هٰذا وهٰذا، والله جل وعلا يبتلي الناس بعضهم ببعض.

أسأل الله جل وعلا للجميع التوفيق والهدىٰ والسداد، وأن يوفق ولاة أمورنا، وأن يصلحهم وأن يسدد علىٰ الصواب والسنة طريقهم، وأن يوفِّقنا وإياكم لما فيه الخير، وأن يجعلنا هداة مهتدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

محاضرات (.../...)

ضوابط

في فهم سيرة المُصطفى ﷺ

لفضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشَّيخُ لم يراجع التَّفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حقَّ الحمد، والثناء له -جلّ وعلا- كلُّه، فهو وليُّ الفضل وهو وليّ الإحسان وهو وليّ النعمة، ومن أعظم نعمه علينا أنْ بعث محمَّدا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إلينا هاديًا وبشيرًا ونذيرًا، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾(١)، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾(٢).

وأشهد أنْ لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمَّدًا عبد الله ورسوله وصفيُّه وخليله، به أزال اللهُ -جلّ وعلا- الشِّرك وجُنده، وبه أقام الله -جلّ وعلا- التَّوحيد وأهله، وبه أبصر النَّاس بعد العمىٰ، وهُدِيَ النَّاسُ بعد الضَّلالة، فما أعظم مِنّته -جلّ وعلا- علينا ببعث محمد -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وما أعظم مِنَّة محمَّد -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- علىٰ أمَّته فإنَّهم لو فدَّوْهُ بأنفسهم وأولادهم وأهليهم وأموالهم ما قضوا حقَّه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، أليس هو الذي وجدنا علىٰ شفا حفرة من النَّار فأنقذنا منها.

صلَّىٰ علىٰ نبيِّنا محمَّد كِفاء ما أرشد وعلّم وبيّن، ونشهد أنَّه بلَّغ الرِّسالة وأدَّىٰ الأمانة، ونصح الأمَّة، وجاهد في الله حق الجهاد، وتركنا بعده علىٰ بيضاء نقية ليلُها كنهارها لا يزيغ عنها بعده ﷺ إلَّا هالك.

وصلَّىٰ الله وسلم علىٰ صحابته الذين نصروه وعزَّرُوه وأيدوه، وصلَّىٰ الله علىٰ من تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدِّين، وعنَّا معهم برحمة أرحم الراحمين.

أمَّا بعد..

فأسأل الله -جلّ وعلا- أنْ يجعلني وإياكم ممن أعطاه قلبا خاشعًا ودعاءً مسموعًا.

اللَّهمَّ اجعلنا ممن تخشعُ قلوبهم لك وتلين أفئدتهم لذكرك.

اللَّهمَّ وهيّئ لنا من أمرنا رشدًا، فلا حول لنا ولا قوَّة إلَّا بك، نعوذ بك من إرادة العلوِّ في الأرض والفساد.

ونسألك أنْ تُعيذنا من العِيِّ، وأنْ تعيذنا من خطل الرّأي ومن البُعد عن الصَّواب.

اللَّهمَّ فوفقنا فأنت وليّ التوفيق ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾(٣).

ثم إنِّي أشكر في فاتحة هٰذه المحاضرة الإخوة الكرام في مكتب الدَّعوة والإرشاد في محافظة الخَرْج علىٰ أنْ دعوا لهٰذه المحاضرة واهتمُّوا بها، وليس هٰذا بغريب فهم حريصون علىٰ الخير ويمثِّلهم فضيلة الأخ الشَّيخ عبد الرَّحمٰن الصَّغيّر وكذلك فضيلة الأخ الشَّيخ إمام المسجد وكذلك بقية الإخوة الكرام.

فأسأل الله -جلّ وعلا- لهم المزيد من فضله، وأنْ يتقبَّل ما بذلوا وما انتقلوا من أجل نشر الحق

---

(١) سورة: الأنبياء.

(٢) سورة: الأحزاب.

(٣) سورة: الإسراء، الآية (٩٧).

والهدىٰ.

ثم إنّ هـٰذه المحاضرة موضوعها (**ضوابط في فهم سيرة المصطفىٰ ﷺ**)، وهـٰذه المحاضرة ليست موعظة من المواعظ، وإنما هي محاضرة تأصيليَّة في موضوع سيرة النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فإذن ربما انتفع منها الجميع وخُصّ بالانتفاع بها من كان لـه مساس ولـه صلة بـالعلم والسنة والسيرة وبالدعوة والإرشاد.

ولا شكَّ أنّ سيرة المُصطفىٰ ﷺ بها اهتمّ العلماء قديمًا وحديثًا؛ وذلك لأنّ بهدي المصطفىٰ ﷺ تتبيّن الأشياءُ، وقد قال لنا جلّ وعلا: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴾[١].

فالاهتمام بالسِّيرة لابدّ منه؛ لأنّ بالسِّيرة وبالاهتمام بها معرفةَ أحواله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- من ولادته إلىٰ وفاته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وبالسِّيرة يعلم المُسلم ما كان عليه النَّبيُّ ﷺ وصحابته من نشر الدِّين، وما كابدوا فيه، وأنّهم بذلوا ما بذلوا، وتركوا الأمّة بعدهم علىٰ أمر واضح بيِّن، ولم ينتشر الإسلام بسهولة؛ بل بذَل فيه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بتأييد من ربه جلّ وعلا، وبذل فيه أصحابه الكرام ما بذلوا، وهـٰذا يظهر لك في السِّيرة.

ومن أوجه الاهتمام بالسِّيرة أيضا أنّ معرفة سيرة المصطفىٰ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وإنّ معرفة سيرة الصَّحابة معه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يبعث في قلوب أهل الإيمان القوّة في الإيمان والقوة في اليقين وأنّهم مهما تكالبت عليهم الأمور ومهما قوي الشَّيطان وجندُه فإنّ لهم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة وإنّ لهم في الصحابة الكرام أسوة حسنة، فقد شكا بعضُ الصَّحابة للنَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ما يلقىٰ من شدة قريش عليه، فقال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَٰلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَالذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[٢]، وهـٰذا يُبيِّن أنّ الحق ليس بكثرة النَّاس، وأنّ المؤمن إذا حصل له ما حصل من كيد الشَّيطان أو من كثرة الشَّهوات أو من كثرة المُغريات فإنه يبعثه ذلك علىٰ الاستمساك أكثر وأكثر بدين الله جلّ وعلا؛ لأنّ الصَّحابة رضوان الله عليهم ما تركوا دينهم، ولم يتركوا توحيد الله، ولم يتركوا البراءة من الشِّرك، ولم يتركوا ما آمنوا به مع عظم ما أصابهم عليهم رضوان الله، فكيف بحال أهل هـٰذا الزَّمان الذين ربَّما تركوا شيئًا من الدِّين لبعض المغريات.

النَّظر في السِّيرة وقراءة السِّيرة يبعث في المؤمن قوة اليقين وقوة الاستعداد للثَّبات علىٰ دين الله، وكذلك يبعث في قلب المؤمن قوة العزَّة في الإسلام وأنه عزيزٌ بتوحيد الله -جلّ وعلا-، وعزيز بما قام في قلبه من معرفة الله والعلم به والإيمان بمحمد -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وبما أنزل الله جلّ وعلا علىٰ رسوله ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٣].

---

(١) سورة: الأحزاب، الآية (٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٤٣) من حديث خباب بن الأرت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) سورة: المنافقون، الآية (٨).

وهـٰذا من ضمن فوائد كثيرة يستفيدها كلُّ مؤمن بالنظر في سيرة المصطفىٰ ﷺ.

إذن فالأصل أنّ قراءة السِّيرة ليست قراءة قصص ولا حكايات، وإنَّما هو قراءة عِظة واعتبار؛ لأنّ بالسِّيرة أَخْذ الفوائد وأَخْذ ما ينفع المؤمن ويبعث فيه أنواعًا من الخير والهدىٰ والاستمساك بالحق؛ ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾(١).

تنوّعت اهتمامات أهل العلم بالسِّيرة، وذلك لعظم شأنها.

والسِّيرة المقصود بها: ما أُثِر عن النَّبي ﷺ وعن أصحابه وعن التَّابعين وعمّن بعدهم من أهل العلم في وصف حال سَيْر النبي ﷺ وحال طريقته وهيئته منذ وُلد -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إلىٰ أنْ توفَّاه الله جلّ وعلا.

فالسِّيرة -إذن- هي حكاية لما كان عليه النبي ﷺ من حين ولادته إلىٰ أنْ توفَّاه الله جلّ وعلا، فيها بيان ما حصل له من ولادته، وما كان في ولادته من ظهور بعض المعجزات، وظهور بعض الإرهاصات لمبعثه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وذِكر رَضاعه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وذِكر أحواله وأمه وأخواله وأشباه ذلك، وذِكر هديه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وسيرته في صغره حتىٰ بعثه الله جلّ وعلا، وما كان يتّصف به قبل المبعث من أنواع الأخلاق والشَّمائل.

كذلك سيرتُه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- حكاية لحاله منذ بعثه الله جلّ وعلا، فبلَّغ دعوة الله، وصبر علىٰ ذلك، وما ناله من الأذىٰ، وكيف بلَّغ، والسُّبل التي اتخذها للبلاغ، إلىٰ أنْ هاجر إلىٰ المدينة، ومن مُهاجره إلىٰ المدينة وتأسيسه لدولة الإسلام الأولىٰ إلىٰ أن توفاه الله جلّ وعلا، ويُدخل فيها عددٌ من أهل العلم ما كان بعد ذلك من سيرة الخلفاء الرَّاشدين وما حصل لهم من أنواع الفُتوح.

إذن فالسِّيرة طريقة وهيئة، والسِّيرة أيضا مأخوذة من السَّيْر: سار يسيرُ سيرًا؛ يعني ما سار عليه النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وقد جاء في القرآن ذكر السيرة بمعنىٰ الطريقة والهيئة في قول الله جلّ وعلا: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾(٢).

فالسِّيرة -إذن- تشمل طريقة السير وتشمل الهيئة التي كان عليها السِّير، ولذلك تُجمع السِّيرة علىٰ سِيَر، ويُذكر فيها أنواع المغازي والفتوح، ويُذكر فيها أنواع ما حصل له -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وما حصل لصحابته من بعده.

فإذن السِّيرة لها معنًىٰ لُغوي ولها معنىٰ اصطلاحي كما ذكرتُ لك.

ودرج العلماء علىٰ أنّ المراد بالسِّيرة حين تُذكر السير ما دُوِّن في كتب مخصوصة أسمَوها كتب السِّيرة وكتب السِّير، وهـٰذا يجعلُنا نفيضُ في أنّ الكتابة في سيرة المصطفىٰ ﷺ وفي مغازيه كانت متقدِّمة في الزَّمن الأول:

فذكر العلماء أنّ أبانَ بن عثمان بن عفان ابن الخليفة الرَّاشد هو أول من دوّن سيرة المصطفىٰ ﷺ ودوّن مغازيه، وكانت وفاة أبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ سنة خمس ومائة (١٠٥هـ)، وكان أخذ عن عدد كبير من

(١) سورة: الزخرف.

(٢) سورة: طه.

الصحابة، وأخذ عنه عددٌ كبير أيضا من التابعين.

وممَّن شُهر أيضًا برواية السِّيرة وتتبُّعها عروة بن الزبير بن العوام، فقد كان إمامًا في المغازي، وله مغازٍ ألَّفها وجمعها باسم مغازي عُروة، وقد جُمع بعضها وطبع.

وكذلك ممن اهتم بالسيرة ابن شهاب الزهري الإمام المعروف سيد المحدثين في زمانه، جمع في السِّيرة كتابًا، وفي المغازي كتابًا، في ما ذكره له عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

وكذلك ممن كتب في السيرة من الأولين -من التابعين- عاصم بن عمر بن قتادة، وغيره من ثقات أهل العلم في القرن الأول وفاتحة القرن الثاني.

بهٰذا يتبيّن أنّ كتابة السِّيرة كانت متقدمة جدًّا، ولهٰذا صار أهل العلم بعدهم يأخذون مأخذ التَّابعين في العناية بالسير والعناية بالمغازي، فقد جمع ما سمع من بعض هؤلاء جمعه العالم المعروف محمد بن إسحاق المدني في كتاب «السير والمغازي» والذي قيل: إنه ألفه بإشارة من أبي جعفر المنصور لما زار ابن إسحاق بغداد فأشار أبو جعفر إلىٰ ابنه وقال لابن إسحاق: أتعرف هٰذا؟

قال: نعم هٰذا ابن أمير المؤمنين.

فقال له: صنّف له كتابًا فيه ذكر الأخبار من خلق آدم عليه السلام إلىٰ يومنا هٰذا.

فكتب ابن إسحاق ذلك، وكتاب ابن إسحاق رُوي عنه وانتشر بعده رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، وهو إمام في السِّير اجتمع لديه ما تفرّق فيمن قبله من التابعين الثِّقات.

وإذا كان كذلك فإنّ كتاب ابن إسحاق لم يوجد كاملاً في زماننا هٰذا، وإنَّما وُجِد ما انتقي من مغازي وسير ابن إسحاق؛ ما انتقاه ابنُ هشام العالم اللّغوي المعروف، وهٰذا الانتقاء أجمع العُلماء علىٰ حُسنه وعلىٰ أنه استخلص من سيرة ابن إسحاق ما أثني علىٰ مؤلفه به، وهو لا يروي السيرة عن ابن إسحاق مباشرة، وإنما يرويها بواسطة رجل عن ابن إسحاق، وهٰذه السيرة هي المعروفة الآن بـ«سيرة ابن هشام».

وهٰذا تطور في أهل العلم فكتب في السير عدد:

كتب ابن حزم في السيرة وسماها: «جوامع السيرة».

وكتب ابن سيد الناس سيرة.

والعلماء تتابعوا علىٰ كتابة السير، ومعتمدهم فيما ذكره ابن هشام عن ابن إسحاق، أو فيما ذُكر في غير ذلك من المغازي.

كذلك من الذين اهتموا بكتابة السير الواقدي، والعلماء منهم من يأتمنُه ويثني عليه في المغازي، ومنهم من يقول هو في المغازي كشأنه في الحديث لا يقبل حديثه، ومغازي الواقدي غير موجودة الآن؛ يعني فيما ذكر من سيرة النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، واعتمدها عدد من أهل العلم.

والصَّواب أنّ الواقدي ليس بثَبْت فيما ينقل، بل ربما حصل له من الخلط في الروايات والزيادات ما لا يعرف عن أهل العلم، فلا يُقبل من حديثه في المغازي ما تفرّد به عن العلماء سيّما ما كان معارضًا لأصل من الأصول أو ما كان مخالفا لما دلّ عليه كلام أهل العلم في السِّير.

وممَّن كتب أيضا في السير ابن سعد صاحب «الطبقات» في أول الطبقات كما هو معروف، وجماعة كتبوا في ذلك.

وهٰذه هي التي تسمىٰ كتب السيرة أو كتب السير تتابع العلماء فيها إلىٰ زماننا هٰذا.

وهناك كتابة للسِّير بطريقة أخرىٰ، وهي طريقة أهل الحديث، فإنهم اعتنوا بسيرة النبي ﷺ وبذكر أحواله ومغازيه وأشباه ذلك فيما أوردوه في كتب الحديث، فتجد في «صحيح البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ» كتاب المغازي، وتجد في مسلم السير، وتجد في أبي داود كذلك، وهكذا في بعض أخبارٍ وربما طُوِّلَت.

وكذلك اعتنىٰ بها أهل الحديث في مصنفات مفردة ذكروا فيها أسانيدهم فيما يتعلَّق بالسير ولكن فيها ما يصح وفيها ما يُنكر، وكما قال الحافظ زين الدين العراقي:

ولـيعلم الطالـبُ أنّ السِّـيرَ تجمع ما صحَّ وما قد أُنْكِـرَ

فصنّف البيهقي كتاب «دلائل النبوة».

وصنَّف أبو نعيم الأصبهاني أحمد بن عبد الله العالم المعروف صنَّف «دلائل النبوة».

وصنف الفريابي «دلائل النبوة».

فأهل الحديث اعتنوا بكتابة السِّير من جهتين:

الجهة الأولىٰ: ما ضمنوه في مصنفاتهم من الصحاح والمسانيد من ذكر السير سواء كانت مبوبة أو لم تكن مبوبة.

وكذلك ما أفردوه من التآليف في هٰذا في ذكر دلائل النبوة.

وكما ذكرنا أنّ كتب السِّير ليست معتنية بالصَّحيح، وإنما يذكر فيها ما نُقل في السِّيرة، ولهٰذا قال الزين العراقي فيما ذكرت لك:

ولـيعلم الطالـبُ أنّ السِّـيرَ تجمع ما صحَّ وما قد أُنْكِـرَ

ففيها الصحيح وفيها المنكر وهٰذا أمر بيّن، فإنّ سيرة ابن إسحاق مثلا فيها من الصحيح كثير وفيها من المنكر الكثير، فهٰذا من جهة ما اشتهر من ذكر مصادر السِّيرة.

وإذا كان كذلك فالذي ينبغي تحقيقًا لمقام السيرة أنْ تُضبط مصادر السيرة وأنْ تؤخذ السيرة بضابط مهم في ذلك، وهو جواب السؤال: كيف نأخذ السيرة بطريقة مأمونة؟

☚ أعظم ما تؤخذ منه سيرة المصطفىٰ ﷺ القرآن؛ لأنّ: في القرآن ذكر حياته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- صغيرًا ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾[1].

وفيها ذكر حالته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قبل البعثة.

وفيها ذكر مبعثه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وفيها ذكر مجيء الجن إليه يستمعون القرآن.

وفيها ذكر حالته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- مع المشركين ودعوته لهم.

وكذلك ما حصل من الهجرة، ثم في القرآن ذكر المغازي جميعا؛ فغزوة بدر الكبرىٰ في سورة الأنفال، وغزوة أحد في سورة آل عمران، وغزوة الخندق -الأحزاب- في سورة الأحزاب، وفتح مكة وصلح

(١) سورة: الضحىٰ.

الحديبية في سورة الفتح، وهكذا، وحنين وتبوك في سورة براءة، إلىٰ غير ذلك.

فإذا جمع طالبُ العلم ما تكلَّم به المفسرون من الصَّحابة فمن بعدهم علىٰ هـٰذه الآيات حصل علىٰ مصدر قوي معتمد علىٰ معاني القرآن، وهـٰذا اجتهد فيه طائفة من أهل العلم، لكن لم يُجمع فيما أعلم جمعًا كاملًا بحيث تكون السيرة علىٰ ما ذكره المفسِّرون، حاول بعض المعاصرين ذلك واجتهد فيه لـٰكن لم يجمع كلام المتحققين من المفسرين علىٰ تلك الآيات.

فإذن الذي ينبغي في السيرة أنْ نعتمد علىٰ القرآن فيها وما ذكره المفسرون في ذكر معاني الآيات التي فيها سيرة المصطفىٰ ﷺ.

☚ ثم المصدر الثاني: الأحاديث الصحيحة خاصة في الصَّحيحين أو ما صح في غيرهما من الأحاديث التي فيه ذكر سيرة النَّبي ﷺ، فإذا قورنت هـٰذه الأحاديث بما ذكر في كتب السِّير وجدنا أنّ بعض ما في كتب السير ليس بصحيح، في مثل مثلا تاريخ بعض الغزوات وبعض الأحوال وقصة الإسراء والمعراج، وأشباه ذلك كثير.

فالمصدر الثاني المُعتمد بعد كتاب الله -جلّ وعلا- وتفسيره أنْ ننظر في الأحاديث، وهـٰذه الأحاديث فيها ما لم يذكر في كتاب الله -جلّ وعلا- واعتمد عليها الصحابة -رضوان الله عليهم- والتَّابعون فيما فسَّروا من آيات القرآن علىٰ نهج السَّلف في التَّفسير؛ في تفسير القرآن بالسُّنَّة.

فإذن الاعتماد علىٰ ما في كتب الصَّحيح وكتب الحديث من مصادر السِّير هـٰذا أَوْلىٰ وأبعد عن الخلط وما لا يصحُّ في السِّير، ولهـٰذا دعا عدد من أهل العلم إلىٰ كتابة صحيح السيرة النبوية، وقد كتب بعض المعاصرين في ذلك؛ لكنهم رقَوا جبلا عاليًا عليهم؛ لأنّ هـٰذا الأمر يحتاج إلىٰ علم بالحديث؛ متنًا وإسنادًا، وإلىٰ علم بالتفسير، وإلىٰ علم باللغة، وإلىٰ علم بما في كتب السُّنة، وإلىٰ ما في كتب العقيدة، إلىٰ آخر ذلك مما فقده بعض من كتب في ذلك.

☚ من المصادر أيضا التي تُعتمد: كتب السِّيرة التي ذكرنا وكتب التاريخ، فنجد مثلا أنّ «تاريخ ابن جرير» يحوي كثيرا من أخبار سيرة المصطفىٰ ﷺ بالأسانيد؛ لكن هـٰذه نأخذ منها ما لا يتعارض مع ما جاء في القرآن وفي تفسيره ومع ما ثبت في سنَّة المصطفىٰ ﷺ، فإذا لم نجد الحَدَث لا في الكتاب ولا في السنة فإنّ أخذه من كُتُبِ السِّير لا بأس به؛ لأنّها أرفع درجة بالاتفاق من أحاديث بني إسرائيل، وقد قال لنا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ**»،[1] فإذا لم يكن ما في كتب السيرة معارضًا للكتاب والسنة فإنَّه لا بأس من أخذه ومن الاعتماد علىٰ ما جاء فيه، وهكذا كان أهل العلم، لهـٰذا نرىٰ أنّ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في أوائل كتابه «البداية والنهاية» كتب سيرة طويلة للنَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أُفردت في أربع مجلدات، وقد جمع فيها ما بين ما ذكره أهل السِّير وما ذكره أهل الحديث وما جاء في الآيات، ولكنها أيضا تحتاج إلىٰ بعض مزيد من التَّمحيص.

إذن فهـٰذه هي المصادر العامة للسِّيرة.

وإذا تبيّن ذلك فتلحظ فيما سُقنا أنّ أهل الحديث وأهل الأثر والمعتنون بعلوم سلف الأمة هم الذين

---

(١) أخرجه البخاري (ح٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

اعتنوا بسيرة المصطفىٰ ﷺ، فبعض الناس يقول: إنّ المعتنين بالحديث والأثر والمعتنين بطريقة السَّلف ليس لهم عناية بالسِّيرة. وهٰذا ليس بصحيح، بل إنّ الذين اعتنوا بسيرة المصطفىٰ ﷺ من حيث الإثبات، ومن حيث الانتقاء، من حيث الفقه والدِّلالة هم أتباع سلف هٰذه الأمة، وإذا صار هناك قُصور ممن اعتنىٰ بالحديث والأثر فإنّ هٰذا ممَّا ينبغي علاجه؛ لأنّ الاهتمام بالسيرة به يحصل للمرء المؤمن ولطالب العلم أنواع من العلوم والفوائد ما يحصِّلها إلاّ إذا قرأ السيرة، ويقوم في قلبه الاعتزاز بدين الله والفرح بنصرة هٰذا الدِّين في أوَّل الأمر ويقوم في قلبه عظم المحبة للنَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ولأصحابه بما يزيد المؤمن من الاقتداء بهم والسَّيْر علىٰ منوالهم.

نجد أنّ أئمة هٰذه الدَّعوة كالإمام المجدِّد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ اعتنىٰ بالسِّيرة أيضا، فكتب كتابًا في سيرة المصطفىٰ ﷺ مطبوع موجود، كذلك ابنه الإمام الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب له كتاب أيضا في سيرة المصطفىٰ ﷺ، وجعلوا في تضاعيف نقلهم للسِّيرة ذكر الفوائد وخاصة الفوائد الدّعوية، وسيأتينا ذكر تأصيل فيما يتعلّق بالفوائد الدّعوية في سيرة المُصطفىٰ ﷺ.

إذن فالعناية بالسِّيرة إثباتًا وفقهًا واستنباطًا كان عليه علماؤنا، فالاهتمام بها من سِمَة طلاب العلم الجادين فيه ومن سمة المحبين للخير بعامة، والنَّاس ترقيق قلوبهم وبعث الهمة في نفوسهم وبعث العزَّة في نفوسهم يكون بطرق صحيحة، ومن ذلك ذِكر قَصص السِّيرة، وذكر ما جرىٰ فيها من حوادث ومن أحكام.

نَظَرُ النَّاس والمؤلفين والدَّارسين للسيرة متنوِّع، وهٰذا ما يمكن أنْ نسميه أو أنْ نعنون له بمدارس تناول السِّيرة؛ سيرة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فإنّ سيرة المصطفىٰ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- تنوّعت المدارس في تناولها وفي التَّأليف فيها وفي الباعث علىٰ الاهتمام بها إلىٰ بضع مدارس:

- فأوَّل تلك المدارس **المدرسة اللُّغويَّة**: وهٰذه المدرسة اهتمَّ فيها أصحابها بأنْ يتناولوا السِّيرة بالاهتمام بما في السِّيرة من لغة صحيحة، فإنّ من نقل السيرة من مثل التابعين ومن مثل ابن إسحاق فإنَّهم نقلوها بلغة صحيحة، وما أوردوا في السيرة من أشعار كثيرة وأخبار وخطب للعرب وحكايات وخطب للصَّحابة، بل وأقوال في ذلك، هٰذا كله من جهة اللغة معتمد.

ولهٰذا اعتنىٰ بسيرة ابن إسحاق ابنُ هشام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ وكان لغويًّا متمكنا فاعتنىٰ بالأشعار التي أوردها ابن إسحاق، فأورد من الأشعار في ملخصه -المسمىٰ بسيرة ابن هشام- أورد منها ما يتّفق وما لا يؤخذ عليه في إيراده وترك أشياء من ذلك، وأتبعها بشرح غريبها وبالعناية بها.

كذلك سيرة ابن هشام تناولها العلماء الذين اعتنوا بهٰذا النَّوع من الاهتمام بالسيرة -الاهتمام اللغوي-، وتناولوها بالشرح وبالتفصيل، وأصل قصدهم الاعتناء باللغة وقد يضيفون إلىٰ ذلك اعتناءً بجوانب أخرىٰ ممّثل الحافظ السُّهيلي في كتابه «الروض الأنف» الذي جعله شرحًا علىٰ سيرة ابن هشام فيما أشكل منها، وكالحافظ أبي ذر الخُشني في «تفسير غريب السيرة» وكلا الكتابين مطبوع، أمَّا كتاب السُّهيلي فكبير وأما كتاب أبو ذر الخُشني فمجلَّدة لطيفة.

هٰذا نوع من الاهتمام، وهٰذا تجد منه أنّ كثيرين ممن اهتموا بالأدب واهتموا باللغة يعتنون بالسِّيرة،

فينبغي التفريق حين ترىٰ المصنف في السيرة ما تصنيف مصنِّفه من جهة المدرسة، فإذا علمت أنه لغويٌّ بحَّاثة، وأنّ عنايته باللُّغة فإنك تبحث فيه ما تحتاجه من ذكر غريب السِّيرة وما شابه ذلك، فإنّ لهم عناية بهٰذا تفوق العناية بغيره من علوم السيرة.

الأدباء يهتمُّون بالسِّيرة ومن المعاصرين من بلاد شتىٰ من ألف في السِّيرة، وتجد أنّ أكثرهم أدباء، وذلك لأنّ الاهتمام بالسِّيرة ديدن الأدباء؛ لأنّ فيه رفعة الحصيلة الأدبية وقوة البلاغة وكثرةَ الشَّواهد عند المعتني به، فصنَّف كثيرون في السِّيرة متَّجهين إلىٰ هٰذا الاتِّجاه؛ في تقوية الأسلوب الأدبي، ونقل السيرة علىٰ هيئة أسلوب أدبي رفيع يقوِّي ملكة الأديب أو دارس الأدب في هٰذا الباب.

وهٰذه المدرسة لها تفاصيل وحديث يطول ذكره في ذكر حسناتها والمآخذ عليها.

◆ النَّوع الثَّاني من المدارس في تناول السِّيرة **مدرسة القوميّين**: فإنّ المعتنين بالعرب والآخذين بالتَّعصُّب للعربية للعرب وللعرق العربي رأوا فوجدوا أنّ أمجاد -كما يزعمون- من قبلهم كُتبت سِيرهم، وأنّ مجد العرب لم يبتدئ بالإجماع إلَّا بمحمد -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فبه رفعت العرب رأسها ورفعت العرب شَأوها، كما قال جلّ وعلا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾(١)، وهٰذا لأنّ به رفع منار العرب.

فتناولوا السِّيرة وكتبوا فيها من جهة أنّ كلَّ الأمم المتحضرة -كاليونان وفارس والرُّوم إلىٰ آخره- لهم في ذكر عظمائهم سيرٌ صيغت بالصِّيغة الأدبية، وكان المقصد منها تمجيد هٰذا العرق، فتناول السِّيرة عدد من المعاصرين ومن المتقدمين لرفع العرق العربي ولرفع العرب عمَّن سواهم.

وهٰذه فيها مدارس مختلفة من مثل مدرسة طه حسين ومن نحا نحوه ممن كتبوا في السيرة، فإنّهم لم يكتبوا في السيرة لنصرة دين محمَّد -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وإنّما كتبوا في السيرة بالنظر إلىٰ عرقية عربية؛ بل إنّه كما ذكر مثل طه حسين في مقدمة كتابه «علىٰ هامش السِّيرة» ذكر أنّ السِّيرة هٰذه التي كتبها فيها أشياء لا يقبلها العقل ولا يقبلها الفؤاد؛ لكن لا تصلح حياة الناس إلاّ بنوع من الخرافات ونوع من الأحاديث التي تكون لهم كالاسترواح وتكون لهم كالمُريح والمهيِّئ لهم لسماع الحق؛ يعني أنها قصص وحكايات ليس لها أصل وليس لها أهمية، ذكر في مقدمة كتابه أنه بعثه علىٰ ذلك -علىٰ هٰذا التأليف- أنَّه وجد لليونان إلياذة ولهم أمجاد، وللفرس أمجاد فيما صنَّفوا في تاريخ عظمائهم، ورأىٰ أنَّه لابد من التَّصنيف في هٰذا والكتابة فيه فكتب ذلك.

إذن فالنَّظر في تأليف المؤلِّف ينبغي أنْ يسبقه تصنيف مدرسته؛ هو من أي مدرسة في السِّيرة، فإنَّه لو قرأ الناس كتابًا من كتب أصحاب المدرسة القومية في السِّيرة لأصابهم نوع من الخلل في فهم سيرة المصطفىٰ ﷺ، بل وربَّما لم يؤمنوا بمعجزاته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وبآياته وبراهينه علىٰ اعتبار أنَّها حكايات وأنَّه ليس لها رصيد من الصِّحة والواقع وإنما هكذا قيل.

◆ المدرسة الثالثة من المدارس التي اعتنت بالسيرة **مدرسة العلماء والفقهاء**: وهؤلاء -من المحدِّثين والفقهاء- اعتنوا كثيرًا أيضًا بالسِّيرة فكتبوا السِّيرة مهتمِّين بما فيها من أحكام، وما فيها من بيان للعقيدة،

(١) سورة: الزخرف، الآية (٤٤).

وبيان للأحكام الفقهية، وهٰذا ظاهر لك فيما اعتنىٰ به أئمَّة الحديث كالبخاري وغيره، والأئمة من بعده؛ أئمَّة المحدثين كالحافظ البيهقي في دلائل النبوة، وكذلك من المتأخِّرين شيخ الإسلام ابن تيمية فإنّه نظر إلىٰ السيرة نظرًا فقيها وفصّل كلامه، وما فرَّقه من الكلام علىٰ السِّيرة العلامة شمس الدين ابن القيم في كتابه «زاد المعاد في هدي خير العباد» فإنَّه تناول السيرة بذكر التحقيق فيها، جمع بين ما جاء في القرآن وما جاء في السُّنة وكلام أهل السير، ونظر فيه نظرا فقهيًّا، ونظر فيه نظرا عقديًّا، وتبعه علىٰ هٰذه الطريقة الإمام المجدد شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهاب وتلميذه وابنه عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، فإنّهم كتبوا في السِّيرة ناظرين إلىٰ العلم وجمعوا فيها ما بين مقتضىٰ العلم ومقتفىٰ القصَّة أو مقتضىٰ السِّيرة.

ولا شكّ أنّ هٰذه المدرسة هي أنفع المدارس وأعظمها كما سيأتي بيانه إنْ شاء الله تعالىٰ.

◆ المدرسة الرَّابعة **المدرسة الدَّعوية المعاصرة**: فإنّ المعاصرين من الدُّعاة علىٰ اختلاف انتسابهم في الدعوة اعتنوا بالكتابة في السِّيرة علىٰ مختلف المشارب، وعَنَوا بكتابتهم في السِّيرة أنْ يؤصِّلوا جوانب دعوية تهمهم وتهم الفئات التي ينتسبون إليها من طريق السيرة، فإنّ في السيرة ما يمكن أنْ يكون دليلا بمجرده علىٰ مسائل كثيرة في الدَّعوة، وقد يكون ذلك الاستدلال صوابا وقد يكون خطأً، فظهرت في هٰذا العصر مدرسة كبيرة كُتب في "فقه السيرة" وكتب في "دروس وعبر من السيرة" وفي "دراسات في السيرة" وأشباه ذلك من مدارس دعوية مختلفة في الاهتمام بالسِّيرة من وجهة نظر دعوية، وكثير من هؤلاء لم يعتنوا بها من جهة ما صحّ من السِّيرة وما لم يصح، وإنَّما جعلوا السِّيرة عبرة لما يريدون من الفوائد الدعوية سواء أصحّ ذلك أم لم يصح، وسواء أثبت في العلم والفقه والعقيدة أو لم يثبت ذلك، ولهٰذا تنوَّعت الكتب في هٰذا وهٰذه مدرسة أيضًا من مدارس السِّيرة، ويمكن تسميتها بالمدرسة الدَّعوية المعاصرة في تناول السِّيرة.

◆ المدرسة الخامسة من مدارس السيرة **مدرسة الرِّوايات والقصَّة**: فإنّ كثيرين من السابقين ومن المعاصرين تناولوا السيرة علىٰ أنها روايات وعلىٰ أنها قصص، بل وربَّما تناولوا الصَّفحة الواحدة أو الصَّفحتين في السِّيرة بشيء من التفصيل وشيء من الاستطراد الأدبي فجعلوها عشر صفحات وعشرين صفحة من جهة الاستطراد، فقلبوا السير إلىٰ قصصٍ متنوِّعة لتكون لمن يقرؤها عوضا عن الروايات الهابطة وعن القصص الفارغة التي انتشرت في هٰذا العصر، فقام عددٌ ممَّن يحرصون علىٰ الإسلام وممَّن فيهم ديانة وخير علىٰ أنْ يعوِّضوا النَّاشئة في مقابلة خِضمِّ السَّيل الجارف بالروايات والقصص والحكايات بأنواع شتَّىٰ وبعضها مترجم من الشرق وبعضها مترجم من الغرب فقابلوها بنقل السِّيرة إلىٰ قصص وروايات.

وهٰذا لا شك أنه أفاد كثيرًا من النَّاشئة؛ لكن له سلبياته، **ولو تناولها بعض طلبة العلم الذي يعلمون حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله فكتبوها علىٰ شكل قصصي وعلىٰ شكل روايات لا بأس؛ لكن تكون معتمِدةً علىٰ ما يقضي به العلم والتَّحقيق فإنّ فيها نفعا كبيرا للنَّاشئة وللشَّباب والفتيات وللكبار أيضًا.**

هٰذه جملة من المدارس القديمة والحديثة في تناول السيرة.

إذا نظرنا إلىٰ السِّيرة؛ يعني لما كُتب في كتب السِّير من أخبار النبي ﷺ والحكايات وما حصل له -عَلَيْهِ

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وجدنا أنّ السِّيرة أُستُدِلَّ ببعض أحداثها وببعض ما ذُكر فيها علىٰ أمور عند أهل العلم -من علماء السَّلف والمحقِّقين من أهل العلم ممن بعدهم- يرون أنّ تلك الاستدلالات ليست بصحيحة، بل ربما كانت باطلة، بل ربما كانت شركية، وهٰذا يقودنا إلىٰ تفصيل لهٰذا النَّوع؛ **وهو الذي يمكن أنْ تسميه أنواع من الاستدلالات الخاطئة بأحداث من السِّيرة** وهي جديرة من بعض طلبة العلم المتفرِّغين أنْ يرصُد نفسه لجمعها فيجمع أنواع الاستدلال الباطلة ممَّا جاء في السير علىٰ أمور لا يقرّها العلم الصَّحيح ولا يقول بها الأئمة والعلماء.

فمن ذلك مثلًا ما جاء في كتب السِّير أنّ المسلمين في غزوة اليمامة كان شعارهم (محمَّداه) وهٰذه ذكرها الطَّبري وذكرها ابن كثير في «البداية والنهاية» وأشباه ذلك، فقال قائلون: إنّ هٰذا يدل علىٰ جواز الاستغاثة بالنَّبي ﷺ بعد مماته؛ لأنّ معنىٰ (محمداه) يعني يا محمداه أو هو دعوة له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ولا شك أنّ الاستدلال علىٰ مسألة عقدية؛ بل علىٰ مسألة هي لُبُّ التَّوحيد وأصله وهو الاستغاثة بالله -جلّ وعلا- وحده دون ما سواه الاستدلال بمثل هٰذا علىٰ تجويز الاستغاثة بالنبي ﷺ ضربٌ لنصوص الكتاب والسنة الكثيرة المتواترة لفظا ومعنىً، ضربٌ لها بخبر جاء في كتب السِّيرة، وقد استدل بهٰذا بعض المخرِّفين وبعض دعاة البدع والضَّلالات، وهٰذا لا شكَّ أنّه ناتجٌ من ظنٍّ أنه كل ما ذُكر في كتب السيرة وكل ما ذكر عن سير الصحابة فإنَّه صحيح في نفسه، وهٰذا غلط؛ فإنّ فيها أشياء نُسبت إليهم لا تصح، بل هي غلط في التَّوحيد وغلط في العقيدة وغلط في السنة من مثل هٰذا المثال الذي ذكرته لك، ولو نظرنا في «تاريخ الطَّبري» الذي يورد الأشياء بإسنادها لوجدنا أنّ إسناد هٰذه الحكاية التي ذُكر فيها هٰذا الخبر مسلسل بكذَّاب ومجهول وضعيف، وهٰذا كافٍ في إبطالها من أصله، والذي يعلم دين الرَّسول ﷺ يبطلها ولو بدون النظر إلىٰ الإسناد، فإنّ الصَّحابة ما كانوا ليستغيثوا بأحدٍ دون ربهم جلّ وعلا؛ يعني ممَّن لا يقدر علىٰ الإغاثة، وهم سادة هٰذه الأمة فلم يكونوا يستغيثوا بالنَّبي ﷺ بعد وفاته.

هٰذا مثال؛ لأنّ هناك أنواعًا من الاستدلالات العقدية الباطلة ببعض ما يورد في كتب السِّير وكتب المغازي وأحوال الصَّحابة بعده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

أيضا من الأخطاء في أنواع ما يورد في السِّير أن الناس انتشرت فيهم أحاديث ضعيفة لا يصحُّ نسبتها للنَّبي ﷺ، بل وأحاديث ربما منكرة وباطلة؛ لأنَّها أوردت في السير، وقد قدمت لك قول الحافظ العراقي:

ولـيعلم الطالـبُ أنّ السِّيرَ ... تجمع ما صحَّ وما قد أُنْكِرَ

ففي ما ورد في السيرة منكرات وأشياء منكرة، وقد عَلِم أهل العلم كثيرًا من هٰذه الأخبار بأنها ليست بصحيحة ولا يصحُّ الاعتماد علىٰ السير فيها.

فمن ذلك مثلا كثير من الحكايات في قصة ''بحيرا الراهب'' فإنّ أصل القصة صحيح من حيث الإسناد من حيث الرواية؛ لكن ما جاء في كتب السير منها فإنّ فيه تفصيلات لا تثبت، وإنَّما تروىٰ هكذا بلاغا بلا إسناد، وبعض جُمَلها صحيح، فأصل القصة صحيح وكثير من المحاورات التي فيها ينقلها بعض الدُّعاة وينقلها بعض الخطباء وينقلها بعض الموجِّهين علىٰ أنها صحيحة وهي ليست بصحيحة، وعليها اتكأ بعض أعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم في قولهم أنّ النبي ﷺ أخذ كثيرا من العلوم عن

"بحيرا الراهب" وهي التي أوردها أو ذكرها -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وأصحابه، وهٰذا باطل قطعا.

ومن الأمثلة أيضا علىٰ ذلك القصَّة المشهورة أنّ النبي ﷺ حينما كان يطوف همّ رجل بقتله فكلَّمه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فقال له ما قال في إخباره بما في نفسه من نية قتله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وهٰذه قد ضعّفها عدد من أهل العلم.

وهٰذا النَّوع من الغلط في أخذ الأحاديث التي ترد في السِّيرة علىٰ أنها صحيحة، هناك عدد من أهل العلم نبّهوا عليه ومن المعاصرين منهم العلَّامة الألباني في كتابه «الدِّفاع عن الحديث النبوي والسِّيرة» وهو كتاب جيد في ذكر كثير مما يرد في السير مما لا يصح ومناقشة البوطي فيما أورده في كتابه «فقه السيرة» كذلك فيما علقه علىٰ كتاب «فقه السيرة» للغزالي المعاصر أورد كثيرًا من الأحكام وحقَّق عددًا من الأحاديث، وغيره من الشَّباب وطلبة العلم كتبوا أيضا كتابات في تحقيق بعض الأحاديث في السِّيرة.

المقصود من هٰذا التنبيه علىٰ أنَّه لا يعني ورود الحديث في كتاب من كتب السِّيرة أنّه في نفس الأمر صحيح، وإنْ تداوله العلماء بالقبول فإنَّهم يتداولونه بالإجمال لكن إذا كان المقام مقام استدلال أو مقام احتجاج فإنهم لا يريدون ذلك وإنَّما يحدثون به هكذا علىٰ ما جرىٰ عليه العلماء الأولون.

أيضًا هناك أنواع من الاستنتاجات الفقهية كان مبناها علىٰ حوادث من السِّيرة، وحوادث السِّيرة ليست أدلة في نفسها علىٰ مسائل الفقه حتىٰ تثبت تلك الحوادث، إمّا بدلالة القرآن عليها، أو بما ثبت في السُّنة من ذلك، وإمَّا بما ذكره الصَّحابة في تفسير القرآن وتفسير السُّنَّة في تلك الأحوال، لهٰذا نجد أنّ كثيرين أخذوا بعض حوادث السِّيرة فاستفادوا منها أحكامًا فقهية وفي الواقع هٰذه الأحكام غلط؛ لأنّ الدَّليل عليها ليس بقائم ولا يصحُّ أنْ يكون دليلا إما لضعفه أو لنكارته أو لبطلانه وأشباه ذلك، وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ اعتنىٰ كثيرًا في كتابه «زاد المعاد» فيما ذكر من سيرة النبي ﷺ اعتنىٰ بتحقيق حوادث السيرة سواء ما كان منها في مكة أو في المغازي وتبيين الصَّحيح من الروايات من جهة الفقه والفوائد الفقهية علىٰ ذلك، فكتابه أصل في هٰذا الباب.

أيضًا من الأغلاط في دراسة السيرة ما غَلِط به بعض المبتدئين من الدُّعاة أو بعض من لم يعتنِ بالعلم من المهتمِّين بالدعوة، فجعلوا كثيرا من مسائل الدعوة أدلَّتها من السِّيرة، ولم ينظروا فيما جاء في النُّصوص أو ما قاله أهل العلم في تلك المسائل.

مثلا: استدل بعضهم بحادثة سعد بن أبي وقاص حينما رمىٰ بحجر وشجّ وجه المشرك في مكة، قال بعضهم: إنّ هٰذا دليل علىٰ جواز الاغتيالات. وأخذوا في مبحث الاغتيال مستندين إلىٰ هٰذا، وهٰذا لا شكَّ أنَّه ليس بمنهج علمي صحيح إذْ حوادث السيرة تؤخذ للعلم بها وإنما يحتج بما صحَّ عن النبي ﷺ، أو صحَّ عن صحابته وأقرّه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في حياته.

من الأمثلة، مثلا: ما ذكره بعضهم من أنّ اجتماع بعض الشباب في مسجد النبي ﷺ ليرىٰ رأيه في غزوة أحد أنّ هٰذا دليل علىٰ مشروعية الاعتصام في المساجد ومشروعية المظاهرات، وهٰذا لا شكَّ أنه خروج عن المنهج العلمي الصَّحيح وتلمس للمخرج، وليس لإقامة دليل يقيم الحجَّة بين العبد وبين ربه جلّ وعلا.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في بعض كُتب السيرة من ذكر الكتمان الذي كان بين الصحابة -رضوان الله

عليهم- في مكة وخلصوا منها إلىٰ أنّ هـٰذا الكتمان بالتكاتم دليل علىٰ أنّ الدعاة يلجؤون إلىٰ الدَّعوة السرية وأنّ هـٰذا أصل في الدَّعوة السِّرية وتنظيماتها، وهـٰذا إذا عُرض علىٰ العلم الصَّحيح وكلام أهل العلم والمحققين وُجد أنه ليس بدليل علىٰ ذلك، إذْ الكتمان في المسألة لا يدلُّ علىٰ الكتمان في كل شيء، وتفاصيل ذلك معروفة في كلام أهل العلم؛ في كلام ابن القيم ومن تبعه.

كذلك من المسائل الدعوية التي ذُكرت في الاستفادة من كتب السِّيرة: ما فصَّلَتْهُ بعض الفئات أنّ النَّبي ﷺ دعا في مكة ثلاثة عشر عامًا، وهـٰذا يدلُّ عندهم علىٰ أنّ الدعوة يجب أنْ تكون سرية كالعهد المكي بجميع ما في العهد المكِّي من أحكام، وأنْ تكون مُدَّتُها ثلاثة عشر عامًا كما قالته بعض الأحزاب في بعض البلاد الإسلامية، فجعلوا الدَّعوة منقسمة إلىٰ عهد مكي وإلىٰ عهد مدني، والعهد المكي ثلاثة عشر عاما، ولمَّا أنشأ بعضهم هـٰذه الفكرة وأنشأ حزبًا عليها وانتهت ثلاثة عشر عاما بدون تمكين لهم، قالوا هـٰذا التمكين حصل للنبي ﷺ بعد ثلاثة عشر عامًا؛ لأنه هو المصطفىٰ ﷺ، فإذا لم يحصل لنا التمكين نكرر ثلاثة عشر عاما، فإذا لم يحصل نكرر ثلاثة عشر عاما، وهـٰذا من البعد في الاستدلال كما هو ظاهر لكلِّ من له عقل صريح فضْلا عن أنْ يكون من ذوي الانتساب إلىٰ العلم .

كذلك بعضهم أخذ من السِّيرة تقسيمات الدَّعوة إلىٰ مراحل وجعل المجتمع الذي يعيش فيه أيًّا كان ذلك المجتمع كالمجتمع المكي، فيعاشر النَّاس بعزلة شعورية كما فعلته بعض الفئات الغالية، ويعاشر النَّاس بأنهم مشركون أو أنه متوقِّف في شأنهم، كما تقوله جماعات التوقف والتبيُّن، وأشباه ذلك، وهـٰذا أيضا من الأغلاط الكبيرة، وجدوا مستمسكا من الاستدلال؛ لكن ليس الشَّأن في وجود مستمسك من الدَّليل وإنما الشأن في أنْ يكون الدليل صحيحا ثم أنْ يكون وجه الاستدلال سليمًا، وأما ما يكون من جهة نوع الاستدلال فهـٰذا يكثر في الشَّريعة حتىٰ احتجَّ بعض الناس بأنّ الخمر غير محرَّمة؛ لأنّ الله -جلّ وعلا- ما حرّمها في القرآن إنما قال: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠﴾[1]، وهـٰذا ترغيب وليس بتحريم.

إذن فلابدّ من عرض ما يتحصَّل عليه الدارس للسيرة -إذا لم يكن طالب علم ولم يكن عالمًا- يعرضه علىٰ أهل العلم هل ما استنتاجه صحيح أم لا؟ هل العلم يوافق هـٰذا الاستنتاج أم لا؟ سواء كان في مسائل العقيدة، أم في مسائل السنة والبدعة، أم في مسائل الحديث الصَّحيح والضعيف، أم في مسائل الفقه والأحكام، أم في مسائل الدَّعوة؛ لأننا لن نُقيم الدين ولن نقوم بقوة في الدعوة إلاّ بعد أنْ نُصَفِّيَ منهجنا في الأخذ والاستدلال، فإذا كان المنهج في المرجعية والأخذ والاستدلال واضحًا قوينا واجتمعت الأمة واجتمع الدعاة واجتمع المهتمون بالإسلام والدَّاعون إليه علىٰ نهج سواء وسط واضح؛ لأنّ المصادر وكلام المحققين من أهل العلم واحد في ذلك لا يختلف؛ يعني في أصول هـٰذه الشَّريعة وأصول الأدلة في العقائد وفي الأحكام وفي الدُّروس والعبر والعظات.

إذا تبيَّن لك ذلك فأَغْرَبُ منه أنْ نجد أنّ بعض المناوئين للشَّريعة وأعداء الملة وأعداء الدِّين من العلمانيِّين ومن الاشتراكيِّين وأشباه هؤلاء وجدُوا في بعض نصوص السِّيرة ما يستدلون به علىٰ نحلهم وما يؤيد ما ذهبوا إليه:

---

(١) سورة: المائدة.

فأهل الاشتراكية استدلوا علىٰ اشتراكيتهم بإباحة المال للجميع، وحتىٰ إباحة النِّساء للجميع، بقصة مؤاخاة النَّبيِّ ﷺ بين المهاجرين والأنصار، حتىٰ إنّ الرَّجل كان يرث أخاه لا من النَّسب ولكن الذي آخاه النبي ﷺ معه في الدِّين فورث بعضهم من بعض حتىٰ نزل قول الله جلّ وعلا: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[1] فاستدلوا علىٰ اشتراكهم في المال، وعلىٰ تنازل بعضهم عن زوجته لأخيه لو رغب، بأنّ هٰذا أصل من أصول الاشتراكية التي دعا إليها النبي ﷺ، واستدل بعضهم بوجود اشتراك النساء في الحرب مع الصَّحابة من جهة التَّمريض أو جلب الماء أو نحو ذلك، بأنّ هٰذا أصل بالقول بجواز الاختلاط المحرّم، وأنّ المرأة تعمل مع الرَّجل في أي ميدان، لا بأس بذلك في ميدان الطب أو التمريض أو في غير ذلك، وجدوا في بعض الحوادث مدخلا لهٰذا، وكلٌّ أخذ بحادث وتفقّه فيه وأصبح فقيها وإنْ كان ليس له من تحقيق الإسلام نصيب.

إذن السِّيرة هي قصص وأخبار وحكايات فلا يسوغ الاستدلال بما جاء فيها مطلقًا حتىٰ يكون ذلك الدَّليل صحيحا من جهة ثبوته، ثم يُنظر في وجه الاستدلال.

إذا وصلنا إلىٰ هٰذا وهناك فقرات نطويها لضيق الوقت، وفي الحقيقة الموضوع مهمّ يحتاج إلىٰ مزيد بيان، لكن نخلص إلىٰ خاتمة المطاف، وذلك بذكر موضوع هٰذه المحاضرة **وتلخيص ما سبق بمعرفة الضَّوابط التي يجب أنْ نأخذ بها في تلقِّي السِّيرة وفي الاستدلال والفهم.**

فأول هٰذه الضوابط:

أنّ ترتب قوة مصادر السيرة علىٰ ثلاث مراتب:

١- **المرتبة الأولىٰ**: فهي للقرآن العظيم، فما دلّ عليه القرآن فهو مقدَّم علىٰ غيره.

٢- **[المرتبة الثانية]**: ثم سنَّة النبي ﷺ وهي مبيِّنة وموضحة لما في القرآن، والسُّنة نعني بها ما ثبت عنه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، سواء كان من أحاديث الآحاد أم من الأحاديث المتواترة، وسواء صح سنده لذاته أو لغيره، سواء حسن سنده لذاته أو لغيره، فإذا ثبت الحديث فإنَّه يؤخذ به في السيرة ويكون مقدَّما علىٰ غيره.

ويليه الأخذ بتفاسير أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم في آي القرآن أو بعض أحاديث السنة فإنهم في الغالب فسروا القرآن بعلمهم بسنة المصطفىٰ ﷺ.

٣- **المرتبة الثالثة**: ما جاء في كتب السير، وإذا وجدنا في كتب السير ما لا يتعارض مع الكتاب والسنة فإنّ لنا أنْ نأخذه وأنْ نقول بما فيه دون تردد؛ لأنّه لا يخالف الكتاب والسنة سيما إذا اعتضد باتِّفاق العلماء عليه أو بجريانهم عليه، فإنه لا حرج علينا في ذلك، إذْ كما قال بعض أهل العلم: السير بلا شك أرفع درجة وأقوىٰ ثبوتًا من أحاديث بني إسرائيل. والنبي ﷺ رخَّص لنا في الحديث عن بني إسرائيل وقال: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**» وبنوا إسرائيل لا نصدِّقهم ولا نكذبهم، وأما ما رُوي في السير مما لا يصادم نصًّا من القرآن أو من سنة العدنان -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فإنه لا بأس من القول به والأخذ به؛ لأنّ العلماء تتابعوا علىٰ قَبول ما فيها إذا لم يعارض ما جاء في الكتاب والسنة في الأصول وفي

(١) سورة: الأنفال، الآية (٧٥).

الفروع وفي السّير. **هٰذا هو الضابط الأول.**

الضابط الثاني في فهم السيرة وقراءة السيرة والنظر فيها: أنّ السيرة يُستفاد منها في أنواع من الفوائد الدَّعوية والإيمانية والعلمية فينبغي لمن يقرأ السيرة أو يذكر ما فيها أنّ ينتبه لإنزال كل مسألةٍ منزلة، فإذا كان إيراد القِصَّة وحكاية الغزوة أو ما حدث للنبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ولأصحابه المقصود منه تقوية ما في القُلوب من الإيمان ومحبة النَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وتقوية العزَّة في قلوب أهل الإيمان وفي قلوب النَّاشئة وربطهم بسيرة المُصطفىٰ ﷺ فإنَّه لا بأس بذلك، ويؤخذ علىٰ هٰذا القدر، ناظرًا إلىٰ الضَّابط الأول الذي ذكرناه، ثم إذا وجد في السِّيرة ما يخالف ما أفتىٰ به أهل العلم سواء في التَّوحيد أو في تفسير القرآن أو في السُّنَّة أو ما أشبه ذلك أو في الدعوة أو في الأحكام الفقهية فإنَّه لابدّ له من البيان؛ لأنّ إيراد القصَّة مع إيراد مشكل فيها من جهة الشرع أو ما هو منكر فيها من جهة الشرع والسُّكوت علىٰ ذلك لا يسوغ إذ هو نوعٌ من تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه، وهٰذا ربَّما وقع في أنواع من الإلباس.

الجهة الثانية من هٰذا الضَّابط: الاهتمام بالجوانب الفقهية والعلمية في السِّيرة؛ بأنْ يُنظر إليها نظر علمي؛ يعني ينظر إليها طلبة العلم لا علىٰ أنَّها رواية وقصة وحكاية وهكذا؛ بل إنما يأخذها مستفيدا مما جاء فيها من جهة الأحكام.

فخذ مثلا قصة الحُديبية وغزوة الحديبية؛ بل فتح الحديبية فإنّ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أخذ في ذكر الفوائد من هٰذا الحدث الفوائد الفقهية في العبادات وفي المعاملات بل وفي أمور تتعلق بالدول وتتعلق بولاة الأمر وتتعلق بالملوك وتتعلق بالأحوال ما تَعجبُ منه، وهٰذا لا شك أنه من النظر الفقهي العظيم الذي ينبغي أنْ يتحلّىٰ به طالب العلم.

الضابط الثالث من ضوابط النَّظر في السيرة: أنّ سيرة النَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كانت صراعا بين التوحيد وبين الشرك، وسيرته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لم تكن سيرة قائد حزب ولا ممثِّل لفئة ولا طالب دولة ولا أشباه ذلك، وإنَّما كانت صراعا في مسألة عظيمة، بل أعظم المسائل، بل أعظم المطالب وهو توحيد الله جلّ وعلا، ولهٰذا ترىٰ أنّ المحقِّقين من أهل العلم ممن انتبهوا لعظم شأن الدَّعوة للتَّوحيد كابن تيمية وابن القيم والإمام محمد بن عبد الوهاب ومن بعده، نظروا إلىٰ تلك السِّيرة وتلك الأحداث ونزّلوها علىٰ المعركة بين التَّوحيد وبين الشِّرك، وهٰذا أعظم ما يكون من الصَّواب في الاستدلال؛ لأنها واقعة، وإذا كان في يوم ما عادت الكرة للشرك ولأهله فَاندَرَسَت معالم التَّوحيد فإنّ ظهور أثر السيرة في ذلك وظهور معالم السيرة عند الناظر فيها في الفرقان ما بين أهل الشرك وأهل الإيمان ظاهر بيِّن، لهٰذا من رأىٰ كتاب السِّيرة للشَّيخ محمد بن عبد الوهاب وكتاب السِّيرة لعبد الله بن الشيخ -رحمهما الله تعالىٰ- نظر إلىٰ أنه مستفاد من جهة المعركة بين التوحيد وبين الشرك، وهٰذا استدلال صحيح في مكانه؛ لأنّه قائم علىٰ الاستدلال بالمطابقة فإنها هي حقيقة ما كان ما بين النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وما بين أصحابه، والناس ممن نظروا في السيرة مجمعون علىٰ هٰذا وأنّ المعركة ما بين داع إلىٰ الله جلّ وعلا بل سيِّد الدعاة إلىٰ الله -جلّ وعلا- بل سيِّد المرسلين -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وبين المشركين الكفار المعاندين لله -جلّ وعلا- ولرسله -عليهم صلوات الله وسلامه-، والله -جلّ وعلا- قال لنا عن نبيه: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ

﴿١٠٨﴾[١]، وبيَّن جلّ وعلا أن المراد من القصص العبرة، فقال جلّ وعلا: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾[٢]، وهٰذا واضح معلوم في صنيع أهل العلم.

الضَّابط الرابع من ضوابط النظر في السيرة: أن يهَابَ أهل العلم وطلبة العلم والدعاة من أن يخوضوا في السيرة بلا علم، فلا يظنَّ الظانُّ أنَّ السيرة قصة تقبل الزِّيادة والنقصان، فربما سمع بعضكم بعض من يميل إلىٰ القصص والحكايات -سواءً من جهة التعليم أو من جهة الإلقاء- وذكر أحداثًا من السيرة وحلاَّها بزيادات من عنده ظانًّا أن باب السير باب قصص وأنه يسوغ فيه الزيادة، وهٰذا ليس بصواب؛ بل هو باطل في نفسه إذْ السيرة هي سيرة المصطفىٰ ﷺ فلا تقبل الزِّيادة علىٰ الحوادث، إذا كان يريد أن يشرح ما ثبت فهٰذا فيه من الإيضاح ومن تعليق الناس ومن أخذ العبرة والفائدة؛ لكن أن يزيد حكايات بخروج وذهاب وبذكر أحوال لم ترد في كتب السِّير ولم تصح، فهٰذا نوع من القول علىٰ الله -جلَّ وعلا- بلا علم، بل هو نوع من الكذب علىٰ النبي ﷺ، وسُمعت أحاديث في بعض الغزوات جِيءَ فيها بأشياء لم ترد أصلًا، وسُمعت أحاديث في بعض حوادث جرت في مكَّة علىٰ صحابة النبي ﷺ وبيعة العقبة؛ بل وهجرة الصَّحابة إلىٰ الحبشة وأشباه ذلك مما لم يرد أصلاً، وزيادات اقتضاها الطَّابع القصصي، وهٰذا لا يسوغ أن يعذر المرء فيه نفسه؛ لأنَّ الأمر شديد والكلام علىٰ سيرة النَّبي ﷺ نوع من الكلام علىٰ سنته والكذب فيها كذب علىٰ سنة النبي ﷺ، وأعظم ما جاء في ذلك من التَّحذير قوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في الحديث المتواتر «**من كذب عليَّ متعمِّدًا فليتبوَّأ مقعده من النار**».

الضَّابط الأخير من هٰذه الضوابط في النظر في فهم السيرة: أن لا يُستعجل بالنَّقد فيما يُورده أهل العلم في السِّير، فإن السِّير لها طابع، وكثيرون وهَّموا بعض أهل العلم أو تعقبوهم بما ليس مجالاً للتعقب واستعجلوا في ذلك، فقصص السِّير ونوع ثبوتها والاجتهاد في تأوّل إيرادها هٰذا كثير، فإذا لم تكن القصَّة أو السِّيرة أو الحكاية -سواءٌ عن النبي ﷺ أو عن الصَّحابة- إذا لم تكن مصادمة لنصوص الكتاب والسنة أو لم تكن باطلة من جهة العقيدة والشريعة والسنة فإن إيرادها للعلماء فيه مآخذ، فلا يأتيَنَّ آتٍ ويقول فلان يورد من السيرة ما لم يثبت، وهٰذا يورد حديثًا ضعيفًا في السيرة وأشباه ذلك، إذْ الأصل عندهم ما ذكرته لكم من التوسع في نقل السيرة إذا لم يكن ما ينقل باطلاً أو منكرًا، وهٰذا أصل عظيم لابدّ من الاهتمام به؛ لأنّ نقد أهل العلم أو الاعتراض عليهم بما ليس له حجة بيّنة غير مقبول، وربَّما سبَّب أشياء غير محمودة.

الموضوع فيه زيادات؛ لكن الوقت قَصُر وتضايق.

وفي الختام أسأل الله -جلّ وعلا- لي ولكم الانتفاع بسيرة النَّبي ﷺ، وأن يعلِّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علَّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملًا وهدًىٰ واهتداءً، وأسأله جلّ وعلا أن يصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادة لنا في كل خير والموت راحة لنا من كل شر.

---

(١) سورة: يوسف.

(٢) سورة: يوسف، الآية (١١١).

وأسأله -سبحانه- أن يصلح ولاة أمورنا وأن يدلَّهم علىٰ الرشاد وأن يباعد بينهم وبين سبل أهل البغي والفساد.

وأسأله -سبحانه- أن يجعلنا وإياهم من المتعاونين علىٰ البرِّ والتقوىٰ ومن غير المتعاونين علىٰ الإثم والعدوان.

وأسأله سبحانه لي ولكم ولكل مسلم الختام الصالح الذي به السعادة الأبدية.

اللهم فاغفر جمًّا، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[أسئلة وأجوبة]

سؤال (٠١): هناك من العلماء من يذكر بعض سير الصَّالحين في زهدهم وصلاحهم وصلاتهم.. إلىٰ آخر ما يكون أحيانًا معارضًا لفعله ﷺ فما موقفنا من مثل هٰذا، وجزاكم الله خيرًا؟

الجواب: الحمد لله، أفعال العلماء ليست بحجَّة علىٰ الشَّريعة، وإنَّما الحجة فيما دلَّ عليه الكتاب والسنة وفعل الصحابة -رضوان الله عليهم- إذا اجتمعوا علىٰ ذلك.

وما يُنقل في السير من أخبار بعض العلماء علىٰ أقسام:

منه ما يمكن تأوّله من مثل أنّ بعضهم كان يقوم اللّيل كله وهٰذا مخالف للسُّنة، وأنّ بعضهم كان يختم القرآن في كلّ يوم مرّة، كما نقل عن الشَّافعي أنه ختم القرآن في شهر رمضان ستين مرّة، وكما نُقل عن عثمان ﵁ بل صح عنه أنه ختم القرآن في ركعة من ليالي الشتاء طويلة أوتر بها وقرأ فيها القرآن كلّه، وجاء أيضا أنّ تلك الركعة كانت في جوف الكعبة وأشباه ذلك.

وهٰذه تأوّلها أهل العلم وذكروها؛ أنّ أهل العلم قد يفعلون بعض الأشياء لا علىٰ وجه المداومة وإنّما أحيانًا، ولهٰذا ذكروا في مسألة ختم القرآن علىٰ حديث النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**» أنّ هٰذا فيمن كان الغالب عليه أنّه يقرأ ذلك، أما إذا استغل موسمًا فاضلًا في زمان فاضل كرمضان أو مكانا فاضلا فأراد أنْ يزداد من الختمات لأجل ذلك فإنّ السلف فعلوا ذلك وهٰذا جائز، وحملوا الحديث علىٰ من كان ذلك هو الغالب عليه، وكذلك في مسألة الصَّلاة وقيام اللّيل كلِّه إذا كان هٰذا هو الغالب عليه فإنّه مخالف للسنة.

أما إذا حصل له عارض وقوة قلب وتضرُّع وأشباه ذلك وفعل مثل هٰذه الأشياء مرة واحدة فإنه يكون متأولًا في ذلك والسنة قاضية علىٰ فعله.

بعض الحكايات عن أهل العلم أو عن الصَّالحين تكون باطلة في نفسها، فيكون النقل غير صحيح مثل ما نقلوا عن أحمد حكايات في الزهد موضوعة، ومثل ما نقلوا عن الشَّافعي حكايات في الزهد موضوعة كما نبه عليها العلماء، وهناك بعض ما ينقل عن الصالحين باطل شرعًا ولا يجوز الأخذ به ولا وعظ الناس به؛ لأنَّه يعطي صورة سيئة وقدوة سيئة مثل أنّ فلانًا قام يومه وليله علىٰ أكل فجلة، قال: فما وجد إلاّ فجلة، نَصَفَها بين يومين من شدة اعتنائه بالعلم، وجلس خمسة أيام لا يأكل بعد شرائه سمكة لم يحسن أنْ يطبخها أو أن يطهوها لاشتغاله بالعلم، أو أنّ فلانا أراد أنْ يخلِّص نفسه من الرّذائل فمشىٰ بصدره وبطنه حبوًا وزحفًا علىٰ شوك ليُعَلِّم نفسه شدة عذاب النار. وأشباه ذلك من الحكايات، هٰذه باطلة، لا يجوز أنْ تقال للنَّاس لأنها تعطي صورة سيئة وقدوة سيئة؛ بل الناس بحاجة إلىٰ سنة المصطفىٰ

ﷺ، بحاجة إلىٰ سيرة الصحابة وقد قال –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»(١) فالكمال في هديه –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- والمبالغة في الرَّقائق بما لا يصح شرعا يعطي نتائج سيئة من جهة عدم حسن ظن النَّاس بالأوَّلين أو بتكذيبهم أو بما أشبه ذلك.

سؤال (٠٢): إذا وافق الخسوف وقت صلاة الفجر واستمرّ حتىٰ طلوع الشمس هل يصلىٰ في هٰذا الوقت أم لا؟

الجواب: النبي ﷺ ثبت عنه في «الصحيحين» أنه قال: «**فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَىٰ الصَّلاةِ**»(٢) قال العلماء: رتّب الفزع في الصلاة علىٰ الرؤية فأفاد فوائد منها أن المعتبر في ذلك بالرؤية، إذا رئي الخسوف والكسوف فإنه يُفزع إلىٰ الصّلاة، وأمّا إذا لم يُرَ وإنما يقال بقول حسّاب أو نحو ذلك ولم ير الناس الخسوف فإنه لا يجوز أن يبتدئوا بالصلاة علىٰ قول حاسب في ذلك؛ لأنّه –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- علقه كما علق شهر رمضان -يعني رؤية الهلال- بقوله: « **فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَىٰ الصَّلاةِ** » فلا يجوز الاعتماد علىٰ غير الرؤية في هٰذا.

ثم الفائدة الثانية قوله: «**فَافْزَعُوا**» رتب الفزع علىٰ الرؤية فدلّ علىٰ تقديم صلاة الخسوف والكسوف علىٰ غيرها لأن هٰذا هو السلف، فإذا اجتمعت مع صلاة الفجر كانت قبل الفجر بدقائق عشر أو أكثر أو مع الفجر فإنه تقدم صلاة الخسوف والكسوف ولا تطال جدًّا، بل يُجعل لها وقت بحيث يمكن أن تصلىٰ الفجر في وقتها، علىٰ هٰذا جرىٰ السَّلف وعمل علمائنا في هٰذه البلاد.

سؤال (٠٣): قصّة (الغرانيق) التي وردت في «مختصر السيرة» ما صحتها؟

الجواب: قصة الغرانيق رُويت من أوجه مرسلة، قال الحافظ ابن حجر: يقوّي بعضها بعضا. والمرسل يعتضد بالمرسل، سيّما في مثل ذلك، وقصة الغرانيق لا تناقض أو تضادّ أصلًا شرعيًّا ولا نصا من كتاب الله جلّ وعلا ولا من سنته –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، فهي من القسم الثَّالث ولهٰذا أوردها العلماء، بل إنّ قصة الغرانيق يمكن أنْ تكون في معنىٰ قول الله جلّ وعلا: ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ**﴾(٣) الآية في سورة الحج، فبيّن -جلّ وعلا- أنه ما أرسل من نبي ولا رسول إلاّ إذا تمنىٰ يعني إذا قرأ وتلا كتابه ﴿**أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ**﴾ يعني تكلم الشيطان بجنس صوته ليعتقد زيادة في كلامه من جهة الشَّيطان. وهٰذا ما جاء في قصة الغرانيق المعروفة في قوله -جلّ وعلا- في سورة النجم لما تلا النبي ﷺ: ﴿**أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠**﴾(٤)، جاء في القصة أنه قال: (وإنّهن الغرانيق العلىٰ وإنّ شفاعتهنّ لترتجىٰ) وأشباه ذلك أو كما جاء، فجاءت زيادة فيها تصحيح عبادة غير الله جلّ وعلا، فلما سمع

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (ح١٤٠١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (ح١٠٥٩)، ومسلم (ح٩١٢)، واللفظ لأحمد وغيره.

(٣) سورة: الحج، الآية (٥٢).

(٤) سورة: النجم.

المشركون ذلك سجدوا، فأنزل الله -جلّ وعلا- قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾.

فإذن هٰذه القصة تداولها المحقِّقون من أهل العلم فذكرها الحافظ ابن حجر، وذكر لها أوجهًا مرسلة في شرح البخاري، وذكرها إمام هٰذه الدعوة الشَّيخ محمد بن عبد الوهاب في «مختصر السِّيرة» وذكرها العلماء ولم ينكروها، وإنما أنكرها بعض أهل العلم وإنكاره له وجهه، ولكن ليس بقاضٍ علىٰ ما رآه غيره من أهل العلم، إذْ ليس في القصَّة ما ينكر من جهة التَّوحيد، ولهٰذا أوردها أئمة التوحيد.

تركُها أولىٰ خاصة عند من لا يفقه، وإذا أوردت فلها وجهها.

سؤال (٤): **أفضل طريقة للتدرُّج في قراءة كتب السيرة فبماذا يبدأ طالب العلم من هٰذه الكتب بالترتيب؟ وما هو أفضل كتاب فيها؟**

الجواب: الأفضل أنْ يبتدئ بـ«مختصر السِّيرة» للشَّيخ محمد بن عبد الوهاب، «مختصر سيرة ابن هشام» ثم بعده «السِّيرة النبوية» لابن كثير وفيها طول، ثم إذا نظر في ذلك وتبيّن له الصَّواب نظر في «سيرة ابن هشام» وما اختصر منها، وهناك كتب طويلة في السيرة مثل «السِّيرة الشامية» و«السيرة الحلبية» في عدة مجلدات كالشُّروح لكتب السير.

سؤال (٠٥): **هٰذه بعض الكتب يسأل بعض الإخوان عنها يقول: ما رأيكم في هٰذه الكتب في السيرة النبوية، «الرحيق المختوم»، «هٰذا الحبيب يا محب»، «رجال حول الرَّسول ﷺ».**

الجواب: هٰذه الكتب نافعة: «الرحيق المختوم» جيّد، وكذلك كتاب أبي بكر الجزائري «هٰذا الحبيب يا محب» أيضا جيّد؛ لكن درج عليهم ما درج علىٰ أصحاب السِّير في بعض المسائل، فيستفاد منها كما يستفاد من غيرها، وهي أميز من غيرها، وأكثر فائدة مما ألف في السِّنين المتأخرة.

❁❁❁❁

موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

مقدمة في التفسير

الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله حق الحمد وأوفاه، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾[الفرقان]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله، نشهد أنّه بلغ الرسالة وأدّىٰ الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق الجهاد، فصلوات الله وسلامه علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فأسأل الله جل جلاله أن يجعلني وإياكم من أهل القرآن، العاملين به، الذين هم أهل الله وخاصته، وأسأله سبحانه أن يجعل لنا حظا من معرفة كتابه والعلم به والعمل بما أنزل الله جل وعلا فيه وعلىٰ رسوله ﷺ.

كما أسأل المولىٰ جلت قدرته وتعاظمت أسماؤه وصفاته، أسأله أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا وذهاب همومنا وجلاء أحزاننا إنه سبحانه جواد كريم.

هذه الكلمة التي ستكون موجزة بالنسبة لِعظم موضوعها وكثرة فروعه وتفاصيله عُنونت بـ:

مقدمة في التفسير -أو: في أصول التفسير-.

وهذا العنوان (مقدمة) يُعنىٰ به أنه مدخل، إذا تأمله طالب العلم والراغب في معرفة التفسير أمكنه أن يعلم التفسير، وأن يعرف طرقه، وأن يتعلم مصادره، وأن يكون علىٰ بينة وذكر من أصح الطرق التي إذا سلكها صار عالما تفسير القرآن علىٰ وجه الصواب.

والتفسير علم كبير وعظيم ومتنوع، ولهذا ترون أنّ التفاسير في الدنيا بلا عدد كثيرة جدا في أنواع من المدارس المختلفة، منها ما هو من مدرسة الأثر، ومنها ما هو من مدرسة الاجتهاد والاستنباط في أنحاء كثير من علوم التفسير.

ولاشك أن المسلم أعظم ما يعتني به كتاب الله جل وعلا؛ لأنه حجة الله الباقية، ولأنه النذارة كما قال سبحانه: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[الأنعام:١٩]، من بلغه القرآن وكان عالما بحججه عارفا بمعناه، فإنه قد بلغته الحجة وأُقيمت عليه الحجة، وأقام الله جل وعلا عليه النِّذارة.

ولهذا أمر الله جل وعلا عباده بأن يتدبروا القرآن العظيم وأن يقفوا عنده متدبرين متأملين، وهذا في آيات كثيرة من القرآن منها قوله جل وعلا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ وجعلت هذه الآية من سورة ص جعلت من القرآن وإنزال القرآن غايتين:

الأولىٰ: أن يُتدبر القرآن.

والثانية: أن يتذكر أولوا الألباب.

قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يعني أنزلناه لكي ليتدبر الناس آيات القرآن هذه هي الغاية الأولىٰ التدبر، والتدبر في حقيقته هو التفسير هو المعرفة بمعانيه هو المعرفة لما دلت عليه آيات الله جل وعلا العظيمة في كتابه الكريم.

والغاية الثانية أن يتذكر العباد قال: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وهذا يعني أن من تدبر أيضا فإنه يورث

التذكر ويورث العمل.

فالقرآن أنزل لتأمله ولتدبره ولمعرفة معانيه.

وأنزل أيضا ليحصل للعبد به التذكر؛ يعني أن يعمل به العبد ويتذكر بذلك حق الله جل وعلا عليه، وحقوق الله جل وعلا كثيرة، وجُملها وكثير من تفاصيلها في كتاب الله جل وعلا.

لهذا فإن من فاته تدبّر القرآن والعلم بتفسيره، فإنه يفوته حظ كبير من الغاية التي لها أُنزل هذا القرآن وجعله الله مباركا.

وقال سبحانه: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[الأنبياء]، وقال جل وعلا حاضا عباده على تدبر القرآن ومعرفة تفسيره ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد:٢٤]؛ يعني أن من لم يتدبر القرآن فإن على قلبه قفلا حجزه من تدبر القرآن، من أقفال الأهواء والشهوات والشبهات إلى آخره، فقال أيضا جل وعلا: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء]، وقال جل وعلا أيضا: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ يعني القرآن ﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾[المؤمنون]، والآيات في ذلك كثيرة متنوعة، جعل الله القرآن بلسان عربي مبين لكي يتدبر ويتأمل ويعلم ما فيه من حِكم الله جل وعلا وحُكمه وأمره ونهيه وخبره الصادق والقرآن تام ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾[الأنعام:١١٥].

لهذا بعد هذا الحض وهذا الأمر وبيان الغاية من إنزال القرآن وهو التدبر والعمل بهذا القرآن، بعد بيان ذلك فلابد للمرء أن يتعلم التفسير وأن يقرأ كثيرا في تفسير القرآن، من غير الحسن لطالب العلم بخاصة ولعامة الناس بعامة من غير الحسن أن يسمع آيات كثيرة من القرآن وهو لا يعلم معناها، تكرر عليه في الصلاة وإذا سئل عن تفسيرها لا يعلم معناها، قُرئت عليك سنين ولا تجد في نفسك رغبة في معرفة تفسيرها، كلام هكذا بدون أن نعلم تفسيره، هذا لاشك أنه نقص.

لهذا ينبغي على العبد المؤمن أن يحرص كثيرا على تفسير كتاب الله جل وعلا، فهو النور الذي جعله الله جل وعلا لعباده ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾[المائدة].

فالقرآن نور ورسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ المبلِّغ لهذا القرآن والمبيِّن لتفسيره نور، فمن أخذ بذلك فقد أوتي أنوارا في قلبه لا يلتبس بعدها عنده الطريق.

القرآن فسّره النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لكن كان ما نُقل من تفسير القرآن عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قليل وليس بالكثير.

ففسر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آيات من كتاب اله جل وعلا كقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الأنعام]، فسرها النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأن الظلم الشرك كما جاء ذلك في الصحيح من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنها لما نزلت الآية شقّ ذلك على الصحابة وقالوا: يا رسول الله أينا لم يظلم نفسه؟ فقال: «ليس الظلم الذي تذهبون إليه، الظلم الشرك،

ألم تسمعوا إلىٰ قول العبد الصالح: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾[لقمان]».

وفسر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أيضا الخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله تعالىٰ في سورة البقرة ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾[البقرة:١٨٧] فسّرها بأن الخيط الأسود هو طلوع الصبح وذهاب الليل.

فهذه جمل من تفاسيره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيما صح عنه.

كذلك فسّر القوة في قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾[الأنفال:٦٠]، بأن القوة الرمي قال في تفسيرها: «**ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي**».

إذا تبين ذلك فإنّ المنقول عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في التفسير ليس بالقليل؛ ولكنه أقل مما نقل عن الصحابة رضوان الله عليهم، وذلك لأن تفسيره كان بحسب الحاجة، فإذا احتاج الصحابة إلىٰ التفسير فسر لهم ذلك.

كما فسر لهم قوله جل وعلا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾[يونس:٢٦]، بأن الزيادة هي النظر إلىٰ وجه الله الكريم.

وفسر الكوثر في قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾[الكوثر]، قال: «**هو نهر أعطانيه الله جل وعلا في الجنة**» وجاء في تفسيرها أنه قال: «**الكوثر هو الخير الكثير الذي أعطانيه الله جل وعلا**».

وهكذا في آيات كثيرة فسّرها النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بحسب الحاجة.

والصحابة رضوان الله عليهم كانوا يهابون أن يسألوا رسول الله ﷺ عن تفسير عدد من الآيات، ويفرحون بأن يأتي أحد فيسأل النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حتىٰ يتعلموا منه.

مضىٰ زمن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثم لما كثر الناس وضَعُف العلم بأحوال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والعلم بسنته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والعلم بلغة العرب احتاج الصحابة أن يبينوا للناس القرآن، فكثرت تفاسير الصحابة بالنسبة لتفاسير النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للقرآن؛ لأن داعي الحاجة كان أكثر.

في زمن التنزيل الصحابة يرون أسباب النزول، ويعلمون أنّ هذه الآية هي أنزلت في كذا الآيات هذه أنزلت في القصة الفلانية في غزوة بدر، أنزلت في القصة، لما حدث كذا وكذا في غزوة أحد، وأنزلت كذا في بين قريضة، وهكذا في عدد كثير من الآيات، فعلموا أسباب النزول فعلموا التفسير.

ولهذا كان ما فُسِّر لهم من القرآن قليل بالنسبة إلىٰ كثرة الصحابة؛ لأنّ علمهم بالقرآن كثير لما يعلمون من لغة العرب، وبما شاهدوا من أسباب النزول، وبما يعلمون من سنة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأيضا كانوا أهل قرآن ويفسرون بعض القرآن ببعض، ومع ذلك فربما لم يعلم بعض الصحابة -مع جلالة قدرهم- تفسير بعض الآيات فيعلمه الآخرون؛ لأن القرآن كثير الأوجه كثير المعاني.

من ذلك أنّ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما تلا سورة النحل علىٰ المنبر في يوم الجمعة وبلغ قوله تعالىٰ: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ٤٧﴾[النحل]، قال: ما التخوف؟

فقام رجل من المسلمين فقال: يا أمير المؤمنين التخوف في لغتنا التنقّص، قال شاعرنا أبو كبير الهذلي:

تَخَــوَّفَ الرَّحْــلُ منهــا تَامِكًــا قَــرِدًا كمــا تَخَــوَّفَ عُــودَ النَّبْعَــةِ السَّــفَنُ

يعني التخوف التنقص، ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ فسرها هذا الرجل باللغة بأن معنىٰ التخوف التنقص، يعني يبدأ ينقصهم شيئا فشيئا وهم لا يتوبون لا يذكّرون، يرون أنهم في ذواتهم في الأفراد، يتناقصون في أموالهم، يتناقصون في صحتهم، يتناقصون معايشهم، ومع ذلك لا يتوبون ولا هم يذّكرون.

هٰذا في تفسير التخوف أحد وجهي التفسير في الآية آية النحل.

ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت لا أعلم تفسير ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١) حتىٰ أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها. يعني ابتدأتها من غير أن يكون قبل ذلك مكان للبئر، قال: فعلم أن معنىٰ ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني الذي ابتدأهما من غير مثال سابق وخلقهما من غير أن يكون قبل ذلك مثال.

وهكذا فالصحابة رضوان الله عليهم استفادوا التفسير وأفادوا.

وكان كلام الصحابة في التفسير المنقول كثير جدا، فنُقل عن أبي بكر تفسير آيات كثيرة، كما نقل عنه تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾[المائدة:١٠٥].

عمر رضي الله عنه نُقلت عنه تفاسير.

عثمان رضي الله عنه نُقلت عنه أيضا تفاسير.

علي رضي الله عنه هو أكثر الخلفاء الذين نُقل عنهم التفسير.

وممن نقل عنهم التفسير من الصحابة وكانوا أوعية لتفسير القرآن ابن مسعود رضي الله عنه فكان يقول رضي الله عنه: لو أعلم أنّ أحدا في الأرض عنده علم في القرآن ليس عندي تبلغه المطي لذهبت إليه. أو قال لرحلت إليه، وذلك لأنه صحب النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ زمنا طويلا وشاهد التنزيل.

أيضا ابن عباس رضي الله عنه فسر كثيرا جدا من القرآن.

عائشة فسرت القرآن.

أبيّ بن كعب فسر القرآن.

وهكذا في عدد من الصحابة، لذلك فكلام الصحابة في التفسير هو الدرجة الثانية في التفسير المنقول بالأثر.

الدرجة الأولىٰ: التفسير بالسنة الذي فسره النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ بنفسه، هذا أغلىٰ وأعلىٰ تفسير، إذا كان النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ هو الذي فسر، فلا شك أن قوله في ذلك هو الذي يجب الأخذ به والذي يجب اعتقاده والذي يجب قبوله؛ لأنه لا أحد أعلم بمعنىٰ كلام الله جل وعلا من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) سورة: الأنعام؛ الآية (١٤)، يوسف؛ الآية (١٠١)، إبراهيم؛ الآية (١٠)، فاطر؛ الآية (١)، الزمر؛ الآية (٤٦)، الشورىٰ؛ الاية (١١).

فتفسير الصَّحابة كثير، فمن أصول التفسير أن معناه التفسير على السنة يعني في الآثار تأتي منزلة القرآن في التفسير، ثم بعد ذلك ننظر في تفاسير الصحابة رضوان الله عليهم.

التفسير في مراتبه:

النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ فسر القرآن بالقرآن كما ذكرت لكم في سورة الأنعام: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ**﴾[الأنعام:٨٢]، قال: «**الظلم الشرك، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح** ﴿**لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾**﴾[لقمان]» هذا أصل في تفسير في القرآن بالقرآن، فما كان مجملا في آية يجده أهل العلم بالتفسير مبينا في آية أخرى، ما كان عاما في آية نجده خاصا في آية أخرى، وما كان مطلقا نجده مقيدا، وهكذا، فبعض ما يفسر به القُرآن القرآن؛ لأن الله جل وعلا جعل القرآن متشابها فقال سبحانه: ﴿**ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ**﴾[الزمر:٢٣]، فالقرآن متشابه؛ يعني بعضه يشبه بعضا، بعضه يشبه بعضا، في بعض الآيات تجد أنه ليس ثم تفسير للكلمة، تجد في الآية الأخرى تفسير مثل افتراض الإيمان في الرقبة في قوله: ﴿**فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ**﴾[النساء:٩٢]، في دية قتل الخطأ، وفي أنواع من الكفارة قال ﴿**فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ**﴾[المجادلة:٣]، نعلم أن هنا الرقبة التي ذكرت في موضع تفسيرها أنها الرقبة المؤمنة التي ذكرت في آية النساء، فإذن القرآن يفسر بعضه بعضا.

فأعلى ما يفسر به القرآن القرآن.

ثم يفسر القرآن بسنة النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ.

ثم بما أجمع عليه الصحابة رضوان الله عليهم.

ثم بما قاله جمهور الصحابة رضوان الله عليهم.

الصحابة تميزت تفاسيرهم بالأشياء تفاسير الصحابة:

أولا أنها تفاسير من علموا القرآن وعلموا السنة؛ لأنهم شهدوا التنزيل ويعلمون سنة النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ وهدي النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ.

تميزت تفاسير الصحابة وهي الميزة **الثانية** أن تفاسير الصحابة من شاهد التنزيل وعلم أسباب النزول، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض كلام له: العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، فإذا علمت سبب الشيء عرفت المعنى، عرفت توجيه الكلام، عرفت المراد منه، فعلمهم بأسباب النزول ومشاهدتهم لأسباب النزول يجعل تفاسيرهم في الغاية؛ لأنهم شاهدوا وعلموا فلم يفسروا القرآن بشيء يصادم أسباب النزول، ويصادم سنة النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ.

تميزت تفاسير الصحابة بأنها تفاسير مأمونة من جهة الاجتهاد في اللغة؛ لأنهم أهل اللسان ولا خطأ عندهم في اللغة، فإذا اجتهدوا في تفسير القرآن باللغة، فإذا اجتهدوا في تفسير القرآن باللغة فهو اجتهاد العالم البصير بلغة العرب؛ لأنه في زمن الصحابة رضوان الله عليهم لم يفشُ اللحن في لغة العرب كان زمنهم زمن احتجاج في اللغة، ولم يأت بعد اللحن ولم يداخل العرب المولدين من الناس ممن أفسدوا بعد ذلك لسان العرب.

فالصحابة اجتهادهم في اللغة حجة ومقبول؛ لأنهم ليس عندهم لحن وليس عندهم غلط في اللغة.

أيضا من مزايا تفاسير الصحابة: أن الصحابي إذا فسر في الأمور الغيبية أو فسر في الأمور العملية فإنه مأمون التفسير من جهة العقيدة؛ لأنهم هم قدوتنا، هم السلف الصالح الذين ﭫ وأمرنا بالترضّي عنهم ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[الفتح:١٨]، و ﭫ ورضوا عنه ﮐ، ولهذا تفاسيرهم في الاعتقاد، في التوحيد، في الأمور الغيبية، في ذكر الجنة، النار، في الصفات، في توحيد الله جل وعلا، هو أعلىٰ التفسير وأصح التفسير؛ لأنه لم تحدث بعد البدع ولا الخرافات ولا الفرق ولا المحدثات، ولهذا تفاسيرهم من هذه الجهة مأمونة تلقاها المسلم بطيب نفس واتّباع وأخذ، دون تردد فيما فسره الصحابة وصحّ عنهم رضوان الله عنهم.

تفاسير الصحابة أيضا تميزت بأنها وجيزة الألفاظ —**الميزة الخامسة**- كثيرة المعاني، وجيزة الألفاظ قليلة الألفاظ؛ لكن إذا تأملت وجدت أن فيها معاني كثيرة يخرج منها العالم بعلم بخرج المربي بأنواع من التربية والإرشاد، يخرج منها المتأمّل بأنواع من الفوائد.

لهذا قال ابن رجب في ذكر فضل كلام السلف علىٰ كلام الخلف قال: كلام السلف قليل كثير الفائدة، وكلام الخلف كثير قليل الفائدة. فهذا هو الحال، تجد الصحابي أو التابعي كلمتين ثلاث لكنها تحرك النفوس، تشعر في القلب الإيمان محبة الله جل وعلا محبة رسوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ محبة الدين تشعر في القلب معرفة معاني الكتاب والسنة، وأما كلام المتأخرون والخلف من أمثالنا نسأل الله جل وعلا أن يسلك بنا وبكم سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار كلامهم كثير لكن التحصيل الحاصل منه قليل، كلام كثير لكنه قليل الفائدة.

هذه مزايا خمس لتفاسير الصحابة، تجعل بعد ذلك منا أن نقول: تفاسير الصحابة لابد من العناية بها.

إذن من أصول التفسير أن يفسر القرآن بتفاسير الصحابة رضوان الله عليهم.

إذا تبين ذلك فنقول: الصحابة في تفاسيرهم علىٰ أنحاء:

الناحية الأولىٰ: أن يجمعوا علىٰ تفسير، فإذا أجمعوا علىٰ تفسير لم يحلّ لأحد من بعدهم أن يخالفهم في التفسير، لم؟ لأنه لا يمكن أن يُحجب الصواب في التفسير عن الصحابة ثم يُدركه من بعده؛ لأن العلم بالقرآن لابد أن يكون موجودا في كل طبقة من طبقات الأمة.

فإذا كان الصحابة أجمعوا علىٰ أنّ تفسير الآية كذا، ثم حدث خلاف بعد ذلك في زمن التابعين، أو بعد ذلك فنعلم أنه خلاف بعد انعقاد الإجماع، ومعنىٰ هذا الخلاف أنّ هذا القول إذا قلنا بصوابه فإنه يعني أن الصحابة لم يعرفوا هذا القول، ومعنىٰ ذلك أن جملة الصحابة لم يدركوا التفسير الصحيح لهذه الآية، وهذا لاشك أنه ظن سوء في خيرة خلق الله بعد رسله وهم صحابة رسول الله ﷺ، فهذه الدرجة الأولىٰ أو الناحية الأولىٰ.

الثانية أن يختلف الصحابة في التفسير، فإذا اختلفوا في التفسير فيكون القول لمن؟ هنا ننظر إلىٰ تفاسير الصحابة، فإذا وجدنا أن التفاسير متفقة في الدِّلالة لكن مختلفة في اللفظ فنحمل بعضها علىٰ بعض.

مثلا في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾[الفاتحة]، فسرها بعضهم الصراط المستقيم

هو القرآن، وفسرها بعضهم بالسنة، الصراط المستقيم محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ، الصراط المستقيم الإسلام، هذه كلها وإن اختلفت مجالها واحد؛ لأن من استمسك بالإسلام فقد استمسك بالقرآن، ومن استمسك بالقرآن فقد استمسك بالسنة، وهكذا.

فإذن تارة يختلف الصحابة في التفسير؛ لكن الناظر فيه يحمل بعض التفاسير علىٰ بعض، وهذه علىٰ القاعدة المعروفة عند أهل العلم في التفسير أنه يُحمل كثير من اختلاف الصحابة بل الأكثر علىٰ اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد؛ يعني أنها تنوعت عباراتهم ومرادهم شيء واحد، بعضها يؤول إلىٰ بعض لا خلاف بينهم في ذلك.

تارة يختلفون ويكون الاختلاف وهو قليل اختلاف تضاد؛ يعني هذا في جهة وليس في جهة، لا يمكن أن نقول: هذا يحمل علىٰ هذا، فإذا وجد هذا الاختلاف اختلاف التضاد فينظر فيه علىٰ النحو التالي:

أولا ينظر هل صح هذا التفسير عن الصحابي أم لا؟ فنبحث في صحة التفسير عن الصحابي، فقد لا يكون صحيحا فعند ذلك يرىٰ الاختلاف فلا يكون ثم خلافا في التفسير أو معارضة بين قول وقول، ونحن نرىٰ مثلا في «تفسير ابن جرير الطبري» أو في «تفسير ابن أبي حاتم» وفي «تفسير عبد الرزاق» تفاسير منقولة بالأسانيد فننظر في تفاسير الصحابي هل هو صحيح لدراسة التفسير، لدراسة الإسناد علىٰ طريقة أهل التفسير، هل هو صحيح أم ليس بصحيح؟ إذا لم يكن صحيحا الحمد لله استراح الباحث وقال بعض القول في تفسير الآية لا خلاف فيه؛ يعني أن المخالف لم يثبت عنه ذلك التفسير.

الحال الثانية: أن تكون التفاسير صحيحة هذا صحيح وهذا صحيح، وهنا أي شيء نرجح؟

فننظر إلىٰ الترجيح بالكثرة، فما فسره الأكثرون من الصحابة فهو أولىٰ من تفسير الأقل، هذا وجه.

الوجه الثاني من أوجه الترجيح، وأوجه الترجيح كثيرة جدا جدا، وثم كتب وبحوث معصرة جيدة في هذا الموضوع ربما يأتي ذكرها إن شاء الله تعالىٰ.

إذا وجدنا أن الحالة الأولىٰ -الترجيح بالعدد- ووجدنا أن الترجيح بالعدد غير ممكن، أو أن المفسر صاحب جلالة وقدر مثل ابن مسعود، فسرها علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فسرها ابن عباس، فماذا نقول في ذلك؟ ننظر إذا كان يمكن أن يصحح كل من القولين فيصحح، فنقول ثم خلاف في الآية، فبعضها أهل العلم فسرها كذا يعني بعض الصحابة وبعضهم فسرها كذا.

فإذا أتىٰ المجتهد في التفسير ورجح فيرجح بأمور كثيرة، تارة بالقراءات، تارة يرجح بدلالة اللغة، تارة يرجح بالسياق، تارة يرجح بالأصول أصول الفقه، مثلا المصطلح علىٰ المعنيين جميعا، إذا كان اللفظ مشتركا أو ببقاء العام علىٰ عمومه؛ يعني في أنحاء يطول الكلام علىٰ تفصيلها في أوجه الترجيح عند خلاف المفسرين.

الصحابة رضوان الله عليهم هنا ننتقل إلىٰ **المرحلة الثانية** كونوا مدارس في التفسير، نُقلت هذه المدارس إلىٰ التابعين؛ يعني كل صحابي عنده طلاب نقله من التفسير علمهم التفسير، فتكون مدرسة ابن مسعود تمثل تفسير ابن مسعود.

مدرسة ابن عباس في مكة تمثل تفسر ابن عباس.

مدرس أبي وعلي في المدينة تمثل تفسير علي وأبيّ.

وهكذا نشأت في الأمور الاجتهادية في التفسير مدارس مختلفة لها مزايا.

فمثلا تجد أن الكوفيين من أصحاب ابن مسعود من التابعين ومن تبعهم تجد أنهم يرجحون بأسباب النزول، أو بتفسير القرآن بالقرآن؛ لأن ابن مسعود كان يعتني كثيرا بأسباب النزول، وكان يُقسم ويقول: والله ما من آية إلا وأنا أعلم متىٰ أنزلت وأين أنزلت وفيما أنزلت. هذا له وجه، فتنظر الآن في مدرسة أصحابها يرجحون أو ينظرون إلىٰ أسباب النزول؛ لأن صاحب التفسير الذي علمهم ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ علىٰ ذلك.

ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كان يفسر كثيرا بالاجتهاد باللغة، ونُقل عنه التفسير بأشعار العرب الشيء الكثير؛ لأنه كان يقول: القرآن نزل بلسان عربي مبين، والسنة التي نقل فيها التفسير أو التي فسر فيها القرآن قليلة، ولذلك لابد من الاجتهاد، فكان يجتهد، بأي شيء يجتهد؟ يجتهد بالنظر في اللغة، لهذا نجد مجموعة ابن عباس أو أصحاب ابن عباس مدرسة ابن عباس في التفسير يهتمون بالنظر اللغوي، ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان عالما باللغة حق العلم، كان عالما بأشعار العرب.

ولما فسر القرآن في صحن الكعبة يعني في صحن الحرم أتاه رجلان فقال أحدهما للآخر: قم بنا إلىٰ هذا الذي يجترئ علىٰ تفسير القرآن -يعني ابن عباس- نسأله عن مصادقه من لغة العرب. كيف يفسر بهذه التفاسير، نسأله عن مصادقه من لغة العرب.

فقاما ثم أتيا ابن عباس فقالا: إنا سائلوك عن بعض الآية علىٰ أن تخبرنا بمصادق ما تقول من كلام العرب؛ لأن القرآن أنزل بلسان عربي مبين.

فقال ابن عباس: سلا عما بدا لكما، فلما بدأ الكلام قالا: أخبرنا عن قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥ ﴾[المائدة] الآية في سورة المائدة، ما الوسيلة؟ فقال ابن عباس: الوسيلة الحاجة. يعني إذا كان لك حاجة لك طلب ابتغوها عند الله جل وعلا: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ وهي حاجات وطلبات المرء عند الله جل جلاله لا عند غيره فقالا له: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم ألم تسمعا إلىٰ قول عنترة:

إنّ الرجال لهم إليكِ وسيلة   أن يأخذوك تكحلي وتخضبي

لهم حاجة في الزواج استعدي تكحلي وتخضبي إلىٰ آخره من التزين.

قالا: فما معنىٰ قول الله جلّ وعلا: ﴿ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧ ﴾[المعارج]، ما العزون؟ فقال ابن عباس: العزون الجماعات في تفرقة. جماعة حِلق هنا وجماعة هنا وجماعة هنا. ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧ ﴾ يعني متجمعين، هنا مجموعة هنا مجموعة قال ابن عباس: العزون الجماعات في تفرقة.

فقالا له: يا ابن عباس وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم ألم تسمعا إلىٰ قول الشاعر:

فجاءوا يُهرعون إليه حتىٰ   يكونوا حول منبره عزينا

وهكذا في أسئلة تبلغ أربعين سؤالا يحفظها طلبة العلم.

إذا تبين ذلك فابن عباس هذه مدرسته في التفسير.

في المدينة نظرته في التفسير بما ينقل عن النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ وتفسير القرآن بالقرآن والاقتضاب في ذلك قدر الإمكان.

هذه النقولات بعد ونقلت حتىٰ تدونت في كتب التفسير، لما تدون ذلك في كتب التفسير صار عندنا نوعان من كتب التفسير:

النوع الأول من اعتمدوا في تفاسيرهم علىٰ الأثر، ينقلون بالإسناد حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، حدثنا الزهري ثم يكمل إلىٰ النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ أو إلىٰ الصحابي رضوان الله عليهم، هذا تفسير بالأثر؛ يعني اقتصوا في تفاسيرهم علىٰ إيراد الأسانيد دون ذكر أشياء.

فهذا بها يعلم طالب العلم ما نقل عن السلف من الصحابة والتابعين وتبع التابعين في التفسير، وهذه يمثلها «تفسير عبد الرزاق الصنعاني» و«تفسير الإمام أحمد» و«تفسير ابن أبي حاتم» و«تفسير ابن مَرْدُويه» و«تفسير ابن المنذر» و«تفسير ابن جرير الطبري» و«تفسير ابن كثير» وكثير من التفاسير علىٰ هذا الغرار.

من أثر مدرسة ابن عباس وهو الاجتهاد بالاستنباط والاجتهاد باللغة، نشأت مدرسة نشأت أيضا مدرسة في تفسير القرآن بالاجتهاد؛ يعني ينظرون فيه بالأوجه النحوية، ينظرون إليه في أوجه العربية، ينظرون ما دلت عليه العرب ويفسرون بذلك، هذا الاجتهاد والاستنباط لابد أن يكون اجتهادا واستنباطا صحيحا وهذا النوع الثاني من مدراس التفسير، وهي مدرسة التفسير بالاجتهاد والرأي؛ يعني بالاجتهاد والاستنباط، وهي كثيرة ابتدأت من القرن الأول ثم الثاني وثم كتب كثير للتفسير.

إذن الأصل الثالث من أصول التفسير أو **المقدمة الثالثة** أنْ يعلم طالب العلم أنواع التفاسير، لابد تعرف أنواع التفاسير، يعني تقرأ في هذا التفسير إذن هذا التفسير هل هو صحيح أم ليس بصحيح؟ مأمون أو ليس بمأمون؟ نقرأ أو لا نقرأ؟ هذا مبني علىٰ أن التفسير لا بد أن يحدد نوعه، ولهذا التفاسير كما ذكرت في الدنيا بلا عدد، تفاسير كثير ولكنها علىٰ قسمين:

القسم الأول: تفاسير بالأثر.

والقسم الثاني: التفاسير التي ورد فيها الاجتهاد والاستنباط.

طالب العلم أول ما يقرأ في تفسير الآية لابد له أن يهتم بالتفاسير بالأثر، فيعلم تفسير الآية بالقرآن، تفسير الآية بالسنة، تفسير الآية بكلام الصحابة رضوان الله عليهم تفاسير الصحابة؛ لأن هذا كما قلنا هو التفسير المأمون، إذا استنفذ ذلك ومضىٰ عله ورأىٰ ما في كتب التفسير بالأثر، فهنا له أن ينتقل إلىٰ كتب التفسير بالاجتهاد والاستنباط، كتب التفسير بالاجتهاد والاستنباط كثيرة جدا -كما ذكرنا- تتنوع في أربع مدراس ذكرناها لكم في محاضرة مضت، تفاسير في الاجتهاد اللغوي الاجتهاد الموسوعي وتفاسير ...

مدرسة التفسير بالرأي تنوعت إلىٰ أربع مدراس هذه الكتب موجودة:

أولا مدرسة تفسير بالرأي العقدية، تجد أن المفسر يفسر ويروم تقرير عقيدته، من خلال التفسير بالرأي، عقيدة المعتزلي مثل الزمخشري في «الكشّاف» وجماعات من الأشاعرة في تفاسيرهم مثل النسفي وأبي السعود والرازي فسّروا ليقرروا عقائدهم في التفسير، فتجد أنه ما من آية يمكن أن يستدل بها

في مسائل العقيدة أو فيها إشارة إلا ويقرر عقيدته، المعتزلي يقرر عقيدته، والرافضي يقرر عقيدته، والأشعري يقرر عقيدته، والإباضي يقرر عقيدته، من خلال التفسير، وهذه المدرسة كبيرة وحمىٰ الله جل وعلا هذه البلاد من كثير من كتب هذه المدرسة في التفسير، وهي مطبوعة موجودة.

النوع الثاني من المدارس مدرسة التفسير الفقهي، يعني بالرأي لكن يروم أن يفسر تفسيرا فقهيا لماذا؟ لأن المفسر همه الفقه، تجد أنه يفسر تفسيرا فقهيا، هذا همه، فقيه هو، فأراد أن يقرر الفقه، طبعا المفسر الذي له العناية بالفقه إذا أتت مسائل الأخرىٰ التفسير بالأثر، التفسير بالاجتهاد من جهة اللغة، ليس هو في منزلة المفسرين الأولين، فإذا عرفت أن هذا التفسير تفسير فقهي، فلاشك لا تعتمد عليه مائة في مائة مثل ما هو يمكن في التفسير اللغوي، أو الترجيح بين التفاسير عن السلف ونحو ذلك لأنهم التفاسير الفقهية مثل «إحكام القرآن لإلكيا» و«أحكام القرآن للقرطبي» وكثير من التفاسير.

المدرسة الثالثة من مدارس التفسير التفاسير اللغوية، وهذه قد تكون بلاغية وقد تكون نحوية مثل «البحر المحيط»، وقد تكون بلاغية مثل «الكشاف» و«أبي السعود» وغيره، وقد تكون من جهة الاشتقاق يعني يبين لك أصول الكلمة وارتباطاتها أو المفردات مثل «مفردات الراغب» وأشباه ذلك، مثل تفسير «ألفاظ الكتاب» للسمين الحلبي والزمخشري.

يعني أرادوا البحث اللغوي، تجد أن عند الآية يمكن يفصل لك صفحتين ثلاث في خلاف النحوي، هذا ما يحتاجه طالب العلم، يقول: أنا أقرأ في «البحر المحيط»، البحر المحيط ما يصل معه المبتدئ الذي يريد التفسير إلىٰ تفسير الآية، هذا للمتخصص وعنده علوم كثيرة حتىٰ يعلم مراد أبي الحيان الأندلسي في تفسير الآية، وكذلك التفاسير البلاغية والإعرابية ونحو ذلك.

النوع الأخير المدرسة التفسير بالرأي وهي مدرسة التفسير بالموسوعية التي فيها كل شيء: يأتي بالعقيدة ويأتي بالنحوية ويأتي باللغة ويأتي بالفقه ويأتي بالأثر فيها كل شيء وهذا ممثل تفسير الألوسي «روح المعاني»، وغيره من كتب التفسير.

المقصود من ذلك أن طالب العلم حتىٰ يطلب علم التفسير لابد يحدد المدرسة، مدرسة هذا المرجع، إذا حدد المدرسة استطاع أن يتعامل مع الكتاب علىٰ وجه الصواب، إذا لم يحدد المدرسة يقول أنا قرأت في التفسير الفلاني كذا، طيب هل يجعل هذا كل ما في كتب التفسير صحيح؟ لا، لابد أن يرتب درجات النظر في معرفة تفسير كلام الله العزيز جل جلاله.

إذا تبين هذا فمن أصول التفسير أيضا أن التفاسير -كما ذكرنا- كثيرة ومتعددة، وقد يكون في كثير منها خلل في العقيدة، أو خلل في أبواب التوحيد، أو خلل في أغلاط من حيث المنهج في تقديم أو تأخير تفسير الصحابة، ونحو ذلك أو عدم العناية بهذا.

فهذه تفيدك في معرفة أن المفسر كلّما كان أقعد بمعرفة العقيدة وأصول السلف كلما كان تفسيره أسلم وكلما كان ترجيحه أقوىٰ، لذلك تجد أن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله تعالىٰ في مدرستها في التفسير عندهما العلم الوافي الراسخ في التوحيد والاعتقاد وفي اللغة وفي معرفة أصول السلف وتفاسير السلف، فإن اجتهدا أو قررا فإنه تقرير مأمون علىٰ التفسير.

لذلك تجد أن العلماء المحققين أخذوا بتفاسيرهما وبترجيحهما في تفسير آيات كثيرة، تبعهما علىٰ ذلك الحافظ عماد الدين ابن كثير.

لهذا تجد أن علماء الدعوة رحمهم الله تعالىٰ والعلماء المعاصرون من أنصار التوحيد والملة تجد أنهم يوصون بتفسير ابن كثير؛ لأن تفسير ابن كثير جمع «تفسير ابن جرير» فنظر فيه ناقشه في مواضع كثيرة وغلّط ابن جرير في مواضع كثيرة، وأيضا نظر في التفسير علىٰ الأصول تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة وبأقوال الصحابة إلىٰ آخره كما بيننا في مقدمته، وفي الترجيح نظر إلىٰ أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية، وكان ذلك أمام عينيه وترجيحات شيخ الإسلام ابن تيمية ظاهرة في تفسير ابن كثير.

مثلا عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾﴾[الكهف]، يعني علىٰ قبرهم نتخذ مسجدا، من هم الذين غلبوا علىٰ أمرهم؟ في التفسير قال: المسلمين يعني الذين كانوا مسلمين في وقت أصحاب الكهف. وقال آخرون: لا، ليسوا بالمسلمين إنما هم المشركون؛ لأن اتخاذ المساجد علىٰ القبور والبناء عليها، هذا مما نهت عنه الرسل، فلا يمكن لأن يكون أولئك من المسلمين.

فجاء ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: والصحيح أن الذين غلبوا علىٰ أمرهم هو الكبراء وأهل النفوذ. يعني الولاة الحكام رأوهم صالحين هم الذين غلبوا...

...في التفسير يتبع صحة العقيدة ويتبع صحة التفسير اللغوي، فتلحظ أنه متفق مع أصول الدين مع أصول الإسلام وأصول التوحيد، ومتفق مع التحليل اللغوي، وهذا من مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهم الله تعالىٰ.

شيخ الإسلام تكلم في مجلد أو مجلدين -طبعت مؤخرا- في تفسير آيات أشكلت حتىٰ لا تكاد تجد في كتاب من كتب التفسير القول الصواب فيها، تكلم عليها شيخ الإسلام في مجلدين، في تفسير أشكلت -هذا عنوان الكتاب- «تفسير آيات أشكلت حتىٰ لا تكاد تجد في تفسيرٍ القول الصواب فيها». وهذا لاشك نظرة فيها العلم والمعرفة.

من **المقدمات المهمة في علم التفسير** أن يرتّب طالب العلم نظره في التفسير بترتيب منهجي، وهذا سبق أن ذكرناه مفصلا في أظن كلمة أو محاضرة بعنوان المنهجية في قراءة كتب التفسير (**الكيفية في دراسة التفسير**) هذه مهمة لطالب العلم أن يسمع ذلك، فيه ترتيب مطول تبدأ بأيش حتىٰ تفهم التفسير، بأي الكتب، وكيف تحفظ لترقىٰ في ذلك، فيرجع إليها.

فإذن من المقدمات المهمة في دراسة التفسير أن يرتب طالب العلم -ليس الذي يريد تفسير الآية- الذي يريد أن يكون عنده معرفة بتفسير كلام الله جل وعلا أن يرتبه علىٰ منهجية وعلىٰ خطوات محددة لابد أن تكون واحدة تلوىٰ الأخرىٰ.

بعد هذه المقدمات نأتي إلىٰ أصول عامة في التفسير.

أولا: الرأي في التفسير محرم، فقد جاء في الحديث «**من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**»، وجاء «**من فسر القرآن برأيه فقد أخطأ ولو أصاب**».

قال أهل العلم: الحديث الأول محمول علىٰ من فسر القرآن بهوىٰ، له هوىٰ في أن يجعل الآية كذا،

فمن فسر القرآن برأيه وبدعته المذمومة ليجعل القرآن ناصرا لبدعته المذمومة فإنه متوعد بأن يتبوأ مقعده من النار؛ لأن ذلك قوله علىٰ الله بلا علم، فالله جل وعلا قرن القول عليه بلا علم بالشرك والعياذ بالله.

الحديث الثاني «**من فسر القرآن برأيه فقد أخطأ وإن أصاب**» حتىٰ ولو أصاب قد أخطأ ويأثم؛ لأنه تجرّأ علىٰ تفسير القرآن دون ملكة، مثل يقول الآن البعض الخطيب مثلا أو محاضر، لا يعلم تفسير الآية وليس عنده ملكة في التفسير فيجتهد فيها من ساعته، وهو لا يعلم تفسير الآية ولا يعلم كلام أهل العلم فيها، وليس عنده معرفة أسرار بالعقيدة واللغة حتىٰ يمكن أن يكون اجتهاده علىٰ وجه صواب.

فلهذا هنا (**من فسر القرآن برأيه**) يعني الذي نشأ عن جهل بأدوات التفسير فإنه أخطأ ولو أصاب، حتىٰ ولو وافق قوله الصواب مثلا راجع كتب التفسير فوجد ذاك القول؛ لكن حين تكلمت هل تكلمت بعلم أو برأيك؟ تكلمت برأي لا بعلم فهذا هو الذي جاء فه الحديث القول (**أخطأ وإن أصاب**) لأنه فسره برأيه لم يفسره بحجة وإنما برأيه المجرد.

فإذن يجتنب طالب العلم -وهذه من المقدمات- أن يجتنب التفسير القرآن بالرأي الذي ليس ناتجا عن علم، لأنه من فسر القرآن مع كونه يأثم وأنه وإن أصاب فهو مخطئ، فكيف إذا أخطأ؛ لكنه يحرم بركة التفسير، ولا يعلم التفسير لأنه يتجرأ، وكلام الله جل وعلا لابد أن تأخذ القلوب هيبة من بيان معانيه إلا بعلم وحجة، هذا كلام من؟ كلام الله جل جلاله وتقدست أسماؤه وصفاته.

فإذن من المقدمات المهمة أن يسعىٰ طالب العلم في معرفة التفسير علىٰ ما قاله أئمة التفسير، أن يعرف ما أجمع فيه من التفاسير والخلاف علىٰ ما ذكرنا من التفصيل المقتضب، ثم بعد ذلك يمكنه أن يتهيأ له، بعد دراسته وطلبه لعلم التفسير أن يتكلم في التفسير بعد معرفة كلام أهل العلم.

من المقدمات المتصلة بذلك أن التفسير ليس مجال إصلاح للنفوس بالجهل، هو مجال للإصلاح النفوس بالعلم، لأن القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩]، فإذا فسّر القرآن عالم فإنه يهدي به النفوس والقلوب لأن القرآن كتاب هداية؛ لكن يأتي كل أحد خاصة من الشباب مثلا في جلسات الذين يقرؤون القرآن يقول: والله الذي يظهر أي من الآية، أو يجتهد في أمور عاطفية أو دعوية ويستخرجها من القرآن، هذا باب ضلال، ومن تجرأ علىٰ ذلك فقد تجرأ علىٰ أمر عظيم، أن يكون مرتكبا لإثم عظيم، فليس القرآن بالرأي وتجارب ونظر، هذا الذي يظهر لي من الآية كذا، والآخر يقول الذي يظهر كذا، وهذا يطبق معلومة نحوية عنده ضعيفة يطبقها في التفسير، يأخذ من الكلام الذي يدل علىٰ عدم الهيبة من كلام الله جل وعلا، هذا كلام من؟ كلام الله ﷻ، إذا كان الناس -ولله جل وعلا المثل في الأعلىٰ- إذا كان الناس لا يفسر بعضهم، لا يرضىٰ بعضهم أن يفسر الآخر كلامه علىٰ غير وجه الصواب؟ فكيف يجترئ أحدنا علىٰ تفسير كلام الله جل وعلا بخواطر كما يسميها خواطر دعوية أو خواطر إصلاحية أو نحو ذلك مما يكون، مما ليس له مرجع وتأصيل جيد في معرفة التفسير.

فإذن التفسير صعب وليس بسهل، ولهذا قال قائل من أهل العلم: العلوم ثلاثة منها ما لم ينضج ولم يحترق وهو التفسير. قال: العلوم ثلاثة علم نضج واحترق، وعلم نضج ولم يحترق، وعلم لم ينضج ولم

ينضج ولم يحترق وهو التفسير.

ليس معنىٰ ذلك أننا نجتهد كل واحد يتكلم بما يظهر له؟ لا؛ لكن كلام أهل العلم، فإذا أتىٰ العالم والعارف بالتفسير فإنه يتكلم كلاما حسنا علىٰ ما تعلم تفسير الآية.

لهذا نقول إصلاح الناس إنما هو بالقرآن، إصلاح الناس إنما هو التفسير، إصلاح الناس ببيان معاني الكتاب والسنة، فإذا نظر الناظر -طالب العلم- في المعاني ونظر في التفسير وكان عنده دُربة في ذلك، وراجع التفسير فإنه يمكن لطالب علم أنه يدعو الناس بعلم وبتفسير الآي تفسيرا صحيحا، وهذا اليوم أدعىٰ قبول كلامه وإلىٰ النظر إلىٰ كلامه.

كما ذكرت لك هذه كلمات موجزة تناسب هذا المقام المختصر، وإلا فإن أصول التفسير ومعرفة علوم التفسير هذا أمر عظيم وطويل، ويحتاج إلىٰ محاضرات ومحاضرات كثيرة ودروس متنوعة.

وأسأل الله جل وعلا هذا القليل فاتح خير لسامعه وللمتكلم به، وأن يجعلنا وإياكم من الهداة المهتدين، وأن يوفقنا إلىٰ أن نجعل القرآن حجة لنا لا حجة علينا، وأن يعلمنا منه ما جهلنا، وأن يذكرنا ما نُسِّينا، إنه سبحانه جواد كريم.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الأسئلة]

سؤال (١):أحيانا في بعض الكتب حينما يذكرون مراجع تفسير الصحابة والتابعين يذكرون تفسير القرآن بالقرآن ثم بالسنة ثم تفسير القرآن بالاجتهاد والاستنباط ويقصدون بذلك اللغة العربية فهل هٰذا التعبير الصحيح، لأن الإشكال هو أن الاجتهاد شامل لجميع مراجع التفسير السابقة، فالصحابي يجتهد في تفسير القرآن بالقرآن، ويجتهد في تفسير القرآن بالسنة أفيدونا؟

الجواب: الحمد لله.

هذه المسألة من حيث التنظير ربما تشكل؛ لكن من حيث التطبيق لا إشكال فيها، فالذي يعاني التفسير لا يجد فرقا بين أن يقبل تفاسير الصحابة وبين التفسير بالاجتهاد والاستنباط.

لأننا نقول: ما جاء التفسير فيه تفسير القرآن بالقرآن فإنه هو الحجة، ما جاء التفسير القرآن بالسنة فهو الحجة، تفسير القرآن بأقوال الصحابة رضوان الله عليهم فهو الحجة، أحيانا يكون تفسير القرآن بالقرآن تفسيرا مجملا ببعض البيان، تارة يكون تفسير الصحابي أيضا يحتاج إلىٰ اجتهاد حتىٰ يتّضح.

فإذن التفسير بالاجتهاد والاستنباط مقبول؛ لكن لا يعارض به تفاسير المتقدمين، إذا كان يعارض تفاسير الصحابة فإنه لا يقبل؛ لأنه لا وجه له.

وكما قلنا: التفسير لا يمكن أن يحجب علىٰ الصحابة ويدركه من بعدهم، فإذا أتىٰ المجتهد واجتهد فإن اجتهاده يكون محمولا علىٰ أقوال الصحابة، يعني لا نجعل الاجتهاد صوابا حتىٰ يكون غير معارض للكتاب والسنة وتفاسير الصحابة، فإن كان معارضا يعني مخالفا فإنه لا يقبل ذلك.

طبعا الاجتهاد في التفسير له شروط، له شروط سبعة عند العلماء، صعبة ليس كل أحد يدرك ذلك.

سؤال (٢): هل الاستشهاد علىٰ حادثة دون علم بتفسير الآية يعتبر تفسيرا لها وهل يأثم من قال ذلك؟

الجواب: الاستشهاد بالآية في حادثة له حالان:

الحال الأولىٰ: أن يجعل الآية في معرض كلامه وهو يتكلّم، فيجعل القرآن مستشهدًا به أو يضمِّنه كلامه، وهٰذا فيه مناسبة ظاهرة.

مثل: يأتي يعطي أحدا كتابا ويقول: ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾[مريم:١٢].

مثلا: جاء واحد اسمه موسىٰ قال: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[طه].

ومجموعة دخلوا، قال: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾[يوسف:٦٧]، ونحو ذلك.

فهذا مما نهىٰ عنه العلماء؛ لأنه إنزال للقرآن في غير ما أُنزل له، إلا في حالة واحدة التي يسمونها تضمين القرآن أو الاستشهاد به في الكلام أو يسمىٰ الاقتباس أو نحو ذلك.

أما إذا كانت فيما أنزل فيه القرآن فإنه لا بأس به،

الحال الثانية: أن يستشهد بالقرآن فيما معناه ظاهر، يعني مثلا يوصي بالتقوىٰ فيستدل بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾[النساء:١]، يوصي بالإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦]، يوصي بالصلاة فيقول: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني بما معناه ظاهر لا يحتاج إلىٰ نظر فإنه له أن يستشهد

بذلك لظهور معناه، وعدم خفاه، ذكرنا حالتين.

سؤال (٣): ما هي الشروط التي يجب أن تتوفر فيمن يفسر كلام الله عز وجل إذا كان هو من أهل السنة والجماعة؟

الجواب: ذكر العلماء شروطا لذلك:

الأول: أن يكون عالما بالقرآن حافظا للقرآن؛ لأن القرآن يفسر بالقرآن، إذا غير حافظ لكتاب الله جل وعلا عن ظهر قلب فإنه قد يفوته تفسير الآية بآية أخرىٰ.

أن يكون يعلم -وهذا من جهة التفضيل لا الاشتراط- القراءات سواء السبع أو العشر أو أكثر من ذلك مما صح من القراءات؛ لأن التفسير يحتاج فيه المفسر إلىٰ تفسير القراءة بقراءة أخرىٰ مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾[البقرة:٢٢٢]، قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾، في القراءة الأخرىٰ قال جل وعلا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطَّهَّرْنَ﴾ صار معنىٰ ﴿يَطْهُرْنَ﴾ يتطهَّرن؛ يعني الطهارة الكاملة، الطهارة من الحيض وطهارةٌ بالاغتسال، فتُفسر القراءة بالقراءة.

بعض الناس لا يكون عنده علم أو يجترئ علىٰ القراءات فيأتي بقراءة شاذة أصلا لا تصح، مثل التي سمعناها من بعض خطباء الجمعة أو المحاضرين هذا جهل ببعض أحواله.

مثلا يأتي بقوله: وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا [(١)] يعني جعلنا مترفيها أمراء، المقصود أمّرنا كما في القراءة كما في القراءة الأخرىٰ، هذه ما فيه قراءة صحيحة، هي ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾[الإسراء:١٦]. يعني أمرنا مترفيها بالهدىٰ والتقىٰ فلم يطيعوا الرسل؛ بل فسقوا فيها فحق عليه القول فدمرناها تدميرا.

المفسر يشترط فيه أن يكون حافظا لكتاب الله جل وعلا ويُفضَّل فيه أن يكون عالما بالقراءات؛ لأن بعض القراءات تفسِّر بعضا.

الشرط الثاني أن يكون عالما بالسنة، ونعني بالسنة التي فيها تفسير القرآن الكريم، فيعلم معاني تفسير القرآن بما جاء في السنة يحصر ذلك، يعلمه، ويعلم سنة النبي عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ومعرفة الصحيح من غيره؛ لأن ذلك يؤهله لمعرفة ما صحَّ من التفسير بالسنة مما لم يصح.

الثالث أن يكون عنده علم بأصول الفقه يعني بأسباب النزول، بالناسخ والمنسوخ، بمعنىٰ المطلق والمقيد، بمعنىٰ العام والخاص، بمعنىٰ المجمل والمبين، بدِلالات الألفاظ، إذا كان عنده علم بأصول الفقه.

أصول الفقه أيش معناها؟ يعني وجه الدلالة من الآية علىٰ المعنىٰ، هذا من أصول الفقه، هي قوانين يستنبط بها العالم الحكم من الدليل، الاستنباط هذا يكون علىٰ قاعدة، لابد أن يكون عنده علم بهذه القواعد التي يحصّل بها الاستنباط.

مثل مثلا أن يقدم في الكلام الحقيقة الشرعية، ثم الحقيقة العرفية، ثم الحقيقة اللغوية، إذا أتىٰ... هذا

---

(١) ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾[الإسراء:١٦].

من أصول الفقه، نقدم الحقيقية الشرعية ثم بعدها الحقيقة العرفية ثم بعدها الحقيقة اللغوية، هذه تفيد المفسر في كثير من الآيات التي أشكلت أو صار فيها خلاف بين المفسرين.

المقصود علمه بأصول الفقه وأصول الاستنباط يحتاجه في الاجتهاد في التفسير.

الرابع أن يكون عالما بكلام السلف في التوحيد والعقيدة حتىٰ لا يفسر القرآن بتفاسير الخلف التي فيها بدع ومحدثات، إذا أتىٰ إلىٰ الأمور الغيبية يعلم أصول السلف في تفسر الغيبيات، إذا أتىٰ إلىٰ ذكر أمور التوحيد وصفات الله جل وعلا يفسرها بما فسره به السلف ما يجتهد فيخالف السلف في ذلك.

الشرط الخامس أن يكون عالما بلغة العرب؛ لأن اللغة هي ميدان؛ لأن القرآن أنزل بلسان عربي، واللغة هي ميدان الفهم، هي الوسيلة، الألفاظ وعاء والمعاني في هذا الوعاء كيف تفهم المعاني إلا إذا فهمت دلالات الألفاظ علىٰ المعاني، لذلك لابد أن يكون عالما باللغة فإنه باللغة يشمل أن يكون عالما باللغة نحوها وفي مفرداتها في تراكيبها، أما البلاغة فلا تشترط لأنها أمر خارج عن ما يفهم به إلا إذا قيل في علم المعاني من علوم البلاغة فإن لاشتراطه وجها.

علم اللغة أيش نعني به؟ لا نعني يعلم النحو في كل مسألة، أو يعلم هٰذه المفردة بنفسه، قد يكون يعلمها بنفسه أو بالقوة القريبة؛ يعني يستطيع يراجع، يراجع المفردة، عنده كتب اللغة، عنده المعاجم، عنده كتب النحو عنده ما يستعين به علىٰ ذلك، عنده ملكة ويستطيع أن يستعين بذلك بالقوة القريبة.

الشرط الأخير في ذلك أن يكون في تفسيره مراعيًا مواقع الإجماع والخلاف؛ لا يأتي هكذا لا يعرف الذي أجمع عليه من الذي اختلف فيه؛ لأنه قد يخالف الإجماع في مسائل.

سؤال (٤): أكثر من سؤال حول أحسن كتب التفسير الفقهية من حيث كثرة المسائل والتأصيل والبحث الفقهي ونحو ذلك؟

الجواب: التفاسير الفقهية كثيرة، ومن أوسعها كتاب القرطبي «أحكام القرآن المبين عن معاني آي الفرقان»، وهذا الكتاب من جهة الفقه فيه سعة، فيه فوائد كثيرة، فيه مسائل فقهية نادرة وبحثها بحثا جيدا.

ولكن الأصول للبحث فيه يحتاج إلىٰ معرفة بالكتاب كله.

والحمد لله في الفترة الأخيرة طلع تفسير فألحق من لم يقرأ الكتاب بمن قرأ الكتاب.

فيه بحوث جميلة في الكتاب؛ لكن كتاب القرطبي لكن فيه عيب وهو أنه نحا منحىٰ المتكلِّمين في العقيدة، ففي العقيدة يقرر منهج المتكلمين الأشاعرة، وهذا من العيوب الكبيرة في ذلك، فإذن المسائل الفقهية بحثه حسن.

من الكتب أيضا «أحكام القرآن لابن العربي المالكي» لكن في ضعف وعدم استيعاب، وفيه أيضا فوائد كثيرة.

ومنها أيضا «أحكام القرآن لإلكيا الهراس الشافعي» فيه أيضا بحوث جيدة مؤصلة.

ومن الكتب المعاصرة كتاب الشيخ محمد الأمين الشنقيطي «أضواء البيان»، فإنه من الكتب التي اعتنىٰ فيها بذكر الأحكام الفقهية؛ لكن ليس عند كل آية فيها حكم فقهي؛ لكن ما اشتمل عليه كتابه من

تفسير آيات فيها الحكم الفقهي ظاهر بيِّن، يعني آية في الصلاة، في الزكاة، في الرهان، في الربا، في الحج ونحو ذلك، أما إذا في إشارة والحكم الفقهي فيه خفاء فإنه لا يتعرَّض لذلك.

سؤال (٥): أكثر من سائل أيضا يسأل حول أنكم أشرتم في محاضرة سابقة إلىٰ أن من أحسن التفاسير كتاب «زبدة التفسير» وأيهما أفضل هو أو «تفسير السعدي» الذي وضع في طبعة في مجلد واحد؟

الجواب: «تفسير الشيخ عبد الرَّحمٰن السعدي» ننصح به، لأن فيه من الفوائد في تقرير التوحيد والعقيدة فوائد عظيمة جدا؛ لكن الشيخ عبد الرَّحمٰن السعدي قد لا يذكر الكلمة ومعناها، يأتي للتفسير الإجمالي مع ذكر الفوائد.

وتفسير الشيخ عبد الرَّحمٰن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستفيد منه العالم وطالب العلم أكثر، فيه كلمات قد ما يدركها طالب العلم المبتدئ.

كتاب «زبدة التفسير» اختصر فيه المؤلف وهو الأشقر «كتاب الشوكاني» في اختصار لطيف، وفي الجملة فيه ثم ملاحظات يسيرة عليه في بعض المواطن؛ لكن في الجملة ليس فيه خليل في الاعتقاد خاصة في أمور الصفات والغيبيات والإيمان ونحو ذلك، فهو من الكتب الحسنة جدا.

والمواضع المشكلة في تفسير الشوكاني تجتنبها، مثل مثلا كلام الشوكاني عن خَلق القرآن وعدم حسن كلامه فيه، وتوقفه في المسألة، هو اجتنب هذا، ولم يتعرض له. الخلاف في آيات الصفات تقريرها غير واضح، وهو يقرِّرها بوضوح، والله أعلم.

سؤال (٦): ما هي أفضل كتب التفسير بالرأي التي نهجت منهج أهل السنة والجماعة؟

الجواب: الكتاب هذا الذي ذكرت لكم، كتاب «زبدة التفسير»، «نفحة العبير» مختصرة، و«زبدة التفسير» أكبر، و«فتح القدير للشوكاني» و«كتاب الشنقيطي» أيضا طيب في هذا الباب.

سؤال (٧): إذا بدأ طالب العلم في دراسة أصول التفسير، ما هي أفضل المتون التي يحفظها ويبدأ بها وأفضل الشروح لهٰذه المتون؟

الجواب: لا أعلم كتاب جيد كمتن يفي بحاجة طالب العلم في أصول التفسير.

شيخ الإسلام كتب «مقدمة في أصول التفسير»؛ لكن ما شملت كل مباحث الأصول.

الشيخ عبد الرَّحمٰن بن قاسم له أيضا «مقدمة في أصول التفسير» وشرحها هو أيضا بحاشية، وبالمناسبة ننبه إلىٰ أن الناس يظنون أن حاشية الشيخ عبد الرَّحمٰن علىٰ أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية، لا، أصول التفسير هو الذي وضعها وعمل لها حاشية لما وضعه هو، المتن له فيما يظهر والحاشية له.

ما أعلم كتابا فيه ذكر لأصول التفسير جيدة؛ لكن يستعين طالب العلم بكتب علوم القرآن مثل «البرهان» و«الإتقان» و«مناهل العرفان» وأشباه ذلك، ويتجنب مواضع الخلل في العقيدة.

سؤال (٨): أئمة الدعوة السلفية هل لهم عناية بالتفسير وما هي أبرز الكتب التي جاءت منهم؟

الجواب: أئمة الدعوة الإسلامية السلفية ابتداءً من الإمام المصلح المجدد شيخ الإسلام والمسلمين محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ وجزاه الله عنا وعن جميع الموحدين خير الجزاء أدخلوا إلىٰ نجد

الاهتمام بالتفسير.

نجد ما كانت تعرف التفسير ولا الاهتمام به، فالشيخ محمد الإمام المجدد رحمه الله كانت له العناية بالتفسير وله مشايخه بذلك، ولهذا ترىٰ أنه في تفاسيره في مجموع رسائل الشيخ ثم أربع مجلدات في ذكر تفاسير الشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشيخ محمد في التفسير فسَّر بما يحتاجه في الدعوة، فسر سورة الفاتحة للإمام عبد العزيز بن محمد لما ناهز الاحتلام، قال: ولما ناهز عبد العزيز بن الإمام محمد بن سعود الاحتلام يعني وصل ١٥ سنة تقريبا فسر له سور الفاتحة. وهي التي طُبعت أخيرا بعنوان «تفسير سورة الفاتحة».

أيضا فسر آيات كثيرة وذكر قواعد كثيرة للتفسير في القرآن جُمعت في مجلدات فسر سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ إلىٰ آخره.

أئمة الدعوة فسّروا القرآن لغرض بيان التوحيد والعقيدة الصحيحة، وبيان ما يضاده، فسروا القرآن بذلك، لم؟ لأن منهج أئمة الدعوة في التأليف أصلا هم لا يرون كثيرة التأليف، يرون أن الأمة ليست بحاجة لتفرغ العلماء للتأليف، وإنما هم بحاجة ليستفيدوا من كلام أئمة أهل العلم السابقين مما ألفوه في التفسير أو في أي علم من العلوم، وأن ينشروا في الناس الدعوة، لأن التأليف يأخذ وقت ويحتاج إلىٰ انقطاع، والناس في نجد وما حولها في ذلك الوقت بحاجة شديدة له للدعوة أشد من حاجتهم أن يقال: فلان من العلماء شرح البخاري أو ألف تفسير، لأن العمر محدود وهذه تتطلب انقطاع وأعمار طويلة فهم تفرغوا لما المصلحة فيه أعظم والثواب فيه أكثر والحاجة إليه أمسّ، ومعلوم أن المرء يجب أن يُؤثِر الواجب الشرعي علىٰ ما تهواه نفسه، ومع ذلك فقد أُثر عنه في التفسير أشياء كثيرة؛ لكن لم يتفرغ أحد منهم لتفسير القرآن من أوله إلىٰ آخره.

سؤال (٩): كيف تكون دراسة الإسناد علىٰ طريقة أهل التفسير، وهل هناك فريق بينها وبين طريقة المحدثين؟

الجواب: هذه ملاحظة جيدة من السائل أن يلاحظ هذا في كلامي، نعم هناك فرق وبسطه لأهل الاختصاص، ولعل السائل إذا كان عنده اهتمام خاص بالرجال وبطبقات الرواة، وبالاختصاص بالفرق بين كتب التفسير وكتب الحديث، عنده هذا الاهتمام أن يراجعني إن شاء الله ونجلس جلسة نبين له الفروق الكثيرة في ذلك.

سؤال (١٠): لقد وعدتم بإخراج كتاب في معاني ألفاظ الصلاة من التكبير إلىٰ التسليم، وطال انتظارنا لهٰذا الكتاب؟

الجواب: نسأل الله جل وعلا الإعانة والتيسير.

سؤال (١١): أكثر من سائل يسأل عن جهود الوزارة في إخراج تفسير جامع شامل للقرآن الكريم، وأيضا عن تكليف الأئمة بتفسير كتاب الله عز وجل سواء تفاسير ميسرة أو حتىٰ النقص الذي نلاحظه في الدروس العلمية والمدن والقرىٰ وغيرها في تخصيص دروس في تفسير القرآن الكريم.

الجواب: الوزارة لاشك أنها تأخذ علىٰ عاتقها واجب الدعوة إلىٰ الله جل وعلا، وواجب إصلاح

الناس.

وإصلاح الناس لا يكون إلا بالطريقة السلفية الصحيحة من التأثير علىٰ الناس بكتاب الله جل وعلا وبسنة رسوله ﷺ، وبيان معاني ذلك للناس.

ولهذا أرشدنا الأئمة وبلَّغناهم في خطابات كثيرة بأن يقرؤوا علىٰ الناس ما افتقدوه، أن يقرؤوا علىٰ الناس في «تفسير ابن كثير» أو يقرؤوا علىٰ الناس «كتاب التوحيد» وشروحه «قرة عيون الموحدين»، «ثلاثة الأصول» وبلغ الأئمة بذلك، لكن لا أدري هل الأئمة أئمة المساجد هل استجابوا أم لا؟

في الحقيقة أنهم ينبغي لهم أن يستجيبوا في مثل هذه المسائل فإنه ناتج عن دراسة ومعرفة، يعني مسجد ما يقرأ فيه التفسير كان أئمتنا وعلماءنا رحمهم الله وآخرهم الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كل يوم يقرأ التفسير ما بين الأذان إلىٰ الإقامة، يقرأ «تفسير ابن جرير» كذا مرة، «ابن كثير» قرئ مرات، يستفيدون، وخير لهم من أن لا يأتوا إلىٰ المسجد متأخرين.

فإذا كان التفسير يقرأ عليهم لاشك ترىٰ العامي يتقبله بقبول حسن؛ لأن لغة تفسير ابن كثير وابن جرير سهلة واضحة، وخاصة ابن كثير سهلة واضحة، يوجد أشياء وإسرائيليات وأخبار وتطول لكنها لا تمنع عن تلقي معرفة التفسير.

فمثل هذا ينبغي أن يعتني به الأئمة، يقرؤوا، يخصصوا من وقته أو بين الأذان والإقامة أن يقرأ في ذلك لعله أن ينتفع بذلك إن شاء الله تعالىٰ، ينتفع الإمام بإمرار التفسير وينتفع المستمع.

أما تخصيص كتاب في ذلك، برنامج الوزارة في نشر الدروس العلمية فيه برنامج كبير إلىٰ الآن ما اتخذت خطواته النهائية في إقراء الدروس في المساجد جميعا وترتيب ذلك في القرىٰ والهجر والمحافظات والمدن لكنه مشروع كبير يحتاج إلىٰ بعض الوقت الزائد لترتيب أوراقه وإنفاذه إن شاء الله تعالىٰ.

بالنسبة للتفسير ما شرعت الوزارة في تفسير مطول للقرآن لأن التفاسير ولله الحمد موجودة. نعم

اللهم صل وسلم علىٰ عبدك محمد.

الكيفية في دراسة التفسير

الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد لأن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدين.

فأسأل الله جل وعلا لي ولكم العلم النافع والعمل الصالح والقلب الخاشع والدعاء المسموع.

وأسأله سبحانه أن يُقِرّ العلم في قلوبنا، وأن ينور به بصائرنا، وأن يجعلنا ممن إذا علم عمل وإذا عَمل عمل علىٰ الصواب.

اللّٰهمَّ اجعل قلوبنا مخبتةً إليك، واجعل جوارحنا سائرة علىٰ سنة نبيك ﷺ.

أما بعد..

فكما هي العادة في إقبالة فصل من الفصول وابتداء الدروس في الفصل نبتدئ بمقدمة تتعلق بالعلم؛ بل هي في العلم ذاته يستفيد منها الحاضر والسامع.

ومن العلوم المهمة لطالب العلم جدًّا؛ بل هو أصل العلوم: **علم معرفة معاني كلام الله جل وعلا** الذي هو **علم التفسير**، وطالب العلم لا يسوغ أن يكون مقصرا في علم التفسير؛ لأن علم التفسير إليه ترجع جميع العلوم.

فأنت ترىٰ في تفسير القرآن العقيدة في التوحيد بأنواعه الثلاثة، وفي الإيمان بالملائكة والرسل والكتب واليوم الآخر والقدر، وجميع مباحث الاعتقاد تجدها علىٰ التفصيل والإجمال في كتاب الله جل وعلا.

فالعناية بفهم معاني القرآن معناه العناية بهذا العلم بعلم العقيدة.

وكذلك آيات أخر كثيرة هي في الأحكام الفقهية في الحلال والحرام ومعرفة معانيها ومنزع الاستدلال منها علىٰ ما اشتملت عليه من أحكام هذا يحتاجه طالب العلم جدا، فالذي عنده الحجة من كلام الله جل وعلا لاشك أقوىٰ ما يُحتج به كلام الله جل جلاله بما بينته السنة وفهمه السلف الصالح.

كذلك مباحث أصول الفقه تجدها أو تجد أصولها؛ أصول القواعد الشرعية تجدها في التفسير.

وكذلك القصص قصص الأنبياء، والتاريخ الصحيح الذي لا يخضع لنقل فمضنون هو في القرآن، وكل قدر من التاريخ للأمم السالفة زائدا علىٰ ما دلّ عليه القرآن أو دلت عليه السنة الصحيحة فإنه مظنون غير محقَّق، فإذا فهمت الآيات التي فيها ذكر الأولين من قصة آدم عليه السلام؛ بل ما قبل ذلك من قصة خلق السَّمٰوات والأرض وما تَلا ذلك إلىٰ بعثة محمد ﷺ بل والسيرة مع ذلك وجدت في كلام الصحابة علىٰ ذلك ما هو داخل في العلم الصحيح بالتاريخ، وما عداه فإنه مظنون، يقبل الصحة ويقبل الرّد.

كذلك إذا أتيت إلىٰ ما يتعلّق بعلوم الغيبيات جميعا، العلوم الفلكية، أو ما يسمىٰ عند كثير من المتأخرين علم الهيئة؛ يعني هيئة الأفلاك الأبراج، تنقلاتها، تحركات القمر في منازله، وتحركات الشمس وحركة الأرض إلىٰ آخر ذلك، هذا تجد أنهم بنوا كثيرا مما قالوه علىٰ نظريات مجردة، وسواء في ذلك النظريات اليونانية القديمة، أم النظريات الفلسفية التي نشأت في الإسلام، أم ما بعد ذلك إلىٰ يومنا هذا وكل هذا راجع إلىٰ الظن وإلىٰ رؤية ظنية في مقدماتها، وبالتالي رؤية ظنية في نتائجها.

أما ما في القرآن فهو الحق المطلق؛ لأنه الله جل وعلا هو الذي أخبر به، فمن علم معاني الآيات في ذلك بما فسّره السلف الصالح من دلالة الآيات وما فهموه من ذلك فإن هذا هو الحق المطلق في هذا، إذْ لا يمكن أن يجمعوا علىٰ شيء في معاني كلام الله مخالف للصواب.

كذلك ما يتعلّق بالعلوم الحياتية، العلوم الدنيوية، ما يتعلق بطبقات الأرض الجيولوجيا، أو الزراعة، أو ما يتصل بنوعية ما في البحار، أو طبقات الأرض، أو ما أشبه ذلك، ففي كلام الله جل وعلا أصول من لزمها سَلِمَ في مضايق الأنظار في مثل هذه المسائل.

وهكذا في العلوم علوم اللغة العربية فإنّ من علم التفسير أدرك العربية نحوًا وأدركها من جهة المفردات وأدركها من جهة الأسلوب والأدب.

وكذلك العلوم الأخر -علوم العربية الأخر- مثل الصرف والاشتقاق إلىٰ آخره.

علم السنة به يُعرف معاني القرآن، فالقرآن العظيم حجة الله علىٰ العالمين، والسنة بين له، فالدالّ هو الله جل وعلا، والدليل هو الرسول ﷺ، والمدلول عليه هو كلام الله جل وعلا وسنة المصطفىٰ ﷺ، ولهذا أجمع أهل السنة أن السنة مفسرة للقرآن ومبينة لمعانيه، فالحديث راجع إلىٰ بيان القرآن العظيم، علوم السنة بلا علم القرآن والتفسير يساء فهمها.

فإذا جمع طالب العلم بين معرفة الحديث ومعرفة التفسير وما قاله أئمة السلف وقاله أئمة أهل العلم في فهم معاني كلام الله جل وعلا أصبح سائرا علىٰ مدارج طلب العلم الصحيح، بخلاف من يدرك هذا تفسيرا بلا سنة أو سنة بلا تفسير، تجد أن الخلل والنقص ظاهر في تصوره للعلم وللديانة وللقواعد الشرعية للفتوىٰ إلىٰ آخر ذلك.

فإذن الحاصل من هذا أنّ علم التفسير فيه كل العلوم، ولهذا نزع كل أصحاب فن من الفنون لتقرير فنهم إلىٰ التفسير؛ بل نزع أصحاب الملل المختلفة أو الفرق المختلفة في هذه الأمة إلىٰ التفسير لتقرير مذاهبهم، فللمعتزلة تفاسير، وللرافضة تفاسير، وللجهمية تفاسير، وللخوارج تفاسير، وهكذا في سائر الفرق كالأشاعرة والماتريدية، مع أنهم أقرب إلىٰ السنة إلىٰ الفرق السالفة التي ذكرنا؛ لكن لهم تفاسير ملؤوها بتقرير عقائدهم البدعية.

كذلك أهل الفقه تجد أنهم كتبوا في التفسير لتقرير مذاهبهم الفقهية، منهم من نزع إلىٰ مذهبه الخاص، ومنهم من نزع إلىٰ الحجة دون التقييد بمذهب. وهكذا في كثير من العلوم.

إذن فطالب العلم لابد له من العناية بكلام الله جل وعلا فوق كل عناية حفظا له وتدبرا ومعرفة وعلما بالتفسير وفهما لما اشتملت عليه الآيات من أحكام أو أخبار، فإن هذا هو الحجة التي تبقىٰ مع طالب العلم، والله ﷻ يحبّ من عباده الذين يفقهون كلامه «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**»، ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾[التوبة:١٢٢]، هذا الدين إنما هو القرآن وما يسمعون ويرون من سنة المصطفىٰ ﷺ، هذا هو الدين.

والعلماء علىٰ اختلاف مشاربهم من جميع أصحاب الفنون إنما هم يقرِّبون للناس وييسرون فهم دلالات النصوص، يقولون للناس: هذا معنىٰ النص، والعالم كلّما عظُم علمه بمعنىٰ الكتاب ومعنىٰ

السنة -معنىٰ الآي ومعنىٰ الأحاديث- عظُمت درجته، ليس العالم في الإسلام هو الذي يقول برأيه ويقول من جهة فهمه، ليست هذه مهمة العالم في الإسلام، ولا يُحمد عالم ينزع للناس برأي مجرّد لا يعلم عليه حجة من كتاب الله جل وعلا أو من سنة رسوله ﷺ أو من هدي الصحابة أو من الإجماع أو من القواعد العامة.

إذا كان رأيا مجرَّدا فهذا هو الذي قال فيه علي رضي الله عنه فيما صح عنه في «سنن أبي داود» وغيره: **اتَّهموا الرأي في دين الله، ولو كان الدين بالرأي لكان مسح أسفل الخف أولىٰ من ظاهره.** لأنّ الذي يلقىٰ الأذىٰ هو الأسفل فهو الأحق بالتطهير، لكن جاءت السنة بأن المسح للأعلىٰ مع أنه الذي لا يناله الأذىٰ، فعُلم بذلك أنّ الرأي في دين الله جل وعلا لا يُحمد أهله، وتكاثرت كلمات الصحابة وكلمات التابعين والأئمة في ذم الرأي وذم أهل الرأي؛ يعني الذين يقولون القول لا يعلمون حجته، يقولون القول هكذا بالأقيسة، بالنظر، بالاستحسان، بالمزاج، وهذا لا يجوز أن يخوضه من يخاف علىٰ نفسه؛ لأنه قد يدخل في القول علىٰ الله جل وعلا بلا علم، وذنبه عظيم لأنه قرين للشرك في كتاب الله جل وعلا: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف].

إذن فلا بد من الاهتمام بالتفسير.

وإذا كان كذلك فالسؤال الذي يرد في هذا المقام: كيف نهتم بالتفسير؟ كثيرون يريدون أن يهتموا بالتفسير فكيف يهتمون بالتفسير.

نقول مثلا: اقرأ «تفسير ابن كثير»، اقرأ «تفسير ابن جرير»؛ لكن هذه القراءة لمعرفة تفسير الآية؛ لكن ليست تأصيلا لطلب علم التفسير.

وإذا كان كذلك فنقول: إن طالب العلم إذا أراد أن يفقه التفسير فإن أمامه درجات ومراتب:

المرتبة الأولى

أما الأولىٰ فأن يعلم المفردات التي يكثر ورودها في القرآن، هناك ألفاظ يكثر مجيئها في القرآن، تتردد كثيرا، فهذه المرتبة الأولىٰ يعلم معاني هذه المفردات.

وهذه المفردات كتبت فيها كتب، منها الكتب التي تسمىٰ الوجوه والنظائر أو النظائر في التفسير، والوجوه والنظائر راجعة إلىٰ الأسماء المشتركة والأسماء المتواطئة المعروفة في أصول الفقه.

فمثلا في كلمة (السماء) جاءت في القرآن معناها في اللغة كذا.

السماء في اللغة معناها العلو، لقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾[إبراهيم]، ولقول الشاعر في وصف فرس:

وأحمر كالديباج أما سماؤه ... فَرَيَّا وأما أرضه فَمُحُول

يعني أن ظهره وهو ما علا منه مليان يعني امتلأ واكتنز باللحم ليكون أثبت لمعتليه وأما أرضه وهي قوائمه فمحول يعني دقيقة لتكون أمضىٰ في الجري.

فإذا أصلها من جهة اللغة قال: ولقد وردت السماء في القرآن بكذا معنىٰ أما الأول فهو كذا والثاني فهو

كذا والثالث إلىٰ آخره.

وأتت مجموعة (السَّمٰوات) ومعناها في القرآن واحد وهي هذه السَّمٰوات المعروفة.

هذه الكلمات التي يكثر ورودها الأرض السماء الماء الكفر الإيمان النفاق إلىٰ آخره، إذا ضبط تفسيرها من كتب الوجوه والنظائر.

ومن أَمْثَلِها كتاب ابن الجوزي «الوجوه والنظائر»، وهو مطبوع في دار الرسالة طبعة جيّدة وهي أجود من الطبعة الهندية، الطبعة الهندية فيها أغلاط كثيرة، هذا يعطيك التلخيص، وهناك كتب كثيرة في هذا الموضوع يهتم بها طالب العلم.

هذه المرتبة الأولىٰ في طلب العلم أن تدور مع الكلمات التي يكثر ورودها في القرآن.

فإذا ضبطت هذه الكلمات التي يكثر ورودها ومعانيها فإنّك قد علمت شيئا من التفسير كمرتبة أولىٰ.

ثم تنتقل إلىٰ الكلمات هذه شيئا فشيئا، منها ما ورد في القرآن وله خمسة عشر تفسيرا، وهي قليلة، ومنها ما له اثنا عشر وجها، ومنها ما له عشرة، ومنها ما له ثمانية حتىٰ تأتي في النهاية ما له وجه واحد.

فإذا أمضيت في هذه المرتبة أدركت أن هذه الكلمات التي جاء تردادها أو كَثُر ورودها في القرآن ضبطت تفسيرها فقد أحكمت جزءا من علم التفسير.

المرتبة الثانية

المرتبة الثانية متصلة أيضا بالمفردات، ولكنها ليست من جهة الوجوه والنظائر؛ وإنما من جهة الأصول والاشتقاق.

وهذه ينفعك فيها كتابان:

الكتاب الأول «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس، فهو إن كان معجما في اللغة؛ لكن من جهة الأصل أصل المعنىٰ الذي تدور عليه الكلمة قد أجاد فيه وأفاد.

فتبحث معنىٰ الكلمة في معجم مقاييس اللغة، لذلك فالقرطبي مثلا أكثر من الرجوع إلىٰ معجم مقاييس اللغة مما يؤصله من المعاني في التفسير.

والكتاب الثاني كتاب «المفردات» للراغب الأصفهاني، والمفردات مرتب وطُبع في مجلد واحد طبعة جيدة؛ بل طبعة ممتازة جدا، ولكن الراغب الأصفهاني متكلم أشعري، وله تفسير كبير هو لم يطبع منه إلا بعض مقدمة أو بعض السور؛ لكن من جهة معاني الكلمات واستعمالاتها في القرآن فإن فيه فوائد كثيرة، وخاصة في لطائف استخدام الألفاظ.

كتاب الراغب تنتبه إلىٰ أشعريته في التعريفات، إذا أتىٰ يعرّف شيئا يعرّف كلمة يحد حدا، فهنا الحد تبع للتصور، وما حد إلا بعد التصور، ولهذا تقف عند حدوده وتعريفاته فلا تأخذ بها، ولكن إن فسر من جهة اللغة واستدل هذا مأمون عليه، وذلك راجع إلىٰ لغة لغوية بحتة.

الكتاب الثالث «عمدة الحفاظ» للسَّمين الحلبي وقد طبع سابقا في مجلدة واحدة، وطبع أخيرا مع شيء من التحقيق طبعة لا بأس بها في أربعة أجزاء لطيفة.

هذا في المفردات من حيث هِي.

إذا انتهيت من هذه الكتب، هناك كتب معاصرة تفيد في هذا، ومن أمثلها من جهة الكليات -كليات المعاني والاستعمال- كتاب معجم ألفاظ القرآن الكريم الذي أصدرته أظنّ الهيئة العامة للكتاب في مصر أو المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية في مصر أو ما أشبه ذلك، المهم هو «معجم ألفاظ القرآن الكريم» طبع في مجلدين.

المرتبة الثالثة

المرتبة الثالثة في معرفة التفاسير أو الدخول في علم التفسير: أن ترتِّب مراجعتك في التفسير لمعرفة معنىٰ الآية، وهذا ينبني علىٰ فهم التفاسير.

وكان لي محاضرة بعنوان «مناهج المفسرين» ربّما بعضكم سمعها، لا نطيل بتفصيل مدارس المفسرين ومناهج المفسرين وخصائص كل كتاب في التفسير تدخلها داخل هذه المرتبة؛ لأنك قبل أن تُطالع كتاب التفسير لابد أن تعرف منهجه، وهل مثلا من مدرسة التفسير بالرأي أم من مدرسة التفسير بالأثر؟ ما خصائصه؟ مميزاته؟ منهجه؟ قبل الدخول في التفسير إذا عرفته أحسنت استعماله.

لأن كتب التفسير جميعا لا تخلو من حالين: حال إجادة وحال ضعف، يأتي في آيات يجوّد الكلام، وفي آيات تبحث تفسيرها لا تجد، تجد أنه أسرع فلم يذكر شيئا.

وهذه راجعة إلىٰ ضعف الإنسان من جهة، وإلىٰ أن القرآن غالب لا مغلوب، علىٰ كثرة التفاسير لا يُغني تفسير عن تفسير، إلا أن يكون تفسير قد اختصر من تفسير آخر حرفيا؛ لكن الكتب التي ألفت علىٰ استقلال لا يغني بعضها عن بعض؛ لأن المفسر نجد أنه نشِط في موضع الآخر لم ينشط فيه، وهذه أنا جربتها كثيرا وتعدد التفاسير يخدم في هذا.

ابن جرير وابن كثير، تجد ابن جرير في مواضع تكلم بكلام تستغرب كيف يميل إلىٰ هذا الضعيف أو يقول به أو يرجحه، تجد أن ابن كثير يأتي فيردّ عليه في هذا الموضع ويطيل. أو هناك تجد أن كلامه في التفسير قليل علىٰ آية وتجد أن ابن كثير أطال النفس فيها.

وهكذا، إذا دخلت مدرسة التفسير الرأي يعني بالاجتهاد والاستنباط، وقد فصلنا بين الرأي المحمود والرأي المذموم، وأن ما كان بالرأي المحمود يعني بالاجتهاد والاستنباط مع اكتمال الآلات فإنه لا بأس بذلك، تجد أن المفسرين بالرأي؛ يعني بالاجتهاد والاستنباط بعضهم يجيد في مكان ويَقل في مكان.

هنا في هذه المرتبة إذا عرفت مناهج المفسرين فأول ما ترجع إليه في كتب التفسير التفاسير الأُوَل يعني تتسلسل مع التفسير في المراجعة فيما أشكل علىٰ حَسَب الزمان، علىٰ حسب وفيّات المؤلفين.

فإذا أمكن أولا أن تطالع صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، فهذا أمثل ما يكون أول ما تراجع.

تراجع معلقات البخاري في التفسير عن ابن عباس وعن مجاهد وعن أصحاب ابن عباس أو عن ابن مسعود إلىٰ آخر المشتهرين بالتفسير من الصحابة والتابعين فهذا أمثل.

ثم تنتقل إلىٰ التفاسير المسندة تفسير عبد الرزاق، تفسير ابن أبي حاتم فيما وجد منه، تفسير ابن جرير ثم تسلسل مع الزمن.

هذا التسلسل ليس الغرض منه أن تأخذ النتيجة، وإنما الغرض منه أن تتدرب علىٰ معرفة التفسير؛ لأن المفسِّر الذي أخذ عن من قبله وأورد كلام من قبله مع شيء من التصرّف أو أخذه وعبّر عنه، فأنت بمطالعتك لكلام الأول تعرف كيف تصرّف العالم المتأخر من علماء السلف -كابن جرير مثلا في عمله مع من قبله أو ابن كثير في عمله مع من قبله- كيف تصرفوا في كلام من قبلهم وصاغوه، فيُقيم لطالب العلم دُربة عملية في معرفة كيف يصوغ التفسير بصياغة أهل العلم.

لأننا وجدنا أن التفسير خَاضَ فيه الناس بما يُسمىٰ المِزَاج، يعني هكذا هو خطر في باله هذا معنىٰ الآية، هذا ظاهر الآية ولم يتدرب علىٰ هذا وليس من أهله، ولم يعانِ التفسير ويعانِ كاب التفسير حتىٰ يكون عنده ما يقربه من فهم المعاني، وهذا لاشك أنّه يدخل في قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ «**من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ وإنْ أصاب**» حتىٰ ولو أصاب فإنه لم يصب عن علم وإنما أصاب اتفاقا، فقد أخطأ إذْ تجرأ علىٰ التفسير دون علم، وإن أصاب فلم يصب عن علم وبينة وحجة، ليس عنده ملكة في العلوم الشرعية العقيدة والفقه والحديث إلىٰ آخره، ليس عنده ملكة في العربية، فمن أين أتاه الصواب؟ يكون أتاه الصواب اتفاقا، فإنه أخطأ وإن أصاب، حتىٰ لا يتجرأ علىٰ ذلك.

ترتيب التفاسير في المراجعة كتعلم، هذا الآن منهج تعلم التفسير ليس منهج مراجعة لتفسير آية، تريد ترجع لتفسير آية أشكلت عليك راجع أحد التفاسير وينحلّ المعنىٰ، ولكن تتعلم التفسير يكون بهذه الطريقة.

تمشي مع كتب التفسير بالأثر حتىٰ تقف عند نهايتها.

تأتي إلىٰ مدرسة التفسير بالاجتهاد بالرأي، ابتدأ هذه المدرسة من علماء الأثر ابن جرير، وأورد في تفسيره ما تفق في كتب من قبله مما يتعلق بتفسير القرآن؛ لذلك ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ يُعدّ أول من خلط بين علوم التفسير بالأثر وعلوم التفسير بالرأي والاستنباط، تجد في تفسيره الأحاديث والآثار عن الصحابة والتابعين، وتجد فيها مباحث اللغة العربية، مباحث العقيدة، الرد علىٰ المخالفين، الرد علىٰ الملحدين، الرد علىٰ المبتدعة في الصفات، تجد فيه ما يخلط هذا وهذا، بخلاف ما لو رأيت: تفسير مثلا عبد الرزاق، تفسير الإمام أحمد في القطع التي نقلها ابن القيم وغيره عنه، تفسيره ابن أبي حاتم، تفسير عبد بن حميد فيما وجد منه، إلىٰ آخر التفاسير بالأثر، تجد أنها تفاسير أثرية محضة لم تخلط بالأثر اجتهادا؛ لكن ابن جرير خلط هذا وهذا.

فمنه تنطلق إلىٰ رؤية عالم إمام سني سلفي في إدخال علوم الاجتهاد وعلوم العربية وعلوم الفقه والرد علىٰ المخالفين في التفسير كيف انضبط وكيف رد وما تفرع بعده.

هنا تأتي إلىٰ من بعده وترىٰ كيف توسعوا في تفسير الآية، فإذا رأيت علمه كيف أدخل علوما أخر لا صلة لها بالآية في تفسير الآية، تعرف مواطن الإجادة ومواطن الزلل، فيكون عندك علم بالتفسير بمدرستيه مدرسة التفسير بالأثر ومدرسة التفسير بالرأي.

المرتبة الرابعة

التفسير -وهذه المرتبة الرابعة- فيه مواضع مشكلة أشكلت على كثير من العلماء بل على أكثر العلماء؛ بل قال فيها شيخ الإسلام ابن تيمية لا تكاد تجد في التفاسير منها قولا صحيحا، وهذه مضايق لطالب العلم كبيرة، ولا زالت مضايق إلى الآن.

شيخ الإسلام ابن تيمية كتب مجلدة في ذلك طُبعت في مجموع فتاوى ابن تيمية، وهي موجودة في نسخة خطية، عندي منها صورة في بعض المكاتب أوربا كانت بعنوان: تفسير آي من القرآن أشكلت. وهذا العنوان منتزع من مقدمة شيخ الإسلام، وذكر فيها شيخ الإسلام بالمقدمة أن هناك آيات في القرآن أشكلت على أهل العلم فلا تجد فيها قولا صحيحا.

طبعا هذا تفهمه مع فهمك لقواعد أو لأصول التفسير، لا تجد فيها قولا صحيحا لأن السلف ما تكلموا فيها مثلا، لو كان للسلف لو كان لهم كلام فيها لكان حجة في هذا الباب -نعني بالسلف الصحابة- أما التابعون فقولهم ليس حجة يجب المصير إليها في التفسير؛ ولكن يحسن المصير إليها فيما كان من جهة فهم القرآن والاستنباط، هذه المواضع التي أشكلت تدرك الصواب فيها بعد مراجعة التفاسير.

إذا أدركت الخطوات السابقة عرفتها عرفت الصواب، عرفت كيف أشكلت ولم؟ وحجة شيخ الإسلام حينما دخل في هذه المضايق ورجح ما رجح في تلك الآيات.

الذي يجب على طالب العلم بالتفسير أن:

أولا: لا يتجرأ على التفسير.

الثاني: أن يعلم أنّ التفسير هو تفسير هو تفسير كلام الحق جل وعلا.

وهذا صاحب العقيدة يكون معه في قلبه هيبة إذا أراد أن يدخل هذا الميدان؛ لأنك تدخل لبيان معاني كلام الله جل وعلا، طالب العلم إذا أراد أن يشرح متنا من المتون أعدّ له العدة وخاف وأصابه ما أصابه؛ لأنه كلام العلماء فكيف يُتجرأ على كلام الحق جل وعلا على كلام الله بالتفسير، وهو لم تكمل عنده الآلة لم يعلم كلام أهل العلم فيه، لم يكن عنده دربة لم يطلب العلم بالتفسير طلبا صحيحا.

الثالث: أن يتبرأ من العهدة ما أمكن بالإحالة على قول العلماء المأمونين بالتفسير قدر الإمكان لا تأتي أنت بشيء ولا ترجح شيئا، قال العلماء هكذا، قال الإمام أحمد هكذا، قال ابن عباس رضي الله عنه هكذا، قال علي رضي الله عنه كيت وكيت، وهذا هو ما يكون لك من جهتك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية كذا، قال ابن جرير كذا، رجح ابن جرير كذا، ابن كثير وافقه على ذلك.

المرتبة الخامسة والأخيرة

المرتبة الأخيرة في التفسير في العلم بالتفسير أن التفسير هداية للناس، والقرآن أنزل ليكون هاديا للناس ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:٩]، فالقرآن ما نزل ليكون ميدانا لتقرير علوم نظرية أو

علوم فرعية إنما نزل القرآن لهداية الناس بإصلاح الناس جميعا، القرآن نزل للعلم بالله جل وعلا، والعلم بما يحبه جل وعلا ويرضاه وما يسخطه سبحانه ويأباه، لعلم بالتوحيد توحيده سبحانه العلم، بالأحكام وما يتصل بذلك من أخبار الماضين ومستقبل الماضين والأحياء، والأمثال والعبر التي تصلح نفس الإنسان.

إذا كان كذلك فليُعلم أن القرآن حجة الله جل وعلا إلىٰ قيام الساعة.

وإذا كان كذلك فهو هداية للناس إلىٰ قيام الساعة.

وإذا كان كذلك فطالب العلم بالتفسير يجعل كلامه وتفسيره يناسب الزّمن الذي يعيش فيه، أما ممارسة الهوايات في العلوم فهذا يؤجر صاحبه عليه بحسب نيته؛ لكن ليس هو الغرض من علم التفسير، الغرض من طلب علم التفسير أن تتعلم هذا العلم لتهدي الناس بالقرآن.

ولهذا قال شيخ الإسلام في موضع: كل داع أو مبلّغ أو هاد لا يهدي الناس بكلام الله جل وعلا وكلام رسوله ﷺ فإنه مقصِّر. أو كما قال؛ يعني أن كلّ هداية انطلاقها من كلام الله جل وعلا وكلام رسوله ﷺ؛ لأنّ السنة مبينة للقرآن والقرآن أُنزل للهداية وهما الحق الذي لا يعتريه نقص، وإذا كان الأمر علىٰ هذا فإن طالب العلم بالتفسير إذا ضبط المراتب السابقة ينطلق بالتفسير بما يناسب الزمن الذي يعيش فيه؛ لكن بالعلم لا بالجهل؛ لأن أناسا وعظوا ودعوا بالتفسير لكنهم عن جهل فوقعوا في استدلالات باطلة وبعضها ربما كان مكفرا من جهة نزعه لشيء لم يُقل به البتة، ومن جهة أنه غلط في فهم الآية أصلا فقلب الأمر، وربما أني أعرف بعض الأشياء في هذا.

إذن فطالب العلم بالتفسير إذا طلب هذا العلم وأحسنه فإن الغرض منه هداية الناس بالقرآن، وهذا يُلحظ من جهتين:

الجهة الأولى: أن الحق في التفسير واضح منته لا يظنّن ظان أنه سيخرج تفسيرا لم يعهد عن الأولين، هذا أمر مقطوع به؛ لأن الحق في هذه الأمة باقٍ، ولا يجوز أن يخلو زمن من الحق في مسألة من المسائل؛ بل إن قول القائل: إن هذه الآية لم يفهمها المتقدمون جميعا. هذا لاشك أنه باطل من القول؛ بل إن قال: إنهم أجمعوا علىٰ الخطأ فيها أيضا هذا باطل من القول؛ لكن إن قال مثل ما قال شيخ الإسلام أشكلت علىٰ كثير من العلماء، أشكل علىٰ كثير أو الأكثر من العلماء؛ بل لا تكاد تجد في التفاسير علىٰ كثرتها القول الصواب فيها فيكون هذا من جهة التحقيق والعلو الذي يناسب شيخ الإسلام رحمه الله وأمثاله.

وأما نحن ومن علىٰ شاكلتنا فإنما قصارىٰ جهد في الجهة الأولىٰ هذه أن ننزع إلىٰ فهم ما قاله العلماء فيمن قبلنا، نفهم ما قالوه.

إذا فهمنا ما قالوه، فتأتي **الجهة الثانية** أن تعبر عما قالوه بما يناسب الزمن، وهذا هو الذي جعل بعض الناس يخلط في مسألة تبليغ القرآن أو عرض التفسير، سواء في خطبة أو دعوة أو في محاضرة أو في كتاب أو في قصة إلىٰ آخره، فينزع من جهة تحبيب الناس أو هداية الناس لا علىٰ ركون إلىٰ علم صحيح، وهذا له أمثلة وربما تعلمون من ذلك أمثلة.

... أما الحق في نفسه فهو واضح منتهٍ، فأنت إذا عرضتَ الحق الواضح الذي أدركت عليه أو أدركته

عمّن قبلك يعني من أهل العلم وقفت عليه بدليله وظهور حجته فعرضته للناس هذا هو الذي عليك، وهذا يختلف باختلاف الناس، ربما يكون عند فلان مثلا ضَعف في التعبير عن ما فهمه من التفسير، وعند الآخر سَيَلان في الذهن وفي التعبير وعن ما فهم من كلام أهل العلم فأثّر علىٰ الناس بالناس بالتفسير ما لم يؤثِّر الآخر هذا راجع إلىٰ أسلوب نقل هداية القرآن.

ولهذا التصنيف في التفسير إذا لم يكن الغرض منه هداية الناس بالقرآن فلا حاجة لنا بالتفاسير، التفاسير منتهية، إذا كان الغرض منه هداية الناس بالقرآن، يوضح العقيدة الصحيحة من خلال القرآن، يوضح السلوك، الإيمان، يزكي النفس، يبين الأمثال التي في القرآن، القصص بأسلوب يناسب العصر ويناسب الناس، فإن هذا هو المطلوب، وهذه آخر مرتبة، وليست أول مرتبة، بعد أن يمشي في المراتب تلك بعد ذلك يكون عندنا من يؤثر في الناس بالقرآن، وهذا هو الذي نحتاجه؛ لأن هداية الناس بالقرآن يخضع لها الجميع.

وما أجمل قول شيخ الإسلام رحمه الله وهو في سجنه رحمه الله تعالىٰ في آخر حياته إذ قال: ندمتُ علىٰ أني لم أجعل حياتي كلها في تفسير القرآن. لأن تفسير القرآن بمكن أن تدخل فيه جميع أنواع الهداية للناس واحتجاج المحتج عليك يكون ضعيفا، ذكرت معنىٰ الآية بكلام أهل العلم، هذا معنىٰ الآية وهذا كلام أهل العلم، إذا كان أنه يعترض يعترض علىٰ التفاسير، إذا كان يَعترض يعترض علىٰ الأئمة، ابن جرير رحمه أهل أجمعت الأمة علىٰ أنه إمام المفسرين حتىٰ أصحاب البدع من الأشاعرة أجمعوا علىٰ أنه هو إمام المفسرين.

فإذن الهدايات كلها بأنواعها؛ يعني هداية الناس في أفرادهم في مجتمعاتهم هداية الأسر راجعة إلىٰ هداية القرآن، فمن وُفق لفهم التفسير وعرضه عرضا صحيحا علىٰ الناس بالحجة والبيان فإنه يكون قد أوتي خيرا كثيرا.

هذه المراتب اجتهادية من واقع التجربة، وليست علما تأصيليا مطلقا، وإنما هي بداية في تأصيل علم التفسير؛ لأن علم التفسير لم يكتب فيه، لا في أصوله، أصول التفسير كتابة جيدة، ولا في مناهج المفسرين بعامة كتابة جيدة، ولا في مراتب أخذ العلم ومنهجية أخذ العلم.

فهي إذن خطوة في طريق، والذي ينبغي لطلاب العلم -كما ابتدأنا الحديث أن نختمه- الذي ينبغي علىٰ طلاب العلم أن يعتنوا كثيرا من معرفة معاني كلام الله جل وعلا فإنه والحق المطلق في جميع ما اشتمل عليه، فكل هداية وصواب ستجدها إن شاء الله تعالىٰ في القرآن، إمّا علىٰ التفصيل وإما علىٰ الإجمال.

اللّٰهمَّ نوِّر قلوبنا بالقرآن واجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور أبصارنا وجلاء همومنا وغُمومنا.

اللّٰهمَّ ذكرنا منه ما نسينا وعلمنا منه ما جهلنا ومن عليه بتلاوته علىٰ الوجه الذي يرضيك عنا.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الأسئلة]

أجيب علىٰ هذه الأسئلة فقط الخمسة.

سؤال (١): ورد في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾[يس:٦٥] الآية في سورة يس، وورد في سورة النور أن الأفواه تشهد فكيف الجمع؟

الجواب: هذا السؤال قديم سئل عنه ابن عباس رضي الله عنه في أمثال ما في القرآن من أنه في مكان في القيامة يلقون المعاذير وفي مكان لا يقبل منهم معذرة إلىٰ آخره، فكلام السلف فيها خاصة ابن عباس وهو الحق أن ذلك يختلف باختلاف المقامات يوم القيامة، يوم القيامة يوم طويل خمسين ألف سنة، يختلف باختلاف المقامات، ففي آية ذكر حال وفي آية أخرىٰ ذكرت حالة أخرىٰ.

سؤال (٢): وردت في هود أن شعيبا أخ لقومه وفي سورة الشعراء أنه ليس بأخ لهم؟

الجواب: لا، ما فيه الشعراء ليس فيه أنه ليس أخا لهم؛ ولكن لم يذكر أخوته كغيره، النفي هذا يحتاج إلىٰ تنبيه.

والأخوة المقصود بها أخوة القبيلة أخوة النسب يعني بالقبيلة أخوة العِرْق لا أخوة الدين ولا أخوّة الأب.

سؤال (٣): ما رأيكم في قول الصاوي في «حاشيته علىٰ الجلالين» الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر، وقوله في آية فاطر ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا﴾[فاطر:٨]، قال نزلت في جماعة بأرض الحجاز يقال لهم الوهّابية؟

الجواب: معروف الصاوي في كلامه هذا.

والكلمة هذه الأولىٰ (الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر ومنع الاجتهاد) ردّ عليها الشنقيطي رحمه الله في تفسيره عند آية سورة محمد ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد]، بحث بحثا طويلا رد فيه علىٰ الصاوي بتفصيل في مسألة الاجتهاد وضوابطه إلىٰ آخره والأخذ بالظاهر، وأُفردت برسالة تلك بعنوان «**الاجتهاد والتقليد**» أظن فيرجع إليها.

وأما قوله إنه ظهر في الحجاز الوهابية، هو أخذ ما قيل له عن الدعوة.

وآفة الناس جميعا -إلا من رحم الله- أنهم يصدِّقون ما يقال لهم من الشر، أما الخير ففيه نظر، إذا قيل شيء فيه عيب فالأصل أنه صحيح فيمشون به، وأما الخير لا.

ولهذا نذكِّر بأصل عظيم من أصول هدي السلف أن الكلام يُفهم بمحمله الحقيقي لا بمحمله النفسي، وهذا التعبير مأخوذ من قول عمر رضي الله عنه فيما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد ورواه غيره أيضا قال رضي الله عنه: لا تظننّ بكلمة خرجت من أخيك سوء وأن تجد لها في الخير محملا.

وكذلك الأفعال؛ لأن الاحتمالات كثيرة، احتمالات القول كثيرة، وقد يكون يخطئ في العبير ولكنه ما عنىٰ المعنىٰ الفاسد، إذا وجدت لها في الخير محملا، فالأصل في للمسدّد الأصل فيمن ظاهره السّلامة أنه لا يُحمل كلامه علىٰ سوء، إلا إذا كانت قامت قرينة بينة واضحة فهذا من الظن الذي عُذِرْنا بالأخذ به لقوله: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾[الحجرات:١٢]، قال العلماء: جعل بعض الظن إثم وهو ما

لم تدعمه البينة والحجة.

أما الكلمة التي تجد لها في الخير محملا فاحملها على الخير، والمفسر للكلام تارة يفسر يفهم كلام الناس على مراده هو، وهذه من مصايب التحليلات التي نسمعها سمعناها في الماضي والحضر إما لكلام أهل العلم المتقدمين أو السابقين وإما لكلام أهل العلم الحاضرين أو لكلمات المؤلفين إلى آخره.

فتجد أن الكلمة تحتمل فيحملها على محمل دليله النفسي، دليله فهمه النفسي لا دليله في الكلام على هذا الفهم، يقول: هذا الكلام يحتمل كذا ويحتمل كذا. ولهذا تجد أن أهل العلم المحققين تجد حتى مع أعدائهم، تجدها في ردود شيخ الإسلام وردود أهل العلم حتى مع النصارى، في «الجواب الصحيح» تجد، إن أراد هذا الكلام يحتمل وجهين الوجه الأول هو كذا الثاني كذا إن أراد الأول فهذا صواب وإن أراد الثاني فهذا باطل لأنه كذا.

أما أن يحمل كلام من ظاهره السلامة على معنى فاسد ويلزم به فإنّ هذا مما لا يجوز شرعا –أنا ما أدري أوش الذي خلانا ندخل في هذا البحث– نعم، في كلام الصاوي أخذ ما قيل له وهذا أخذ ما قيل له عن الدعوة فأخذ يردد الشر في بلده وانتشر، وهكذا كل من أتى للحج أصل أعداء الدعوة أكثر ما نشروا السمعة السيئة في الحج، تأتي الأفواج ويجتمعون عند المشايخ والمفتين هناك ليحذرونهم: خرج في جهتنا أناس يقال لهم وهابية هؤلاء يكفرون وهؤلاء يقول من لم يهاجر إلينا ومحمد بن عبد الوهاب يدعي النبوة وأباح لنفسه كل نساء أهل الدرعية إلى آخره.

مثل ما قال أحمد زيني في أول كتابه في الرد على الوهابية قاتله الله يقول: والظاهر من حال محمد بن عبد الوهاب أنه يدّعي النبوة وكان يأمر بحلق رؤوس من اتبعه ولم يكن يختص –الكلمة الأخيرة تحتاج إلى مراجعة يعني من جهة لفظها– ولم يكن يختص بعدد من النساء. –والشيخ محمد أصلا ما بلغ الحد الشرعي له في الزواج أربع فضلا أن يزيد عن ذلك– وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: يخرج في ثاني عشر قرنا من الزمان رجل في المشرق لا يزال يلعق براطمه هيئته كهيئة الثور يحدث فتنة يعتز فيها الأسافل والرّذل تتجارى بهم الأهواء إلى آخره. قال: وهذا الحديث في محمد بن عبد الوهاب وإن لم يعرف من خرجه؛ لكن شواهد الصحة هو الذي وضعه أو شيخه.

هذا الكتاب كله افتراءات على الشيخ محمد وعلى الدعوة، كان يسلّمه مفتي مكة الذي هو أحمد زيني دحلان لكل وفد يأتي لمكة يسلم له نسخة اذهبوا به إلى بلادكم فأصبحت سمعة الوهابية بهذا السبب.

سمعة الشيخ محمد بن عبد والوهاب والدعوة بهذا السبب أن الوفود التي تأتي للحج يعطونهم رسائل ألفوها وكذبوا فيها على الدعوة وأصبحوا نسأل الله العافية أئمة يدعون إلى النار.

ففعل الصاوي من جنس هذه الأفعال، والذي ينبغي حقيقة على كل طالب علم وقلتها مرارا في ما مضى من الزمن ولا أزال أقولها أن طالب العلم يتحرّى في لفظه يتحرى في لفظه، لا يستعمل ألفاظا ليست له عليها برهان، لا ينساق مع هواه؛ لأن هواك الذي بين جنبيك، هذا أنت ممتحن به مبتلى به هل تسير معه أو تحكم الكتاب والسنة عليه، لك رغبات تحمس أو رغبة سواء في الاتجاه هذا أو الاتجاه هذا

أو في أي اتجاه، إذا لم تحكم النص علىٰ هواك فلم تخرج من التَّبِعة، لازلت مذنبا؛ لأن هذا من أعظم ما يبتلىٰ به المرء أن يكون له هوىٰ هل يحكم الكتاب والسنة مع هواه أو يسير علىٰ وفق شهوته ووفقه رأيه، والله هذا يقول كذا ما دليلك الدليل شوف كلام محتمل، الكلام هذا حق، هذا الكلام محتمل، يحتمل أن يكون كذا فإن كان المراد هذا فهو لا شك أنه أخطأ وإن كان المراد الثاني فهو مصيب.

هنا ينبغي علىٰ المتكلم أيضا أن يحرص قدر الإمكان أن يقول كلمات خاصة في مواطن الشبه وفي مواطن المزلّة أن يكون كلمة لها احتمالات كثيرة، حتىٰ لا يوقع الناس في حرج؛ لأن الكلام كلّما كان واضحا كان أسلم للناس من الغيبة ومن الفهم السيئ له ومن تعدد المشارب، خاصة إذا كان مشار إليه أو من متبوع فإن الكلام إذا كان محتملا يفرق مباشرة، فيحرص قدر الإمكان فإن أصدر كلاما محتملا، فقد بذل جهده في أن يزيل الإشكال عن المستمع فلا ذنب عليه؛ لأن المقصر يكون المتلقي والله جل وعلا جعل في كلامه متشابها للابتلاء فضلت به الخوارج، الخوارج ضلت والفرق الضالة ضلت بكلام الله جل وعلا، ضلت إذ استدلوا ببعض كلام الله جل وعلا استدلالا خاطئا وما أخذوا بعض الكلام مع بعض آخر.

كذلك ضلت طوائف من المرجئة وغيرهم في فهم نصوص السنة من قال: لا إله إلا أهل دخل الجنة فضلوا من هذا الباب.

فإذن إذا كان الكلام من هذا الباب فيه احتمال أو بُيِّن في موضع آخر فيجب أن يسار إلىٰ فهم الكلام بمجموعه.

فإذن المتحدث عليه واجب والمتلقي عليه واجب، المتحدث عليه أن يتقي الله في كلامه وليس المهم أن تتكلم، المهم أن تتكلم بصواب، تكون أنت حين تكلمت برّأت نفسك من العهدة؛ يعني قلت كلام لا تندم عليه بعد ذلك هذا واحد، والكلام ما فيه فائدة إلا إذا كان في الخير ﴿**لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ**﴾ معروف يعني في الشريعة ﴿**أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾[النساء:١١٤]، المتحدث هذا ما يجب عليه.

المتلقي يأخذ بوصية عمر: لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءا وأنت تجد لها في الخير محملا.

كذلك في التصرفات، النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ كان معتكفا وانقلبت معه صفية رآه رجلان فسارع بقوله: «**علىٰ رسلكما إنها صفية**» مع أن الناظر له عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ سيقول: يحتمل أن تكون امرأته ويحتمل أن لا تكون امرأته. هذا من جهة الاحتمال العقلي. مع أن الواجب شرعا أن يُنزه النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عن مثل هذا الزّل؛ ولكن الشيطان قد يدخل ويأتي الخاطر، ولهذا قال: «**علىٰ رسلكما إنها صفية**» فتعجبا فقال: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم**» لهذا الواحد يبتعد عن مواطن الشبه؛ لكن من رآه حمله علىٰ الخير؛ لأن الاحتمالات كثيرة، مثل رآه مثلا مع امرأة وضعها غريب، ربما أنها كذا ربما أنها كذا، فإذن تحمله علىٰ الخير.

بعض الناس وخاصة من الشباب يعني لا يكتم ما يراه من السوء، وهذا لا يجوز أن تنشر ما رأيته، كلنا مذنب كلنا خطّاء، هذا يحصل منه غفلة، هذا يحصل منه ذنب أو من أهلك أو من جيرانك فإذا رأيت

سوءا فنشرته، فهذا لاشك أنه من المحرم لأن حفظ عورة المسلم واجبة وترك للأفضلية في ستر المسلم؛ لأن النبي ﷺ صح عليه أنه قال: «**من ستر مسلما في الدنيا ستره الله في الدنيا والآخرة**» ورحل لهذا الحديث شهر رحل أحد الصحابة لطلب هذا الحديث شهرا كاملا «**من ستر مسلما في الدنيا ستره الله في الدنيا والآخرة**» وهذا يدخل فيه ستر الأقوال، قول ما أحد يعرفه راح نشره في جريدة مثلا من ثلاثين أربعين سنة ما أحد يعرفه راح نشره والقول وكذا انتهىٰ القول أو هذا كان يوما من الأيام، كان يحضر حفلات غناء أو خلاص انتهىٰ هذا، إذا كان هذا انتهىٰ، الناس ما يعلمون هذا فلماذا يأتي آت وينشر مثل هذا لاشك أن هذا من القصور.

فالواجب إذن أن يحاسب الإنسان نفسه، والمسألة عظيمة مسألة الأقوال التي تسمع والتصرفات التي ترىٰ ما رأيت من خير تنشره، واثني علىٰ صاحبه ينتشر الخير بعض الناس يجرئ الناس ويجرئ بعضه بعضا، هذا بفعل الخير وهذا يفعل الخير الناس يحبون الخير، إذا نشرت الشر هذا والله فعل وذلك فعل وراح وسووا كذا، انتشر الشر الناس يتساهل عندها.

لذلك نجد مثلا بعض الشباب أو بعض الناس العامة إذا جلسوا تحدثوا بالشرور، هذه يخرجونها في قالَب التأسي علىٰ الوضع وفساد والوقت؛ لكن هو يفسد من حيث لا يشعر لهذا من قال كما ثبت في الحديث من قال: «**هلك الناس فهو أهلَكهم**» يعني إذْ قال هلك فهو سعىٰ في إهلاكهم ومن قال: «**فسد الناس فهو أفسدهم**» لأنه هو سعىٰ في ذلك هو ما شاء الله خلاص سهل الشر.

فالواجب أن ننشر الخير وما رأينا من شر أو سمعناه أو من أمر ولو كان يقينيا فإننا نطمره ونستر المسلم؛ لأن هذا في عامة الناس، أما أهل الحسبة وأهل الاختصاص فهذا لهم أحكام خاصة.

والكلام المحتمل احمله من المؤمن المسدَّد الذي لم تعهد ريبة ولا عقيدة فاسدة احمله علىٰ المحمل الحسن إذا كان ذا احتمالين، فتجد في ذلك بردا وطمأنينة وسلاما، ومن وليس في قلبه غش ولا غل لمسلم فإنه حري أن يكون مثل صاحب النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذي قال له: ما أعمل إلا أني لا أبيت وفي قلبي غش لمسلم. ما يبيت يخطط علىٰ أحد أو يحمل علىٰ أحد، يعمل بالأمر الشرعي في هواه، يحكمه علىٰ نفسه، يحكمه علىٰ رأيه علىٰ قوله علىٰ عمله علىٰ كتابته وفي هذا منجاة.

ولو أخذ بها الناس لسلموا من فتن مضت، ونرجو أن يأخذوا بها حتىٰ يسلموا من فتن قد تُقبل فالشيطان يرضىٰ فينا بالتحريش فيما بيننا.

أسأل الله جل وعلا أن يبلغني وإياكم رضوانه وأن يحكمنا بكتابه وسنة نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ علىٰ أعمالنا وأقوالنا وأهوائنا.

اللَّهمَّ اجعلنا ممن كان هواه تبعا لما جئت به وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين.

محاضرات (٣/ ٣٠)

مناهج المفسرين

الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الحمد لله الذي نزَّل الفرقان علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيرا، وهو القائل: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[الفرقان].

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبد الله ورسوله وصفيُّه وخليله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد..

فهذه **الدّورة متخصصة في التفسير وعلوم القرآن**، وإنّ من مباحث هذه الدّورة الكلام علىٰ مناهج المفسرين، والكلام علىٰ مناهج المفسرين مهم؛ لأنّ التفاسير لكتاب الله جلّ وعلا كثرت جدّا حتىٰ بلغت أكثر من مائة من التفاسير الموجودة بين أيدينا اليوم.

والتفاسير المفقودة كثيرة، والتي لم تطبع أيضا كثيرة، وهكذا.

فلابدّ لطالب العلم الذي يحرص علىٰ معرفة معاني كلام الله جلّ وعلا أنْ يعلم مناهج أولئك المفسرين وطرائقهم حتىٰ إذا راجع تفسيرا لأحد أولئك يعلم مع ما يتميَّز به ذلك التفسير ويعلم منهج المؤلف حتىٰ لا يضيع بين كثرة التَّفاسير.

منهج أو مناهج المفسرين المقصود بها الطرائق والخصائص التي يتميز بها التفسير، فـ: (مناهج) جمع منهج، والمنهج هو الطريق الملتزم، **المنهج والنّهج هو الطريق الملتزم**؛ يعني أنّ مناهج المفسرين هي الطرق والشروط التي اتبعوها في تفاسيرهم.

والمناهج هذه متنوعة متعددة، والمفسرون منهم من يذكر شرطه في تفسيره ومنهم من لا يذكر ذلك، فإذا كانت المناهج هي الطرق التي سلكها المفسر في تفسيره فأصبحت قواعد له في التفسير أو أصبحت مميزات وخصائص له في تفسيره.

هذه المناهج كيف نعلمُها؟ كيف نعلم منهج ابن جرير مثلا في تفسيره؟ أو منهج القرطبي في تفسيره؟ أو منهج ابن كثير في تفسيره؟ إلىٰ آخر تلك التفاسير.

لمعرفة المنهج أحد طريقين:

الطريق الأول: أن ينص المفسر علىٰ شرطه في التفسير في أول تفسيره، أو أن ينص عليه في مواضع متفرقة من تفسيره مع خطبة الكتاب، فإذا نص علىٰ شرطه كما نص ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ شرطه وطريقته في أول التفسير، وكما نص القرطبي علىٰ ذلك بوضوح حيث قال: وشرطي فيه أني كذا وكذا. وكما نص عليه أبو حيان الأندلسي في كتابه «البحر المحيط»، وهكذا في عدد من التفاسير ينص المفسر علىٰ شرطه في تفسيره، فإذا نص المفسر علىٰ شرطه في تفسيره صارت تلك الشروط المنصوصة منهجًا له، فنقول: منهجه في التفسير كذا وكذا بناء علىٰ شرطه الذي نص عليه في تفسيره.

والطريق الثانية: أن يُعلم شرطه في التفسير ويعلم المنهج عن طريق الاستقراء والاستقراء كما هو معلوم قسمان:

- استقراء تام أو أغلبي.
- و النوع الثاني استقراء ناقص.

والاستقراء حجة إذا كان تاما أو أغلبيا؛ لأنه يكون دالا علىٰ صحة ما بُحث بالاستقراء، فإذا استقرأ أحد أهل العلم تفسيرا من التفاسير وقسّم طريقه ذلك المفسر: في العقيدة يسلك هذا الطريق، وفي الحديث والأثر يسلك هذا الطريق، وفي النحو يسلك هذا الطريق، وفي الإسرائيليات يسلك هذا الطريق، واستقرأ ذلك استقراء تاما بتتبع التفسير من أوله إلىٰ آخره أو استقرأه استقراء أغلبيا، فنقول هنا: منهجه في التفسير كذا وكذا.

أما إذا كان الاستقراء ناقصا فتش في التفسير صفحة أو صفحتين أو ثلاثة أو مجلد أو مجلدين ولم يستقرأ التفسير بتمامه، فلا يجوز أن يعتمد علىٰ ذلك الاستقراء الناقص، ويقال: طريقة فلان في التفسير كذا أو طريقة التفسير الفلاني كذا، إذْ لابدّ لكون الاستقراء حجة أن يكون استقراء تاما أو أغلبيا كما هو مقرر في موضعه من علم أصول الفقه.

وهذا وهَذا وجد شروط ومناهج للمفسرين عرفنا تلك المناهج عن طريق شرط المؤلف أو عن طريق الاستقراء التام أو الأغلبي، وإذا لم يمكن الاستقراء ولم يوجد الشرط فنستعمل عبارة أخرىٰ غير منهج المفسر في تفسيره كذا وكذا؛ نقول: تميّز التفسير الفلاني بكذا وكذا، تميز تفسير فلان بكذا وكذا، من خصائص التفسير الفلاني كذا وكذا، مثلا من خصائص «الدر المنثور» كذا وكذا، تميز «الدّر المنثور» بكيت وكيت من الطريقة.

فإذن نعدل عن استعمال لفظ (المنهج) إلىٰ لفظ (المميزات والخصائص) إذا لم يكن مشروطا أو إذا لم يكن مستقرأ استقراء تاما أو أغلبيا.

والنبي ﷺ أُنزل عليه القرآن علىٰ سبعة أحرف، فثبت عنه بالتواتر عليه الصلاة والسلام أنّه قال: «**أنزل القرآن علىٰ سبعة أحرف**»، ونزوله -أي القرآن- علىٰ سبعة أحرف عَليه عليه الصلاة السلام فإنه ذلك يستفاد منه في التفسير فوائد كثيرة.

والنبي ﷺ لم يُنقل عنه من التفسير الشيء الكثير، وإنما نقل عنه تفسير كثير من الآيات ولكنه ليس بالأكثر.

والصحابة رضوان الله عليهم نقل عنهم من التفسير أكثر مما نقل عن النبي ﷺ.

فالنبي ﷺ فسّر آيات كثير بحسب الحاجة:

ففسر مثلا قوله جلّ وعلا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾[يونس:٢٦] بأنّ الزيادة هي النظر لوجه الله الكريم جلّ وعلا.

وفسر قوله تعالىٰ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾[الفاتحة]، بأن المغضوب عليهم هم اليهود والضالون هم النصارىٰ.

وكذلك فسر ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾[الأنفال:٦٠] بأنّ القوة الرمي ففي

الصحيح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**ألا إنّ القوة الرمي ألا إنّ القوة الرمي**».

وهكذا في أشياء من هذا القبيل، كما فسر الخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله جلّ وعلا: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾[البقرة:١٨٧] بأنّ الخيط الأبيض والخيط الأسود هما سواد الليل وبياض الصبح أول ما ينفجر.

الصحابة كانوا يهابون أنْ يسألوا رسول الله ﷺ عن التفسير، وكانوا يعلمون أكثر معاني كلام الله جلّ وعلا:

وذلك لأنّهم رضي الله عنهم شهدوا التنزيل، ومشاهدة التنزيل ومعرفة أسباب النزول تورث العلم بمعاني الآيات، كما هي القاعدة عند أهل العلم أنّ معرفة السبب يورث العلم بالمسبَّب.

ثانيا الصحابة رضوان الله عليهم في عهده عليه الصلاة والسلام كانوا يرتحلون معه، يغزون معه يجاهدون معه، ويسمعون كلامه عليه الصلاة والسلام من جهة السنة، فالسنة مفسرة للقرآن.

كذلك ما يعلمونه من تنوع الأحرف، وأنّ هذه الآية أتى تفسيرٌ لها في الحرف الآخر من القرآن، أو أتى تفسيرها في موضع آخر من القرآن.

كما نقول مثلا في قول الله جلّ وعلا: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾[البقرة:٢٢٢]، في أولها قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ هنا هل يُكتفىٰ في جواز إتيان المرأة الحائض أن تطهر أم لابدّ أن تغتسل؟ لا بد لهذا من تفسير، في القراءة الأخرىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يطَّهَّرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾.

في شواهد كثيرة لذلك؛ يعني أن القرآن يفسر بعضه بعضا، والقرآن منه الأحرف السبعة التي أُنزلت علىٰ النبي ﷺ، ومن الأحرف السبعة القراءات السبع المعروفة والعشر التي بقيت في الأمة من مجموع الأحرف السبعة.

فإذن القرآن يفسر بعضه بعضا، والصحابة رضوان الله عليهم كانوا يرجعون الآية التي يحتاجون إلىٰ تفسيرها إلىٰ موضع آخر أو إلىٰ قراءة أخرىٰ فيتضح المعنىٰ لهم وهم أهل تدبرٍ للقرآن؛ لأنهم امتثلوا قول الله جلّ وعلا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[النساء].

بعد عهده عليه الصلاة والسلام كثُر التابعون واحتاج الناس إلىٰ أن يُفَسَّر لهم القرآن، وسبب زيادة التفسير في عهد الصحابة عن عهد النبي ﷺ أنّ الحاجة إليه دعت، وذلك أنّ الصحابة مع النبي ﷺ كانوا يشهدون التنزيل ويعلمون كثيرا من السنة ويعلمون القرآن والأحرف، وذلك بخلاف زمن التابعين؛ فإنهم كانوا أقل في ذلك من الصحابة رضوان الله عليهم، فلذلك احتاج من بعدهم إلىٰ أن يفسِّر الصحابة لهم ذلك.

أيضا من المهمّات في التفسير التي تميز بها الصحابة رضوان الله عليهم في عهده عليه الصلاة والسلام وبعد عهده العلم بلغة العرب؛ لأنّ القرآن أُنزل بلسان عربي مبين، ومن سُبل فهم هذا القرآن أن يكون المتدبِّر له علىٰ علم بلغة العرب، فلغة العرب سبيل فهم القرآن؛ لأنّ القرآن جاء بلسان العرب قال جلّ وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم:٤]، فاللسان يبيِّن المعنىٰ معنىٰ

الكتاب معنىً ما أنزل الله جلّ جلاله، ولهذا يحتاج الصحابة إلىٰ معرفة موارد الكلمة في القرآن في لغة العرب، فيفسرونها بما دلت عليه في اللغة.

وعمر رضي الله عنه -علىٰ سبيل المثال في ذلك- لما كان يتلو سورة النحل في يوم الجمعة علىٰ المنبر وقف مرّة عند قوله جلّ وعلا: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾[النحل]، فقال عمر: ما التخوف؟ كأنّه أشكل عليه معنىٰ التخوف في هذه الآية، فقام: رجل من المسلمين فقال له: يا أمير المؤمنين (التخوف) في لغتنا التنقص قال شاعرنا أبو كبير الهذلي:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تامِكًا قَرِدًا كما تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ

وابن عباس رضي الله عنه يقول: كنت لا أعلم معنىٰ ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] حتىٰ أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها. يعني ابتدأتها قبله ففهم منها معنىٰ ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني ابتدأهما علىٰ غير مثال سابق لهما.

وابن عباس له في الاحتجاج بالشعر وباللغة الميدان الواسع، وبمطالعة قصته مع نافع بن الأزرق وصاحبه وأسئلة ذينك الرجلين لابن عباس يتضح هذا، فإنهما رأيا ابن عباس رضي الله عنهما -يعني عن ابن عباس وعن أبيه- يفسر القرآن ولا يسأل عن آية حتىٰ يفسرها، وهو في ذلك حري لدعاء النبي ﷺ له بذلك، فقال نافع لصاحبه: قم بنا إلىٰ هذا الذي يجترئ علىٰ تفسير القرآن، نسأله عن مَصَادِقِهِ من لغة العرب، فأتيا ابن عباس فقالا له: يا ابن عباس إنّا سائلوك عن آيٍ من القرآن لتخبرنا بمعناها، علىٰ أن تبين لنا مصادق كلامك من كلام العرب. فقال: اسألا عما بدا لكما. قالا: ما معنىٰ قول الله جلّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥]- في سورة المائدة- ما الوسيلة هنا؟ فقال ابن عباس: الوسيلة الحاجة. فقالا له: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم ألم تسمعا إلىٰ قول عنترة:

إنّ الرجال لهم إليك وسيلة أن يأخذوك تكحلي وتخضبي

قالا: فما معنىٰ قول الله جلّ وعلا: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾[المعارج]، ما العزون؟ فقال ابن عباس: العزون الجماعات في تفرقة. جماعة هنا وجماعة هنا وجماعة هنا. فقالا له: وهل تعرف العرب ذلك؟ -وهما يسألانه ليس للاستفادة من ابن عباس ولكن ليُحرجاه- قال: نعم ألم تسمعا إلىٰ قول الشاعر:

فجاءوا يُهرعون إليه حتىٰ يكونوا حول منبره عزينا

واحتجاج الصحابة في التفسير بلغة العرب كثير في ذلك.

فإذن يكون عندنا هنا أنّ مصادر الصحابة رضوان الله عليهم في التفسير عدة:

- فمن مصادرهم في التفسير القرآن بأحرفه السبعة وبالقراءات؛ لأنّ القرآن يفسر بعضه بعضا؛ لأنه

---

(١) سورة: الأنعام؛ الاية (١٤)، يوسف؛ الآية (١٠١)، إبراهيم؛ الآية (١٠)، فاطر؛ الآية (١)، الزمر؛ الآية (٤٦)، الشورىٰ؛ الآية (١١).

مثاني.

- ومن مصادر الصحابة في التفسير السنة فإنّ النبي ﷺ فسر لهم آيا تنصيصا وسنته تفسر لهم آيات كثيرة من القرآن لا علىٰ وجه التنصيص.

- كذلك من مصادر التفسير عند الصحابة أسباب النزول، لهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما من آية أنزلت إلا وأنا أعلم متىٰ أنزلت وأين أنزلت، والله لو أنّ أحدا علىٰ ظهر الأرض عنده علم بالقرآن ليس عندي تبلغه المطي لرحلت إليه. وابن مسعود كان من أعلم الصحابة بأسباب النزول، وهكذا غيره.

فمن مصادر التفسير عند الصحابة أنهم كانوا يعلمون أسباب النزول.

- كذلك معرفتهم بلغة العرب فإنهم كانوا أهل علم باللسان العربي كما ذكرنا لكم شواهد ذلك.

- كذلك من مصادر التفسير عند الصحابة رضوان الله عليهم العلم بأحوال العرب؛ لأنّ القرآن نزل يفصل أحوال الناس، ففيه حديث عن العرب، فيه حديث عن مشركي العرب، فيه حديث عن أهل الكتاب، فيه حديث عن أنكحة العرب، فيه حديث عن بيوع العرب، فيه حديث عن علاقات القبائل بعضها ببعض، وهكذا في أشياء شتىٰ فالعلم بأحوال العرب، العلم بتاريخ العرب، بقصص العرب هذا يورث العلم بمعاني القرآن مثلا في قول الله جل وعلا: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾[البقرة:١٨٩]، أمر بإتيان البيوت من الأبواب وترك الإتيان للبيوت من ظهرها، بمعرفة تاريخ العرب وحال العرب في ذلك نعلم معنىٰ هذه الآية، كذلك فيما يتعلق بالأنكحة، كذلك فيما يتعلق بأحوال البيوعات والتجارات التي كانت عند العرب، وهكذا في أنحاء شتىٰ.

فمن مصادر التفسير عند الصحابة؛ يعني من مراجع الصحابة في التفسير العلم بأحوال العرب التي كانوا عليها، فإنّ من لم يعلم أحوال العرب كانوا عليها في عقائدهم وفي دياناتهم وفي تعبداتهم وفي علاقاتهم الاجتماعية وفي تجاراتهم إلىٰ آخر هذه الأحوال فإنّه لن يُحسن التفسير؛ لأنه سيجعل التفسير يناسب قوما آخرين غير الأوائل، والقرآن نزل للأولين والآخرين ومعرفة السبب يورث العلم بالمسبب، والعبرة -كما هو معلوم- بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ ولكن لابدّ من معرفة ما تشتمل عليه الآية أولاً ويدخل فيها من جهة المعنىٰ من باب الأولية.

- كذلك من مصادر التفسير عند الصحابة سؤال بعضهم بعضا، فإنّ ابن عباس سأل عمر رضي الله عنه عن المرأتين اللتين تظاهرتا علىٰ رسول الله ﷺ في قول الله جلّ وعلا: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[التحريم:٤]،فسأل ابن عباس عمر رضي الله عنهم أجمعين

فقال: من المرأتان اللتان تظاهرتا علىٰ رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: عائشة وحفصة.

فالصحابة يسأل بعضهم بعضا عن التفسير، فصار من مصادر التفسير عند الصحابة سؤال بعضهم بعضا، فيسأل الصغير الكبير، ويسأل من لا علم عنده من عنده علم.

فصار عندهم احتجاج في التفسير بالقرآن وبالسنة وباللغة وكذلك بأقوال الصحابة، إلىٰ تفاصيل في ذلك يضيق المقام عن بسطها.

الصحابة رضوان الله عليهم توسّعوا في التفسير وكان من مشاهيرهم في التفسير:

عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وكانت ولادته في شِعْب أبي طالب قبل الهجرة بثلاث سنين، ودعا له النبي ﷺ عدة مرات بأنْ يعلمه الله التأويل وأنْ يعلمه الفقه؛ فقال: «**اللّٰهمَّ فقّهه في الدين**»، وقال: «**اللّٰهمَّ علمه الحكمة**»، وقال: «**اللّٰهمَّ علمه التأويل**» في حوادث مختلفة وفي رواية مجتمعة قال: «**اللّٰهمَّ فقّهه في الدين، وعلمه التأويل**»، فبرز ابن عباس في التفسير كثيرا.

وكذلك **عبد الله بن مسعود**.

وكذلك **عائشة**.

وكذلك **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك **علي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهؤلاء الخمسة يكثر النقل عنهم في التفسير: ابن عباس وابن مسعود وعائشة وعمر وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

تميّزت تفاسير الصحابة بأشياء:

♦ فمما تميزت به تفاسير الصحابة أنّها تفاسير اشتملت علىٰ الألفاظ القليلة والمعاني الكثيرة، ولهذا من أتىٰ بعدهم فإنما يحوم حول كلام الصحابة، ولهذا قال ابن رجب في كتابه «فضل علم السلف علىٰ علم الخلف» قال: كلام السلف قليل كثير الفائدة وكلام الخلف كثير قليل الفائدة. فمما يظهر لكَ في تفاسير الصحابة أنّها كلمات قليلة ولكن تحتها المعاني الكثيرة.

♦ ثانيا تميزت تفاسير الصحابة بأنها سليمة من البدع، سليمة من الضلال في الاعتقاد؛ لأنهم أئمة المتقين وأئمة السلف وإليهم المرجع في التوحيد والعقيدة، فتفاسيرهم مضمونة لا غلط فيها ولا إشكال فيها، فمن أخذها فهو يأخذ مطمئنا، فأما تفاسير من بعدهم فحصل فيها الانحراف بقدر ما عند من بعدهم.

♦ من مميزات تفاسير الصحابة أن تفاسيرهم يكثر فيها اختلاف التنوع ويقلّ فيها اختلاف التضاد، واختلاف التنوع معناه أنْ يكون يعبّر عن تفسير الآية بشيء هو من مفرداتها لا بشيء كلي يشمل جميع المعاني ولكن ببعض مفرداتها، كما فسروا مثلا ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[1] فسره بعضهم بالقرآن، وفسره

(١) سورة: الفاتحة؛ الآية (٦)، الصافات؛ الآية (١١٨).

بعضهم بالسنة، وفسره بعضهم بالإسلام، وهذه من اختلافات التنوع لأنّ القرآن والسنة والإسلام بعضها يدل علىٰ بعض، ولا يتصور قرآن بلا سنة أو سنة بلا إسلام، وهذا يسمىٰ من اختلاف التنوع في مباحث هذا العلم وهو اختلاف التنوع واختلاف التضاد فصلها الشيخ تقي الدين ابن تيمية في رسالته؛ في أصول التفسير.

بعد زمن الصحابة تكونت مدارس، لا شك أنّ كل صحابي له تلامذة أخذوا عنه:

فابن مسعود في الكوفة له تلامذة أخذوا عنه التفسير.

وابن عباس في مكة له تلامذة أخذوا عنه التفسير.

فمثلا من تلامذة ابن مسعود عبيدة السلماني والربيع بن خثيم في غيره من علماء التابعين في التفسير، من تلامذة ابن مسعود في التفسير سعيد بن جبير وعكرمة وطاوس وغير أولئك.

فإذن الصحابة الذين فسروا القرآن وكذلك علي في المدينة كلٌّ منهم صار له تلامذة أخذوا عنه التفسير.

من أبرز تلامذة ابن عباس في التفسير مجاهد بن جبر أبو الحجاج، وقد عرض التفسير علىٰ ابن عباس ثلاث مرات؛ عرض القرآن من أوله إلىٰ آخره يسأل ابن عباس عن التفسير، فيجيبه ابن عباس عن التفسير، ولهذا قال عدد من أئمة السلف: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. لأنّ مجاهدا رَحِمَهُ ٱللَّهُ عرض التفسير علىٰ ابن عباس ثلاث مرات كما ذكرت.

هذه المدارس صار فيها نوع اختلاف، مدرسة ابن مسعود فيها اختلاف عن مدرسة ابن عباس، من أوجه الاختلاف مثلا أنّ ابن مسعود كان ينحىٰ كثيرا في التفسير منحىٰ التفسير بأسباب النزول وبالقراءات، ابن عباس كان ينحىٰ كثيرا في التفسير بالسنة وباللغة العربية بالاجتهاد، فهنا توسّع صارت هناك مدرسة ومدرسة، كلّ مدرسة لها خصائصها التي تميزها عن غيرها.

بعد التابعين أتىٰ تبعُ التابعين، فتوسّعوا أيضا في التفسير، ومن ثمّ بدأ تدوين التفسير بدأت كتابة التفسير، كان التفسير ينقل حفظا؛ ينقله الصحابة عن بعض الصحابة، ينقله التابعون عن الصحابة عن النبي ﷺ، ثم نقله تبع التابعين عن التابعين عن الصحابة، ثم ابتدأ تدوين التفسير فبدأ هناك من يصنف في التفسير؛ كما صنف السُّدِّي تفسيره -أعني به السُّدِّي الكبير إسماعيل بن عبد الرَّحمٰن وصنّف أيضا عبد الرَّحمٰن بن زيد بن أسلم تفسيره، وهكذا في غيرهم.

هذه الكتابات في التفسير انتقلت علىٰ شكل كتب، ثم توسعت الكتابة في التفسير إلىٰ أن وصلنا إلىٰ تفاسير جمعت المأثور عن الصحابة وعن التابعين عن تبع التابعين في التفسير بالإسماع، مثل تفسير عبد بن حميد، تفسير عبد الرزاق، تفسير عبد الرزاق مطبوع وتفسير عبد بن حميد لم يطبع، ومثل تفسير الإمام أحمد، ومثل تفسير ابن أبي حاتم، ومثل تفسير ابن جرير الطبري.

هذه التفاسير دَوَّنَت تفاسير الصحابة بالأسانيد هذه المدرسة تسمىٰ **مدرسة التفسير بالأثر**؛ يعني المدرسة التي يفسِّر فيها المفسر بناء علىٰ ما ينقله من كلام السلف علىٰ الآية، فينقل بإسناده عن الصحابة، ينقل بإسناده عن التابعين في تفسير الآيات، ولا تجد في تلك التفاسير الكثير التفسير الخارج

عن تفاسير السلف.

هناك في خضم هذه الفَترة -يعني إلىٰ نهاية القرن الثالث تقريبا- ابتدأت كتابات مختلفة فيها تفسير القرآن بالنحو؛ لأنّه نشأت مدارس نحوية، نشأت مدرسة نحاة البصرة -سيبويه ومن معه-، ونشأت مدرسة نحاة الكوفة، ثم بعد ذلك نحاة بغداد إلىٰ آخره، والنحو معتمد علىٰ القرآن، والمدرسة النحوية يؤثر نظرُها في النحو في التفسير، فصار هناك رأي في التفسير من جهة النحو، ورأي في التفسير من جهة اللغة، فصُنِّفت عدة مصنفات؛ كـ«معاني القرآن» للأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة، وكذلك مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنىٰ، في كتب علىٰ هذا النحو.

أتىٰ هنا ابن جرير وهو إمام المفسرين فصنف كتابه «جامع البيان»، وهو أعظم كتاب أُلِّف في تفسير القرآن بالإجماع، وبه عُدّ ابن جرير إمام الأئمة في التفسير وهو محمد بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ المولود سنة أربع وعشرين ومائتين (٢٢٤هـ) والمتوفىٰ سنة عشر وثلاثمائة (٣١٠هـ) صنف التفسير وجمع فيه ما تكلم عليه العلماء قبله في التفسير، غلب عليه الأثر ولكنه اعتنىٰ بالتفسير بالنحو والتفسير باللغة؛ يعني أنّ تفسيره صار فيه غلبة لمدرسة التفسير بالأثر؛ ولكن المدرسة الأخرىٰ في التفسير بغير الأثر وسيأتي تسميتها وتعريفها، هٰذه لها ...ونعني بالتفسير بالأثر كما ذكرت لك أن يفسر القرآن بنقل المفسر كلام السلف في التفسير بالأسانيد، أو يقول: قال ابن عباس في تفسير هٰذه الاية كذا، وقال مجاهد كذا وقال قتادة كذا وقال ابن مسعود كذا، إلىٰ آخر ما هنالك، هٰذه تسمىٰ مدرسة التفسير بالأثر.

المدرسة الأخرىٰ التي التي حدثت هي مدرسة التفسير بالرأي.

ومدرسة التفسير بالأثر كانت قبل ابن جرير وبعد ابن جرير، فمن تفاسير العلماء التي تنتمي إلىٰ مدرسة التفسير بالأثر كما ذكرت لك «تفسير عبد الرزاق» و«عبد بن حميد» و«الإمام أحمد» و«ابن أبي حاتم» و«ابن جرير» ثم بعده «البغوي» و«ابن كثير» و«الدر المنثور» إلىٰ غير ذلك.

مدرسة التفسير بالرأي حدثت و مدرسة التفسير بالرأي اُختلف في تعريف الرأي فيها، ما معنىٰ التفسير بالرأي؟

ويجمعها أن يقال: التفسير بالرأي معناه التفسير بالاجتهاد والاستنباط.

والاجتهاد الذي عمِله أصحاب هذه المدرسة قسمان:

- اجتهاد محمود.
- واجتهاد مذموم مردود علىٰ صاحبه.

وقد جاء عن النبي ﷺ في غير ما حديث حسَّنَها بعض أهل العلم وضعفها آخرون أنّه قال: «**من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**»، وفي لفظ قال: «**من فسّر القرآن برأيه فقد أخطأ ولو أصاب**» ففيه ذمٌّ للتفسير بالرأي؛ ***٥٥لأنّ في الأول أنه إن فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار، وفي الثاني أنه إن فسر القرآن برأيه فقد أخطأ ولو أصاب، قال العلماء: هذا محمول علىٰ المعنىٰ التالي: وهو أنّ التفسير بالرأي إذا كان عن هوىٰ وعن انحراف فإنّه يكون تفسيرا برأيٍ يتبوأ صاحبه مقعده من النار. فحملوا قوله عليه الصلاة والسلام «**من قال في القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النّار**» لمن قال في القرآن برأيه الذي نشأ

عن هوىٰ لا عن أدلة صحيحة كما قدمنا؛ لأنّ الصحابة اجتهدوا في التفسير وقالوا في التفسير بأشياء لم ينقلوها عن النبي ﷺ، فإذا قلنا: إنه يُذم جميع أنواع التفسير بالرأي -يعني بالاجتهاد والاستنباط- فإذن يُذم الصحابة علىٰ اجتهادهم في التفسير، وهذا باطل قطعًا.

فإذن يكون قوله عليه الصلاة والسلام: «**من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**» محمول علىٰ من قال في القرآن برأيه الذي نشأ عن هوىٰ، كقول أهل الفرق المنحرفة والفرق الباطلة؛ كقول المرجئة والقدرية في القرآن وكقول الخوارج وقول المعتزلة وقول الأشاعرة وأشباه هذه الأقوال في القرآن.

فمن قال في القرآن برأيه وحمل معاني القرآن علىٰ رأي حَدَثَ -بالإجماع بعد زمن النبوة بمائة سنة أو أكثر- فإنّه متوَّعد بأن يتبوأ مقعده من النار، أما قوله عليه الصلاة والسلام: «**من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ وإنْ أصاب**» قال العلماء معناه: من قال في القرآن برأيه وكان رأيه عن جهل لا عن علم فوافق الصواب اتفاقا ولم يأت بالصواب عن علم ويقين؛ عن علم وبينة.

مثلا واحد يفسر القرآن هكذا بمِزاجه بما يطرأ في ذهنه يظهر له معنىٰ للآية فيفسر، فهذا وإن أصاب –الصواب في التفسير– لكنه أخطأ ومتوعد لأنه تجرأ علىٰ القرآن وفسره بغير علم.

فإذن مدرسة التفسير بالرأي لها اتجاهان:

↖ من أهلها من فسّر القرآن بالرأي الناشئ عن هوىٰ، كما فسرت المعتزلة بآرائهم وأهوائهم، وكما فسرت الخوارج والإباضية والرافضة القرآن بآرائهم وأهوائهم، وكما فسر الأشاعرة والماتريدية القرآن بآرائهم وأهوائهم، وتركوا تفاسير السلف إلىٰ تفاسير محدثة، فهؤلاء مذمومون؛ لأنهم فسروا القرآن برأي لا دليل عليه ولا حجة فيه، وإنما نشأ ذلك التفسير عن هوىٰ منهم في ذلك التفسير، فهذا رأي مذموم ومردود علىٰ صاحبه.

وتمثله عدة تفاسير من التفاسير المعروفة التي ينتمي أصحابها إلىٰ شيء من الفرق التي ذكرت لكم بعضها.

↙ **القسم الثاني** من مدرسة التفسير بالرأي: الذين فسروا القرآن بالاجتهاد والاستنباط وكان اجتهادهم واستنباطهم صحيحًا، وهذا إنما يسوغ إذا كمَّل المفسر شروط جواز التفسير بالاجتهاد والاستنباط، وقد تُجمع الشروط التي بها يجوز للمفسر أن يفسر القرآن بالاجتهاد والاستنباط فيما يلي:

الشَّرط الأول: أن يكون عالما بعقيدة السلف وبالتوحيد؛ لأن العلم بذلك به يأمن المفسر من أن يفسر القرآن عن هوىٰ أو علىٰ نحو من أراء المعتزلة أو الجهمية أو الخوارج أو القدرية أو المرجئة إلىٰ آخر تلك الفرق.

الثاني: أن يكون عالمًا بالقرآن يمكنه أن يفسر القرآن بالقرآن، حافظا للقرآن أو يستطيع أن يرد المتشابه في موضع إلىٰ المحكم في موضع، وحبذا لو كان عنده علم بالقراءات.

الثالث: أن يكون عالمًا بالسنة حتىٰ يجتهد في آية التفسير فيها منقول عن النبي ﷺ.

الرابع: أن يكون عالما بأقوال الصحابة حتىٰ لا يخترع تفسيرًا ويُظهر تفسيرا الصحابة علىٰ خلافه، وباليقين أنّ التفسير الذي أُحدث والصحابة علىٰ خلافه نقطع ببطلانه، وابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ من المهتمين

بهذا، فمثلا عند قوله جلّ وعلا في سورة الأعراف: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ [الأعراف:١٩٠]، نقل عن الصحابة والتابعين أنّ المراد هنا بالضمير في الآية آدم وحواء، قال: ونُقل عن الحسن أنّه قال: المراد بهم اليهود والنصارىٰ. -يعني من جهة الجنس- قال: وهذا القول باطل وإنما حكمنا ببطلانه لإجماع الحجة من الصحابة علىٰ خلافه فيكون القول به محدثا علىٰ خلاف أقوال الصحابة.

وهذا من المهم للمفسر أنْ يرعَ أقوال الصحابة حتىٰ لا يحدث قولا بخلاف أقوال الصحابة؛ لأننا نجزم أنّه لا يمكن أن يكون ثَمّ تفسير يغيب عن الصحابة البتة ويكون عند من بعدهم؛ لأنّ الصحابة هم أولىٰ بإدراك الصواب.

فإذا كان تفسير الآية لا يُعرف عند الصحابة والصحابة يفسرون بخلاف هذا التفسير الذي اجتهد فيه صاحبُه أو استنبطه فإنه نجزم بأنّ هذا التفسير غلط فالحق لابدّ أن يكون محفوظا في الصحابة؛ لأنّهم أهل العلم بالقرآن وأوْلىٰ من يعلم القرآن.

[الخامس]: أيضا أن يكون عالما بأحوال العرب -كما ذكرنا- حتىٰ لا ينزل آيات القرآن علىٰ غير تنزيلها.

[السادس]: كذلك أنْ يكون عالما باللغة العربية؛ في نحوها وفي مفرداتها وفي صرفها وفي علم المعاني من علوم البلاغة، وهذا العلم الأفضل أن يكون بالقوة الذاتية يعني بالعلم الذاتي في نفسه وإن كان بالقوة القريبة يعني بالمراجعة والكتب فلا بأس إذا استقامت له أصوله.

وهناك شروط أخر ذكرها طائفة من أهل العلم.

المقصود من هذا أن لا يجترئ من يظن نفسه يحسن التفسير علىٰ التفسير بالاجتهاد والاستنباط ولم تكتمل عنده آلاتُه؛ لأنّ القول في التفسير شديد ولهذا حرّم جماعة من السلف القول في القرآن بالاجتهاد، وقالوا: لا نفسر القرآن إلا بالنقل عن الصحابة، وبعد الصحابة ليس لأحد حق في أن يفسر القرآن. وهو مذهب جماعة قليلة من التابعين.

هذه المدرسة مدرسة التفسير بالرأي بقسيمها -الرأي المحمود والرأي المذموم- يمكن أن نُجمل التفاسير التي تنتمي لهذه المدرسة إلىٰ أربع مدارس كبرىٰ؛ وذلك لأنّ التفسير بالرأي أكثر بكثير جدا من التفسير بالأثر، التفاسير التي تنقل بالأثر قليلة بالنسبة للتفاسير التي تفسر بالرأي، التفاسير بالرأي يأتينا الآن في المدارس بيان تلك التفاسير، فلها عدة مدارس:

① الأول في التفسير بالرأي مدارس **فسرت القرآن بالنظر إلىٰ العقائد**، وهذه متنوعة، فكل أصحاب عقيدة عانوا تفسير القرآن علىٰ حسب اعتقادهم.

فالرافضة لهم تفاسير في القرآن «تفسير الطبرسي» و«تفسير الطوسي» وهلمّ جرا.

المعتزلة فسروا القرآن، يريدون بذلك أن يبثوا عقائدهم في تفسير القرآن، في أغراض معلومة من طالع أوائل كتب التفاسير التي تفسر علىٰ هذا النحو عَلِم ذلك.

الخوارج لهم تفاسير علىٰ هذا النحو.

الأشاعرة لهم تفاسير كثيرة علىٰ هذا النحو مثل «تفسير القرطبي» ومثل «تفسير أبي السعود» ومثل «تفسير الرازي» وأشباه هذه التفاسير.

الماتريدية أيضا لهم تفاسير مثل «تفسير النسفي» وتفسير الآلوسي «روح المعاني» وغير هذه التفاسير.

هذا قسم، فسروا القرآن من جهة العقيدة، وقد يكون لهم اعتناء بأشياء أخر يكون لهم اعتناء بالفقه لهم اعتناء باللغة إلىٰ آخر ذلك؛ لكن لهم اعتناء بالعقيدة يعني بثُّوا العقائد في التفسير، وكان لهم همٌّ في أن يقرِّروا عقائدهم في كتب التفسير.

② **المدرسة الثانية** المنتمية إلىٰ مدرسة التفسير بالرأي: **مدرسة التفسير الموسوعي**، التفسير الموسوعي نعني به الذي لم يشترط صاحبُه في تفسيره علىٰ نفسه نوعا من أنواع علوم التفسير، ولكنه طرق كلّ علم من علوم التفسير، فتجده يفسر القرآن بالأثر، ويفسره بأسباب النزول، ويفسره باللغة، ويفسره بالأحكام الفقهية، ويفسره بالأحوال العامة بالعلوم المختلفة –بالتاريخ، بالفلك، بالرياضيات إلىٰ آخره– كل علم عنده يدخله في التفسير، هذا يسمىٰ التفسير الموسوعي، ومن أشهر التفاسير التي تنتمي إلىٰ هذه المدرسة «تفسير مفاتيح الغيب» لفخر الدين الرازي وتفسير الآلوسي «روح المعاني»، فإنهم جمعوا فيها كل شيء، حتىٰ قيل عن تفسير الرازي فيه كل شيء إلا التفسير.

وهذه المدرسة تمتاز بكبر تفاسيرها فمثلا «تفسير الرازي» اثنين وثلاثين جزءا و«تفسير الألوسي» ثلاثين جزءا كبيرا.(١)

③ المدرسة الثالثة: **التفاسير اللغوية النحوية**، وهذه يعتني أصحابها بالنحو، بالإعراب باللغة بالاستقاء وهذا مثل تفسير أبي حيان الأندلسي «البحر المحيط» ومثل «إعراب القرآن» للنّحاس وأشباه هذه الكتب.

④ القسم الرابع والأخير: **التفاسير الفقهية** وهي **الموسومة بتفاسير أحكام القرآن**؛ لأنهم جعلوا همهم في التفسير أن يقرروا أحكام القرآن، وذلك لأنهم يكونون في الغالب يكونون فقهاء، والفقيه يعتني بعلمه فإذا فسر القرآن يأتي علمه الذي برز فيه في التفسير، فتجده يطيل أو يعتني بآيات الأحكام أو الآيات التي فيها أحكام فقهية أو قواعد فقهية أو أصولية.

مدرسة التفاسير الفقهية أو أحكام القرآن متنوعة بحسب المذاهب، فالحنفية لهم تفاسير، والشافعية لهم تفاسير فقهية يذكرون فيها أحكام القرآن علىٰ طريقتهم؛ يعني علىٰ طريقة مذهبهم الفقهي، الحنابلة كذلك، والمالكية كذلك.

فمثلا من تفاسير **الحنفية** في ذلك «أحكام القرآن» للجصاص.

ومن تفاسير **الشافعية** «أحكام القرآن» لإلكيا.

وللمالكية «أحكام القرآن» لابن العربي و«أحكام القرآن» للقرطبي.

وللحنابلة «أحكام القرآن» لعبد الرزاق الرسعني و«أحكام القرآن» لابن عادل الحنبلي.

---

(١) انتهىٰ الوجه الأول من الشريط.

فكلّ مذهب اعتنىٰ بالأحكام الفقهية علىٰ مذهبه وجعلها تفسيرا للقرآن.

هذه مجموع مدارس التفسير بالرأي، كلّ تفسير من هذه التفاسير له منهج، يعني له طريقة اعتمدها في تفسيره.

ولو عرضنا لتفسير واحد من هذه التفاسير سواء في مدرسة التفسير بالأثر أو مدرسة التفسير بالرأي لنبيّن شروطه وطريقته لاحتاج إلىٰ درس خاص في ساعة أو ساعتين لنبيّن شروط فلان في تفسيره، مثلا تفسير ابن جرير نحتاج فيه إلىٰ درسين أو ثلاثة، تفسير ابن كثير نحتاج فيه أيضا لبيان منهجه لكذا، أحكام القرآن للقرطبي نحتاج إلىٰ وقت فيها؛ لكن المقصود الإشارات التي بها يمكن أن تدخل هذا العلم الواسع -علم مناهج المفسرين-.

هذه المدارس ظَلَّت تمشي، وفي خِضَمِّها ظهر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وابن القيم، شيخ الإسلام كان يفسر القرآن لكنه لم يؤلف تفسيرًا، والذي كتبه ووجدت في مجلدة مستقلة أنه كان يعتني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفسير بتفسير آيات أشكلت علىٰ المفسرين؛ يعني آيات كثر فيها الخلاف بين المفسرين ولم يتّضح الراجح فيها، فيجتهد ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حلّ ما أشكل عليهم في تفسيرها.

وقد ندم شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ آخر عمره علىٰ أنه لم يجعل النصيب الأوفر في عمره للتفسير؛ لأنّه بالتفسير يستطيع المصلح والمجدد ويستطيع الإمام والعالم أن يقرر ما يريد، يقرر مناهج السلف، يقرر التوحيد، يقرر العبادات، يقرب الناس إلىٰ ربهم، يُذَكِّر بالآخرة يعظ، بالتفسير يستطيع أن يصل الناس في جميع مشاربهم، شيخ الإسلام وابن القيم لم يفسروا كل القرآن وإنما فسروا واعتنوا بآيات أشكلت وبما يهمّ تفسيره من آيات أو سور في التوحيد، مثل تفسير سورة الإخلاص، تفسير سورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، تفسير المعوذتين وأشباه ذلك، آية الكرسي أو آيات أشكل تفسيرها.

إذن شيخ الإسلام وابن القيم تميّزت تفاسيرهم بشيئين:

أولا: أنهم اعتنوا بتفسير سور فيها التوحيد والعقيدة بعامة.

[ثانيا]: أو اعتنوا بتفسير آيات أشكل تفسيرها علىٰ العلماء من قبل.

ظلّت هذه المدارس تمشي وتزحف، والخلف يقلدون من قبلهم فيها، وهكذا إلىٰ أن وصلنا إلىٰ مشارف العصر الحديث، أنا سرت بكم تاريخيا مرورا بمدارس التفسير حتىٰ يكون عندك تصور إجمالي للتفاسير واتجاهات التفاسير منذ نشأة التفسير في زمن النبي ﷺ إلىٰ وقتنا الحاضر.

بدأ العصر الحديث، والعصر الحديث يحتاج إلىٰ ضابط، بداية العصر الحديث هذا متىٰ؟ فبالنظر إلىٰ اختلاف وجهة التفسير يمكن أن نقول: إنّ العصر الحديث يبدأ في التفسير ببداية القرن الرابع عشر يعني من ألف وثلاثمائة هجرية فما بعد؛ وذلك لأنّ التفاسير فيما قبل هذا التاريخ سارت علىٰ نمط التفسير قبل ذلك.

فمثلا في القرن الثالث عشر الهجري ظهر «تفسير الآلوسي» قد سار علىٰ نحو ما قبله، وظهر «تفسير الخطيب الشربيني» علىٰ نحو ما قبله، وظهر «تفسير صديق حسن خان» علىٰ طريقة ما قبله، وظهر تفسير الشوكاني «فتح القدير» علىٰ طريقة ما قبله؛ يعني أنه منذ ابتداء تميز التفاسير في مدرسة التفسير بالرأي

علىٰ نحو ما ذكرنا لم يظهر اختلاف كثير في مدارس التفسير حتىٰ ابتدأنا في العصر الحديث.

العصر الحديث ظهرت تفاسير مختلفة ومتنوعة المشارب واجتهادات كثيرة في التفسير، وكان لذلك سبب، ولابد من معرفة السبب حتىٰ يُتصور لمَ صارت تلك التفاسير؟

لمّا جاءت الحملة الاستعمارية علىٰ البلاد الإسلامية وبخاصة حملة نابليون علىٰ مصر وصار فيها ما صار مِنْ ضرب لأصول العلوم الإسلامية، نشأت ناشئة طُلب منهم أن يذهبوا إلىٰ بلاد الغرب؛ أن يذهبوا إلىٰ فرنسا ليدرسوا فيها العلوم -الأدب أو علوم حديثة ما شابه ذلك -، وكان الأزهر إذْ ذاك يمانع أن يرسل أحد من أبناء المسلمين إلىٰ أوربا، فصار هناك اقتراح أن يذهب مع كل طائفة عالم من علماء الأزهر حتىٰ يشرف علىٰ أولئك الطلبة وحتىٰ يعلمهم ويحجزهم من الانحراف إن كان، فذهب في مقدمة من ذهب بعض علماء الأزهر -من غير تسمية-، وهؤلاء لما رجعوا مع التلامذة تأثروا بما عند الغرب، صار عندهم شيء من الإحراج، الغرب عنده كذا وكذا من التقدمات وبلاد المسلمين في ذلك الوقت في تأخر وعدم تطور مدني، فصاروا في إحراج من جهة أنّ سبب التأخر في ذلك الوقت عزي إلىٰ الدين، وسبب التأخر عزي إلىٰ اتباع الناس للكتب القديمة وللتفاسير القديمة والناس ظلّوا علىٰ ذلك المنحىٰ وهي التي أخرتهم عن التطور، فظهرت هناك أقوال كثيرة تشكك في الإسلام وتشكك في القرآن وتشكك في الدين وتشكك في السنّة إلىٰ غير ذلك، حتىٰ صار ذلك شائعا في الناس.

بعض ضعاف النفوس، في ضوء ما قلنا ظهرت فئات كثيرة من المسلمين تشككت في الدين؛ في القرآن في السنة وبسبب تلك البعثات وخروج مدارس الاعتناء باللغات الاعتناء باللغات الأجنبية والاعتناء بالآداب الغربية والاهتمام ببحوث المستشرقين إلىٰ غير ذلك.

مِن العلماء من نظر إلىٰ هذا الداء فوجد أنّ سبيل إرجاع المسلمين إلىٰ دينهم أن يُعتنىٰ بتفسير القرآن بتفسير عقلي يعظم القرآن في نفوس الناس حتىٰ لا يبعدوا عن الدين، وظهرت في هذا مدرسة محمد عبده أحد مشايخ الأزهر الكبار وأحد الذين اعتنوا بتفسير القرآن، ومن امتداد مدرسته محمد رشيد رضا الذي كتب «تفسير المنار» معتمدا في كثير منه علىٰ تفاسير شيخه محمد عبده.

هذا الوصف الذي ذكرنا أعقب ضعافا في نفس بعض العلماء جعلهم يحملون القرآن علىٰ ما عند الغرب من العلوم.

فمثلا الآيات التي فيها ذكر لبعض المعلومات الفلكية يجعلونها دليلا علىٰ صحة القرآن وأن القرآن سبق الغرب لذلك، وكذلك المعلومات الطبية أو المعلومات الغيبية وهكذا.

ففسروا القرآن بتفسير عقلي خرجوا فيه عن التفاسير السابقة وعن تفاسير السلف وعما يجوز لأجل أن لا يشككوا الناس في القرآن وأن يقبل الناس القرآن وأن يعظموا القرآن.

فأتىٰ وفسر الآيات التي فيها بعض الكلام علىٰ الأجنّة في ما عند الغرب في ذلك وبعض الآيات الغيبية في الطب مثلا أو في الفلك أو في حال المطر أو ما أشبه ذلك أو في العيون في الأرض أو الأشجار أو النبات أو الجبال إلىٰ غير ذلك بتفسيرات توافق ما عند الغرب من العلوم.

وانهال الناس علىٰ محمد عبده ويحضرون تفسيره؛ لأنه جعل تفسيره فيه الإصلاح وجعل فيه جدة

علىٰ ما كان عليه المفسرون من قبل، وضم إليه تلك التفاسير.

وانحرف في كثير منها إذْ جعل القرآن تبع لمكتشفات الغرب، ومن المعلوم أنّ تلك المكتشفات أو تلك النظريات تصلح في وقت وربما أتىٰ ما هو أفضل منها فأبطل تلك النظرية أو ما هو أعمق بحثا واستقراء فصارت الأولىٰ غير صحيحة، فحمل القرآن علىٰ النظريات العلمية وتفسير القرآن بالنظريات العلمية هذا لا يسوغ؛ لأنه حمل للقرآن الذي هو حق ثابت لا يتغير بشيء قد يتغير.

نعم إنّ القطعيَّ لا يناقض قطعيا، واليقيني لا يناقض اليقيني فالعلم اليقيني لا يمكن أن يأتي في القرآن شيء بخلافه، وكذلك العلم القطعي لا يمكن أن يأتي في القرآن شيئا بخلافه، لكن تلك النظريات من أجل الضعف حُملت عليها آيات من القرآن.

فنشأت في العصر الحديث أولىٰ مدارس التفسير وهي تفسير القرآن بطريقة عقلانية يُجمع فيها ما بين مكتشفات الغرب والمكتشفات العصرية وما بين تفاسير المتقدمين، فجعلوا خليطا واهتموا بالأشياء الحديثة، وظهر لذلك «تفسير طنطاوي جوهري» وتفسير كما ذكرنا محمد عبده وفي خضم ذلك أنكرت بعض الغيبيات وفُسر القرآن بتفاسير باطلة، وأنكرت أشياء ظاهرة وكان في ذلك شيء من الانحراف في التفسير.

هذا نوع من مدارس التفسير التي ظهرت في العصر الحديث وسبب ظهور هذا النوع من التفاسير.

المدرسة الثانية من مدارس التفسير المعاصر: هي مدرسة **تفسير القرآن علىٰ هامش المصحف**؛ وكان هذا ممنوعا في الزمن الأول أنْ يُجعل القرآن في هامش المصحف؛ لأنّ القرآن يجب أن يبقىٰ كما هو وألاّ يُدخل عليه، ولكن لما توسع العصر وصار الناس بحاجة إلي شيء يبين لهم معاني القرآن مع آي القرآن، فجعلوا تلك التفسيرات في هامش المصحف؛ يعني مع المصحف في شيء واحد، فصارت هناك تفاسير مختصرة طُبعت مع المصحف وهذا نوع انتشر، فصار هناك من اختصر مثلا «تفسير الطبري» وجعله في هامش المصحف في السنوات الأخيرة، ومنهم من ألف تفسيرا لنفسه وجعله علىٰ هامش المصحف، ومنهم من اختصر أو طول إلىٰ آخره بهذا الشكل، وهذا شيء جديد لم يسبق له مثيل في الزمن الأول.

نوع ثالث من التفاسير ظهرت في العصر الحديث: **التفاسير الدعوية**، وكان لظهورها سبب وهو أنه في هذا العصر ونعني به ما بعد سنة ألف وثلاثمائة هجرية مع ظهور الفساد وبعد الناس عن الدين وتسلط الاستعمار والغزو الثقافي الذي حصل للمسلمين وإبعادهم عن دينهم وعن القناعة بشرع الله جلّ وعلا، ظهرت هناك جماعات مختلفة في العالم الإسلامي -العربي وغير العربي- فيها الدعوة لإرجاع الناس إلىٰ الدين ولا شك أنّ الداعية يحتاج إلىٰ أن يكون اعتماده علىٰ القرآن، لهذا احتاجت تلك الدعوات إلىٰ أن يفسر بعض منهم القرآن، فاعتنىٰ بعض كبار بعض أصحاب تلك الدعوات بتفسير القرآن، وتلك التفاسير كان المفسر يفسر فيها مراعيا شباب الدعوة التي ينتمي إليها، فمثلا فسّر بعضهم التفسير من جهة تفسير علىٰ طريقة مثلا جماعة التبليغ، وبعضهم فسّر القرآن علىٰ طريقة جماعة الإخوان المسلمين، وبعضهم علىٰ طريقة جماعة النورستانيين مثلا أو جماعة النور في تركيا، وبعضهم فسر علىٰ طريقة العلماء؛ علماء جمعية العلماء أو رابطة العلماء في الجزائر، وهكذا في الباكستان والهند ظهرت مدارس

كتفاسير الجماعة الإسلامية تفسير أبي الأعلىٰ المودودي وغير ذلك.

هذه التفاسير فيها تفسير بالرأي بجعل الواقع في التفسير؛ يعني نظروا في التفسير من جهة التأثير الدعوي في الناس، ففسروا القرآن وهم ينظرون إلىٰ الواقع لكي يؤثروا علىٰ الناس من طريق القرآن.

وهذه الطريقة لا شك أنه لابد أن يخطئ أصحابُها في بعض الأشياء؛ لأن من غلب علي الواقع في النظر إلىٰ القرآن لابد أن يحيد عن الصواب في بعض التفسير؛ لأن القرآن ليس لزمن دون زمن بل هو للأزمنة جميعا لهذا ظهر من خلال هذه التفاسير غرس الجوانب الدعوية في تلك الجماعات المختلفة في تفاسير أصحابها.

هذه مدرسة، ومن أمثلة تفاسير هذه المدرسة تفسير أبي الأعلىٰ المودودي «ترجمان القرآن»، وتفسير «في ظلال القرآن» للأستاذ سيد قطب وأشباه هذه التفاسير، و«الأساس في التفسير» لسعيد حوىٰ، وأشباه تلك التفاسير.

من التفاسير أيضا التي ظهرت في العصر الحديث تفاسير المعاني للغات أخر وهي المسماة **ترجمات القرآن** وهي تراجم لمعاني القرآن فظهر في أغلب اللغات الحية في العالم تفسير، وهنا يقولون تفسير للقرآن وهذا غلط؛ لأن القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين لا يمكن لأحد أن يترجمه لأي لغة كانت؛ ولكن الصواب أنها تراجم لتفسير القرآن فيأتي هذا الذي ترجم بنظر إلىٰ الآية ويفهم تفسيرها بمراجعة كتب التفسير ثم يترجم ما فهمه من التفسير، وإلا فإنّ القرآن لا يمكن أن يترجم إلىٰ أي لغة كانت؛ لأنّ لغة العرب شريفة وفوق كلّ اللغات، فمثلا خذ آية لا يمكن أن [تترجم] لآي لغة من اللغات مثلا في قول الله جلّ وعلا في سورة البقرة: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[البقرة:١٨٧]، فاللباس كيف [يترجم] باللغات الأخر؟ اللغة العربية فيها سعة لأصول الكلمات وكليات المعاني، ولهذا إذا أتت الترجمة فلا بدّ أنّ المترجم يترجم بالنظر إلىٰ تفسير الآية، فكل ترجمة للقرآن تعدّ تفسيرا.

ولهذا ظهرت في التراجم المختلفة تأثر تلك الترجمة بمذهب صاحبها، فإذا كان صاحبها قاديانيا أثر في ترجمته، هناك ملاحظات علىٰ بعض الترجمات من جهة مذهب صاحبها، فإذا أتىٰ لنعيم الجنة و[جحيم] النار فسرها علىٰ مشربه، إذا أتىٰ إلىٰ الرقم تسعة عشر (١٩) عظَّم ذلك، وإذا أتىٰ لبعض الغيبيات فسرها علىٰ طريقته ونحلته، وبعضها تراجم لمعاني القرآن سلفية طيبة لبعض اللغات الحية، وبعضها تفاسير أشعرية، وبعضها تفاسير ماتريدية، وبعضها تفاسير دعوية.

إذن تراجم معاني القرآن التي تراها هي شيء مُحدث في هذا العصر وتنتمي إلىٰ مدرسة التفسير بالرأي، ويمكن للناظر فيه أن يجعله تفسيرا، وأن يدرجه ضمن أي مدرسة من مدارس التفسير التي ذكرنا.

من الأشياء التي بقيت في هذا العصر المدارس السالفة للتفسير فامتدت مثلا:

تفسير القرآن بالنظر إلىٰ الأحكام الفقهية وهذا ظهرت له عدة تفاسير مثل تفسير «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» فإنّه اعتنىٰ بالفقهيات جدا.

وتفسير القرآن باللغويات؛ بالبلاغة أو بالنحو له عدّة تفاسير مثل تفسير «التحرير والتنوير» للطّاهر بن

عاشور.

والتفاسير الأثرية التي اعتمد فيها صاحبها علىٰ الأثر مثل تفسير الشيخ عبد الرَّحمٰن بن سعدي وغيره.

ومنها تفاسير نشأت -عقدية مختلفة-؛ تفاسير للرافضة، وتفاسير الإباضية، تفاسير للخوارج إلىٰ غير ذلك؛ يعني أنّ كل التفاسير القديمة جاءتنا من جديد.

فهذا العصر جاء فيه تفاسير جديدة علىٰ غير التفاسير القديمة، ولهذا ينبغي لطالب العلم المهتم بالقرآن إذا أراد أن يراجع تفسيرا أو أن يجعل في بيته تفسيرا لكتاب الله جلّ وعلا أن يحرص أتمّ الحرص علىٰ أن يسأل أهل العلم هل هذا التفسير تفسير مأمون أم لا؛ لأنّ من التفاسير ما لا يُحمد، وربما أضل من ينظر فيه، فلا بد أن تسأل، تأخذ تفسيرا منحرفا في العقيدة تفسير للمعتزلة أو تفسير للأشاعرة مثل «تفسير الفخر الرازي» تنظر فيه ربما هذا حصلت عند شبه كثيرة في التفسير.

التفاسير كما رأيت كثيرة جدا تبلغ مئات من التفاسير وأعدادا كبيرة، هذا من جهة التفاسير التي فسرت القرآن كاملا.

أما من فسر سورة من القرآن فسر جزءًا من القرآن فهذا ليس حديثنا فيه، مع أنه يمكن أن يدرج ضمن مدرسة من المدارس التي ذكرنا.

إذا تبين ذلك فالترجيح آخر المطاف، الترجيح بين المدارس المختلفة في التفسير التي ذكرنا لا شك أنّ الراجح والمفضل من التفاسير المختلفة التي كثُرت في الأمة جدا التفاسير التي تعتمد علىٰ أقوال السلف وعلىٰ أقوال الصحابة والتابعين وهي التفاسير المنتمية إلىٰ مدرسة التفسير بالأثر.

ومدرسة التفسير بالرأي مفيدة لأنّ فيها استنباط وفيها لغويات وفيها نكت ولطائف، والنكت هي الفوائد المهمة، لكن لا تؤمن؛ لأنّ أكثر من تعاطىٰ التفسير بالاجتهاد والاستنباط -التفسير بالرأي- عنده انحراف في العقيدة أو عنده انحراف في السنة، ولهذا لابد من الانتقاء، وأقل التفاسير في الاجتهاد والاستنباط بالرأي خطأً حتىٰ تكون أخطاؤه معدودة، تفسير الشوكاني الذي سماه «**فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**» الرواية يعني بها التفسير بالأثر، والدراية يعني بها التفسير باللغة والنّحو والاستنباط وبتفسير القرآن بالقرآن والقرآن بأصول الفقه إلىٰ غير ذلك من المباحث، أسلم التفاسير، فمن احتاج إذن إلىٰ أن ينظر في تفسير من التفاسير بالرأي فليكن تفسير الشوكاني «فتح القدير»، يتلوه وهو أصعب منه تفسير أبي حيان الأندلسي «البحر المحيط» فإنه في العقيدة يغلب عليه السلامة، وأما غيرها فيها انحرافات كثيرة مع كثرة الفوائد التي فيها؛ لكن لا تصلح إلا لطالب علم متمكن يميّز الطيب من التفسير من الخبيث فيه.

هذا عرض موجز مختصر يمكن أن تعتبره مدخلا في معرفة مناهج المفسرين علىٰ جهة التفصيل، ولا شك أنّ هذا العلم علم مهم وواسع ولا يمكن طرقه في محاضرة أو درس أو اثنين أو عشرة أو عشرين، لابد له من سعّة في الوقت وأيضا استعدادات عند المتلقين؛ لأننا إذا دخلنا في التفاسير وذكرنا مميزاتها ومناهجها لابد من التفصيل والتعرض لعلوم متنوعة.

تلحظ مما ذكرت أنه عرض مختصر من بداية نشأة التفسير إلىٰ وقتكَ الحاضر.

أسأل الله جلّ وعلا أن ينفعك وإياي بما ذكرتُ وأن يجعلنا من المتبصرين في العلم الجادين فيه، وأنْ يُنعم علينا بالإقبال علىٰ القرآن، وأن يتفضّل علينا بفهم تفسيره وتدبر آياته.

وأسأل الله جلّ وعلا لي ولكم العفو والعافية، والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الأسئلة]

سؤال (١): أحد الإخوة أراد تنبيه علىٰ تفسير ينسب لابن عباس مطبوع اسمه «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس».

الجواب: وهذا تفسير لفيروز آبادي المشهور صاحب القاموس، ونقل فيه تفاسير ابن عباس المنقولة بطريق واحد، وهذا الطريق طريق موضوع مكذوب؛ لأنه من طريق السُّدِّي الصغير -وهو أحد المتهمين بالوضع والكذب- عن الكلبي -وهو أيضا أحد المتهمين بالكذب-، وإذا كان كذلك فنقول: تفسير «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس» هو أوهىٰ التفاسير عن ابن عباس، ابن عباس أصح الطرق عنه في التفسير صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وأوهىٰ الطرق عنه في التفسير هذا الطريق وهو ما روي في هذا الكتاب الذي هو من طريق بشر بن مروان السُّدِّي الصغير عن الكلبي إلىٰ آخره.

فإذن تنوير المقباس موضوع مكذوب لا يجوز أن يُنظر فيه علىٰ أنه من تفاسير ابن عباس رضي الله عنهما، وإنما هو ملفق، وفيه بدع، وفيه أقوال مخترعة، وفيه مصائب عظيمة لا يجوز النظر فيه إلا لمن يعرف حاله من أهل العلم.

سؤال (٢): يوجد في كثير من كتب علوم القرآن وأصول التفسير أن القرآن نزل علىٰ ثلاث مراحل:

الأولىٰ: الكتابة في اللوح المحفوظ.

والثاني: من اللوح المحفوظ إلىٰ بيت العزة في سماء الدنيا.

والثالث: من السماء الدنيا علىٰ النبي ﷺ، فما صحة هذا القول وهل يوافق قول الأشاعرة؟ أفيدونا جزاكم الله خيرا.

الجواب: هذا موجود في كتب علوم القرآن، وأظن الذي يهم السائل هو أنّ القرآن أُنزل من اللوح المحفوظ إلىٰ سماء الدنيا؛ إلىٰ بيت العزة في السماء الدنيا، وهذا القدْر مروي عن ابن عباس في إسناد قوي وذلك عند تفسير قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾[القدر]، وعند قوله جل وعلا في أول سورة الدخان: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾، وقال ابن عباس: نزل به جبريل إلىٰ بيت العزة في سماء الدنيا ثم نزل مفرقا بعدُ -أو قال ثم نزل منجما بعدُ-.

وهذا القول صحيح عن ابن عباس كما ذكرنا، ويُحمل علىٰ توجيه واضح لا إشكال فيه، وذلك أن المتقرّر عند أهل السنة والجماعة أنّ القرآن سمعه جبريل من الرب جل وعلا فبلّغ ما سمع للنبي ﷺ، فالله جل وعلا يتكلم بالوحي في السماء فيسمعه جبريل فينزل بالقرآن للنبي ﷺ، وهذا في مرتبة الكلام، وأما المرتبة الثانية -فليست الثانية من جهة الدرجة لكن المرتبة الأخرىٰ أو النوع الآخر- هو الكتابة؛ القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ كما قال جل وعلا: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢﴾ [البروج]، ووجوده في اللوح المحفوظ مكتوب؛ لأن اللوح المحفوظ محل الكتابة، فالله جل جلاله كتب القرآن في اللوح المحفوظ قبل أن يتكلم به حين بعث محمد ﷺ نبيا ورسولا.

وهذا الإكرام للقرآن بجعْله في اللوح المحفوظ في هذا النوع وهو النوع الكتابي هو الذي أُنزل إلىٰ بيت العزة إلىٰ سماء الدنيا تشريفا لسماء الدنيا التي تظل الأرض، وليس معنىٰ إنزال القرآن إلىٰ بيت

العزة -علىٰ كلام ابن عباس- أنّ جبريل يأخذ القرآن مكتوبا من بيت العزة يقرؤه فيه ثم ينزل به إلىٰ النبي ﷺ.

فإذن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، وهذا المكتوب في اللوح المحفوظ أنزله الله جل وعلا في ليلة القدر أوّل الإنزال علىٰ النبي ﷺ إلىٰ بيت العزة في سماء الدنيا، هذا علىٰ قول ابن عباس .

وهناك عدد من أهل العلم يقول: هذا مما تفرّد به ابن عباس، وأنه لم يأتِ عن أحد من الصحابة؛ بل ولم يأتِ عن النبي ﷺ أنّ ثمّ بيتا في السماء يقال له: بيت العزة فيه القرآن، وإنما الذي في الكتاب والسنة أن القرآن في اللوح المحفوظ مكتوبا تكريما له.

فجبريل عليه السلام ينزل بالقرآن مسموعا من الرب جل جلاله إلىٰ النبي ﷺ فيُسمعه القرآن، فالكلام كلام الرب جل وعلا وجبريل مبلِّغ والنبي ﷺ مبلِّغ؛ ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾[الشورىٰ:٤٨].

فإذن هذا القول منهم مما كتب في كتب علوم القرآن يحتاج إلىٰ هذا الإيضاح، ومَن قال ممن صنف في علوم القرآن: إن جبريل يأخذه من بيت العزة فينزل به علىٰ النبي ﷺ أو يأخذه من اللوح المحفوظ فينزل به علىٰ النبي ﷺ فهذه من أقوال الأشاعرة في المسألة.

فإذن هذا القول مروي عن ابن عباس بإسناد قوي قد صححه بعض أهل العلم، وتوجيهه ما ذكرنا، وهو موافق لكلام السلف في القرآن وفي كلام الله جل جلاله وتقدست أسماؤه وصفاته.

سؤال (٣): فضيلة الشيخ بعض الآيات فسرها الصحابة والسلف بتفسير؛ ولكن في العصر الحديث قد يتضح بعد الاكتشافات الحديثة تفسيرا آخر لها، كقوله تعالىٰ: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾[النور:٤٠] لقد اكتشف حديثا وجود طبقات من هٰذه الظلمات في قاعه البحر وغير ذلك، السؤال: هل نتبع ما جاء عن الصحابة والسلف أم التفسير الحديث المبني علىٰ اكتشاف؟ أفيدونا في ذلك وجزاكم الله خيرا.

الجواب: العلم بالقرآن وبتفسيره لابد أن يكون محفوظًا عند الصحابة، ولا يمكن أن يعتقد في الصحابة أنهم يجمعون علىٰ تفسير آية ويكون التفسير غلطًا؛ لأن هذا القول معناه أن العلم الصحيح يحجب عن خير هذه الأمة ويعطىٰ من سواه، وهذا باطل قطعا ولا يعتقده أحد يعرف قدر الصحابة رضوان الله عليهم.

في مثل ما ذكر السائل لا يجمع الصحابة علىٰ تفسير، وإنما يختلفون فيه، فإذا اختلف الصحابة في تفسير آية فلابد أن يكون الصواب مع بعضهم؛ لأن العلم الصحيح لابد أن يكون عندهم إما بإجماع منهم أو عند بعضهم؛ لأنهم قد يختلفون في التفسير كما يختلفون في الفقه كما يختلفون في غير ذلك من العلوم، فإذا اختلف الصحابة فيؤخذ القول الأصح من ذلك.

والمكتشفات الحديثة كما ذكرنا تنقسم إلىٰ قسمين:

قسم منها مظنون؛ نظريات مبنية علىٰ استقراء ناقص أو علىٰ تجارب في بعض المكتشفات السابقة المعروفة، وهذه لا يجوز -لأنها مظنونة- لا يجوز أن يحمل القرآن عليها، ولو كان عند الناس اليوم ليس ثَم إلا هي من العلم؛ لأنه إذا كان سبيلها الظن؛ والظن معروف كيف يحكم علىٰ الشيء بالظن؟ أن يكون البحث ناقصا، أو أن يكون عن استقراء ناقص، أو أن يكون عن تجارب غير كلية إلىٰ آخر ذلك، مثل

بعض التجارب الطبية الأولىٰ التي كانت من نحو مائة سنة والآن ظهر غيرها، مثل بعض النظر للمياه والجبال التي كان فيه ظن قبل مائة سنة والآن اختلف الوضع إلىٰ أشباه من ذلك، النظريات تتجدد.

والقسم الثاني ما كان من النظريات يقينيا قطعيا؛ يقيني قطعي هو يتجاوز النظرية ويصبح علم، مثاله أن تظهر صورة واضحة ويصور الشيء ويعرف به، أو أن تكون دراسة دقيقة استقراء تام لا يقبل الجدل، البرهان كامل لا نقص فيه، فهذا إذا كان قطعيا وحقا فإن القرآن لا يناقضه البتة؛ لأنه كلام الله جل جلاله وهو الذي خلق الخلق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[الملك].

فإذن القطعي لا يناقض قطعيا ولا يضاد قطعيا، واليقيني لا يناقض يقينيا ولا يضاد يقينيا، وإنما إذا ظهر هنا عدم الاجتماع في ذهن البعض، فالحق هو في القرآن، وغيره فهو عرضة لأن يكون صوابا أو أن يكون خطأ، فإن كان مظنونا فإننا لا نحمل آيات القرآن عليه لأن القرآن حق قطعي، إذا كان قطعي الدلالة علىٰ المذكور، وتلك النظريات مظنونة، وإن كانت تلك النظريات يقينية فلابد أن تكون الآية التي تشمل تلك النظرية أن تكون فيها ذلك المعنىٰ دون مناقضة.

وهذا هو الذي غلط فيه البعض فأدرج المسألة وجعلها بابا واحدا؛ كل ما أتىٰ من النظريات العلمية حمل القرآن عليه، وهذا غلط فلابد من تقسيم العلوم الحديثة إلىٰ شيء قطعي، والقطعي لا يناقض قطعيا؛ لأن القرآن حق من عند الله جل وعلا مهما تغيرت الأزمنة والأمكنة، وإذا كان مظنونا فلابد من التوقف في المظنون هذا وإبقاء القرآن علىٰ ظاهر دلالته حتىٰ يظهر شيء يمكن أن يُفهم القرآن عليه.

خُذ مثلا في تفاسير الصحابة أجمع العلماء علىٰ أنّ الأرض كرة وأنها مسلوبة من الجانبين قليلا -ليست كرة مستوية القطر من جميع الجهات-، أجمع العلماء والمفسرون علىٰ ذلك، وحكىٰ الإجماع علىٰ هذا ابن المنادي من الشافعية وابن حزم من الظاهرية وجماعة من أهل العلم وقرره شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة، أخذوا ذلك من قول الله جل وعلا: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر:٥]، في سورة الزمر، هذا التكوير؛ تكوير الليل علىٰ النهار والنهار علىٰ الليل لا يمكن أن يتصور إلا أن تكون الأرض كرة؛ لأن تكوير الليل معناه أنه لا يأتي لحظة ينقضي منها ليل إلا وبعدها نهار؛ فهذا يعقب هذا بتوالٍ بلفظ التكوير، فلهذا نص من نص من الصحابة ومن بعدهم علىٰ أن الأرض لها شكل البيضة أو نحو ذلك.

مثلا في قول الله جل وعلا: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(١) لم تُرَ الأفلاك في وقت الصحابة وذهبوا إليها وعرفوا كيف حركة هذه وهذه، وإنما فسّروها من جهة الاجتهاد بمعرفتهم للقرآن وللغة فقال ابن عباس وغيره عند هذه الآية ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ قال: في فلْكة كفلْكة المغزل. وأنت لو لاحظت المغزل يكون عمود، وهو ما ذكر في النظريات الحديثة الصحيحة أنه المحور الذي تدور عليه الأفلاك، قال جل وعلا ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ففيها استباحة، وأن الفلْكة تلك فلْكة المغزل، والمغزل إذا نظرت إلىٰ حركته ليست حركة رتيبة متساوية القطر بل يزيد ويرجع، وهذه حركة فعلا الأفلاك إلىٰ آخره.

(١) الأنبياء:٣٣، يس:٤٠.

المقصود أنه إذا اجتمع العلم اليقيني بالعلوم الحديثة فإنّ القرآن هو الحق ويشرف العلم أن يكون تبعا للقرآن؛ لأن القرآن من عند الله جل وعلا؛ لأنه يكون معنىٰ ذلك أن البشر وصلوا إلىٰ استنتاج صحيح.

وأما إذا كان ذلك مظنونا فإنه لا يجوز حمل القرآن علىٰ مظنون؛ لأن القرآن يقيني قطعي كلام الملك الحق الذي يعلم من خلق، والبشر فيما يصلون إليه معرضون للصواب وللخطأ.

وأسأل الله جل وعلا أن يجزيكم خيرا علىٰ الحضور وعلىٰ حسن الاستماع وأن يجعلنا من المتفقهين في دينه، وأن نكون ممن لا يخوض في أي علم من العلوم الشرعية إلا بعلم ورأي ..

مقاصد السّور وأثر ذلك في فهم التفسير

الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

التفسير أبوابه كثيرة ومختلفة، ولكن قلَّت العناية في هذا الزمن بالتفسير؛ لأنّ كثيرين يظنّون أنّهم يعلمون كلام الله جل وعلا، ولا شكّ أنّ الذي يعلم كلام الله جل وعلا، ويعلم معانيه، ويدرك مراميه وإعجازه وبلاغته وما فيه، سيكون ملتذًّا بهذا القرآن مقبلا عليه، يطمئن قلبه وينشرح صدره حين يقبل على هذا القرآن.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي نزّل الفرقان علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيرا، و﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾[الكهف]، حمدًا كثيرا دائما ما تتابع الليل والنهار، كلّما حمد الله جل وعلا الحامدون، وكلّما غفل عن حمده سبحانه الغافلون.

وأشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدين.

أما بعد..

فأسأل ربي جلَّ جلاله -وهو المجيب لمن سأل، والمعطي لمن أقبل- أن يجعلني وإياكم ممن بارك قولهم عملهم، وأن لا يكلنا لأنفسنا طرفة عين، وأن يقينا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يُلزمنا كلمة التقوىٰ في الحياة والممات، إنّه سبحانه جواد كريم.

كما أسأل ربي جل وعلا أنْ ينفعني وإياكم بما نسمع أو نقرأ من العلم، وأن يجعله حجة لنا لا حجة علينا، وأن يُقيمنا علىٰ دينه ما أبقانا.

ثم إنّ من أنواع البركة التي يُفيضها اللهُ جل وعلا علىٰ خاصة عباده أن يمن عليهم بمحبة العلم، ومحبة تدارسه، والإقبال علىٰ ذلك، وحقيقة العلم هو العلم بكتاب الله جل وعلا وبسنة رسوله ﷺ، إذْ لا أرفع بالكلام ولا أعظم قدْرا من كلام ربنا جل وعلا، ولا أعظم ولا أرفع بعده من كلام نبينا ﷺ، فالموفَّق والمبارَك من علم وعمل واجتهد في ذلك حتىٰ يصيب منه ما كتب الله له، «**واعملوا فكل ميسر لما خلق له**».

ولهذا وصف اللهُ جل وعلا كتابه بأنه مبارَك، وجعل من أصناف بركته التي أنزلها ﷻ أنْ أنزل هذا الفرقان، كما قال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾[الفرقان]، وكما قال جل وعلا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٩﴾[ص]، وقال أيضا جل جلاله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾(١) ونحو ذلك من الآيات التي فيها وصف القرآن بأنه مبارك؛ يعني كثير الخير لمن أقبل عليه، ففيه شفاء الصدور، وفيه شفاء القلوب، وفيه الهداية، وفيه التوفيق لمن أرد الله جل وعلا أن يوفقه.

وفي الآية التي ذكرنا وصف الله جل وعلا كتابه بأنه مبارك وأنه أنزله لأمرين فقال سبحانه في سورة ص: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٩﴾ واللام هنا هي لام (كي)؛ يعني أن العلة من إنزال القرآن وجعله مباركًا أن يتدبر العباد هذا القرآن؛ أن يتدبروا آياته، ثم لكي يتذكر أولو الألباب، وهذا فيه عِظمُ شأن تدبر القرآن وعِظمُ شأن التذكُّر حين التلاوة، وهذا إنما يكون بالتدبر، فلا تذكر إلا بتدبر القرآن، ولكن خَصّ الله جل وعلا في التذكر؛ خَص أولي الألباب فقال: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٩﴾، وفي الحقيقة أنّ الذي يتذكر بعد التدبر ويُقبل علىٰ القرآن هو العاقل وهو ذو اللب؛ الذي

---

(١) الأنعام:٩٢، و١٥٥، الشيخ قال (وَهَذَا كِتَابٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ).

بلغ الغاية في ذلك، وقد سئل أحد سادات التابعين في الكوفة، فقيل له -أظنه إبراهيم النخعي-: من أعقل الناس؟ من أعقل الناس؟ فقال: أعقل الناس فلان الزاهد. فذهبوا لينظروا من عقله، ولينظروا من أمره، فما وجدوه إلا مقبلا علىٰ القرآن، وعلىٰ أمر آخرته. فعُلم أن قصد إبراهيم أنّ أعقل الناس هو من أقبل علىٰ أشرف الكلام، وأقبل علىٰ أشرف مقصود وهو الدار الآخرة، ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[القصص] فحضّ الله جل وعلا في هذه الآية علىٰ تدبر القرآن.

وموضوع هذه المحاضرة أثر من آثار تدبر القرآن عند أهل العلم؛ لأنّ الموضوع الذي سنتناوله يبحث في: **علم مقاصد سور القرآن وأثر هذا العلم بالمقاصد في فهم التفسير.**

ومعلوم أن التفسير إنما هو بتدبر القرآن، فالذي يعلم التفسير لا شك أنه قد تدبر قبل ذلك فعلم، يعني إذا كان عنده أهلية بالعلوم التي ينبغي توفرها في المفسر، والناس بعد ذلك نقلة أو يتلقون ما قاله المفسرون.

فلما حضّ الله جل وعلا علىٰ تدبر القرآن وجب حينئذ أن يُقبل العباد بعامة وأن يُقبل العلماء بخاصة علىٰ هذا القرآن، ليخرجوا كنوزه؛ لأن القرآن حجة الله الباقية إلىٰ قيام الساعة، ويخرج منه بقدر العلوم وبقدر ما فتح الله علىٰ عبده يخرج منه من الفُهوم ومن العلم؛ ما هو تفصيل وبيان لبعض كلمات المتقدمين من الصحابة والتابعين مما قد لا يدركها كل أحد. وهذه الجملة يأتي تفصيلها إن شاء الله تعالىٰ.

فإذن علم التفسير من العلوم المهمة، وها أنتم تستقبلون دورة علمية، أو دروسا علمية في هذا المسجد المبارك في علوم شتّىٰ؛ من علم التوحيد، والحديث، والمصطلح، ونحو ذلك مما هو معلوم، وعلم التفسير أيضا أنتم بحاجة إليه؛ لأنّ القرآن هو أعظم ما يقبل عليه، فإذا علمت القرآن علمت الشريعة، ولهذا قال طائفة من العلماء: المفسر يحتاج إلىٰ علوم كثيرة:

- منها علم اللغة؛ لأن القرآن أُنزل بلسان عربي مبين ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾[الزخرف]، واللغة أقسام: منها النحو، ومنها علم المفردات، ومنها البلاغة بأقسامها الثلاثة، منها الاشتقاق، إلىٰ آخر علوم اللغة.

- ثم علم التوحيد الذي هو الأساس، فالقرآن كله في توحيد الله جل وعلا، من أوله إلىٰ آخره كله في التوحيد، وذلك أن القرآن:

① إما أن يكون ما فيه خبرا عن الله جل وعلا؛ وعن صفاته ﷻ، وعما يستحقُّه جل وعلا من توحيده بالعبادة، والبراءة من الشرك وأهله، ونحو ذلك، فهذا واضح بأنه في توحيد الله جل وعلا.

② وإما أن يكون ما فيه خبرا عن أنبياء الله جل وعلا وعن رسله وعن قصصهم، فهذا خبر عن أهل التوحيد، وما جعل الله جل وعلا لهم؛ جعل لهم في الدنيا من الأحوال والعاقبة ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾[فصلت].

③ وإما أن يكون وهو القسم الثالث؛ أمرا ونهيا؛ أمر بأداء الفرائض، ونهي عن ارتكاب المحرمات، وهذا في حقوق التوحيد ومكملاته؛ لأن من وحد الله جل وعلا أطاع الله في أمره وانتهىٰ عن نهيه وتخلص من داعي شهوته وهواه.

④ والأمر الرابع خبر عن الأمور الغيبية، وما يحصل بعد الممات من النعيم والعذاب، ومن الجنة والنار، ومن الحبور والسرور لطائفة، ومن العذاب والنكال لطائفة، فهذا جزاء الموحدين وهذا جزاء المشركين.

وهذا المعنىٰ العام من العلوم المهمة للمفسر؛ لأن سور القرآن لا تخرج عن هذه الأحوال الأربعة، فكل سورة إما أن تتناول هذه الأقسام الأربعة، وإما أن يكون فيه؛ يعني في السورة بعض من هذه الأقسام.

- والعلم الثالث العلم بالسنة؛ لأن السنة مفسرة للقرآن ومبينة له.
- والعلم الرابع العلم بالفقه وأحكام الحلال والحرام والعبادات والمعاملات؛ لأن القرآن فيه آيات كثيرة في هذا الباب.
- والعلم الذي يليه؛ علم الجزاء يوم القيامة وأحوال الناس فيه، وهذا في القرآن منه الشيء الكثير.
- ثم علم أصول الفقه والعلوم المساندة لأصول الفقه؛ لأن بها فهم كثير من آيات الله البينات.

إذا تبين لك هذا فإن المفسر الذي تكونت عنده حصيلة راسخة من هذه العلوم يمكنه أن يتدبر القرآن، وأن يكون مستخرجا لما فيه من الدلالات والعبر وموضوعات السور ومقاصد الصور، كما سيأتي بيانه، مكتفيا في ذلك بما فسّر به الصحابة والتابعون كتاب الله جل وعلا.

لهذا فإن موضوع هذه المحاضرة هو موضوع في التفسير، والتفسير أبوابه كثيرة ومختلفة، ولكن قلَّت العناية في هٰذا الزمن بالتفسير؛ لأن كثيرين يظنون أنّهم يعلمون كلام الله جل وعلا، ولا شك أن الذي يعلم كلام الله جل وعلا، ويعلم معانيه، ويدرك مراميه وإعجازه وبلاغته وما فيه، سيكون ملتذًّا بهذا القرآن مقبلا عليه، يَجِلُ قلبُه وينشرح صدره حين يقبل علىٰ هذا القرآن.

إذن فالوصية في مقدمة هذه الدروس العلمية أن يهتم الجميع في القرآن حفظا وتلاوة، ثم الاهتمام بتدبر القرآن وتفسيره عبر كتب التفسير المعتمدة، وخاصة كلام الصحابة والتابعين وتابعيهم والمأمونين من أئمة أهل العلم والدين والتفسير.

الموضوع كما سمعتَ؛ مقاصد السور.

العلم بمقاصد السور لم ينص عليه الأوائل، وإنما اعتبره الصحابة والتابعون -بالاستقراء-، اعتبروه في تفسيرهم، ولكن لم ينص علىٰ هذا العلم بهذا الاسم إلا عند المتأخرين، وذلك شأن جميع العلوم، فإن العلوم كانت ممارسة عند السلف، لكن لم تكن التسمية موجودة.

فعلم النحو كان ممارسا ولم يكون موجودا.

البلاغة كانت ممارسة ولم تكن موجودة.

علم أصول الفقه كان ممارسا في بعض الأحكام من القواعد الأصولية ولم يكن موجودا بهذا الاسم.

وهكذا في علوم القرآن في أنحاء شتىٰ، ومصطلح الحديث وعلوم أخرىٰ.

فما المقصود بعلم مقاصد السور؟

معلوم أن الله جل جلاله هو الذي تكلم بهذا القرآن وأن القرآن كلامه ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[التوبة:٦] فالقرآن كلام الرب جل جلاله.

ومقاصد السور يُعنىٰ بها عند أهل هذا العلم: **الموضوعات التي تدور عليها آيات سورة ما**. يعني أن سورة من السور التي في القرآن أو أن معظم السور أو كل السور لها موضوع تدور عليه الآيات والمعاني التي في هذه السورة.

إذا عُلم هذا المقصد؛ يعني هذا الغرض هذا الموضوع، فإن فهم التفسير سيكون سهلا، بل سيفهم المرء كلام الأولين، وسيفهم كلام المحققين بأكثر مما إذا أخذ الآيات مجردًا عن موضوع السورة كما سيأتي في مثال نستعرضه إن شاء الله تعالىٰ.

وأصلا في بحث مقاصد السور لم يكن بحثه في تاريخ العلم مبكِّرا، فإنما بحث قبله بُحث يسمىٰ المناسبات، والعلماء اختلفوا في موضوع المناسبات، ويعنون بها مناسبات الآي؛ هل الآية هذه جاءت بعد الآية لمناسبة؟ هل بين الآية الأولىٰ والثانية رابط؟ والثانية والثالثة بينها مناسبة؟ هل هذه الآيات في نظامها بينها وبين موضوع السورة اتصال؟ هذا يبحث في علم التفسير ويبحث في إعجاز القرآن.

ولهذا عد طائفة من العلماء أن من وجوه إعجاز القرآن، وهو المنزل آية وبرهان ومعجز للخلق أجمعين، أنّ من وجوه الإعجاز أن يكون للسورة موضوع تدور عليه، وأن يكون بين الآيات ترابط هذه الآية بعد تلك، هذه القصة بعد تلك لغرض معلوم.

لهذا قلّ من يَطْرُق هذا الموضوع من المفسرين أو من العلماء ولعدم كثرة طرقه أسباب منها:

أولا: فيه نوع من الجرأة علىٰ كتاب الله جل وعلا، ولهذا ذهب طائفة من العلماء إلىٰ أنّ السُّور ليس لها موضوعات، وإلىٰ أنّ الآيات لا تناسب بينها، وهذا قال به قليلون وغُلِّطوا في ذلك.

فموضوع السورة يحتاج إلىٰ قراءة السورة عدة مرات وتدبر ذلك ومعرفة كلام العلماء في التفسير حتىٰ نفهم هذه السورة ما الموضوع الذي تدور عليه.

السبب الثاني: أن كثيرين من أهل العلم لم يتناولوا التفسير إلا عبر مدرسة تفسير الآيات، ومدرسة تفسير الآيات منقسمة إلىٰ مدرستين:

مدرسة التفسير بالأثر.

ومدرسة التفسير بالاجتهاد.

وكلها راجعة إلىٰ تفسير الآية وتفسير الكلمات في الآيات، أما الربط بين الآيات فلم يكن من مدارس التفسير المعروفة، ما صار له ذكر ولا قوة عند أهل العلم بالتفسير.

والسبب الثالث في عدم اشتهار هذا الموضوع: أن من تجرأ وكتب فيه من أهل العلم، وقال: إن للآيات تناسب وإن للسور موضوعات. رد عليه طائفة من العلماء وغلَّطوه؛ بل ورموه بالقول علىٰ الله جل وعلا بلا علم، فهاب كثيرون أن يدخلوا هذا المضمار؛ لأجل براءة الذمة، ولأجل ألا يحملوا أنفسهم ما لا يطيقون، وهذا مقصد صائب.

ولغير ذلك من الأسباب.

ولهذا نقول: العلماء في موضوع تركيب الآيات، والتناسق بين الآيات، وأن هذه الآية بعد هذه الآية لغرض، وأن هذه القصة بعد هذه القصة لغرض، وأنّ القصة لها موضوع ومقصد، اختلف العلماء في هذا علىٰ ثلاثة أقوال:

أما **القول الأول**: وهو أنه لا تناسب بين الآيات، بل تنزل الآية بحسب الوقائع، وتوضع في المصحف بحسب ما يأمر الله جل وعلا جبريل به فيأمر به النبي ﷺ أن الآية ضعها في سورة كذا في موضع كذا، وأنّ هذا بحسب الوقائع وحسب الأحوال، ولا يقتضي ذلك تناسبا بين الآية والآية، وصلة بين الآية والآية.

والقول الثاني: أنّ سور القرآن لا تخلو سورة إلا ولها موضوع، وليس ثم آية وبعد آية إلا وبينها تناسب وصلة، وأنه بين أول السورة وبين ختام السور تناسب، وأنه بين آخر السورة وأول السورة التي تليها تناسب واتساق في الموضوع، وأنه إلىٰ آخر الأسرار واللطائف في علم التفسير، مما جعلوا ذلك لا يخرج عنه شيء البتة، وهذا قول قليلين من أهل العلم منهم البقاعي فيما صنف في «نظم السور»، والسيوطي وجماعة ممن قبلهم وبعدهم.

والقول الثالث: وهو القول الوسط وهو أعدل الأقوال، أنّ سور القرآن منها سور يظهر للمجتهد؛ يظهر للعالم بالتفسير، يظهر له موضوعها، ويظهر بين آياتها من التناسب، فهذا إذا ظهر لا حرج في إبدائه؛ لأنّ الله جل وعلا جعل القرآن محكما ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾[هود]، فالقرآن كتاب لو بحثت فيه عن خلل لو بحثت فيه عن عدم اتساق لن تجد ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ۝٨٢﴾[النساء]، فإذا ظهرت المناسبة وظهر الموضوع فلا مانع أنْ يقال: هذه السورة موضوعها كذا، وهذه الآية بينها وبين ما قبلها المناسبة الفلانية، بحسب ما يظهر للعالم بالتفسير وللمجتهد، دون أنْ يكون الهمّ تطلّب ذلك والتكلف فيه؛ لأن التكلف فيه قد يُفضي إلىٰ القول في المسألة بلا علم والاجتهاد فيما لا طائل منه وقد يكون الاختلاف فيه كبيرا.

وهذا القول الثالث هو القول المعتدل الذي سلكه طائفة من العلماء في التفسير والعلماء بالاجتهاد، ومنهم ابن تيمية رحمه الله وابن القيم وجماعة من المحققين في التفسير، ويظهر لك صوابه فيما إذا نظرت إلىٰ الكتب المؤلفة في مقاصد السور وتناسب الآيات والسور ونحو ذلك، فإنّ فيها أشياء متكلّفة، وفيها أشياء يتضح حسنها؛ بل إذا نظرت إليها وتدبرت ما قيل من المناسبات والاتصال بموضوعات السور زادك يقينا بأنّ هذا القرآن إنما هو كلام الله جل وعلا، وإذا قرأت السورة أحسست بتأثير فيها ليس كتأثير من لم يعلم موضوع السورة ولا تناسب الآيات فيما يُذكر.

لهذا نقول: إن هذه الأقوال الثلاثة المختار منها الثالث، وهو الذي يهم أن تعتني به من كلام أهل العلم؛ لأنّ فيه الفائدة المرجوّة إن شاء الله تعالىٰ.

المصنفات في هذا الباب كثيرة، حتىٰ زعم ابن العربي المالكي وهو من أهل الأندلس قد اتصل بالمشرق في فترة من عمره، زعم أنه كتب كتابا -زعم بمعنىٰ قال؛ لأنّ زعم لا تعني التكذيب، زعم في

اللغة بمعنىٰ القول كما في الحديث الصحيح «**أتانا رسولُك يزعم أنّك تزعم أنّ الله أرسلك**»، قال العلماء بأن الزعم يستعمل بمعنىٰ القول–، المقصود من هذا أن ابن العربي المالكي «صاحب أحكام القرآن»، و«عارضة الأحوذي»، وشرح الموطأ وكتب كثيرة معروفة، زعم أنه كتب كتابا في مقاصد السور وتناسب الآيات والسور وعرضه علىٰ الناس في زمانه، قال: رأيت الناس بَطَلَة لم يقبلوا عليه، ولم يهتموا له مع عظيم علمه وشرف معلومه، قال: فلما رأيت ذلك الإعراض منهم أحرقته وجعلته بيني وبين الله جل وعلا.

وكتب أيضا الرازي في تفسيره بعض المناسبات.

وإلىٰ أنْ وصل الأمر إلىٰ الزركشي؛ فعرض في كتابه علوم القرآن المسمىٰ بـ«البرهان»، كتب فيه أبوابا جيدة بالتناسب والمقاصد، وهي قصيرة لكنها فيها تأصيل لهذه المسألة.

ثم جمع ذلك مع تأمل البقاعي في كتابه الشبيه بالتفسير الذي أسماه«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» وهو مطبوع في الهند، كتاب كبير في نحو اثني وعشرين مجلدا، والتزم فيه بأنْ يذكر مقصد السورة وأنْ يذكر التناسب بين كل آية والتي بعدها والتناسب بين آخر السورة والتي قبلها إلىٰ آخر ما ذكر، مما جعله متكلِّفا في كثير من المواضع، حتىٰ قال عن نفسه أنه ربما مكث شهرًا في تأمل آية بعد آية ما المناسبة بينها، وعلماء عصره منهم من رد عليه هذا التكلف الذي تكلفه في كتابه.

ثم السيوطي كتب عدة كتب في ذلك، وذكر في كتابه إعجاز القرآن الذي اسمه «**معترك الأقران في إعجاز القرآن**» ذكر من وجوه إعجاز العلم بالمقاصد، وتناسب الآيات والسور إلىٰ آخر ذلك.

إذن فهذا العلم مكشوف بين علماء التفسير الذين كتبوا في علوم القرآن، ولكن ما بين مجيد فيه، وما بين مقصر في ذلك.

وإذا تأملت هذا الموضوع وجدتَ أنّ كثيرين من المفسرين يقولون: هذه السورة فيها الموضوع الفلاني.

مثل ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية مثلا في سورة المائدة بأن هذه السورة كلها مختصة بعلم الأحكام الحلال والحرام والعقود بخاصة، حتىٰ قصص الأنبياء التي فيها لها صلة بالأحكام، وحتىٰ قصة ابني آدم لها صلة بهذا الموضوع.

سورة الفاتحة سُميت أم القرآن؛ لأن مقاصد القرآن التي فيه هي في سورة الفاتحة، وهكذا.

فإذن من أهل العلم من نص علىٰ الموضوع والمقصد، ومنهم من عرض له بدون التنصيص عرض له عمليا.

كيف يمكن أنْ يفهم المتدبر أو المفسّر الموضوع؟ يعني إذا أراد أن ينظر كيف يعرف الموضوع؟ الوسائل التي بها يعرف موضوع السورة؟

نذكر من ذلك بعض الأمور:

أولا أنْ ينص العلماء أو طائفة من العلماء المحققين علىٰ أنّ هذه السورة في الموضوع الفلاني.

مثلا سورة الإخلاص في توحيد الأسماء والصفات، أو في التوحيد العلمي الخبري.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ سورة الكافرون في التوحيد؛ توحيد الطلب توحيد العبادة.

سورة الفاتحة في بيان محامد الرب جل وعلا.

سورة النحل في النعم.

سورة الكهف في الابتلاء.

سورة العنكبوت في الفتنة.

سورة البقرة في بيان الكليات الخمس والضروريات التي تدور عليها أحكام الشريعة، وبيان عدو من أعداء الإسلام وهم اليهود.

سورة آل عمران في تكميل ذلك، مع بيان عدو جديد وهم النّصارىٰ، والحوار معهم، ثم مجاهدة المشركين.

سورة النساء في بيان أحكام النساء والمواريث، وخُصّص ذلك في النساء لأجل هضم الجاهلية لحقوق النساء ونحو ذلك، ثم بيان أحكام العدو الثالث وهم المنافقون.

ثم **سورة المائدة** في بيان أحكام الحلال والحرام والعقود، إلىٰ آخر ذلك مما هو تفصيل لأحكام الكليات الخمس وأحكام الشريعة التفصيلية.

وهكذا في أنحاء شتىٰ، وهذا ينص عليه طائفة من العلماء بأن السورة في الموضوع الفلاني.

إذن نعلم موضوع السورة بأنْ ينص علىٰ هذا الموضوع وهذا المقصد للسورة بعض أهل العلم، فيقال هذه السورة في الموضوع الفلاني.

وكذلك المناسبات بين الآي بأن ينص بعض أهل العلم المتحققين الراسخين؛ بأن هذه الآية جاءت بعد هذه الآية لأجل كذا فيما بينهما من الارتباط، وهذه السورة بعد هذه السورة لما بينهما من الارتباط وهكذا.

الوسيلة الثانية لمعرفة موضوع السورة والمقصد الذي تدور عليه السورة، المقصد نعني به الغاية أو الموضوع الكلي الذي تدور عليه السورة، أنْ يكون موضوع السورة ظاهر من أولها ثم والمفسر يقرأ يظهر له أن كل السورة مبني علىٰ أولها.

مثل مثلا سورة القيامة ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ كل ما فيها ذكر لأحوال القيامة، ثم أحوال الموت، وما يدل أو وسائل الإيمان بيوم القيامة، لهذا بُحث هنا مثلا في سورة القيامة، بُحث عند من اعترض علىٰ موضوع السورة بقول الله جل وعلا: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾[القيامة]، قال طائفة من العلماء –طائفة يعني واحد أو أكثر– قال طائفة من العلماء إنّ هذه الآيات لا صلة لها بموضوع القيامة ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ قال: ما صلتها بموضوع القيامة؟ ما صلتها بموضوع الموت والعاقبة إلىٰ آخره؟ وطبعا الآخرون ذكروا مناسبة ذلك وبينوه ومما هو ظاهر بين.

نأخذ سورة الواقعة مثلا ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ

رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾ سورة الواقعة صار موضوعها حول تقسم الناس يوم القيامة ينقسمون إلىٰ أقسام ثلاثة: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال. ثم بعد ذلك أدلة تتعلق بهذا الأصل، ثم حال الناس عند النزع، وأين تذهب أرواحهم، فتلحظ من السورة أن الموضوع بين من أولها إلىٰ آخرها، وهذا يتضح لك من أول السورة.

فإذن **السبب الثاني أو الوسيلة الثانية** لاستخراج المقصد أن يكون موضوع السورة ظاهرا من أولها.

الوسيلة الثالثة لإدراك ذلك: الاستقراء؛ الاستقراء للآي من عالم بالتفسير، إما استقراء كاملا أو استقراء أغلبيا، وقد ذكر علماء الأصول أن الاستقراء الذي يُحتج به علىٰ قسمين: الاستقراء الكامل أو الاستقراء الأغلبي؛ لأنه حتىٰ القواعد ما من قاعدة إلا ولها شواذ، فالاستقراء الأغلبي حجة كالاستقراء الكلي في الاحتجاج، لكن في القوة الاستقراء الكلي أعظم من الاستقراء الأغلبي، فإذا استقرأ الآيات واستخرج المفسر موضوعا ولو لم يسبق إلىٰ ذلك، فإن هذه وسيلة ظاهرة من وسائل إدراك المعنىٰ فيما إذا كان مصيبا فيه غير متكلف في ذلك.

وهناك وسائل أخر.

إذا تبين لك ذلك، فنأتي إلىٰ ما قد ينشطكم أكثر بعد هذا العرض النظري العلمي المقعّد بعض الشيء، إلىٰ ما ينشط أكثر في بيان مثال لمقصد السورة، ثم النظر في الآيات التي تدور حول هذا المقصد، نأخذ مثالين:

الأول: **سورة الفاتحة باختصار**.

والثاني: **سورة العنكبوت بنوع تطويل**.

☜ أما **سورة الفاتحة** فهي فاتحة الكتاب، وهي أم القرآن، وتسمىٰ أيضا سورة الحمد، افتتحها الله جل وعلا بحمده، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾[الفاتحة]، وحمدُه جل وعلا هو الذي تدور عليه السورة؛ بل أوّل الخلق أبتدئ بالحمد، وآخر ما ينتهي إليه الخلق إلىٰ الحمد، والناس في الأولىٰ والأخرىٰ؛ بل الخلق كله من الناس وغيرهم من المكلفين وغير المكلفين يدورون بين الحمد، وله الحمد في الأولىٰ والآخرة ﷻ، خلق السَّمٰوات والأرض بالحمد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١]، وحين ينتهي الجزاء ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾[الزمر]، قيل؛ يعني قال الوُجود؛ قالت الملائكة، قالت الخلائق بعد أن دخل أهل الجنةِ الجنةَ، ودخل أهل النارِ النارَ، واستقرت الأمور.

فافتتح الله جل وعلا الكتاب بحمده كما أنه حمد نفسه علىٰ إنزال القرآن فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾[الكهف].

فإذا كان كذلك، (الحمد) دارت الحياة عليه والخلق عليه وإنزال الكتب وبعث الرسل عليه، ولهذا صار الحمد هو أعظم ما يُفتتح به الكتاب الخاتم قال جل وعلا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، لهذا إذا تأملت القرآن وجدت أن الحمد يدور علىٰ خمسة معانٍ:

المعنىٰ الأول: أن يحمد الله جل وعلا علىٰ ربوبيته.

والثاني: أن يحمد على ألوهيته.

الثالث: أن يحمد على أسمائه وصفاته.

الرابع: أن يحمد جل وعلا على خلْقِه ﷻ وإحداثه وإبداعه الكائنات.

والخامس والأخير: أن يحمد الله جل وعلا على شرعه وكتابه وما أنزل.

الناس الآن؛ يقول فلان، يعني الحمد عندهم بمعنى إيش؟ بمعنى الشكر، فهل يدخل الحمد بمعنى الشكر في أحد هذه العناصر؛ في عدّ هذه الأقسام الخمسة للحمد؟ نعم وهو الحمد على خلق الله جل وعلا للصغير والكبير؛ لأنه ما من نعمة تسدى إليك إلا والله جل وعلا هو الذي خلقها، فيُحمد على ما أسدى وعلى ما أرسل.

إذن **سورة الفاتحة** تدور في موضوعها على أركان حمد الله جل وعلا، والقرآن كله لو استوعب فإنه يدور من أوله إلى آخره على أنواع حمد الله جل وعلا، فإما أن تكون الآية أو السورة في حمده سبحانه على ربوبيته، أو على ألوهيته، أو على أسمائه وصفاته، أو على شرعه وكتابه وما أنزل، أو على خلقه وقدره ﷻ.

ما **معنى الحمد**؟ قال العلماء: الحمد هو إثبات أنواع الكمالات للمحمود، إثبات أنواع الكمال للمحمود بحيث إنه فيما أُثبت له من الكمال لا نقص له فيه بوجه من الوجوه، والله جل وعلا هو المثبت له أوجه الكمال في ربوبيته، وأوجه الكمال في إلهيته، وهو المثنى عليه بأوجه الكمال في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، وفي شرعه وتنزيله وكتابه، وفي قدره ﷻ وفي خلقه.

إذا كان كذلك، قال العلماء: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ معناه أن أنواع الحمد لأن الألف واللام هنا للاستغراق؛ الألف واللام تأتي لثلاثة أنواع في التفسير الألف واللام للتعريف للاستغراق للملك وللاختصاص.

الأول للتعريف يشملها كأن تقول للاستغراق للملك للاختصاص.

متى تكون الألف واللام للاستغراق؟ إذا كانت يصح أن تضع مكانها (كل).

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ إذا قلت: كل حمد لله رب العالمين. صح أو لم يصح؟ صح فإذن هي للاستغراق، فإذن هنا نقول: الحمد لله رب العالمين هذه مستغرقة لجميع أنواع المحامد لله جل وعلا، أنواع المحامد هذه الخمسة التي ذكرنا.

﴿لِلَّهِ﴾ اللام الثانية هذه إيش؟ اللام للاستحقاق يعني كل حمد لله جل وعلا فهو مستحَق له ﷻ.

طبعا (أل) التي في الحمد هذه (أل) للتعريف واللام هذه لام حرف جر هي التي تأتي للملك ولتمام الملك وللاختصاص وإلى آخره.

تأتي إلى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾،[1] أولا ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هذا جُعل لأي شيء؟ إلى الربوبية، وقد ذكرنا لك أنّ من أركان الحمد؛ يعني ما يثنى على الله به الربوبية، فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ثم

(١) انتهى الوجه الأول من الشريط.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ هذا فيه الصفات، ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ فيه الصفات وفيه الشرع والكتاب، وفيه أيضا الخلق والأمر.

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فيه إيش؟ الألوهية، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ فيه الربوبية، فيه أيضا القدر؛ لأنك تستعين بمن يعين ما يُحدِث فيملكوته.

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ من النعم الدينية هي الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، فهو المحمود علىٰ كل نوع من أنواع الهداية للصراط المستقيم.

ثم وصف قال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ وهذا من أنواع النعم التي يُحمد عليها، وهي راجعة إلىٰ أحد أركان الحمد.

ثم أيضا يفصل في ذلك في الموضوع بأشياء من نظر آخر؛ بأنواع المحامد، وأنواع الصفات، وأنواع العبودية، وأنواع الاستعانة إلىٰ آخر ما هنالك.

هذا عرض موجز لما في هذه السورة من مما يدور حولها لما ذكره بعض العلماء.

☜المثال الثاني سورة العنكبوت؛ **سورة العنكبوت** سمَّاها بعضهم أو قال بعضهم: إنها تدور حول الفتنة، الفتنة ظاهرة في أول السورة قال جل وعلا: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾[العنكبوت]، فالفتنة ذُكرت نصًّا في أول السورة.

الفتنة تكون بأي شيء؟ المرء يفتن بعقله، يفتن بالدنيا، يفتن بوالديه، يفتن بأهله، يفتن بطول المكث وطول العمر، يفتن بعدم وجود العذاب، يفتن إذن عن إدراك الحقيقة بأنواع من الفتن كلها موجودة في هذه السورة.

فإذن في هذه السورة **سورة العنكبوت** ذكر الله جل وعلا أنواع وأصول الفتن، وذكر كيف ينجو المرء من هذه الفتنة؛ لأن الحقيقة أن الحياة إنما هي ابتلاء وفتنة.

وقد قال النبي ﷺ كما في حديث عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الذي رواه مسلم في «الصحيح»، قال عليه الصلاة والسلام قال الله تعالىٰ «**يا محمد إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ**» فحقيقة الحياة أنها فتنة، والفتنة هل هي بالشر أو بالخير؟ هي بالشر والخير معا، ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾[الأنبياء].

إذن هذه السورة ذكر الله جل وعلا في أولها: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾، الناس يشمل من؟ يشمل المؤمن ويشمل الكافر، يشمل الكبير ويشمل الصغير، يشمل جميع الطبقات، جميع الطبقات في تعاملها مع الجميع، ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢﴾ تقول: مؤمن، فمتىٰ يصدق الإيمان؟ إذا عرضت لك الفتنة فنجوت منها بشرع الله جل وعلا، فقد تفتتن بنفسك، فيه أناس يفتتن بجماله، يفتتن بحسنه، امرأة تفتتن بما لها بما عندها، رجل يفتتن بماله، أحد يفتتن بوالديه، لذلك تجد في هذه السورة تجد أن في هذه السورة ذكرا لجميع أنواع وأصول الفتن والجواب علىٰ ذلك.

خذ مثلا في أولها قال الله جل وعلا: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾[العنكبوت] لاحظ الوالدان يفتنان؛ يجاهدان

للشرك، يجاهدان ليشرك العبد، هذه أليست فتنة؟ فتنة عظيمة، وقد ذكر المفسرون أنها نزلت في قصة سعد بن أبي وقاص لما أرادته أمه على الكفر والشرك، ومع ذلك قال الله جل وعلا أن يصاحب والديه حسنا لكن لا يطيع؛ قال: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾، وقال في أولها: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ هذه فتنة عظيمة، ما المخرج منها؟ المخرج منها في تحقيق شرع الله ألا تطيع في الكفر والشرك أو في معصية الله؛ لكن تصاحب بالحسنىٰ، ومن الناس من تعرض عليه الفتنة فيصاحب والديه لا بالحسنىٰ ولكن عن عقوق، ويكون قد وقع في بعضها، لكن من يصبر علىٰ هذا الأمر العظيم، وهو أن يصاحب بالحسنىٰ وألا يطيع، هذا هو النجاة من الفتنة في هذه الحال.

من أنواع الفتن أن يكون أناس كثير يكفرون بالله جل وعلا؛ لا يؤمنون، فيأتي المرء فيظن أنه وأهل الإيمان قليل، وأنّ الكفار أو المنافقين أو المجرمين أو العصاة، أنهم كثير، كيف هو يستقيم، هذا نوع من الفتنة يعرض علىٰ القلوب، وقلّ من الناس من يثبت ينظر الناس كلهم كذا، وفي هذه السورة الخبر، وفيها العلاج فاقرؤوا وتأملوا.

من الفتن أيضا التي ذُكرت في هذه السورة أن الإنسان ينظر إلىٰ طول مكث أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ، ينظر إلىٰ طول مكثهم في الأرض، إلىٰ طول مكثهم يتمتعون بالقوة، إلىٰ طول مكثهم وهم الذين يسيطرون من أعداء الله من الكفار والمشركين، فربما يحمله ذلك علىٰ أن تُزين له الدنيا وأن يصد عن سبيل الله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[البقرة:٢١٢] هذه في سورة البقرة.

في هذه السورة في سورة العنكبوت ذكر الله جل وعلا أولا قصة نوح عليه السلام في آيتين، ما مناسبة هاتين الآيتين لموضوع السورة وهو الفتنة؟ قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾[العنكبوت] قصة نوح في آيتين ما مناسبتها؟ طول هذا المكث تسعمائة وخمسين سنة وهو يدعوهم، والمؤمن قليل كما أنت تعلم في سور أخرىٰ، ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود]، قال العلماء: كان المؤمنون ثلاثة عشر نفسا. وقال آخرون: كانوا بضعة وسبعين من الرجال والنساء. مكث ألف سنة والشرك بالله جل وعلا يعلو، عبادة الأوثان ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وهذا ينصحهم يدعوهم ليلا ونهارا، وسرا وجهارا، ولا مستجيب إلا هذه الفئة القليلة.

ألا يحصل للقلوب فتنة؟ يحصل فتنة، ليست مرور عشر، عشرين سنة، خمسين سنة، مائة سنة. مرّت مائة، مائتان، ثلاثمائة، أربعمائة، خمسمائة، ألف سنة إلا خمسين عاما، وثم جاء فرج الله جل وعلا.

إذن فقد يفتتن المرء بطول مكث الأعداء، فهذه السورة نبهت المؤمن الصادق، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾[العنكبوت].

وقال في الآية التي قبلها ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾؛ ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا

وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ متىٰ يعلم؟ إذا عُرضت الفتن فنجىٰ.

فإذن موضوع السورة عندنا الفتنة، حتىٰ قصة النبي كان مرجعها إلىٰ الفتنة بما ينجيك أنت من الفتنة التي تطاولت، بعض الناس يظن أن أمر الله جل وعلا يحصل له كما يريد، لا، حكمة الله ماضية، الله جل وعلا يبتلي كما ابتلىٰ نوحا عليه السلام وقومه بأنه مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، ومع ذلك لم يستجب منهم إلا القليل، هذا نوع من الافتتان، المخرج منه في هذه السورة وهو الصبر ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

قصة إبراهيم عليه السلام في نوع من الفتنة فيمن يجادل، فيمن يحاور، لا يستسلمون؛ وإنما يكيدون ويتخذون أشياء للمودة وللدنيا، ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾[العنكبوت:٢٥]الآية.

فإذن فيه مجادلات إلىٰ آخره، وهذه يحصل فيها نوع افتتان، قلَّ من يصبر علىٰ الحق، ويمكث عليه، وأن لا يتأثر بهذه الفتنة في الشبه التي يلقيها المشركون أو التي يلقيها الكفار، وهذه الشبه تتجدد بتجدد الأزمان.

بعدها ذكر الله جل وعلا قصة لوط عليه السلام، وفيها الافتتان بالشهوة؛ الافتتان بشهوة الرجال التي هي مناقضة للفطرة، وأيضا شهوة بأنواعها، والإعلان بها، وأنه لا ضرر منها، ومن نهىٰ عنها إنما هو الذي يهجن هو الذي يرد عليه، نهاهم ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ ﴾ ولكن قالوا له: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[العنكبوت]، فتنة لأنّ زوجة لوط التي هي في بيته كانت ممن وقعوا في شراك أولئك؛ فهي تدل الرجال علىٰ الرجال الذين يأتون لوطا أو نحو ذلك، ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[العنكبوت] هذا نوع من الفتنة من الشهوة، الشهوة ما المخرج منها؟ المخرج منها بأن يعلم الإنسان أنها فتنة، الشهوة التي في جسم الإنسان أرادها الله جل وعلا لبقاء النسل، ولأن يختبر العبد هل يصبر أم لا يصبر، هل يتحمل ويسير علىٰ ما أراد الله جل وعلا أم يتبع نفسه هواها ويطلق الحبل علىٰ ما يريد، فصارت الفتنة فأوقع الله جل وعلا العقوبة فيمن لم ينتهوا عن نهيه جل جلاله.

من الفتنة أيضا أن يكون الناس في علم، وأن يكون المستمع يعلم، ولكنه لا يأبه بالعلم، الجاهل يُعَلَّم، لكن من يعلم أو المستمع الذي ينتشر فيه العلم، ويعلم الناس الحدود ويستبصرون، ولكن مع ذلك يخالفون، أليست هي فتنة؟!

العلم لم يكن إذن في حقهم نعمة بل كان فتنة، لهذا ذكر الله جل وعلا أن عادا وثمودا كانوا علماء؛ علموا وكانوا مستبصرين، ولكنهم مع ذلك خالفوا قال سبحانه: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[العنكبوت]، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾، هل كانوا يجهلون؟ لا، كان العلم قاصرا؟ لا، يعلمون ولكن زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل، والحالة أنهم كانوا مستبصرين علىٰ

بصيرة، وهذه فتنة عظيمة؛ أن يكون المرء علىٰ علم فيطع الشيطان ويترك العلم الموروث عن الرب جل جلاله وعن نبيه ﷺ.

القوة أيضا فتنة، المجادلة والحوار، الآن يطرح في كثير من الأحيان مباحث الحوار، الحوار مع النصارىٰ، الحوار بين الحضارات، الحوار بين الديانات، الحوار بين المذاهب، الحوار بين الملل، إلىٰ آخره، وهذا الحوار نوع من الفتنة، والآن تبثه بعض القنوات الفضائية؛ لأن فيه تأثيرا علىٰ من قلبه ضعيف، يرىٰ ملل ونحل، وهذا يعبد كذا وهذا يعبد كذا، قد يشك ويفتتن، لكن المؤمن الصادق يعلم أن هذا التنوع وهذا التعدد وهذا الاختلاف إنما هو دليل من أدلة أنّ الحق واحد، وأنّ هؤلاء كما قال الله جل وعلا: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾[الغاشية] أرادوا الطريق إلىٰ الله جل وعلا فأخطؤوا، لكن موضوع الحوار يحاول المرء أو لا يحاول؟ يجادل أم لا يجادل؟ هذه قد تعرض عن المرء هذه الفتنة، ولكن من الذي يجادل ومن عنده علم، وليس كل أحد، ولهذا ذُكر كما يعلم بعضكم أنّ أناسا جادلوا، إما جادلوا ملحدا، أو جادلوا غير مسلم أو نصراني أو يهودي، أو جادلوا صاحب ملة من الملل أو مذهب من المذاهب الضالة، أو نحو ذلك، فربما غلب، أو ربما كان أقوىٰ فوقع الافتتان في الناس.

الله جل وعلا في هذه السورة بين أن الفتنة تقع إذا لم يكن الحوار من عالم وبالتي هي أحسن فقال جل وعلا: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝٤٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[العنكبوت] إلىٰ أنْ قال جل وعلا: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾[العنكبوت:٤٩].

نكمل الحديث عن مثال سورة العنكبوت بأثر فهم مقصد أو موضوع السورة علىٰ العلم بالتفسير، فذكر جل وعلا النهي عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، لكن ممن؟ ممن هو عالم بالقرآن فقال: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ ولهذا من لم يعلم القرآن، وحجج القرآن، وبينات القرآن، والبراهين التي في القرآن، وكيف جاء في القرآن الحوار مع الملحد ومع المتجبر ومع الطاغوت ومع الناس بجميع أصنافهم، من لم يعلم ذلك فإنه لا يصلح للحوار، فليس كل أحد يحاور برأيه وبفكره، وإنما الحوار للعلماء، الحوار كما يسمىٰ أو المجادلة كما في القرآن، هذه إنما هي لأهل العلم الذين يعلمون حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله ﷺ. فإذن تقع الفتنة؛ الفتنة بالمجادلة، يقول له جادلني، ليش أنت ما تجادل؟ ويبدأ يبقىٰ أحدهم في الجدال والحوار ويبحثون القضايا، هذا نوع افتتان للعامة، فإذن لابد هنا أن ينظر المرء في هذه الحال؛ أن يكون معتزا بدينه، وأن يعلم أن القرآن هو الحق، وأنه الذي كان في صدره فهو الذي علىٰ الحق؛ لأنّ القرآن حجة ماضية علىٰ الجميع، ولهذا قد يكون المرء لا يعلم بعض الحجج، فإذا كان كذلك فإنه يقول كما قال الله جل وعلا: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝٤٦﴾ وهذا المجادلة الإجمالية ثم التفصيل عند من يعلم القرآن ويعلم الشريعة.

من الفتن التي ذُكرت أيضا في هذه السورة؛ أن يجعل الله جل وعلا الحياة جميلة بلهوها ولعبها وما فيها من الملذات حتىٰ ينسىٰ المرء الآخرة، قال جل وعلا في آخر السورة: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞ﴾[العنكبوت:٦٤]؛ لأن كثيرين من الناس افتتنوا بالحياة؛ لهو ولعب ويظن أنها ستمتد ولا يعلم حقيقة

الحياة، قال جل وعلا بعدها: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾[العنكبوت]، ﴿ٱلْحَيَوَانُ﴾ وهذا صيغة مبالغة من الحياة؛ يعني الدار الآخرة؛ يعني الجنة والنار هي ذات الحياة الباقية الكاملة.

فمن أراد قمّة النعيم وكمال النعيم والتلذذ فهو في الجنة في الآخرة، ومن أراد الهرب من المؤذيات فهو المؤذيات كلها في النار، والذي يريد الهرب يهرب من النار.

ولهذا قال طائفة من العلماء: ما ذكر الله جل وعلا في القرآن -هذه ذكرها ابن الجوزي وجماعة- ما ذكر الله جل وعلا في القرآن من أنواع نعيم الدنيا، لتنظر إلىٰ نعيم الدنيا أو لتتذكر به نعيم الآخرة، فكل مثال في الدنيا للنعيم أو للتلذذ هو حجة عليك في تذكرك نعيم الجنة، وكل مثال في الدنيا لأنواع المؤذيات ولو كانت حشرة صغيرة أو كان حرا يسيرا فهو مثال يذكرك الله جل وعلا به لما يكون في الآخرة من النكال ومن العذاب ومن الحرمان، فمن أراد حقيقة الحياة والسعادة فليبحث عن السعادة الأبدية، والحياة الدنيا هذه من اللهو واللعب ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ تُحدث فتنة، وما الناس الآن ما افتتن الناس إلا باللهو واللعب بهذه الحياة الدنيا.

لماذا قست القلوب؟ لأجل أن الناس أقبلوا علىٰ اللهو واللعب، لماذا أعرضوا عن الآخرة؟ لأنهم أقبلوا علىٰ اللهو واللعب، لماذا قل نصيبهم من القرآن؟ لأنهم أقبلوا علىٰ اللهو واللعب، والجاد العاقل هو الذي ينظر إلىٰ قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾.

من الفتن التي ذُكرت في هذه السورة وذُكر فيها المخرج من الفتنة؛ الفتنة بالأمن؛ أمن الحرم أمن ما حوله يحصل الأمن سنوات وسنوات وسنوات، فيغتر الناس بأننا لن يصيبنا ما أصاب غيرنا، الزلازل تصيب الآخرين أما أهل الحرم فلا تصيبهم، الموبقات، ضيق المعيشة يصيب الآخرين، النكد يصيب الآخرين أما أهل الحرم فيقولون نحن أبناء الله وأحباؤه أو يقولون نحن الخاصة، أو يقولون أو يقولون.

قال جل وعلا في بيان هذه الفتنة في آخر السورة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧] نفس النظر إلىٰ هذا النوع من الإنعام من الله جل وعلا وألاّ يكون هذا الإنعام سببا للافتتان بهذه النعمة وهذا الرخاء الذي جعل اله جل وعلا أهل مكة فيه زمن النبوة وما شاء الله من الأزمان بعده قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ ما الغرض من هذا؟ ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٦٧﴾[العنكبوت]، أفبالباطل يؤمنون بعد هذا الإنعام؟ يؤمنون بالباطل، بالشرك والكفر، وإنكار رسالة محمد ﷺ وإطاعة الشياطين، أو بما هو دون ذلك من المعاصي والموبقات والآثام، وبنعمة الله هم يكفرون، من الذي أنعم؟ الله جل وعلا: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣﴾[النحل].

إذن من الافتتان الذي قد يصيب الله به بعض العباد كما ذكر في هذه السورة أن يظن العبد أن البلاء إنما هو للآخرين، أما هو لن يبتلىٰ، فنقص الرزق يكون لفلان من الناس أما هو لا، المرض يكون لفلان أما هو لا، الإصابة بالأمراض الشديدة -أجارنا الله وإياكم منها- إنما يصاب به الآخرون أما هو صاحب صحة وعافية، السكتة، الغضب، إلىٰ آخره، يصاب به الآخرون أما هو لا يتذكر، قال جل وعلا في بيان هذا المثال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ

﴿٦٧﴾

هذه أمثلة من أنواع الافتتان وأنواع البلاء، وما في هذه السورة مما يتصل بهذا الموضوع، ثم يتعانق في هذه السورة الابتداء مع الختام ليدلك على قول من قال من أهل العلم: إن موضوع السورة يتعانق فيه البداية مع النهاية. فقال جل وعلا في بدايتها: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ ما المخرج في جميع هذه الحالات؟ الجواب في آخر السورة في آخر آية ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾[العنكبوت].

موضوع مقاصد السور وأثر ذلك في التفسير له شعب من جهة التنظير، وله أيضا شعب من جهة التطبيق، وإذا تأملت ما ذكرت من هذين المثالين في سورة الفاتحة وسورة العنكبوت، يكون لك به نظرة ورؤية إلى ما يذكره العلماء في موضوعات السور وما تشتمل عليه.

ففهم إذن كما اتضح لك الآن أنّ فهم آيات سورة العنكبوت الآن تقرأها ربما يكون لك تدبر آخر، يكون تأثرك بالسورة وبالنظر إليها آخر، تشوف الآيات غير ما كنت تقرأ سابقا، لماذا؟ لأنه اتصل عندك الموضوع وفهمت هذه الآية ولماذا أتى بقصة النبي فلان، ولماذا أتى بقصة النبي الآخر عليهم جميعا السلام، إلى آخر ما هو معلوم.

فإذن هذا الموضوع وهو موضوع مقاصد السور من العلم النادر العزيز، لكنه مهم لكل طالب علم في التفسير بقدر ما ذكرنا، وهو أن ينص أحد من العلماء على المقصد والموضوع، وأن يكون ظاهرا في دور آيات السورة عليه.

أسأل الله جل وعلا أن يبارك لي ولكم فيما سمعنا، وأن يجعلنا من أهل القرآن الذي هم أهله وخاصته، وأن يزيدنا منه علما، وأن يذكرنا منه ما نسينا، وأن يجعلنا من المحلين لحلاله، المحرمين لحرامه، المعتقدين لما فيه من الغيب إنه سبحانه جواد كريم.

كما أني في الختام أرجو لكم جميعا بإقبال هذه الدروس العلمية أن تنتفعوا من أصحاب الفضيلة المشايخ الذين يشاركون فيها، جزاهم الله خيرا، وأنا بهذه المناسبة أشكر كل الإخوة في هذا المسجد؛ إمام المسجد الأخ خالد... وجميع الإخوة الذين معه، وكذلك أصحاب الفضيلة الإخوة المشايخ الذين يشاركون في هذه الدورة على ما يتعبون وما يبذلون في الجلوس للإخوان وفي طلب العلم؛ لأننا في زمن نحتاج فيه بذل الدعوة وإلى بذل العلم إلى جهاد، أما الراحة فهي الوقت واسع للراحة، ولكن نحتاج إلى بذل وبذل كل في مجاله وكل فيما يستطيعه.

أسأل الله لجميع الهدى والتوفيق، وأن يبارك في الجهود، وأن يجعلنا من المتعاونين على البر والتقوى إنه سبحانه ولي ذلك.

كما أسأل ربي سبحانه أن يوفق ولاة أمورنا لكل خير، وأن يرزقهم البطانة الصالحة التي تذكرهم بالخير والصلاح وتدلهم عليه، وأن يبارك في ما يعملون من الخير وأن يجعلهم هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين.

كما أسأله جل جلاله أن يباعد بيننا وبين سبل المضلين، وأن يرد كيدهم إلى نحورهم، إنه سبحانه على كل شيء قدير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

[مقدم المحاضرة] شكر الله معالي الشيخ هذا البيان الضافي الجليل الذي وفى وكفى بإذن الله وجعله في موازين حسناته، وقبل أن نبدأ بطرح الأسئلة أودّ أن أعتذر للإخوة الحضور حيث ما وردنا من الأسئلة أكثر من أن يكفيه الوقت المتاح، هذا من جانب، ومن جانب آخر أن بعض الأسئلة لم تكن في مجال وموضوع المحاضرة، ومعالي الشيخ طلب أن تكون الأسئلة في نطاق المحاضرة حفظا لوقت الذين جاؤوا لسماع هذا الموضوع بالذات.

[الشيخ] الأسئلة الأخرىٰ آخذها، الأسئلة التي لا تلقىٰ أستفيد منها في موضوع محاضرات أخرىٰ يعني أن بعض الأخوة جزاهم الله خيرا يطرح أسئلة جيدة، نجعلها عنصرا أو فقرة في محاضرة أخرىٰ هذه نستفيد منها جزىٰ الله الجميع خيرا. نعم.

[مقدم المحاضرة] يسدي جميع السائلين تحياتهم إلىٰ معاليكم ثم يخبركم الكثير منهم بمحبتهم لكم في الله.

[الشيخ] أحبهم الله.

[مقدم المحاضرة] هناك اقتراح من أحد الأخوة أن تُجعل هذه المحاضرة علىٰ شكل كتيِّب في متناول الجميع.

سؤال (١): فضيلة الشيخ ما الأفضل للمبتدئ قراءته من الكتب التي تتناول التفسير، ثم يسأل يقول قلتم في كلامكم أنه يمكن أن يستخرج المعنىٰ بالاستقراء الجزئي للسورة، فكيف يستخرج المعنىٰ للسورة مع عدم الإلمام بالسورة؟

الجواب: أنا ما قلت هذا، أنا الذي قلته، أنا لم أقل إن المعنىٰ أو المقصد يستخرج بالاستقراء الجزئي، وإنما قلت يستخرج بالاستقراء التام أو الأغلبي، أما الاستقراء الجزئي فليس بحجة، والاستقراء الجزئي هو الذي يقع فيه الناس اليوم، وليس جزئيا قد يكون استقراء لحالتين ثم يحكم، يقول: والله كل الناس كذا وكذا، كل الموضوع، كم نظر في الكتاب ؟ نظر صفحتين، كم درس من حالات الناس؟ شاف له حالة حالتين وقال: كل الناس وقعوا في كذا، الاستقراء حجة إذا كان كليا أو أغلبيا، ولا يجوز للمسلم أيضا أن يقفو ما ليس له به علم، وأن يقول: والله يعمل قضية كلية وهو لا يعرف إلا حالة أو حالتين، وهذا خلاف حتىٰ المنهجية الصحيحة في التفكير، وإذا وجدت في المرء الخلل في المنهجية حتىٰ في رؤية الأشياء يقع من ذلك منهجيته في العلم؛ يكون تصوره للعلم غير صحيح؛ لأنه أصلا يتصور الأشياء باستقراء جزئي، يسرع في الحكم، ويسرع في تقييم الأشياء بما يسمع أو بحالة حالتين يجعلها قضية كلية.

إذن تعقيبا علىٰ السؤال إنما ذكرنا أنه يدرس الاستقراء الكلي أو الأغلبي، وعلماء الأصول بحثوا هذا، قالوا: إن الاستقراء الكلي أو الأغلبي حجة، الاستقراء الكلي والأغلبي ممن؟ ليس من كل مسلم بل من عالم بالتفسير، والعالم بالتفسير هو الذي عنده العلوم التي ذكرنا، هذا في الغالب لا يخطئ، لهذا العلماء ذكروا أشياء من مقاصد السور، داروا فيها حول استقرائهم وتدبرهم وقراءتهم للسورة أكثر من مرة مع علمهم بالتفسير فاستخرجوا مقصدا وموضوعا ثم فصلوا في ذلك. نعم

سؤال (٢): لماذا لا نقول بترجيح قول من قال أن لكل سورة مقصدا، وأن بين كل آية وآية تناسبا علىٰ الإطلاق؛ لأن ذلك يدل علىٰ كمال القرآن وإعجازه، ولكن نقيد هذا القول بنقطتين:

الأولىٰ: أنه ليس لكل أحد أن يُلِمَّ بجميع المقاصد والمناسبات، فقد يعلم بعضا ويجهل بعضا.

والثانية: نقيده بعدم الجزم بالمقصد والمناسبة بل يقال بأنه اجتهاد وأنه محتمل.

فما رأي فضيلتكم؟

الجواب: هذا وجيه، لكن السبب الثاني لا نحب أن يدخل الناس فيه؛ لأنه «**من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ ولو أصاب**»، وفي الحديث الآخر «**من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**»، أبو بكر رضي الله عنه يقول: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم.

فإذن الأصل في هذه كما ذكرت لك لا يكون اجتهادا مجردا، وإنما يكون استقراء كلي أو أغلبي، أما مجرد الاجتهاد ظهر له بادر، بادئ الرأي أو عاجل الرأي، وقال هذه السورة موضوعها كذا، هذا فيه تجني علىٰ القرآن، ولهذا قد يقال أنه يقال من جهة تنزيل القرآن أن القرآن محكم كل سورة لها مقصد علمها من علمها وجهلها من جهلها وأن الآية بينها وبين ما قبلها وبعدها تناسق وتناسب علمه من علمه وجهله من جهله وأن في ذلك دلالة علىٰ إعجاز القرآن العظيم، هذا قد يقال من جهة العموم، لكن بالقيد الذي ذكرنا أنه لا يُقبل من كل أحد أن يقتحم هذا الباب. نعم

سؤال (٣): يقول: هل هناك علاقة بين التفسير الموضوعي للقرآن وبين علم المقاصد للسور؟

الجواب: التفسير عند المتأخرين يعني في القرن الأخير هذا، جُعل منه التفسير الموضوعي، ومنه التفسير التحليلي، هذا تقسيم خاص تعليمي.

ويراد بالتفسير التحليلي كما تقرأ في تفسير ابن كثير وتفسير ابن جرير؛ يعني الآية وتفسيرها والكلمات وتحليلها لغة ونحوا إلىٰ آخره أو بيان سبب النزول يعني كل آية تأخذ علىٰ حدا، تفسير السورة تفسيرا تحليليا.

أما التفسير الموضوعي فيراد به موضوع في القرآن يعني مثلا توحيد الربوبية في القرآن، القرآن في هذا الموضوع توحيد الربوبية، الفتنة في القرآن الوسطية في القرآن، العدل في القرآن، الظلم في القرآن، قصص الأنبياء في القرآن، هذا يسمىٰ تفسير موضوعي، بمعنىٰ أن يأتي إلىٰ موضوع فيجمع كل ما فيه من الآيات، ثم يقسم ذلك تقسيما منهجيا ويتحدث عنه.

لا صلة لهذا بعلم المقاصد؛ لأن مقاصد السور راجع إلىٰ السورة في نفسها، والتفسير الموضوعي يجمع أطراف الموضوع في جميع سور القرآن.

سؤال (٤): هل القرآن نزل وفسره الرسول ﷺ كاملا، وبما نرد علىٰ النصارىٰ في قولهم أن الرسول لم يفسره كله والجمع بينه وبين حديث الرسول «**تركتكم علىٰ المحجة البيضاء**».

الجواب: ينبغي علىٰ القائل أو المتكلم أو الكاتب أو السائل إذا كتب اسم الرسول ﷺ أن يصلي عليه صلىٰ الله وسلم عليه تسليما كثيرا، حتىٰ ولو لم يكتب فإنه يصلىٰ عليه والمرء ما يخسر كتابة ﷺ ولو ألف مرة، لهذا أهل الحديث مما زاد في مقدارهم أنهم يكتبون في الحديث الواحد ﷺ ويقولونها كذا مرة،

وقد ثبت أنّ النبي ﷺ قال: «**من صلىٰ عليّ واحدة صلىٰ الله عليه بها عشرا**» ما معنىٰ ذلك؟ يعني من أثنىٰ عليّ؛ يعني من قال: اللّهمَّ صلي علىٰ محمد، دعا لي بأن يثني الله عليه في الملك الأعلىٰ مرة واحدة، صلىٰ الله بها عشرا؛ أثنىٰ الله عليه بتلك الصلاة عشر مرات ، اللهم صلي وسلم علىٰ محمد كلما صلىٰ عليه المصلون وكلما غفل عن الصلاة عليه الغافلون. ما هو السؤال؟

هل نزل القرآن وفسّره الرسول ﷺ.

النبي ﷺ لم يفسر القرآن كله، وإنما فسر آيات قليلة، لم؟ لأنّ التفسير يتبع الحاجة، يُفسر بمعنىٰ يبين المعاني، لمن لا يفهم المعاني، والقرآن نزل بلسان عربي مبين، فقهته العرب فهمت الآي، فهمته الصحابة، إلا في بعض الآيات لم تفهم ففسرها النبي ﷺ فالمنقول من تفسيره عليه الصلاة والسلام قليل، تفسير الصحابة أكثر من تفسير النبي ﷺ، لم؟ لأنّ الصحابة نقلوا للتابعين، والتابعون أقلّ علما بالقرآن من الصحابة لا من جهة اللغة، ولا من جهة معرفة أسباب النزول، ولا من جهة معرفة علوم القرآن، والعلوم المختلفة التي دار عليها القرآن، ولا من جهة السيرة، والتاريخ وأحوال العرب والجاهلية، إلىٰ آخره، ففسروا القرآن أكثر، تفسيرهم أكثر، التابعون تفسيرهم لمن بعدهم أكثر من تفسير الصحابة لشدة الحاجة، هكذا إلىٰ زمن التأليف والتصنيف كثرت التفاسير رغبة في أن يفهم الناس القرآن ويقبلوا عليه.

فإذن عدم تفسير النبي ﷺ للقرآن لوضوحه، وعدم الحاجة إلىٰ تفسيره، ولأن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يعلمون التفسير، وربما لم يعلموا ففسر بعضهم لبعض أوفسر لهم النبي عليه الصلاة والسلام. نعم

سؤال (٥): فضيلة الشيخ نأمل إرشادنا إلىٰ أحسن الكتب التي تناولت الحديث عن مقاصد الصور.

الجواب: ذكرت لك الكتب. نعم.

سؤال (٦): أرجو إلقاء الضوء علىٰ مسألة تفسير الآيات بالكشوفات الكونية الحديثة، وعلاقة ذلك بمقصود الآيات وفهم خطابها.

الجواب: لو لم ترجو لكان أفضل، لأن هذا الموضوع ما يحتاج؛ لأنه لو تكلمنا في دقيقة أو دقيقتين نظلم هذا الموضوع، وهو موضوع شائك كما تعلمون، الآن كثير من الناس يعرضون المسائل الكونية ويربطونها بالآيات القرآنية، ويجعلون القرآن كتاب كون، كتاب فلك، كتاب زراعة، كتاب رياضيات، كتاب، وهذا ليس بصحيح ، لهذا أنا كما رجىٰ السائل جزاه الله خيرا أنا أيضا أرجوه أن يؤجل جواب هذا السؤال إلىٰ موضوع محاضرة -مستقل- عن تفسير القرآن بالعلوم الكونية أو بالطبيعيات أو بالمكتشفات الحديثة؛ لأنه يحتاج إلىٰ بسط وتفصيل.

سؤال (٧): ذكرتم أن طالب العلم لابد له من تعلم التفسير، وأن هذا التحصيل مربوط بفهم اللغة ومنها النحو، وللأسف فإن غالبية الناس في وقتنا الحاضر ويعانون من الضعف في النحو حبذا لو تنصحوننا بكتاب في هذا المجال خاص بالمبتدئين في مجال النحو.

الجواب: المهم أنك تقبل علىٰ طالب علم؛ علىٰ أستاذ في النحو يعلمك، تكن جاد، النحو سهل،

لكن يصعب علىٰ غير المقبل هو في الحقيقة سهل، لو أقبلت عليه لكان سهلا، كتب النحو كثيرة دائما نذكر من أوائلها «الآجرّومية»، و«قطر الندىٰ» وشرحه، ومنظومة الحريري «الملحة»، و«الألفية»، وشروح الألفية، ثم يتطور بعد ذلك إلىٰ «التسهيل» وشروح التسهيل، ثم يتطور إلىٰ «همع الهوامع» و«كتاب سيبويه».

يعني أن يبتدئ في النحو بالكتب المختصرة عند المتأخرين، ثم إذا أتمها يرجع إلىٰ كتب المتقدمين، وهذه مجالات ومدارك بعضها فوق بعض، وكما قال الله جل وعلا: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾[آل عمران:١٦٣].

نكتفي بهذا القدر، وأسأل الله جل وعلا أن يكتب لي ولكم الخير أينما كنا، وأن يغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، إنه سبحانه علىٰ كل شيء قدير، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

طالب العلم والتـــاريـــخ

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه.

اللَّهمَّ علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما وعملا يا أرحم الراحمين.

اللَّهمَّ هيئ لنا من أمرنا رشدا، واغفر لنا ولوالدينا، ولإخواننا، ولمشايخنا، ولمن له حقٌّ علينا.

أما بعد؛ فكما جرت العادة أنه في أول درس بعد انقطاع يكون درسا عاما فيما يفيد طالب العلم؛ في منهجية العلم، أو في تعامله مع العلوم الشرعية الأصلية أو المساندة، أو في الآداب العامة، أو في توجيهات تهمّ طالب العلم وتنفعه.

وهٰذه المسائل لابد من طَرْقها؛ لأن العلم والآداب ربما كانت في زمن أحوج منها من زمن آخر، ولذلك لا ندري ما نستقبل في الأيام والسنين والعقود المقبلة، وربما نفع ما يُذكر في هٰذه المسائل في هٰذا البلد أو في غيره، وكثير من المسائل التي تُطرق لا يقصد منها أن ينفع بها المستمع الحاضر فقط؛ بل يتعدّىٰ ذلك إلىٰ من يسمع التسجيل وينتفع به في أماكن كثيرة من العالم.

وهٰذا -ولله الحمد- من فضل الله -جل وعلا- علىٰ عباده، أن هيأ هٰذه الوسائل الحديثة، التي تنشر العلم النافع وتنقله، فكم من نقلٍ لما ينفع حصل منه فائدة كبيرة في بلاد كثيرة.

ومما لم نتطرّق إليه فيما أذكر في المسائل التي هي مساندة لطالب العلم في سَيْرِه في العلم وفي تعامله معه بحث:

طالب العلم والتأريخ

ومعلوم أنه ما من عالم أو طالب علم يتكلم إلا ولابد أن يكون مستحضرا لشيء من التاريخ؛ لأنه لا انفصال ما بين تاريخ هٰذه الأمة وما بين شريعتها، فالتاريخ صنعته الأمة بدولها وبما حصل فيها من تقلبات، وصنعه أيضا العلماء وطلبة العلم، وصنعه أيضا المهتمون بالتعليم في المدارس المخصَّصة الموقوفة علىٰ العلم، ونحو ذلك من أصناف التاريخ والتأثير فيه كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالىٰ.

والاهتمام بالتأريخ والتأثر به أو التأثير فيه، هٰذا مما جاء مؤصَّلا في كتاب الله جل جلاله. فالقصص في القرآن جاءت قصصًا عن الرسل، وجاءت قصصا عن أتباع الرسل، وجاءت قصصًا عن أمم سلفت، وجاءت أيضا تلك القصص قصصًا عن سِير بعض الملوك، وعن سِير بعض الدول، وعن سِير بعض من

أورثهم الله بعض الأرض ثم بغوا فمحق الله -جل وعلا- عيشهم؛ ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥٨﴾[القصص]، ولهٰذا لما كان التأريخ مذكورًا في كتاب الله -جل وعلا- اعتنت به فئام كثيرة من علماء هٰذه الأمة؛ بل اعتنىٰ به العامة نقلا له وتأثرا به وسردا لأحاديثه وقصصه.

ولهٰذا لابد من تأصيل أصول في هٰذا الميدان المهم؛ لتكون نبراسا لطالب العلم فيما يتعلق بصلته بالتاريخ، وقراءته فيه، ومعرفته لذلك، وكيف ينضبط في أخذ الدروس والعبر، والاستفادة من التاريخ قديمه وحديثه.

☚ أولا التاريخ هو حركة، وحركة الناس التي تُنتج عملاً، وتُنتج دولا، وتُنتج علما، وتتقلب فيها الحياة، والله -جل وعلا- يورث الأرض أقواما وينزعها من آخرين، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء سبحانه وتعالى.

فإذن التّاريخ لا يمكن أن يُستهان به، ولا أن يُغفل عنه؛ لأنّه إذا غفل طالب العلم عن التاريخ قد غفل عن معرفة كيفية حركة الناس، وعلىٰ ما يتأثرون به ويؤثرون فيه.

ومن المعلوم أنّ العقل الجماعي يختلف تمامًا عن عقل الأفراد، فعقل الجماعة والمجتمع ربما توجّه إلىٰ شيء لو جرّدت الأفراد من هٰذا الاجتماع لصارت أفكارهم مختلفة عما يتجه إليه المجتمع برمّته فكم من حروب قامت لا يُدرىٰ لم قامت في الحقيقة وانساق الناس إليها؟

حرب الصحابة -رضوان الله عليهم- ما حصل ما بين معاوية رضي الله عنه وما بين علي، وما حصل في وقعة صفين والجمل ونحو ذلك، وما بعدها من الحوادث لا تعرف حقيقة الأسباب التي ولّدت ذلك، إلا بدراسة متأملة للمتخصص، والناس نفوسهم ومشاعرهم هي هي، كما قال أحد الفلاسفة: العواطف -عواطف الناس- جبلية لا تتغير.

ففلسفة التاريخ ودراسة التاريخ هٰذه مهمة جدا؛ لأن نفسيات الناس هي هي، ولأن مشاعر الناس تجاه ما يجري في مجتمعاتهم من حيث أساسيات علاقاتهم بعضهم البعض، من حيث مواقفهم، مما حولهم، نفسيات الناس هي هي، تؤثر فيها أشياء ولا تؤثر فيها أشياء، وهٰذا مما ينبغي العناية به.

الأمر الثاني أن الله -جل وعلا- قصّ القصص وجعلها عبرة فقال ﷻ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾[يوسف:١١١]، فلما قصّ الله -جل وعلا- قصة يوسف عليه السلام، قصة أبويه وإخوته، جعل الله -جل وعلا- هذه القصة فيها من العبرة الشيء الكثير، وهكذا كل القصص التي في القرآن فيها عبرة، فلم تُسرد لمجرد المعرفة وإنما هي للاعتبار ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾.

ولهذا لأجل التأثيرات السياسية والتأثيرات المذهبية واختلاف الناس تجد أن المؤرِّخين الذين أرّخوا دول الإسلام وحركة الناس أخلَوْا تلك الكتب الكبيرة والعظيمة من العبرة، فجعلوها سردا للأحداث؛ لأنّ العبرة استنتاج، ولا يريدون أن يُنسب إليهم شيئا من الآراء في خضمّ تلك الأحداث وتلك التقلبات التي ماجت بها الدول المختلفة وماجت بها المجتمعات.

لهذا مما ينبغي النّظر فيه، النظر في الدلالات والعبر في التاريخ، فالتاريخ ليس مقصودا بذاته في أن تُعرف القصص والأخبار وقيام الدول، وانتهاء الدول وقيام الحركات وانتهائها، وخروج من خرج على الولاة، والفتن التي حصلت من دون عبرة؛ بل لابد من أخذ العبرة من ذلك، سواءً كانت العبرة في حق الدول، أو كانت العبرة في حق المجتمعات، أو كانت العبرة في حق العلماء أو طلبة العلم والأفراد.

إذا نظر طالب العلم في التاريخ معتبرا متأملا مع عدم غلو ولا جفاء في نظرته للتاريخ، فإنه ستتكون عنده ملكة علمية وملكة حِكَمية -من جهة الحكمة- لابد له منها، ومن لم ينظر في التاريخ فإنه يكون نظره لاشك قاصرًا فيما حوله وفيما يذهب إليه؛ لأنّ المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، فإذا أتته العبرة أخذ بها.

الأمر الثالث أن المصنفات التي كتبت في التاريخ مصنفات كثيرة متنوعة، وقد خلا التاريخ على مرِّ الأزمان من وضع مصطلحٍ له، اعتنى العلماء بالعلوم الأصلية.

وضعوا للغة في تراكيبها وضعوا لها قوانين، سميت بالنحو.

ووضعوا للفقه أصولا، سميت بأصول الفقه.

ووضعوا للحديث مصطلحا، سمي مصطلح الحديث.

ووضعوا للتفسير علوما وجعلوا ذلك علوم القرآن أو أصول التفسير.

وهكذا في اللغة جُعل للغة أصولا، وجُعل لمعاجمها مصطلحات فاعتُني في ذلك كله بتأصيله.

أما التاريخ فقد خلا من وضع مصطلح له أو قوانين له، لا من جهة الرواية، ولا من جهة نقد المروي في حد ذاته، ولا من جهة التقييم والعِبر، وكيف يصنف ومن تنقل عنه ومن لا تنقل.

ولهٰذا -كما سيأتي- تجد العجب في أنّ كتب التأريخ مليئة بأمور تخالف أصول العقيدة التي في الكتاب والسنة، ومليئة بروايات تنصر مذهبا من المذاهب الرّدية كمذهب الشيعة أو مذهب الخوارج أو المعتزلة علىٰ فئاتهم، وهٰذا مما ينبغي معه التّحرير والنظر.

حركة التاريخ نُقلت؛ لكن كيف نقل ذلك ومن نقله؟ وهل كان عند الناقل التمييز؟ الجواب: لا.

فإذا نظرات فيما كتب، خذ مثلا «**تاريخ ابن جرير**» وجدت فيه أشياء كثيرة ليست بمقرة لا من جهة الشريعة، ولا من جهة نقد المرويات، ولا من جهة الرواة الذين نقل عنهم، فقد نقل كثيرا من المرويات عن أبي مخنف وحاله معروف، ونقل كثيرا من الروايات عن سيف بن عمر وحاله معروف، ونقل كثيرا من الروايات عن فلان وفلان ممن هم متّهمون بالجملة بمناصرة مذهب من المذاهب وفرقة من الفرق فحوّروا وغيروا.

☚ الأمر الرابع أنّ التاريخ من حيث هو في أمة الإسلام قُسِم إلىٰ عدة أقسام:

◄ فهناك **تأريخ للدول**، وثم مصنفات كثيرة بتاريخ الدّول.

◄ والقسم الثاني **تأريخ الرجال**، ويقصد بالرجال رجال العلم، ولم يكن في تلك الأزمان في اهتمام برجال السياسة أو رجال الوزارة الذين كانوا يستوزرون ونحو ذلك، وإنما كان تأريخ الرجال، الرجال الذين أثروا في العلم؛ إما علم التفسير، أو علم الحديث وهو أكثره، أو القراء ونقلة القراءات والبحث في أحوالهم، أو الرجال الذين نقلوا اللغة أو النحاة أو الأدباء ونحو ذلك، فثم مصنفات كثيرة تتعلق بتأريخ الرجال، ولاشك أن الرجال أثروا في حركة التاريخ في زمانهم، فالطلاب -طلاب العلم- إذا أخذوا عن العلماء هؤلاء يؤثرون في المجتمع، فيؤثرون في المجتمع سلوكا، ويؤثرون في المجتمع فكرا، ويؤثرون في المجتمع علما، وهٰذا التأثير إما أن يقوي أو يخفف شيئا ما مما يجري في تلك المجتمعات، إن كان خيرا أو إن كان غير ذلك.

◄ القسم الثالث **تأريخ الأقاليم**، تأريخ الأقاليم من حيث الناحية الجغرافية، وهٰذا سُمِّي في عصور متأخِّرة؛ يعني جُعل تبعا لعلم الجغرافيا، لكن تاريخ البلدان أو تاريخ الأقاليم يجمع ما بين التاريخ

الجغرافي وتاريخ الإقليم من حيث ما جرىٰ فيه ومن حيث الدول المتعاقبة عليه، والمدارس التي فيه، وخِطط أهل البلد وتغير ذلك، والأوقاف التي فيه والمدارس كما هو موجود فيما اطلعتم عليه في مثلا «تاريخ بغداد» و«تاريخ دمشق» و«تاريخ مصر» و«تاريخ خراسان» ونحو ذلك من التواريخ الموجودة، وفي «معجم البلدان» مثلا لياقوت المستعصم الحموي ما يدلّ علىٰ كثير من ذلك.

إذا تبين هٰذا، فإن الاهتمام بهٰذه الأنواع جميعا يحصل به عند طالب العلم مَلَكة في العلم وقوة في الرأي والنظر؛ لأن الشمول في طالب العلم مطلوب؛ ولأنّ هٰذه العلوم ما دام أنها علوم موجودة في المكتبة الإسلامية -يعني الموروثة عن المسلمين- فلابد من العناية بها.

لهٰذا تجد أن علماء الأمة الكبار كتبوا في التاريخ، فما من عالم إلا وله تاريخ:

إما أن يكون تاريخ دول.

وإما أن يكون تاريخ رجال بحسب الفن الذي فيه.

وإما أن يكون تاريخ للبلدان وللأقاليم.

☚ النقطة الأخيرة وهي الخامسة أن المعاصرين اهتم كثيرٌ منهم بالتاريخ؛ في نقده، أو في الاستنصار به؛ علىٰ طريقة من الطرق، أو مذهب من المذاهب، أو فكرة من الفكر، أو عقيدة من العقائد، وتنوّعت الكتابات في ذلك ما بين كتابات فيها دراسة نظرية للتاريخ، وتمحيص بحسب منهج الكاتب لما يريد من الروايات، فصار عندنا في المكتبة كمّ هائل من الكتابات المعاصرة في التاريخ.

فمنهم من كتب في تاريخ الدول.

ومنهم من كتب في تاريخ الصحابة.

ومنهم من كتب في تاريخ العلوم.

ومنهم من كتب في تاريخ العلماء.

ومنهم من كتب في تاريخ حركات معينة جرت في التاريخ. ومنهم إلىٰ آخره.

حتىٰ منهم من كتب في السيرة كتابات المتنوعة يدرس فيها ويأخذ العبر والدروس.

وهٰذه الكتابات إذا لم تكن منضبطة بضوابط شرعية متّزنة، فإن التاريخ كما أنه مختلف، واختلف الناس فيه -يعني في صناعة التاريخ، وصارت هناك دول ومذاهب وفرق وحركات لوّثت التاريخ في جملته-، فإن هٰذا الموروث سيُحدث تفرُّقا آخر في الأمة كما هو موجود الآن، فكم من دراسات نتج

منها آراء جديدة، ونتج منها مذاهب جديدة في عصرنا الحاضر، ومن رأىٰ المكتبة ربما في هـٰذه البلاد الطيّبة لا تتطلعون علىٰ كثير جدًا من الكتابات المنحرفة في التاريخ؛ لأنها لا تدخل هـٰذه البلاد؛ ولكن من اطلع في غيرها خارج المملكة وجد الكمّ الهائل من الانحرافات في النظرات إلىٰ تاريخ هـٰذه الأمة.

لهـٰذا ينبغي أن يعتني المتمكّنون وحُداة العلم الصحيح والطلاب: بالشمولية في العلم والاستيعاب في العلم والموروثات في العلوم المساندة ويجب أن يعتمد عليها ككل حتىٰ تكون نظرتهم أقوىٰ وحتىٰ يكون جذعهم أصلب في معالجة ما تستقبله هـٰذه الأمة من أمور الله أعلم بها.

إذا تبين هـٰذا، فنعرض لما يتّصل بهـٰذا الموضوع باختصار؛ لأن هـٰذا الموضوع متشعب وكبير.

فنعرض أولا إلىٰ تقسيمات التاريخ وهي النقطة الرابعة التي ذكرنا.

فقلنا لك: إن التاريخ ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام والذي يهمنا منه الآن قسمان:

القسم الأول هو تاريخ الدول:

وهـٰذه الدول، أو الكتب التي كتبت في ذلك منها ما يتعلق بدولة معينة، كمثلا كتب مختصة بالدولة الأموية، والدولة العباسية، أو دولة بني حمدان، أو الدول في اليمن -يعني الدول في القرون السابقة-، أو الدولة في مصر أو الدولة الفاطمية، أو في الشرق في خراسان وغيره مما كان في القرون الأولىٰ.

وهـٰذا استمر إلىٰ أن كُتبت الآن بعد التقسيمات الحديثة السياسية للبلدان، كُتبت تواريخ مستقلة، تاريخ مصر، وتاريخ السودان، وتاريخ الجزيرة العربية، أو تاريخ المملكة، تاريخ اليمن، تاريخ الكويت، تاريخ العراق، تاريخ الشام، تاريخ المغرب.. إلىٰ آخره، في كم هائل من التواريخ، ما من بلد بعد التقسيمات الجغرافية إلا نهض بعض المتحمّسين فكتبوا تاريخا خاصا لهـٰذه الدول أو الأقاليم؛ لأجل صلة الحاضر بالماضي.

أما في الكتب القديمة، فمنهم من سماها دول الإسلام كما صنع الذهبي، والذهبي كما وصفه علماء عصره ومن بعدهم قالوا: مؤرخ الإسلام. فسمّىٰ «دول الإسلام» هـٰذا المختصر الصغير، وكتاب آخر كبير سماه «تأريخ الإسلام».

وتسمية الأول بـ«دول الإسلام» عندي أنه لا بأس به؛ لأن هـٰذه الدول المتعاقبة -الدول الإسلامية المتعاقبة- إلىٰ زمنه.

أما تسمية الكتاب الآخر «تأريخ الإسلام»، فهٰذا فيه تفصيل، وهو أنّ التاريخ ينبغي أن ينسب إلىٰ المسلمين، أما الإسلام من حيث هو فإنّه أجلّ من أن تُنسب إليه تلك المفاجع، تلك الاعتداءات، تلك الفتن، وتلك المذابح، وتلك الوفرة الهائلة من إراقة الدماء، من الصراع علىٰ السلطة، ومن الصراع علىٰ الدول، هو أجل من أن ينسب إليه التاريخ الممزق والتاريخ السيئ هٰذا، فهو في الحقيقة (تاريخ المسلمين) وليس «تأريخ الإسلام» إلا أن يكون المقصود (تاريخ أهل الإسلام) فهٰذا لا بأس به.

ولذلك تجد أن بعض المعاصرين ممن كتبوا يحذّرون من رجوع حكم الإسلام في بلاد المسلمين، يقولون-كما ذكره طه حسين، كما ذكره بعض المستشرقين، وكما ذكره بعض المردة المتأخرين، كفرج فودة وغيره ممن كتبوا في هٰذه المجالات-: انظروا إلىٰ تاريخ الإسلام، فهو بعد انقضاء عصر الخلفاء الثلاثة بدأت المذابح والمقاتل والصراع علىٰ السلطة، وسفك الدماء، فلم يستقرّ الحال إلا في ذلك العصر المثالي الذي هو عصر الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الثلاثة، وما بعده لم يستقر علىٰ حال.

وهٰذا في الحقيقة نظر منهم إلىٰ أن تاريخ المسلمين هو تاريخ الإسلام، وأنهم ما فعلوا ذلك إلا بأمر الإسلام، والله -جل وعلا- ابتلىٰ الأمة، لاشك في ذلك، ويجب علىٰ طلاب العلم أن يتنبهوا إلىٰ هٰذا التفريق المهم ما بين تاريخ الإسلام وتاريخ أهل الإسلام؛ تاريخ المسلمين، فهل هٰذا التاريخ صنعه الأذكياء الأتقياء من أهل الإسلام أم صنعه غيرهم؟ والله -جل وعلا- يبتلي وابتلىٰ الأمة بفتن كثيرة، والنبي ﷺ كما ثبت في الصحيح سأل ربه ثلاثا فأعطاه اثنتين ومنعه ثالثة، فقد جاء في «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ كان مع أصحابه مرة فمرّوا بمسجد من المساجد فأتاه النبي ﷺ فركع فيه ركعتين، ثم دعا لما فرغ قال لأصحابه: «**سألت الله ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، منعني أن لا يجعل بأس هٰذه الأمة بينهم شديد**»[1] أو كما جاء في الحديث.

وهٰذا الحديث بالمناسبة استدلوا به علىٰ مشروعية الدعاء بعد صلاة ركعتي تطوّع؛ لأن النبي ﷺ صلىٰ ركعتين ثم سأل.

وفي سورة الأنعام قال الله جل وعلا: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ لما نزلت قال النبي ﷺ: «أعوذ بوجهك»، قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك» قال جل وعلا: ﴿أَوْ

(١) مسلم، حديث رقم (٢٨٩٠).

﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾[الأنعام:٦٥] قال النبي ﷺ: «هـٰذه أهون» ولما عظم الأمر عنده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -والآية كما هو معلوم مكية- في المدينة وخشي علىٰ الأمة أن يكون بأسهم بينهم دعا الله جل وعلا -كما في الحديث الذي ذكرت لك- فمنع هـٰذه.

فالذي وقع هو ابتلاء من الله -جل وعلا- وفتنة وعقوبة منه ﷻ، ولا ينبغي أن يُجعل هـٰذا الأصل في تاريخ أهل الإسلام؛ بل ينبغي أن يُنظر في أن تاريخ الإسلام هو ما يوافق الشريعة.

أما الفتن والبلابل فهـٰذه صنعها في الواقع أعداء الإسلام، فالحروب بين الصحابة التي حصلت هـٰذه إنما صنعها الخوارج -كما هو معلوم-، والخوارج إنما حرّكهم بعض براثن اليهود في قصة عبد الله بن سبأ أو ابن السوداء -كما هو معلوم- في تنقله بين بلاد كثيرة وحثّه للخوارج علىٰ الخروج وتشنيع وضع عثمان رضي الله عنه في أنفسهم، إلىٰ أن حصل قتل عثمان رضي الله عنه وكانت هي القاصمة في فتن كبيرة أتت بعدها.. وهكذا.

المقصود من هـٰذا أن من صنّف -صنف في دول الإسلام أو في تاريخ الإسلام- وهو المقصود منه تاريخ المسلمين، وهناك كتب كثيرة تعرض للتاريخ من حيث هو؛ يعني من خلق آدم عليه السلام؛ بل قبل ذلك خلق السمٰوات والأرض، تاريخ الأرض وتاريخ آدم، وما حصل، وتاريخ الأنبياء إلىٰ أن يأتوا إلىٰ السيرة النبوية الشريفة، ثم يأتوا إلىٰ تاريخ أهل الإسلام كما صنع الطبري وصنع ابن الأثير في «الكامل» وجماعة.

إذن هـٰذا النوع من التاريخ الكتب فيه علىٰ أنواع:

النوع الأول: الكتب التي تروي بالأسانيد، وهـٰذه هي الكتب المتقدمة، ويمثلها «تاريخ ابن جرير» الطبري، «تاريخ ابن جرير الطبري» يروي بالإسناد، وقد قال العلماء: من روىٰ بالإسناد فقد برئ من العهدة. وفي زمنه كانت الفتن كثيرة، فهو ذكر بالأسانيد ما وجد، وإن كان يُلام من جهة أن بعض الروايات فيها ما لا يوافق الشريعة، أو فيها الغض من بعض الصحابة، أو فيها بعض الأقوال التي يجب أن لا تُذكر لمناصرتها فرقة من الفرق ونحو ذلك، والأسانيد فيها مشتملة علىٰ بعض رجالات تلك الفرق؛ ولكنه أوردها.

هـٰذا النوع الأول تمثل في مدرسة ابن جرير الطبري رحمه الله.

النوع الثاني: مدرسة «تاريخ ابن الأثير»، وابن الأثير جمع ما تفرّق في الكتب قبله واختار من الروايات -وكان مؤرّخا نقادا- اختار من الروايات ما يرىٰ أنه صحيح، أو أنه مقارب للحقيقة، وهو كتاب مختصر علىٰ قوّته اختاره من كتاب ابن جرير ومن كتاب «المنتظم» لابن الجوزي ومن نحا هٰذا النحو.

وكتاب ابن الأثير يتميّز بالاختصار؛ ولكنه ليس فيه التطبيق الكبير من النواحي الشرعية للروايات، لذلك يشتمل علىٰ أشياء ليست بجيدة؛ لكنه من حيث الاستعراض يعتبر كتابا مختصرا حسنا.

القسم الثالث: التواريخ التي مال أصحابها في النقد؛ نقد الروايات وتمييز الروايات بحسب ما هيئ له، وهٰذه المدرسة جاءت متأخرة بعد ابن الأثير، وهي مدرسة الحافظ الذهبي وتبعه عليه بأكثر منه دقة ابن كثير في «البداية والنهاية»، وكتابه «البداية والنهاية» يعتبر من أحسن كتب التاريخ انتقاء.

ولكن هٰذه الكتب جميعا يعاب عليها أشياء:

أولا أنهم ينقلون التاريخ الذي حصل من جهة الوقائع والحروب والجهاد والدول والفتوح والخلافات والفتن، ولا ينقلون التاريخ الحسن الذي كانت عليه الدّول، فيذكرون مثلا في السنوات يقولون مثلا: دخلت سنة سبعين وفيها حصل كذا وكذا.. فيذكرون ما حصل مما نقل من الأشياء التي خرجت عن مألوف النّاس، وهي الحروب وما حصل من الخلافات، نزع خليفة وموت قائد أو الحروب للأعداء وفتوح جهادية ونحو ذلك؛ لكن لا يذكرون التأريخ الذي نمت به مجتمعات المسلمين في الأمور الحسنة، مثلا في العلم، وفي التنظيمات الإدارية، وفي التنظيمات العلمية ونحو ذلك.

ولاشك أن الحقبة، مثلا إذا أخذت الحقبة الأموية فإنها تميّزت بأمور كثيرة:

أولا تميزت بالفتوحات الإسلامية الكثيرة.

الثاني تميزت بكثرة الفتن في داخلها المتعاقبة، من خروج من خرج، ومن اعتراض من عارض، ومن حصول القلاقل، واختلاف القواد، وانشقاقات كثيرة فيها.

والقسم الثالث الحركة التنظيمية الكبيرة في الدولة التي نظمت فيها الدواوين ونظمت بها المدارس، ونظمت بها -كما في العرف المعاصر- الوزارات، ونظمت بها حياة الناس، ونظم بها العطاء، ونظم بها الإقطاع، ونظم بها أشياء كثيرة.

فهٰذه كلها إذا نظرت للتاريخ فإنه يتعرض للأول والثاني، أما الثالث فتكاد لا تجد عنه خبراً إلا بخبر تلوىٰ خبر ينتزعها من خلال سنين كثيرة، أو في ترجمة بعض العلماء، أو فيما يرد علىٰ استحياء.

وهٰذا في الحقيقة أفقدنا الحركة التاريخية التي هي متّصلة بالناس اتصالا وثيقا، أما الحروب والفتن فهي التي برزت في التاريخ، أكثر ما تجد الحروب والفتن التي بين الخلفاء والولاة وبين القواد والفتن والقلاقل والانشقاقات التي حصلت، ثم الأقل منها الحركات الجهادية، حتىٰ إذا أتىٰ للجهاد فإنه يقول فُتح كذا، ولا يأتي تفصيل كثير؛ يعني بقدر التفصيل الذي يكون في الفتن والخلافات التي حصلت.

وهٰذا لاشك من مآخذ التاريخ وهٰذا لا يعني أن هٰذا هو التاريخ.

فيجب علىٰ طالب العلم إذا نظر أن يكون عنده نظر ثاقب في أن التاريخ إنما هو تدوين لما حصل، والذي حصل في حياة الناس ليس هو فقط ما ذُكر.

إذا نظرت مثلا إلىٰ تسلّط القرامطة وما حصل من تسلط القرامطة علىٰ بلاد الإسلام والفاطميين -وهم باطنيون كالقرامطة- ونحو ذلك، لا تجد في كتب أهل الإسلام -في كتب التاريخ- الوصف الكبير لمواقف العلماء ووضع المدارس والعلم والتأليف في تلك الفترة، وإنما تجد الخبر عن تلك الدول وما حصل من فتن وقتل ونحو ذلك، وهٰذه الحركة الكبيرة لا تجدها؛ لكن اليوم مثلا الناس بحاجة إلىٰ أن يعلموا -الناس وطلبة العلم- يعلموا ماذا فعل العلماء وأهل الحديث والأئمة في تلك الفترة، لا تكاد تجد إلا الخبر بعد الخبر يعني يُبحث عنه بالمناقيش.

وهٰذا لاشك قصور من المؤرخين؛ لأنهم درجوا علىٰ أن لا يذكروا إلا السيِّئ أو إلا ما خرج عن مألوف الناس، أما ما كان فيه الدراسة والنظر والمواقف العامة والحركة العامة لأهل العلم وحركة المجتمع والناس، فلا يوجد من ذلك إلا الشيء القليل.

البحث هٰذا يطول جدا؛ لكن نذكر بعض ما يهم في ذلك

<u>**القسم الثاني تاريخ الرجال**</u>: تاريخ الرجال مهم، تاريخ الرجال علىٰ قسمين:

تاريخ الرجال من حيث تراجم الرجال؛ يعني بيان سير العلماء، سيرة الصحابة، سيرة التابعين، وهٰذه السير بجميع ما حصل في حياتهم كما صنع ابن أبي حاتم مثلا في مقدمة «الجرح والتعديل»، وكما صنع عدد من أهل العلم فيما طولوا في تراجم أهل العلم من الصحابة والأئمة.

وهناك نوع آخر يذكر من تراجم العلماء والرجال ما يتصل بالجرح والتعديل فقط، كما هو موجود في «الكمال» و«تهذيب الكمال» و«تهذيب التهذيب» إلىٰ آخر هٰذه السلسلة؛ لأن المقصود من هٰذه نقد الرواية.

فإذن الكتب المتعلقة بتراجم الرجال هي علىٰ قسمين شهيرين:

القسم الأول: تراجم مستوعبة لحياة العالم، حياة الرجال، وما فيها من محاسن، وما فيها من عبر.

والقسم الثاني: مقصودة لفن من الفنون، فيترجم للقارئ؛ لأحد القرّاء، أو يترجم كتب القراء فيما يتعلق بفن القراءة، يُترجم في الحديث فيما يتعلق بفن الحديث، يترجم للنحاة فيما يتعلق بالنحو، لكن لا يترجم جميع الحياة يعني لا يذكر وصفا كاملا لحياة العلماء ولحياة أهل العلم الذين نقلوا العلم وتحملوه ورووه حتىٰ تكون مدرسة لأهله.

فلذلك ينبغي لطلاب العلم أن يعرفوا أن هـٰذا النوع من التاريخ يحتاجون فيه إلىٰ معرفة مدرسة الكاتب، مدرسة من كتب، تارة يكون من كتب يريد أن يذكر جميع حياة الرجل تارة يكون يريد ما يعلي الهمة في شيء معين.

مثل ما فعل الذهبي في «سير أعلام النبلاء»، هو ينتقي من الأخبار ما يكون فيه علو همة لأجل أن يقتدي كل صنف بمن يعجبون به، فذكر أخبار القواد، وأخبار العلماء، أخبار الساسة، أخبار الفضلاء، أخبار التجار يعني الذين كانت لهم محافل كثيرة في الوقوف؛ يعني في الأوقاف وفي المدارس إلىٰ آخره، يعني حتىٰ يقتدىٰ بهم، وحتىٰ يجعل ذلك معنون له بـ«سير أعلام النبلاء».

ولا تأخذ تاريخ العلماء من كتب الجرح والتعديل فقط؛ لأنها منوطة بالهدف والغاية من ذلك وهو أن تنقد الروايات، ليس المقصود فيها سير العلماء، المقصود كيف تنقد الرواية، فيقول: هـٰذا روىٰ عن فلان، وروىٰ عنه فلان، وقال فيه أحمد كذا وقال فيه الشافعي كذا.

لو أخذت مثلا حياة الإمام أحمد وهو من هو علىٰ جلالته وعظم شأنه وقدره في الإسلام، لو أخذت حياته من كتب الجرح والتعديل لما وجدت شيئا كبيرا فيه ذِكر لحياة أحمد؛ لكن لو رجعت للكتب المطولة التي كتبت عن حياة أحمد كـ«مناقب أحمد» للبيهقي، وكـ«مناقب أحمد» لابن الجوزي و«سيرة أحمد ابن حنبل»، لغيره كسيرة مثلا الشافعي لابن أبي حاتم والرازي، و«سيرة الشافعي» للبيهقي إلىٰ آخره من هـٰذه السير، فستجد فيها أخبارا في السيرة تعطيك قدوة وفائدة في جميع جوانب حياة أولئك العلماء، وهكذا في حياة المتأخرين تجد الأمر كذلك.

الأمر الثالث: أن ينظر في التاريخ دائما علىٰ أنّ التاريخ -يعني ما تجده في كتب التاريخ- يجب أن تقرأه دائما بثلاثة أنواع من الإحساس:

الأول الإحساس الشرعي والعقدي بالخصوص.

والثاني الإحساس بالعبرة.

والثالث النقد الدائم للروايات.

أما الأول: فأن تنظر مثلا إلىٰ ما رُوي في السيرة، أو روي في تاريخ الصحابة أو في الوقائع بإحساس عقدي شرعي تميِّز فيه ما يصح شرعا ولا يصح؛ لأن الذي ينقل حتىٰ علىٰ فرض أنه صح فإنه إنما يصح في حال من وقعت له الحادثة، ومعلوم أن وقعت له الحادثة لا يؤخذ عنهم التشريع لأنهم مثلا من الجند كانوا يقولون كذا، وربما هـٰذه الرواية لا يكون قالها إلا مجموعة رأوا هـٰذا الرأي، فلا يُحكم علىٰ الشريعة بالروايات التاريخية، إذا اختلف الصحابة نرجع إلىٰ السنة فيما اختلفوا فيه في المسائل الفقهية، فمسائل التاريخ أولىٰ أن ترد إذا خالفت الشريعة، ولهـٰذا أُدخلت أشياء علىٰ سيرة النبي ﷺ ليست بصحيحة في ميزان الشرع ليست بصحيحة من جهة الرواية ولا من جهة المروي.

ولهـٰذا الحس النقدي العقدي والشرعي ينبغي أن يصاحب طالب العلم، بحيث أن لا يقرأ مسترسلا، بحيث أنه يقرأ ويمتلئ من التاريخ وهو لا يشعر بأنه يؤثِّر فيه في بعض المسائل دون أن يحصل.

مثلا الحركات التي حصلت في تاريخ الإسلام التي فيها الخروج علىٰ بعض الولاة، إذا قرأها طالب العلم قد يتأثر بها، ويجعل هـٰذه الحركة مقدَّمة في حصول الخروج في حصول معارضة الولاة في زمن ما - في زمن بني أمية وفي زمن بعض العباسيين أو فيما بعده- يجعل هـٰذه مؤثرة في نفسه دون أن يرجع إلىٰ الأصل؛ وهو ما جاء في النصوص من تحريم الخروج علىٰ الولاة ما أقاموا الصلاة أو ما لم يظهر كفر بواحا. أولئك الذين حصل منهم حركات مختلفة في التاريخ يجب أن تُنقد النقد الشرعي الصحيح، وأن توزن بميزان عقيدة السلف، وليست هي حكما علىٰ عقائد السلف، نغيّر عقائد السلف لأجل حركة فلان وفلان مما حصل في التاريخ، ليس الأمر كذلك، وهـٰذه الحركات أثرت في أناس؛ بل أثرت في جماعات من الجماعات المعاصرة في الدعوة، وكان هـٰذا التأثر كبيرا في رسم كثير من الاتجاهات المعاصرة في الدعوة.

وهـٰذا مما ينبغي أن لا يكون كذلك؛ بل أن يكون السبيل الرجوع إلىٰ العلم، إذا كان العلم مقدم علىٰ الآراء -آراء الرجال-، لاشك أنه مقدم علىٰ ما يروي لنا من التاريخ مما لا نعلم حقيقة ظروفه أو قد

يكون أهله أخطؤوا فيه أو كان لهم العذر، الله أعلم بالحقيقة، فلا نترك الشريعة، فلا نترك النصوص لأجل أخبار وردت في التاريخ.

الإحساس الثاني: الإحساس بالاعتبار، إذا نظر الناظر في ما جاء في التاريخ فيجد العبرة عظيمة.

أولا من جهة الدول؛ يعني من جهة الخلفاء والولاة، فإنه نجد العبرة مثلا في أن الوزراء والبطانة إذا كانت سيئة فإنها تسوء تصرفاتها، هٰذا مثال، وهٰذا يختلف باختلاف كل والي وكل حاكم وكل خليفة سلبا أو إيجابا، مدا أو جزرا، فمثلا لما أتىٰ عمر بن عبد العزيز -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ- وقرّب ابن شهاب الزهري وأمره أن يكتب الحديث فعلىٰ قصر ولايته اهتم الناس بتدوين الحديث وبروايته، يعني ينظر في التاريخ من جهة الدول في حالة الوالي وكيف كان صلاحه وكيف كان فساده، وكيف حصل من توليته القواد وكيف حصل من ثورة من ثار عليه، وكيف حصل المجتمع فيهم من الخلل، فيستفيد من هٰذه العبرة في الواقع كل من نظر فيها.

فلاشك أنه طالب العلم إذا نظر فإنها ستؤثر فيه، وإذا أثرت فيه، وأخذ العبرة الصحيحة من ذلك، فإنه سينظر إلىٰ الأمور من حوله بنظر آخر في مسائل كثيرة في ما يأتي وفيما يذر، وربما كان القاصر عن دراسة التاريخ وعن العبرة منه، ربما نظر إلىٰ ما حوله من الأمور نظرا قاصرا، ولم يأتِ زعيم من الزعماء ولا قائد من القواد ولا والي من الولاة وكان عنده من القوة والحنكة ما قدر الله له، إلا ولابد أن يكون قد أخذ من التاريخ العبرة، فمن انعزل عن التاريخ لاشك أنه ينعزل عن التأثير وعن فهم كيف يؤثر في المجتمعات بحسب قدره وما قدر الله له.

نعم إذا نظرنا في العبرة، وفيما يجري في التاريخ والتأثير فيه، فإنه -كما ذكرت لكم في محاضرة سابقة أو درس سابق- أنّ منهج أهل السنة في هٰذه المسائل، أنهم يؤثرون في التاريخ ولا يتأثرون، يؤثرون في الأحداث ولا يتأثرون، لم؟ لأنهم علىٰ قواعد صحيحة من قواعد الشريعة، والشريعة لا تتبدّل ولا تتغير في قواعدها العامة وفي قواعدها الخاصة وفي تحصيل المصالح وفي درء المفاسد، وهم يؤثرون ولا يتأثرون.

نعم قد يكون تأثيرهم محدودا؛ لكن هٰذا بحسب الزمان، فإذا نظرت مثلا إلىٰ تأثير الصحابة علىٰ جلتهم وعلىٰ علو قدرهم علما وإيمانا ومحبة لله جل وعلا ونصرة لدينه، كان تأثيرهم في زمن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ محدودا، لم يؤثروا التأثير الذي يجب أن يكون، وكان تأثيرهم في عهد أبي بكر وفي عهد عمر وفي كثير

من عهد عثمان كان تأثيرهم قويا، لم؟ لأن المجتمع والناس والحركة هل تقبل هـٰذا التأثير بكماله أو لا تقبل؟

فإذا نظر طالب العلم في العبرة أين العلماء والأئمة والجهابذة عن قوة التأثير في دولة من الدول أو في زمن من الأزمنة؟ لماذا لم يقلبوا أهل الزمان ولا أهل الإسلام في وقت من الأوقات إلىٰ أن يكونوا صالحين مجاهدين مؤثرين مطيعين؟ لأنهم لا يستطيعون، ولأن أمر الله جل وعلا نافذ، ولأن حكمته بالغة.

فإذن تستفيد من التاريخ أن ما من حقبة تاريخية مرت فيها مفاسد كثيرة وفيها من البلاء كثير، إلا وأهل العلم الراسخون والأئمة إلا وهم يؤثرون؛ ولكن ليس بشرط أن يكون التأثير يقلب الحقائق يقلب الواقع، ويغير التغيير الذي يرجوه من لا يعرف كيفية التعامل مع الناس.

حركة المجتمع تنظر إلىٰ التاريخ القديم والحديث إلىٰ أن حركة المجتمع بأجمعه؛ حركة الدولة، حركة الوزراء في الدولة، وحركة القوّاد، وحركة الناس، وحركة المنتفعين، وحركة المتسلطين، وحركة من يعمل ويصنع، هـٰذه لاشكّ أنها ستجابه كل وسيلة من وسائل الإصلاح ووسيلة من وسائل التأثير الشرعي المحمود؛ لكن ما الذي صنعه أهل العلم؟

إذا نظرنا في عهد الصحابة كيف أثروا؟ كان تأثيرهم محمودا وعظيما لما كانوا في زمن أبي بكر وعمر وعثمان؛ لكن لما حصل الخلاف والناس مرجت عهودهم من عهد علي رضي الله عنه ومن بعده صار تأثيره ضعيفا، ولم يكن التأثير السابق، لهـٰذا تذكر الكلمة عن علي رضي الله عنه لما قيل له: يا علي لم لا تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر؟ قال: لما كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما كان الجنود أنا وأمثالي، أو كانت الرعية أنا أمثالي، ولما أتيت كانت الرعية أنتم وأمثالكم.

وهـٰذا بلا شك يحرج المصلح، ويحرج من يريد التأثير، فإذا نظر طالب العلم في التاريخ، نظر إلىٰ أنه مهما عظم قدر المصلح، أو عظم قدر المؤثر أو قدر العالم فإنه سيؤثر، ولكن التأثير القليل، إلا إن كان الله -جل وعلا- أراد له أن يكون يعني في زمانه أن يكون يقلب التاريخ رأسا علىٰ عقب فإن هـٰذا ربما حقق.

إذا نظرت إلىٰ قوة شيخ الإسلام ابن تيمية العلمية والجهادية في زمنه، وقوة لسانه، وقوة قلمه، وقوة حاله، رأيت أن تأثيره لم يكن التأثير الذي يواكب أو يقارن تلك القوة والملكة العلمية والجهادية واللسانية.

لكن إذا أتيت ونظرت مثلا إلىٰ دعوة وأثر الإمام المصلح شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو لاشك أقل من شيخ الإسلام ابن تيمية علما ولسانا وكتابة، وهم درجات عند الله؛ ولكن كان تأثيره أعظم وأعظم ونفعه ونشر الخير في بلده وفي الجزيرة وفي خارجها ورد الناس إلىٰ حقيقة الدين وحقيقة الإسلام أكبر وأكبر، علمت أن هٰذا منوط بالتأثير في التّاريخ والنظر في حال الدّول وقوتها وفي ضعفها، وكيف يكون التفاعل مع ذلك.

فإذن ليس من شرط من نَظر نظر عبرة، وهٰذا الحس إذا نظرت إليه لا تجد أنّ أهل العلم الماضين قد أثّروا في التّاريخ وأثّروا في الدول وفي الإصلاح وفي بثّ الخير أثرا متساويا؛ بل كل بحسبه، وبحسب زمانه، وبحسب ما قدر الله له، وبحسب ما يجد من القبول؛ ولكن نظنّ في الجميع أنهم يجاهدون والناس فيهم ما بين قادح وما بين مستنقص، وما بين مقتد ومحسِّن للظن وهم أهل النظر الصحيح، جعلنا الله جل وعلا منهم.

بهٰذا فإن التأريخ في الحقيقة يحتاج إلىٰ نظر عبرة وليس بنظر إلىٰ قصص مجرّدة.

الحس الثالث نقد المروي: وقد ذكرتُ لك أن التاريخ لم يُجعل له مصطلحا اسمه مصطلح التاريخ أو أصول قراءة التاريخ ونحو ذلك، ولم يكتب أحد من أهل الإسلام شيئا في ذلك.

وقد رأيت كتابا لمتأخر من الدكاترة الكتاب صدر من نحو خمسين أو ستين سنة بعنوان «مصطلح التاريخ» لأحد الدكاترة في لبنان أصدرته الجامعة الأمريكية في بيروت، وكان صنيعه حسنا في أنه أراد أن يطبق مصطلح الحديث في نقد الرواة وفي نقد الروايات، وبيان العلل علل الرواية من حيث هي علىٰ التاريخ، بحيث تجمع الروايات وينظر ما فيه تعارض بينها فينفىٰ وما فيه زيادة ثقة فيقبل، يعني أراد أن يطبّق مصطلح الحديث علىٰ التاريخ؛ لكنه لم [يتابع] علىٰ ذلك، ولاشك أن تطبيق مصطلح الحديث -الذي هو المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي العظيم سنة النبي ﷺ- أن يجعل نقد المرويات التاريخية كنقد سنة النبي ﷺ، ليس كذلك؛ لكن لم يتصدر أحد لهٰذا.

لهٰذا ينبغي أن تنظر إلىٰ المروي بنظرٍ منطقي بنظر عقلي، هل يعقل أن يكون مثل هـٰذا أو لا يعقل؟ (وهل يعقل) ليس بنظر نظري بحت، ولكن بالنظر إلىٰ دراسة حقبة معينة لذلك التاريخ.

يعني مثلا إذا نظرت مثلا إلىٰ كثرة المرويات هـٰذه التي جاءت عن عهد عثمان ﷺ وما حصل فيه من كذا وكذا، من أنواع الخلل الكبيرة وقصص، لا يعقل أن يكون ذلك المجتمع قابلا لتلك الأشياء.

إذا نظرت مثلا في عصر متأخر، إلىٰ قصص هارون الرشيد ﷺ، وما كان عليه في عهده من قوة في الجهاد وقوة في نشر الإسلام، وأنه كان يحج عاما ويجاهد عاما، وكيف كان من قوته ذلك، فلا يمكن أن تصدق ما أشاعه الرافضة والشيعة، وما أشاعه المستشرقون بعد ذلك في العصور المتأخرة بأنه كان مارج السلوك ومارج الأخلاق صاحب سكر وغناء وسهر في الليالي ونحو ذلك.

فيكون هناك نقد ذاتي بعد معرفة الحقبة من حقب التاريخ التي كانت موجودة.

وهـٰذا لاشك يحتاجه طالب العلم احتياجا...

علىٰ كل حال الحديث ذو شجون ويطول الكلام فيه؛ لكن هـٰذا مما ينبغي لطالب العلم أن يتعاهده، والمقام قصير أن نفصل الكلام علىٰ هـٰذه النقاط التي تحتاج إلىٰ تفصيل واسع، وإلىٰ أن ننظر نظرة أخرىٰ علىٰ التواريخ المعاصرة كيف ينبغي الاهتمام بها خاصة «تاريخ نجد» وتاريخ الدعوة الإصلاحية التي لم يفهم أحد الدعوة فهما حقيقيا؛ يعني من حيث المؤلفات التي ألفت، ومن حيث الأحكام التي حكم بها، ومن حيث حركة المجتمع، إلا بعد أن يقرأ تاريخ نجد، وتاريخ الدولة السعودية الأولىٰ والثانية والثالثة، فيعلم كيف كانت هـٰذه الحركة.

وكذلك إذا نظرنا إلىٰ بعض الدول الأخرىٰ المعاصرة كيف حصل فيها الخلل وكيف حصل فيها الاستعمار والتغريب، ولابد أن يقرأ التاريخ ويحصل له من ذلك الفائدة والعبرة والعظة، ولاشك أن تأمل كتاب الله -جل وعلا- يجعل طالب العلم يحرص علىٰ قراءة تاريخ قراءة متأنية وقراءة علم لا قراءة هوىٰ.

أسأل الله -جل وعلا- لي ولكم التوفيق والسداد، وأن يبارك لنا في أعمالنا وأعمارنا، وأن يغفر لنا ذنوبنا إنه سبحانه جواد كريم.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الأسئلة]

سؤال (٠١): ما هو توجيه قول شيخ الإسلام: الدين والملك قرينان؟

الجواب: هٰذه أول من قالها أحد وزراء الفرس، قال هٰذه الكلمة وهي كلمة صحيحة، ويقصد بالدين الاعتقاد الذي يقوم عليه الملك أو دولة من الدول، فإنه ما من دولة قامت إلا علىٰ أساس، وهٰذا الأساس إما أن يكون أساسا دينيا بحتا، أو أن يكون أساسا قبليا، أو أن يكون أساسا من الأساسات.

إذا كان الأساس دينيا فإنه لا تبقىٰ الولاية إلا ببقاء ذلك الأساس، وإذا نظرت إلىٰ أن الدول المتعاقبة الدولة الأموية الدولة العباسية كان في أول أمرها لغرض من الأغراض، وقرّبوا فيه أهل العلم قووهم بحسب اتجاههم، ثم بعد ذلك تضعف هٰذه الصلة شيئا فشيئا حتىٰ يحصل ضعف الاعتماد علىٰ الدين، وأصلا إنما قَوُوا بالاجتماع علىٰ هٰذا الأساس.

ولذلك الدين والملك قرينان يعني أنهما ركنان لبناء، فإذا قام ملك ما علىٰ الدِّين فإنه إذا اختل ركن اختل الركن الآخر ولابد، وإنما يضعف أساس الملك إذا ضعف أساس الدين، حتىٰ الدين إذا لم يوجد له ناصر من الملك والولاية فإنه لا يقوم، النبي ﷺ وهو المؤيد من الله جل وعلا كان يبحث عن واحد ينصره، ولما نصرته الأوس والخزرج سموا الأنصار، وعيسىٰ عليه السلام قال: من أنصاري إلىٰ الله؟ فطلب النصر وطلب القوة هٰذا ديدن الأنبياء عليهم السلام، ولا غرابة في أن يقوم ملك علىٰ دين، ولا أن يطلب أصحاب الدين المساندة والقوة من دولة أو من ولاية؛ لأن هٰذا به ينتصر الدين.

المقصود من ذلك أن كلمة الوزير الفارسي بأن الدين والملك صنوان وركنان فإذا اهتز أحدهما اهتز الآخر. هٰذه كلمة صحيحة ولاشك فيها، فكل شيء قام علىٰ أساس إذا اختل الأساس فإنه لا يقوم قياما صحيحا.

سؤال (٠٢): لقد قرأت في كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير، لقد ذكر ابن كثير عند موت شيخ الإسلام أن هناك من كان يتبرك بشيخ الإسلام، كيف يذكر ابن كثير ذلك مع عدم التنبيه عليه؟

الجواب: هٰذا فيه كثير من هٰذه الأشياء، وفي كتب التاريخ تجد كثير من ذكر التبركات أو زيارة بعض القبور، دون أن ينبهوا؛ لأن المقصود ذكر الواقع.

وهٰذا من العجائب، أن تجد عالما وإماما يعيش حياته لبيان التوحيد وهو ابن تيمية لما مات كان الناس يلقون علىٰ جثمانه علىٰ جنازته يلقون العمائم ويتمسحون، وهو عاش كل عمره للجهاد في هٰذا،

وهٰذا يدلك علىٰ أن العامة لا تتأثر بكلام أهل العلم إلا إذا كان ثم ولاية، الولاية قوتها بتأثير كلام أهل العلم أكثر من قوة العالم بمراحل، العالم الذي لا يؤيد كلامه وِلاية ولا تنشره في الناس يكون تأثيره محصورا. ومن يقرأ كلامه؟ العامة لا تدري عنه، تعرف أنه رجل صالح، مات ابن تيمية هو رجل صالح نتبرك به ما تخلصوا من هٰذه العقائد.

حتىٰ ذكر أن بعد وفاة الشيخ عبد العزيز ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمة واسعة، أن منهم من أراد التبرك، وصُرف، منهم من تبع أراد أن يتمسح وصرف، وجاء الغلو ذلك في القصائد التي رُثي بها سماحة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعضها فيها غلو شركي وغلو بدعي وتعظيم غير شرعي ومناداة له بعد وفاته، مما كان ينهىٰ عنه في حياته رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمة واسعة.

وهٰذا مما تأخذ منه أن من قال أو أحس شيئا من ذلك أنه يحكي الواقع وليس بصدد النقد.

سؤال (٠٣): ظهر منذ زمن بعض الكتّاب الذين يشككون في تاريخ الإسلام وينكرون وجود بعض الأعلام، كإنكار القعقاع بن عمرو التميمي، فما هو الباعث لمثل هٰذا الإنكار؟

الجواب: الباعث قد يكون مذهبيا؛ يعني مثلا عندك شخصيتان الشيعة لا يحبون أن يذكرا في التاريخ أو أثر هذين في التاريخ:

الأول القعقاع بن عمرو.

والثاني عبد الله بن السوداء أو ابن سبأ.

وثم كتابات شيعية كثيرة من قديم في أن هاتين الشخصيتين منحولتان، وأن ليس لها وجود، وكتب التاريخ كثيرة يعني أوطدت هٰذا الذكر وشاع ومن نقد وأثبت عدم الوجود فإنه معارض في إثبات من أثبته.

والمسألة لها بحث تفصيلي آخر، مر ومعكم في الوقت كتابات في الجرائد ما بين إثبات ونفي للقعقاع بن عمرو وعبد الله بن سبأ، وكل السلاسل هٰذه التي تؤثر علىٰ بعض الفرق. والجواب التفصيلي له مجال آخر.

سؤال (٠٤): من هو أفضل من كتب في التاريخ في العصر الحديث، ما رأيك في كتابات محمود شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟

الجواب: محمود شاكر اثنان سوري ومصري:

المصري أديب، وهو الأستاذ المعروف محمود محمد شاكر، وهو من الأشراف؛ يعني نسبه يعود إلىٰ الأشراف، وهٰذا أديب، وهو الذي حقق «تفسير الطبري» وأصدر «دلائل الإعجاز والبلاغة» لعبد القاهر، وكتبا كثيرة في الأدب والتفسير.

أما المقصود بالسؤال فهو محمود شاكر الذي هو من الشام، هٰذا له كتابات في التاريخ؛ لكنها مطولة، وكأن المقصود بها الحس التربوي للشباب، فيذكر فيها أشياء ليس المقصود منها نقد الرواية من حيث هو، وإنما أخذ من الروايات ما يؤثر في الشباب حتىٰ تدرس دراسات دعوية وهي من جملة الكتب الموجودة في ذلك.

بالمناسبة فيه طبعة لكتاب «الكامل» لابن الأثير -نسيت أنبه عنها- طبعها محمد منير الدمشقي، وهي في تسعة مجلدات هو طبع ثمانية والتاسع طبع بعد وفاته، وهٰذه الطبعة فيها تعليقات في نقد كثير من المرويات لأحد كبار المؤرخين المصريين وهو الأستاذ عبد الوهاب النجّار، وهو من المؤرخين المعروفين في مصر، وله تعليقات حسنة في كثير من الوقائع التاريخية.

فالانتباه لهٰذه الطبعة ولهٰذه التعليقات مهم لطالب العلم إذا أراد الدراسة.

سؤال (٠٥): أيهما أصح في الكتابة وفي نطق كلمة: التأريخ بالهمزة والتاريخ؟

الجواب: طبعا من الأصل الاشتقاقي تأريخ، التأريخ بالهمز؛ لأنها أرّخ يؤرخ الهمز أصلي فيه، أرخ يؤرخ تأريخا، وأما التاريخ فهو تسهيل، والتسهيل موجود في القرآن في الهمز في مواضع كثيرة عند بعض القراء، مثلا معروف قراءة نافع بالتسهيل وعدم القراءة بالهمز في واضع كثيرة.

وأيضا تطلق التَّوريخ لأن الهمزة تبدل بواو في بعض المواضع، وبعض أهل العلم يسميه التوريخ، كأن أرّخ جعلها ورَّخ يورخ توريخا، لكنها ليست شائعة وإن استعملها بعض أهل العلم.

المقصود أن الذي علىٰ وفق اللغة علىٰ وفق الاشتقاق التأريخ بالهمز، وأما التاريخ فهو تسهيل.

سؤال (٠٦): يمرّ كثيرا في «البداية والنهاية» عندما يترحّم ابن كثير لبعض الصالحين يقول: رحم الله فلانا وقد فعل. فما هو حكم هٰذا القول؟

الجواب: (قد فعل) إذا كان المراد بالرحمة بالموت علىٰ الإسلام وعدم زيغ القلب قبل الوفاة فهٰذه العبارة صحيحة، أما إذا كان المقصود الرحمة بالنجاة من العذاب ودخول الجنة هٰذه شهادة لميت،

وكما تعلمون أن أصل أهل السنة أنه لا يشهد لأحد مات من أهل القبلة بجنة ولا نار إلا من شهد له رسول الله ﷺ.

سؤال (٠٧): ذكرتم رحمكم الله أن العلماء ربما كان تأثيرهم في التاريخ ضعيف وهٰذا حق، ما رأيك لو كان السبب من العلماء أنفسهم ومثاله في عصرنا عدم استغلال وسائل الإعلام المرئي في الدعوة إلىٰ آخره؟

الجواب: لو استغلوا، هل المعارض لما يقولون هل هو كثير أم قليل؟ أنت الآن انظر في التقييم إلىٰ وضعك أنت، وإن شاء الله لا نزكي أحدا؛ لكن وضع الرجل الصالح في بيته، هل أهل بيته يطيعونه في كل شيء؟ والذي عنده أولاد كبار وهو يعيش معهم، هل يطيعونه في كل شيء؟ هو له تأثير هٰذا في بيته، الذي لهم الولاية فيهم؛ لكن هم يطيعونه في أشياء، لكن المدرسة تؤثر من جهة، الشارع يؤثر، الأصحاب يؤثرون، الأقارب في أنفسهم الأخت والأخ والعم والخال؛ لأنه لا يستطيع أن ينعزل والشرع ما أمر بالانعزال هؤلاء يؤثرون، فإذا نظرت إلىٰ هٰذه الخلية، هل تستطيع أن تؤثر فيها بكل التأثير الذي تريد؟ ليس كذلك.

فيه عدد يريدون أن يكون أولادهم علىٰ مستوىٰ من الصلاح يرغبونه؛ لكن لا يكون لأن المؤثرات أكبر، لأنه هو ربما ما استطاع أن يؤثر التأثير الإيجابي علىٰ ولده أو علىٰ أخيه، يكون شاب صالح له في البيت أخ فاسد فاسق يعني لا يصلي ويأتي الموبقات، لا يستطيع أن يؤثر عليه وهو يعيش معه يتكلم وينصح ويقول.

لكن الأمر أكبر من ذلك وهو الأمة فإنه لا يظن في الإنسان أنه مطلوب منه أنه إما أن يكون لما يقول كل الأثر أو لا يفعل.

نضرب مثالا، مثلا -وأنا كما تعلمون- عانيت بعض الشيء في المسائل الرسمية وفي التأثير علىٰ بعض الناس سواء في الداخل أو في الخارج.

تريد أن تؤثر بكل ما تريد فلا تستطيعه؛ لأن الناس لا يمكن أن يقبلوا كل شيء؛ لكن أن تؤثر وأن تجاهد في أن تؤثر، وأن تقرب الناس للخير وتأمرهم وتحقق مراد الله جل وعلا في هٰذا هو المطلوب.

لكن هل تستطيع أن تؤثر في كل شيء؟ لا تستطيع أن تؤثر في كل شيء، أحيانا تأتي مسائل تدرأ مفسدة لدرء مفسدة أكبر، تتحمل شيء لتفويت شيء أكبر مفسدة لو حصلت، وتارة تدرّج من عندك أو من تدرج شيء تريد أن يحصل في الناس في المجتمع أو في الخارج أن تدرجه شيئا فشيئا.

التعامل مع النفوس أصعب ما يكون، وتارة تأتي وتعمل شيئا في مكان من الأمكنة، ثم تذهب وينشرح الصدر علىٰ أن هٰذا يؤثر، ما تدري بعد ذلك إلا أن تأتي أشياء أخرىٰ تصرف النظر عن قبول مثل هٰذا الأمر أو عن مثلا توجه المركز الإسلامي عن هٰذا لما اتفقت معهم عليه، الحركة هٰذه حركة جهاد يعني مجاهدة، لو كان الأمر كذلك لأطاع الكفار أنبياء الله -جل وعلا- من أول وهلة؛ لكن لا يخلو من المجاهدة.

فإذن التأثير ليس هو المطلوب، المطلوب العمل؛ يعني ليس المطلوب أن تضع في نفسك أن تؤثر وإن لم تؤثر يئست وقنت هٰذا لا يمكن أن يرتبط بالناس، المهم أن تعمل وأن تجاهد بحسب ما كتب الله لك.

طالب العلم يجاهد في التعليم في التدريس، في نشر الخير بحسب ما يستطيع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من كتب الله له ولاية أو سلطة يجاهد بحسب ما عنده ويأمر وينهىٰ وينشر الخير ويحفز وينصح للأمة ولأئمة المسلمين ولعامتهم، بحسب ما قُدّر له، آخر استطاع أن يؤثر في زملائه بالدعوة والخير يفعل ذلك.

لكن هل يقول: إذا لم يؤثر فإن معنىٰ ذلك ينقطع عنه؟ نوح عليه السلام وهو المؤيد من عند الله جل وعلا، وهو أول أولي العزم من الرسل مكث ألف سنة إلا خمسين عاما ما آمن معه إلا قليل.

هل المقصود التأثير؟ المقصود العمل؛ لأننا متعبدون بالعمل.

لذلك يخطئ عدد، يخطئون شرعا في أن يقول: فلان أيش سوىٰ؟ أوش أثر عمله؟ ليس السؤال هٰذا.

السؤال: هل عمل أم لم يعمل؟

أما: هل تأثر الناس أم لم يتأثروا؟ هٰذا ليس هو المهم، إذا نظرت إلىٰ داعية أو إلىٰ إمام مسجد هل أثرت أم لم تؤثر؟ ليس هٰذا المقصود، إذا حصل التأثير هٰذا نعمة وفضل من الله جل وعلا، وإذا لم يحصل فتذكر قول الله جل علا: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾[البقرة:٢٧٢]،

المهم أن تعمل، ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾[النحل:١٢٥]، وكذلك قول الله جل وعلا: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ ﴾[الشورى:١٥]، وكذلك في قوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا ﴾[المائدة:٧٧].

هٰذه هي الأصول العامة هي التي ينبغي للإنسان أن يعمل بها، حصلت النتيجة أو لم تحصل، هٰذا من عند الله جل وعلا.

سؤال (٠٨): من أحرم للحج وعند دخوله لمكة منع من الدخول لعدم حمل التصريح، فهل عليه شيء في ذلك علما بأنه يعرف القرار عن التصريح؟

الجواب: أولا ينبغي له أن يلتزم؛ لأن هٰذا مبني علىٰ فتوىٰ شرعية من هيئة كبار العلماء وينبغي له أن يطيع ولاة الأمر من العلماء في فتواهم الشرعية، وأنْ لا يقدم علىٰ ذلك، وإذا حصل مثل هٰذا فإذا فاته الحج فإنه يكون محصرا يتحلل بعمرة، كما هو معلوم، يعني ينتظر إلىٰ يوم عرفة محرما، ثم بعد ذلك إذا فات خلاص، انتهىٰ الحج يأتي يدخل بعمرة، ويتم عمرته؛ ولكن الحج بعد الإحرام به لا يُرفض؛ يعني لا يمكن أن يخرج من الحج إلا بالطواف والسعي إلا بتمام أركانه، الحج إذا كان تمكن وإذا أحصر أو منع فلابد من تحلله بعمرة.

سؤال (١٠): يدعو بعض المعاصرين لدراسة التاريخ دراسة حديثية؟

الجواب: أشرت لك أن هٰذا غير مقبول ولا يمكن تطبيقه.

سؤال (١١): هل يمكن أن يؤصل طالب العلم نفسه من جهة التاريخ من خلال قراءته لمقدمة ابن خلدون؟

الجواب: لاشك «مقدمة ابن خلدون» نافعة في حركة المجتمعات، الحركة العلمية والحركة العمرانية والحركة النفسية وحركة الدول ومن يصلح وكيف تقوم، هي نواة جيدة لهٰذا الأصل.

سؤال (١٢): أقترح عليكم أن تشرحوا المنظومة القحطانية؟

الجواب: ليست من الكتب الأصلية التي تشرح.

سؤال (١٣): الفرق بين أسانيد المؤرخين والمحدثين ما هو أثره وأسبابه؟

الجواب: هو من جهة الحديث يشدد فيه، والتاريخ من جهة الرواية لا يشدد فيه، يعني أن في الحديث لا نقبل رواية من يخطئ مثلا كثيرا؛ ولكن في التاريخ قد تقبل من كان معروفا بالسيرة، مثلا ابن إسحاق رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ لا يُقبل في الحديث إلا بشروط كما هو معلوم؛ لكنه في التاريخ هو صاحب سيرة وصاحب مغازي، فما أتىٰ به فهو مقبول لأن هٰذا اختصاص الرجل رَحِمَهُ اللهُ.

سؤال (١٤): هل اطلعتم علىٰ «فقه التاريخ» للشيخ عبد الحميد الشيباني وفقه الله، وما رأيكم؟

الجواب: مع الأسف ما اطلعت عليه، لعل هٰذا يكون تنبيه للإطلاع عليه.

نكتفي بهٰذا القدر وفقكم الله.

بما أن الباقي من هٰذا الفصل قليل، ربما شهر ونصف أظن إلىٰ الاختبارات، إلىٰ نصف صفر تقريبا شهر ونصف، فصار الاختيار لكتاب مسائل الجاهلية لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ، لنكمل ما سبق أن بدأته فيه عام ١٤١٢هـ يعني بعد ثماني سنين.

نبدأ من المسألة الحادية والأربعين إن شاء الله تعالىٰ لأجل قصر الوقت، ونقف إن شاء الله مع الفصل القادم، نبدأ في كتاب جديد حتىٰ نستمر فيه بإذن الله تعالىٰ، وفقكم الله وأعانكم وزادكم وإيانا من كل خير.

الفهرس

مقدمة ٢

مكانة التاريخ بين العلوم ٢

أصول لعلم التاريخ ٣

التاريخ حركة لابد من دراستها ٣

يجب النظر في دلالات وعبر التاريخ ٤

الحاجة لمعرفة مصطلح التاريخ كما للحديث مصطلح ٤

أقسام علم التاريخ ٥

نظرة المعاصرين لعلم التاريخ ٦

تاريخ الدول ٧

مدرسة ابن جرير ٩

مدرسة ابن الأثير ١٠

مدرسة الحافظ الذهبي ١٠

تاريخ الرجال ١١

من حيث تراجم الرجال ١١

من حيث الجرح والتعديل ١١

قراءة التاريخ تكون بثلاثة أنواع من الإحساس ١٢

الإحساس الشرعي ١٣

الإحساس بالاعتبار ١٤

نقد المرويات ١٦

[الأسئلة] ١٨

سؤال (٠١): ما هو توجيه قول شيخ الإسلام: الدين والملك قرينان؟ ١٨

سؤال (٠٢): لقد قرأت في كتاب ((البداية والنهاية)) لابن كثير، لقد ذكر ابن كثير عند موت شيخ الإسلام أن هناك من كان يتبرك بشيخ الإسلام، كيف يذكر ابن كثير ذلك مع عدم التنبيه عليه؟ . ١٨

سؤال (٠٣): ظهر منذ زمن بعض الكتّاب الذين يشككون في تاريخ الإسلام وينكرون وجود بعض الأعلام، كإنكار القعقاع بن عمرو التميمي، فما هو الباعث لمثل هٰذا الإنكار؟ ١٩

سؤال (٠٤): من هو أفضل من كتب في التاريخ في العصر الحديث، ما رأيك في كتابات محمود شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟ ١٩

سؤال (٠٥): أيهما أصح في الكتابة وفي نطق كلمة: التأريخ بالهمزة والتاريخ؟ ٢٠

سؤال (٠٦): يمرّ كثيرا في ((البداية والنهاية)) عندما يترحّم ابن كثير لبعض الصالحين يقول: رحم الله فلانا وقد فعل. فما هو حكم هٰذا القول ؟ ٢٠

سؤال (٠٧): ذكرتم رحمكم الله أن العلماء ربما كان تأثيرهم في التاريخ ضعيف وهٰذا حق، ما رأيك لو كان السبب من العلماء أنفسهم ومثاله في عصرنا عدم استغلال وسائل الإعلام المرئي في الدعوة إلىٰ آخره؟ ٢١

سؤال (٠٨): من أحرم للحج وعند دخوله لمكة منع من الدخول لعدم حمل التصريح، فهل عليه شيء في ذلك علما بأنه يعرف القرار عن التصريح؟ ٢٣

سؤال (١٠): يدعو بعض المعاصرين لدراسة التاريخ دراسة حديثية؟ ٢٣

سؤال (١١): هل يمكن أن يؤصل طالب العلم نفسه من جهة التاريخ من خلال قراءته لمقدمة ابن خلدون؟ ٢٣

سؤال (١٢): أقترح عليكم أن تشرحوا المنظومة القحطانية؟ ٢٣

سؤال (١٣): الفرق بين أسانيد المؤرخين والمحدثين ما هو أثره وأسبابه؟ ٢٣

سؤال (١٤): هل اطلعتم علىٰ "فقه التاريخ" للشيخ عبد الحميد الشيباني وفقه الله، وما رأيكم؟ . ٢٤

الفهرس ٢٥

المصطلحات
وأثرها على العلم والثقافة والرأي العام

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فإنه ليسرني هٰذه الليلة المباركة إن شاء الله أن أقدم لكم هٰذه المحاضرة التي سيتشرف فضيلة معالي وزير الشؤون الإسلامية والإرشاد والدعوة والأوقاف بإلقائها هٰذه الليلة.

هٰذه المحاضرة التي أود أن أقول عنها مستلفهما عنوانها، أما مضمونها فسيبقىٰ للشيخ، أن هٰذا العنوان المصطلح والحديث عن المصطلح والحديث عن المصطلح هو حديث الساعة وقد شغل كثيرا من الأوساط العلمية والأكاديمية والجامعات بل وأنشأت بعض الجامعات مراكز لتتعامل مع المصطلح كما عملت جامعة الملك محمد الخامس في المغرب.

المصطلح في الحقيقة هو أمر مهم جدا، بحيث أنّ الناس إذا تواضعوا علىٰ أمر واستقر من المصطلح وله من الدلالات ما له، ونحن نعرف اليوم ونحن في عالم توجيه المصطلحات، ونحن في عالم الأبلجة وما لهٰذا المصطلح من خطر وما لتوجيهه من خطر.

لكن قبل أن نلتمس من الشيخ أن يتحدث هٰذه نود أن نقدم الشكر لهٰذا المركز علىٰ دعوته للعلماء والمفكرين أن يحضروا مثل هٰذه المحاضرات التي يلقيها المثقَّفون والدعاة أمثال الشيخ.

الشيخ الحقيقة هو علم ونحن لا نعرّف العلم؛ لكن نريد فقط أن نشير أن الشيخ ولد في مدينة الرياض وأكمل دراساته ونال شهاداته من الرياض، له مؤلفات تربو علىٰ العشرين تأليفا وتحقيقا، وشارك في ندوات محلية ودولية تتعلق بالدعوة والأوقاف والفكر وما إلىٰ ذلك، طبعا صدر الأمر الملكي بتعيينه وزيرا عام ١٤٢٠ هـ والشيخ بجانبي ابتلائه بسدة الوزارة أيضا يقوم بمهام كثيرة جدًّا أو أنيط بمسؤوليات كثيرة منها أنه:

المشرف العام علىٰ مجمَّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة المنورة.

ورئيس مجلس الأوقاف الأعلىٰ.

ورئيس مجلس الدعوة والإرشاد.

ورئيس المجلس الأعلىٰ للجمعيات الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم.

والمشرف العام علىٰ مؤسسة الحرمين الخيرية.

والمشرف العام علىٰ إدارة المساجد والمشاريع الأثرية.

رئيس مجلس أمناء الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

رئيس المجلس التنفيذي لوزراء الأوقاف والشؤون الإسلامية.

عضو المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة بالقاهرة.

لاشك أنكم بعد هٰذا التقديم الذي أطلت فيه متشوقون لسماع فضيلة معالي الوزير.

فليتفضل مشكورا.

شكرا

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم

الحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا يكافئ نعمه ويوافي مزيده، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد:

فإني أحمد الله جل وعلا علىٰ أن هيأ لنا مثل هٰذه اللقاءات العلمية التي يجتمع فيها العلماء والدعاة والباحثون والمهتمون بشؤون هٰذه الأمة في طرح المسائل العلمية والعقدية والثقافية وما يكون فيه صلاح لأمة الإسلام.

ولهٰذا فإن هٰذا المركز في هٰذه المؤسسة (**مؤسسة الفيصل الخيرية**) تقوم جهد كبير تجاه هٰذه المسائل فلهم مني الشكر أولا علىٰ هٰذه الدعوة وأخص بها صاحب السمو الملكي الأمير التركي الفيصل بن عبد العزيز علىٰ دعوته لي لإلقاء هٰذه المحاضرة والمشاركة في برنامج المركز لهٰذا العام، كما أني أشكر لكم جميعا هٰذا الحضور، وأرجو إن شاء الله تعالىٰ أن يكون نافعا لي ولكم وأن يجعلنا ممن يتعاون علىٰ الخير ويدعو إليه علىٰ بصيرة.

موضوع هٰذه المحاضرة يتعلق بـ:

المصطلحات وأثر هذه المصطلحات في العلم والفكر والثقافة في تاريخ الأمة الماضي ولمحة أيضا عن أثرها في الواقع المعاصر

وكما ذكر أخي الأستاذ الدكتور ناصر بن سعد الرشيد جزاه الله خيرا فإنّ هٰذا الموضوع للمتتبع لحال العالم اليوم العالم الإسلامي ولغيره يجد أن هٰذا الموضوع هو موضوع الساعة؛ لأن الأثر النفسي الذي يلقيه المصطلح علىٰ الأمم أثر لا نهاية له، فكم تأثّرت عقول وبنت أجيال مفاهيمها علىٰ مصطلحات وُلدت وجدتها أمامها، فغذيت بها العقول والقلوب فصارت المفاهيم منطلقة من تلك المصطلحات ربما كانت صحيحة وربما كانت خاطئة.

ولهٰذا توجهت للنظر في هٰذا الموضوع ولم يتح لي من لَمِّ أطراف الموضوع وتتبع ما يتعلق به ما يرضيني حول ما سأطرحه لكن هو فتح باب لبحث هٰذا الموضوع لتأصيله مستقبلا إن شاء الله تعالىٰ.

المصطلحات نشأت قديما، ونشأت لحاجة الناس إليها، ومضىٰ ذلك يتولّد المصطلح شيئا فشيئا ويزيد المصطلحات إلىٰ أن صارت في عقلنا الحاضر لعبة من اللعب وأثر أو عامل مهم في التأثير في اتجاهات الناس وفي تفكيراتهم.

ولهٰذا يمكنني أن أجمل أن سبب اختياري لهٰذا الموضوع أن موضوع المصطلحات والبحث في ذلك مهم:

لأن المصطلحات تمثل مفاتيح متعددة من أنواع المعرفة، فالمعرفة في أي نوع من أنواع العلوم مفاتيح تلك المعارف والعلوم إنما هي في المصطلحات.

والأمر الثاني أن المصطلحات لها تأثير سَلبا وإيجابا في العلوم من حيث هيه، وفي المعرفة من حيث هيه، وفي سلوك الناس من حيث هو، وفي سياسات الدول وتأثير تلك السياسات علىٰ الناس وفي السلوك وفي التعبد وفي تنمية المجتمعات والمدنية وإقامة الحضارة.

ثالثا المصطلح وسيلة لنقل الأفكار بألفاظ محدودة وتركيب المعاني الظاهرة والباطنة في ألفاظ، ربما خُدمت بعد ذلك وولِّدت من اللفظ الذي لا يحتمل معنىٰ، ولدت منها معاني متجددة في المستقبل لأجل احتمال اللفظ أو من أجل اشتماله -بتعلم أو بوضع أهله- علىٰ عدة اتجاهات ومعارف.

أيضا المصطلح من حيث هو يوجه العقل إلىٰ معنًىٰ يرسخ فيه، فهو في الحقيقة كالاسم للذات، فإنه يتصور الشيء إذا أطلق المصطلح، فإذا أطلق المصطلح الجديد وجعل هٰذا المصطلح علىٰ شيء ما فهو كاسم فلان لأنه يتبادر إلىٰ الذهن المراد به كذا، وهل هٰذا المصطلح يدل علىٰ ما جعل لإزائه أو لا يدل وهل هو صحيح أم ليس بصحيح؟ هٰذا خارجٌ عن البحث في من أنشأ هٰذا المصطلح؛ لأن المصطلح يجعل العقل لا يفكر في الكلمة إذا وردت إلا بالتفسير وقد صدق القائل في نحو هٰذا المعنىٰ

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوىٰ		فصادف قلبا خاليا فتمكنا

فإذا القلب خاليا من المعرفة، فإنه إذا أتىٰ لفظ وجُعل بإزائه معنىٰ أو معاني فإنه سيرسخ فيه.

أيضا من أسباب اختياري لهٰذا الموضوع أنني ألحظ أن ثمة أزمة في تفكير المسلمين، وبعض الناس يعبر بالفكر الإسلامي؛ لكن أقول: أزمة في تفكير المسلمين تجاه علوم الإسلام بأنواعها، تجاه قضايا الأمة، وتجاه أنواع المعرفة والعلوم المدنية بعامة، نشأ عن هٰذه الأزمة في تفكير المسلمين اضطراب كبير في فهم الحقائق.

وهٰذه الأزمة في التفكير لها أسباب متعددة يمكن أن يتوجه إليها الباحث بالبحث، ومن هٰذه الأسباب المهمة أزمة المصطلح وتأثير المصطلح في الناس.

لهٰذا أحسن بعض الباحثين أو بعض الحكماء أو بعض الفلاسفة إذ قال: يشعر بأهمية الألفاظ والمصطلحات وتأثير تلك الألفاظ والمصطلحات في الناس يقول: من الألفاظ ما يشعر بوجود أفكار عدة لا تتناولها تلك الألفاظ.

ويقول أيضا: إذا شاع اللفظ تشعّبت معانيه بحسب معقول مستعمليه. يعني: أنه ربما فسّر هٰذا اللفظ والمصطلح فلان من الناس غير التفسير الآخر؛ لأنه محتمل، ولماذا يفسّر؛ لأنه أُثّر عليه بأن يفسر هٰذا اللفظ بهٰذا التفسير بتأثيرات أخرىٰ.

ولهٰذا وجود المصطلحات في بعض الأنحاء له ارتباط بالعلوم الإنسانية، وله ارتباط بعلوم الاجتماع، وله ارتباط بالإعلام، وله ارتباط بالتأثير الثقافي بإحداث التقليد وبإحداث التبعية وبنزع الاستقلالية في

الفكر في تصور الأمور علىٰ حقيقتها؛ لكن كما ذكرنا منها ما هو إيجابي ومنها ما هو سلبي.

وأيضا يقول القائل في أثر المصطلح في سياسات الأمم: من ضرورات فن سياسة الأمم معرفة طائفة من الألفاظ المؤثّرة؛ لأن فعلها أشدّ من فعل الأدلة العقلية غالبا.

فالناس أكثرهم عاطفي، ونخبة من الناس برهانيون يعتمدون علىٰ التحليل والبرهان والدليل؛ ولكن أكثر الناس لا يفكرون بالدليل لا يفكرون بالبرهان لا يبنون المسائل علىٰ المقدمات، وإنما هم يؤثر عليهم.

لهٰذا كان من ضروريات فن سياسة الأمم وقد انتبه إليها الغربيون مبكرا وانتبه إليها كثير من قادة الأمم في الماضي والحاضر أن تُطلق ألفاظ تؤثر في الناس، فهي أشد فعلا في الناس وأشد تعليقا للناس بتلك السياسات من الأدلة العقلية ومن الواقع ومن البراهين المختلفة.

وهٰذا تنظر إليه من جهة تأثير الشيوعية فيما أثّرت فيه، ومن جهة تأثير الرأسمالية فيما أثرت فيه، ومن تأثير الوجودية، وكثير من المذاهب التي تبنتها دول وصار عليها حضارات أو قامت عليها مدنيات، فإنها أثَّرت وساقت في الناس ألفاظ ما يفهمون تمام الحقيقة، حتىٰ إذا تكشّفت تخلوا عنها.

وقال أيضا في علاقتها -علاقة الألفاظ بسياسة الناس- قال: **علىٰ أهمية المسميات في السياسة دون أهمية الأسماء**. يعني أهمية الأسماء أكبر من أهمية المسمىٰ، **فكم نفذت نظريات هي من الخرط بما كان في ظل ألفاظ حسنة الانتقاء**.

وهٰذا أيضا موجود في بعض التيارات الإسلامية وبعض الأفكار التي خالفت نهج سلف الأمة في أنه ثم أفكار وألفاظ حسنة الانتقاء أثّرت ونفذت نظريات كما قال: **هي من الخرط بما كان**.

إذا تبين ذلك من كلام بعض العقلاء المتأملين في المصطلح وأثر ذلك في الناس، فإن المصطلح من حيث هو كان موجودا استعماله، ولكل أهل علم -كما سيأتي- اصطلاح.

وعُني المتأخرون -يعني في هٰذه الأزمنة- بتجسيد هٰذا العلم، فجعلوا علما خاصا سموه علم المصطلح، وهو يبحث أو يبحث كثيرا في اللسانيات وفي اللغويات؛ لكن هٰذا العلم ارتباط في فلفهم معنىٰ الاصطلاح ومعنىٰ المصطلح.

فعُرّف علم المصطلح الذي يبحث في الاصطلاح وفي المصطلح والألفاظ عُرّف بأنه **علم يبحث في العلاقة بين المفاهيم العلمية والمصطلحات اللغوية التي تعبِّر عنها**.

ومن أهم الموضوعات التي تبحث في هٰذا العلم النظرية العامة لعلم المصطلح بحسب وضع أهلها لها، وهي قريبة ليس فيها غلط فيما بحثوه؛ بل هي صحيح من حيث عقلية البحث ومن حيث تجسيد العلم، من أهم الموضوعات النظرية العامة لعلم المصطلح:

أولا البحث في طبيعة المفاهيم قبل أن يبحث في اللفظ والمصطلح يبحث في المفهوم، حتىٰ يكون المصطلح مطابقا للمفهوم، طبعا هٰذا من جهة أهل العلم الخاص به هم يرعون النزاهة؛ لأنهم لا يطلقون

مصطلحا إلا بعد أن يُحدّد المفهوم، ويكون المصطلح مطابقا للمفاهيم التي سيدل عليها هٰذا المصطلح.

أيضا يبحثون في تكوين المفاهيم وخصائص تلك المفاهيم، والعلاقة بين المفهوم وبين اللفظ الحاضرة والمستقبلية من حيث أصول العلم ومن حيث أثر تلك الألفاظ.

أيضا يتعاطون أو يبحثون في تعريفات في المفهوم والمسمىٰ واللفظ من حيث هو.

وأيضا يبحثون في كيفية تخصص المصطلح للمفهوم؛ لأن المصطلح لفظ وله معانٍ كثيرة؛ لكن كيف يخصص هٰذا المصطلح لهٰذا المفهوم المعين، هٰذا يحتاج إلىٰ دراسة علمية متخصصة حتىٰ يكون المصطلح دالا علىٰ المفهوم أو علىٰ المسمىٰ دلالة ليس فيها تجاوز.

وأيضا مما يبحثون طبيعة المصطلحات ووضع المصطلحات.

في القديم كان علم المصطلح يُبحث في المنطق أو يُبحث في أصول الفقه فيما يسمونه بالحدود والتعريفات، ويجعلون ثمة فرقًا بين التعريف والحد، والحد هو المصطلح؛ فيقولون مثلا لفظ كذا تعريفه كذا، يعني من جهة صناعة الحدود تقول مثلا في لفظ الفقه، يقولون الفقه هو كذا، المنطق فيحدونه حدا يجعلونه هو المفهوم، يجعلون هٰذا الحد هو المفهوم فيما إذا أطلق علىٰ اللفظ؛ لكن لم يسلم هٰذا لهم من جهة أن الحدود ثمة اعتراضات عليها بحسب ما وضعوه، ومع أن المناطقة من لدن اليونان إلىٰ المناطقة المسلمين الذين بحثوا في الكلام والمنطق والفلسفة، مع أنهم تحرّوا الدقة؛ لكنهم لم ينتج عن تعريفاتهم ما يخدم العلوم خدمة صحيحة كما سيأتي في البحث إن شاء الله تعالىٰ.

لهٰذا النَّاظر والمتأمل اليوم في العلم والكتب والبحوث يجد أنّ لكل فن من الفنون مصطلحًا خاصًّا به، ومصطلحات متنوعة تتعلق بهٰذا الفن.

فإذا نظرنا إلىٰ العلوم الشرعية العقيدة مثلا تشمل التوحيد والعقيدة العامة والعقيدة الخاصة ثَم مصطلحات كثيرة تتناولها تلك العلوم.

إذا نظرنا في الفقه ثَم مصطلحات.

أُلف في مصطلحات العقيدة، وإذا عطفنا الفلسفة والكلام وما يتعلق بها علىٰ مباحث الاصطلاح في علوم العقيدة يعني سواء كانت بحق أو بباطل، إذا عطفنا عليها وجدنا أن كثيرا من الكتب الاصطلاحية أُلفت في هٰذا الميدان؛ اصطلاحات الفلاسفة، اصطلاحات المناطقة، اصطلاحات أهل الكلام، اصطلاحات أهل السلوك، اصطلاحات الصوفية، اصطلاحات العلوم بعامة.

علوم الحديث، الحديث فيه علم خاص اسمه علم المصطلح، مصطلح الحديث هٰذا ينظرون فيه إلىٰ معاني الألفاظ التي استعملها علماء وأئمة الحديث في توضيح تلك المعاني، وُجدت تلك الاستعمالات ثم بحث العلماء في تفسيراتها بحسب مصطلح أهل ذلك العلم، ولا أحب أن أفصل في كل مسألة لأن الوقت يضيق عن بحث كل مسألة بالتفصيل.

في **العلوم الإنسانية** -في الاجتماع وعلوم النفس وحركة المجتمعات، وحركة المدنية، وتأثير المتقدم علىٰ المتأخر، وتأثير السياسة والجو السياسي علىٰ انفعال الناس وعلىٰ علومهم وعلىٰ إقدامهم وترهّلهم إلىٰ آخره، هٰذا أيضا ثم مصطلحات كثيرة نشأت منها، اعتنىٰ بها عدد منهم ابن خلدون في المقدمة كما هو معلوم.

التاريخ ثمة من اعتنىٰ بوضع مصطلح للتاريخ يبحث في وضع ضوابط للمؤرخين، وأيضا في تحديد معاني المؤرخين فيما اصطلحوا عليه، أو تكلموا حوله.

إذا نظرنا إلىٰ تاريخ العرب -كما سيأتي- وتاريخ المسلمين له اصطلاحات متنوعة.

في كل فن؛ **فنون الاقتصاد** مثلا إذا نظرنا إليه من حيث هو في المال والمدنية والسياسة والقانون وعلوم النفس والاجتماع، وكل فن من الفنون ثمة كتب كثيرة.

وهٰذه الأيام أحصيت أكثر من ثلاثمائة كتاب معاصرة في الفنون الاصطلاحية، تعريف المصطلحات المختلفة، وهٰذا يدل علىٰ أن حركة فهم المصطلحات، حركة حادة وقوية وذلك لأهمية المصطلح ودور المصطلح في حياة الناس، وأن الناس يهتمون في فهم العلوم المصطلح.

بل قال بعض العلماء وهو التهانوي في «كشاف مصطلحات الفنون[والعلوم]» قال: إنك إذا أخذت كتاب مصطلح لفنٍّ من الفنون لم تحتج إلىٰ معلم في ذلك الفن؛ لأن دقة الفن وفهم فن من الفنون- الفقه أو الكلام أو المنطق- إنما مبني علىٰ فهم اصطلاحات أهله، فإذا فهمت اصطلاحات أهل ذلك الفن فإنه يمكن لك أن تدرك الباقي؛ لأن العقدة إنما هي في الاصطلاح، فإذا علمت الدلالات فإنه ييسر بعد ذلك فهم ذلك العلم.

لكن هل الاصطلاحات، هل المصطلح الواحد لا يوجد له إلا معنىٰ واحد؟ الجواب: لا؛ لأن العلوم متداخلة.

فنجد مثلا أن لفظا واحدا مصطلح في علم من العلوم تجد أن هٰذا اللفظ موجود في علم آخر وفي علم ثالث وفي علم رابع.

مثلا إذا نظرت (المسند) و(المسند إليه) هٰذا يستعمل في الحديث وله معنىٰ، يستعمل في البلاغة له معنىٰ.

إذا نظرنا إلىٰ (الخبر) الخبر في الحديث له دلالة، في النحو له دلالة، في المنطق له دلالة، وهكذا.

لفظ (الرجعة)، الرجعة إذا سألت ما معنىٰ الرجعة؟ لابد أن يقال: في أي فن تريد تعريف الرجع، فالرجعة عند الفقهاء لها معنىٰ، والرجعة عند بعض الفرق لها معنىٰ، رجعة الإمام أو نحو ذلك، ورجعة المسيح عند النصارىٰ لها معنىٰ.. إلىٰ آخره.

فإذن كثير من الألفاظ المصطلح يؤثر في تلك العلوم وفي فهم تلك العلوم.

إذا قلّبنا الصفحات والتاريخ إلىٰ ما قبل الإسلام، وجدنا أن حقيقة المصطلح والإصلاح ناشئ عن

الحركة المدنية للأمة، الحركة المدنية من حيث هي -يعني بمعنىٰ بوسائل المدنية ووسائل العيش- سعىٰ الناس في بحث المصطلحات التي تُعينهم علىٰ أمور المدنية، ثم بعد ذلك دخلت المصطلحات الفكرية أو دخلت المصطلحات التي تبحث في علوم العقائد أو فيما وراء الغيب أو في أشياء كثيرة كما هي عند اليونان وغيرهم.

إذا نظرنا في العرب الذين جاءت الرسالة إليهم، وجدنا أن العرب استعملوا كثيرا من المصطلحات، فالمصطلح طبعا اللسانيون يبحثون في المصطلح من حيث كيف وسائل مثلا نشأة المصطلحات، كيف نبحث هٰذا المصطلح، النحت الاشتقاق إلىٰ آخره، التعريب، التعريب هل هو للمعنىٰ أو للفظ؟ هٰذه اللسانيات هٰذا يبحثون بحوث مختلفة في ذلك.

لكن العرب علىٰ أيٍّ استعملت المصطلحات وأنشأت مصطلحات في علوم كثيرة.

بين يدي مثلا في تنظيم الإدارة ثَم مصطلحات مثلا السِّدانة والرِّفادة ونحوها.

في الزِّراعة العرب تستعمل للمهندس لفظ القُنَاقِنْ مثل ما قاله ابن سِيدَه في «المخصص» نقلا عن الخليل الفراهيدي في «العين» وهو المقدِّر لمجاري المياه، القناقن، لاحظ لها ارتباط بالقناة إلىٰ آخره من جهة الاشتقاق؛ لكن هٰذا مصطلح (القناقن) حتىٰ قال: وهو المهندس المقدّر لمجاري المياه.

استعملت أيضا في الطب (الأَسر) وهو احتباس البول والحمىٰ والجدري إلىٰ آخره من المصطلحات الطبية أو مرضية معينة.

في النقود استعملوا مصطلح (الدينار) مصطلح ما له اشتقاق معين (الدينار) و(الدرهم) و(النش) و(الدانق) و(الفلس) وأشباه ذلك.

وفي الموازين أيضا استعملوا (الرَّطل) و(المثقال) و(الدرهم).

وفي المكاييل (المد) و(الصاع).

وفي تقدير المسافات استعلموا مصطلحات (الفرسخ) و(الميل).

وفي الفلك أيضا استعملوا مصطلح لمجموعة من نجوم بأنها (الثور)، ومجموعة أخرىٰ بأنها (الأسد) ومجموعة أخرىٰ بأنها (الجدي).

في النجوم سموا هٰذا نجم (الثريا) وهٰذا نجم (الشعرىٰ)، وهٰذا نجم (السهيل)، السهيل اسم فلماذا أطلقوا علىٰ النجم سهيل؟ هٰذا اصطلاح؛ لكن هل فيه ارتباط بين الاسم والمسمىٰ؟ لا، إنما هو مجرد اصطلاح.

إذن فحركة الاصطلاح حركة مدنية مهمة، لا يمكن أن نغير جانب أهمية المصطلح، إلا إذا غيرنا أهمية جانب التمدُّن في حياة الناس وفي حركة الناس.

ولهٰذا كانت النظرة للتمدن والمدنية والحضارة لابد أن يكون معها في تقيمها النظرة للمصطلحات التي نشأت، فبقوة أمة من الأمم في مدنيتها وفي حضارتها تكون قوة المصطلحات ودقة تلك

المصطلحات.

ومعلوم أنه عندنا نوعان من العلوم:

- علوم لا يدخلها الهوىٰ.
- علوم يدخلها الهوىٰ.

أما العلوم التي لا يدخلها الهوىٰ التي يشترك الناس في عقولهم في إدراكها مثل الرياضيات واحد زائد واحد يساوي اثنين، اثنين في اثنين سموا هٰذه العملية ضرب، اصطلاح يساوي مثلا أربعة إلىٰ آخره، لو قال واحد اثنين في اثنين يساوي اثنين، فهٰذا سيرد عليه.

فلهٰذا الشريعة لم تأتِ في تحديد المصطلحات التي لا يدخُلها الهوىٰ، ولا اعتنت بها، وإنما وافقت في الناس علىٰ ما كانوا فيه، إذا كانوا متجردين في العلم؛ يعني متحرين في الحقيقة في العلم إذ أنشؤوا أو وضعوا تلك المصطلحات.

لكن ما يدخله الهوىٰ فإننا يجب أن الشريعة جاءت بأسماء خاصة سماها بعض العلماء الأسماء الإسلامية، سماها ابن فارس: الأسباب الإسلامية، ويسميها علماء الأصول: الحقائق الشرعية، ونحو ذلك.

والشريعة اهتمت اهتماما كبيرا كما في الكتاب والسنة بالمصطلح؛ بل الشريعة إنما هي مصطلحات؛ يعني جديدة جاءت علىٰ خلاف ما تعهده العرب؛ يعني مثلا إذا نظرنا إلىٰ:

الوضوء، إذا أطلق لفظ الوضوء، تبادر إلىٰ ذهنك المعنىٰ المعين؛ لكن المعنىٰ هل كانت تعرفه العرب؟ لا؛ يعني علىٰ هٰذا التفصيل وإنما هو عرف بعد بالشريعة.

الصلاة في لغة العرب الثناء أو الدعاء؛ لكن جاءت بهٰذه الصفة.

الزكاة الحج والصوم مما استعملته الشريعة.

جاء في القرآن والسنة نقل ألفاظ كثيرة بنوع من النقل من استعمالاتها العربية إلىٰ استعمال جديد.

فيصح أن يقال: إن هٰذه أسباب إسلامية أو حقائق شرعية؛ لكن هل يقال هي مصطلحات أو لا؟ هٰذه اختلف فيها الباحثون في هٰذا الميدان.

والأصح أنه لا يقال عنها مصطلحات؛ لأنه كما قد يتبادر إلىٰ الذهن أن المصطلح هو اصطلاح جماعة علىٰ شيء، كما قاله بعض العلماء في تعريف المصطلح: **ﻫو تواضع جماعة علىٰ جعل لفظ يؤدي إلىٰ معنىٰ أو علىٰ جعل لفظ بإيداء معنىٰ**، تواضع جماعة يعني اتفاق، قد يكون الاتفاق باجتماع نضع هٰذا، وقد يكون الاتفاق اتفاق مجموعة من علماء فن من الفنون بالتوارد علىٰ استعمال هٰذا المصطلح علىٰ هٰذا النحو؛ لكن أيضا هل العلوم تتفق في المصطلحات؟ لا تتفق.

في النحو مثلا هل اصطلاحات النحو متفقة؟ سيأتينا أنها إذا اتسع الوقت أن النحويين نحاة الكوفة لهم اصطلاح ونحاة البصرة لهم اصطلاح، وربما تجد أن عندنا الآن نستعمل لفظا، الرجل يعرب علىٰ طريقة

البصريين ويستعمل في إعرابه طريقة الكوفيين، مثل النعت يقول: هٰذا نعت مثلا في أي مثال يقول هٰذا نعت وهو استعمال الكوفيين أو يقول هٰذا صفة وهو استعمال البصريين، ثَم تداخل في المصطلحات.

المقصود من ذلك أن الشريعة جاءت بالاهتمام بالمصطلح، حتىٰ إن بعضهم كتب محمد ﷺ والتربية الاصطلاحية، وذكر عدة أشياء أن محمدا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ اهتم بالمصطلح وأصله وجعل العقل يفكر في الأشياء بحسب المصطلحات التي جاءت في الشريعة، هٰذا يسلّم في ميادين كبيرة.

لهٰذا نهتم بالاصطلاح لأن الشريعة، كما ذكرت لك، فربنا جل وعلا يقول في كتابه في سورة البقرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾[البقرة:١٠٤] ﴿رَٰعِنَا﴾ كلمة طيبة كلمة حسنة يعني من المراعاة والانتظار والرأفة والأخذ في الانتظار في الحديث وتجاذب ذلك، ولكن هٰذا اللفظ اصطلاحا عند اليهود بمعناه السب، كما قال ابن عباس في ذلك: كان المسلمون يقولون للنبي ﷺ: راعنا علىٰ جهة الطلب والرغبة من المراعاة أي التفت إلينا، وكان هٰذا بلسان اليهود سبًّا، فقال الله جل وعلا: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ مع أنها كلمة حسنة ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ قال القرطبي بعد ما ساق تفاسير في الآية: في هٰذه الآية دليلان:

أحدهما: علىٰ تجنب الألفاظ المحتملة.

والثاني: دليل علىٰ سد الذرائع.

أيضا النبي ﷺ لم يقر موافقة الأعراب علىٰ بعض الاصطلاحات؛ بل أبقاها علىٰ الاصطلاح الشرعي، ونهىٰ أن يُترك اللفظ الشرعي أو الحقيقة الشرعية لأجل المراعاة أو انسياقا مع الفعل الأعراب.

مثال ذلك ما رواه مسلم في الصحيح عن ابن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «**لا يغلبنكم الأعراب علىٰ اسم صلاتكم ألا هي العشاء وهم يعتمون الإبل**» كانوا يسمون العشاء العتمة، والعتمة لفظ متعلق بأشياء دنيوية بحلب الإبل أو بما يبقىٰ من الحليب علىٰ الاختلاف في تفسيرها، واسم العشاء جاء في القرآن ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِ﴾[النُّور:٥٨] قال: «**لا يغلبنكم الأعراب علىٰ اسم صلاتكم**»، فدل علىٰ أن النبي ﷺ جعل علىٰ اهتمام الناس بما جاء من الحقائق الشرعية في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ ، وأن لا نترك هٰذه الحقائق لاستعمال من نقص في دينه ولم يكمّل به.

ولهٰذا ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «اقتضاء الصراط المستقيم» أورد مخالفة الأعراب في التسمية في أن الشريعة جاءت بالنهي عن التشبه بالكفار والشياطين، والتشبه بمن لم يكمّل دينه أو يكمل دينه أو لم يحسن إسلامه علىٰ الحقيقة وهم الأعراب، فقال في معرض كلام له: وقريب من هٰذا يعني مخالفة الشياطين مخالفة من لم يكمل دينه من الأعراب ونحوهم.

وأيضا روىٰ البخاري عن عبد الله بن مغفل وهو المزني عن النبي ﷺ قال: «**لا تغلبنكم الأعراب علىٰ اسم صلاتكم المغرب قال والأعراب تقول هي العشاء**» كانوا يسمون المغرب العشاء والعشاء العتمة قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فقد كره موافقة الأعراب في اسم المغرب والعشاء بالعشاء والعتمة، وهٰذه الكراهة

عند بعض علمائنا تقتضي كراهة هٰذا الاسم مطلقا، وعند بعض كراهة إنما تقتضي كراهة الإكثار منه حتىٰ يغلب علىٰ الاسم الآخر وهو المشهور عندنا.

يعني إذا استعمل نادرا فلا بأس؛ لكن أن يغلب يصير الغالي فهٰذا هو المنهي عنه، وهٰذا الذي ذكره ابن تيمية في ما نسبه قال: وهو المشهور عندنا يعني عن الحنابلة، وهو مذهب الإمام ملك والشافعي ابن المنذر وجماعة، وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا سمعهم يقولون العتمة صاح وغضب، كما رواه ابن أبي شيبة في «المصنف».

أيضا من الدلائل علىٰ اهتمام الشريعة بالاصطلاح ما رواه أبو داوود من طريق مالك ابن أبي مريم علىٰ أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ قال: «**ليشربن ناس الخمر يسمونها بغير اسمها**» تلحظ العلاقة أنه من الأمة يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها، كأنك تغير الاسم سهّل لهم شرب الخمر، فكان تغير الاسم سبيلا لتسهيل شربها؛ لأنه اختلف الوازع بتغير الاسم.

ولهٰذا روىٰ الدارمي في «مسنده» بسند ليّن، من طريق القاسم عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما يكفأ الإسلام كما يكفأ الإناء كفأ الخمر**» قيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «**يسمونها بغير اسمعها فيستحلونها**» الحظ هٰذا الربط أنّ تغير المسميات تغير الاسم تغير معه الحكم، حتىٰ في نفسية الناس، وهٰذا الحديث أخرجه ابن أبي عاصم من وجه آخر عن عائشة.

أيضا مما جاء في الشريعة في مثل هٰذا الباب نهي النبي ﷺ عن تسمية العنب كَرْما، وكانت العرب تسمىٰ العنب كرما مثل ما قال الشاعر:

إذا مت فادفنى إلىٰ جنب كرمة ... تروى عظامى عند موتى عروقُها

إلىٰ آخر كلامه، والكرم من أنه شيء كريم، شيء متميز فاق غيره.

فروىٰ البخاري من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**لا تسموا العنب الكرْم**» وفي رواية «**فإنما الكرم قلب المؤمن**» وفي «صحيح مسلم»: «**لا يقل أحدكم للعنب الكرم، إنما الكرم الرجل المسلم**».

انتبه الخطابي لهٰذه العلاقة في الاصطلاح والمعنىٰ وما يؤديه من التأثير علىٰ النفوس فقال رحمه الله: المراد بالنهي تأكيد تحريم الخمر بمحو اسمها؛ ولأن في تأكيد هٰذا الاسم لها -يعني الاسم الذي كان عند العرب الكرم الشريعة سمتها خمر وأكدت علىٰ ذلك واستعملته ونهت عن غيره- لأن في ترقية هٰذا الاسم وهو الكرم لها تقرير لما كان يتوهمونه من تكرم شاربها فنهىٰ عن تسميتها كرما وقال: «**إنما الكرم قلب المؤمن**» لما فيه من نور الإيمان وهدىٰ الإسلام. وقال المازري رحمه الله أيضا: كره أن يسمىٰ هٰذا المحرم باسم تهيج طباعهم إليه عند ذكره فيكون ذلك كالمحرك لهم.

وهٰذا في الحقيقة صحيح؛ لأن الشريعة حينما رعت الأسماء رعت جانب العبودية في الناس، وكما ذكرت لك الأسماء التي لا تدخل في جانب الهوىٰ -في جانب السلوك وفي جانب التعبد- هٰذه تركتها الشريعة لحال الناس، فلم تغير في ما أسموه وما اصطلحوا عليه.

لكن ما يتعلق بالسلوك وما يتعلق بالتعبد وما يتعلق بالحلال والحرام وما يتعلق بالعقيدة وفي الديانة فإن الشريعة جاءت بأسماء سماها العلماء الحقائق الشرعية، وأَمرت بالالتزام بها ونهت عن استعمال غيرها، لما في ذلك من إبقاء شعار الديانة وعدم الالتفات إلىٰ غيره.

هٰذا الأمر نما في أمة الإسلام علىٰ هٰذا الفهم، علىٰ أنه في العلوم المدنية التي لا تأثير للسلوك فيها، هٰذا افعل وأنشأ من الاصطلاحات ما شئت.

فأول ما نما اصطلاحات العلوم الخاصة ففي النحو بدا المبتدأ المخبر والحال والنعت والصفة وإلىٰ آخره والتمييز إلىٰ آخر فنون النحو.

وفي الشِّعر جاء لما جاءت الأوزان جاءت كثير من الاصطلاحات تمييز البحور والعلل والمجموع والمفرّق، وليس عندي خبرة بهٰذه المسائل.

أيضا في الاصطلاحات الأخرىٰ في الحديث سموا الخبر والحديث الضعيف والصحيح والحسن والمعلل والمضطرب إلىٰ آخره.

فنشأت علوم كثيرة ووُضعت لها اصطلاحات في حركة هي أقوىٰ حركة علمية مؤصلة شهدتها المدنيات، أكثر اصطلاحات مرت علىٰ التاريخ هي اصطلاحات التي وضعت في تاريخ الإسلام، وذلك في مجال كبير من مجال العلوم التي لا أثر لها لهٰذه الاصطلاحات في السلوك أو التعبد أو العقائد إلىٰ آخره.

لكن أيضا نشأت اصطلاحات يدخلها الهوىٰ وهي اصطلاحات كثيرة؛ لكن متىٰ نشأت؟ هل كانت وليدة هٰذه الأمة لا إنما جاءت من تعريب مصطلحات اليونان، لما ظهرت الترجمة في العهد الأموي بداية تراجم الكتب، ولم تحفظ لنا المكاتب شيئا من بدايات التراجم في العهد الأموي، وإنما ما وجدناه هو تراجم في العهد العباسي.

المقصود أنها ترجمت كتب كثيرة وتعلمون القصة في أصل الترجمة حينما -الوقت يضيق علىٰ الاستطراد- لكن حينما بعث هارون الرشيد أحد العلماء عنده ليأخذ الكتب الموجودة في عند اليونان لتترجم ينقلها مدة سنة إلىٰ حسب ما ورد، فأبىٰ القيصر ذلك، ثم قال له من عنده: أعطهم كانت أكثرها فإنها لن تدخل علىٰ أصحاب ملة إلا أفسدت ملتهم وحمل معه ما حمل ثم بدأ في الترجمة ابن المقفع ومن نحا نحوه، فترجموا كتبا وابن إسحاق وترجموا كتبا كثيرة.

هٰذه التراجم للكتب كانت تترجم لوضع مصطلحات فترجموا في العقائد، وترجموا في الكلام، ترجموا في السلوك أشياء كثيرة متنوعة، منها تراجم في أشياء مدنية، ومنها تراجم في أشياء تتعلق في الديانة، وجاء هٰذا الكم الهائل إلىٰ الأمة فحصل هناك ضخ كبير من المصطلحات قوّاه المأمون الخليفة العباسي بنشر هٰذه الكتب، فانتشرت المصطلحات الجديدة.

فنشأ ما يسمىٰ بعلم الكلام، حقيقة علم الكلام هو خليط من النظر في البراهين الإسلامية والنظر في

الأصول اليونانية، فمنها جعلوا خليطا سموه الكلام.

كذلك التصوف هو خليط ما بين الإشراق والفيض عند اليونان عند أفلوطين -وأفلوطين غير أفلاطون أفلوطين بعد أرسطو، أفلاطون ثم أرسطو ثم أفلوطين-، جاء بنظرية الإشراق واصطلاحات عن الفيض واتصال النفس بالملأ الأعلىٰ ودخلت، فنشأ عن هٰذا الخليط من رؤية بعض الزهاد لتنسك الإسلام والتأثر بهٰذه الكتب الإشراقية في المدرسة الإسكندرية المعروفة فخرج عندنا شيء جديد اسمه التصوف الغالي.

فنشأ هٰذان الانحرافان الكبيران، انحراف في العقيدة بإنشاء علم الكلام والفلسفة سموها الفلسفة الإسلامية، والتصوف وما آل إليه القول بوحدة الوجود.

نضرب أمثلة علىٰ الاصطلاحات التي نشأت في العلوم وأثر هٰذه المصطلحات في الأمة:

مثلا في مباحث العقيدة أحدث لفظ (الجسم) إثباتا لله أو نفيا، لفظ (العَرَض)، (السلوب في الصفات)، (التأويل) في الغيبيات بعامة، هٰذه ألفاظ اصطلاحية لم تكن في الكتاب ولا في السنة، أَحدثت هٰذه الألفاظ انحرافا كبيرا جدا في الأمة.

فجاء لفظ الأعراض حينما نظروا في القصة المعروف في القول بالأعراض وعلاقة الجسم بالعرض وإثبات وجود الله عند جهم والجهمية، المقصود أنهم فسروا العَرَض بشيء، وفسروا الجسم بشيء، الجسم والعرض والجوهر والهيولىٰ إلىٰ آخره ألفاظ مستعملة عند اليونان، فنقلوها بتفسيراتها، وحينئذ نظروا في الشريعة، فوجدوا أن ما لم يوافق هٰذا المصطلح وما يدل عليه يجب نفيه، ولهٰذا نفوا علىٰ الله جل وعلا الصفات، وأعدوا إثبات الصفات إثبات للجسمية لله تعالىٰ، والشريعة أصلا ليس فيها لفظ الجسم لله جل وعلا، لا نفيا ولا إثباتا، ولا لفظ العرض ولا ألفاظ السلوب إلىٰ آخره، فحدثت هٰذه الكمية من المصطلحات أحدثت هٰذه الكمية من المصطلحات ظهور فرق جديدة تتبنىٰ هٰذه المصطلحات وتعارض بها الأصول الشرعية، فحصل افتراقات كثيرة في الأمة وآثار في علوم مختلفة.

إذا نظرت في جانب توحيد العبادة لفظ (التوسل) و(الوسيلة) جاء في القرآن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ ﴾[المائدة:٣٥] ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ يعني الحاجة، إذا كانت لكم حاجة فابتغوها عند الله جل وعلا دون غيره، هٰذه الوسيلة استعملت أيضا في الدعاء يعني حاجة حي من حي آخر في الدعاء، كما قال عمر ﵁ مرة: كنا إذا أجدبنا توسلنا بنبينا والآن نتوسل بعم نبينا، يا عباس قم فادع الله لنا. فقام فدعا في الاستسقاء.

فلفظ التوسل له معنىٰ شرعي، ثم بعد ذلك جُعل هٰذا اللفظ التوسل يشمل عبادة الأموات والاستغاثة بهم، سؤال الميت سواء أكان نبيا أو غيره، أو سؤال الجني أو سؤال الملك جعل ذلك ورغبة في الوسيلة ولم يجعلوه شركا لم يجعلوه بدعة، قالوا :هٰذا توسل والتوسل أصله في الشريعة موجود؛ لكن الاصطلاح مختلف أو اللفظ في دلالته مختلفة كما هو معلوم.

لفظ (التأويل) هو موجود في الكتاب في القرآن في قوله جل وعلا: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾[يوسف:٣٦]، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾[يوسف] هٰذا التأويل بمعنىٰ التفسير، أو معنىٰ ما تؤول إليه حقائق الأشياء إما في الدنيا أو في الآخرة.

لكن جاء لفظ جديد سموه التأويل وجُعل له معنىٰ مصطلح جعل له معنىٰ سُلّط علىٰ النصوص وهو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلىٰ غيره بقرينة، هٰذا سلط علىٰ النصوص فحصل إنفراد كبير في فهم الأدلة الشرعية سواء أكان في أبواب الاعتقاد أم في أبواب الفقه.

لا أطيل في الآثار؛ لأنَّ الوقت يزاحمني كثيرا.

إذا نظرنا أيضا في التفسير، التفسير المعاصر أو التفسيرات القديمة.

التفسير هو تفسير لآي القرآن، فإذا أريد نقل التفسير إلىٰ لغةٍ أخرىٰ، فهل يُنقل المصطلح أو تنقل الحقيقة الشرعية؛ يعني مثل الوضوء حقيقة شرعية، الصلاة حقيقة شرعية، الكفر حقيقة شرعية، النفاق حقيقة شرعية، الإيمان حقيقة شرعية، هل تنقل هٰذه الحقائق الشرعية في الترجمة كما هي، أو ينظر فيما يقبلها في اللغة الأخرىٰ؟

الحقيقة إذا نظرنا في حركة الترجمة سواء القديمة أو الحديثة وجدنا أن من نقل هٰذه الألفاظ الشرعية والحقائق الشرعية بما يقابلها من معنىٰ في لغات الناس الآخرين -في أي لسان- نجد أنه قصَّر في أداء المعنىٰ الذي دلَّ عليه اللفظ.

فالصلاة مثلا في الشريعة ليست هي (the prayer) في الإنجليزية، (prayer) معنىٰ خاص يتبادر إلىٰ ذهن المتلقي له أنه هو المعنىٰ الذي يعرفه من الصلاة في الكنيسة أو دعاء الكنسيين إلىٰ آخره.

ولهٰذا كان من الانحرافات الكبيرة في حركة الترجمة عدم البقاء علىٰ الحقائق الشرعية، أو نقول تجوزا للتقريب علىٰ المصطلحات ولا نعني المصطلح ما اصطلح عليه الناس أو تواضعوا؛ لأننا عرفنا المصطلح في أول المحاضرة تعريف لا يدخل فيه التواضع والاجتماع عليه، إنما هو لفظ جديد له معنىٰ يدل عليه.

هٰذه الألفاظ الحقائق الشرعية يجب أن تبقىٰ في حركة الترجمة كما هي، وأن يتصور من نقلت إليه أتصور المعنىٰ كما يتصور المعنىٰ أي كلمة يريد أن يفهم المعنىٰ، فالصلاة هي هٰذه، هٰذا الذي تراه هو الصلاة، الزكاة هو أداء المال بنصابه المخصوص بوقته المخصوص، والصوم هو الصوم الشرعي المعروف.

نقل الربط بين اللفظ والمعنىٰ بين الاسم والمسمىٰ هٰذه هي حركة الاصطلاح، فإذا نقلت اللفظ في ترجمة معنىٰ إلىٰ لغة أخرىٰ حرَّفه تماما الوضوء يحرفه تماما لو نقلته؛ لأي لغة لأنه لا وجود له بهٰذا النحو.

إذا نقلتم النفاق كيف ستنقله؟!

أيضا لفظ (الرب والإله) مثلا فيجب أن يرعىٰ معنىٰ هٰذه الكلمات وأن لا يجعل الرب مثلا في كل مورد وردت فيه في الشريعة يعني في النصوص أنه كما وجدت في كثير من الترجمات سواء كان في الترجمات في الدعوة أو موجود في بعض الكتب أنهم يفسرون الرب the lord ليس كذلك، هٰذه لها معنىٰ؛ لكن الرب يكون بمعنىٰ الإله الذي هو الإله الذي هو المعبود هٰذا، مثلا في سؤال القبر من ربك هل هو من ربك؟ هل هو من هو سيدك من هو خالقك.

حضرت مرة خطبة من الخطب في واشنطن كان يفسر (من ربك؟) يشرح مسائل القبر خطبة جيدة في موضعها لكنه فسر الرب هنا بـthe lord هل وقع الاختبار في القبر عن من خالقك ومن رازقك؟ الاختبار في القبر عن المعبود. فإذن تفسيره ليس بهٰذا إنما تفسيره آخر.

إذن في الترجمة حركة الاصطلاح المصطلح أو ما يكون الحقائق الشرعية يجب أن تبقىٰ كما هي، ويتصور الناس معاني تلك المصطلحات أو الحقائق بالمثال يتضح لهم المعنىٰ.

إذا نظرنا العلوم الفقهية.

العلوم الفقهية جنىٰ عليها الاصطلاح، ننظر مثلا إلىٰ أنهم يأتون في يقولون مثلا البيع لغة كذا واصطلاحا كذا، هٰذا تعريف دارج؛ لكن نأتي الآن وقد احتجنا إلىٰ اجتهاد كبير في المسائل الفقهية، فيأتي المجتهد أو في مسألة معاصرة ويقول: هٰذه ليست هٰذه لا تجوز؛ لأن تعريف الحوالة مثلا في مسائل بطاقات هٰذه بطاقات الصّرف، ولا تقل: بطاقات الائتمان ليست كلها بطاقات ائتمان، هي عدة أنواع، في البطاقات هٰذه هي حالة وعّرفوا الحوالة بكذا، هٰذا التعريف اصطلاحي أليس كذلك؟ لهٰذا نجد أن تعريف الحوالة عند الحنابلة يختلف عن تعريف الحوالة عند الحنفية، يختلف عن تعريف الحوالة عند الشافعية.

التعاريف هٰذه الاصطلاحية متىٰ نشأت في الفقه؟ نشأت بعد الفروع، لم نشأت قبل الفروع، لذلك لا يصح أن نطلق عليها اسم مصطلح ونقول: لا مشاحة في الاصطلاح، ليست مصطلحا إنما هي تعريف اجتهادي نشأ بعد الفروع الفقهية.

الإمام الشافعي تكلم في مسائل كذا وكذا جمعت تفاريع المسائل التي تكلم عنها وأنشأ علماء المذهب تعريفا سموه تعريفا اصطلاحيا؛ لكن هل يوافَقون علىٰ أن كل مسألة يعاد فيها إلىٰ النصوص وسعة النصوص واستيعاب النصوص لكل مكان وزمان أن نقيّد النصوص الواسعة التي جاءت من عند الحكيم الخبير الذي يعلم من خلق ﷻ، أن نجعل هٰذه النصوص مقيدة بتعريف نشأ في زمان ومكان وتبع لإمام معين أو المصطلحات فقهية إذا تقيدنا بها فإننا نجني علىٰ حركة الاجتهاد في الشريعة.

وهٰذا هو الذي يحصل في زماننا الحاضر في أن من توقف عن الاجتهاد والنظر الحر الواسع فإنه أكثر ما يجعله لا يُقدم هو التعريفات والاصطلاحات، ولو تحرر من الاصطلاحات هٰذه الاصطلاحات للفهم في التقريب ليست وحيا منزلا، لو تحرر منها لانطلقنا إلىٰ فهم أكبر للنصوص.

طبعًا ثَم من التعاريف ما يصح أن نقول عنه تعريفه شرعا، وثم ما يصح أن نقول تعريفه اصطلاحا، ليس كل تعاريف الفقهاء اصطلاحية بعضها شرعي وبعضها اصطلاحي بحسب ما ورد في الشريعة.

إذن الاصطلاحات في الفقه لها أثرها الإيجابي والسلبي علىٰ الفتوىٰ.

من الأمثلة والحج قريب، مثلا لفظ (المخيط)، لفظ المخيط أن الحاج أو المعتمر يتجرد من المخيط، لا يلبس مخيطا، هٰذا اللفظ لم يأتِ لا في الكتاب ولا في السنة يفهمه العامة والناس وجرىٰ وأثر في الناس أنه حتىٰ الشيء فيه خيط فإنه يستخدمه، لهٰذا تجد أنهم يحرمون في نعلين ليس فيها خيوطا بلاستك أو غيرها، مثلا لو صار عنده برد يريد شيئا فيه خيوط عليه ثوب يعني أو مثلا بشت متين يلقيه عليه دون لبس له؛ ودون إدخال اليدين قال: هٰذا مخاط إلىٰ آخره.

هٰذا ليس هو دلالة اللفظ هٰذا لفظ (المخيط) وضعه بعض العلماء اصطلاح ليقربوا الحديث «**لا يلبس المحرم السراويل ولا العمامة**» إلىٰ آخره يعني في الحقيقة لا يلبس اللباس المعتاد لكن قد يكون في لبسه فيه خيط؛ لكن لا يكون لبس بإدخال ما يخاط علىٰ قدر البدن إلىٰ آخره.

فهٰذا اللفظ سبَّب كثيرا من المفاهيم.

لهٰذا نقول الركن والواجب تكلمنا عنها هٰذا ركن وهٰذا واجب، ما في النصوص ما يدل علىٰ أن هٰذا ركن وهٰذا واجب، هو اصطلاح تجد أن الفقهاء يختلفون الحنابلة يقولون: هٰذا ركن وعند الشافعية هٰذا واجب وهؤلاء يقولون: واجب، وعند الآخرين ركن، فيختلفون في بعض المسائل، نعم الركن من حيث هو ما تقوم عليه حقيقة الشيء؛ يعني ما لا يتصور وجود الشيء إلا به، وأما الواجب فهو شيء إضافي.

نطوي الكلام عن بعض المسائل المتعلقة بهٰذا.

إذا نظرنا للأدب كعلم تاريخ الماضي والحاضر.

الأدب جني عليه كان واسعا فدخله المنطق -وما أحب أن أستطرد فيه- دخله المنطق وخاصة في البلاغة، فبدل أن يكون الأدب ذوقا وإحساسا بالجمال في التعبير والجمال في التصوير أصبح قوانينا، ولما أصبح قوانينا فسد الذوق وأصبح عندنا مأساة في تاريخ الأدب العربي في القرون ما بين القرن التاسع إلىٰ القرن الرابع عشر، في ترهّل في الألفاظ واتباع للمحسنات اللفظية والبديع؛ يعني أنواع البديع إلىٰ آخره.

أيضا مما جُني به علىٰ الأدب -وهٰذه قد يستغربها كثير من الإخوة- إظهار لفظ (المجاز)، وهو لفظ لم يجر في اللغة لا في أشعارها ولم يجر في الشرع فأخرجوا أو وضعوا لفظ المجاز، والمجاز كان مستعملا بلفظ (ما يجوز في اللغة).

أما المجاز بالمعنىٰ الاصطلاحي وهو نقل لفظ من وضعه الأول إلىٰ وضع ثانٍ لعلاقة بينهما. هٰذا مبني علىٰ فهم أنهم تواضعوا أولا علىٰ شيء ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾[الإسراء:٢٤] قالوا: مجاز لماذا؟ لأن الجناح هو جناح الطائر، من الذي قال: إن العرب اجتمعت وتواضعت، انظروا إلىٰ ما

حولكم هٰذا الجناح هٰذا الطائر هٰذا نسميه حماما، هٰذا جزء منه هو كذا، وجزء منه كذا هٰذا ما يتصوره أحد يبحث بحثا حرا في تاريخ نشأة اللغات والتَّعمُّق في ذلك فالموجود معاني كلية وبعض الأسماء، وحركة اللغة حركة مائجة؛ المجتمع، الأصوات، توليد الأشياء، التأثر بالأمم، حركة مختلفة الاتجاهات، فجعل تصوير اللغة بأن هناك علم اسمه علم الوضع، وجاءت العرب ووضعت لهٰذا اللفظ هٰذا المعنىٰ ووضعت لهٰذا اللفظ هٰذا المعنىٰ، أفسد كثيرا من حركة العلوم بمثل هٰذه الاصطلاحات.

الحقيقة لفظ (المجاز) وهو الذي يبنىٰ عليه علم كامل من علوم البلاغة الذي هو علم البيان النوع الثاني من علوم البلاغة، هٰذا أثّر كثيرا في فهم اللغة وفي متابعة العرب في سَنن كلامهم.

إذا نظرنا في السلوك والتعبد أعظم ما أُحدث من المصطلحات التي سبَّبت ما لا نهاية له من الآثار لفظ التصوف، لفظ التصوُّف ما جاء ما في الكتاب وما في السنة ولم يستعملها القرن الأول، إنما هو مصطلح علىٰ حال أناس معيَّنين لبسوا الصوف أو قست قلوبهم إلىٰ آخر تعليلات نشأة هٰذا الاسم، ثم بعد ذلك صار هٰذا المصطلح له دلالات كثيرة متنوعة وعلم خاص به؛ بل وتحته مصطلحات كثيرة.

خذ مثلا مصطلح (المقام) و(الحال) و(الفيض) و(الإشراق) و(الفناء)، ألفاظ لو عُرضت عليك وأنت لا تعرف دلالاتها، قد يقول قائل: لا بأس بها، لفظ (الفيض) يعني ما يفيض أنت لا تفسر اللفظ بمفهومك، وإنما يفسر اللفظ بمفهوم أهله، بمفهوم من وضعه، بمفهوم من وضعه، بمفهوم من يستعمله.

ولهٰذا إذا نظرت في تفاسيرها عند القوم وجدت فيها أكبر انحراف عن الزهد المشروع الذي جاء في هدي الصحابة؛ بل وهدي إمام المتقين محمد بن عبد الله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ.

سبّب (الفيض) و(الإشراق) القول بوحدة الوجود، وسبَّب (الفناء) أيضا القول بالإتحاد، وأشياء كثيرة لا ندخل فيها.

أيضا الاصطلاحات العلمية ذكرنا أنها نمت في جو الحضارة الإسلامية أكبر نمو.

فإذا نظرنا في العلوم الكونية، أو ما يسمونه علم الهيئة ثَم اصطلاحات كثيرة أثرت واستفادت منها الأمم الأخرىٰ خاصة أوربا.

في الطب قانون ابن سينا ومصطلحاته ومفردات ابن البيطار وابن رسول.. لازالت هي المعتمدة في كثير من الأسماء.

في الهندسة والفيزياء وعلم طبقات الأرض كان موجودا في نوع معين؛ بل حتىٰ كلمة (الانتخاب) التي أخذها دارون وبنىٰ عليها نظريته كانت موجودة عند إخوان الصفا، واستعملوا لفظ (الانتخاب الطبيعي)؛ ولكنهم قصروه علىٰ النبات وعلىٰ بعض الحيوان، ولم يدخلوا في كل الحيوانات والإنسان، وأخذت وعممت، لهٰذا صار من الاعتراض عليها فيما عُممت في الغرب أكثر من الاعتراض عليها فيما خُصصت به في بعض العلوم في تاريخ الأمة مع ذمّنا (لإخوان الصفا) وأنهم باطنيون وليسوا بمسلمين.

أيضا في النواحي السياسية والعلوم المختلفة إلىٰ آخره.

نقلب الصفحات ونأتي إلىٰ العصر الحاضر، لا شك أن تاريخ المصطلحات الأمة في جميع هٰذه الفنون، أتىٰ هٰذا العصر الحاضر -أعني القرن الرابع عشر الهجري-، وفي الأمة هٰذا الركام الهائل من هٰذه المصطلحات، وبدأت الأمة في فعل كثير من المدققين تُراجع تلك المصطلحات؛ بل قبل ذلك نُقدت تلك المصطلحات بحركة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ وما نقد به مصطلحات الفلاسفة ومصطلحات الصُّوفية في علم كثير جزاه الله عن الجميع خير الجزاء.

الرُّكام الهائل هٰذا من المصطلحات جاء لهٰذا العصر وجاء لأهله؛ لكنه مع الأسف جاء متأخِّرًا، كيف؟ جاء بعد أن أخذته أوربا وأخذه فلاسفة أوربا والفلاسفة المخترعون.

بالمناسبة (المخترعون) في أوربا كلهم فلاسفة إلا ما ندر؛ يعني كلهم كان اشتغالهم الأول بالفلسفة، الفلسفة علم يبحث عن حقائق الأشياء ولها عدة أقسام: فيه فلسفة إلٰهية، وفيه فلسفة طبيعية وتبحث في الفيزياء وفيه غيره، وفيه فلسفة رياضية، وفيه فلسفة موسيقية، يعني عدة أنواع؛ يعني وفنون وكتب لها مختلفة.

المقصود أن المخترعين كانوا يهتمون بذلك، وكانت جامعات في أوربا مهتمة أكبر الاهتمام بعلم المصطلح وبالاصطلاح، حتىٰ إنهم ورَّدوا لنا مع الأسف أو صدروا لبعض من ذهب إليهم من الارساليات المبكرة أن النظريات الأوربية إنما هي ميراث نظريات الغزالي وابن رشد وابن خلدون إلىٰ آخره، وثَم عندهم من الدراسات الكثيرة عن ابن رشد وطبعوا كثيرا من كتبه، وعن الغزالي، وعن ابن خلدون ناهيك عن الملاحدة كالحلاج والشعراء الماجنين كأبي نواس، ثم دراسات كثيرة هناك، لماذا؟ لأن الربط بين ما يريدون أن يصلوا إليه في هٰذه الأمة وذلك الميراث يسهّل عمليَّة القبول، فصدروا كثيرا من الأفكار والاصطلاحات علىٰ أنها فكر للغزالي وفكر لابن رشد، والمطالع للحركة العلمية في مصر بالذات والمؤتمرات التي قامت بمناسبة ألف سنة علىٰ موت ابن رشد، ألف سنة علىٰ موت الغزالي، وألف سنة علىٰ كذا تجد أنها تصب في هٰذا الاتجاه في أننا نحتاج إلىٰ فكرهم للتَّحرير، نحتاج إلىٰ فكرهم في واقعنا وواقع أوربا، هٰذه لها تفصيلات مختلفة.

المقصود جاءت العلوم هٰذه متأخرة للأمة الإسلامية بعد أن عراها ما عراها من التخلُّف الشرعي والتخلف العلمي والتخلف الفكري والعقلي بجميع أنواع التخلف، فسهّل ذلك التخلف أن توضع فيهم مصطلحات جديدة، وأن تُبثّ فيهم أشياء لتحديد العلوم وتجديد الفنون إلىٰ آخره، فجاءنا كثير من المصطلحات التي أثَّرت في العلوم تأثيرا كبيرا.

نعم كان فيه تحرّر من كثير من القيوم السابقة خاصة في مسألة البلاغة، وفي بعض علوم العربية وفي النظرة التاريخية، صار فيه بحوث جيدة وعدم الانسياق وراء الاصطلاحات السابقة؛ لكن كان فيما قدم من الفكر الأوربي تأثيرات متنوعة.

أطوي هٰذا لأجل الوقت. وأعرض بعض المصطلحات الواردة المختلفة في هٰذا العصر.

نلحظ مثلا أن كلمة (**التراث**) جُعل مصطلحًا لكل ما وُرِّث سواء أكان موروثا صحيحا أو كان موروثا فيه نظر، فدخل في ذلك الكتاب والسنة ودخل في ذلك علوم اللغة ودخل في ذلك كتب التوحيد والفقه إلىٰ آخره، كل ما ورثت ينظر إليه علىٰ أنه تراث.

والتراث من حيث هو قابل للنقد، وسابقا كان ينظر إلىٰ النقد اللفظي، والآن انتهىٰ دور النقد اللفظي، والآن يبحث في النقد الموضوعي بمعنىٰ أن المجتمعات المثقفين لا تبحث الآن في نقد الحركة أو في نقد علم من العلوم من حيث الألفاظ من حيث البنيوية اللفظية ومن حيث التركيب، وإنما تبحث فيها من حيث نقد البنيوية المعنوية؛ يعني محتويات هٰذا الشيء من المعاني والأفكار، ولذلك التراث من حيث هو يدخل فيه -إذا نقدناه كل ما وُرِّث.

لهٰذا يجب أن يوضع لهٰذا المصطلح حد وأن يقيّد أو يرفض حتىٰ لا ندخل في التراث ما لا يقبَل الجدل أو ما يجب التسليم له وهو كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله ﷺ.

الاهتمام بالتراث مثل ما يصورونه ارتباط بالطين، ارتباط بمعاني مدنية معينة، ارتباط بحياة ريفية بسيطة، بحياة قروية هادئة، بحياة ليس فيها عقلانية متنورة، ارتباط بصوت السانية لا برؤية الفيصلية، ارتباط.. إلىٰ آخره.

هٰذه الحركة لاشك تعطي في النفس حركة نقد لما سبق دون حركة تفريق بين ما يقبل وما لا يقبل.

في مجال الألفاظ والاصطلاحات التي أثرت في الدعوة الألفاظ الثلاثة المشهورة **الأصولية والتطرف والإرهاب** ثَم مصطلح جديد؛ لكنه يجب أن يرفض وهو اصطلاح (**الإسلاموية**)، **إسلاموية** تأثيره النفسي أن يقرن بين الإسلام والدموية.

الأصولية والتطرف والإرهاب ثلاثة ألفاظ استعملت في الغرب، متىٰ استعملت في الغرب؟ استعملت بعد حركة مارتن لوثر، واللوثرية المعروفة، استعملت في الذين طلبوا بقاء الكنيسة علىٰ سلطانها الفاسد فكانت يسمون في فرنسا **الأصولية** يعني الذين يريدون إبقاء سلطان الكنيسة الفاسد وعدم الانقياد للحركة التحررية.

جاء لفظ ما ذهب إلىٰ اليمين أو اليسار علىٰ أي شكل كان في ذلك الوقت علىٰ أنه **متطرف**، ثم من مارس شيئا من الأفعال فعلا ذم أو ضرب أو نحو ذلك بأن هٰذا نوع من **الإرهاب**، استعمل ذلك الصحافة الغربية وصار مصطلحا عندهم شائعا.

نقلته مراكز العلوم مع الأسف الإسلامية والعربية ونقله الإعلام العربي والإسلامي، ونقله الناس حتىٰ إنهم لم يعودوا يفهموا المعنىٰ الحقيقي والصحيح للأصولية والتطرف والإرهاب.

الإرهاب في الشريعة لا يُنفىٰ، الإرهاب من الرهبة والرهبة تارة تكون محمودة وتارة تكون مذمومة، الإرهاب بحق إرهاب العدو الذي يعادي الإسلامي وأهله الذي يعتدي علىٰ الناس في أموالهم وفي أعراضهم وفي بلدانهم وفي أراضيهم هٰذا مطلوب كما قال جل وعلا: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾[الأنفال:٦٠]، وقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾[الأنبياء]، أيضا الترهيب والإرهاب من الوقوع في الجريمة هٰذا أمر مطلوب شرعا، لذلك جعلت الحدود وجعلت كثير من التعازير للإرهاب في إيقاع الرهبة في صدر الناس من أن يقدموا علىٰ الجرائم المالية والخلقية في المجتمع؛ يعني هٰذه السلسلة بأجمعها.

إذن استُعمل اللفظ حتىٰ صار من يقاتل الأعداء -أعداء الإسلام- صار إرهابيًّا في معنىٰ من المعاني، نعم هناك بعض الممارسات التي لا تقر ولا يجوز ولا يصح أن تجعل هي التسمية أو المراد بالتسمية الشرعية، فكل يفسر حسب فهمه؛ لكن استعمل هٰذا الاسم وأظنه لو ظلّ في الناس بعد ذلك فيكون أي حركة للجهاد، الجهاد الذي هو لإعلاء كلمة الله فيقع في قلوب الناس أنه نوع إرهاب؛ لأجل الترهل والخضوع وغلبة الرحمة غير الشرعة وغير العقلية بالناس.

إذا نظرنا **للتطرف** مصطلح لا حدود له، تطرف في ماذا وحول ماذا؟ تطرف هو أن يكون الذي أمامك ليس علىٰ وَفق السلوك الذي تريده، فإذا كان في لباسه علىٰ هيئة ما قالوا: متطرف، فإذا كان فيه محافظته علىٰ العبادات علىٰ هيئة ما قالوا: متطرف، وهكذا فهٰذا المصطلح لما جاء لعالمنا العربي والإسلامي لما جاء أثّر حتىٰ أصبح عند الناس أن الذي يتمسك ببعض السنن متطرف.

وفي الحقيقة هٰذا اللفظ ما جاء لا في القرآن ولا في السنة وإنما الذي جاء لفظ منضبط وهو الغلو ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾[النِّساء:١٧١]، والنبي ﷺ نهىٰ الأمة قال «**إياكم والغلو**» والغلو مجازة الحد في المأذون به، إذا جاوز السنة فهو مردود عليه، الصحابة الثلاثة الذي سألوا عن عبادة رسول الله ﷺ فلما بلغوا بها كأنهم تقالُّوها، بعد ذلك قال أحدهم: أما أنا فأصوم ولا أفطر. والآخر قال: أما أنا أقوم ولا أنام. والثالث: أما أنا فلا أتجوز النساء. بين النبي ﷺ أن هٰذا غلو ولم يسمه تطرفا، جاوز المأذون به في هٰذه الأشياء، القيام مطلوب ولٰكِن بحد، الصيام مطلوب لكن بحد شرعي، تزوج النساء مطلوب لكن أيضا بحد وهو أربع زوجات لمن استطاع العدل في ذلك، إلىٰ آخره.

فإذن ثَم ألفاظ شرعية تحل محل مثل هٰذه الألفاظ التي أثرت في الناس.

أيضا جاءت ألفاظ أخر مثل لفظ **(الإنسانية)** أو لفظ **(الديانات السماوية)**، لفظ الديانات السماوية لا أصل له في الشريعة، ولا أصل له في كلام أحد من كلام أهل العلم، وإنما الدين السماوي واحد ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾[آل عمران:١٩] وحتىٰ بعض الخاصة بعض طلبة العلم راج عليه ما يوجد في الجرائد والمجلات وفي الإعلام الديانات السماوية الثلاثة.

الدين السماوي واحد ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾، ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾[آل عمران:٧٥] وإنما هٰذه شرائع سماوية مختلفة هٰذه ملل مختلفة، أما الدين لفظ الدين إنما هو واحد، ولا

يمكن أن ينسب إلىٰ السماء إلا دين واحد وهو دين الإسلام، أديان الله الثلاثة وليس كذلك، دين الله واحد وهو الإسلام لهٰذا قال جل وعلا: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨]، وقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ يعني اليهودية المحرفة ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾[آل عمران:٦٧] وقال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾[الحجُّ:٧٨].

لفظ ومصطلح (الإنسانية)، **الإنسانية** هٰذه، ظاهره جميل؛ لكن ما مدلول هٰذا المصطلح؟ مدلول هٰذا المصطلح ذوبان كل معنىً؛ معنًىٰ صحيح ومعنًىٰ تقره الشرائع أو معنىٰ يحدث التميز وعدم التبعية لهٰذه الأمة.

الآن لفظ (**العولمة**) الآن وما تدل عليه الاصطلاحات تحتاج الحقيقة إلىٰ محاضرة خاصة بها في يعني بعض المباحث حولها، أيضا لفظ العولمة تتعلق بالعالم؛ لكن ما وراء هٰذا اللفظ من المعاني ووراءه من الاتجاهات إلىٰ آخره هٰذا ما يبحث، الناس يؤثر فيهم المصطلح وليس في مقام التقييم لكن يؤثر فيهم المصطلح في قبول الشيء، حتىٰ إن اليهود والنصارىٰ لما أرادوا أن يحتلُّوا بلاد من بلاد المسلمين سموا هٰذا الاحتلال (**استعمارًا**) يعني جئنا مستعمرين يعني نعمر لكم الأرض، حتىٰ الآن في عدد من الدول بعض المفكرين والناس في أفريقيا يقولون: نريد يعود لنا الاستعمار يعمروا لنا أفريقيا وينظموها إلىٰ آخره لأننا ما استطعنا تنظيم الخيرات والثروات.

إذن اللفظ الحقيقة الغرب أو الواعي من الناس إذا أراد أن يؤثر فقبْل أن تطرح فكرة ابحث عن اللفظ، اللفظ هو الذي سيبقىٰ وهو الذي سيؤثر وهو الذي بعده تتجدد المعاني وهو الذي يعده تتجدد المعاني وهو الذي تستطيع أن تحشد الإعلام بعده ويوجه لك هٰذا اللفظ بحسب ما تريد.

أما في الاتجاهات الدعوية فثم عدة اتجاهات جاءت بألفاظ جديدة (التنوير) حركة التنوير أو جماعة التنوير، (التطوير) ، (العقلانية)، ما عندي وقت أفصل الكلام حولها هٰذه ألفاظ التنوير، التنوير طيب لكن ما معنىٰ التنوير؟ ما الذي تحته؟ العقلانية ما الذي تحته (التجديد)؟ ما الذي تحته تجديد في المسلمين أو تجديد في الدين؟ تجديد كلمة تحتاج إلىٰ ضبط إلىٰ آخره.

إذا نظرنا إلىٰ نوع آخر في الأمور في الاتجاهات السياسية نجد أن استعمالات (الديمقراطية) حتىٰ إن بعضهم استعمل (الشوراقراطية) إلىٰ هٰذه الدرجة، يريد أن يجعل ثم مزيج لهٰذا وهٰذا.

الشورىٰ في الشرع معروفة في معالم معروفة في الحدود مؤصلة أما الديمقراطية والبرلمانات والتجارب النيابية هٰذه، ليست من الشورىٰ في شيء، الشورىٰ الشرعية استعملت هٰذه الألفاظ ومشت والحديث عنها يطول.

ختاما أيضا من الألفاظ يعني التي كان تحتاج إلىٰ بعض البحث كلمة [...] (الصحوة)، (الانتفاضة)، (تصور الإسلام)، (الفكر الإسلامي)، (الأسلمة)، (أسلمة المعارف)، (أسلمة الكيمياء)، (أسلمة الفيزياء)، (أسلمة العلوم)، (الأبلجة)، (العولمة)، يعني ألفاظ كثيرة جاءت هٰذه الأمة زخًّا؛ لكن هل

سنستطيع أن نميز؟ هل نوقف هٰذا المد المصطلحي؛ الآن لا تتأثر به؛ لكن سينشأ الناشئ وهو يعرف أن دلالته هي هٰذه، وبالتالي كيف تنزعه منه، وتتوالد الأجيال بعد ذلك وتتوالىٰ، وأن هٰذا المصطلح هو معناه، وما أشبه الليلة بالبارحة حينما استُحدثت ألفاظ واستقدمت من الحركة اليونانية العلمية.

ختاما نطوي بعض الأشياء.

أنا ألخص ما أريد وأعرضه علىٰ ذوي العلم والفهم والإدراك بأني أرغب في دراسة ما يلي:

أولا البحث في تقليل استحداث المصطلحات، وعدم قبولها في العلوم الشرعية والإنسانية والسلوكية التي يدخلها الهوىٰ والتأثير العبادي والسلوكي والعقدي.

أما في العلوم المدنية فهٰذه اهتم بها كثيرا المجامع وطحنوا وما أخرجوا لنا طِحنًا إلَّا القليل.

الثاني أنه لابد من إيجاد قوة تُحدث المصطلحات التي تؤثر في الناس إيجابًا من جهة الشَّرع، فإن مصطلح سيأتي شئنا أم أبينا، والمصطلحات، فإذا كان ثمة مصطلح سيقدم أو سيستعمل فإن استعمال المصطلح الذي ليس عليه سلبيات هٰذا هو المتعيِّن، طبعا في العلوم التي تدخل في العباديات والشرعيات والأثر السلوكي، وأن [يختبر] المصطلح المؤثر إذا وضع أين يوضع؟ يوضع في الجامعات يضعه العلماء يضعه المتخصصون كل في مجاله أو يجتمعون في مؤتمرات خاصة، وأن لا نبحث مثل ما تبحث المجامع، فقط في ترجمة المصطلحات، المصطلحات التي لا يدخلها الهوىٰ هٰذه سهلة، حتىٰ لو استعملت نظرتي أنا، حتىٰ لو استعملت الكلمة الإنجليزية فيها أو الكلمة اللاتينية ليس ثَم إشكال في ذلك؛ لأن الاستعمال القليل لا بأس به.

لكن المصطلحات المؤثرة في العلوم العقدية في العلوم الشرعية في السلوك في العلوم الإنسانية هٰذه هي التي تفتك بالأمة وهي التي تغير المفاهيم في الأدب وفي اتجاهات التفكير المختلفة.

فإذن لابد من إيجاد مصطلح يؤثر، ويكون عوضا عن المصطلح الآخر وأن يخدم هٰذا المصطلح بأقوىٰ خدمة عبر الإعلام بوسائله المختلفة تحقيقًا لعزة هٰذه الأمة وبقائها وقوتها، وأن يُخدم من قبل العلماء والمشايخ والدعاة، وأن يُخدم من قبل الجامعات في مناهجها وفي استعمال أساتذة أعضاء هيئة التدريس فيها، وأن تخدم وزارة المعارف والتعليم في جميع مراحله من الطفولة حتىٰ يكون المصطلح واضحا فيما يدل عليه.

أيضا لابد من أن نكون متميزين فالله جل وعلا قال: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾[آل عمران]، فإذا تحققنا بالإيمان فنحن الأعلىٰ، أنتم الأعلون يا أمة الإسلام يا أمة الإيمان أنتم الأعلون دائما ما دام أنكم علىٰ الإيمان وعلىٰ الإسلام، ومن العلو عدم التبعيَّة، ومن العلو عدم التقليد، من العلو الاستقلال، وقد علَّمنا الشرع الاصطلاح، علمنا الشرع المصطلح، علمنا كيف نستقل بمصطلحاتنا وألفاظنا، لهٰذا أدعو أن تكون خدمة المصطلحات المؤثرة عبر الاستقلاليَّة وعدم التقليل في ذلك فيما يدخله الهوىٰ كما أسلفت.

ختاما هٰذه كلمات قليلة من ضمن هٰذا الفِهرس الذي بين يدي للأفكار، وأرجو أن أكون عرضتُ في هٰذا الموضوع عرضًا يفتح الباب ولو قليلا للباحثين وللمهتمين بالعلوم وبالدَّعوة، ولما يؤثِّر في الناس وبالإعلام في جميع المجالات التي تؤثِّر في حياة الناس حاضرا وماضيًا.

وأعتذر عن الإطالة قد أخذت من الوقت الكثير، وأرجو -إن شاء الله تعالىٰ- أن أكون قد أتيت بشيء غير ممل لكم.

وأسأل الله جل وعلا للجميع السداد والتوفيق ولولاة الأمور الهدىٰ والرشاد، ولجميع المهتمين بالدعوة إلىٰ الله جل وعلا والباذلين فيها التوفيق والهدىٰ إنه سبحانه جواد كريم.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبيِّنا محمد.

المقدم: شكرا لمعالي الشيخ، الحقيقة هٰذه المحاضرة التي يمكن أن نصفها بكلمتين بأنها ممتعة مشبعة، والحقيقة أن من عرف يعني مرامي الكلام وتأثيره لمعرفتي به وأنا أدرسه، لا يملك إلا أن يعجب الليلة من قدرة الشيخ الحقيقة علىٰ تقديم هٰذا الموضوع العلمي الشَّديد الصُّعوبة بما قدمه من سهولة، وأحسبه والله أعلم تأثر بشيخه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، وقد يعني ما تدرون أن الشيخ يرتجلها، رؤوس أقلام وهٰذا في الحقيقة محل إعجاب، وشهادة علىٰ ما أقول أنه أمتعنا هٰذه الليلة بمحاضرة علمية راقية.

محاضرات (٣/ ٩)

فضل العلم والتعليم

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه.

اللّٰهمَّ علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، واجعلنا من أهل العلم يا أرحم الراحمين.

ثم نحيي الإخوة في إطلالة هٰذه الدروس بعد قضاء من قضىٰ في الحج أو في التعبد أو الله جل وعلا، ولاشك أن طالب العلم والمؤمن الحق لا ينفك عن العلم وعن التعبد بالعلم تعلما وتعليما أو بالدعوة تعلما وبذلا، أو بأنواع العبادة القاصرة لا ينفك عنها بأي حال من الأحوال، وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه الناس؛ لأن العمر أقصر أن يبذل في غير ما ينفع.

فأسأل الله جل وعلا أن يجعل عمري وعمركم كله لنا لا علينا، وأن يجعل أنفاسنا في سبيله وأعمالنا في سبيله، وأقوالنا في سبيله، وأن يجعلنا من أتباع سنة نبيه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ في القول والعمل والاعتقاد إنه سبحانه جواد كريم.

ثم كما جرت العادة في إقبالة الدروس بعد إجازة من الإجازات ننتهزها فرصة ليكون الحديث حديثا تربويا ينفع طالب العلم بمثل هذه الموضوعات مثل الأحاديث التربوية والدروس العامة التي تنفع طالب العلم مهم؛ لأن العلم يحتاج إلىٰ كثير من الأدب وكثير من التفكير بأصوله وأخلاق أهل العلم وكيف طالب العلم، كما ترون أننا قد أخذنا من ذلك وبينا كثيرا مما يحتاجه الإخوة ونحتاجه جميعا.

لهذا لابد لطالب العلم فيما يُقبل عليه في العلم والتعلم أن يحرص دائما علىٰ إخلاص النية لله جل وعلا في علمه وفي تعلّمه وفي تعليمه.

وقد ذكرنا لكم مرارا أن النية في طلب العلم ذكر العلماء منهم الإمام أحمد ابن حنبل وغيره ذكروا أن النية والإخلاص في طلب العلم أن يطلبه لرفع الجهل عن نفسه، يعني بنية أن يعبد الله جل وعلا علىٰ علم رافعا الجهل عن نفسه، ثم إذا أراد أن يكون من طلاب العلم أن ينوي أيضا رفع الجهل عن غيره وتبليغ رسالة الله جل وعلا وتبليغ كلامه وكلام رسوله ﷺ للناس.

وهذا إذا صاحب العبد المؤمن إذا صاحب طالب العلم فإنه علىٰ خير كثير؛ لأنه سيحاسب نفسه فيما يأتي وفيما يذر في طلبه للعلم، ويكون طلبه للعلم عبادة بكل أحواله، إذ خلصت نيته لله جل وعلا، وقد قال نبينا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «**وإن العالم ليستغفر له كل شيء حتىٰ الحيتان في جوف الماء**».

فالعالم طالب العلم بإخلاصه وبتعلمه وتعليمه يحظىٰ علىٰ مراتب من العبودية

المرتبة الأولىٰ: وهي أعظمها أن يكون متابعا وارثا لنبينا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ وهذا أعظم المنازل، فإن العلماء ورثة الأنبياء، ومقام العلماء يوم القيامة أعلىٰ من مقام غيرهم، والله جل وعلا يغفر لهم ويزيدهم إحسانا وثوابا، قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾[المجادلة:١١]؛ يعني أن أهل الإيمان مرفوعون عن غيرهم، وأن أهل العلم من أهل الإيمان مرفوعون درجات علىٰ غيرهم.

والثاني: أن طالب العلم الذي خلصت نيته فيه قد أتىٰ بسبب من أعظم الأسباب في مضاعفة الحسنات التي يعملها؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ أضعاف كثيرة، وهذه المضاعفة إلىٰ أكثر من عشر حسنات إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، من أسبابها الخير المتعدي العظيم الذي منه الجهاد في سبيل الله، ومن الجهاد بالعلم والتعلم والتعليم.

فإذن يحظىٰ طالب العلم بحرصه علىٰ العلم بعد المزية الأولىٰ أنه ممن تضاعف له الحسنات إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، وقد صح عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال كما في الصحيح: «**من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلىٰ الجنة**» والجهاد في سبيل الله في أصله من أسباب المضاعفة كما قال جل وعلا: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[البقرة]، وهذا إذا كان في النفقة فبذل النفس في الجهاد أعظم، ومعلوم أن نشر العلم والجهاد بالقرآن أنه أعظم من مجرد النفقة التي يعامل بها الآخرون، ولهذا قال أهل العلم: إن العلماء الربانيين العالمون العاملون المعلمون الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره، هؤلاء من أعظم المجاهدين في سبيل الله. فلهم من مضاعفة الحسنات الحظ الأوفر إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم.

الأمر الثالث: الذي به تعلو همة طالب العلم من فضل العلم والتعلم أن العلم في طلبه عبادة وحسنة وأن تعلمه وتعليمه حسنة، ومعلوم أن الحسنات يذهبن السيئات، وقد قال جل وعلا: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾[هود]، والحسنة المتعدية النفع إلىٰ الآخرين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكالعلم والدعوة والجهاد ونحو ذلك هذا كله من أعظم الحسنات، فهي تذهب من السيئات ما يقابلها، ولهذا يعظم طالب العلم بأنه يتعرض لمحو السيئات في طلبه للعلم، وهذا من أعظم ما يرافق المرء في طلب العلم؛ لأن العلم جهاد والمجاهد مغفور ذنبه بإذن الله جل وعلا.

الأمر الرابع الذي يحظ علىٰ طلب العلم: أن طالب العلم والعالم يستغفر له كل شيء حتىٰ الحيتان في جوف الماء، واستغفار كل شيء من عباد الله الموحدين المكلّفين وغير المكلفين، هذا من أعظم ما يحرص عليه العبد؛ لأنه لابد أن يكون لهم دعوة مجابة فلا يشقىٰ من دعوا له من الملائكة والصالحين الأنبياء ومن سائر المكلفين ومن الجمادات والكائنات الأخرىٰ حتىٰ الحيتان في جوف الماء.

الأمر الخامس: أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**من دل علىٰ هدىٰ فله مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك منه أجورهم شيئا**» فمن دلّ علىٰ هدىٰ ومن دعا إلىٰ هدىٰ ومن ذلك العلم، ونشر العلم فله منه مثل أجور من اتبعه؛ يعني علمت أحدا معنىٰ الشهادتين أعظم حق الله جل وعلا وهو التوحيد، فهذا التوحيد به صلح عمل ذلك العبد وبه رضي الله جل وعلا عنه فلك مثل أجور أعمالهم فضلا من الله وتكرّما.

إذا علمت أحدا في المسجد أو في بيتك أو في السوق عملته كيفية الصلاة، أو أمرته بخير فتبع ذلك، أو نهيته عن منكر فانتهىٰ فلك مثل أجره إذا عمل بذلك الخير.

وهذا ولله الحمد يجعل المرء في علمه وتعلمه وتعليمه سواء علّم شفاهة أو علم وذكر الخير كتابا أو دعوة أو نحو ذلك، فإنه يحظى على مثل أجر من اتبع منة من الله جل وعلا وتكرما؛ بل يبقى ذلك له يُنمىٰ بعد موته، كما صح عنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ، أنه قال: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**» وفضائل العلم والعلماء، وما يجعل المرء يحرص أعظم الحرص على العلم، ويجد فيه، والمنهجية فيه حتى يحصل على العلم حتى به يعلم وبنفع الناس، هذه عظيمة من سمع مثل هذه المكاسب العظيمة، ونظر في غيرها لاشك أنه تنبعث همته على العلم، وينظر إلى ما بعد ذلك إلى حال أهل العلم السالفين كيف كانت أحوالهم مع العلم.

إذا نظر إلى هذه الأمور الخمسة وإلى غيرها انبعثت همته في العلم وفي طلبه، في الحرص عليه وفي الحفظ وفي البحث وفي الكتابة وحضور حلقات العلم، ليحظى على مثل هذا الأجر العظيم، حسنات مضاعفة وذنوب تغفر وجهاد واستغفار وولاية صالحة لمن كان كذلك، ثم مثل أجور من اتبعه وإلى غير ذلك من الفضائل.

إذا حصل هذا عند العبد وأنست نفسه به وانبعثت نفسه للعلم، فإنه ينظر بعد ذلك إلى سير العلماء الأولين، ينظر إلى سير علماء الأمة من الصحابة رضوان الله عليه إلى زماننا هذا.

فالنظر في تراجم أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم ينظر به ينظر المرء إلى أخلاق القوم وإلى سيرتهم وإلى أعمالهم فتنهض نفسه وتنشط بطلب العلم، يرى أهل الهمم العالية كيف لم يؤثروا الدنيا على ما عند الله جل وعلا، كيف لم يؤثروا الدعة والسكون على طلب العلم ونشره والحرص على ذلك ومعاهدة العلم وتكراراه وتعليم ذلك.

فإذا نظر إلى هذا ونظر في السير نشطت همته، وعلت رغبته أكثر وأكثر؛ لأن المرء إذا رأى أمثلة تمشي في هذا الأمر صار له من الدواعي أكثر مما لو كان الكلام نظريا ليس له أمثلة.

لهذا لابد من مطلعة تراجم أهل العلم، تراجم الصحابة رضوان الله عليهم، أنظر مثلا ترجمة ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، الصحابة الذين طلبوا العلم وكانوا صغارا في عهد النبي ﷺ، تجد أن في سرتهم من العجائب والتربية ما يبعث الهمة ويقوي العزيمة.

ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مكث مدة من الوقت على باب زيد بن الأرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تسفي عليه الريح والتراب يريد انتظاره متى يخرج حتى يسأله، فلما خرج زيد ونظر إلى إليه قال: ألا أخبرتنا أنك هنا يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا. أو كما جاء في القصة.

سيرة ابن عباس مع العلماء، مع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، كيف كان يخالطه، كيف كان يخاطبه، وله حقوق كثيرة عمر رضي الله عنه؛ لكن ابن عباس له في استفادته في العلم منه يعني من عمر معاملة خاصة أخذ منه علما كثيرا.

خذ مثلا في تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾[التحريم:٤]، من المرأتان اللتان تظاهرتا على رسول الله ﷺ؟ قال ابن عباس: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر فلم أجسر عليه، حتى كان في قفولهم من حجة حجها، قال: فلما صببت له الوَضوء سألته: من المرأتان؟ فقال عائشة وحفصة. يعني

أنه تحرىٰ المكان المناسب والزمان المناسب وأيضا انشراح صدر المعلم أو العالم حتىٰ يجيبه بالجواب المفيد في مثل هٰذا السؤال.

هكذا إذا نظرت إلىٰ سيرة التابعين من العلماء.

فإذن لابد لك يا طالب العلم لابد لك من مطالعة سير العلماء، بدون سير العلماء تخمد، ما تعرف الهمم، ما تعرف كم بذلوا، كيف الآن كيف رحلوا علىٰ أرجلهم أو علىٰ حمار أشهر طويلة، ومنهم من كابد الموت، ومنهم من كاد مشاق عظيمة، ومنهم من ذهبت نفقته، ونحن اليوم نتنقل في أحسن المراكب بالنسبة مراكب القوم، ونتصل بأسهل اتصال، ومع ذلك نشكو من الوقت أو نشكو من أشياء كثيرة.

فبمطالعة سيرة الأولين نعلم أنهم ساروا علماء بهمة بعد توفيق الله جل وعلا وبجهد وبجهاد.

الإمام أحمد ﵁ ورحمه من صلاح نيته في قوله وفي عمله أنه لما أراد الذهاب إلىٰ اليمن إلىٰ عبد الرزاق بن همام الصنعاني المعروف صاحب المصنف أراد أن يذهب إليه في اليمن رتب له وبعد الحج يذهب إلىٰ اليمن، فلما حج إذا بعبد الرزاق قال له صاحب الإمام أحمد: يا أبا عبد الله هذا عبد الرزاق، جاء الله به هيا نأخذ عنه العلم وقد كفينا الرحلة. قال أحمد: قد نويت النية علىٰ الرحلة فلن آخذ منه هنا شيئا سأذهب إليه في اليمن فذهب إليه في اليمن فحصل منه علما كثيرا لم يحصله من لقيه في مكة في أيام وليالي.

فإذن الهمة في طلب العلم كيف تكون؟ ليست هي نظرية، لابد من رؤية أمثلة لها، هذه الأمثلة هذه من تراجم أهل العلم، تنظر إلىٰ تراجم العلماء المشهورين وغير المشهورين، ومن أحسن الكتب التي تطالع فيها تراجم أهل العلم، كتاب «تذكرة الحفاظ» للحافظ الذهبي وكتاب «سير أعلام النبلاء» له أيضا، وغير ذلك من الكتب التي فيها ذكر التراجم، وهي كثيرة جدا يصعب حصرها، أو إحصاؤها في مثل هذا المقام.

أيضا مما يعتني به طالب العلم في المرحلة الثالثة في تنشيط نفسه لطلب العلم حتىٰ لا يغتر أن يكون دائم الاتصال بربه جل وعلا، وخاصة كلام الله جل جلاله، وطالب العلم الذي يغفل عن القرآن تلاوة وحفظا؛ بل حفظا قبل التلاوة، ثم تلاوة فإنه مجروح يعني قد أصيب -ليس مجروح في عدالته- يعني قد أصيب في نفسه لأنه بدون القرآن ما تسلم النفس لا تنشرح للعلم وللطلب لأن العلم ما هو؟ تفقه في كتاب الله جل وعلا وفي سنة رسوله ﷺ.

ولذلك أنا أعتب علىٰ كثير من الإخوة ممن لهم مدة طويلة في طلب العلم أنهم لم يحفظوا القرآن، إلىٰ متىٰ؛ لأن الشباب عمر سيذهب والزمن ينقضي، وقوة الذهن وقوة الحافظة والفراغ أسباب تعينك علىٰ حفظ كتاب الله جل وعلا، والقرآن ميسر ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾[القمر].

وطالب العلم إذا لم يحفظ القرآن فلن تأتيه الاستدلالات، إذا سمع استدلالات أهل العلم فلن يحفظ، هل يحفظ كل آية تمر به؟ العلم ما هو؟ العلم دليل من الكتاب أو من السنة أو من كلام الصحابة أو كلام أهل العلم، هٰذا هو العلم، فإذا لم يحفظ القرآن ولم يحفظ السنة؛ يعني يحفظ كثيرا من السنة.

تأتي مواضع الاستدلال فتفوته، لذلك تأتي كلمات يعوزها الحجة، يعوزها الدليل، الدليل نور كلام الله جل وعلا نور في صدرك وأيضا نور في الحجة والاستدلال.

إذن طالب العلم لا يليق به أن يكون غير حافظ لكتاب الله جل وعلا، فمن منَّ الله جل وعلا عليه بحفظ كتابه فليشكر الله جل وعلا علىٰ هذه النعمة التي وصفها الله جل وعلا في سورة العنكبوت بقوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾[العنكبوت:٤٩]؛ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، وهو نور كتاب الله جل وعلا الذي فيه الحجة فيه العظة وفيه العبرة، وأُنس العبد المؤمن أنس طالب العلم وحجته بلا كتاب كيف يحتج وبما يحتج؟ يكون دائما من أهل الرأي أو ممن يقل استدلالهم بالقرآن، إذا خطب خطبة إما أن تكون في آية أو لا تكون وإذا تكلم فيقل استدلاله بكتاب الله جل وعلا، هذا ضعف، لذلك طالب العلم كلما قوي حفظه لكتاب الله، وكأنه هو يتلو مواقع الاستدلال فإنه سيكون عنده وبينة حتىٰ يحتج للناس علىٰ نور؛ لأن كتاب الله جل وعلا معه.

إذن فلابد له من العناية بكلام الله جل وعلا حفظا ثم تلاوة وتعاهدا، ثم فقها، لابد من فقه القرآن الأحكام، يمر علي التفسير يمر علىٰ كتاب في أحكام القرآن ونحو ذلك فيعرف ما اشتمل عليه هذا الكتاب.

ثم العناية بسنة النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وسنة النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ -ولله الحمد- محفوظة في الكتب والعلماء المأمونون علىٰ نشر السنة وعلىٰ بيانه وبيان أحكمها وما اشتملت عليه ولله الحمد موجودون، فطالب العلم إذا حفظ منها ما تيسر فإنه يسهل عليه حينئذ أن يفهم معاني الأحاديث؛ يعني يحفظ «الأربعين النووية»، يحفظ في الأحكام: «عمدة الأحكام»، «بلوغ المرام»، يكرر ذلك كثيرا، يحفظه مرة واحدة، ثم إذا مثلا ما تعاهد وتفلت منه يكرر ذلك يمر عليه مثلا كل شهر مرة علىٰ البلوغ، يكون معه الأحاديث تكون معه، سنة النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، كذاك يكون مبتدئا إلىٰ أحاديث الجوامع التي أوردها مثلا النووي في «رياض الصالحين» يحفظ من الأبواب، النووي في كل باب تجد أنه يذكر الآيات من كتاب الله جل وعلا التي تدل علىٰ ما بوب له ثم يذكر الأحاديث، يتأمل طالب العلم يحفظ هذه الآيات ويحفظ الأحاديث أو شيئا، ويوطن نفسه بعد ذلك علىٰ ما معرفة العناوين، معرفة الأقوال؛ يعني يعرف الموضوعات؛ يعني يُصغي إلىٰ موضوع تدبر القرآن، ثم يضع في ذهنه كل ما مر علىٰ آية فيها التدبر وضعها في مكانها المناسب، إذا حفظ القرآن يسهل عليه، يبقىٰ المسألة لطالب العلم ترتيب فقط؛ يعني تجد أنه يستدل بخمس آيات ست آيات في الموضوع الواحد، ما يعوزه التذكر ولا الحفظ في ذلك، كذلك إذا كانت معه أحاديث كثيرة، فإنه ينتبه ففي الموضوع الواحد يجري عدة أحاديث في ذهنه حتىٰ تجتمع تحت الأبواب ثمان آيات والأحاديث ثم مع بعد ذلك كلام أهل العلم في بيان ذلك، فإذا رغب أن يتكلم في أي زمان وفي أي مكان لم يعوزه التحضير ولا يعوزه الجهد في الاستعداد ويبدأ والله جل وعلا يفتح عليه لم؟ لأن الآلات معه، معه القرآن ومعه السنة؛ يعني ما شاء الله جل وعلا من القرآن وما شاء من السنة، معه الموضوعات والعناوين، ثم يبين، والعلم ما هو النافع للناس؟ هو كلام الله جل وعلا وكلام رسوله ﷺ، ثم بيان أهل العلم لمعانيهما.

فالعلم كما قال الحافظ الذهبي:

العلـم قـال الله قـال رسـوله قـال | الصـحابة لـيس خلـف فيـه
ما العلـم نصبك للخلاف سفاهة | بـين الرسـول وبـين رأي فقيـه

أو كما قال ابن القيم في «نونيته»:

والعلـم قـال الله قـال رسـوله قـال | الصـحابة هـم أولـوا العرفـان
ما العلـم نصبك للخلاف سفاهة | بـين الرسـول وبيـت رأي فـلان

وقال في بيان العلم:

والجهـلُ داء قاتـلٌ وشفـاؤه | أمـران في التركيـب متفقـانِ
نـص مـن القـرآن أو مـن سنـة | وطبيـب ذاك العـالم الربانـي
والعلـم أقسـام ثـلاث مـا لـها | مـن رابـع والحـق ذو تبيـانِ
علـم بأوصـاف الإلـه وفعلـه | وكـذلك الأسـماء للديـانِ
والأمـر والنهـي الـذي هـو دينـه | وجـزاؤه يـوم المعـاد الثانـي
والكـلُّ في القـرآن والسـنن التـي | جـاءت عـن المبعـوث بالفرقـان
والله مـا قـال امـرُؤ متحذلـق | بسـواهما إلا مـن الهذيـان

في أول الأبيات قال:

والجهـلُ داء قاتـلٌ وشفـاؤه | أمـران في التركيـب متفقـانِ

يعني شيء واحد

نـص مـن القـرآن أو مـن سنـة | وطبيـب ذاك العـالم الربانـي

إذن طالب العلم إذا حفظ القرآن وحفظ من السنة ما حفظ يرتب نفسه علىٰ الأبواب يقرأ ويقرأ ويمر علىٰ الأحاديث ولم يرتب قلبه ولم يرتب عقله، لا، تعوزه الحجة، إذا أتىٰ موضوع ما تجد عنده بيان فيه؛ لكن يبتدر الجمع، ثم بعد ذلك يبدأ يرتب المعلومات التي في ذهنه، ويضع لنفسه عناوين.

موضوع مثلا التقوىٰ في الآيات التي فيه، آيات التقوىٰ في القرآن كثيرة، يرتبها، مثلا الأمر بها، درجات التقوىٰ، ثم يقول مثلا ثواب المتقين، آثار التقوىٰ في الدنيا، آثار التقوىٰ في الآخرة، وتكون معه في كل مقام في كل موضوع من ذلك يكون معه الآية الحديث في ذلك، إذا احتاج في أي مقام فإنه يقول ذلك.

مثلا طالب العلم ما يحسن يحتاج إليه يأخذ في يخطب يوم الجمعة فجأة غاب الخطيب، ما يستطيع أن يخطب يقول أنا ما استعديت طالب العلم في ذلك؛ لأن الذي ينبغي أن العلم يتحرك مع طالب العلم، يتحرك معه بمحفوظه، بما تحفظ، فإذا كانت المعلومات مترتبة فإنه يكون الأمر سهلا.

وكذلك إذا احتيج له في مجلس مثلا جلس وأراد أن ينفع الناس يتكلم بماذا؟ لابد أن يعرف ما ينفع الناس من الحديث في بعض المقامات تصلح الموضوعات العامة، العوام من أقاربه أو أمام من أهلك في بيتك أو نحو ذلك، تبدأ في الموضوع تذكر به، يكون فيه صلة عامة في ذكر مثلا التقوىٰ، التوحيد، وأصوله، وما يتصل بذلك، لابد يكون الموضع مرتب عندك...

الموضوعات مع أدلتها وكلام أهل العلم فيها مرتبا.

كثير من طلبة العلم من الشباب وممن مضىٰ عليه ومن له معلومات كثيرة، لذلك يستطيع يميز في كلام المتكلم، والله هذه كلام صحيح؛ لكن عنده معلومات ومحفوظات ولكن لم يرتب.

فإذن لابد لطالب العلم بعد حفظ القرآن والسنة أن يرتب، إذا رتب عقله في المعلومات رتب قلبه فيما يحفظ فيما يعلم تتكاثر مع الزمن شيئا فشيئا حتىٰ يكون عنده علم كثير وراسخ.

والعلم كما تعلمون يأتي شيئا فشيئا.

من مزايا الترتيب أن المعلومة لا تمر وتذهب، إذا جاءت معلومة جديدة تستقر في مكانها من القلب أو من العقل، أما إذا لم يرتب تأتي وتذهب، مرت عليه ونسيها، لكن إذا وطنت نفسك من الصغر علىٰ أن تكون مرتبا جاءت معلومة سمعت كلمة لأهل العلم وضعتها في موضعها، في الباب نفسها، في الفقرة نفسها، إذا قرأت شيئا مناسبا وضعته، إذا مرت بك لطيفة من لطائف العلم، فائدة من تراجم أهل العلم وضعتها في موضعها.

مرة مثلا تلقي كلمة تتذكر شيئا، يعني تأتي وأنت تتكلم تذكر أشياء كثيرة؛ لكن فيه أشياء ما تتذكرها وهي عندك؛ ولكن ما خرجت في ذلك، ولكن مرة أخرىٰ تخرج ويخرج غيرها.

وهكذا يكون طالب العلم في تجدد حتىٰ إنه يلاحظ بعض الأحيان أن المعلومات تتزاحم ويختصر لأجل أن لا يطيل علىٰ الناس، وهذا هو العلم، لذلك نرىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية مثلا فيما تقرؤون تتلاطم، المعلومات تتلاطم يطيل الاستطراد، أحيانا مجلدات ويقول يضيق المقام عن بسط هذه المسألة، لبسطتها في موضع آخر، لأن المعلومات تزاحمت جدا فما يستطيع أن يؤدي كل ما عنده في هذا الموطن، هو حقيقة العلم؛ ولكن يأتي شيئا فشيئا بعد الحفظ ويكون معرفة كلام أهل العلم ويكون ترتيب الموضوعات وترتيب المعلومات.

من الوصايا أيضا التي ينبغي أن يعتني طالب العلم أن يعتني بها وهي ذكرتها لكم قبل ذلك؛ لكن لابد من التأكيد عليها لابد يكون لطالب العلم كراس فوائد: الفوائد تمر، كثيرا ما تقرأ فائدة تمر، والفائدة ليس معناها أنها فائدة ضابط فقهي، ضابط في الحديث، ضابط كلمة نفيسة، لا، فائدة ممكن أن تكون حكمة، ممكن أن تكون سيرة من سير أهل العلم.

طالب العلم يحتاج إلىٰ تنوع الفوائد عنده في تفسير الآيات، فوائد في الأصول، فوائد في المصطلح، فوائد في طبقات الرجال، فوائد في العلل، فوائد في السيرة، فوائد متنوعة، كذلك هناك فوائد من الحكم من كلام الأدباء؛ لأنه سيستفيد منها يوما لتنشيط نفسه.

فإذن لابد من كراس الفوائد تضع تلك الفوائد، هذه الفوائد بعد حين إذا رجعت لها استذكرتها تجد أنك تستفيد منها، كلما رجعت إليها استفدت، منها أشياء علمية إذا علا مقامك وجد أنها واضحات، يكتب مثلا في أول طلبه للعلم شروط لا إله إلا الله، بعد مدة يقول هذه صارت عندي من الواضحات، يكتب مثلا تعريف الحديث المضطرب بعد فترة يكون عند هذا من الواضحات ما يحتاج أن يكتبه،

الفرق مثلا بين الحديث المرسل إرسالا خفيا والحديث المدلس، ما الفرق بين الإرسال الخفي والتدليس؟ تكون فائدة نفسية، وجدها ثم بعد زمن تكون معه واضحة، وهكذا في أنواع من العلم كثيرة.

إذن طالب العلم يحتاج إلىٰ كراس يجمع فيه ما يناسبه، آخر يجد أن الذي يناسبه في حكايات العلماء يناسبه مثلا فيهم مولده وفاته أشياء أخرىٰ مما يهتم به، كل واحد له ميول يجد فيه؛ لكن إذا جمع كراسا وجد أنه فيه حياته، حتىٰ إذا وجد ساعة أو ساعات في نفسه فيها ركود في طلب العلم أو يحب أن يستريح قلّب هذه الكراسة وجد فيها فوائد هو انشرحت نفسه؛ لأنه كتب هذه وفيها فوائد يعجب بلطائف وهي علم أيضا تذاكر العلم.

وما أحسن فعل ابن الجوزي لو استطعناه بعض الأحيان قال: وقد ابتليت بجماعة في صيد الخاطر بجماعة من البطّالين الذين يحبّون كثرة الزيارة، فإذا أتوا شغلت الوقت معهم فيما لا أحتاج معه إلىٰ ذكر، في تقطيع الورق أو بري الأقلام أو تسطيره أو نحو ذلك، وأنا معهم فيما يريدون، وهذا من استغلال الوقت واستغلال الزمان؛ لأن العمر قصير خاصة في فترة الشباب هي فترة التحصيل إذا فاتت كما قال عمر رضي الله عنه: تفقهوا قبل أن تسودوا. ويبدأ التسويد بالزواج، إذا تزوج المرء سيادته بدأ تسييده نوع من الوقت يذهب إذ جاء عيال واجبات شرعية لابد من أدائها تكبر أسرته وهكذا تفقهوا قبل أن تسودوا فيستفيد طالب العلم من فترة شبابه.

لذلك ينبغي لنا أن نحض أنفسنا علىٰ هذه الآداب التي هي في الواقع من صميم العلم لأنها وسيلته والوسائل لها أحكام المقاصد.

أسأل الله جل وعلا أن يجعلني وإياكم ممن منّ عليهم بالثبات علىٰ العلم النافع وأن يروي قلوبنا بالبصيرة وملازمة الكتاب والسنة وأن يجعلنا ممن يحبون أهل العلم وينفون عنهم ويدافعون عنهم.

وأسأله سبحانه أن يجعل علمنا حجة لنا لا حجة علينا وأن يقينا الشرور ومضلات الفتن إنه سبحانه جواد كريم، وأسأله جل وعلا أن يغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، وأن يبارك لنا في قليل أعمالنا وأن يرضىٰ عنا وعن آبائنا وأمهاتنا وولاة أمورنا وعلمائنا من له حق علينا إنه سبحانه جواد كريم.

كما أسأل المولىٰ جل جلاله أن يشفي مرضانا ومرضىٰ المسلمين، وأن يمن عليهم بالعافية. اللهم من كان له مريض منا فعافه، ومن كان له منا ضالا فالله فاهده إلىٰ سبيلك القويم.

اللّهمَّ نور بصائرنا وبصائر أحبابنا واشف مرضانا وسدد همومنا وهموم المهمومين، واقض ديوننا وديون المدينين إنك علىٰ كل شيء قدير.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الأسئلة]

سؤال (١): أرجو منك التوجيه لي في هذا الأمر وهو أني حفظت القرآن ولله الحمد منذ فترة، وطلب مني بعض الإخوة التدريس في القرآن والانشغال في ذلك ولكنني لا أدري أيهما الأفضل هذا الأمر أو الانشغال بطلب العلم لاسيما وأن كثيرا من الشباب أصبح هذا ديدنهم بعد حفظ القرآن تواصيا بتدريسهم وعدم طلب العلم إلا القليل؟

الجواب: يعني سيدرس القرآن ليلا ونهارا، ما يتعارض، يحفظ القرآن ويتعاهد القرآن، ويدرس جزاه الله خيرا، ويطلب العلم، الوقت أوسع من أن يضيق للعلم وتدريس القرآن، الوقت واسع يعني من يدرس القرآن من العصر إلىٰ أن ينام، ليس معقولا، لا يجد في الأسبوع وقت لطب العلم.

المهم الهمة والرغبة، إذا وجدت الهمة والرغبة فهو للأمر، الواحد في لحظة في نفسه، وكل منكم يلاحظ هذا الأمر، إذا سوىٰ واحد شيء يجد وقت أو لا يجد؟ يفضي نفسه، والله لإخوان بيروحون، والشباب يروحون كذا، يصرّف نفسه ليش إذا جاء العلم هربنا أو جاء حفظ القرآن إلىٰ سوىٰ شيئا وجد أسبابه ويسر لنفسه أسبابا أو إذا ما سوىٰ ضيق وما فيه إلىٰ آخره، والله جل وعلا محاسب كل عبده.

سؤال (٢): ما الطريقة في حفظ القرآن التي تسهل علىٰ الحافظ؟

الجواب: ذكر فيه رسالة انتفع بها منها وهي كانت بعنوان «قواعد الذهبية لحفظ القرآن الكريم»، لا أدري هل هي موجود مطبوعة من جديد، إذن ترجع إليها بعنوان «القواعد الذهبية لحفظ القرآن الكريم» نافعة للغاية.

سؤال (٣): هذا سؤال كثيرا ما يأتي: يقول أشكلت مسألة في طريقة العلم وهذه المسألة كيف نتدرج في مسألة حفظ المتون العلمية؟

الجواب: هذه أجبتها عنها إجابة مفصلة في مجالس مختلفة، وفيه شريط ونشره بعض الإخوة جزاهم الله خيرا أعانوا علىٰ نشره كان بعنوان «المنهجية في طلب العلم» هذا لعلك أن ترجع إليه.

والشيخ عبد الرحمن بن سعدي في أول الفتاوىٰ له سئل ما نصيحتك لطالب العلم لحفظ المتون فكتب عدة صفحات بكتابة متينة من عالم مجرب.

سؤال (٤): أنا أحفظ القرآن الكريم لكن مشكلتي أنني حينما أريد أن أستشهد يصعب علي إخراج الآية فما هو الحل؟

الجواب: أن تعرض الأبواب كم ذكرت لك ترف الأبواب ثم إذا مرت آية هذه الآية في الموضوع الفلاني؛ لأنه ليس المقصود من حفظ القرآن أن تهذّ تلاوته، المقصود التدبر والمقصود العلم بالقرآن ثم العمل به، هذا هو المقصود من إنزال القرآن، أن يعلم وأن يعمل به، فإذا كان العبد منّ الله عليه بحفظ القرآن فيعرف هذه الآية تصلح دليلا في التوحيد استدل بها أهل العلم في توحيد العبادة، هذه الآية في توحيد الربوبية وهذه الآية في التدبر، هذه الآية في التفكر، هذه الآية في الوضوء، الطهارة يرتب ذلك ويعينه الله جل وعلا.

سؤال (٥): يقول: الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله له كتاب في الحديث، هل سيرىٰ النور قريبا ويشرح؟ نرجو نبذة عنه.

الجواب: الكتاب هذا جمع فيه الشيخ رحمه الله ألف حديث تقريبا وأسماه «تحفة الحفاظ ومرجع القضاة والمفتين والوعاظ».

وهذه الأحاديث علىٰ نحو البلوغ يعني من أوله إلىٰ آخرة في كتاب الآداب، أوله في بدأ الوحي والنية في طلب العلم، ثم يدخل في الأبواب الفقهية، إلىٰ أن يختمه بكتاب الآداب؛ ولكنه جمع فيه ما في

الصحيحين أو في أحدهما فقط، وأخرج متونا رحمه الله مفيدة جدا في مسائل عديدة، يستدل بها من يستدل من العلماء السابقين بأحاديث في «سنن أبي داود» أو في «الترمذي» أو نحو ذلك وثم ألفاظ في الصحيح تنفع في الاستدلال في المسألة، فهو جمع ما يُحتاج إليه مما في الصحيحين أو في أحدهما وثم أحاديث قليلة مما صح في السنن ونحو ذلك وهي نادرة قد لا تبلغ في الجميع.

والكتاب يعمل عليه الآن، ونرجو أن ييسر الله جل وعلا إخراجه وإتمامه.

سؤال (٦): بعضهم يأنف ويَجْهد عن العلم بحجة أن يكون اللازم أن يكون الناس كلهم علماء وطلبة علم، ومن هم العلماء الذين يؤخذ عنهم العلم؟

الجواب: أنا ما أدري هذه الشيطان كيف يأتي للناس، الناس تبغونهم كلهم علماء، كم نسبة طلبة العلم صفر أو تؤول إلىٰ الصفر بلغة المهندسين؛ يعني إيش كم عدد طلاب العلم في العالم؟ قليل يعني طلاب العلم الصحيح إذا تكلموا في التوحيد تكلموا بجودة، إذا تكلموا في الفقه تكلموا بجودة، شرحوا السنة بينوا التفسير، هذا قلة، كيف يكون الناس كلهم طلاب علم، الآن إذا قيل: فلان يطلب العلم في سنين من حياته عسىٰ أن يرفعه الجهل عن نفسه ويعبد الله جل وعلا علىٰ بصيرة، فضلا أن يكون طالب علم يعلم، هذه تحتاج إلىٰ همة عظيمة.

فهذه من حجج الشيطان أو من تلبيساته علىٰ العبد ومن مصائبه.

الناس كلهم طلبة علم الآن كم عدد طلاب العلم؟ نعد في الرياض مثلا نعد مثلا ألف ألفين ثلاثة خمسة عشرة آلاف، طيب انظر إلىٰ الأماكن الثانية كم فيها؟ فيها مئات من الناس ما يعرفون من العلم شيئا.

فإذن إذا قلنا العلم وطلب العلم عسىٰ أنه ينتشر والناس الآن في ديانة طالب العلم اليوم أو العلم الذي يحمله طالب العلم اليوم الناس أحوج إليه من طعامهم وشرابهم، كما يقول ابن القيم، ذاك في ذاك الزمان الذي العلماء كثير، وليس ثم ملهيات عن طلب العلم فكسيف في زماننا هذا.

المتدينون ولله الحمد من الشباب كثرهم الله المهتم منهم لطلب العلم قليل ... وتديُّن الاستقامة والتامة إن شاء الله تعالىٰ أو بما قدر الله جل وعلا علىٰ قلتهم في مجموع الناس، طلبة العلم منهم كم؟ أو الذين يحرصون علىٰ العلم، ما ينبغي لأحد أن بعد أن سمع مثل هذه الفضائل لطلب العلم من مضاعفة الحسنات إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة ومغفرة سيئات ومن كثرة الحسنات إلىٰ آخره لا ينبغي أن يزهد في العلم.

والحقيقة أنا أخوف ما أخاف والذي دائما يشغل البال أن يأتي زمان نرىٰ فيه قول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور العلماء ولكن يقبضه من موت العلماء حتىٰ ما يبقىٰ عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**» فيه ناس الآن يسألون فيفتون بغير علم في مسائل الآن لو العلماء متوافرون وبدأ يكثر الآن خاصة مع الموجات الإعلام والصحف والتلفزيون والفضائيات صارت كل يتصدر ويبدأ يتكلم فيما يعلمون وفيما لا يعلمون.

والعجيب أن العالم الراسخ يسأل في المجلس ويقول لا أدري، وهؤلاء ما مر علىٰ أحدهم قال أحدهم لا أدري، يعني يعلم كل شيء مو معقول!! لهذا ينبغي الواحد يحس بهذا أعظم الجهاد اليوم هو الجهاد العلمي، أعظم الجهاد، أعظم الجهاد هو الجهاد العلمي، لأنك تحتاج إلىٰ العلم لأن تقول كلمة حق في موطنها، تحتاج إلىٰ العلم في أن ترشد الضال، تحتاج إلىٰ العلم في أن ترشد الضال، تحتاج إلىٰ العلم بالإحسان إلىٰ الخلق، تحتاج إلىٰ العلم في الدعوة، إلىٰ أين ما مشيت فأنت نافع فير ضار.

والناس الآن طلاب علم، أين طلاب العلم؟ هم قليل المسجد امتلأ وصار فيه الناس كثير، هؤلاء قليل، لو صار أهل الرياض جميعا مثلا طلاب علم ما أظنهم يكفون الأرض لو ينشرون الخير الصحابة رضوان الله عليهم حج مع النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ مائة ألف سمعوا حديثه كلهم صحابة، كم الذي نفع منهم؟ كم الذي نشر العلم في الآفاق والأمصار؟ انظر تجد أنهم قليل، فلذلك المسألة صعبة، والآن الزمان يحتاج إلىٰ مجاهدة كل واحد يحتسب الجهاد في سبيل الله أن تتعلم وتحفظ وتعلم وتراقب الله جل وعلا في ذلك.

المسألة ليست سهلة؛ بل الحقيقة إن المرء إذا فكر من العواقب من إهمال العلم في أصوله وإهمال طلب العلم وإهمال التعليم؛ لأن التعليم معناه نشر الدين، ما معنىٰ التعليم؟ نشر الدين، ما معنىٰ العلم معناه بقاء ما ورّثه النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ للناس، فإنّ الأنبياء ما ورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم وإذا انقطع العلم انتهت المسألة.

لذلك لا ينبغي لأحد بل لا يسوغ لأحد أن تؤثر عليه كلمات المثبطين، أقل ما تنتفع من العلم أنك ستنفي الجهل عن نفسك وتعرف العقيدة الصحيحة يكون قلبك سليم إذا ما أعطاك الله جل وعلا يعطيك الاستعداد لأن تكون طالب علم ينشط أكثر وأكثر تنفع نفسك وهذا فيه أعظم البركات، في أن تعلم العقيدة الصحيحة وتتعلمها، ومعلوم أنه من صحّ قلبه، صحت عقيدته صح إخلاصه صح يقينه فعبادته القليلة مباركة والله جل وعلا ينميها له.

أسأل الله جل جلاله أن يثبتنا وإياكم علىٰ دينه، وأن يقينا مضلات الفتن، وتلبيسات الملبسين، وألا يشغلنا عن العلم بغيره وأن ييسر لنا ما هو الأفضل أينما كنا إنه سبحانه مجيب الدعوة السائلين، وهذا إلىٰ لقاء إن شاء الله.

وفي هذا القدر ما يكفي هذه الليلة.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.